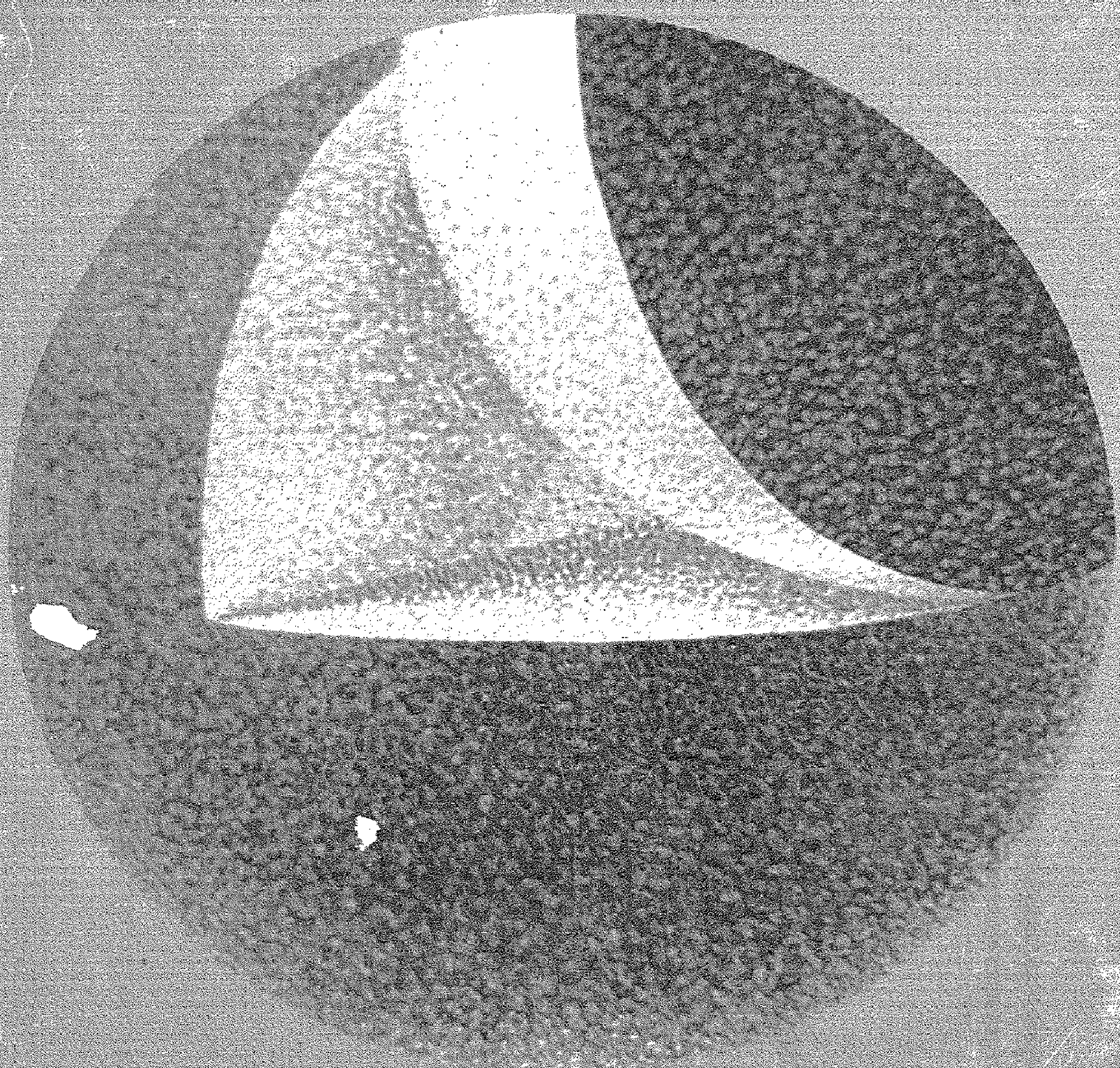
شؤون فلسطينية

٩٠ ايار (مايو) سنة ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٩٠ — ايار (مايو) سنة ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ص · ب
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ·
برقيا : مرابحاث ، بيروت ·
مدير التوزيع : غازي دانيال

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل·ل· في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل·ل· في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل·ل· في اوروبا ، ١٢٥ ل·ل· في بقية بلدان العالم ·

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل·ل· في جميع الدول غير العربية ·

الغلاف للفنانة
سامية الحلبي

المحتويات

الصفحة

الياس شوفاني

التقصير والمعاهدة ... وبعد !

التقصير

لقد قصرنا مرة أخرى ، ولنعترف بذلك · كانت الاولى في فلسطين ، وها هي الثانية في مصر ، ومن يدري اين ستكون ثالثة الاثافي ؟ ففي مصر ، كما في فلسطين ، حصل الذي كنا نخشاه ، ولا نصدقه · وهو امر خطير · ولم يحصل مصادفة ، وانما جاء نتيجة تخطيط وعمل دؤوب لتذليل جميع العقبات التي اعترضت طريقه ، وكانت كثيرة والحق ان الرئيس الاميركي ، جيمي كارتر ، صدق عندما وصف استراتيجيته لانجاز المعاهدة بين نظام السادات وحكومة بيغن ، بأنها كانت هجومية · امريكا ارادت الاتفاق ، وزاد الالحاح عليه بعد سقوط ايران الشاه ، فهجمت بكل زخمها ، وصمد بيغن ، وانهار السادات ، فانجزت المهمة ، وفقا للمصالح الاميركية ، وطبقا للمشاريع الاسرائيلية · وبالطبع ، على حساب المصالح القومية العربية والوطنية المصرية ، وعلى الخصوص ، « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ·

كنا نعلم ماذا تريد امريكا ، ونعرف ما تطالب به اسرائيل · وقلنا ان ما تقدمه اسرائيل لا يوازي الحد الادنى المطلوب عربيا لتمرير التسوية · وعليه ، فلا مجال لانجاز مثل هذه التسوية · وراهن الكثيرون منا على « وطنية » بيغن · ولكننا اخطأنا التقدير بالنسبة الى استعداد السادات لتقديم التنازلات ، وقدرته على تغطية ذلك ، على الاقل في مصر · واخطأنا في تقديرنا لتهافته على الارتباط بعجلة الرأسمالية الاميركية واستراتيجيتها الامبريالية · وأخطأنا كذلك

في تقديرنا لقدرة السادات على التغلب حتى على حيائه هو · والاخطاء كثيرة ، وهي اساس التقصير ·

عرفنا أنها ستكون « تسوية » اميركية ، وانه لا مجال في المعطيات الراهنة لسواها ، وقلنا ذلك مرارا وتكرارا · وقفنا نشاهد حلقاتها وهي تسير نحو انفراد اطراف الحلف بها : من الامم المتحدة ، الى مجلس الامن ، الى مؤتمر جنيف ، الى طائرة كيسنجر ، الى واشنطن ، فالى « كامب ديفيد » ، وقلنا لا تجوز · فاذا بها تنتهي الى خط العريش ــ بئر السبع ، وبينهما « سدوت » · تابعناها ، ورأيناها تتجاوز قرارات الامم المتحدة ومجلس الامن ، وتلتف حول مؤتمر جنيف ، وتستبعد الاتحاد السوفياتي ، ثم تضرب التضامن العربي ، وتقطع الطريق على منظمة التحرير الفلسطينية ، وتسير نحو الاتفاق الثنائي ، فتدخل عالم المؤمرات والسرية · وقلنا لا تجوز · وسارت المفاوضات تحت يافطة التسوية ، فاذا بها تنجلي عن حلف ·

أسأنا التقدير · وكان علينا أن نستقرىء المؤشرات ونستنبط النتائج ، فلم نفعل · وان فعلنا فانما بقدر ، ولكن دون التصرف على اساسه · كان علينا أن نستخلص العبرة من « اتفاقية سيناء » ، وربما قبلها ، منذ تعرقل فك الارتباط على الجبهة الاردنية عام ١٩٧٤ · ولكننا قصرنا ، وللتقصير ثمن · وكانت الحرب اللبنانية ، وجاءت مبادرة السادات لزيارة القدس ، ثم « كامب ديفيد » ، وقلنا حتى يوقع · وأخيرا وقع ، فماذا !

واليوم ، نواجه حلفا جديدا ، اصبح انجازه اكثر الحاحا بعد سقوط شاه ايران · وهو بجميع ملامحه ، حلف هجومي · بالمقابل ، هناك « مؤتمر قمة بغداد » ، واستطرادا له « مؤتمر وزراء الخارجية والاقتصاد العرب في بغداد »، فماذا ! هناك ، باعتراف الملك حسين ، ضغط اميركي على بعض الاطراف العربية للانضمام الى السادات · وعاد كارتر الى التلويح لمنظمة التحرير الفلسطينية بالحوار ، اذا قبلت هذه بالقرار ٢٤٢ · ولكن هل ترك كارتر من هذا القرار شيئا يمكن القبول به ؟ وهناك الكلام عن الادارة الذاتية ، كما يطرحها بيغن · وهناك الكلام عن امن مصر ، وتعرضه للخطر على حدودها الغربية والجنوبية ، وامنها القومي في حماية منابع النيل · واسرائيل تتحدث عن المخاطر التي يتعرض لها امنها على الجبهتين ، الشرقية والشمالية · وجنرالاتها يحذرون من أن لدول المشرق ،اذا اجتمعت ، قدرة قتالية ، تؤهلها للخوض في معركة مع اسرائيل ، حتى بدون مصر · والكتابة على الحائط ، بحروف كبيرة ، لا لبس فيها ·

في حرب تشرين ،كان « التقصير » الصهيوني · فقد ظنت القيادة الاسرائيلية ان العرب لن يجرؤوا على اتخاذ قرار الحرب ، وان فعلوا فستنقلب الامور عليهم · وانشغلت تلك القيادة بالاستيطان · وجاءت الحرب وهي تناقش وثيقة

غليلي» المشهورة ، حول مستقبل المناطق المحتلة · واليوم ، المنطقة على شفا انفجار الصراع بين المحورين اللذين تشكلا نتيجة لتوقيع المعاهدة · وهذه المعاهدة هي حلف · والاحلاف لا تقام عبثا · وحذار ان تفاجئنا اطراف هذا الحلف ، ونحن نناقش موضوع نقل مقر الجامعة العربية · وسنرتكب خطأ كبيرا اذا اعتقدنا أن السادات ، وقد وقع « حلف الخيانة » ، سينكفيء على نفسه ، وينصرف لتفادي ما قد تفرضه عليه القوى المناوئة من عقوبات · والخطأ الاكبر الاعتقاد بأن بيغن ، بعد « ابتلاع » مصر ، سيصاب بالتخمة ، بينما الواقع ان ذلك انما فتح شهيته · والذي حصل بين السادات وبيغن ليس « تسوية سلمية » ، ولا يمكنه أن يكون كذلك · وهو ليس حلفا دفاعيا ، تجمعت اطرافه المستضعفة للدفاع عن نفسها ، ولا يمكنه أن يكون كذلك بعد سقوط ايران الشاه ، وانما هو حلف هجومي ، التقت اطرافه على العدوان على سلام شعوب المنطقة وأمنها · وبطبيعته هذه لا يدع مجالا للتعايش السلمي مع القوى المناوئة له في المنطقة ، قبل أن تنضوي هذه تحت لوائه · وعليه فلا يبقى امام هذه القوى الا التصدي له ، او الاستسلام لاملاءات اركانه · ومهما يكن من امر ، فلا بد من الصدام بين هذين المحورين ·

« اميركا ـ اميركا »

ما كان يمكن لهذه المعاهدة أن تجوز دون السادات · ومع أن هذا ليس وحيدا من نوعه في عالمنا العربي ، ولكنه يتميز عن اترابه فيه بتهافته الرخيص على « اميركا » ، وبضعفه ازاء اغراءاتها · ويصعب ايجاد مبرر منطقي لتصرفه في « مفاوضات التسوية » ، سوى سعيه المستميت للارتباط باستراتيجية الرأسمالية الاميركية للهيمنة على المنطقة · وازاء هذا الهدف ، هانت على السادات كل الاعتبارات الاخرى ، قومية كانت أم وطنية · لقد انحاز السادات الى واشنطن بدعوى انه انما يستعين بها على تطويع اسرائيل · وداهن السادات الادارة الاميركية ، فوضع « ٩٠٪ من الاوراق » في يدها ، وطالبها بأن تبقى « شريكا كاملا في المفاوضات » · وقد مرر ذلك بحجة انه ينوي احداث شرخ بين واشنطن واسرائيل ، وقيل عن نية السادات تلك الشيء الكثير · ومضى السادات في خطه ذلك بتشجيع كبير من اطراف عربية عدة · فاذا به يجد الا مناص له ، ان هو اراد أن يحظى بقبول في واشنطن ، من أن يعقد حلفا مع اسرائيل · فقد كان هذا رسم الدخول في « النادي » · وطريق واشنطن حملته الى القدس ، كما أن الارتماء في احضان امريكا فرض عليه التحالف مع بيغن · والجدير بالتنويه انه يعتبر ما فعله انجازا ضخما يؤهله لدخول التاريخ من اوسع ابوابه · وهو لا

يعتقد انه في موقع الدفاع عما فعلت يداه ، وانما يتهم المعارضين لنهجه بالعداء لمصر ، وبالتالي يجاهر بضرورة التصدي لهم وضربهم ٠

لقد سعى السادات الى المعاهدة بكل قوته ٠ وسواء تمت كما تصورها مسبقا، ام انها جاءت على غير ما تمناه ، فانه بعد الخوض في المفاوضات عليها ، لم يدخر طاقة في العمل على انجاحها ٠ والواقع انه لولا السادات لما جازت المعاهدة ٠ فأطراف الصراع في منطقتنا ، سواء منهم القوى الوطنية العربية ام الصهيونية ، غير مهيئين بعد لتسوية سلمية ، على الاقل ليس في المرحلة الراهنة والظروف المعطاة ٠ فكم بالحري الذهاب الى حد توقيع معاهدة ، تضع طرفا عربيا مركزيا كمصر ، في نفس المعسكر مع العدو القومي ، ناهيك عن التحالف معه لتطويع القوى الوطنية العربية ٠ من هنا ، يبرز السادات كظاهرة نابية في الامة العربية ٠ والواقع أن ولادة هذا الحلف كانت عسيرة ، استغرقت خمس سنوات واكثر من المخاض الصعب ٠ وفي الطريق اليه ، تعرضت المفاوضات عليه للانهيار مرارا ٠ وفي كل مرة اشرفت فيه تلك المفاوضات على الفشل ، انبرى السادات وتطوع لانقاذ الموقف ، ولا خراج الاطراف من ازمة علاقاتها وعقدة اتخاذ قرارها ٠ واللغز في تصرف السادات ذلك ، لا يكمن في حبه لوطنه، كما يدعي ، اذ فرط فعلا بمصالح ذلك الوطن ومواطنيه ٠ وكذلك لم يكن دافع السادات اعجابه مناحيم بيغن وحكومته ، فالظاهر أن الرجلين لا ينسجمان تماما، كما انسجم السادات مع كيسنجر او كارتر ٠ والسادات لا ينفك يبدي ضيق ذرعه بمواقف اسرائيل ٠ ولا يبقى الا التقدير بأن حوافز السادات تنبع من تهافته على امريكا ٠ وتكفي بعض الامثلة للتدليل على ذلك ٠

في العام ١٩٧٤ ، بعد فك الارتباط الاول على الجبهتين ، المصرية والسورية ، توجهت الانظار نحو الاردن ٠ وكان ذلك طبيعيا في سياق الكلام عن تسوية سلمية شاملة للصراع في المنطقة ، كما قيل في حينه ، وسرعان ما تبين ، عند بدء المفاوضات على هذا الصعيد ، أن الحكومة الاسرائيلية ، بزعامة رابين ، لم تكن تجرؤ على فتح ملف الضفة الغربية وقطاع غزة ، ناهيك عن الخوض في الكلام عن حل للقضية الفلسطينية ٠ وبضعفها الداخلي ، كانت حكومة رابين اعجز حتى عن اتخاذ قرار بشأن « فك ارتباط وظيفي » ، بمعنى ايماءة حسن نية تجاه الملك حسين ، تشجعه على اللحاق بركب التسوية ، وتعطيه لذلك تغطيته ولو جزئية ٠ وقدر رابين ، وكان مصيبا في تقديره ، أن خوض معركة مع الادارة الاميركية من موقع التصلب ، اسهل عليه من فتح باب الصراع الداخلي ، حتى ولو بدعم امريكا ٠ ووصلت المفاوضات الى طريق مسدود ٠ وبكى كيسنجر ٠ وحققت منظمة التحرير الفلسطينية مكاسب سياسية ضخمة ، في مؤتمر الرباط وكذلك في الامم المتحدة ٠ فكانت الحرب اللبنانية ٠ وصرف النظر عن « القضية الفلسطينية » انتظارا لما ستتمخض عنه الحرب في لبنان ٠ وتقدم السادات بطرح

فكرة « اتفاقية سيناء » فقبلت بها اسرائيل · وخرجت المفاوضات من ازمتها ، وتقدمت خطوات نحو هدفها : الغاء مؤتمر جنيف ، استبعاد الاتحاد السوفياتي، احداث شرخ في التضامن العربي ، مزيد من الاقتراب نحو اسرائيل ، وبالمقابل الابتعاد عن منظمة التحرير الفلسطينية · والاهم ان السادات قدم برهانا جديدا على أهليته للدخول في الحلف الجديد ·

وفي العام ١٩٧٧ ، عندما اقتربت اتفاقية سيناء من نهاية اجلها ، وكثر الكلام عن مصير التسوية اذا انقضى اجل الاتفاقية ، والمفاوضات تواجه طريقا مسدودا · وعندها كان كارتر قد خلف فورد في الحكم ، وتنحى كيسنجر عن رعاية المفاوضات · وكان بيغن قد تسلم الحكم في اسرائيل ، خلفا لرابين ، واعتمد موشيه دايان وزيرا لخارجيته · وكذلك فقد خفتت اصوات القذائف في بيروت · وعادت الاطراف الى الحديث عن عقد مؤتمر جنيف مجددا ، وعاد ظل التضامن العربي والاتحاد السوفياتي يتابع السادات في تفكيره عن جنيف · وانعقدت الدورة الثانية والثلاثون للامم المتحدة · وصدر البيان الاميركي ـ السوفياتي المشترك · وجاء على ذكر الفلسطينيين فثارت اسرائيل واعوانها في امريكا على البيان ، مما اضطر كارتر الى التراجع عنه ، واستبداله بورقة العمل الاسرائيلية ـ الاميركية · ولكن هذه لم تكن سوى صيغة اجرائية لعقد مؤتمر جنيف مجددا ، حيث سيعود الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المفاوضات ، وربما يبدأ العرب المفاوضات بوفد موحد ، يضم فلسطينيين ، ولم يكن السادات يريد ذلك · فبادر الى زيارة القدس ، ملغيا كل ما سبق من اجراءات ، وواضعا المفاوضات على مسار مختلف تماما ، لا يسع احدا غيره من العرب الانضمام اليه · فاخرج حكومة بيغن من مازق علاقاتها بادارة كارتر ، واخرج هذه الاخيرة من مازق احراجها ازاء الاتحاد السوفياتي ، خاصة بعد تجاوز البيان المشترك · واثبت مرة اخرى استعداده للذهاب الى ابعد الحدود من اجل ان تقبل به امريكا وكيلا ، ولو صغيرا ، في المنطقة · واستقال احتجاجا على مبادرة السادات تلك ، وزير خارجيته ، اسماعيل فهمي · فحتى هذا الاخير لم يستطع ابتلاع تصرف السادات ·

ولكن مبادرة السادات سرعان ما بهتت ، وفقدت قوة دفعها · فبعد لقاء القمة في الاسماعيلية ، حيث قدم بيغن مشروعه للانسحاب من سيناء ، مع الاحتفاظ بشريط منها على طول الحدود الدولية بين مصر وفلسطين ، يمتد على طول ساحل خليج العقبة الى شرم الشيخ ، ومشروعه للادارة الذاتية لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة من الفلسطينيين ، اندلع الخلاف بين اطراف المفاوضات · وقد فشلت الادارة الاميركية في زحزحة بيغن عن مواقفه ، بحيث يتيح للسادات مجالا لتغطية تنازلاته · فدعا كارتر الى عقد مؤتمر « كامب ديفيد » · ويستفاد

من المعلومات المسربة ، كما من بنود اتفاقي الاطار ، اللذين صدرا عــن المؤتمر ، ان السادات انقذ الموقف مرة أخرى ، بعد أن خيم جو الفشل على المؤتمر · وفي « كامب ديفيد » قبل السادات موقف بيغن القائم على مبدأ « التنازل » عن سيناء كلها ، مقابل « تنازل » السادات عن موقفه مــن القضيــة الفلسطينيــة ، وقبــل مشروع بيغن للادارة الذاتيــة ، وتقــدم خطــوة كبيــرة أخــرى نحو الحلف مع اسرائيل ، رغم اصرار هذه على انتزاع تنازلات منه ، تتعلق بالسيادة المصرية ، وبموارد الثروة فيها ، ناهيك عن علاقات هذه بالدول العربية ، وبمنظمة التحرير الفلسطينية على وجه الخصوص · وفي هذه المرة ايضا ، استقال وزير خارجيته البديل لاسماعيل فهمي ، محمد كامل ، احتجاجا على تصرفه في المفاوضات ·

ولكن ، رغم كل ما قدمه السادات في « كامب ديفيد » من تنــازلات ، وربمــا بسببه ،ظل بيغن يتصلب في مواقفه ، ويزيد من طلباته ، سواء من مصر ام من واشنطن · فافشل مفاوضات « بلير هاوس » ، بعد ان قيل ان الاتفاقية جاهزة ، وان المشاكل المتبقية طفيفة ، ولا تعدو كونها مسألة صياغات · وازاء امكــان انهيار المفاوضات ، وبالتالي فشل « كامب ديفيد » ، وما قد يترتب على ذلك من عودة الى « مؤتمر جنيف » ، وربما الى مجلس الامن ، تحرك كارتر ، وقــام برحلته الاخيرة الى القاهرة والقدس · واخفق كارتر في حمل بيغن على تلبيــة الحد الادنى المطلوب للسادات · وهذا ما تؤكده وقائع زيارة كارتر ، اضافــة الى ما تقوله ، وقالته ، وسائل الاعــلام ، المحليــة والدولية ، خاصة الاميركية منهــا · وخرج كارتر من مطار اللد عائدا الى واشنطن ، على ان يتوقــف في القاهرة لوضع السادات في صورة آخر ما توصل اليه في محادثاته مــع حكومة بيغن ، ويعرض عليه شروط بيغن التي قدمها في لقائه الاخير مــع كارتر ، صباح يوم مغادرة كارتر · وكان بيغن قدم شروطا تعجيزية ، كان على علم ان السادات يرفضها ، بناء على معرفة موقفه في المفاوضات السابقــة ، واملا في ان يلقي تبعة الرفض ، خاصة أمام الرأي العام الاميركي ، علــى السادات · وكان بيغن يتوقع ان ينفجر خلاف مع ادارة كارتر ، واراد ان يتسلح لمعركته ، والتي كان يتوقع ان تدور في واشنطن ، برفــض السادات · ولكــن السادات وفر على الجميع مؤونة الجهد ، وفاجأهم بقبوله شروط بيغن ، وانتهى الامر الى توقيع المعاهدة · وبهذا استحق السادات ، وعن «جدارة» ، اللقب الذي منحه اياه كارتر ، حيث اسماه « بطل السلام » ·

المعاهدة سقف السادات

سؤال يطرح احيانا ، الم يكن باستطاعة السادات تحسيــن شروط الاتفــاق ؟ ويقول البعض بانه لم يكن بحاجة الى تقديم كل هذه التنازلات ، من اجل الوصول

الى اهدافه كما ارادها ، خاصة بعد ان ثبت مواقعه في واشنطن ، وبالتالي فقد « كان صيده جرادة » · وفي تقديري ، اخذا بالاعتبار تهافته على الارتباط بامريكا ، وبالتالي اصراره على استبعاد الاتحاد السوفياتي من جهة ، وضعف ادارة كارتر وصلابة الموقف الاسرائيلي بقيادة بيغن من الجهة الاخرى ، انه لم يكن بالامكان ان يحصل السادات شروطا افضل في مفاوضات على « تسوية سلمية » ، بموازين القوى الحالية في المنطقة ، وبمواقف عربية بهذا الوهن العام · ولربما صدق السادات في تبجحه بانجازاته ، وفي تحديه بقية الاطراف العربية المناوئة له في ابراز قدرتها على انتزاع شروط افضل للتسوية ، كما كرر ذلك مرارا ، وكما تبعه رئيس وزرائه مصطفى خليل ، استطرادا ، باعلانه استعداد مصر السير وراء الطرف العربي الذي يستطيع تحقيق ذلك · واذا كان السادات ، على رأس مصر ، بكل ثقلها العربي ، وما لها من ميزات ، سكانية ، واقتصادية ، وجغرافية ، وسياسية ، ناهيك عن اغراءات عزلها عن المشرق العربي ، وحصرها في افريقيا ، واخراجها من دائرة الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، لم يستطع ، من خلال المفاوضات ، ان يحصل من حكومة بيغن اكثر مما تم الاتفاق عليه في المعاهدة ، فما شأن غيره من الاطراف العربية ، التي لا تملك ما لديه من اسباب القوة ، ان هي سلكت طريق « التسوية الاميركية » · وفي تقديري ، ان السادات قد وصل السقف في تحسينه لشروط التبعية لواشنطن واسرائيل ، من خلال « المفاوضات على تسوية سلمية » · من هنا ، صلافته في تحديه اطراف « مؤتمر بغداد » وقراراته ، كما ظهرت في خطابه الاخير امام مجلس الشعب المصري ، واغراقه في الاستهتار بمشاعر الجماهير العربية عامة ، والفلسطينية خاصة ، وتجاوز كل حد في خداعه لقطاعات واسعة من الشعب المصري ·

لقد دخل السادات المفاوضات على التسوية ، منطلقا من تقديره لنتائج حرب تشرين ، ومعتقدا ان « انتصاره » فيها يؤهله لموقع مرموق في الاستراتيجية الاميركية · وراح يجمل نفسه في اعين واشنطن · وفي اطار عملية التجميل تلك ، كان لا بد له ان « يطهر » نفسه اولا من جميع « الشوائب » · ففي امريكا لا يستحسنون « الشيوعية » ، فعمد الى طرد الاتحاد السوفياتي من مصر · وهناك لا يستسيغون كلمات مثل « الثورة » ، « حرب التحرير » ، « استقلال » ، « وحدة » ··· الخ ، فتخلى عن تلك المفاهيم جملة وتفصيلا · وفي امريكا يؤمنون بالمبادرة الفردية ، وبالتنافس الاقتصادي الحر، فخنق السادات «القطاع العام » ، وترك الحبل على الغارب لـ « الانفتاح الاقتصادي » · وفي واشنطن يمجون الحديث عن « الجماهير » ، « الفقراء » ، « الكادحين » ··· الخ ، فتقولب السادات حسب الطلب · وفي المفاوضات ، سلم السادات جميع اوراقه، ووضعها كلها في ايدي امريكا ، فلم يبق له الا الامل في رأفة امريكا ، وشفقتها

عليه · وانقلبت المفاوضات ، كما ادارها ، من محاولة لتحسين شروط التسوية، الى استجداء لتلطيف شروط التبعية · ولما كانت « التسوية » مع اسرائيل شرط دخوله « النادي » في واشنطن ، اصبح السادات يحرص على انجاح المفاوضات حرصه على الارتباط بالاستراتيجية الاميركية ، فغدا اكثر اطراف المفاوضات حماسا لاستبعاد الاتحاد السوفياتي ، وتفانيا في الالتفاف حول مؤتمر جنيف ، وطمعا في التلخص من عبء التضامن العربي ، وما يترتب عليه من مشاكل ، ولو اجرائية ، تعيق تقدمه نحو هدفه · و « التسوية » لا تجوز الا مع طرف آخر ، وعليه اصبح على السادات ان يرعى مسألة بقاء شريكه المفاوض في اللعبة ، فكان لا بد من ارضائه · هكذا خلق دخول السادات المفاوضات مع اسرائيل بهذه المنطلقات ديناميكية خاصة ، انتهت به ، دون ان تكون له القدرة على التحكم بمسارها ، الى القدس ، ومن ثم الى « كامب ديفيد » ، فالتوقيع · واستطاعت القيادة الاسرائيلية ، خاصة بعد صعود بيغن الى الحكم ، استغلال نقاط الضعف في مواقف السادات وتوجهاته الى اقصى الحدود · فكان التهديد بالعودة الى جنيف مثلا ، او التظاهر بان لا الحاح في انجاز الاتفاق ، والايحاء بأن المفاوضات يجب ان تطول شهورا ، بل سنين ، اسوة بما جرى في حالات مشابهة ، وربما اقل تعقيدا ، كافيا لارهاب السادات ودفعه الى تقديم تنازلات · وبعد ان قطع هذا شوطا على الطريق ، لم يعد أمامه الا السير فيه الى آخره ، فانتهى الى القدس ، ثم الى المعاهدة بشروط اسرائيل ، واصبح التعامل بينهما على خط العريش ـ بئر السبع · فالسادات بتهافته على امريكا ، واهتزاز موقفه العربي ، وخطورة اوضاعه الداخلية ، ما كان ليحظى باكثر مما حصل عليه في المعاهدة ، وان في تجربته لعبرة ·

بالمقابل ، دخلت اسرائيل المفاوضات من موقع القوة ازاء السادات · كانت بيدها الاوراق الاساسية : الارض ، اقدمية العضوية في « النادي » ، افضلية الموقع في المركز الامبريالي ، واسبقية « الوكالة » · وبينما كان السادات هو الطارىء على الساحة الاميركية ، كانت اسرائيل هي الاصيلة فيها · وبينما احتفظت هذه بجميع اوراقها ، واستغلتها الى اقصى الحدود ، افرغ السادات يديه في بداية الشوط · وحتى ضعفها الداخلي احيانا ، جندته حكومة رابين مثلا في مساومتها مع الادارة الاميركية ، وفي تكتيك مفاوضاتها مع السادات · وفي اكثر من مرة ، سخرت القيادة الاسرائيلية اللعبة الديمقراطية في الكيان لخدمة تكتيكها في المفاوضات ، ونجحت بذلك ، فخرجت بعبرة ان التصلب ، ورفض الرضوخ للضغط ، يقويان مركزها داخليا ، خاصة بعد ان اكتشفت مدى اهتمام كل من مصر والولايات المتحدة بتحاشي الجمود في مسيرة التسوية ، خشية ان يؤدي ذلك الى استئناف المفاوضات في مؤتمر جنيف ، حيث يدخل الاتحاد السوفياتي شريكا في رعاية المؤتمر ، على قدم المساواة مع امريكا ·

وفي بداية المفاوضات ، تقدمت حكومة رابين (المعراخ) بتنسيق مسبق لكل خطواتها مع واشنطن · وعندما حشرت في مازق « فك الارتباط » مع الاردن ، فضلت حكومة رابين الخوض في معركة مع الادارة الاميركية ، والتهديد بالاستقالة ، مما يترتب عليه تجميد المفاوضات لعدة شهور ، على فتح معركة داخلية في المؤسسة الحاكمة ، فنجحت في حمل واشنطن على صرف النظر عن الجبهة الاردنية ، وفي دفع السادات الى طرح فكرة « اتفاقية سيناء » · اما بيغن فقد اعتمد سياسة « حافة الهاوية » مع ادارة كارتر ، وابدى استعداده لفتح معركة مع الادارة الاميركية في واشنطن ، مستعينا بجميع القوى المساندة له هناك · ومنذ توليه السلطة في ايار (مايو) ١٩٧٧ ، والى توقيع المعاهدة ، قام بيغن بسبع رحلات الى العاصمة الاميركية ، وفي كل مرة ، كان مستعدا لدفع الامور الى حافة التفجير ، فنجح في تحقيق اهدافه ·

وفي المفاوضات ، سرعان ما كشف الطرفان ، واشنطن واسرائيل ، مواطن الضعف في موقف السادات ، فركزا ضغطهما عليها ، وتناوبا المهمة · وعندما تحقق كيسنجر من تهافت السادات على امريكا ، مناه بالوصول ، ولكن بعد زمن ، وخطوة ـ خطوة · اما اسرائيل فطرحت مقولة ان الفجوة بين ما تعتبره اساسا صالحا للتسوية وما تطالب به القاهرة واسعة ، الى حد انه لا يمكن ردمها دفعة واحدة ، وليس في فترة زمنية قصيرة على الاقل · وتقدمت هي بمشروع التسويات المرحلية ، بينما تولى كيسنجر الاخراج والايقاع · وقبل السادات بذلك ، بعد ان كان موقفه يقوم على مبدأ عقد مؤتمر في جنيف ، يصار فيه الى حل جميع المشاكل دفعة واحدة · وكذلك ، فكراهية السادات للاتحاد السوفياتي لم تكن خافية على احد · وما ان ألمح له ان وجود خبراء سوفيات فيمصر امر غير مرغوب فيه ، ان هو اراد الارتباط بامريكا ، حتى سارع الى طردهم منها · وتمنطق السادات للهجوم على الاتحاد السوفياتي ، في كل مناسبة وبغيرها · وعندما استشرى عداؤه لموسكو ، استغلت اسرائيل ، وبنجاعة كبيرة ، فزاعة العودة الى جنيف ، ورجوع الاتحاد السوفياتي الى المشاركة في رعاية المفاوضات ، لارهاب السادات ، وحتى الادارة الاميركية احيانا · ووعت القيادة الصهيونية ضيق ذرع السادات بالتضامن العربي، خاصة التنسيق مع سوريا ، والى حد كبير الانضواء تحت لواء السعودية ، فجعلت ثمن التفاوض مع العرب مجتمعين غاليا الى حد ان اعتبر السادات تجاوز ذلك التضامن انجازا كبيرا · ولم يكن صعبا اكتشاف عدم اكتراث السادات بالفلسطينيين وثورتهم ، فلوحوا له بتنازلات في سيناء مقابل تخليه عن مواقفه من « قضية الشعب الفلسطيني وحقوقه المشروعة » ، فلم يستطع مقاومة الاغراء · وعندما اصبح التقدير بأن لا ضير من قفز السادات فوق السعودية، اعطوه الضوء الاخضر ، ففعل · وبعد كل هذا ، صار الطريق الى الحلف مع

العـدو القومي اقصر على السادات ، وربما اقل كلفة ، من العودة ادراجه الى نقطـة البداية ٠

في المفاوضات ، كانت اسرائيل تثمن جيدا موقعها في الاستراتيجية العالميـة للامبريالية الاميركية ٠ وكان لحجتها على هذا الصعيد مصداقية كبيرة ٠ وليـس عبثا ان يقول رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست الاسرائيلي ، موشيه ارنس ، ان ما تقدمه اسرائيل للغرب ، لا تستطيع اية دولة اخرى في الشـرق الاوسط تقديمه له٠ واذا كانت هناك بعض القوى الرأسمالية في امريكا، حاولت الانتقاص من موقع اسرائيل ذلك ، او الطعن في مبرر الخصوصية التي تحظـى بها اسرائيل هناك ، او في فرادتها في العلاقة مع البلد الام ، فقد اثبتت اسرائيل ان لديها من القوة في الساحة الاميركية ، ومن الدعم من قـوى اقتصاديـة وسياسية أخرى ، ما يمكنها من التصدي بنجاح للتيار الداعي الى اعتماد بعض النظم الحاكمة في العالم العربي ، وكلاء الى جانب اسرائيل ، حتى وان ليس على نفس المستوى ، ومن ردعه وكبحه ٠ والواقـع ان السادات بانحيـازه الى واشنطن ، اصبح منذ حرب تشرين على الاقل ، في نفس المعسكر مع اسرائيـل، وبالتالي على اتفاق معها على عدة مسائل جوهرية ، كما صرحت بذلك اطراف المعاهدة ، بمن فيهم السادات ، مرارا ٠ والواضح ان السادات ، اذا كانـت راودته احلام منافسة اسرائيل على موقعها في واشنطن ، ولو لفترة ما اثنـاء المفاوضات ، فانه لم يلبث ان صحا من غفوته ، وسبر غوره فعرف قدره ٠ ومنذ ولاية كارتر على الاقل ، اخذ موقف السادات يبرز بتقبلـه لطروحـات الادارة الاميركية بشكل كامل تقريبا ٠ وبالمقابل، بدأ يتضح ان حكومة بيغن هي المتصلبة، وهي التي تساوم على كل صغيرة وكبيرة ٠ وفي النهاية حصل بيغن على كل ما اراده من السادات وكارتر ، فامضى المعاهدة ٠ والظاهر ان اطراف المعاهـدة كانت متفقة الى حد كبير على ما تعتبره الجوهر : مفاوضات برعاية الولايات المتحدة وحدها ، ومن اجل ابرام معاهدة تخدم مصالحها اصلا ، استبعـاد الاتحاد السوفياتي من مفاوضات التسوية ، وبالتالي تقليص نفوذه في المنطقة ، الالتفاف حول قراري مجلس الامن ، ٢٤٢ و ٣٣٨ ، وبالتالي على مؤتمر جنيف، ضرب التضامن العربي ، وبالتالي اضعاف قدرة الدول العربية على المساومة ٠ هذا ناهيك عن الاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني ، وما يترتب عليه من تخـل عن الاهداف القومية العربيـة والوطنيـة الفلسطينيـة ٠ وللحق ان السادات لم يكن يتميز عن كثيرين غيره في عالمنا العربي ، على هذا الصعيد الاخير ٠ وعلى العموم كان السادات لا يختلف عن هؤلاء كثيرا في عزمه على انهاء « الصراع القومي » ، بالاعتراف بشرعية الكيان الصهيوني ، والتحول الى ضرب كل ما هو وطني في المنطقة ، تحت غطاء « مقاومة النفوذ الشيوعي » ، ولم يجد حرجا في التخلي عن الاهداف القومية فيالاستقلال والوحدة ، على اقل تقدير ٠ ولكنـه

ذهب الى ابعد من ذلك بدخوله في حلف مع العدو القومي ، على ارضية مشاريع هذا الاخير ، ووفقا لمصالحة واهدافه ، وفي سبيل ذلك الحلف ، لم يجد السادات حرجا في النزول عند رغبات شركائه فيه ، بما فيها ضرب الثورة الفلسطينية ، وتصفية منظمة التحرير الفلسطينية ، وتجاوز قرارات الرباط وغيرها ، والعمل على تفسيخ الشعب الفلسطيني وحركته الوطنية ، وتمزيق وحدة نضاله ومصيره · وهذا هو الاساس · فعلى ماذا الخلاف اذن ولماذا تعرقلت المفاوضات ، وظلت تراوح في مكانها خمس سنوات واكثر ؟

في تقديري ، ان الخلاف بين اطراف المعاهدة ، دار اساسا حول مسألة تقسيم المغانم من « التسوية » ، وحول اخراج التخلي عن « الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ، كما شكل الالتفاف حول قرارات الامم المتحدة ومؤتمر جنيف بعض الاشكالات ، خاصة الى الولايات المتحدة · وكما ورد اعلاه ، من تثمين اسرائيل لموقعها في الاستراتيجية الاميركية، وتقديرها ان مبرر الخصوصية التي تتمتع بها في واشنطن انما يعتمد على الفرادة التي تتميز بها اسرائيل عن اية دولة اخرى في الشرق الاوسط، ولو كانت موالية تماما لواشنطن ·وعليه، فان اسرائيل ترى في العلاقة الخاصة القائمة مع امريكا ، عنصرا اساسيا ، ان لم يكن الاساسي ، في « أمنها القومي » · وهي بالتأكيد ستعمل كل ما في وسعها للحؤول دون المساس بهذا الموقع الخاص في الاستراتيجية الاميركية ، ودون امكان ان تنافسها عليه اطراف اخرى في المنطقة · والقيادة الصهيونية تعي جيدا مغزى الكلام العربي ، الذي ما زلنا نسمعه منذ سنين : « ان مصلحة امريكا معنا ، فلماذا لا تعاملنا هذه اسوة باسرائيل » ؟ اي لماذا لا تستعملنا لخدمة اغراضها ، كما تفعل مع اسرائيل · ولعل من ابرز نقاط الخلاف في المفاوضات على المعاهدة الراهنة ، والتي كما يبدو ، دار حولها حوار شاق ، لم يخل احيانا من ضغوط ، هو رفض اسرائيل القبول بالسادات شريكا متكافئا معها في خدمة المصالح الاميركية في المنطقة ·

ففي « مؤتمر جنيف » ، رفضت اسرائيل ان تلتقي مع الاطراف العربية مجتمعة ، الا في جلسة الافتتاح الاحتفالية · اما في المفاوضات العملية ، فقد اصرت على ان تكون مع كل دولة عربية على حدة · وبهذا كانت اسرائيل تقطع الطريق على امكان قيام كتلة عربية قوية ، من خلال التضامن على موقف عربي موحد في المفاوضات ، تستطيع من خلاله ، واستنادا الى قاعدته ، زيادة وزنها في المؤتمر ،وفاعليتها في التأثير على القرار الاميركي · وظلت اسرائيل تصارع ضد اية صورة اجرائية لعقد المؤتمر ، تقوم على اساس وفد عربي موحد ، او وفود عربية مجتمعة · وكان هذا موقفها في « ورقة العمل الاسرائيلية ـ الاميركية » ، التي توصل اليها دايان مع ادارة كارتر ، قبيل قيام السادات بمبادرته الى زيارة القدس · وبعد ان تم الالتفاف على مؤتمر جنيف ، وسارت المفاوضات

ثنائية بين السادات وبيغن ، وبرعاية واشنطن ، حرصت حكومة اسرائيل على تجريد السادات من ورقة « التضامن العربي » ، ورفضت التعامل معه على اساس انه وكيل للساحة العربية باكملها ، واصرت على حصر دوره في مصر ، وعلى تحجيمه بحيث لا يتعدى شرق افريقيا ، على ابعد تقدير · وكان واضحا ان اسرائيل لن تسمح للسادات ان يحتل موقع الملك حسين او منظمة التحرير الفلسطينية في التفاوض على حل القضية الفلسطينية · ومن هنا كان اصرار بيغن على عدم الربط بين معاهدة السلام مع مصر ، وبين تنفيذ مشروع الادارة الذاتية · كما ان الواضح انها لن تسمح للسادات ان يلعب دورا فاعلا في اقامة الادارة الذاتية ، وانما ستفعل ذلك منفردة ، وفي اقصى الاحوال ، قد تسخر مساهمة نظام السادات الرمزية في تجسيد مشروعها هي لتلك الادارة ·

وليس فقط ان اسرائيل ارادت نزع اية صفة تمثيلية للعالم العربي عن السادات ، كي تضعف مركزه في الحلف المزمع اقامته ، وانما سعت بجد ، ونجحت في ذلك الى حد كبير ، الى عزله عن الدول العربية · ففي اتفاقية « كامب ديفيد » ، وكما برز ذلك في مفاوضات « بلير هاوس » ، كانت اسرائيل تؤكد على اهمية البند السادس من الاتفاقية ، كما صاغتها واشنطن ، والذي ينص على افضلية المعاهدة مع اسرائيل على اية معاهدة اخرى لمصر مع اي طرف آخر · والمقصود بذلك هو ارتباطات مصر في اطار الجامعة العربية ، وخاصة « ميثاق الدفاع المشترك » · وعلى هذه الخلفية جاءت « ورقة التفاهم المشترك بين اسرائيل والولايات المتحدة » ، والتي كانت ملحقة بالمعاهدة · وعلى اساسها يفهم احتجاج اسرائيل امام واشنطن على كلام مصطفى خليل الاخير، حول استعداد مصر لدعم سوريا اذا قامت هذه بحرب لاستعادة الجولان · ولم تتوقف اسرائيل عند ذلك الحد ، بل اصرت على اقامة علاقات دبلوماسية كاملة مع مصر ، وذلك قبل انسحابها من سيناء ، ودون اعطاء السادات مهلة زمنية قد تسمح له بتدبر امر علاقاته بالدول العربية المعارضة للاتفاق · وليس ذلك الا لاحراجه ، وحشره للخيار بين المعاهدة مع اسرائيل والعلاقة مع العالم العربي ، ودفعه نحو مزيد من العزلة داخله ، كون معظم دوله لا يسعها الابقاء على علاقاتها الدبلوماسية مع القاهرة ، اذا كانت هذه ستقيم علاقات مماثلة ، وربما اشد واوثق ، مع اسرائيل · وحكومة بيغن لم تعط السادات المجال الذي اعطته سابقاتها لشاه ايران ، كي يغطي على علاقاته الوثيقة معها ، دون احراجه في مجموعة الدول الاسلامية · فقد انتزع بيغن من السادات دعوة لزيارة القاهرة ، غداة التوقيع على المعاهدة ، ووصلها بينما الوفود العربية تغادرها ، مما احرج حتى مصطفى خليل ، الذي تغيب عن كل المراسيم الاحتفالية لاستقبال بيغن ·

وعلاوة على ذلك ، ارادت اسرائيل ان تضمن خروج مصر من دائرة الصراع

العربي ـ الاسرائيلي بشكل نهائي · فلم تكتف بالضمانات ، وطالبت بتقليص الجيش المصري ، وباعادة انتشاره وتأهبه وتسليحه ، بحيث يتطابق ذلك مع مهمته الجديدة في افريقيا · وما كانت اسرائيل لتقبل بتولي جيش السادات تلك المهمة ، لولا ان ضمنت استبعاد امكان تدخله في المشرق العربي ، الذي تريده اسرائيل مجالا لنشاطها هي ، ولولا التعهدات ، المصرية والاميركية ، بعدم عبور الجيش المصري ممري المتلا والجدي ، في غرب سيناء ، ولولا ان ضمنت استمرار استعمالها للمطارات في شرق سيناء لعدة سنوات قادمة وحتى تقيم لها الولايات المتحدة مطارات بديلة في النقب · وربما جرى الاتفاق السري على وضع هذه المطارات تحت تصرف الحلف الجديد بزعامة الولايات المتحدة ، من اجل « حماية امن البحر الاحمر » · وهذا طبعا الى جانب الضمانات والتعهدات التي قدمتها مصر والولايات المتحدة ، بمواصلة تزويد اسرائيل بالنفط من الابار التي حفرتها في خليج السويس ، والتي تم الاتفاق على تسليمها لمصر بعد سبعة اشهر من تاريخ توقيع الاتفاق · وكل ذلك عدا ما ستقدمه الولايات المتحدة من مساعدات اقتصادية وعسكرية ، ومن دعم سياسي في المجالين ، العربي والدولي ·

ورغم كل ما قدمه السادات من تنازلات : في « اتفاقية سيناء » ، في مبادرته لزيارة القدس ، وفي « كامب ديفيد » (الذي نشرت وثائقه) ، ظلت حكومة بيغن تماطل وتناور وتعرقل المفاوضات ، طمعا في انتزاع المزيد ، الى ان حصلت على ما ارادت · وفي زيارة كارتر الاخيرة الى القاهرة واسرائيل ، كان واضحا ان بيغن لم يتورع عن التمسك بمواقفه بصلابة ، حتى وان ادى ذلك الى فشل رحلة الرئيس الاميركي · وفي تقديري ان بيغن تعمد افشال كارتر · والا فانه كان يعرف السادات جيدا ، الى حد العلم اليقين بانه سيقبل في اللحظة الاخيرة ما كان الجميع ، بمن فيهم كارتر ، لا يرى ذلك · وليس ادل على نية بيغن تلك من خطاب كارتر نفسه في الكنيست الاسرائيلي · فهناك تكلم كارتر عن ارادة شعوب المنطقة في السلام ، وهو ما لا علم له به ، وانما هو كلام سياسي · واتهم القادة بعرقلة مساعي السلام ، وهو ما يعرفه جيدا ، بواقع حواره معهم ، ولمدة طويلة · ولكنه قال هذا الكلام في القدس وليس في القاهرة ، وواضح انه كان موجها الى بيغن · ومع ذلك ، وقف بيغن بعده ، ليقول ، وبكل وضوح وفظاظة ، ان اسرائيل لا يسعها تقديم المزيد من التنازلات · ثم اعقبه رئيس المعارضة ، شمعون بيرس ، فطرح مشروعا بديلا للتسوية · وما كان ليفعل ذلك ، لولا قناعته بأن محادثات كارتر ـ بيغن قد وصلت الى طريق مسدود · وهو كأنما اراد الايحاء الى كارتر ، بانه اذا كان بيغن قد خيب امله ، فان اسرائيل ليست كذلك ، وان المعارضة مستعدة لطرق ابواب جديدة · وربما اراد بيرس التلميح بضرورة التعاون معه للوصول الى الحكم · وبالفعل فأن هذه

المسألة كانت مطروحة · ولكن بيغن لم يتزحزح ، رغم ما نشر من ان وزير دفاعه ، عيزر وايزمان ، وهو الرجل الثاني في ليكود ، انذر بالاستقالة اذا اصر بيغن على مواقفه ، وادى الى افشال رحلة كارتر ، ورغم محاولات دايان المستميتة للحيلولة دون ذلك · ولكن السادات انقذ الموقف ·

واذا كان هذا التقدير صحيحا ، فانه مقابل تهافت السادات على انجاح مهمة كارتر · كان بيغن ، رغم خلافه مع اقطاب حكومته ، وايزمان ودايان ، يحاول بكل وسيلة افشالها ، دون الظهور وكأنه يتعمد ذلك ، فيتحمل المسؤولية كاملة · وليس من تفسير للقاء الاثنين الاخير ، قبل مغادرة كارتر عائدا الى واشنطن ، وطرح بيغن هناك موقفه الاخير ، الذي لا يتزحزح عنه ، الا محاولة لالقاء تبعة الرفض على السادات · والامر ربما يتعلق بالانتخابات الاميركية ، وبولاية كارتر الثانية · ويبدو ان السادات يرى في القوى التي يمثلها كارتر في امريكا نصيرا له في مسعاه للدخول في شبكة الاحلاف الاميركية · بينما يرى بيغن ضرورة اسقاط كارتر ، واستبداله في منصب الرئاسة بممثل لقوى اخرى، ترى ان الحليف الوحيد للغرب ، والذي يمكن الاعتماد عليه في الشرق ، هو الغرب نفسه ، المتمثل في اسرائيل · وهو منطق موشيه ارنس ، رئيس لجنة الخارجية والامن في الكنيست ، واحد اركان حزب ليكود البارزين ، وهذا ما تشير اليه التقويمات الاولية لموقف القوى الصهيونية والمساندة لها في الولايات المتحدة ازاء ادارة كارتر ·

وعلى اي حال ، فان السادات ، بقبوله شروط بيغن، قد افسد عليه مخططه · وانقذ كارتر من فشل ذريع ، مما قوى مركزه في الصراع داخل الحزب الديمقراطي على زعامة الحزب ، وبالتالي الترشيح للولاية الثانية · كما انه قطع الطريق على المعارضة في اسرائيل للمنافسة على الحكم من ارضية صلبة ، بعد أن كان غازلها فترة ، اثناء لقائه مع زعيمها ، شمعون بيرس · وكذلك فقد قضى على أمال تلك الفئة الفلسطينية التي رأت في التسوية ، او حتى في الادارة الذاتية كما فهمتها ، ولو من خلال الاردن او مصر ، امكانية لانهاء الاحتلال ، ولو على جزء من الارض الفلسطينية ، ووصول جزء ، ولو صغير ، من الشعب الفلسطيني الى حكم نفسه بنفسه ، او حتى انضمامه الى الاردن · وبتوقيعه المعاهدة مع بيغن ، لم يترك السادات معنى لدخول الاردن الى المفاوضات ، اذ لم يدع مجالا لاعطائه غطاء، ولو شفافا، على غرار ما حصل عليه هو· وبقبوله شروط بيغن ، سدد السادات طعنة قاتلة لمشروع الدولة الفلسطينية ، كما هي مطروحة في برنامج منظمة التحرير المرحلي · وكذلك ، فان المعاهدة ، وفقا لشروط بيغن ، تشكل سابقة لاي اتفاق قد يحصل على جبهات اخرى ، اذ ستشكل سقفا لما قد تسمح به اسرائيل ، خاصة اذا كانت الاطراف المعنية لا تشكل في

نظرها قوى بحجم مصر ووزنها ، وليس لديها ما تقدمه لانجاح الحلف ، علـى غرار مصر ، ناهيك عن عدم امكان عزلها وابعادها عن المشرق العربي ، كما هي الحال مع مصر · وهي بالتأكيد ، انطلاقا من مفهومها لـ « امنها القومي » ، لن تتخلى عن دورها في المنطقة ، وبالتالي عن مبرر علاقتها الخاصة بالولايـات المتحدة ، على طاولة المفاوضات · وكذلك ، فانها لن ترضى باقتسام ذلك الـدور مع شركاء آخرين ، مما يقلص ذلك الدور وبالتالي مردوده عليهـا · واذا قبلت بذلك مع مصر ، فانما بشروط صعبة ، واخذا بالاعتبار كون مصر في افريقيا ·

فماذا بعـد ؟

لقد قيل الكثير عن المعاهدة وبنودها ، وكتب الكثير عن نتائجها وما يترتب عليها ، وهي رهيبة حقا ، ولكن عمل النزر اليسير لمواجهتها · ولسنا هنا بصدد التكهن بما يترتب على هذا الحلف في المستقبل البعيد او الوسيط ، فقناعتنـا ، وربما املنا ، انه لن يعمر طويلا · ولسنا كذلك بصدد تقويم نتائجه بالتفصيل، فقد سبقنا الى ذلك كثيرون ، وسيلحقنا اكثر · وانما سنعرض لبعض اهم النقاط في تقديرنا ، وباختصار ·

الصدام حتمي ، وهو ليس بعيدا

هناك شبه اجماع على ان الذي تم بين السادات وبيغن ، برعايـة كارتـر ، ليس تسوية لنزاع بين دولتين متجاورتين فحسب ، وليس فضا لمشاكل حدوديـة بين طرفين ، او « ازالة اثار عدوان » ، وانما هو معاهدة نظامين ، الاول ركيزة تاريخية للاستعمار الغربي من اجل العدوان على شعوب المنطقة ، والثاني في بداية الطريق على هذا الصعيد ، وهي تشكل ارضية صالحة لبناء حلف عدواني بينهما ، باشتراك الولايات المتحدة ، ودعمها وتشجيعها · وهذا الحلف ، اذا جاز له ان يقوم ويثبت اقدامه ، فلن يكون حلفا دفاعيا ، مع ان اطرافه ستطرحه كذلك ، وتدعي انه انما قام للدفاع عن مصالح شعوب المنطقة في وجه « المـد الشيوعي » · بينما *الواضح* أن صاحبة المصلحة في بناء الحلف ورعايته ، انما هي الامبريالية الاميركية ، التي لا هم لها الا فرض هيمنتها على شعوب المنطقـة ضد رغباتها ، ونهب ثرواتها رغم حاجتها اليها · وهذا لن يتم الا بالعدوان · واذا كان الحلف سيخدم هذه الاهداف ، فلا بد له ان يكون عدوانيا ، وبالتالي هجوميا · وقد اكد الرئيس الاميركي ذلك في خطابه اثناء الاحتفال بالتوقيـع على المعاهدة في *البيت الابيض* ، حيث *اشار الى ضرورة ان يمتلك « مســار* السلام » استراتيجية هجومية · وواضح ان المعاهدة ـ *الحلف* ، قد احدثـت

استقطابا في العالم العربي ، فمن معه ، الى حد كبير او صغير ، ومن ضده ، بشكل او بآخر · وما دامت المسألة مترابطة والامور متشابكة ، ولا مجـــال للعزلة والاعتزال ، فلا بد من الصدام ليتم الحسم لصالح هذه الجهة او تلك ،وقد يكون الصدام كبيرا · والاكيد ان اطراف الحلف لن تقعد تنتظر الهجوم عليهـا من الاطراف المضادة ، اذ انها لم تعقد الحلف لتبقى في موقع الدفاع عن النفس وليس هذا شأنها · وعليه ، فان هذه الاطراف ستتحرك ، كل في مجاله ، لتنفيذ الدور المسند اليه ، بعد تقسيم مجالات العمل · وبالامكان ، من خلال تقديــــر اوضاع المنطقة ، ومن خلال التصريحات الصادرة عن ناطقين باسم اطـــراف الحلف ، وعلى خلفية الاهداف الامبريالية في المنطقة ، تصور التقسيم التالي : أ) تتولى الولايات المتحدة الوضع في الجزيرة العربية مباشرة · ب) تتولى مصر ترتيب الوضع في شمالي ـ شرقي افريقيا · ج) تتولى اسرائيل الوضع في المشرق العربي ·

وخلافا لما يستشف من ردود الفعل على المعاهـدة ، وللمنطـــق الذي ساد مناقشات مؤتمر بغداد الاخير لوزراء الخارجية والاقتصاد العرب ، فأن اطراف الحلف لن تنتظر طويلا لشن هجومها على القوى المضادة · ولماذا تنتظر ماذا سيفعل المؤتمرون في بغداد ؟ وربما كان الاحرى بهؤلاء التفكير الجدي فيمـــا عسى السادات وبيغن يواجهانهم به ، وقريبـا · لان من شأن حلـف كهذا ، ومن اجل تنفيذ اهدافه بنجاعة اكبر ، وبأقل قدر من الخسائر ، ان تعمد اطرافه الـى الهجوم وبسرعة ، قبل نضوج اوضاع مضادة له ، وقبل تدبر القوى الرافضة له مسألة اعداد نفسها للمواجهة · ويؤكد ذلك ترك واشنطن اثر توقيع المعاهدة ، حيث قام مستشار الرئيس الاميركي لشؤون الامن القومي ، بريجنسكي ، بزيارة الى السعودية والاردن ، اعترف الملك حسين بعدها ، بان بريجنسكي مارس عليه ضغطا للانضمام الى المعاهدة · والاكيد انه فعل نفس الشيء في السعودية · كما يؤكده استعجال حكومتي بيغن والسادات ايفاد وزيري الدفاع فيهما الـــى واشنطن ، فور الاعلان عن التوصل الى الاتفاق ، وقبل التوقيع الرسمي ، وليس ذلك الا لوضع الخطط وعمل الترتيبات لتنفيذ المهمة · وفي واشنطن صرح هذان الوزيران بما يشير الى توجه اطراف الحلف في المستقبل القريب · وتحــــدث وزير الدفاع المصري ، كمال حسين علي ، عن خطورة الوضع على حدود بلاده الغربية والجنوبية · وتفيد تقارير وكالات الانباء الى تعزيــز قـــوات الجيش المصري على حدود ليبيا ، وهناك معلومات عن ارسال وحدات منه الى السودان · ولم يبذل عيزر وايزمان جهدا في اخفــاء اهــداف الحلــف عندما تحدث عنه في مقابلة تلفزيونية في واشنطن ، فأكد على ضرورة تحالف مصــــر واسرائيل ، وتقوية الحلف بينهما ، من اجل الوقوف في « وجه المد الشيوعي » في افريقيـا

والشرق الاوسط · ولعل ما يجري في الاردن ، وفي لبنان ، منذ توقيع المعاهدة، مؤشر الى ما سيتبع ·

الجزيرة بؤرة الاهتمام الاولى

تشكل الجزيرة العربية ، وعلى رأسها السعودية ، بـؤرة الاهتمـام الاولـى للولايات المتحدة في المنطقة ، وربما في العالم ، وقد زادت اهميتهـا بعد سقوط ايران الشاه · فهي بنفطها ، الذي كله في يد امريكا ، تشكل عنصرا اساسيـا في استمرار هيمنة الرأسمالية الاميركية على اقتصاد كل من اوروبا الغربيـة واليابان · وعليه ، فان هذه الرأسمالية قد تذهب الى اقصى الحدود للدفاع عن مصالحها هناك · والظاهر ان الولايات المتحدة ستتولـى بنفسهـا الدفـاع عن تلك المصالح ، وهذا ما تؤكده تصريحات بعض المسؤولين الاميركيين ، ممـن ذهبوا الى حد التذكير بأن الولايات المتحدة لن تتورع عن استعمال قوتهـا العسكرية لضمان استمرار سيطرتها على نفط الجزيرة · كما تؤكده التحركات الاميركية في الجزيرة نفسها ، وفي البحار المحيطة بها ، وكذلك في وضع كـل ثقلها من اجل انجاز المعاهدة بين مصر واسرائيل ، والضغط الذي تمارسه على بعض الاطراف العربية الاخرى وسواها ، من اجل احاطة الجزيرة بسور منيع من الاحلاف ، يضمن بقاء الوضع فيها آمنا للرأسمالية الاميركية · وهي ستعمل من خلال تواجد عسكري مباشر ، سواء في الجزيرة نفسها ، ام على اطرافها ، وفي المياه المحيطة بها ، والتدخل المباشر في اليمن ، او في اية منطقة اخـرى فيها ، على ضمان استمرار استغلالها لنفطها ، وتأمين طرق نقله الى اوروبـا والشرق الاقصى · وفي تقديري ، انها لن تسمح لاي من اطـراف الحلـف الآخرين الاقتراب من نفط الجزيرة ، وستفرض على السعودية ودول الخليـج توظيف اموالها في خدمة الحلف الجديد ·

ومما لا شك فيه ، ان المعاهدة قد قلبت دور السعودية في المنطقة وقلصتـه الى حجمه الحقيقي · والسعودية في الواقع ، لا تملك ما يؤهلها لزعامة العالم العربي ، وان كانت حاولت ذلك ، ونجحت الى حد معين ، بعد حرب تشريـن ، وما تلاها من المفاوضـات على التسويـة · وهي ليست دولة بالمعنـى الصحيح للكلمة ، وانما هي مشروع دولة · وهي لا تتطلـع الى بسط نفوذهـا في العالم العربي من اجل توسيع سوقها ، وانما تعتبر الزعامة فيه عنصرا من « أمنهـا القومي » · فعن طريق هذه الزعامة ، يريد الحكم السعودي تقديم نفسه الـى واشنطن ، وكيلا رئيسيا لها في المنطقة ، ان لم يكن بحجم اسرائيل ، او منافسا لها ، فالى جانبها ، او وراءها في « التسلسل التنظيمي » · والحكم السعودي ، يعتبر مثل هذه الزعامة عامل استقرار له في الحكم ، وطمأنينة الى ان واشنطن ستبقى راضية عنه ، ولن تعمل على اقصائه عنه · ونظرا لتطلعات السعوديـة

تلك ، فقد وقعت في تناقض مع اسرائيل ، التي تنطلق من نفس القاعدة لضمان « امنها القومي » . والسعودية ارادت باموالها منافسة العسكرتارية الاسرائيلية على تدجين حركة الجماهير العربية ، وتطويعها للارادة الامبريالية الاميركية . ولكن السعودية ، كي تستطيع القيام بالدور الذي رسمته لنفسها ، وجندت له « لوبي » النفط ليساعدها على دفع واشنطن لتبني هذه السياسة ، واعتماد السعودية وكيلا في المنطقة الى جانب اسرائيل ، كانت بحاجة دائمة الى ارضاء الاطراف العربية الوسطية ، التي كانت مستعدة للالتقاء مع امريكا شريطة ان تقدم لها هذه ورقة التين . وعلى هذا الاساس انبرت السعودية الى العمل بعد موت عبد الناصر .

وفي حرب تشرين اعطي النفط دورا لم يلعبه قط . وجرى تضخيم اثر حظر النفط على الغرب ، وبالتالي على نتائج الحرب . كي تقود السعودية الدول العربية في مرحلة التسوية . فعمت مقولة ان الضغط السعودي على واشنطن ، خاصة لما لنفط السعودية واموالها من اثر هناك ، وضغط واشنطن على اسرائيل، سيجبر اسرائيل على الرضوخ والانسحاب ، بما في ذلك « الاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » ، وهو ما يشكل ورقة التين اللازمة للتسوية مع العدو القومي . وقد مارست السعودية دورا قياديا في مراحل التسوية الاولى ، وفي « كامب ديفيد » ، وبعد سقوط شاه ايران ، عادت مصر الى الخروج عن زعامة السعودية ، والى طرح نفسها البديل ، وبالتالي القائد للعالم العربي . ولما قبلت واشنطن بذلك، فقد حجمت الدور السعودي، ووضعته في مكانه الحقيقي . ولكن اسرائيل رفضت زعامة مصر للعرب ، والتفاوض معها على هذا الاساس ، ورضخ السادات ، فضاع دورالسعودية ، ولم يلتقطه السادات . وبعد المعاهدة ، حاولت السعودية ، بمبادرة منها او بايحاء من واشنطن ، انقاذ ما يمكن انقاذه ، وسعت الى تثبيت زعامتها على المشرق العربي غير انها ، بعد فشلها الاول ، دخلت الى «مؤتمر بغداد» ، وهي اضعف ، ووجدت هناك منافسا قويا في العراق ، خاصة بعد توجهاته الوحدوية مع سوريا . وبعد التوقيع على المعاهدة ، تواجه السعودية وضعا ، لا تخسر فيه زعامتها للعالم العربي فحسب ، وانما ضمان موقع متكافيء مع بقية الاطراف المتنافسة فيه على الموقع . ولم تعد السعودية في موقع من يشكل تأييده حماية للطرف المنضوي تحت لوائها ، وانما اصبحت بنفسها تحتاج الى حماية . بل واكثر من ذلك ، اذ سيطلب منها تأييد المعاهدة ، وليس بوسعها الا القبول ، كما هي الحال مع الاردن . وعلاوة على ذلك ، لن تستطيع السعودية قطع مساعداتها المالية لمصر ، ولا سحب ودائعها وتوظيفاتها فيها . وفوق كل ذلك ، سيطلب منها بالتأكيد تمويل جزء كبير من نفقات الحلف العسكرية . فالاموال السعودية المكدسة في المؤسسات الاميركية ، تبقى اقرب المصادر منالا لتوفير المبالغ المطلوبة لاطراف

الحلف الجديد · وبهذا تكون السعودية تدفع « خـــوة » لحماية ممتلكاتها ومواردها الطبيعية ·

اسرائيل ـ من الفرات الى النيل

مقولة سئمنا تردادها · وقلنا لا تجوز · فالدولة اليهودية ليس لديها من المهاجرين ما يكفي لاستيطان رقعة احتلالها الحالية · والهجرة لا تتدفق عليها من اقطار المعمورة ؟ · ولكن هل الاستيطان شرط لا تمكن بدونه الهيمنة العسكرية والسياسية والاقتصادية ؟ وفي تقديري ، ان الجـواب ، لا · ولا مجـال هنـا للتطرق بالحديث عن كل الاطراف المعنية ، ويكفي الكلام عن اسرائيل ، مع اشارة عابرة الى الآخرين · فمع مصر، قد حسم الامر بكل وضوح· والسعودية قد حدد دورها · والاردن ، اذا كان له الخيار ، « فسيعود الى قواعده سالما »· وتبقى سوريا اساسا ، والى جانبها الثورة الفلسطينية والعراق عقبات اساسية أمام اسرائيل في تحركها نحو تحقيق اهدافها ، والقيام بالمهمة الموكلة اليها في اطار الحلف الجديد ·

واذا كانت الجزيرة العربية هي بؤرة الاهتمام الاولى في نظر امريكا ،والدافع الاساسي وراء سعيها لبناء الحلف الجديد ، وكانت هي بنفسها ستتولى حماية مصالحها هناك ، كما يدل اكثر من مؤشر ، فالطبيعي ان تعمد الى اقامة حزام امن ، تتولى العمل فيه قوى حليفة محلية ،لاحكام الطوق على الجزيرة · وهناك معلومات تشير الى نية امريكا بناء اسطول خامس ، تناط به مهام عسكرية في الخليج ، وفي البحرين ، العربي والاحمر ·واذا كانت مصر ستكمل الطوق من الغرب ، فاسرائيل ستتولى الشمال ، وتبقى ايران ، في الشرق ، والتي بالتأكيد ليست خارج حساب المخطط الامريكي ·

والاكيد ان اسرائيل ، لاحتياجاتها الذاتية كدولة يهودية صهيونية ، ولضمان « امنها القومي » كركيزة استعمارية ، تريد ان تهيمن على المشرق العربي · واذا كانت اسرائيل قد صارعت وساومت وناورت مع مصر ، التي تفصلها عنها سيناء والواقعة في قارة اخرى ، ناهيك عن الاغراءات في عقد المعاهدة معها ، حتى انتزعت منها كل التنازلات المتضمنة في المعاهدة ، فكيف سيكون تصرفها ازاء دول مجاورة · وفي اعتقادي انها لن تقبل ، الا مكرهة ، وجود شريك منافس لها في اداء المهمة الامبريالية ، فكم بالحري وجود قوة مناوئة لها ، او لا ترضى بهيمنتها ، خاصة اذا لم تحشد هذه من القوة ما يكفي لردع اسرائيل عن العدوان وهنا يأتي دور سوريا والثورة الفلسطينية ، اللتين لا مجال لقبول اسرائيل بهما في مواقفهما الراهنة ، وهما لا تستطيعان الرضوخ لهيمنتها عليهما ، فلا يبقى امامها الا الاعداد للمواجهة ·

واسرائيل تعي موقع كل من سوريا ومنظمة التحرير الفلسطينية في المشرق العربي ، وتقدر تماما الاخطار الكامنة فيهما على « امنها » ، بل وعلى وجودها. وهي ترصد تحركاتهما بكل دقة . وفي تقديري انها تهيىء لعدوان كبير عليهما. وفي تقديري ايضا ، ان لبنـان هو خير ساحة للصدام مع هاتين القوتين ، حيث تتوفر عدة معطيات وعوامل من شأنها حمل اسرائيـل على الاعتقاد بـان مواجهتهما في لبنان قد تضمن نسبة عالية من النجاح باقل قدر من الخسائر ، ناهيك عن توفير الغطاء والذريعة للعدوان . وبالامكـان تصور عدد مـن السيناريوهات للعمل ضدهما في لبنان ، لا اعتقد انها غائبة عن ذهن القيادة الصهيونية ، العسكرية او السياسية . ان خيار الصدام مع الجيش السوري في سوريا ، قد يكون مكلفا للعسكرتارية الاسرائيلية ، وهو غير مضمون النتائج ، العسكرية او السياسية . بينما العمل في لبنان قد يصيب اكثر من عصفـور بحجر واحد .

لقد سبق لاسرائيل ان شنت هجوما واسعا على الجنوب اللبناني ، في «عملية الليطاني » (اذار ١٩٧٨) . وكان من اهم اهداف ذلك الهجوم ، بعد انـزال ضربة قاسية بالثورة الفلسطينية ، فتح ملف لبنان الكامل ، بما فيه التواجـد العسكري السوري على ارضـه وذلك من خـلال الاشتبـاك بالثورة الفلسطينية ومن ثم التقدم خطوة ــ خطوة نحو جر سوريا اما الى مواجهة عسكرية ، واما الى الدخول في مفاوضات على ترتيب الوضع في لبنان ، تنتهي الى مفاوضات على التسوية ، ولكن الهجوم الاسرائيلي فشل في تحقيق اهدافه العسكريـة والسياسية . أما بعد قيام الحلف الجديد ، فقد زال عدد من العقبات التي اثقلت في حينه على الهجوم، وبالتالي حالت دون تحقيق اهدافه. واذا كان هذا الحلف سيتخذ نهجا هجوميا ، وهو الاقرب الى المعقول ، فلا يستبعد قط ان تعـاود اسرائيل التجربة مرة اخرى ، من خلال تنسيق مسبق مع اطراف الحلف ، خلافا لما جرى في المرة السابقة .

الامم المتحدة ــ عود على بدء

بعد توقيع المعاهدة ، وذهاب مصر في طريقها ، اعيد طرح فكرة الرجوع الى الامم المتحدة . وليس واضحا من الكلام ، ما الذي يراد من ذلـك الطرح . فالجمعية العمومية قد اتخذت قرارها بوضوح كامل ، ولكن ، كما هو معلوم ، ليس لها اية صلاحية او قدرة تنفيذية . والواقع ان موقف السكرتير العـام للامم المتحدة ، الدكتور كورت فالدهايم ، من المعاهدة كان واضحـا وجريئا ، ولكن من اعاره اي انتباه ؟ وفي مجلس الامن ، لا مجال للحسم في موضـوع « التسوية السلمية » في الشرق الاوسط . فالمنطقة لا تزال ساحة صراع ، بين

القوى المحلية ذاتها ، وبين القوى العظمى ايضا ٠ ونظرا لتوازن القوى في تركيب عضوية مجلس الامن ، والامتيازات التي تتمتع بها الدول الكبرى هناك في تمرير القرار او احتجازه ، فانه يصعب تصور الوصول الى اتفاق فيه ، يكون افضل من السابق، حيث اتخذ قرار عقد مؤتمر جنيف ٠ وتجربة جنيف ، عبر خمس سنوات واكثر ، ماثلة امامنا ، بدءا بالامم المتحدة ، فمجلس الامن ، فمؤتمر جنيف ، فالمعاهدة ٠ واذن ، ماذا ؟ ولدينا كذلك خبرة ثلاثين عاما واكثر ، على القضية الفلسطينية في الامم المتحدة ، فماذا بعد ؟ الظاهر ان اسرائيل قد اعدت للامر عدته ، فضمنت في احدى الرسائل المتبادلة ، والملحقة في المعاهدة ، تعهد امريكا باستعمال الفيتو ضد اي قرار في مجلس الامن ، لا يتلاءم ومنطق اتفاقيات « كامب ديفيد » ٠ واذا كانت الولايات المتحدة قد انطلقت من قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، وفي المفاوضات تجاوزته واستبدلته باتفاقيات « كامب ديفيد » ، ونجحت ، فلماذا تنثني عن ذلك الآن ؟ واذا كانت المفاوضات في السنوات الخمس الماضية ، انطلقت من قرار مجلس الامن ، وعلى خلفية حرب تشرين ، وباشتراك الاتحاد السوفياتي ، ومن خلال تضامن عربي ، في البداية على الاقل ، وانتهت مع ذلك الى المعاهدة ، فماذا يتوقع لمسار جديد ، تنقصه معظم عوامل الدفع التي كانت للمسار الاول ؟ واين سيكون موقع مصر من المفاوضات الجديدة ، اذا جازت ؟ وماذا عن منظمة التحرير ؟ وهل يكون الاساس للمفاوضات قرارا جديدا ، منطلقا من ٢٤٢ ، مع تعديل عليه ، يسمح باشتراك منظمة التحرير الفلسطينية في المفاوضات ؟ وعندها ، هل تقبله اسرائيل ، ولماذا ؟ وهل تستطيع المنظمة ، نزولا عند رغبة كارتر ، القبول بالقرار ٢٤٢ مسبقا ، وبعد ان افرغه هو بنفسه من اي مضمون ، وتجاوزه ، ليس على الصعيد الاجرائي فحسب ، وانما في جوهره ايضا ؟

الامم المتحدة منبر اعلامي ، والمسألة لا يحلها الاعلام بعد ٠ لربما كان من المجدي بعض الشيء ، لو انه صير الى طرح القضية مجددا في مجلس الامن ، في نهاية العام ١٩٧٤ ، عندما اتضح ان اسرائيل لا تريد الانسحاب عن الضفة والقطاع ، بل لا تستطيع ذلك ٠ او حتى في العام ١٩٧٥ ، عندما تقدمت مصر واسرائيل نحو حل ثنائي في « اتفاقية سيناء » ٠ او حتى بعد مبادرة السادات لزيارة القدس ، في العام ١٩٧٧ ٠ ولو صير الى ذلك ، فلعله كان يعرقل التوصل الى امضاء المعاهدة ، او يفضح المؤامرة بكل ابعادها ، على اقل تقدير ٠ فلماذا سكتت جميع الاطراف المعنية ، او المشاركة في مؤتمر جنيف على الاقل ، وهي تشاهد المؤامرة تنفذ امام اعينها ٠ وما هو الدور الذي ستلعبه اوروبا الغربية؟ وعلى سبيل التذكير فقط ، فان الذي صاغ القرار ٢٤٢ ، هو اللورد كارادون الانجليزي ، والذي راح بنفسه ، وعلى صفحات جريدة « السفير » اللبنانية ، يحث العرب ، بمن فيهم الفلسطينيون على القبول باتفاقات « كامب ديفيد » ٠

فماذا يتوقع منه ، ومن امثاله ، ممن تنقصه حتى الجرأة الادبية للسكوت فقط ، اذا لم يستطع خـلاف ذلك ، عندمـا يفتضح امـره ؟ • وماذا يتوقـع من الدول الاوروبية ، وهي حصان الرهان الجديد ، أذا صير الى اتخاذ قرار جديد فـي مجلس الامن ، يبدأ بشيء وينتهي الى اخر ، وهكذا دواليك ؟•

ولو افترضنا جدلا ان القضية طرحت مجددا في مجلس الامن ، فما عسى هذا يتخذ من قرارات ، تختلف نوعيا عن صيغة « مؤتمر جنيف » ، ربما مع بعض التعديلات الاجرائية ، او التغييرات في تركيب الاطراف المشاركة فيه • واذا دخل في المؤتمر بعض الدول الكبرى ، سوى الاتحاد السوفياتي وامريكا ، افلا ينتهي ذلك الى مجلس امن ، ينعقد في جنيف ؟ وما الغرض ؟ وهل يكون مثل هـذا المؤتمر قادرا على شيء عدا النقاش والمراوحة في المكان ؟ فلماذا ؟ واذا تـم الرجوع الى صيغة جنيف الاصلية ، فما هو موقع مصر فيها ؟ هل تعود لتفاوض على امور قد جرى البت فيها ، بل وتجاوزتها المعاهـدات والمواثيـق • واذا افترضنا استثناء مصر عقابا لنظامها على سوء فعلته ، فلماذا لا تعود الولايات المتحدة الى تكرار مسلكها السابق ؟

بالامكان فهم المنطق وراء مثل هذا الطرح ، حتى وان لم يتفق المرء معه تماما، اذا جاء بعد سقوط نظام السادات ، وافشال المعاهدة ، وربما خوض معركـة جديدة مع العدو ، الذي سيرفض كل حديث عن التسوية عندها ، تكون نتائـج تلك المعركة ارضية لقرار جديد ، ولمفاوضات من خلال موازين قوى مختلفة • ولكن على خلفية معاهدة السادات ـ بيغن ، لماذا ؟ لقد كشفت امريكا عما تريد، واكتشف الجميع ماذا تريد اسرائيل • والسؤال : ماذا تريد الاطراف الرافضة للمعاهدة ؟ وهل الذي تريده ، بغض النظر عن معرفة تفاصيله ، يمكن تحقيقه من خلال المفاوضات ، استنادا الى ما خبرناه في السنوات الخمس الاخيرة ؟ وفي تقديري ، الا مجال لبلوغ الحد الادنى المطلوب عربيا ، خاصة بعد المعاهدة ، وفي الاوضاع التي تسود المشرق العربي ، الذي يتحمل بالاساس وزر الصـراع • ان ولوج باب مثل المفاوضات السابقة ، لن يؤدي الى افضل من نتائجها ، في احسن الاحوال ، وربما كان العكس هو الاقرب الى الصواب • هذا طبعـا اذا فتح مجال لذلك ، وظلت المفاوضات سلمية ، لا يعتورها صدام عسكري او اكثر• ليس هناك مكان لـ « تسوية سلمية عادلة » في المنطقة • وهي حتى تكون عادلة لا يمكن لها ، بدليل التجربة التي مررنا بها ، أن تكون سلمية • والمفاوضات السلمية ، ضمن الظروف المعطاة ، لا تعدو كونها صفقات ، تعقـد لحساب البعض ، وبالطبع على حساب البعض الآخر • وما العدالة في ذلك ؟ وعليه فلا بد في تقديري ، ان يحسم القرار العربي رفضه لمثل هذه التسوية ، ليتحـرر من ارهابها ، وينطلق الى التصدي للمعاهدة وافشالها ، والى فرض واقـع جديد ، يشكل ارضية ملائمة لتسوية مشاكل المنطقة ، ولصالح جميع شعوبها • وهذا ممكن • لكن دون الشهد ابر النحل •

المقدم الهيثم الأيوبي

جوهر المعاهدة المصرية - الاسرائيلية واثرها على ميزان القوى

تشكل المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية منعطفا بارزا على منحنى الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، ان لم تكن اهم منعطفات هذا المنحنى وابعدها اثرا · ولقد اختلفت الآراء حول تقويم هذا الحدث ، فأعتبره البعض عملا سلميا في حين اعتبره البعض الآخر مدخلا لتوترات وحروب جديدة في المنطقة · وتراوحت الصفات التي اطلقت عليه بين « العمل الشجاع » و « الخيانة العظمى » على الصعيدين الوطني والقومي ، وتعرض المعسكر العربي من جرائه الى انقسام لم يشهده من قبل ، حتى في اعنف فترات النزاع بين المعسكرين العربيين التقليدي والراديكالي ·

وكما كان للمعاهدة مؤيدون ومعارضون داخل الوطن العربي ، فان المجتمع الاسرائيلي انقسم ازاءها الى مؤيدين ومعارضين · دون ان يكون هناك اي تماثل بين اسباب ومنطلقات التأييد والمعارضة على جانبي الخندق ·

فما هي حقيقة هذا الحدث الذي وضعت ادارة الرئيس كارتر كل وزنها لتحقيقه بغية مواجهة المتغيرات الاستراتيجية في المنطقة (التقارب السوري ــ العراقي وانتصار الثورة الايرانية وانهيار الحلف المركزي) ؟ وما هي الاسباب التي دفعت مناحيم بيغن الى التصريح بأن التوقيع على المعاهدة كان اسعد لحظة في حياته بعد دخول القدس في العام ١٩٦٧ ؟ وما هو مغزى المعاهدة التي توج الرئيس المصري بها رحلته التباعدية عن العرب ، وانجرافه نحو معسكر العدو (بشقيه الامبريالي والصهيوني) ، وارتداده الى مواقع اكثر شرائح الشعب

العربي المصري انغلاقا على المستوى القومي واشدها فواتـــا على المستوى الاجتماعــي ؟

ان الاجابة على هذا السؤال تتطلب منا في البداية تحديد موقع المعاهدة في اطار مواجهة الغزوة الصهيونية ، وجذور الفكر المساوم الذي انبثق عنه اندفـاع الرئيس السادات نحو مصالحة العدو · لننتقل بعد ذلك الى تحديـــد الآثـــار الاستراتيجية الناجمة عن خروج مصر من معركة المصير ، ولو الى حين ·

جدلية الصراع بين الغزوة الاستعمارية وقوى التحرير

تمر الغزوات الاستعمارية وراء البحار عادة بمراحل متعاقبة متشابهة فـي جوهرها ، حتى لو اختلفت في مظهرها الخارجي · فهي تبدأ بحشد القـــوى المتفوقة عسكريا ، والقادرة على تحطيم المقاومة التي تعترض فيلق الغـزو فـــي المرحلة الاولى من العمل العسكري · ثم تستخدم هذه القـوى في عمـل عنيـف ينتهي ، في حالة نجاحه ، الى احتلال رأس جسر في المنطقة المعرضة للغزو · وتبدأ أثر ذلك مرحلة تثبيت رأس الجسر وتصفية المقاومات المتبقية وصـــد الهجمات المعاكسة المحتملة · ويكون الطابع العسكري غالبا على عمل الغزاة خلال هذه المراحل · ويكون نجاح الغزوة مرهونا بالتفوق الاولي للغزاة وحالة التشتت والمفاجأة ونقص التنظيم التي تسود الشعب المعرض للغزو ·

مقابل استراتيجية الغزاة الهجومية ، يتبنى الشعب المعرض للغزو في هـذه المرحلة استراتيجية دفاعية ، يتكبد خلالها الكثير من الخسائر ، ويضطر فيهـا الى القيام بتراجع استراتيجي تفرضه موازين القوى المختلة · غير انه يكتسب في الوقت ذاته خبرات تنظيمية ونضالية ، وتبدأ طلائعه المسلحة استنفار القوى الاحتياطية وتنظيمها ، وتأجيج روح العداء للغزاة ، وتصليب ارادة الصراع · ولكن عملها يبقي في اطار رد الفعل الدفاعي ازاء مبادرات الغزاة الهجومية ·

وتنتهي هذه المرحلة فيمعظم الاحيان بتثبيت رأس الجسر وتبلور القـــوى المقاومة حوله · وبعد تثبيت رأس الجسر ينتقل الغزاة الى مرحلـــة التوسـع التي يترافق فيها العمل السياسي ــ النفسي مع العمل العسكري · ويتم التوسع على شكل وثبات يسبقها ويليها اعداد نفسي ــ سياسي ، يستهدف تليين ارادة الشعب المقهور ، واضعاف روح العداء لديه · واذا كانت عملية تليين الارادة تعتمد على تكريس التفوق ، واظهار عجز المقهورين وعبثية لجوئهـم الى القوة ، والتركيز على انعدام واقعية شعار التحرير ، فان عملية تخفيف روح العـــداء تعتمد على طرح فكرة « السلام » ، وابداء حسن النية ، والاستعداد للتعامـــل اللين مع القوى المحلية التي تظهر ميلا للمساومة بسبب حالة الانهـــاك التـــي تصيبها ورغبتها في الانتهاء من الصراع ·

في مجابهة هذا الاستنزاف المادي والمعنوي تتابع قوى المقاومة في الشعب المقهور عملية التحشد ، وتقوم بدورها باستنزاف قوى الغزاة الخارجيين والمساومين المحليين ايضا · وتضع في مقدمة اهتماماتها الاستراتيجية : تصعيد روح العداء ، والحفاظ على ارادة الصراع ، وتعديل ميزان القوى لصالحها عن طريق تدمير قوى العدو وحشد قوى صديقة اضافية ·

وتتسم هذه المرحلة بأن صراع الارادات يأخذ فيها شكلا شاملا وعلى جميع المستويات · ويكون عمل الطرفين فيها معقدا الى أبعد مدى · ويأخذ العمل السياسي خلالها دورا متزايدا تفوق أهميته في بعض الحالات اهمية العمل العسكري · واذا كانت جهود الغزاة في هذه المرحلة تستهدف التهدئة وتثبيت الوضع الراهن واعطاءه شكلا من أشكال الشرعية ، فان جهود قوى المقاومة تتركز على التصعيد ، ومنع التهدئة ، وتغيير الوضع الراهن · وتتحول جهود الطرفين الى سباق عنيف على خطين مزدوجين ، يتعلق احدهما بموازين القوى، في حين يتعلق الآخر بحالة العداء · على اعتبار ان ميزان القوى يمثل التجسيد العملي للعنصر المادي في الصراع ، وان حالة العداء هي المحرك المعنوي للقوة المادية ·

ولقد اثبتت خبرات الغزوات الاستعمارية وحروب التحرير عبر التاريخ ، ان الشعوب الحية التي تعرضت للغزو توصلت في نهاية هذا السباق الى تعبئة قواها الكامنة ، وتحقيق الحشد اللازم لتعديل ميزان القوى لصالحها · وان الحفاظ على حالة العداء وتأجيجها ، ورفض المساومة او مصالحة الغزاة ، كانا في مقدمة الاسباب التي ساعدت على تصفية الخط المساوم ، وتعبئة قوى المقاومة الكامنة ، وتعديل ميزان القوى · كما أثبتت الخبرات نفسها ان نجاح الغزاة في تخفيف حالة العداء وثني ارادة الصراع لدى المقهورين ، ووصول قوى المساومة الى مواقع حساسة في البلد المعرض للغزو ، وانجراف هذه القوى نحو السلام المزيف ، قد عطلا عملية التعبئة وتعديل موازين القوى ، واديا بالتالي الى اطالة عمر الغزوة ، وزيادة التضحيات التي يتحملها الشعب المقهور للوصول الى ميزان القوى المناسب ·

وتتم عملية تعديل موازين القوى عادة ببطء · وتكون سرعتها متناسبة مع ديناميكية الشعب المقهور ، وقدرة طلائعه على التنظيم وتأجيج روح العداء وتصفية الخط المساوم · ولكنها تتوصل في النهاية (ليس بدون صعوبات وتضحيات) الى احتواء الغزوة وتأمين التوازن الاستراتيجي الذي تجري في ظله ضربة الايقاف · وعندما تنجح هذه الضربة تتجمد حركة الغزاة التوسعية ويتحولون الى الدفاع · وتفقد الغزوة الاستعمارية ديناميكيتها الاولى ، وتنقلب من قبضة ضاربة الى قلعة محاصرة · ومع استمرار الحشد والتعبئة في معسكر

المقهورين ، تنتقل المبادرة من يد الغزاة الى يد الطرف الآخر الذي يتحول من رد الفعل الى الفعل ، ويبدأ الهجوم الاستراتيجي على القلعة المحاصرة ، ويتابع الضغط حتى التحرير ٠

موقع السادات والمعاهدة في جدلية الصراع

تدل دراسة معطيات الصراع العربي ـ الاسرائيلي على ان جدلية هذا الصراع لم تخرج عن الخطوط العريضة التي اتينا على ذكرها ٠ فلقد قامت الصهيونية في البداية بحشد القوى اللازمة لبناء رأس الجسر ، وساعدها الاستعمار على تحقيق انتصار ١٩٤٨ وبناء رأس الجسر وحمايته ٠ وكان ضعف العرب وتشتتهم وخضوع بعض قياداتهم لمنطق الاستعماريين القدماء من اهم الاسباب التي ساعدت الصهيونية على ترسيخ مواقعها فوق الارض الفلسطينية٠

الا ان المنطقة رفضت قبول رأس الجسر والاعتراف به كأمر واقع ٠ وبدأت حركة التحرر الوطني (التي تمثل الخط المقاوم) محاولاتها لاستنفار الاحتياطي الكامن وحشده من اجل التغيير ، رغم وجود عدد من جيوب الخط المساوم التي كانت تشكل امتدادا للقوى الخاضعة لمنطق الاستعمار القديم ٠ وكانت الرافعة الاساسية في عملية الحشد تتمثل في تأجيج العداء القومي ضد الغزاة ٠

ولقد وعى الاستعمار واسرائيل منذ البداية خطورة هذا العداء على مستقبل الصراع ، وقدرته على استقطاب قوى جديدة الى معسكر الفكر المقاوم ٠ واعتبر أن وجود رأس الجسر سيبقى معرضا للخطر اذا بقيت روح العداء للغزوة حية٠ ولكنهما قيما في الوقت نفسه صعوبة ازالة العداء على المدى القريب ، نظرا لضخامة هدف الرهان ، وشدة الاهواء الكامنة وراء الصراع ، وديناميكية حركة التحرر الوطني ، وضعف قوى الفكر المساوم وعجزها عن طرح مقولة الصلح مع الصهاينة خوفا من الصدام مع المقدسات الكامنة في وجدان الجماهير العربية ٠

لهذا لجأ العدو الى اسلوب استنزاف الارادة على المدى البعيد ، بعد خلق معادلة التفوق العسكري والعجز العربي ٠ وكانت سياسته الاعلامية ، وضرباته الانتقامية خلال الخمسينات والستينات تتم ضمن اطار العمل على استنزاف الارادة العربية ، واعطاء انصار الفكر المساوم الحجج اللازمة لتعزيز مواقعهم، من خلال اثبات عبثية المقاومة ومخاطرها ، والتأكيد على مناعة الدولة الصهيونية وتفوقها واستحالة الانتصار عليها ٠

ولقد جابه معسكر الفكر العربي المقاوم خلال هذه المرحلة العديد من الصعوبات ، وقدم الكثير من التضحيات ، ولكنه تابع السعي لتبديل موازين

القوى بمساعدة المعسكر الاشتراكي ، كما تابع الصراع ضد مقولات الخط المساوم الذي رفع لواء « الاعتدال » و « الواقعية » كبديل للعمل التحريري العنيف ٠ وعندما وجد العدو ان الخط المقاوم لا يزال واقفا رغم الضربات والتراجعات ، سدد اليه ضربة جديدة في حرب ١٩٦٧ ٠ ولم يكن هذا العمل العسكري يستهدف تدمير القوة العسكرية العربية فحسب ، بل كان يستهدف اساسا هز ارادة الصراع العربية بعنف ، ثم العمل بعد ذلك على استنزاف هذه الارادة وتصفيتها ، عن طريق التمسك بالاراضي المحتلة وسكانها كرهينة تجسد العجز العربي ، وكورقة يمكن استخدامها في المساومات المستقبلية ، وتقديمها الى المساومين كمكاسب يبررون بها « اعتدالهم » ٠

وأدت هزيمة ١٩٦٧ الى انتعاش الفكر المساوم ، ولكنه بقي مختفيا يعمل على استحياء ، ولم يظهر الى العلن الا مع وفاة الرئيس عبد الناصر ، ووصول السادات الى السلطة ، واندفاعه نحو تصفية المرحلة الناصرية التي كانت مظهرا من مظاهر الفكر المقاوم ٠ ولقد قام منظرو هذا الفكر بتبرير مواقفهم « المعتدلة » و « الواقعية » عن طريق تسليط الاضواء على الهزائم العسكرية التي تعرضت لها الامة العربية في حقبة مد الفكر المقاوم ، وجسامة التضحيات المادية والبشرية التي قدمتها الامة العربية خلال هذه الحقبة ٠

في هذه اللحظة ، ومع ظهور الفكر المساوم بدأت نكسة العرب الحقيقية ٠ ويمكننا هنا ان نؤكد على أن هزيمة ١٩٦٧ تبقى ، رغم خطورتها ، منعطفا صغيرا بالمقارنة مع نكسة الفكر المقاوم بعودة المساومين الى السطح ٠ لان تلك الهزيمة، وما سبقها وما كان من الممكن ان يلحقها من تضحيات ، لم تكن سوى تراجعات منسجمة مع موازين القوى وطبيعة مرحلة التراجع الاستراتيجي ، وثمنا كان على الامة العربية ان تدفعه خلال صد الغزو ، طالما انها لم تستطع تحقيق الحشد وتبديل موازين القوى والبدء بالهجوم المعاكس الاستراتيجي ٠ في حين كان انبعاث الفكر المساوم مؤشرا على بدء انحناء ارادة الصراع ، التي يعتبر بقاؤها الضمانة الوحيدة للحشد وتبديل موازين القوى ٠

ومع بدء مسيرة الفكر المساوم ، ظهر السادات في الصف الاول من المسيرة٠ والحقيقة انه لم يكن الزعيم العربي الوحيد في هذا الصف ، بل كان معه زعماء آخرون ٠ ولكن ما يميزه عنهم هو انهم رفعوا شعار « خذ وطالب » ، في حين رفع الرئيس المصري شعار « اعط وطالب » ، المتمثل في تقديم التنازلات لاثبات حسن النية ، ثم المطالبة بعد ذلك بالثمن ٠

وفق هذا الشعار قدم السادات التنازلات المتتالية للولايات المتحدة ، ثم استغل الهالة التي حصل عليها بعد حرب تشرين ، بفضل تضحيات الجنود المصريين وبطولاتهم ، فوسع مجال تطبيق شعاره ، وقدم التنازلات امام اسرائيل ، بدءا

من زيارة القدس المحتلة ،وانتهاء بعقد معاهدة الصلح مع العدو القومي ٠

ولسنا ممن يأخذون على الرئيس المصري انه عقد صلحا منفردا ، ولكننا نأخذ عليه انه عقد صلحا ، لان الصلح في حد ذاته (منفردا كان ام جماعيا) هو اقصى ما يسعى اليه الغزاة الراغبون في الحصول على غطاء شرعي للامر الواقع الذي فرضوه بقوة السلاح ٠ واخطر ما يحمله هذا الغطاء الشرعي ، هو انه يعني انهاء حالة النزاع والغاء روح العداء ، أي حرمان الطرف المعرض للغزوة من الرافعة اللازمة للحشد وتبديل ميزان القوى وتحقيق التغيير ٠ فماذا قدم الغزاة للسادات مقابل هذا التراجع الاستراتيجي الكبير ؟

ان بنود المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية تنص على مصالحة الغزاة والاعتراف بهم وتطبيع العلاقات معهم ، لقاء الانسحاب من سيناء (التي ستكون السيادة المصرية عليها ناقصة) ، والبدء بالتفاوض حول مستقبل الحكم الذاتي في الضفة والقطاع ٠ اي ان مجمل ما قدمه الغزاة يبقى في اطار التخلي عن جزء من الرهينة المحتفظ بها منذ حرب ١٩٦٧ ٠ وحتى ولو أن « مكاسب » السادات شملت جدلا الرهينة كلها ، واسفرت عن تصفية جميع آثار حرب حزيران ١٩٦٧ ، فان ذلك لن يبدل شيئا من طبيعة المعاهدة ، التي ضمنت للغزاة شرعية المكتسبات التي حققوها في مرحلة بناء رأس الجسر ، مقابل تخليهم عن مكتسبات حصلوا عليها في مرحلة لاحقة ٠

ويمكن القول هنا ان المعاهدة كانت النتيجة العملية لاستنزاف ارادة الصراع عند اقطاب النظام المصري ٠ وان هذا الاستنزاف قد اخذ بعدا كبيرا بعد حرب ١٩٦٧ ، بسبب ضخامة الهزيمة وحجم الرهينة ٠ كما يمكن القول ان الرئيس المصري قد قبل عند التوقيع على المعاهدة استعادة « الجزء » مقابل التخلي عن « الكل » ٠ ولقد حاول بعض منظري الفكر المساوم ايجاد مبرر لذلك العمل استنادا الى القاعدة القائلة : « ما لا يؤخذ كله لا يترك بعضه » ٠ ولكن التبرير لا ينسجم مع معطيات الظرف الذي جرى فيه توقيع المعاهدة ٠ اذ ان انجراف السادات نحو الصلح مع العدو الصهيوني جاء بعد ضربة الايقاف التي سددتها الامة العربية الى الغزاة في تشرين٠ اي انه جاء في مرحلة التوازن الاستراتيجي وبدء الحشد استعدادا للهجوم المعاكس ٠ وكانت كل الدلائل تشير الى ان الامة العربية قد استعادت ثقتها بنفسها ، ووعت حقيقة القدرات الكامنة التي تمتلكها، وتوصلت الى شكل ما من اشكال التضامن ، ولم يبق امامها سوى الارتقاء بمستوى التضامن والحشد لتحقيق التفوق على الغزاة الذين وصلت قوتهم الى درجة الاشباع ، ولم يعد بوسعهم زيادة قوتهم الا ببطء وصعوبة ٠

في هذه اللحظة التيأصبحت الغزوة فيها على حافة المنحدر النازل ، ووقفت فيها الامة العربية على عتبة التحرير ، وانفتحت امامها آفاق الحصول على

« الكل » من خلال نضال قد يستمر عدة سنوات ، اعلن السادات انسحابه من المعركة ، وقبل اخذ « البعض » بدلا عن متابعة السعي للحصول على « الكل » الذي اصبح اخذه ممكنا · وكان الرابح الاول من هذا الانسحاب العدو الصهيوني ، الذي وجد الفرصة لالتقاط انفاسه ، واطالة الفترة التي تفصل بين مرحلة التوازن ومرحلة الهجوم المعاكس ·

ويقودنا هذا التحديد لموقع المعاهدة على منحنى الصراع ضد الغزوة الى القول بأن الخط المساوم الذي سار عليه الرئيس المصري لم يضعف الطوق المضروب حول رأس الجسر فحسب ، بل اجل ايضا لحظة انطلاق الهجوم المعاكس ، واضاف الى عمر الغزوة عدة سنوات ، واطال فترة الانتقال من التوازن الى الهجوم المعاكس ، مضاعفا بذلك الصعوبات والتضحيات التي ستجابهها الامة العربية خلال هذا الانتقال ·

وبالاضافة الى ذلك ، فان انهاء حالة العداء في لحظة التوازن الحرجة ، يعني شطب العذابات والتضحيات التي عرفتها الامة العربية في مراحل مجابهة الغزوة والتراجع الاستراتيجي ، وهدرا لدماء الشهداء الذين سقطوا في هذه المراحل · والحقيقة ان كل ما قدمته الامة خلال النكسات والهزائم السابقة لم يكن دون جدوى ، بل كان ثمنا (باهظا دون شك) للوصول الى التوازن كمنطلق للتحرير · والاقدام على مصالحة العدو في لحظة التوازن التي كان من المفروض ان يبدأ فيها استثمار نتائج التضحيات ، يشكل تبرعا باكثر من ربع قرن من عمر النضال العربي ، وخيانة لكل الشهداء الذين سقطوا خلال هذه الحقبة ، وتبديدا لموازنات الدفاع التي لم تقتطع من قوت الشعب الا لاحتواء الغزوة ، وتأمين التوازن ، والانتقال بعد ذلك الى الهجوم المعاكس ·

حقيقة المحتوى السلمي للمعاهدة

يشكل السلام هدفا من اهداف البشرية ، وغاية طالما حلمت الشعوب بالوصول اليها ، على اعتبار ان السلام ، او على الاقل حل الخلافات بالوسائل السلمية ، هو المناخ الضروري لسعادة الشعوب وازدهارها وتفجر طاقاتها الحضارية · والسلام ضرورة حيوية لبلدان الشرق الاوسط ، وشرط اساسي لتطوير المنطقة ، وحل معضلاتها المزمنة ، ومساعدتها على مجابهة تحديات العام ٢٠٠٠ في جميع المجالات ·

ورغم اهمية الدعوة الى السلام ، وطابعها الانساني الظاهري ، فأن قيمتها الانسانية غير مطلقة ولا تنبع من ذاتها ، بل من معطيات ثلاثة هي : طبيعة الظروف المحيطة بالدعوة ، ووضع الطرف الذي ينادي بها ، وجوهر الصراع

الذي تستهدف الدعوة ايقافه · بالدعوة الى السلام من قبل الغزاة عمل مخادع، غايته تغطية القهر ، وثني ارادة المقهور ، وامتصاص ديناميكية مقاومته بوسيلة غير عنيفة · في حين ان الدعوة الى السلام من قبل الطرف المهزوم عبارة عـن استسلام ، وتعبير ضمني عن الاستعداد لقبول القهر · وبين السلام المخـادع والسلام الاستسلامي يقف السلام الحقيقي الذي يضمن حل المنازعات قبل بـدء الصراع المسلح ، وقبل ان يكون هناك منتصـــر ومهــــزوم · او يضمن حـــل المنازعات بعد بدء الصراع ، شريطة ان تكون غايته تصفية آثار الصراع القهرية بشكل كامـــل ·

ويبقى موقع الدعوة الى السلام في اطار الصراع حجر المحك الـــذي يكشف طبيعة هذه الدعوة · فان جاءت لمنع العنف او لتصفية آثاره ، حملت الطابـــع الانساني · أما اذا جاءت بعد العمل العنيف لتكريس نتائجه فهي عمـــل غيــر انساني ، ووسيلة قهرية غير عنيفة تكمل الوسيلة القهرية العنيفة · وهي عمـل غير انساني ايضا اذا جاءت بعد العنف كتعبير عن القبول بنتائجه ، لانها تؤدي في هذه الحالة الى خضوع الانسانية لما اسفر عنه عمل قاهر غير انساني فـي طبيعتـــــه ·

انطلاقا من هذه الرؤية الموضوعية التي تجرد السلام من قدسيته المطلقة وغير الموضوعية ، يمكننا البحث عن حقيقة المحتوى السلمي للمعاهـــدة المصرية ـ الاسرائيلية التي ألصق بها مهندسوها كلمة « السلام » بشكل تعسفي مفتعل ·

يقول حجر المحك الذي اتينا على ذكره ان الدعوة الى السلام جاءت في مرحلة متأخرة من العدوان · وليس المقصود بالعدوان هنا حرب ١٩٦٧ ، التي اكمـل الغزاة فيها احتلال كامل الارض الفلسطينية بالاضافة الى جزء من الاراضـــي العربية المجاورة ، بل المقصود بالتحديد العدوان الذي بدأ منذ بداية الغـــزوة الاستعمارية ـ الصهيونية ، واسفر عن تشريد شعب فلسطين بقـوة السـلاح ، واحتلال جزء كبير من ارضه ، وبناء «الدولة ـ الثكنة» في قلب الوطن العربي·

والسلام بالمفهوم الصهيوني « لمعاهدة السلام » ، عبارة عن رشوة امنيـــــة قطرية قدمت الى الرئيس المصري لتشجيعه على الانسحاب من المعسكر العربي المقاوم، واضعاف هذا المعسكر بشكل يؤخر انطلاق الهجوم المعاكس الاستراتيجي ويثبت بالتالي القهر الصهيوني · وهو من هذا المنظور عمل غير انساني وغير سلمي (على اعتبار ان السلم انساني في جوهره) · والسلام بمفهوم السادات للمعاهدة ، عبارة عن هدوء واستقرار ناجمين عن ابتعاد النظام المصري عـن قضايا العرب وشجونهم ، والخضوع للقهر الذي يفرضه الغزاة · ورغم ان هذا السلام سيؤدي الى تحرير جزء من الارض العربية (وهذا مكسب قطري) ، فأنه سيؤدي في الوقت نفسه الى تكريس احتلال الاراضي العربية الاخرى ريثما يتـم

تعديل ميزان القوى (وهذه خسارة على المستوى القومي) · اي انه سيضمن السلام الذاتي على حساب القهر الذي يتعرض له الآخرون · ولذا فهو غير انساني وغير اخلاقي ايضا · اما السلام بمفهوم الادارة الاميركية للمعاهدة ، فهو وسيلة لتعزيز خط الدفاع الجديد (المصري ـ الاسرائيلي) في مواجهة حركة قوى التغيير والتحرر ، وتدبير يضمن استمرار النهب الامبريالي للمنطقة· ولذا فهو محروم من اية صفة انسانية · الا اذا كان نهب الآخرين واستغلال ثرواتهم ومنع تطورهم تدخل في باب الاعمال الانسانية !

ولقد قفزت « معاهدة السلام » عن جوهر المسألة · ولم تعالج مصدر النزاع في المنطقة ، ولم تستهدف تصفية آثار العدوان الاساسي الذي حول الشرق الاوسط الى بؤرة توتر ، بل اعتبرت آثار العدوان الاساسي حقائق ثابتة ، واكتفت بتصفية بعض آثار عدوان لاحق وقع في العام ١٩٦٧ ، وكان نتيجة من نتائج التوتر القائم وليس سببا من اسبابه · وما دام جوهر المسألة بعيدا عن الحل ، وما دام هناك عربي واحد خاضعا للقهر ، فان اي سلام يتحقق يكون عبارة عن سلام قسري ، لا علاقة له بالمفهوم الحقيقي للسلام ·

آثار انسحاب النظام المصري على ميزان القوى

راهنت الدولة الصهيونية منذ قيامها على عدم الصراع مع العرب مجتمعين ، وخلق الظروف السياسية ـ العسكرية التي تجعل الصراع يتم بين الجيش الصهيوني واجزاء من القوة العربية المسلحة · ويمكن اعتبار تبني القوات المسلحة الاسرائيلية اسلوب الحرب الخاطفة مظهرا من مظاهر الرهان المذكور ، على اعتبار ان هذا الاسلوب يضمن حسم الموقف بسرعة ، واخراج الجيوش العربية القريبة من المعركة ، قبل ان تحتشد الجيوش العربية البعيدة على مسارح العمليات للقيام بدورها القومي وتعديل موازين القوى العسكرية لصالح العرب·

ولقد دخلت اسرائيل حرب تشرين معتمدة على هذا الرهان · ولكن الشكل الذي دارت به هذه الحرب ، وعجز القوات المسلحة الصهيونية عن تحقيق الحسم السريع على الجبهتين السورية والمصرية ، وامتداد مدة القتال بشكل منح الجيوش العربية البعيدة الفرصة للانتقال من العمل الاستراتيجي الى العمق العملياتي والمشاركة عمليا في المعركة ، كانت عبارة عن مؤشرات خطيرة ، اقنعت قادة العدو الصهيوني بأن من المتعذر عليهم في المستقبل الاعتماد على امكانية تحقيق انتصار حاسم وسريع ، حتى لو كانت القوى المجابهة لهم تشكل جزءا فقط من قوة الامة العربية ·

وكان امام اسرائيل للخروج من هذا الموقف وسيلتان هما : زيادة قوتها الذاتية ، واضعاف قوة الخصم · وكانت زيادة القوة الذاتية تعني الدخول في

سباق تسلح جديد مع الدول العربية ، وتعبئة الطاقات البشرية الى الحد الاقصى · ولكن تنامي الثروة العربية ، وارتفاع المستوى الثقافي والتكنولوجي العربي بشكل مضطرد ، ومحدودية مصادر القوة المادية والبشرية في الدولة الصهيونية ، جعلت سباق التسلح مسألة غير مضمونة النتائج على المدى البعيد ، وجعلت بناء نظرية الامن الاسرائيلي على اساس التفوق العسكري مغامرة لا تستند الى اساس قوي · لذا انحاز معظم مخططي الاستراتيجية الصهيونية الى الرهان على اضعاف قوة الخصم ، مع متابعة تعزيز القوة الذاتية ضمن الحدود الممكنة ·

من هنا نبعت فكرة فك التحالف السوري ـ المصري ، كخطوة اولية لاخراج النظام المصري من موازين القوى · ولقد اخذت الولايات المتحدة على عاتقها مهمة التمهيد لعزل مصر عن النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، لانها وجدت ان هذا العزل لا يساعد اسرائيل فحسب ، ولكنه يؤدي ايضا الى اقلال حاجة القاهرة للسلاح السوفياتي ، ويجعلها اقدر على فك تحالفها مع موسكو ، الامر الذي يخدم المصالح الاستراتيجية الاميركية العليا · وعلى هذا الاساس بدأ كيسنجر عملية الخرق السياسي التي اسفرت عن خلاف سوري ـ مصري ، وتوقيع اتفاق فصل القوات في سيناء ، والغاء المعاهدة المصرية ـ السوفياتية·

وشجعت هذه النتائج القيادات الاسرائيلية على تبني الرهان الجديد · وساعدها على ذلك ثقة الرئيس المصري المطلقة بالولايات المتحدة ، ومنطلقاته القطرية البحتة ، واستعداده للتخلي عن المهام القومية على امل الحصول على مساعدة اقتصادية اميركية · ولكن ضخامة الخطوة النكوصية التي كان على الرئيس السادات ان يخطوها جعلت الاسرائيليين يعتقدون بأن مبادراته السلمية عبارة عن مناورة سياسية تستهدف اكتساب الرأي العام العالمي · ثم زالت الشكوك بعد زيارة القدس المحتلة ، وغدا اقتناص مصر في عداد الامور الممكنة، وتحول مع الزمن الى هدف اسرائيلي ذي افضلية اولى ·

ولقد حاول العرب قبل مؤتمر « كامب ديفيد » وبعده ايقاف الانجراف المصري نحو اسرائيل ، وتركوا خط الرجعة امام السادات مفتوحا ، ولكن « عقدة الاخ الاكبر » بقيت مسيطرة على تصرفات الرئيس المصري الذي تجاهل تبدل موازين القوى السياسية والاقتصادية داخل المعسكر العربي خلال ربع القرن الماضي ، وبقي متمسكا بالمفهوم القديم القائل بان العرب سيسيرون وراء مصر ، سواء سارت بها قيادتها على طريق الحرب ام على طريق السلام · وهكذا تابع

السادات خطواته حتى عقد المعاهدة ألتي اخرجت الجيش المصري عمليا من موازين القوى في الشرق الاوسط · وبخروج مصر من ميزان القوى (ولو مؤقتا) خسر المعسكر العربي قوات مسلحة تضم ٤٠٠ الف رجل ، و ١٧٠٠ دبابة متوسطة ، و ٢٥٠٠ عربة نقل جنود مدرعة ، و ١٣٠٠ مدفع ، و ٥٠٠ طائرة ، و ١٢ غواصة ، و ٥ مدمرات ، و ٢٠ زورق صواريخ ·

ولم تؤد المعاهدة الى شطب القوة المصرية فحسب ، ولكنها ادت ايضا الى تجميد القوات المسلحة العربية ــ الافريقية وتحديد مجال مشاركتها في الصراع ويرجع ذلك الى ان الاراضي المصرية تشكل قاعدة الحشد الطبيعية للجيوش العربية الموجودة في افريقيا · تماما كما تشكل دول الجبهة الشمالية ــ الشرقية قاعدة الحشد الطبيعية للدول العربية المشرقية · ومن الطبيعي ان يؤدي الوضع الجديد الى حرمان الجيوش العربية الافريقية من امكانية الحشد ، ويضع بينها وبين العدو الصهيوني حاجزا جغرافيا ، ويفرض عليها في حالة المشاركة في معركة المصير نقل قواتها مسبقا الى قاعدة الحشد المشرقية ، مع ما يمثله هذا النقل من صعوبات لوجستيكية ، او نقل القوات بعد بدء القتال ، الامر الذي يتطلب امكانات بحرية وجوية غير متوافرة عمليا الا في الدول العظمى · وهكذا ادت المعاهدة الى خسارة المعسكر العربي مبدئيا وحوالي ٦٥٧ الف رجل، و٤٣٠٠ دبابة قتال رئيسية ، و ٤٧٠٠ عربة مدرعة ، و ٢٥٥٠ مدفعا ، و ٩٥٠ طائرة قتال هي مجمل القوات المسلحة المصرية والسودانية والليبية والجزائرية والمغربية ·

فاذا اضفنا الى هذه السلبية ، تحرر العدو الصهيوني من التزامات القتال على جبهتين ، بكل ما تمثله هذه الالتزامات من صعوبات على مستوى اللوجستيك والمناورة الاستراتيجية وحرية الحركة · وقدرة هذا العدو على حشد كل قواته على الجبهة الشمالية ــ الشرقية ، وتحرر البحرية العسكرية الصهيونية من ضرورات تقسيم قواتها في البحرين الاحمر والابيض المتوسط ؛ وامكانية المناورة بالوسائط البحرية بعد فتح قناة السويس امام الاسطول الاسرائيلي ، تكونت لدينا صورة واضحة عن الخلل الاستراتيجي الذي نجم عن المعاهدة ، وجعل اسرائيل تعود الى العربدة في جنوبي لبنان ، والاستعداد للعدوان على سورية والمقاومة الفلسطينية ، بغية خلق حقائق جديدة تساعد على استنزاف قوى معسكر الفكر المقاوم ·

الدولة	عدد القوات بالالاف	دبابات	عربات مدرعة	مدافع ميدان	طائرات قتالية
مصر	٤٠٠	١٧٠٠	٢٥٠٠	١٣٠٠	٥٠٠
المغرب	٠٨٩	٠٩٠	٢٤٠	٢٤٠	٠٦٠
السودان	٠٥٢	١٦٠	٣٦٠	١٣٠	٠٢٠
الجزائر	٧٩	٣٥٠	٤٤٠	٦٨٠	٢٠٠
ليبيـــا	٠٣٧	٢٠٠٠	١١٦٠	٢٠٠	١٧٠
المجموع	٦٥٧	٤٣٠٠	٤٧٠٠	٢٥٥٠	٩٥٠

ان كل هذه المعطيات تشير الى ان المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية تخلـــق واقعا جديدا متفجرا في المنطقة ٠ وتشجع الدولة الصهيونية على اللجوء الى الخيار المسلح في تعاملها مع حركة التحرر العربي ٠ وهي على هذا الاســاس مساعدة قدمها الرئيس المصري للعدو القومي لتعزيز قدرته على ضرب عــرب المقاومة ٠ ورغم خطورة النتائج الاستراتيجية لهذا العمل النكوصي ، الذي حول القوات المسلحة المصرية من قوة قومية الى قوة معادية لحركة التحـــرر الوطنـــي بشكل مباشر وغير مباشر ، فأن استمرار جذوة الفكر المقـــاوم ، وضخامــــة الاحتياطي العربي الكامن (المادي والمعنوي) ، تجعلنا نميل الى الاعتقاد بـأن الامة العربية قادرة على تجاوز الوضع الجديد ، وتسريع عمليـــــة الحشد ، للوصول الى التوازن الذي يسمح بالانطلاق في الهجوم المعاكس الاستراتيجي ٠

(*) جدول يبين القوى التي خسرها المعسكر العربي او يحتمل خسارتها بسبب خروج مصر من المعركة ٠

سمير كرم

المعاهدة المصرية - الاسرائيلية ، تعميق التناقضات الدولية

تعميق التناقضات الدولية

تنطوي رؤية « معاهدة السلام » المصرية - الاسرائيلية معزولة عن السياق الدولي الذي وقعت فيه ، على مخاطرة الوقوع في التبسيط الشديد ، بل وعلى مخاطرة عدم القدرة على تقييم السبل الصحيحة لمواجهتها كخطوة جرت في اطار اوسع ٠ وهي مخاطرة جسيمة في حد ذاتها ليس فقط على الصعيد المحلي - القومي - انما ايضا على الصعيد العالمي ٠ بمعنى ان عدم الوعي بالابعاد الدولية لهذه « المعاهدة » ولهذا النوع من « السلام » الذي تهدف الى ايجاده يمكن ان يعزل القوى المناهضة له - سواء كانت دولية او قومية - عن امكان التأثير المباشر ضدها ٠

وليس المقصود بهذه الرؤية المعزولة عن السياق الدولي هو قراءة «المعاهدة» دون ادراك العواقب الدولية لنصوصها ، ولا هو اغفال القوى الدولية الفاعلة فيها ، انما المقصود في الاساس بعزل البعد الدولي او السياق الدولي للمعاهدة هو اغفال « الظروف الدولية » المحيطة التي مكنت من قطع الشوط اللازم الى توقيع « معاهدة سلام » بين مصر واسرائيل ٠

كذلك فانه من قبيل التضييق غير الموضوعي للبعد الدولي وراء هذه المعاهدة الاعتقاد بأنها نتاج جهد « عملية السلام » التي قامت بها الولايات المتحدة الاميركية ٠٠٠ اي انها نتيجة مؤامرة بطلها طرف « دولي » واحد ٠٠ وهو ايضا تصور ينطوي على تبسيط شديد ، حتى وان كان من الضروري ان نقر بأن

الطرف الاميركي كان الانشط والاكثر حركة وصاحب المصلحة في اخراج تلك النتيجة الى حيز الوجود ٠

اكثر من هذا ان من قبيل الرؤية القاصرة لهذه « المعاهدة » وهذا « السلام » اعتبارهما تطورا اقليميا يتعلق بالشرق الاوسط وحده ٠٠ اذ انه تطور اوسع كثيرا من اقليمي ويتعلق بما هو ابعد من الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ وبالاحرى فان الصراع العربي ـ الاسرائيلي هو بالنسبة لهذا التطور جزء من كل اشمل ، وان كان جزءا رئيسيا وبارزا ٠ وبمعنى آخر فان الصراع العربي ـ الاسرائيلي استخدم ـ من خلال عدد من اطرافه ـ في احداث هذا التطور لغايات ابعد من هذا الصراع نفسه ، غايات ذات طابع دولي ٠ وبالمعنى نفسه فان التطور المتمثل في « معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية يضفي على الصراع العربي ـ الاسرائيلي طابعا دوليا اوسع واعمق من الطابع الذي اكتسبه هذا الصراع من قبل في اي وقت ومنذ الاربعينات ٠

وصحيح ان ثلاثين عاما من عواقب الصراع العربي ـ الاسرائيلي انعكست بدرجات مختلفة وكيفيات مختلفة على الساحة العالمية حتى كادت تمس بكل امة في العالم ، وان عواقب هذا الصراع كانت لها اثارها على علاقات الدولتين الاكبر ، وعلاقات هاتين الدولتين بالدول الاصغر ، الا انه مع التطور المتمثل في توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية تحت الاشراف الاميركي المباشر يأتي معه بنتائج تدفع تأثيرات هذا الصراع على الساحة العالمية نحو تغييرات نوعية وتعقيدات جديدة اخطر ٠

وربما نلاحظ ان هذا ينطبق على عدد من « نقاط التحول » المهمة التي مر بها الصراع العربي ـ الاسرائيلي في تاريخه الطويل ، مثل جرب السويس (١٩٥٦) وعدوان حزيران ـ يونيو (١٩٦٧) وحرب اكتوبر ـ تشرين (١٩٧٣) ـ خاصة ان الاجهزة دفعت الدولتين الاكبر نحو حافة المواجهة النووية او التهديد بها ـ الا ان نقطة التحول الجديدة التي تحدثها « معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية تختلف نوعيا في كونها تغير اتجاه الصراع نفسه ٠ فقد كانت الحروب العربية ـ الاسرائيلية كلها تراكمات للصراع في اتجاه واحد هو اتجاه تصعيد الصراع واسلوب حله عسكريا على اساس حل التناقض بين طرفيه باستمرار محاولة طرف من الطرفين القضاء على استمرار مقاومة الطرف الآخر له عسكريا ٠ وكانت التفاعلات الدولية مع هذا الصراع بجوانبها المختلفة واتجاهاتها المختلفة تجاه قوى الصراع ـ تسير ايضا في الاتجاه نفسه ٠ اتجاه استمرار الصراع على اساس استحالة حل التناقض القائم فيه عن طريق « التقريب » بين طرفيه ٠

اما نقطة التحول الجديدة المتمثلة في « المعاهدة » فهي تغير تماما من حركة

« الاستقطاب » في هذا الصراع بوجهيه المحلي ـ القومـي ـ والدولي علـى السواء · وهي وان كانت لا تزال في طور « المشروع » ـ لان « المعاهدة » من حيث امكانات تنفيذها واستمرارها محفوفة بمخاطر عديدة محلية ودولية أيضا ـ الا أنها بمجرد توقيعها تفرض وضعا جديدا في نوعه من خلال هذا الخلط الـذي عبرنا عنه بأنه تغيير في حركة « الاستقطاب » ، والذي يمكن ان نعبر عنـه ايضا ـ بكلمات اخرى ـ بأنه انتقال من « الاستقطاب » الى « التشتيت » ·

ولتوضيح ما نعنيه ، يكفي ان نلاحظ ان احد جانبي الصراع ـ وهو الجانب الذي تقف فيه اسرائيل ومعها الولايات المتحدة الاميركية احتفظ بمواقعه التـي كان فيها خلال مراحل الاستقطاب الكامل لهذا الصراع التي تمثلت في نقـاط ذروة مثل حرب ١٩٦٧ وحرب ١٩٧٣ ··· بينما خرج من الجانب الآخر ـ وهو الجانب الذي يقف فيه العرب ومؤيدوهم (الاتحاد السوفياتي اساسا) ـ طرف اساسي المفروض انه يعادل في وزنه في ميزان الصراع للطرف الاسرائيلي ، وهو مصر · وفي الوقت نفسه الذي احدث فيه هذا الخروج هزات محلية على هذا الجانب ناتجة من محاولات اخراج اطراف اخرى منه وتقريبها الى الجانب الآخر ··· نجد أن اطرافا مساعدة ـ على الجانب العربي من الصراع ـ مثـل الاتحاد السوفياتي تزداد اقترابا الى هذا الجانب على الرغم من أنها لم تكـن طرفا مباشرا في الصراع ·· وعلى الرغم من ان الولايات المتحدة · ـ كطرف مؤيد لاسرائيل على الجانب الآخر قد كسبت مواقع على الطرف المعاكس مكنتها من جذب الطرف الرئيسي (مصر) · وهكذا نجد انه في هذه المرة بالذات ، ومع نقطة التحول الجديدة تعقدت حسابات الصراع ومعادلاته الهندسية التـي كانت في حالة ابسط ابان نقاط التحول السابقة ·

وليس هذا من قبيل « جبر الصراع » او من قبيل محاولة الصياغة الرياضية المجردة ·· فان لهذا « التشتت » الذي يحل محل الاستقطاب بالنسبة للاطراف الرئيسية آثاره الخطيرة على المواقف الدولية بقدر ما له من آثار خطيرة على احتمالات تطور الصراع نفسه ··

واذا اردنا ان ندرك مدى الخطر الذي تنطوي عليه هذه التأثيرات يمكننا ان نشير الى مثل آخر لعملية انفراط الاستقطـاب وتحولـه الى تشتت على الساحة الدولية ـ وان كان مثلا له خصوصياته وفروقاته العديدة ـ وهو مثل تحـول الصين البلد الاشتراكي من حليف للاتحاد السوفياتي في الصراع بين المعسكرين الاشتراكي والامبريالي الى طرف غير معاد ـ على اقل تقدير ـ للولايات المتحدة· بل يمكننا ان نقول ان نقطة التحول التي يمثلها هذا الانتقال تحدث في توافـق زمني له دلالة مع نقطة التحول المتمثلة في انتقال مصر الـى خـارج الجانب العربي في الصراع ضد اسرائيل ، وهو خروج قد يكون تمهيدا لانتقالها الـى

الجانب الآخر · وفي كلتا هاتين الحالتين يجد الاتحاد السوفياتي نفسه طرفـا مقصودا بهذا التحول بشكل اساسي · ومن هنا يزداد اقترابه حتميا الى الجانب العربي في الصراع ضد اسرائيل ·· حيث لا تعود اسرائيل مجرد دولـــة معتدية ينبغي اعادتها الى جادة الصواب في العلاقادت مع جيرانها ، بل تتحول الى مصدر خطر على السلام والتقدم في المنطقة وفي العالم ، وهو تعبير يعني خطرا على أمن الاتحاد السوفياتي وخطرا على الاشتراكية ومستقبلها ·

فاذا كان الاستقطاب يتحول الى تشتت على صعيد الاطراف الرئيسية (متمثلا في خروج مصر) بينما يزداد الاستقطاب على صعيد الاطراف المساندة (متمثلا في موقف سوفياتي اشد التزاما) فان لنا ان نستنتج ان الصراع قـد اكتسب بعدا دوليا اعمق ·

كذلك فان ثمة ابتعادا عن الاستقطاب على صعيد آخر ، هو صعيد التمايز بين مواقف الاطراف المتباينة على الجانب الواحد · وهذا الابتعاد عن الاستقطـاب قد نال الجانب العربي ايضا ، حيث اختلفت ـ نتيجة توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ـ مواقع الاطراف على الجانب العربي ، بحيث لم تعد ثابتة فـــي المواقع التي كانت فيها قبل التوقيع · ودون الدخول في تفصيـــلات مواقـــف اطراف مثل السعودية والاردن والمغرب فان مواقف هذه الاطراف قد وضعتهـا في مواقع ليست هي مواقعها السابقة على « المعاهدة » ، وخاصة مواقعهـــا ازاء الاطراف الدولية · ان تغييرا ما في نظرة الاردن (الملك حسين) الى دور الولايات المتحدة ، وكذلك في نظرة المملكة السعودية الى هذا الدور ، ثم التلميح الى احتمال تقارب يؤدي الى علاقـات مع الاتحـاد السوفياتي ··· هي ملامح تغيير في سمات سياسات هذه الاطراف في غير اتجاه الطرف الذي خرج من الجانب العربي ، وفي غير الاتجاه المتوقع بحكم العلاقات الخاصة بين هـــذه الاطراف والطرف الدولي المساند للجانب الاخر ، اي الولايات المتحدة ·

وحتى الآن فان تغير بعض المواقع العربية ـ ولو بدا طفيفا ، كما هو حـال الموقف السعودي والاردني والغربي ـ قد ظهرت له تأثيرات واضحة على مراحل ما بعد التوقيع سواء فيما يتعلق بمقدرة الاطراف الموقعة على المضي في الخط نفسه او تطويره ، او فيما يتعلق بتطوير مواقف الاطراف الدوليـــة · فمـن الواضح ـ مثلا ـ ان موقف الاتحاد السوفياتي الذي يزداد ارتباطا بالجانـب العربي من الصراع ينطوي على روح عالية من الاستجابة المبنية على اسـاس ان هذه التغيرات ملائمة لمساندة قضية الجانب العربي والاعتماد عليه في الوقت نفسه ، (تأييد الاتحاد السوفياتي لمقررات قمة بغداد في اعقـاب اتفاقـات كامب ديفيد ، ثم تأييد الاتحاد السوفياتي لمواقف الاقطار العربية المناهضة للمعاهدة ومسارعته ـ التي تمثلت في زيارة وزير الخارجية اندريه غروميكو لدمشق ـ الى

التنسيق معها ، ثم تأييده لقرارات الوزراء العرب في بغداد الخاصة بمعاقبة مصر ٠)

هكذا فان توقيع « معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية لا يقتصر على كونه فصلا جديدا في رواية التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي ، وهو احد الجوانب الدولية ايضا بحكم دور الولايات المتحدة في هذا التحالف واهدافه الدولية ـ الاستراتيجية خاصة من ورائه ـ انما هو بالاضافة الى ذلك :

□ فصل جديد في رواية الصراع ـ الانفراج في العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، في اخطر مواضع هذا الصراع ، وهو موضع الشرق الاوسط ٠

□ فصل جديد في رواية التعاون ـ التنافس في العلاقات بين الولايات المتحدة واوروبا الغربية ، كذلك في اخطر مواضع التنافس بينهما ، وهو موضع الشرق الاوسط ٠

□ فصل جديد في رواية التجاذب ـ التنافر بين اطراف الصراع الشرق اوسطي والدولتين الاعظم ، حيث تتأكد مبدئية هذه العلاقات ، خاصة العلاقات بين الجانب العربي باطرافه المختلفة والمعسكر الاشتراكي ٠ وهي علاقة مناقضة لطبيعة العلاقة بين اسرائيل والمعسكر الامبريالي فعلى حين ان اسرائيل ثبتت على تحالفها مع المعسكر الامبريالي في كل الظروف ابتداء من ١٩٤٨ الى اليوم، فان الجانب العربي تذبذبت كثيرا علاقاته مع المعسكر الاشتراكي ، وتأتي المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية لتدخل تطورا خطيرا يتمثل في انتهاج احد اطراف الجانب العربي سياسة المقاومة النشطة والهجومية لمصالح الاتحاد السوفياتي او وجوده الخارجي او تحالفاته ، والحركة النشطة والهجومية ايضا تنفيذا لمخططات الولايات المتحدة وحماية لمصالحها ٠

□ فصل جديد في رواية الصراع ـ السيطرة على مصادر النفط في الشرق الاوسط كعملية امبريالية أساسية متعددة الجوانب الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية والاجتماعية ، نظرا لما للنفط من دور حيوي خطير للغاية في الدورة الكاملة المسماة بالمصالح الغربية التي تبدأ بالحصول على الطاقة مرورا الى التحكم السياسي والاقتصادي في اسعارها ـ واسعار التجارة العالمية ـ ثم الى السيطرة الاستراتيجية اللازمة لاستمرار هذه الدورة ٠ فاذا كانت المعاهدة تشكل استمرارا لسياسة دعم الوجود الاسرائيلي ودوره في المنطقة ـ الذي مورس على مدى السنوات الثلاثين الماضية ـ فانها في الوقت نفسه تشكل تحولا هاما باضافتها مصر الى معسكر العمل المباشر لحماية ودعم المصالح الغربية من خلال علاقة تنسيق جديدة مع اسرائيل ، وعلاقة صدام يمكن ان

تستمر سنوات طويلة مع الدول العربيــة ، وتخدم من خــلال ذلك أيضا الاهداف نفسها التي خدمتها اسرائيل وحدها من قبل ٠

التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي

مرحلة تحول نوعي

اما من حيث علاقة التحالف الاميركية ـ الاسرائيلية فان المعاهدة المصريــة ـ الاسرائيلية تشكل بالفعل تطويرا لهذا التحالف من خلال تطوير دور اسرائيل فيه، واضافة دور مصر للخروج به من نطاقه الاقليمي الى نطاق تنفيذ خطط الامبريالية الاميركية خارج منطقة الشرق الاوسط نحو ما يسمى الان « قوس الازمة » وهي المنطقة المحيطة بالشرق الاوسط الممتدة من الاطراف الجنوبية للاتحاد السوفياتي الى شمال شبه القارة الهندية (أفغانستان ـ باكستــان ـ ايــران) الى جنــوب شبه الجزيرة العربية (والقرن الافريقي) ٠

ان المرحلة السابقة مباشرة على توقيــع المعاهــدة قد حققــت بالنسبــة لهذا التحالف المعادلة التي وصفها الرئيس الاميركي الاسبق ريتشارد نيكسون أثنــاء زيارته لاسرائيل في حزيران (٠يونيو) ١٩٧٤ على النحو التالي : « ان علينا ان نجعل اسرائيل قوية بما فيه الكفاية الى حد لا تخشى معه التفاوض ، ولكن ليست قوية الى الحد الذي تشعر معه أنه لا حاجة بها الى التفاوض ٠ كذلك ينبغــي ان تكون اسرائيل قوية بما فيه الكفايــة الى الحد الــذي يحجــم معه جيرانهــا عن مهاجمتها ويكون لديهم حافز على التفاوض معها » ٠

وبتحقق هذه المعادلة يكون التحالف الاميركــي ـ الاسرائيلــي قد حقق مرحلة اداء دوره الاقليمي ، وهو دور التصدي للتحولات العربية المضادة للامبرياليــة اقتصاديا واستراتيجيــا واجتماعيــا ٠ ويشكــل توقيــع المعاهــدة المصريــة ـ الاسرائيلية نقلة جديــدة تمثل اسرائيــل فيهــا ـ أو يريد التحالــف الاميركي ـ الاسرائيلي ان تمثل اسرائيل فيها ـ قوة لا تكتفي بشغل العرب بالصراع ضدها ، انما قوة « تقودهم » نحو الصراع ضد القوى المناهضة للامبريالية عربية وغير عربية ٠

لقد وصل تحالف المصالح الاميركية ـ الاسرائيليةـ كتعبير للباحث الصهيوني ناداف صفران ـ الى نقطة « الفاعلية القصوى » كنظام تــرى فيــه الولايــــات المتحدة حماية لمصالحها الاستراتيجيــة والاقتصاديــة في الشرق الاوسط ، ومن الطبيعي تجاوز هذا النطــاق الى نطــاق أوسع لتحقيق فاعليــة أشد تأثيرا فيما يتجاوزالهدف التقليدي ٠ وقد عبرت أرقام المساعــدات الاقتصاديــة والعسكرية التى قدمتها الولايات المتحدة لاسرائيل في مرحلة ما قبل المعاهــدة عن حقيقـــة

نطاق وفاعلية التحالف • فقد قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل مساعدات تزيد قيمتها على عشرة مليارات من الدولارات خلال الفترة من نهاية حرب ١٩٧٣ الى ما قبل توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وهو رقم يمثل خمسة أمثال ، ما حصلت عليه اسرائيل خلال الفترة منذ نشأتها الى ما قبل حرب ١٩٦٧ ، وكان هذا في حد ذاته نتيجة لانتقال دور اسرائيل بالنسبة للولايات المتحدة من « دور مفيد في المصالح الاميركية في الشرق الاوسط ، الى القيام « بالدور الرئيسي » في حماية هذه المصالح • وفي الفترة من ١٩٧٣ انتقل الدور الاسرائيلي الى ما يصفه صفران بأنه التطابق الكامل بين المصالح • ويتوافق هذا التحول زمنيا مع بدايات تفكير الولايات المتحدة في التحرك عسكريا في الشرق الاوسط لحماية مصالح الغرب (لاحتلال منابع النفط) ، وهو تفكير استوجب على الصعيد الاستراتيجي تنسيقا عسكريا أميركيا ـ اسرائيليا ، وهو ما بدأ في الواقع في حرب ١٩٧٣ •

في هذا التحول لم يكن دور اسرائيل مقصودا لذاته فحسب ـ اي مقصودا على صعيد اقليمي فحسب ـ انما كان مقصودا وبالحاح بسبب السياق العالمي للسياسة الخارجية الاميركية ، التي أصيبت في الفترة التي واكبت حرب ١٩٧٣ بعدة نكسات ابتداء من فيتنام وكمبوديا ولاوس الى البرتغال وتركيا • ففي هذا السياق كانت الادارات الاميركية المتعاقبة ـ ابتداء من ادارة نيكسون ، ثم جيرالد فورد ، واخيرا جيمي كارتر ـ تلح على تحقيق انتصار في الشرق الاوسط ، وكان السبيل الاساسي اليه هو احداث وضع جديد في هذه المنطقة يعطي الرصيد الاكبر من المصالح فيها للولايات المتحدة وللتحالف الاميركي ـ الاسرائيلي • وهكذا فان ما سمي ـ خلال الفترة السابقة على المعاهدة بعملية « اعادة تقييم » السياسة الاميركية في الشرق الاوسط ـ والذي فهمه بعض الاطراف على انه بداية اقتراب أميركي نحو المواقع العربية في « النزاع » العربي ـ الاسرائيلي ـ قد انتهى في الواقع الى تأكيد من الادارة الاميركية والكونغرس بأن المصلحة الحيوية للولايات المتحدة في الشرق الاوسط لا يمكن ان تتحقق الا بتسوية تحتفظ بالعلاقة الاميركية ـ الاسرائيلية الخاصة قوية ، وان مصلحة الولايات المتحدة لا يمكن ان تسمح بمواجهة مع اسرائيل ، كما انها لا يمكن ان تسمح باستمرار حالة الاستقطاب اي تربط القضية العربية بالاتحاد السوفياتي •

وقد احتفظت الولايات المتحدة بعلاقتها قوية مع اسرائيل رغم كل ما بدا من اختلافات او خلافات بينهما على طريق تحقيق الشق الثاني من « اعادة التقييم » وهو فرط حالة الاستقطاب العربي السوفياتي • وقد تحقق هذا الشق بالعمل على اقناع اطراف عربية بان السبيل الوحيد لتسوية في الشرق الاوسط هو بالتسليم بان العلاقة القوية التي تربط بين الولايات المتحدة واسرائيل هي شرط أساسي لاقناع اسرائيل باية تسوية ممكنة ، أي بتقديم اية تنازلات • وكان معنى هذا ـ

علاقتهم القوية بالاتحاد السوفياتي ، انما ستكون مستعدة لتقديم تنازلات للعرب اذا دخلوا في علاقات قوية مع الولايات المتحدة ٠

وتوقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية هو الانجاز الاكبر للتحالف الاميركي ـ الاسرائيلي من حيث انه بني على اقناع القطر العربي الاكبر بتجيير « التنازلات » الاسرائيلية لاميركا لانها لا يمكن ان تجير للاتحاد السوفياتي ٠ وبمعنى أوضح فان عملية « اعادة التقييم » التي قامت بها الولايات المتحدة لعلاقاتها مع اسرائيل أسفرت عن عملية اعادة تقوية للتحالف نتج عنها في النهاية سحب التنازلات العربية لاسرائيل لحساب التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي ، وسحب «التنازلات» الاسرائيلية للعرب لحساب التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي أيضا ! وهكذا لم تعد هناك أية تنازلات « متبادلة » بين الجانبين العربي والاسرائيلي ـ التي نتجت عنها التسوية الثنائية المتمثلة في المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ـ تصب خارج اطار المصالح الاميركية ٠ والفرق بالتأكيد واضح بين أن « تتنازل » اسرائيل عن سيناء لمصر في ظروف تجبر فيها اسرائيل تحت ضغط عسكري عربي ـ أو ضغط دبلوماسي دولي مؤيد للعرب ـ على الانسحاب من سيناء او التخلي عنها ، وبين معاهدة تنتهي بنقل سيناء من سيطرة اسرائيل الى سيادة مصر فيما سيادة مصر السياسية والاقتصادية والاستراتيجية صارت جزءا من تركيبة التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي في صورته الموسعة ٠

في ظل هذا التحول النوعي في التحالف الاميركي ـ الاسرائيلي أصبح من الضروري ان يتحول من طابع التحالف الضمني الذي اكتسبه طوال ثلاثين عاما الى طابع التحالف الرسمي من خلال « الضمانات » الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية (النفطية) التي نصت عليها الملاحق الاميركية ـ الاسرائيلية للمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وهي ملاحق لا تقل بأي حال عن « معاهدة أمن مشترك » بين واشنطن وتل ابيب ، حتى ان كثيرا من نصوص ملاحق الضمانات يماثل نصوص معاهدات الامن المشترك الواقعة بين الولايات المتحدة ودول مثل اليابان وكوريا الجنوبية وتايوان ٠

ترجيح كفة الصراع
على كفة الوفاق

اما من حيث علاقة الصراع ـ الوفاق بين الدولتين الاكبر ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ـ فان توقيع المعاهدة بين مصر واسرائيل بالاشراف و « المشاركة الكاملة » من جانب الولايات المتحدة قد الحق ضررا مباشرا بالاتحاد السوفياتي وبتوازن هذه العلاقة بوجهيها الصراعي والوفاقي ٠

صحيح أن الولايات المتحدة عملت في الشرق الاوسط على أن تعزل الاتحاد السوفياتي عن « التسوية » قبل وقت طويل من بداية طريق المعاهدة ،ونجحت بالفعل في اقناع اطراف عربية (مصر في الاساس) بأن الخطر الراهن هو خطر الشيوعية وليس خطر الصهيونية ·· ولكنها في الوقت نفسه ، وبسبب هذه السياسة ذاتها ــ أوجدت واقعا جديدا يفرض على الاتحاد السوفياتي ان يخوض الصراع من أجل مصالحه المباشرة وليس من أجل نصرة حلفاء أو اصدقاء له في المنطقة · وبهذا المعنى أصبح على الاتحاد السوفياتي ان ينحي اعتبارات « الوفاق » أو « الانفراج » على الولايات المتحدة ردا على تنحيه دوره في المنطقة · هذه التنحية التي بدأت من قبل حرب ١٩٧٣ بتنسيق كشفته الاحداث التالية بين الادارات الاميركية والنظام المصري · كما كشفت الاحداث ان ابعاد الاتحاد السوفياتي عن « الصراع » الشرق اوسطي وعن « التسوية » لم يكن لمجرد اضعاف الجانب العربي في هذا الصراع وارغامه على التسوية التي جاءت بـ « المعاهدة » المصرية ــ الاسرائيلية ، انما كان لاضعاف الاتحاد السوفياتي أيضا ومحاصرته استراتيجيا ·

والسياسة التي أدت الى « المعاهدة » والى تصعيد التحالف الاميركي ــ الاسرائيلي على النحو الذي شرحناه قبلا هي نفسها التي ادت الى انتهاج الاتحاد السوفياتي الاستراتيجية التي تعتبرها الولايات المتحدة ــ والغرب عامة ــ استراتيجية محاصرة الشرق الاوسط من الخارج ، أي من التخوم المحيطة به (أفغانستان ــ اثيوبيا ــ عدن ، وقد كادت التفسيرات الاميركية طوال عام ١٩٧٨ تضيف ايران ، الى ان تبين بوضوح أن الثورة الايرانية لم تكن بأي حال جزءا من نشاط سوفياتي) ·

ومن الطبيعي ان يعتبر الاتحاد السوفياتي الطريق الذي دفعت فيه الولايات المتحدة تطورات الشرق الاوسط ، والذي انتهى بالاحداث المتلاحقة السريعة ابتداء من زيارة أنور السادات للقدس المحتلة ، الى اتفاقات كامب ديفيد الى توقيع المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية ــ هو حصيلة الهجوم الذي تشنه الولايات المتحة ضده (الهجوم المعادي للشيوعية) في أخطر مواقع هذا الهجوم · ومن الطبيعي أن يفسر الاتحاد السوفياتي النشاط الكثيف الذي قامت به الولايات المتحدة في الشرق الاوسط حتى أوصلت التطورات الى هذا الحد أنه نشاط موجه في الاساس ضد الاتحاد السوفياتي، وانه استغلال للصراع العربي ــ الاسرائيلي لتحقيق أهداف امبريالية تتعلق بخطط الولايات المتحدة ضده بقدر لا يقل عن تعلقها بخطط الولايات المتحدة لحماية اسرائيل او لحماية « مصالحها » النفطية في منطقة الشرق الاوسط ·

ان توقيع المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية لا يمكن ان يرى من وجهة النظر

السوفياتية على انه مجرد تفـرد اميركـي بتسويـة المشكلـة بعيدا عن تأثيرات الاتحاد السوفياتي وتأييده للعرب ، انما هو يرى من هذا الجانب كانتقال مـن مواقع الدفاع ـ التي شكلت الحد الادنى اللازم لاتفاقات « الانفراج الدولي » ـ الى مواقع هجومية مناقضـة لهذا الانفـراج · وأنهـا تمثـل عودة الى ممارسة سياسة « الاحتواء » أو « الحصار » ضد الاتحاد السوفياتي ـ الذي هو قريـب بحدوده كثيرا على منطقة الشرق الاوسط ـ بواسطة اعادة ترتيب التحالفات من الاوضاع الاستراتيجية في المنطقة ·

ويعتبر الاتحاد السوفياتي ان توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ـ وان لم يكن يشكل نهاية في حد ذاته ـ هو نتيجة ومؤشر جديد يضاف الى مؤشـرات اخرى على ان « القوى التي اصبحت لها ـ اكثر واكثر ـ اليد العليا في رسـم سياسة العلاقات مع الاتحاد السوفياتي هي القوى التي تريد تدمير الانفـراج والعودة بالعالم الى حالة الحرب البـاردة » · وهي اشارة سوفياتيـة متكـررة كثيرا في الفترة الاخيرة الى مجموعة اعضاء مجلس الامن القومي الاميركـي ، وبصفة خاصة زبغنيو برجنسكي مستشار الرئيس كارتر للشؤون الامنية ·

ويحمل الاتحاد السوفياتي هذه المجموعة مسؤولية توجيه السياسة الخارجية الاميركية وجهة معادية للانفراج على اكثر من صعيد ، اهمها الشرق الاوسـط والعودة به الى طريق الاحلاف المعادية للاتحاد السوفياتي والرامية الى قمـع التغييرات الداخلية في المنطقة ، ومنها ايضا صعيد « اللعب بورقة الصين » ضد الاتحاد السوفياتي ، وثالثا صعيد مناهضة الجهود لعقد معاهدة ثانية للحـد من الاسلحة الاستراتيجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي (سالت ـ ٢) وغيرهـا ·

وليس هناك ما يبرر التصور بأن الاتحاد السوفياتي انما يقصد مجموعـة افراد وليس مؤسسة حاكمة او مجموعة اصحاب القرار في الولايات المتحـدة ككل ، حتى وان كان الاتحاد السوفياتي يحصر اتهامه في مجموعة محـددة ، فانما ليترك مجالا للمناورة امام قوى اخرى لتبدي قدرا من الاعتدال والاهتمـام بخط الانفراج الدولي والتعاون بين الدولتين الاكبر · ولكن من المهم ان نلاحـظ ان الشرق الاوسط يشكل بالنسبة للاتحاد السوفياتي بين هذه الاصعدة اخطرها استراتيجيا (امنيا) وسياسيا ، وذلك لاسباب عديدة :

☐ ان « نجاح » الولايات المتحدة في تنحية الدور السوفياتي عن « عمليـة السلام » ـ ولو في المدى القصير ـ يشكل خطرا على الرصيد السوفياتي لدى قوى المنطقة نفسها التي لا تزال تعول على العلاقة الاستراتيجية معه · وكمـا سبق ان اشرنا فان الرصيد السوفياتي في العلاقات الشرق اوسطية اشبه مـا يكون بحالة العجز في الميزان التجاري · وهذا الاحتلال او العجز ناتج مـن

حقيقة ان الاتحاد السوفياتي يجد نفسه الآن في وضع يرتبط فيه بعلاقات مع جانب واحد من جانبي الصراع ، هو الجانب العربي · وبالتالي فلا مجال لتأثير على الجانب الآخر ـ الاسرائيلي ـ شبيه بالتأثير الذي تمارسه الولايات المتحدة على الجانب العربي · فضلا عن التذبذبات التي تدخل على العلاقات السوفياتية ـ العربية بين حين وآخر ، والتي تضيف الى رصيد الولايات المتحدة في المنطقة بطريقة غير مباشرة ·

ووصول التطورات الى حد توقيع « معاهدة سلام » بين مصر واسرائيل ـ على « المشاركة الكاملة » للولايات المتحدة يخلق بالنسبة للاتحاد السوفياتي حالة من انعدام التوازن الاستراتيجي ، هي الوجه المقابل لحالة انعدام التوازن الاستراتيجي الناشئة بالنسبة للعرب عن طبيعة التحالف الاميركي والاسرائيلي ·

□ ان الاتحاد السوفياتي قد اعتبر دائما ان اهتمامه باقرار « سلام وطيد وعادل في الشرق الاوسط » قد اكتسب معنى جديدا في السبعينات « فقد اصبح تطور وتجسيد عملية الانفراج واضفاء طابع اللاعودة على هذه العملية تتوقف في الكثير على ازالة بؤر التوتر الدولي والتي يعتبر الشرق الاوسط من اخطرها » · ولكن « المعاهدة » تأتي لتضيف عنصرا سالبا للانفراج الدولي ، وتؤكد الامكانية العملية لنفي « طابع اللاعودة » عن عملية الانفراج الدولي هذه · وهو عنصر لا يقوم وحده وانما تقوم الى جانبه عناصر سالبة اخرى جعلت الاتحاد السوفياتي يقيم الفترة منذ تولي ادارة كارتر السلطة في الولايات المتحدة تقييما سلبيا فيما يتعلق بهدف « اعادة بناء نظام العلاقات الدولية على اساس العدل والمساواة والمنفعة المتبادلة والتقدم الشامل » · الا ان الاتحاد السوفياتي يعلق اهمية خاصة على الشرق الاوسط · « من الطبيعي ان عدم استقرار المنطقة واستمرار امكانية الانفجار العسكري يتعارضان بصورة مباشرة مع مصالح الاتحاد السوفياتي » ·

وبنظر الاتحاد السوفياتي فان المعاهدة تخلق وضعا يهدد السلام في « هذه المنطقة التي تتاخم حدوده الجنوبية مباشرة » ، من خلال اغفالها لحقوق اطراف اساسية في المنطقة ، ومن خلال اغفالها لدوره كدولة كبرى ذات مصالح استراتيجية · وايضا من خلال خلقها صراعات حادة بين اطراف الجانب العربي فيما بينها ـ اي من خلال تحطيمها لوحدة الموقف العربي ـ ثم من خلال « الكيد للصداقة السوفياتية العربية » · وكل هذه السبل هي بنظر الاتحاد السوفياتي ـ كما علق عليها مباشرة اثر توقيع « المعاهدة » (برافدا) من قبيل « اللعب على التناقضات الدولية · وهو لعب خطر حيث نرى اثاره السلبية الآن في الشرق الاوسط · فلم تؤد التنازلات التي قدمت للامبريالية ونسف العلاقات مع الاتحاد السوفياتي الا بسقوط ضحية لتهديد وابتزاز الامبرياليين والصهاينة » ·

وهكذا فان معارضة الاتحاد السوفياتي للمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ليست مجرد استمرار في دعم الجانب العربي انما تشكل مسؤولية اخرى اوسع نطاقا ، هي مسؤولية مقاومة العودة عن الانفراج الدولي ، وهي مسؤولية تتعلـــق بالصراع ضد القوى المناهضة لهذا الانفراج ، وفي مقدمتها الصهيونية بوجهها المتمثل في المؤسسة الاسرائيلية ، بوجههـــا المشارك في المؤسسة الحاكمـــة الاميركية · ومن هنا تبرز حاجة الاتحاد السوفياتي الملحة الى « تلاحم كل الدول العربية الساعية الى تسوية عادلة لمشكلـــة الشرق الاوسط ضد الصفقـــات الاستسلامية كأمر هام بدرجة لم يبلغها من قبل » · (برافـــدا) ، وذلك لان المعارضة العربية للتطورات الجديدة هي السبيل الاساسي لتأكيد صحة وسلامة الموقف السوفياتي ضد التفرد الاميركي الذي هو سياسة القوى المعادية للانفراج الدولي داخل الولايات المتحدة · وعدم توحد العرب في مواجهة العملية الاميركية من شأنه انجاح السياسة الاميركية · وزيادة صعوبة الموقف السوفياتي الرامي الى ترجيح كفة القوى المؤيدة للانفراج الدولي ، وهي القوى التي ترى استحالة التوصل الى تسوية شاملة حقيقيـــة في الشرق الاوسط في غياب الاتحـــاد السوفياتي ودون تأييد منه · ولهذا ايضا كان لا بد للدبلوماسية السوفياتية ان تعني بمواقف الدول العربية الوثيقة الصلة بالولايات المتحدة لعزلها عن الالتزام الكامل بالدبلوماسية الاميركية الانفرادية وتأييدها · وفي هذا الاطار يأتـــي تأييد موسكو لقرارات مؤتمر بغداد ، ويأتي اعتدال موسكو تجاه الرياض ·

□ ان انتهاء الجهود الاميركية الى معاهدة ثنائية بين مصر واسرائيل قـــد ادى ـ ضمن ما ادى اليه ـ الى قتل صيغة جنيف ، التي كانت حتـــى التوقيع الصيغة الامثل بنظر الاتحاد السوفياتي · وبالتالي فان الاتحاد السوفياتي ربما وجد نفسه في موقف اكثر شبها بالموقف العربي · باحثا عن استراتيجية بديلة بعد ان فقدت الصيغة التي كان يقترحها اية امكانية عملية لتحققها · وفي هذا الموقف فان الدبلوماسية السوفياتية تجد نفسها في موقف المجبر على تحطيـــم البناء الذي اقامته الولايات المتحـــدة مع مصر واسرائيـــل قبل تقديم اي مخطـــط لاقامة بناء آخر بديل · ومن ثم تتركز جهودها على ضرورة اسقاط المعاهدة ·

ومن الواضح ان الغرب ينظر الى هذا الواقع على انه دليل على ارتـــداد الدبلوماسية السوفياتية في الشرق الاوسط الى مواقع ردود الفعل السلبية امام الهجمة الاميركية ولكن هناك في الغرب ايضا من ينظر الى الدبلوماسية الاميركية ـ رغم النجاح المرحلي الذي حققته بالتوصل الى المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ـ على انها لم تنجح الا في تحقيق « الاسهل » ، وان « الاصعب » في مشكلـــة الشرق الاوسط لا يزال بغير حل ان لم يكن قد ازداد تعقيدا بسبب الطريقة التي حلت بها اميركا الجانب الاسهل · الامر الذي يعني في الواقع ان الخطـــوة الاميركية ذاتها مرهونة بامور كثيرة من بينها « رد الفعل » السوفياتي هذا ·

□ ان قيام الشكل الجديد للتحالف الاميركي الاسرائيلي ، ودفع مصر الى القيام بدور مكمل لهذا التحالف كنتيجة للتركيبة الثلاثية المكونة من المعاهدة ، المصرية ـ الاسرائيلية واتفاقية الضمانات الاميركية ـ الاسرائيلية هي مصدر خطر اساسي موجه ضد الاتحاد السوفياتي وتحالفاته ومصالحه ٠ وفي الشكل الجديد للتحالف الاميركي ـ الاسرائيلي (كما اوضحنا آنفا فان دور اسرائيل لم يعد يقتصر على شغل العرب او قمعهم ، كما كان الحال في المراحل الماضية من الصراع ، انما يؤدي دخول اسرائيل في علاقة « امن متبادل » مع الولايات المتحدة الى انخراطها في « النظام الاستراتيجي » الاميركي العالمي الموجه اساسا ضد الاتحاد السوفياتي والدول الاشتراكية وحركة التحرر الوطني العالمية ٠ وبطبيعة الحال فان اسرائيل لم تكن بعيدة عن هذا الدور في المراحل السابقة على المعاهدة وعلى اتفاقية الضمانات ، ولكن المرحلة الجديدة التي تتخذ ملمحها الرئيسي من خروج مصر من الجانب العربي في الصراع ضد اسرائيل ، يعطي اسرائيل حرية اكبر في الحركة على النطاق الاستراتيجي الاوسع ويفسح في مجال التنسيق اكثر بين حلقات « الامن » العسكري الاميركية في المناطق الممتدة من الجناح الجنوبي لحلف الاطلسي (دول اوروبا الغربية الجنوبية المطلة على البحر الابيض المتوسط) ومنطقة الشرق الاوسط حتى منابع النفط ، امتدادا الى المحيط الهندي ٠

هل يمكن ان تشكل اسرائيل خطرا استراتيجيا على الاتحاد السوفياتي ؟

بالقدر نفسه الذي يشكل به انهيار اسرائيل خطرا استراتيجيا على الولايات المتحدة ٠ او بالقدر نفسه الذي كان يشكل به انتهاج مصر سياسة معادية للامبريالية خطرا استراتيجيا على الولايات المتحدة ٠

ترجيح التنافس
على التعاون ٠٠
اوروبا الغربية ـ اميركا

من حيث علاقة التعاون ـ التنافس بين الولايات المتحدة واوروبا الغربية (والاطراف الاخرى المندرجة تحت العلاقة نفسها مثل اليابان وكندا) يلاحظ ان تفرد الولايات المتحدة بـ « عملية السلام » وبلوغها حد المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية قد انطوى على ازاحة او تنحية ايضا لاي دور لاوروبا الغربية وباقي حلفاء اميركا الاستراتيجيين والاقتصاديين ، على الرغم من اعتراف الولايات المتحدة الاكيد بضرورة اشتراك اوروبا الغربية واليابان في تحمل تبعات هذا « السلام » على الاقل فيما يتعلق بتعويم النظام المصري اقتصاديا ٠

وهكذا يتضح ان الولايات المتحدة كررت في « المعاهدة » الموقف نفسه الــذي سبق لها ان اتخذته ابان حرب ١٩٧٣ عندما تفردت بقرار مساندة اسرائيــل عسكريا بصورة علنية وكثيفة معرضة الدول الغربية الحليفة لاخطار الحظــر النفطي العربي وغير ذلك من اشكال العقوبات الاقتصاديـــــة ، في حين ان واشنطن لم تأخذ رأي الاوروبيين حتى في استخدام قواعدهم العسكرية لتنظيـم الجسم الجوي الاميركي الذي زود اسرائيل بالاسلحة في تلك الحرب ·

وتجد اوروبا الغربية واليابان نفسها بعد توقيع المعاهدة في موقف مماثل ، ليس فقط من حيث تنحية الولايات المتحدة لها في المراحل التي سبقت وادت الى توقيع المعاهدة ، بل ايضا من حيث التعرض لاحتمالات اجراءات مقاطعة عربية قد تتناول امدادات النفط وقد تتناول بالاضافة اليها صفقات تجارية ضخمـــة تعول عليها هذه الدول الغربية تعويلا كبيرا ، خاصة صفقات الاسلحة الضخمة مع الدول العربية · ومن هنا وجد الاتهام الاوروبي طريقه الى صدر الولايــات المتحدة بأنها انما تدفع الامور في هذا الاتجــاه كجـــزء مــن حرب المنافسة الاقتصادية الجارية بين الحلفاء على نفط الشرق الاوسط وتجارته ·

ولا يعني هذا ان اوروبا الغربية مدفوعة بعد توقيع المعاهـــدة المصريــة ــ الاسرائيلية دون اي تشاور اميركي معها الى اتخاذ موقف حاسم ضــد الفريق الاميركي الى تسوية ازمة الشرق الاوسط · فلا تزال اوروبا الغربية تمــارس الاستفادة من تبعيتها للولايات المتحدة استراتيجيا (امنيــــا) واقتصاديـــا ودبلوماسيا · وهو ما يفرض عليها انتهاج سياسة عدم التزام ، وهي سياســة تسمح لاوروبا الغربية (واليابان وكندا) بمسايرة استراتيجية الولايات المتحدة وفي الوقت نفسه الانفتاح على الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية والشـــرق الاوسط العربي لتحقيق غايات اقتصادية اساسا دون تقديم اي التزام سياسي ملموس مقابل هذه الغايات الاقتصادية · وتنجح سياسة اوروبا الغربية هذه مع اطراف الجانب العربي في الصراع العربي ــ الاسرائيلي ، ربما لان الـــدول العربية نفسها تكتفي من دول اوروبا بأن لا تكون ضدها ، اي تكتفي منها بموقف الامتناع عن دعم اسرائيل ·

الا ان توقيع المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية يفرض على اوروبا الغربيـــة وضعا جديدا قد يجعل من العسير عليها متابعة سياسة عدم الالتزام هذه وجني فوائدها العربية · لانـــه بعد خروج مصر الى ناحيـــة الصف الاميركي ــ الاسرائيلي اصبح العرب يطالبون اوروبا الغربية باتخاذ مواقف اوضح ضــد المعاهدة ، بل والمشاركة بدرجة ما فيقرارات مقاطعة النظام المصري مقابــل الاستمرار في الحصول على الامتيازات الاقتصادية الضخمة النفطية والتجارية مع العرب · بينما تطالب الولايات المتحدة حلفاءها بأن يؤيدوا المعاهدة بوضوح

وماديا عن طريق دعم صمود النظام المصري للعقوبات الاقتصادية العربية التي تقررت ضده · ومما لا شك فيه انه من قبيل المبالغة التصور بأن حلفاء الولايات المتحدة هم بين شقي الرحى – بين مطالب واشنطن ومطالب العرب الناشئة عن توقيع المعاهدة المصرية – الاسرائيلية · فقد استطاعت الدول الغربيه تجـــاوز مصاعب هذا التناقض من قبل بدرجات متفاوتة ، ويساعدها في ذلك – كمـــا اشرنا – ان الجانب العربي لا يطالب باكثر من موقف سلبي تجـــاه اسرائيل ، والاغلب انه لن يطالب باكثر من موقف مشابه تجاه مصر بعد المعاهدة · بمعنى ان اوروبا الغربية تستطيع ارضاء الجانب العربي ببيانات وسطية – كما فعلت طوال السنوات منذ حرب ١٩٧٣ خاصة (ومن قبلها كموقف فرنسا) – لا تدين المعاهدة المصرية – الاسرائيلية ولا الدور الاميركي في خلقها ، انما تعتبر فـي الوقت نفسه ان من الضروري « مواصلة » البحث عن « حل شامل » ·

اما الصعوبة فانها تكمن في الاشكالية الناشئة عن عدم مقدرة الولايات المتحدة على ان تدفع وحدها ثمن السلام الذي وعدت به كلا من مصـــــر واسرائيل ، وخاصة الاولى ، ورغبتها في مشاركة الدول الاوروبية في تقديم المساعـــدات الاقتصادية والعسكرية التي وعدت بها القاهرةكمقابل لتوقيع المعاهدة · ذلك ان تغطية اوروبا الغربية لموقفها الدبلوماسي من المعاهدة امر تسهل معالجته فـــي الاتصالات الدبلوماسية مع العرب وفي البيانات الاعلامية العلنية · ولكن عندما يأتي دور الاستجابة للمطالب الاميركية فان اوروبا الغربية واليابان ستتجه نحو تلبية هذه المطالب او مقاومتها وفقا لشدة او تراخي الموقف العربي ضد المعاهدة وضد القاهرة ، ووفقا ايضا لتماسك موقف الاطراف العربيـــــة المعارضـــة للمعاهدة · بمعنى انه اذا كانت اطراف عربية مثل السعودية ودول الخليـــج النفطية اقل تشددا مع القاهرة فان هذا يفتح المجال امام اوروبا الغربية واليابان للتعاون مع الولايات المتحدة في تعويم النظام المصري اقتصاديا ، لانه عندئـذ لا تكون لدى اوروبا واليابان خشية من التعرض لضغوط نفطية بالـذات مـــن الجانب العربـي ·

من ناحية اخرى فانه من السمات اللازمة لمواقف اوروبا واليابان ان هـــذه الدول لا تتخذ مواقف متطابقة عادةمن المشكلات من نوع مشكلة الشرق الاوسط· فحتى في اطار السوق الاوروبية المشتركة تختلف مواقف الدول الاعضـــــاء واستجاباتها السياسية ازاء تطورات الشرق الاوسط · فعلى حين نجد بريطانيا اكثر التزاما بالخط الاستراتيجي والسياسي للولايات المتحدة بشكل عام ، نجد ان فرنسا اكثر مقدرة عادة على اتخاذ مواقف دبلوماسية واعلاميـة اكثـــــر استقلالية · وقد اتضح ذلك في ردود الفعل الاولية الاوروبية على توقيع المعاهدة المصرية – الاسرائيلية ·

هل باستطاعة اوروبا الغربية القيام بمبادرة « مستقلة » تعيد مشكلة الشرق الاوسط الى طريق الحل الشامل متجاوزة المعاهدة الثنائية بين مصر واسرائيل، ومتجاوزة مرحلة تفرد الولايات المتحدة بما يسمى « عملية السلام » ؟

من الواضح حتى الآن ان مثل هذه الدعوة الى مبادرة اوروبية « مستقلة » تعكس تصورات اوروبية من خارج الحكومات الاوروبية وليس من داخلها . وليس هناك ما يوحي بأن اوروبا الغربية ، التي وقفت على الخطوط الجانبية طوال السنوات الاثنتي عشرة الماضية ـ اي منذ حرب ١٩٦٧ تاركة للولايات المتحدة ان تتحرك بمفردها على هذا المضمار ـ ستقرر التحرك الآن بعد توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، الا اذا ارادت الولايات المتحدة دفع الامور في هذا الاتجاه ادراكا منها لخطر الثنائية بالنسبة للمعاهدة ، وخطر التفرد بالنسبة للمشكلة ككل . وعندئذ سيكون هدف اميركا وحلفائها هو مجرد ايجاد تغطية دبلوماسية اوسع نطاقا للنهج نفسه الذي تمثله المعاهدة ، وتشجيع لاطراف عربية على الدخول في الطريق ذاته تحت غطاء البحث عن الحل الشامل ،دون المساس بما تم قبلا ، وهو المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وخاصة دون المساس بجوانبها الاستراتيجية التي تتجاوز حدود الصراع العربي ـ الاسرائيلي .

مهدي عامل

مدخل الى نقض
ايديولوجية البورجوازية اللبنانية

وعي التاريخ يحمل ماساته ، والتناقض فيه المأساة · كيف يدوم ما يحمله التاريخ ، بضرورته ، الى التغير ؟ كيف تتزن الحركة وهي جرثومة خلل ؟ كيف يتأبد ما هو الى زوال ؟

هذا هو السؤال الذي يحكم منطق الايديولوجية البرجوازية ، وهذا هو السؤال الذي يحكم منطق الفكر عند ميشال شيحا في كل ما يكتبه · للسؤال وجهان : وجه الدهشة ، بسبب الاستحالة ــ لا ديمومة لما هو في تغير ، لا توازن لما هو في خلل ، لا تأبد لما هو في زوال ــ ووجه العمل للتغلب على الاستحالة ، لعلها تنقلب امكانا ، ولو لاجل مسمى · ينطرح السؤال في وجهه الاول ، من موقع منطق التاريخ في ضرورته · انه موقع العقل العلمي ، وموقع من يتفق منطق مصلحته الطبقية مع هذا المنطق المادي للتاريخ · وينطرح السؤال ، في وجهه الاخر ، من موقع رفض التاريخ وحركته ، ورفض التناقض في هذه الحركة · انه موقع من يصطدم منطق مصلحته الطبقية بمنطق التاريخ : انه موقع الطبقة المسيطرة وموقع فكرها السحري · من هذا الموقع ينظر شيحا في الواقع اللبناني · لكنه ينظر فيه ايضا من موقع الوعي بالتاريخ وحركته · في هذا التناقض بين الموقعين يتحرك فكره · لكن الغلبة تعود دوما للموقع الاول ، لانه الموقع الطبقي الطبيعي · وياخذ الوعي التاريخي عنده شكله الايديولوجي البرجوازي ، وياخذ الوعي هذا عنده شكلا مأسويا لا يفارقه ، منذ البداية · ويدرك ، من موقعه الطبقي هذا ، ان بالسياسة وحدها ، وبالايديولوجية ،قد يكون ممكنا معاندة الحركة التاريخية ، لاجل محدود ، دون التغلب النهائي عليها · ولا

* الفصل الاول من كتاب « القضية الفلسطينية في ايديولوجية البرجوازية اللبنانية » ، الذي يصدر قريبا عن مركز الابحاث ·

يصرح بضرورة الهزيمة ـ فهذا مـــا لا يتفق مع منطـق تلـك السياســة وتلك الايديولوجية ـ لكن الخوف والقلق منها حاضران دوما في كتاباته ، كأنه الحدس او الغريزة في طبقة لايفارق حلقها طعم الموت ، خفيا ، او طعم النهاية ٠



في مقال كتبه في سنة ١٩٣٦ ـ اي في عهد الانتداب الفرنسي ـ ك « مقدمــة لسياسة لبنانية » ، يحدد شيحا هدفه بالقول انه « محاولة لايضاح وضع يقلـــق الحاضر كثيرا ويتهدد المستقبل » (١) ٠

ما سبب هذا القلق الكامن في الحاضر ، الملازم له ؟ وما هو هذا الخطر الذي يتهدد المستقبل ؟ لن يباشرنا الكاتب بجواب صريح ٠ سيأخذ وقته وسيتقن لغتــه ليكون اكثر اقناعا ٠ وللغة دور اساسي في الفاعلية الايديولوجية : كلما كانــت اقرب الى بساطة « الشعر » (٢) منها الى تعقد العقل ، كانت ابلغ للقلب ، اذ يستسلم القلب لبداهتها المرئية ٠ والميزة الاولى التي يكاد يتفرد بها شيحـــا دون غيره من ايديولوجيي البرجوازية اللبنانية ، هو ان اللغة عنده ، سواء أكانت في السياسة ام في الاقتصاد ام في غير ذلك ، **هي دوما** لغة البداهــات الطبيعيـــة الازلية ٠ فما من فكرة يقدمها ، في كتاباته كلها دون استثنــاء ، الا ويرفقهـــا بالقول « وهذه هي **طبيعة** الاشياء » او « وهذا امر بدهي » او « وهذا هو المنطق الطبيعي للامور » الى غير ذلك من العبــارات التي تعلب دورهـــا الاول في **كبت** منطق الحركة التاريخية المادية ـ مصـــدر القلـــق والخــوف ـ واظهــار امــور الايديولوجية البرجوازية مظهر **الابديات** ، لان لها ، فــي هــذا المنطــق ، اساسا **طبيعيا** ٠

حين تقوم السياسة او الاقتصاد او المؤسسات او الدولة او السيطرة الطبقية على اساس **طبيعي** ، اي حين تجد في **الطبيعة** (طبيعة الامور كما يقول شيحا) اساسها ، فان ديمومتها تتأمن بديمومة هذه الطبيعة التي هي في التاريخ تكرار لا يتغير ٠ وبشيء من المبالغة المقصودة نقول ان منطق ايديولوجية البرجوازيــة اللبنانية موجود كله ، في شكل مكثف ،في **البناء اللغوي الشكلي** لمنطق هذا الفكر الشيحاوي ٠ لكــن لغة البداهــات الطبيعيــة وهذا الخــوف من خطر كامــن في الحاضر ، يستقرىء المستقبل ويتهدده ، تناقضا دائما هو الذي يضفي علـــــى الوعي شكله المأسوي ٠ الوعي هذا وعي ذلك الخطر نفسه ٠ انه اللوحة الخلفية التي ترتسم عليها افكار شيحا وتنبني نصائحــه الابويــة للسلطــة السياسية ٠ فكتاباته هذه تمثل ، بهذا المعنى ، او يريد لها ان تمثل ايديولوجية هذه الدولــة البرجوازية ٠ فما هي هذه السياسة التي يقترح على الدولة ؟ ما هي خطوطهــا

العريضة ؟ وللدقة ، يجب طرح السؤال بشكل اخر : اي نوع من الممارسة السياسية هو الذي يقترح على البرجوازية المسيطرة حتى تضمن البرجوازية هذه لسيطرتها الطبقية شيئا من الديمومة ، يدرك شيحا ، انه لن يدوم ؟ لكن وظيفة الممارسة السياسية هذه تكمن ، كما سبق القول ، في تأمين الشروط الضرورية لتجدد البنية الاجتماعية ، بحيث تتجدد ، باستمرار ، سيطرة البرجوازية فيها التي هي قائمة على اساس هذه البنية وتجددها · لهذا ، يقودنا السؤال الاول الى سؤال اخر : ما هي هذه البنية التي بديمومتها تتأمن ديمومة السيطرة البرجوازية ، وتتحدد ، وبالتالي ، في ضوئها ، اهداف تلك الممارسة السياسية ؟ وبتعبير ابسط : اي لبنان هذا الذي يجب ان يدوم ، حتى تدوم سيطرة البرجوازية فيه ؟

وبالفعل ، ينطلق شيحا من تعريف بلبنان هو القاعدة التي يقوم عليها بناء فكره الايديولوجي · افتحوا كتبه التي جمع مقالاتها ورتبها وبوبها علم اخر من اعلام البرجوازية اللبنانية ـ شارل الحلو ـ تجدونها تبتدىء كلها بتعريف بلبنان يرسي بناء الايديولوجية البرجوازية على قاعدة البداهة الطبيعية · « لبنان هو ··· » والتعريف تعريف **بجوهر** · والجوهر لا يتغير · انه منطق هذا التعريف نفسه · والايديولوجية بحاجة الى مسلمات وبداهات تنطلق منها ، وتبني عليها ما يجب ان يتعمم وان يسود من افكار وتصورات وهياكل او قوالب للوعي الاجتماعي ، ان هي عمت وسادت ، امنت البرجوازية ، لاجل ، شر نقيضها · التعريف الجوهري ذاك مريح ومخدر للقلق ، لان لا شك فيه · هذا منطق البداهة : انه غير قابل للشك · والا ، فالانهيار تصيبه ، ومع هذا الانهيار تنهار فاعلية الايديولوجية ، من حيث هي **فاعلية سحرية** · فاذا انفكت عقدة السحر عن العقل والقلب ، تحرر العقل بتحرر القلب ، وتحرر القلب بتحرر العقل ، وابتدأ الشك حتى في البداهات ومنطقها · فلا بد من شل فعل الشك في العقل ، حتى يبقى القلب وحيدا من دون العقل ، فتفعل الايديولوجية المسيطرة في القلب فعلها السحري ، في غيبة العقل ، او في غفلة منه ، في سلم المنطلقات البدهية ·

« لبنان ، **بلا شك** ، بلد صغير جدا ، لكن فرادة هذا البلد **غير قابلة للشك** » (٣) · نقف عند هذا النص ، بسبب صياغته اللغوية · منطق البداهة يحكم الصياغة هذه في نفي الشك مرتين · والشك لا ينتفي الا بسبب كون التعريف بداهة · ان يكون لبنان بلدا صغيرا جدا ، هذا امر بدهي لا حاجة للشك فيه · لكن تاكيد هذه البداهة ، بنفي الشك عنها ، ليس **لتاكيدها** ، بقدر ما هو لنفي الشك عما سيتبعها من قول **قابل للشك** ، في تاكيد فرادة لبنان · *هكذا تلعب اللغة في خدمة المنطق الايديولوجي* ، فتضع ما هو **قابل للشك** في كفة مع البدهي ، حتى يتساوى معه في بداهته ، **بتوازن شكلي تقيمه الصياغة**

اللغوية • وتتوالى ، بعد ذاك الحكم ، في خط هذا التوازن وفي ظله ، احكام اخرى تؤكد بداهتها دونما حاجة الى نفي الشك عنها ، طالما ان منطق علاقة التوازن الشكلي في لغة الحكم الاول هو الذي يحكمها ضمنيا ، فتنقبل ، حينئذ، بقوة البداهة التي انقبل فيها الحكم الاول • « انه بلد قديم جدا ، هو اليوم يانع جدا • موقعه الجغرافي المتوسطي هو من اهم المواقع واكثرها تعرضا (للخطر) • فهو يقع على احدى الطرق البرية والبحرية الاكثر ضرورة في العالم ••• تتجابه فيه الاعراق والمعتقدات والطقوس واللغات وانماط الفكر والتقاليد • وهو ، في آن معا ، « ملجأ » وبلد هجرة ، بلد جبال وسهول ومناخات متنوعة وثقافات مختلفة • نجد فيه كل اشكال الجنس البشري والعمل البشري ••• التعارضات الاكثر حدة ، والعقليات الاكثر تنوعا ، والتقاليد الاكثر تباينا ، والوجود الاقل تجانسا • انه عالم مصغر » (٤) •

تبدو هذه اللوحة التي يرسمها شيحا هنا للبنان ، في **الظاهر** ، لوحة حيادية انطباعية ، تلتقط فيها العين من الواقع المرئي ما تتبينه بموضوعية بريئة • لكن، ما ان ندقق النظر فيها قليلا حتى تنفجر للعين النقضية ثوابت الايديولوجية البرجوازية اللبنانية • لبنان هذه الايديولوجية مجموعة تناقضات ، منها ما هو، في **الظاهر** ، تاريخي : فلبنان بلد قديم جدا ، له من العمر خمسة الاف سنة او اكثر (٥) ، لكنه شاب حديث السن • (انه يتجدد دوما في قدمه) • فها هو يخرج من الانتداب الى الاستقلال • ومنها ما هو جغرافي : فهو بلد جبال وسهول ، تجتمع فيه ، على صغره ، مناخات متعددة • وهو بلد جبلي وبحري ، له وجه للداخل ، والوجه كله للبحر • (وتنزلق في التعريف كلمة ، ظاهرها بريء ، تحدده كبلد متوسطي • وسيكون لهذه الكلمة البريئة جدا شأن عظيم في نظام هذه الايديولوجية المتذاكية) • ومنها ما هو حضاري وفكري وثقافي ولغوي وديني ، بل حتى عرقي • فلقد اجتمعت فيه الاديان كلها ، والتقاليد كلها، والاجناس البشرية كلها • انه تصغير للعالم كله • انه فجر للبشر كلهم ، قديمهم وحديثهم ، وموطىء قدم للاقوياء منهم ، وملجأ للمستضعفين • خليط من الحضارات ، وبلد هجرة •

لكن ما يميز هذه التناقضات ، في طابعها الرئيسي ، هو انها تناقضات **دائمة** ، او قل على الاصح ، **انها تناقضات جوهرية** ، بمعنى انها تناقضات هذا **الجوهر** الذي هو لبنان • واذ تتجوهر فيه التناقضات ، ينتفي ، بالضرورة ، **طابعها التاريخي** : انها في حركة تتكرر ، لا تتطور او تتغير • انها ملازمة لهذا الدائم الذي هو موضوع التعريف • والدائم هذا ، لانه الجوهر ، غاب عن تعريفه ما يجب ان يبدأ به التعريف ، لو كان التعريف تاريخيا : اي **الاقتصاد** • الا ما ورد في التعريف من ان ، في لبنان ، نرى *اشكال العمل البشري كلها* •

لكن اشكال العمل هذه لا تتحدد ، بالطبع ، تاريخيا بانماط الانتاج ، كالقول في العمل ، مثلا ، انه عمل مأجور او عمل رقي ٠٠٠ فالفكر « الاقتصادي » الشيحاوي يجهل تمام الجهل مفهوما هداما كمفهوم نمط الانتاج ٠ اشكال العمل تلك تتحدد ، في هذا الفكر ، باشكال الجنس البشري ، جوهريا ٠ فمن الشعوب من هي ، في جوهرها ، شعوب تجارية ، ومنها من هي فيه صناعية او زراعية او غير ذلك ٠ وحين يغيب الاقتصاد ـ بما هو ـ في معناه العلمي ، علاقات الانتاج المحددة الخاصة بنمط معين من الانتاج ـ في التعريف الاجتماعي ، ينفتح الباب واسعا امام ما يتفق من الايديولوجيات مع ضرورات السيطرة الطبقية الخاصة بطبقة مسيطرة معينة ، كالبرجوازية اللبنانية التي هي ، في البنية الاجتماعية الكولونيالية اللبنانية ، تدرك ، منذ ان كانت في عهد الانتداب ، (مقال شيحا هذا الذي نشير اليه ، كتب عام ١٩٣٦ ، وغيره من المقالات التي سنستند اليها في تحليلنا اللاحق ، كتبت ايضا قبل الاستقلال) ، وقبل ان تصل الى موقع السيطرة السياسية في عهد الاستقلال ، انها في ازمة ، وتدرك ، بعين ايديولوجييها الطبقية ، انها في خطر ٠ ولانها في خطر ، عليها الا تستسلم للخوف او القلق ٠ هذا ما كان يذكرها به شيحا ، في قوله لها ، سنة ١٩٥٣ : « عدونا الدائم هو القلق ، مهما كان شكل ظهوره ، او مصدره ٠ عدونا هو الخوف » (٦) ٠ وهنا أيضا تلعب اللغة ، في صياغتها الشكلية ، لعبة الايديولوجية ، اذ تنتظم ، في بنائها الداخلي ، بنظام هذه الايديولوجية وبمنطقها الذي هو منطق تغييبي اكثر منه غيبي ٠ او قل انه غيبي لانه تغييبي ٠ شيحا ينطق ، هنا ، بلسان طبقته ٠ هذا ما يفسر استخدام « نا » المتكلم ٠ لكن ما يستوقف النظر ، بالفعل ، هو صفة « الدائم » هذه التي يصف شيحا عدوه وعدو طبقته ٠ فلو انه وصفه بصفة « الرئيسي » ، مثلا ، او « الاساسي » او « الاخطر » ، او غير ذلك من الصفات ، لما بدا الامر بمثل هذه الغرابة ٠والغرابة هي في ان يكون العدو هذا دائما ، وفي ان يكون القلق هذا·العدو الدائم ٠ وتتبدد الغرابة اذا تغيرت صياغة الجملة الاولى واخذت صياغتها التي فيها تأخذ معناها الحقيقي ، فصارت على الشكل التالي : « عدونا هو القلق الدائم » ، او حتى ، بشكل ابلغ : « القلق الدائم ، هذا هو عدونا » ٠ والواقع هو ان الجملة قد يكون لها ، حتى في صياغتها الشيحاوية ، هذا المعنى نفسه ٠ فان يكون القلق هو العدو الدائم يعني ببساطة ان القلق هذا هو الدائم ٠ وهذا يعني ، بدوره ، ان البرجوازية هي ، في موقع السيطرة الطبقية نفسه ، في قلق دائم ٠ ولئن الحقت صفة الديمومة هذه بالعدو وليس بالقلق ـ كما هو وارد في الصياغة الشيحاوية ـ فليس هذا بسبب « هفوة » ، وليس هذا عن تدبير لفظي بحت لا دلالة له ، بل بسبب منطق هذا الفكر الايديولوجي نفسه ـ فكر الطبقة المسيطرة ـ الذي تحكمه الية تغييب ما يجب تغييبه حتى تدوم سيطرة هذه الطبقة المسيطرة،

او تظهر كأنها في ديمومة ابدية ، اي **كانها طبيعية** ، لا تاريخية · والصياغة الشيحاوية التي هي نتيجة تحرك هذا الفكر في آليته الايديولوجية هذه تقوم ، على الصعيد اللغوي نفسه ، بوظيفة هذا التغييب حين تلحق صفة الديمومة بالعدو بدلا من الحاقها بالقلق ، **فيبدو** القلق هذا امرا **عارضا** · وبامكاننا ان نذهب في هذا التأويل النقدي ، تأكيدا لصحته ، الى ابعد من ذلك : فالقلق ، في ايحاءاته الدلالية كتعبير لغوي ، يتحدد من الداخل ، او **داخليا** ، بينما العدو يتحدد ، في ايحاءاته الدلالية كتعبير لغوي ايضا ، من الخارج ، او **خارجيا** ، بمعنى ان الاول يتحدد في مجال **العلاقة الداخلية** ، بينما الاخر يتحدد في مجال **العلاقة الخارجية** · لو الحقت صفة الديمومة بالقلق بدلا من العدو ، لتغير جذريا حقل النظر في بنية العلاقات اللغوية ودلالاتها، ولاخذ النظر هذا، تلقائيا، اي بضرورة الصياغة اللغوية نفسها (من حيث هي صياغة ايديولوجية) ، وجهة البحث في مجال**العلاقة الداخلية** ، بدلا من البحث في مجال **العلاقة الخارجية** · هنا ينقلب « القلق » امرا اساسيا ، بدلا من ان يكون **عارضا** ، فينطرح **السؤال** بدلا من ان يتغيب : لماذا نحن (اي الطبقة البرجوازية المسيطرة) في قلق دائم ؟ اليس الموقع **الفعلي** ، موقع السيطرة الطبقية الذي تحتله هذه البرجوازية في بنية علاقات الانتاج القائمة هو السبب الفعلي لهذا القلق الدائم ؟ وهنا ينطرح السؤال الذي يغيبه شيحا ويتحاشاه قصدا : ما هو مصدر هذا القلق الدائم ؟ وما هي اشكال ظهوره في الممارسات السياسية والايديولوجية والاقتصادية للطبقة المسيطرة ؟ حين يصير القلق هو الدائم في هذه الصياغة اللغوية ، بدلا من العدو ، ولا يعود بالامكان تغييب السؤال الخاص بمصدر القلق وباشكال ظهوره ، بينما هذا التغييب ممكن في الصياغة الشيحاوية ·

وبرغم ما لهذا الفكر الايديولوجي من قدرة على تغييب الاسباب وقلب النتائج نقائضها ، فهو يدل على ما يغيبه ، فيما هو يغيبه ، حتى لو كان هذا الذي به يدل **فراغا** ، او **بياضا** · من هذا البياض او الفراغ ، اى من هذا **الغائب** الذي هو حاضر ، كغائب ، في انبناء اللغة الايديولوجي ، يخترق النقض **منطق** هذه اللغة ويقتحم موقعها · والامر ، في نهاية التحليل ، ليس امر لغة وصياغتها · انه امر الموقع الطبقي الذي فيه ينظر الفكر في الواقع وينبني · من موقع النقض، بما هو موقع النقيض الطبقي للطبقة المسيطرة ، ينكشف ذلك الفراغ فراغا ، او البياض بياضا ، ويرى النظر هذا الفراغ ، او البياض الذي لا يرى من الموقع الاخر · والفراغ هذا هو ديمومة ذلك القلق · والفراغ هذا هو ان القلق ملازم للبرجوازية اللبنانية في موقع سيطرتها الطبقية نفسه · وما هو بعامل **نفسي** ، كما يتأوله شيحا · انه واقع **ازمة** البرجوازية هذه ، من حيث هي ازمة بنيوية ملازمة لطبيعة علاقات الانتاج الكولونيالية التي تقوم عليها السيطرة الطبقية لهذه

البرجوازية · انه سيرورة الحركة التاريخية في ضرورتها · هذا هو مصدر القلق والخوف ، وهذا هو عدو البرجوازية · وما لا يمكن الانتصار عليه **فعليا** ، ينتصر عليه **وهميا** ، بتغييبه بفعل سحري هو فعل الايديولوجية البرجوازية المسيطرة ·

الانتصار الوهمي على سيرورة الحركة التاريخية وضرورتها يبدأ من رفض هذه الضرورة وكونيتها ، من حيث هي ، في هذا الطور من الازمة العامة للامبريالية ، كونية الانتقال الى الاشتراكية · من هذا الرفض الاساسي ينطلق منطق الفكر البرجوازي · قد يأخذ رفضه العقل المادي هذا اشكالا مختلفة ، ربما كان اخطرها واشدها خبثا رفضه **الفكر النظامي** ونشاطه **النظري** الذي هو ، في طابعه الكوني ، ضروري لانتاج المعرفة العلمية · ضروري لذلك الفكر ان يتحرر من « قيود » هذه المعرفة حتى يتسنى له القيام بوظيفته الايديولوجية · « القيود » هذه تحدد للفكر العلمي مهمة في قوانين الحركة التاريخية للواقع الاجتماعي ، وهي ، لهذا ، في تناقض مع تلك الوظيفة الايديولوجية (تغييب الاسباب · وما الاسباب سوى تلك القوانين) ·

في نصين لشيحا ، نقرأ ما يلي :

النص الاول (من سنة ١٩٤٣) : « نعلم ان علينا ، في التحليلات اللاحقة ، ان نتجنب الفكر النظامي · لهذا ، سنتذكر ان الواقع الحي يقوم دوما ، في وجه النظرية ، في تنويعاته ومزاجاته » (٧) ·

والنص الثاني (من سنة ١٩٤٩) ، بعنوان « عودة الى البداهة » : « لبنان بلد لا يشبه الا ذاته · هذا ما يجب علينا ان نفهمه اخيرا · انه بلد فريد ، وكما يبدو ، وحيد نوعه وجنسه » (٨) ·

في النصين تأكيد على الطابع **البدهي** لمضمون القول · ويأتي هذا التأكيد ، في سياق القول ، وفي النصين ، في شكل جملة اعتراضية · فلو نقلنا النص الاول الى العربية نقلا حرفيا ، لاتى على الشكل التالي : « في التوسعات (او التحليلات) التي ستلحق ، سيكون علينا ان نتجنب ــ نعلم هذا ــ الفكر النظامي ··· » ويتساءل القارىء عن الاسباب التي تدفع المؤلف ، **دوما** ، الى تأكيد الطابع البدهي لما يقول · فلعل من جملة الاسباب كلها واحدا يتميز منها بشكل خاص ، هو رفض **النظرية** ودورها في انتاج المعرفة وارسائها على قواعد علمية متينة · ففي النص الثاني ، مثلا ، وبعد الجملة التي اثبتنا ، يأتي ، مباشرة ، كلام على « جنون المنظرين و « ولدنتهم المأسوية ·· » حين تلغى في الفكر حركة الانبناء النظري ، في ترابط المفاهيم الداخلي واستخلاصاتها الضرورية ، لا يبقى للفكر سوى مأوى البداهة ، يؤكد فيه احكاما تحمل الى المطلق (الغيبي أو الطبيعي) واقع المرئيات المباشر ، من موقع نظر طبقي محدد

هو موقع نظر الطبقة المسيطرة ، حتى لا ينفذ النظر في هذا الواقع الى ما وراء المباشر من مرئياته ، اي الى بنيته الخفية التي لا يقبض عليها ، معرفيا ، سوى الفكر النظري ·وبنيته هذه هي التي تحمله الى الحركة ،او قل تحمله في سيرورة حركته التاريخية · بتغييب هذه البنية والية سيرورتها الداخلية ، يتسطح الواقع ويستوي على صعيد المرئي المباشر ، حقل البداهات الايديولوجية · لهذا كان منطق البداهات معاديا للنظرية ، يرفضها ويرفض طبعها الفضولي ، ويجابهها بمنطق « الحياة » وواقعها ، كأن بين الاثنتين تعارضا او تصادما ، تنتفي فيه الواحدة بالاخرى نفيا مطلقا ، بحيث لا بد ان تكون الغلبة فيه لاحدى الاثنتين على الاخرى · وهو يختار « الحياة » ، في واقعها الغني المتنوع ، ضد النظرية التي لها عنده صفة الموت والجفاف ، او النشف ·

هذا الاختيار هو ، في الحقيقة ، اختيار طبقي ضد المعرفة وضد العلم ، بما هو علم بالواقع الفعلي · والواقع الفعلي المادي هذا شيء ، اما الواقع المعرفي- واقع الفكر ـ فشيء اخر ، ولا يجوز الخلط بينهما ، بحيث نرفض هذا الاخر ، باسم غنى الاول وتنوعه ، فنرفض ، برفضه ، المعرفة او العلم ، فيمبدئهما ، ونقف منهما موقفا ضديا ، او بالاحرى ، ظلاميا هو بعينه موقف الايديولوجية البرجوازية ·

ليس لنا ان ندخل الان في تحليل هذه القضية النظرية ، من حيث هي قضية معرفية · لكن الذي نريد التنبيه اليه في هذا المجال هو ان البعض من الذين يحاولون نقد الايديولوجية البرجوازية اللبنانية ـ لا سيما في ما له علاقة بمشكلة « الطائفية » ـ ينزلق ، من حيث لا يدري ، او يدري ، الى ارض هذه الايديولوجية ، ويقع في ذلك التعارض الذي يصطنع بين النظرية و « الواقع الحي » اللبناني ، فيدير الظهر للنظرية وطابعها الكوني ليستخلص من هذا « الواقع الحي » « نظريته » · وهو ، اذ يقوم بذلك ، لا يعرف ، او قد يعرف ، ان « النظرية » الخاصة بهذا الواقع اللبناني ، وحده دون غيره ، لا يستخلصها من هذا الواقع بقدر ما هو يستخلصها من ايديولوجية البرجوازية اللبنانية نفسها التي تقوم ، في ركن اساسي من اركانها ، على مبدأ رفض النشاط النظري ، من حيث ان النشاط هذا هو ، في الفكر العلمي ، تمييز لكونية قوانين الحركة التاريخية للواقع الاجتماعي ، في سيرورة انتقاله الى الاشتراكية ·

ليس اخطر ما في منهج الفكر الشيحاوي ـ كما يبدو في النص الاول ـ رفضه النظرية ودورها في انتاج المعرفة · ولا جديد في هذا الرفض الذي هو ملازم للتجريبية ، كما نجدها ، مثلا عند جون ستيوارت ميل او دافيد هيوم · ولئن انبنت التجريبية هذه ، في صعودها ، التاريخي ، عند هذين الفيلسوفين ، في حقل العلوم الطبيعية بوجه خاص ، وفي حقل فكري تاريخي معين يتميز

بكونه حقل فكر ما قبل الماركسية ، فان الطابع التجريبي لهذا الفكر البرجوازي الذي نرى في فكر شيحا يتحدد في حقل النظر في العلوم الاجتماعية بوجه عام ، وفي الواقع الاجتماعي اللبناني بوجه خاص ،وفي حقل فكري تاريخي معين تتميز بنيته بكونها بنية التناقض الطبقي الرئيسي بين ايديولوجية البرجوازية وايديولوجية الطبقة العاملة • فحين يرفض شيحا النظرية ودورها في معرفة البنية الاجتماعية اللبنانية ، فهو لا يرفض النظرية بشكل عام ، ولا يرفض نظرية مجهولة الهوية ، بل انه يرفض ايضا طابعها الكوني ، من حيث هي نظرية سيرورة الانتقال الى الاشتراكية ، في طور ازمة النظام الرأسمالي العالمي • فطابعها الكوني هذا يفرض على النظر في الواقع اللبناني النظر فيه وفي حركته التاريخية ، في علاقته بهذا النظام وازمته • وهذا ، بالضبط ، ما يجب تغييبه • وهذا ما يتغيب ، بالفعل ، بالنظر فيه من موقع الطبقة المسيطرة ، وموقع الفكر الشيحاوي •

كيف نصل من النص الاول الى النص الثاني ؟ كيف نصل من التشكيك بالنظرية والاحتكام ، الى « الواقع الحي » ضدها ، الى فرادة لبنان ، في نوعه وجنسه ؟

وضعنا النصين ، عن قصد ، معا ، جنبا الى جنب ، حتى نبين للقارىء المنطق الذي يحكم حركة الانتقال هذه من رفض النظرية وكونيتها ، الى تأكيد فرادة لبنان وبداهتها • ونسارع الى القول ان الوصول ، في الفكر البرجوازي، الى تأكيد هذه الفرادة لا يمكن له ان يتم الا بالمرور برفض النظرية ، على الشكل الذي بينا • فالرفض هذا هو الذي يجيز التأكيد ذاك • والرفض هذا يؤدي بالفكر ، كما سبق القول ، الى التجريبية • لذا امكن القول ان التجريبية هذه هي جواز مرور ضروري لتأكيد الفرادة اللبنانية • وهنا يقوم اعتراض ممكن • فالفكر البرجوازي اللبناني لا ينفرد ، دون غيره ، بالطابع التجريبي هذا الذي هو من صلب الايديولوجية البرجوازية ، بما هي ايديولوجية برجوازية • وبرغم هذا ، اي برغم هذا الانتماء الطبيعي الى الايديولوجية البرجوازية بعامة ، فان البرجوازية اللبنانية تجد ضرورة طبقية عملية في تمييز ايديولوجيتها ، كايديولوجية لبنانية ، من هذه الايديولوجية البرجوازية ، حتى تتمكن من تأكيد الفرادة اللبنانية التي هي ، بحسب مفهومها الايديولوجي ، فرادة المجتمع والارض والسماء والتاريخ والجغرافيا في لبنان ، وفرادة الانسان اللبناني ايضا ، وفرادة عقله • ليس تمييزها هذا ، بالطبع ، خروجا على الايديولوجية البرجوازية ، بقدر ما هو تمييز لها في شكل تاريخي محدد • فعلى ارض هذه الايديولوجية تتميز منها في طابعها اللبناني • وعلى ارض التجريبية تتميز • انما السؤال هو : كيف ؟

تقيم التجريبية بين الاحداث والظاهرات ،وبين الوقائع في مباشرتها كمرئيات، علاقات تشابه وتماثل تتكرر بشكل تظهر فيه ثوابت تسمح للفكر بالمعرفة التي لا تخرج ، بالتالي ، عن كونها معرفة تجريبية · لكن العلاقات هذه هي ، في التجريبية ، علاقات خارجية ، لانها علاقات تواصل وتتابع تستقل فيها الاحداث والظاهرات بعضها عن بعض ، بحيث تكون ، في هذه العلاقات المتكررة نفسها ،لا روابط داخلية بينها ، ولا ترابط سببيا يحكمها ، بمعنى انها لا تخضع لاي ضرورة داخلية · بانتفاء هذه الضرورة الداخلية ، تنتفي ضرورة النظرية ، وينتفي طابعها الكوني الذي يجد في تلك الضرورة الداخلية اساسه المادي ، وتنتفي ، بالتالي ايضا ، ضرورة العقل في المعرفة العلمية · أما « القانون » فهو في مفهومه التجريبي هذا ، لا يخرج عن كونه ــ ان وجد ، او امكن التكلم عليه ــ تدوينا شكليا ، اي تدوينا بلغة شكلية كالرياضيات ، لعلاقة تتكرر بين الاحداث والظاهرات بشكل ثابت ، لا ضرورة فيه · « للقانون » ذاك ، اذن ، دوما طابع مؤقت قابل للتغير ، بحسب سيرورة التجربة · ولا يدخل في مجاله ، ولا يشمل حقله سوى ما تشابه من الاحداث والظاهرات او تماثل · وليس لهذا التشابه او التماثل اي ضرورة سوى تلقائية التجربة، او عرضيتها · وما هذه بضرورة· فمن الاحداث والظاهرات ، اذن ، ما يبقى ، حكما ، خارج علاقات التشابه والتماثل هذه ، لا تشمله « قوانينها » · فهو يبقى ، بالتالي ، خارج هذا العقل التجريبي نفسه ، لا يدخل في دائرة العقل التي هي وحدها ــ حتى في التجريبية ــ دائرة العلم والمعرفة · ولا عقل له الا هذا الذي قد ينفرد به · لكنه ــ حتى في التجريبية ــ ليس بالعقل ·

على ارض هذا المنطق التجريبي الرافض لضرورة العقل في الواقع المادي وكونيته ، ينبت منطق الفرادة اللبنانية ، ويصير بامكان شيحا ــ او غيره ــ ان يقول ما قال ، وان يؤكد ما اكد · ليس هذا درسا في المنطق · انه نقض ، او محاولة نقض لمنطق ايديولوجية البرجوازية اللبنانية · ومفهوم « الفرادة » ركن اساسي من اركان هذه الايديولوجية · بهذا المفهوم يتحقق ، وهميا ، ما تصبو اليه البرجوازية اللبنانية في ايديولوجيتها الطبقية هذه ، من اخراج لبنان ، ليس من دائرة العقل المادي وحكمه التاريخي بضرورة الانتقال الى الاشتراكية وحسب ، بل من دائرة العقل التجريبي نفسه · ولعل في اخراجه من هذه الدائرة ضرورة طبقية لتلك البرجوازية ، حتى لا يظهر ، في علاقة التشابه والتماثل التي تربطه بغيره من البلدان الراسمالية ، كبلد راسمالي برجوازي ، يصح عليه ما يصح عليها من انه يتكون ، مثلها ، من مجموعة طبقات اجتماعية محددة · بخروجه من الدائرتين ، يخرج لبنان عن العقل وعليه ، ليتفرد بذاته ، اذ لا شبيه له ولا مثيل · انه « هو الذي هو » (٩) ، لا يعرف الا بذاته ، كالله وحده · وبتفرده يتجوهر · هنا ، نخرج من العقل لنقع في السحر · فباي عقل نقاربه ؟

وهو الذي لا يصح عليه عقل معلوم ؟ لا يصح عليه ، بالتالي ، الا عقل جوهري هو عقله . هكذا يبدأ العلم ، علمه ، بالتعريف ، تعريفه . انه ضرورة الجوهر ، والجوهر هو . انه ضرورة نفسه ، ضرورة جوهرية . لهذا ، كان في التاريخ يتكرر ، وكان التكرار تاريخه . فليتأكد الان في تكرار جوهره ،وليتأكد ضد العقل « عقله » . وما « عقله » هذا بعقل ! انه فكر البرجوازية الكولونيالية اللبنانية، في تنكرها حتى للعقل البرجوازي نفسه . لكن هذا التنكر هو جزء لا يتجزأ من وظيفتها الايديولوجية الطبقية بالذات . ولقد سبق القول ان وظيفة هذه الايديولوجية هي العمل على تأمين الشروط الضرورية لاعادة انتاج علاقات الانتاج القائمة . فحتى يظل لبنان فريدا في فرادته ، (وحتى تظل السيطرة الطبقية ، في هذه الفرادة ، للطبقة البرجوازية المسيطرة) ، لا بد له من ان يظل امينا لجوهره ، هذا الذي يتكرر باستمرار ، في كل لحظة تاريخية . فموت لبنان ، اذن ، في ابتعاده عن هذا الجوهر . هكذا تأخذ ، في مفهوم الفرادة ، في ايديولوجية البرجوازية الكولونيالية اللبنانية ، حركة اعادة الانتاج تلك التي هي ضرورية لديمومة السيطرة الطبقية لهذه الطبقة المسيطرة ، شكل الضرورة في ان يظل الجوهر امينا لفرادته ، في حركة تكرار ذاته . اي في حركة تأبد حاضره .

في ضوء ما سبق من تحليل ، يكتسب التعريف الذي انطلقنا منه وضوحا اكبر . فلبنان ، هذا الفريد من نوعه ، لا يصح عليه تحليل طبقي ـ قد يصح على غيره ـ لا في السياسة ولا في الاقتصاد ولا في الفكر او الثقافة. فبأي منطق من الفكر يمكن النظر فيه ، وقد اقامت فرادته في وجه كل فكر اخر سدا منيعا يحول دون النفاذ فيها ؟ فيه من التناقضات الكثير ، لكنها فيه تتجوهر وتدوم ، بانتفاء طابعها التاريخي . ولا هي بالسياسة تتحدد ولا بالاقتصاد ، بل بجوهر دائم هو اياه . وتتسلل الى التعريف ، ببراءة ظاهرية ، ثوابت الايديولوجية البرجوازية اللبنانية كلها تقريبا ، كما سنراها بالتفصيل . اما الان ، فيهمنا ان نعرف كيف سيقارب شيحا لبنانه هذا ، بعد ان اعلن بطلان كل منطق اخر من الفكر لا ينبع من الفرادة اللبنانية . ففي نص يلي النص السابق مباشرة ، يقول شيحا (١٠) « بما ان ليس بالامكان انتهاج نهج اخر ، تجزأ هذه الكتلة الى مجموعات رئيسية تحمل علامة طائفية » . ونثبت النص في لغته الفرنسية حتى يحكم القارىء بنفسه : « Faute de mieux faire, on compartimente cette masse en groupes principaux portant une etiquette confessionnelle » .

في تكلمه على هذه الكتلة البشرية التي قال عنها في النص الاسبق انها متباينة التباين كله ، في العرق والدين والفكر والاخلاق والتقاليد واللغة والمعتقد الخ .. . يتكلم هنا على الشعب اللبناني ، ويطرح هذا السؤال : « من هم هؤلاء

البشر الاحياء الذين يتكون منهم الشعب اللبناني اليــوم ؟ » (١١) · ويجيب بالقول، حتى نتمكن من تعريف من نحن، لا بد لنا من ان نعرف موروثناالتاريخي العميق ، لننتقل منه الى ·· « العلامات الطائفية التي فيهـا نصنف » (١٢) · وبالفرنسية ما يلي : « aux etiquette confessionnelles sous lesquelles on nous classe » .

السؤال هذا ، في الظاهر ، بريء ، لا جديد فيه · يمكن ان ينطرح على اي بلد اخر ، وعلى أي شعب اخر ، ولا علاقة له بفرادة لبنانيـــة · فبامكاننا ان نتساءل ، مثلا : « من هم هؤلاء البشر **الاحياء** الذين يتكون منهـــم الشعـب الفرنسي ، الانكليزي ، الروسي ، المصري ··· ، **اليوم** »؟ ليس في هذا السؤال اي انتقاص من لبنان ، او تجن على فرادته · السؤال ، في صياغته الشيحاوية نفسها ، له علاقة بالاحياء من هؤلاء البشر ، وليس بالاموات ، وبالواقع **الحاضر** المشار اليه بعبارة « **اليوم** » ، وليس الماضي · فاذا كان هــذا هكذا ، وجب الانطلاق ، في تحليل **الحاضر** ، من **الحاضر** نفسه ، وليس من الماضي · كما ان الاحياء يتحددون بحياتهم ، وليس بامواتهم · ونتذكر ، بهذا الصدد ، ما قالـه ماركس في مقدمة كتابه « اسهام في نقد الاقتصاد السياسي » ، حين تساءل : من اين نبدأ في تحليل بلد ما ، ومن وجهة نظر الاقتصاد السياسي ، فرأى ان نقطة الانطلاق لا يمكن ان تكون من السكان population ، فهذه العبارة ليست سوى **تجريد** اذا اهملنا ، مثلا ، **الطبقات** التي يتكون منها السكان · فالبشر ، فــي انتاجهم **لحياتهم المادية** ، يدخلون فيما بينهم في علاقات محددة ضرورية مستقلة عن ارادتهم هي **علاقات الانتاج** · من هنا يبدأ التحليل ·

لكن شيحا ، وغيره من ايديولوجيي البرجوازية اللبنانية ، يتنصل ، بمفهوم الفرادة ، من ضرورة هذا المنهج العلمي · وهو حر في ذلك ، وفي اعتمـــاد منهج اخر من التحليل · **فما هو منهجه** ؟

في هدف الرد على هذا السؤال ، نعود لندقق النظر في النص الذي اوردنا ، ونتوقف عند العبارة الاولى من النص الاول ، في قول شيحا : « بمـــا ان ليس بالامكان انتهاج نهج آخر ·· » · نفهم من هذه العبارة ، على سوء ترجمتها ، ان النهج في تجزئة هذه الكتلة البشرية ، او هؤلاء البشر الاحياء في لبنان ، الــى مجموعات « طائفية » ، كل منها في خانة منغلقة على الاخرى ، **هو نهج فكري** ، يجد في الفكر ، وليس في **الواقع المادي** ، ضرورته ، في ضرورة فعل التصنيف، كما هو واضح في النص الثاني · يتأكد هذا المعنى في العبارة الاولى ، ويتأكـد ايضا في عبارة « العلامة » ، étiquette · في العبارة الاولى ، يتحدد نهــج التصنيف الطائفي كنهج افضل من غيره · بمعنى انه ليس الوحيد · ولئن وقع الاختيار عليه ، فبسبب مفهوم « الفرادة » ، وانسجاما معه ، اذ ان هذا المفهوم يمنع الفكر من اعتماد اي منطق اخر من التحليل يصـح على غير لبنان · فهو ،

اذ يصح على غيره ، لا يصح عليه · ولئن وقع الاختيـــار على ذلك النهـج التصنيفي ، فبسبب تغييب الاقتصاد ، ايضا ، في تحديد العلاقات البشريـــة الاجتماعية كعلاقات انتاج (١٣) · ولا انتاج في لبنان ، برأي شيحا ، كما سنرى في حينه · وفي هذا حجة قد يستند اليها فعل هذا التغييب الايديولوجي · امـا العبارة الثانية ـ العلامة او الاتيكيت ـ فتؤكد هذا التصنيـف مـن حيث هو فعل الفكر من خارج الواقع ، وتؤكد ايضا ان العلاقة التي تربطها بهذه المجموعـات المصنفة ليست علاقة ضرورية ، انما هي علاقة خارجية هي نتيجة ارتياح الفكـر لتصنيفه · كان بامكان هذا الفكر ، لو ارتاح لتصنيف اخر ، ان يختار علامة ـ او اتيكيت ـ اخرى غير هذه العلامة الطائفية التي يهتدي بها على بشر ليسوا كالبشر · كأنهم في متحف التاريخ ، او منه يخرجون · لذا ، كانت مقاربتهم ، بالفكر ، تصنيفية ، كأنهم ، او لانهم عند هذا الفكر اثريون ، وكان الفكر هـــذا الذي يقاربهم فكرا اثريا ، او قل ، لتبديد الالتباس ، فكـــر الاثري (عالـــم الاثريات) اكثر منه فكر الاقتصادي او الاجتماعي او السياسي ، فيخرجه مـن دائرة العقل ، وينظر في اللبنانيين ، فلا يجد سبيلا اليهم افضـل من تصنيفهم ، ويتعرفهم بعلامات ، من صنعه يلصقها بهم ـ كالاثريات ـ فيستحيلون ، بها وبه ، مجموعات « طائفية » ؟ ونستقرىء النص الشيحاوي ، في صياغته الطريفة ، ولا نجد فيه جوابا ، بل نجد ذلك البياض الملازم للغة الايديولوجية ، فنستدل به على صاحب هذا الفكر ونمطه · انه ذلك المجهول في فعل التجزئة on compartimente وفعل فعل التصنيف on nous classe · وما هو مجهول الا لانـــه الغائب المغيب · هنا ايضا تقوم اللغة بوظيفتها الايديولوجية في تغييب السيد ، سيـــد القول والفكر وسيدها ، سيد التاريخ والتصنيف ، سيد التابع ، يخضعه لعلاماته كي يبقى تابعا ، فاذا انعتق هذا ، بالشكل ، بقيب العلامة تلك شكلا له ، فيـــه يتجوهر ، فيبقى السيد سيدا ، والتابع تابعا ، لا يتماثلان الا في الشكل · ومـا الشكل هذا سوى اثر السيد ، هذا الغائب المغيب الذي هو حاضر في اثـره · انه فكر البرجوازية الامبريالية نفسه · به ينظر شيحا في لبنان ، فيجد ما يجد ، ويصنف ما يصنف · ومن هنا اتت صياغة هذا الفكر للمجهول · ولئن كـــان للنص الشيحاوي من فضيلة ، فهو انه كتب في سنة ١٩٣٦ ، وكتب النص الاخر في سنة ١٩٤٢ ، ولن نجد مثل هذه الصياغة للمجهول في نص بعد هذه السنة ، اذ ان العلامة ستستقل ، بالشكل ، عن الفكر الذي به ومنه اتت ، لتتجوهر في شكل سيستقل عن مضمونه ، حتى يبقى المضمون هذا في ديمومة تبعيته للسيـد الغائب ، الحاضر فيه ، هو الذي منه الاثر ·

ليس تاريخ النص هذا المكتوب في عهد الانتداب كافيا ليدل على الطابـــع الايديولوجي البرجوازي الامبريالي لذلك الفكر ، بل فعل التصنيف في النظر في شعوب البلدان المستعمرة هو الذي يدل عليه · ولكم ازدهر هذا الفكر الاثـــري

(اركيولوجي) ، مع « ازدهار » الامبريالية ، في شكل فكر اتنوغرافي ، في النصف الاول من هذا القرن ، ولكم عانت منه شعوب المستعمرات كلها ، بلا استثناء ، في افريقيا واسيا واميركا اللاتينية · الم يذهب ذلك الفكر في شططه الى حد اخراج هذه الشعوب من **دائرة العقل** ، حين خصها بالفكر الديني او السحري او الاسطوري ، اي غير المنطقي وغير العقلي ، فكان لها الفكر البدائي، وكان هو الفكر كله ؟ ليست هذه الدراسة مجالا لمثل هذا البحث ، على اهميته· واذ نكتفي هنا بالاشارة الى ان اندحار هذا الفكر يسير في خط صعود حركة التحرر الوطني ، نعود الى موضوعنا الرئيسي لنتبين أن « القرادة » اللبنانية لم يقبض عليها «الفكر اللبناني» الا لان عين الايديولوجية البرجوازية الامبريالية هي التي استنهضتها ، فأتت على صورتها اثرية : وكان ما كان من غريب بشرهم فيها قديم يتجدد ، فيتصنف في مجموعات « طائفية » ليست مجموعات عرقية او اثنية او حضارية الا لان تلك العين ارادتها كذلك · هذا يعني ، بوضوح وفظاظة ان مجموعة « الطوائف » هذه التي يتكون منها لبنان ، هي **وليدة** هذه العين التي بها **تكونت** · انها وليدة النظر في الواقع الاجتماعي التاريخي اللبناني بعين هذه الايديولوجية البرجوازية الامبريالية ، ومن **موقعها الطبقي** · والعين هذه هي ، في واقعها الفعلي ، **ممارسة طبقية** ، ايديولوجية وسياسية · لئن كنا الان بصدد نقض هذه الممارسة الايديولوجية ، فان نقض الممارسة السياسية سيأتي بعد حين · ويتكامل المنهج الشيحاوي ويتأكد ، بحسب هذه العين نفسها وموقعها الطبقي · ففي نص اخر يقول شيحا : « نحن لا ننسى ، بالطبع ، اننا نهتم ، في هذه اللحظة ، بلبنان اليوم · لكن لبنان اليوم ليس جبالا وشطآنا فقط ، انه ايضا بشر · والبشر هؤلاء ، علينا ان نحدد ملامحهم حتى نستخلص من الماضي معرفة الحاضر ودرس المستقبل » (١٤) ·

اهم ما في هذا النص جملته الاخيرة ، فهي التي يجب تدقيق النظر فيها · انما ، قبل ان نقوم بهذه المهمة ، نلفت النظر الى هذا المنطق من الفكر الذي تتفكك فيه الاشياء ، فتستحيل عناصر تصطف جنبا الى جنب : منها الجبال ومنها الشطآن ، لكن منها ايضا البشر · ومن المفيد ، في تعريف لبنان ، اليوم، ان نعمل بنصيحة شيحا ، والا ننسى البشر · وتبقى العناصر **عناصر** ، اذ تختفي فيها العلاقات ، بفعل ذلك المنطق من الفكر · ليس من باب الصدفة ان يكون للعنصر **الجغرافي** المرتبة الاولى بين هذه العناصر ، وان يحتل البشر (او العنصر البشري) في تراتبها المرتبة الثانية · لكن هذا من باب اللغة في ضرورتها الايديولوجية · واذ يخرج لبنان من دائرة العقل ومن دائرة التفسير العلمي ، ويغيب العامل الاقتصادي في فهم واقعه الاجتماعي الحاضر والماضي، ينطرح على « الفكر اللبناني » سؤال بحجم هذا التغييب : كيف التفسير ؟ وبأي نوع من السببية يتم ؟ مهما كان الفكر مغرقا في السحر ، فلا مفر له من مجابهة

هذا السؤال ، حتى لو كان التفسير هذا سحريا ، وكانت السببية هذه من نوع اسطوري · ويأخذ الفكر هذا نهجه التالي : «لبنان بلد فريد في العالم · فهو يتطلب فهما خاصا ، لان قدره ، بالضبط ، قدر لا مثيل له · ولا تنفع في فهمه الترسانة العلمية لاقتصاديي الكون كلهم ، فهي وهمية ، ولا جدوى منها » · اذن ، من هنا يبتدىء التفسير : « يبتدىء من درس في الجغرافيا والتاريخ » (١٥) · هكذا يحل العامل الجغرافي في هذا الفكر محل العامل الاقتصادي والسياسي والتاريخي نفسه في تفسير الواقع الاجتماعي ، وتتأكد وظيفته الايديولوجية بتأكيده تغييب التفسير العلمي (١٦) ·

نشير ، عن قصد ، الى هذا العامل الجغرافي وحده ، دون العامل التاريخي ، برغم ورود كلمة التاريخ في النص الشيحاوي · فهي كلمة تحمل من الالتباس والغموض قدرا يفوق ما قد تحمله من الوضوح · انها ، في النص ، تعكر صفاءه الايديولوجي · وهذا ايضا ملازم للغة الايديولوجية التي لا بد من فك طلاسمها، بالنقض ، حتى تصرح بالضمني منها ، وبالظاهري ايضا ، ان لم يكن احيانا ضده · فما التاريخ ، في ذلك الفكر الجوهري ، سوى حركة يتكرر فيها الماضي في الحاضر والمستقبل ، لانها حركة تكرار الجوهر · ويحتار القارىء في امر هذا الجوهر ، ما هو ؟ لا نكبت رغبتنا في القول انه يكاد يكون ارجاعا للتاريخ الى جغرافيته الطبيعية · فالتاريخ هذا ، تاريخ لبنان ، لا يتكرر في تماثله بذاته الا لان جغرافيته الطبيعية هي التي تحدد له حركته هذه · انها عامل هذا « الاستقرار النسبي » (١٧) · للبنان على امتداد خمسة الاف سنة · هي التي تؤمن له ديمومته · انها مبدأ تفسير هذا الثابت المتجوهر فيه · بها كان « لبنان اليوم هو هو تقريبا لبنان فينيقيا الاصل » (١٨) · على امتداد هذا التاريخ كله ، لم يتغير هذا الثابت المتجوهر فيه · « فبسبب موقعنا في الفضاء ، ولاننا بلد جبال ومناخاتنا ملائمة ، ولان لنا واجهة فسيحة على البحر العريض ··· كنا مأوى للمضطهدين وملجأ للمنبوذين ··· ولان ارضنا صغيرة، وجبالنا ليس بامكانها ان تؤوي الملايين من البشر وتطعمهم ، كانت تنطرح علينا مسألة الهجرة ، كلما فاض بلدنا بسكانه » (١٩) · وفي مكان اخر ، يعود شيحا فيؤكد ان **الاسباب هذه نفسها** (لم يتغير شيء ، بل الشيء نفسه يتكرر منذ خمسة الاف سنة) ، هي التي دفعت اللبنانيين الى الهجرة ، منذ القرن التاسع عشر ، « الى مصر ، في البدء ، ثم في الاتجاهات الاربعة كلها » (٢٠) · ولهذه الاسباب نفسها (وكلها ، كما نلاحظ ،اسباب جغرافية) « قضي علينا ، كما في السابق، ان نعيش في خطر » (٢١) · « فلبنان ، بسبب موقعه الجغرافي ، هو ، بكل بداهة ، رأس جسر نموذجي » (٢٢) · « أنه مفترق طرق · انه ساحة عامة » (٢٣) ·

يتبين لنا من هذه التعريفات كلها ، ان ثمة قدرا جغرافيا ، يحكم تاريخ لبنان

وحياة سكانه ، بل يحكم سياسته واقتصاده في الحاضر ، كما في الماضي · ويبقى الغائب الاكبر في تفسير الاشياء ، الاقتصاد · فالهجرة مثلا ، لها علاقة بالجبال ، وبضيق الارض ، وبطبيعة ذلك « الانسان اللبناني » ، ولا علاقة لها بتاتا بنمط معين من الانتاج · واذ يستحيل العامل الجغرافي الطبيعي مبدأ تفسيريا لكل الظاهرات ، يتحرر شيحا من قيود « ترسانة » الفكر العلمي ، فيرفع الى مطلق طبيعي ما هو تاريخي ، لانه خاص بنمط معين من الانتاج ، وببنية معينة من علاقات الانتاج هي بنية الرأسمالية التبعية الراهنة ، ويسقط على الماضي حاضرا يتجوهر ، فيتأبد ، بالوهم ، في تماثله مع ماض يتكرر ، فيصير بامكان شيحا ، حينئذ ، ان يستفسر لبنان الامس عن سر لبنان اليوم ، لان لبنان اليوم ، عنده ، في هذا الفكر المتجوهر ، وبه ، هو هو لبنان الامس ، واحد يتكرر · والاصح القول انه بلبنان الامس هذا يتبرر · فمنطق الايديولوجية البرجوازية يقوم ، في اساسه الطبقي ، على ضرورة ايجاد التبرير **الطبيعي** لنظام السيطرة البرجوازية ، باخفاء سره **الطبقي** · والمنطق هذا ينتظم بنظام توق هذه الطبقة المحتضرة الى تأبيد سيطرتها الطبقية ، بحيث ينقلب فيه التاريخي طبيعيا ، ويستحيل الواقع الاجتماعي المحدد في الزمان وفي المكان (كلبنان اليوم) معطى مطلقا من معطيات الطبيعة ، وليس **نتاجا تاريخيا** · هكذا يجد كامل النظام الاجتماعي والسياسي والاقتصادي لسيطرة هذه البرجوازية الكولونيالية ، بل لنظام هيمنة الطغمة المالية فيها ، (لا الهجرة وحدها) ، تبريره **الطبيعي** في المنطق الايديولوجي لهذا التفسير **الجغرافي** · فلئن كان لبنان اليوم (لبنان هذه البرجوازية الكولونيالية) ، مفترق طرق وممرا للاخرين وموطىء قدم لهم وساحة عامة سائبة ورأس جسر نموذجي الخ ··· ، فليس ذلك بسبب نظامه الاقتصادي الرأسمالي التبعي ، بل بسبب موقعه الجغرافي · (لا وجود ، بالطبع ، لكلمة الرأسمالية في قاموس اللغة الشيحاوية) · وكذلك ارتباطه التبعي بالامبريالية ، فهو يجد تبريره الطبيعي في تلك الواجهة الفسيحة التي يطل منها على البحر العريض (كأنه منفتح ، جغرافيا ، من جهة واحدة ، ولا واجهة له على الداخل العربي) · هكذا كان من قبل ، وهو الان كما كان ، وكما هو سيبقى · هنا ، بالفعل ، تتضح الحاجة الايديولوجية الطبقية عند شيحا لاعتماد ذلك المنهج من النظر في الواقع الاجتماعي الذي تستخلص فيه ، من الماضي ، معرفة الحاضر ، وتستقرأ فيه ايضا معرفة المستقبل نفسه ، فالاتي يكرر الحاضر الذي هو شبيه بالماضي ، « كالماء بالماء » ، ان جاز ، في هذا المجال ، التعبير الخلدوني · و « الماء » هذا هو العنصر الجغرافي الطبيعي · انه الجوهر الثابت · اما الانسان ، فهو العارض · اذ كل من عليها فان ، ويبقى لبنان « بلدا بحريا » ، وطريقا جويا وبريا ، محطة ، مستودعا ، مفترقا ، واشياء اخرى · لكننا نقتصر على الوجه الذي يجعل منه مكانا مختارا للتجارة والتبادل ··· فلقد كان لبنان ، من قبل ، بلدا تجاريا ، منذ ثلاثة او اربعة

الاف سنة · ولم يتغير كثيرا · (انه هو الذي هو) · فالجبال ما تزال ، بالضبط حيث هي ، والبحر ما يزال حيث هو (٢٤) · (ملاحظة : غريب امر هذه الجغرافيا التي لا تتضمن برا ، او داخلا) ·

الحواشي

(١) ميشال شيحا في **السياسة الداخلية** ، بالفرنسية ، ص ١٥ ·

ملاحظة : نستند ، في نصوص شيحا ، الى الطبعة الفرنسية وحدها ، ونحاول ان نكون امينين للنص ، قدر الامكان ، في نقله الى العربية · والنصوص هذه التي سنستند اليها ، صدرت في كتب متفرقة في بيروت ، عن مطبوعات مؤسسة ميشال شيحا · Ed. du Trident

لهذه الكتب العناوين التالية

لبنان اليوم Liban d'aujourdhui

تنويعات على البحر المتوسط Variations sur la méditerranée

في السياسة الداخلية Politique Intérieur

افكار في الاقتصاد اللبناني Propos d'economie Libanaise

فلسطين Palestine.

لسهولة مطبعية ، سنذكر دوما عنوان الكتاب الذي نشير اليه ، بالعربية ·

(٢) او اصطناع البساطة · ويقال ان ميشال شيحا « شاعر » ايضا ·

(٣) شيحا ، **مصدر سبق ذكره** ،ص ١٥·

(٤) **المصدر نفسه** ، ص ، ١٥ ــ ١٦ ·

(٥) ميشال شيحا ، **لبنان اليوم** ،ص ٧ ·

(٦) ميشال شيحا ، **افكار في الاقتصاد اللبناني** ، ص · ٢٩١ ·

(٧) لبنان اليوم . **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٢ ·

(٨) في السياسة الداخلية ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ، ١٧٨ ·

(٩) القضية اللبنانية ، كراس رقم ١٤ ، بعنوان : **«الاسلام السياسي وهوية لبنان»**، منشورات جامعة الكسليك ، آب ١٩٧٦ ، ص ، ٢٣ ·

(١٠) في السياسة الداخلية ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٧ ·

(١١) لبنان اليوم ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ، ٢١ ·

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ، ٢٢ ·

(١٣) اذا كان فعل التصنيف يضرب الحجر على تلك المجموعات ، بحيث تنعزل عموديا ، كل منها عن الاخرى ، في الخانة المخصصة لها ، ففي اطار علاقات الانتاج، وعلى هذا الصعيد الاقتصادي ، يرفع الحجر ذلك عن هذه المجموعات . بحيث تتداخل ، افقيا ، فيما بينها ، وتتحدد ، بالتالي ، اقتصاديا ، ومن ثم سياسيا وايديولوجيا ، كطبقات اجتماعية · لذا كان تغييب الاقتصادي ضروريا لتماسك ايديولوجية هذه البرجوازية الكولونيالية اللبنانية ·

(١٤) لبنان اليوم ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ، ٣٥

(١٥) افكار في الاقتصاد اللبناني ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ، ١٠ ·

(١٦) اما جواد بولس ، فيكفيه ، في « فكره التاريخي » ان يقتات من فتات هذا الجانب من الفكر الشيحاوي ·

(١٧) لبنان اليوم ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ، ٩ ·

(١٨) **المصدر نفسه** ، ص ، ١٢ ·

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ، ١٠ ــ ١١ ·

(٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ، ١٢ ·

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ، ٩ ·

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص ، ٦٦ ·

(٢٣) **المصدر نفسه** ، ص ، ٦١ ·

(٢٤) افكار في الاقتصاد اللبناني ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ، ٢٩ و ٣٢ ·

منير العكش

مقدمة لمنطق العنصرية

« ان عداوة البرهان تنشأ عن الاصل الذي
تنشأ عنه عداوة الانسان » ٠
سقراط

تطمح هذه المقدمة الى فحص الاصول النظرية للظواهر العنصرية في عالمنا المعاصر على اختلاف اشكالها ومبرراتها ، وتحاول التماس الجذور المشتركة لكل هذه العنصريات التي تعاني منها انسانيتنا سواء كانت عرقية (بيضاء) ، او اقتصادية (رأسمالية) او دينية (توراتية) ٠

وستركز المقدمة ـ لتحقيق هدفها ـ على اتخاذ مفهوم « الحرية » معيارا عمليا لفهم هذه العنصريات وتطبيقاتها ، وذلك خلال تحديد هذا المفهوم وبلورته واستنباط مسلماته واسسه العقلية ، وممارساته الذاتية والموضوعية ، وحدوده الغريزية او البرهانية ، ومصيره المشروط او المطلق ٠

لهذا سنواجه في هذه المقدمة نوعين من المسلمات :

الاولى نستمدها من العقل ، ونعتبرها ضرورية ومطلقة وشاملة ٠

والثانية نستمدها من التجربة والواقع ونعتبرها عرضية جزئية تحتمل التعدد والاستثناء ٠

ومنذ البداية اعترف بأنني لست « حياديا » تجاه النوع الثاني من المسلمات التي يفرضها الواقع والتجربة لانها تفتقر الى « المعيار المطلق » الذي يحكم عليها حكما صحيحا ، اي انها تفتقر الى « الضرورة والاطلاق والشمول » ٠ ثم ان الحرية الانسانية لن تكون انسانية بمجرد نجاحها في تحقيق التقدم والازدهار لهذه الانظمة الاقتصادية او تلك ، ولا بمجرد تأسيس دولة لهذه الطائفة او ذلك

العرق على حساب طائفة اخرى وعرق آخر ، ولن تكون انسانية بمجرد ايمـان عدد كبير من الناس بأهدافها ونجاحاتها ، بل انها تكون انسانية حين تتضمن الجوهر الانساني في ذاتها ، وحين تنطلق من المسلمات العقلية وحدها ، فالمنفعة العاجلة ليست مقياسا لصحة ممارسة الحرية ، والضرر العاجل ليس مقياسا لفسادها ٠

وحتى لا يختلط المفهوم المطلق للحرية بالمفاهيم التجريبية ، وحتى لا يؤدي تعارضه مع النماذج التجريبية الحاضرة للحرية الى مصادرته قبليا لا بد لنا من فحصه على ضوء تصور العقل ، والعقل وحده ، لهذه الحرية ٠

ان معظم مسلماتنا التجريبية عن مفهوم الحرية استمدت من منطق معكوس خلط بين **وظيفة العقل** (مجموع المبادىء القبلية المنظمة للمعرفة كمبدأ عدم التناقض ومبدأ السببية) وبين **وظيفة الغريزة** (فعل منعكس مركب ، او مجموع معقد من ردود الفعل الخارجية والوراثية) ٠

وقد نشأ عن هذه الفوضى ان انتقل العقل ذو البعد الغريزي من مرحلة **عداء البرهان** (يبني العلم البرهاني حقائقه على اوليات العقل ، ويستنتج قوانينه من المبادىء الكلية الضرورة) الى مرحلة **عداء الانسان** ، وان كانت اصول العداوتين للبرهان والانسان واحدة كما قال سقراط ذلك في (محاورات فيدون) ٠

ولا بد للحلف المعقود بين الحرية الانسانية والبرهان من ان يصطدم او يلحق الضرر بالحلف المعقود بين الحرية غير الانسانية والغريزة طالما ان كل انتصارات الحلف الثاني قامت على الخسارات المتلاحقة للحلف الاول ، ولان الحرية الانسانية لا يمكن تعميمها الا بعد الحاق الهزيمة باهداف ومسلمات وقوانين واخلاق الذين ينعمون بالحرية غير الانسانية على حساب كل الانسانية ٠ ان تعميم الحرية الانسانية مشروط بحق الحلف الاول في تدمير كل مؤسسات الحرية غير الانسانية المتمثلة بالنظام الرأسمالي الحديث (اقتصاديا) وباسرائيل (دينيا) وبدول الاقلية البيضاء في افريقيا (عرقيا) ٠

ولم تقتصر هذه الفوضى على تشويش العلاقة بين الحرية والانسانية وحسب بل تعدتها الى عالم « القيم » الانسانية ايضا ٠ وهذا ما يظهر واضحا لدى فحص هذه القيم ، كقيمة « الواجب » مثلا :

ان بكاء نيرون على رومه المحترقة كان واجبا ، لكن بكاءه وهو يعيش ذروة الجريمة وذروة رفض الجريمة على شرفة قصره المطلة على العاصمة الرمانية المحترقة لم تمنع احد معتوقيه من ان يقول له : « انني لا اصدق ان القيصر يبكي على ارادة القيصر » ٠ كان نيرون يصر على ان يكنز « دموع الواجب » في

حنجور ذهبي شهادة له على كل الذين اتهموه بحريق رومه او قتل امه ، لكنه كان كلما اضاف دمعة الى الحنجور يضيف شهادة جديدة على ان مفهوم الواجب لا يمكن ان يحمل جوهرا نيرونيا ·

ولا شك في ان سياسة تقديم « النابالم الحارق » لاسرائيل في مقابل تقديم البطانيات للفلسطينيين هي نموذج واضح جدا على مفهوم النظام الرأسمالي الاميركي ، لا لمبدأ « الواجب » وحسب ، بل لكل الاسس الاخلاقية التي يقوم عليها هذا النظام سواء كان في الولايات المتحدة او في الولايات المفككة · فالاحساس بالواجب لا يستمد « قيمته » من المصلحة المترتبة على القيام بهذا الواجب بل من مبدأ الارادة الانسانية ، واذا كان لا بد لها من تحديد فان تحديدها يتم عبر جوهرها الانساني الشامل لاعبر منفعتها العاجلة · فاذا كان للبطانية الاميركية ان تدفىء اللاجىء الفلسطيني وتقدم له منفعة عاجلة بعد احراقه بالنابالم الاميركي فانها لا تستطيع ان تعوضه عن خيمته الموقتة في جنوب لبنان ولا عن داره المغتصبة في فلسطين تحت المظلة العسكرية والاخلاقية التي نصبتها الولايات المتحدة والانظمة الرأسمالية فوق دولة اسرائيل · ان بطانيات كارتر ليست اكثر من دموع نيرونيه حديثة يذرفها فوق رومه الفلسطينية المحترقة بالاسلحة الاميركية المحرمة والتسهيلات الاميركية لاستعمال هذه الاسلحة · ان كل بطانية اميركية جديدة لا تدل على ممارسة الولايات المتحدة لـ « الواجب » بل تدل على ان الواجب لا يمكن ان يحمل جوهرا نيرونيا لا في صيغته الرومانية القديمة ولا في صيغته الاميركية الحديثة ·

اذن لا بد للممارسة الانسانية للواجب (وللقيم كلها) من ان تخضع للحلف المعقود بين الحرية والبرهان من اجل أن يسيطر هذا البرهان على التفسيرات المبتورة للواجب وينفي عنه اطره القبلية المستمدة من المسلمات العرقية (البيضاء) او الاقتصادية (الرأسمالية) او الدينية (التوراتية) · وضمن هذا الحلف وحده نعثر على عالم « القيم » الذي يفتقد اليه النظام الرأسمالي الحديث ، لا لان هذا النظام لا يتمثل مسلمات البرهان في ذاتها وحسب ، بل لانه يطارد هذه المسلمات ويصادرها لمصلحته الخاصة ، ليقدم بذلك اكثر المبررات الاخلاقية قوة للعمل على محاصرته وتدميره ·

بهذه البوصلة نستطيع ان نميز بين ما هو انساني شامل وبين ما هو عنصري في اسس اخلاق المجتمع الرأسمالي الحديث والانظمة العنصرية المرتبطة به ، وذلك دون ان نسقط في احكام اعتقادية DOGMA لحساب احد · بل ربما كانت مثل هذه البوصلة اكثر لزوما لنا في توجيه نقدنا الذاتي الى الاسس الاخلاقية التي تستند اليها بعض انظمتنا العربية في نشاطها السياسي ومواقفها من

ماساة الشعب الفلسطيني · وهي على كل حال اسس لا تختلف عما وجدناه وسنجده في النظام الرأسمالي الغربي الحديث ·

ان عدو البرهان يقلب وظيفة العقل اذن حين يخضع تصوره للحرية الى حقه في امتيازات خاصة به وحده ، وحين يوظف نشاطات عقله لتبرير هذا الحق بمبررات عرقية او دينية أو اقتصادية · فالبرهان كما حددناه سابقا هو المعيار الذي نميز به بين الحرية وبين العنصرية ، مما يعني ان الحرية الانسانية تفترض وجود البرهان رفيقا لها ومعيارا لممارستها من اجل ان لا يتم تجزييء الحرية او ممارساتها ·

فقد لا تكون الحرية هي الانسانية وحدها (الانسانية هنا مقابل الحيوانية) وقد لا تكون الانسانية كلها ، لكن افتراض وجود البرهان رفيقا ومعيارا للحرية هو الذي يجعلها بالضرورة انسانية ، ومعيارا لكل انسانية من نوع آخر بما في ذلك انسانية الدفاع عن « العالم الحر » او انسانية مكافحة « الارهاب الفلسطيني » ، او انسانية « البندقية والتوراة » ·

ان مسلمات الحرية الانسانية لا تلتمس اذن من الاسس المذهبية لتفوق الرأسمال ، او العرق ، او الهستيريا العنصرية لنصوص العهد القديم ، فليس هنالك من اساءة الى الحرية ابلغ من محاولة استنباط مسلماتها على ضوء ممارسة « سدنة الحرية » لها اذا كنا نريد فعلا ان نضع مفهوم الحرية الانسانية الشاملة معيارا لكل تصور تجريبي لها ·

فحين نريد للحرية ان تكون لكل انسان فان اول واجبات البحث علينا ان ننتقل الى النقطة التي ينبثق عندها تصور الحرية :

١) ما دام كل شيء في عالم الطبيعة يخضع لقوانين ، وما دام الانسان وحده هو الذي يملك حرية ممارسة الحرية بحسب تصوره لقوانينها ، وما دام البرهان هو الشرط الاول لاستنباط هذه الممارسة من القوانين ، فان ممارسة الحرية تصبح نوعا من **البرهان العملي المتداول** ·

١/أ) اذا كان البرهان هو الذي يعين الحرية ، فان هذه الحرية تصبح « **ملكة اختيار** » لهذه الممارسة دون غيرها ·

١/ب) يقرر البرهان ما اذا كانت هذه الممارسة ضرورية من الناحية العملية، اي انسانية، ولكن شرط ان يكون البرهان خالصا من تحكم الضرورات والغرائز والميول والتفسيرات الاعتقادية ·

١/ج) حين لا تتوفر للبرهان مثل هذه القوة على ممارسة الحرية فمعنى

ذلك ان هذه الممارسة الذاتية لا تغتصب الحرية وحسب ، بل تغتصب البرهان ايضا ·

ولانها ممارسة ذاتية :

فهي ممارسة عارضة ، ولا يمكن وصفها بأنها ضرورية او انسانية ·

١/ج/أ) وحين يكتب في سفر التثنية (اصحاح ٧) : « اياك قد اختار الرب الهك لتكون له شعبا اخص من جميع الشعوب الذين على وجه الارض ··· مباركا تكون **فوق جميع الشعوب** ، لا يكون عقيم ولا عاقر فيك **ولا في بهائمك »** ، وحين يكتب في سفر الخروج (اصحاح ١٩) : «وانتم تكونون امة مقدسة » فان مثل هذه الكتابات لا تصلح الا لدراسة الاضطرابات النفسية لكتاب العهد القديم ، اما ان تتخذ اساسا لممارسة العنصرية ضد الفلسطينيين وضد جميع شعوب الارض ، فان مثل هذا الاساس لا يدل على ممارسة ذاتية وعارضة للحرية بل يعطي الحق لكل الانسانية في ان تبحث عن اساس برهاني يكون معيارا لكل ممارسة لهذه الحرية ·

١/ج/ب) اذا كان هنالك من كتاب تنظيري يعرض حقوق الانسان للخطر ويمتهن حرية الانسانية ويقدس هذا الامتهان حيث يجعل من الانسانية عبيدا بالفطرة لبني اسرائيل فهو كتاب العهد القديم · ان كتاب « كفاحي » لهتلر لم يتجرأ على ان يجعل الانسان عبدا وهو بعد جنين في رحم امه كما يفعل العهد القديم : « ··· فقال لها الرب في بطنك أمتان · ومن احشائك يفترق شعبان : شعب يقوى على شعب · وكبير **يستعبد الصغير** » · (تكوين / اصحاح ٢٥) · « ··· جعلته سيدا لك ، ودفعت اليه جميع اخوته عبيدا » (تكوين / اصحاح ٢٧) ·

١/ج/ج) ان العهد القديم لا يقدس امتهان الانسانية وحريتها اكراما لبني اسرائيل بل يقدس امتهان الرب نفسه اكراما لبني اسرائيل ، فهو يصوره ابشع من صورة هتلر وايان سميث وجون فورستر ، فبالاضافة الى تصويره ربا عنصريا لاسرائيل ضد باقي البشرية ، ولحيوانات اسرائيل ضد باقي الحيوانات» ··· «ان الرب يميز بين المصريين واسرائيل» (خروج/اصحاح ١١) « ··· **ويميز الرب بين مواشي اسرائيل ومواشي المصريين** » (خروج / اصحاح ٩) كذلك يصوره العهد القديم ربا يعلم شعبه فن اللصوصية (المقدسة) « ··· فيكون حينما تمضون (من ارض مصر) انكم لا تمضون فارغين ، بل تطلب كل امرأة من جارتها ومن نزيلة بيتها امتعة فضة وامتعة ذهب وثيابا ، وتضعونها على بنيكم وبناتكم ، فتسلبون المصريين » (خروج / اصحاح ٣) « ··· طلبوا من المصريين امتعة فضة وامتعة ذهب ، واعطى

الرب نعمة للشعب في عيون المصريين حتى اعاروهم فسلبوا المصريين » (خروج/اصحاح ١٢) • « •• فتجندوا على مديان (مدين) كما امر الرب ، وقتلوا كل ذكر ، وملوك مديان قتلوهم فوق قتلاهم ••• وسبى بنو اسرائيل نساء مديان واطفالهم ونهبوا جميع بهائمهم وجميع مواشيهم وكل املاكهم ، واحرقوا جميع مدنهم بمساكنهم ، وجميع حصونهم بالنار • واخذوا كل الغنيمة وكل النهب من الناس والبهائم واتوا الى موسى ••• وقال لهم موسى : هل ابقيتم كل انثى حية ••• اقتلوا كل ذكر من الاطفال وكل امرأة ••• » (سفر العدد/اصحاح ٣١) •

١/د) عند هذه الفاصلة نستطيع ان نميز اول مقولة في المذهب ، اعني **موضوعية الحرية** •

١/هـ) الموضوعية (كمحمول على موضوع الحرية) احدى التصورات الكلية الاساسية للبرهان ، يتمثلها العقل باعتبارها اساسا فيه •

١/و) الموضوعية (كمقابل للذاتية) ما يكون صحيحا بالنسبة لجميع العقول لا بالنسبة الى عقل دون آخر ، أي بالنسبة الى عقل يتأثر في احكامه بما يحب ويكره ويعتقد •

٢) ان علاقة هذه المقولة (موضوعية الحرية) بحرية لم تتوفر لها شروط الشمول الانساني (الضرورة والبرهان) تنقلنا الى عنصر جديد ذي صفة حقوقية هو عنصر « **الحد** » البرهاني المطلق • (وهو غير الحد المنطقي بالطبع)•

٢/أ) كل حد برهاني للحرية يعني نقل « موضوعية الحرية » من جانبها المذهبي الى جانبها العملي ، كما يقتضي نقل البرهان من صورته المعيارية الى صورته الحقوقية •

٢/ب) ان العلاقة بين موضوعية الحرية وبين حرية ذاتية ما ، هي علاقة بين برهان وبين غريزة لا تستطيع ان تكون موضوعية بدون قوة هذا البرهان الملزمة ، اي حده •

٢/ج) لهذا كان لا بد للحرية الانسانية الموضوعية منحد انساني موضوعي

٢/ج/أ) ولكن اية انسانية ؟ انسانية الانسان الابيض ؟ انسانية النظام الرأسمالي ؟ انسانية البندقية والتوراة ؟

٢/ج/ب) ان هذه الحدود جميعا تنطلق من تصورات عنصرية لمفهوم الانسانية ، سواء كانت هذه العنصرية عرقية (بيضاء) تؤمن بحقها (الالهي) في عقاب الاعراق الاخرى (عام ١٩٥٠ صرح اللاهوتي شتراوس ان المسيحي الابيض مخول بسلطة الهية على السكان (في جنوب افريقيا) وعلى هؤلاء

طاعتنا، بل **عليهم ان يتحملوا عقابنا لهم باسم الرب،** لان هذا العقاب سيذلصهم مـــن عبوديـــة الخطيئـــة) (ص ٤٨ من La France Et L'apartheid ـ باريس ١٩٧٨) ، او كانت عنصرية اقتصادية (رأسمالية) او كانت عنصرية دينية (توراتية) ٠ (ان مجيىء البوورز الى جنوب افريقيا مماثـــل لمجيىء شعب اسرائيل الى ارض الميعاد ٠ وسبب هذا الزعم انـــه كان على الشعوب الاصلية ان تكون الكنعانيين الجدد الذين انزل الله عليهم لعنته ووضعهم تحت حكم البيض ٠ ان هذا المفهوم مستوحى من بعض الافكار التوراتية كفرضية سام وحام ويافت ، وهكذا خلص العرق الابيض الى اسطورة تفوقه مـــن سفـر التكوين ٠ وهو مفهوم متأثر بالانسان الغربي ، فالغرب يرى المسيح ابيض ٠٠ كما رسمه في الايقونات ٠٠ ثم ان قراءة التوراة موجهة ٠ فالكنيسة تقرأ العهد القديم وتدعو اليه اكثر من العهد الجديد ، وبالتالي تخرج من العالمية المسيحية الى العنصرية اليهودية ٠٠٠ شعب الله المختار) ، (المصدر السابق / راجـع فصل ٣ ابتداء من ص ٥١ حتى ٥٣) ٠

ان كل ممارسة للحرية هنا هي ممارسة ذاتية وعارضة ، ومناقضة لموضوعية الحرية وانسانيتها وبرهانهـا ٠

٢/د) الحد هو الذي ينظم العلاقة بين موضوعية الحرية وذاتيتها ويميز بين ممارسة ذاتية **عارضة** ،وبين ممارسة ذاتية **ارادية** تصر على مسلماتها وبراهينها الخاصة المحدودة بعرقها او اقتصادها او نصوصها التوراتية هي مسلمات كل الانسانية وبراهينها المطلقة ٠

٢/د/أ) معظم الممارسات العنصرية (العلمانية) عرقيا او اقتصاديا تستمد اصولها من التوراة ، كما ذكرنا ، الى ان تغلبت العنصرية العلمانيـــة علـى العنصرية التوراتية في ظاهرة « اللاسامية » ، ثم بدأت هذه العنصرية العلمانية تأكل بعضها عرقيا (داخل العرق الابيض نفسه) بظهور النازية التي هي نتيجة حتمية لتقديس عنصرية التوراة ، ثم عنصرية الانسان الابيض ، ثم عنصريـــة العرق الارى ، وتأكل بعضها اقتصاديا في صراع الانظمة الرأسمالية الحديثة مع بعضهـا ٠

٢/د/ب) كان غرور افلاطون بالاكذوبة النبيلة نوعا من التبرير للقول بـأن هنالك اختلافا عميقا يماثل ما هو حاصل بين نوع من الحيوانات وآخر ٠ وقـد جعل ارسطو من هذه الفكرة اساس دفاعه عن الرق ٠ ولا شك في ان المساومـة التاريخية بين الفلسفة الهيلينية وبين افكار العهد القديم كانت بداية اللقـــاح العنصري لمعظم التصورات الغربية عن « الانسانية » ، فاذا كانت اسرائيل قد عبدت نفسها باعتبارها شعب الله المختار فان اثينا ايضا ابتليت بهذه الافة حين اعتبرت نفسها معلمة هيلاس٠ « وتوحي القصة الواردة في اعمال الرسل عـن

التقاء الاثينيين بالقديس بولس ان الرسول الموفد الى الا ميين لم يكن جاهلا بالمحيط الاكاديمي لمدينة اصبحت في عصره اوكسفورد الهيليني ، وانه عندما خاطب اعضاء الجامعة بذل غاية جهده لمناقشة الموضوع من زاوية ترضي هؤلاء النظارة بالذات » (مختصر دراسة التاريخ ، ارنولد توينبي ، ط القاهرة ١٩٦٧ ص ٦٠ـ ٦١) ٠

٢/هـ) اما كيف يمكن للحد ان يكون برهانيا مطلقا فاننا هنا ايضا لن نستطيع ان نتلمسه من عالم الضرورات والغرائز والميول والنصوص التوراتية طالما ان النقطة التي ينبثق عندها تصور هذا الحد هي النقطة التي انبثق عندها تصور الحرية واعني البرهان ٠

٢/و) البرهان هو الذي يجعل الحد :

٢/و/أ) **مطلوبا** لاجل ذاته ، لا لاجل عرق او نظام اقتصادي او نصوص توراتية ٠

٢/و/ب) **وضروريا** لممارسة الحرية بشمولها الانسانيلا بحدودهاالعنصرية٠

٢/و/ج) **ومبدأ عمليا** يتخذ صفة القانون الطبيعي الذي يجعل من حق ممارسة الحرية لكل انسان البديهية التي يستمد منها هذا القانون ضرورته ومبرراته ٠

٢/ز) تصبح الانسانية حرة بقدر ما تحترم هذا الحد الذي وضعته لنفسها ، لان هذا الحد **هو الشرط الذي يجعل الحرية الانسانية ممكنة** ، وبالتالي يعزل كل مسلمة عنصرية خاصة تحاول ان تكون مسلمة انسانية بالقوة ٠

٢/ز/أ) ان الولايات المتحدة في سياستها الزراعية مثلا تكبح جماح مواسمها الزراعية حتى تبقى اسعار المواد الغذائية مرتفعة في السوق ٠ كما ان معظم دول العالم الرأسمالي تمارس سياسة « الشراء الطارىء » كلما احست بأن وفرة مادة غذائية في السوق الدولية يهدد بخفض سعرها ٠ ومنذ اول الستينات والولايات المتحدة تعطل زراعة ١٥ بالمائة من اراضيها الصالحة للزراعة ، اي ما يعادل ٢٤ مليون هكتار ، من اجل ابقاء اسعار المواد الغذائية مرتفعة ٠

وقد لاحظت سوزان جورج في كتابها « كيف يموت النصف الاخر » « انه لو لم تخفض الولايات المتحدة والارجنتين وكندا انتاج القمح بملء ارادتها لكان بالامكان اشباع كل انسان على وجه الارض ، وتوفير فائض قدره مائة مليون طن ، وذلك خلال اربعة مواسم فقط » ٠

٢/ز/ب) اذن لقد **اعطى النظام الراسمالي لنفسه الحرية في ان يجعل مصادراته الاقتصادية قانونا طبيعيا** ٠ والعالم الرأسمالي الذي يطلق على نفسه

اسم « العالم الحر » هو الذي يمارس حرية تجويع نصف الانسانية بمبـــررات يعطيها حكم الضرورة الموضوعية بالقوة ٠

٢/ز/ج) هذه المصادرات للحرية هي التي تجعل من « الحد » الذي نبحـث عنه ضرورة لا بد منها لكي تكون الحرية ممكنة لكل الانسانية ٠

٢/ز/د) يستطيع النظام الرأسمالي ان يفرض عنصريته الاقتصادية بقـــوة السلاح ، لكنه لن يستطيع ابدا ان يجعلها قانونا طبيعيا ٠ فاذا كان بامكان هذا السلاح ان يفسد الغريزة ، ويضعها امام ثنائيـــة : تبني هـــــذه العنصريـــة الاقتصادية ، او تبني اسلوب الارهاب لمقاومة هذه العنصريـــة ، فانـــه ليس بامكانه افساد البرهان او ايقاعه في فخ ثنائيته ٠ ففضلا عن ان هذا النظام لا يملك اقامة البرهان على « انسانية » حريته ، او اخلاقه ٠٠ لا يملك ايضـا ان يصادر طبيعة البرهان لحسابه ، ويجعلها تتصرف وفق مسلماتـــه بوجههـــا العنصري (ايجابا) ، او الارهابي (سلــبا) ٠

٢/ز/هـ) بالبرهان فقط ، نستطيع ان نشير بالاصبع الى الجانب العنصري من هذه الحرية وعدم صلاحيتها لان تكون قانونا طبيعيا للحرية ٠ فلو ان سدنة الحرية الاقتصادية كانوا يريدون لحريتهم ان تكون قانونا طبيعيا لاعطوا لكـل صاحب سلعة الحق في ان يتصرف بها كما تتصرف الولايات المتحدة في سلعها الزراعية والغذائية ، او كما تتصرف دول السوق الاوروبية المشتركة ضمـــــن سياسة « الشراء الطارىء » ٠

ونحن هنا لانتساءل عما فعلته الانظمة الرأسمالية بعـــــد ان رفعت الـدول المنتجة للنفط اسعارها عام ١٩٧٣ ، بل نتساءل عما يمكن ان تفعله هذه الانظمة لو ان دول النفط عطلت انتاج ١٥بالمائة من حقولها كما عطلت الولايات المتحدة زراعة ١٥ بالمائة من اراضيها ، او لجأت الى سياسة « التعطيل الطارى » ، كما تلجأ دول السوق الاوروبية الى سياسة « الشراء الطارىء » ؟

٢/ز/و) امام هذا الافتراض المشروع رأسماليا سيجد اصحاب «القانـــون الطبيعي » الرأسمالي انفسهم امام ورطة ، فاما ان يسمحوا لكل اصحاب المواد الخام بأن يتصرفوا بسلعهم وفق هذا القانون الذي منحوه صفة القانون الطبيعي او ان يعترفوا بعنصريته ٠ وفي الحالين سيواصل الجنس البشري بقاءه بـلا شك ، لكنه سيواصل ذلك مسعورا بالحرية والارهاب ٠

٢/ز/ز) العنصرية والارهاب نتيجتان طبيعيتان متلازمتان وملازمتان لكـل مسلمة غريزية تريد ان تفرض نفسها قانونا طبيعيا ، لان من المستحيل على هـذه المسلمة ان ترتفع الى مستوى القانون الطبيعي دون ان تتناقض ، لا مع نفسها وحسب ، بل مع طبيعية القانون ٠٠ اي مع انسانيته وموضوعيته وبرهانة ٠

٢/ح) اذن لا بد لحد الحرية من ا نيكون برهانيا مطلقا صالحا لكل حرية انسانية ، ومستقلا عما تمليه الضرورات والغرائز والميول والتفسيرات الاعتقادية ٠

٣) لاكتشاف العلاقة بين الحرية وحدها وبين البرهان ، لا بد من ان نتقدم خطوة نحو الاسس البرهانية للحرية ٠ ومثل هذه الخطوة تقتضينا فحص علاقة الحرية بذاتها من حيث انها تعين هذه الذات بالبرهان وحده ، وبالتالي تسقط عنها كل الاوزار التي ترتكب باسمها في عالم الابتذال اليومي للحرية ٠

٣/أ) في اطار البرهان ، تتحدد ممارسة الحرية على ضوء اسبقية المبدأ على النتيجة ، اي بما سماه ارسطو بالاسبقية حين تحدث عن اسبقية العلة ، وتقدمها على المعلول ٠ وهي هنا على كل حال ، اسبقية نسبية مبنية على الاستدلال العقلي ، وليست مطلقة كما استخدمها كانط وليبنتز ٠

٣/ب) ان تحديد ممارسة الحرية على ضوء هذه الاسبقية يجعل من **الحرية فطرة** تحدد للانسان هذه الممارسة ، وتميز له بين ما هو انساني برهاني ، وبين ما هو عنصري غريزي ٠

٣/ج) ان « مصير » الحرية هو الذي يصلح اساسا موضوعيا تعين به الحرية ذاتها ٠ فحين يكون المصير برهانيا خالصا صالحا لكل انسان باعتباره كائنا عاقلا لا وجود للفطرة الا في نوعه وحده ٠ اما حين نريد تعيين الحرية على اساس من عالم الغرائز والميول والتفسيرات الاعتقادية ، فاننا بذلك لا نغفل مصير الحرية كمعيار لانسانيتها وحسب ، بل نسقط في المصادرات العنصرية لهذه الحرية بأنواعها الثلاثة : الاقتصادية والعرقية والتوراتية ، ونجعل منها **سلعة** خاصة ، نعطل زراعتها ، او نخضعها لسياسة « الشراء الطارىء » كأية سلعة أخرى ٠

٣/د) في مقابل **المصير كأساس موضوعي** تعين به الحرية ذاتها ، نجد ان المصادرات العنصرية تعين الحرية على **اساس سلعي** ٠ وهو اساس لا يستطيع ان يقدم لنا قانونا طبيعيا للحرية صالحا وضروريا لكل الانسانية ٠

٣/د/أ) ان الحدود التي وضعها اصحاب هذا التفسير السلعي للحرية ، ايجابا في تبنيهم « حقوق الانسان » ، او سلبا في تبنيهم حملة « مكافحة الارهاب » . هي حدود سلعية ايضا ٠ فحقوق الانسان لا تعني حقوق هجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي الى فلسطين المحتلة فقط الا على اساس سلعي لحقوق الانسان ، طالما ان حق كل انسان يهودي في الهجرة من بيته في الاتحاد السوفياتي تعني ضمنا حقه في طرد اسرة تنتمي الى النوع الانساني من بيتها في فلسطين المحتلة ٠

٣/هـ) ان الانسان ٠٠ **وكل انسان هو مصير في ذاته** ٠ وكل تجريد لهـــذا الانسان من مصيره في ذاته وفق المصادرات العنصرية يعني تحويـــل هـــذا الانسان الى سلعة ٠

٣/و) وكل ممارسة للحرية لا تقوم على اساس اسبقية المبدأ على النتيجة ٠٠ اي برهانيا ، ستؤدي الى عزل الانسان عن مصيره وتحويله الى سلعة ٠ وهذا هو الاساس الذي تمارس عليه العنصريات القائمة حريتهـا بعـد ان حصـرت النوع الانساني بانسان عرقها الابيض ، او اقتصادها الرأسمالي ، او هستيريا نصوص توراتها ٠اما البقية الباقية من هذا النوع الانساني فسلع لا مصيـــر لهـا في ذاتهـا ٠

٣/ز) مثل هذه الانسانية المشروطة بالعرق والاقتصاد والتوراة هي التـــي تمارس حرية مشروطة بالعرق والاقتصاد والتوراة ٠ فهي اذن انسانية وحريـة عنصريتان ٠

٣/ح) لا تتمثل العنصرية ما هو بالضرورة مصير لكل انسان باعتبـــاره مصيرا في ذاته ، وهي بذلك تقدم لنا مبررا قويا لاقامة الحد البرهاني لكل حرية انسانية ٠٠ الحد الذي يوحد نشاط كل الانسانية في هدف واحد هو تجريـــد الشروط العرقية والرأسمالية والتوراتية عن كل تعريف للنوع الانسانـي ، او تعريف للحرية ، لان هذا التعريف لا يتعارض مع المصير الذاتي للانسان ، بـل مع المصير الموضوعي لكل الانسانية ٠

٣/ط) هذا المصير الموضوعي هو الذي ينظم علاقة الحرية بنفسها حيـــن يمارسها كل فرد او كل جماعة على هدى من « الحد البرهاني » ، لا وفق الحدود الغريزيـــة ٠

٣/ي) ترتكز موضوعية هذا المصير :

٣/ي/أ) على شمول هذا المصير الموضوعي لكل مصير في ذاته ٠

٣/ي/ب) على ان الانسانية وهي تعمم مصيرها وتطلقه لا تستطيع ان تقتطع قسما منها وتجعله سلعة للقسم الاخر ، اي انها لا تستطيع ان تجعل المصير في ذاته مصيرا سلعيا للاخرين ٠

٣/ي/ج) على صدور هذا المصير الموضوعي بالضرورة عـــن البرهـــان الخالص ، لا عن مصادرات عرقية او اقتصادية او توراتية ٠

٣/ك) من هذه المرتكزات الثلاثة يكتسب الحد البرهاني للحرية موضوعيته وصلاحيته ، مما يجعله كذلك **حدا طبيعيا للحرية** يلازم طبيعية المصير الموضوعي نفســه ٠

٣/ل) تلتقي الحرية وحدها ومصيرها ، لا مع الفطرة وحسب ، بل مــــع طبيعية العالــم ٠

٣/م) وتصبح علاقة المصير الذاتي للانسان مـــع المصير الموضوعـــي للانسانية ، لا علاقة حد وحسب ، بل **علاقة طبيعة بنفسها** ٠

٣/ن) لم تصبح العلاقة التي طابقت بين المصيرين طبيعية الا بعد ان طردت من مملكتها كل مبررات الحرية السلعية باعتبار ذلك شرطا للتمييز بين ممارسة انسانية للحرية وممارسة عنصرية ٠

٣/س) ان مبدأ كل حرية انسانية من حيث هي **حرية مصيرين متطابقين** يعود الى البرهان الذي دلل على هذا التطابق ، والى الحد البرهاني الذي نظمه ٠

٣/ع) في هذا المبدأ وحده تكمن كل احتمالات علاقة الحرية الانسانيـــة بنفسها ٠٠ تلك الحرية التي صارت طبيعية لانها هي التي اوجدت حدها الطبيعي حين طابقت بين كل مصير ، والزمت نفسها بهذه المطابقة ٠

٣/ف) حين تكمن كل احتمالات علاقة الحرية الانسانية بنفسها في مبـــدأ تطابق المصيرين ٠

وحين يجد المصير في ذاته حده الطبيعي في المصير الموضوعي للانسانية ٠

٠٠ حينذاك تصل الحرية بكل الانسانية الى ما يمكن تسميته **بمملكة المصير** ٠ وهي المملكة التي لم نجد منها حتى الان سوى جانبها النظـــري الضروري ، وبالتالي فان علينا فحص ما اذا كان جانبها العملي ممكن الوجود ٠

٤) ان الحد الطبيعي للحرية ، كما عرفناه سابقا ، يقدم لنا مــن مجمـــوع المصائر فيذاتها كلا عاما يشملها جميعا في وحدة منتظمة ، اي في مملكة ممكنة الوجود اطلقنا عليها اسم مملكة المصير ٠

٤/أ) كل مصير في ذاته حين يخضع لحده الطبيعي ، انما يمارس حريته على اساس ان كل انسان في هذه المملكة يشترك معه في طبيعية الحرية ، وبالتالي فانه لا يرى في هذا الانسان او ذاك سلعة بل يراه مصيرا في ذاته لا يمكن لمملكة المصير إن تقوم بدونه ٠

٤/ب تكمن طبيعية الحرية هنا في علاقة كل ممارسة لها بالحد ، ذلك لان الحد هو الذي يجعل مملكة المصير ممكنة ، لانه ينبثق اصلا عن حرية المصير في ذاته، اي الحرية التي فحصت علاقتها بنفسها ، وطابقت بين كل مصير ، وقدمت كـل المبررات لكي يصبح هذا الحد قانونها الطبيعي ٠

٤/ج) بذلك يشترك كل مصير في ذاته في تشريع القانون الطبيعي لملكة المصير ، ويجعله حدا طبيعيا لحريته ·

٤/د) ان حرية المصير في ذاته ـ وفق هذه العلاقة الطبيعية ـ لم تطابق بين كل المصائر الا لانها كانت عضوا في « مجلس الشورى » الذي شرع هذا الحد ·

٤/هـ) ان حرية كل المصائر هي التي ارتضت مملكتها وجعلتها ممكنة ·

٤/و) ان حرية كل المصائر تعبر عن علاقتها بنفسها على هذا النحو :

٤/و/أ) انها حرية **تتصف بالكلية والشمول**، وتختار مسلماتها من طبيعيتها·

٤/و/ب) انها حرية **تطابق مصيرين** ، فهي تطرد من مملكتها كل ما يجعل المصير في ذاته سلعة ·

٤/و/ج) انها حرية **وضعت بنفسها حدها الطبيعي** في مملكة اطلقنا عليها اسم مملكة المصير ·

٥) تكون الحرية الانسانية مطلقة اذن حين تتخلص من كل عنصرية رأسمالية او عرقية او توراتية ·

٥/أ) وهي مطلقة طالما انها اعطت لكل الانسانية مملكة مصيرها ·

٥/ب) ومع هذا الاطلاق لا تستطيع الحرية ان تتعارض مع نفسها ·

٥/ج) كل مصير في ذاته يمارس هذه الحرية وفق المبادىء السابقة انما يجعل من هذه الممارسة موضوعا (مقابل المحمول) · وهو موضوع مناظر لقوانين الطبيعة ·

٥/د) وكل طبيعة برهانية تميز نفسها بمصيرها ·

٥/هـ) وهذا المصير هو مادة كل حرية انسانية ·

٥/و) وحين نريد اطلاق هذه الحرية من شروط من يريد تحقيق هذا المصير او ذلك ، فان علينا ان نفحص المصير نفسه · بحيث لا نجعله مصيرا محمولا ، بل **موضوعا مستقلا** لا تناقضه ممارسة دون ان تكون ممارسة عنصرية ·

٥/ز) طالما ان كل ممارسة للحرية الانسانية تتجه الى هذا المصير ، فان المصير (الموضوع المستقل) لن يكون شيئا آخر غير الحرية الانسانية ذات الاستقلال ، والمتصفة بالكلية ، والشمول على كل المصائر الممكنة ، بما في ذلك التاريخ ·

٥/ز/أ) ان حتمية التاريخ **هنا هي محمول لموضـــوع المصير الانساني** ٠٠ وليست موضوع الحرية الانسانية ٠ (ومع ان هذه القضية الشائكة لا يمكـــن الوصول بها الى نتائج مقنعة بسرعة الا انني سأحاول التوفيق بين تفسيرهـــا وبين رغبتي في ان لا يخرجني الاستطراد عن صلب البحث) ٠

٥/ز/ب) ان **الحتمية** بالمعنى المشخص هي القول بان كل ظاهرة من ظواهر الطبيعة **مقيدة بشروط توجب حدوثها اضطرارا** ٠ او القول بوجود علاقـــات ضرورية ثابتة في الطبيعة توجب ان تكون كل ظاهرة من ظواهرها **مشروطة بما يتقدمها او يصحبها من الظواهر الاخرى** ٠

٥/ز/ج) طالما ذلك فانه من باب اولى في **موضوع** التاريخ الـــذي تبحـث فلسفته عادة في العوامل الاساسية المؤثرة في سير الوقائع ، وتدرس القوانين العامة المسيطرة على نمو الجماعات الانسانية وتطورهـــا ان **نعـود بالشروط الموجبة للحدوث واضطرارا الى مصير الانسانية نفسه ، وان نشرط ما يتقدم او يصحب ظواهر التاريخ بالحرية الانسانية** ٠

٥/ز/د) هنا نضع **حرية التاريخ** في مقابل حتمية التاريخ ٠

٥/ز/هـ) **ونضع مصير الانسانية كحتمية لحرية التاريخ** ٠

٥/ز/و) لكن الشروط الموجبة لحدوث التاريخ لم تكن عمرها شروط« مصير الانسانية » ، كما ان معظم ظواهر التاريخ لم تصحب ولم تتقـــدم « الحريـــة الانسانية » ، ولهذا قلت حتمية التاريخ « **هنا** » (٥/ز/أ) ، اي في اطار مادة الحرية ، ولم اقل في واقعها المجرب عبر التاريخ ٠ (ولقد اضطررت الى هـــذا الاستطراد اصلا لافحص علاقة **التاريخ كموضوع ، بالمصير كموضوع** على ضوء تصورنا للعلاقة بين موضوعي الحرية الانسانية والمصير الانساني ٠ وليس همي هنا هو النظر في صدق « حتمية التاريخ ») ٠

٦) طالما ان المصير هو الحرية الانسانية نفسها فاننا نستطيع التمييز علـــى ضوء هذا التطابق بين الحرية وبين العنصرية ٠

٦/أ) تتطابق الحرية مطلقا مع استقلالها واستقلال مصيرها ، بينما تتعارض العنصرية مطلقا مع هذا الاستقلال والمصير حين تشترط لهما عرقها او رأسمالها او تورّاتها ٠

٦/ب) ان العنصرية في احسن احوالها تمارس حرية متناقضة مع نفسها ٠

٦/ج) الحرية الانسانية ، او مملكة المصير ، مهددة اليوم بهذا الثالـــوث العنصري تتباين تبريراته لعنصريته ، وتتفق اصوله وممارساته (كما سنبيـن

ذلك لاحقا ، بعد فحص المبدأ الذي نقوم عليه العنصرية ، واعني مبدأ تناقض الحرية مع نفسها) ٠

٦/د) فكل حرية تبحث عن مسلماتها بعيدا عن الكلية والشمول ، وتطابق المصيرين ، وحق التشريع (انظر ٤/ وملحقاتها) هي حرية متناقضة مع نفسها، اي عنصرية ٠

٦/هـ) انها عنصرية لان كل مسلماتها وحدودها ليست مستمدة من الحرية نفسها ، بل من موضوع خارجي ليس له طابع الشمول الانساني ، ولا يؤدي الى تطابق المصير في ذاته مع المصير الموضوعي ، ولا يعطي للحرية حق تشريع حدها بنفسها ٠

٦/و) ان الموضوع الخارجي ، كالعرق او الرأسمال او الهستيريا التوراتية، يعطي العنصرية مسلمات تصورها للحرية على ضوء ما يمكن ان تقدمه الحرية لهذا الموضوع الخارجي من منفعة خاصة به وحده ٠

٦/ز) ان الموضوع الخارجي يتعامل مع الحرية سلعيا ، ويجعلها بالتالي محمولا لنظرية العرق او الرأسمال او نصوص التوراة ، وليست موضوعا مستقلا ٠ ولهذا فهي حرية متناقضة مع نفسها ، اي عنصرية ٠

٦/ح) ان كل قوانين العنصرية واخلاقها ـ باعتبارها موضوعا خارجيا عن الحرية الانسانية ـ خاصة بمنفعتها وحدها ، ولا تلزم كل انسان ، لانها اصلا تتعارض مع كلية الانسانية ٠

٦/ط) حين تقدم العنصرية مبدأ المنفعة الخاصة على مبدأ الشمول ، لا تدلل على فساد تصورها لمبدأ المنفعة (كما حدده ـ على الاقل ـ ستيوارت ميل وجيرمي بنتام) وحسب ، بل تدلل ايضا على ان هذا المبدأ لا يصلح اساسا لتصور الحرية ٠

٦/ي) ان هذا الاساس يتناقض مع الحرية ، كما يناقضها مع نفسها ، حين يسعى لاغتصاب الحرية لحساب العرق او الرأسمال او التوراة ٠

٦/ك) العنصرية مضطرة باستمرار الى حشر موضوع خارجي عن الحرية لاستنباط اسس حريتها ، فهي تشترط على الحرية ان « تنفع » هذا الموضوع الخارجي او ذاك ٠

والنتيجة انها لا تستنبط تصورا موضوعيا للحرية ، او مطابقا للمصيرين ٠ وبالتالي فانها تستعيض عن **الحد الطبيعي** الذي اشترعته الحرية الانسانية تلقائيا بحد تستمده من مسلمات موضوعها الخارجي ، اي ٠٠ **حد عنصري** ٠

٦/ل) ان العنصرية حين تحاول حل تناقضها مع الحرية ، وتناقض حريتها

مع نفسها (حديا) **لا تفترض موضوعية مبدئها المنفعي ولا موضوعية حدها بل تفرضهما بالقوة ·**

٦/م) كل الاجتياحات التي اصطلح على تسميتها تاريخيا بالاجتياحات البربرية كانت لا تفترض موضوعية مبدئها المنفعي ولا موضوعية حدها ، بل كانت تفرضهما بالقسوة وفق منطق بربري ·

٦/ن) اذن حين تفرض العنصرية حدها العنصري على الانسانية انما تفرضه وفق **منطق البربرية ·**

٦/س) منطقيا ، تصبح الاجتياحات الرأسمالية والعرقية والتوراتية الحديثة تتمة للاجتياحات البربرية ، فما الفرق ان يكون تحقيق المنفعة بالقوة لصالح التتار او المغول او الكلت ، او لصالح العرق الابيض ، او الرأسمالي ، او الهستيريا التوراتية ، طالما انهم جميعا استعاضوا عن منطق البرهان الانساني وحده بمنطق البربرية المسلحة ؟

عيسى الشعيبي

الوعي الكياني والتطورات الكيانية الفلسطينية

التجربة الكيانية المهيضة

يستهدف هذا البحث من دراستنا حول « الكيانية الفلسطينية والضفة الغربية » التعرف على نشأة الكيانية الفلسطينية والظروف التي صاحبتها ، طوال الفترة التي واكبت وتلت اعلان بريطانيا عن انتهاء حكمها الانتدابي على فلسطين ، في الخامس عشر من ايار ١٩٤٨ · اذ تعد تلك الفترة من حياة الشعب الفلسطيني ، مفرقا هاما ، ان لم تكن المفرق الاهم ، ليس في تطوره الكياني فحسب ، بل في كل ما شهده من تطورات سياسية واجتماعية واقتصادية ·

فقد شهدت تلك الفترة التي واكبت انتهاء الانتداب ودخول الجيوش العربية الى فلسطين محاولتين متزامنتين ومتضادتين معا ، لتقرير المستقبل الكياني للشعب الفلسطيني· فمن جهة اولى ، كانت جامعة الدول العربية ،تعترف بمحاولة الهيئة العربية العليا ، لاقامة كيان فلسطيني معتمد لديها وفي المحافل الدولية · ومن جهة ثانية ، كانت الدولة الاردنية تضع يديها على جزء من الارض الفلسطينية ، وتحسم مستقبل تطورها الكياني لمصلحة الكيان الاردني ذاته ·

وبالرغم من تفاوت مدلول واثر هاتين المحاولتين على المستقبل الفلسطيني برمته ، فقد كانت كل منهما ترتبط اشد الارتباط ، بمجمل التطورات والاحداث والوقائع ، السياسية والعسكرية ، التي اختتمت المقلب الاول من تطور القضية الفلسطينية · ولذلك فان وضع كل منهما ، في المجرى الاساسي لمجمل التطورات التي عبرت بها تلك الفترة ، يعد امرا لا مفر منه ، لدى اعادة قراءة النشأة

الكيانية وتطوراتها اللاحقة ، في ميدانيها ، الفلسطيني والعربي ، وما اتصل بذلك من ساحات فرعية واقل اهمية ٠

وعلى قاعدة كشف واستقصاء الحقائق الكيانية الفلسطينية ، فان الامساك برأس الحبل ومتابعة تعرجاته ، سوف يقود حتما الى اهم الوقائع والاحداث المتصلة بالمسألة الكيانية ، والتي كان لها ، اكثر من غيرها ، اثر ملموس في التطورات الكيانية اللاحقة ٠

وهكذا ، فانه يمكن الاشارة الى قرار تقسيم فلسطين ، الذي اصدرته الامم المتحدة في التاسع والعشرين من شهر تشرين الثاني عام ١٩٤٧ ، كفاتحة كبرى، لكل التطورات الفلسطينية اللاحقة ، ومن ضمنها ، بل وعلى رأسها ، التطورات الكيانية ، التي هي موضوع دراستنا هذه ٠

فلقد جاء قرار التقسيم ، في احد وجوهه ، بمثابة اقرار دولي ، بحق الشعب الفلسطيني باقامة كيان وطني مستقل ٠ وبغض النظر عن الغبن الذي تضمنته تلك الوثيقة الدولية ، فانها اكدت ، للمرة الاولى ، وفي وقت مبكر من تاريخ الحياة الاستقلالية لشعوب المنطقة العربية ، وفي ختام مرحلة مضطربة وطويلة مرت بفلسطين ، حق الفلسطينيين العرب ، باقامة دولة مستقلة ، في اطار جغرافي محدد ، وفي صيغة قانونية حاسمة ، ولها هوية سكانية واضحة ، وتعبيرات سياسية كاملة (١) ٠

واذا كانت الحركة الصهيونية قد قبلت بقرار التقسيم ، واعلنت عن قيام دولتها ليلة انتهاء الانتداب البريطاني في الخامس عشر من ايار عام ١٩٤٨ ، فان الهيئة العربية العليا ، التي كانت على رأس العمل الوطني الفلسطيني طوال الفترة السابقة ، رفضت ـ ومن خلفها الدول العربية ـ قرار التقسيم وناهضته بكل الوسائل ، ومن بينها العمل المسلح ٠ ومع ذلك فان قيادة العمل الوطني الفلسطيني ، لم تدر ظهرها نهائيا لقرار التقسيم ، بالرغم من رفضها له ٠ وتدلنا القراءة المتأنية لسياسات ومواقف الهيئة العربية العليا ، طوال الفترة التي تلت الخامس عشر من ايار عام ١٩٤٨ ، على تمسكها بصيغة كيانية مستقلة ، للمناطق العربية التي لم تصلها يد الحركة الصهيونية حتى ذلك التاريخ ، والتي كانت تقل مساحة ، عن تلك التي خصصها قرار التقسيم ، للدولة العربية الفلسطينية ٠

صحيح ان الصيغة الكيانية التي طرحتها الهيئة في ذلك الوقت ، ونعني بها الاعلان عن حكومة لعموم فلسطين ، كانت تشمل نظريا كافة الاراضي الفلسطينية، الا انه من الصحيح ايضا ، ان عوامل عديدة ، وعلى راسها المداخلات والمواقف العربية ، هي التي حالت دون الحكومة الفلسطينية ، والاراضي التي كانت تحت سيطرة الجيوش العربية من فلسطين في ذلك الوقت ٠ ففي اليوم الذي اعلن فيه

عن قيام حكومة عموم فلسطين ، كانت الاراضي الفلسطينية ، عمومها ، قد اصبحت اما تحت سيطرة الدولة العبرية الناشئة ، واما تحت سيطرة الجيوش العربية ، التي كان وضعها الرسمي في فلسطين ، وضع القوات المحتلة ، وتدير مناطقها بواسطة الاحكام العسكرية · وعليه ، فانه كان من الطبيعي ان تشمل سيادة الحكومة الفلسطينية ، رغما عن عموميتها النظرية ، الاراضي المستولى عليها مؤقتا من قبل الجيوش العربية ، وان تستمر مطالبتها بالسيادة على عموم فلسطين ·

وبالعودة الى مواقف وسياسات قيادة العمل الوطني الفلسطيني في ذلك الوقت ، نجد ان الهيئة العربية العليا ، قد طالبت بلسان وفدها الى الامم المتحدة، بـ « اعلان دولة عربية فلسطينية عقب اعلان نهاية الانتداب وزحف الجيوش العربية على غرار ما فعله اليهود » (٢) · الا ان هذه المطالبة لم تجد اذنا صاغية ، خاصة من جانب الدول العربية ، التي اصبحت بحكم وجودها العسكري في فلسطين ، الامرة والمقررة في الشأن الفلسطيني كله · وبالتالي ، فان أيا من هذه الدول لم يرحب بقيام دولة فلسطينية على غرار ما فعله اليهود · غير انه في نطاق الاستجابة لهذه المطالبة ، التي عكست ارادة فلسطينية ، سوف يتضح مداها فيما بعد ، قررت اللجنة السياسية التابعة لجامعة الدول العربية ، في العاشر من تموز ١٩٤٨ ، اقامة ادارة فلسطينية مؤقتة لتسيير شؤون الاقسام التي تحتلها الجيوش العربية ، اسوة بما اقدمت عليه الحركة الصهيونية · وقد نص قرار اللجنة السياسية هذا ، على ان الادارة المدنية هذه « لن يكون من اختصاصها في الوقت الحاضر الشؤون السياسية العليا ··· [و] تشمل صلاحيات مجلس الادارة المدنية هذه جميع المناطق المحتلة الان من قبل الجيوش العربية او التي تحتل الى ان تشمل فلسطين العربية ··· [و] تحدد من قبل مجلس الجامعة وحكومات البلاد العربية المختصة صلاحيات هذا المجلس واعضائه ··· [و] ويصدر مجلس الجامعة قرارا بتأليف الجهاز الاداري وتعيين اعضائه ويطلب الى جميع اهالي فلسطين تأييد وتسهيل مهمته ··· واللجنة السياسية اذ تعلن هذا القرار ترجو ان يكون فاتحة عهد يتمكن الفلسطينيون فيه من تولي شؤونهم بانفسهم ومقدمة لمارساتهم خصائص استقلالهم » (٣) ·

الا ان قرار اللجنة السياسية هذا لم يخرج الى حيز التنفيذ ، كونه جاء عشية تجدد القتال ومضاعفاته ضد مصلحة الجيوش العربية · « ولكن ضرورة تقديم ممثلين رسميين للشعب الفلسطيني امام الجمعية العامة في دورتها في باريس ، اوائل ١٩٤٩ ، جعل اللجنة السياسية في سبتمبر – ايلول ١٩٤٨ تبحث فكرة اقامة كيان فلسطيني سياسي ومدني معا على ارض فلسطين · وتعثرت الفكرة بسبب معارضة المملكة الاردنية » (٤) ·

ولم تحل المعارضة الاردنية ، داخل الجامعة العربية وخارجها ، دون اقدام الهيئة العربية العليا ، على مواصلة التمسك بفكرة بعث الكيـــان الفلسطيني ومحاولة تحقيقه · فدعت في الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٨ « الى عقد مؤتمر في غزة ، اقر فيه تشكيل حكومة عموم فلسطيـن تتالـف من رئيس وعـدد مـن الوزراء ، وتشكيل مجلس وطني يضم « ممثلي » [الاقواس في الاصل] الشعب الفلسطيني · واصبح الحاج امين الحسيني رئيسا للمجلس الوطني ، كما اصبح حلمي عبد الباقي رئيسا للحكومة · واعلن المجلس استقلال فلسطين استقـلالا تاما ، واقامة دولة حرة ديمقراطية ذات سيادة ، واعترفت دول الجامعة العربية بهذه الحكومة باستثناء الاردن » (٥) ·

في تلك الاثناء ، كان الكونت برنادوت الوسيط الدولي الذي اوفدته الامـــم المتحدة للتوفيق بين الاطراف المعنية في القضية الفلسطينية ، قد قدم مقترحاته الاولى لحل القضية ، في السابع والعشرين من حزيران عام ١٩٤٨ · ولـــدى اقتراب عقد دورة الجمعية العامة للامم المتحدة في باريس ، رفع برنادوت تقريره الى المرجع الدولي متضمنا ما يفيد « انه لم تبدر بادرة تدل على رغبة في انشاء حكومة عربية فلسطينية اسوة باليهود ، واتخاذه ذلك ذريعة الى اقتراح دمـــج القسم العربي من فلسطين بشرق الاردن مرة ثانية بالرغـم من معارضة الهيئـة العربية العليا وبعض الحكومات العربية ، لمثل هذا الاقتراح الذي يرمي الـــى اذابه الفلسطينيين وجغرافيتهم الوطنية على نحو مبكر » (٦) ·

كما كان قد سبق اعلان حكومة عموم فلسطين ، في الثالث والعشرين مـــن ايلول ، انشغال اللجنة السياسية التابعة لمجلس جامعة الدول العربية ، طـوال عدة اسابيع ، بكيفية ايجاد تمثيل فلسطيني في دورة الامم المتحدة المقبلة ، في ظل المعارضة الحادة لذلك من قبل الاردن · وفي سبيل تذليل العقبات العربية في وجه اقامة كيان وتمثيل فلسطيني ، قام جمال الحسيني عضو الهيئة العربيـــة العليا بجولة على عواصم الدول العربية بما فيها عمان لاقنـــاع حكوماتهـــا بالفكرة · « وقد وافقت الحكومات العربية باستثنـاء الاردن عليها ، ومـن ثـم وافقت عليها اللجنة السياسية [لمجلس الجامعة العربية] حتى كاد الامـــر ينتهي وتعلن اسماء الوزراء الفلسطينيين بقرار رسمي منها في الاسبوع الثالث من شهر ايلول · وقد رددت الصحف اسماء الـــوزراء المختارين في هـــذا التاريخ » (٧) ·

الا ان الملك عبد الله ملك الاردن ، ظل على موقفه المعارض لفكرة قيام كيان فلسطيني « يستنكر وينذر بالبرقيات والتصريحات · وقامت في القسم العربي في فلسطين الذي كان تحت سيطرة الاردن حركة احتجاج واستنكار ضد الفكرة ، واخذت الصحف تنشر مئات البرقيات الاستنكارية · وحاولت اللجنة السياسيـة

اقناع الملك وتهدئته حتى انها اوفدت اليه رياض الصلح فلم يجد ذلك شيئا ٠٠٠ فتراجعت [اللجنة السياسية] بعض الشيء عما خطت او اعتزمت ان تخطو من خطوات تنفيذية ، واكتفت باقرار وجاهة الفكرة ومشروعيتها وضرورتها وانها حق طبيعي لاهل فلسطين ، وقررت ان تنفيذها منوط بارادتهم ورغبتهم فاذا نفذوها اعترفت الحكومات العربية بها وساعدتها ماديا وادبيا » (٨) ٠

على هذه الارضية انعقد مؤتمر غزة في الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٨ ، بدعوة من الهيئة العربية العليا ، حيث اقر فيه تشكيل حكومة عموم فلسطين ٠ وبعد ان نالت الحكومة ثقة المؤتمر الذي اعتبر هيئة تشريعية ، قام رئيس الحكومة احمد حلمي عبد الباقي ، بابلاغ الحكومات العربية والامين العام للجامعة العربية ، بقرار المؤتمر الوطني الفلسطيني ، عبر مذكرة جاء فيها (٩) : « انتشرف باحاطة معاليكم علما بانه بالنظر لما لاهل فلسطين من حق طبيعي في تقرير مصيرهم واستنادا الى مقررات اللجنة السياسية ومباحثاتها ، تقرر اعلان فلسطين باجمعها وحدودها المعروفة قبل انتهاء الانتداب البريطاني عليها دولة مستقلة واقامة حكومة فيها تعرف بحكومة عموم فلسطين على اسس ديمقراطية، واني انتهز هذه المناسبات للاعراب لمعاليكم عن رغبة حكومتي الاكيدة في توطيد علاقات الصداقة والتعاون بين بلدينا » ٠ كما اذاعت الحكومة بيانا طلبت فيه من الشعب الفلسطيني « الالتفاف حول حكومته الجديدة » ووعدته ببذل الجهود في سبيل تحرير الوطن السليب ٠

وكان المجلس الوطني الفلسطيني الذي دعي الى حضوره نحو مئة وخمسين شخصا من الفئات التمثيلية كرؤساء البلديات واعضاء المجالس البلدية او اتحادات الفرق التجارية ، واعضاء اللجان القومية ، والوفود والبعثات السياسية والاحزاب والهيئات الاخرى ، والتي استجاب منها نحو تسعين شخصا ، قد أصدر قرارا جاء فيه : « بناء على الحق الطبيعي والتاريخي للشعب العربي الفلسطيني في الحرية والاستقلال (٠٠٠) فاننا نحن اعضاء المجلس الوطني الفلسطيني المنعقد في مدينة غزة نعلن هذا اليوم الثامن والعشرين من ذي القعدة لسنة ١٣٦٧ الموافق ١ تشرين الاول لسنة ١٩٤٨ استقلال فلسطين كلها التي يحدها شمالا سورية ولبنان وشرقا سورية وشرق الاردن وغربا البحر الابيض وجنوبا مصر استقلالا تاما واقامة دولة حرة ديمقراطية ذات سيادة يتمتع فيها المواطنون بحرياتهم وحقوقهم وتسير هي وشقيقاتها الدول العربية متآخية في بناء المجد العربي وخدمة الحضارة الانسانية مستلهمين في ذلك روح الامة وتاريخها المجيد ومصممين على صيانة استقلالنا والذود عنه والله على ما نقول وكيل » ٠

وتشكلت الحكومة من أحمد حلمي عبد الباقي رئيسا وجمال الحسيني

ورجائي الحسيني وعوني عبد الهادي واكرم زعيتر والدكتور حسين الخالدي وعلي حسنة وميشل ابكاريوس ويوسف صهيون وامين عقل اعضاء . وقررت كذلك ان يكون علم فلسطين هو علم الثورة العربية الاصلي (١٠) .

وبادرت الحكومات العربية وجامعة الدول العربية الى الاعتراف بحكومة عموم فلسطين فور الاعلان عنها . وقد شذت عن ذلك الحكومة الاردنية ، التي كان لها موقف مغاير ترجمته في سلسلة من الاجراءات السياسية المناهضة لتلك الحكومة الوليدة ، الامر الذي سنعرض له فيما بعد . وكرست الجامعة العربية اعترافها بهذه الحكومة حينما دعت احمد حلمي عبد الباقي رئيس الحكومة ووزير خارجيتها ، لحضور اجتماعات مجلس الجامعة في الثلاثين من تشرين الاول عام ١٩٤٨ ، ولم يمض شهر بعد على قيام الحكومة . الا ان الحماس الذي ابدته الدول العربية تجاه هذه الحكومة اخذ يخبو رويدا رويدا . فامتنعت الجامعة العربية عن دعوة الحكومة لحضور اجتماعاتها اللاحقة ، كما امتنعت الحكومة المصرية ، وهي العضو الرئيسي لحكومة عموم فلسطين ، عن منح الاخيرة هذه ، ممارسة مهماتها في قطاع غزة الذي كان يحكمه الجيش المصري في ذلك الوقت (١١) .

الموقف الاردني

كما سبق ان اشرنا ، فقد كان الاردن يواصل معارضته لانشاء كيان فلسطيني وقيام ممثلين فلسطينيين معتمدين له . وكان موقفه من قيام حكومة عموم فلسطين ، سببا اساسيا من اسباب موتها المبكر . ذلك ان قواته التي ادخلت فلسطين وتمركزت في الجبهة الوسطى منها ، كانت تمنح لموقفه من التطورات الفلسطينية ، قدرة الفعل المؤثر على الاحداث باتجاهاتها الفلسطينية .

فعندما انعقد المجلس الوطني الفلسطيني في غزة في الاول من تشرين الاول عام ١٩٤٨ ، بهدف تكريس تمثيل سياسي للشعب الفلسطيني ، كان الاردن في موقف يسمح له بالقدرة على عقد « مؤتمر فلسطيني » اخر في عمان ، وفي اليوم ذاته ، والخروج بمقررات متوازية مع مؤتمر غزة . فقد صدر عن مؤتمر عمان ، وفي مناخ سياسي جرى اعداده باحكام ، قرار جاء فيه : « نظرا للصلات الوطنية والروابط القومية بين فلسطين والمملكة الاردنية الهاشمية ، فان المؤتمر يعلق على صاحب الجلالة الملك عبد الله المعظم اكبر الامال في حفظ حقوق عرب فلسطين وصيانة عروبتها ومقدساتها . والمؤتمر واثق كل الثقة من ان جلالته لن يقبل ان تفرض على عرب فلسطين حلول من قبل تلك الفئة من متزعمي فلسطين سابقا الذين ضج الشعب الفلسطيني خلال الثلاثين عاما الماضية من سوء تصرفاتهم وإنانيتهم . والمؤتمر يفوض جلالته تفويضا تاما في ان يتحدث

باسم عرب فلسطين ويفاوض عنهم ويعالج مشكلتهم بالشكل الذي يراه · وهو الوكيل عنا في جميع شؤون مستقبل فلسطين كما ان المؤتمر يؤيد جلالته في كل خطوة يخطوها في سبيل حل قضية فلسطين ويعتبره المرجع الوحيد لعرب فلسطين الذين منحوه كل ثقتهم واخلاصهم واكيد ولائهم ووفائهم » (١٢) ·

ولم تقتصر قرارات مؤتمر عمان ، عند حدود منح الملك عبد الله ، حق تمثيل الشعب الفلسطيني والتحدث باسمه ، بل تجاوز ذلك الى العمل على سحب الشرعية الفلسطينية عن مؤتمر غزة ، المعقود تحت رعاية الهيئة العربية العليا · فقد اصدر المؤتمر قرارا اخر جاء فيه انه « يقرر ارسال برقية للهيئة العربية العليا يشعرها بانه نزع منها ثقة عرب فلسطين فهي لا تمثلهم ولا يحق لها ان تنطق باسمهم او تعبر عن رأيهم لان الحكومات العربية قد احتضنت قضية فلسطين ، وهي اصبحت وديعة بين يدي الملوك العرب الذين يطمئن الشعب الفلسطيني الى مساعيهم في سبيل صيانة عروبتها وتحقيق حريتها » (١٣) ·

وتبع انعقاد مؤتمر عمان ، انعقاد مؤتمر اخر ، اكثر خطورة واهمية في تاريخ التطور الكياني الفلسطيني ، ونعني بذلك مؤتمر اريحا الشهير ، الذي التأم في الاول من كانون اول عام ١٩٤٨ ، اي بعد انقضاء فترة شهرين على المؤتمر الاول ·

وقبل ان نعرض اهم ما جاء في مقررات المؤتمر ، فانه لا بد من عرض اهم المداولات والوقائع التي واكبته وصحبته ، والتي افرد لها عبد الله التل الحاكم العسكري الاردني لمنطقة القدس ، جانبا من مذكراته عن حرب فلسطين (١٤) ·

فقد ذكر التل ان مناطق القدس ورام الله والخليل التي كانت خاضعة للجيش الاردني ابان انعقاد المؤتمر ، كان يسري على سكانها « قانون الدفاع عن شرق الاردن لسنة ١٩٣٥ والانظمة الصادرة بمقتضاه » · وكان عمر مطر حاكما عسكريا عاما ، بدلا من ابراهيم هاشم الذي كان اول حاكم عسكري اردني لجزء من فلسطين ، وقد خوله ذلك حق اصدار القرارات السياسية والعسكرية والادارية ، التي هيئت جميعها لانعقاد المؤتمر بتركيبته السياسية والبشرية التي سيلي ذكرها ·

وقال التل ان غلوب باشا ، القائد العسكري البريطاني للجيش الاردني ، تجول قبل يومين من انعقاد المؤتمر على كتائب الجيش الاردني في فلسطين ، واجتمع بالضباط العرب والانجليز « واطلعهم على اهمية هذا المؤتمر بالنسبة لسياسة عمان التي ترمي الى انهاء مشكلة فلسطين في اسرع وقت ممكن » · وطلب غلوب من ضباطه تأييد المؤتمر والقيام بالدعاية اللازمة له بين السكان ، « وان يساعدوا كل من يرغب في السفر الى اريحا في ذلك اليوم ويقدموا

السيارات العسكرية لنقل الوفود » · وما قام به غلوب قام به الحاكم العسكري العـــام ·

واضاف التل « استدعت الحكومة الاردنية الشيخ محمد علي الجعبري رئيس بلدية الخليل ومن كبار الموالين لجلالة الملك عبد الله ، واعطته تفاصيل الخطة والغاية من عقد المؤتمر ، ثم عينته رئيسا للمؤتمر ووضعت له بالاشتـراك مـــع الملك في الشونة المواد التي سيعلن المؤتمر انه قررها بالاجماع · وعندما علمنا في القدس بهذه الترتيبات اتفقنا مع الدكتور موسى [الحسيني] ان يقدم فـــي المؤتمر بعض المقترحات التي تتعلق باستفتاء الشعب الفلسطيني لتقرير مصيره ثم الدعوة لاستئناف القتال لانقاذ فلسطين » ·

واسهب التل في وصف وقائع جلسة افتتاح المؤتمر · وقال انه في صبـــاح يوم الاول من كانون الاول عام ١٩٤٨ « اخذت الوفود من جميع انحاء القســم العربي في فلسطين تفد الى اريحا ··· وكان اكبر الوفود وفد الخليل لان الشيخ الجعبري استطاع ان يحشد عددا كبيرا من المسافرين الذيـن لا يمانعـون مـــن قضاء عطلة يوم او يومين على حساب الحكومة ··· [و] وراح الحاكم العام ونديم السمان حاكم رام الله يتجولان بين الوفود ويدربان رؤساءها على تأييد الشيخ الجعبري وعدم معارضة المواد التي سيقترحها · وفي تمـــام الساعــة العاشرة والنصف نهض سكرتير المؤتمر السيد عجاج نويهض والقى كلمة وجيزة عن اهداف المؤتمر واقترح انتخاب الجعبري رئيسا للمؤتمر فوافق الجميع لانهم ادركوا ان السيد الجعبري كان معينا من قبل السلطات الاردنية ··· [ثـــم] نهض رئيس المؤتمر والقى كلمة عن حالة فلسطين واخفـاق الدول العربية فـــي معالجتها ، ثم انهى كلمته بتقديم المقترحات الموضوعة فوافق عليها الجميع مـــا عدا وفد رام الله ووفد القدس الذي اقترح زيادة بعض المـواد · وقـد قـــدم مقترحات القدس الدكتور موسى الحسيني فوافق الجميع عليها ولكن عندمـــا قدمت المقررات للحكومة الاردنية خلت من بعض مقترحات القدس وخاصة مادة الاستفتاء الحـــر » ·

وقدر عارف العارف ان عدد الذين حضروا المؤتمر بلغ نحـو الـف شخص اكثرهم من اللاجئين الذين نزحوا عن ديارهم في فلسطين الى الضفة الشرقية · وقال ان رجال الملك عبد الله والحكام العسكريين « اتخذوا كل ما يمكن مـــن تدابير لنقل المخاتير والموظفين ، ومن لم يحضر المؤتمر او يؤيده مـن الموظفين اقالوه من عمله او ارغموه على الاستقالة » (١٥) ·

« وبعد ان خطب رؤساء الوفود واستعرضوا مراحل القضية وذكـروا جهـاد العاملين وصبرهم واخلاصهم ، اتخذ المؤتمر القرارات التالية :

١ ـ يشكر المؤتمر الدول العربية على ما بذلته من جهود وتضحيات ، ويطلب منها جميعا مواصلة القتال لانقاذ فلسطين ٠

٢ ـ القول بالوحدة الفلسطينية الاردنية ٠ ويعتبر المؤتمر فلسطين وحدة لا تتجزأ ٠ وكل حل يتنافى مع ذلك لا يعتبر حلا نهائيا ٠

٣ ـ لا يمكن للبلاد العربية ان تقاوم الاخطار التي تجابهها فلسطين الا بالوحدة القومية الشاملة ٠ ويجب البدء بتوحيد فلسطين مع شرق الاردن مقدمة لوحدة عربية حقيقية ٠

٤ ـ يبايع المؤتمر جلالة الملك عبد الله ملكا على فلسطين كلها ، ويحييه ويحيي جيشه الباسل والجيوش العربية التي حاربت ولا تزال ، دفاعا عن فلسطين ٠

٥ ـ التشديد بضرورة الاسراع بارجاع اللاجئين الى بلادهم والتعويض عليهم ٠

٦ ـ يقترح المؤتمر على جلالته الاشارة بوضع نظام لانتخاب ممثلين شرعيين من عرب فلسطين يستشارون في امورها ٠

٧ ـ تبلغ هذه المقررات الى منظمة الامم والجامعة العربية والدول العربية وممثلي الدول الاخرى » (١٦) ٠

وبعد انتهاء المؤتمر ذهب اعضاء الوفود الى بلدة الشونة ، حيث كان الملك عبد الله يقضي فصل الشتاء في قصره المصلى ، وقدموا له المقررات ٠ والقى الشيخ محمد علي الجعبري رئيس المؤتمر كلمة ، طالب في ختامها الملك ، ان يتبنى ما صدر عن المؤتمر من مقررات ٠ فرد عليه الملك عبد الله بقوله « انه يعتبر المقررات منة من المولى عز وجل وانها عبء ثقيل حمله وانه باذل جهده في سبيل اداء هذه الامانة في عنقه حقها ٠ ووعد ان يعرض المقررات على الحكومة لتتخذ بشأنها ما تراه من الاجراءات » (١٧) ٠

بعد ذلك ، عرض مجلس الوزراء الاردني مقررات المؤتمر ، التي كانت قد تبلغتها الحكومات الغربية وجامعة الدول العربية وهيئة الامم المتحدة ، ثم اصدر بلاغا جاء فيه : « ان الحكومة الاردنية تقدر حق التقدير رغبة سكان فلسطين الممثلين في مؤتمر اريحا فيما يتعلق بتوحيد البلدين الشقيقين شرق الاردن وفلسطين ، وهي رغبة متفقة تماما مع رغبات الحكومة الاردنية ، وستبادر الى اتخاذ الاجراءات الدستورية لتحقيقها » (١٨) ٠

وبالفعل ،اجتمع مجلس الامة الاردني ، في الثالث عشر من كانون الاول ، فاستعرض مقررات مؤتمر اريحا ، وايد الحكومة في موقفها منها ، ثم اتخذ القرار التالي : « ان مجلس الامة الاردني يرى في قرارات مؤتمر اريحا فيما

يتعلق بتوحيد شرق الاردن وفلسطين تحت تاج جلالة الملك عبد الله ما يحقق ويلائم اهداف شرق الاردن التي تتجه نحو توحيد عربي اوسع نطاقا · وقد رأى مجلس الامة الاردني المبادرة بتنفيذ هذا التوحيد واتخاذ الخطوات الدستورية والدولية اللازمة لهذا التوحيد » (١٩) ·

وقبل ان يتخذ مجلس الامة الاردني الخطوات الدستورية لاجراء عملية الضم، بادر مجلس الوزراء الاردني باتخاذ خطوة عملية ، تشير الى عزم الاردن القاطع على مواصلة اجراءاته التي بدأها منذ وقت مبكر ، وسط معارضة عربية قوية ، ومعارضة فلسطينية جزئية ومقموعة · فلدى اعادة تشكيل الوزارة الاردنية التي كان يرئسها توفيق ابو الهدى ، في السابع من ايار عام ١٩٤٩ ، تم تعيين ثلاثة وزراء فلسطينيين فيها ، هم روحي عبد الهادي وزيرا للخارجية ، خلوصي الخيري للتجارة والزراعة وموسى ناصر للمواصلات ؛ ثم عين في آب من العام نفسه وزير فلسطيني رابع هو راغب النشاشيبي لوزارة اللاجئين المستحدثة (٢٠) ·

الى جانب ذلك ، واصلت الحكومة الاردنية اجراءاتها الادارية المختلفة تمهيدا لعملية الضم القانونية · ففي الفترة التي تلت مؤتمر اريحا اواخر العام ١٩٤٨ ، وحتى تاريخ اجراءات الانتخابات العامة لاختيار مجلس نواب الضفتين، اتخذت الحكومة عدة اجراءات ادارية ، مهدت جميعها لعملية الضم · ويمكن تلخيص ابرز هذه الاجراءات فيما يلي : (٢١) ·

١ ــ الغاء نظام الحكم العسكري الذي كان معمولا به منذ دخول الجيش الاردني الى فلسطين ، واستبداله بنظام الحكم الاداري في اذار ١٩٤٩ ، الذي الغي بموجبه نظام الحكام العسكريين في فلسطين على ان يتولى اعمال الادارة فيها موظفون مدنيون ·

٢ ــ الغاء نظام الحكم الاداري اعتبارا من منتصف كانون الاول عام ١٩٤٩ ، وربط ادارة المنطقة مباشرة بوزير الداخلية الاردني ، حيث اصبح مرجع مديري الدوائر الوزراء المختصون ،وحيث انيطت الصلاحيات التي كان يتمتع بها المندوب السامي بوزير الداخلية ، وسميت فلسطين بموجب هذا القرار « المنطقة الغربية » ·

٣ ــ اعتبار الدينار الاردني وحدة النقد في المملكة الاردنية ، بموجب القانون رقم ٣٥ لسنة ١٩٤٩ الصادر في تموز من العام نفسه ، العملة القانونية ، اعتبارا من الاول من كانون الثاني عام ١٩٥٠ ·

٤ ــ البدء بتحصيل ضريبة الاملاك في « المنطقة الغربية » بموجب ارادة ملكية صدرت في تموز ١٩٤٩ ·

٥ ـ اغلاق القنصلية الاردنية في القدس ، اعتبارا من السادس من تمـــوز عام ١٩٤٩ « بعد ان اصبحت القدس تابعة للادارة الاردنية » ٠

٦ ـ ربط دارالاذاعة الفلسطينية بوزارة الخارجية الاردنية ، بموجب قـرار لمجلس الوزراء الاردني ، صدر في ايار ١٩٤٩ ٠

٧ ـ الغاء اجراءات الجمارك بين الضفتين ، بدءا من الثاني عشر من كانون الاول ١٩٤٩ ٠

٨ ـ تجنيس الفلسطينيين بالجنسية الاردنية ، حيث تمت هذه العملية علـــى مرحلتين ٠ ففي شهر شباط من العام ١٩٤٩ كانت المرحلـــة الاولى من هــذه العملية ، حيث صدر ذيل مؤقت لقانون جوازات السفر رقم ٥ لسنة ١٩٤٢ باسم قانون رقم ١١/١٩٤٩ ، نصت المادة الثانية منه على انه « يجوز لاي شخـــص عربي فلسطيني يحمل جنسية فلسطينية الاستحصال على جواز سفر اردنـــي بموجب قانون جوازات السفر المؤقت رقم ٥ لسنة ١٩٤٢ » ٠ اما المرحلة الثانية فقد كانت في شهر كانون الاول من العام ١٩٤٩ ، حين صدر « قانون اضافـــي لقانون الجنسية الاردنية رقم ٥٦ لسنة ١٩٤٩» حيث نصت المادة الثانية منه على ان « جميع المقيمين عادة عند نفاذ هذا القانون في شرق الاردن او في المنطقـــة الغربية التي تدار من قبل حكومة المملكة الاردنية الهاشمية ممن يحملون الجنسية الفلسطينية يعتبرون انهم حازوا الجنسية الاردنيةويتمتعون بجميع ما للاردنيين من حقوق ويتحملون ما عليهم من واجبات » ٠

وبصدور هذه الاجراءات الادارية ـ السياسية ، كانت عملية الضم الفعليـة قد تمت ، قبل ان يعلنها مجلس نواب الضفتين ، الامر الذي مكن رئيس الوزراء الاردني من اصدار بيان في مطلع العام ١٩٥٠ يعلن فيه « بمناسبة رفع الحواجز فيما بين الضفتين الشرقية والغربية من المملكة الاردنية الهاشمية ، اصبــح لا مجال لاعتبار البلاد الواقعة في الضفة الغربية بلادا اجنبية (٠٠٠) وتعتبـــر البلاد الواقعة في الضفتين المذكورتين وحدة واحدة » ٠

وقبل ان ينصرم العام ١٩٤٩ ، صدرت ارادة ملكية بحل مجلس النـــواب الاردني ، اعتبارا من الاول من كانون الثاني عام ١٩٥٠ ، تمهيـــدا لاجـراء انتخابات جديدة « تشمل الضفتين » ٠ وعدل قانون الانتخابات «فضوعف عــدد اعضاء مجلس النواب وعدد اعضاء مجلس الاعيان ، وعين يوم ١١ نيسان موعدا لانتخاب اعضاء المجلس النيابي الجديد » (٢٢) ٠

ولدى اجراء عملية الانتخابات ، كانت الاجواء السياسية تشير الى ان هذه هي اخر خطوات عملية الضم ، خاصة وان كافة الاجراءات الادارية ـ السياسية، التي صدرت خلال العام ١٩٤٩ ، كانت قد مهدت الطريق امام تقنين عملية الضم

المنظورة · ومع ذلك فقد تزاحم خمسة وستون شخصا من ابناء منطقة الضفة الغربية ، على العشرين مقعدا من مقاعد مجلس النواب المخصصة لهم في البرلمان الاردني المنتظر ·

وبنتيجة الانتخابات تلك ، اعلن في العشرين من نيسان عن تشكيل مجلس النواب الذي وزع مناصفة بين ابناء الضفتين · وكانت نتيجة الانتخابات في الضفة الغربية ، فوز عشرين نائبا توزعوا على سبعة اقضية على الشكل التالي : (٢٣) ·

١ ـ قضاء القدس : عبد الله نعواس ، كامل عريقات ، انور نسيبة ·

٢ ـ قضاء بيت لحم ، : توفيق قطان ، عبد الفتاح درويش ·

٣ ـ قضاء الخليل : عبد الله بشير عمرو ، رشاد الخطيب ، رشاد سودي سعيد العزة ·

٤ ـ قضاء نابلس : قدري طوقان ، حكمت المصري ، مصطفى بشناق ، عبد المجيد ابو حجلة ·

٥ ـ قضاء جنين : عبد الرحيم جرار ، تحسين عبد الهادي ·

٦ ـ قضاء طولكرم : كمال حنون ، حافظ الحمد الله ·

٧ ـ قضاء رام الله : موسى ناصر ، خلوصي الخيري ، عبد الله الريحاوي·

وما ان التأم مجلس الامة الاردني الذي افتتحه الملك عبد الله ، والمكون من مجلسي نواب واعيان جديدين ، في الرابع والعشرين من نيسان عام ١٩٥٠ ، تقدمت الحكومة الاردنية بمشروع قرار الوحدة بين الضفتين ، فوافق عليه المجلس بصيغته ، وقرر رفعه الى الملك · وقد نص القرار على ما يلي : « تأكيدا لثقة الامة واعترافا بما لحضرة صاحب الجلالة عبد الله بن الحسين ملك المملكة الاردنية الهاشمية من فضل الجهاد في سبيل تحقيق الاماني القومية ، واستنادا الى حق تقرير المصير ، والى واقع ضفتي (الاردن) الشرقية والغربية ووحدتهما القومية والطبيعية والجغرافية ، وضرورات مصالحهما المشتركة ومجالهما الحيوي ، يقرر مجلس الامة الاردني الممثل للضفتين في هذا اليوم الواقع في (٧ رجب سنة ١٣٦٩ الموافق لتاريخ ٢٤ نيسان سنة ١٩٥٠) ويعلنما يأتي :

اولا : تأييد الوحدة التامة بين ضفتي الاردن الشرقية والغربية واجماعهما فيدولة واحدة في (المملكة الاردنية الهاشمية) وعلى رأسها حضرة صاحب الجلالة الهاشمية الملك عبد الله بن الحسين المعظم وذلك على اساس الحكم النيابي الدستوري والتساوي في الحقوق والواجبات بين المواطنين جميعا ·

ثانيا : تأكيد المحافظة على كامل الحقوق العربية في (فلسطين) والدفاع عن تلك الحقوق بكل الوسائل المشروعة وبملء الحق وعدم المساس بالتسوية النهائية لقضيتها العادلة في نطاق الاماني القومية والتعاون العربي والعدالة الدولية ٠

ثالثا : رفع هذا القرار الصادر عن مجلس الامة بهيئتيه : الاعيان والنواب ، الممثل لضفتي الاردن الى حضرة صاحب الجلالة المعظم واعتباره نافذا حال اقترانه بالتصديق الملكي السامي ٠

رابعا : اعلان وتنفيذ هذا القرار من قبل حكومة المملكة الاردنية الهاشمية حال اقترانه بالتصديق الملكي السامي وتبليغه الى الدول العربية الشقيقة والدول الاجنبية الصديقة بالطرق الدبلوماسية المرعية » (٢٤) ٠

وعلى اثر صدور هذا القرار ، قام اعضاء المجلسين ، بعد ظهر اليوم نفسه بحمل « وثيقة القرار التاريخي بوحدة الضفتين الى قصر رغدان وعرضوها على جلالة الملك ٠ فقال لهم : اشكر لمجلس الامة ثقته ٠ اما وقد صدر القرار ، فلا يسعني الا قبول ارادة الامة ٠ وتم التوقيع في الساعة الخامسة بين هتاف الاعيان والنواب ٠ وايذانا باكتساب هذا القرار صفته التنفيذية اطلقت المدافع احدى وعشرين طلقة ، ثم تولى وزير الخارجية تبليغه الى الدول العربية الشقيقة والدول الاجنبية الصديقة » (٢٥) ٠

الموقف الفلسطيني

بتصديق الملك عبد الله على قرار مجلس الامة الاردني ، انتهت آخر اجراءات الضم العملية والقانونية ، للمنطقة التي دخلها الجيش الاردني في فلسطين ٠ واصبحت تعرف فيما بعد باسم « الضفة الغربية » ٠ ودخلت المسألة الكيانية الفلسطينية بعد ذلك كله ، في طور من الركود الكامل ، جاء نتيجة عاملين اساسيين هما :

اولا : عدم احتفاظ الاجزاء التي لم تصلها يد الحركة الصهيونية عام ١٩٤٨ ، بمدلول التسمية الفلسطينية ٠ حيث اخذ بعض فلسطين الوسطى والشرقية ، اسم « الضفة الغربية لنهر الاردن » ، واخذ بعض المنطقة الجنوبية من فلسطين اسم « قطاع غزة » ٠

ثانيا : عدم احتفاظ الجزء الاكبر من الشعب الفلسطيني ، بهويته الخاصة ٠ ويستوي في ذلك الفلسطينيون الذين بقوا في ديارهم او اقاموا في الضفة الغربية ، واولئك الذين هاجروا منها الى الضفة الشرقية ٠

ونجم عن هذين العاملين الهامين وتأسست عليهما ، اوضاع قانونية وسياسية

جديدة ، حكمت الفلسطينيين وتطورهم الكياني سنوات طويلة · وفوق ذلك كله ، ادت الاوضاع الجديدة هذه الى تكيف فلسطيني مع الواقع بكل معطياته وافرازاته · فغابت الحركة الوطنية الفلسطينية ، وفقدت سماتها الخاصة ، وفقد معها البرنامج الوطني الفلسطيني الخاص والمتميز ·

ولكن كيف استجاب الفلسطينيون الى واقعهم الجديد وكيف تكيفوا معه ؟ ثم كيف جابهوا عملية الضم تلك ؟ وكيف كانت مواقف الاطراف الاخرى المعنية والمتأثرة بشكل او باخر ، من جراء الخطوة الاردنية ؟

فيما يتعلق بـ « الاستجابة » الفلسطينية لعملية الضم ، فان وقائع الاحداث التي امتدت طوال الفترة اللاحقة على دخول الجيوش العربية الى فلسطين في منتصف ايار عام ١٩٤٨ ، تشير الى محدودية تلك الاستجابة او عدم شموليتها · فهي قد اشتملت فقط على فلسطينيي الضفة الغربية واللاجئين اليها · كما شملت كذلك الفلسطينيين الذين لجأوا الى الضفة الشرقية ، واعدادا قليلة اخرى من الفلسطينيين في الاقطار العربية المجاورة · وبالطبع ، فانه لا يمكن التهوين من حجم وفاعلية ومركزية هؤلاء جميعا ، في المجرى الاساسي للتطور الكياني الفلسطيني ·

وليس من الصعب فهم عملية الاستجابة الفلسطينية تلك ، لواقعة الضم ، في ظروف النكبة الكبرى ومعطياتها السياسية والاجتماعية والجغرافية والعسكرية ، بقدر الصعوبة التي يمكن رؤيتها واستيعابها الان ، بعد سلسلة من التطورات الكيانية الفلسطينية على امتداد العشرين سنة الماضية ، وفي ظل معطيات النهوض الوطني الفلسطيني الراهنة ، المتمسكة بشعارات الاستقلال الوطني ·

ولذلك ، فان استعادة المعطيات الفلسطينية التي واكبت عملية الضم لا تمكن الباحث ، القول بانه كانت هناك عملية مجابهة فلسطينية للاجراءات الاردنية حيال الضفة الغربية ، وان ما حدث على هذا الصعيد ، يمكن اعتباره اعتراضات جزئية ومحدودة فقط· وقد اقتصرت مجابهة عملية الضم ، في نطاق شروط غير مكتملة وعلى قاعدة سياسية غير متكافئة ، مع حكومة عموم فلسطين برعاية الهيئة العليا ·

وفي نطاق عملية الاعتراض تلك ، فاننا نجد ابرز تعبيراتها في الموقف الذي اتخذه الشيوعيون ، من عملية اجراءات الانتخابات النيابية لبرلمان الضفتين · فقد وصفت قرارات اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني (التي اتخذتها عشية اعلانها عن قيام الحزب الشيوعي الاردني في اواسط العام ١٩٥٠) باسهاب، مظاهر الاعتراضات « ومقاومة الجماهير الشعبية للمحتلين الانكلو ــ هاشميين في النضال البطولي لاحباط مؤامرة الانتخابات الانكلو ــ هاشمية ضد المؤامرة التي استهدفت تزييف ارادة الشعب العربي الفلسطيني لاضفاء صفة شرعية على

الحاق القسم العربي الفلسطيني بالمستعمرة البريطانية شرق الاردن » · وذكرت قرارات العصبة انه في الحادي والثلاثين من اذار عام ١٩٥٠ « اي قبل موعد الانتخابات باسبوع ، قامت في نابلس مظاهرة شعبية جبارة بقيادة حزبنا اشترك فيها حوالي اربعة الاف شخص ، اعلنت فيها الجماهير الشعبية مقاومتها لالحاق وطنها بالمستعمرة البريطانية شرق الاردن ، كما اعلنت عن تصميمها على مواصلة النضال لتحرير وطنها من نير المحتلين واقامة دولتها الديمقراطية المستقلة والصديقة للشعب اليهودي · وقد لجأت سلطات الاحتلال [الاردنية] الى قمع مقاومة الجماهير الشعبية لهذه المؤامرة بوحشية وفظاعة متناهيتين ، فقد اعتقلت مئات الشباب ونكلت بهم وساقت اكثر من ثلاثين شابا منهم ، من نابلس وقضائها ، بعد ان ربطتهم جميعا في حبل واحد متصل ، من نابلس الى عمان مشيا على الاقدام وتحت الضرب الوحشي مانعة عنهم الطعام والماء · وقد استشهد في اثناء الطريق الشاب الديمقراطي روحي زيد الكيلاني ، كما اشرف عدد من الاحرار على الموت · وقد جيء بقوات كبيرة من الجيش العربي الى فلسطين لقمع كل حركة تقوم بها الجماهير واعلنت في انحاء البلاد حالة الطوارىء » · ووصفت العصبة عملية الانتخابات ذاتها ، فقالت انه « في ظل حالة الطوراىء وتحت الارهاب الوحشي واعتقال مئات الشباب اجرت سلطات الاحتلال عملية الانتخابات ، وكان الجنود والشرطة وجميع عملاء الاستعمار وجواسيسه يرغمون الجماهير على الذهاب الى صناديق الاقتراع · ولكن على الرغم من جميع اساليب الارهاب والقمع الوحشية التي اتبعتها السلطات المحتلة قاطعت الجماهير هذه المؤامرة وافشلتها ، اذ لم يشترك في الانتخابات اكثر من ٢٠ بالمائة من الذين لهم حق الانتخاب · وقد وجد داخل صناديق الاقتراع مئات البطاقات اما بيضاء او مكتوب عليها شعارات ضد الاستعمار وتابعه الملك عبد الله » · وقالت العصبة كذلك انه « كان من بين الموافقين على ذلك « نواب جماعة البعث » [الاقواس في الاصل] · هذه الجماعة التي قامت بدور تخريبي كبير في نضال الجماهير لاحباط هذه المؤامرة ، اذ تولت هي الترويج للمؤامرة تحت ستار مقاومة الملك عبد الله والاستعمار البريطاني ، وكانت تزعم انها لن توافق على المعاهدة العسكرية الانكلو ــ هاشمية » (٢٦) ·

وباستثناء ذلك ، فان الباحث لا يعثر على موقف له مدلوله الاعتراضي الجاد، بل انه يجد بعض المواطنين الفلسطينيين ، المشهود لهم بوطنيتهم ، قد اخذوا بالاستجابة للامر الواقع ، والمطالبة بتطويره ودفعه الى الامام ، بعد ان قبلوا به وسلموا على مضض · فقد كتب كمال ناصر ، احد الاعضاء المؤسسين لحزب البعث العربي الاشتراكي في الاردن ، في مجلته التي كانت تصدر في ذلك الوقت باسم « الجيل الجديد » ، مقالا عشية الانتخابات تلك ، يقول فيه : « وزعت في البلاد خلال الاسابيع الاخيرة منشورات سوداء خطيرة تدعو دعوة مشبوهة الى

مقاطعة الانتخابات النيابية في البلد · ولم تقتصر هذه المناشير على الدعوة الى المقاطعة وانما تعدتها الى التهديد والوعيد (···) هم يقولون ان القضية لم تنته بعد وان دخولنا المعركة النيابية معناه الاعتراف بالامر الواقع في البلاد وان فلسطين بهذا تكون قد ضاعت للابد · وانا اقول هل نقف مكتوفي الايدي لتحل قضيتنا الايام ، وهل غيرنا يتصرف بشؤوننا وقد نخسر بذلك كثيراً (···) وهل دخولنا البرلمان يعني سنسلم بقية البلاد ؟ (···) ان دخول عناصر قوية الى البرلمان على اكتاف الشعب معناه ان الشعب له حق تقرير مصيره ومصير بلاده ونحن ندخل على هذا الاساس لنعرف ماذا يدور من حولنا (···) ان دخولنا مجلس النيابة معناه اننا سنشترك في تكييف المجتمع الذي نعيش فيه ، فان استطعنا ذلك وهو بالامكان بقينا ، والا فلا شيء يقوى على العمل ضد رغبتنا نحن اهل البلد (···) دعوني اطرق الموضوع من ناحية ثانية (···) ان الانتخابات في حد ذاتها امر واقع ولا بد منها · ولنفرض جدلا اننا لا نرضى عنها ولا نريدها ، ومع ذلك فالانتخابات ستجرى ان شئنا ام ابينا ، وفي هذه الحالة هل نترك الميدان للصعاليك تصول وتجول وتتصرف بامور الشعب عن غير فهم او معرفة ، ام نحاول ابراز عناصر قوية مخلصة طيبة نستفيد منها ونستطيع مواجهة التيار » (٢٧) ·

هذه هي اذن المعادلة الصعبة التي حاول القوميون الفلسطينيون حلها ، عبر الحوار الذي دار بين الوطنيين حول الموقف من اخر اجراءات الضم العملية والقانونية · والعبرة الاساسية التي يمكن استخلاصها من ذلك الحوار هي ، انه في الوقت الذي اعترض فيه بعض الفلسطينيين على عملية الضم ، استنادا الى اعتبارات ومبررات وطنية ، فان البعض الاخر منهم ، قبل بعملية الضم وسلم بها ،استنادا الى اعتبارات ومبررات وطنية كذلك · وما مقالة كمال ناصر وموقف الشيوعيين الانف الذكر الا تعبيراً ملموسا عن اتجاهي اطراف الحوار ·

واذا كان هذا هو حال الفلسطينيين ازاء عملية تتويج الضم ، فانه يمكن القول بان الموقف الفلسطيني ازاء اولى واهم خطوات الضم ، لم يكن متباينا عما كان عليه الامر في اخر خطواته · فعندما اخذت الحكومة الاردنية بالاعداد لمؤتمر اريحا اواخر العام ١٩٤٨ ، واوعزت الى الحكام العسكريين الاردنيين في فلسطين ، بالعمل على انجاح المؤتمر ، كان الاجتهاد الفلسطيني الوطني ، منسجما مع ما توصل اليه الوطنيون الفلسطينيون في اوائل العام ١٩٥٠ ·

فقد ذكر عبد الله التل ، الحاكم العسكري للقدس ، في مذكراته ، انه عندما تبلغ الامر بالعمل على انجاح المؤتمر المزمع اجتمع الى « نخبة من الشباب ورجالات القدس المخلصين للوطن لا لعمان ، واطلعهم على نوايا عمان بشأن المؤتمر ·وبعد ان تبادلنا الاراء اقر الجميع ان يسافر عن القدس وفد ينتخب لغايتين : الاولى ، للتظاهر بان القدس لم تشذ عن امر عمان ، والثانية ليحاول

هذا الوفد التاثير في المؤتمر بادخـال بعض المـواد في المقـررات ٠ وقد انتخب الوفد برئاسة الدكتور موسى عبد الله الحسيني ومن جملة الاعضاء السيد علي الدجاني والاستـاذ يحيى حمودة ٠ وكـان انتخـاب الدكتـور موسى الحسيني مقصودا لاقناع الملك وحكومتـه بأن احـد اقطـاب الحسينيين قد حضـر المؤتمر **واشترك في اعلان البيعة** [التشديد من عندنا] ، وبهذه الطريقة نضمن سكـوت جلالته عن قوات الجهاد المقدس ومحاولاته العديدة للفتك بها » (٢٨) ٠

وهكذا ،فانه من الممكن القول ، انه لم تحدث عملية مجابهة فلسطينية لخطوة الضم ذاتها ، وانما حدثت اعتراضات جزئية ومتفرقة ، لم تستطع احراز اجماع فلسطيني حولها ، بحكم عوامل موضوعية عديدة ٠ والا فمـا معنـى ان يتنافس خمسة وستون مرشحا على عشرين مقعـدا من المقاعـد المخصصـة لاول مجلس نيابي للضفتين ، وما معنـى ممارسة الحكومة الاردنيـة لضغوطاتها من اجـل الحيلولة دون اقدام بعض المرشحين المعروفيـن بوطنيتهـم علـى ترشيح انفسهم للانتخابات ، كما حدث عندما تدخل الشيخ محمد علي الجعبري « تدخلا مباشرا في الانتخابات النيابية ٠٠٠ واستعمل الضغط في اكثر من مناسبة ضد المحامـي الشاب عبد الخالق يغمور » (٢٩) ٠

وفي اعتقادنا ان جذر عملية التسليم بخطوة الضم ، نجم في ذلك الفتـرة عن مجموعة من العوامل ، في طليعتها عدم تجـذر الوعـي والمفهوم الكيانـي لدى الفلسطينيين ، الذيـن لم يمارسوا في تاريخهـم الحـديث ، حكمهم لانفسهـم ٠ وبالتالي فانهم عندما سلموا بالاجراءات الاردنية ، لم يكن يساورهم الشعـــور بانهم مقدمون علىالتنازل عن تجربة كيانية منفصلة ، لها تراثهـا الاستقلالـي ، ولها امتيازاتها السلطوية المادية منها والادبية ٠ والىجانب ذلك ، فلقـد كانـت معركة عروبة الارض الفلسطينية ، تتقدم على غيرها من المعارك ٠ ذلك ان مؤتمر اريحا وما تلاه من اجراءات اردنيـة ، قـد جـاء في سيـاق اجتيـاح القـوات الاسرائيلية لمنطقة النقب ، ومحاصرة القوات المصرية وامتداد الرقعة المحتلة من فلسطين ٠ وكان من الطبيعي في هذه الحالة ، ان ينصرف الاهتمام الفلسطينـي نحو العمل على وقف التقدم الاسرائيلي ، اكثـــر منه على مستقبل الاوضـــاع القانونية للفلسطينيين ٠ وقد ضاعف من خطورة الحالة في فلسطين ، ابان فترة الضم ، وازدياد عدد اللاجئين واشتداد حالة الفقر والاضطراب الاجتماعي ، في الضفة الغربية على وجه التحديد ٠

فكانمن الطبيعي والحالة هـذه ، الا تجـد الاجراءات الاردنيـة نحـو الضفة الغربية ، مجابهة شعبية كافية لوقفها عند حدود معينة او احباطها نهائيا ٠ ولذلك كله ، لم يظهر لدى الفلسطينيين المقيمين في الضفة الغربية ، سوى اعتراضـات جزئية ، لم تشكل في نهاية المطاف ، قيدا على حرية التصرف الاردني بمستقبـل الشعب الفلسطيني وبمستقبل ارضه ٠ واذا كانت العبرة بالنتائج ، فان انخراط

الفلسطينيين في قاعدة المجتمع الاردني ، فيما بعد ، واسهامهم في عملية تطوره ونموه الاقتصادي والاجتماعي ، واندماجهم في حركته الوطنية ونضالهم تحت شعاراتهم جميعا ، يؤكد ان الفلسطينيين ، بحكم المقدمات المشار اليها ، لم يجابهوا عملية الضم ذاتها ، وان كانوا قد اشتركوا مع اشقائهم الاردنيين ، طوال السنوات اللاحقة في مجابهة سياسات الحكم الاردني ذاته ٠

وفي اطار كل ما تقدم ، فانه يمكن الاشارة الى حالة مجابهة فلسطينية واحدة، لعملية الضم الاردني هذه ٠ الا ان هذه « المجابهة » ، كانت تفتقد الشروط الوافية ، لتصعيدها والوصول الى غاياتها المرجوة ٠ ذلك ان حكومة عموم فلسطين ومن خلفها الهيئة العربية العليا ، لم تكن في موقف يسمح لها بخلق شروط المجابهة ، سواء على الصعيد الذاتي حيث كانت رموزها السياسية البارزة خارج فلسطين وبعيدة عن صفوف الجماهير الفلسطينية ، وحيث كانت بنتا شرعية للوضع العربي المحكوم بالعجز والتمزق ، والمرتهن الى شبكة علاقات دولية في غير مصلحة تقدم العرب ووحدتهم ٠

لذلك كله ، لم تتمكن حكومة عموم فلسطين من دعوة مجلس الجامعة العربية للنظر في الاجراء الاردني ، حيث نابت عنها الحكومة المصرية ٠ كما لم تتمكن الهيئة العربية العليامن عمل اي شيء سوى اصدار بيان بهذه المناسبة ٠ وكان البيان ، الذي حددت فيه الهيئة موقفها من الاجراء الاردني ، قد ذكر : « ان هذه الانتخابات الصورية التي تعتزم السلطة الاردنية اجراءها في فلسطين ، ما هي الا تنفيذ للمؤامرة التي حاكتها السياسية البريطانية لتصفية قضية فلسطين تصفية نهائية واعادة ما بقي من فلسطين تحت نير استعمارها عن طريق شرق الاردن ، والتخلي عن القسم الاخر لليهود لينشئوا فيه دولة اسرائيل (٠٠٠) ثم ان البرلمان الذي تدعو السلطة الاردنية اهل فلسطين الى دخوله ليس الا برلمانا صوريا فريدا في بابه لا يقوم على اساس تمثيلي صحيح ولا يتمتع بأي حق من حقوق البرلمانات في العالم ، فالوزارة غير مسؤولة امامه ولا يملك حق نزع الثقة منها ولا الاشراف على شيء من اعمالها ٠ وما الانتخابات التي ستجريها حكومة شرق الاردن في القسم العربي من فلسطين (٠٠٠) الا انتخابات باطلة لانها تقوم على تزييف ارادة الشعب وانتزاع الصفة التمثيلية منه بأساليب الضغط والاكراه في اقسى الظروف واشدها » (٣٠) ٠

ومن الملاحظ ان بيان الهيئة العربية هذا ، يشير من جملة اشاراته ، الى عدم اكتمال الوعي الكياني الفلسطيني بشكل عام ٠ فعوضا عن التذكير بخطورة الاجراء الاردني على مستقبل الكيان الفلسطيني ، ومدى ما سيلحق بالاستقلال الفلسطيني من مخاطر كبيرة ، والتشديد على حق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وبناء مستقبله السياسي بحرية ، جرى التركيز في بيان الهيئة على

صورية الانتخابات ، وعلى عدم قدرة البرلمان الاردني على مساءلة الحكومة ٠

ومع ذلك فان محاكمتنا النقدية لبيان الهيئة العربية وغيره من البيانات والمواقف ، تتم الان في ظروف اكتمال الوعي الكياني الفلسطيني ، وبعد حصيلة من التجارب القاسية التي مر بها الشعب الفلسطيني ٠ ولذلك فان محاكمتنا هذه تسودها روح تعسفية ، حيث لا يمكن الحكم بمقاييس الحاضر على مجموع خبرات وتجارب ومواقف الماضي ، بالمقاييس ذاتها ٠ ولذلك ، فان وعينا على هذه الحقيقة ، هو الذي يمكننا من القول بأن الفلسطينيين ، في ذلك الوقت ، لم يجابهوا خطوات الضم الاردنية ، لعدم تجذر الوعي الكياني لديهم ، ولنقص في التجربة السياسية ، ولمرورهم « في اقسى الظروف واشدها » كما ذكر بيان الهيئة العربية العليا ٠

موقف الجامعة العربية

بدأت الجامعة العربية في التداول بشأن اقامة ممثليه فلسطينية ، في الاجتماع الذي عقدته اللجنة السياسية التابعة للجامعة ، خلال شهر ايلول عام ١٩٤٨ ، وكان حادي الجامعة في ذلك ، اقتراب موعد انعقاد الجمعية العامة للامم المتحدة في باريس اوائل العام ١٩٤٩ ٠ واستقر رأي الدول العربية ، على ضرورة تقديم ممثلين لحكومة عربية فلسطينية امام الجمعيةالعامة ، خاصة وان الوسيط الدولي الكونت برنادوت ، كان قد اشار في تقرير رفعه الى المنظمة الدولية ، الى انه لم تبدر اية بادرة تدل على رغبة في انشاء حكومة عربية فلسطينية ، في منطقة التقسيم المخصصة للعرب ، اسوة بما اقدم عليه اليهود ٠

الا ان ممثلي الحكومة الاردنية ، وقفوا في اللجنة السياسية معترضين على هذا التوجه العربي ٠ وبالرغم من ذلك وافقت اللجنة السياسية على قرارها هذا، واوفدت رياض الصلح رئيس وزراء لبنان الى الملك عبد الله في عمان ، لتهدئته واقناعه بالفكرة التي وافقت عليها الدول العربية ، بما فيها حكومة المملكة العراقية ٠ غير ان الملك عبد الله ظل على موقفه ، الامر الذي دفع الجامعة العربية الى التراجع عن موقفها السابق ، حيث اكتفت باقرار وجاهة الفكرة ومشروعيتها وضرورتها وانها حق طبيعي لاهل فلسطين ، وقررت ان تنفيذها منوط بارادتهم ورغبتهم ، فاذا نفذوها اعترفت الحكومات العربية بها وساعدتها ماديا وادبيا ٠

على هدى الموقف العربي هذا ، اعلن عن تشكيل حكومة عموم فلسطين في الثالث والعشرين من شهر ايلول ذاته ، فرد الملك عبد الله على ذلك ، بعقد مؤتمري عمان واريحا قبل ان ينصرم العام ١٩٤٨ ، مكرسا بذلك سياسته تجاه

المناطق التي كان يتموضع فيها الجيش الاردني في فلسطين · وبذلك ، تتالت ردود الفعل العربية المناهضة لسياسة الضم ، داخل الجامعة العربية وخارجها ·

وفي اطار ردود الفعل العربية هذه ، كان موقف الحكومة المصرية اشدها اعتراضا ، خاصة وان الاجراءات الاردنية ، جاءت في اعقاب تطوير الموقف العسكري في النقب لغير مصلحة الجيش المصري وتوقف الجيشين الاردني والعراقي ، اللذين كانا تحت امرة الملك عبد الله ، عن تقديم المساعدة للجيش الذي حوصر في نهاية المطاف ومنع عنه الامداد والتموين ·

فعلى اثر انعقاد مؤتمر اريحا استدعى رئيس الديوان الملكي المصري ممثلي الحكومات العربية في القاهرة ، وابلغهم رسالة شفوية من الملك فاروق جاء فيها « ان كلمة الدول العربية مجمعة على تحرير فلسطين لاهلها وان الجيوش العربية قد نهضت بهذه الرسالة السياسية في ظل عهد واضح المعالم والحدود وقطعته على نفسها (···) ان الملك تلقى انباء تفيد ان مؤتمرا عقد في اريحا وشهده اللاجئون وقد اتخذ هؤلاء المجتمعون قرارات طالبوا فيها بضم فلسطين الى مملكة الاردن (···) وان الذين شهدوا المؤتمر هم قلة بالنسبة لمجموع عرب فلسطين الموزعين بين الاقطار العربية والباقين في فلسطين وانهم ليسوا في وضع وظروف تمكنهم من ابداء ارائهم بحرية واختيار كاملين » · وندد بيان الملك بالمؤتمر والمؤتمرين ، وقال ان عملهم « استبداد بالاكثرية ، وقد اهملوا رأي الدول العربية في حين انهم يطالبونها بمواصلة تحرير فلسطين ، وان مصر لم تضح بدماء ابنائها ليلقى بمستقبل فلسطين بين ايدي المجتمعين في اريحا » (٣١) ·

ومن جهة اخرى ، ندد عبد الرحمن عزام الامين العام للجامعة العربية بمؤتمر اريحا ، واعلن رفضه لقراراته ، وانكر حقه بالتكلم باسم الشعب الفلسطيني · كما اصدرت « جماعة كبار العلماء وعلماء الازهر » بيانا نددت فيه بمؤتمر اريحا ، ووصفته بانه « تمثيل خيالي ووليد اكراه افراد مسهم الضر والبأساء ولا يعبر عن رأي العرب والدول العربية » · وتبع ذلك موجة من الاحتجاجات المصرية ، برزت في العديد من البيانات والبرقيات والتعليقات التي اصدرتها هيئات وشخصيات وصحف مصرية « ثم لم تلبث ان شاركتها سورية في ذلك » (٣٢) ·

وقد حمل هذا التباين في مواقف الدول العربية ، العراق ثم سوريا فيما بعد على القيام بمسعى وساطة مع الملك عبد الله · فوصل في تلك الاثناء الى عمان ، وفد عراقي مؤلف من نوري السعيد وجميل المدفعي « فادت هذه المساعي الى اقناع الملك بتأجيل الخطوة حيث نشر تصريح عن لسانه يعلن فيه رغبته في مواصلة التكاتف مع الدول العربية ، وموافقته على التريث في الخطوة النهائية» · ثم اعلن توفيق ابو الهدى رئيس الوزراء الاردني في مؤتمر صحافي « ان حكومته

قررت عدم تنفيذ قرارها وقرار البرلمان بتبني قرارات مؤتمر اريحا في الوقت الحاضر مع اتفاق هذه القرارات مع سياسة الحكومة الاردنية كل الاتفاق» (٣٣)٠

وكان من نتيجة الموقف الاردني الاخير ، عدول الدول العربية بدورها ، عن دعم حكومة عموم فلسطين ، التي كانت قد دعيت في الثلاثين من تشرين الاول عام ١٩٤٨ ، الى اجتماع مجلس الجامعة وحضرها رئيسها ووزير خارجيتها احمد حلمي عبد الباقي بصفته هذه ٠

وكانت تلك الدعوة ،هي اخر مرة يحضر فيها عبد الباقي مجلس الجامعة بصفته رئيسا للحكومة الفلسطينية ، حيث اخذ حضوره اللاحق فيما بعد ، صفة ممثل فلسطين لدى الجامعة العربية فقط ٠

وطوال الفترة التي انقضت على عقد مؤتمر اريحا وحتى موعد الاعلان عن ضم الضفة الغربية رسميا الى الاردن ، في نيسان ١٩٥٠ ، لم يصدر اي موقف رسمي لاي من الدول العربية تجاه الاجراءات العملية والقانونية التي كانت تمهد بها الحكومة الاردنية ، لعملية الاعلان عن الخطوة الاخيرة ٠

وهكذا ، فان ردود الفعل العربية ، تزامنت مرة اخرى ، مع الاعلان الاردني عن حل مجلس النواب الاردني ، تمهيدا لاجراء انتخابات نيابية في الضفتين ، اوائل العام ١٩٥٠ ٠ فدعي مجلس الجامعة الى عقد دورة خاصة لبحث الموقف ، كما دعي الاردن الى ارسال وفده لشرح حقيقة الامر ٠ فاعلن الاردن عن تشكيل وفد حكومي ، الا انه عدل عن ارساله في اخر لحظة ، واكتفى بوزيره المفوض لدى القاهرة ، الذي قدم الى مجلس الجامعة نسخة عن برقية بعث بها ابو الهدى الى وزير الخارجية المصرية ، جاء فيها ان الاردن لن يجري صلحا او تسوية ولن يبرم اي معاهدة مع اسرائيل ٠ وقال ان حكومته التي تشرف على اجراء الانتخابات « تصرح بانها لن تعمل اي شيء الى ان تستقيل بعد الانتهاء من الانتخابات النيابية في منتصف شهر ابريل (نيسان) » (٣٤) ٠

وبالرغم من شدة وضوح الفقرة الاخيرة ، في رسالة ابو الهدى التي عرضت على مجلس الجامعة ، فان الاخير لم يتخذ موقفا ازاء عزم الحكومة الاردنية الواضح ، على اجراء عملية الضم في وقت لاحق ٠ وانتظرت القضية هذه ، موعد الدورة العادية لمجلس الجامعة ، المقرر عقده في نيسان ١٩٥٠ ، حيث تقرر احالة المسألة الى اللجنة السياسية ٠

وبالفعل ، اجتمعت اللجنة السياسية واصدرت في الثالث عشر من نيسان قرارا ، نال اجماع مجلس دول الجامعة ، باستثناء المندوب الاردني ، الذي سجل مخالفته له ، كما اعلن انه سجلها كذلك في اللجنة السياسية ٠ وقد نص القرار على ما يلي : « نظر المجلس في موقف الدول العربية من المسألة الفلسطينية في

وضعها الراهن وقرر بالاجماع فيما عدا مندوب المملكة الاردنية الهاشمية الاتي :

اولا : تأكيد القرار الذي اتخذته اللجنة السياسية باجماع الدول الاعضاء في ١٢ ابريل (نيسان) سنة ١٩٤٨ وهو القرار الذي ينص على دخول الجيوش العربية فلسطين لانقاذها يجب ان ينظر اليه كتدبير مؤقت خال من كل صفة من صفات الاحتلال والتجزئة لفلسطين ، وانه بعد اتمام تحريرها تسلم الى اصحابها ليحكموها كما يريدون ·

ثانيا : اعتبار هذا القرار نافذا ومعبرا عن السياسة الحالية للدول العربية في هذا الشأن ·

ثالثا : اعتبار هذا القرار نافذا ومعبرا عن السياسة الحالية للدول العربية ولاحكام ميثاق جامعة الدول العربية وذلك وفقا للفقرة الاولى من المادة الثانية من الميثاق وللملحق الخاص بفلسطين ·

رابعا : عند وقوع هذا الاخلال تدعىاللجنة السياسية للاجتماع واتخاذ ما يلزم من اجراء وفقا لاحكام الميثاق » (٣٥) ·

ومع ان هذا القرار جاء بعد يومين فقط ،على تاريخ اجراء اول انتخابات عامة لمجلس نيابي يمثل ضفتي نهر الاردن ، فان الجامعة لم تستطع مرة اخرى ، اتخاذ موقف متقدم على التذكير بسياسات الجامعة العربية ازاء فلسطين ·

ورد الملك عبد الله مرة اخرى على قرار الجامعة العربية ، الذي اتخذ وسط حملات صحافية ومطالبات بفصل الاردن عنالجامعة ، بقيامة بجولة في مناطق الضفة الغربية عشية اجتماع برلمان الضفتين فيالرابع والعشرين من نيسان ، والقى كلمة في الخليل اكد فيها عن قرب اعلان الضم دستوريا ، « وندد بالجامعة العربية لتجاهلها لوقائع الامور » · وقال انه لن يبالي ، « واذا كانوا يتوعدون الاردن الفصل فمرحبا به في سبيل توحيد البلاد » (٣٦) · ثم اجتمع البرلمان في التاريخ المحدد واصدر قراره الذي صادق عليه الملك عبد الله بعد ظهر اليوم نفسه ·

بعد هذا الاجراء ، الذي كان تتويجا لسلسلة اجراءات الضم السابقة ، تحركت الجامعة العربية ، وسط مظاهر غضب عربية متفاوته ، واتخذت قرارا بفصل الاردن من عضويتها · وكانت الحكومة المصرية ، التي عاد الى رئاستها مصطفى النحاس في ذلك الوقت ، اشد الحكومات العربية « حنقا وغضبا » ، فدعت اللجنة السياسية للجامعة ، الى الاجتماع وفقا لقرارها الذي اتخذته في الثالث عشر من نيسان · وبالفعل فقد اجتمعت اللجنة في الحادي عشر من ايار ، بحضور وفد اردني ، جاء « للاقناع والتبرير والتهدئة » · وقد بذل هذا الوفد جهودا عديدة على هذا الصعيد ، بمؤازرة من الوفد العراقي الذي قال رئيسه ان

المصلحة نقضي بتفادي انهيار الجامعة باقصاء الاردن عنها ٠ الا ان الوفد المصري الذي كان برئاسة مصطفى النحاس ، ظل متشددا في وجوب اتخاذ اجراء عقابي ضد الاردن ، وقد آزرته في ذلك غالبية الوفود العربية ٠ وهكذا صدر في الخامس عشر من ايار عام ١٩٥٠ قرار الفصل على النحو التالي (٣٧):

« بناء على القرار الذي اصدره مجلس جامعة الدول العربية في ١٣ نيسان ١٩٥٠ وبناء على طلب الحكومة المصرية اجتمعت اللجنة السياسية للنظر في الموقف المترتب على ما اقدمت عليه حكومة المملكة الاردنية الهاشمية من ضم شرق فلسطين الى ارضها ٠ وبعد مناقشة الموضوع من جميع نواحيه سجلت اللجنة باجماع الاراء ما عدا المندوب الاردني ان ما وقع من حكومة المملكة الاردنية الهاشمية هو اخلال بقرار الجامعة المؤرخ في ١٤ ابريل (نيسان) سنة ١٩٥٠ السابقة الاشارة اليه ٠

ثم نظرت اللجنة في الاجراء الذي يتخذ مع حكومة المملكة الاردنية الهاشمية وفقا لاحكام ميثاق الجامعة فوافق مندوبو الجمهورية السورية والمملكة السعودية والجمهورية اللبنانية والمملكة المصرية على توصية مجلس الجامعة بفصل المملكة الاردنية من عضوية مجلس الجامعة تطبيقا للفقرة الثانية من المادة ١٨ من ميثاق الجامعة ٠ اما مندوبا المملكة العراقية والمملكة المتوكلية اليمانية فقد طلبا تأجيل الاجتماع حتى يتمكنا من الرجوع الى حكومتيهما في هذا الشأن ٠ وبناء عليه تقرر دعوة مجلس جامعة الدول العربية للاجتماع في اجل اقصاه يوم الاثنين ١٢ يونيه (حزيران) سنة ١٩٥٠ لعرض الامر عليه » (٣٨) ٠

الا ان رئيس الوفد الاردني اذاع بيانا بعد هذا القرار ، دافع فيه عن موقف حكومته ، وقال انه ليس مخالفا لميثاق الجامعة العربية ، باعتبار ان الاردن لم يوافق على قرار اللجنة السياسية الذي سبق ان اصدرته في نيسان المنصرم ٠

وكان الموقف الاردني قد تعزز ، في مواجهة الجامعة ، بعد اقدام الحكومة البريطانية على الاعتراف بواقعة الضم ٠ وبذلت الجهود من قبل كل من العراق ولبنان مع الاردن في سبيل التوصل الى حل للمسألة ٠ وعرض العراق صيغة حل وسط وافق عليها الاردن ٠ كما عرض لبنان صيغة اخرى ، فوافق الاردن عليها كذلك ٠ وكانت الصيغة العراقية قد نصت على « ان ما قامت به الحكومة الاردنية من توحيد ضفتي الاردن كان لضرورة الدفاع عن المنطقة باجمعها ولاسباب اقتصادية وسياسية وقومية تتصل به مباشرة ٠ ومع ذلك فالحكومة الاردنية تعلن بان هذا التوحيد سوف لا يؤثر بوجه عن الوجوه في سبيل التسوية النهائية للقضية الفلسطينية » ٠ اما الصيغة اللبنانية فقد نصت بدورها على انه « لما كانت الدول العربية قد اعلنت استمساكها بعروبة فلسطين واستقلالها وسلامة اقليمها تحقيقا لرغائب سكانها الشرعيين ورفضت كل حل يقوم على

اساس تجزئتها فانها تعتبر الجزء الذي ضم الى المملكة الاردنية الهاشمية ما زال تابعا للتسوية النهائية ، ينظر في مصيره مع مصيـر الجزء الاخر من فلسطيـن عند تحريره وبذلك تكون تحققت الاهداف التي سعـت اليها الـدول العربيـة في مقرراتها السابقة الرامية الى حفظ كيان فلسطين في حدودها قبل العدوان»(٣٩)٠

غير ان الحكومة المصرية رفضت الصيغتين باعتبار انهما غير كافيتين ، ولذلك اجتمع مجلس الجامعة في موعده المحدد ، الثانـي عشر من حزيـران ١٩٥٠ ، بغياب الاردن ، الذي بعث وزير خارجيته ببرقية الى المجلس ، اعتبر فيها « قضية الوحدة الشاملة لضفتي الاردن امـرا منتهيـا » ٠ ومع ذلك فقد توصل الوسطاء العرب الى صيغة تسويـة جديدة للموقـف ، عرضـت على اللجنة السياسية في الخامس عشر من الشهر نفسه ، فاعتبرت مقبولة من الجميع ٠ وقد كان نصهـا على النحو التالي (٤٠) :

« لما كانت الدول العربية قد اعلنت استمساكها بعروبة فلسطين واستقلالهـا وسلامة اقليمها تحقيقا لرغبات سكانها الشرعيين ورفضت كل حـل يقوم علـى اساس تجزئتها فان المملكة الاردنية الهاشمية تعلن ان ضم الجزء الفلسطينـي اليها ، انما هو اجراء اقتضته الضرورات العملية وانها تحتفظ بهذا الجزء وديعة تحت يدها على ان يكون تابعـا للتسوية النهائيـة لقضية فلسطيـن عند تحريـر اجزائها الاخرى بكيانها الذي كانت عليه قبل العدوان ، وعلى ان تقبل في شأنه ما تقرره بالاجماع دول الجامعة الاخرى وبذلك تكون قد تحققت الاهداف التـي سعت اليها الدول العربية في قراراتها السابقة الرامية الى حفظ كيان فلسطيـن قبل العدوان » ٠

الا ان هذه الصيغة لم تعرض على مجلس الجامعة ، ولم يبت فيهـا ، حتـى تتاح الفرصة لعرضها على الحكومة الاردنية والحصول على موافقتها على نصـ مشروع القرار ٠ ولذلك فان القرار الذي اصـدره مجلس الجامعة ، رقم ٣٢٣/د ١٢/ج ٧ ـ ١٩٥٠/٦/١٢ ، نص فقط على اخذ العلم بما جرى من ابحاث ومـا يتوقعه من وساطة ، على النحو التالي :

« احيط المجلس علما بابحاث اللجنة السياسية في موضوع ضم شرق فلسطين الى المملكة الاردنية الهاشمية وينتظر نتيجة الوساطة » (٤١) ٠

ومرت السنون ، ولم يوافق الاردن على هذه الصيغة ، وكان عامل الزمن هو العلاج الشافي لازمة الجامعة العربية ، التي لم يدم قرار فصلها لعضوية المملكة الاردنية ، سوى اربعة اسابيع فقط ، ثم عادت وتناست كافة قراراتها السابقـة ، وسلمت بالامر الواقع الى حين ٠

وبانقضاء تلك التجربة الكيانية المهيضة الجناحيـن ، جنـاح الواقع الذاتـي

الفلسطيني ، وجناح الواقع العربي والدولي ، اسدل الستار على اول محاولة سياسية فلسطينية ، باتجاه خلق تعبير كياني مستقل ، وسط تعقيدات شديدة ، على كلا الواقعين ٠ الا انه بالرغم من كل تلك التعقيدات ، فقد كان ينقص تلك التجربة ، التصميم القوي والمثابرة المبدعة على اقل تقدير ٠

وقد كان لتفرق شمل قيادة العمل الوطني الفلسطيني ، وتوزع ولاءاتها العربية في ذلك الوقت ، اثر حاسم بدوره ، في اجهاض تلك التجربة وهي على وسادة الجامعة العربية بعد ٠ اذ ان بعض اعضاء الحكومة الفلسطينية سرعان ما ارتدوا عليها ، وما فعله أعضاء الحكومة ، كان قد سبقهم اليه اعضاء الهيئة العربية العليا ، وقد احتوت المؤسسات السياسية الاردنية فيما بعد ، اسماء العديدين من رموز القيادة الفلسطينية ، الذين تم استيعابهم نهائيا لمصلحة تطور الكيان الاردني ، على حساب تطور الكيان الفلسطيني الذي دعوا من اجله ، وعملوا في سبيله ، ردحا طويلا من الوقت ٠

وعليه ، فلقد كانت حكومة عموم فلسطين ، هي اخر التجارب التي اختتمت بها القيادة التقليدية للشعب الفلسطيني ، حياتها السياسية ٠ وكان فشل تلك التجربة ، المسمار الاخير في نعش تلك « الصفوة » ، التي قادت الكفاح الوطني الفلسطيني طويلا ، واوصلته الى الباب باحكام ، في وجه تطوراته الكيانية اللاحقة ٠ واذا كان الفلسطينيون قد اعادوا فتح هذا الباب مؤخرا ، فقد اقتضى ذلك منهم ، تضحيات جسيمة وعذابات طويلة ، على مدى سنوات عديدة وقاسية٠

انطوت بذلك التجربة الكيانية الفلسطينية ، وانقطع التطور الكياني الفلسطيني ذاته ، لافتقاره لكل مقومات التطور المادية ٠ فالارض الفلسطينية التي لم تصلها يد الحركة الصهيونية ، فقدت هويتها التاريخية ، والشعب الفلسطيني تم اقتلاعة وتجزئته ، وفرضت عليه قيود التنقل والاقامة والعمل ، ومنع من حرية التعبير والتنظيم ، فقد مؤسساته السياسية وكافة تعبيراته المستقلة ، وزادت ظروف اللجوء محنته السياسية ، محنة اجتماعية ٠ وغدا فوق ذلك كله ، اسير واقع التخلف والتجزئة والضعف العربي ٠

على هذه الارضية المفتعلة من سياق التطور الطبيعي في حياة الشعوب ، تركزت تطلعات الفلسطينيين على هدف مركزي هو هدف العودة ، دون ان يرتبط هذا الهدف بتصور كياني محدد لديهم ٠ ومع ذلك ، فقد حافظوا على وعيهم بفلسطينيتهم ، دون ان يبلوروا ذلك في تعبيرات سياسية ومؤسسات خاصة ٠ بل حتى ان بعض مؤسساتهم الحزبية التي حملوها معهم الى واقع ما بعد النكبة ، جرى تكييفها مع الواقع الجديد ، بكل سماته وخصائصه العربية الصارمة ٠ وليس ادل على ذلك في هذا المجال ، من أقدام الشيوعيين الفلسطينيين ، الذين كانوا منضوين تحت مؤسستهم المعروفة باسم « عصبة التحرر الوطني » ، على

تغيير مؤسستهم هذه ، على نحو مستجيب للواقعين السياسي والقانوني ، اللذين حكما الضفة الغربية والشعب الفلسطيني فيها • وعليه فلقد كان لحمل الشيوعيين الفلسطينيين ، ومبادرة منهم ، اسم « الحزب الشيوعي الاردني » دلالة تتعدى الشكل الى جوهر العملية السياسية • فلقد نص البرنامج التأسيسي الاول للحزب الشيوعي الاردني على « النضال في سبيل تنفيذ قرار هيئة الامم المتحدة بتاريخ ١٩٤٧/١١/٢٩ وفي سبيل عودة المشردين الى ديارهم ومن اجل عقد صلح ديمقراطي مع اسرائيل على اساس هذا القرار ، صلح يكون في مصلحة السلم العالمي وفي مصلحة الحرية والديمقراطية لدولتي الاردن واسرائيل » (٤٢) •

وقد جاء تخلي الفلسطينيين عن حركتهم الوطنية الخاصة ، ومؤسساتهم السياسية ، تزامن مع الصعود الصارم الذي شهدته الحركه القوميه • فوجد الفلسطينيون في تياراته واحزابها الرئيسية مكانا واسعا لهم ، واتخذوا من بعضها موقع القلب ، واسهموا في بعضها اسهاما متميزا وفريدا • وكان للمركز المرموق ، وللاولوية النضاليه التي احتلتها القضية الفلسطينية في كافة الاحزاب والحركات العربية هذا ، حافز كبير على انخراط الفلسطينيين فيها ، وصقل وعيهم النضالي عبر معاركها الوطنية والقومية (٤٣) •

وهكذا ، كان طبيعيا ، ان تتكون لدى الغالبية العظمى من الفلسطينيين ، قناعة راسخة ، تعبر عن نفسها بالشعار الذي ساد طويلا « الوحدة طريق العودة » • وقد وصف احد قادة المقاومة الفلسطينية ، فيما بعد ، الحركة السياسية للفلسطينيين في تلك الحقبة ، بانها كانت قد « تفاعلت مع كل الاحداث والتطورات في الارض العربية على طول الوطن العربي ، وشاركت في كثير منها باندفاع عن اعتقاد منها انها جزء من معركتنا في فلسطين وبدرجة جعلت التزامها العربي الواسع يشغلها عن التزامها الفلسطيني المحدد • حتى اصبح كل تطور ، وتغير تصنعه العناصر النشطة في الوطن العربي محطة انتظار تقف عليها تتطلع الى الامل القادم بعدها • ولم يكن شعبنا يتردد في ان يضع كل امكانيته كافراد وكمجموع في خدمة التطورات التي غيرت من معالم الحياة في المشرق العربي ، حتى اننا وبشكل مطلق ، كنا نربط مصيرنا بمصير هذه التغيرات والاحداث وانشغلنا بها نرفع شعاراتها فوق شعارتنا •• نرفعها ونحميها على انها مراحل ضرورية على طريق التحرير » (٤٤) •

الحواشي

(١) لمزيد من التفاصيل ، انظر : **قرارات الامم المتحدة بشأن فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي ، ١٩٤٧ ـ ١٩٧٤** ، بيروت مؤسسة الدراسات الفلسطينية ، ١٩٧٥ ، ص ٤ •

(٢) محمد عزة دروزة ، **القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها** ، الجزء الثاني ، صيدا ـ بيروت ، ١٩٦٠ ، ص ١٩٢ •

(٣) **المصدر نفسه** ٠

(٤) معهد البحوث والدراسات العربية ، **الفلسطينيون في الوطن العربي** ، القاهرة ١٩٧٨ ، ص ٤٧٠ ٠

(٥) **المصدر نفسه** ٠

(٦) دروزة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢١٠ ٠

(٧) **المصدر نفسه** ، ص ٢١١ ٠

(٨) **المصدر نفسه** ٠

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٢ ٠

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٢ ، ٢١٣ ٠

(١١) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٨ ٠

(١٢) عصام سخنيني « ضم فلسطين الوسطى وشرق الاردن ١٩٤٨ ــ ١٩٥٠ » ، **شؤون فلسطينية** ، بيروت ، كانون الاول ١٩٧٤ ، ص ٦٠ ٠

(١٣) **المصدر نفسه** ٠

(١٤) عبدالله التل ، **كارثة فلسطين** ، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٩ ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ، ٣٧٧ ، ٣٧٨ ٠

(١٥) عارف العارف ، **النكبة** ، الجزء الرابع ، صيدا ١٩٥٩ ، ص ٨٧٧ ٠

(١٦) منيب الماضي وسليمان الموسى ، **تاريخ الاردن في القرن العشرين** ، عمان ١٩٥٩ ، الطبعة الاولى ، ص : ٥٣٦ ٠

(١٧) **المصدر نفسه** ٠

(١٨) **المصدر نفسه** ٠

(١٩) سخنيني ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٦٤ ٠

(٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ٦٩ و ٧٠ ٠

(٢١) **الجريدة الرسمية الاردنية** ، الاعداد ٩٧٥ ، ٩٨٤ ، ٩٨٦ ، ٩٨٧ ، ٩٨٨ ، ١٠٠١ ، ١٠٠٢ ، ١٠٠٤ ٠

(١١) الماضي والموسى ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٢٩ ٠

(٢١) **المصدر نفسه** ٠

(١٤) **مذكرات الملك عبدالله** ، عمان ، المطبعة الهاشمية ، الطبعة الخامسة ، ١٩٧٠ ، ص ٢٤٠ ٠

(١٥) الماضي والموسى ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٥٤٢ ٠

(٢٦) **قرارات اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني** ، ايار ١٩٥١ ، ص ١٧ ، ١٨ (محفوظات مركز الابحاث) ٠

(٢٧) مجلة **الجيل الجديد** ، العدد ١٩ ، ١٩٥٠/٢/١٢ ، ذكرها عصام سخنيني في **مصدر سبق ذكره** ٠

(٢٨) التل ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣٧٥ ، ٣٧٦ ٠

(٢٩) **الجيل الجديد** ، العدد ٢٣ ، ١٩٥٠/٤/٤ ٠

(٣٠) اوراق **الهيئة العربية العليا** ، بيان للشعب العربي الفلسطيني الكريم من الهيئة العربية العليا ، القاهرة ١٩٥٠ ، (٢٣ شباط ١٩٥٠) ٠

(٣١) دروزة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢١٤ ٠

(٣٢) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٥ ٠

(٣٣) **المصدر نفسه** ، ص ٢١٦ ٠

(٣٤) **المصدر نفسه** ، ص ٣٠١ ٠

(٣٥) جامعة الدول العربية (ادارة شؤون فلسطين) ، **قرارات مجلس جامعة الدول العربية الخاصة بقضية فلسطين منذ**

الدورة ١ ـ ٥٠ ، القاهرة ١٩٧٠ ، ص ٩٤ ·

(٣٦) دروزة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٣١١ ·

(٣٧) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٣ ·

(٣٨) **المصدر نفسه** ·

(٣٩) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٤ ·

(٤٠) **المصدر نفسه** ، ص ٣١٥ ·

(٤١) جامعة الدول العربية ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٩٤ ·

(٤٢) **قرارات اللجنة المركزية لعصبة التحرر الوطني في فلسطين** ، برنامج الحزب الشيوعي الاردني ، ايار ١٩٥١ ، ص ٢٣ ·

(٤٣) لمزيد من التفاصيل انظر : باسل الكبيسي ، **حركة القوميين العرب** ، دار الطليعة ، بيروت ١٩٧٤ ·

(٤٤) كمال عدوان ، « فتح : الميلاد والمسيرة » (مقابلة) ، **شؤون فلسطينية** ، كانون الثاني ١٩٧٣ ، ص ٤٦ ·

جلنار الشمس

القضية الفلسطينية في الامم المتحدة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨

شهدت القضية الفلسطينية ، منذ حرب تشرين الاول ١٩٧٣ ، تطورات مهمة على الصعيد الدولي ، تجسدت في تغيير مواقف العديد من الدول منها · ونتيجة لهذا التغيير تحولت القضية الفلسطينية من مجرد مشكلة لاجئين منسية ، قد يكون من المناسب ايجاد حل لها على هذا الاساس ، الى مسألة سياسية طرحت نفسها بقوة على المجتمع الدولي · وتمثل ذلك في عدد من القرارات التي صدرت عن الامم المتحدة ، وهيئاتها واجهزتها المختلفة ، منذ سنة ١٩٧٤ وحتى اليوم ، والتي تنم عن تغيير واضح ، نحو الاحسن ، في موقف المنظمة الدولية من حقوق الفلسطينيين ومتطلباتهم، بالمقارنة، مع ما كان عليه الوضع سابقا ·

نبذة عن القضية الفلسطينية في الامم المتحدة قبل سنة ١٩٧٤

كانت القضية الفلسطينية قد نقلت للامم المتحدة ، لاول مرة ، في ٢ نيسان ١٩٤٧ عندما طلب مندوب بريطانيا الدائم لدى المنظمة الدولية من الامين العام للامم المتحدة بالوكالة عقد دورة خاصة لبحث مستقبل الحكم في فلسطين · وبالفعل انعقدت في نيسان ١٩٤٧ الدورة الخاصة الاولى للجمعية العمومية ، وادرج على جدول اعمالها بند « قضية فلسطين » · وقد تم ادراج هذا البند على جدول الاعمال في الدورات العادية التي تبعتها، من الثانية خلال ١٩٤٧ حتى نهاية السادسة في شباط ١٩٥٢ · وتحت هذا البند ناقشت الجمعية العمومية في دوراتها العادية البنود التالية :

١٩٤٧ ـ الدورة الثانية : حكومة فلسطين المقبلة ·

١٩٤٨ ـ الدورة الثالثة : فلسطين · تقرير الوسيط الدولي عن فلسطين · وشملت مناقشة هذا البند المساعدة للاجئين العرب في فلسطين ·

١٩٤٩ ـ الدورة الثالثة : المساعدة للاجئي فلسطين ·

١٩٥٠ ـ الدورة الرابعة : فلسطين : (أ) مسألة اقامة نظام دولي للقدس وحماية الاماكن المقدسة ، تقرير خاص لمجلس الوصاية · (ب) مساعدة اللاجئين الفلسطينيين · تقرير وكالة الاونروا [وكالة الامم المتحدة لاغاثة اللاجئين الفلسطينيين في الشرق الادنى] · (ج) اعادة اللاجئين الفلسطينيين ودفع التعويضات المستحقة لهم · تنفيذ قرارات الجمعية العمومية حول هذا الموضوع · (د) تقرير لجنة التوفيق التابعة للامم المتحدة عن فلسطين ·

١٩٥١ ـ ١٩٥٢ ـ الدورة السادسة : فلسطين ، (أ) تقرير لجنة التوفيق التابعة للامم المتحدة عن فلسطين · (ب) مساعدة لاجئي فلسطين ، تقرير مدير الاونروا ولجنتها الاستشارية ·

١٩٥٢ ـ الدورة السابعة : ادرجت على جدول اعمال اللجنة السياسية الخاصة البنود الثلاثة التالية : (١) لجنة التوفيق لفلسطين وعملها في ضوء قرارات الامم المتحدة (البند رقم ٦٧) · (٢) شكوى [قدمتها اسرائيل] حول خرق الدول العربية لالتزاماتها بموجب الميثاق وقرارات الامم المتحدة واحكام اتفاقات الهدنة المعقودة مع اسرائيل والتي تلزمها بأن تمتنع عن سياسةالعداء وممارستها وان تسعى الى التوصل الى اتفاق عن اجل اقامة علاقات سلمية مع اسرائيل (البند رقم ٦٨) · (٣) تقرير مدير وكالة الاونروا (البند رقم ٢٠) ·

١٩٥٣ ـ الدورة الثامنة : يظهر بند واحد ··· تقرير مدير الاونروا عن لاجئي فلسطين (البند رقم ١٩) (١) ·

ويتضح ان « قضية فلسطين » لم تدرج فيالدورة السابعة عام ١٩٥٢ ، اذ « قدم الامين العام تريغفلي ، الذي عرف بمناصرته الشديدة لاسرائيل وللحركة الصهيونية جدول الاعمال في الموعد المحدد ، وادرج فيه البند الرقم ٢٠ بعنوان « تقرير مدير وكالة الاونروا » من دون ان يذكر بند« قضية فلسطين » ، كما تم في كل دورة سابقة · وعندها تقدمت وفود الدول العربية الاعضاء في المنظمة حينذاك بطلب ادراج مادة اضافية على جدول الاعمال وهي «لجنة التوفيق لفلسطين وعملها على ضوء قرارات الامم المتحدة » (البند رقم ٦٧) · وسرعان ما تقدم الوفد الاسرائيلي بطلب ادراج بند اضافي ، هو البند رقم ٦٨ والذي ذكر سابقا (٢) · وهكذا اختفت « قضية فلسطين » من جدول الاعمال، منذ الدورة السابعة سنة ١٩٥٢ حتى الدورةالثامنة والعشرين سنة ١٩٧٣ ، وحل محلها بند « تقرير مدير وكالة اغاثة اللاجئين العرب في فلسطين » · وكان قد اضيف بند جديد بعد العام ١٩٥٦ حول قوات الطوارىء ، وهو « تقرير الامين العام السنوي الى الجمعية العامة عن قوات الطوارىء الدولية » ، وبند آخر في ١٩٦٧ « الوضع في الشرق الاوسط » (٣) ·

وفي العام ١٩٦٩ استخدمت الجمعية العامة للمرة الاولى منذ ١٩٤٨ (القرار رقم ٢٥٣٥) عبارة « شعب فلسطين » واكدت حقوقه غير القابلة للتصرف ·

وفي العام ١٩٧٠ (القرار رقم ٢٦٢٩) اعترفت الجمعية العامة بأن احترام حقوق الفلسطينيين يعتبر عنصرا ضروريا لاقامة سلام دائم وعادل في الشرق الاوسط ، كما اعترفت بحق هذا الشعب في تقرير مصيره (القرار رقم ٢٦٤٩) · اما في سنة ١٩٧١

(القرار رقم ٢٧٨٧) فقد اعترفت الجمعية العامة بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره ، وكذلك حقه في الحرية والاستقلال واستعادة حقوقه المشروعة ، وطالبت بعودة اللاجئين (٤) · وقد مهدت هذه القرارات الطريق لطرح القضية الفلسطينية من جديد على الامم المتحدة عام ١٩٧٤ ·

اما في مجلس الامن فكان الوضع افضل ، اذ تناول النقاش هناك ، تحت بند « قضية فلسطين » ، جميع الشكاوى العربية او الاسرائيلية منذ ١٩٤٧ حتى ١٩٦٧ · ولكن هذا البند اختفى ابتداء من ايار ١٩٦٧ ، فاحتج مندوبو الدول العربية وبعض الدول الاشتراكية على ذلك ، لكن حرب حزيران جعلت قضية الادراج امرا ثانويا (٥) · وجاء قرار مجلس الامن ٢٤٢ لسنة ١٩٦٧ بعد الهزيمة متحاشيا المشكلة الرئيسية ، قضية فلسطين ، ولم يشر الى الشعب الفلسطيني ، بل تعامل مع القضية الفلسطينية كمشكلة لاجئين ·

الادراج ، الدعوة والتصويت

بعد هذه النظرة الخاطفة على قرارات الامم المتحدة ما قبل ١٩٧٤ والمتعلقة بقضية فلسطين وبالشعب الفلسطيني ، يمكننا ان نفسر اهمية عرض قضية فلسطين في تلك الاثناء على المنظمة الدولية ، خصوصا بعد حرب ١٩٧٣ التي غيرت بعض المفاهيم العربية والدولية · لم تكن الصورة التي انطبعت في الذهن العربي عن الامم المتحدة خلال ٣٠ عاما الا صورة العاجز عن تنفيذ قرارات عديدة تجاهلتها اسرائيل وضربت بها عرض الحائط ، اذ كان لا بد ان تربط القرارات بقدرة على التنفيذ · ولم تكن هذه القدرة على التنفيذ لتأتي من دول اجنبية مهما اختلفت مواقعها · الا ان حرب تشرين ١٩٧٣ اتت لتضع امام العرب حلا لهذه المشكلة ، هي القدرة العربية على التنفيذ من خلال قدرة المقاتل العربي · وعلى هذا الاساس ابتدأ العرب و م·ت·ف· هجوما سياسيا دوليا للحصول على قرارات مناسبة لنقل القضية الفلسطينية الى الامم المتحدة · ولقد تعزز هذا الاتجاه بما يلي :

١ ــ ان الامم المتحدة بعد حرب تشرين ليست هي التي كانت قائمة عام ١٩٤٧ ، عندما كانت خاضعة للنفوذ الغربي الامبريالي ، ففي ١٩٧٤ كان هناك ١٣٨ دولة عضوا في الامم المتحدة معظمها من دول العالم الثالث ·

٢ ــ كان الذهاب الى الامم المتحدة في ١٩٤٧ بديلا للنضال ، بينما اصبح ذلك سنة ١٩٧٤ احد العوامل المكملة للنضال الرئيسي ، اي الكفاح المسلح ، في اطار ثورة مسلحة

٣ ــ تغير وزن المجموعة العربية في الامم المتحدة فاصبحت تضم ٢٠ دولة ، لها وزنها الاقتصادي والسياسي · ومظهر آخر من القوة هو ان رئيس الجمعية كان آنذاك عربيا (مندوب الجزائر ، بوتفليقة) · كما ان اللغة العربية كانت لغة رسمية في الامم المتحدة · كما ان فالدهايم ، السكرتير العام للامم المتحدة ، يدين بانتخابه لدول العالم الثالث والعرب ، المؤيدين للفلسطينيين (٦) ·

٤ ــ ان حرب تشرين ١٩٧٣ ، ومشاركة الفلسطينيين فيها ، والنتائج التي ترتبت عليها ، طرحت من جديد جوهر الصراع في المنطقة ، اي القضية الفلسطينية · ففي اثناء الحرب وبعدها قطع كثير من الدول ، خاصة الافريقية ، علاقاته الدبلوماسية مع اسرائيل ·

كما ان ما بدا من تغيير موازين القوى في المنطقة لفت نظر العالم بان للشعب الفلسطيني حقوقا ثابتة ومشروعة ٠

٥ ـ كانت م٠ت٠ف٠ قد حققت ، حتى ذلك التاريخ ، عدة انجازات في عدد من المؤتمرات الدولية والعربية ، منها مؤتمر دول عدم الانحياز في الجزائر في اوائل ايلول ١٩٧٣ ، ومؤتمر القمة العربي في الرباط في اواخر تشرين الاول ١٩٧٤ ، ومؤتمر القمة الاسلامي في لاهور في اواخر شباط ١٩٧٤ ،ومؤتمر القمة الافريقي في مقاديشو في منتصف حزيران ١٩٧٤ ٠ ففي تلك المؤتمرات ، اعترف عدد لا بأس به من الدول بالحقوق الوطنية المشروعة للشعب الفلسطيني ، وبضرورة استعادتها ، بالاضافة الى الاعتراف بـ م٠ت٠ف ممثلا شرعيا وحيدا للشعب الفلسطيني (٧) ٠

٦ ـ منذ ١٩٦٩ حتى ١٩٧٣ تصاعدت القرارات المناصرة لحقوق الشعب الفلسطيني ، الصادرة عن الامم المتحدة ، تصاعدا مستمرا ، كما ذكرنا سابقا ٠

٧ ـ اتاح الذهاب الى الامم المتحدة ، في تلك الظروف ، المجال للتحرك السياسي الواسع لمنظمة التحرير الفلسطينية ، لطرح القضية في جذورها بشكل واضح واكثر عمقا مما كانت عليه سابقا ٠ كما كان باستطاعة م٠ت٠ف الحصول على التأييد والدعم العالمي والاعتراف بها كممثل وحيد للشعب الفلسطيني الذي لم يكن معترف حتى بمجرد وجوده سابقا ٠

٨ ـ لم يكن الانتصار في الامم المتحدة بديلا لتصعيد النضال على ارض الصراع ٠ فقد اعلن نبيل شعث ، رئيس الوفد الفلسطيني التحضيري للدورة التاسعة والعشرين للامم المتحدة ، بان الفلسطينيين غير قادمين للمنظمة الدولية لكي « نعقد صفقات او نوقع على تسويات او ندخل في مفاوضات ٠ نحن قادمون الى تلك المنظمة ٠٠٠ التي اخرجتنا عام ١٩٤٧ لاجئين بلا وطن ، نعود اليها لكي نؤكد ان مشكلة الشعب الفلسطيني ليست مشكلة لاجئين ، وانما هي مشكلة شعب وثورة وحركة تحرير على ارض اغتصبت» (٨) ٠

دخول م٠ت٠ف الى الامم المتحدة

بدأ « الهجوم » السياسي الفلسطيني بـ « معركة » الدخول الى المنظمة الدولية والحصول على صفة دائمة ومعترف بها هناك ٠ ولذلك كان من الضروري المرور بعدد من الخطوات الاجرائية ٠

الادراج : ادرج بند « فلسطين » ، على جدول اعمال الجمعية العامة ، في ١٣ ايلول ١٩٧٤ ، بناء على طلب الوفود العربية وعدد كبير من الدول الصديقة ، الذي بلغ عددها ٥٤ دولة ، ثم لحقتها ٩ دول معظمها من الدول الاشتراكية ٠ وقد تم ذلك بتوافق الاراء وليس بالاجماع (وصيغة التوافق) Consensvs ، تعني ان الدول التي لا تريد التصويت تعفي نفسها مشقته ، عندما تكون غير مستعدة لمنع حدوث شيء معين ليست بالضرورة موافقة عليه ولكنها لا تعارضه ايضا ٠ ولذلك لا تدل هذه الصيغة على موازين القوى ، اذ لا تظهر من من الدول مع هذا القرار او ضده) ٠ فالولايات المتحدة لم تشأ دخول المعركة مبكرا بل فضلت ان يدرج بند فلسطين في جدول الاعمال دون تصويت حتى لا يتم الفرز في تلك المرحلة ٠ اما اسرائيل فقد عارضت الادراج ، لكن رئيس دورة

الجمعية العامة آنذاك ، وزير خارجية الجزائر ، « لم يأخذ معارضة مندوب اسرائيل في الاعتبار واعلن موافقة بالتوافق » (٩) ٠

ان قرار الادراج [وقد وضع تحت بند رقم ١٠٨] قرار مهم بحد ذاته لانه يطرح قضية فلسطين ، وليس المشكلة الفلسطينية او القضية الفلسطينية حيث ان هناك [مسألة] فلسطينية ، [هنا وهناك] ، « لكن هناك قضية فلسطين واحدة » ٠ فدعوة م٠ت٠ف بعد ذلك كانت باعتبار ان الشعب الفلسطيني هو الطرف الرئيسي في قضية فلسطين وان « م٠ت٠ف ٠ هي الممثل للشعب الفلسطيني » (١٠) ٠

الدعوة : اما الخطوة التالية فقد كانت معركة صياغة قرار دعوة م٠ت٠ف٠ ولقد كان البند ١٠٨ (فلسطين) آخر بند على جدول الاعمال ، ولكن بعد الاتصال برئيس الجلسة ، بوتفليقة ، قدم البند الى واحد وحول الى الهيئة العامة ، رغم ان رقمه بقي ١٠٨ (١١) ٠ ثم جاء النقاش على مكان بحث هذا البند ٠ وهنا ايضا اصرت م٠ت٠ف٠ على ان يتم النقاش في اعلى هيئة دولية ، اي في الجمعية العامة للامم المتحدة (١٢) ، وليس في احدى اللجان الخاصة ، وهو ما تم فعلا ٠ وقد خاضت م٠ت٠ف٠ صراعا في الكواليس لاجلها ٠

وقد حاول بعض الدول العربية تأجيل الدعوة لكنهم لم يفلحوا مع اصدار م٠ت٠ف٠ كما حاولت هذه الدول حذف كلمة « the »(ال التعريف) عن الممثل للشعب الفلسطيني [كما في قرار ٢٤٢ حيث حذفت « the »] لكنهم لم يفلحوا ايضا وتمكنت م٠ت٠ف٠ من التغلب على الصعاب الناتجة عن ذلك ٠ وقد اصرت على ان يكون مشروع الدعوة موقعا من اكبر عدد ممكن من الدول لاظهار اهمية البند خلافا مع رأي بعض الدول العربية التي كانت تريده موقعا من الدول العربية فقط (١٣) ٠

وحاولت الولايات المتحدة التأجيل والتمييع والضغط على الدول وجربت كل اللعب والحيل لكنها فشلت ٠ فقد اعلن مندوب كولومبيا في خطابه في الجمعية العامة ان بلاده تؤيد القضية الفلسطينية تأييدا كاملا ، لكنها ستمتنع عن التصويت بسبب الضغوط الاميركية التي تريد ان تحول هذا المكان الى مكان رياء ونفاق وان تنتزع من الشعوب حقها في تقرير مصيرها (١٤) ٠

وقد تم التصويت على الدعوة في ١٤ تشرين الاول ١٩٧٤ ٠ وكان قد طلب من الدول الصديقة عدم الكلام ، اختصارا للوقت ، ليتم التصويت قبل انتهاء جلسة بعد ظهر ذلك اليوم ، حيث تكون كل الوفود موجودة (١٥) ٠ وفاز قرار الدعوة التالي باكثرية ساحقة اذ حصل على تأييد ١٠٥ دول ضد ٤ وامتناع ٢٠ ٠ « ان الجمعية العامة اذ ترى ان الشعب الفلسطيني هو الطرف الاساسي المعني بقضية فلسطين ، تدعو م٠ت٠ف٠ الممثلة للشعب الفلسطيني الى الاشتراك في مداولات الجمعية العامة بشأن القضية الفلسطينية في جلساتها العامة » (١٦) ٠

لقد كان هذا القرار سابقة دولية خطيرة بحد ذاته ، اذ لم يسبق لممثل منظمة ليست دولة ان تحدث في الجمعية العامة سوى الفاتيكان ، حين كان البابا بولس السادس قد القى خطابا هناك ، لكنه لم يشارك في المناقشات ولم يكن للفاتيكان وفد ولا مقعد (١٧) ٠

اما في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، فقد اقرت الجمعية العامة حقوق الشعب الفلسطيني ، قرار رقم ٣٢٣٦ ، بتأييد ٨٩ دولة وامتناع ٣٧ و ٨ ضد ، كالتالي : « تؤكد [الجمعية

العامة] من جديد حقوق الشعب الفلسطيني في فلسطين ، غير القابلة للتصرف ، وخصوصا : أ ـ الحق في تقرير مصيره دون تدخل خارجي ، ب ـ الحق في الاستقلال والسيادة الوطنيين ٠

٢ ـ وتؤكد من جديد ايضا حق الفلسطينيين ، غير القابل للتصرف ، في العودة الى ديارهم وممتلكاتهم التي شردوا منها واقتلعوا منها ، وتطالب باعادتهم ٠

٣ ـ وتشدد على ان الاحترام الكلي لحقوق الشعب الفلسطيني هذه ، غير القابلة للتصرف ، واحقاق هذه الحقوق ، امران لا غنى عنهما لحل قضية فلسطين ٠

٤ ـ وتعترف بان الشعب الفلسطيني طرف رئيسي في اقامة سلم عادل ودائم في الشرق الاوسط ٠

٥ ـ وتعترف كذلك بحق الشعب الفلسطيني في استعادة حقوقه بكل الوسائل وفقا لميثاق الامم المتحدة ومبادئها ٠

٦ ـ وتناشد جميع الدول والمنظمات الدولية ان تدعم الشعب الفلسطيني في كفاحه لاسترداد حقوقه ، وفقا للميثاق ٠٠٠

٩ ـ وتقرر ان يدرج البند المعنون « قضية فلسطين » في جدول الاعمال المؤقت لدورتها الثلاثين » ٠

ثم منحت م٠ت٠ف مركز مراقب في النهار ذاته ، بقرار رقم ٣٢٣٧ ، بتأييد ٩٥ دولة وامتناع ١٩ ووقوف ١٧ دولة ضده ٠ « ١ ـ تدعو م٠ت٠ف الى الاشتراك في دورات الجمعية العامة وفي اعمالها بصفة مراقب ٠ ٢ ـ وتدعو منظمة التحرير الفلسطينية الى الاشتراك في دورات كل المؤتمرات الدولية التي تعقد برعاية الجمعية العامة وفي اعمالها بصفة مراقب ٠ ٣ ـ وتعتبر ان من حق م٠ت٠ف٠ الاشتراك بصفة مراقب في دورات وفي اعمال كل المؤتمرات الدولية التي تعقد برعاية هيئات الامم المتحدة الاخرى » (١٨) ٠

لقد رافق هذه القرارات ذهاب الاخ ياسر عرفات ، رئيس اللجنة التنفيذية لـ م٠ت٠ف٠ الى الامم المتحدة في ١٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ حيث القى خطابا حدد فيه معالم السياسة الفلسطينية ٠ وكانت هذه المرة الاولى التي يقف فيها ممثل لثورة مسلحة على منبر اعلى هيئة دولية ليسمع صوته للعالم ٠

لقد كانت هذه الخطوة التاريخية مقدمة لخطوات اخرى ٠

اليونسكو واسرائيل

كان هناك مشروعان اتفقت الدول العربية على طرحهما لضمان دخول منظمة التحرير الفلسطينية اليونسكو بعد دخولها الامم المتحدة ٠ الاول هو قبول م٠ت٠ف٠ عضوا في اليونسكو والثاني فرض عقوبات على اسرائيل لاصرارها على تغيير الطابع التاريخي لمدينة القدس ٠ وقد عقد المؤتمر الثامن عشر لليونسكو في باريس في اوائل تشرين الثاني ١٩٧٤ ٠

بالنسبة للمشروع الاول ـ اي قبول م٠ت٠ف٠ في اليونسكو ـ لم تكن هذه المعركة حادة

لان ما تم في الامم المتحدة قد مهد الجو لذلك • فقبل طرح مشروع قبول م٠ت٠ف٠ طلبت اسرائيل تأجيل البحث • لكن رئيسة المؤتمر ، تمشيا مع اصول ادارة الجلسات ، طلبت ان يثني على هذا الطلب عضو آخر ، لم ترتفع يد اي مندوب من المئة والثلاثين ممثلا مما دل على مدى عزلة اسرائيل (١٩) • وقد وافقت الجمعية العمومية لليونسكو على قبول م٠ت٠ف٠ عضوا مراقبا باكثرية ٨٦ صوتا ضد صوتين وامتناع ١٧ دولة عن التصويت (٢٠) •

وفي اليوم التالي جاءت ردة فعل الصهيونيين ، فقامت جماعة منهم باقتحام مقر الوفود والقت بالطلاء الاحمر على الارض ، ولطخت ثياب الحراس ، وكتبت على الجدران عبارات مهينة لليونسكو •

اما مشروع القرار الآخر ، فتقدمت به مجموعة الدول العربية والاسلامية والافريقية والاشتراكية الى اللجنة الثالثة المختصة بالثقافة والعلوم الانسانية ، ويطالب بادانة اسرائيل لاصرارها على تغيير الطابع التاريخي لمدينة القدس واستمرارها في اعمال التنقيب معرضة التراث الثقافي للخطر • كما نص مشروع القرار على مطالبة المدير العام لليونسكو بعدم تقديم اية مساعدة لاسرائيل في المجالات التربوية والعلمية والثقافية حتى تحترم قرارات المنظمة الدولية • وقد اقر مشروع القرار هذا ، في ٢٠ تشرين الثاني ١٦٧٤ ، باكثرية ٦٤ صوتا ضد ٢٧ وامتناع ٢٦ (٢١) •

واثناء البحث ، حاول ممثل داهومي تأجيل الجلسة ،كما حاول مندوب كوستاريكا تعديل القرار لكنهما باءا بالفشل امام اصرار الدول العربية وتصديها ، فما كان للمندوب الاميركي الا ان هاجم القرار ووصفه بانه خطير جدا ، لانه « لا يستهدف الحفاظ على التراث الثقافي في القدس ، بل معاقبة دولة عضو في المنظمة ، وان للقرار خلفيات سياسية » • اما بالنسبة لاسرائيل فقد رفض مجلس بلدية القدس الادانة لانها ظالمة ولا اساس لها » (٢٢)

وفي اليوم التالي ، ٢١ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، رفضت الجمعية العامة لليونسكو طلب اسرائيل بانضمامها للمنظمة الاوروبية باغلبية ٤٨ صوتا ضد ٣٣ وامتناع ٣١ • ولذلك لم تتمكن اسرائيل من الاشتراك في اي من نشاطات المنظمة الاقليمية ، اذ لم تعرف لجنة اليونسكو الخاصة بتوزيع الدول على مناطق معينة في العالم (وهو النظام الاداري المعمول به في اليونسكو) كيف تتعامل مع اسرائيل والى اية مجموعة تضمها •

وفي ٢٣ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، اتخذت اليونسكو قرارا آخر موجهة نداء عاجلا الى اسرائيل بعدم منع سكان المناطق العربية المحتلة من التمتع بحقهم في التعليم والثقافة الوطنية •

وقد اثارت تلك القرارات ردود فعل عنيفة للغاية على مستويات عدة منها : السياسية والثقافية ، والفكرية ، وفي اماكن مختلفة في العالم • فقد اعتبرت اسرائيل والولايات المتحدة والدول الاوروبية هذا القرار بمثابة طرد اسرائيل التي هددت بدورها بايقاف التعامل مع اليونسكو نتيجة « لتحيزها » وللخلفيات السياسية التي تتحكم في مواقفها ، في حين كان المفروض ان تكون منبرا للعلم والثقافة فقط • لذلك هدد المندوب الاميركي بالانسحاب • وبالاضافة الى ذلك ، قامت صحف تلك الدول بحملة اعلامية واسعة ضد اليونسكو والدول العربية ، كما امتنع مئات من رجال الفكر والثقافة والفن الاوروبيين من

التعامل مع المنظمة الدولية » الى ان تثبت اخلاصها لاهدافها وعدم انحيازها » · واستكمالا لهذه المواقف ، بدأت ايضا الضغوط المضادة · فقد امتنعت الولايات المتحدة ، وهي التي كانت تدفع ٢٥٪ من الموازنة العامة لليونسكو ، عن دفع ١٦ مليون دولار للمنظمة احتجاجا على تلك القرارات · كما خفضت كل من فرنسا وسويسرا مساعداتها ، مما جعل اليونسكو تواجه ضيقا ماليا · كذلك عقد مؤتمر في باريس تحت شعار « عودة اليونسكو الى العالمية » ، واتهمت فيه المنظمة بالتحيز ، وكان العرب غائبين عنه ·

بعد هذه الحملة المعارضة من العالم الغربي واسرائيل ، راحت اليونسكو ، كما يبدو تعيد النظر في مواقفها السابقة ، فارسلت وفدا لزيارة اسرائيل (٢٣) ، ودعتها لحضور مؤتمر اوروبي كعضو مراقب · ودعيت اليه ايضا م·ت·ف· وهكذا ظلت اسرائيل حتى اليوم عضوا باليونسكو دون انتمائها لاي اقليم ·

محاولة طرد اسرائيل من الامم المتحدة سنة ١٩٧٥

هذا المشروع هو جزء من المعركة السياسية بين العرب وأسرائيل التي احتدت منذ عام ١٩٧٤ ، كما ذكرنا سابقا ، عند دخول م·ت·ف· الامم المتحدة وحصولها على صفة مراقب والاعتراف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · ولم تكن مسألة طرد اسرائيل فكرة جديدة او وليدة الساعة ، اذ كان المندوبون العرب يطالبون بذلك دائمـا ويندون باسرائيل لعدم استجابتها لقرارات الامم المتحدة او تنفيذها ·

كان اول من طرح هذه الفكرة اللجنة التحضيرية لمؤتمر عدم الانحياز ، المنعقده في هافانا ، في اوائل نيسان ١٩٧٥ ، والتي تضم ١٧ دولة · ثم تبناها ، بالاجماع ، مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في جده ، المنعقد في منتصف تموز ١٩٧٥ ، الذي ضم ٤٠ بلدا او ٦٠٠ مليون نسمة ، من المغرب الى اندونيسيا · كما ايد هذا المطلب ايضا مؤتمر دول عدم الانحياز ، المنعقد في ليما في اواخر آب ١٩٧٥ ، ومؤتمر منظمة الوحدة الافريقية ، المنعقد في كمبالا ، في اواخر تموز ١٩٧٥ ، الذي طالب بتعليق عضوية اسرائيل في الامم المتحدة ، كما جرى مع جنوب افريقيا ·

وقد ساعد على طرح هذه الفكرة سنة ١٩٧٥ استمرار اسرائيل في انتهاج سياستها العدوانية المتصلبة ، وذلك بتأكيد عدم انسحابها من الاراضي المحتلة واصرارها على اغتصاب حقوق الشعب الفلسطيني ورفضها لقرارات الامم المتحدة وعدم التزامها بها ، مما يشكل انتهاكا واضحا لميثاق الامم المتحدة وخرقا لقراراتها · ولذلك طرح الرأي القائل ان الابقاء على عضوية اسرائيل في الامم المتحدة يتنافى مع مبادىء تلك المنظمة وميثاقها، ويشجع التمرد على قرارات المنظمة الدولية · ومن ناحية ثانية ، قد يؤدي طرد اسرائيل من الامم المتحدة الى نتائج عدة ،منها عزل الكيان الصهيوني دوليا ، وتعزيز موقع م·ت·ف في المنظمة الدولية والعالم باعتبارها الممثل الوحيد للشعب الفلسطيني ، وتأكيد شرعية كفاح الشعب الفلسطيني لاستعادة حقوقه · كما قد يفيد ذلك تعبيرا عن الارادة الدولية التي دعمت وساندت نضال الشعب الفلسطيني ، وافشالا لمحاولات التسوية الاميركية ومخططاتها في المنطقة ، وتعزيزا لقرار العالم الثالث في الجمعية العامة على اتخاذ القرارات والتعبير عن ارادته ·

ولعله من الجدير بالذكر هنا انه يتوجب على اسرائيل اكثر من اي دولة اخرى ،

مراعاة قرارات الامم المتحدة ، لان الكيان الصهيوني ينفرد بعضوية مشروطة · فالامم المتحدة هي التي خلقت هذا الكيان على اساس العضوية غير الاصلية · وكانت اسرائيل قد طالبت ، لاول مرة ، بالانضمام الى المنظمة الدولية سنة ١٩٤٩ · الا ان لجنة التوفيق الدوليه ، المؤلفة من مندوبي اميركا ، فرنسا وتركيا ، اشترطت ذلك (بروتوكول لوزان ، ١٢ ايار ١٩٤٩) بتعهد اسرائيل للعمل على تنفيذ قرارات الامم المتحدة بما فيها قرار التقسيم عام ١٩٤٧ ، وكذلك تسهيل عودة اللاجئين والتعويض على من لا يريد العودة ، وتدويل مدينة القدس · وعليه قبلت اسرائيل عضوا في الامم المتحدة بموجب القرار رقم ٢٧٣ ، في ١١ ايار ١٩٤٩ ، قبولا مشروطا مقيدا وصريحا (٢٤) ·

ان هذا القبول لاسرائيل في الامم المتحدة هو ذاته اساس طردها ، اذا اراد المجتمع الدولي ان يلتزم ويحترم ميثاق الامم المتحدة · لكننا عندما نستعرض ردود الفعل العنيفة والهستيرية التي صدرت عن بعض الدول المؤيدة لاسرائيل ، نرى ان مواقف تلك الدول لا تتجانس بالضرورة مع الاعراف الدولية ، وتتصرف بمعزل عن مصالح المجتمع الدولي ككل · فردود الفعل الاميركية ، مثلا ، كانت عنيفة وصلفة ، اذ ابدت الولايات المتحدة تحسبها وتخوفها من طرد اسرائيل في الامم المتحدة ، بعدما طردت من اليونسكو ، ثم هددت بالعقاب وبالانسحاب من المنظمة العالمية ، وحذرت الدول العربية والاتحاد السوفيتي ، كما هددت دول العالم الثالث باعادة النظر في المعونة المالية التي تقدمها للمنظمة الدولية اذا استمرت هذه الدول في استعمال الهيئة العامة مكانا للمواجهة · حتى ان كيسنجر توصل، برده العنيف والهستيري ، الى حد شتم دول العالم الثالث ، بينما هدد مجلس الشيوخ الاميركي باعادة النظر في جميع الاتفاقات المعقودة مع هذه الدول (٢٥) · اما بالنسبة للدول الاوروبية ، فقد وقفت بريطانيا والمانيا الغربية وفرنسا الى جانب عدم التصويت ضد تعطيل عضوية اسرائيل ، بينما عارضت دول السوق الاوروبية المشتركة تماما الطرد (٢٦) · اما ردة فعل اسرائيل فكانت هجوما عنيفا على ذلك المطلب ، فاطلقت الاوصاف والتسميات غير الحميدة على طريقة التصويت ، وهددت بوقف نشاطات الامم المتحدة داخلها ، بعدم حضور مؤتمر جنيف ، وبالغاء تواجد قوات الامم المتحدة ووقف نشاط وكالة الغوث في « اراضيها » · بل ان بعض الدوائر الاسرائيلية وصلت الى حد التهديد بالحرب (٢٧) ·

اما الموقف المفاجيء فقد كان موقف مصر ، فمنذ البداية لم تؤيد مسألة الطرد تأييدا واضحا ، ثم وقفت ضد استجابة لطلب اميركا · واخذ السادات يضغط على بعض الدول لعدم التصويت مع قرار الطرد (٢٨) · وقد اثر هذا على وجود التأييد الكافي والظروف المناسبة لطرح هذه المسالة · ونتيجة لذلك تخلى العرب عن مشروع قرار طرد اسرائيل من الامم المتحدة ، وقبلت الجمعية العامة ، في ١ تشرين الاول ١٩٧٥ ، اوراق اعتماد مندوبي كل الدول الاعضاء بما فيها اسرائيل » (٢٩) ·

لجنة ممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف

اتخذت الجمعية العامة في ١٠ تشرين الاول ١٩٧٥ القرار ، رقم ٣٣٧٦ ، باكثرية ٩٣ دولة ضد ١٨ ، وامتناع ٢٧ عن التصويت ، بتشكيل لجنة معينة بممارسة الشعب الفلسطيني لحقوقه غير القابلة للتصرف ، تتكون من ٢٠ دولة عضوا تعينهم الجمعية (ثم اضيف اليها ٣ اعضاء جدد في ٢٢ كانون الثاني ١٩٧٦) · وقامت اللجنة باجراء دراسات وتقديم توصيات ببرنامج عمل يستهدف تمكين الشعب الفلسطيني من ممارسة حقوقه المعترف بها ، والتي تشمل حق تقرير المصير من دون تدخل خارجي ، وحق الاستقلال والسيادة الوطنية ،

وحق العودة الى دياره وممتلكاته · كما خولت اللجنة صلاحية اجراء اتصالات مع اية دولة او منظمة اقليمية ومع م·ت·ف· لتلقي ودراسة الاقتراحات التي ترد اليها في هذا الصدد من تلك الاطراف (٣٠) · وقد وضعت هذه اللجنة ، برئاسة سفير السنغال في الامم المتحدة، توصيات حول حقوق الشعب الفلسطيني قدمت الى مجلس الامن الدولي الذي بدأ مناقشاته حول هذا الموضوع في ٩ حزيران ١٩٧٦ · وجاء في توصيات اللجنة « ان مشكلة فلسطين هي قلب مشكلة الشرق الاوسط ··· ولا يمكن تصور اي حل لا يضع في كامل اعتباره التطلعات المشروعة للشعب الفلسطيني ··· [وان] مشاركة م·ت·ف· بوصفها ممثل الشعب الفلسطيني ، وعلى نحو متساو مع سائر الاطراف ، هي امر لا غنى عنه في جميع المداولات والمؤتمرات المنعقدة تحت اشراف الامم المتحدة · كما احتوت التوصيات الواردة في تقرير اللجنة على خطة من مرحلتين لعودة الفلسطينيين ، وعلى جدول زمني لانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي المحتلة في موعد غايته ١ حزيران ١٩٧٧ ، فضلا عن تاكيدها حق الفلسطينيين الاساسي في تقرير المصير وفي الاستقلال والسيادة الوطنيين» (٣١)· كذلك طالبت اللجنة اسرائيل بعدم اقامة مستوطنات جديدة ،وبالانسحاب قبل ١ حزيران ١٩٧٧ من المستوطنات التي اقيمت منذ ١٩٦٧ فيالاراضي المحتلة ، وان تلتزم باتفاقية جنيف لعام ١٩٤٩ المتعلقة بحماية الاشخاص المدنيين وقت الحرب ، وذلك من اجل تحقيق التوصيات التي ذكرت اعلاه (٣٢) ·

وخلال مناقشات مجلس الامن ايد العديد من الدول توصيات اللجنة ورحبوا بها ، واعتبروها الخطوة الايجابية الاولى نحو احقاق الحقوق الفلسطينية ، وحثوا على اقرارها · الا ان دولا اخرى اعربت عن رأيها بأنه لا يمكن ايجاد حل لمشكلة الشرق الاوسط ، الا في اطار تسوية شاملة ، تأخذ في الاعتبار حقوق جميع الدول في المنطقة ، على نحو ما جاء في قراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ · « واعلنت كلا من فرنسا وايطاليا والسويد واليابان ان التوصيات لم تضع في اعتبارها العنصر [الآخر] الذي يساويها في الاهمية ، وهو حق جميع الدول في المنطقة ، بما في ذلك اسرائيل ، في ان تعيش داخل حدود آمنة ومضمونة ومعترف بها » (٣٣) ·

الا ان هذه التوصيات رفضت من قبل مجلس الامن ، بسبب الفيتو الاميركي ، مما استلزم عرضها على الجمعية العامة في ١٥ تشرين الثاني ١٩٧٦ لمناقشتها (٣٤) · وعللت الولايات المتحدة تصويتها بان مشروع القرار لم يتسم بالتوازن · ولكن اللجنة اعتبرت «ان تلك الانتقادات قامت على اساس اعتبارات خارجة عن صلاحية اللجنة ·· التي [لم يطلب منها ايجاد]حل لمشكلة الشرق الاوسط ، ولا التأكيد من جديد على حقوق اسرائيل، بل كانت محصورة [فقط] في رسم الطرق والوسائل التي تضمن الاعتراف » بحقوق الشعب الفلسطيني غير القابلة للتصرف (٣٥) ·

وبعد عرض التوصيات على الجمعية العامة ، اتخذت قرارا (رقم ٣١/٢٠/) في ٢٤ تشرين الاول ١٩٧٦ باغلبية ٩٠ صوتا ضد ١٦ ، وامتناع ٣٠ ، ينص على انه لا حل عادل للصراع العربي ـ الاسرائيلي ، دون اقرار الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني بما فيها حق العودة ، والاستقلال والسيادة الوطنية في فلسطين · واعتبرت الجمعية العامة التوصيات الموجودة في التقرير اساسا لحل القضية الفلسطينية ، وحثت المجتمعين على اخذ الخطوات اللازمة لذلك ، ومنح التسهيلات الضرورية للجنة ·

وفي تقريرها لسنة ١٩٧٧ الى الجمعية العامة صادقت اللجنة بالاجماع على توصياتها

السابقة ، وذكرت ان هنالك حاجة لجهود مكثفة من اجل تنفيذ توصياتها بالحد الادنى من التأخير · كما اكدت اللجنة على ان الموعد الذي اقترحته ، وهو اول حزيران ١٩٧٧ ، لانسحاب القوات الاسرائيلية من الاراضي التي احتلها في ١٩٦٧ لا بد من المحافظة عليه ، رغما « عن انه مر فعلا وذلك لاهميته الرمزية » · اما بالنسبة للتطورات داخل الاراضي المحتلة ، فقد اعرب التقرير عن القلق العميق ازاء الاجراءات التي اتخذتها اسرائيل ، وعن استنكارها القوي لتلك الاجراءات التي تمثل انتهاكا لاتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين اثناء الحرب (٣٦) ·

وفي ٢٧ تشرين الثاني ١٩٧٧ استأنف مجلس الامن النظر في توصيات اللجنة ، فأكد المتكلمون كلهم ، مجددا ، ان السلم العادل الدائم في الشرق الاوسط يتطلب بالذات حلا عادلا للمشكلة الفلسطينية ، على اساس التوصل للحقوق التي لا يمكن التنازل عنها للشعب الفلسطيني· وأجل المجلس مداولاته الى وقت يتم الاعلان عنه بعد المشاورات (٣٧)·

وقد عادت الجمعية العامة لتنظر في « مشكلة فلسطين » في شهري تشرين الثاني وكانون الاول ١٩٧٧ واتخذت عدة قرارات بشأنها ، معربة عن رضاها عن الاراء التي سرحت في مجلس الامن · وفي٢ كانون الاول ١٩٧٧ صادقت الجمعية العامة، باغلبية ١٠٠ صوت ومعارضة ١٢ صوتا مع امتناع ٢٩ عضوا عن التصويت ، على التوصيات السابقة للجنة ، وحثت مجلس الامن على ان يعمل وفقها ·« وقد صادقت الجمعية على قرار آخر بانشاء وحدة خاصة للحقوق الفلسطينية في اطار الامانة العامة للامم المتحدة » ، وطالبتها باعداد دراسات ومنشورات حول حقوق الفلسطينيين بارشاد من اللجنة الحقوقية، وكذلك طلب من الوحدة اعتبار يوم ٢٩ تشرين الثاني من كل عام « اليوم الدولي للتضامن مع الشعب الفلسطيني » (٣٨) ·

وقد عارضت اسرائيل انشاء الوحدة الخاصة المقترحة في اطار الامانة العامة ، لانها ستعكس سياسة م·ت·ف· ، معلنة عن استعدادها للدخول في مفاوضات فورية مع جميع جيرانها للتوصل الى سلم عادل ودائم ·

وفي ١٠ كانون الثاني ١٩٧٨ اجتمعت اللجنة وبعثت برسائل الى كل من الامين العام ورئيس مجلس الامن ودورة الجمعية العامة لسنة ١٩٧٧ وممثلي اسرائيل والاردن وسوريا ومصر ولبنان والاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، تؤكد فيها التوصيات السابقة ، والمبادىء الاساسية المتعلقة بممارسة حقوق الفلسطينيين · كما ارسل رئيس اللجنة برقية الى ياسر عرفات ، رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية ، اعرب فيها « عن تضامن اللجنة مع ··· المنظمة ، [معلنا] ان اي حل لمشكلة الشرق الاوسط لا بد وان يكون شاملا ، وانه لا يمكنقبولايحلجزئي » · وفي ٢٢ شباط اقرت اللجنة برنامج عملها لعام ١٩٧٨ ، الذي اشتمل على دراسات اساسية وافلام ونشرات حول الاحداث الجارية ذات الصلة بالقضية الفلسطينية ، مع اعداد خطط للاحتفال بيوم ٢٩ تشرين الثاني من كل عام باعتباره يوما للتضامن مع الشعب الفلسطيني (٣٩) ·

وعملا من الامم المتحدة بتنفيذ قرارها ، فقد احتفلت يوم ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٨ باليوم العالمي للتضامن مع الشعب الفلسطيني ومع نضاله العادل من اجل استعادة حقوقه الثابتة والمشروعة ، واقامة دولته الوطنية المستقلة على ارضه ، وفقا للقرارات الدولية · وقد اقيم احتفال ومعرض في هذه المناسبة فيالمقر العام للامم المتحدة في نيويورك ومقر المنظمة في جنيف · كما عرض فيلم وثائقي عن الشعب اللفلسطيني في نيويورك وجنيف

في آن معا · كذلك احتفلت جميع مكاتب الامم المتحدة بهذا اليوم · وشهدت كافة عواصم العالم مهرجانات خطابية وندوات سياسية ومعارض وافلاما تتناول القضية الفلسطينية ومراحل تطور نضال الشعب الفلسطيني · وقد ناشد رؤساء الدول العربية والدول الاسلامية والدول الاشتراكية والامم المتحدة والمجتمع الدولي بضرورة دعم نضال الشعب الفلسطيني العادل واقامة دولته المستقلة (٤٠) ·

ويذكر ان الولايات المتحدة قاطعت الاحتفالات واحتجت لدى فالدهايم ، وطالبت بوقف نشاطات لجنة حقوق الشعب الفلسطيني · كذلك احتج المندوب الاسرائيلي بشدة على هذه الاحتفالات ·

الصهيونية عنصرية

في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٥ اصدرت الجمعية العامة للامم المتحدة في دورتها الثلاثين القرار رقم ٣٣٧٩ ، بتأييد ٧٢ دولة ومعارضة ٣٥ وامتناع ٣٢ دولة عن التصويت ، نص – من بين ما نص عليه على « ان الصهيونية شكل من اشكال العنصرية والتمييز العنصري » (٤١) ·

جاء هذا القرار ، ولاول مرة منذ انشاء دولة اسرائيل ، مؤلما للغاية للكيان الصهيوني · فادانة الصهيونية تعني ادانة اسرائيل (وهي الدولة الصهيونية) والركائز والاسس التي تقوم عليها · ان هذا القرار مهم لانه يفضح ، وعلى مستوى عالمي ، طبيعة الصهيونية بانها عنصرية ، مما يجعل مجابهتها واجبا دوليا وانسانيا ·

اما ردود الفعل على هذا القرار فاتت ، كما كان متوقعا بالنسبة لكل قرار مؤيد للعرب، عنيفة وهستيرية · فقد جرت تظاهرة صهيونية خارج مبنى الامم المتحدة ، وعقد في نيويورك « اسبوع الصهيونية » لاعطاء دروس خاصة في فلسفة الصهيونية وتاريخها · « وطالبت غولده مئير يهود العالم بوضع دبوس على ستراتهم كتب عليه « انا صهيوني » وذلك تحديا للقرار · واعادت بلدية القدس تسمية شارع الامم المتحدة باسم شارع الصهيونية » (٤٢) · وقد قضت الحركة الصهيونية شهري تشرين الاول وتشرين الثاني ١٩٧٥ في دوامة ، لا تعرف كيف تتصرف لان الضربة كانت اقوى مما تتحمل ، رغم انها اطمأنت الى عدم صدور قرار طردها من الامم المتحدة ، وفي اطار الحملة المعادية لقرار ادانة الصهيونية ، ابدى حاييم هرتسوغ مندوب اسرائيل في الامم المتحدة تعجبه « كيف تصفوننا بالعنصرية ونحن ضحايا الفاشية » · اما كيسنجر فقد صرح بأن « هذا امر لن يمر دون عقاب » (٤٣) · كما اعلن المندوب البريطاني في السوق الاوروبية المشتركة ، بان السوق ستمتنع عن تقديم المال اللازم لعقد مؤتمر محاربة العنصرية عام ١٩٧٨ · كذلك قطعت فرنسا مساعدتها (٥ ملايين فرنك) للامم المتحدة احتجاجا على القرار واعلنت انها ستعيدها اذا عبرت الامم المتحدة عن حسن نية (٤٤) · وحتى الامين العام ، فالدهايم ، عبر عن اسفه الشديد ، فانضم هو ورئيس الجمعية العمومية الى فريق المحتجين · اما موسكو والعواصم العربية فرحبت بالقرار ، كما ايدته الدول الاشتراكية ودول العالم الثالث ·

فلسطين في مجلس الامن

بناء على طلب لبنان ومصر عقد مجلس الامن في تشرين الثاني ١٩٧٥ اجتماعا لبحث الغارات الاسرائيلية على مخيمات الفلسطينيين في لبنان ، ولاتخاذ اجراءات رادعة ضد اسرائيل ، وقد أصرت مصر على اشتراك م·ت·ف في مناقشات المجلس الامن ، بينما هددت سوريا بأنها لن تجدد للقوات الدولية في الجولان اذا لم يعقد المجلس جلسة لمناقشة مشكلة الشرق الاوسط باشتراك م·ت·ف · وقد وافق مجلس الامن ، في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٥، على اشتراك م·ت·ف في مناقشاته حول الاعتداءات الجوية ، متخطيا المعارضة الاميركية ، وذلك بقرار اجرائي ، نص على ان يجتمع المجلس « في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦ لمواصلة المناقشة حول مشكلة الشرق الاوسط بما فيها المسألة الفلسطينية ، اخذا بعين الاعتبار جميع قرارات الامم المتحدة المتعلقة بهذا الصدد ، [وعلى] تجديد انتداب قوة مراقبي فك الارتباط لفترة ٦ اشهر اخرى » · وادلى رئيس مجلس الامن ، جاكوب ماليك السوفيتي، ببيان اوضح فيه « انه لمفهوم لغالبية مجلس الامن انه عندما يجتمع المجلس ، في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦ ، بموجب الفقرة الاولى من قراره ··· سيدعى ممثلون عن م·ت·ف · للاشتراك في المناقشة » (٤٥) · وهكذا تمت دعوة م·ت·ف· الى مجلس الامن بينما قررت اسرائيل مقاطعة اية جلسة للمجلس تحضرها م·ت·ف· وفي ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦ بدأت المناقشة حول الشرق الاوسط بحضور وفد م·ت·ف · الذي يرأسه فاروق القدومي ، رئيس الدائرة السياسية للمنظمة ·

يعتبر هذا القرار مهما لانه يشكل نوعا من الهزيمة للولايات المتحدة التي كانت تصر على ان يسمح للمنظمة بالادلاء ببيان فقط ثم الانسحاب من القاعة ، من دون الاشتراك في المناقشة ، وهزيمة سياسية لاسرائيل أيضا ، وانتصارا ديلوماسيا للقضية العربية ·

وكان مجلس الامن قد انعقد عدة مرات أيضا ، خلال سنة ١٩٧٦ ، للبحث في قضايا متعلقة بالشعب الفلسطيني وقضيته ، وقد استعملت الولايات المتحدة ٣ مرات خلال ذلك العام ، حق الفيتو ضد قرارات تناصر الشعب الفلسطيني وتدين اسرائيل · وبعد جلسة المجلس في ١٢ كانون الثاني ١٩٧٦ بحضور م·ت·ف· وغياب اسرائيل ، عقدت تسعة اجتماعات اخرى ، تعاقب على الكلام فيها ٤٠ خطيبا · وفي مساء ٢٦ كانون الثاني ١٩٧٦ قدمت الباكستان ، باسم دول عدم الانحياز ، مشروع قرار بشأن مشكلة الشرق الاوسط وقضية فلسطين ، نص على ضرورة الاعتراف بحق الشعب الفلسطيني في تقرير مصيره واقامة دولته وحقه في العودة او التعويض لمن لا يريد ذلك · كذلك طالب مشروع القرار اسرائيل بالانسحاب من الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ ، ودعا الى ضمان سلامة وسيادة دول المنطقة داخل حدود آمنة · وقد نال المشروع تأييد ٩ دول وامتناع ٣ عن التصويت مع تغيب الصين وليبيا · اما الولايات المتحدة فوقفت وحدها ضد القرار مستخدمة «حق الفيتو» مانعة مجلس الامن من أن يتبنى للمرة الاولى قرارا يؤكد حق الشعب الفلسطيني في انشاء دولته المستقلة (٤٦) ·

وكان قد سبق التصويت محاولة من بريطانيا لتعديل مشروع القرار باضافة فقرة تؤكد القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ ، الا ان هذا التعديل رفض رغم تأييد فرنسا وايطاليا واسوج له · لكن فرنسا عادت وايدت مشروع دول عدم الانحياز ·

وكانت المواقف وردود الفعل العربية والعالمية ، الناجمة عن ذلك المشروع ، مختلفة للغاية · فعلى الصعيد العربي ، مثلا ، طالبت سوريا بانسحاب اسرائيل خلال ٦ اشهر ،

وتعديل قرار ٢٤٢ ، لانه لا افضلية لهذا القرار على غيره من القرارات السابقة ، وبان الحل ينبغي ان يكون على اساس كل قرارات الامم المتحدة · كما قدمت سوريا ورقة عمل باتفاق عربي تطالب فيها انسحاب اسرائيل والاعتراف بحقوق الفلسطينيين ووضع برنامج لتحقيق السلام · اما مصر فقد طالبت بعقد مؤتمر جنيف ، في اسرع وقت ، بحضور الفلسطينيين ، وكتبت « الاهرام » ان الرئيس انور السادات يعتبر انه ليس من الضروري اجراء تعديل للقرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ · اما الفلسطينيون فقد اصروا على التعديل وطالبوا بالانسحاب وبحق تقرير المصير والعودة وانشاء الدولة المستقلة · وهكذا ظهر الصراع واضحا بين خطين عربيين : خط تمثله مصر ، يريد ان يتفادى الفيتو الاميركي ، وخط آخر تمثله سوريا و م·ت·ف لا يأبه بذلك · ولكن الوفود العربية توصلت في النهاية الى مشروع قرار معدل ، قدمته دول عدم الانحياز ·

اما فيما يتعلق بالاوروبيين فقد اتخذت فرنسا الموقف الاكثر وضوحا ازاء القضية الفلسطينية بالمقارنة مع مواقف الدول الاوروبية الاخرى ، داعية الى الاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني ، والانسحاب الاسرائيلي من الاراضي العربية المحتلة سنة ١٩٦٧ ، مؤكدة على حق كل دول المنطقة ، بما فيها اسرائيل ، في الوجود داخل حدود معترف بها ومضمونة وآمنة · وقد كانت المواقف الاوروبية بمجملها ، عمليا ، اقرب الى تأييد القضية الفلسطينية ، وشكلت خروجا على الموقف الاميركي المتزمت الذي اصر على ان للفلسطينيين « مصالح مشروعة » فقط · فاسوج طالبت ، مثلا باشراك الفلسطينيين في المناقشات الدولية ، واعترفت « ان لعرب فلسطين مصالح وحقوقا وطنية وشرعية » · أما بريطانيا فقد ايدت حقوق الفلسطينيين ، مع التأكيد على القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ (٤٨) · وقد بررت اميركا موقفها المعارض بأن مشروع القرار ، لو قبل ، كان سيغير الهيكل ، المقر آنذاك ، لجهود السلام في الشرق الاوسط ، اي مؤتمر جنيف ·

وفي ٢٢ اذار ١٩٧٦ بدأ مجلس الامن مناقشاته حول القضية الفلسطينية ومشكلة الشرق الاوسط (للمرة الثانية في تلك السنة) أثر انتفاضة الارض المحتلة ، بطلب من ليبيا والباكستان · وقد اشتركت ، هذه المرة ، م·ت·ف · واسرائيل في المناقشات ، وجلس مندوبيهما وجها لوجه ، رغم احتجاج مندوب الولايات المتحدة على دعوة منظمة التحرير · واثناء النقاش ، تقدمت دول عدم الانحياز بمشروع قرار للمجلس يدين اعمال القمع الاسرائيلي . في حين انتقد المندوب الاميركي الاجراءات الاسرائيلية في الارض المحتلة ، وضم مدينة القدس واقامة المستوطنات ، مما اثار قلقا في تل ابيب ·

وقد اجريت تعديلات عدة على مشروع القرار الداعي الى ادانة اسرائيل بسبب اعمال العنف التي تمارسها ضد المواطنين العرب في الاراضي المحتلة ، وذلك من اجل تجنب الفيتو الاميركي · وجاء في نص المشروع المعدل ان مجلس الامن « يعبر عن أسفه » لان « اسرائيل لم تضع حدا للاجراءات والسياسات الرامية الى تغيير وضع مدينة القدس · ولم تلغ ايضا الاجراءات التي اتخذت في هذا الشان [ويطالبها] بانهاء احتلالها على وجه اراضي العرب وممتلكاتهم ، او اقامة مستوطنات اسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة ، واحترام ومراعاة حرمة الاماكن المقدسة الواقعة تحت احتلالها والتخلي عن مصادرة وتملك اراضي العرب وممتلكاتهم ، او اقامة مستوطنات اسرائيلية في الاراضي العربية المحتلة ، والتخلي عن جميع الاجراءات والسياسات الاخرى الرامية الى تغيير الوضع القانوني لمدينة القدس وكذلك الغاء الاجراءات السابق اتخاذها في هذا الشأن » (٤٩) ·

ولقد صوت مع مشروع القرار هذا ١٤ دولة من مجموع الدول الـ ١٥ ، الاعضاء في المجلس ، ولم تعارض سوى الولايات المتحدة ، التي استخدم مندوبها وليم سكرانتون حق الفيتو لاحباط المشروع · (وهذه هي المرة الثانية التي استخدمت فيها الولايات المتحدة الفيتو في عام ١٩٧٦ على قرار ضد اسرائيل) · وقد فسر المندوب الاميركي معارضته لمشروع القرار بأنه قد يصبح « عقبة في طريق الحل » ، ويتعارض مع الدبلوماسية الاميركية الرامية الى ايجاد تسوية سلمية في الشرق الاوسط (٥٠) ·

وفي ٤ أيار ١٩٧٦ ، اجتمع مجلس الامن ـ للمرة الثالثة خلال تلك السنة ـ بناء على طلب من مصر لمناقشة القمع الاسرائيلي في الارض المحتلة · وقد قدم مشروع قرار مصري يطالب بانهاء الاحتلال الاسرائيلي بعد ادانته ، كما اصر الفلسطينيون والسوريون على ادانة اسرائيل · « وقد اصدر مجلس الامن ما وصف بأنه « اتفاق اغلبية » ، بعد ان فشل في الوصول الى قرار تحت التهديد بالفيتو الاميركي ، حول الاوضاع في الاراضي العربية المحتلة ، جاء فيه : « يستخلص رئيس مجلس الامن ان غالبية الاعضاء قد وافقت على الآتي :

ابداء قلق عميق للوضع الراهن في الاراضي العربية المحتلة ، وكذلك ابداء قلق لحالة السكان في هذه الاراضي ·

ان ميثاق جنيف الرابع المتعلق بحماية الاشخاص المدنين في حالة الحرب ينطبق ايضا على الاراضي العربية التي تحتلها اسرائيل في العام ١٩٦٧ ·

ولذلك فان القوة المحتلة مطالبة بالتقيد بمبادىء هذا الميثاق والامتناع عن اي اجراء يشكل انتهاكا لها ، والغائه ·

وفي هذا الصدد ، فان الاجراءات المتخذة من قبل اسرائيل في الاراضي العربية المحتلة ، والتي تؤدي الى تغيير التركيب الديموغرافي او الطبيعة الجغرافية ، وخاصة انشاء المستعمرات هي موضع شجب · ومثل هذه الاجراءات التي لا يمكن ان تشكل حكما مسبقا على نتيجة البحث عن قرار السلام ، تشكل عقبة في طريق السلام » (٥١) ·

وعلى الرغم من ذلك فقد رفضت الولايات المتحدة هذا « الاتفاق » واعلن مندوبها عدم التزام بلادة به لان بعض الاجزاء منه فقط مقبولة ، ولانه ينطلق من فقدان التوازن الذي ينبغي ان يكون غاية مجلس الامن الدائمة (٥٢) ·

اما هذا الاجراء ، اي قراءة « اتفاق الاغلبية » امام المجلس ، فقد تفادى الفيتو الاميركي لانه لم يصدر كخطوة رسمية من قبل المجلس · كما لم يعتبر رفض الولايات المتحدة فيتو آخر (٥٣) ·

وفي ٩ حزيران ١٩٧٦ اجتمع مجلس الامن ، مرة اخرى ، لبدء مناقشة مسألة ممارسة حقوق الفلسطينيين · وقد دعيت م·ت·ف لحضور النقاش باغلبية ١١ صوتا ضد صوت واحد (الولايات المتحدة) ، وامتناع ٣ عن التصويت وللمرة الثالثة في تلك السنة استخدمت الولايات المتحدة حق الفيتو في المجلس لمنع صدور قرار عنه مؤيد للقضية الفلسطينية ،وذلك في نهاية مناقشة تقرير اعدته لجنة من ٢٠ دولة لتمكين الشعب الفلسطيني في ممارسة حقوقه (كما ذكرنا آنفا) · وكانت اسرائيل قد قاطعت مناقشة المجلس بحجة ان اقتراحات اللجنة تهدف الى القضاء على الدولة اليهودية ، بينما اعلن البرت شيدر مندوب الولايات

المتحدة ، الذي تحدث قبل التصويت ، ان القرار « خال من التوازن » ، يؤكد على حقوق فريق واحد ومصالحه فيما يتجاهل حقوق الاخرين ومصالحهم » (٥٤) ·

وفي ٢٨ تشرين الاول ١٩٧٦ بدأ مجلس الامن اجتماعا (آخر) طارئا دعت له مصر لبحث انتهاكات اسرائيل في الاراضي المحتلة ، وذلك بقيامها باعمال تمنع السكان العرب من ممارسة شعائرهم الدينية · وفي هذه المرة وافقت واشنطن على بيان اجماعي للمجلس يدين اسرائيل · وقد أعرب البيان عن « قلق المجلس في شأن الموقف الخطير السائد في الاراضي العربية المحتلة ، في ظل استمرار احتلال اسرائيل لهذه الاراضي » ، وادان اقامة المستعمرات الاستيطانية في الاراضي المحتلة ··· واكد ··· على ان اي تدنيس للاماكن المقدسة ولاماكن العبادة او اي تشجيع على القيام باعمال من هذا النوع ينطويان على تهديد للسلام والامن في المنطقة ، [كما] كرر دعوته اسرائيل الى ضمان السلامة والرفاهية للسكان » · كذلك أكد المجلس على عدم شرعية اجراءات تغيير الوضع الشرعي لمدينة القدس (٥٥) ·

أما اسرائيل فقد عبرت عن استيائها من الموقف الاميركي وعن خيبة املها ·

القرارات الاخرى

لقد اتخذت الجمعية العامة للامم المتحدة ، منذ سنة ١٩٧٤ وحتى اليوم ، قرارات عدة ، بالاضافة الى تلك التي سبق وذكرناها ، متعلقة بالصراع العربي الاسرائيلي والقضية الفلسطينية · وفيما يلي عرض لها ·

ففي الدورة التاسعة والعشرين ، اتخذت الجمعية العامة قرارا ، رقم ٣٢٤٠ ، في ٢٩ تشرين الثاني ١٩٧٤ ، يشجب خرق اسرائيل لحقوق الانسان في المناطق المحتلة وتدمير مدينة القنيطرة السورية ، وقرار رقم ٣٣٣٦ في ١٧ كانون الاول ١٩٧٤ ، يؤكد حق الدول العربية في السيادة الدائمة على الموارد القومية في الاقاليم العربية المحتلة (٥٦) ·

اما في الدورة الثلاثين ، فقد اتخذت الجمعية العامة قرارا ، رقم ٣٣٨٢ ، في ١٠ تشرين الثاني ١٩٧٥ ، يدين جميع الحكومات التي لا تعترف بحق تقرير المصير وباستقلال الشعوب الواقعة تحت الاستعمار والسيطرة الخارجية ، وخصوصا شعوب افريقيا وفلسطين ·

وكانت اسرائيل الوحيدة التي وقفت ضد هذا القرار ، الذي ايدته ٩٩ دولة · وفي القرار ٣٤١٤ ، في ٥ كانون الاول ١٩٧٥ ، تحت عنوان الحالة في الشرق الاوسط ، اكدت الجمعية العامة ، بأنه لا يجوز اكتساب الاراضي بالقوة ، وانه يجب لذلك اعادة جميع الاراضي التي احتلت على هذا النحو · « كما ادانت » استمرار اسرائيل في احتلال اراضي عربية ، خلافا لميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي وقرارات الامم المتحدة المتكررة، «وطلبت» من جميع الدول الكف عن تزويد اسرائيل باية معونة عسكرية واقتصادية ما دامت مستمرة في احتلال اراضي عربية وانكار الحقوق القومية غير القابلة للتصرف للشعب الفلسطيني » (٥٧) ·

اما في القرار ٣٤١١ ، بتاريخ ١٠ كانون الاول ١٩٧٥ ، فقد ادانت الجمعية العامة توطيد العلاقات والتعاون بين نظام جنوب افريقيا العنصري واسرائيل (٥٨) ·

وفي القرار رقم ٣٥٢٥ بتاريخ ١٥ كانون الاول ١٩٧٥ تحت عنوان « تقرير اللجنة الخاصة

المعنية بالتحقيق في الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان لسكان الاراضي المحتلة » ، ادانت الجمعية العامة ، « بصفة خاصة ، السياسات والممارسات الاسرائيلية [الهادفة الى] ضم اجزاء من الاراضي المحتلة ، انشاء مستوطنات اسرائيلية في [تلك] الاراضي ... ونقل سكان غرباء اليها ، تدمير المنازل العربية وهدمها ، مصادرة الممتلكات العربية في الاراضي المحتلة ونزع ملكيتها ، وجميع المعاملات الاخرى الرامية الى الاستيلاء على الاراضي بين السلطات او المؤسسات الاسرائيلية او الرعايا الاسرائيليين من جانب ، وسكان الاراضي المحتلة او مؤسساتها من جانب آخر ، اجلاء سكان الاراضي المحتلة العرب وترحيلهم وطردهم وتشريدهم ونقلهم ، وانكار حقهم في العودة ، الاعتقالات الجماعية للسكان العرب واخضاعهم للاعتقال الاداري واساءة معاملتهم ، نهب الممتلكات الاثرية والثقافية ، والتعرض للحريات والشعائر الدينية ، وكذلك للحقوق والاعراف المتصلة بالاسرة ، واخيراً الاستغلال غير المشروع للثروة الطبيعية للاراضي المحتلة ، ولمواردها وسكانها » . كذلك اكدت الجمعية العامة ، من جديد ، على « ان جميع التدابير التي اتخذتها اسرائيل لتغيير الطابع المادي للاراضي المحتلة او لاي اجزاء منها او لتكوينها الديموغرافي او هيكل مؤسساتها و مركزها ، هي تدابير باطلة ولاغية » . كما طالبت اسرائيل بتطبيق اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنين ، ودعتها الى الغاء جميع التدابير لتغيير الهيكل المؤسسي والشعائر الدينية في الحرم الابراهيمي بالخليل (٥٩) .

وفي ٩ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، ادانت الجمعية العامة بشدة ، في قرار ٣١/٦ التعاون وتقوية العلاقات بين اسرائيل ونظام جنوب افريقيا العنصري – وقد ادانت هذا التعاون سابقا في ١٩٧٥ . وفي قرار ٣١/٣٤ ، في ٣٠ تشرين الثاني ١٩٧٦ ، اكدت الجمعية حق تقرير المصير للشعوب المستعمرة وادانت الحكومات التي لا تعترف به وبحق الاستقلال لهذه الشعوب ، مثل شعب جنوب افريقيا وفلسطين . وفي قرار ٣١/٦١ ،في ٩ كانون الاول ١٩٧٦ ، تحت عنوان « الوضع في الشرق الاوسط » اكدت الجمعية العامة ضرورة احلال سلام عادل ودائم في الشرق الاوسط مبني على احترام قرارات الامم المتحدة بخصوص هذه المنطقة وقضية فلسطين . كما اكدت ضرورة مشاركة كل الاطراف بما فيهم م.ت.ف . في مؤتمر السلام من الشرق الاوسط ، وادانت استمرار الاحتلال الاسرائيلي للاراضي العربية، الذي يشكل خرقا لميثاق وقرارات الامم المتحدة معلنة ان الحل العادل والدائم في هذه المنطقة لا يتم الا بانسحاب اسرائيل من الاراضي التي احتلتها في ١٩٦٧ وحصول الشعب الفلسطيني على حقوقه المشروعة . كما ادانت الجمعية كل الاعمال التي تقوم بها اسرائيل في تغيير المعالم الجغرافية والديمغرافية في هذه الاراضي ، وحثت دول العالم على عدم مد الكيان الصهيوني باي مساعدة عسكرية او غيرها ، قد تساعدها على ابقاء الاحتلال واستثمار الثروات الطبيعية ، وطلبت من مجلس الامن تنفيذ هذه القرارات ضمن جدول زمني (٦٠) .

وفي قرار ٣١/١٠٦ ، في ١٦ كانون الاول ١٩٧٦ ، تحت عنوان « تقرير لجنة التحقيق حول انتهاكات اسرائيل حقوق الانسان في الارض المحتلة » ، ادانت الجمعية العامة اعمال اسرائيل بشأن الاعتقالات الجماعية وتدمير البيوت العربية والتحرش بالمعتقدات الدينية ومصادرة الاراضي العربية وتغيير معالم القدس ، طالبة منها الكف عن التغيير الديمغرافي والجغرافي للاراضي العربية المحتلة . وفي قرار ٣١/١٨٦ ، في ٢١ كانون الاول ١٩٧٦ ، اكدت الجمعية من جديد حق الدول العربية الواقعة اراضيها تحت الاحتلال الاسرائيلي بأن

تحصل على السيادة والسيطرة الكاملة على المـوارد الطبيعية والنشاطات الاقتصاديـة والتعويض على الاضرار

وفي ٢٨ تشرين الاول ١٩٧٧ ، ادانت الجمعية العامة الاجراءات غير القانونية التـي تتبعها اسرائيل في تغيير الوضع القانونـي الجغرافي والديمغرافي في الاراضـي المحتلـة منتهكة بذلك اتفاقية جنيف ١٩٤٩ وقرارات الامم المتحدة · وفـي قـرار ٣٢/٢٠ . فـي ٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٧ ، تحت عنوان : « الوضع في الشرق الاوسط » ، ادانـت الجمعيـة اسرائيل لاستمرار احتلالها الاراضي العربيـة واكـدت بأن لا حل عـادل في المنطقـة دون الانسحاب الاسرائيلي من الاراضي المحتلة سنة ١٩٦٧ · كما طلبت اشراك م·ت·ف · في محادثات السلام ودعت الى تطبيق هذه القرارات ·

وفي قرار رقم ١٦١ ، اكدت الجمعية العامة مرة اخرى حـق الدول العربيـة بالسيـادة الدائمه على الموارد الطبيعية في الاراضي العربية المحتلة (٦١) · وفـي ٧ كانـون الاول ١٩٧٨ ، اتخذت الجمعية العامة قرارين مناصرين للقضية الفلسطينية تحت بند « الحالة في الشرق الاوسط » وبند « قضية فلسطين » · فقد طالب القرار الاول بالدعوة فـورا لعقـد مؤتمر جنيف حول الشرق الاوسط باشتراك م·ت·ف · على قدم المساواة مع جميع الاطراف المعنية الاخرى · وادان هذا القرار ايضا استمرار احتلال اسرائيل للاراضي الفلسطينيـة والاراضي العربية معلنا « ان السلم لا يتجزأ وان التسوية العادلة والدائمة لمشلكلـة الشرق الاوسط يجب ان تقوم على اساس حل دائم ، تحت رعاية الامم المتحدة ، يأخذ في الاعتبار جميع نواحي النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وخاصة نيل الشعب الفلسطيني جميع حقوقـة الوطنية غير القابلة للتصرف ، وانسحاب اسرائيـل من جميـع الاراضي الفلسطينيـة والاراضي العربية الاخرى المحتلة » · كما اكد القرار من جديد ان السلم الشامل والعادل والدائم في الشرق الاوسط ، الذي يمكن ان تعيش في ظله جميع بلدان وشعوب المنطقة في سلام وامن داخل حدود معترف بها وآمنة لن يتحقق الا اذا انسحبت اسرائيل من جميـع الاراضي الفلسطينية والاراضي العربية الاخرى المحتلة ، ونال الشعب الفلسطيني حقوقـه الوطنية غير القابلة للتصرف ومارسها (٦٢) ·

اما بالنسبة للقرار الثاني ، « قضية فلسطين » ، فقد جاء في ثلاثة اجزاء ولم يشر اي منها الى اتفاقيتي كامب ديفيد · وفي الجزء الاول من هذا القرار اعلنت الجمعية العامـة « ان صحة اية اتفاقات ترمي الى حل مشكلة فلسطين تستدعي ان تتم الاتفاقات في اطـار الامم المتحدة وميثاقها وقراراتها على اساس نيل شعب فلسطين وممارسته حقوقـه غيـر القابلة للتصرف ، على وجه تام بما في ذلك الحق في العودة والاستقلال الوطني والسيادة الوطنية في فلسطين ، واشتراك م·ت·ف · في هذه الاتفاقات » · وفي الجزء الثاني طلبت الجمعية العامة من لجنة ممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني الاستمرار في بذل كل الجهود لتطبيق توصياتها ، وارسال مندوبين او ممثلين في المؤتمرات الدولية ، كما طلبت من لجنة التوفيق الخاصة بفلسطين والتابعة للامم المتحدة ، والتي كانت قـد انشأت فـي ١٩٤٨ ، بأن تتعامل كليا مع لجنة ممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني · اما فـي الجزء الثالث فقد طلبت الجمعية العامة من الامين العام للامم المتحـدة ان ينظر في امـر تعزيز الوحدة الخاصة المعنية بحقوق الفلسطينيين وبامكانية اعادة تنظيمها وتغيير اسمها ، ودعت الجمعية جميع الحكومات والمنظمات الى مساعدة لجنة ممارسة الحقـوق الثابتـة للشعب الفلسطيني (٦٣) ·

وفي ١٣ كانون الاول ١٩٧٨ ، اتخذت الجمعية العامة قرار رقم ٣٣/٤٠ ، حول «انشطة المصالح الاجنبية ، الاقتصادية وغيرها ، التي تعرقل تنفيذ اعلان منح الاستقلال للبلدان والشعوب المستعمرة » . وقد تضمن هذا القرار فقرتان تدين فيهما الجمعية العامة اسرائيل وبلدانا ، اخرى ، من بينها المانيا الغربية ، لعلاقاتها مع النظام العنصري في جنوب افريقيا ، وتواطئها معها « في الميدان النووي » (٦٤) .

اما في ١٥ كانون الاول ١٩٧٨ ، فقد وافقت الجمعية العامة على قرار يدعو مجلس الامن لفرض حظر اجباري على امداد الكيان الصهيوني ، بالاسلحة او باي تجهيزات او مواد تكنولوجية نووية . وعبر القرار عن القلق العميق الذي يساور الجمعية العامة ازاء التزايد السريع والمستمر للقدرة العسكرية الاسرائيلية ، والجهود التي تبذلها اسرائيل من اجل الحصول على اسلحة ذرية ، واستخدامها للقنابل العنقودية ضد مخيمات اللاجئين ، وضد الاهداف المدنية في جنوب لبنان . واكد القرار ان هذا التعاظم العسكري يمثل تهديدا للسلام والامن الدوليين ، كما ادان الكيان الصهيوني مرة اخرى لتكثيف تعاونه العسكري النووي مع جنوب افريقيا ، وطالب جميع الدول بالتعاون في اي عمل دولي ينص عليه الميثاق في فرض العقوبات الاجبارية من اجل تفادي هذا التهديد الخطير » (٦٥) . كذلك اتخذت الجمعية العامة قرار رقم ٣٣/١١٣ ، تحت عنوان « تقرير اللجنة الخاصة المعنية بالتحقيق في الممارسات الاسرائيلية التي تمس حقوق الانسان لسكان الاراضي المحتلة » . مؤلف من ثلاثة اقسام . وجاء في القسم الاول من القرار « ان اتفاقية جنيف المتعلقة بحماية المدنيين وقت الحرب تنطبق على جميع الاراضي العربية التي تحتلها اسرائيل منذ العام ١٩٦٧ بما فيها القدس » ، وان اسرائيل قد خرقت هذه الاتفاقية . وطلبت الجمعية العامة من اسرائيل الاعتراف بتلك الاتفاقية . وفي القسم الثاني من القرار دعت الجمعية اسرائيل الى عدم تغيير الوضع القانوني او الطابع الجغرافي او التركيب السكاني للاراضي العربية المحتلة منذ عام ١٩٦٧ بما فيها القدس ، وشجبها لاقامة المستوطنات في الاراضي الاراضي المحتلة . اما في القسم الثالث فقد ادانت الجمعية اسرائيل لضم اجزاء من الاراضي المحتلة اليها واقامة مستوطنات اسرائيلية جديدة والقيام باجلاء سكان الاراضي المحتلة العرب وترحيلهم وردهم وتشريدهم ونقلهم ، ومصادرة ممتلكاتهم وتدمير المنازل العربية وهدمها ، والقيام باعتقالات جماعية للسكان العرب واساءة معاملة المعتقلين وتعذيبهم ، ونهب الممتلكات الاثرية والثقافية ، والتعرض للحريات والممارسات الدينية والاستغلال غير المشروع للثروة الطبيعية للاراضي المحتلة ولمواردها وسكانها (٦٦) .

والواضح من مجمل القرارات التي قدمناها ، ان منظمة التحرير الفلسطينية قد قطعت خلال السنوات الخمس الاخيرة ، اشواطا بعيدة على الصعيد العالمي بعد القرارات التي اتخذت لصالح القضية الفلسطينية ، اذ حصلت منظمة التحرير على الاعتراف الدولي ، كما انتقلت قضية فلسطين الى احتلال موقع بارز بين القضايا التي تهم العالم . ولقد اتضح للجميع انالقضية الفلسطينية لم تعد مشكلة لاجئين بل انها قضية شعب طرد من ارضه له حضارة وتاريخ . وهذا النضال السياسي ليس الا وجها اخر مكملا للنضال الرئيسي ، الكفاح المسلح .

الحواشي :

(١) جورج طعمة ، « كيف طويت قضية فلسطين في جدول اعمال الامم المتحدة » ، **النهار** ، ١٣ حزيران ١٩٧٤ ·

(٢) طعمة ، « وحدها قضية فلسطين اخضعت صياغتها لتزييف وشطب » ، **النهار** ، ١٤ حزيران ١٩٧٤ ·

(٣) طعمة ، **النهار** ، ١٣ حزيران ١٩٧٤ ·

(٤) طعمة ، **قرارات الامم المتحدة بشأن قضية فلسطين والصراع العربي الاسرائيلي ١٩٤٧ ـ ١٩٧٤** ، بيروت ، ابو ظبي ، مؤسسة الدراسات الفلسطينية، مركز الوثائق والدراسات ص ١٠٢ ـ١٠٩ وص ١١٦ ·

(٥) طعمة ، **النهار** ، ١٣ حزيران ١٩٧٤ ·

(٦) نبيل شعث ، « القصة الكاملة لادراج القضية الفلسطينية في الامم المتحدة » ، **شؤون فلسطينية** ، كانون الثاني ١٩٧٤ ، العدد ٤٠ ، ص ٢٠ ـ ٢١ ·

(٧) فاروق القدومي ، « النضال السياسي الفلسطيني : انجازات وابعاد ومضامين » ، **شؤون فلسطينية** ، تشرين الثاني ١٩٧٤ ، عدد ٣٩ ، ص ٧ ·

(٨) شعث ، **مصدر سبق ذكره** ،ص٢٣·

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥ ـ ٢٦ ·

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢٦ ·

(١١) **المصدر نفسه** ، ص ٢٦ ·

(١٢) سعدات حسن ، « فلسطين في الامم المتحدة : قرارات تاريخية وخلفيات»، **شؤون فلسطينية** ، ١٩٧٦ ، عدد ٥٣ ، ص ٩ ·

(١٣) شعث ، **مصدر سبق ذكره** ص ٢٧ وحسن ، **مصدر سبق ذكره** . ص ١ ، ١٠·

(١٤) **المصدر نفسه** (شعث) ص ٢٩ ·

(١٥) **المصدر نفسه** ، ص ٢٩ ـ ٣٠ · وحسن ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٠ ·

(١٦) طعمة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٥٢ ·

(١٧) شعث ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٦ ·

(١٨) طعمة ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ١٥٥ ـ ١٥٦ ·

(١٩) باسم الجسر ، « اليونسكو تعاقب اسرائيل » ، **الانوار** ، ١٩ تشرين الثاني ١٩٧٤ ·

(٢٠) طعمة ،**مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥٤ ·

(٢١) **المصدر نفسه** ، ص ٢٤٩ ·

(٢٢) **النهار** ، ٩ تشرين الثاني١٩٧٤·

(٢٣) **هيرالد تريبيون** ، ٢٨ تشرين الاول ١٩٧٦ ·

(٢٤) **بيروت المساء** ، ٥ آب ١٩٧٥ ، « بين اللعب والجد ايهما اولى بالطرد ، منذ عام ٧١ واسرائيل تتنبأ بطردها من الامم المتحدة بقلم « سياسي فلسطيني معروف » ·

(٢٥) **المصدر نفسه** ·

(٢٦) **المصدر نفسه** ·

(٢٧) **المصدر نفسه** ·

(٢٨) **الى الامام** ، ٨ آب ١٩٧٥ ·

(٢٩) ر·١·١·١ ، ١ تشرين الاول ١٩٧٥، **والنهار** ، ٢ تشرين الاول ١٩٧٥ ·

(٣٠) طعمة ، مصدر سبق ذكره ، ص ٧ ·

(٣١) الامم المتحدة ، « لجنة ممارسة الحقوق الثابتة للشعب الفلسطيني » ، ص ٧ ·

(٣٢) المصدر نفسه ، ص ٩ ·

(٣٣) المصدر نفسه ، ص ١٥ ـ ١٦ ·

(٣٤) المصدر نفسه ، ص ١٤ ·

(٣٥) المصدر نفسه ، ص ١٦ ·

(٣٦) المصدر نفسه ، ص ٢٠ ـ ٢٢ ·

(٣٧) المصدر نفسه ، ص ٢٢ ·

(٣٨) المصدر نفسه ، ص ٢٣ ـ ٢٤ ·

(٣٩) المصدر نفسه ، ص ٢٥ ·

(٤٠) وفا ، ١ كانون الاول ١٩٧٨ ·

(٤١) طعمة ، « قرارات ··· ١٩٧٥ » مصدر سبق ذكره ، ص ٨ ·

(٤٢) صلاح الدين الدباغ ، « ملاحظات سياسية حول قرار ادانة الصهيونية بالعنصرية » ، شؤون فلسطينية ، عدد ٥٢، ص ١٤ ·

(٤٣) بيروت المساء ، ٢ كانون الاول ١٩٧٥ ، تاخرت الامم المتحدة ٢٨ سنة لتعرف بان الصهيونية « العنصرية » بقلم « سياسي فلسطيني معروف » ·

(٤٤) ديلي ستار ، ٦ كانون الاول ١٩٧٥ ·

(٤٥) طعمة « قرارات ···١٩٧٥ » ، مصدر سبق ذكره ، ص ٣١ ·

(٤٦) النهار ، ٢٨ كانون الثاني ١٩٧٦ ·

(٤٧) السفير ، ١٦ شباط ١٩٧٦ ·

(٤٨) المصدر نفسه ·

(٤٩) النهار ، ٢٧ اذار ١٩٧٦ ·

(٥٠) المصدر نفسه ·

(٥١) السفير ، ٢٧ ايار ١٩٧٦ ·

(٥٢) المصدر نفسه ·

(٥٣) انترناشيونال هـ · تريبيون ، ٢٧ ايار ١٩٧٦ ·

(٥٤) النهار ، ١ تموز ١٩٧٦ ·

(٥٥) النهار ، ١٢ تشرين الثاني ١٩٧٦

(٥٦) طعمة « قرارات ··· ٧٤ » ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٥٧ ـ ١٦٩ ·

(٥٧) طعمة « قرارات ··· ٧٥ » ، مصدر سبق ذكره ، ص ١٣ ·

(٥٨) المصدر نفسه ، ص ١٠ ·

(٥٩) المصدر نفسه ، ص ٢١ ـ ٢٣ ·

(60) Regina S. sherif, « *Les Resolutions des Nation Unies Sur La Palestine et le Conflit Israelo - Arabe. 1976* » .

Beyrouth, Koweit, Institute des Etudes Palestiniénnes . Ministére de L'Enformation, P. 12

(61) U. N. « *Resolutions Decision adopted* by *the general Assenbly, 40 th Session, 1977*» .

(٦٢) الامم المتحدة ، الجمعية العامة ، *A/33/L12* ٦كانون الاول ١٩٧٨، الدورة ٣٣ ·

(٦٣) الامم المتحدة ، الجمعية العامة ، *A/33/L11* ، ٦ كانون الاول ١٩٧٨ ، الدورة ٣٣ ·

(٦٤) الامم المتحدة ، الجمعية العامة ، *A/33/408* ، ٥ كانون الاول ١٩٧٨ ، الدورة ٣٣ ·

(٦٥) وفا ، ١٦ كانون الاول ١٩٧٨·

(٦٦) الامم المتحدة ، الجمعية العامة ، *A/33/439* الدورة ٣٣ ·

انتفاضة المناطق المحتلة
ضد المعاهدة

اتسمت ردود الفعل الفلسطينية ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، على زيارة الرئيس الاميركي جيمي كارتر الى كل من القاهرة والقدس المحتلة ، وعلى اتفاقية السلام المصرية – الاسرائيلية ، بالحدة والاستنكار الشديدين لما تشكله هذه التطورات من خطر على القضية الفلسطينية ومصير الشعب الفلسطيني ، وأمانيه وفي تقريره مصيره واقامة دولته المستقلة · وكانت ردود الفعل هذه المرة شاملة ومنسجمة على المستويين الرسمي والشعبي ، وتجمع على ادانة الاتفاقية الثنائية المنفردة هذه ، ورفض الحكم الذاتي المقترح · ويبدو ان « اللقاء » الفلسطيني الاردني ، وخيبة الآمال نهائيا من مصر ، قد ساهما في انسجام هذه المواقف وتكتيلها ·

رد الفعل الرسمي – تصريحات ومواقف

منذ أن اتضح اثر زيارة كارتر للقاهرة وعشية زيارته للقدس المحتلة ، أن هنالك امكانية فعلية لتوقيع اتفاقية سلام منفردة بين اسرائيل ومصر ، وملامح للحكم الذاتي ، اجمعت جميع الصحف الثلاث الصادرة في القدس العربية المحتلة على « معارضتها للاتفاقية المنفردة بين اسرائيل ومصر ، وتدخل الولايات المتحدة في هذا الاتفاق » (معاريف ، ١١/٣/١٩٧٩) · كما ودعت جريدة الشعب جميع الدول العربية لأن « تستعد لتنفيذ مقررات مؤتمر بغداد التي تشمل فرض عقوبات شاملة على مصر ، لان هناك تجاهلا مقصودا من جانب مصر للقضية الفلسطينية » (المصدر نفسه) ·

كما وراح الزعماء الفلسطينيون ، في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يعربون عن مواقفهم المناهضة والمستنكرة لهذه الاتفاقية ولمشروع الحكم الذاتي المقترح · فقد صرح رئيس بلدية الخليل ، فهد قواسمه ، لمراسل صحيفة الهيرالد تريبيون اللندنية : « بعد كامب ديفيد جاء الي شخص ما من القنصلية الاميركية وسألني لماذا لا نوافق على الحكم الذاتي ، ولو كخطوة أولى نحو دولة فلسطينية ؟ فاجبته بما يلي :

: انه سيكون بمثابة اضفاء صفة الشرعية على الاحتلال الاسرائيلي لارضنا · وأنا أقول أنه من الافضل لنا ان نبقى محتلين دون موافقتنا » (هيرالد تريبيون ١٣/٣/٧٩) ·

وفي رده على سؤال لمراسل صحيفة معاريف الاسرائيلية بشأن العريضة التي يزمع رؤساء البلديات في الضفة الغربية

توقيعها ضد زيارة كارتر للمنطقة والاتفاقية المنفردة التي ستنتج عنها بين مصر واسرائيل ، اجاب رئيس بلدية الخليل : « على الرغم من أنه لا يوجد أي تجديد فيما سيكتب في العريضة بالنسبة لمواقفنا ، الا أن توقيتها هو المهم ··· وهذا هو الوقت الذي يجب فيه اتخاذ موقف في موضوع الاتفاق الاسرائيلي المتوقع » (معاريف ، ١٩٧٩/٣/١١) ·

اما رئيس بلدية نابلس ، بسام الشكعة ، فقد صرح يوم الجمعة ، ١٩٧٩/٣/٩ ، بأنه « ليس في زيارة رئيس الولايات المتحدة ما يجلب الحل للمنطقة » واكد على ان « جهود السلام سوف تذهب ادراج الرياح ما دام جميع الاطراف يتجاهلون لب المشكلة ، وهي القضية الفلسطينية » (معاريف ، ١٩٧٩/٣/١١) ·

واضاف رئيس بلدية نابلس أن «التاريخ يعلمنا بأن أية محاولة لاحراز تقدم ما في المنطقة بدون م·ت·ف ، الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني ، ستفشل · وكذلك هذه المرة ، ويبدو أن رئيس الولايات المتحدة يحاول كسر الجليد والوصول الى حل ، بينما تبقى م·ت·ف في الظل » (المصدر نفسه) · ثم اكد أنه « ليس في حاجة لان يتمتع بحس تنبوئي لكي يعرف بان هذه الخطوات ستفشل أيضا » ، واضاف : « حتى الان حاولت عناصر مختلفة خلق قيادات ـ دمى من بين الفلسطينيين ، ولكن هذه المحاولات سوف تفشل هي الاخرى ، وعلى الجميع ان يعلم بان م·ت·ف فقط هي التي تتحدث باسمنا للتفاوض مع أية دولة أو طرف » (المصدر نفسه) ·

كما وأعرب رئيس بلدية طولكرم ، حلمي حنون ، « عن رأي مماثل هو الاخر » ولكنه اكد على أنه « اذا احضر الرئيس الاميركي افكارا جديدة معه بالنسبة للفسطينيين فانه سيرحب بذلك » (المصدر نفسه) ·

أما الياس فريج ، رئيس بلدية بيت لحم، المحسوب على القيادة المعتدلة الموالية للاردن ، فقد اجاب ردا على سؤال مراسل صحيفة يديعوت احرونوت الاسرائيلية ما اذا كان الرئيس الاميركي جيمي كارتر سياتي بالسلام الى الشرق الاوسط معه ؟ قال : « لا يمكن ان يكون سلام في الشرق الاوسط لان اتفاقات كامب ديفيد لا تجيب على الحد الادنى المطلوب للشعب الفلسطيني · » ثم تساءل : « وما هو الحد الادنى ؟ ·· الحد الادنى هو عطاء حق تقرير المصير للفلسطينيين وفقا لمقررات الامم المتحدة » ، (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٣/١٢) · اما عن السؤال بالنسبة لمشروع الحكم الذاتي وما اذا كان لا يكفي؟ اجاب رئيس بلدية بيت لحم : « الحكم الذاتي هو أهون الشرين ، ولكنه كما هو مقدم لنا ، فاننا لا نستطيع حتى تدارسه » (المصدر نفسه) · ثم اضاف قائلا : « اي حكم ذاتي هو هذا ، الذي تخرج فيه الجرارات والجرافات كل يوم تمهد للاستيطان اليهودي على الأرض العربية ؟ اي حكم هو هذا الذي لا يأخذ بالحسبان احتياجات النصف الاخر للشعب الفلسطيني ، المشتت في كل اصقاع الشرق الاوسط ؟ (المصدر نفسه) · وهنا سأله مراسل يديعوت احرونوت : « انك لا ترى اذن اية فائدة من زيارة كارتر ؟ » · فاجابه الياس فريج : « ان زيارة كارتر قد تؤدي في احسن الاحوال الى معاهدة منفردة بين اسرائيل ومصر لا اكثر ·

انني لا أومن بان المعاهدة بين مصر واسرائيل ستؤدي الى السلام في الشرق الاوسط · فالسلام الحقيقي يجب ان يكون بين الفلسطينيين والاسرائيليين » (المصدر نفسه) · ثم اضاف ساخرا : « في رأيي ان

ما نتحدث عنه الآن لا يتعدى كونه مهزلة مسرحية يؤدي فيها كارتر وبيغن والسادات ادوارهم ببراعة كبيرة ، وسوف تؤدي في نهاية المطاف الى توقيع معاهدة منفردة · وهذا السلام ، ليس سلامنا » (المصدر نفسه) ·

هذا وقد « اصدر رؤساء البلديات والنقابات المهنية والجمعيات الخيرية وهيئات شعبية اخرى في الضفة الغربية ، بيانا يندد بزيارة كارتر الى مصر واسرائيل وبالمؤامرة التي تحاك ضد مصالح وحقوق الشعب العربي الفلسطيني » (الاتحاد ، ١٣/٣/١٩٧٩) · وقد جاء في هذا البيان ان « الزيارة واهدافها تعبران عن الحلقة الجديدة من المؤامرة الاميركية ضد الشعب العربي والشعب الفلسطيني » (ر٠١٠٩ ، ١٢/٣/١٩٧٩) · ويرفض البيان «اتفاقات كامب ديفيد » ، ويهاجم « الولايات المتحدة التي تتطلع الى تحقيق اهدافها الامبريالية ·· واثبتت انها تتآمر ضد اعادة حقوق الفلسطينيين اليهم » (المصدر نفسه) · واكد البيان على ان « السلام لن يتحقق دون اقامة دولة فلسطينية مستقلة ، واشراك منظمة التحرير الفلسطينية ، الممثل الشرعي والوحيد للشعب العربي الفلسطيني في اية مساع من اجل تحقيق سلام عادل وثابت في المنطقة » (الاتحاد ، ١٣/٣/١٩٧٩) · وقد ارسلت نسخ عن هذا البيان الى « رئيس الولايات المتحدة والى رؤساء دول اخرى في اوروبا الغربية » (معاريف ، ١٣/٣/١٩٧٩) ·

وفي قطاع غزة « رفضت القيادة السياسية بكل اتجاهاتها مشروع اقامة حكم ذاتي منفصل في هذه المرحلة في القطاع» (هارتس ودافار ، ١٤/٢/١٩٧٩)· فالشيخ هاشم خازندار ، الذي « تزعم التأييد العربي لمبادرة السادات ، قال معلقا على اتفاقية السلام : « ان السلام في غزة ليس سلاما ، والشروط لتحقيقه هو اقامة دولة فلسطينية برئاسة ياسر عرفات في الضفة الغربية وقطاع غزة » (المصدر نفسه) ·

اما الدكتور حيدر عبد الشافي فقال : « ان الحل الذي يشمل غزة والضفة الغربية كحل فلسطيني ليس حلا ، وليس له اي معنى ، كما ان الحكم الذاتي الذي فيه حقوق استيطان يهودي في الضفة الغربية والقطاع ليس له معنى » (المصدر نفسه)·

وبالنسبة لرئيس بلدية غزة ، رشاد الشوا فقد قال انه « يرفض اي حل منفرد لقطاع غزة ، لأن الشعب الذي يقيم في غزة والضفة الغربية هو شعب واحد · كما ان الفلسطينيين غير مستعدين لمناقشة الادارة الذاتية بناء على مقترحات مناحيم بيغن» ، (ر٠١٠٩ ، ١٢/٣/١٩٧٩ ومعاريف ويديعوت احرونوت ، ١٤/٣/١٩٧٩) · واكد رشاد الشوا بأن « كل ادارة ذاتية لا تتضمن دولة مستقلة بشكل كامل لا ترد في حساباتنا » · كما واعرب عن اقتناعه بأن « سكان قطاع غزة سيقاومون الاتفاق الذي توصل اليه كارتر ــ بيغن ــ السادات » ، ولكنه لا يعرف « كيف سيعبرون عن مقاومتهم » ، غير انه مقتنع بنقطة واحده وهي « انهم يرفضون مشروع الادارة الذاتية » ، (ر٠١٠٩ ، ١٢/٣/١٩٧٩) · وأضاف رشاد الشوا مؤكدا « ان هذه ليست ادارة ذاتية حقيقية ، فهذا اسم بديل للاحتلال الاسرائيلي ، وقد قال بيغن بوضوح ان الادارة الذاتية لن تؤدي الى استقلال ذاتي، ولذلك فان اي فلسطيني لن يوافق عليها » (المصدر نفسه) ·

وفي حديث له مع مراسل صحيفة معاريف الاسرائيلية قال رئيس بلدية غزة : « اننا نرفض اي فصل ، يكون فيه قطاع

غزة منفصلا عن الضفة الغربية . اننا نعلن أن هذين الجزئين هما جزءان من فلسطين القديمة . اننا شعب واحد ولنا هدف واحد مع مصالح مشتركة ، وامل قومي واحد ، ولذلك فاننا نرفض كل فصل في هذا الموضوع » (معاريف ويديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٣/١٤) .

وكانت اجهزة الاعلام المصرية ، ومن بعدها جميع وسائل الاعلام الاسرائيلية والغربية ، قد استغلت جزاء من برقية رئيس بلدية غزة ، التي كان قد أرسلها للرئيس السادات في ١٩٧٩/٣/٦ ، و « حذفت مطالبته بتأمين دولة فلسطينية مستقلة في معاهدة السلام ، كي تبرزه كمؤيد لخطوات السادات »(معاريف ويديعوت احرونوت، ١٣ ـ ١٩٧٩/٣/١٤). الا ان رشاد الشوا سارع الى عرض نص البرقية الكامل على الصحافيين الاسرائيليين والاجانب ، الذين تهافتوا عليه بالاسئلة بعد ترديد جميع وسائل الاعلام في اسرائيل والعالم للنص المبتور للبرقية ، بل ونشر صورة عنها في صحيفة معاريف بتاريخ ١٩٧٩/٣/١٦ ، معقبا في رده على سؤال مراسل الصحيفة دان أركين : « اي سؤال ، واضح ان المصريين معنيون بابرازي كمن يتخذ موقفا مغايرا لموقف م.ت.ف ودول عربية اخرى. الا ان الحقيقة هي في الواقع غير ذلك . فان خطي لا يختلف عن خط م.ت.ف » (معاريف ، ١٩٧٩/٣/١٦) . واضاف الشوا مكررا رفضه للحكم الذاتي وفقا للصيغة الاسرائيلية قائلا : « ليس في هذا الحكم الذاتي شيء عدا تغيير الاسم ، فبدلا من ان يقولوا الاحتلال الاسرائيلي يقولون الان حكما ذاتيا . لقد سمعنا من بيغن ومن زعماء اسرائيليين اخرين ، ان الجيش الاسرائيلي سيظل في المناطق المحتلة ... وان الاراضي ستظل باشراف الحكم الاسرائيلي ... ان مصادر المياه والحياة الجوفية ستظل باشراف اسرائيلي ... ان القدس العربية ستظل عاصمة اسرائيل الى الابد . وفي كل يوم تقام مستوطنات جديدة في الارض المحتلة، ويتم تضخيم وتكبير المستوطنات القائمة . اهذا هو الحكم الذاتي ؟ لا يمكن ان يكون اي تغيير في الوضع ، ما دامت اسرائيل تسيطر على الاراضي والمياه » (المصدر نفسه) .

اما بعد توقيع المعاهدة ، فقد وقع عدد كبير من رؤساء البلديات والشخصيات السياسية في قطاع غزة بيانا اكدوا فيه استنكارهم لمعاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية وتأييدهم لمنظمة التحرير الفلسطينية ، بصفتها الممثل الشرعي والوحيد للشعب الفلسطيني .وقد جاء في هذا البيان ان « معاهدة الصلح هذه خطيرة بالنسبة للعرب وبالنسبة للشعب الفلسطيني لانها لا تنص على انسحاب اسرائيل من كل الاراضي المحتلة بما في ذلك القدس العربية » . (السفير، ١٩٧٩/٣/٢٧) .

رد الفعل الشعبي : مظاهرات واعتصامات واشتباكات وعمليات

وهكذا ، وما ان وطئت قدما الرئيس الاميركي ارض مطار اللد من بعد ظهر يوم السبت ١٩٧٩/٣/١٠ ، حتى كانت مدن وقرى ومخيمات الضفة الغربية وقطاع غزة تشهد انتفاضة شعبية عارمة ، احتجاجا على هذه الزيارة وما سينتج عنها من اتفاق منفرد بين مصر واسرائيل، ورفضا للحكم الذاتي المقترح على الفلسطينيين في الارض المحتلة . وقد تجسدت هذه الانتفاضة في اليوم الاول للزيارة ، بـ « التجمعات والاعتصامات

التي قام بها طلاب المدارس الثانوية والمعاهد العليا » ، والتي تقرر فيها جميعها « القيام بالمظاهرات على مستوى التجمعات الطلابية والنقابية والمؤسسات الوطنية والشعبية الاخرى » ، (الاتحاد، ١٩٧٩/٣/١٢) ٠ وكانت بؤرة هذه الانتفاضة قد تركزت في يومها الاول في جامعة بيرزيت وداري المعلمين والمعلمات في رام الله ، حيث « اضرب الطلاب عن الدراسة ، واقاموا اعتصاما احتجاجيا في حرم الجامعة ، ثم اصدروا بيانا يستنكرون فيه زيارة كارتر وينددون بالابعاد التآمرية للحل الاستسلامي المنفرد الذي من المتوقع ان ينتج عن هذه الزيارة، وبالحكم الذاتي والاستيطان الاسرائيلي » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/١١ والاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠ كما وزع الطلاب في « سائر انحاء الضفة الغربية وقطاع غزة مناشير موجهة لرئيس الولايات المتحدة ، يتساءلون فيها لماذا تجاهل ممثل الفلسطينيين المعروف – م٠ت٠ف » ، معربين عن « معارضتهم لسلام منفرد بين اسرائيل ومصر ، وللحكم الذاتي والاستيطان » ، (هآرتس ، ومعاريف ، ١٩٧٩/٣/١١) ٠

وفي هذه الاثناء كانت سلطات الاحتلال الاسرائيلي ، وقوى الامن في الارض المحتلة كلها قد « احتاطت بشكل لم يسبق له مثيل ووضعت في حالة الاستنفار استعدادا لاحتمال اضراب شامل ومحاولة للقيام بالمظاهرات واعمال الاحجاج بشكل واسع في الضفة الغربية والقدس الشرقية بسبب زيارة كارتر لاسرائيل » (المصدر نفسه) ٠ وفرضت هذه القوات « الحراسة المشددة لدورياتها المدرعة على ابواب المدارس والمعاهد العليا ومفترقات الطرق، ومداخل القرى والمخيمات » (الاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٢) ٠ كما صعدت قوى الامن بكل اجهزتها وابتداء من نهاية الاسبوع « عمليات التفتيش والتدقيق لمنع اي نشاط تخريبي » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/١١) ٠ واقيمت « حواجز كثيرة للجيش الاسرائيلي في الطرقات ، واجري تفتيش دقيق ، وعززت الدوريات العسكرية ووسائل الامن الاخرى » (المصدر نفسه)٠ كذلك « استدعى رؤساء البلديات في الضفة الغربية يوم الجمعة [٣/٩/ ١٩٧٩] للتحادث مع الحكام العسكريين للاقضية ، حيث تم تحذير هؤلاء الرؤساء من الاخلال بالنظام في مدنهم ايام زيارة كارتر لاسرائيل » (هآرتس ومعاريف وعل همشمار ، ١٩٧٩/٣/١١) ٠

رام الله تقود الانتفاضة

وهكذا ، فما ان حاول الطلاب في مدينة رام الله ومنطقتها الخروج من المدارس والمعاهد العليا التي كانوا يعتصمون فيها ، حتى « اصطدموا بقوات الجيش التي اخذت تطلق النار في الهواء لارهاب الطلاب والاهالي » (الاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣، وهآرتس ، ١٩٧٩/٣/١١)٠ ثم قامت هذه القوات بـ « اعتقال العشرات من الطلاب بشكل وحشي ، مستعملة الضرب بالهراوات ، وقد جرح العشرات منهم ونقل بعضهم الى المستشفى بعد ان كانت هذه القوات تطوف الشوارع بهم والدماء تنزف منهم قبل السماح بنقلهم الى المستشفيات في محاولة لارهاب الاهالي » (الاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٢) ٠

وكان هذا الاستفزاز بمثابة الشرارة الاولى التي فجرت بركان الانتفاضة الشعبية التي كانت تمر به الضفة الغربية من اقصاها الى اقصاها ، فاندفع « اكثر من مئتي شاب في مظاهرة صاخبة

الى المستديرة الرئيسية لمدينة رام الله ، وهم يرجمون سيارة جيب عسكرية تابعة لحرس الحدود بالحجارة ... ولكي تنقذ الدورية نفسها راحت تطلق النار في الهواء على المتظاهرين » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/١١) .

وفي اليوم التالي ، ١٩٧٩/٣/١١ « عمت الاضرابات والمظاهرات جميع المعاهد العليا والمدارس في مدينة رام الله وقضائها ، وفي مدن نابلس وجنين وبيت لحم والبيرة واريحا وبيت ساحور والقدس » (الاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣) ، فطوقت دوريات جيش الاحتلال مدرسة البنين الثانوية في رام الله و « بدأت بملاحقة الطلاب الذين تجمعوا في ساحة المدرسة في تظاهرة احتجاجية ضد مؤامرة كارتر - بيغن - السادات » (المصدر نفسه) . وقد قامت قوات الجيش بـ « هجوم وحشي على الطلاب وانهالت عليهم بالضرب واطلاق الرصاص فاصيب عدد كبير من الطلاب والمعلمين بجراح وكسور » كما « وسقط احد الطلاب جريحا برصاص حرس الحدود » ، (المصدر نفسه) . ولم تكتف قوات الاحتلال بذلك بل « حاصرتهم داخل الصفوف واطلقت عليهم قنابل الغاز المسيل للدموع » ، ثم « قامت باعتقال العشرات منهم » (المصدر نفسه) .

وفي مدينة البيرة « استغل تلاميذ مدرسة ثانوية وطالبات دار للمعلمات تواجد طاقم تلفزيوني اميركي كان برفقة الصحفية الفلسطينية ريموندا الطويل ، وراحوا يرجمون الشرطة بالحجارة ويشتمون دولة اسرائيل ويرددون هتافات فتح ويرفعون العلم الفلسطيني » (معاريف، ١٩٧٩/٣/١٢) . وكان معلمو المدرسة الثانوية للبنين في رام الله قد « قدموا استقالتهم لقيادة الضفة الغربية » . لان جنود الاحتلال الاسرائيلي « دخلوا المدرسة وضربوا التلاميذ واهانوا المعلمين» (عل همشمار وهآرتس و ر.٠.٦، ١٩٧٩/٣/١٢، والاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣).

كما ووقعت « صدامات في اماكن اخرى مع التلاميذ » ، حيث جرى « قذف قوات الامن والسيارات الاسرائيلية المارة بالحجارة » (المصدر نفسه) . ففي مدخل رام الله « رجم الشبان في ساعات الصباح الباكر الباص رقم ٤٠ التابع لشركة ايجد الاسرائيلية والذي كان متجها من القدس الى مستوطنة عوفر ، مما ادى الى تحطم زجاجه وجرح احدى راكباته » (عل همشمار وهآرتس و ر.٠.٦ ، ١٩٧٩/٣/١٢) ، كما وقعت « اعمال شغب ورجم بالحجارة في اريحا وبيت ساحور وبيت جالا وجنين ومخيمات اللاجئين في الضفة الغربية » (المصدر نفسه) ، وفي مدينة غزة « قام الطلاب بتعليق ملصقات على جدران المدارس وكتبوا الشعارات التي تندد بزيارة كارتر والمؤامرة الثلاثية على حقوق الشعب العربي الفلسطيني » (المصدر نفسه والاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣) . وفي هذه الاثناء كان طلاب جامعتي بيت لحم وبيرزيت قد دعوا رؤساء البلديات والاعيان في الضفة الغربية ، للمشاركة في الاجتماع الجماهيري السياسي في ١٩٧٩/٣/١٢ في اطار التصدي لزيارة كارتر والمعاهدة المصرية الاسرائيلية المنفردة ، الا ان سلطات الحكم العسكري لمنطقة بيت لحم « استدعت مساء ١٩٧٩/٣/١١ رؤساء بلديات بيت جالا وبيت ساحور وابلغتهم امرا صادرا عن الحاكم العسكري العام للضفة الغربية ، يمنعهم بموجبه من حضور اي اجتماعات سياسية او عادية لكل من جامعتي

بيرزيت وبيت لحم » ، وطلبت هذه السلطات اليهم « ابلاغ جميع رؤساء واعضاء البلديات والمجالس المحلية في الضفة الغربية بهذا الامر الذي ينطبق عليهم » ٠ (الفجر وهآرتس ومعاريف وعل همشمار ور٠٦٠١ ، ١٩٧٩/٣/١٢) ٠

ومن ناحية اخرى « وضع الحكم العسكري الحواجز حول جامعة بيرزيت لمنع عقد الاجتماع السياسي الذي قرره الطلاب » ، الذين « ظلوا يواصلون استعدادهم لهذا الاجتماع» ، كما استدعيت الصحفية ريموندا الطويل الى قيادة المنطقة لـ « تحذيرها كي توقف نشاطاتها التحريضية .» ، (ر٠٦٠١ ، ١٩٧٩/٣/١٢ ومعاريف ، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠

وهكذا ، و « خلافا لاوامر الحكم العسكري الصريحة » ، وعلى الرغم من « التحذيرات المتكررة في الايام الاخيرة ، تجمع طلاب كلية بيرزيت للتظاهر » في اليوم التالي ، ١٩٧٩/٣/١٢ مطالبين الاهالي بالانضمام اليهم ، وحين تصدت لهم قوات الاحتلال كان رد الفعل « رجم رجال الامن بالحجارة ومحاولة اقامة الحواجز في الطرقات ، وترديد هتافات التنديد بالحكم العسكري الاسرائيلي وبالحكمين الاميركي والمصري» (معاريف، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠ ثم ما لبث ان « التهبت العواطف اكثر وازدادت الثورة الى ان وقع الصدام بين الطلاب ورجال الامن » ففتح اولئك « نيرانهم على المشاغبين وجرحوا ثلاثة شبان منهم ، احدهم طالب ثانوي والاخرين طالبي جامعة وهم : حسن احمد الحاج ، وفهد محمد علي ، وماهر صباح» (معاريف والاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠ وعلى اثر هذا العدوان الدموي « التهبت العواطف، وبدأ الطلاب يتراكضون هائجين في شوارع المدينة وازقتها وهم يهتفون : نعم لـ م٠ت٠ف٠ ولا لاسرائيل ، رافعين الاعلام الفلسطينية ، ويرشقون الجنود ، الذين كانوا يطاردونهم في الشوارع بالمواد المشتعلة وقطع الخشب » (المصدر نفسه) ٠ ونتيجة لهذه الاعتداءات قدمت جميع الهيئات التدريسية في لواء رام الله « استقالتها من العمل الى الحكم العسكري احتجاجا على هذا الارهاب » (ر٠٦٠١ ، ١٩٧٩/٣/١٢ والاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠ وسرعان ما فرضت سلطات الاحتلال « حظر التجول على مدينة بيرزيت » ، كما واستدعى قائد المنطقة العميد ثاني بنيامين بن العازار مدير كلية بيرزيت ، د٠ غابي برمكي وطلب اليه ان يسيطر على طلابه ، والذي اجابه بانه « لا يستطيع فعل ذلك لان الامر يتعلق بشبان يافعين وليس باطفال قصر » (معاريف ، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠ وقد استمر منع التجول بهدف « اعتقال منظمي المظاهرات والمشتركين في اعمال الشغب » ،وقد تم في البدء « اقتحام الكلية التي التجأ اليها المئات من الطلبة» وبعد ذلك « اقتيد جميع الشبان والرجال للمثول في شوارع المدينة للتدقيق » (المصدر نفسه) ٠

ولم يقتصر الامر على بيرزيت ، فقد امتدت « المظاهرات والاضرابات والحواجز والاشتباكات والاخلال بالنظام مجددا ، في مدينة رام الله ومنطقتها ، واريحا ومخيمات اللاجئين في منطقة اريحا ، وقرية ترمسعيا ، حيث اغلق الطلاب الطرق في اماكن عديدة » ٠ كما « اقيمت الحواجز في عديد من القرى في المنطقة ورشق الطلاب السيارات بالحجارة » (ر٠٦٠١ ، ١٩٧٩/٣/١٢) ومعاريف ويديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٣/١٣) ٠

اما في مدينة بيت لحم فقد « اغلقت سلطات الاحتلال المنطقة في وجه رؤساء البلديات والمجالس المحلية لمنعهم من

المشاركة في الاجتماع الاحتجاجي في كلية بيت لحم مما ادى الى الصدام مع الطلاب » (الاتحاد ، ١٩٧٩/٣/١٢) ، فقامت سلطات الاحتلال بـ « اعتقال عدد من الطالبات واغلاق مدرستين ثانويتين» . ثم اتسعت حملة الاعتقالات هذه لتشمل « طلاب وطالبات قلندية وبيت ساحور وبيت لحم ومخيم دهيشة وحلحول بعد ان قاموا باعمال شغب » (المصدر نفسه) .

المستوطنون اليهود يشاركون في قمع المواطنين الفلسطينيين

كانت المظاهرات والاضرابات قد تجددت لليوم الرابع على التوالي و « امتدت الى جميع مدن الضفة الغربية وحلت الفوضى المطبقة » ، (معاريف وهآرتس ، ١٩٧٩/٣/١٤) . وكانت مدينة رام الله « تقف في مركز الاضطرابات حيث لم تشهد اعمال شغب في مثل هذا العنف منذ مدة طويلة » ، فقد « تعطلت الحياة التجارية في المدينة ، والطلاب لم يذهبوا الى المدارس ، وحتى عمال البلدية تغيبوا عن اماكن عملهم » ، الامر الذي « مكن مئات الطلاب من ان يسيطروا على جميع الشوارع الرئيسية والازقة ويصولون ويجولون على هواهم » . وكان الطلاب قد « اقاموا حواجز الحجارة في عرض الطرق ، واعدوا الدواليب للاشعال ، وفي اطراف المدارس كومت تلال الحجارة من اجل قذفها على رجال الجيش والشرطة » (المصدر نفسه) . وما أن اندفع جنود الاحتلال الذين استنفروا الى شوارع المدينة لقمع المظاهرات حتى « ووجهوا بوابل من مطر الحجارة يتساقط من فوق الاسوار وسطوح المنازل » ، وعندما اقتربوا من داري المعلمين والمعلمات « وجدوا انفسهم في مواجهة فتيان وفتيات يرجمونهم بالحجارة ، ثم يلجأون الى الصفوف » . وبعد ان « تكررت لعبة الحجارة هذه مرات عديدة واشتد الوضع وصل الى المكان منسق العمليات في المناطق ... العميد ثاني داني مات برفقة قائد منطقة الضفة الغربية العميد ثاني بنيامين بن العازار وقرر اغلاق داري المعلمين والمعلمات » (المصدر نفسه) .

ومن الجدير بالذكر ، ان المستوطنين اليهود في مستوطنة عوفر قد نظموا في مجموعات وانضموا الى قوات جيش الاحتلال التي كانت تهاجم المتظاهرين في شوارع رام الله والبيرة ، كما هاجمت مجموعات منهم المتظاهرين في شوارع البيرة « في محاولة لفرض النظام بقوتهم الذاتية ، وفتحوا النار على المتظاهرين عدة مرات » . كذلك « أجبروا فتيانا عربا صغارا على ازالة حواجز الحجارة من الطرقات تحت تهديد بالسلاح» (معاريف ويديعوت احرونوت وهآرتس ، ١٩٧٩/٣/١٤ ودافار ، ١٩٧٩/٣/١٥) .

مركز الانتفاضة ينتقل الى القدس العربية

ومع حلول اليوم الخامس على اندلاع المظاهرات والاضرابات في الضفة الغربية المحتلة ، وبعد الاعلان عن قرب توقيع معاهدة السلام المنفردة بين مصر واسرائيل ، اتخذت هذه التظاهرات في يوم ١٩٧٩/٣/١٤ طابعا اعنف واشمل ، وتحولت الى انتفاضة شاملة في كافة انحاء الضفة الغربية . وكانت مدينة القدس العربية المحتلة هذه المرة هي مركز الانتفاضة بعد ان كانت قد تركزت منذ اندلاعها في مدينة رام الله ومنطقتها ،فقد « انفجرت في [ذلك اليوم] عبوة ناسفة في سيارة باص لنقل الطلاب اليهود

كانت متوقفة في احد شوارع حي مورواشاه في القدس ، حيث اسفر الانفجار عن اضرار مادية فقط » (ر٠١٠١ ، ١٤/٣/١٩٧٩ ودافار ، ١٥/٣/١٩٧٩) . كذلك قام طلاب مدرسة عبد الله بن الحسين بـ « عرقلة حركة السير ،واشعلوا النار بالدواليب في زقاق قرب القيادة العامة للشرطة الاسرائيلية ، وسدوا الطريق بالحجارة ، ورشقوا السيارات التي كانت تمر من هناك بها » ، فاقتحم حرس الحدود المدرسة «واعتقل ٢٧ طالبا منهم » (ر٠١٠١، ١٤/٣/١٩٧٩) . وبالقرب من جبل المكبر « احتشد عدد كبير من الطلاب فحاصرتهم قوات حرس الحدود » (المصدر نفسه) . ورغم « حشد قوات كبيرة من الشرطة وحرس الحدود في القدس الشرقية، للحيلولة دون اندلاع المظاهرات، « نجحت مجموعات كبيرة من الطلاب العرب بالدخول الى مناطق المدينة القديمة » وراحوا « يغيرون امواجا امواجا في اتجاه بوابة نابلس ، ويرجمون رجال الامن بالحجارة وبعد ذلك يختفون في الازقة » ، (ر٠١٠١ ، ١٤/٣/١٩٧٩ ويديعوت احرونوت وهآرتس ، ١٥/٣/١٩٧٩) . وفي منطقة الطور وبالقرب من فندق انتركونتننتال على جبل الزيتون « وضع الطلاب العرب حواجز من الحجارة في الشواع ورجموا السيارات » ، كما « اغلق العديد من المتاجر » (المصدر نفسه) . وقد قامت قوات الاحتلال بمهاجمة المتظاهرين وملاحقتهم و« اوقفت ١٤ شابا كانوا يرشقون الحجارة على حرس الحدود في بوابة الزاهرة » ، كما « اضربت مدرستان في شرقي القدس هما الابراهيمية والمأمونية » ، وراح الطلاب « يجوبون شارع الوادي والسلسلة في القدس القديمة ويعملون على اقناع التجار وتهديدهم لحملهم على اقفال محالهم ، بينما راحت قوة من حرس الحدود تطاردهم » (المصدر نفسه) .

اما في مدينة الخليل فقد « جرت مظاهرات طلابية رفع خلالها المتظاهرون العلم الفلسطيني ، وحاولوا قطع الطريق الرئيسي ، ورشقوا قوات الامن بالحجارة فيمستديرة السوق وقرب الحرم الابراهمي ، بينما اقفل التجار محلاتهم » (المصدر نفسه) . وفي مخيمي قلندية ودهيشة وبيت لحم واريحا والعديد من القرى في قضاء رام الله « اضرب الطلاب عن الدراسة وتظاهروا وقذفوا قوات الامن بالحجارة » . كما « استمر الطلاب في مدينة رام الله وفي البيرة في اعمال الشغب ، والتجار في اضرابهم » ، بينما « رجم المتظاهرون في قرية حوارة باصا للسواح وكسروا زجاجه » . اما في مدن وقرى الضفة الغربية فقد « كانت هناك اعمال شغب وفي عدد من المدارس لم يدخل الطلاب الى صفوفهم » (المصدر نفسه) .

وفي هذه الاثناء ارسل رئيس بلدية نابلس بسام الشكعة « برقية شديدة اللهجة » موقعة من جميع اعضاء بلدية نابلس ، الى وزير الدفاع الاسرائيلي « يحتج فيها على المعاملة السيئة للحكم العسكري تجاه المواطنين العرب » ، جاء فيها « ان المؤامرات التي تحاك في تل ابيب وفي القاهرة ضد شعبنا الفلسطيني لن ترهبنا » (هآرتس ويديعوت احرونوت. ١٥/٣/١٩٧٩) .

استشهاد متظاهرين في حلحول واصابة ثالث

وفي حلحول فرضت سلطات الاحتلال في نفس اليوم (١٥ آذار) « حظر التجول على البلدة ، وقامت باعتقال عدد كبير من المتظاهرين » (ر٠١٠١ ، ١٥/٣/١٩٧٩) ، بعد ان قام اولئك « برجم سيارة باص في الساعة السابعة والنصف

مساء ، كانت تتجه من القدس الى مستوطنة كريات اربع » (المصدر نفسه)٠ وبعد منتصف الليل « استدعي جميع اعضاء المجلس الى مبنى الحاكم العسكري واحتجزوا طوال الليل في باحته » . (المصدر نفسه ومعاريف ، ١٩٧٩/٣/١٦) ٠ وفي مقابلة مع جريدة معاريف (١٩٧٩/٣/١٦) قال رئيس المجلس المحلي في حلحول محمد ملحم : « استدعيت مع اعضاء اللجنة سوية الى مقر الحاكم العسكري في الساعة الثانية بعد منتصف الليل ، وهناك طلبوا الينا ان ننتظر ٠ مرت ساعة ٠٠٠ ساعتان ولم يكلمنا احد ٠ فبقينا في الممر حتى الصباح » ٠ واضاف ملحم : « وفي الساعة التاسعة صباحا فقط ، استدعانا الحاكم العسكري واتهمنا بأنني واعضاء المجلس مسؤولون عن كل ما يحدث في حلحول ، وحين عدنا الى البلدة عرفنا ان ثمة اضطرابات وان اثنين من الاهالي قد استشهدا » (معاريف ، ١٩٧٩/٣/١٦)٠

والذي حصل في حلحول صبيحة ١٩٧٩/٣/١٥ هو ان بركان الانتفاضة في الارض المحتلة كان قد انتقل اليها في اليوم السادس لتفجره ، اثر حظر التجول على البلدة واستدعاء رئيس واعضاء المجلس المحلي الى مقر الحكم العسكري واحتجازهم طوال الليل ٠ فما كان من طلاب المدرستين الثانويتين في حلحول الا ان « تجمهروا منذ ساعات الصباح المبكرة في الشوارع ، متحدين حظر التجول الذي فرض على البلدة » (ر٠ع٠ف ، ١٩٧٩/٣/١٥ ومعاريف ، ١٩٧٩/٣/١٦) ٠ وفي الساعة الثامنة صباحا كانوا قد سيطروا على شريان المواصلات الرئيسي الذي يربط القدس بالخليل وبئر السبع ٠٠٠ وحاصروا دورية تابعة للجيش الاسرائيلي لم تكن مؤهلة لان تسيطر على ما يقارب الـ ٤٠٠ طالب وطالبة كانوا يشاغبون ويصولون ويجولون ويرجمون بالحجارة في كل اتجاه ، ويرددون هتافات التنديد في وجوه الجنود » (المصدر نفسه) ٠ وحوالي الساعة التاسعة صباحا كان الوضع،قد وصل في الشارع الرئيسي الذي يقطع البلدة الى « الحد الذي كانت فيه الدورية في حاجة لطلب النجدة ، اذ ان الجنود المتواجدين في المكان قد صدوا او انهم خشوا الاصطدام مع جموع الطلاب الهائجة » (المصدر نفسه) ٠ وكانت في هذا الوقت مجموعات من « مستوطني كريات – اربع » اليهود تساند قوات الاحتلال في قمع المتظاهرين على غرار ما حصل في مدينة رام الله وفي البيرة قبل يومين ، وفي هذه الاثناء كان الصدام قد « وقع بين الجنود الاسرائيليين والمدنيين اليهود وبين الطلاب الثائرين فاطلقت النار خلالها على المتظاهرين وقتل اثنان من الطلاب (وآخر جرح) بعد ان كانا قد اصيبا في الرأس وفي الصدر ، وهما رابعة شلالدي (١٧ سنة) تلميذة المدرسة الثانوية ، وناصر عناني (٣١ سنة) عامل ، اما الجريح فهو يوسف بدوي » (المصدر نفسه) ٠ وقد سارع على اثر ذلك « قائد المنطقة الوسطى وقائد الضفة الغربية الى حلحول للتعرف على اسباب الحادث ، بعد ان جددا فرض نظام حظر التجول على البلدة » (المصدر نفسه) ٠

وكما هي العادة في حوادث اطلاق النار على المتظاهرين والقتل المتعمد اثناء المظاهرات في الضفة الغربية ضد الاحتلال الصهيوني ، راحت سلطات الاحتلال هذه المرة ايضا تبحث عن القاتل، وعن الذي اعطى الاوامر باطلاق الرصاص والقتل ٠ فالمتحدث الرسمي باسم الجيش الاسرائيلي ، الذي يؤكد « على وجود مدنيين يهود مع الجنود في الصدام مع المشاغبين » ، يفيد بأن هذه الحقيقة تثير عدة اسئلة « أهل كان الذي اطلق الرصاص على المشاغبين جنديا ام مدنيا؟ »

واذا كان كذلك « من الذي اعطى الاوامر بفتح النار عليهم ، وفي اية ظروف اجبر على اطلاق النار ؟ » (المصدر نفسه) ٠ وهذا ما استدعى قائد المنطقة الوسطى العميد موشي ليفي ، وقائد الضفة الغربية العميد ثاني بنيامين بن العازار ان «يمكثا ساعات كثيرة في حلحول ويجريا تحقيقا بنفسيهما مع الجنود والمدنيين » ، الا انهما « لم يصلا الى نتيجة » ، رغم انه وجد في مكان الحادث خراطيش سلاح من « النوع الذي في حوزة الجيش الاسرائيلي » (المصدر نفسه) ٠

غير ان ضابط الامن في كريات اربع يروي انه « بعد ان استقبلت مكالمة هاتفية من احد المدنيين الذي كان في حلحول ، والذي اخبرني بارتباك عما يحدث هناك ، اتصلت مباشرة بحاكم الخليل العسكري وبقائد منطقة الضفة الغربية واخبرتهما بكل ما هو معروف لدي ، الا ان قائد منطقة الضفة الغربية اجابني بأنه على اطلاع كامل على كل ما يحدث في المنطقة وسوف يتجه الى المكان » (المصدر نفسه) ٠ ولكن في الوقت الذي « كان فيه ضابط الامن يقدم تقريره لقائد منطقة الضفة الغربية عما يحدث في حلحول كان قد حدث الصدام بين الجنود والمدنيين اليهود وبين الطلاب الثائرين وقتل اثنان وجرح آخر » ، (ر٠٦٠١ ، ١٩٧٩/٣/١٥ ومعاريف ، ١٩٧٩/٣/١٦) ، مما يشير الى ان الاوامر باطلاق النار على المتظاهرين قد اعطيت من قائد الضفة الغربية العسكري العميد ثاني بنيامين ـ بن العازار ٠

ومهما يكن ، فقد كان يوم الخامس عشر من اذار ١٩٧٩ « ذروة الانتفاضة الشعبية في الضفة الغربية ضد الولايات المتحدة والمعاهدة المنفردة بين مصر واسرائيل ، واقامة حكم ذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ٠٠٠ يوما مغطى بالدخان ، يوم حواجز ورجم حجارة ، ويوم عداء لدولة اسرائيل وكراهية للحكم العسكري الاسرائيلي ٠٠ هذا اليوم الذي لاقى فيه شابان حتفهما في صدام مع جنود الجيش الاسرائيلي وعدد من المدنيين اليهود في بلدة حلحول » (معاريف ، ١٩٦٩/٣/١٦) ٠ وليس في حلحول وحدها وانما في « رام الله وفي البيرة وفي بيرزيت وفي بيت لحم وفي بيت ساحور ، وفي بيت جالا ، وفي الخليل وفي سائر مدن وقرى الضفة الغربية » ، (المصدر نفسه) ٠

وفي اليوم التالي الجمعة ١٩٧٩/٣/١٦، كانت بلدة حلحول في الصباح وكأنها « مدينة اشباح في كل شيء ٠ فمداخل البلدة محروسة بجنود الجيش الاسرائيلي وكل المحلات التجارية مغلقة ، والنوافذ مقفلة ٠٠٠ ويظهر ان قوات الامن مستعدة لفرض حظر التجول على حلحول لمدة طويلة » ، (ر٠٦٠١ ، ١٩٧٩/٣/١٦) ٠ وفي المساء « جرت جنازة الشابة رابعة شلالدي بدون احداث تذكر » ، (هآرتس، ١٩٧٩/٣/١٨) ٠ اما جنازة الشهيد نصري عناني فقد « جرت في الساعة التاسعة والنصف ليلا ، وشارك فيها المئات من ابناء قريته سعير ، وقد حاول الشباب القيام بمظاهرة الا ان قوات الامن منعتهم من ذلك » (المصدر نفسه) ٠ وكانت قد اقيمت خلال النهار « جنازة رمزية للشابين اللذين قتلا في حلحول تحولت الى مظاهرات اصيب خلالها جندي اسرائيلي وفتاة من سكان القرية بجروح ، ففرض على القرية منع التجول»٠ وبهذا يكون منع التجول قد فرض على (ثلاث قرى في الضفة الغربية وهي حلحول وسعير وبيت عور التحتا» (ر٠٦٠١، ١٩٧٩/٣/١٥) ٠

استمرت المظاهرات والاضرابات والاعتصامات في المدارس في الضفة الغربية وقطاع غزة ، احتجاجا على زيارة كارتر للمنطقة وضد توقيع المعاهدة المصرية الاسرائيلية المنفردة طيلة الاسبوع التالي لاحداث حلحول . و « لا بد من الاشارة هنا الى حقيقتين وهما : وصول الاضطرابات واعمال الشغب الى القرى الصغيرة الواقعة خارج المدن الكبرى ، وتحول القدس الى بؤرة الاضطرابات » (ر٠٦٠١٠ ، ١٩٧٩/٣/١٨) .

وكانت « سلطات الحكم العسكري قد زادت من قواتها في كل من الضفة الغربية وخاصة مدينتي القدس والخليل بعد احداث حلحول » بسبب التخوف من ان استشهاد الشابين في حلحول « سوف يستغل للتحريض في المساجد » ، كما وصلت الى القدس الشرقية « قوات امن كبيرة ، جزء منها تعزيزات من خارج القدس ، ووضعت في اماكن مختلفة من البلدة القديمة ، نظرا للتوتر الشديد الذي يسود القدس استعدادا لصلاة يوم الجمعة في المسجد الاقصى ». وقد تخوفت السلطات من ان « آلاف المصلين قد يثورون بسبب احداث يوم ١٩٧٩/٣/١٥ في جبل الخليل ، وبسبب المعاهدة المرتقبة مع مصر » (ر٠٦٠١٠ ، ١٩٧٩/٣/١٥) . وبالفعل فقد « تجددت اعمال الشغب في القدس الشرقية يوم السبت [١٩٧٩/٣/١٧] ، حيث اطلقت فيها النيران ، وقوات الشرطة هوجمت ، والحجارة رجمت » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/١٨) . وكانت هذه « الاضطرابات قد بدأت عندما شرعت مجموعة تتكون من ٢٠ شخصا ، من طلاب المدارس الدينية اليهودية من الحي اليهودي القديم في القدس القديمة ، بالصلاة في باحة المسجد الاقصى » ، فانقض عليهم شبان من العرب « ورجموهم بالحجارة ، فأصيب احد الطلبة بحجر في رأسه » ، (ر٠٦٠١٠ ، ١٩٧٩/٣/١٧ وهارتس ، ١٩٧٩/٣/١٨) . وسرعان ما « انتشرت الصدامات الى الازقة القريبة من المسجد الاقصى ، وراح العرب يرجمون المارة بالحجارة دون تمييز ، بما فيهم السواح ، واشتبكوا مع اليهود الذين كانوا في طريقهم الى حائط المبكى » . واثناء هذه الاشتباكات «سمع اطلاق رصاص ، الا انه لم يتضح من هم مطلقوه » . وقد اعتقلت سلطات الاحتلال « احد طلاب المدرسة الدينية الذي كان يحمل بندقية في يده ، وعربيا كان يرجم الحجارة » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/١٨) ، وفي ساعات المساء « هاجم الشبان العرب رجال الشرطة الذين كانوا بالقرب من مستشفى هوسبس » في شارع الوادي في القدس القديمة ، فراح احد رجال الشرطة المطوقين بعدد كبير من العرب « يطلق الرصاص في الهواء لكي يدافع عن نفسه » ، فسارعت اليهم قوات الامن و « انقذته ثم اعتقلت اربعة من الشبان العرب المشاغبين » ، (المصدر نفسه) .

وكان حرس ساحة المسجد قد « القوا القبض ست مرات خلال شهر اذار على بعض اليهود الذين وزعوا منشورات مناهضة للعرب وحاولوا تثبيت العلم الاسرائيلي فوق قبة المسجد الذهبية » ، (السفير ، ١٩٧٩/٣/٢٤) ، كما ان « خمسة عشرشخصا من هؤلاء اقتحموا المجلس الاسلامي في وقت سابق من هذا الشهر ـ آذار ـ ودنسوا اماكن العبادة »، مما حمل الزعماء الدينيين على توجيه نداء لحماية الاماكن المقدسة من وحدات الاسرائيليين المتطرفة » (المصدر نفسه) . وقد زادت هذه الاعتداءات على الاماكن المقدسة ، والنداء الذي وجهه الزعماء الدينيين ، من « حدة التوتر وتصاعد

الرفض للمعاهدة المنفردة في القدس الشرقية » ، وخاصة اثر لتصريحات التي ادلى بها مناحيم بيغن بان « القدس ستبقى موحدة وعاصمة اسرائيل الى الابد » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/٢٥) ·

وتلبية للنداء الذي وجهه الزعماء الدينيون « احتشد حوالي الفي عربي من القدس الشرقية ، امام المسجدالاقصى في مظاهرة احتجاج ضد صلاة اليهود في المكان » ، بينما كان العشرات من الشبان قد « باتوا ليلتهم على السطوح وداخل المسجد » (المصدر نفسه) · وقد وصل عدد المتظاهرين امام المسجد الى حوالي « ١٠٠٠٠ شخص ، مكثوا هناك لمدة عشر ساعات ، وجاء العديد منهم من مدن طولكرم ونابلس وجنين والخليل ورام الله » ، (السفير ، ١٩٧٩/٣/٢٤) · وقد كرست خطب يوم الجمعة ١٩٧٩/٣/٢٣ في المسجد الاقصى وفي كل مساجد القدس « للتحريض ضد الحكم الذاتي والدعوة للاضراب العام احتجاجا على معاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية المنفردة » (معاريف ويديعوت احرونوت وهآرتس ، ١٩٧٩/٣/٢٥) · وفي اليوم التالي ، السبت ١٩٧٩/٣/٢٥ وهو اليوم الذي سبق توقيع المعاهدة ، بدت القدس في ساعات الصباح الباكر « وكأنها مدينة اشباح في كل شيء » ، فقد « اغلقت جميع المحلات التجارية ـ وهو ما لم يحدث منذ ثلاث سنوات » (المصدر نفسه) · وعند الظهيرة « كان في المسجد الاقصى حوالي ٢٠٠٠ [و ١٠٠٠٠ حسب رواية رويتر ١٩٧٩/٣/٢٤] متظاهر ـ مصل · وقد تقدم المتظاهرين المئات من الشبان المسلحين بالعصي والحجارة بينما كان رجال الوقف الاسلامي يوزعون عليهم الخبز والجبن الذي كانوا قد اعدوه سلفا » (المصدر نفسه) ·

وفي مواجهة ذلك حشدت سلطات الاحتلال« قوات ضخمة من رجال الشرطة والمظليين وحرس الحدود الذين اغلقوا جميع المداخل المؤدية للمسجد الاقصى ، وسمحوا بالخروج منها فقط » (المصدر نفسه) · وحوالي الساعة الرابعة بعد الظهر « حاول عشرات من طلاب المدارس الدينية اليهود ، اقامة الصلاة في باحة المسجد » ، وكرد فعل على ذلك « امطرهم المتظاهرون بوابل من الحجارة ، فقامت الشرطة باعتقال ٥٥ عربيا » ، (المصدر نفسه) · كما و « انفجرت عبوة ناسفة في مستديرة صهيون في القدس الغربية قتلت شخصا وجرحت ١٣ » (المصدر نفسه) · وقد ابدت سلطات الاحتلال في اعقاب ذلك « تخوفها من تصعيد المظاهرات في القدس الشرقية » ، نظرا « لجرأة المئات من الشبان على التسلح بالعصي والحجارة واستجابة التجار لدعوة المحرضين على الاضراب لاغلاق متاجرهم » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/٢٥) · واعربت السلطات عن تخوفها من «انتقال بؤرة المظاهرات من الضفة الغربية الى القدس الشرقية ، لتوجيه الانظار لمشكلة القدس التي لم تطرح في المباحثات الاخيرة قبل توقيع اتفاقية السلام » (المصدر نفسه) ·

ونظرا لذلك فقد « عززت سلطات الحكم العسكري قواتها في الضفة الغربية استعدادا ليوم الغد الاثنين ١٩٧٩/٣/٢٦ موعد توقيع الاتفاقية » ، تحسبا من « اضرابات تجارية ومدرسية في جميع انحاء الضفة الغربية ، احتجاجا على توقيع معاهدة السلام » ، بينما ظل حظر التجول « ساري المفعول على بلدة حلحول لليوم الحادي عشر على التوالي » (المصدر نفسه) · وقد اقترنت هذه الاستعدادات العسكرية والامنية التي اتخذتها سلطات الاحتلال ، في مواجهة هذه الانتفاضة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، بتصريحات لعدد من المسؤولين الحكوميين تذكر

الفلسطينيين بنكبة عام ١٩٤٨ ، وبعملية طردهم من فلسطين · فقد حذر وزير الزراعة ارييل شارون ، كما حذر من قبله موشي ديان « عرب الضفة الغربية بان لا يثيروا القلاقل كي لا يجروا على انفسهم كارثة عام ١٩٤٨ مرة اخرى » (هآرتس، ١٩٧٩/٣/٢٥) · واضاف شارون « اننا لن نسمح باعمال الشغب من قبل السكان العرب » وتلك الاعمال « لن تزحزحنا عن تنفيذ مخططاتنا » (المصدر نفسه) · ثم توجه شارون ، الذي كان يتحدث في نادي المهندسين في تل ابيب يوم ١٩٧٩/٣/٢٤، بالحديث الى الجمهور الاسرائيلي محرضا اياه على العرب قائلا : « من كان منكم مستعدا لتحمل اعمال الشغب في حلحول ورام الله ، سيضطر غدا لتحمل تصرفات مشابهة في الناصرة وعكا [المحتلتين منذ عام ١٩٤٨] » (المصدر نفسه) · وقد يدل هذا على ان سلطات الاحتلال تقف خلف اشراك المستوطنين المدنيين في عملية « حفظ الامن الذاتي » التي اتخذوا قرارا بشأنها ، والاعتداء على المتظاهرين واطلاق الرصاص عليهم في حلحول ورام الله والبيرة والخليل · ويأتي هذا التحذير بعد ان كان قد تقرر في « المشاورات » التي جرت على مستوى حكومي عال ، يوم الجمعة ١٩٧٩/٣/١٦ « اقرار سياسة الحكم العسكري الحالية » ، الذي يتصرف الان بمنتهى الشدة مع المخلين بالنظام ، والمتظاهرين في الضفة الغربية، بما في ذلك فرض حظر التجول لمدة طويلة في المدن والقرى التي يجري فيها اخلال بالنظام بشكل استثنائي ··· كما هو حاصل في حلحول وسعير وبيت عور التحتا » (هآرتس ، ١٩٧٩/٣/٢٠) ·

يوم حداد وطني في الضفة الغربية وقطاع غزة

و « يوم اسود » ، هذا هو عنوان جريدة الشعب الصادرة فيالقدس الشرقية يوم ١٩٧٩/٣/٢٦ ، فاليوم توقع مصر واسرائيل على معاهدة منفردة ، وهو يوم اسود للامة العربية » ، (الفجر ور٠١٠٠ ، ١٩٧٩/٣/٢٦) · واليوم « تشهد الضفة الغربية وقطاع غزة اضرابا عاما على توقيع المعاهدة السلمية » وذلك بناء على نداء من رؤساء البلديات والمنظمات المختلفة كان قد وجه الى اهالي المناطق [المحتلة] » ، (ر٠١٠٠ ، ١٩٧٩/٣/٢٦)· باعتباره « يوم حداد وطني » ، (السفير ، ١٩٧٩/٣/٢٥) بيت لحم ورام الله« عالمان مختلفان ··· ولكن ما حصل فيهما بالامس عبر عن كل ما هو مشترك بين العرب ، المسيحيين والمسلمين ، الاغنياء والفقراء ، الشباب والكهول » (المصدر نفسه) · وما كان قد اقره رؤساء البلديات « نفذ · فللمرة الاولى منذ ثلاث سنوات تشل الحياة اليومية في مدن الضفة الغربية تماما · حوانيت مقفلة ، ومدارس مغلقة ، ومكاتب مقفرة » ، وما كان « الاضراب قد انتقصه اكمله المطر الغزير الذي راح ينهمر منذ ليل امس الاول ، وراح يضرب شبابيك مغلقة وارصفة مقفرة ولا غير بائعي الصحف المحشوة مقالات واخبار ضد معاهدة السلام المنفردة بين مصر واسرائيل ، كانوا يقفزون من مظلة الى مظلة ويبيعون صحف « الشعب » و « القدس » و « الفجر » (معاريف ، ١٩٧٩/٣/٢٧) · وبين رؤساء البلديات كان يسود « انسجام في الرأي » ، وما كان « على لسان الياس فريج من بيت لحم كان على لسان كريم خلف من رام الله : ضد المعاهدة المنفردة بين اسرائيل ومصر ، وضد مشروع الحكم الذاتي ، وضد الاستيطان اليهودي في الضفة ، ومع الانسحاب الشامل والنهائي » (المصدر نفسه) ·

توفيق فياض

اسـرائيليات

السلام على الطريقة الاسرائيلية

في السادس والعشرين من اذار الماضي برزت بوضوح للمرة الاولى في تاريـخ الصراع العربي الصهيونـي امكانيـة تحقيق المبدأ الثالث لصـاحب النظريـة الصهيونية تيودور هرتسل ، وذلك بعد ان اتسم المبدأ الاول ، ولا زال ، يتعثر فـي مساره ، الا وهو جمع معظم يهود العالم فيما يسمى بـ « ارض اسرائيـل » ، اي المشرق العربي ، وتحقق في العام ١٩٤٨ المبدأ الثاني المتمثل بالدعوة لقيام « دولة اليهود » . ومع التوقيع على معاهـدة السلام المصرية الاسرائيلية فتح البـاب على مصراعيه امام امكانية تحقيق المبـدأ الثالث الداعي الى اقامة وطن « آمـن » لليهود .

وقبل ان نتطرق الى وجهات النظـر المختلفة للتيارات الاسرائيلية حول معاهدة السلام ، تجـدر بنا الاشارة والتأكيـد ايضا ، الى ان العامل العربي الذاتي . كان وراء فرصة نجاح « المبدأ » الثالث، اكثر بكثير من العامل الصهيوني ، واكثر حتى من العامل الامبريالي على الرغم من باعه الطويل في هذا المجال بحكم مصالحه المتشابكة كثيرا مع مصالح كثير مـن الانظمة العربية .

المؤسسات الاسرائيلية تدرس المعاهدة

عقب قيام الرئيس الاميركي كارتـر بزيارة لكـل من مصر واسرائيل عنـد اواسط شهر آذار ، وتوصله مع الطرفين الى رسم المعالم النهائية لمعاهدة السلام ، عقدت الحكومة الاسرائيلية في التاسع من الشهر نفسه جلسة للتصديق على المعاهدة، حيث صوت الى جانبها ١٥ وزيرا ، بينما عارضها وزيران هما شارون ولانداو .

وسبق التصويت نقاشات حادة صاخبة بين رئيس الحكومة مناحيم بيغن ووزيـر الزراعة ارئييل شارون ، حين طلب الاخير من بيغن ان لا « يتهرب » ويقدم موقفـا واضحا من الحكم الذاتي .

وفي التاسع عشر مـن اذار تدارس مركز حركة حيروت المعاهدة وخرج فـي نهاية الامر بقرار يعرب فيه عن « تأييده الكـامل لسياسـة السلام التي ينتهجها رئيس الحكومـة وحكومتـه في ارض اسرائيل » .ولم تكن جلسة مركز حركـة حيروت بأفضل من جلسة الحكومة ، بـل تفوقت عليها من حيث شدة النقاشـات وتبادل التهم القـاسية التي ادت الـى اشتباكات بالايدي وتحطيم الطاولات بين الاكثرية المؤيدة لبيغن والاقلية المتمحورة حول « منبر الاوفياء لمبادىء حركة حيروت» برئاسة غيئولاه كوهين (انظـر معاريف ١٩٧٩/٣/٢٠) .

وفي الوقـت نفسه تدارسـت مساء التكتلات الحزبية الاخرى المعاهدة واوصت

بأكثرية الاصوات التصويت الى جانبها ، باستثناء كتلة راكاح التي دعت الى الوقوف ضدها ٠

ومن الجدير بالذكر ان رئيس الحكومة مناحيم بيغن ، تعهد عشية التصويت على المعاهدة في الكنيست ، خطيا لحزب المفدال (المشترك في الائتلاف الحكومي) بقبوله مبادىء الحزب فيما يخص الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما تعهد بـ « القيام باستيطان واسع في يهودا والسامرة فور الانتهاء من التوقيع على اتفاقية السلام » ، الامر الذي حدا بوزراء المفدال الى دعوة اعضاء كتلتهم في الكنيست للتصويت الى جانب المعاهدة ٠

الكنيست يقر المعاهدة

في العشرين من اذار شرع الكنيست بمناقشة معاهدة السلام ٠ وتعتبر هذه المناقشة الاطول من نوعها في تاريخ الكنيست ، وهي شبيهة الى حد كبير ، بتلك التي جرت قبل فترة حول التصديق على اتفاقيتي كامب ديفيد ٠ ولعل في الكلمتين اللتين القاهما كل من رئيس الحكومة ورئيس المعارضة اختزال لكلمات الاكثرية الساحقة من اعضاء الكنيست ٠

فخلال اليوم الاول من النقاش القى رئيس الحكومة مناحيم بيغن كلمة استغرقت حوالي الساعتين ، ركز فيها على « اللاءات الثلاثة » المتحكمة في سياسة حكومته ، وهي كما حددها : « لن تقام ابدا دولة فلسطينية ، و لن ننسحب الى حدود ١٩٦٧ ، ولن تقسم بعد الآن مدينة القدس الموحدة » ٠ وحذر بيغن في كلمته دول الجبهة الشرقية ، وخص بالتحذير سوريا ، كما شن حملة على م٠ت٠ف ناعتا اياها « بمنظمة القتلة » ٠

وقد قوطعت كلمة بيغن مرات عدة من قبل اعضاء كتلة راكاح ، حيث تصدى توفيق طوبي ، لبيغن عندما تطرق الى « اللاء » الخاصة بالدولة الفلسطينية ، ونعت منظمة التحرير بالصفة التي يحلو له تردادها ، قائلا له « انكم تقتلون الطلبة » ، مشيرا بذلك الى سياسة القمع الاسرائيلية في المناطق المحتلة وسقوط عدد من الطلبة العرب كضحايا لها٠

ورد عليه بيغن بتوجيه كلامه الى الاعضاء الشيوعيين : « انكم عملاء اجانب » ٠ ورد عليه فلنز بقوله : « انكم عملاء لاميركا » ، وعاد توفيق طوبي وهتف في وجهه مرة اخرى مذكرا اياه بقتل الطلبة الفلسطينيين في المناطق المحتلة « انكم قتلة الطلبة » ، ولم تهدأ الجلسة الا باخراج توفيق طوبي منها بالقوة ٠ وخرج معه تضامنا شارل بيطون من « الفهود السود » (معاريف ، ٢١/٣/ ٧٩) ٠

وفي خطابه الذي القاه في الكنيست ، عقب خطاب بيغن ، ايد زعيم المعارضة العمالية شمعون بيرس معاهدة السلام مع مصر ، مع حرصه على ان لا يخلو التأييد من انتقادات للحكومة وخاصة في مسألة ادارة المفاوضات ٠ واعاد بيريس الى الاذهان الموقف المعروف للتجمع العمالي بخصوص « الحل الوسط الاقليمي » الذي لم يتبعه الليكود في المفاوضات ، ليتطرق الى الحكم الذاتي ، فذكر ان حزبه يقترح أن يصدر الكنيست تعليمات للحكومة لادارة المفاوضات « بحيث تكون تسوية الحكم الذاتي تسوية انتقالية فقط ، لا تحول دون حل دائم يعتمد على حل وسط أقليمي في حدود قابلة للدفاع ، وتفضل بموجبه المعارضة الاردنية الفلسطينية على خطر قيام دولة فلسطينية تابعة لمنظمة التحرير

الفلسطينية ، وتبقى حماية البلاد من عدوان خارجي وارهاب داخلي ـ في ايدينا . ولا تكون مناطق الامن بمثابة مراكز فقط لمعسكرات الجيش الاسرائيلي، بل تبقى في نطاق السيطرة الاسرائيلية ، وتضم ايضا مناطق الاستيطان في غور الاردن وغوش عتسيون وجنوب غزة . كما ويضمن التعاون في تطوير مصادر المياه في المناطق . اما بالنسبة للقدس عاصمة اسرائيل ، غير المقسمة ، فمن البديهي ان يستمر القضاء والادارة الاسرائيلية » .

ولم يغفل بيريس عن شن حملة عنيفة ضد م.ت.ف وسوريا عند تحديده للاخطار التي تواجه اسرائيل بقوله « ... اننا نرى ان الاخطار تكمن في الجبهة الشرقية ، ونداءات القتل الصادرة عن منظمة التحرير الفلسطينية وزعيمها ضد اليهود والعرب معا ... » (المصدر السابق) .

وعند فجر الثاني والعشرين من اذار ، وبعد ٢٨ ساعة من المناقشات ، صادق الكنيست على معاهدة السلام مع مصر بأكثرية ٩٥ صوتا ، ومعارضة ١٨ صوتا ، وامتناع عضوين ، وتغيب خمسة اعضاء عن النقاش .

ومن الملاحظ ان المعارضين للمعاهدة هم من الاوساط اليمينية الدينية المتطرفة او من الجبهة الديموقراطية للسلام وللمساواة وبزعامة راكاح ، اذ اعتبر الوسط اليميني الديني المتطرف ان المعاهدة لا تنطوي على شيء يفيد المشروع الصهيوني ، بينما رأى فيها الوسط اليساري الذي تقوده راكاح ، غبنا للشعب الفلسطيني وللحل الشامل «العادل» في المنطقة .

بعد لعتماد التكتلات الحزبية والكنيست للمعاهدة توجه بيغن الى واشنطن للتوقيع عليها مع نظيره الرئيس السادات وعراب المعاهدة الرئيس كارتر .

وكانت لا تزال ، عشية التوقيع على المعاهدة ، مسألة موعد انسحاب اسرائيل من آبار النفط في منطقة الطور غير محسومة . وجرت مفاوضات حول هذا الموضوع بين بيغن والسادات في السفارة المصرية في واشنطن تخللتها بعض اللحظات الحرجة حين طلب السادات وتمنى على بيغن تعجيل موعد الانسحاب من الآبار ، مقابل تعهده بتزويد اسرائيل بنفس كميات النفط المستخرجة منها . بيد ان بيغن تردد في الاستجابة لطلب الرئيس المصري ، الامر الذي دفع السادات لابداء ملاحظة لنظيره توحي بأنه يتصرف بخبث : « انك حكيم للغاية » . ورد عليه بيغن بصوت مرتفع : « سيدي الرئيس . لست حكيما . بل انا انسان بسيط جدا . انني اهتم فقط بأمن دولتي » ! (معاريف، ٧٩/٣/٢٠) .

وبعد ان اتضح للطرف الاسرائيلي ان السادات بحاجة الى تقريب موعد الانسحاب من ابار النفط لتحسين مكانته في مصر والعالم العربي ، وعقب بقوله انه « على استعداد للتعهد بتزويدكم بالنفط في نفس اليوم الذي تنسحبون فيه من الآبار » وجد حل لهذه القضية(المصدر السابق) . ومن الجدير بالذكر ان كارتر تعهد بتزويد اسرائيل بالنفط لمدة ١٥ عاماً ، مؤكدا لعيزر فايتسمان « انني قد التزمت بتزويدكم بالنفط باسم اربعة رؤساء سيخلفونني » .

الى جانب ذلك ، الح السادات على تقديم موعد انسحاب اسرائيلي من منطقة العريش بشهر واحد ، حيث يتم الانسحاب خلال شهرين بدل ثلاثة شهور،

وتحدث بصراحة عن وضعه الحرج داخليا وعربيا . وقد وافق بيغن على ذلك شرط موافقة السادات على فتح الحدود بين مصر واسرائيل مع الانسحاب من العريش . واستجاب السادات بدوره لطلب بيغن بعد ان كانت مسالة فتح الحدود مرهونة باقامة العلاقات الدبلوماسية على مستوى سفراء بين البلدين .

وخلال ذلك ، وفي اجواء الاحتفال بالاتفاقية ، طلب كارتر من بيغن التساهل في موضوع الاستيطان في مناطق « الحكم الذاتي » آخذا بعين الاعتبار الوضع الصعب والحرج للسادات . وواجه كارتر اجابة واضحة صريحة من كل من بيغن ودايان حين قال له الاول « ان من حق اسرائيل الاستيطان في يهودا والسامرة في اطار الحكم الذاتي » ، بينما اجابه الثاني « انه لا يمكن التفاوض عن مبدأ استيطان يهودا والسامرة ، ولو كان موضوع الاستيطان شرطا مسبقا من جانب المصريين ، لما كان بوسعنا الدخول في مفاوضات حول اتفاق السلام » (المصدر السابق) .

وتفجر خلاف آخر بين السادات وبيغن حول كلمة الضفة الغربية الواردة في الاتفاق الخاص بالحكم الذاتي ، فقد اراد بيغن ذكر كلمتي يهودا والسامرة بينما تمسكت مصر بكلمة الضفة الغربية . وبعد اخذ ورد تم الاتفاق على ان يشمل النصان الانجليزي والعبري للمعاهدة ملاحظة تنص على ان كلمة الضفة الغربية تعني يهودا والسامرة وجاءت موافقة الطرف الاسرائيلي لكون النص الانجليزي هو المقرر في حال الخلاف ، وفضل الطرف المصري العودة بنص عربي خال من كلمة يهودا والسامرة في محاولة للتخفيف من حجم المعارضة الداخلية العربية .

وفي مساء الاثنين ، في السادس والعشرين من آذار، وقع كل من بيغن والسادات بالاضافة الى الرئيس الاميركي كارتر ، بصفته شاهدا ، على معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية وملحقاتها . والقى الزعماء الثلاثة كلمات بهذه المناسبة . وكان بيغن آخر المتحدثين ، الا انه كان أوضحهم ، تماما كما كان واضحا مع حزبه وداخل الكنيست . وعلى الرغم من ان الرئيس المصري حذف من كلمته الفقرة الخاصة بالموضوع الفلسطيني خشية « تعكير » اجواء الحدث التاريخي، كما ذكرت المصادر الاسرائيلية والعالمية ، ادار بيغين ظهره لاي حرج ، ولم يتورع عن مقارنة فرصته بالسلام بالفرحة في الاغتصاب عام ١٩٤٨ والاحتلال ١٩٦٧ . فبعد ان قال انه قادم من « ارض اسرائيل، ارض صهيون والقدس ... كابن للامة اليهودية » ، واشاد بالتاريخ اليهودي دون ان يغيب عن باله « انبياء » اليهود ، كال المديح لكل من الرئيسين الاميركي والمصري لدورهما في تحقيق معاهدة السلام ،، مع الاشارة الى جائزة نوبل للسلام التي نالها قبل مدة ، لينتقل بعد ذلك الى الايام الثلاثة العظيمة في حياته : « الاول هو يوم ١٩٤٨/٥/١٤ عندما رفع علم استقلالنا في وطننا التاريخي بعد ١٨٧٠ سنة من المطاردة والاهانة ... المجازر الدولية . لقد قاتلنا من اجل استقلالنا وتحررنا بانفسنا وبعون الرب انتصرنا . حدث ذلك في الربيع » . واليوم الثاني « عندما اصبحت القدس مدينة واحدة ، وجنودنا الذين يتحلون بشجاعة فائقة ، والمظليون ، هاجموا ، وبدموع قبلوا الحجارة القديمة لحائط المبكى ... » . اما اليوم الثالث ، فقد عبر عنه بقوله : « وها هو اليوم الثالث في حياتي ، عندما وقعت على اتفاق السلام مع مصر

جارتنا العظيمة ، ان القلب لمفعم بالفرح ٠٠٠ » ٠ (يديعوت احرونوت ٧٩/٣/٢٧) ٠ ولم يكن قلب بيغن لوحده مفعما بسعادة الحدث ، فاثناء حفل التوقيع على المعاهدة المنقولة عبر الاقمار الاصطناعية على شاشات التلفزيون في اصقاع الارض ، كانت جماهير اسرائيلية غفيرة تزيد على ١٠٠ الف شخص تحتشد وسط تل ابيب في شارع « ملخي اسرائيل » (ملوك اسرائيل) في جو احتفالي ، وصفه المعلقون بأنه يتفوق من حيث البهجة على الجو العادي في يوم اعلان استقلال اسرائيل ، حيث تحول الشارع الى ميادين للرقص ، « ٠٠٠ فالى ما بعد منتصف الليل استمرت دوائر الرقص التي بدت وكانها تحرك الشارع ، كأمواج في بحر، كتف الى كتف ، ويد بيد ، « هورا للسلام » ٠ (معاريف ، ٧٩/٣/٢٧) ٠

الاسرائيليون يقومون المعاهدة

عالج الاسرائيليون في تقويماتهم المختلفة للمعاهدة عدة جوانب : الانجازات والتخوفات ، والمخاطر الكافة ، مع الدعوة لانتهاج هذا الخط او ذاك ضمن الرؤيا الصهيونية ٠

تطرق اريئيل غيناي (يديعوت احرونوت ، ٧٩/٣/٢٧) الى «الانجازات» الكافة في اتفاقية السلام وحددها بالتالي:

١ ــ تطبيع العلاقات بين اسرائيل ومصر ، كبرى الدول العربية ، مما من شأنه انه يجر دولا عربية اخرى الى المعاهدة ٠

٢ ــ دخول الولايات المتحدة المنطقة بشكل فعال ، وبالتالي زوال خطر افول النفوذ الغربي في الشرق الاوسط خاصة عقب الثورة في ايران وتعزيز الخط السياسي الراديكالي في القرن الافريقي (اثيوبيا وعدن) ٠

٣ ــ تاكيد اميركا في « مذكرة التفاهم » على التعهدات التي قطعتها على نفسها تجاه اسرائيل عقب اتفاق فصل القوات الثاني في عام ١٩٧٥ ، والتزامها بتزويد اسرائيل بالبترول لمدة اطول ٠

ومن ناحية اخرى تطرق بعض المعلقين الى التخوف من احتمال انتهاك مصر للمعاهدة ، ومن بين هؤلاء المعلق العسكري ايتان هابر (يديعوت احرونوت ، ٧٨/٣/٢١) الذي علق على « سلبيات » الملحق العسكري لعدم وجود نص صريح فيه حول تخفيف القوات المصرية ،

ومع هذا فان هابر لا يرى اهمية كبيرة في ذلك، اعتقادا منه بقدرة اسرائيل على تدمير الجيش المصري ، « فيجب ان لا يغيب عن البال ان سيناء كانت مرات عدة في حال اندلاع الحرب مقبرة للجيش المصري الذي اراد ان يصل بعيدا ، وقاتل في نهاية الامر عن حياته على بعد ١٠١ كم فقط عن القاهرة » ٠

ومن ناحية اخرى يستبعد المعلق الاسرائيلي دانئيل بلوخ (دافار ، ٧٩/٤/٢) احتمال انتهاك مصر للمعاهدة لسببين رئيسيين :

١ ــ رغبة السادات في تكريس وقته لحل القضايا الداخلية لمصر ، ولهذا السبب فانه بحاجة الى مناطق سيناء والى النفط والمعونات الاميركية ٠

٢ ــ رغبته في حماية حدود بلاده مع افريديا من محاولات « السيطرة » السوفيتية ومن محاولات « التآمر » الليبي٠ وكذلك سعيه الى « البدء بخطة تؤدي مع الوقت الى استبدال نظام القذافي

المعادي في ليبيا بنظام مؤيد لمصر » ، ليصل الى القول « ومن اجل تحقيق هذين الهدفين اللذين لا يعتبران هدفين شخصيين فقط ، بل مصلحة مصرية موضوعية واضحة ، فان السادات على استعداد لدفع ثمن العزلة المؤقتة عن العالم العربي. ويجب علينا تقدير ذلك والامتناع عن اخراج السادات ومصر ... ».

وكان موشيه دايان وزير الخارجية قد استبعد في مقابلة مع الاذاعة الاسرائيلية (يديعوت احرونوت ، ٧٩/٣/٢٧) احتمال قيام مصر بانتهاك المعاهدة وخروجها للحرب في حال تعثر المفاوضات حول الحكم الذاتي ، اعتقادا منه ان الاقتصاد المصري ، وكذلك مصر ، اصبحا مرتبطين بالولايات المتحدة الاميركية ، ولذا فانه « من الصعب الاعتقاد ان الولايات المتحدة ستساعد مصر في السير في طريق الحرب ضد اسرائيل » .

يضاف الى ذلك اعتماد دايان على العامل الزمني الوارد في الاتفاقية ، التي نصت على بقاء القوات الاسرائيلية في الجزء الشرقي من سيناء ، فهذا على جانب كبير من الاهمية بالنسبة لكل من مصر واسرائيل . فهو يضم شرم الشيخ والمطارات والمستوطنات ، « ولذا فان المصريين سيضطرون اذن ان يدرسوا : هل هم معنيون بنسف الاتفاق وابقائنا في هذه المنطقة من سيناء ؟ .... » واعرب دايان عن اعتقاده « ان المصريين لن يخوضوا الحرب في حال تعثر المفاوضات حول الحكم الذاتي ، والامر الذي يمكن ان يفعلوه هو سحب السفير المصري من اسرائيل او ما شابه ذلك ، بيد ان ذلك لن يعيد مصر الى الحرب » .

ويرى العديد من المعلقين ان اختلاف وجهات النظر للاطراف الثلاثة الموقعة على المعاهدة تجاه الحكم الذاتي ، يحمل بين طياته خطر انهيار المعاهدة ، ومن بين هؤلاء مردخاي اورن (عل همشمار ، ٧٩/٣/٢٨) الذي يعتقد ان السادات بدعم من كارتر يرى في الحكم الذاتي طريقا نحو اقامة كيان وطني مستقل او مرتبط بالاردن ، بينما ترى اسرائيل فيه « طريقا لضمان سيادتها على هذه المناطق » .

ويتساءل اورن « هل من الممكن الافتراض ان حكومة بيغن ستتخلى عن مخططات ضم الضفة الغربية وقطاع غزة كما تخلت عن مخططات اخرى انطلاقا من العقلانية السياسية التي تستحق الثناء ، لكي تضمن السلام » .الا انه يضيف « اذا ما نفذ رئيس الحكومة وعده للمفدال وللوزير شارون قبل سفره الى واشنطن ، واذا ما اتسم العام القادم باندفاعة استيطانية مكثفة في مناطق الضفة الغربية ، واذا ما اضفت الحكومة سياسة رسمية على مشروع الحكم الذاتي مستمدة من تقرير بن اليسار (حكم ذاتي للسكان، استيطان شامل ، سيطرة على الاراضي ومصادر المياه ، الحكم العسكري كمصدر للصلاحيات) ، حينذاك ، ليس هناك ثمة شك بأن معاهدة السلام التي جرى التوقيع عليها الآن ، ستواجه ضربة خطيرة ، ويكسو ضباب كثيف مستقبل تطبيع العلاقات » .

وهناك من يرى ان « الالغام » الكامنة لاتفاقية السلام لا تكمن فقط في تباين وجهات النظر بين الاطراف الثلاثة الموقعة على الاتفاقية ، بل تتعلق ايضا باطراف ثلاثة اخرى : المعارضة المصرية ، جبهة الرفض العربية وجبهة الرفض الاسرائيلية . « اننا نأمل ، اذا لم نقل نصلي ، بأن يتمكن السادات في الصمود ولا يفشل على يد معارضيه في الداخل

او جبهة الرفض في الخارج · وهنا نصل الى الخوف الثاني ، الخوف مما قد يحدث هنا في [اسرائيل] · لقد قيل ان المتطرفين من هنا وهناك يساعدان بعضهما البعض ، وها هم متطرفونا ، وقبل ان يجف حبر الاتفاقية كما يقولون، يصرخون ويحتجون · ويدرك الجميع ان اللغم يكمن في مواصلة عملية [السلام] بالنسبة لمستقبل الضفة الغربية · واذا ما تفجر هذا اللغم ، لا سمح الله ، فقد يتهدم البناء من اساسه » (ي· نور، عل همشمار ، ٧٩/٣/٢٩) ·

ويتطرق نور بعد ذلك الى التناقض في فهم كل من السادات وبيغن للحكم الذاتي، حيث يدعو السادات الى دفع الحكم الذاتي لجهة قيام دولة فلسطينية او كيان فلسطيني ، بينما يردد بيغن باستمرار « لن تقسم ارض اسرائيل ، وسيستمر الاستيطان· ولن تقام دولة فلسطينية »·

ويتساءل الكاتب « الا يتناقض مفهوم السادات مع مفهوم بيغن تجاه الحكم الذاتي بشكل جذري ؟ » ويرى ان التعهد الذي قطعه بيغن على نفسه مع المقدال لا يساعد على تقريب وجهة النظر بينه وبين السادات ، ليصل الى الاستنتاج

القائل بأن الليكود الذي افتتح عملية السلام غير مؤهل او قادر على استكمال هذه العملية ، الامر الذي يتطلب ، حسب رأيه ، اناطة هذه المهمة بعامل سياسي آخر ، ويعني به بالطبع التجمع العمالي الذي ينتمي اليه ·

وعالج كاتب آخر ، يهودا طوبين (عل همشمار ، ٧٨/٣/٢٨) مواقف السيطرة الاسرائيلية في الضفة والقطاع ، المتباينة تجاه التسوية ، وقال ان التيار الاول المطالب بأرض اسرائيل الكاملة (الليكود والمتدينين) قد انقسم على نفسه عقب التسوية واصبح فئتين ، احدهما يرى ان المعاهدة قد اساءت الى المطالب الاسرائيلية في سيناء ويدعو الى مواصلة السيطرة الاسر ائيلية في الضفة والقطاع، بينما يعتقد الثاني ان التنازل عن سيناء جاء لخدمة استمرار السيطرة الاسرائيلية على الضفة الغربية ، ويقف على رأس هذا الفريق مناحيم بيغن ·

اما التيار الثاني فهو التجمع العمالي الذي يدعو الى الحل الوسط الاقليمي بالنسبة لمصير الضفة الغربية وقطاع غزة، اي « استمرار السيطرة الاسرائيلية في غور الاردن وغوش غتسيون ، ومن المفهوم أيضا في القدس » · والتيار الثالث عبارة عن مجموعة صغيرة يتشكل من راكاح وشلي ، تدعو كالسابق الى الانسحاب من الضفة الغربية والقطاع واقامة دولة فلسطينية فيها ·

ومع الاخذ بعين الاعتبار وجهة نظر الفريقين الاولين ، وموقف مصر من معاهدة السلام فيما يتعلق بمصير الضفة الغربية وقطاع غزة ، يبدو ان بيغن ودايان وفايتسمان وحلفاءهم في الليكود سيواجهون هذا الحسم في المستقبل غير البعيد · لن نتنبأ بما سيختارونه : عدم التنازل في يهودا والسامرة وخطر حقيقي لاندلاع الحرب ، او حل وسط ، يحول دون سفك الدماء عن طريق التوصل الى سلام يستجيب للمتطلبات الحيوية لامن اسرائيل · كما ان التجمع العمالي ايضا سيصل الى مرحلة يضطر فيها للبت نهائيا في حدود الحل الوسط التي يقبلها في يهوداوالسامرة ، للحيلولة دون كافة هذه المخاطر مع مصر » (المصدر نفسه) ·

ولا يتناقض الوزير السابق موشي كرمل (دافار ، ٧٩/٣/٢١) في رؤيته للخطر الكامن في تباين الفهم بين بيغن

والسادات تجاه الحكم الذاتي ، موقف زملائه ، فقد ابدى تخوفه من « احتمال حدوث اول صدام خطير بين الفهميين الجوهريين المتناقضين ، فهم رئيس الحكومة بخصوص استمرار السيطرة الاسرائيلية على جميع اجزاء الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع منح السكان في هذه المناطق ادارة ذاتية ، مقابل فهم الرئيس المصري بخصوص قيام ادارة ذاتية للسكان العرب في المناطق يؤدي الى تقرير مصير للشعب الفلسطيني بشكل كامل » · ويرى الوزير السابق ان الخطر كامن في ضبابية مشروع الحكم الذاتي ،

ويعتقد أن السكان العرب يرفضونه رفضا قاطعاً ، وحتى لو قبلوه فانهم سيوجهون الحكم الذاتي نحو خلق « سلطة وطنية فلسطينية » ، الامر الذي يستدعي تدخل قوات الامن الاسرائيلية بهدف خنق هذا التوجه في المهد · ومن هنا تأتي معارضة كرمل لمشروع الحكم الذاتي ، ليطرح الحل البديل المعروف المتمثل في « الحل الاقليمي الوسط » اي تقسيم الضفة الغربية وقطاع غزة بين اسرائيل والاردن ، ويعتبر ذلك بمثابة انقاذ للسلام لا بد لحكومة الليكود او اية حكومة تخلفها تبني هذا الحل ·

أما المعلق حقاي ايشد (دافار ، ٧٩/٣/٢٨) فيعتقد ان القضية الفلسطينية « التي لا زالت بدون حل تشكل تهديداً لمعاهدة السلام الاسرائيلية ـ المصرية ، اذ ان « العجل الفلسطيني » ، على حد قوله ، لا يريد ان يرضع حليب البقرة الاميركية او المصرية ، ولا يكتفي، كما يقول ، بالرضاعة من الحليب الاسرائيلي بل يسعى الى « اكل اللحم الاسرائيلي » ! ومن الصعب على الاميركيين والمصريين السماح له بذلك ، كما ان اسرائيل تعارض · هذه هي المعضلة الفلسطينية ، وهذه هي المصيدة التي زجت فيها عربة السلام الاسرائيلية المصرية » · الا ان ايشد يرى ان الخطر لا يكمن في واقع رغبة الفلسطينيين اكل « اللحم » الاسرائيلي ، بقدر ما يكمن في رغبة مصر والولايات المتحدة في ايجاد حل للقضية الفلسطينية ، في محاولة منها اظهار مصر كمدافعة عن حقوق الفلسطينيين وتقليص النفوذ السوفياتي في المنطقة باضعاف جبهة الرفض العربية · « هذه هي المخاطرة التي تحدق بالسلام ، وليس مشروع الحكم الذاتي الاسرائيلي على سيئاته وقابليته للنقد ، الذي لا يعرض السلام للخطر كما يعرضه السعي الاميركي المصري لحل المشكلة الفلسطينية الآن بدون السوفييت وم·ت·ف »·

«مذكرة التفاهم» الاميركية الاسرائيلية

عقب اعلان مصر على لسان رئيس حكومتها مصطفى خليل رفضها لمذكرة التفاهم الاميركية الاسرائيلية التي جاءت على شكل رسائل متبادلة بين اسرائيل والولايات المتحدة ، وشن وسائل الاعلام المصرية حملة ضدها ، عالج عدد من المعلقين الاسرائيليين سبب استياء مصر وغضبها ، وحول هذا الموضوع قال ارئيل غيناي (يديعوت احرونوت ، ٧٩/٤/١) « يبدو ان غضب المصريين يعود الى كون المذكرة تفصل الخطوات التي قد تتخذها الولايات المتحدة في حال انتهاك المعاهدة ، خطوات عملية ، مثل تعزيز التواجد الاميركي في المنطقة ، تزويد اسرائيل باعتدة طوارىء ، استغلال حق الملاحة والطيران في مضائق تيران وخليج العقبة · ان التهديد بخطوات كهذه من شأنه ردع نظام السادات واي نظام

يحل مكانه من انتهاك المعاهدة » ٠

واستهجن المعلق فولص (هآرتس ، ٣٠/٣/٧٩) استياء السادات من المذكرة، واعرب عن دهشته لغضبه ، خاصة وان السادات هو الذي اصر على ان تقوم الولايات المتحدة بدور « الشريك الكامل » في عملية السلام ، وقال « وبما انه اتضح اكثر فاكثر ان واشنطن ، تميل من الناحية السياسية الى جانب مصر ، فانه من الطبيعي ان تطلب اسرائيل من الولايات المتحدة ان تضمن على الاقل منع امكانيات انتهاك معاهدة السلام من جانب مصر ٠ اما فيما يتعلق بالزعامة الاميركية فانها كانت ستمتنع بالتأكيد عن التوقيع على مذكرة التفاهم مع اسرائيل لولا اقتناعها بانها لا تنحرف في ذلك عن السياسة المتوازنة تجاه الطرفين الشرق اوسطيين » ٠ واكد فولص على ان مذكرة التفاهم ، على اهميتها ، ليست حلفا بين اسرائيل والولايات المتحدة ٠

وعزا يوئيل ماركوس (هآرتس ٣٠/٣/٧٩) الاحتجاج المصري على المذكرة الى سببين : احساس المصريين بأن اميركا تشارك الاسرائيليين في عدم الثقة تجاه مصر ، وتخوفهم من انتهاك المعاهدة ٠ بالاضافة الى ذلك ، هناك ايضا اعتبارات تكتيكية مصرية ، اولها « ان المصريين هم اول من رددوا ان بوسع الولايات المتحدة منح اسرائيل ما تطلب من امن وضمانات ، ومقابل ذلك تنشط الولايات المتحدة للاسراع في حمل اسرائيل على اعادة الاراضي العربية ٠ لذا ، فمن الجائز الافتراض ان الاحتجاج يهدف الى الزام الادارة الاميركية بمذكرة موازية (ماذا سيحدث في حال انتهاك اسرائيل الاتفاق الخاص بالحكم الذاتي؟) والزامها بتقديم مزيد من المساعدات العسكرية لمصر » ٠

بوادر « حسن النية » الاسرائيلية

في غمرة الجو الاحتفالي بمناسبة التوقيع على معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية في واشنطن ، مد بيغن يده الى جيبه والتقط رسالة مغلقة ، قدمها الى الرئيس المصري الذي التقطها ووضعها في محفظته، ولم يعرف حتى الان بشكل رسمي ما تضمنته تلك الرسالة ، الا ان المصادر الاسرائيلية اشارت اكثر من مرة انها هدية من بيغن الى السادات تحمل بادرة حسن نية من اسرائيل ، كما ذكرت يديعوت احرونوت (٢٨/٣/٧٩) :

١ ـ اطلاق سراح ٢٣ من المعتقلين اداريا من سكان المناطق المحتلة ٠

٢ ـ الغاء عدد من القيود المفروضة في الضفة الغربية وقطاع غزة على النشاط السياسي ٠

٣ ـ السماح لعدد محدود من الفلسطينيين المبعدين او الذين غادروا المناطق المحتلة ، بالعودة اليها في اطار جمع شمل العائلات ٠

٤ ـ الغاء القانون الخاص بالاعتقالات الادارية ٠

٥ ـ نقل عدد من قيادات الحكم العسكري من مراكز المدن الرئيسية في الضفة الغربية وقطاع غزة الى اماكن اقل بروزا ٠

الا ان القائم باعمال رئيس الحكومة ، زفولون هامر ، اكد امام الوزراء الاسرائيليين ، ان لا صحة للانباء القائلة بان اسرائيل تعهدت باخلاء قواتها من

الضفة الغربية وقطاع غزة ، واوضح ان التعهد الوحيد الذي التزمت به هو سحب القيادات العسكرية الموجودة في مدينة غزة الى مكان اخر في القطاع .

وقد انتقدت وسائل الاعلام الاسرائيلية بوادر حسن النية هذه ، حيث اعتبرها البعض « متواضعة » بينما اعتقد اخرون انها بمثابة « كرم » لا محل له . فقد انتقدت صحيفة عال همشمار (٧٩/٣/٢٩) هذه البوادر ، لكونها « متواضعة » والة بكثير مما صورت في الصحف ، واعربت عن اعتقادها بأن « هذه البوادر المتواضعة من شأنها ان تساعد بمقدار معين في خلق جو يتسم بهدوء اكثر في الضفة الغربية . واذا ما تم انجاز هذا الهدف فقط ، فمن الواجب مباركته . ولكن من ينتظر ، من خلال هذه البوادر امكانية حمل سكان يهودا والسامرة على ادارة مفاوضات بخصوص الحكم الذاتي ، سيواجه خيبة امل كبيرة . ومن يتابع مجريات الامور في الضفة سيتيقن من انه ليس بوسع اية بادرة حمل السكان العرب على قبول الحكم الذاتي » .

وطالب موشي زاك (معاريف ٧٩/٣/٢٧) الحكومة الاسرائيلية بالكف عن القيام باية مبادرات حسن نية تجاه مصر ، وان تتصرف حسب ما هو مكتوب في الاتفاقية فقط .

زيارة بيغن للقاهرة

اصبح الحلم الصهيوني الذي دغدغ عواطف الاسرائيليين ردحا من الزمن حقيقية واقعة ، حين هبط رئيس حكومة اسرائيل ، في الثاني من نيسان . في في مطار القاهرة ، في اول زيارة علنية من نوعها لعاصمة عربية ، بعد ان كانت زيارة القادة الصهيونيين تتم في فترات متباعدة لعاصمتين عربيتين ، بشكل سري محكم ، وتحت جناح الليل ، دون ان يحظوا بتفقد حرس الشرف في المطار على انغام الموسيقى ، والتمتع بهتافات الترحيب المنطلقة من افواه الجماهير المحشودة .

تمت الزيارة بناء على دعوة وجهها السادات الى بيغن عقب التوقيع على المعاهدة في واشنطن . وحرص بيغن على ان يصطحب معه في زيارته الاولى للقاهرة ، التي وصفها بالزيارة الرسمية الاولى الى مصر منذ ان قام الملك سليمان بزيارة لفرعون مصر ، اعضاء سابقين في المنظمات الصهيونية العسكرية ، الهاغانا ، والبلماح واتس وليحي ، وكذلك وزير خارجية اسرائيل الاسبق ابا ايبان وزوجته . وحمل بيغن معه هدية الى حاكم مصر ، ليست على شكل رسالة مغلقة تخبيء بين طياتها بوادر حسن النية ، بل سيفا قديما معقوفا ، عمره ٢٣٠٠ عاما كان المتحف الاسرائيلي حصل عليه قبل عشرة اعوام .

كان في استقبال بيغن في المطار نائب الرئيس السادات حسني مبارك على رأس فريق من الشخصيات المصرية . وبعد ان عزف النشيدان ، الاسرائيلي (هتكفا) والمصري وجرى استعراض حرس الشرف، غادر بيغن المطار مخترقا شوارع القاهرة « المزينة » بالاعلام المصرية والاسرائيلية . ومن الجدير بالذكر ان الاعلام الاسرائيلية كانت تزال من الشوارع بسرعة عقب مرور بيغن فيها ، كما تقول المصادر الاسرائيلية، بناء على تعليمات السلطات المصرية وبعلم بيغن للتخفيف من «حرج» النظام وللحيلولة دون الاعتداء على الاعلام من قبل العناصر المعارضة للزيارة . وقد تضمن برنامج الزيارة ، زيارة قبر الجندي المجهول والاهرامات والصلاة في الكنيس اليهودي وسط

المدينة ، وتناول وجبة العشاء على مائدة الرئيس السادات في قصر القبة وعقد اجتماع معه ، وزيارة المتحف المصري · ولم يشمل البرنامج زيارة مجلس الشعب المصري والقاء كلمة فيه بناء على رغبة المصريين الذين تخوفوا كما تذكر المصادر الاسرائيلية من حدوث مقاطعات من بعض النواب المعارضين هم في غنى عنها ·

ولوحظ اثناء زيارة بيغن للقاهرة ان رئيس الحكومة المصرية قد تغيب عن استقبال بيغن او الاجتماع به ، لاسباب صحية على حد قول الدوائر الرسمية المصرية ، بينما ادعت وسائل الاعلام الاسرائيلية أن الاسباب لا تعود الى صحة رئيس الحكومة المصرية بقدر ما تعود الى رغبة في تأجيل الزيارة الى موعد متأخر · وكشف النقاب (ز٠٦٠١٠٣٠/٤/٧٩) عن أن مصطفى خليل طلب من بيغن اثناء وجوده في الولايات المتحدة تأجيل الزيارة الى موعد لاحق بحجة ان السلطات المصرية تجد صعوبة بالغة في استقبال رئيس الحكومة الاسرائيلية ، لكون الاحتلال الاسرائيلي ما زال قائما ، ولكون اسرائيل ما زالت في نظر المصريين دولة احتلال · واضافت ان المصريين قرروا حيال اصرار بيغن على القيام بالزيارة في الموعد المحدد ، ان يكون الإستقبال متواضعا ومحدودا ·

وتطرق المعلق الاسرائيلي موشي زاك (معاريف ، ١/٤/٧٩) الى رغبة المصريين في تأجيل الزيارة ، مرجعا اياها الى « وضعهم الحرج » في العالم العربي وفي داخل مصر ، وطالب بعدم الاستجابة الى الرغبة المصرية ، اعتقادا منه بضرورة تطبيع العلاقات في بداية التوقيع على معاهدة السلام ، واسقاط اي « حرج » امام هذا الهدف · ويقول بهذا الخصوص ان « حكومة اسرائيل مدركة ان كل ما لا يمكن عمله خلال الايام الاولى ، وحديد معاهدة السلام لا يزال ساخنا ، سيكون من المستحيل القيام به في المراحل المتأخرة · فاختراق الطريق يتطلب قوة دفع ، وتثبيت سوابق · واذا ما استمرت اسرائيل بتقديم مبادرات حسن نية للمصريين او تنازلت عن زيارة رئيس الحكومة بسبب « الوضع الحرج للسادات ، فسيطلبون منه مبادرات مشابهة عندما يحين دور تبادل السفراء · ولهذا السبب فان مناحيم بيغن يتنازل عن مسألة الشرف ، و « يجازف » بعدم الارتياح في الزيارة للقاهرة ، بهدف تثبيت الامر الواقع · واهمية هذه الزيارة تكمن في « كونها تجري للمرة الاولى ، وتجري بالذات في أجواء تهديد الدول العربية بفرض مقاطعة اقتصادية على مصر » ·

نتائج الزيارة

استغرقت رحلة بيغن الى مصر ٢٦ ساعة عاد على اثرها الى اسرائيل بعد ان عزف نشيد هتكفا مرتين اثناء توديعه · وعند وصوله الى المطار ادلى بحديث تحدث فيه عن نتائج رحلته ، مركزا على اختلاطه برجل الشارع في مصر وزوال الصورة القديمة التي كانت عالقة في ذهنية الجماهير المصرية تجاهه وتجاه اسرائيل ، لتحل محلها صورة تتسم بالود · « وكان هذا احد الامور العظيمة جدا خلال الزيارة · ويبدو ان الشعب المصري قد غير نظرته الي نتيجة لما شاهده على شاشة التلفزيون او ما قرأه في الصحافة · ولم اتمكن اليوم من اجتياز مسافة عشرة امتار دون رؤية الذين يلوحون بأيديهم والمحبين ، واولئك الذين يرفعون ايديهم عاليا عاليا بحماس كبير · هذا اهم شيء في الزيارة · لقد اقمنا علاقات ود بين الشعبين · هذا هو اهم شيء في الزيارة » (ر٠٦٠١٠، ٠٠/٣/٤/٧٩) ·

وعلقت صحيفة دافار (٧٩/٤/٤) في افتتاحية لها حول نتائج الزيارة ، التي اكدت حسب قولها صدق المصريين في مساعيهم السلمية مع اسرائيل خاصة وان الزيارة جرت في الوقت الذي كان فيه السفراء العرب يغادرون العاصمة المصرية، وخلصت الى القول انه على الرغم من ان المصريين لم يعدوا للزيارة كما يجب « الا انهم اضفوا عليها كل ما تستحقه من ناحية الاحتفالات والاقامة • وقد تأكد للاسرائيليين ، بسبب اتمام الزيارة ومصر تعيش في حالة عزلة عربية ، ان مصر اضطرت لدفع الثمن مقابل السلام » •

كما وامتدحت معاريف (٧٩/٤/٤) الزيارة حيث « سقطت مشاعر الغربة ، واعرب الطرفان عن الرغبة لوضع حد لحالة العداء واقامة علاقات جديدة من التقارب والتفاهم » •

وفي الرابع من نيسان القى رئيس الحكومة كلمة في الكنيست حول نتائج زيارته ، كشف النقاب فيها عن الاتفاقات التي تمت بينه وبين السادات وهي :

١ ـ اقامة خط مباشر بينه وبين السادات •

٢ ـ يجري تسليم العريش لمصر في ٧٩/٥/٢٦ • ويعقد السادات وبيغن في اليوم التالي اجتماعا هناك ، يعلنان على اثره الاتفاق على فتح الحدود بين الدولتين برا وبحرا وجوا •

٣ ـ تجري المفاوضات حول ترتيبات الحكم الذاتي وفقا لاتفاق كامب ديفيد وعلى فترات في بئر السبع والعريش •

٤ ـ يتناوب ممثل عن مصر وآخر عن اسرائيل رئاسة اللجان المصرية الاسرائيلية • ومن الجدير بالذكر ان اهم انجاز حصل عليه بيغن هو فتح الحدود مع اعادة العريش بعد ان كان هذا الموضوع مرتهنا بتبادل السفراء بين الطرفين •

وقد القى يغئال الون احد اركان المعارضة كلمة في الكنيست عقب كلمة رئيس الوزراء ، كرر فيها مقولة التجمع العمالي بخصوص تقسيم الضفة الغربية وقطاع غزة ، بدل مشروع الحكم الذاتي ، وقال بعد ان اشاد بزيارة بيغن للقاهرة :

« لاسفي الشديد ، لا استطيع الاتفاق ، لا مع رئيس حكومة اسرائيل و لامع رئيس مصر بشأن مفهومهما لجوهر الحكم الذاتي ••• فالسادات يرى ويقول علنا ويحزم ان مصير الحكم الذاتي هو في التطور الى دولة مستقلة ، تضم تحت سيادتها شرقي القدس • اما بيغن فانه يؤمن بصدق ان اسرائيل ستفرض سيادتها على المنطقة في نهاية فترة الخمس سنوات الانتقالية لحكم الذاتي • كلاهما على خطأ ••• انهما يقودان سفينتهما الى تصادم لا مفر منه •• » (ر٠١٠٠ ، ٧٩/٤/٤) •

والحل الذي يطرحه يغئال الون ، لتحاشي اصطدام السفينة هو الحل الاقليمي اي تقسيم الضفة الغربية وقطاع غزة بين اسرائيل والاردن •

عبد الحفيظ محارب

« النتائج الاستراتيجية لمعاهدة الصلح الاسرائيلية ـ المصرية »

لقد كان لاسرائيل هدف استراتيجي رئيسي ، سعت الى تحقيقه طوال الثلاثين عاما الماضية من صراعها ضد الامة العربية ، وهو اخراج مصر بثقلها الاستراتيجي (بشريا وجغرافيا وعسكريا) من ساحة الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، ليسهل عليها تثبيت وجودها الاستعماري الاستيطاني في المنطقة ، وفرضه على بقية الامة العربية كواقع شرعي دائم ٠

والآن ، بعد ان وقعت معاهدة الصلح المنفردة بينها وبين مصر في ٧٩/٣/٢٦ ، تحقق لاسرائيل هذا الهدف الاستراتيجي الحيوي ، او هو في طريقه الى التحقق في المستقبل القريب ٠

وتكشف نصوص المعاهدة والملحق العسكري الخاص هذه الحقيقة المؤلمة ، والتي يجب ان تؤخذ في الاعتبار في المرحلة الراهنة من الصراع العربي الاسرائيلي ٠

لقد تعهدت اسرائيل بمقتضى المعاهدة المذكورة باعادة السيادة المصرية الكاملة على شبه جزيرة سيناء المحتلة منذ حرب ٦٧ ، اذ نصت الفقرة الثانية من المادة الاولى من المعاهدة على ان « تسحب اسرائيل كافة قواتها المسلحة والمدنيين من سيناءالى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب كما هو وارد في البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الاول) وتستأنف مصر ممارسة سيادتها الكاملة على سيناء » ٠

واذا ما اطلعنا على المادة الاولى من الملحق العسكري المذكور ، نجد انها تنص في فقرتها الاولى على ان « تنهي اسرائيل سحب كل قواتها العسركية والمدنيين قبل ثلاث سنوات ابتداء من تاريخ تبادل اصول اقرار هذه المعاهدة » ٠

وتبدو هذه النصوص في حد ذاتها وكأنها ستؤدي ، عند تطبيقها ، الى مجرد انسحاب اسرائيل من سيناء ومن ثم استعادة مصر لسيادتها الكاملة على اراضيها المحتلة عام ٦٧ ، ولكن النصوص التي تلت الفقرة الاولى من المادة الاولى من الملحق العسكري المشار اليه ، توضح المغزى الحقيقي لنوع السيادة المصرية التي ستعود الى سيناء ، وكيف سيخدم ذلك الهدف الاستراتيجي الاسرائيلي المذكور آنفا ٠ فقد نصت الفقرة الثانية من المادة المذكورة على انه « ضمانا للامن المتبادل للجانبين ستواكب تنفيذ مرحلة الانسحاب اجراءات عسكرية واقامة مناطق محددة في هذا الملحق كذلك على الخريطة رقم ١ » ٠ ثم نصت الفقرة الثالثة على ان « الانسحاب من سيناء

سيتم على مرحلتين :

أ ـ الانسحاب المرحلي الى الخط الممتد شرق العريش ورأس محمد وفقا للرسم المبين في الخريطة رقم ٢ ، ويجب ان ينتهي هذا الانسحاب خلال الاشهر التسعة التالية لموعد تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة ·

ب ـ يتم الانسحاب النهائي من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية خلال ثلاث سنوات اعتبارا من موعد تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة » ·

وهكذا نجد ان الانسحاب سيتم على مرحلتين رئيسيتين ، تواكبهما اجراءات أمن « متبادلة » ، نظمتها الخرائط ١ و٢٠

وقد قسمت المرحلة الاولى من الانسحاب التي ستستغرق ٩ شهور الى ٤ مراحل جزئية اخرى على النحو التالي :

١ ـ خلال الشهرين الاولين من تبادل وثائق التصديق يتم انسحاب اسرائيلي محدود ، من خط الفصل بين القوات القائم حاليا منذ اتفاقية ١٩٧٥ ، على نحو متعرج يشمل المداخل الشرقية لمري « متلا » و « الجدي » في القطاع الجنوبي ، و « الطاسة » في القطاع الاوسط ، وشريط ساحلي ضيق في القطاع الشمالي يشمل « بالوظة » و « رمانة » و « بئر العبد » و « المزار » وصولا حتى مدينة العريش ، التي تشكل الثمرة الاعلامية البارزة ، والرمز الرئيسي للانسحاب المذكور · ولكن السيطرة العسكرية الاسرائيلية الفعلية على سيناء ستبقى قائمة بعد هذه المرحلة · اذ ستكون القوات البرية الاسرائيلية قريبة للغاية من المناطق التي انسحبت منها وتستطيع العودة اليها بسرعة ، كما يمكنها قطع الممر الساحلي الشمالي والاستيلاء على العريش بسهولة كبرى ·

وفي الوقت ذاته سيبقى الطيران الاسرائيلي عقب هذه المرحلة محتفظا بمطاراته المتقدمة مثل مطار «بير جفجافة» و« بير تمادة » في وسط سيناء ، فضلا عن مطاراته الخلفية الاخرى في سيناء وهي : مطار « ايتام » القريب من «رفح»، ومطار « عتسيون » القريب من « رأس النقب » و « ايلات » في خليج العقبة ، ومطار « اوفيرا » في « رأس نصراني » قرب « شرم الشيخ » عند مضائق «تيران» بأقصى جنوب شبه جزيرة سيناء ·

٢ ـ ثم تبدأ بعد ذلك المرحلة الثانية ، من الانسحاب المرحلي الاول ، وتستغرق الفترة من الشهر الثالث حتى الشهر السابع ، من تاريخ تبادل وثائق التصديق على المعاهدة · ويتم فيها الانسحاب فقط

من الاراضي الواقعة الى الجنوب من الشريط الساحلي الشمالي ، بحيث تشمل «بير لحفن» الواقعة الى الجنوب مباشرة من العريش بنحو ١٣ كلم ، والارض الممتدة منها غربا حتى جنوب « بير العبد » تقريبا بعرض يراوح بين ١٠ و ١٦ كلم فقط · اي بغرض توفير قدر محدود من العمق للممر الموصل للعريش ، ولكن دون حدوث اي تغييرات جوهرية على الاوضاع الاستراتيجية للقوات البرية والجوية الاسرائيلية في سيناء المشار اليها آنفا ·

٣ ـ أما المرحلة الثالثة من الانسحاب المرحلي الاول ، والتي تبدأ بعد الشهر السابع وحتى قبل الشهر التاسع ، فستشمل المناطق الجبلية النائية في جنوب سيناء غير المأهولة تقريبا بالسكان ، والتي تضم دير «سانت كاترين» و « الطور » و « رأس محمد» وآبار النفط المتبقية تحت السيطرة الاسرائيلية في خليج السويس · وهذا الانسحاب لن يغير من قدرات القوات البرية والجوية الاسرائيلية ، من حيث

امكانات تهديد قناة السويس والعمق المصري موضوعيا ، كما هو شانها حاليا او خلال المرحلتين السابقتين ٠

٤ ـ وفي المرحلة الرابعة ، التي تنتهي بعد ٩ شهور من بدأ تنفيذ المعاهدة ، فتنسحب خلالها القوات من « شبه المنحرف » الموجود في وسط سيناء ، والذي يشمل مناطق « جفجافة » و «تمادة» و « نخل » و « الحسنة » و « بير الحمة » ومطار « السر » جنوب العريش ٠ وتخفف هذه المرحلة ، الى حد ما ، من مخاطر التهديد الاستراتيجي الاسرائيلي لمنطقة القناة ٠ ولكن المنطقة الممتدة ، فيما يشبه المستطيل الضخم ، من شرق « العريش » مباشرة في شمال سيناء حتى شرق « رأس محمد » مباشرة في اقصى جنوب سيناء ٠ ستبقى تحت سيطرة اسرائيل لاكثر من عامين بعد انتهاء

الانسحاب المرحلي الاول بمراحله الاربع المذكورة ٠ وتضم هذه المنطقة مطارات « ايتام » و « عتسيون » و « اوفيرا » ، ومناطق « ابو عجيلة » و « القسيمة » و « التمد » و « الكونتلا » و « شرم الشيخ » ٠ ومن ثم يبقى للطيران الاسرائيلي قدرة هجومية ، من قواعد متقدمة كثيرا عن تلك الموجودة في الارض الفلسطينية المحتلة ، تهدد محاور سيناء الثلاثة ، الشمالي والاوسط والجنوبي ، وصولا حتى قناة السويس ٠ فضلا عن تهديده لخليج السويس وعمق مصر حتى اسوان وعلى طول شواطيء البحر الاحمر ٠

أما القوات البرية الاسرائيلية فستكون مسيطرة على الخط الدفاعي المصري الاول في سيناء ، وقريبة للغاية مما يمكن اعتباره بالخط الثاني ، المتد من شرق العريش شمالا حتى « نخل » جنوبا مرورا بجبل « لبنى » و « الحسنة » في الوسط ، ومن ثم يكون طريق تقدمها مفتوحا حتى الخط الدفاعي الثالث والاخير في سيناء ، والمعروف بخط الممرات الاربعة « رمانة » و « جفجافة » و « الجدي »و « متلا » ، الذي يسبق قناة السويس بمسافات تراوح بين ٤٠ و ٧٠ كلم تقريبا ٠ الامر الذي يضعف كثيرا من ميزة العمق الدفاعي الذي توفره شبه جزيرة سيناء لمصر وقناة السويس ٠ وبطبيعة الحال ستكون مصر طوال هذه السنوات الثلاث معزولة ، تعاهديا وعمليا ، عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي ٠ ومتعذر عليها ، موضوعيا ، الى حد كبير ممارسة اي خيار عسكري تجاه اسرائيل ، على افتراض حدوث تطورات سياسية تفرض عليها مثل ذلك الخيار في المستقبل ٠

ورغم كل هذه السلبيات التي تضمنتها المعاهدة ، وملحقها العسكري ، والتي تخدم المصالح الاستراتيجية الاسرائيلية بصورة رئيسية ، فانه كان من الممكن اعتبارها مجرد ضرورات سيئة فرضتها نتائج هزيمة حرب ٦٧ ، التي لم تنجح حرب ٧٣ في تغييرها جذريا بحيث تضطر اسرائيل الى تنفيذ القرار الصادر عن مجلس الامن رقم ٢٤٢ ، لو ان المعاهدة وملحقها العسكري لم تنظم اوضاع سيناء الاستراتيجية بصورة دائمة حتى بعد انتهاء فترة الثلاث سنوات الاولى التالية لسريان المعاهدة ، بحيث تكفل لاسرائيل ضمانات عزل مصر عسكريا عن الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وتقييد خيارها العسكري في المستقبل البعيد الى حد كبير للغاية ، ما لم تخرق مصر شروط المعاهدة ٠ ولكن متابعة قراءة نصوص الملحق العسكري للمعاهدة المذكورة ، تؤكد لنا حقيقة هذا العزل والتقييد الخطير لخيار مصر العسكري ٠ فقد نصت المادة ٢ من الملحق العسكري في فقرتها الاولى

على انه « من اجل منــح « الطرفين » اقصى قدر من الامن بعد الانسحــاب النهائـي يتم انشاء وتنظيم الخطـوط والمناطق المبينة على الخريطة رقم ١ » ٠ وقد نظمت بقية فقرات المادة المذكـورة اوضاع سيناء النهائية بحيث تنقسم الى مناطق ثلاث ٠ المنطقة «أ » المتدة شرقـي القناة على شكل شبه مستطيل ، يبـدأ على مسافة نحو ٦٠ كلم الى الشرق مـن القناة في القطاع الشمالي ، وينتهي عند « رأس محمد » بالطـرف الجنوبي مـن سيناء ٠ بحيث تشمل ممري « الجدي » و « متلا »، ولكنها لا تشمل « الجفجافة »٠

وقد سمحت بقية بنود المادة ٢ المذكورة لمصر ، كوضع دائم بعد استكمال الانسحاب الاسرائيلـي من سيناء ، سمحت لهـا بالاحتفاظ بقوة عسكرية محدودة الحجم والتسليح ذي النوعية الخاصة في المنطقة « أ » المذكورة ٠ قوة لا يزيد اجمالي عدد افرادها ، من مقاتلين ورجال خدمـات ادارية ، عن ٢٢ ألف رجل ٠ ولا يزيـد حجمها القتالي عن فرقة مشاة ميكانيكية،

تضم ٣ ألوية ميكانيكية ولواء مـدرع واحد ٠ وبحيث لا يزيد عدد دبابات الفرقة المذكورة عن ٢٣٠ دبابة ، موزعة علـى ألويتها الاربعة المشار اليها ، وهو العـدد المماثل تقريبا لـما تمتلكه فرق المشـاة الميكانيكية دوليا (الفرقة الاميركية نحو ٢١٦ دبابـة والسوفيتيـة حوالي ٢٦٦ والالمانية الغربية ٢٥٠ دبابة) ٠ هـذا بالاضافة الى ٧ كتائب مدفعية ميـدان تضم ١٢٦ مدفعا ، وهو ايضـا مماثـل تقريبا لما يشمله تنظيم هذه الفرق عالميا من المدفعية ٠ ولكن المادة المشار اليهـا قيدت حجم ونوعية وسائل الدفاع الجوي لدى الفرقة المذكـورة ، بحيث جعلتـه ضعيفا وغير فعال في ظروف التطـور النوعي الكبير الذي طرأ على كل مـن وسائل الهجوم او الدفاع الجويين ٠ اذ حـددت وسائل الدفاع الجوي للفرقـة بـ ١٢٦ مدفعا خفيفا مضادا للطائـرات من عيار ٣٧ مم فحسب ، فضلا عن عدد غير محدد من صواريخ الكتف المضادة للطائرات من طراز « سام ـ ٧ » او مـا يماثلها من الانواع الغربية ، ولذلك اطلق عليهـا في النـص اسم « الصواريـخ الفردية » ٠ وبذلك تكون الفرقة قد حرمت مثلا من صواريخ « سام ـ ٨ » أو « سام ـ ٩ » ، او ما يماثلها من الانواع الغربية مثـل صواريخ « رابير » و « رولان » و « كروتال » ، فضلا عن حرمانها مـن صواريـخ « سام ـ ٦ » ، او غطائهـا العملي الفعال ، بحكم تحريم وجود مثـل هذه الصواريخ شرق القناة اصلا ٠ وبذلك يكون تواجد الفرقة المذكورة في خـط الممرات خارج نطاق شبكة الدفاع الجوي الفعال ، ومن ثم تصبح في وضع ضعيف في مواجهة الهجمات الجوية الاسرائيلية المحتملة ، وذلك ما لم يساندها الطيـران المصري بفاعلية ، علما بأنه محرم عليـه اقامة اي قواعد جوية في سيناء في اي من مناطقها ، او حتـى انشاء مهابـط

طائرات عسكرية في اي من مطـارات سيناء المدنية ، بمقتضى شروط الملحق العسكري المنظمة للوضـع « السلمي » الدائـم لسيناء بعـد « الانسحاب » الاسرائيلي ٠ هـذا كما حددت المـادة المذكورة عدد مركبات القتـال المدرعـة ، اي العربات المدرعة التي يستخدمها جنود المشاة الميكانيكية مثل العربة « م ـ ١١٣ » و « ب م ب ـ ١ » ، بعـدد يبلغ ٤٨٠ عربة ٠ ومرة اخرى يتساوى هذا العدد تقريبا مع المستوى الدولي المماثل لتسليح مثل هذه الفرق ٠ والمشكلـة الحقيقية ، ليست فقط في ضعف التسليح المضـاد للطائرات لدى الفرقة ، وانما في فقدان

مصر لحق رئيسي من حقوق سيادتها الوطنية على سيناء ، وهو حق الدفاع بكل الوسائل الكافية واللازمة عن مساحة هائلة من ارضها ، توازي مساحة الارض المحتلة في فلسطين قبل ٦٧ بنحو ٣ مرات ، وذات اهمية استراتيجية بالغة على مر التاريخ . ففرقة مشاة ميكانيكية واحدة لا تكفي اصلا لتحقيق دفاع فعال عن المنطقة « أ » ، خاصة وان بقية المناطق في سيناء ستكون مجردة من السلاح من الناحية العملية ، اذ ستوجد فيها قوة محدودة من حرس الحدود ذات تسليح خفيف ، فضلا عن جنود الشرطة. وبالاضافة الى كل ذلك فان نوعية التحصينات او الاستحكامات المسموح للفرقة المذكورة باقامتها في المنطقة « أ » ، ستكون قاصرة على الاستحكامات الميدانية المعتادة ، اي مجرد خنادق وحفر وملاجيء مغطاة بأكياس الرمل الخ. وبالمقابل فان الوجود العسكري الاسرائيلي المخفف ، المتفق عليه في المادة المذكورة كالتزام شكلي متبادل ، يقتصر على شريط ضيق من الارض لا يزيد عرضه عن ٣ كلم على طول الحدود الدولية المصرية ـ الفلسطينية (من الجانب الفلسطيني المحتل) ، اطلق عليه اسم المنطقة « د » ، والتي سستتواجد فيها قوة اسرائيلية مؤلفة من ٤ آلاف رجل موزعين على ٤ كتائب مشاة لديهم ١٢ عربة مدرعة ، وليس لديهم دبابات او مدفعية .

ولا تشكل المنطقة « د » اي تهديد لامن اسرائيل القومي ، اذ ان القوة المحدودة والمخففة التسليح الموجودة في المنطقة المذكورة ، تقع ضمن نطاق الحماية الفعالة والسريعة لنيران المدفعية والصواريخ المضادة للطائرات والدبابات والقواعد الجوية الاسرائيلية القريبة للغاية منها وبصورة تكاد تكون مباشرة . وبالاضافة الى ذلك فان اقرب قوات مسلحة مصرية تبعد عنها بنحو ١٥٠ كلم، وعليها ان تجتاز كل هذه المسافة فوق اراض صحراوية مكشوفة وخالية من اي وسائل دفاع جوي او قواعد جوية عسكرية ، وخاضعة لرقابة ورصد محطات الانذار المبكر وقوات الامم المتحدة .

وبالاضافة الى المنطقتين « أ » و « د » المذكورتين حددت نصوص الملحق العسكري منطقة ثالثة في سيناء اطلقت عليها اسم المنطقة « ب » ، وهي تشكل شبه مثلث ضخم تمتد قاعدته على شاطيء البحر الابيض المتوسط من نقطة تقع الى الغرب مباشرة من « الشيخ زويد » (اي مسافة ٣٢ كلم تقريباً شرقي العريش) ، حتى نقطة تبعد كيلو مترات قليلة الى الغرب من « بير العبد » . ويصل رأس المثلث المذكور الى « رأس محمد » جنوباً ، شاملا في اتجاهه هذا مناطق « ابو عجيلة » و « الحسنة » و « نخل » و «بير تمادة». والقوات المصرية المسموح بتواجدها في المنطقة المذكورة محددة بأربع كتائب من حرس الحدود ، لا يزيد عدد افرادها عن ٤ آلاف رجل ، مسلحين بالاسلحة الخفيفة والعربات غير المدرعة . بالاضافة الى الشرطة المدنية التي يحق لها استخدام طائرات هليكوبتر غير مسلحة في اعمال الدورية وملاحقة المهربين .. الخ ، وكذلك مزودة بأسلحة خفيفة في المياه الاقليمية المحيطة بالمنطقة المذكورة . اما المطارات المدنية الموجودة في هذه المنطقة فلا يجوز لمصر ان تجعل طائراتها الحربية تهبط فيها او تقلع منها ، وانما يجوز لها فقط تواجد عدد من طائرات النقل لا يزيد عن ٨ طائرات في آن واحد فوق ارض جميع هذه المطارات . كما ان الطائرات الحربية المصرية ممنوعة من التحليق فوق ارض المنطقة المذكورة ، او فوق مياهها الاقليمية .

وتهدف هذه القيود الى منع مصر من القيام بعمليات نقل عسكري جوي كبيرة بصورة مفاجئة لتعزيز قواتها في المنطقة « ب » ، وكذلك تهدف الى حرمان مصر من تسيير دوريات حراسة جوية فوقها ، حتى ولو كانت الطائرات المقاتلة منطلقة من قواعد خارج سيناء ٠

وقد قصرت شروط الملحق العسكري حق الطيران الحربي، المصري والاسرائيلي، في التحليق الجوي في مهام الدورية القتالية او الاستطلاع ، على المنطقتين « أ » و « د » فقط ٠ ولكن مع عدم السماح في الوقت ذاته ، لكل منهما بالهبوط في اراضي المنطقتين المذكورتين ٠ وبطبيعة الحال فان الطيران الاسرائيلي لن يكون في حاجة للهبوط في الشريط الحدودي الفلسطيني البالغ عرضه ٣ كلم وطوله نحو ٢٠٠ كلم ، على عكس حال الطيران المصري الذي سيحلق فوق منطقة يبلغ عرضها نحو ٦٠ كلم وطولها نحو ٤٠٠ ، والذي سيحرم من حق التزود بالوقود من مطارات للمنطقة « أ » التي توجد فيها الفرقة الميكانيكية المشار اليها ، الامر الذي يقلل من قدراته على حماية سماء المنطقة الى حد ما ، وبصورة تختلف تماما عن قدرة الطيران الاسرائيلي المماثلة بالنسبة للمنطقة « د » ٠

وقد حددت نصوص الملحق العسكري للمعاهدة منطقة ثالثة ، اطلقت عليها اسم المنطقة « ج » ، وتشمل شريطا طويلا من الارض يمتد من « الشيخ زويد » شمالا حتى « شرم الشيخ » جنوبا ويعمق نحو ٣٣ كلم حتى الحدود الدولية بين مصر وفلسطين ٠ وتوجد في هذه المنطقة قوات الامم المتحدة ، والشرطة المدنية المصرية ، وزوارق دورية ساحلية صغيرة لمراقبة التهريب عبر المياه الاقليمية ٠ ومعنى ذلك ان مصر حرمت تماما من اي تواجد عسكري لها في « شرم الشيخ » و « رأس نصراني » وجزر مضائق « تيران » عند مدخل خليج العقبة، فضلا عن تواجدها العسكري الامامي على خط الحدود في « رفح » و « ام قطف » و « القسيمة » و « الكونتلا » و « رأس النقب » ٠

وفي النتيجة الاخيرة تكون المعاهدة الاسرائيلية ـ المصرية ، وملحقها العسكري ، قد انهت حالة الحرب بين مصر واسرائيل ، ومنحت الاخيرة كافة مزايا السلام الاستراتيجية والسياسية والاقتصادية مع مصر ، مع ضمان عزل الاخيرة عن مجرى الصراع العربي ـ الاسرائيلي ، وضمان اضعاف وتقييد الخيار العسكري المصري الممكن ، في المستقبل القريب والبعيد ، ضد اسرائيل ٠ خاصة وان ذلك الخيار لن تقيده وتضعفه الاجراءات المؤقتة والدائمة المتفق عليها بالنسبة لشبه جزيرة سيناء فحسب ، وانما ستقيده ايضا تعهدات الولايات المتحدة بالتدخل السريع لصالح اسرائيل لوقف او منع اي خرق للمعاهدة، ولضمان الالتزام المصري الكامل ببنودها، بالاضافة الى شبه احتكار الولايات المتحدة لتسليح الجيش المصري بما لا يتعارض وميزان القوى العربي ـ الاسرائيلي ٠

عمليتي «طيرة تسفي» و «زرعيت»

شهدت المرحلة الاخيرة ، التي اعقبت توقيع معاهدة الصلح بين اسرائيل ومصر، تصعيدا ملموسا في العمليات العسكرية للثورة الفلسطينية داخل الاراضي المحتلة٠ وكان ابرز مظاهر هذا التصعيد العسكري عمليتي « طيرة تسفي » و « زرعيت » ٠

والعملية الاولى شنتها وحدة « الشهيد كمال ناصر » ليلة ١٤ ـ ١٥ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ على موقع عسكري اسرائيلي قرب مستوطنة « طيرة تسفي » الواقعة في غور « بيسان » غرب نهر الاردن ، واستمر الاشتباك خلالها وقتا طويلا اثناء الليل ، وانتهت العملية تماما في الثامنة من صباح يوم ٤/١٥ ، وقد استشهد خلالها اربعة فدائيين من المجموعة المذكورة · وقد اثارت هذه العملية قلق الدوائر العسكرية الاسرائيلية ، نظرا لانها تمت بالقرب من الحدود الاردنية من جهة مع ما تحمله هذه الظاهرة من مغزى سياسي ـ استراتيجي ، وبسبب استخدام الفدائيين لاسلحة متطورة جدا (لم يعلن شيء عنها) قادرة على الحاق اضرار بالآليات والابنية ولا تملكها سوى قوات حلف شمال الاطلسي من جهة اخرى · ولذلك وجه كل من الجنرال « ايتان » ، رئيس الاركان الاسرائيلي ، والجنرال « افيغدور بن غال » ، قائد الجبهة الشمالية ، انذارات شديدة الى الاردن لسماحه بفتح حدوده ، على حد قولهما ، للفدائيين الفلسطينيين ليشنوا هجمات على اسرائيل ·

والعملية الثانية قامت بها مجموعة اخرى من الفدائيين الفلسطينيين ليلة ١٦ ـ ١٧ نيسان (ابريل) اي بعد يومين فقط من العملية الاولى ، ضد مواقع المدفعية الاسرائيلية في مستوطنة «زرعيت»، الواقعة على مسافة ٢ كلم جنوب مركز الرقابة الدولية في مروحين وبلدة رامية قرب الحدود اللبنانية · واستمرت العملية نحو ٦ ساعات ، واسفرت عن تدمير مربض مدفعية ومستودع ذخيرة ومهجع للجنود الاسرائيليين (وفقا لبيانات المقاومة) ، ومقتل جندي اسرائيلي وجرح ٦ آخرين ، وفقا لما ذكره الناطق العسكري الاسرائيلي يوم ٤/١٧ ، واستشهاد ٦ من الفدائيين الفلسطينيين· وقد هدد نائب وزير الدفاع الاسرائيلي « موردخاي تسيبوري » ، بأن القوات الاسرائيلية قد تشن هجوما جديدا داخل لبنان اذا استمر الفدائيون الفلسطينيون يشنون مثل هذه العمليات عبر اراضيه ·

وهكذا اثبت الثوار الفلسطينيون قدرتهم على ضرب اهداف عسكرية اسرائيلية رغم « حزام الامن » في جنوب لبنان ، ورغم عدم وجود قواعد ثورية لهم في الاردن ·

محمود عزمي

وثائق

وثائق معاهدة السلام بين مصر واسرائيل

(١) معاهدة السلام بين مصر واسرائيل

الديباجة

ان حكومة جمهورية مصر العربية وحكومة دولة اسرائيل ·

اقتناعا منهما بالضرورة الماسة لاقامة سلام عادل وشامل ودائم في الشرق الاوسط وفقا لقراري مجلس الامن ٢٤٢ و ٣٣٨ ·

اذ تؤكدان من جديد التزامهما باطار السلام في الشرق الاوسط المتفق عليه في كمب ديفيد في ايلول ١٩٧٨ ·

واذ تلاحظان ان الاطار المشار اليه انما قصد به ان يكون اساسا للسلام ليس بين مصر واسرائيل فحسب بل ايضا بين اسرائيل واي من جيرانها العرب ممن يكون على استعداد للتفاوض من اجل السلام معها على هذا الاساس ·

ورغبة منهما في انهاء حال الحرب بينهما واقامة سلام تستطيع فيه كل دولة في المنطقة ان تعيش في امن ·

واقتناعا منهما بأن عقد معاهدة سلام بين مصر واسرائيل يعتبر خطوة مهمة في طريق البحث عن السلام الشامل في المنطقة والتوصل الى تسوية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي بكل نواحيه ·

واذ تدعوان الاطراف العربية الاخرى في النزاع الى الاشتراك في عملية السلام مع اسرائيل على اساس مبادىء اطار السلام المشار اليها آنفا واسترشادا بها ·

واذ ترغبان ايضا في انماء العلاقات الودية والتعاون بينهما وفقا لميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي التي تحكم العلاقات الدولية في زمن السلم ·

قد اتفقتا على الاحكام الآتية بمقتضى ممارستهما الحرة لسيادتهما من اجل تنفيذ الاطار الخاص بعقد معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ·

المادة الاولى

١ ـ تنتهي حال الحرب بين الطرفين ويقام السلام بينهما عند تبادل وثائق المصادقة على هذه المعاهدة ·

٢ ـ تسحب اسرائيل كل قواتها المسلحة والمدنيين من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية بين مصر وفلسطين تحت الانتداب

كما هو وارد في البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الاول) وتستأنف مصر ممارسة سيادتها الكاملة على سيناء ٠

٣ ـ عند اتمام الانسحاب المبدئي المنصوص عليه في الملحق الاول يقيم الطرفان علاقات طبيعية وودية بينهما طبقا للمادة الثالثة الفقرة ٣ ٠

المادة الثانية

ان الحدود الدائمة بين مصر واسرائيل هي الحدود الدولية المعترف بها بين مصر وفلسطين تحت الانتداب كما هو واضح في الخريطة في الملحق الثاني وذلك من دون المساس بالوضع الخاص بغزة ٠ ويقر الطرفان بأن هذه الحدود مصونة لا تمس ويتعهد كل منهما باحترام سلامة اراضي الطرف الاخر بما في ذلك مياهه الاقليمية ومجاله الجوي ٠

المادة الثالثة

١ ـ يطبق الطرفان في ما بينهما احكام ميثاق الامم المتحدة ومبادىء القانون الدولي التي تحكم العلاقات بين الدول في وقت السلم ، وفي صفة خاصة ٠

أ ـ يقر الطرفان ويحترم كل منهما سيادة الآخر وسلامة اراضيه واستقلاله السياسي ٠

ب ـ يقر الطرفان ويحترم كل منهما حق الاخر في ان يعيش في سلام داخل حدوده الآمنة والمعترف بها ٠

ج ـ يتعهد الطرفان بالامتناع عن التهديد باستخدام القوة او استخدامها احدهما ضد الآخر على نحو مباشر او غير مباشر وبحل كل النزاعات التي تنشأ بينهما بالوسائل السلمية ٠

٢ ـ يتعهد كل طرف بأن يكفل عدم صدور فعل من افعال الحرب او الافعال العدوانية او افعال العنف او التهديد بها من داخل اقليمه او بواسطة قوات خاضعة لسيطرته او مرابطة على اراضيه ضد السكان او المواطنين او الممتلكات الخاصة بالطرف الآخر ٠ كما يتعهد كل طرف بالامتناع عن التنظيم او التحريض او المساعدة او الاشتراك في فعل من افعال الحرب او الافعال العدوانية او النشاط الهدام او افعال العنف الموجهة ضد الطرف الآخر في اي مكان ٠ كما يتعهد بأن يكفل تقديم مرتكبي مثل هذه الافعال الى المحاكمة ٠

٣ ـ يتفق الطرفان على ان العلاقات الطبيعية التي ستقام بينهما ستتضمن الاعتراف الكامل والعلاقات الدبلوماسية والاقتصادية والثقافية وانهاء المقاطعة الاقتصادية والحواجز ذات الطابع التمييزي المفروضة ضد حرية انتقال الافراد والسلع٠ كما يتعهد كل طرف بأن يكفل تمتع مواطني الطرف الآخر الخاضعين لاختصاصه القضائي بكل الضمانات القانونية ٠ ويوضح البروتوكول الملحق بهذه المعاهدة (الملحق الثالث) الطريقة التي يتعهد الطرفان بمقتضاها بالتوصل الى اقامة هذه العلاقات وذلك بالتوازي مع تنفيذ الاحكام الاخرى لهذه المعاهدة ٠

المادة الرابعة

١ ـ بغية توفير الحد الاقصى من الامن لكلا الطرفين وذلك على اساس متبادل ، تقام ترتيبات امن متفق عليها بما في ذلك مناطق محدودة التسليح في الاراضي المصرية والاسرائيلية وقوات الامم المتحدة ومراقبين من الامم المتحدة ٠وهذه الترتيبات موضحة تفصيلا من حيث الطبيعة والتوقيت في الملحق الاول ، كذلك اية ترتيبات امن اخرى قد يتفق عليها الطرفان ٠

٢ ـ يتفق الطرفان على تمركز افــراد الامم المتحدة في المناطق الموضحة فــي الملحق الاول ويتفق الطرفــان على الا يطلبا سحب افراد الامم المتحدة وعلى ان سحب هؤلاء الافراد لن يتم الا بموافقــة مجلس الامن التابع للامم المتحدة بما في ذلك التصويت الايجابي للاعضاء الخمسة الدائمين في المجلس ما لم يتفق الطرفان على خلاف ذلك ٠

٣ ـ تنشأ لجنة مشتركة لتسهيل تنفيذ هذه المعاهدة وفقا لما هو منصوص عليــه في الملحق الاول ٠

٤ ـ يتم بناء على طلب احد الطرفيىن اعادة النظر في ترتيبات الامن المنصوص عليها في الفقرتين ١ و ٢ من هذه المــادة وتعديلها باتفاق الطرفين ٠

المادة الخامسة

١ ـ تتمتــــع السفن الاسرائيليـــة والشحنات المتجهة من اسرائيل واليها بحق المرور الحر في قناة السويس ومداخلها في كل من خليج السويس والبحــر الابيض المتوسط وفقا لاحكام اتفاق القسطنطينية للعام ١٨٨٨ المنطبق على جميع الدول ٠ كمــا يعامل رعايا اسرائيــل وسفنهــا وشحناتها ، كذلك الاشخاص والسفـــن والشحنات المتجهة من اسرائيل واليهــا ، معاملة لا تتسم بالتمييــز في كل الشؤون المتعلقة باستخدام القناة ٠

٢ ـ يعتبر الطرفان ان مضيق تيــران وخليج العقبة من الممرات المائية الدوليـة المفتوحة لكل الدول من دون عائـــق او ايقاف لحرية الملاحة او العبور الجوي ٠ كمــا يحترم الطرفان حق كل منهما فــي الملاحة والعبور الجوي من اجل الوصول الى اراضيه عبر مضيق تيران وخليـــج العقبة ٠

المادة السادسة

١ ـ لا تمس هذه المعاهدة ولا يجــوز تفسيرها على اي نحو يمس حقوق الطرفين والتزامهما وفقا لميثاق الامم المتحدة ٠

٢ ـ يتعهد الطرفان بأن ينفـذا بحسن نية التزاماتهما الناشئة عن هذه المعاهدة بصرف النظر عن اي فعل او امتناع عــن فعل من جانب طــرف اخر وعلى نحــو مستقل عن أية وثيقة خارج هذه المعاهدة٠

٣ ـ كما يتعهدان باتخاذ كل التدابيــر اللازمة لكي تنطبق في علاقاتهما احكـــام الاتفاقات المتعددة الاطراف التي يكونان من اطرافها بما في ذلك تقديم الاخطــار المناسب للامين العام للامم المتحدة وجهات الايداع الاخرى لمثل هذه الاتفاقات ٠

٤ ـ يتعهد الطرفان بعدم الدخول فــي اي التزام يتعارض مع هذه المعاهدة ٠

٥ ـ مع مراعاة المادة ١٠٣ من ميثاق الامم المتحدة يقر الطرفان بأنه في حـــال وجود تناقض بين التزامات الاطـــراف بموجب هذه المعاهدة واي من التزاماتهما الاخرى فان الالتزامات الناشئة عن هــذه المعاهدة تكون ملزمة ونافذة ٠

المادة السابعة

١ ـ تحل الخلافات في شأن تطبيق هذه المعاهدة او تفسيرها عن طريق المفاوضة٠

٢ ـ اذ لم يتيسر حل هذه الخلافات عن طريق المفاوضة فتحل بالتوفيق او تحال على التحكيم ٠

المادة الثامنة

يتفق الطرفـــان على انشاء لجنــة تعويضات للتسوية المتبادلة لكل المطالبات المالية ٠

المادة التاسعة

١ ـ تصبح هذه المعاهدة نافذة المفعول عند تبادل وثائق المصادقة عليها ٠
٢ ـ تحل هذه المعاهدة محل الاتفاق المعقود بين مصر واسرائيل في ايلول ١٩٧٥ ٠

٣ ـ تعد كل البروتوكولات والملاحق والخرائط الملحقة بهذه المعاهدة جزءا لا يتجزأ منها ٠

٤ ـ يتم اخطار الامين العام للامم المتحدة بهذه المعاهدة لتسجيلها وفقا لاحكام المادة ١٠٢ من ميثاق الامم المتحدة
حررت في واشنطن في ٢٦ من شهر اذار سنة ١٩٧٩ ٠

من ثلاث نسخ باللغات العربية والانكليزية والعبرية وتعتبر جميعها متساوية وفي حال الخلاف في التفسير يكون النص الانكليزي هو الذي يعتد به ٠

(٢) البروتوكول المتعلق بالانسحاب الاسرائيلي والترتيبات الامنية

المادة الاولى
مفهوم الانسحاب

اولا : تنهي اسرائيل سحب كل قواتها المسلحة وكل المدنيين من سيناء في وقت لا يتعدى ثلاث سنوات اعتبارا من موعد تبادل وثائق التصديق على المعاهدة ٠

ثانيا : ضمانا للامن المتبادل للجانبين ستواكب تنفيذ مرحلة الانسحاب التدريجي اجراءات عسكرية واقامة مناطق بالصورة المحددة في هذا الملحق وكذلك على الخريطة رقم واحد ٠ « يشار اليها من الآن ولاحقا بتعبير « المناطق » ٠

ثالثا : يتم الانسحاب من سيناء على مرحلتين :

أ ـ الانسحاب المرحلي الى الخط الممتد شرق العريش ٠٠ رأس محمد وفقا للرسم المبين (في الخريطة رقم ٢) ٠٠ ويجب ان ينتهي هذا الانسحاب خلال الاشهر التسعة التالية لموعد تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة ٠

ب : يتم الانسحاب النهائي من سيناء الى ما وراء الحدود الدولية في وقت لا يتعدى ثلاث سنوات اعتبارا من موعد تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة٠

رابعا : يتم تشكيل لجنة مشتركة فور تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة تكون مهمتها الاشراف وتنسيق التحركات والجداول خلال عمليات الانسحاب ، وتعديل الخطط والجداول الزمنية كما تتطلب الضرورة وفي الحدود التي تنص عليها الفقرة (٣) السابق ذكرها ٠

وتحدد المادة (٤) من الملحق الاضافي المرفق التفاصيل المتعلقة باللجنة المشتركة٠

وسوف يتم حل اللجنة المشتركة فور استكمال الانسحاب الاسرائيلي النهائي من سيناء ٠

المادة الثانية
تحديد الخطوط النهائية والمناطق

١ ـ من اجل منح الطرفين اقصى قدر من الامن بعد الانسحاب النهائي ، يتم انشاء وتنظيم الخطوط والمناطق المبينة على الخريطة (١) كما يلي : ـ

أ ـ منطقة أ

١ ـ المنطقة (أ) يحدها من الشرق الخط (أ) (الخط الاحمر) ومن الغرب قناة السويس والساحل الشرقي لخليج السويس كما هو مبين في الخريطة (١) ٠

٢ ـ تتواجد في هذه المنطقة فرقة مصرية من جنود المشاة الميكانيكية واجهزتها العسكرية وتحصينات الميدان ٠
٣ ـ ستتكون العناصر الاساسية للفرقة من :

أ ـ ٣ الوية مشاة ميكانيكية ٠
ب ـ لواء مدرع
ج ـ ٧ كتائب مدفعية ميدانية تضم ١٢٦ قطعة مدفعية ٠

د ـ ٧ كتائب مدفعية مضادة للطائرات تضم صواريخ ارض ـ جو فردية وما يصل الى ١٢٦ مدفعا مضادا للطائرات عيار ٣٧ مم ٠

هـ ـ عدد يصل الى ٢٣٠ دبابة ٠

و ـ عدد يصل الى ٤٨٠ عربة مدرعة من جميع الانواع ٠

ز ـ عدد يصل اجماليا الى ٢٢ الف فرد ٠

ب ـ المنطقة (ب)

(١) المنطقة (ب) يحدها الخط (ب) (الخط الاخضر) من الشرق والخط (أ) (الخط الاحمر) من الغرب كما هو موضح في الخريطة (١) ٠

(٢) تتولى وحدات مصرية تتكون من ٤ كتائب مزودة بالاسلحة الخفيفة والعربات مسئولية الامن واستكمال مهمة البوليس المدني في حفظ النظام في المنطقة (ب) ٠

وتتكون العناصر الاساسية لكتائب الحدود الاربع من عدد يصل اجماليا الى ٤ الاف يارد ٠

(٣) وقد تنشأ على ساحل هذه المنطقة نقاط انذار ساحلية متمركزة ارضا وذات مدى قصير وقدرة نيرانية محدودة من وحدات دوريات الحدود ٠

(٤) ـ سيكون في المنطقة «ب» تحصينات ميدانية عسكرية للكتائب الاربع٠

ج ـ المنطقة ج ٠

(١) المنطقة ج يحدها الخط ب (خط اخضر) في الغرب والحدودالدولية وخليج العقبة في الشرق كما تظهر الخارطة رقم واحد ٠

(٢) ـ لن تتمركز سوى قوات الامم المتحدة والشرطة المصرية المدنية في المنطقة ٠

(٣) ـ الشرطة المدنية المصرية ستزود بأسلحة خفيفة وستقوم بوظائف الشرطة العادية في هذه المنطقة ٠

(٤) ـ قوات الامم المتحدة ستتمركز في المنطقة ج وستقوم بوظائفها كما هو محدد في المادة السادسة من هذا الملحق ٠

(٥) ـ ستتمركز قوات الامم المتحدة اساسا في معسكرات تقع داخل مناطق التمركز التالية كما هو وارد في الخارطة رقم ١ ، وسيتم تحديد المواقع المحددة لها بعد التشاور مع مصر :

أ ـ في ذلك الجزء من المنطقة في سيناء الذي يقع على مسافة ٢٠ كيلو مترا من البحر الابيض المتوسط بمحاذاة الحدود الدولية ٠

(ب) ـ في منطقة شرم الشيخ ٠

د ـ المنطقة د

(١) ـ المنطقة د يحدها الخط د (خط ازرق) الى الشرق والحدود الدولية الى الغرب كما تظهر الخارطة ٠

(٢) ـ في هذه المنطقة سيكون هناك قوة اسرائيلية محدودة تتكون من اربع كتائب مشاة ومنشاتها العسكرية وتحصيناتها الميدانية ومراقبين من الامم المتحدة ٠

(٣) ـ القوات الاسرائيلية في المنطقة د لن تزود بالدبابات والمدفعية والصواريخ المضادة للطائرات عدا صواريخ ارض ـ جو الفردية ٠

(٤) ـ العناصر الرئيسية من كتائب

المشاة الاسرائيلية الاربع ستتكون من ١٨٠ عربة ناقلة للجنود كحد اقصى من كافة الانواع و ٤٠٠٠ جندي كعدد اجمالي ·

٢ ـ المرور عبر الحدود الدولية سيسمح به فقط عبر نقاط تفتيش يقيمها كل طرف وتكون تحت سيطرته ومثل هذا العبور سيتم وفقا للقوانين والاجراءات في كل دولة ·

٣ ـ لن يسمح سوى بالتحصينات والمنشات العسكرية واسلحة القوات التي نص عليها الملحق في هذه المنطقة ·

المادة الثالثة
نظام التحليق العسكري

١ ـ تحليق الطائرات الحربية ورحلات المراقبة التابعة لمصر واسرائيل ستكون فقط فوق المنطقتين أ ود على التوالي ·

٢ ـ لن تتمركز في المنطقتين أ ود سوى طائرات مصر واسرائيل غير مسلحة وغير مقاتلة ·

٣ ـ لن تقلع وتهبط في المنطقة ب سوى طائرات النقل المصرية غير المسلحة ويمكن الابقاء على ثماني طائرات من هذا الطراز في المنطقة ب ·

ـ ووحدات الحدود المصرية يمكن تزويدها بطائرات هليوكبتر غير مسلحة للقيام بوظائفها في المنطقة ب ـ ·

٤ ـ يمكن تزويد الشرطة المدنية المصرية بطائرات هليوكبتر غير مسلحة للقيام بوظائفها في المنطقة ب ·
ج ·

٥ ـ لن يسمح في هذه المناطق سوى ببناء مطارات مدنية ·

٦ ـ من دون مناقضة اي من بنود هذه المعاهدة لن يسمح سوى بتلك النشاطات الجوية العسكرية التي ينص عليها هذا الملحق في المناطق والمجال الجوي فوق المياه الاقليمية ·

المادة الرابعة
النظام البحري

١ ـ بامكان مصر واسرائيل وضع وتشغيل سفن بحرية على طول سواحل المنطقتين (أ) ، (د) على التوالي ·

٢ ـ يتم وضع زوارق خفر سواحل مصرية مسلحة تسليحا خفيفا وتشغيلها في المياه الاقليمية بالمنطقة (ب) لمساعدة وحدات الحدود في تأدية وظيفتها في هذه المنطقة ·

٣ ـ سيقوم البوليس المدني المصري المجهز بالزوارق الخفيفة والاسلحة الخفيفة بتأدية وظائف البوليس الطبيعية في المياه الاقليمية للمنطقة (ج) ·

٤ ـ لا شيء في هذا الملحق سوف يعتبر انتقاضا من حق المرور البريء للسفن البحرية لكلا الطرفين ·

٥ ـ يجري انشاء موانيء بحرية مدنية فقط ومنشات في هذه المناطق ·

٦ ـ سيسمح بهذه الانشطة البحرية فقط ، ودون الحاق الضرر ببنود المعاهدة بهذه المناطق ومياهها الاقليمية ·

المادة الخامسة
اجهزة الانذار المبكر

بامكان مصر واسرائيل انشاء وتشغيل اجهزة للانذار المبكر في المنطقتين (أ) ، (د) ، على التوالي ·

المادة السادسة
عمليات الامم المتحدة

١ ـ ستطلب الاطراف الى الامم المتحدة

تزويدها بالقوات والمراقبين للاشراف على تنفيذ هذا الملحق وبذل افضل جهودهـــا لمنع اي خرق لبنوده ٠

٢ ـ فيما يتعلق بقوات الامم المتحـــدة والمراقبين وافقت الاطراف على طلـــب الترتيبات التالية :

١ ـ تشغيل نقاط التفتيش ، ودوريـات الاستطلاع ومراكز المراقبة على طـــول الحدود الدولية وخط (ب) وداخل المنطقة (ج) ٠

ب ـ التحقيق الدوري من تنفيذ بنـــود هذا الملحق سيتم ليس اقل من مرتيـــن شهريا الا اذا اتفقت الاطراف على غيـر ذلك ٠

ج ـ اجراء تحقق اضافي في خلال ٤٨ ساعة بعد استلام طلب بذلك من اي مـن الطرفين ٠

د ـ ضمان حرية الملاحة خلال ممـــر تيران طبقا للمادة (٥) من المعاهدة ٠

٣ ـ تشرف قوات الامم المتحدة علـى تنفيذ الترتيبات المنصوص عليها في هـذه المادة في المناطق (أ،ب،ج) ٠ ويشـــرف مراقبو الامم المتحدة على تنفيذها فـــي المنطقة (د) ٠

٤ ـ سيصحب ضباط اتصال من كـلا الطرفين فرق التحقـــق التابعة للامـــم المتحدة ٠

٥ ـ تقـــــدم قوات الامم المتحــــدة ومراقبوها تقارير عن نتائج مهمتها لكلا الطرفين ٠

٦ ـ تتمتـــع قوات الامم المتحـــدة ومراقبوها العاملون في المناطق بحريـــة الحركة وغيرها من التسهيلات الضروريـة لاداء مهامها ٠

٧ ـ ليس لقـــوات الامم المتحـــدة ومراقبوها سلطة اصدار تراخيص لعبـــور الحدود الدولية ٠

٨ ـ سيتفق الطرفان على الدول التـي سيتم منها تشكيل قوات الامم المتحـــدة ومراقبوها ٠ وسيتم تشكيل هذه القوات من دول اخـــرى غير الدول الاعضـــاء الدائمين في مجلس الامن ٠

٩ ـ يتفق الطرفان على ضرورة ان تقوم الامم المتـــحدة باتخاذ هذه الترتيبـــات بأفضل وسيلة تضمن التنفيذ الفعــــال لمسئولياتها ٠

المادة السابعة
نظام الاتصال

١ ـ فور حل اللجنة المشتركة ، يتـــم انشاء نظام اتصال بين الاطراف ٠ويقصد بنظام الاتصال توفير وسيلة فعالة لتقييم التقدم في تنفيذ الالتزامـــات المنصوص عليها في هذا الملحق وحل اية مشاكـــل يمكن ان تبرز خلال عملية التنفيذ والرجوع في القضايا الاخرى التي لا يمكن حلهـا الى السلطات العسكرية الاعلى في كـلا الدولتين تباعا للنظر فيها ٠

وكذلك يقصد بنظام الاتصال تجنـــب المواقف الناجمـة عن اخطـــاء او ســوء التفسير من جانب اي من الطرفين ٠

٢ ـ سيتم انشاء مكتب اتصال مصري في مدينة العـــريش ، ومكتب اتصـــال اسرائيلي في مدينة بير سبع ٠ ويـــرأس كل مكتب ضابط من الدولة المعنية ويساعده عدد من الضباط ٠

٣ ـ سيتم انشاء خط تليفوني مبـاشر بين المكتبين ، كذلك سيتـم انشاء خطـوط تليفونية مباشرة بين المكتبين وقيادة قوات الامم المتحدة ٠

المادة الثامنة
احترام النصب التذكارية
لضحايا الحرب

يتعهد كل طرف بالمحافظة في حالة جيدة على النصب التذكارية للحرب التي اقيمت لذكرى جنود كل طرف ، خصوصا تلك التي اقامتها اسرائيل في سيناء وتلك التي قد تقيمها مصر في اسرائيل • وسيسمح بالمرور الى هذه الانصبة •

المادة التاسعة
الترتيبات المؤقتة

انسحاب القوات المسلحة الاسرائيلية والمدنيين الاسرائيليين الى ما وراء خط الانسحاب المؤقت وتحرك قوات الطرفين وقوات الامم المتحدة قبل الانسحاب النهائي ستحدد وفق الملحق الاضافي المرفق والخريطة (٢) و (٣) •

(٣) ملحق اضافي للملحق الاول

تنظيم التحركات في سيناء

المادة الاولى

المباديء المتعلقة بالانسحاب

١ ـ سيتم انسحاب القوات الاسرائيلية من سيناء على مرحلتين كما ورد نصها في المادة الاولى في الملحق الاول ووصف وتوقيت عمليات الانسحاب متضمنة في هذا الملحق وسوف تضع اللجنة المشتركة المزيد من التفاصيل وستقدم للمنسق العام لقوات الامم المتحدة في الشرق الاوسط في وقت لا يزيد عن شهر قبل بدء كل مرحلة من مراحل الانسحاب •

ويتفق الطرفان على المباديء الآتية فيما يختص بتسلسل التحركات العسكرية :

أ ـ وفيما يختص بما تنص عليه المادة (٩) ، الفقرة الثانية من هذه المعاهدة ، وحتى يتم الانسحاب الكامل للقوات العسكرية الاسرائيلية من الخطوط MA الحالية والتي اقيمت بموجب الاتفاق المصري الاسرائيلي في ايلول سنة ١٩٧٥ والذي يشار اليه بتغيير اتفاق ١٩٧٥ ، وحتى يتم الانسحاب المؤقت فان جميع الترتيبات العسكرية القائمة وفقا لذلك الاتفاق ، ستبقى نافذة المفعول ، فيما عدا تلك الترتيبات العسكرية التي تنص على غير ذلك من هذا الملحق •

ب ـ وفي الوقت الذي يتم فيه انسحاب القوات الاسرائيلية فأن قوات الامم المتحدة ستدخل فوراً المناطق التي سيتم اخلاؤها وذلك لانشاء مناطق عازلة انتقالية كما هو مبين في الخريطة ٢ و ٣ على التوالي بهدف المحافظة على الفصل بين القوات •

ويسبق اي تحرك لاي افراد اخرين الى هذه المناطق •

اعادة انتشار قوات الامم المتحدة الى هذه المناطق •

ج ـ وبعد سبعة ايام من جلاء القوات الاسرائيلية من كل منطقة تقع في المنطقة أ ـ ينتشر ثلث القوات المصرية العاملة المذكورة في المادة الثانية من هذا الملحق•

د ـ وبعد فترة سبعة ايام من جلاء القوات الاسرائيلية من كل منطقة تقع في المنطقة (أ) او (ب) تنتشر وحدات الحدود المصرية المذكورة في المادة ٣ من هذا الملحق حتى المنطقة العازلة كما تظهر في الخريطة ٢ • وتعمل وحدات الحدود وفقا لبنود المادة ٢ من الملحق الاول • ستدخل قوات البوليس المصري الى المناطق التي سيتم الجلاء عنها فور انسحاب قوات الامم المتحدة حيث تقوم قوات البوليس باداء مهامها العادية •

و ـ ستنتشر وحدات القوات البحرية المصرية في خليج السويس طبقا لنصوص

المادة ٢ في هذا الملحق ٠

ز ـ وفيما عدا مراحل الانسحاب الاسرائيلي التي تم وصفها انفا ، فان انتشار القوات المسلحة المصرية واوجه النشاط التي تم النص عليها في الملحق الاول سيتم عندما تكون القوات العسكرية الاسرائيلية قد اتمت انسحابها الى خلف خط الانسحاب المؤقت ٠

المادة الثانية

المراحل الجزئية للانسحاب الى خط الانسحاب المرحلي

١ ـ يتم الانسحاب الى خط الانسحاب المرحلي بموجب مراحل جزئية كما هو مبين في هذه المادة وموضح في الخريطة رقم ٣ . وتنتهي كل مرحلة جزئية خلال الاشهر المشار اليها من تاريخ تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة .

ا ـ المرحلة الجزئية الاولى :

يتم خلال شهرين انسحاب القوات الاسرائيلية من منطقة العريش بما فيه مدينة العريش ومطارها الجوي ٠ وهي المنطقة (١) في الخريطة (٣) ٠

ب ـ المرحلة الجزئية الثانية :

يتم خلال ثلاثة اشهر انسحاب القوات الاسرائيلية من المنطقة بين الخط M من اتفاقية ١٩٧٥ والخط A ٠وهي المنطقة (٢) في الخريطة (٣) ٠

جـ ـ المرحلة الجزئية الثالثة :

يتم خلال خمسة اشهر انسحاب القوات الاسرائيلية من المنطقة شرق وجنوب المنطقة (٢) ٠ وهي المنطقة (٣) على الخريطة (٣) ٠

د ـ المرحلة الجزئية الرابعة :

يتم خلال سبعة اشهر انسحاب القوات الاسرائيلية من منطقة الطور رأس الكنيسة ، وهي المنطقة (٤) على الخريطة (٣) ٠

هـ ـ المرحلة الجزئية الخامسة :

يتم خلال تسعة اشهر انسحاب القوات الاسرائيلية من المناطق الباقية غرب خط الانسحاب المرحلي بما فيه سانتا كاترينا والمنطقة شرق ممري الجدي ومتلا ٠ وهي المنطقه (٥) على الخريطة (٣) وبذلك يتم الانسحاب الاسرائيلي خلف خط الانسحاب المرحلي ٠

٢ ـ تنتشر القوات المصرية في المناطق التي احتلتها القوات الاسرائيلية كما يلي :

أ ـ ينتشر ثلث القوات المصرية العاملة في سيناء بموجب اتفاق سنة ١٩٧٥ في مناطق ضمن حدود منطقة (١) حتى نهاية الانسحاب المرحلي ٠ بعدها تنتشر القوات المسلحة المصرية ، المعرفة في المادة (٢) من الملحق (١) ، في المنطقة A حتى حدود المنطقة المنزوعة السلاح المؤقتة ٠

ب ـ تمارس البحرية المصرية نشاطاتها بموجب المادة (٤) من الملحق (١) على طول الساحل لمناطق ٢ ، ٣ ، ٤ ، عند اكمال المراحل الجزئية الثانية والثالثة والرابعة على التوالي ٠

جـ ـ تنتشر كتيبة من وحدات الحدود المصرية المبينة في المادة (٢) من الملحق الاول في منطقة (١) عند اكتمال المرحلة الجزئية الاولى ، وتنتشر كتيبة اخرى ، عند اكتمال المرحلة الجزئية الثانية ، في المنطقة (٢) ٠ وتنتشر كتيبة ثالثة في المنطقة (٣) عند اكتمال المرحلة الجزئية الثالثة ٠ كما يمكن للكتيبة الثانية والكتيبة الثالثة المذكورتان اعلاه الانتشار في اي من المناطق التي تم منها الانسحاب

جنوب سيناء ٠

٣ ـ تعمل قوات الامم المتحدة العاملة في المنطقه المنزوعة السلاح (١) بموجب اتفاقية ١٩٧٥ على تمكين القوات المصرية من الانتشار كما هو مبين اعلاه عند اكتمال المرحلة الجزئية الاولى ، وفي عكس ذلك تستمر بالعمل بموجب بنود تلك الاتفاقية في المنطقة المتبقية حتى اكتمال الانسحاب المرحلي كما هو مبين في المادة (١) من هذا الملحق ٠

٤ ـ يمكن للقوافل الاسرائيلية استخدام طرق جنوب وشرق تقاطع الطرق الرئيسي شرق العريش لنقل التجهيزات والقوات الاسرائيلية حتى اكمال الانسحاب المرحلي ٠ وتتقدم هذه القوافل في وضح النهار بعد اربع ساعات من اعلام فريق الاتصال المصري وقوات الامم المتحدة تحت حماية قوات الامم المتحدة كما يكون ذلك بموجب اجراءات تنسيق تقدمها اللجنة المشتركة ٠ كما يرافق ضابط اتصال مصري هذه القوافل للتأكد من حرية حركتها ٠ يمكن للجنة المشتركة الموافقة على ترتيبات اخرى بخصوص هذه القوافل ٠

المادة الثالثة

قوات الامم المتحدة

١ ـ سيطلب الطرفان ان تنتشر قوات الامم المتحدة وفقا للمهام التي تم وصفها في هذا الملحق والى حين اتمام عملية الانسحاب الاسرائيلي الكامل ٠

وتحقيقا لهذا الهدف فان الطرفين يتفقان على اعادة انتشار قوات الطوارىء الدولية ٠

٢ ـ وستتولى قوات الامم المتحدة الاشراف على تنفيذ الملحق وتبذل افضل المجهودات لتفادي اي خرق لنصوص الملحق ٠

٣ ـ عندما تنتشر قوات الامم المتحدة وفقا لنصوص المادة ١ و ٢ لهذا الملحق ، فسوف تتولى مهام التفتيش في المناطق المحددة للقوات وفقا للمادة ٦ من الملحق الاول وسوف تنشيء نقاط تفتيش ، ودوريات استطلاع ومراكز مراقبة في المناطق العازلة المؤقتة ، التي ورد وصفها في المادة السابقة اما المهام الاخرى لقوات الامم المتحدة المتعلقة بالمناطق العازلة المؤقتة فقد ورد شرحها في المادة الخامسة لهذا الملحق ٠

المادة الرابعة

اللجنة المشتركة ومكاتب الاتصال

١ ـ وستعمل اللجنة المشتركة التي تم الاشارة اليها في المادة الرابعة من هذه المعاهدة من تاريخ تبادل التصديق على وثائق هذه المعاهدة وحتى تاريخ اتمام الانسحاب النهائي للقوات الاسرائيلية من سيناء ٠

٢ ـ وستشكل اللجنة المشتركة من ممثلين عن كل طرف يرأسها ضباط كبار ٠ وستدعو اللجنة المشتركة ممثلا عن الامم المتحدة عندما تناقش موضوعات متعلقة بها ، او عندما يطلب اي من الطرفين حضور الامم المتحدة وستتوصل اللجنة المشتركة الى قراراتها بالاتفاق بين مصر واسرائيل ٠

٣ ـ تتولى اللجنة المشتركة الاشراف على تنفيذ الترتيبات التي اوردها الملحق الاول وهذا الملحق الاضافي ٠

وتنفيذا لهذا الهدف ـ وبموافقة الطرفين ـ فان اللجنة ستقوم بـ :

أ ـ تنسيق التحركات العسكرية كما اوردها هذا الملحق الاضافي ، والاشراف على تنفيذها ٠

ب ـ المواجهة والسعي الى حل اية مشكلة تنشأ خلال تنفيذ الملحق الاول وهذا الملحق الاضافي · ويحث اي انتهاك تبلغ عنه قوة الامم المتحدة والمراقبون واحالة اية مشكلة لا يتم حلها الى حكومتي مصر واسرائيل ·

ج ـ تعاون اللجنة قوات ومراقبي الامم المتحدة في تنفيذ المهام المنوطة بها ·· كما تتكلف بالجدول الزمني لعمليات الاشراف المرحلية عندما يدعوها الطرفان لتطبيق الملحق رقم ١ والملحق الحالي ·

د ـ تقوم اللجنة بتنظيم الخط الفاصل للحدود الدولية ولجميع الخطوط والمناطق المذكورة في الملحق رقم ١ والملحق الحالي ·

هـ ـ تشرف على عملية تسليم اسرائيل للمنشات الرئيسية في سيناء الى مصر ·

و ـ تقر الترتيبات التي يتعين القيام بها للبحث عن جثث الجنود المصريين والاسرائيليين المفقودة واعادتها ·

ز ـ تنظيم عملية اقامة وتشغيل نقاط المراقبة على خط العريش ـ رأس محمد تطبيقا لبنود المادة الرابعة من الملحق رقم ٢ ·

ح ـ تقوم بعملياتها بالاستعانة بفرق اتصال مشتركة تتكون من مندوب اسرائيلي واخر مصري يتم استدعاؤهما من مجموعة الاتصال الدائمة وتقوم بنشاطه بناء على تعليمات من اللجنة المشتركة ·

ط ـ تقوم بتأمين عمليات الاتصال والتنسيق لقيادة الامم المتحدة المكلفة بتطبيق بنود المعاهدة ·· وتشرف عن طريق فرق الاتصال المشتركة ·· على عمليات التنسيق والتعاون المحلية مع قوات الامم المتحدة المرابطة في مناطق محددة او مع مراقبي الامم المتحدة العاملة في مناطق محددة ·

ي ـ تناقش اللجنة اي مسألة اخرى قد يعرضها عليها الطرفان بناء على اتفاق مشترك ·

٤ ـ تعقد اللجنة المشتركة اجتماعا كل شهر على الاقل ـ كما تعقد اجتماعا خاصا خلال ٢٤ ساعة في حالة طلب اي من الاطراف او من قيادة الامم المتحدة ·

٥ ـ تلتقي اللجنة المشتركة في المنطقة العازلة حتى نهاية الانسحاب المرحلي · ثم بعد ذلك تلتقي على التوالي في كل من العريش وبئر سبع ·· وينعقد الاجتماع الاول بعد بدء دخول المعاهدة حيز التنفيذ في وقت لا يتعدى اسبوعين ·

المادة الخامسة

تحديد المنطقة العازلة المؤقتة وانشطتها

١ ـ المنطقة العازلة المؤقتة .. والتي ستنفذ بها قوة الامم المتحدة الفصل بين الافراد المصريين والاسرائيليين ـ ستقام الى الغرب ـ وبشكل متاخم ـ لخط الانسحاب المؤقت كما تبينه الخريطة رقم (٢) ، بعد تنفيذ الانسحاب الاسرائيلي والانتشار خلف خط الانسحاب المؤقت · ويتولى البوليس المدني المصري ـ المزود باسلحة خفيفة ـ مهام الامن العادية داخل المنطقة ·

٢ ـ تتولى قوة الامم المتحدة ادارة نقاط تفتيش ودوريات استطلاع · ومراكز مراقبة داخل المنطقة العازلة المؤقتة لضمان الالتزام ببنود هذه المادة ·

٣ ـ يدير افراد اسرائيليون بموجب الترتيبات التي يتفق عليها الجانبان والتي يتم تنسيقها عن طريق اللجنة المشتركة ، التجهيزات العسكرية الفنية في اربعة مواقع محددة على الخريطة رقم (٢) يرمز اليها T 1, T 2, T 3, T 4, ويتم ذلك بموجب المبادىء التالية :

أ ـ تزود التجهيزات الفنية بأفراد فنيين واداريين مسلحين بأسلحة خفيفة لاغراض الحماية الفردية (مسدسات ، بنادق ، بنادق نصف اوتوماتيكية ، بنادق اوتوماتيكية خفيفة ، قنابل يدوية وذخائر) حسب التالي :

١٥٠ فردا اجماليا في T 1,

٢٥٠ فردا اجماليا في T 2, T 3,

٢٠٠ فردا اجماليا في T 4,

ب ـ لا يسمح للافراد الاسرائيليين بنقل اسلحة خارج مواقعهم ، ويستثنى من ذلك الضباط الذين يحق لهم نقل اسلحتهم الفردية ٠

جـ ـ يسمح لطرف ثالث ، بالاتفاق المشترك للجانب المصري والاسرائيلي ، بالدخول والقيام بتفتيش داخل حدود التجهيزات الفنية في المنطقة المنزوعة السلاح ٠ يجري الطرف الثالث تفتيشا مرة واحدة في الشهر على الاقل ٠ وغرض هذه التفتيشات التأكد من طبيعة عمل هذه التجهيزات والاسلحة والافراد المتواجدة ٠ ويقوم الطرف الثالث بالافادة الفورية عن كل انحراف عن دور هذه التجهيزات في المراقبة الالكترونية والاتصالات ٠

د ـ يتم تسهيل تموين مراكز التجهيزات الفنية وزيارتها لاغراض ادارية فنية واستبدال طواقم افرادها والاجهزة التي تعمل فيها من نقاط التفتيش التابعة للامم المتحدة حتى حدود هذه المراكز بعد ان تكون قوات الامم المتحدة قد دققت ورافقت العملية ٠

هـ ـ يسمح لاسرائيل بادخال اجهزة الى هذه المراكز الفنية تكون ضرورية لحسن عمل التجهيزات والافراد ٠

و ـ وكما يتم في اللجنة المشتركة يسمح لاسرائيل :

١ ـ صيانة اجهزة مكافحة الحريق واجهزة الصيانة العامة والمركبات الادارية وتجهيزات مهندسي الحركة التي تكون ضرورية في صيانة المواقع ٠ وتكون كل المركبات غير مسلحة ٠

٢ ـ صيانة الطرق وشبكات المياه وخطوط الاتصال والبرق التي تعمل لخدمة الموقع داخل المنطقة المنزوعة ٠ وتتم عملية الصيانة في كل من المواقع T 1,T 2,3,4,

عن طريق فريق يتكون اجماليا من مركبتين غير مسلحتين ومن ١٢ فردا مجهزين بالاجهزة الضرورية ٠ وتتم الصيانة ثلاث مرات في الاسبوع وفي حالات العطل الطارىء بعد اشعار الامم المتحدة بأربع ساعات ٠ يرافق فرق الصيانة قوات الامم المتحدة ٠

ز ـ تتم عملية الانتقال من والى مراكز التجهيزات الفنية خلال ساعات النهار فقط ٠ وتكون عملية الدخول والخروج من والى المراكز الفنية حسب الوجه التالي :

١ ـ T 1: عن طريق نقطة التفتيش التابعة للامم المتحدة مرورا على الطريق بين ابو عجيلة وتقاطع الطرق بين ابو عجيلة وطريق جبل لبنه (عند الكيلومتر ١٦١) كما هو مشار في الخريطة (٢) ٠

٢ ـ T 2, T 3,: عن طريق نقطة التفتيش التابعة للامم المتحدة مرورا بالطريق التي تمر في المنطقة المنزوعة الى جبل كاترينا كما هو مشار في الخريطة (٢) ٠

٣ ـ T 2,T 3,4,: بواسطة طائرات الهيلوكبتر عن طريق ممر وفي اوقات وحسب نظام طيران يتفق عليها في اللجنة المشتركة ٠ ويتم التدقيق في طائرات الهيلوكبتر من قبل قوات الامم المتحدة في مواقع الهبوط خارج محيط مراكز التجهيزات ٠

حـ ـ تحيط اسرائيل قوات الامم المتحدة علما عن تحركاتها من والى مراكز

التجهيزات قبل ساعة على الاقل من كل رحلة يزمع القيام بها ٠

ط ـ يسمح لاسرائيل باخلاء الجرحى والمرضى كما يسمح لها باستدعاء الاطباء الاخصائيين والفرق الطبية في اي وقت بعد اشعار قوات الامم المتحدة ٠

٤ ـ في حال الرغبه في تنسيق التفاصيل والمبادىء المبينه اعلاه واي قضايا في هذه المواد ينسق حول ذلك في اللجنة المشتركة ٠

٥ ـ يتم سحب مراكز التجهيزات الفنيه هذه عند انسحاب القوات الاسرائيليه من خط الانسحاب المرحلي او في وقت يتم الاتفاق عليه بين الجانبين ٠

المادة السادسة

التصرف في المنشآت والمعدات الدفاعية العسكرية

يقرر الطرفان اعداد المنشات والمعدات الدفاعية العسكرية حسب المبادىء التالية ٠٠٠

١ ـ حتى قبل ثلاثة اسابيع من الانسحاب الاسرائيلي من منطقة ما تنظم اللجنة المشتركة عملية تفتيش مشتركة تقوم بها فرق اسرائيلية ومصرية لجميع المنشآت الخاصة للخروج باتفاق حول شروط واجراءات نقل مختلف المباني والمعدات التي ستسلم الى مصر بهدف تسوية شروط هذه العملية ٠٠ وستعلن اسرائيل في تلك اللحظة عن خططها للتصرف في المنشآت والمعدات الموجودة بها ٠

٢ ـ تتعهد اسرائيل بان تسلم لمصر جميع المنشآت الارضية سليمة. وكذلك مشروعات الخدمات العامة والمنشات ٠٠ وخاصة المطارات والطرق ومحطات الضخ والموانىء كما تزود اسرائيل مصر بالمعلومات اللازمة لصيانة وتشغيل معدات الخدمة العامة وسوف يسمح لبعض الفرق المصرية بالتعرف على استعمال هذه المعدات لفترة قد تصل الى اسبوعين قبل عملية تسلم مصر لها ٠

٣ ـ عندما تتخلى اسرائيل عن نقاط مصادر المياه ذات الفائدة العسكرية بالقرب من العريش والطور ٠٠ تقوم فرق فنية مصرية بالاشراف على هذه المنشآت والمعدات التي سياخذونها وفقا لعملية نقل تعدها مسبقا اللجنة المشتركة ٠٠ وتقوم مصر بالاستمرار في تأمين تموين جميع نقاط المياه بالكمية العادية من المياه وحتى لحظة انسحاب اسرائيل الاخير خلف الحدود الدولية ٠٠ الا اذا اتخذت اللجنة المشتركة اجراءات اخرى ٠٠٠

٤ ـ تبذل اسرائيل قصارى جهدها لازالة او تدمير جميع الاستحكامات الدفاعية بما فيها الحواجز وحقول الالغام في المناطق والمياه مع رسم الحدود التي تنسحب منها قواتها ٠٠ وتراعي اسرائيل في ذلك المبادىء التالية ٠٠

١ ـ تزال الاستحكامات الدفاعية اولا من المناطق الواقعة بالقرب من المستوطنات والطرق والمنشآت العامة ومشروعات الخدمات الهامة ٠

ب ـ فيما يتعلق بالحواجز وحقول الالغام التي يستحيل ازالتها او تدميرها قبل الانسحاب الاسرائيلي تقوم اسرائيل بتزويد مصر والامم المتحدة بالخرائط المفصلة التي تسلم على اكثر تقدير قبل وصول قوات الامم المتحدة بخمسة عشر يوما ٠٠ وذلك عن طريق اللجنة المشتركة ٠

جـ ـ يصل سلاح المهندسين المصري الى كل هذه المناطق بعد قوات الامم المتحدة للقيام بعملياته فيها وفقا للخطط التي حددتها مصر ٠

المادة السابعة
اعمال الاستطلاع

١ ـ تنفذ اعمال الاستطلاع الجوي خلال الانسحاب كما يلي :

أ ـ يطلب كلا الجانبين من الولايات المتحدة ان تواصل طلعات الاستطلاع الجوي وفقا للاتفاقات السابقة حتى اكتمال الانسحاب الاسرائيلي النهائي ٠

ب ـ الصور الجوية ستغطي مواقع القوات المحددة لمراقبة حجم القوات والاسلحة ولاثبات انسحاب القوات الاسرائيلية من المناطق التي حددتها المادة الثانية من الملحق الاول والمادة الثانية من هذا الملحق الاضافي والخريطتان رقما ٣،٢ وان هذه القوات تمركزت خلف خطوطها ٠ اما طلعات الاستطلاع الخاصة فتتم بطلب من اي طرف او بطلب من الامم المتحدة ٠

حـ ـ سيتم فقط الابلاغ عن العناصر الرئيسية في التنظيمات العسكرية لكلا الجانبين كما تحددت في الملحق الاول وهذا الملحق الاضافي ٠

٢ ـ يطلب كلا الجانبين ان تواصل البعثة الميدانية التابعة للولايات المتحدة في سيناء عملياتها وفقا للاتفاقات السابقة حتى يتم الانسحاب الاسرائيلي من المنطقة الواقعة شرقي ممري الجدي ومتلا وبعد ذلك ينتهي عمل البعثة ٠

المادة الثامنة
ممارسة السيادة المصرية

تستعيد مصر ممارسة سيادتها الكاملة على الاجزاء المحتلة من سيناء بعد الانسحاب الاسرائيلي كما تنص على تلك المادة الاولى من هذه المعاهدة ٠

(٤) بروتوكول بشأن
العلاقات بين الجانبين

□ مادة (١) العلاقات الدبلوماسية والقنصلية ٠

يتفق الطرفان على اقامة علاقات دبلوماسية وقنصلية وتبادل السفراء عقب الانسحاب المرحلي ٠

□ مادة (٢) العلاقات الاقتصادية والتجارية

١ ـ يتفق الطرفان على ازالة جميع الحواجز ذات الطابع التمييزي القائمة في وجه العلاقات الاقتصادية العادية ، وانهاء المقاطعات الاقتصادية لاي منهما وذلك عقب اتمام الانسحاب المرحلي ٠

٢ ـ يدخل الطرفان في مفاوضات في اقرب وقت ممكن وفي موعد لا يتجاوز ستة شهور بعد اتمام الانسحاب المبدئي وذلك بغية عقد اتفاق تجارة يستهدف انماء العلاقات الاقتصادية ذات النفع المتبادل بينهما ٠

□ مادة (٣) العلاقات الثقافية

١ ـ يتفق الطرفان على اقامة علاقات ثقافية عادية بعد اتمام الانسحاب المبدئي ٠

٢ ـ يتفق الطرفان على ان التبادل الثقافي في كافة الميادين امر مرغوب فيه وعلى ان يدخلا في مفاوضات في اقرب وقت ممكن وفي موعد لا يتجاوز ستة اشهر بعد اتمام الانسحاب المبدئي بغية عقد اتفاق ثقافي ٠

□ مادة (٤) حرية التنقل

١ ـ عقب الانسحاب المبدئي ، يسمح كل طرف لمواطني وسيارات الطرف الاخر بحرية الانتقال الى اقليمه والتنقل داخله وذلك طبقا للقواعد العامة التي تطبق على مواطني وسيارات الدول الاخرى ٠ ويمتنع

كل طرف عن فرض قيود ذات طابع تمييزي على حرية تنقل الاشخاص والسيارات من اقليمه الى اقليم الطرف الاخر ٠

٢ ـ كما يسمح بالدخول المتبادل دون اعاقة الى الاماكن ذات القيمة الدينية والتاريخية وذلك على اساس تبادلي وغير ذي طابع تمييزي ٠

☐ مادة (٥) التعاون في سبيل التنمية وعلاقات حسن الجوار

(١) يقر الطرفان ان هناك مصلحة متبادلة في قيام علاقات حسن الجوار ويتفقان على النظر في سبل تنمية تلك العلاقات ٠

(٢) يتعاون الطرفان في انماء السلام والاستقرار والتنمية في المنطقة ، ويوافق كل منهما على النظر في المقترحات التي قد يرى الطرف الاخر التقدم بها تحقيقا لهذا الغرض ٠

(٣) يعمل الطرفان على تشجيع التفاهم المتبادل والتسامح ويمتنع كل طرف عن الدعاية المعادية للطرف الاخر ٠

☐ مادة (٦) النقل والمواصلات

(١) يقر الطرفان بان الحقوق والمزايا والالتزامات المنصوص عليها في اتفاقيات الطيران التي يكونان من اطرافها تنطبق على كل منهما ، وبصفة خاصة الواردة في الاتفاقية الدولية للطيران المدني المعقودة في شيكاجو سنة ١٩٤٤ والاتفاق الدولي بشأن خدمات النقل الجوي المعقود في سنة ١٩٤٤ ٠

(٢) عقب اتمام الانسحاب المبدئي لا ينطبق اي اعلان لحالة الطوارىء الوطنية الذي يعلنه احد الطرفين وفقا للمادة ٨٩ من اتفاقية شيكاجو في مواجهة الطرف الاخر على اساس تمييزي ٠

(٣) توافق مصر على ان المطارات الواقعة بالقرب من العريش ورفح ورأس النقب وشرم الشيخ التي سوف تخليها اسرائيل يكون استخدامها للاغراض المدنية فحسب بما في ذلك امكان استخدامها تجاريا بواسطة كافة الدول ٠

(٤) يدخل الطرفان في مفاوضات في اقرب وقت ممكن وفي موعد لا يتجاوز ستة شهور بعد اتمام الانسحاب المبدئي وذلك لغرض ابرام اتفاق طيران مدني ٠

(٥) يقوم الطرفان باعادة فتح الطرق وخطوط السكك الحديدية بين بلديهما وصيانتها ، كما ينظران في اقامة طرق وسكك حديدية اضافية ٠ كما يتفق الطرفان ايضا على اقامة وصيانة طريق بري بين مصر واسرائيل والاردن بالقرب من ايلات مع كفالة حرية وسلامة مرور الاشخاص والسيارات والبضائع بين مصر والاردن وذلك على نحو لا يمس بالسيادة على الجزء من الطريق الذي يقع داخل اقليم كل منهما على التوالي ٠

(٦) عقب اتمام الانسحاب المبدئي تقام بين الطرفين وسائل اتصالات بريدية وتليفونية وتلكس ومواصلات سلكية ولاسلكية وخدمات نقل الارسال التلفزيوني عن طريق الكابلات والراديو والاقمار الصناعية ، وذلك وفقا للاتفاقيات واللوائح الدولية المنطبقة ٠

(٧) عقب اتمام الانسحاب المبدئي ، يسمح كل طرف بالدخول المسموح به عادة الى موانئه لسفن وبضائع الطرف الاخر ، وكذلك للسفن والبضائع المتجهة الى الطرف الاخر او القادمة منه بنفس الشروط المطبقة بصفة عامة على سفن وبضائع الدول الاخرى ٠ وسوف يبدأ تنفيذ حكم المادة ٥ من معاهدة السلام عقب تبادل وثائق التصديق على هذه المعاهدة ٠

□ مادة (٧) التمتع بحقوق الانسان

يؤكد الطرفان التزامهما باحترام حقوق الانسان والحريات الاساسية للجميع ، وسوف يدعمان هذه الحقوق والحريات وفقا لميثاق الامم المتحدة ·

□ مادة (٨) المياه الاقليمية

مع مراعاة احكام المادة ٥ من معاهدة السلام ، يقر كل طرف بحق سفن الطرف الاخر في المرور البريء في مياهه الاقليمية طبقا لقواعد القانون الدولي ·

(٥) توضيحات متفق عليها للمواد الاولى والرابعة والخامسة والسادسة وللملحقين الاول والثالث للمعاهدة ·

المادة الاولى

ان عودة مصر الى ممارسة السيادة الكاملة على سيناء المنصوص عليها في الفقرة الثانية من المادة الاولى يتم بالنسبة الى كل منطقة بمجرد انسحاب اسرائيل من هذه المنطقة ·

المادة الرابعة

من المتفق عليه بين الاطراف ان تتم المراجعة المنصوص عليها في المادة ٤ عندما يطلب ذلك احد الاطراف على ان تبدأ في خلال ثلاثة اشهر من طلبها ولكن لا يجري اي تعديل الا بأتفاق كلا الطرفين ·

المادة الخامسة

لا يجوز تفسير الجملة الثانية من الفقرة الثانية من المادة الخامسة على أنها تنتقص مما جاء في الجملة الاولى من تلك الفقرة· ولا يفسر ما تقدم على انه مخالفا لما جاء في الجملة الثانية من الفقرة الثانية من المادة الخامسة التي تقضي بما يأتي :

« يحترم الطرفان حق كل منهما في الملاحة والمرور الجوي للوصول الى اي من البلدين من خلال مضيق تيران وخليج العقبة » ·

المادة السادسة ـ الفقرة ٢

لا تفسر احكام المادة السادسة بما يخالف احكام اطار السلام في الشرق الاوسط المتفق عليه في كمب ديفيد ·

ولا يفسر ما تقدم على انه مخالف لاحكام المادة السادسة ـ الفقرة ٢ من المعاهدة التي تقضي بما يأتي :

« يتعهد الطرفان بأن ينفذا بحسن نية التزاماتهما الناشئة عن هذه المعاهدة بصرف النظر عن اي فعل من جانب طرف اخر وعلى نحو مستقل عن اية وثيقة خارج هذه المعاهدة » ·

المادة السادسة ـ الفقرة ٥

من المتفق عليه بين الاطراف انه لا وجود لاي دعاوى ان هذه المعاهدة تسود على المعاهدات والاتفاقات الاخرى او ان المعاهدات والاتفاقات الاخرى تسود على هذه المعاهدة ·

ولا يفسر ما تقدم على انه مخالف لاحكام المادة السادسة الفقرة ٥ من هذه المعاهدة التي تنص على ما يأتي :

« مع مراعاة المادة ١٠٣ من ميثاق الامم المتحدة يقر الطرفان بأنه في حال وجود تناقض بين التزامات الاطراف بموجب هذه المعاهدة وأي من التزاماتها الاخرى ، فأن الالتزامات الناشئة عن هذه المعاهدة هي التي تكون ملزمة ونافذة » ·

الملحق الاول

تقضي المادة السادسة الفقرة ٨ من

الملحق الاول بما يأتي .

« يتفق الطرفان على الدول التي تشكل منها قوات الامم المتحدة والمراقبون على ان تكون من الدول غير ذات العضوية الدائمة في مجلس الامن التابع للامم المتحدة ·

وقد اتفق الطرفان على ما يأتي :

في حال عدم الوصول الى اتفاق بين الطرفين في ما يتعلق بأحكام الفقرة الثامنة من المادة السادسة من الملحق الاول فأنهما يتعهدان بقبول أو تأييد ما تقترحه الولايات المتحدة الاميركية في شأن تشكيل قوات الامم المتحدة والمراقبين » ·

الملحق الثالث

تضمن معاهدة السلام والملحق الثالث اقامة علاقات اقتصادية طبيعية بين الجانبين ، وبناء عليه يتفق الطرفان ان هذه العلاقات ستشمل تسويقا تجاريا عاديا للنفط من مصر الى اسرائيل · وان من حق اسرائيل أن تستدرج عروضا من النفط المصري المصدر الذي يفيض عن استهلاك مصر المحلي · كما ان مصر ستعامل العروض الاسرائيلية ، على نفس القواعد والبنود التي تعامل بها المستدرجين الاخرين ·

(٦) مذكرة التفاهم بين الولايات المتحدة واسرائيل ·

اعترافا بأهمية ابرام معاهدة السلام بين اسرائيل ومصر وبالنظر الى اهمية التطبيق الكامل لمعاهدة السلام المذكورة بالنسبة لمصالح امن اسرائيل ومساهمة التوصل الى معاهدة سلام في امن وتطور اسرائيل بالاضافة الى اهميتها بالنسبة لسلام المنطقة واستقرارها وحفظ السلام الدولي والامن ·

واعترافا بأن الانسحاب من سيناء يفرض اعباء ثقيلة اضافية في مجال الامن والمجالين العسكري والاقتصادي لاسرائيل ·

تؤكد حكومتا الولايات المتحدة الاميركية ودولة اسرائيل ما يلي مع مراعاة قوانينهما واجراءاتها الدستورية ·

١ ـ في ضوء دور الولايات المتحدة في ابرام معاهدة السلام ورغبة الاطراف في ان تمضي الولايات المتحدة على طريق تقديم المساندة سوف تتخذ الولايات المتحدة التدابير الملائمة للنهوض بالمراقبة الكاملة لمعاهدة السلام ·

٢ ـ اذا ما اتضح للولايات المتحدة حسب اقتناعها ان انتهاكا لمعاهدة السلام او تهديدا بانتهاكها قد حدث · فان الولايات المتحدة سوف تستشير الاطراف حول التدابير الواجب اتخاذها لوقف هذا الانتهاك او الحيلولة دون وقوعه وكفالة مراقبة المعاهدة وتعزيز العلاقات الودية والسلمية بين الاطراف والنهوض بالسلام في المنطقة · وسوف تتخذ ما تعتبره ملائما من اجراءات بما في ذلك الاجراءات الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية المذكورة فيما بعد ·

٣ ـ سوف تقدم الولايات المتحدة ما تراه لازما من مساندة الى ما تقوم به اسرائيل من اعمال لمواجهة انتهاكات على هذا النحو لمعاهدة السلام · وخاصة اذا ما رؤي ان انتهاك معاهدة السلام يهدد امن اسرائيل بما في ذلك على سبيل المثال تعرض اسرائيل لحصار يمنعها من استخدام الممرات المائية الدولية وانتهاك بنود معاهدة السلام بشأن الحد من القوات او شن هجوم مسلح على اسرائيل فان الولايات المتحدة على استعداد لان تنظر بعين الاعتبار وبسرعة في اتخاذ اجراءات مثل تعزيز وجود الولايات المتحدة في المنطقة وتزويد اسرائيل بالامدادات العسكرية العاجلة وممارسة حقوقها

البحرية لوضع حد للانتهاك ٠

٤ ـ سوف تساند الولايات المتحدة حقوق الاطراف في الملاحة البحرية والجوية الى هذا البلد او ذاك ٠عبر وفوق مضيق تيران وخليج العقبة وفقا لما نصت عليه معاهدة السلام ٠

٥ ـ سوف تعترض الولايات المتحدة وتعارض ـ عند الضرورة اي عمل او قرار للامم المتحدة يتعارض ـ من وجهة نظرها مع معاهدة السلام ٠

٦ ـ سوف تعمل الولايات المتحدة بتصريح ومصادقة الكونغرس على النظر بعين الرعاية لطلبات المساعدة العسكرية والاقتصادية لاسرائيل وتسعى الى تلبيتها٠

٧ ـ سوف تواصل الولايات المتحدة فرض القيود على امدادات الاسلحة التي تقدمها الى كل بلد والتي تحظر نقل هذه الاسلحة دون تصريح الى اي طرف اخر ٠ ولن تزود الولايات المتحدة او تسمح بنقل مثل هذه الاسلحة اذا ما استخدمت في هجوم مسلح ضد اسرائيل وسوف تتخذ التدابير اللازمة لتجنب مثل هذا النقل غير المصرح به ٠

٨ ـ ان الاتفاقات والتأكيدات القائمة بين الولايات المتحدة واسرائيل لا تلغيها او تعدلها معاهدة السلام باستثناء ما ورد في المواد ٥ـ٦ـ٧ـ٨ـ١١ـ١٢ـ١٥ـ و ١٦ من مذكرة الاتفاق بين حكومة الولايات المتحدة وحكومة اسرائيل ، وتأكيدات الولايات المتحدة ـ اسرائيل الموقعة في اول ايلول ١٩٧٥

٩ ـ توضع بنود مذكرة التفاهم هذه موضع التنفيذ على الفور وتعلن الولايات المتحدة واسرائيل موافقتهما عليها وسوف تطبق كما هي ٠

تواقيع

سايروس فانس عن حكومة الولايات المتحدة الاميركية

موشيه دايان عن حكومة اسرائيل

١٩٧٩/٣/٢٦

(٧) ملحق لمذكرة التفاهم بين الولايات المتحدة واسرائيل

● يظل اتفاق تزويد اسرائيل بالبترول الموقع في اول ايلول عام ١٩٧٥ بين حكومتي الولايات المتحدة واسرائيل نافذا ، وسوف يتم التفاوض لابرام اتفاق لكفالة تزويد اسرائيل بالبترول خلال فترة خمسة عشر عاما تتضمن فترة السنوات الخمس المنصوص عليها في اتفاق الاول من ايلول عام ١٩٧٥ ٠

● سوف يتم التفاوض باتفاق مشترك فيما بين الطرفين حول مذكرة الاتفاق التي تشمل بداية الترتيبات والقواعد المتعلقة بالاسعار وذلك خلال الستين يوما التي تعقب سريان العمل بمعاهدة السلام بين مصر واسرائيل ٠

● يزمع الطرفان ان تكون الاسعار التي تسدد بها اسرائيل ثمن الشحنات الاميركية من البترول متفقة مع اسعار السوق العالمية وقت الشحن وان تسدد اسرائيل الى الولايات المتحدة على اية حال التكاليف التي سوف تتحملها الولايات المتجدة بسبب هذا الشحن ٠

● يجتمع الخبراء المعنيون بموجب اتفاق الاول من ايلول عام ١٩٧٥ عند الحاجة لبحث اية مشكلة قد تطرأ من جراء هذه العلاقات ٠

● تتخذ الادارة الاميركية كل التدابير اللازمة لتوفير الترخيصات القانونية حتى ينفذ هذا الاتفاق بحذافيره ٠

وقع الاتفاق عن اسرائيل **موشي دايان** وعن الولايات المتحدة **سايروس فانس** ٠

ملحق

● **اتفاق الاول من ايلول العام ١٩٧٥**

تتخذ اسرائيل كل التدابير المستقلة بها لضمان تزودها بالبترول بالاجراءات العادية وفي حالة عجز اسرائيل عن سد احتياجاتها بهذه الطريقة تتصرف الولايات اسرائيل على النحو التالي :

– خلال خمس سنوات يمكن بعدها لاي من الطرفين ان يضع حدا للاتفاق على ان يخطر الطرف الاخر قبل ذلك بفترة عام على الاقل ٠

أ – اذا عجزت اسرائيل عن سد احتياجاتها المحلية من البترول في مجال التزود العادي عن طريق الشراء خلال فترة تتزود فيها الولايات المتحدة نفسها بالبترول بشكل طبيعي تبادر الولايات المتحدة بتزويد اسرائيل بالبترول الذي تشتريه لسد احتياجاتها العادية المذكورة انفا ٠

واذا لم تتمكن اسرائيل من توفير الوسائل لشحن هذا البترول تبذل الولايات المتحدة كل الجهود اللازمة لمساعدة اسرائيل على كفالة هذا الشحن ٠

ب – اذا لم تتوصل اسرائيل الى كفالة تزودها بالبترول من اجل الاستهلاك المحلي عن طريق الشراء في ظروف او قيود تتعلق بالكمية بسبب حظر او خلافه وتحول دون ان تحصل الولايات المتحدة على البترول اللازم لسد احتياجاتها الذاتية العادية تبادر الولايات المتحدة ببيع البترول الى اسرائيل بموجب صيغة الحفاظ والاعانة للوكالة الدولية للطاقة مثلما يطبق بواسطة الولايات المتحدة وذلك بهدف سد الاحتياجات الاساسية لاسرائيل ٠

واذا عجزت اسرائيل عن توفير وسائل شحن هذا البترول تعمل الولايات المتحدة اللازم لشحنة بكل الوسائل الممكنة ٠

يجتمع الخبراء الاميركيون والاسرائيليون سنويا ويمكنهم عقد اجتماعات بناء على طلب اي من الطرفين وذلك لاستعراض احتياجات اسرائيل من البترول ٠

(٨) الرسالة المشتركة الى الرئيس كارتر بخصوص الضفة الغربية

عزيزي

يؤكد هذا الخطاب ان كلا من مصر واسرائيل قد اتفقا على ما يلي :

تذكر حكومتا مصر واسرائيل انهما قد اتفقتا في كامب دافيد ووقعتا في البيت الابيض يوم ١٧ سبتمبر ١٩٧٨ الوثائق المرفقة والمعنونة « اطار السلام في الشرق الاوسط المتفق عليه في كامب دافيد» واطار لعقد معاهدة سلام بين مصر واسرائيل » ٠

ومن اجل تحقيق تسوية سلمية شاملة وفقا للاطارين المشار اليهما انفا ستشرع مصر واسرائيل في تنفيذ النصوص المتعلقة بالضفة الغربية وقطاع غزة ٠ وقد اتفقتا على بدء المفاوضات خلال شهر من تبادل وثائق التصديق على معاهدة السلام٠ ووفقا لاطار السلام في الشرق الاوسط « فان المملكة الاردنية الهاشمية مدعوة للاشتراك في المفاوضات ٠ ولكن من وفدي مصر والاردن أن يضم فلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة ، او فلسطينيين اخرين باتفاق مشترك ٠٠

وهدف المفاوضات هو الاتفاق قبل اجراء الانتخابات على الترتيبات اللازمة لاقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة (المجلس الاداري) ، وتحديد سلطاتها ومسؤولياتها ، والاتفاق على ما يرتبط بذلك من مسائل اخرى ٠ وفي حالة اذا ما قرر الاردن عدم الاشتراك في المفاوضات فستجري المفاوضات بين مصر واسرائيل٠

وتتفق الحكومتان على ان تتفاوضـــا بصفة مستمرة ودون توقف وبحسن نيـة من اجل الانتهاء من هذه المفاوضات في اقرب تاريخ ممكن · كما تتفق الحكومتان على ان الهدف من المفاوضات هو اقامـة سلطة الحكم الذاتي في الضفة الغربيـــة وغزة من اجل تحقيق الحكم الذاتي الكامل للسكان ·

ولقد حددت مصر واسرائيل لنفسيهما هدفا للانتهاء من المفاوضات خلال عـــام واحد بحيث يتم اجراء الانتخابات بأسرع ما يمكن بعد ان يكون الاطراف قد توصلوا الى اتفاق ، وتنشأ سلطة الحكم الذاتـــي المشار اليها في « اطار السلام في الشرق الاوسط » وتبدأ عملهـــا خلال شهر مـــن انتخابها واعتبارا من هذا التاريخ تبـدأ فترة الخمس سنوات الانتقالية ، ويتـــم سحب الحكومة العسكرية الاسرائيليـــة وادارتها المدنية لتحل سلطة الحكم الذاتي محلها ، كما هو منصوص عليه في « اطار السلام في الشرق الاوسط » وحينئذ يتـم انسحاب القوات المسلحة الاسرائيليـــة واعادة توزيع القوات الاسرائيلية المتبقيـة في مواقع محددة ··

ويؤكد هذا الخطاب ايضا ما اتفقنـا عليه وهو ان حكومة الولايات المتحـــدة ستشترك اشتراكا كاملا في كافة مراحـل المفاوضات ··

محمد انور السادات

مناحيم بيغن

(٩) رسالتان من الرئيس كارتر الى كل من الرئيس السادات ورئيس الوزراء بيغن المتعلقة بتنفيذ ومراقبة عملية الانسحـاب من سيناء

الرئيس السادات ، رئيس الـــوزراء مناحيم بيغن :

اود ان اؤكد لكما انه طبقاً للاجراءات الدستورية في الولايات المتحدة :

وفي حالة وجود انتهاك فعلي او التهديد بانتهاك معاهدة السلام بين مصر واسرائيل ستقوم الولايات المتحدة بناء على طلب احد الاطراف او كليهما بالتشاور مع الاطراف المعنية وستتخذ الاجـــراء الذي تـــراه مناسبا ومفيدا في تحقيق الالتزام بالمعاهدة وستقوم الولايات المتحدة بعملية الاستطلاع الجوي حسب طلـب الاطـــراف طبقـــا للملحق (١) للمعاهدة ·

وتعتقد الولايات المتحدة ان المـــادة الخاصة بوضع قوات للامم المتحدة فـــي المنطقة المحدودة المعنيـــة يمكن ويجـــب تنفيذها عن طريق مجلس الامن ·

وسوف تبذل الولايات المتحدة اقصـى جهودها لحث المجلس على القيام بهـــذا العمل المطلوب منه ·

واذا تقاعس المجلس عن ترتيب وتعزيز الترتيبات التي تنص عليها المعاهدة فـــان الرئيس سيكـــون مستعدا لاتخاذ هـــذه الخطوات الضروريـــة لضمان تشكيـــل وتعزيز قوة دولية بديلة ومقبولة ·

(١٠) نص قرارات مؤتمر القمة العربي الذي عقد في بغداد ٢٧/٣ـ٣١/٣/١٩٧٩

« لما كانت حكومـــة جمهورية مصـــر العربية قد تجاهلت قرارات مؤتمرات القمة العربية ولا سيمـــا قرارات المؤتمريـــن السادس والسابع المنعقدين في الجزائـــر والرباط، وتجاهلت في الوقت ذاته قرارات مؤتمر القمة العربي التاسع ، وبخاصـــة دعوة الملوك والرؤساء والامراء العـــرب الى عدم توقيع اي اتفاق للصلـــح مـــع العدو الصهيوني ، فأقدمت في تاريخ ٢٦ اذار (مارس) ١٩٧٩ على توقيع معاهدة صلح معه فخرجت بذلك عن الصف العربي واختارت بالتواطؤ مع الولايات المتحـدة

الاميركية ان تقف مع العدو الصهيوني في موقع واحد ، وتصرفت في صورة منفردة بشؤون الصراع العربي الصهيوني وانتهكت حقوق الامة العربية ، وعرضت مصير الامة ونضالها واهدافها للاخطار والتحديات التي تهددها وتخلت عن واقعها القومي في تحرير الاراضي العربية المحتلة وبخاصة القدس وفي استعادة الحقوق الوطنية الثابتة للشعب العربي الفلسطيني بما فيها حق العودة وحق تقرير المصير واقامة الدولة الفلسطينية المستقلة على ترابه الوطني ٠

وحفاظا على التضامن العربي ووحدة الصف في سبيل الدفاع عن قضية العرب المصيرية ٠

وتقديرا لنضال الشعب العربي في مصر وتضحياته من اجل القضايا العربية وقضية فلسطين بالذات ٠

وتنفيذا للقرارات التي اتخذها مؤتمر القمة العربي التاسع المنعقد في بغداد من ٢ـ٥ تشرين الثاني ١٩٧٨ ٠

وبدعوة من حكومة الجمهورية العراقية، عقد في بغداد مجلس جامعة الدول العربية على مستوى وزراء الخارجية والاقتصاد والمال العرب من ١٩٧٩/٣/٢٧ الى ١٩٧٩/٣/٣١ ٠ وقد تدارس المجلس في ضوء قرارات مؤتمر القمة العربي التاسع اخر التطورات المتعلقة بالصراع العربي الصهيوني وبخاصة بعد توقيع حكومة جمهورية مصر العربية اتفاق الصلح مع العدو الصهيوني في تاريخ ٢٦ اذار (مارس) ١٩٧٩ ٠

القرارات

وقرر مجلس الجامعة العربية على مستوى السادة وزراء الخارجية العرب ما يأتي :

أ ـ سحب سفراء الدول العربية من مصر فورا ٠

ب ـ التوصية بقطع العلاقات السياسية والدبلوماسية مع الحكومة المصرية على ان تتخذ الحكومات العربية الاجراءات اللازمة لتطبيق هذه التوصية خلال مدة اقصاها شهر واحد من تاريخ صدور هذا القرار وفقا للاجراءات الدستورية النافذة في كل قطر ٠

٢ ـ اعتبار تعليق عضوية جمهورية مصر العربية في جامعة الدول العربية نافذا من تاريخ توقيع الحكومة المصرية معاهدة الصلح مع العدو الصهيوني ٠ ويعني ذلك حرمانها من جميع الحقوق المترتبة على عضويتها ٠

أ ـ ان تكون مدينة تونس عاصمة الجمهورية التونسية مقرا موقتا لجامعة الدول العربية ولامانتها العامة وللمجالس الوزارية المتخصصة واللجان الفنية الدائمة اعتبارا من تاريخ توقيع المعاهدة بين الحكومة المصرية والعدو الصهيوني، وابلاغ جميع المنظمات والهيئات الدولية والاقليمية ذلك وان التعامل مع الجامعة يتم مع امانتها في المقر الجديد الموقت٠

ب ـ مناشدة حكومة الجمهورية التونسية تقديم المساعدات الممكنة لتسهيل اقامة مقر الجامعة الموقت وموظفيها ٠

ج ـ تشكيل لجنة من ممثلي كل من العراق ، سوريا ، تونس ، الكويت ، السعودية ، الجزائر ، اضافة الى ممثل عن الامانة العامة هدفها تنفيذ احكام هذا القرار ، والسعي لدى الدول الاعضاء وتقديم المساعدات التي تطلبها ٠ وتخول اللجنة كل صلاحيات مجلس الجامعة التي يتطلبها تنفيذ هذا القرار بما في ذلك حماية كل ممتلكات الجامعة العربية وارصدتها ووثائقها وسجلاتها واتخاذ

التدابير اللازمة ضد اي اجراء قد تتخذه الحكومة المصرية لعرقلة نقل مقر الجامعة او المس بحقوقها وممتلكاتها ، على ان تنجز مهمتها بالانتقال الى المقر الموقت خلال مدة شهرين من تاريخ هذا القرار قابلة للتمديد لمدة شهر اخر بقرار من اللجنة وان تقدم اللجنة تقريرا عن انجاز مهمتها الى اول اجتماع مقبل لمجلس الجامعة العربية ·

د ـ يوضع في تصرف اللجنة مبلغ مقداره ٥ ملايين دولار لمواجهة نفقات النقل ويسحب هذا المبلغ من الارصدة الدائنة للصناديق المختلفة · وللجنة الحق في ان تصرف المبالغ التي تزيد على ذلك عند الضرورة ، ويكون الانفاق لهذا الغرض في اشراف اللجنة او من تخوله على ان تسدد النفقات الدول الاعضاء كل بنسبة مساهمتها السنوية في موازنة الجامعة ·

هـ ـ نقل موظفي الامانة العامة للجامعة الذين يمارسون اعمالهم عند صدور هذا القرار من المقر الدائم الى المقر الموقت خلال المدة المحددة في الفقرة ٣/جـ/ من هذا القرار وتخول اللجنة المشار اليها في الفقرة /٣/ اعلاه صلاحية دفع تعويضات حالية لهم تتناسب ومستوى المعيشة في المقر الجديد وتسوية اوضاعهم الى حين وضع نظام دائم لذلك ·

٤ ـ ان تتخذ المنظمات والهيئات والمؤسسات والاتحادات النوعية العربية المتخصصة المدرجة في القائمة المرفقة الرقم ١ التدابير اللازمة لتعليق عضوية مصر فيها ونقل مقرات ما هو مقيم منها في مصر الى دول عربية اخرى في صورة موقتة وذلك على غرار ما يتم في شأن الامانة العامة للجامعة ·

وتجتمع المجالس والهيئات التنفيذية لتلك المنظمات والهيئات والمؤسسات والاتحادات فورا لتنفيذ هذا القرار خلال فترة لا تتجاوز الفترة المحددة في الفقرة ٣ /ج/ اعلاه ·

٥ ـ العمل على تعليق عضوية جمهورية مصر العربية في حركة عدم الانحياز ومنظمة المؤتمر الاسلامي ومنظمة الوحدة الافريقية لانتهاكها قرارات تلك المنظمات في ما يتعلق بالصراع العربي ـ الصهيوني ·

٦ ـ استمرار التعاون مع شعب مصر العربي الشقيق ومع افراده عدا المتعاونين في صورة مباشرة أو غير مباشرة مع العدو الصهيوني ·

٧ ـ قيام الدول الاعضاء بابلاغ جميع الدول الاجنبية موقفها من المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية والطلب اليها عدم دعم هذه المعاهدة لما تشكله من اعتداء على حقوق الشعب الفلسطيني والامة العربية وتهديد للامن والسلام في العالم·

٨ ـ ادانة السياسة التي تمارسها الولايات المتحدة الاميركية في ما يتعلق بدورها في عقد اتفاقي كمب ديفيد والمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ·

٩ ـ اعتبار التدابير المتخذة في هذا القرار موقتة وتلغى بقرار من مجلس الجامعة فور زوال الظروف التي بررت اتخاذها ·

١٠ ـ ان تصدر الدول العربية التشريعات والقرارات والاجراءات التي يقتضيها تنفيذ هذا القرار ·

المقاطعة الاقتصادية

كما قرر مجلس الجامعة العربية على مستوى السادة وزراء الخارجية والاقتصاد والمال العرب ما يأتي :

اولا ـ ايقاف تقديم اية قروض او ايداعات او ضمانات او تسهيلات

مصرفية او مساهمات او مساعدات مالية او عينية او فنية من الحكومات العربية او مؤسساتها الى الحكومة المصرية ومؤسساتها ، وذلك اعتبارا من توقيع المعاهدة ٠

ثانيا ـ حظر تقديم المساعدات الاقتصادية من الصناديق والمصارف والمؤسسات المالية العربية القائمة في نطاق الجامعة العربية والتعاون العربي المشترك الى الحكومة المصرية ومؤسساتها ٠

ثالثا ـ امتناع الحكومات والمؤسسات العربية عن اقتناء السندات والاسهم والاذونات وقروض الدين العام التي تصدرها الحكومة المصرية ومؤسساتها المالية ٠

رابعا ـ تبعا لتعليق عضوية الحكومة المصرية في الجامعة العربية ، تعلق عضويتها ايضا في المؤسسات والصناديق والمنظمات المنبثقة منها وتوقف استفادة حكومة مصر ومؤسساتها منها وينقل ما هو مقيم منها في مصر الى دول عربية اخرى في صورة موقتة ٠ (المرفق الرقم ٢) ٠

خامسا ـ نظرا الى ما احتوته المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية المشؤومة وملحقاتها من التزام مصر ببيع النفط لاسرائيل ، تمتنع الدول العربية عن تزويد مصر بالنفط ومشتقاته ٠

سادسا ـ منع التبادل التجاري مع المؤسسات الحكومية والخاصة المصرية التي تتعامل مع العدو الصهيوني ٠

سابعا ـ المقاطعة الاقتصادية :

أ ـ تطبيق قوانين المقاطعة العربية ومبادئها واحكامها على الشركات والمؤسسات والافراد في جمهورية مصر العربية الذين يتعاملون في صورة مباشرة او غير مباشرة مع العدو الصهيوني ويناط بمكتب المقاطعة متابعة تنفيذ هذه المهمات ٠

ب ـ يشمل حكم الفقرة (أ) الاعمال الفكرية والثقافية والفنية التي تروج للتعامل مع العدو الصهيوني او التي لها صلة بمؤسساته ٠

جـ ـ تؤكد الدول العربية على اهمية استمرار التعامل مع المؤسسات الخاصة الوطنية المصرية التي يتأكد امتناعها عن التعامل مع العدو الصهيوني وتشجيعها على العمل والنشاط في البلاد العربية في اطار الميادين التي تعنى بها ٠

د ـ تؤكد الدول العربية على اهمية رعاية مشاعر ابناء شعب مصر العربي العاملين والموجودين في البلدان العربية ورعاية مصالحهم وتعزيز انتمائهم القومي الى العروبة ٠

هـ ـ تعزيز دور المقاطعة العربية واحكام طوقها في هذه المرحلة ٠ وتأكيدا للاجماع العربي في الالتزام الكامل باحكامها ، يوكل موقتا الى الامين العام الساعد للشؤون الاقتصادية الاشراف المباشر على المكتب الرئيسي للمقاطعة في دمشق ويمنح الصلاحيات اللازمة لاعادة تنظيم الجهاز المذكور ودعمه وتقديم المقترحات الخاصة بتطوير المقاطعة اسلوبا ومضمونا ونطاقا على ان يرفع تقريرا بذلك الى اول اجتماع لمجلس الجامعة ٠

ثامنا ـ يطلب الى الامم المتحدة نقل مقرات مكاتبها الاقليمية التي تخدم المنطقة العربية من جمهورية مصر العربية الى اية عاصمة عربية اخرى ، وتقوم الدول العربية بعمل جماعي موحد لتحقيق هذا الهدف ٠

تاسعا ـ تكليف الامانة العامة للجامعة العربية دراسة وضع المشاريع العربية المشتركة لاتخاذ الاجراءات الضرورية لحماية مصالح الامة العربية بما ينسجم

مع اهداف هذه القرارات ، وتتقدم الامانة العامة بمقترحاتها الى مجلس الجامعة العربية في اول اجتماع له ٠

عاشرا ـ مواجهة المخطط الصهيوني بوضع استراتيجية عربية للمواجهة الاقتصادية لاستثمار عناصر القوى الذاتية العربية والتأكيد على تحقيق التكامل الاقتصادي العربي في مختلف مداخله وتعزيز التنمية العربية المشتركة والتنمية القطرية ضمن المنظور القومي والتوسع في قيام المشروعات العربية المشتركة التي تخدم هدف التحرير والتطور والتكامل الاقتصادي العربي وتعزيز القائم منها وتطوير سلاح المقاطعة الاقتصادية العربية اسلوبا وتنظيما ومضمونا اضافة الى تنويع العلاقات الدولية وتعزيزها مع الدول النامية ٠ وتتولى الامانة العامة للجامعة العربية في شكل عاجل تقديم الدراسات الخاصة باستراتيجية العمل الاقتصادي العربي المشترك الى المجلس الاقتصادي العربي في دورته المقبلة تمهيدا للدعوة الى عقد مؤتمر اقتصادي عربي مقبل ٠

حادي عشر ـ تكليف اللجنة الوارد ذكرها الاشراف على تنفيذ هذه القرارات وتقديم تقرير متابعة الى مجلس الجامعة في اول اجتماع له ٠

ثاني عشر ـ تتولى الدول العربية اصدار القرارات والتشريعات واتخاذ الاجراءات التي يقتضيها تنفيذ هذه القرارات ٠

ثالث عشر ـ تعتبر هذه الاجراءات التي اتخذها وزراء الخارجية والاقتصاد العرب الحد الادنى من الاجراءات لمواجهة اخطار المعاهدة ويترك للحكومات افراديا اتخاذ ما تراه ضروريا اضافة اليها ٠

رابع عشر ـ يدعو وزراء الخارجية والاقتصاد العرب الامة العربية في كل اقطارها الى مساندة الاجراءات الاقتصادية المتخذة ضد العدو الصهيوني والنظام المصري » ٠

وهنا نص المرفقين الاول والثاني اللحقين بنص قرارات وزراء الخارجية والاقتصاد العرب ويتضمنان المؤسسات العربية التي ستنقل من القاهرة :

المرفق الرقم ١

اولا ـ الجامعة العربية والمنظمات المتخصصة ٠

١ ـ الامانة العامة لجامعة الدول العربية ٠

المجالس الوزارية المتخصصة :

أ ـ المجلس الاقتصادي والاجتماعي العربي ٠

ب ـ مجلس الدفاع العربي المشترك ٠

ج ـ مجلس وزراء الاسكان ٠

د ـ مجلس وزراء الصحة ٠

هـ ـ مجلس وزراء الشؤون الاجتماعية

و ـ مجلس وزراء المواصلات ٠

ز ـ مجلس وزراء النقل ٠

حـ ـ مجلس وزراء التعليم العالي والتكنولوجيا ٠

ط ـ مجلس وزراء الداخلية ٠

ي ـ مجلس وزراء العدل ٠

ك ـ مجلس وزراء الشباب والرياضة٠

اللجان الفنية الدائمة :

١ ـ صندوق المعونة العربية

٢ ـ صندوق المعونة الفنية للدول الافريقية العربية ٠

٣ ـ مركز التنمية الصناعية للدول العربية ٠

٤ ـ مجلس الوحدة الاقتصادية ٠

٥ ـ المنظمة العربية للمواصفات والمقاييس ٠

٦ ـ المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم ٠

٧ ـ منظمة العمل العربية ٠

٨ ـ المنظمة العربية للعلوم الادارية ٠

٩ ـ المنظمة العربية للدفاع الاجتماعي ضد الجريمة ٠

١٠ ـ الاتحاد البريدي العربي ٠

١١ ـ الإتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية ٠

١٢ ـ اتحاد اذاعات الدول العربية ٠

١٣ ـ مجلس الطيران العربي للدول العربية ٠

١٤ ـ الاكاديمية العربية للنقل البحري٠

١٥ ـ منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط ٠

١٦ ـ صندوق النقد العربي ٠

١٧ ـ معهد الغابات العربي ٠

١٨ ـ المنظمة العربية للتنمية الزراعية٠

ب ـ المنظمات التي يقع مركزهاالرئيسي خارج مصر ولكن لها فروع او مكاتب في جمهورية مصر العربية ٠

١ ـ المنظمة العربية للتنمية الزراعية٠

٢ ـ المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا ٠

ثانيا ـ الاتحادات العربية النوعية :

أ ـ الاتحادات العربية النوعية في مجال التنمية الغذائية :

١ ـ الاتحاد العربي للصناعات الغذائية ٠

٢ ـ الاتحاد العربي لمنتجي الاسماك ٠

٣ ـ الاتحاد العربي للسكر ٠

ب ـ الاتحادات العربية النوعية في مجال الصناعات الوسيطة والاساسية :

٤ ـ الاتحاد العربي للحديد والصلب٠

٥ ـ الاتحاد العربي للاسمنت ومواد البناء ٠

٦ ـ الاتحاد العربي للورق ٠

٧ ـ الاتحاد العربي للصناعات الجلدية ٠

ج ـ الاتحادات العربية النوعية في مجال الصناعات الهندسية والتعدينية والكيماوية :

٨ ـ الاتحاد العربي للصناعات الهندسية ٠

٩ ـ الاتحاد العربي لمنتجي الاسمدة الكيماوية ٠

١٠ ـ الاتحاد العربي للصناعات النسيجية ٠

د ـ الاتحادات العربية النوعية في مجال التأمين والمصارف :

١١ ـ الاتحاد العام العربي للتأمين٠

١٢ ـ اتحاد المصارف العربية ٠

هـ ـ الاتحادات العربية النوعية في مجال النقل والمواصلات :

١٣ ـ اتحاد الموانيء البحرية العربية٠

١٤ ـ الاتحاد العربي للناقلين البريين٠

ثالثا ـ الاتحادات المهنية :

١٥ ـ اتحاد الجامعات العربية ٠

١٦ ـ اتحاد المهندسين الزراعيين العرب ٠

١٧ ـ اتحاد الاطباء والبيطريين ٠

المرفق الرقم ٢

المشروعات العربية المشتركة حسب الجهة المنبثقة عنها :

اولا ـ في اطار الجامعة العربية :

١ ـ شركة البوتاس العربية المساهمة المحدودة ٠

٢ ـ الشركة العربية للملاحة البحرية٠

٣ ـ الصندوق العربي للانماء الاقتصادي والاجتماعي ٠

٤ ـ المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا ٠

٥ ـ الصندوق العربي للمعونة الفنية للدول الافريقية والعربية ٠

٦ ـ المؤسسة العربية للاتصالات الفضائية ٠

٧ ـ الشركة العربية لمصائد الاسماك ٠

ثانيا ـ في اطار مجلس الوحدة الاقتصادية العربية :

١ ـ الشركة العربية لتنمية الثروة الحيوانية ٠

٢ ـ الشركة العربية للتعدين ٠

٣ ـ الشركة العربية للصناعات الدوائية والمستلزمات الطبية ٠

٤ ـ الشركة العربية للاستثمارات الصناعية ٠

ثالثا ـ في اطار اتحاد الجمهوريات العربية :

١ ـ مصرف الاتحاد العربي للتنمية والاستثمار ٠

٢ ـ شركة الاتحاد العربي لاعادة التأمين ٠

٣ ـ مؤسسة الاتحاد العربي للتنمية الزراعية ٠

٤ ـ شركة الاتحاد العربي للنقل البري٠

٥ ـ شركة الاتحاد العربي للنقل البحري ٠

٦ ـ شركة الاتحاد العربي للمقاولات ٠

رابعا ـ المنظمات التي يقع مركزها الرئيسي خارج مصر ولكن لها فروع او مكاتب في جمهورية مصر العربية :

١ ـ المنظمة العربية للتنمية الزراعية٠

٢ ـ المصرف العربي للتنمية الاقتصادية في افريقيا ٠

٤ ـ شركة الفنادق المتحدة ٠

٥ ـ الشركة المحدودة لصناعة الالواح الحديدية ٠

٦ ـ شركة الخرطوم المحدودة للدعاية٠

٧ ـ شركة افريقيا المحدودة للمزارع٠

٨ ـ بنك البحرين والكويت ٠

٩ ـ شركة البحرين للتأمين ٠

١٠ ـ شركة الفنادق السودانية الكويتية ٠

١١ ـ الشركة السودانية الكويتية للاستثمار المحدودة ٠

١٢ ـ بنك عمان والبحرين ٠

١٣ ـ الشركة المحدودة للاستثمار السياحي ٠

١٤ ـ المصرف العربي الليبي التونسي٠

١٥ ـ الشركة السودانية الكويتية للبناء والتشييد المحدودة ٠

١٦ ـ الشركة السودانية الكويتية للنقل البري المحدودة ٠

١٧ ـ الشركة السودانية الكويتية للانتاج الحيواني المحدودة ٠

١٨ ـ الشركة العربية العقارية ٠

١٩ ـ الشركة الكويتية المصرية للعقارات ٠

٢٠ ـ شركة الاستثمار الكويتية، المصرية ٠

٢١ ـ شركة صيد الاسماك في بحيرة ناصر ٠

٢٢ ـ شركة الاستثمار العربية لاعادة البناء ٠

٢٣ ـ الشركة المصرية السعودية للاستثمارات الصناعية ٠

٢٤ ـ شركة الامارات ـ مصر للاستثمار ٠

٢٥ ـ الشركة السودانية المصرية للري والبناء ٠

٢٦ ـ الشركة المصرية السعودية للحفر والتنقيب ٠

٢٧ ـ الشركة العربية للصناعات التعدينية ٠

٢٨ ـ الشركة السعودية المصرية للتعمير ٠

٣٠ ـ الشركة المصرية السعودية للملاحة ٠

٣١ ـ الشركة العربية للتنمية والاستثمار ٠

٣٢ ـ شركة افاركو موريتانيا ٠

٣٣ ـ شركة اسكندرية ـ كويت للاسثمار العقاري ٠

٣٤ ـ الشركة السعودية المصرية للاستثمار والتمويل ٠

٣٥ ـ الشركة القطرية المصرية للاستثمار ٠

٣٦ ـ الشركة البحرينية الكويتية للتأمين ٠

٣٧ ـ شركة الخليج ـ مصر للفنادق والسياحة ٠

٣٨ ـ المجموعة المغربية الكويتية للتنمية ٠

٣٩ ـ الشركة السعودية للتنمية الزراعية المحدودة ٠

٤٠ ـ الشركة الوطنية للصناعات المعدنية المحدودة ٠

٤١ ـ الشركة السعودية للتحويلات الكيماوية ٠

٤٢ ـ مصنع الاشرطة اللاصقة للاستخدامات الطبية والكهربائية ٠

٤٣ ـ الشركة السعودية للطوب الرملي والجيري ٠

٤٤ ـ شركة اسمنت اليمامة المحدودة ٠

٤٥ ـ شركة اميرون العربية السعوودية المحدودة ٠

٤٦ ـ الشركة السعودية الكويتية لصناعة الاسمنت ٠

٤٧ ـ شركة سليبول العربية السعودية ٠

٤٨ ـ الشركة الوطنية لمنتوجات الورق

٤٩ ـ شركة الانشاءات السعودية الاوروبية المحدودة ٠

٥٠ ـ شركة بوجنر السعودية المحدودة ٠

٥١ ـ الشركة العربية السعودية للفنادق ٠

٥٢ ـ شركة المباني الجاهزة ٠

٥٣ ـ شركة الرياض سنهال هوينل ٠

٥٤ ـ شركة الامارات والسودان للاستثمار المحدودة ٠

٥٥ ـ شركة الاستثمارات السياحية التونسية الكويتية ٠

٥٦ ـ شركة اسمنت عمان ٠

خامسا :

١ ـ الاتحاد العربي للمواصلات السلكية واللاسلكية ٠

٢ ـ اتحاد اذاعات الدول العربية ٠

٣ ـ مجلس الطيران المدني للدول العربية ٠

٤ ـ الاكاديمية العربية للنقل البحري ٠

٥ ـ منظمة الاقطار العربية المصدرة للنفط ٠

٦ ـ صندوق النقد العربي ٠

٧ ـ معهد الغابات العربي ٠

٨ ـ المنظمة العربية للتنمية الزراعية٠

سادسا : المشروعات العربية ـ الاجنبية المشتركة التي تتخذ من جمهورية مصر العربية مركزا لها :

١ ـ الشركة العربية الدولية للتأمين ويساهم فيها اجانب بـ ٥١ في المئة من رأس مالها وتضم العراق والكويت ومصر٠

سابعا ـ المنظمات الدولية الاقليمية التي لها مكاتب وفروع في جمهورية مصر العربية :

١ ـ الامم المتحدة ووكالاتها المتخصصة :

أ ـ منظمة الامم المتحدة للتربية والعلوم والثقافة (الاونيسكو) ٠

ب ـ منظمة الاغذية والزراعة للامم المتحدة (الفاو) ٠

ج ـ منظمة الصحة العالمية ٠

د ـ منظمة العمل الدولية ٠

سعدي يوسف

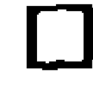
إنغمار

من تراها تقتل الأخضرَ بنْ يوسفَ في بيروتَ ؟
من يأتمر ، الليلة ، في بارٍ ، عليه . . .
من ترى يقتله في دورة الشارعِ
أو في دورة المقهى
وفي دائرة الظل ،
وفي الدور الذي لن يصل الخطُّ إليه . . .
من ترى يُسْلمه للنزْعِ مطعوناً ، ومدهوناً بزهر البرتقال ؟

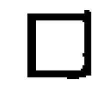
□

كلٌّ ما قال انتهينا منه :
ما يحسبه نجماً عرفناهُ
وما كان له بيتاً بلغناهُ ،
وذاك الشاطيء الأولُ . . . رملُ الصبوة المسحورُ ـ
مهجورٌ . . .

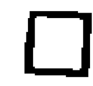
عظامُ الطير والأسماك ، والصخرُ الذي ينحلّ ،
لكنْ . . . ذلك الهجس الذي لّما يزل ينبض في الأخضر فتاناً . . .
وذاك النجمُ
ذاك البيتُ
هذا الشاطيء المهجورُ ـ
والمسحورُ في إيماءة الأخضر . . .
ذاك الهجسُ . . .
تلك القطرةُ الملعونة الحرقة في آخرة الكأس الأخير !



يجلس الأخضر في البار
ـ كما كان ـ
وحيدا .

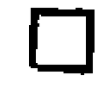


● ولماذا جئتَهُ الليلةَ ؟
هل فكرتَ بالكأس التي يشربها حتى الـ . . ؟
ـ ولكني انتظرت
ان ارى صحوته يوماً . . .
● وهل ايقظتَهُ ؟
ـ لا .



بعد حينٍ يقفر الشارعُ
في « البستان » يخبو الضوء ،
من غرفته يهجس آثار الخطى ،

ينقطع الخطو . . .
وفي ابراج « توليدو » ينام الحارس الطفلُ
وتأتي ليلة اخرى ،
وتأتي امرأة بالزهر ، في ثوب الحِداد .



حين جاء القتلةْ
لم يكن سيّديَ الأخضرُ في مأواه . . .
كانت سدرةٌ مشتعلةْ
تغلق الرجعةَ . . .
كان الكون مدهوناً بزهر البرتقال .

بيروت ٧/ ٤/ ١٩٧٩

فيصـل دراج

جـورج لوكاش ونظـرية الروايـة

عندما نتناول موضوع « نظرية الرواية » عند جورج لوكاش ، يتبادر الى الذهن مباشرة ذلك « النص القديم » الذي كتبه هذا الفيلسوف الهنغاري في شتاء ١٩١٥ ــ ١٩١٦ ، عندما كانت الحرب تهز اركان النظام الرأسمالي وتعصف بالمثل البرجوازية · لكننا هنا لـن نعالج « النص القديم » والذي يحمل اسم نظرية الرواية ، بل سنتناول نصا مغايرا لـه في الزمان والمنهج · في « نظرية الرواية » « الاولى » كان لوكاش يقف في حقـل الفلسفة المثالية ، يعالج موضوعه بأدوات فلسفية اخذها من هيجل ودلتي وزمل « فلسفة الحياة » · اما في مساهمته الثانية فكان ماركسيا يحمل سمات وحدود ماركسية زمانه ، ماركسية الثلاثينات بحدودها النظرية والسياسية ، اي كان يتحرك في اطر « نظريـة » محـدودة التطور مكبلة بقيود ممارسة سياسية قمعية تدفع النظر في اتجاه الصمت والمراوحة ، او التقدم الحذر والمساومة ·

اعطى جورج لوكاش مساهمته في « نظرية الرواية » عندما كان مهاجرا في موسكو هربا من الفاشية · وتتألف هذه المساهمة النظرية من « جزئين » كتبا في نفس الفتـرة الزمنيـة تقريبا وعالجا موضوعهما بأدوات نظرية متطابقة · او بشكل ادق فان « الجزء الثاني » من المساهمة هو مجرد استعادة وتطوير محدود «للجزء الاول» · وهذان الجزءان هما : «تقرير عن الرواية » و « الرواية » · شكل الاول منهما مقدمة لحوار حول الرواية نظمته مجلة « النقد الادبي » في عام ١٩٣٤ ، أما الجزء الثاني فقد كتبه لوكاش عام ١٩٣٥ للمجلـد التاسع من الموسوعة الادبية ، وظهر تحت عنوان : « الرواية ملحمة برجوازية » · (١)· وشكلت مساهمة لوكاش هذه قاعدة نظرية صلبة لحوار ادبي صاخب وغزير دار في موسكو بين كانون ثاني عام ١٩٣٤ وحزيران ١٩٣٥ (٢) · ولا تزال مساهمة لوكاش ــ بالاضافـة الى مساهمة باختين ــ تعتبر رغم محدوديتها احد اهم المداخلات الماركسية في « نظريـة الرواية » ان لم تكن اهمها على الاطلاق ·

وكما قلنا فان معالجة لوكاش لموضوع الرواية لم يكن جديدا ، لكن الجديد في المعالجة هو الادوات النظرية التي اعتمدها وبالتالي المنتوج النظري الذي صدر عنها · فقـــد

بحث لوكاش الثلاثينيات عن تحليل جديد للرواية بعد ان فرض الحرم على نصه القديم وانكر ابوته ، ناعتا اياه بـ « الاظلامية » و « الرجعية والمثالية » ، بحث عن تحليل ماركسي للرواية تاركا كتابه « القديم » لعشاق « المفهوم المأساوي للعالم » (لوسيان جولدمان ومدرسته) • ورغم التعارض القطبي في المنهج فان لوكاش يعتمد في نصيه « القديم والجديد » نقطة انطلاق واحدة : التعارض بين الملحمة والرواية المرتبط بتعارض زمانيهما • فالملحمة هي الشكل الادبي لزمن الاتساق والتناغم والسعادة ، أما الرواية فهي الشكل الادبي لزمن مكسور يجر وراءة انسانا كسيرا • عاين لوكاش الشاب ـ١٩١٥ـ هذا التعارض انطلاقا من موقف الذات المفكرة التي تواجه العالم وحيدة ، فتخسر المواجهة وترفض الحاضر وتنظر الى زمان الملحمة البعيد بحسرة وحنين • وهذا يعني ان الحاضر (المجتمع الرأسمالي) هو زمان الانسان المغترب وزمان الرواية ايضا ، اما الماضي فهو الحلم والمثال وزمن الملحمة ، زمن التوافق بين « الروح والعالم الخارجي والداخلي »(٣)• فزمان الملحمة هو زمن تحقق الروح أما زمان الرواية فهو من تفاؤل بلا مستقبل ، وزمن العزلة في الجماعة : انه زمن الحضور الغائب •

ومع استبدال المنهج استبدل لوكاش المثال ، احتفظ بجمال «طفولة الانسانية» وادخله في التصور المادي للتاريخ ليستعيده كجمال ممكن التحقيق من جديد في المجتمع الاشتراكي ، في حين ظلت الرواية تعبيرا عن شرط «الانسان المغترب عن جوهره » ، بقيت مسافة زمنية تفصل بين زمنين ملحميين ، زمن الاتساق الاول وزمن تحقق الانسان في المجتمع اللاطبقي ، أي ان ديالكتيك التاريخ اعاد انتاج الملحمة الاولى كملحمة جديدة ونقل الحلم ـ المثال من الماضي الى المستقبل •

التطور اللامتكافيء بين الرواية ونظرية الرواية

الرواية هي النوع الادبي النموذجي للمجتمع البرجوازي • ومع ان المجتمع القديم ، والشرق والعصور الوسطى قد اعطت اعمالا تقترب من الرواية ، الا ان الرواية كنوع ادبي متميز لم تظهر الى الوجود الا في المجتمع البرجوازي ، وقد اتخذ ظهورها هذا وجودا ثنائي الدلالة ، فهي من ناحية شكل التعبير المتميز لمجتمع محدد تاريخيا ، وهي من ناحية ثانية النوع الادبي الاكثر قدرة على عكس التناقضات النموذجية لهذا المجتمع • لقد احتفظ المجتمع البرجوازي بالانواع الادبية الاخرى ـ الدراما ـ وأثر فيها ، الا ان هذا التأثير لم يرفع هذه الانواع الى مصاف التعبير النموذجي الحايث لهذا المجتمع •

لم يساير مصير الرواية مصير النظرية المرتبطة بها ، بقيت في مستوى وبقيت نظريتها في مستوى آخر ، فنمت وتطورت دون ان تمتلك القماط النظري الذي يشرح مسارها ، أي ان الرواية في ولادتها وسيرورتها لم تقابل نظريتها ، فتابعت المسار في انتظار اللحظة النظرية المؤاتية • ذلك ان التطور النظري البرجوازي المرتبط بحقل «الفن» ظل رهينا للمعايير القديمة ، يستعيد المواقف النظرية القديمة المرتبطة بانواع ادبية قديمة مثل الدراما والملحمة ••• دون ان يستطيع ان يطرح حلا لما هو جديد • فتابعت الرواية تطورها بمعزل عن التطور النظري العام وبدون ان تتأثر به ، وحتى عندما عثرت على بعض العناصر النظرية التي تشرح « او تشير الى » وضعها التاريخي ـ الفني فان هذه العناصر لم تأت من الحقل النظري بل جاءت من داخل الرواية نفسها ، حين حاول الروائيون تنظير ممارساتهم الروائية او انارتها • ان الوضع التاريخي ـ الفني للرواية قادها الى فضاء

من الحرمان والعزل النظريين ، اذ انها تشي بالسمة التناقضية لمجتمعها ، لذلك كان على النظرية البرجوازية ان تطمس هذه « الوشاية » بطريقة سهلة : نسيان السؤال او القاؤه في الظل او ما يشبه الظل · تركت النظرية البرجوازية الحاضر ، و قاربت ذلك ، وعادت الى الماضي تستعيده انتقائيا ، فاستعملت بعض عناصره لا للبحث عن الاجابة ، بل لتستخدمها في المعركة الايديولوجية ضد ثقافة العصور الوسطى · ايدولوجيا صاعدة لا تستعير الماضي الا لتلقي عليه ظلها فتنتجه كجزء من آلتها الايديولوجية ، لذلك كان من المنطقي ان تطرد هذه الايديولوجيا جميع العناصر التي لا تلعب دورا ايجابيا في هيمنتها الطبقية ، ووفقا لهذا المنطق اقصت نظرية « الفن » البرجوازية جميع العناصر الادبية التي تتضمن ابعادا عامية وشعبية · وكما نعلم، فان الرواية ترتبط بالثقافة « الحكائية » Narrative للعصور الوسطى ، وان الشكل الروائي قد ولد نتيجة انحلال الثقافة « الحكائية » للعصور الوسطى واقتحام العناصر الشعبية والبرجوازية لهذه الثقافة ·

لم تمتلك نظرية الرواية قاعدة لها الا عن طريق الفلسفة الكلاسيكية الالمانية ، التي طرحت الخطوط العامة لدراسة جمالية عامة للرواية ، لتدخلها بعد ذلك في نسق الاشكال الجمالية ، يضاف الى هذا التطور الحثيث الذي اتسمت به ممارسات التنظير الذاتي للروائيين انفسهم ، الذي نما وتطور واخذ دلالة نظرية عميقة (والتر سكوت ، غوته ، بلزاك ···) · مع ذلك فان نظرية الرواية لم تأخذ حيزها الحقيقي الا مع مجيء النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، وبعد ان اكدت الروايةذاتها كشكل تعبير نموذجي للمجتمع البرجوازي · لكن هذا « الحيز الحقيقي » لم يبلغ مداه النظري ، طرح السؤال دون ان يعثر على الجواب الموائم ، وبقيت علاقة الرواية بنظريتها محكومة بتطور لا متكافىء ، فلم تستطع المساهمات النظرية البرجوازية ان تشرح سبب استقلال الرواية كنوع ادبي ، ولا تمايزها عن الاشكال الملحمية الاخرى ، كما عجزت عن ايضاح خصوصيتها المميزة لها كنوع أدبي ، وتمايزها عن أدب التسلية البسيط ·

الملحمة والرواية

عندما يدعو هيجل الرواية « ملحمة برجوازية » فانه يطرح في نفس الوقت مسألة جمالية وتاريخية ، ويشير الى صلات القرابة التي تربط نوعا ادبيا بآخر ، أو بشكل ادق الى صلة التناظر Analagie التي تربط هذين النوعين الادبين بزمانين مختلفين تاريخيا · فالرواية شكل جديد للملحمة يتوافق مع زمن جديد ، او هي نظير الملحمة في زمن لم يعد يسمح بانتاج الملحمة ، فهي (اي كرواية) تحمل الصفات الجمالية العامة للملحمة بعد ان اخضعت لتعديلات ضرورية فرضها العصرالبرجوازي وهكذا تصبح نظرية الرواية مرحلة تاريخية في النظرية العامة للفن الملحمي العظيم ، وتصبح الرواية بدورها احد المركبات في نسق الانواع الادبية ·

أقام هيجل نظريته فيالرواية انطلاقا من التعارض التاريخي بين زمنين ، زمن الملحمة وزمن الرواية ، أو عصر الشعر وعصر النثر · وبدون ان يكتشف الاسس الاقتصادية الموضوعية الموافقة لهذين الزمنين ، وجد ان **الملحمة مرتبطة بمرحلة بدائية من التطور الانساني** · الملحمة هي النوع الادبي لزمان لم تكن فيه حياة المجتمع قد اخضعت بعد للقوى الاجتماعية التي جاءت من المجتمع ثم تمايزت عنه وحكمته ، انها « فن » عصر البطولة ، حين كانت حياة الانسان عفويته ، وعفويته حياته ، وحين كان الانسان لا يعي ذاته الا جزءا من كلية جوهرية · اذا كان هذا الزمان المتناغم هو زمان الملحمة فلا بد

من ان يكون متعارضا قطبيا مع زمن الرواية المحكوم بتناقض محايث غير محلول · لذلك يعتقد هيجل ان نثر العصر البرجوازي جاء نتيجة انهيار نشاط الانسان العفوي وتحطم الكلية الجوهرية التي تربطه بالمجتمع · فالنثر هو شكل التعبير في زمان يئد عفوية الانسان ليحل مكانها عفوية القانون ومنطق الضرورة ، وشكل التعبير في زمان يبحث فيه الانسان عن كلية مفقودة ، فيقف معزولا هامشيا ، وبلا جوهر · يفقد جوهره ، وينفصل عن غايته. ويبتعد عن فعله · وعندما ينفصل الانسان عن جوهره ينفصل عن زمن الشعر أيضا ، وعن زمن الملحمة · لهذا عندما تصبح الرواية « ملحمة برجوازية » ترتدي سمات جديدة هي سمات تناقضها · لكن هيجل يحل هذا التناقض مثاليا عندما يصالح بين « جوهر » الرواية و « جوهر » الواقع ·

ان اتخاذ موقف صحيح ازاء شكل الرواية يستدعي موقفا نظريا صحيحا من التطور المتناقض للمجتمع الرأسمالي · وعدم وصول الفلسفة الكلاسيكية الالمانية الى هذا الموقف جعلها تقف عاجزة عن تطوير الجواب حتى آفاقه الضرورية نظريا · لم تصل الى الجواب الملائم بسبب عجزها عن اكتشاف التناقضات الاساسية للمجتمع الرأسمالي ، التناقضات بين الانتاج الاجتماعي والتملك الخاص · لا يلغي هذا العجز المساهمة الاصيلة لهذه الفلسفة في حقل نظرية الرواية · فقد اكتشفت وحدة الرواية والملحمة ، وضرورة استخلاص المقولات المشتركة لكل فن ملحمي عظيم ، الامر الذي تحقق عن طريق غوته ، شيلر ، وشلنغ وهيجل · وتشير الدلالة العملية لهذه المقولات المشتركة الى أن كل عمل روائي عظيم – مهما كان تناقضه – ينزع الى الملحمة · وفي هذا النزوع المستحيل تكمن العظمة الشعرية لهذا العمل · كما اكتشفت هذه الفلسفة الفرق التاريخي بين الملحمة والرواية مكرسة بذلك الرواية كنوع فني نموذجي للمجتمع الحديث ·

حاولت الفلسفة الكلاسيكية أيضا ان تمايز الشكل الروائي ، أي ان تعطيه سمته الذاتية التي تفارقه عن الشكل الملحمي · تقوم الرواية في رأي غوته – مثلا – على تقديم مادة حديثة ومادة فكرية تتحركان وتتطوران ببطء ، الامر الذي يفرض ببطيء حركة الشخصية الاساسية (البطل) التي تتجه نحو نهاية معينة · ان سلبية البطل الروائي – هنا – هي ضرورةشكلية تهدف الى رسم وتطوير العالم الواسع الذي يحيط به ، لان الرواية لا تنهض على شخصية واحدة ومهيمنة بل تنزع الى احتضان كلية العالم المحيطة بالبطل · وفي ديالكتيك البطل والعالم المتناقض يتراجع دور البطل ، وتتوارى بطولته الغابرة ، تنمو « فرديته » وتتراجع بطولته · لهذا تعجز الرواية البرجوازية عن رسم « بطل ايجابي » . بل تقع في استحالة الرسم ، لكنهما تلبث أن تجد حلا وسطا ، فتصالح بين البطل والعالم·

تصالح الفلسفة الكلاسيكية بين الذات والواقع ، بين الانسان والعالم · تقدم حلا وهميا لتناقض حقيقي · فمصالحتها لا تعني الا هزيمة البطل أمام الواقع البرجوازي · يقول شلنغ : ان موضوع الرواية هو الصراع بين المثالية والواقعية ، أما عند هيجل فيصبح تربية الانسان كي يتقبل الواقع البرجوازي · ومع ان هيجل يدفع التناقض نحو المصالحة والممكن الا أنه يدعو لاستعادة الشعر في زمن النثر ، استعادة لا تعني تعايشا جامدا وهجينا بين الشعر والنثر ، بل تطمح الى تشكيل العالم النثري بشكل شعري ، والنضال ضده · فاستعادة الشعر في زمن النثر يعني البحث عن كلية مفقودة ومواجهة لعالم اضاع لحظته الشعرية ·

ان مفهوم المصالحة الذي اعتمدته الفلسفة الكلاسيكية عكس نفسه على الشكل والمضمون

معا ٠ فالمصالحة تعني ايقاف الحركة ، أي ربط الشكل والمضمون بلحظة زمنية ساكنة ٠ لقد كان عجز هذه الفلسفة مكتوبا في نظامها الفلسفي نفسه ، حين جعلت لنهر التاريخ مصبا وجعلت من المستنقع البرجوازي مصبه الاخير : ينطبق هذا المنطق حتى على هيجل، اكثر رموز هذه الفلسفة ذكاء وقدرة على حدس جوهر الرأسمالية ، الذي اضاع ملاحظاته الصائبة عن طبيعة المجتمع الرأسمالي في متاهة « الروح » ٠ فهو عندما أبصر ان انحطاط الرأسمالية يؤدي الى انحطاط الفن ، ترك الواقع هادئا ، وادخل بصيرته في نظرية خاطئة عن نهاية الفن ٠

تميز الشكل الروائي

لا يخطىء شلنغ Schelling الحقيقة عندما يقول « ليست الرواية موضوعية الا في شكلها » ٠ واهمية الشكل ودلالته تدعو الى دراسته دراسة غير شكلية ، دراسة تلمس بعده التاريخي وسيرورة تكونه ٠ ان معالجة الشكل الروائي تستدعي جدليا الوقوف ولو قليلا أمام الشكل الملحمي ٠

تتعارض الملحمة مع الرواية في الشكل والتركيب تعارضا يمليه تفارق زمان هذين النوعين الادبيين ٠ ينهض الشكل الملحمي على بطل عاش زمانه في خط مستقيم ، وحقق ذاته في كل لحظة كجزء متجانس في كلية متجانسة ٠ فزمان البطل الملحمي هو زمان تحققه المستمر ، تحقق يعطي دفعة واحدة ومنذ البدء ، والوجود المتحقق منذ البدء لا يعرف التطور لانه لا يحتاج اليه ٠ لذلك لا يحتاج البطل الملحمي الى أي شرح تكويني Génétique ويستطيع ان يبدأ مساره في أية لحظة موائمة لدورة الحدث الملحمي ٠ وعندما تتعرض الملحمة للماضي ، فانها لا تفعل ذلك لانارة الشخصية الملحمية وتطويرها، بل لانارة العالم ورسم صورته وزيادة التوتر الملحمي ٠ اذا تركنا الملحمة جانبا ، ونظرنا الى الرواية ، نجد أن الامر يختلف قطبيا : استعادة الماضي ضرورية من أجل تقديم شرح تكويني للحاضر ، وللتطور اللاحق ٠ لكن التركيز على السيرورة الذاتية للبطل (سيرته الذاتية) ومسارها التكويني لا يعني نقلها الى مستوى القانون العام لان ذلك يقود الى السقوط في شكلية جامدة ، معنى ذلك ان الشرح التكويني للبنيان الروائي لا يستلزم شرحا تكوينيا لمسار البطل ٠ وقد كتب الروائي العظيم بلزاك اعماله دون ان يأبه كثيرا الى المسار التكويني للبطل ٠

يتحدد الشكل الروائي بشكل اللحظة التاريخية التي يرسمها ، ولما كانت هذه اللحظة هي لحظة المجتمع الرأسمالي المحكوم بتناقض غير محلول ، كان لا بد ان ينعكس هذا التناقض في الشكل الروائي ٠ فالعالم الرأسمالي هو عالم يصبح فيه الفكر غريبا عن ذاته ، وتستحيل فيه العفوية الطليقة الى كيان مقيد مشوه ، وتمسي فيه اللغة لغة التمزق والاغتراب ٠ لذلك فان الشكل الروائي لا يستطيع – شاء أم ابى – الا أن يحتضن تناقضات المجتمع الذي يرسمه والتي تشكل القوة المحركة لحياة المجتمع البرجوازي ، وحتى عندما يسعى هذا الشكل رسم « حالة وسطية » فان تناقضات الحياة تعود لتشي من جديد بهذا « الوسط » الزائف وتشير الى تناقضه الحقيقي ٠

ومع ذلك فان المعرفة الخلاقة للتناقضات الغير محلولة كقوة محركة للمجتمع الرأسمالي لا تعطي الا مقدمة الشكل الروائي وليس الشكل نفسه ، فاذا عدنا الى احدى المقولات الصحيحة عند هيجل ، وجدناه يقول : ان المعرفة الصحيحة للوضع العام في المجتمع

ليست الا المقدمة الضرورية لاختراع وصياغة الفعل الذي يقوم عليه العمل الفني ، لكن مسألة الفعل Action هذه تكون النقطة المركزية لمعضلات الشكل الروائي · فكل معرفة لشروط المجتمع تبقى مبهمة وبدون فائدة اذا لم تصبح عاملا في تكامل الفعل ، وكل وصف للوضع الاجتماعي يظل ميتا وفارغا اذا بقي مجرد وصف دون ان يستطيع ان يصبح لحظة نشيطة في مجرى الفعل · ان هذا الوضع المحوري للفعل ليس مجرد بدعة شكلية ، بل تمليه ضرورة تقديم انعكاس موائم للواقع · فاذا اراد الروائي ان يرسم العلاقة الحقيقية بين الانسان والمجتمع ، بين الانسان والطبيعة ، بشكل يظهر فيه العلاقة الديالكتيكية بين الوعي والوجود ، فان سبيله الوحيد هو رسم الانسان في فعله ، فمن خلال الفعل والممارسة يعبر الانسان عن « جوهره » ، وعن الشكل الحقيقي والمضمون الحقيقي لوعيه· لهذا فان اصالة الخيال الروائي تكمن في قدرته على اختراع واختيار القصة ، الحدث ، او الموقف الذي يعبر فيه ، ومن خلاله ، « الجوهر » الانساني ، عن العناصر الاكثر نمطية في وجوده الاجتماعي · ان شكل الموقف الذي يصطفيه الخيال الروائي العارف لواقعه هو الذي يحدد الشكل الروائي ·

تتحدد الشروط التي يظهر فيها الفعل ، شكله ومضمونه ، بمستوى التطور الاقتصادي للمجتمع والصراع الطبقي الدائر فيه ، الامر الذي يفرض على الرواية ضرورة القاء الضوء على التحديدات الجوهرية للمجتمع ، بواسطة الخصائص الفردية ، الفعل والحركة، وعالم الانسان المتفرد وهما في شقائه وعذاباته · ويمكن ان تتجلى هذه التحديدات الجوهرية في علاقة الانسان بمجتمعه ، وفي مصير هذا الانسان وقدره ·

اذا كانت الذات او الشخصية لا تحدد الشكل الروائي بشكل كامل ، فانها بلا شك تلعب دورا هاما في هذا التحديد · فشكل العلاقة التي تربط الفرد في مجتمعه تكون احد السمات الاساسية للرواية وللملحمة معا · ففي زمان الملحمة كان الانسان مركز العالم ، يتحرك كجزء من كل وكعنصر في مجموعة · وكان هذا الكل/المجتمع يقاتل موحدا ، وبشكل واحد ، ضد العدو الخارجي · ان الشكل التاريخي للفرد وللمجتمع لا يمكنه الا ان يحكم البنيان العام للعمل الفني سواء كان ملحمة ام رواية · فبعد اندثار عالم الشعر ، وغروب زمان « طفولة الانسانية » ، دخل الفرد في زمان النثر ، ففقد **الفعل** كونيته ، انقسم المجتمع الى طبقات ، ودخل الفرد الى عالم « الاثم الكامل » فتشظى · لم يعد الفعل جماعيا ، انشطر الانسان والفعل ، فبحث الفرد عن « جوهره » المفقود ، وغاب الفعل الجماعي ليحل مكانه صراع الطبقات · في عالم « الاثم الكامل » ــ المجتمع الرأسمالي ــ افقد التاريخ الرواية نموذجها الكوني ، وأصبح البطل النموذجي (النمطي) طبقيا لا كونيا ، وأكثر من ذلك أصبح النموذج الكوني مزحة سمجة يمجها التاريخي ويعري وهمها بدون عناء · ومع تطور المجتمع البرجوازي تطور وضع الرواية ، واذا كانت هذه الرواية ترصد في البدء التناقضات الجوهرية وانسانا تنزل ، فقد توجب عليها فيما بعد ان ترصد التعارض بين الفرد والمجتمع الذي تجلى في صراع طبقي شرس وبلا قلب ، وحتى عندما كانت تنزع الرواية الى الشكل الملحمي ، فان نزوعها هذا لم يكن ممكنا الا بقدر استطاعتها على رسم نمطية وتعارضات الطبقية في كليتها المتحركة ، والفرد النمطي في حقله الطبقي ·

ان احتدام الصراع الطبقي وتعمق التناقضات الاجتماعية لم يجدد الرواية في مستوى المضمون فحسب ، بل قدم ايضا الامكانية الفعلية للفعل الروائي الحقيقي ، وكرس الرواية كقوة فنية حاسمة لفترة تاريخية باكملها، وطرح في الوقت ذاته معضلات جديدة أمام الفعل الروائي والشكل الروائي · انتجت الحركة الاجتماعية شكلا جديدا من الفعل ، واعادت

انتاج الانسان بحيث اصبحت فرديته الظاهرية مجرد قناع ؛ اي تحول المجتمع الى قوى اجتماعية ـ طبقية مجردة يصعب العثور فيها على فرد متميز محدد الملامح ، لذا كان على الرواية ان تبحث هذا الانسان المتميز المعبر عن زمانه في خيالها الروائي ، اي ان تتمثل الواقع المعاش وتعيد انتاجه وتركيبه فنيا ، ان تحتضن الواقع مجردا وتبنيه فنيا بشكل يجعل التجريد تحديدا · توجب على الرواية ان تقرأ العلاقات المجردة المكتوبة في الممارسات الطبقية لتستخلص منها افعالا مشخصة ونمطية تبني انطلاقا منها سلسلة مواقف تحمل التجريد والتحديد معا كي تعطي في النهاية فعلا ملحميا حقيقيا وذا دلالة · لقد عكس تعقد الواقع نفسه على الرواية فجعل بناءها اكثر تعقيدا ، فنمت في كثافة الواقع ورصدت هذه الكثافة فنيا وحاولت ان تخلق معادلاتها الفنية التي تمسك بالعام والخاص، بالنمطي والفردي ، بالمجرد والمشخص · وفي سيرورة البحث عن المعادل الفني للخصائص التاريخية قامت الواقعية العظيمة (بلزاك ···) ·

يستلزم التملك الفني للخصائص التاريخية الاساسية للواقع الاجتماعي تملك هذا الواقع معرفيا ، وفي مسار هذا التملك الثنائي البعد تنمو وتتطور بنية العمل الروائي · ينتج عن ذلك ان تعقد الحركة الاجتماعية يفرض بنية روائية موائمة ، لان كل نقل مباشر للواقع المباشر لا ينتج الا صورة ساذجة وميكانيكية · واقتحام الحركة الاجتماعية المعقدة وصياغتها فنيا يفرض ابتعادا عن الواقع العادي واعادة تركيبه كي يتضمن حركة الواقع الحقيقية و « المضمون الجوهري للعقلانية » · وهذا التملك العقلاني للواقع يعكس ذاته على الشخصية الروائية التي تحمل هذا الواقع وتتطور كحياة خاصة وكحامل مشخص للقوى الاجتماعية الاساسية ، وبالتالي فان هذه الشخصية تمثل حياة فردية من ناحية وحياة مجتمعية من ناحية ثانية · فهي وحدة الفردي والنمطي المعبرة عن نفسها في الفعل الروائي الذي يحتضن ديالكتيكيا ـ الانسان ووجوده الاجتماعي ، الفردي وتناقضات مجتمعه التي تحدد مصيره ·

وبشكل عام فان الشخصية الروائية لا ترقى الى مستوى النمطية لمجرد كونها تمثل محصلة احصائية لصفات وممارسات زمرة او طبقة اجتماعية محددة ، بل لكونها تحمل في خصائصها التحديدات النمطية موضوعيا للمصير العام لطبقة ، الذي يتجلى في الوقت ذاته وموضوعيا كمصير فردي متميز · ونزوع العمل الروائي الى رسم الشخصية النمطية يتضمن طموحا الى رسم **كلية** المجتمع ، اي رسم العلاقات الانسانية والاطار الاجتماعي العام الذي يتوسط بين هذه العلاقات ، والكلية هنا لا تعني وصفا لعناصر اجتماعية معزولة بل ضرورة مكتوبة في العمل الروائي النازع الى احتضان شمولية العالم ، ومنطق ضرورتها يفعل في البنية العامة للعمل الروائي ·

تطور الرواية

لما كانت الرواية « وليدة » المجتمع البرجوازي ، كان لزاما عليها ان تتطور بتطور المجتمع الذي انتجها ، تتقدم وتزدهر بتقدمه وازدهاره ، وتميل الى التدهور والانحطاط عندما ينزع الى ذلك · فسيرورتها هي سيرورة نمط الانتاج الموافق لها ، وكل تغير في الشكل التاريخي لنمط الانتاج هذا ينعكس بالضرورة في البنيان الروائي بحيث يكون « شكل ومضمون » المجتمع البرجوازي هو « شكل ومضمون » النوع الروائي · ان تحولات زمن الرواية كنوع ادبي هي تحولات المجتمع البرجوازي المرتبط بنمط انتاج محدد تاريخيا·

واذا اقتفينا سيرورة المجتمع البرجوازي عثرنا فيها على مقولات أدبية موائمة ، « البطل الايجابي » الممكن في بدايات الثورة البرجوازية ، و « البطل الايجابي » المستحيل في زمن تفجر التناقضات ، كما نجد ايضا ـ وفق منطق لوكاش ـ الادب المنحط الذي يعبر عن انحطاط المجتمع البرجوازي في فترة معينة من مساره ، و « تحلل الشكل الروائي » المرتبط جدليا بتحلل المجتمع المنتج له · لهذا ، فان قراءة سيرورة المجتمع البرجوازي تسمح لنا بقراءة سيرورة البنيان الروائي · وسوف نستعرض بايجاز شديد نقاط هذه السيرورة ، وسنتوقف فقط عند مقولة الواقعية الاشتراكية ، ففي تصور لوكاش لهذه المقولة تنعكس حدود « نظريته » وحدود ماركسيته في ايجابيتها ومحدوديتها :

١ ـ **الرواية في طور الولادة** : وتوائم مرحلة صعود المجتمع البرجوازي · وفي هذه المرحلة قاد الروائيون نضالا ثنائي البعد : ضد قيود مجتمع العصور الوسطى الذي يلغي ذاتية الفرد ، وضد « شرور » المجتمع البرجوازي التي بدأت تتكشف منذ لحظة الولادة ، وقد تميزت الرواية في هذا الطور بنزوع الى الخيال والغرابة دون ان تفقد الصلة بالمادة الاجتماعية التي تمنحها حقيقتها ·

٢ ـ **غزو الواقع اليومي** : ويوائم الفترة التي اصبحت فيها البرجوازية طبقة سائدة اقتصاديا ، والتي ناضلت فيها باسم قيم كونية دافعة مسار التاريخ الى الامام لتخلق مجتمعا جديدا بعلاقات جديدة · وفي زمان الصعود التاريخي هذا وجد « البطل الايجابي » البرجوازي مكانا له · وتراجعت في هذه الفترة نزوعات الغرابة والتخيل لتلتفت اكثر الى الواقع المادي المباشر ·

٣ ـ **شعر «المملكة الحيوانية الروحية»** : ويتوافق مع مرحلة جديدة من تحولات المجتمع البرجوازي ، حيث بدأت المثل البرجوازية بالتراجع ، وبدأ وهم البطولة الفردية يتلاشى ، وظهرت استحالة التصالح الكامل بين الفرد والمجتمع · وأمام عالم المثل المنهارة تراجع « الروائي » الى الوراء باحثا عن الحل في ذاتية مفرطة ، ورأت النور النزعة الرومانسية التي تعبر عن « أنا » قلقة ترفض الحاضر وتناجي احلاما ماضوية · وفي اطار الرفض والانا هجر « الكاتب » واقعه وهما ،فشكل رفضه للواقع لم يكن الا تكريسا له وتكريسا للانا الواهمة · لكن حركة الواقع التناقضية لم تبارك الانا في منفاها الرومانسي ، فمارس « الكاتب » رومانسيته ورسم الواقع بمنطق أناه الروماسية · وبعد ضياع البطل ـ المثال بحث الروائي في عالم كتابته عن بطل ايجابي جديد ينكر عالمه المعاش ويعيش ذاتيته المنتفخة · الا ان منطق الوهم لا يساوق منطق الواقع ، فالكاتب عندما كان يرسم ذاتيته ويرفض العالم كان يرسم العلاقة المادية التي تحدد تناقض الفرد والمجتمع ، أي كان ينتج فنيا نسيج العلاقات الاجتماعية المسيطرة التي تحمي « ذاتية »الفرد واوهام اناه (بلزاك)·

٤ ـ **الواقعية الجديدة وانحلال الشكل الروائي** : مع تفاقم تناقضات المجتمع الرأسمالي ودخول الطبقة العاملة الى حلبة التاريخ (١٨٤٨) وصل الوضع التاريخي للرواية الى مرحلة جديدة · لم يعد الروائي يعيش عالم المثل الكسيرة بل اصبح يعيش اهتزاز العالم الذي « أضاع » مثله · فترك كهفه الرومانسي وعاد بوعي او بلا وعي الى الحياة اليومية من جديد يعاينها بوعية البرجوازي المهزوز ، ويحاول ان يخلق صورة يقول فيها «الحقيقة»· اراد الروائي ان يحكي الحقيقة في مجتمع اضاع حقيقته ، وعندما تضيع الحقيقة ويفقد الجوهري ، يفقد المركز مركزه ، ويصبح هامشا · لذلك لم يبحث الروائي عن الحقيقة في المركز بل بحث عنها في الهامش ، فاستبدل النمطي بالعارض ، والمتحرك بالجامد ،

وابتعد عن بؤرة الصراع الى الاطراف الساكنة · وقد مثلت المدرسة الطبيعية هذا الاتجاه ، فقدمت صورة سكونية للعالم وعجزت عن رؤية العالم في حركته الاساسية ، وبقيت طافية على سطح الظواهر ، فأضاعت النمطي والمعبر عن زمانه والتفتت الى الهامشي والمتوسط · لكن تطور الرواية البرجوازية في طور افولها لم يكن متجانسا ، فعلى الرغم من تدهورها وانحطاطها فقد ظهر فيها تيار انساني النزعة ، يدافع عن القيم الانسانية وكرامة الانسان امام مسيرة الرأسمالية · ولم يكن الادب البرجوازي الانساني المناهض للفاشية الا تعبيرا عن التناقض في مصير الرواية ومصير المجتمع البرجوازي ايضا ·

٥ ـ **آفاق الواقعية الاشتراكية** : ساير انحطاط الرواية البرجوازية دخول الطبقة العاملة الى المسرح التاريخي كقوة واعية تفعل في المسار الشامل لكلية المجتمع ، ومع تغير حركة المجتمع طرحت مسائل جديدة لم يكن باستطاعة الرواية البرجوازية ان تعالجها بشكل جذري ، وبولادة هذه المسائل الاجتماعية الجديدة ولدت مناهج جديدة قادرة على التعامل معها بشكل ابداعي · اي ان الحركة الاجتماعية للطبقة العاملة انتجت ديالكتيكيا وبشكل لا متكافىء اثرها الثقافي الذي وجد بعدا متميزا له في الحقل الروائي ايضا · فولدت رواية جديدة تستلهم الشرط التاريخي للطبقة العاملة وتعبر عن آفاقه ، تعبر عن استغلال البروليتاريا ونضالها من اجل تجاوز اغترابها وخلق مجتمع جديد يحقق الانسان فيه انسانيته · لقد طرح التيار الانساني في الرواية البرجوازية مسألة تنزل Dégradation الانسان واغترابه في المجتمع الرأسمالي ، لكن هذا الطرح تم في اطار شكل معين من الايديولوجيا البرجوازية تدافع عن الانسان دون ان تلمس الشرط المادي لتنزله واغترابه ، وترى الاغتراب تموضعا لقوى الطبقة المسيطرة دون ان تمايز بينه وبين اغتراب الطبقة العاملة · لذلك جاءت الرواية المعبرة عن آفاق الطبقة العاملة مغايرة للرواية البرجوازية في مضمونها واسلوبها · فهذه الرواية تحاول احتضان عالم بعيد عن المراوحة والسكون والكمال ، ترصده في حركته الطبقية وتشير الى دلالة هذه الحركة ، فلا ترسم معركة فرد ضائع يتشبث بوجوده الانساني ، بل ترسم معركة الفرد من حيث هو علاقة في كل ثوري يسعى الى تدمير مجتمع وبناء نقيض له · وفي ديالكتيك هذا الكل الثوري يخلق البروليتاري العالم من جديد ويخلق نفسه ايضا أي يستحيل البروليتاري الى « بطل ايجابي » من نوع جديد · ان طبيعة الصراع في شكله الجديد والدائر بين طبقة ضد اخرى سمح للرواية من جديد ان تقترب الى الشكل الملحمي حينما تصور البطولة الجمعية للطبقة العاملة · فالرواية البروليتارية تجد في زمن نهوض الطبقة العاملة فعلا جديدا وبطلا جديدا : الصراع حتى الموت بين طبقتين ينفي كل منها الاخر · وبعد انتصار ثورة اكتوبر دخلت هذه الرواية في طور جديد · فالبروليتاري لم يعد يناضل ضد اغترابه وتنزله بل اصبح يناضل من أجل الاجتثاث الكامل لجميع الجذور التي تولد الاغتراب ايا كان شكله· وفي سيرورة هذا النضال انتقل البروليتاري من الانسان ذي البعد الواحد الى الانسان المتعدد الابعاد ·

اعطت جميع هذه العناصر التاريخية الواقعية الاشتراكية التي اعطت بدورها نمطا جديدا من الرواية · ان حركة الصراع المعقد الذي تخوضه طبقة جديدة تاريخيا دفع الرواية الى طور جديد ، شكل ادبي جديد يقترب من الملحمة ، لا يتطابق معها بل ينزع اليها · ينزع الى الملحمة بسبب الفضاء التاريخي الجديد الذي يسمح للانسان بتحقيق ذاته ، ورغم هذا النزوع لا تستطيع الرواية البروليتارية ان تتماهى مع الملحمة بسبب

عملية الصراع المستمرة التي تكبح « الانسان » عن تطور خطي منسجم (بقايا ورواسب العهد القديم المتعددة الابعاد) ٠ واذا نظرنا الى عملية الصراع هذه نجد انها تتقدم فيمنحيين متلاحمين ، الاجهاز على كل ما هو سلبي في القديم من ناحية وبناء وقائع وقيم ومثل جديدة من ناحية ثانية ٠ اي ان تفتح عناصر الملحمة في رواية الواقعية الاشتراكية لا يعني استعادة الملحمة بشكلها ومضمونها القديمين (الاساطير ٠٠٠) بل ينهض محمولا على حركة المجتمع اللاطبقي الآخذ في التكون ، حيث تعبر الرواية عن بناء مجتمع جديد وميلاد انسان جديد وتعبر ايضا عن تعقد الحركة التاريخية في خصوبتها وتنوعها و « احتيالها » ٠

في مرحلة البناء الاشتراكي وصعود الواقعية الاشتراكية ، تطرح مسالة علاقة الجديد بالقديم ، علاقة الرواية بالملحمة وعلاقة الواقعية في اشكالها التاريخية ٠ ولتحديد هذه العلاقة ينبغي القاء الضوء على نقاط ثلاث ٠ النقطة الاولى : تتطور رواية الواقعية الاشتراكية بالضرورة انطلاقا من الخصائص الاسلوبية للملحمة الجديدة ، **ومثلما شرعت الطبقة العاملة ببناء الاشتراكية بمواد « ورثتها ــ لينين » عن الراسمالية فان الملحمة الجديدة قامت او تستطيع القيام اعتمادا على « ارث » الملحمة القديمة بعد اخضاعها لعملية النقد وتجاوزها عن طريق النقد** ٠ النقطة الثانية : ترتبط بالشرط الاجتماعي ــ التاريخي : يستلزم اسلوب الواقعية الاشتراكية الامساك بديالكتيك الفردي والاجتماعي ، الخاص والنمطي في الانسان ٠ فالشروط التي نشأت فيها الواقعية الاشتراكية تختلف جذريا عن شروط الواقعية العظيمة ، فالاولى تتطور في شرط تاريخي يجنح التناقض فيه الى الانحلال ، في حين تطورت الثانية في مجتمع محكوم بتناقض لا يمكن حله ٠ لكن الجرأة التي طرح بها الواقعيون العظام مسائل زمانهم والاجوبة الموائمة التي عثروا عليها تجعل من تراثهم امرا جديرا بالنقد والتمثل ٠ وهذا التمثل النقدي القائم على مفهوم جديد للعالم يسمح باعادة طرح السؤال بشكل جديد ويسمح ايضا بالعثور على اجابات فنية اكثر تقدما وجدة ٠ أما النقطة الثالثة : فترتبط بالحقل النظري العام الذي تستلهمه الواقعية الاشتراكية والذي ينير تطورها وآفاقها ويكون اسارها النظري المحدد لحركتها ٠ وكما نعلم فان رواية الواقعية الاشتراكية تجنح الى الشكل الملحمي ، وتستعيد في هذا الجنوح تقاليد الواقعية العظيمة بعد اعادة انتاجها ، لهذا كان على الجهاز النظري المحايث لها ان يتبع المنطق ذاته ، اي ان ينير مسار الرواية ويعيد قراءة التراث المرتبط بها ، ان يجعل من مسألة التراث همـا اساسيا له ونقطة مركزية ، بحيث تصبح المسائل النظرية للادب هي المسائل النظرية للتراث الادبي نفسه ٠ فالجديد و « الايجابي » في الادب والحياة يتحرك في جدته وايجابيته كاستمرار للماضي او كاستمرار لشكل متميز من الماضي ٠ وديالكتيك الجديد والقديم في شكله المتميز هذا يتجسد في أعمال مكسيم غوركي التي تتابع شكلا من الماضي يفعل في الحاضر ويفعل فيه الحاضر وفقا لآفاق الواقعية الاشتراكية ٠

السؤال الروائي وحدود الاجابة

كرس جورج لوكاش كل عمره الخصب والمديد لبناء نظرية جمالية شاملة تطرح السؤال الجمالي وتمنحه اجابة عقلانية ٠ وفي الصرح النظري ــ الجمالي الذي بناه لوكاش كان للرواية مكان امثل ، كيف لا وهي المعضلة التي دار حولها وقاربها مدة خمسين عاما ، قاربها وعاشها في دراساته في الادب الالماني والروسي والفرنسي والافريقي ايضا (الطفل

الاسود ـ كاميرالاي) ٠ مع ذلك يمكن أن نقول ان الخصب التطبيقي في عمل لوكاش لم يتضمن دائما خصبا وتطورا نظريا موازيا ، فقد بقي لوكاش اسير نظريته اللامنجزة التي وضعها في عام ١٩٣٥ ٠ فما هي حدود هذه النظرية ؟

اقام لوكاش نظريته في الرواية معتمدا ماركسية محددة في زمانها التاريخي وزمانها النظري ٠ زمانها التاريخي كان زمن الستالينية الذي يجعل من الفرضية قانونا ومن النظرية معتقدا جامدا ومن التفكير النظري زندقة ، ولا يسمح بالتالي الا بأطروحات رهينة ومرهونة أي ناقصة ومساومة ٠ أما زمانها النظري فكان زمن نظرية محدودة التطور تتحرك بتراث ماركس وانجلز ولينين الذي لم يجب على كل الاسئلة ٠ واذا كانت الماركسية كنظرية قد تركت جملة من الاسئلة الاساسية بلا اجابة فان الميدان الذي ولجه لوكاش كان اكثر فقرا وتعقيدا ٠ فنظرية الفن الماركسية كانت هشة ان لم تكن غائبة ، وكان على لوكاش ـ ذلك الباحث المتوحد ـ ان يعود الى شذرات ماركس وانجلز وان يعيد النظر في كتابات فرانز مهرنج وبليخانوف ٠ ومن ذلك الارث الحاصر والمحاصر شرع لوكاش ذو الثقافة الموسوعية في بناء نظرية الرواية ، ورجع الى حيث ينبغي الرجوع ، او الى المفكر الذي لم يتحرر منه لوكاش ابدا ، رجع الى هيجل ، وحاول لوكاش الماركسي ان يضع نظرية هيجل في الرواية على قدميها ، اي حاول ان يقوم بقراءة ماركسية لنظرية هيجل المثالية ويعيد انتاجها ماديا بحيث تفارق حقلها المثالي وتنتمي الى النظرية الماركسية ٠ لكن قراءة لوكاش الماركسية لهيجل لم تتم ولم يكن باستطاعتها أن تتم الا وفقا لشكل الفكر الماركسي المهيمن في زمانها ٠ لهذا كان من الطبيعي ان ينسى لوكاش زمن القطع الذي يحكم علاقة الماركسية بالهيجيلية ، فقرأ هيجل كاستمرار لماركس ، واعتبر مخطوطات ١٨٤٤ مرجعا رئيسيا ٠

استعاد لوكاش هيجل ماركسيا ، اخذ منه اشياء وحذف اشياء اخرى ، وعلى الرغم من هذه الاستعادة الماركسية ، فان لوكاش قد اخذ نظرية هيجل بخطها العام مضيفا اليها مضمونا ماديا ومنتجا في التحديد الاخير « نظرية هيجيلية ـ ماركسية » تتعايش فيها عناصر نظرية لا متجانسة محكومة بعنصر مادي مسيطر ٠ وكما قال الناقد الفرنسي كلود بريفو Claude Prévost فان « تأثر » لوكاش بهيجيل في نظرية الرواية يتجلى عند مقارنة نص الاول بنص الثاني (٤) ، فلوكاش يكثر من الاستشهاد بهيجل ويستعير مفرداته وجمله ، وتتمحور هذه الاستعارة حول نصين اساسيين لهيجل، كما يستعين لوكاش بنص ثالث دون ان يشير اليه ، ويشكل هذا « النص الصامت » مفتاح نظرية لوكاش ٠ وفي الحقيقة فان لوكاش يأخذ من هيجل تعريف الرواية وتعريف الملحمة وشكل العلاقة بينهما ٠ واذا اقتربنا من المقارنة اكثر نجد ان لوكاش يأخذ تعريفات هيجل الاساسية (الرواية هي الملحمة البرجوازية العصرية ٠ الرواية هي امتداد الملحمة في زمن آخر ٠ الرواية هي ملحمة الكون المكسور الذي اجتاحه نثر الحياة اليومية ٠٠٠٠) ٠ لكن لوكاش المعروف برهافته النظرية لا يقف صامتا امام هيجل ، فهو يقرأ هيجل بعد قراءة بعض نصوص انجلز وماركس وخاصة « مقدمة في نقد الاقتصاد السياسي » ٠ لذلك فهو يأخذ تعريف الرواية والملحمة ، لكنه يرفض المصالحة التي يقترحها هيجل بين زمن الشعر وزمن النثر ، بين البطل والعالم ، كما يرفض مفهوم البطل الايجابي المستسلم اليائس كما يقدمه هيجل ٠

ومهما يكن من أمر فان ماركسية لوكاش في « نظرية الرواية » تبقى محاصرة ـ « الذوق » الفلسفي الكلاسيكي ٠ ويتجلى هذا الحصار النظري او هذه النظرية المادية

المقتحمة مثاليا في مفهوم النسق الفلسفي وصنمية المثال المطلق ٠٠فلوكاش لا يقدم شرحا فنيا للرواية بقدر ما يقدم تأويلا فلسفيا لتكوين الرواية ٠ ويمكن ان نقول ان لوكاش يقدم تحليلا تاريخيا ـ نسقيا او تكوينيا ـ نسقيا للرواية ، فهو لا يدرس حركة الرواية وتطورها كنوع ادبي متميز بل يدرسها كقناع متميز لحركة اخرى تتجاوزها باستمرار ، اي انه لا يدرس الرواية من داخلها بل من خارجها مذيبا تاريخ الادب في تاريخ الاقتصاد ٠

ان مقاربة نظرية لمنهج لوكاش في دراسة الرواية تظهر لنا انه يدرس الرواية وتطورها بالاعتماد على عنصرين نظريين ، اولهما مفهوم تطور القوى المنتجة ، وثانيهما مقولة الانسان في سموه وانحطاطه ، اي ان لوكاش في دراسته للرواية كنوع ادبي متميز يسقط في ثنائية : الاقتصادوية ـ الانسانوية / économisme/humanisme ٠ وهنا لا بد لنا من التذكير بموقف ألتوسير Althusser الذي نعت الممارسة الستالينية كلها بالاقتصادوية ـ الانسانوية ٠ فهذه الثنائية عندما تتكلم عن الاقتصاد ترفع راية الانسان المطلق ، وعندما تمجد الانسان الشامل تستعمل لغة الاقتصاد (٥) ٠ فالانسانوية لا تتحدث عن الصراع الطبقي والغائه عن طريق تحرر الطبقة العاملة ، بل عن الدفاع عن حقوق الانسان ، عن الحرية والعدالة ، عن تفتح الشخصية الانسانية الكاملة ، اما الاقتصادوية فلا تلقي الضوء على علاقات الانتاج والصراع الطبقي بقدر اهتمامها بتطور القوى المنتجة والانتاجية ودور الآلة في العمل ٠ والسؤال الذي يطرح نفسه الآن هو التالي : تحت اي شكل تتجلى الثنائية السابقة في نظرية لوكاش ؟٠ والحقيقة ان الجواب لا يقفز امام العين عاريا منذ البداية ، بل يجب البحث عنه مليا واخراجه من بين سطور لوكاش المثقلة بكثافة نظرية لا مراء فيها ٠ تتجلى النزعة الاقتصادوية فيالايماءات او التصريحات التالية :

أ ـ عدم دراسة الرواية في ديالكتيكها الخاص بها ، بل تقطيعها الى أطوار روائية مختلفة تتوافق مع اطوار تطور القوى المنتجة ، بحيث يصبح ديالكتيك الرواية هو ديالكتيك القوى المنتجة عينها ٠ وهذا ما جعل لوكاش يقسم « حياة الرواية » الى خمسة اطوار تتوافق مع الحركة الاقتصادية للمجتمع الرأسمالي ٠

ب ـ ان ربط الادبي بالاقتصادي بشكل ميكانيكي جعل الاول يفقد حركته ويتحول الى مجرد ملحق بسيط للاول ، لهذا يربط لوكاش وبشكل وثيق بين انحطاط الرأسمالية وانحطاط الرواية البرجوازية ٠ بل يذهب لوكاش اكثر من ذلك ٠ فالرواية في تعريفه هي الشكل الادبي النموذجي للمجتمع البرجوازي ، وهذاصحيح تاريخيا ، لكن اقتصادويته تجعله يصل الى نتائج مفرطة في ميكانيكيتها ، فهو مثلا يوازي بين الانحطاط الرأسمالي والانحطاط الروائي ، بل يرى ان الرواية تفارق نموذجها الاول بسبب هذا الانحطاط ، اي ان الرواية التي ولدت مع ولادة نمط الانتاج الرأسمالي تغرب او من المنطقي ان تغرب بغروبه ٠ ان لوكاش يماثل بين الادبي والاقتصادي في لحظة الميلاد ، ويماهي بين الادبي والاقتصادي لحظة الموت والغروب ٠ وعندما يصل الى مسألة محض فنية مثل تطور الشكل الروائي فيلحظة محددة تاريخيا فانه يدعو هذا التطور بانحلال الشكل الروائي ، اي انه يرجع من جديد فيحل الادبي في الاقتصادي ٠ لهذا كان على لوكاش الذي قبل ـ لم يكن باستطاعته الرفض علىأية حال ـ بالمقولة الستالينية عن انهيار الرأسمالية ان يطبق هذه المقولة السياسية الساذجة على الحقل الادبي ليثبت انهيار الشكل الروائي وتحلله في اعمال كافكا ، بروست ، وجيمس جويس !!

ج ـ في اسر اقتصادويته نسي لوكاش ان يدرس علاقة الاجناس الادبية ببعضها ، والاثر

المتبادل بينها ، وكيف يستحيل احدهـا من شكل الى آخر · وهو عندما يقـارن بين الرواية والملحمة ، فانه يقيم مقارنات جامدة بينهما ، فلا يرى الاشكال التي تربط الاولى بالثانية، ولا يتساءل عن حالة توسطية بينهما ، او عن علاقات هذين النوعين الادبيين بأشكـال ادبية اخرى مثل القصة القصيرة مثلا ·

اذا رجعنا الى الطرف الثاني من ثنائية لوكاش اي الانسانوية نجده في قلب النظرية ، يطرد المعيار الفني ويقيم مكانه أحكاما اخلاقية · فنهوض الرواية وصعودها ايجابيا يقترن بموقفها من الانسان ، وارتفاعها كعمل فني هو ارتفاعها كرسالة اخلاقية تدين البـؤس وتدافع عن مثل الانسان الكوني · ويبرز هذا المعيار الانسانوي في النقاط التالية :

أ ـ عندما يطري لوكاش سرفانتس ورابليه فانه لا يطري البنيان الفني لاعمالهما بـل تصديهما الشجاع لمخلفات البؤس الماضية وبوادر الشر الوليد ·

ب ـ يعتبر لوكاش ان مسار الرواية في ايجابيته ليس الا موقفها الايجابي من قضيـة الانسان ، بل يجنح الى القول ان تاريخ الرواية العظيم في المجتمع لبرجوازي هو تاريخ نضالها المستمر عن القيم الانسانية الشاملة · لكن المجتمع البرجوازي ـ كما نعلم ـ حطم نظاما انتاجيا تعسفيا ليقيم مكانه نظاما اكثر عسفا واستغلالا ، وهذا يعني حسب منطـق لوكاش ان تاريخ الرواية العظيم كان ومنذ البداية تاريخ الدفاع عن الانسان المستغـل · وهذا امر غير صحيح ، اذ أن الكثير من الروائيين العظام قامـوا بتمجيد المجتمـع البرجوازي وقيمه سواء كان ذلك في رواية روبنسون كروزو ام في رواية فاوست لغوته وفي أعمال كثيرة اخرى · وهنا لا يمكن الا أن نقول ان لوكاش لا ينسى روائية العمل الروائي فقط بل ينسى قانونا هاما من قوانين الديالكتيك الماركسي هو : **قانون التناقض** ·

جـ ـ عندما يعالج لوكاش الاشكال الادبية الحديثة لـدى بروست وكافكا وجويس لا يعالجها انطلاقامن حزمة التناقضات التي انتجتها بل انطلاقا من موقفها من الانسان ومن البطل الذي تتخذه محورا ، الامر الذي يقوده الى انكار كل التجديد الفني الذي تتضمنه ونعتها بالانحطاط ، اي انه يستعمل كلمة الانحطاط المشربة بالايديولوجيا الاخلاقية ليحاكم عملا فنيا لا تفهـم دلالتـه التاريخيـة وقيمتـه الفنيـة الا بعـد دراسة كـل التناقضـات الايديولوجية والاجتماعية واللغوية التي تعبر عن ذاتها فيه ·

عندما نقول ان دراسة لوكاش موسومة بثنائية اقتصادوية / انسانوية ، ينبغي علينـا ان نظهر الاثر النظري الناتج عن هذه الثنائية في ميدان دراسة الرواية · واذا نظرنـا الى العنصرين النظريين للثنائية نبصر بسهولة انهما الاقتصـاد والانسان ، لكن لوكاش لا يضيع ولا يمكن ان يضيـع بسهولة في متاهـة هذه الثنائيـة · هل يعني هذا ان استنـاد لوكاش الى الثنائية السابقة لم يؤثر في نظريته الفنية · الجواب لا يمكن ان يكـون الا نفيا · فعلى الرغم من جهد لوكاش لتقديم تحليل شامل للرواية في لحظاتها الاقتصاديـة والايديولوجية والفنية ، فان نظريته اضاعت شيئا ما او كادت ان تضيعه : **الاستقـلال الذاتي النسبي للعمل الروائي** (العمل الفني) · يمكن ان نتلمس هذا « الضياع » في اكثر من مكان :

ـ تعاطي لوكاش مع الرواية كشكل ادبي نقي أو كنوع ادبي ولد دفعة واحدة ، فلم ينظر الى الاشكال الانتقالية او الاشكال الهجينة التي تربط الرواية بالملحمة ، كما لم يتعـرض لاشكال روائية وادبية اخرى : القصص الشعبية ، الحكايات الدينية والفلسفية · لم يتكلـم

لوكاش كيف ظهرت بوادر الرواية في المجتمع ما قبل الرأسمالي · ومعنى لوكاش قد قدم دراسة تكوينية لتحولات الروائية فانه لم يقم بهذه الدراسة في اللحظات التاريخية لنشوء الرواية ، اي انه لم يظهر جملة الاسباب التي دعت الى نهوض الرواية وتراجع الملحمة ·

ـ اذا كان تاريخ الرواية يتمحور حول شكلية الانسان في شموليته وتفتحه او في اغترابه وتموضعه ، فكيف يشرح لوكاش ظهور الرواية البوليسية مثلا ؟·

ـ نرجع الآن الىشكل علاقة الادبي بالاقتصادي لدى لوكاش ، او بشكل اكثر دقة الى العلاقة بين الشكل الروائي ونمط الانتاج · اذا كانت الرواية هي النوع الادبي النموذجي المحايث للمجتمع البرجوازي فان جملة من الاسئلة تنهال علينا دون ان نجد لها جوابا : هل الرواية كنوع ادبي مقولة طبقية برجوازية ؟ اذا كان الجواب تأكيدا ، فكيف تستمر الرواية في المجتمع الاشتراكي ؟· سؤال آخر يطرح نفسه : كيف نفسر اعمال الروائيين الروس (تولستوي ، ديستويفسكي ، بوشكين ···) علما ان هذه الاعمال ظهرت في روسيا القيصرية التي لم تصل الى الثورة البرجوازية ؟· ان هذه الاسئلة لا تنفي نظرية لوكاش بل تشير فقط الى حدودها ومحدوديتها اي الى ضرورة تطويرها ·

اذا اردنا ان نعاين مفهوم الواقعية الاشتراكية لدى لوكاش ، نجد من جديد انه لا يفلت من آثار النزعة الانسانوية والاقتصادوية · فعلى الرغم من منهجه الماركسي فانه لا يدفع مفهوم الصراع الطبقي حتى مداه في تحليله الادبي · فلوكاش لا يبحث ولا ينادي بفن جديد بل يقيم انسانية عامة · لهذا يبقى المثال عنده في الماضي او في اللحظات التاريخية الادبية التي مجدت الانسان الشامل في زمن مضى ، فهو يرفع راية الملحمة والواقعية العظيمة ، يقول بملحمة المجتمع الاشتراكي الذي يعيد الى الانسان « جوهره » دون ان يلقي الضوء على الاسلوب الملحمي الجديد وخصائصه الفنية ، ويجعل من بلزاك مثالا دون ان يلمس مادية النص الادبي وتحدده الاجتماعي · وعندما نقول ان لوكاش لا يهتم بمفهوم الصراع الطبقي في الحقل الفني نعني بذلك انه لا يرى الصراع الطبقي في الشكل الفني والضرورة التاريخية لانجاز وخلق ثقافة بروليتارية جديدة تعبر عن لحظة جديدة في التاريخ · وهذا ما يجعل لوكاش يهتم بالمضمون الفني وموقفه من الانسان لا كلحظة ذات بعد طبقي بل كمقولة انسانية او انسانوية تتابع التراث الادبي الكوني · وهذا هو الموقف الذي يقود لوكاش الى اعتبار الواقعية الاشتراكية امتدادا للتراث الادبي « الايجابي » · واذا كان لوكاش يدافع عن قيم انسانية مستقبلية فان مثاله الجمالي يبقىدائما في الماضي أو كامتداد للماضي · ولا يخطىء بريشت عندما يقول : « ما يهم لوكاش هو المتعة الجمالية لا النضال ، الهروب والنجاة لا الهجوم والتقدم » (٦) · أما النزعة الاقتصادية فتبدو في كيفية ربطه لرواية الواقعية الاشتراكيةبنمط الانتاج الاشتراكي · فلوكاش يربط بين الروائي والاقتصادي دون ان يهتم بتحديد الحقل الثقافي العام الذي تلد وتتطور فيه « الرواية الاشتراكية » · فنمط الانتاج الاشتراكي لا يعطي مباشرة رواية ذات نمط جديد ، لانه لا يمكن اقامة تطابق كامل بين تطور الاقتصادي والايديولوجي ، فعلى الرغم من ان البنيان الفوقي « يتحدد » بالبنيان السفلي فان البنيان الاول يملك ايضا بنيانه السفلي الخاص به · بمعنى آخر ، تتطور الرواية وتتأثر بتطور العلاقات الانتاجية الا انه لا يمكن فهم هذا التطور دون الرجوع الى البنيان السفلي الروائي ، اي الحقل الثقافي العام الذي تتحرك فيه الرواية ، ونعني بهذا تاريخها وتقاليدها ومدى تطورها ···

يعتبر لوكاش رواية الواقعية الاشتراكية مرتبة ادبية تاريخية تتجاوز الرواية

البرجوازية ، هذا المعيار استنادا الى موقف اخلاقي ـ انساني دون ان يمايز فنيا بين الشكلين الروائيين ، ويمثل هذا الموقف المثالي ساعد لوكاش في ظهور واقعية اشتراكية « محدودة » لم تتجاوز الرواية البرجوازية بل تخلفت عنها احيانا ·

واخيرا فان نظرية لوكاش تبقى مادة علمية اساسية ، تطرح سؤالا معقدا وتحاول ان تجيب عليه ، فتصيب حينا وتخطىء حينا آخر · وفي هذه « الاصابة المحدودة » تفتح الطريق أمام جواب كامل للسؤال ·

الحواشي

(1) G. Lukàcs, *écrits de Moscou*, E. Sociales, 1974 .

ظهر مؤخرا في مجلة دراسات عربية ترجمة « الجزء الاول » تحت عنوان : « تقرير عن الرواية » · ثم ظهر الجزءان فيكتاب عن دار الطليعة ترجمة جورج طرابيشي ·

(2) *Problemi di teoria del Romonzo*, Einaudi, 1976, P. 7

(3) G. Lukacs, *La Theorie du Roman*, E. Gonthier, 1963, P. 170 - 175

(4) *écrits de Moscou*, P. 22 - 34 .

(5) Althusser, *Réponse A J . Lewis* Maspevo, P. 87 - 91 .

(6) B.Brecht, *Sur le réalisme*, L'ARCHIE, P. 89 .

الحوار الأخير

(مَع عز الدين قلق)

..على بابِ غرفتهِ قالَ لي :إنهم يقتلونَ بلا سببٍ .هل تحبُّ النبيذَ الفرنسيَّ ؟
والمرأةَ الشاردهْ

تطلَّعَ خلفَ الجهاتِ ، وحاولَ أن يفتحَ البابَ لكنّهُ خافَ أن يخرجوا من خزانتهِ فرجعنا الى المصعدِ .
الساعةُ الواحدهْ

وباريسُ نائمةٌ .من هنا يبدأ الليلُ .من أينَ ؟من شارعٍ واسعٍ لا يسيرُ عليه سواكَ ، ومن شجرٍ لا تراهُ ، ومن جسدٍ أبيضٍ يشتهيكَ ، ومن طلقةٍ قد تراكَ .

ـ أتقرأُ كافكا وتدخلُ في الليلِ ؟
كانَ زماناً جميلاً وكانتْ دمشقُ نهاياتِ أحلامنا
ذهبنا الى بردى وسألناهُ :
هل أنت نهرٌ أمِ آمرأةٌ زاهدهْ ؟
فلم يخرجونا الى النهر ثانيةً ...
صاحِ !هذي زنازيننا تملأُ الأرضَ من عهدِ عادٍ ، فأين البياضُ وأينَ السوادُ ؟

..وباريسُ نائمةٌ في الرسومِ على حافةِ السّيْنِ كُلُّ رواياتِ باريسَ غارقةٌ في

التلوث .وحدهُمُ العاشقونَ يظنونَ أن المياهَ مرايا فينتحرونْ ...
ـ أين ننامُ أخيراً ؟
على مقعدٍ في الحديقةِ
قلتُ :ألا يقتلون هنا ؟
قال لي :ربَّما يقتلون ، ولكنه تَعَبٌ لا يخافُ
وقلت :أيوجعُكَ الليلُ ؟
قال :وتوجعني الروحُ والنجمةُ البارِدهْ .

لعلَّ الفتى حجرٌ ..
من بعيدٍ يرى مُدُنَ البرتقالِ السياحيِّ
والكاهن العسكريِّ
ولكنه يجمع الملصقات ويكتب فوق بقايا السجائر آراءهُ في الغزاةِ الذين اذا شاهدوا مُدُناً هدموها بأسمائهم واستراحوا على العشبِ .
قالَ :لماذا تكون الثقافةُ ظلَّ الجنودِ على ساحلِ الأبيضِ المتوسطِ؟
قلتُ :وخادمةً للبلاطِ وللفئة الزائدهْ
..قد اعترفوا أنهم قتلوني
ولكنهم عانقوني طويلا
ودسّوا مكان الرصاصةِ عشرين ألف فرنكٍ مكافأةً للخطابِ الذي سوف أُقنعُ فيه اليسارَ الفرنسيَّ أن السجونَ على ضفةِ النهر مستشفياتٌ
وأنَّ دمي مائدهْ .

وكان صديقي يطيرُ
ويلعب مثل الفراشة حول دمٍ
ظنَّهُ زهرةً ؛
كان مستسلما

للعيون التي حفظتْ ظلَّهُ ،
وكان يرى ما تراه العيون التي حفظت ظلَّهُ ،
كان مزدحما
بالأزقة والذاهبين الى السجن والسينما
والليالي التي امتلأث بالليالي
وباللغةِ الفاسدهْ .
وكان يودِّعني كلما جاءني ضاحكاً
ويراني وراء جنازتِهِ
فيطلّ من النعشِ :
هل تؤمن الآن أنهمُ يقتلون بلا سببٍ ؟
قلتُ :مَنْ هُمْ ؟
فقالَ :الذين اذا شاهدوا حُلُما
أعدُّوا له القبرَ والزهرَ والشاهدهْ .

..وكان يحبُّ وينسى
ويسألني دائماً :يا صديقي لماذا أُحبُّ وأنسى التي سأحبُّ ، ونبقى غريبين في مصعدٍ ينظران الى الساعةِ الجامدهْ ؟
يحبُّ وينسى .ويذكر شكل النباتات حول الدروب التي خرجتْ من شمالِ فلسطين في شهر مايو ولم ترجعِ
آلأغنياتُ التي ودَّعتْ نازحا
والأغاني التي استقبلتْ فاتحا
تتشابهُ ،
قالَ :أفكَّرتَ في الانتحار قليلاً ؟
نعمْ
ألأنَّ الرفاقَ يخونون مثل الغدير

لإنَّ الرفاق يمرّون كالساقيهْ ؟
قلتُ :كلا !أينتحر المرء من أجل جُمّيزةٍ هامدهْ ؟
قال :كلا
أأدركتَ أنّا نمرُّ على الأرض ظلاً
وجسمك ليس نحاساً ليحمل هذا الزمان
وقال :أتذكرُ منذ ثلاثين عاماً ...؟
وأذكر كنتُ أمدُّ يدي في بياض النهار
وأنتشلُ القلب من قطّة تتسلى
بما يترك الزائرون على الباب :أسرى وقتلى
فقلتُ :ومملكةُ الله أحلى .
وقال :أفكَّرتَ بالانتحار كأبناءِ جيلك ؟
قلتُ :وكنتُ كأبناء جيلي أُحبُّ فتاةً من الموجِ
كان المساء جريحاً بلا سببٍ واضحٍ تحت شرفتها الواعدهْ
وقفتُ وناديتُ .كان الصدى حجرا
فذهبت الى شاطيء البحر .ناديتُ .كان الصدى قمراً .فجلستُ على صخرةٍ في المياهِ وأعددت موتي فشاهدت وجهيَ في الماء ، خفتُ ، تراجعتُ ، ثم رجعتُ الى الماءِ
لكنهم أوقفونيَ في اللحظة الساجدهْ
وفي سجن عكّا القديم تعلَّمتُ كيف تصيرُ النساءُ وطنْ
ـ وأين الفتاة إذنْ !
فوق شرفتها
تحبُّ الأغاني وتنسى المغنّي
وتغزل موجتها العائدهْ .

..ويقفزُ فوق بلاطِ الشوارعِ
مثل طيورٍ مُبَلَّلة بالزوابعِ

والبرقِ ،
يرمي لنا ذكريات عن الشرق :
أمي تحبُّ دمشق .
أبي يتمنَّى الرجوعَ الى حجرٍ نام في صدرِهِ .
وأختي تظنُّ العراق بعيداً
وتحسب أن السواد ليالي
فأخبرتُها أنه شجرٌ في الغروبِ .
وتؤمن أن دمي يكسر السيفَ ..والقاعدهْ .

ـ أمِنْ جبلٍ حوَّلتْهُ الليالي الى قُبَلٍ
أنا ؟
هل تمدَّدتَ تحت الصنوبر ؟
خمسةَ عشرَ شتاءً
وبلَّلكَ الماءُ ؟
بلّلني فذهبتُ الى الراهبِ الارثوذكسيّ .صلَّى أمامي وصلَّى لأجلي
وكان جنودُ المظلاَّتِ ظلّي
فلم يستطيعوا دخولَ الكنيسةِ ...
آهِ على جبلٍ يتشعَّب في جسدي كالشعيرات ، مليونُ رَحْمٍ يُصلِّي لميلادنا يا صديقي
ولا تلدُ الوالده
ـ أكنتَ تغنِّي كثيراً لها
من هي ؟
ـ سَمِّها ما تشاءُ :النساءَ ، المرايا ، الكلامَ ، البلاد ، اتحادَ العصافير في القمح ، أُمَّ الخلايا ، وأوَّلَ موجٍ تشرَّد في البرِّ ...

..مستسلماً للتداعي رأى قلبهُ حبَّةً من عنبْ

رأى قلبه غيمةً فوق حقل الذهبْ

وتابعَ غَسْلَ الحقولِ من الحشراتِ الصغيرةِ ، ثم تساءل :كيف يصير المغنّون أُغنيةً عندما يعرفون النساءَ وينسون ؟.كُنَّا نغنِّي معاً للغموض الذي لَفَّنا :في الممرِّ الصغير تنامينَ وحدكِ بين ذراعيك وحدكِ عُشَّاقُكِ اقتربوا من خناجرهم في الممر الصغير تنامين وحدكِ يلتمس البحر وُدَّكِ ينكسر البحر عندكِ عُشَّاقك ابتعدوا عن خناجرهم آهِ أيتها المرأةُ الحاملُ المرأةُ القاتلُ الأرضُ أصغرُ من صمتك المتواصِلِ لكنَّ بطنكِ أَصغرُ من طعنةٍ أو نشيدٍ سننشدُهُ في الممرِّ الصغير تنامين وَحدَكِ بيني وبينكِ وَحدكِ بين ذراعيكِ وحدكِ عشاقُكِ اقتربوا من خناجرهم آهِ أيتها المرأةُ الخالدهْ .

تُرى ، هل يحقُ لمثلك أن يتأمَّل لوحه ؟
وأن يتساءل عن مصدر اللهِ
أو يجد الفَرْقَ بين الحمام ومنديل أمٍّ تودِّعُ ؟
هل نستطيع التجوُّلَ في السان جرمان كالغرباءِ الذين يشمون أرض فرنسا من الجوِّ ؟
هل نستطيع الذهاب الى البرجِ واللُّوفْرِ ؟
هل نستطيع مشاهدةَ المسرحيةِ دون تقمُّصِ أبطالها المتعبينْ ؟
لماذا نكونُ كما لا نكونْ ؟
أَلَمْ تجدِ امرأةً واحدهْ
تُمَشِّطُ شعركَ هذا الصباحَ
فترتاحُ للتعبِ الوثنيِّ
فلا يقتلونكَ حين تمرُّ
بلا حارسٍ أو لُغهْ
أَلم تجدِ امرأةً واحدهْ
تُطيلُ الصباحَ على الجسر ؟

قد يتعبون من الانتظارِ

وقد يذهبون الى نزهةٍ في حدائق فينسانْ
وقد يخجلون من الكلمات التي ستقول لها عن رحيلٍ بلا فائدهْ .

..يعرفُ أن الجنود يعودونَ
يعرفُ أن الحشائش سيِّدَةُ الأرضِ
لكنه يعبرُ النهرَ من أجل أن يعبرَ النهرَ
هل تعرف الضفَّةَ المشتهاه ؟
تماماً كما أعرفُ القلبَ أو أجهلُهْ
ولكنني سأطيعُ خطىً بدأتْ
وأحمل قلبي الى جرَسٍ يشتهيهِ
أطيعُ خطايَ وأحمل قلبي الى حَرَسٍ يشتهيهِ
على خطوةٍ صاعدهْ .

..يرى موتَهُ واقفاً بيننا فيدخِّنُ كي يُبعدَ الموتَ عنا قليلاً .يُصفِّرُ لحناً سريعاً ويطردُ عن معطفي نحلةً ، ويتابعُ :في شهر تموزَ تذهبُ باريسُ نحو الجنوبِ ، وقد يذهبُ القتلَهْ

يرى موتَهُ في النبيذِ فيهتف :سيدتي غيِّري قَدَحي .ويتابعُ :كانوا ورائيَ في معرضِ المُلْصقاتِ فأسندتُ نافذةً واستدرتُ وصافحتُهم واحداً واحداً ..

يلعبُ الموتُ ، يألفُهُ ، ويباريه .يعرفهُ جيداً ويعرفُ كُلَّ مزاياهُ ، يشرح أنواعه : طلقةٌ في الجبين فأسقط كالنسر فوق السفوحِ ؛

وقنبلةٌ تحت سيّارتي فتطيرُ ذراعٌ الى الشرفاتِ وتكسر آنية الزهر أو شاشة التلفزيونِ ؛

قنبلةٌ تحت طاولةٍ أو رصاصٌ على الظهر أو طلقةٌ تحت حنجرتي
هكذا الموت ، أبسطُ مما تظنُّ

أيوجعُ ؟
ـ حين يكون الفتى خائفا
هل تخافُ
ـ إذا جاءني زاحفا
وبطيئاً ، فقد أعرف القاتلا
وقد أعرف الطلقةَ الوافدهْ .

..على بابِ مكتبهِ شجرُ الكستناءِ
ومقهى صغيرُ
وقوسُ حمامْ .
يرى طالباً عربياً فيرمي عليه السلامْ
يردُّ بطيئاً
ويشرب قهوتَهُ .
يصعدُ السُلَّمَ الحجريً
سريعاً كعادته مثل طيرٍ يُبَلِّلهُ البرقُ .
يدخل غرفتهُ .يتأمَّلُ أوراقه والخريطةَ والشهداءَ الكثيرين فوقَ الجدارِ
ويقرأُ برقيَّةً من دمشق :« تعالَ مع الصيفِ يا ابني » ؛
وبرقيَّةً من بقيَّة بيروت :« شدِّدْ عليك الحراسة » .
لم يتساءلْ لماذا يريدون أن يقتلوه
ولم يتذكر بلاداً تنام على صُرَّة الله مثل المسدَّسِ ،
لكنهم أخبروهْ
أن صاحبَهُ الطالبَ العربي يريد مقابلة عاجلة
فألقى عليه تحيَّتهُ الشاردهْ
وردَّ بأقصرَ منها ..وبالطلقةِ القاتلَهْ
وعاد الى شجر الكستناءِ
ليشربَ قهوته الباردَهْ .

Palestine Affairs

No. 90, May 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعـــر: ٥ ل.ل. في لبـــنان
٦ ل.س. في سوريـــا
٦٥٠ فلســاً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولــة الامارات العربيـة
٦ ل.ل. في سائر الاقطـار العربيـة
٧٥٠ درهــماً في ج.ع.ل.

شؤون فلسطينية

٩١

حزيران (يونيو) ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش

سكرتير التحرير : الياس خوري

٩١ **حزيران (يونيو) ١٩٧٩**

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) ، رأس بيروت ـ لبنان ، ص·ب ١٦٩١
تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠ ·
برقيا : مرابحاث ، بيروت ·

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل·ل· في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل·ل· في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل·ل· في اوروبا ، ١٢٥ ل·ل· في بقية بلدان العالم ·

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل·ل· في جميع الدول غير العربية ·

الغلاف للفنانة
سامية الحلبي

المحتويات

الصفحة

الصفحة

تقارير

شؤون ادبية

حول المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية

المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية هي نتيجة لعاملين : قرار السادات بطرد الخبراء السوفيات من مصر، ونظرته للعلاقات بين مصر وسائر الاقطار العربية ·

ففيما يخص قراره بطرد الخبراء ، ما كان يمكن لمصر ان تبقى طويلا في حالة عداء مع اسرائيل وهي تعيش سياسيا واقتصاديا في عالم لا كلمة فيه ولا نفوذ الا للولايات المتحدة الاميركية ·

وقد اثبتت تجربة حرب عام ١٩٧٣ انه حتى الحرب الناجحة لا تلبث ان ترتد على صاحبها بالخسارة اذا هو لم يخرج بها عن نطاق السياسة الداخلية «للعالم الحر » ·

ذلك ان من يجعل نفسه جزءا من السياسة الداخلية لهذا العالم ، وهو ليس منه ، بل ضحية له ، يكتب بيده هزيمته ، خصوصا حين يكون خصمه اسرائيل، التي تشكل خرافة العالم الحر المقوم الاول لوجودها ·

ومعظم الذين يعيشون في اسرائيل ما جاؤوا اليها الا ليكونوا في حمى العالم الحر ، هم له ، وهو لهم ·

ويكفي ان ندرس علاقة اسرائيل بحركة كحركة دوبشيك حتى نتأكد ان الغرب كان وما يزال يحرص على تقديم اسرائيل كمثال لفكرة العالم الحر ، وواحدة من دولتين تعتبران نفسيهما ملجأ المهجرين على يد انظمة « الاستبداد »

و « الدكتاتورية » و « الاشتراكية » و « التخلف » ، الاولى الولايات المتحـــدة الاميركيــة والاخرى دولة الصهاينة ٠

وخطيئة السادات انه رفض لا تجربة عبد الناصر فقط ، بل تجارب الحركات الوطنية العربية كلها ، وهي تجارب علمتها استحالة التقدم نحو اي مكسب بغير الخروج من منطقة النفوذ الدولي الواحد ٠

ولقد كانت السمة الرئيسية لثورة عبد الناصر هي الانفلات من اسر « العالم الحر » الذي ليس فيه الا اميركا ، الى العالم الواسع الذي فيه اميركا وغيـــر اميركا ٠ ولم يكن الخيار الذي اتخذه الانتقال من نفوذ اميركا الى نفوذ الاتحاد السوفياتي ، وانما الخروج من دائرة النفوذ الواحد الى دنيا التناقضـــــات والمنافسات الدولية الحرة ٠

وقبل عبد الناصر ، كان الوطنيون العرب يعرفون بالتجربة مخاطر النفـــوذ الواحد ، حتى انهم كانوا يفضلون وجود جيشين محتلين علـــى وجـــود جيش واحـــد ٠

وتاريخ الاستقلال في سوريا ولبنان عام ١٩٤٣ يروي انه اتفق الانكليـــــز والفرنسيون مرة على خروج الجيش الانكليزي اولا ثم الجيش الفرنسي ، فطلب الحكم الوطني في كلا البلدين ان يبقى الانكليز مدة اضافية حتى يخرجوا مـــع الفرنسيين في موعد واحد ! اذ كانت الحكمة تقول : ان طريق الحرية ايســـر بوجود مستعمرين منها بوجود مستعمر واحد ٠

والحسين بن علي لم ينزل في ذاكرة العرب القومية كرمز للسياسي الفاشـــل (بدا في مكة عام ١٩١٦ كمنقذ وانتهى منفيا في قبرص) الا لانه حصر تعامله بدولة واحدة وعلق عليها كل اماله ٠

والسادات ، في المعاهدة المصرية الاسرائيلية هو حسين بن علي اخر ، مـــع فارق كبير هو ان الحسين لم يتخل عن العرب ، ولم ينفرد عنهم بصلـــح مـــع اسرائيل ، ولم يصف عن وعي ثورة وطنية قائمة ٠

لذلك تبدو المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية آتية الينا من ماض سحيـــق ٠٠٠ فهي بفكرتها واخراجها ونصوصها ليست من عالم فيه امم متحدة تجسد وجود فريق غير الولايات المتحدة في تقرير مصائر الشعوب ، وفيه جامعة عربية تجسد وجود غير مصر ٠

وهي من هذه الناحية عملية تشبه عمليات الاستعمار القديم في اكثر حالاتـــه تحررا من القيـــود ٠

وبهذا المعنى ، فالمعاهدة سقطة من الولايات المتحدة ايضا لا من حكم السادات فحسب ، وقد تراجعت بها عن اسلوبها في مواجهة الشعوب من ضمن منطق الشرعيات الدولية ، او من ضمن منطق الوفاق الدولي على الاقل ٠

بل انها كانت فيها اكثر صراحة في انكار منطق الشرائع من الاستعمار القديم نفسه ٠

ففي الاستعمار القديم ، كانت المعاهدة غير المتكافئة تعرض عادة مع الجهة التي تشكل طرف الصراع القوي وتدور على الموضوع الحقيقي موضوع الصراع ٠

اما في هذه المعاهدة فليس فيها اشارة الى منظمة التحرير ولا الى قضية فلسطين الا الاشارة الغامضة الى الحكم الذاتي الضائع الحدود بين البشر والحجر ٠

وقد كان كارتر في اول مراحل الحوار اكثر فلسطينية مما اصبح بعد المعاهدة ٠

وبينما كان الموضوع في البداية احتمال الاعتراف الاميركي بمنظمة التحرير، اذا هو في النهاية انكار اميركي واسرائيلي وعربي لهذه المنظمة ٠

والتفسير البديهي للتراجع الاميركي بين بدايات المعاهدة ونهايتها هو ان الولايات المتحدة كانت تتوقع درجة من التصلب المصري تفوق بكثير ما اظهره السادات ، وربما كانت تتوقع معارضة اوضح وافعل واكثر جدية ٠

فلما تبين لها ما تبين تجرأت على اعطاء المعاهدة الصورة التي اعطتها اياها٠

اما السادات فقد دخل مبادرته وهو يتحدث عن حقوق الفلسطينيين وانتهى منها وهو ينتظر المفاوض الاسرائيلي ليحدد معه اغرب مفهوم للحكم الذاتي عرفه تاريخ القانون الدستوري ٠

واغلب الظن ان هذا المفهوم سيتقلص ايضا ما دام الوضع المصري والعربي الذي اغرى كارتر بتقليص كمية « فلسطينيته » مستمرا ٠

لقد نادى السادات وهو يحضر لمبادرته باكثر من منطق سياسي جزئي وخاطيء ولكنه لو استطاع ان ينسجم حتى مع هذا القدر اليسير والناقص من المنطقية لاتى بمعاهدة اقل سوءا من المعاهدة الحالية ٠

اشاع عن نفسه انه عارض مبادرة روجز مرة اثناء وجود عبد الناصر في موسكو ، وعلل موقفه بان هذه المبادرة تعرض انهاء حالة العداء مع اسرائيل بدون اي مقابل ٠

فاذا المعاهدة تأتي بعد نصر ١٩٧٣ اسوأ من اتفاق معروض بعد هزيمة ١٩٦٧ ٠

وقال في فترة من فترات سابقة لحرب ١٩٧٣ وفي جلسة افتتاح للمجلس الوطني الفلسطيني : ان يدي ويد الفلسطينيين وحدهما في النار ، وان الفلسطينيين والمصريين هم العنصران المعنيان الاساسيان في القضية ، وانه بالتالي اذا تم تحصيل الحد الادنى المقبول من مطالب هذين العنصرين ، فالطريق الى السلام تصبح ممكنة السلوك ٠ وكان المفهوم من ذلك ان نصيب الفلسطينيين سيكون ، وفقا لمخططه ، دولة فلسطينية بقيادة منظمة التحرير ٠ وعلى الرغم مما في هذا المنطق من الافتئات على عروبة القضية ، وجد السادات بين العرب من يستصوب المنطق الشكلي الذي يطرحه او يرى افساح المجال امامه للتدليل على براعته في المناورة الدولية ، فجاءت المعاهدة انكارا كاملا لحقوق شعب فلسطين ٠

وبعد عام ١٩٧٣ ، قال ان يد مصر ستبقى في يد سوريا على طريق النضال العربي المشترك ، وان احدا من الفريقين لن يترك الاخر بعد ان قاتلا معا في الحرب ٠ وقال انه لن ينسى اخاه حافظ الاسد ٠ وظن البعض ان العلاقة المصرية السورية اصبحت حجر زاوية في استراتيجية السادات ، ورأوا في ذلك معلما لسياسة مصرية وفية على الاقل ٠ فجاءت المعاهدة تطعن اول ما تطعن سوريا وشريك الحرب ٠

وقال السادات : ان التضامن العربي كان سر الانتصار في حرب اكتوبر ولن يدع هذا السلاح يفلت من يده ، واعتبر نفسه رائدا في سياسة التفاهم مع الانظمة العربية ، وانه في ذلك نجح حيث فشل عبد الناصر ٠ فاذا هو يأتي بمعاهدة ينفرد بها عن كل العرب ، ويجابه بها جميع الانظمة ٠

وقال في نشرة اخرى ان دول المواجهة (اي مصر والاردن وسوريا ولبنان) ذات اوضاع متشابهة ومشاكل متشابهة وانها تعاني العوز والفقر والموت بينما الدول الاخرى تملك المال والغنى وراحة البال ٠ وفهم الناس من ذلك مع شيء من العطف احيانا انه سيعمل على اقامة جبهة من هذه الدول لاخذ الحق من القريب والبعيد ٠ فاذا حظ دول المجابهة منه كحظ غيرها ٠

واخيرا ، فشل السادات في ان يبقى الى جانبه اي عربي ، لانه ، فشل في ان ينسجم مع اي منطق سياسي نادى به ، واعجب في حينه هذا او ذاك من العرب٠

لكن يبقى ان السادات استطاع ان يعقد معاهدة خطيرة بعد ان وظف عند الشعب المصري لمصلحة اي سلم صورة مضخمة عن المساويء ونقاط الضعف واللامسؤولية والثروات المهدورة في الوطن العربي ، تماما كما فعل ويفعل الانعزاليون في لبنان ٠

٨

والسادات يراهن منذ مدة ، كأي حاكم وضع نفسه في وجه حركة التاريخ ، على القصور والنقص وانعدام المبادرة في قطاعات واسعة من العرب ، حكاما وقادة ساسة وفكر واحزابا ، ويراهن خصوصا على كل ذي مصلحة في هـــذه العاهات · فهؤلاء هم في النهاية اعوان له وحلفاء ·

والهرم الذي تحاول المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية اقامته في ارضنا واضح، فاميركا اقوى من الجميع ، واسرائيل اقوى من مصر وفلسطين ، والانظمـــة العربية اقوى من شعوبها ·

ومن اليوم ، لم يقم هذا الهرم بعد · لكنه اذا استطـــاع ان يكسب وقتا . فالنظام العربي الواحد قادم ، وهو الى حد ما كان موجودا باستمرار ، لا يغيب فترة الا ليعـود ·

والمخطط لهذه المعاهدة ان تكون القاعدة السياسية الخارجية لهذا النظـــام الواحـــد ·

محمود سويد

عن التغيير والتسوية : عود على بدء

هل كانت طريق التحرير والتقدم مفتوحة امام العالم العربي ، فجاء السادات واغلقها ؟

هل يشكل السادات نتوءا في وضع عربي سوي ؟

لم تكن الطريق العربية مشرعة امام حركة التحرير والتقدم ، بل كانت مقفلة مع السادات ، ولا تزال بدونه ، وان كان قد فتحها ـ من جانبه ـ على التفريط باهداف وطنية وقومية (حقوق الشعب الفلسطيني ـ الاستسلام للامبريالية والصهيونية) ٠

وليس السادات نتوءا ، بل هو محصلة عجز حركة التغيير التي تصدت لقيادة العالم العربي ، بعد هزيمة ١٩٤٨ ، عن ايجاد حلول فعلية لمشاكل هذا العالم ، على مختلف الصعد ٠

ان حجم الطاقة التي يوظفها العالم العربي في صراعه مع الامبريالية والصهيونية ، متمثلتين بالولايات المتحدة واسرائيل ، محدود جدا ، ومستنفد بكامله في معركة التسوية وتحسين شروطها ٠ وحجم هذه الطاقة ، بحديه الادنى والاقصى ، لا يكفي لاحداث اي تغيير نوعي في طبيعة المواجهة وابعادها ٠ ومن هنا كان حد المعركة ضد خط السادات ، وشعارها : الصمود والتصدي ٠ الصمود لتحسين شروط التسوية ، والتصدي للثغرة التي فتحها السادات والعمل لاغلاقها ٠

واذا كانت التسوية ، بهذا الشكل او ذاك ، وسواء تمت ام لم تتم ، هي افق هذه المرحلة العربية ، ذلك ان قوى وانظمة تحمل المهمات والشعارات وتتقدم لانجازها ، بامكاناتها ووسائلها ، بما يشبه الاحتكار ، ودونما حاجة او قدرة على توظيف مزيد من الطاقات العربية ٠

وهكذا تصبح لحركة التسوية دينامية خاصة بها ، او ـ اذا شئنا ـ دينامو خاص ، تحركه طاقة محدودة ، هي تلك التي تسمح الانظمة بتشغيلها ٠ اما « الاخرون » ـ وهم كثر ـ فيتابعون حركة التسوية من خارجها ، على الرغم من ان موضوعها هو مصيرهم هم بالذات ٠

هذه المعادلة هي التي تحكم العلم العربي ، مجتمعا وسياسة ، وتضعه على هامش معركة التطور والحضارة ، الى اجل غير معروف ٠

حركة التغيير : ما الذي تغير ؟

١ ـ منذ هزيمة الانظمة التقليدية (او المحافظة او الرجعية) عام ١٩٤٨ ، تصدت التيارات القومية لقيادة حركة التغيير في العالم العربي : وازدحمت الساحة العربية ، طوال ثلاثين عاما ، بمعارك وشعارات : الوحدة والحرية والاشتراكية ، بحسب اولويات مختلفة ، فلسطين ثم الوحدة ، او العكس ، الحزب العربي الواحد ام الاحزاب القطرية ، التحالف مع الغرب او مع الشرق ، او سلوك طريق الحياد الايجابي الخ ٠ وفي كل الاحوال ، كان النظام (العربي) والحليف (السوفياتي) البديل عن خط تعبئة الجماهير وتنظيمها وتسليحها لتشارك بفعالية في المعركة ٠

٢ ـ في حزيران ١٩٦٧ ، سددت الامبريالية ، بواسطة ذراعها الاسرائيلية القوية ، ضربة قاصمة لهيبة القيادات التغييرية ، باحتلال كل فلسطين واجزاء من ثلاثة اقطار عربية ، وتحطيم القوة العسكرية لهذه الاقطار ٠ ونال السوفيات نصيبهم من هذه الضربة ، فبهتت صورتهم كحليف استراتيجي للنضال العربي، في موازاة الحليف الستراتيجي الامبريالي لاسرائيل ٠ وكانت القيادات التغييرية معنية بتحميل الحليف السوفياتي جزءا من مسؤولية الهزيمة ، للتخفيف من مسؤوليتها هي ، وللاستمرار في استبعاد الخيار الشعبي او الجماهيري ٠

أ ـ لملم « التغييريون » اشلاءهم المبعثرة ونهضوا من وراء حركة المقاومة الفلسطينية لاستئناف المسيرة ٠ وتألقت المقاومة تحت شعار الكفاح الشعبي المسلح ، واستقطبت دعما عربيا وعالميا غذى نضالها طوال عشر سنوات ٠

ب ـ وتقدم « التقليديون » بزعامة السعودية ، لاحتلال موقع رئيسي في القيادة ، مستقوين بسلاح النفط ، وبالعلاقة « المميزة » مع الولايات المتحدة ،

طارحين امكان استعادة الارض المحتلة وحقوق الشعب الفلسطيني عن طريق هذه العلاقة ، وهم اولى من « التغييريين » بالحرص على استبعاد خط تعبئة الجماهير وتنظيمها ٠

انصرف عبد الناصر للاعداد لمواجهة جديدة مع اسرائيل ، يحقق فيها نصرا يمكنه من الجلوس الى طاولة المفاوضات وانتزاع اهداف المرحلة ٠ فلقد قبل بمشروع روجرز ، لكنه خاض حرب الاستنزاف ، وقطع شوطا في اعادة بناء الجيش من خلال تركيز العلاقة بالسوفيات من جهة ، والاصلاحات الداخلية من جهة ثانية ٠ وعلى الرغم من هزيمته عام ١٩٦٧ ، ظل عبد الناصر قائد معركة العرب القومية ، وكان على القوى المشاركةفيها، بمن فيها المقاومة الفلسطينية والتقليديون ، العمل في ظل قيادته ٠ وعندما غاب عبد الناصر ، كانت المقاومة تضمد جروحها بعد ضربة الاردن ، فتقدم انور السادات والتقليديون لوراثة زعامة شاغرة ٠

٣ ـ كانت حرب تشرين ١٩٧٣ ، في ملامحها الرئيسية ، هي الحرب التي اعد لها عبد الناصر ، لكن القيادة الجديدة عدلتاهدافها بما ينسجم ومخططاتها فقد خاض السادات الحرب بجيش عبد الناصر ، قبل ان تفرغه « الحركة ـ التصحيحية » التي كانت قد بدأت بطرد السوفيات من مصر ، واعادة النظر في الاصلاحات الناصرية الداخلية ٠

وبدلا من ان تكون حرب تشرين، بمؤشراتها الايجابية، حرب تصعيد لتصحيح ميزان القوى ، مسختها قيادة السادات والتقليديين الى حرب تحريك لدبلوماسية التسوية ، استخدم فيها دم المقاتلين العرب ، ونفط السعودية ، والبترو دولار العربي ، من اجل تحقيق المكاسب الهزيلة التي يظن السادات انه حققها في المعاهدة مع اسرائيل ٠

٤ ـ حتى اوائل ١٩٧٥ ، ظلت المقاومة الفلسطينية نتوءا بارزا في وضع عربي تجري تسويته ، فكانت حرب لبنان ٠

لم يكن بامكان المقاومة ان تلعب الدور القيادي الذي لعبه عبد الناصر بعد ١٩٦٧ : استخدام قوى مختلفة ، ابرزها الجيش النظامي ، في معركة تفرض على اسرائيل الاستجابة لشروط حل مقبول عربيا ٠ ذلك ان المقاومة ـ ببنيتها وظروفها ـ مثلت مشروعا قياديا مختلفا : فهي اما ان تتحول ، من خلال الممارسة الفعلية لحرب الشعب والكفاح المسلح ، الى ثورة شعبية ، تستوعب الامكانات الهائلة للشعب الفلسطيني بخاصة ، والشعب العربي بعامة ، وتفيد من الدعم الذي توفره لها حركة التحرر العالمية ، واما ان تلائم اساليب نضالها ، وتوظف الامكانات المحدودة التي تستخدمها ، في سبيل تحقيق هدف اقل طموحا : دخول نادي الانظمة والحصول على مقعد الى طاولة التسوية ٠

كانت الساحة اللبنانية ، على امتداد السنوات ١٩٧٥ ـ ١٩٧٨ ، مختبرا لتجربة لم يجر بعد سبر اغوارها ، وتحليل عناصرها ، واستخلاص نتائجها · فلقد اتفق المثقفون العرب ، تقريبا ، على ان ابرز الاسباب التي ادت الى فشل حركة التغيير العربية ، هي غياب الحزب احيانا ، وافتقاد الديمقراطية عموما ، واستبعاد الجماهير ولجمها دائما وابدا · لكن الساحة اللبنانية شهدت ، بشكل او بآخر ، كل هذه العناصر : كل القوى العربية من « تقليدية » و « تغييرية » كانت متواجدة ، ولا يستطيع اي طرف ادعاء ان لديه ما يقدمه او يعرضه او يقوله ولم يفعل · وكانت هناك احزاب وتنظيمات سلحت جماهيرها ، وكانت هناك سلطة منهارة تبحث عمن يلتقطها ، وكان هناك « شارع » فارغ يبحث عمن يملأه · ومع ذلك ، فقد ذهب الناس ، وعلى رأسهم الحركات « التغييرية » ، الى السلطة القديمة يتوسلونها العودة ، وظل « الشارع » فارغا تصفر في ارجائه رياح خريفية ، بينما تتساقط اوراق « التغييريين » وتذبل تجربتهم ·

اين يكمن الخلل في هذه التجربة الطويلة ، من استلام التيارات القومية للسلطة في بعض الاقطار ثم صعود المقاومة الفلسطينية ، وانتهاء بحرب لبنان ، حيث تحولت « غابة السلاح الوطني » الى « غابة من الفوضى المسلحة» بل العجز السياسي المسلح ؟ ·

أيكمن في غياب الممارسة الديمقراطية ، على كل صعيد ، وكأرقى تعبير حضاري بلغه عصرنا ، عن حق الشعوب في ان تتولى بنفسها شؤون تطورها السياسي والثقافي والاجتماعي ؟

ام يكمن في واقع التجزئة واختلاف مستويات تطور المجتمعات العربية ، اللذين يعيقان تقدم الامة ويبعثران طاقاتها ، ويوفران للامبريالية فرص عمل لا حصر لها في داخل هذه المجتمعات ؟

ام يكمن في الثروة النفطية التي تفتك بعنصري الانتاج والطاقة البشرية ، فبدلا من الانسان المنتج ، والمجتمع الذي يتقدم بتطور انتاجه ، على كل الصعد، يمتد سرطان النفط متجاوزا مجتمعات اقطاره الى كل المجتمعات العربية ، ليحول الانسان الى هامشي وطفيلي ، والمجتمع الى وحش استهلاكي ، لا يسهم ، بأي مقياس ، فيما ينفع الناس ويدفع قدما الحضارة البشرية ·

ام تكون هذه كلها ، وغيرها كثير ، عوامل مجتمعة ومتضافرة ، تشد مجتمعاتنا العربية الى الوراء ، فكأنها فقدت ، دون امل ، القدرة على الامساك بزمام امرها والسيطرة على امكاناتها الهائلة وزجها بكاملها في معركة تقدمها وتحررها ؟

من يملك القدرة على اختراق هذا الليل الذي يلف العالم العربي ، ويخنق انفاسه ، ويبدد طاقاته ؟

اية حركة تغييرية تخرج الانسان العربي من النفق المظلم الذي يمتد كصحراء مجدبة لا نهاية لها ؟

أعلينا ان ننتظر انتهاء هذه اللعنة النفطية التي شوهت حياتنا ، فيعود الانسان العربي الى العمل ، انسانا سويا ومعافى ؟

لقد زججنا في لعبة حلزونية ، ندور في متاهاتها كفأر بافلوف ، حتى الاعياء، ولا مخرج من دهاليزها الا باب « التسوية » ٠

ليست هذه دعوة الى الانصراف عن الاهتمام بموضوع التسوية ، لمجرد اننا عاجزون عن التأثير في مسيرتها ، او لان للتسوية معارضين من داخل اللعبة او من خارجها ، يتولون شأنها ، بل هي دعوة الى رفض هذا الاستقطاب الذي يأسرنا ضمن اسواره : لا صوت يعلو فوق صوت المعركة ٠ التضامن العربي امضى سلاح في المعركة ٠ النفط سلاح في المعركة ٠ كسب الناخب الاميركي سلاح في المعركة ٠ دعم اوروبا الغربية سلاح في المعركة ٠ التحالف مع السوفيات سلاح في المعركة ٠

والمعركة الاخرى ؟ معركة الانسان العربي : حرياته وسجونه ، ديمقراطيته وقمعه ، انتاجه وتخلفه ، بؤسه وتقدمه ٠ هذه المعركة ، من يخوضها ؟ اهي مؤجلة حتى انتهاء الصراع بوجهه الخارجي ؟ او ليس الانتصار فيها شرطا للانتصار في ذلك الصراع ؟ ام ترانا نضيف معركة لفظية اخرى ، الى تلك المعارك التي دوختنا باولوياتها المتداخلة : الوحدة والتحرير والاشتراكية وفلسطين ؟

التسوية ممكنة ـ التسوية مستحيلة

١ ـ لقد بدا لنا في وقت سابق ان التسوية مستحيلة بسبب الفرق الشاسع بين الحدين الادنيين لكل من مشروعي التسوية العربي والاسرائيلي ٠ لكن السادات كسر الحد الادنى ليلتقي بالمشروع الاسرائيلي على ارضه وبشروطه ٠

والمأزق الذي تواجهه التسوية الان ، وهي عالقة في الفخ الفلسطيني ، يغري بالمراهنة ، من جديد ، على استحالتها ٠ لكن السادات ماثل ، عظة لمن يريد الاتعاظ !

٢ ـ تملك عملية التسوية دينامية خاصة بها تسمح لها بالاستمرار في طرح الخيارات والبدائل ، التي يتم تغليب هذه او تلك منها ، في ضوء حرب المواقع ، والمعارك الجزئية التي تقوي هذا الطرف او ذاك ، او تضعفه ٠ وتحافظ

الاطراف على قواعد اللعب وشروطه ولا تتجاوزها ما دامت غير مهددة باخراجها من اللعبة · ويكفي ان نعرض ، فيما يلي ، سيناريو واحدا من البدائل الاميركية على سبيل المثـال لا الحصر :

أ ـ يقتحم بيغن ـ كما هو جار حاليا ـ ساحة الاطراف الاخرى ، وهو مسلح بالمعاهدة مع مصر ، وبدعم اميركي محسوب جيدا ، في ضوء سقوط نظـام الشاه في ايران ، واضطرار الولايات المتحدة لان تتولى بنفسها ومباشرة ترتيب شؤون الخليـج ·

ب ـ يجري العمل لاعادة العلاقات السعودية ـ الاميركية ، والاردنيـة ـ الاميركية ، الى سابق صفائها ، على اساس الوعد باستغلال فترة مفاوضـات الحكم الذاتي في المناطق المحتلة (اواخر ايار ١٩٧٩ ـ اواخر ايار ١٩٨٠) لتذليل العقبات الاسرائيلية (والعربية) وانتزاع الحل المنشود · ثم يعاد النظر في الموقف العربي من السادات ، بعد ان يبدي تصلبا في مفاوضات الحكـم الذاتي ، واضعا (في الشكل) المعاهدة على حافة الانهيار ، والولايات المتحـدة امام مسؤوليتها كشريك فعلي !

جـ ـ تنهمك الاطراف العربية في ترتيب اوضاع البيت اللبناني بعد استفحـال خطر صهينته ، ثم تنقض العصا الاسرائيلية الغليظة على المقاومة الفلسطينيـة في جنوب لبنان ، بينما تفتح لها الولايات المتحدة نافذة كي تعبر منها ، منزوعة السلاح ، الى الاردن ، لتشارك الملك حسين في صيغة ما للتسوية على الجبهـة الفلسطينية ·

٣ ـ وثمة بدائل اخرى عديدة ، من داخل اللعبة ومن خارجها ، تعطـي عملية التسوية مدى زمنيا تتحرك فيه بتوازنات مختلفة ، كانتظار نتائج المفاوضات المصرية ـ الاسرائيلية على الحكم الذاتي ، حتى اذا ما فشلت (وهو امر مؤكد تقريبا) بعد سنة ، يكون موعد الانتخابات الاميركية قد اقترب ، ويليه موعـد الانتخابات الاسرائيلية ، اي ان هذا المدى الزمني قد يستمر الى ما بعد ١٩٨١· وتمني الولايات المتحدة ، في هذا الوقت ، الجانب العربي ، بتغيير في الحكـم الاسرائيلي ، يستجيب لتحقيق تسوية مقبولة ·

٤ ـ وهكذا بامكان الولايات المتحدة الاستمرار في قيادة عملية التسويـة من خلال الاوراق المهمة التي تسيطر عليها في مجالات عديـدة ، وبامكـان اسرائيل الاستمرار في الابتزاز بعد صفقة عادت عليها بربح وفير ، وبامكـان الانظمة العربية الاستمرار في المراهنة على الموقف الاميركي والتوازن الدولـي ، وبامكان المقاومة الفلسطينية الاستمرارفي القبض على عدد من الخيارات ، مـن خلال الموقع القوي الذي تشغله في الساحتين اللبنانية والعربية ، وبامكـان

التقدميين العرب المراهنة على نهوض الحركة الوطنية المصرية للاطاحة بنظـــام السادات ، شرط ان يتمكن النظام الايراني الجديد من التماسك ولعب دور فعال في المنطقة ، وشرط ان تتمكن الانظمة العربية المعارضة لخط السادات ، مـــن الصمود فعلا في مواقعها ، ثم التصدي بنجاح لهذا الخط ٠ ولعل هذا الخيـار الاخير وحده قادر على اخراج المنطقة من دهاليز بافلوف الحلزونية الى احتمالات ابعد من صورة التسوية البائسة التي تمليها ظروف عربية اشد بؤسا ٠

لكن التسوية ، جاءت ام لم تجيء ، تملأ اشرعة هذه المرحلة ، والى ان يبزغ فجر تغييري آخر ٠

حازم صاغية

المشروع الإسرائيلي وآفاق المرحلة القوميّة
ملاحظات حول انهيار الطوائف

نظر التيار الوطني والتقدمي في لبنان الى المسألة الطائفية ، بوصفها واحدا من اثنين :

ـ اما انها ظاهرة لا تاريخية ، وسابقة على وجود الامبرياليات واشتمال جبل لبنان بالعلاقات الرأسمالية ·· وهذه النظرة تتضمن تمجيدا لعالم الطوائف وحرصا على لبنان ـ الطوائف مع تخفيف الغلبة فيه ·

ـ واما ان الطائفية لا تكمن في جوهر الاساس الاقتصادي ، بل هي تظهر على الصعيد الفوقي لاقتصاد سابق على الرأسمالية · وما محاولة احيائها مع تقدم الرأسمالية الا من قبيل اطالة عمر الاستغلال والعمل على تقنيعه ·· ولان النظرة الى التاريخ نظرة تفاؤلية، فالمحاولة الطائفية هذه هي كاحياء العظام وهي رميم·

والنظرتان بمعزل عن رغبتهما ، تفصلان لبنان وطوائفه عن سياق تاريخي محدد ، فيغيب الافق القومي في حل المسألة الطائفية عن الاولى ، ويحضر لبنان في النظرة الثانية ، لا بوصفه نتاجا لمشروع تجزئة امبريالي ، بل بوصفه تشكيلة اجتماعية مكتملة تنتظر تصفية رواسب الاقطاع والانتقال الكامل الى العلاقات الرأسمالية ·

ومع احتدام المعركة القومية وتقدم المشروع الاسرائيلي الدعم بمعاهدة الصلح المنفرد ، يطرح على النظرة الاولى سؤال محدد : هل بالامكان اعادة تركيب لبنان الطوائف ، لبنان الميثاق ؟ ويطرح على الثاني سؤال محدد آخر : هل النمو الرأسمالي هو الذي يقصي الطائفية والوعي الطائفي ، ام المعركة القومية

هي التي تقوم بهذه المهمة ؟ وبالتالي : كيف نرى الى العلاقة بين المسألة الطائفية والمسألة القومية ؟

وبين هاتين النظرتين وعن طريق المزج بينهما تكونت نظرة ثالثة تعتمد « الطائفية » و « الطبقة » معا في تحليل الوضع اللبناني ، فتراوح بين لبنانية سنية ترث الزعامات الاسلامية التقليدية ، وبحث عن « الاستثناءات » « الديمقراطية » في الطوائف ، وفي الحالتين تؤكد لبنانيتها ، بعيدا عن مؤثرات المعركة القومية ٠ لكن اكتشاف الطوائف الذي عبر عن حاجة ما للانفتاح على المسلمين ، جاء على العموم متأخرا جدا ٠ اذ المطلوب اليوم هو اكتشاف آلية انقراض الطوائف في اتصال ذلك بالمسألة القومية ٠

الطائفية والرأسمالية والتجزئة

ليس التخلف عن الرأسمالية هو الذي يفسر الطوائف ، بل الرأسمالية التابعة هي التي تفسرها ، في آلية سيرها وتعقيداته ، بعد ضرب الانتاج المحلي والشكل السياسي الممثل بالسلطنة العثمانية ٠

والعلة الاولى التي ننطلق منها هي الطبيعة التبعية لرأس المال في الاطراف٠ ولبنانيا بالتحديد يمكننا الاشارة الى نمو التبعية بما هي خط مواز لولادة الطوائف بوصف تلك الطوائف جزءا من الواقع المادي وليس كجزء من البنى الفوقية ٠

– منذ البدايات الرأسمالية الاولى ، لم تكن مراكمات « الطبقة الوسطى » المارونية التي صعدت في القرن الماضي ، هي التي تمول اقتصاد الحرير وعملية تصنيعه ، بل قام رأس المال الفرنسي بهذه المهمة ٠٠ أي نشأت المارونية السياسية الجبلية ونشأ معها الارتباط العضوي برأس المال المالي العالمي (وكان الارتباط الثقافي والديني قد سبق ذلك وتلاه) ٠ وترتب على هذا ، في امتداده اللبناني ، استحالة ان ينشأ في لبنان « انتاج » مسيطر عليه من رأس المال المالي بعد ان تحطم الانتاج المحلي ٠ ذلك ان رأس المال العالمي هذا لا ينمي ، بالتعريف، مصادر داخلية لرأس المال ٠٠ ناهيك بحدودية السوق اللبنانية اصلا ٠

– وفي عملية التداول والرواج ، لا يتم انتاج لفائض القيمة ، اي لا يتم تكديح كامل وانقطاع بين المنتج ووسائل انتاجه ٠ بل يتم تحصيل نسبة من الربح كامنة في السلع المتداولة ٠٠ وهكذا ففائض القيمة لا ينجم عن العمل ، بل عن مرور السلع والتبادل والرواج (الامر الذي يعني ان التحول الى اقتصاد نقدي لا يعمل هنا على فرز واضح على ارضية طبقية) ٠ ان رأس المال لا يتحكم بالانتاج، بل يقتطع فائض القيمة في ظل تقاسم الريوع بين المركز ووسطائه في الطرف

التابع · ويترتب على هذا حالة مشابهة لما يصفه سمير امين بقوله : « حيازة فائض ··· مشروط اذن بظروف خارجة عن سيطرة المجتمع (···) وهكذا يظل المجتمع عبارة عن تجمع مناطق ليست مندمجة ببعضها البعض الى درجة كافية لكي تصبح قومية » ·

الطوائف والرأسمالية

ـ ان اقتطاع الفائض من العملية التجارية نفسها هو الوجه الداخلي ، لارتباط اللبنانيين بشكل استثنائي بمصادر التراكم الخارجي وسوق العمل العالمية (ظاهرة الهجرة) · ولما كان العالم العربي هو المتلقي الاول للخدمات اللبنانية، فان التبعية العربية للامبريالية هي شرط لا مفر منه لنمو اقتصاد التبعيةاللبناني·

ـ بنهاية الشهابية وتجربتها ثبت وهم اقامة اقتصاد متماسك على قاعدة سيطرة رأس المال التجاري ، وجعل العلاقات النقدية تطرد الانعزال السياسي المؤسس على الطوائف والمناطق ·· وفي الانفجارات ترحل الدولة والبرلمان، بما هي الاولى حالة ضبط للطوائف وبما هو الثاني اطار لتنظيم عملها ، فالنظام الرأسمالي الرواجي القائم يقدم للطائفة اساسها المادي بوصفها « «علاقة قرابة تضطلع بعلاقة توزيع » ، ويعيد انتاجها مع اعادة انتاج نفسه ·

وتشير دراسة خالد جابر [السلطة والتوازن في لبنان · شؤون فلسطينية ٥٠ ـ ٥١] الى الانتقال نحو « الطائفة » بما يلي : « لقد كانت مؤشرات انهيار السلطنة العثمانية امام الهجمة الاستعمارية الغربية تتلخص في الجبل بعاملين رئيسيين :

١ ـ دخول الزراعة الاحادية (التوت ـ الحرير) المرتبطة مباشرة بالسوق الرأسمالية العالمية · وما يستتبع ذلك من ضرب اسس الملكية القديمة وربطها بالتجارة والكوميسيون ·

٢ ـ توسع بيروت بوصفها مرفأ عملية التصدير والاستيراد · استتبع هذا التطور بداية انهيار علاقات الملكية القديمة قانونيا ـ خط شريف كلخانة ـ وسياسيا بدخول عوامل مساعدة على رسملة الجبل (محمد علي ، ضرب الامير بشير للتوازن القاطعجي) وبداية انهيار شكل المراتبية القديمة ، الذي تحل مكانه الوحدة الطائفية · فأتت النعرة الدينية في لحظة انهيار الانتاج وبروز الشكل الجديد للملكية لتلعب دور قاعدة العلاقات الاجتماعية · وعلى اساس هذه الوجهة العامة ، نقرأ ثورة الفلاحين ١٨٥٨ بوصفها التعبير السياسي لمرحلة الانتقال · ونقرأ حرب ١٨٦٠ الاهلية الطائفية ، التي انتهت بتكريس نمط علاقات جديدة من جهة ، وبتكريس الطائفة المارونية كنعرة غالبة

على الجبل بالتحالف مع الجيش الفرنسي الذي اتى غازيا · (···) تصبح الطائفة هي التي تحكم هذه المستويات بوصفها قاعدة القرابة القائمة على التوزيع والتجارة · وتصبح العائلة قاعدة الطائفة بوصفها شكلا اجتماعيا يلائم الملكية الفردية الجديدة · اما العشيرة شكل التحالف العصبي القديم فتبدأ عملية انهيارها · ان هذا الانقلاب في اولوية المستوى الذي يحكم المستويات الاخرى (اي الطائفة بدل العشيرة) هو في الواقع التعبير العيني عن انتقال شكل الملكية في الجبل » ·

ولما كانت العلاقات الرأسمالية ، قابلة الطائفية ، قد ظهرت مع مشروع التجزئة الذي طال المنطقة ، فان النظرة التي تلغي الطائفية على ارضية الكيان ونموه الطائفي ، والنظرة التي تميل الى تأييد الطائفية وكيانها ، تلتقيان في جذرهما القطري ·

ان « الطائفية » في لبنان هي وليدة تحطم الانتاج المحلي وقيام التبعية الاقتصادية والاتجاه نحو سوق عالمية موحدة ، محكومة بتقسيم العمل بين المركز والاطراف ·· واستطرادا فانشاء الطوائف لـ « دولتها » ومن ثم نيلها لـ « استقلالها » هما ، تعريفا ، خطوتان في سياق تعزيز التبعية ·

التحدي السياسي

بهذا المعنى جاء « لبنان الكبير » مع الانتصار الذي تحقق لامبرياليات اوروبا في نهاية الحرب العالمية الاولى ، وجاء « الاستقلال » من ضمن موجة الاستعمار الجديد الذي تصاحب مع صعود الولايات المتحدة الاميركية في نهاية الحرب الثانية ·

كل نمو اذن شهده الاقتصاد اللبناني لم يكن نموا لـ « قوى انتاج » مزعومة ما ، بل نموا لتبعية لبنان التي وجهها الآخر زيادة التفاوت بين لبنان والعرب ، وتأصل الانعزالية الذي يحمل في الآن نفسه ميلها الانتحاري الى الذوبان في اسرائيل ·

ولو اخذنا « الهجرة » كظاهرة لبنانية ، مثلا ، وجدنا ان افراغ الريف واستبعاد قوى الانتاج تصاحب على الدوام مع نمو الرأسمالية اللبنانية ، بل ساهما مساهمة اساسية في هذا النمو ·

والهجرة هي بهذا المعنى امتداد لانتصار الرأسمالية على الانتاج المحلي على مستوى قومي ، اذ ولدت مع اواخر القرن الماضي وهيمنة الرأسمالية ، واتسعت لتشمل الجنوب بعد قيام دولة اسرائيل (كتعبير اشد تكثيفا عن ذلك الانتصار)

ثم لتمتد الى كل ارجاء لبنان مع عهد كميل شمعون المعادي لحركة التحــــرر العربية والذي فتح الابواب على مصراعيها للرساميل الاجنبية ·

لقد حاول النظام الطائفي المؤسس على الاقتصاد البوجوازي التابع ان يعالج مشاكل الوضع اللبناني لاجئا الى توازنين :

– التوازن الداخلي الذي يضبطه البرلمان ·

– التوازن بين العرب والغرب ·

واستطاع التوازن الداخلي الاول ، المستجيب لتوسيع عملية الرواج وتوسيع التمثيل البرلماني للطوائف والعشائر ، ان يهيء عمرا سعيدا للنظـام · لكــن التحدي السياسي النابع من التوازن الاخر كان يخل على الدوام بالانضبــــاط الاقتصادي – الطوائفي ·

ويجيء انفجار لبنان بنتيجة تماسه مع حركة التحرر العربية ، ليكشف قانونا قابلا للتعميم في العالم الثالث ، هو ان العنصر التقدمي في تطور هذا العالم هو العنصر السياسي (لا العنصر الاقتصادي الذي ينحو الى التطابق مع الاستعمار نظرا لاستحالة الخروج عن التبعية) ·

فالطوائف التي ولدت وانتعشت في ظل النظام الرأسمالي المغلق سياسيا على العرب . نحرت نفسها في ظل المعركة القومية ، مبشرة بنهايتها ككيانات متخلفة وقاصرة عن الصراع ·

والطوائف التي تتعادل مع لبنان لا يمكن ان تنتهي ويبقى لبنان . او ان ينتهي لبنان وتبقى هي ·

في هذا الاطار يلحظ على الدوام صراع تيارين متعارضين في « التاريــخ اللبناني » :

– تيار اقتصادي – لبناني . يراهن على وحدة الدولة ويفــرز يمينا ويسارا ·

– تيار سياسي – عربي . يراهن على ضرب التجزئة ، وهو موضوعيا فــي اقصى درجات العداء مع الامبريالية ·

وفي جذر التيار الاول رهان ضمني على « توحيد » ينجــــم عن العمليــة الامبريالية ويقود الى الاستواء الرأسمالي المتجاوز لما قبله · وفي جذر التيــار الثاني رهان ضمني على التفاوت في عملية التبعية المصاحبة للتجزئة ، تترتب عليه استحالة العمل اليساري على ارضية « مجتمع » مجتزا ·

التجزئة والوحدة

وحقيقة الامر ان ميل الطوائف للاندثار في خلال المعركة القومية ، يكشف بشكل سلبي هذا البعد غير اللبناني في نموها ·

فاذا كانت المارونية قد تحولت الى طائفة هي الركن الركين للبنان ، فعملية التحول قد حصلت في خلال الارتباط العضوي بالغرب وتجزئة المنطقة العربية·

واذا كانت السنية قد تحولت الى طائفة مع قيام الانتداب ، لتعطي لبنان وجهه الآخر ، فعملية التحول حصلت في خلال بتر الجسم الوطني اللبناني عن حلقات اتصاله العربي · لقد عمل « الاقتصاد » من خلال الدور التجاري لبعض تجار المدن السنية على غرس الوعي الطائفي ـ اللبناني ، وكانت « السياسة » تلعب بالمقابل دور المحافظة على الوعي القومي ـ العربي ·

وبفعل هذين التيارين المتعارضين في منشأ الطوائف وارتباط ذلك بفقدان وحدة اقتصادية حقيقية لـ « لبنان » ، كانت السلطة سلطة شكلية معرضة للانسحاب من التداول عند اي تقاطع سياسي بين لبنان والمنطقة ·

وبلغة اخرى : لئن ولدت الطوائف كتعبير عن تحطم الانتاج المحلي وقيام التبعية ، وانهيار السلطنة العثمانية والدولة العربية لصالح الاستعمار الاوروبي، فان التفاوت في عمل هذا الاستعمار نفسه ، والاصطناعية التي وسمت الكيان الطائفي الذي خلقه ، جعلا الكيان اياه يحفر قبره بيده ، والطوائف اياها تحفر قبرها بيدها ·

ثمة منطق يقول ان لبنان ، في ظل مشاريع التقسيم السائدة قابل للمزيد من التجزئة وهش امام مثل هذا المشروع ، لكنه في الآن نفسه متماسك وصلب في وجه مشروع وحدوي عربي ·

ومثل هذا القول يبلغ في تأثره بتوازن القوى في لحظة معينة ، درجة الاخذ بالتفسير الاستعماري للتاريخ ، والذي يفترض ان الفعل الامبريالي هو الفعل الاوحد ، وان منتجات العملية الامبريالية المعقدة (كالطوائف) غير عرضة للزوال ·· وبالتالي فهي توجب الانطلاق منها والبناء عليها في العمل السياسي·

واستطرادا : النظام الرأسمالي ـ الطائفي ضربته الثورة القومية ممثلة بالمقاومة الفلسطينية من على يساره ، وضربته الرياح الاسرائيلية الساداتية من على يمينه · فأية قوة سياسية هي القادرة على اعادة اللحمة اليه خصوصا في ظل تدهور وضع « المعتدلين » العرب ، واستبعاد التوصل الى اي لون من الوان التوازن بعد معاهدة الصلح المنفرد ؟ ربما كان الجواب الوحيد ان استنهاض « الخصوصية اللبنانية والاستثنا ءاللبناني » قادر على ذلك ، فهذا

الطرح لا يخفي حرصه على الاستثناءات اللبنانية وتأجيل العمل بالقاعدة القومية ، بل هو يفترض ان ضعف الحالة الثورية العربية وتدني النهوض القومي عند العرب ، يجعلان « الاستثناء » الطائفي اللبناني (بما هو قائم مقام الامبريالية) اقدر على التأثير في العالم العربي من قدرة العالم العربي على التأثير فيه ٠

والمؤدى العملي بمعزل عن النوايا هو ان نقنع بالمواجهات المنفردة ، وننتظر الهزائم المجتمعة التي تخلق المزيد من الدول والدويلات الطائفية في الاقطار العربية المجاورة ، وهي نتيجة يفسرها ، دون ان يبررها ، انفصال مصر عن المشرق ، والبحث المضني عن الافق القومي المركز في منطقة تعج بالاقليات الطائفية واللاتينية ٠

ودون ان نقع في الوردية والتفاؤلية ، لا يمكن ان نلغي وجود المقاومة الفلسطينية بما هي نواة لمشروع النضال الوحدوي العربي ٠٠ فالقطرية الفلسطينية لا تتقاطع مع الامبريالية الا في نقطة واحدة هي نقطة العداء الجذري نظرا لصعوبة التوفيق بينهما . الامر الذي يجعل هذه القطرية ، موضوعيا ، في موقع قومي ٠

والقطرية الفلسطينية القادرة على القيام بمهام النيابة عن الثورة العربية ، والتعبير عن الوعي المعادي للامبريالية ، هي القطرية المحرومة من قطر ومن اقتصاد ٠٠ وبالتالي فقد نجاها عدم تماسها مع العلاقات الرأسمالية من مرحلة الكيان ـ الطائفة ، وجعلها في موقع اقرب الى التحول القومي ٠ وهذا ما يفسر ربما ، (وخصوصا بعد انفصال مصر) الحذر من الطابع القومي للقطرية الفلسطينية والذي تبديه قطريات مشرقية لا تستطيع ان تخترق سقف الكيان ـ الطائفة ٠

ان الانتقال الى مرحلة الوعي القومي المعادي للامبريالية وتجاوز مرحلة الوعي اللبناني ـ الطائفي ، يستوجبان مع هذا عنصرا ذاتيا يسهل التحول ٠
وفي هذا الاطار يندرج استعداد الثوريين العرب والمقاومة الفلسطينية بالتحديد لتفهم بعض الخصوصيات الطائفية الموروثة ، وكذلك تفهم هذه الخصوصيات لحقيقة الاندماج في جسد الاكثرية ٠

مثل هذا التحول نحو الوعي القومي الذي يتجاوز حدود الوعي الطائفي اللبناني . يفرز نفسه سلفا عن اشكال الوعي القومي الاخرى ، من خلال اندماجه العضوي في المعركة القومية ضد اسرائيل والامبريالية ٠ بل ويكون عنصرا دافعا لتغييرات تفرض هذا المقياس بوصفه المقياس الاوحد للوعي القومي والممارسة القومية ٠

خروج الطوائف والمناطق من ذاتها

اذا صح ان النظام الطائفي قد انكسر تحت ضغط المعركة القومية · وان لبنان ــ الطوائف يشهد نزعه الاخير · وان المارونية السياسية قد كفت عن الوجود السياسي كطائفة لتضع نفسها في يد اسرائيل · فماذا عن الطوائف والمناطق الاسلامية فيمستوى تماسكها اللبناني ·

ان احد شروط المقاومة في وجه دويلة الحداد واسرائيل ، فهم طبيعة العلاقة بين شيعة الجنوب وميدان العمل القومي · فاذا كانت المرحلة تسجل نهاية الطوائف ، فأي حال هو حال الشيعة ؟ هذا السؤال يكتسب مزيدا من الاهمية في ظل الانتقال الى افق قومي مباشر يفرضه قيام الدويلة الجديدة في الجنوب، وتصاعد الاعتداءات الاسرائيلية على سكان الجنوب وارضه ·

شيعة الجنوب : عندما انشيء لبنان ــ الميثاق والصيغة ، كان القادة السياسيون للطائفتين المارونية والسنية على رأس هذا المشروع · اما « الطائفة » الشيعية فكانتخارج التبلور الرأسمالي الطائفي وبالتالي خارج المشروع اياه ·

وعلى امتداد عقدين ونصف العقد استكملت الطائفة المارونية ، وخطت الطائفة السنية بعض الخطى على طريق البلورة المادية والسياسية ، بالحدود التي يتيحها نظام الطوائف لكل منهما · فوطدت المارونية نفسها بوصفها الطرف الغالب ووطدت السنية نفسها بوصفها اهم المغلوبين ·· ذلك ان التوجه القومي للسنة كان يعرقل تبلورها الطائفي محليا ·

وكان الشيعة ، وخصوصا في اواخر الستينيات واوائل السبعينيات يستكملون تحولهم الى طائفة بالمعنى الاقتصادي والاجتماعي للكلمة ·

فللحصول على موقع طائفي في الحياة المادية والسياسية ، وللدفاع عن مصالح الطائفة في ظل نظام تتحرك فيه وتتبارى مصالح الطوائف ، انشيء « المجلس الاسلامي الشيعي الاعلى » ، وتلون مشروع التحول هذا بلون وطني نتج عن علاقة الشيعة بالمقاومة الفلسطينية ، واعتداءات اسرائيل على الجنوب ، ووقوف الامام موسى الصدر على رأس المشروع الشيعي ·

وجاء غياب الامام قبل ان توضع اللمسة الاخيرة على هذا المشروع الطائفي اللبناني ، ولكنه جاء ايضا في وقت كانت تنهار معه كل المشاريع المكتملة ·

فالمشروع الماروني القديم قدم المتصرفية ، ينهار لصالح اسرائيل ، والمشروع السني يعجز موضوعيا عن تقديم نفسه بهذه الصفة ، وتتعرض قياداته الموروثة لتراجع يقترب احيانا من العزلة ، وذلك لصالح المشروع الوطني العربي ممثلا بالمقاومة والقوى المحلية الملتفة حولها ·

والجنوبيون الذين لم يستكمل مشروعهم الطائفي ، نظرا لنشوب الحرب ومن ثم لغياب رمزه الوطني الامام الصدر ، يجدون انفسهم اليوم وبعد قيام دويلة سعد الحداد على بقعة من الجنوب ، مواجهين بمهمة كبيرة تعادل احراق المرحلة اللبنانية في تاريخهم ، اي احراق مرحلة التبلور الطائفي ، والانتقال الى المشروع الوطني العربي ٠

وقيام ثورة ايران ، والعلاقات التاريخية والدينية الخاصة التي تربط شيعة الجنوب بايران ، عوامل تساعد على الاسراع باحراق المرحلة اللبنانية ـ الطائفية ، وجعل الافق الشيعي الاكثر ترشيحا وتزكية هو الافق العربي مرة واحدة والى الابد ، اذا ما سار العامل الذاتي في نفس وجهة هذه العوامل الموضوعية ٠

ويمكن لنا ان نقارن في هذا المجال بين نهاية المشروع الطائفي السني لصالح المشروع التحرري العربي ، واحراق المشروع الطائفي الشيعي لصالح المشروع العربي اياه ٠ فالطائفة السنية تكونت كطائفة في مطالع هذا القرن ، وبتحديد اكثر ، مع قيام الانتداب الفرنسي الذي فصل لبنان عن سوريا ٠

لهذا اصطبغ الوعي السياسي السني مبكرا بالقضية القومية وارتبط بها ارتباطا عضويا ، الامر الذي جعله منذ بداياته الاولى وعيا سياسيا معرضا للزوال في حدوده اللبنانية ، وجعل تماسكه في تلك الحدود تماسكا هشا ، بعكس وعيه وتماسكه لدى التعاطي مع القضايا القومية ، بدءا بالوحدة السورية ، مرورا بالناصرية وانتهاء بالمقاومة الفلسطينية ٠

اما الوعي السياسي الشيعي الذي بدأ يتكون في الفترة الاخيرة ، فقد حاول ان يتماسك في التعاطي مع القضايا المحلية ، فيحول دون ذلك اصطدامه المباشر بالقضية القومية ٠

وقيام دولية الحداد على ارض الجنوب من ضمن الهجمة العامة لاسرائيل ، يرشح شيعة الجنوب للاندراج في حركة مزدوجة : ضرب مشروع التكون في طائفة ، وفتح الابواب امام المعركة القومية ٠

سنة بيروت : في العام ١٩١٠ شهدت مدينة بيروت نقاشا بين صحيفتين ، اولاهما « المفيد » التي كان يصدرها عبد الغني العريسي ، والثانية « الرأي العام » التي كان يصدرها طه مدور ٠ وكان المبدأ السياسي لـ « المفيد » : « انا عربي اولا ومسلم ثانيا » فيما تقول « الراي العام » بالمقابل : « انا مسلم قبل اي شيء ، وعربي ثانيا » ٠

و « المفيد » لم تكن بعيدة عن الاسلام ، كما لم تكن « الراي العام » بعيدة عن العروبة ، لكن العروبة والاسلام كانا تعبيرين عن موقف سياسي من السلطنة

العثمانية ومسيحيي سوريا ٠

فجماعة « المفيد » عبرت عن ايلاء الاولوية لصيغة استقلالية او لا مركزية في العلاقة بين العرب والاتراك ، وجماعة « الرأي العام » عبرت عن ايلاء الاولوية لوحدة المسلمين في وجه الغرب ٠

ومع تفكك السلطنة وقيام الانتداب الفرنسي ضرب التيار الثاني ، وبدأ التيار الاول الذي يصطبغ بصبغة مدينية تجارية ، يبحث عن موقع له في « لبنـــان الكبيـر » الجديد ٠

وكانت عروبة هذا التيار قد بدأت تكتسب في لبنان ، ومنذ انشاء الجمعيات الثقافية والسياسية ، معنى الانفتاح على المسيحيين والانغلاق على العثمانيين٠
وفي « لبنان الكبير » ومعه ولدت « الطائفة السنية » بوصفها موقعا ماديـا وسياسيا ، الى جانب الطائفة المارونية التي كانت سبقتهـا الى الولادة ، بهـذا المعنى ، حوالي ثلث قرن ٠

لكن تناقض الولادة حكم الطائفة السنية وخصوصا في بيروت التي نمت على حساب باقي المدن ، فالميلاد تزامل مع غلبة الموارنة على اشلاء السلطنة العثمانية والدولة العربية على السواء ٠

ورغم مباركة البورجوازية التجارية السنية للكيان ، بعـد تنكرهـا للسلطنـة والدولة العربية فموقف الجماهير السنية بدا متعارضا مع هذه المباركة ٠ الامر الذي حال دون التماسك السني الطائفي المعهود عند الموارنة ، وجعـل هـــذا التماسك مشروطا فقط بالصعود القومي والتعاطي مع القضايـا القومية ٠
فأحفاد « المفيد » هم الطرف الثانوي في سلطة الغلبة المارونية ، واحفـــاد « الرأي العام » هم الجماهير الاسلامية المغلوبة على أمرها في « لبنان الكبير »، والتي صارت بعد ذلك جماهير عبد الناصر وجماهير المقاومـــة الفلسطينية ، وشدت ممثليها السياسيين الى مواقع لا يمكن لها ، مهما تخلفت الا ان تتقـدم على مواقع المارونية السياسية ٠

وبلغة اخرى استطاع السنة الحاكمون ان يفرضوا على الجماهير السنيـــة طائفية الحد الادنى ، وعملت الجماهير السنية طويلا كي تجر السنة الحاكمين الى قومية الحد الاقصى ٠ وهكذا ولدت السنية السياسية في ظل المعركـــــة القومية ، وهي تموت في ظل المعركة القومية أياها ٠

دروز الجبل : أما الدرزية التي ارتبطت بالجبل ، فقد وضعها الشهيد كمـال جنبلاط ، موضوعيا ، في قلب المعركة القومية فلم يذوبها فقط في بحر الاكثريـة العربية الاسلامية ، بل كسر ايضا تماسك الجبل الذي هو ابرز رموز التماسـك اللبناني ٠

فاذا صح ان لبنان طوائف ومناطق اكثر منه وطنا ، فالاصح ان جبل لبنان كان حتى الحرب الاخيرة ، اكثر المناطق تماسكا ووحدة ، بل هو المنطقة الاقرب لان تكون طائفة ٠

فمنذ المتصرفية التي نشأت كشواذ في المشرق العربي ، اصبح الجبل هو القاعدة ٠ وعمل الغرب والاوروبيون على تحويله الى نموذج للحضارة والثقافة والتقدم ، بما هي مفاهيم تتعارض مع العرب والشرقيين ٠

وما ارساه الغرب اكملته المارونية السياسية ، فضمت الملحقات اليه لكي تكون مداه الطبيعي ٠ وبدل ان يكون الجبل للبنان بات لبنان للجبل ٠

واصبح الاقتصاد للجبل ، ورؤساء الجمهورية يأتون من الجبل ، و «التحضير» سمة من سمات الريف الجبلي (!) وصارت بلدة كبرمانا اكثر تقدما من مدينة كطرابلس ٠

وصيغ الماضي على هدي الحاضر ٠ فكتب الجبليون تاريخ الجبل بوصفه كان ديمقراطيا قبل ان توجد الديمقراطية في اليونان ، وكان لبنانيا قبل ان يكون لبنان نفسه ، وكان موعودا بالمسيحية قبل مئات السنين على ولادة المسيح ٠

ونشأ للمنطقة منطق تتشابه فيه الوجوه والرموز ومقاييس الامور ٠ ففخر الدين مؤسس لبنان ، وبشير الشهابي صانع وحدته ، وطانيوس شاهين قائد فلاحيه ٠ وحين يقع اختلاف ضمن هذا المنطق ، فهو يقع في التفاصيل . كأن يميل احدهم الى بشير الشهابي اكثر مما يميل الى بشير جنبلاط ، او يميل الى يوسف كرم اكثر مما يميل الى طانيوس شاهين ٠

لكن هذا التماسك انكسر مع وصول المعركة الى الجبل نفسه ، فالمشروع الوطني لكمال جنبلاط والذي بدأ في حدود تكوين درزية سياسية تعادل تحولات اقتصادية اجتماعية في الطائفة ، تقاطع مباشرة مع المعركة القومية دفاعا عن المقاومة ، الامر الذي يفتح باب الانتساب العضوي لهذه المعركة قفزا فوق الاستثناء الطائفي ٠

ذلك انه منذ انهيار « امارة الجبل » ، لا يوجد افق متاح لتعديل التوازن في تلك البقعة بعيدا عن الارتباط بالوضع العربي ٠

واذا كان الجبل وحدة متماسكة تعرضت للانكسار في ظل المعركة القومية ، فباقي لبنان لم يتماسك اصلا على ارضية لبنانية ٠٠ ولئن كان الكلام عن الطائفة الشيعية يوجز الكلام عن الجنوب ، فالشمال والبقاع لا يختلفان كثيرا ٠

الشمال والبقاع : بعض سكان الشمال لا زالوا يطلقون على الليرة اللبنانية تسمية الليرة السورية ، وبعض مسنيهم لا زال يقيسها على « العثملية » ٠

ورفض الاقرار بوحدة التبادل اللبناني امر له دلالة · فبين الشماليين وسوريا روابط اقتصادية تمر عبر حمص ، والشماليون في معدلهم العام اقل اللبنانيين شعورا بلبنانيتهم (رغم وجود الارز في الشمال) ·

والشماليون ، رغم خلافاتهم واختلافاتهم ، يلتقون على هذا القاسم المشترك· فمسلموهم هم آخر من اعترف بـ « لبنان الكبير » ، وعديدة هي التظاهرات التي خرجت في مدينة طرابلس صارخة ان الدم هو بديل الوحدة مع سوريا ·

ومعروفة هي تحفظات زعماء السنة في بيروت على عبد الحميد كرامي ، زعيم طرابلس التاريخي ، بوصفه رجلا مشاكسا ومزايدا في عروبته واسلامه ·

وفي طور لاحق تحولت طرابلس الى رمز من رموز الناصرية في الوطن العربي ، (حتى ان الملك حسين حين زارها بعد حرب ١٩٦٧ ، استقبل بأصوات تهتف بحياة القائد الراحل كأنه هو الضيف الزائر ، وكان الحسين انذاك على علاقة ودية مع جمال عبد الناصر · والامر نفسه حصل في بعلبك بالبقاع) ·

واذا جاز للبعض ان يضرب بسنة بيروت مثلا على الاستعداد للمساومة السياسية ، فهذا لا يجوز بالنسبة لسنة طرابلس · لان سنة بيروت استفادوا بمعنى ما من توسع مدينتهم في ظل الدولة اللبنانية واقتصاد الخدمات ، لكن سنة طرابلس ، وهذا ما ينطبق ايضا على سنة صيدا ، دفعوا الاكلاف الاولى لنمو العاصمة من جيب المدينتين السنيتين الاخريين ·

فالتجارة في طرابلس ملحقة بالتجارة في بيروت ، والجامعة اللبنانية التي انشئت قبل نيف وعقدين من الزمن في العاصمة ، لم تمتد الا مؤخرا ، وبصورة مشوهة ، الى العاصمة الثانية · ومقابل التمركز الثقافي الغربي في بيروت ، عرفت طرابلس كلية اسلامية وحيدة مصدرها مصر ·

وموارنة الشمال ، هم بالمعنى السائد للبنانية غير لبنانيين ايضا · وما كان بمستطاع سليمان فرنجية ، رئيس الجمهورية الوحيد الذي قدم من الشمال ، ان يصير رئيسا للجمهورية لولا الاستقطاب الاستثنائي الذي عرفته سياسة الجبل في نهاية عهد شارل حلو ·

وسليمان فرنجية الذي خرق القانون العام للسياسة اللبنانية ، لم يستطع ان يخرق « الحضارة الطائفية » المميزة لمارونية الجبل ، وان يكسب المصداقية الحضارية التي يفترض ان تتوفر في رئيس جمهورية لبنان ·

فسلوكية العشيرة ، لا سلوكية الطائفة الراسمالية هي سلوكية فرنجية ، فهو كان عاجزا عن التوفيق بين كونه رئيس جمهورية في بلد الطوائف والمؤسسات الطائفية وبين كونه حامي الحمى ·

وفي العلاقة الاقتصادية لم يرتبط موارنة الشمال بأي من حواضر المارونية الجبلية ، بل توزعوا بين طرابلس التي اعتبرها الزغرتاويون والبشراويون عاصمتهم الكبرى ، ومدينة جبيل غير الموغلة في «حضارة » الجبل والتي يقيم فيها ابناء جرود البترون ·

وبرغم ان الشمال كان الموئل الاول للمارونية ، فمنذ اواخر القرن الماضي وتحول المارونية الى مارونية سياسية ، بدأ مقود الزعامة ينزح شيئا فشيئا نحو الجبل ·· وحين جاء الميثاق الشهير ، لم يجد شاهدا عليه من موارنة الشمال، فكانت حصتهم فيه كحصة شيعة البقاع ، اذ تمثل هؤلاء بصبري حمادة الذي كان ملتحقا ببشارة الخوري ، وتمثل اولئك بحميد فرنجية الذي كان في مقتبل حياته السياسية ·

وقد يكون ملفتا ان موارنة الشمال لم يصبحوا « لبنانيين » الا بعد ان خرج موارنة الجبل من لبنان ونادوا بالتقسيم · فتعادل موقف الموارنة الشماليين مع مواقف بعض اطراف الوسط الاسلامي والوطني ممن دعوا الى مواجهة التقسيم باستعادة « وحدة » البلد وبعث الميثاق الوطني ·

ويكاد ان ينطبق الامر نفسه على البقاع الذي يمثل حلقة ادنى تطورا في سلسلة الرواج الاقتصادي ·· وبالتالي فهو لا يتعادل مع « الطائفة » ونظام الكيان الطائفي ·

فالاتصال الاقتصادي لا يجذب البقاع الى لبنان ليس فقط لانه اتصال لا يملك جوهرا انتاجيا ، بل لانه من ضمن قوانين الرواج لخطة الخرق لهذه القوانين والخروج عليها ·

لهذا السبب رأينا الوهم الشهابي حول بناء الدولة الحديثة يستمد دعمه البقاعي من العشائر (!) وللسبب نفسه وجدت سياسة البقاع اشكالها المغايرة لسياسة بيروت ذات القدر النسبي من التماسك ، ناهيك بسياسة الجبل التي استطاعت في فترة من الفترات ان تقيم فرزا بين الدستوريين والكتلويين ، او جماعة بشارة الخوري وجماعة اميل اده ·

فعدد اللوائح في مواسم الانتخابات يضرب ارقاما قياسية في بعلبك الهرمل، والسياسي البقاعي عموما هو الاصعب على التحديد السياسي الصارم ·

ومن اعلان شبلي العريان في العام ١٩٦٠ انه «مرشح الجمهورية العربية المتحدة» الى اعلان جوزيف السكاف ، الزعيم المسيحي الاول في البقاع ، عن تعاطفه مع السياسة السورية ، مجموعة متصلة من الاحاجي التي يفسرها الغياب الكامل لتلك المنطقة عن قطب مركزي جاذب في الداخل ، وانها حين تتصل بهذا القطب، فهي تتصل فقط على قاعدة الرواج التجاري وقيمه النفعية ·

فهل من موقف واحد واضح قاطع لقطب بقاعي من المقاومـــة الفلسطينية ؟ وعلى اي اساس عقائدي تفسر التحالفات الانتخابية للعقائديين البير منصور ودندش دندش ؟ ومن هو « السركيسي » الحقيقي جوزيف السكاف ام جوزيف ابو خاطر ؟ ولماذا ترك شيعة البقاع لشيعة الجنوب وحدهم متابعة مسألة الامام الصدر ؟ بل لماذا تنقطع اللحمة الطائفية بين شيعة البقاع وشيعة الجنوب ؟

ان البقاعيين الذين لم يحصل اي تماس حقيقي بينهم وبين « الطائفة » بمعناها الاقتصادي السياسي ، وظلت عشيرتهم تغلب طائفيتهم ، هم سلفا خارج لبنان الطوائـــف ٠

انهيار الطوائف

لم تتشكل الطوائف ، الا في ظل الهيمنة الاستعمارية ، بوصفها الشكـــل الاجتماعي لهذه الهيمنة التي عبرت عن نفسها سياسيا بتقسيم الوطن الى دول ودويلات ٠ وما المثال اللبناني عن انهيار الطوائف كطوائف ، الا مؤشرا علـــى ان المعركة القومية هي التي تدمر الطوائف ٠ وقد اشار المثال اللبناني الى ان هذه المؤسسة الاجتماعية تتحول لحظة انهيارها الحتمي الى قوة فاشية مرتهنـة للعدو الوطني ، وهي بذلك تحاول تعميم التجزئة ، وما دويلة سعد الحداد الا النموذج التافه على ان افق مقاومة الانهيار قد بدأ يضيق الى درجة مزرية ٠ ولكن ، ومع انتقال الصراع الى مستوى جديد بعد المعاهدة المصرية الاسرائيلية تبرز اخطار لا تحصى اذا لم تبادر القوى الشعبية الى خوض المعركة القومية ٠ فالمعركة القومية هي التي تضرب الطوائف ، والتراجع فيها هو الذي يفتت الامة٠

هاني حوراني

الظروف الاقتصادية والمعيشية للعمال والشغيلة في الأردن (١٩٥٠ ـ ١٩٥٧)

كانت ابرز المشاكل التي يعاني منها الشغيلة والعمال في الاردن في مطلع الخمسينات تتمثل في :

اولا : البطالة الواسعة باشكالها المختلفة ، وضآلة فرص التشغيل التي يتيحها تطور قطاعات الاقتصاد الوطني المختلفة ·

ثانيا : ارتفاع تكاليف المعيشة ولا سيما اسعار المواد الغذائية منها بوتيرة عالية جدا ، حيث كانت تجارة المواد الغذائية وسلع الاستهلاك الاساسية المصدر الرئيسي لاثراء « تجار الحرب » بالنظر الى اتساع القاعدة الاستهلاكية وتنامي الطلب عليها بقوة ابان الحرب الفلسطينية وبعدها ·

ثالثا : تردي مستوى الاجور سواء اكان ذلك بالنسبة لقطاعات العمل في المدينة او الريف ·

رابعا : غياب التشريعات العمالية والحماية لحقوق العمال ولحريات التنظيم النقابي ·

ان العرض المختصر التالي للمشكلات الاربع المذكورة يلقي الضوء على الظروف الاقتصادية والمعيشية العامة للعمال والشغيلة في الاردن في مطلع الخمسينات ·

اولا : البطالة وضآلة فرص التشغيل

اشرنا اثناء تعرضنا للنتائج المباشرة للحرب والنزوح الى ان ١٣٨ الف

فلسطيني على الاقل قد فقدوا مصدر معيشتهم بسبب الحرب ، وان هؤلاء يعيلون ما يوازي ٤٨٪ من سكان الضفتين · كما اشرنا الى ان جزءا هاما من قوة العمل الشرق اردنية قد فقدت في فلسطين سوق عملها ، وعدد هؤلاء يوازي ٤٠ الف عامل وشغيل اردني في نهاية الاربعينات · ان الوضع لم يتغير كثيرا في سنوات الخمسينات ، اذ اضطر قسم كبير من القوة العاملة الى البقاء خارج نطاق الانتاج ، بسبب ضآلة فرص العمل الجديدة التي كان يتيحها النمو الاقتصادي الاردني ، في ظل استمرار توجهاته الكولونيالية خلال سنوات ٥٠ ـ ١٩٥٧ ، والتي لم تبشر بتجاوز الطابع المتخلف والمشوه للاقتصاد الوطني ولا بالتالي لتوفير القاعدة الاقتصادية الانتاجية الكفيلة بتوفير نمو مضطرد في فرص العمل · مما ابقى القسم الاكبر من الشغيلة في حالة بطالة اضطرارية . وعندما كانت فرص التشغيل تتسع في سنوات لاحقة ، كانت ميادين التشغيل الاساسية هي الادارة العامة والجيش والخدمات والتجارة ، اليي كان تتفشى فيها البطالة المقنعة والبطالة البنيوية · مما يعني ان التشغيل لم يعكس تنامي الانتاجية بقدر ما كان يعكس زيادة اقتسام الدخل الوطني والدخل المتأتي من الخارج (المساعدات الخارجية لجهاز الدولة والجيش) ·

ان التقديرات التالية لحالة القوة العاملة في الاردن في اواسط الخمسينات تفيد في القاء نظرة على ابرز مشاكل الشغيلة والعمال في البلاد ، وهي حالة البطالة (انظر الجدول رقم «٣») · فمن الجدول يتبين ان ٥ر٤٨٪ فقط من القوة العاملة في البلاد كانت حائزة على عمل ثابت ، فيما كان ٥ر٥١٪ منها ، اما في حالة بطالة كاملة (بدون عمل) وتوازي ٣ر٣٠٪ ، او تعمل بصورة مؤقتة (موسمية) وتعاني في بقية الاوقات من البطالة الكاملة (٢١،٢٪) ·

واذا ما اخذنا بالاعتبار تقسيم القوة العاملة الى لاجئين (٤ر٣٦٪) وغير لاجئين (٦ر٦٣٪) ، فاننا نلاحظ ان غالبية حالة البطالة الكاملة (فقدان العمل الدائم) وحالة البطالة الجزئية (الموسمية) متركزة في القوة العاملة من اللاجئين · وعددهم ١٣٨ الفا · فمنهم ٢ر٧٪ فقط يعملون في عمل ثابت ، و ٨ر٤٧٪ يعملون موسميا ، فيما ٤٥٪ بدون اي عمل ·

اما القوة العاملة من غير اللاجئين ، وعددها ٢٤١ الفا ، فكان ١ر٧٢٪ منها يشغل اعمالا ثابتة و ٨ر٥٪ يشغل اعمالا مؤقتة ، فيما ٢٢٪ منها يفتقد الى العمل ويعاني من البطالة الكاملة ·

هكذا نجد ان ١٠ الاف شخص فقط من اللاجئين قد حصلوا على عمل ثابت في عام ١٩٥٥ ، اي بعد انتهاء الحرب بسبع سنوات · وهؤلاء يشكلون ما نسبته ٥ر٥٪ من مجموع الحاصلين على عمل ثابت من القوة البشرية العاملة ، اي من ١٨٤ الفا · اما باقي القوة العاملة من اللاجئين فان نصفهم قد حصل على عمل

موسمي (٦٦ ألف مواطن) وعاني النصف الاخر من البطالة الكاملة (٦٢ الف مواطن) ٠

كما نجد ان ٥٣ ألف مواطن من القوة العاملة غير النازحة كانت تعاني ايضا من البطالة الكاملة ، اي ما نسبته ٢٢٪ من مجموع قوة العمل غير اللاجئة (عددها ٢٤١ ألفا) ٠ بالاضافة الى وجود ١٤ ألف شخص غير لاجيء يعملون بصورة مؤقته (ونسبتهم ٨ر٥٪ من قوة العمل غير اللاجئة) ٠ وهذا يشير الى اتساع البطالة وتفشيها ايضا بين السكان من غير اللاجئين الذين هم في سن العمل ٠

جدول رقم « ٣ »
القوة العاملة في الاردن (الضفتين) لعام ١٩٥٥

١ ــ القوة العاملة في الزراعة	لاجئون	غير لاجئين	المجموع
عمل دائم	ـ	٠٠٠ر١٣١	٠٠٠ر١٣١
عمل موسمي (مؤقت)	٠٠٠ر٥٠	٠٠٠ر١٠	٠٠٠ر٦٠
بدون عمل	٠٠٠ر٤٢	٠٠٠ر٤٠	٠٠٠ر٨٢
المجموع	**٠٠٠ر٩٥**	**٠٠٠ر١٨١**	**٠٠٠ر٢٧٣**
٢ ــ القوة العاملةفي المدن	**لاجئون**	**غير لاجئين**	**المجموع**
عمل دائم	٠٠٠ر١٠	٠٠٠ر٤٣	٠٠٠ر٥٣
عمل موسمي (مؤقت)	٠٠٠ر١٦	٠٠٠ر٤	٠٠٠ر٢٠
بدون عمل	٠٠٠ر٢٠	٠٠٠ر١٣	٠٠٠ر٣٣
المجموع	**٠٠٠ر٤٦**	**٠٠٠ر٦٠**	**٠٠٠ر١٠٦**
المجموع الكلي	**٠٠٠ر١٣٨**	**٠٠٠ر٢٤١**	**٠٠٠ر٣٧٩**

Harris, G.L. : - «*Jordan it's People, it's Society, Culture,*», New Haven, 1958, Table 2. P. 226.

اما من حيث توزيع قوة العمل ما بين الريف والمدن ، فانه يظهر من الجدول رقم « ٣ » ان ٧٢٪ منها هي في الريف ٠ وفي الريف ايضا تتركز البطالة حيث ٥٢٪ من قوة العمل تعاني من البطالة الكاملة او المؤقته (٣٠٪ من قوة العمل تعاني البطالة الكاملة ، و ٢٢٪ منها تعمل عملا موسميا) ٠ اما اللاجئون في الريف فهم اما عاطلون كليا عن العمل او يعملون بصورة مؤقته وموسمية ولا يوجد الى ما يشير الى انهم حصلوا على عمل دائم ٠ ويظهر الجدول اعلاه ان البطالة الكاملة في الريف تشمل اعدادا متساوية من السكان الاصليين (غير اللاجئين) واللاجئين ٠

وفي المدن ايضا يعاني ٥٠٪ من قوة العمل من البطالة الكاملة او الجزئية ٠ حيث نجد ان ٣١٪ من قوة العمل المدينية هي بدون عمل ٠ و ٨ر١٨٪ منها يعمل بصورة مؤقته ٠ ان اكثر من ثلاثة ارباع (٣ر٧٨٪) اللاجئين يعاني من البطالة الكاملة او المؤقته في المدن والباقي منهم يعمل ، بينما لا تشمل البطالة بشكليها سوى ٣ر٢٨٪ من القوة العاملة غير اللاجئة ٠

وبشكل عام تشير الارقام المارة (والتي يمكن اجمالها بوجود اكثر من نصف القوة العاملة من اللاجئين وغير اللاجئين في حالة بطالة كاملة او مؤقته) الى مدى الحاح هذه المشكلة على جماهير الشغيلة والسكان في الاردن ٠ اذ انها تعاني استمرار افتقاد اكثر من نصف السكان الى مصادر الرزق الضرورية حتى بعد مرور ٧ سنوات على الحرب الفلسطينية ، الامر الذي يفسر استمرار موجات الهجرة الاقتصادية (ولا سيما من العمال والشغيلة الفلسطينيين) الى الخارج ٠ والذي كان لا بد ان يعكس نفسه سلبيا على تركيب الطبقة العاملة وحجمها وعلى طابعها الانتاجي ومهارتها ٠

ثانيا : ارتفاع تكاليف المعيشة

كما خلقت ظروف مابعد الحرب والنزوح فائضا واسعا من القوى البشرية المستعدة لبيع قوة عملها ، فان ظاهرة زيادة عرض الايدي العاملة ترافقت ايضا مع ازدياد الطلب على السلع والخدمات ، التي لم تلبث اسعارها ان ارتفعت ارتفاعا كبيرا ، كما تدل على ذلك الارقام المبينة ادناه ٠ وقد سبب ارتفاع تكاليف المعيشة بشكل متسارع في سنوات قليلة مشكلة مستعصية ، ليس فقط بالنسبة لاولئك الذين افتقدوا للعمل الثابت او المؤقت ، وانما ايضا لاولئك الذين نجحوا في الحصول على اعمال ثابته لهم ،. اذا ما اخذت بالاعتبار اجور العمل المنخفضة والتي سنتناولها لاحقا ٠

فمن مراجعة الارقام القياسية لاسعار المواد الغذائية في مطلع الخمسينات نلاحظ ان ارتفاع الاسعار اخذ الشكل التالي (كما قدرتها مصادر وكالة الغوث الدولية) :

١٩٥١	سنة الاساس ١٩٥٠ (اكتوبر) = ١٠٠٪
الربع الاول	٢ر١٢٢٪
الربع الثاني	٢ر١٢٦٪
الربع الثالث	٢ر١٣٥٪
الربع الرابع	٦ر١٧٠٪ (٢)

اي ان اسعار المواد الغذائية ارتفعت في غضون عام (من اواخر ١٩٥٠ الى اواخر ١٩٥١) بمقدار ٧٠٪ ٠ ولم يلبث ان شهد الشهر الاول (كانون الثاني) من ١٩٥٢ ارتفاعا اخر لاسعار المواد الغذائية فباتت توازي ١ر١٨٠٪ الى سنة الاساس (١٩٥٠) ٠ ولقد استند استخراج النسب السابقة الى معدل استهلاك اسرة اردنية للطعام ، ذات دخل يوازي عشرة دنانير اردنية شهريا (٣) ٠

ان ارتفاع اسعار بعض السلع الغذائية الاساسية للاسرة المتوسطة والعادية يمكن ان يعطي صورة عن وتيرة ارتفاع الاسعار ٠ فمثلا ارتفع سعر كيلو الخبز من ٥٥ فلسا خلال الربع الاول من العام ١٩٥١ الى ٧٠ فلسا في الربع الاخير من ١٩٥١ ٠ كما ارتفع سعر كيلو الرز من ٨٢ فلسا خلال الربع الاول من عام ١٩٥١ الى ١٣٠ فلسا في تشرين الاول (اوكتوبر) من ١٩٥٢ ٠ ثم الى ١٤٦ فلسا في الشهر الاول من عام ١٩٥٣ ٠ كذلك :

ـ ارتفع سعر كيلو السكر من ١٠٠ فلس في الربع الاول من ١٩٥١ الى ١٢٢ فلسا في الربع الاخير من نفس العام ٠

ـ ارتفع كيلو القهوة من ٤٦٧ فلسا في الربع الاول من ١٩٥١ الى ٥٢٠ فلسا في الربع الثالث من ١٩٥٢ والى ٥٧٢ فلسا في تشرين اول من عام ١٩٥٢ ٠

ـ وارتفع سعر البيض من ١٣٠ فلسا للعشر وحدات في الربع الاول من ١٩٥١ الى ١٦٧ فلسا في الربع الاخير من نفس العام ، والى ١٧٢ فلسا في الربع الاول من ١٩٥٢ ٠

ـ وارتفع سعر كيلو البصل من ٢٠ فلسا في الربع الاول من ١٩٥١ الى ٣٤ فلسا في الربع الاول من ١٩٥٢ ثم الى ٣٧ فلسا في الربع الثاني من ١٩٥٢ ٠٠٠٠٠٠ الخ (٤) ٠

لقد عزيت هذه الزيادة العالية في ارتفاع الاسعار في السنوات الاولى للخمسينات ، الى ارتفاع تكاليف الشحن ، بعد تغير خطوط المواصلات ٠ لكن من الواضح ان الارتفاع شمل المواد المنتجة محليا (الخبز والخضار ٠٠) والمواد المستوردة من الاقطار الشقيقة (الارز) وكذلك من الاقطار الاجنبية على حد سواء ٠ الامر الذي لا يمكن تفسيره بارتفاع تكاليف الشحن ، مع اهميتها الجزئية في رفع اسعار بعض السلع ، فمن الواضح ان الطلب المتزايد بقوة على السلع الاستهلاكية والضرورية هو الذي شجع التجار وكبار المستوردين على رفع اسعارها في ظل غياب الرقابة على الاسعار وغياب اجراءات الدولة الرادعة لتجار الحرب والكوارث ، الذين كدسوا الثروات من جراء الارباح الخيالية من تجارة المواد التموينية والاستهلاكية الاساسية ٠ ومن جهة اخرى كانت اسعار المواد المختلفة تتفاوت من منطقة الى اخرى ، اذ كان هناك تفاوتا ما بين اسعار المحافظات ، وتفاوتا ما بين اسعار الضفتين وكان هناك تفاوتا ما بين اسعار المدن

(ولا سيما عمان والقدس) وما بين اسعار الريف أو المحافظات ذات الكتل الريفية الواسعة · ان مظاهر التفاوت المذكورة لا يستهان بها ، سواء في اسعار السلع والخدمات أو في اسعار العمل فهي تشير الى الفروق البنيوية بين المحافظات والى تفاوت تأثير فعل قوانين السوق في المحافظات المختلفة · وهذه الظاهرة ملموسة ايضا في اواسط الخمسينات وحتى في اواخرها (٥) ·

لقد انخفضت تكاليف المعيشة في السنوات التالية بشكل عام عن اسعار ٥١/ ١٩٥٢ ولا سيما اسعار الخبز والخضار والبيض ، اي المنتجات الاستهلاكية المحلية · واخذ ارتفاعها وانخفاضها يأخذ طابعا موسميا · كما شهدت بعض السلع المستوردة انخفاضا ملموسا كاسعار الارز والسكر · فيما حافظت اسعار مواد اخرى على ارتفاعها أو ارتفعت اكثر كالقهوة والشاي · لكن تكاليف المعيشة بقيت مع ذلك في معدلها العام مرتفعة قياسا لاسعار ما قبل ١٩٥١ (٦) · وبالمقارنة مع مستوى الاجور المتوسطة ، مما ضاعف من الضغوط المعيشية على غالبية القوة العاملة ، ولا سيما مع استمرار وجود اعداد كبيرة من القوة العاملة في حالة بطالة ·

ثالثا : تدني مستوى اجور العمل

ادى وجود فائض واسع من قوة العمل خارج اطار التشغيل وضآلة فرص العمل الجديدة (الطلب على شراء قوة العمل) الى زيادة المزاحمة في سوق العمل والى تخفيض المستوى العام لاسعار العمل بقوة منذ نهاية الحرب الفلسطينية · ان مقارنة مستوى الاجور في الاردن (الضفتين) في مطلع الخمسينات مع مستويات الاجور في فلسطين عامي ١٩٣٩ و ١٩٤٤ ، تعطي فكرة عن الانخفاض الحاد في مستوى الاجور · (انظر الجدول رقم « ٤ ») (٧) ·

ويتبين من مقارنة اسعار العمل في السنوات المذكورة ان المعدل العام الاجور في مختلف المهن المذكورة في الاردن كان عام ١٩٥٢ يوازي ٢٧٨ فلسا في اليوم مقابل ٢٣٠ فلسا (مليما) في فلسطين عام ١٩٣٩ ، اي بزيادة مقدارها ٨ر٢٠٪ فقط خلال ١٢ عاما ، حين كانت نفقات المعيشة ، وبخاصة اسعار المواد الغذائية قد ارتفعت بمعدل ٣٠٠٪ او ٤٠٠٪ خلال هذه المدة · اي ان الاجور الحقيقية قد انخفضت عام ١٩٥٢ عن اجور عام ١٩٣٩ في فلسطين بصورة خيالية ·

اما اذا قارنا اجور العمل في مختلف المهن المبينة في الجدول علمي ١٩٤٤ و ١٩٥٢ ، فاننا نجد ان معدل الاجور في الاردن ١٩٥٢ كان يوازي ٤ر٣٧٪ فقط من معدل اجور ١٩٤٤ في فلسطين ، اي انها انخفضت بنسبة الثلثين تقريبا

(٦ر٦٢٪) ٠ اذ كان معدلها العام في ١٩٤٤ يوازي ٧٤٤ مليما (فلسا) مقابل معدل عام للاجور يوازي ٢٧٨ فلسا عام ١٩٥٢ ٠

ومع الاخذ بالاعتبار ارتفاع تكاليف المعيشة ابان الحرب العالمية الثانية في فلسطين فان الفارق بين معدلي الاجور يبقى كبيرا جدا ٠ ويشير الى مدى تدني الاجور ، ومدى الافقار الذي يلحق بجماهير الشغيلة والعمال ٠ ان مقارنة اجور مختلف المهن في سنتي ١٩٤٤ و ١٩٥٢ يظهر ان انخفاض اجور العمل قد شمل عمال مختلف المهن والعمال ، المهرة منهم وغير المهرة ٠ ولم تستثنى اجور فئة من فئات العمال من الانخفاض وعدا مهنة واحدة انخفضت اجورها بنسبة ٢٨٪ (عمال صناديق الكرتون) فان باقي فئات العمل انخفضت اجورها بحد ادنى يوازي ٥٤٪ وحد اعلى يوازي ٧٢٪ ٠

جدول رقم « ٤ »
الاجور في اعوام ٣٩ ، ٤٤ ، ١٩٥٢ في فلسطين والاردن
(بالمليمات الفلسطينية والفلسات الاردنية)

مجموعات المهن	فلسطين ١٩٣٩	فلسطين ١٩٤٤	الاردن ١٩٥٢
عمال الطباعة	ـ	٥٤٩	٢٥٣
عمال صناديق الكرتون	١٠٢	٢٣١	١٦٦
عمال المخابز	٢١٩	٥٠٠	٢٠٦
عمال الخراطة	٢٩٤	٨١٨	٢٥٣
عمال نقش الحجارة	٣٩٢	١١٥ر١	٤٢٥
عمال خشب النوافذ (اباجورات)	٢٤٤	١١٥ر١	٣١٤
عمال القصارة	٣٢٢	٠٧٠ر١	٣١٣
عمال الطلاء	٢٤٢	٩٧٠	٣٣٣
عمال السمكرة	ـ	ـ	٢٥٠
عمال نجارة الابنية	ـ	٩٠٠	٣١٧
رؤساء العمار	ـ	١٢٥ر١	٤٥٠
عمال غير مهرة (في البناء)	١٠٩	٥٥٠	١٧٧
عمال غير مهرة (في الطرق)	ـ	٤٥٠	١٦٦
المعدل العام	٢٣٠	٧٤٤	٢٧٨

Quarterly Bulletin of Economic Development, U.N.R.W. AL No. 5. Novem. 1952 .

ان هذا التردي العام لمستوى الاجور ، مع الارتفاع الكبير في تكاليف المعيشة، وارتفاع مستوى الاعالة (ازدياد عدد من يعيلهم العامل الواحد) ليشمل الاقارب،

يشير الى مدى تأزم الوضع المعيشي والاقتصادي للعمال والشغيلة ، فهو يشير الى تدني مستوى الدخل الحقيقي للعمال ، بالنظر لانخفاض القيمة الشرائية للعملة ، كما يشير الى تدني مستوى الدخل المتوسط للفرد ، بسبب ارتفاع مستوى الاعالة ، وازدياد نسبة العاطلين عن العمل ٠

من ناحية اخرى تظهر مقارنة معدلات الاجور على مستوى الالوية وعلى مستوى الضفتين فوارق ملموسة فيما بينها ، وتبرز الجداول الخاصة بمعدلات اجور العاملين والعاملين اليافعين (صغار السن) في الاعمال غير الزراعية ، وكذلك الجداول الخاصة بمعدلات الاجور للعمال الزراعين ، ان افضل الاجور كانت تدفع في عمان ، كما كانت اجور اللوائين الرئيسيين في الضفة الشرقية (عمان واربد) أعلى غالبا من الاجور المدفوعة في الوية الضفة الغربية ٠

فمن الجدول رقم « ٥ » الخاص باجور العاملين الكبار في المهن غير الزراعية لعام ١٩٥٢ يمكن ملاحظة ان معدلات الاجور في محافظة عمان تفوق دائما معدلات الاجور العامة للضفتين (الاردن) ، ففي عمان تدفع اكبر الاجور لقاء العمل في مختلف المهن المبينة في الجدول ٠ وتبلغ نسبة الزيادة في معدل اجور لواء عمان (٢٥٢ فلسا) عن معدل سائر الالوية (٢٢٤ فلسا) بمقدار ٥ر١٢٪٠

وبالمقارنة بكل لواء على حده فان معدل الاجور العام للواء عمان يفوق معدل الاجور العام في كل من اربد بنسبة ١ر٢١٪ ، والقدس بنسبة ٠ر١٤٪ ونابلس ٦ر٢٠٪ ، والخليل ٦ر٤١٪ ٠

ويلي عمان من زاوية ارتفاع المعدل العام لاجور العمل القدس ، حيث يدفع فيها ٢٢١ فلسا كمعدل عام للاجور ٠ وهذا يقل عن معدل اجور الضفتين بنسبة ٣ر١٪ فقط ٠ ويلي القدس نابلس التي يبلغ المعدل العام للاجور فيها ٢٠٩ فلوس اي ما يقل بنسبة ٧ر٦٪ عن المعدل العام لاجور الضفتين ثم اربد التي يبلغ المعدل

جدول رقم « ٥ »

معدل الاجور اليومية للعمال عام ١٩٥٢ (بالفلسات الاردنية)

مجموع القطاعات	معدل الاجور في الضفتين	الضفة الشرقية			الضفة الغربية	
		عمان	اربد	القدس	نابلس	الخليل
البناء	٢٢٩	٢٤٧	٢٢٧	٢٢١	١٨٦	٢٠٢
الصناعات الغذائية	٢٣٥	٢٦٨	١٧٤	٢٤١	٢٣٣	١٦٧
المواصلات	٢٥٩	٢٩٩	٢٥٩	٢٤٠	٢٥٢	٢١٤
صناعات اخرى	٢٢٧	٢٦٨	١٦٥	١٨٥	٢١٨	١٨٨
حرف	٢٣٥	٢٧٣	٢٠١	٢٥١	١٩٨	١٧٦
خدمات	٢٠٤	٢٢٩	١٧٥	١٩٥	٢٠٣	١٣٥
معدل اجور القطاعات	٢٢٤	٢٥٢	٢٠٨	٢٢١	٢٠٩	١٧٨

Harris, *O.P. cit,* Table 3. P. 226.

العام للاجور فيها ٢٠٨ فلوس · اي بانخفاض قدره ١ر٧٪ عـن معـدل الاجـور العام للضفتين · أما اقل الاجور التي تدفع في الالوية الخمسة المذكورة فهي في الخليل التي يبلغ معدل الاجور فيها ١٧٨ فلسا ، ويقـل هـذا عن المعـدل العام للاجور في الضفتين بنسبة عالية مقدارها ٥ر٢٠٪ (٨) ·

أما بالنسبة لمعدلات الاجور الخاصة بالعمال اليافعين (صغار السن – اي من هم دون ١٨ سنة) فانها تعكس ترتيبا مشابها تقريبا للترتيب الخاص بمعـدلات اجور العمال الكبار في السن · وهذا ما بينه الجدول رقم « ٦ » · ومنه نلاحـظ ان المعدل العام للاجور في عمان يوازي ٨٥ فلسا في اليوم مقابل المعدل العـام للضفتين الذي يوازي ٦١ فلسا · اي ان اجور العمـال الصغـار فـي السن في عمان يفوق معدل الاجور العام للصغار في البلاد بنسبة ٣ر٣٩٪ · ويقترب معدل الاجور المدفوعة للصغار في القدس عن معـدل الاجور في عمـان فهي توازي ٨٣ فلسا يوميا ، اي بزيادة ٣٦٪ عن المعدل العام لاجور الصغـار في الضفتيـن · ويلي القدس في الترتيب معدل اجور الصغار في اربد (٦٢ فلسا) الذي يعادل تقريبا معدل الاجور العام للصغار في البلاد · أما في نابلس والخليل فيبلغ معدل اجور الصغار فيهما ٥٥ فلسا و ٤٢ فلسا بالترتيب ، اي انهما يقلان عن المعدل العام لاجور الصغار بنسبة ٨ر٩٪ و ٥ر٢٩٪ بالترتيب نفسه (٩) ·

جدول رقم « ٦ »

معدل الاجور اليومية لصغار العمال (١٨ سنة فما دون)

عام ١٩٥٢ (بالفلسات الاردنية)

مجموع القطاعات	معدل الاجور في الضفتين	الضفة الشرقية			الضفة الغربية	
		عمان	اربد	القدس	نابلس	الخليل
البناء	–	–	–	–	–	–
الصناعات الغذائية	٨١	٧٤	٩٠	١٤٨	٤٢	٣٩
المواصلات	٣٧	٥٧	٣٤	٤٣	٢٩	٣٨
صناعات	٧٤	٨٧	٤٢	٥٠	٥٥	٧٨
حرف	٦١	٩٦	٥٢	٥٩	٤٨	٣٢
خدمات	٦٨	–	٦٣	٧٩	٦٦	٦٤
معدل اجور القطاعات	٦١	٨٥	٦٢	٨٣	٥٥	٤٣

Ibid, P. 226.

يتبين لنا ان افضل الاجور لقاء العمل في المهن غير الزراعية تدفع في عمان ثم في القدس ثم في نابلس واربد واخيرا تدفع اقل الاجور في الخليل ٠ وذلك سواء بالنسبة لعمل الكبار او الصغار من العمال ، وذلك في عام ١٩٥٢ ٠ وفي الواقع يختلف هذا الترتيب لعام ١٩٥٢ عن ترتيب معدلات الاجور في الالوية لعام ١٩٥١ الذي يبرز احتلال اربد المكانة الثانية بعد عمان في معدلات الاجور المدفوعة ، حيث تلي ذلك الاجور المدفوعة في نابلس ثم القدس واخيرا الخليل ٠

جدول رقم « ٧ »

معدل الاجور بالفلسات الاردنية في الضفتين عام ١٩٥١

القطاع الاقتصادي	المعدل العام للضفتين	الضفة الشرقية		الضفة الغربية		
		عمان	اربد	نابلس	القدس	الخليل
البناء	٣٣٠	٣٧٠	٢٥٠	٢٥٠	٢٣٠	٢٧٠
صناعة الاغذية	٢٠٠	٢٥٠	١٤٠	٢٠٠	١٥٠	١٣٠
المواصلات	٢٢٠	١٥٠	٢٨٠	٢٠٠	١٥٠	٢١٠
صناعات اخرى	٢٠٠	١٨٠	٢٣٠	٢٠٠	٢٠٠	١٩٠
الحرف	١٤٠	١٦٠	٩٢٠	٨٣٠	١١٠	١٠٠
خدمـــات	١٦٠	١٨٠	١٣٠	١٦٠	١٦٠	١١٠

Quarteriy Buiietin of Economic Development, U.N. Relief and Works (Special report, Wageleveisin Gordan) No. 5. Novem. 1952 .

في كل الاحوال يبدو جليا ان عمـــان باتت مركز النشاط الاقتصادي ، كما ان الحاجة الى الايدي العاملة الماهرة وحتى الى صغار السن من العمال ، ادت الى رفع معدلات الاجور في العاصمة عن بقية الالوية ٠ ولعل اكتظاظ الضفة الغربية بفائض سكاني كبير في مطلع الخمسينات يفسر ايضا الانخفاض في اجور الوية الضفة الغربية بالنسبة لاسعار العمل في عمان ٠ اذ ان زيادة الطلب على الايدي العاملة في لوائي عمـــان واربـــد تفسره الوتيـــرة العاليـــة في نشوء المؤسسات الاقتصادية المختلفة ونشاط حركة السوق والبناء ٠ وهكذا نجد ان اعلى الاجـــور كانت تدفع عام ١٩٥١ في قطاع البناء نتيجة تنامي الاستثمارات العقارية واتساع الحاجة الاجتماعية للمباني والمساكن ، ولا سيما في عمان ، ونجد ايضا ان اعلى الاجور باتت تدفع في قطاع المواصلات ، بسبب اتساع الطلب على الايدي العاملة في هذا القطاع واتجاه الاستثمارات الى قطاع النقل ٠ بينمـــا نجـــد ان الاجور المدفوعـــة فـــي القطاعـــات المختلفـــه تتفـــاوت مـــن لـــواء الـــى اخـــر ، وذلـــك تبعـــا لتركيبهـــا الاقتصـــادي ، ولحـــدود اتســـاع الحاجـــات الاجتماعيـــة الناتجـــة عـــن الحـــرب والنـــزوح ، وحجـــم التوظيفـــات الرأسماليـــة في القطاعـــات المختلفـــة ، وخاصـــة المحافظـــات من استثمـــارات

المشاريع العامة كالطرق والمدارس والخدمات العامة وغيرها · وفيما يتعلق بلواء عمان ، فقد كان يشهد اعلى وتيرة استثمار حكومي وخاص ، كما فيه تركـــزت عملية تجديد البناء الاساسي للاقتصاد ، وفيه أنفق القسم الاكبر من النفقـــات العامة للدولة ، مما افسح المجال اكثر لعملية تجديد رؤوس الاموال بسرعة اكبر من الالوية الاخرى ، وهو الامر الـــذي يفسر تسارع وتيرة انتقــال السكــان من الضفة الغربية الى الضفة الشرقية ، ولا سيما الى العاصمة نفسها (١٠) ·

أما فيما يتعلق بأجور العمل الزراعي ، فيظهر بوضوح (من الجدول رقم «٨») ان الاجور اليومية المدفوعة للعمال الزراعيـــين غير الفنيـــن في الوية الضفـة الشرقية هي اعلى من الاجور المدفوعة في الضفة الغربية لقاء العمل نفسه · فبناء على عينة من القرى عددها ٣٢ قرية جمعت فيها المعلومات عن الاجور الزراعية في الموسم وفي الاوقات الاخرى من السنة ، وضعت دائرة الاحصاءات تقديرها بمعدلات الاجور الزراعية في الوية الضفتين والاقضية التابعة لها · والجـــدول ادناه يلخص نتائج هذه التقديرات · واذا ما اخذت الاجور في الموسم كمعيـــار للمقارنة تبين ان معدل الاجور الزراعية للضفتين يوازي ٢٢٩ فلسا ، بينما هــو في الضفة الشرقية ٢٥٦ فلسا ، والضفة الغربية ١٨٩ فلسا · اي بفارق زيــادة توازي ١ر٢١٪ في الضفة الشرقية عن الضفة الغربية ·

ويتبين ايضا ان اعلى الاجور المدفوعة في الزراعة هي في لــواء عجلــون ، حيث يدفع ما معدله ٢٦٩ فلسا كاجرة يومية في الموسم ، ثم في لواء الكرك حيث يدفع ما معدله ٢٦٧ فلسا ، ثم لــواء البلقاء التـــي بلغ معـدل اجور العمـــال الزراعيين فيها ٢٣٤ فلسا في اليوم (١١) ·

جدول رقم « ٨ »

معدلات اجور العمال الزراعيين (غير الفنيين) حسب الالوية ، كما كان في ايلول ١٩٥٢ (بالفلسات الاردنية لليوم الواحد *)

اللواء (والاقضية التابعة له)	معدل الاجرة اليومية في الموسم	في الاوقات العادية
معدل لواء البلقاء (عمان ، السلط ، مادبا)	٢٣٤	٢١٥
معدل لواء عجلون (اربد ، عجلون ، جرش)	٢٦٩	١٩٥
معدل لواء الكرك (الكرك ، الطفيلة)	٢٦٧	٢٣٣
معدل لواء القدس (القدس ، اريحا ، بيت لحم ، رام الله)	١٨٠	١٣٩
معدل لواء نابلس (نابلس ، جنين ، طولكرم)	١٩٤	١٤٧
معدل لواء الخليل (الخليل)	٢٠٠	١٥٠
معدلات الاجور في الضفة الشرقية	٢٥٦	٢١٨
معدلات الاجور في الضفة الغربية	١٨٩	١٥٢
معدل الاجور في الضفتين	٢٢٩	١٨٢

* ملحوظة : الاجور المدفوعة عينا او مرابعة قد حولت جميعها الى اجور نقدية ·

المصدر : **النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٢** (دائرة الاحصاءات العامة ، عمان) بيان ١٠٠ ، ص ٤١٣ ·

وبالنسبة للضفة الغربية ، فـان اعلى الاجور دفعـت في الخليـل ٢٠٠ فلس كمعدل عام للاجرة فيها ثم في لواء نابلس ١٩٤ فلسا ، ثم في لواء القدس حيث بلغ معدل الاجرة ١٨٠ فلسا ٠ وهو ادنى معدل اجرة في الضفتين ٠

ويبدو ان ارتفاع معدل اجرة العمـل في الوية الضفـة الشرقيـة ، يعـود الى اتساع الاستثمار في الزراعة فيها، والى ازدياد الطلب على الارض ومن ثم على الايدي العاملة ،سواء لاستثمار الاراضي الصالحة للزراعة او لاستصلاح وتطوير الاراضي الزراعية غير المستغلة ٠ ويلاحظ في هذا الصدد ان ارتفاع اجور العمل الزراعي كانت اعلى في المناطق التي وجدت فيهـا اراضي غير مستغلـة بشكـل كامل ، او يمكن تطوير واستصلاح اراضي اضافية فيهـا ٠ وهـذا مـا يفسـر ان ارتفاع اجرة العمل الزراعي شمل لواء الكـرك ، وعجلون (ولا سيمـا مناطـق الاغوار الشمالية) والخليل ، وهذا ما يفسر ارتفاع اجرة العمل الزراعي فـي قضاء اريحا ايضا ، حيث كان معدل الاجرة فيه يوازي ٢٠٠ فلس يوميـا مقابـل ١٥٧ فلسا في قضاء القدس و ١٧٠ فلسا في قضاء بيت لحـم و ١٨٦ فلسا فـي قضاء رام الله (١٢) ٠

ان التفاوت في مستوى الاجور ما بين المحافظات وما بين المدن ، يشير الـى تفاوت مستوى النمو والنشاط الاقتصادي ويشير الى اسباب الهجرة الاقتصادية الداخلية ، من الضفة الغربية والى الضفة الشرقية عموما ، ونمو عمان والزرقاء واربد بشكل خاص في ظل تمتعها بوتائر عالية في نموهـا الاقتصادي ٠ على ان الانخفاض العام لمعدل الاجـور في الضفتيـن الى ما بين ٢٤٠ فلسا و ٢٢٠ فلسا يوميا عامي ١٩٥١ و ١٩٥٢ على التوالي للمهن غير الزراعية (اي بمعدل دخل يتراوح ما بين ٢ر٧ دينار و ٦ر٦ دينار شهريا و ٤ر٨٦ دينـارا و ٢ر٧٩ دينـارا سنويا للعامل الحائز على عمل ثابت) وانخفاض معدل اجرة العامل الصغير الى ربع هذا المعدل ، وكذلك تراوح اجور العمال الزراعيين اليومية ما بيـن ١٨٢ فلسا في الايام العادية و ٢٢٩ فلسا في المواسم ، ان انخفاض هذه المعدلات فـي الاجور يشير الى المستوى المتدني لدخول العمال والشغيلـة في البـلاد ، ويلقي الضوء ايضا على الاسباب التي كانت وراء الهجرة الواسعة للايدي العاملة من البلاد منذ بداية الخمسينات ٠

رابعا : غياب التشريعـات العمالية والحماية لحقوق العمال وحريات التنظيم النقابي

ضاعف من وطأة المشكلات المذكورة غياب التشريعات والقوانين الضامنـة لحقوق العمال الثابته وحتى اكثرها حيوية كحق التنظيم النقابي وحق الاضراب، وادى ذلك الى غياب الحماية القانونة لابسط الحقوق العمالية على صعيد عـدد

ساعات العمل والاجور والاجازات وتعويضات انهاء الخدمة واصابات العمل او الوفاة بسببها ، كما افتقدت الرقابة على شروط السلامة العمالية وظروف العمل، فضلا عن غياب مختلف التأمينات الصحية الاجتماعية ٠٠ الخ ٠

كان عمال الضفة الشرقية ، في مطلع الخمسينات مجردون من اي سلاح يمكنهم من الدفاع عن حقوقهم ومصالحهم ، ولا سيما من سلاح التنظيم النقابي بل وحرموا من التمتع بالحقوق المحدودة التي تتيحها التشريعات العمالية ، مثل حق اقامة الجمعيات العمالية وحق الاحزاب ٠ ومع اعلان وحدة الضفتين نشأ ازدواج قانوني على صعيد التشريعات العمالية ، ففي الضفة الغربية كانت تسري التشريعات الفلسطينية الموضوعة اثناء الانتداب البريطاني ، بينما سرت التشريعات العثمانية في الضفة الشرقية ، وهكذا كان يفقد العمال حقوقهم المعترف بها بمجرد مغادرتهم الضفة الغربية الى الشرقية (١٣) ٠

وبدلا من انتهاء الازدواج القانوني بين الضفتين من خلال تطبيق تشريعات العمل الفلسطينية الاكثر مواتاة للعمال او من خلال اي تشريع عمالي حديث يلبي حقوق عمال الضفتين ، فان السلطة الحاكمة اقدمت على عكس ذلك اذ من خلال سلطتها المطلقة القائمة على قوانين الدفاع الاستثنائية استخدمت الانظمة المدنية والقوانين المؤقتة في تقييد حق الاضراب ومنعه في حالات معينة تحت طائلة العقوبة بالسجن لمدة ستة اشهر ، كما استخدمت ذات الانظمة لا فقط في منع تشكيل جمعيات العمال في الضفة الشرقية وانما ايضا في حرمان عمال الضفة الغربية من تنظيماتهم النقابية وفي حلها (١٤) ٠

وفي ظل غياب ابسط الحقوق العمالية كان من الطبيعي ان يتصاعد النضال منذ مطلع الخمسينات وان يتركز على انتزاع حق التنظيم النقابي باعتباره المدخل الطبيعي لتنظيم صفوف العمال والشغيلة ولتوحيدهم من اجل الدفاع عن مصالحهم وحقوقهم الحيوية ٠ ولقد توج النضال العمالي هذا بانتزاع حق التنظيم النقابي بصدور « قانون نقابات العمال رقم ٣٥ » في عام ١٩٥٣ ، ثم بانتزاع مكسب آخر ثبت الاعتراف ببعض الحقوق العمالية الاخرى وذلك مع صدور « قانون تعويض العمال رقم ١٧ لعام ١٩٥٥ (١٥) ٠

الحواشي

(1) Harris, G.L. «*Jordan, it's People, it's Society, it's Culture*», *New Haven*, 1958, P. 226 .

(2) *Quarterly . Bulletin of Economic Development, U. N.* Relief and Works, No. 5. Novem. 1952.) Special Report, Wage Levels in Jardan.

(3) *Ibid*.

(4) *Ibid*, No. 7 May 1953, No.8 August 1953 .

انظر ايضا **النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥١** ، عدد ٢ ، ص ٤١٤ ٠

(١١) **النشرة الاحصائية السنوية لعام ١٩٥٢ ، بيان رقم ١٠٠** ، ص ٤١٣ ٠

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٤١٣ ٠

(١٣) راجع ، هاشم ، هشام رفعت : « **شرح قانون العمل الاردني** » ، (عمان، ١٩٧٣) ص ٩ ٠

(١٤) حوراني ، هاني ، **تسوية نزاعات العمل في قانون العمل الاردني** » ، بحث برنامج البكارلويوس ـ كلية الاقتصاد والتجارة ، الجامعة الاردنية . مقدم الى الدكتور هشام رفعت هاشم (١٩٧٠) . (الفصل الاول ، ص ٢) ٠

(١٥) جاء القانونان مطابقين الى حد كبير قانون نقابات العمال الفلسطيني لسنة ١٩٤٧ ، وقانون تعويض العمال لعام ١٩٢٧ ، وسوف نتناول في الفصل الخاص بنشوء الحركة النقابية الاردنية ظروف انتزاع القانونين ، كما نبين نواقصهما ٠

(5) *Ibid.* No. 10, Sept. 1954, No. 14, July. (Special Report on Jordan) .

(6) *Ibid.* No. 10, Sept. 1954 , No. 14, July 1956 .

(7) *Ibid,* No. 5. (Novem. 1952)

(8) Harris, *OP. cit,* P. 226.

انظر ايضا النشرة الاحصائية السنوية . دائرة الاحصاءات العامة الاردنية ، العدد ٣ . (عمان ١٩٥٢) ، انظر ايضا :

I.B.R.D.,« *The Economic Development of Jordan,* » Johns Hopkins Press, Baltimore, 1957 Annex IV Tablas, P. 451.

(9) Harris *OP. cit.,* P. 226.

(10) *Guarterly Bulletin of Ecomonic Development* , U. N. R.W. No. 5. 1952 .

نزيه قوره

التاريخ والتاريخ الآخر :
حادثة دمشق ، ١٨٤٠

تحتل المنطقة التي نعيش فيها اهمية تتجاوز ما يمكن ان تمنحه لها كثافتها السكانية او مواردها الطبيعية · ونعني بالمنطقة الزاوية الجنوبية الشرقية للبحر الابيض المتوسط · وفي موضوعنا هذا نخص الساحل الشرقي للمتوسط · وقد بلغ من اهمية الاحداث التي تقع على هذا الساحل انه لم توجد دولة ، اعتبرت نفسها ذات اهمية ما ، استطاعت ان تتجنب الاهتمام بما يجري في هذه المنطقة، او ان تتجنب صياغة سياسة محددة تجاه ما يجري ، او حتى التورط ، في احداث هذه المنطقة ·

ان اهمية ما يجري من احداث تنعكس في اصداء وردود فعل ، بحيث يصبح كل حدث صغير بذاته حدثا عالميا ضخما · وحتى نستطيع ان نقيس وزن الحدث الذي يجري في هذه المنطقة لا يكفي ان تتوفر لدينا معلومات عن وزن القوى ذات العلاقة المباشرة بالحدث : عدد افرادها وامكاناتهم المادية او عدد قطع السلاح التي يحملها افرادها ان كانت حركة مسلحة · ذلك ان الحدث لا يستمد وزنه واهميته من القوى ذات العلاقة المباشرة به بل من اهمية المنطقة التي يجري فيها هذا الحدث ·

من هنا كانت دراسة تاريخ هذه المنطقة والكتابة عنه اصعب بمرات عديدة من دراسة تاريخ اية منطقة اخرى من العالم ، ففي منطقتنا لا توجد احداث معزولة · ومن الصعوبة بمكان ان نقوم بحصر ابطال حادثة تاريخية ما · سوف نجد صعوبة اكبر في تقديم تفسير حقيقي لهذه الحادثة ·

سنأخذ نموذجا واحدا نحاول بواسطته تبيان ما اشرنا اليه من صعوبات في ١ ـ حصر ابطال الحادثة التاريخية ٢ ـ تفسير دوافع هؤلاء الابطال · هـذا النموذج يتعلق بحادثة وقعت في دمشق عام ١٨٤٠ ، وقد اثارت هذه الحادثة اهتمام جميع حكومات وبرلمانات اوروبا بالاضافة الى حكومة الولايات المتحدة الاميركية ، هذا عدا عن الصحافة والهيئات العامة ·

وقائع الحادثة كالتالي : في الخامس من شباط عام ١٨٤٠ اختفى في دمشق راهب من اصل ايطالي يقيم في دير للرهبان الكبوشيين · واختفى معه خادمه · وبما ان طائفة اللاتين كانت متمتعة ، بموجب نظام الامتيـــازات العثماني ، بحماية فرنسا ، فقد كلف القنصل الفرنسي في دمشق باجراء تحقيق بشأن اختفاء الراهب توماسو الكبوشي وخادمه · ولدى اجراء التحقيق تبين ان اخر مكان شوهد فيه الراهب مع خادمه هو الحي اليهودي في دمشق ، قرب دكان لحلاق يهودي · بأمر من القنصل الفرنسي واسمه الكونت دي راتي مانتون ، جـرى اعتقال الحلاق اليهودي واخضع لتعذيب طويـــل اعترف بعده بأن عددا مـــن الوجهاء اليهود في المدينة قاموا بخطف الراهب وخادمه وقتلهما وجمع وحفظ دمهما من اجل استعماله لاغراض الطقوس الدينية اليهوديـــة التي تقضـــي باستعمال دم شخص مسيحي في عجن الفطير لعيد الفصح · والي دمشق من قبل محمد علي الذي كان يحكم سوريا في ذلك الوقت ، امر باعتقال اربعة عشر شخصا من ابرز وجهاء اليهود واكثرهم ثراء للتحقيق معهم · وحسب ما جاء في الاتهام فان هؤلاء الاربعة عشر يهوديا كانـــوا يشكلون مجموعتين ، كـل مجموعة مؤلفة من سبعة اشخاص ، اربعة منهم مدنيون وثلاثة من رجال الدين، وقد قامت مجموعة بقتل الراهب ومجموعة اخرى بقتل خادمه ، وقد تم اعتقال هؤلاء جميعا واخضعوا للتعذيب ومات احدهم تحت التعذيب ، ولكن لم يتـــم الحصول على اعتراف منهم بارتكاب الجريمة ·

بقي هؤلاء جميعا في السجن من ٥ شباط ١٨٤٠ الى ٥ ايلول ١٨٤٠ حيـن تم اطلاق سراحهم ·

وفي نفس هذه الفترة وقعت حادثة مشابهة في جزيرة رودس التي كانـــت تحت الحكم العثماني · ورغم اختلاف التفاصيل الا انهـــا انتهت الى نهايـــة مشابهة وترافقت مع احداث مشابهة ·

مع نهاية هاتين الحادثتين صدر فرمان عن السلطان عبد المجيد هذه ترجمته: « يوجد اعتقاد خاطيء سائد ضد اليهود · اذ يعتقد الجهال ان اليهود قـــد اعتادوا تقديم ضحية بشرية يستعملون دمها لعيد الفصح ·

وبنتيجة هذا الاعتقاد فان يهود دمشق ورودس (الذين هم من رعايا سلطنتنا) تعرضوا للاضطهاد على يد الملل الاخرى · ان هذه التشنيعـات التي قيلت بحق

اليهود والمضايقات التي اخضعوا لها قد وصلت اخيرا الى عرشنا السلطاني ٠

ولم يمض سوى وقت قصير منذ اتي ببعض اليهود القاطنين في جزيرة رودس الى القسطنطينية ، حيث جرى تقديمهم للمحاكمة واصدار الحكم بشأن قضيتهم حسب الانظمة الجديدة ، وقد ثبتت براءتهم تماما من التهم الموجهة بحقهم ٠ وقد تم تنفيذ ما اقتضاه العدل والانصاف بحقهم ٠

وبالاضافة الى ذلك فقد جرى فحص الكتب الدينية لليهود من قبل العلماء ذوي المعرفة بالكتابات الدينية ، وبنتيجة هذا الفحص تبين ان اليهود محرم عليهم ليس فقط استخدام الدم البشري ولكن من المحرم عليهم ايضا استعمال دم الحيوان ٠ وعلى هذا فان التهم الموجهة ضدهم وضد ديانتهم ليست سوى مزاعم باطلة ٠

ولهذا السبب ، وبسبب المحبة التي نحملها لرعايانا، فاننا لا نستطيع السماح بمضايقة واضطهاد الملة اليهودية (التي ثبتت براءتها من التهمة التي وجهت اليها) بناء على اتهامات ليس لها اي اساس من الصحة ، وبناء على الخط الشريف الصادر في كلماته فان الملة اليهودية سيكون لها نفس المزايا وتتمتع بنفس الامتيازات الممنوحة للملل العديدة الخاضعة لسلطتنا ٠
يتوجب حماية الملة اليهودية والدفاع عنها ٠

ولاجل هذا الغرض فقد اعطينا الاوامر الواضحة بأن الملة اليهودية القاطنة في جميع ارجاء سلطنتنا سوف تتمتع بنفس الحماية التي يتمتع بها جميع رعايا الباب العالي ، وسوف لا يمسهم احد بأية طريقة كانت (الا بالعدل) ، لا فيما يتعلق بممارساتهم لديانتهم ، ولا فيما يتعلق بسلامتهم وامنهم ٠ وبناء على ما تقدم صدر هذا الفرمان ، المهور بخاتمنا الهمايوني ، عن قصرنا السلطاني ، الى الملة الاسرائيلية ٠٠٠

صدر في القسطنطينية في ١٢ رمضان ١٢٥٦ الموافق ٦ نوفمبر ١٨٤٠ » (١) ٠

عام ١٨٤٠ ـ عام فاصل

ان عام ١٨٤٠ هو من بين الاعوام القليلة التي تستحق وصف عام فاصل ، خلال القرنين الماضيين ٠ ففي ربيع ذلك العام وصلت جيوش محمد علي التي كان يقودها ابنه ابراهيم باشا الى الاناضول ، وواجهت الامبراطورية العثمانية خطرا حقيقيا بالسقوط ٠ وهذا الامر دفع بريطانيا ، التي كانت سياستها تقضي بالحفاظ على الامبراطورية العثمانية اقصى مدة ممكنة ، الى الدعوة الى مؤتمر دولي ، وتم عقد هذا المؤتمر في ١٥ تموز ١٨٤٠ وحضرته كل من بريطانيا وروسيا والنمسا وبروسيا ، وتغيبت عنه فرنسا التي كانت تساند محمد علي ٠ وصدر عن المؤتمر انذار الى محمد علي يطلب منه الاعتراف بخضوعه للسلطان

واعادة الاسطول التركي الى العثمانيين ، بعد ان كان قد انضم الى محمد علي والجلاء فورا عن سوريا والجزيرة العربية والعودة الى مصر ٠ وتلا ذلك اعلان موانيء سوريا ومصر تحت الحصار ، وجرى قصف مدن الساحل السوري مما اضطر الجيش المصري الى الانسحاب الى مصر ٠ وهكذا انتهت تلك التجربة ٠ غير انها خلفت لدى الدول الاستعمارية ، وخاصة بريطانيا ، فزعا دائما من امكانية ظهور من يعيد تلك التجربة٠ ولذلك تكثف في ذلك العام بالذات ، البحث عن سبل تضمن كبح مثل هذه الظاهرة محليا دون ان تضطر الدول الاربع الكبرى الى ارسال اساطيلها في كل مرة يقرر فيها زعيم مصري طموح العبور الى الشرق ٠

أثناء وجود وجهاء يهود دمشق في السجن ، كتب اللورد بالمرستون ، وزير الخارجية البريطانية الى سفيره في القسطنطينية ، بونسونبي ، رسالة يقول فيها : « سوف يكون امرا ذا اهمية واضحة للسلطان ، ان يشجع اليهود لكي يعودوا ويستوطنوا في فلسطين . لان الثروات التي سيأتون بها معهم سوف تزيد من واردات ممتلكات السلطان ، وان الشعب اليهودي ، اذا عاد بضمانة وحماية السلطان وبدعوة منه ، سوف يشكل كابحا ضد اية مخططات مستقبلية شريرة لمحمد علي ولمن يخلفه ٠٠٠ ان علي ان امر سعادتكم بقوة ، بأن توصوا الحكومة التركية بتقديم كل تشجيع عادل ليهود اوروبا لكي يعودوا الى فلسطين » (٢) ٠

وفي السابع عشر من اب عام ١٨٤٠ نشرت جريدة التايمز تعليقا على خطة كان قد قدمها اللورد اشلي (قريب بالمرستون) تتضمن « زرع الشعب اليهودي في أرض ابائه ، وهي خطة قالت عنها جريدة التايمز بأنها تحظى باهتمام سياسي جدي ٠ وقد اثنت الجريدة على جهود اللورد اشلي واوردت بنود استمارة اعدها لمعرفة شعور اليهود تجاه العودة الى الارض المقدسة ، وبأية سرعة يمكنهم ان يعودوا، وفيما اذا كان اليهود ذوي المراكز والثروات مستعدين للاشتراك في هذه العودة واستثمار اموالهم في الارض ، فيما اذا جرى اقناع الباب العالي بضمان الامن والعدالة والقانون وسلامة اشخاصهم وممتلكاتهم(٣) ٠

وجدير بالذكر انه عندما تم تعيين اول قنصل لبريطانيا في القدس عام ١٩٣٨ ورد في رسالة موجهة من بالمرستون ، وزير الخارجية ، الى القنصل : « سوف يكون جزءا من واجبك بصفتك نائب قنصل لبريطانيا في القدس ان توفر الحماية لليهود بصورة عامة » ٠

لقد تم اثناء سجن وجهاء يهود دمشق عقد عدد كبير من الاجتماعات في العواصم الاوروبية وخاصة في لندن بالاضافة الى عقد اجتماعات في المدن الاميركية ٠ وقد ارسل المجتمعون في كل من هذه الاجتماعات عرائض الى حكوماتهم يحثونها فيها على التدخل لرفع الظلم الواقع على يهود دمشق ٠ ومن

بين الاجتماعات الهامة التي عقدت الاجتماع الذي عقد في قاعة بلدية مانشستر في بريطانيا والذي صدرت عنه قرارات تدين المظالم التي وقعت بحق اليهود ، وارسل نص القرارات الى مندوبي الدول · وقد رد وزير خارجية روسيا، الكونت نسلروده على رسالة المجتمعين في مانشستر برسالة قال فيها : « استنادا على مبادىء الانسانية والعدالة فان ما صدر عن الاجتماع الموقر لا يمكن الا ان يحظى بتقدير الحكومة القيصرية · انها تشارك باخلاص بالاهتمام الاجماعي والنشط الذي اثاره في انجلترا مصير اولئك الاسرائيليين التعساء الخاضعين للسلطة المصرية ، وان الحكومة القيصرية تتبنى ما صدر عن اجتماعكم من قرارات تدعو الى وقف تلك الفظائع التي كانت مدينة دمشق مسرحا لها مؤخرا » ((٤) ·

وفي مدينة نيويورك تم عقد اجتماع احتجاجي في ١٩ اب ، قرئت فيه رسالة من وزير الخارجية ، جون فورسايت جاء فيها « ان المشاهد التي تمزق القلب التي وقعت في دمشق ، قد جرى ابلاغها الى الرئيس بواسطة قنصلنا هناك ، وتم على اثرها ارسال تعليمات فورية الى قنصلنا في الاسكندرية ، نضع نسخة منها تحت تصرفكم » ·

اذا تفحصنا مضمون القرارات التي صدرت في العواصم المختلفة ، ومذكرات الاحتجاج والحملات الصحفية فسنجد شبه اجماع على تحميل مسؤولية ما جرى في دمشق للشرق المسلم المتعصب المعادي للحضارة ، والغارق في الخرافات ، وذلك مقابل اوروبا المسيحية المتحضرة التي لا يشغلها سوى المصاعب ، والاضطهادات التي تتعرض لها الاقليات · ومن المفروض ان يخرج المواطن العادي الذي كان يعيش في ذلك الزمن بانطباع يقول ان محمد علي وواليه على دمشق شريف باشا هما المسؤولان عن حادثة دمشق ·

غير اننا نستطيع رؤية موقف محمد علي من الرسالة التالية التي ارسلها الى شريف باشا ، ونقل نصها الى حكومته ا[illegible]ل النمساوي في الاسكندرية بتاريخ ٢ ايار ١٩٤٠ · « لقد وصل الى علمنا ان بعض الرجال الاقوياء من المسيحيين يهاجمون رعايانا اليهود في دمشق ، وان شكاوى قد رفعت اليك بدون نتيجة · ان مثل هذه الاعتداءات تزعجنا ، وهي تتناقض مع رغباتنا · لذلك امرك بأن تمنع تكرارها » · (٦)

ان رسائل القنصل البريطاني في القدس الى وزارة الخارجية البريطانية توضح تماما الى اي جانب كان يقف القنصل البريطاني ، وبالتالي الى اي جانب كانت تقف الحكومة البريطانية · وفيما يلي نموذج من رسائل هذا القنصل واسمه ن· ويري Wherry :

من القنصل البريطاني في دمشق الى بالمرستون وزير الخارجية : «في رسالتي الاخيرة التي كان لي فيها شرف مخاطبة سيادتكم ، ذكرت بعض التفصيلات حول موضوع الضحايا من المسيحيين الذين سقطوا على يد يهود هذه المدينة ٠ واتابع الان نقل ما حصلت عليه من معلومات الى سيادتكم ٠ يوجد لدى السكان المسيحيين ، في كل ارجاء تركيا ، رأي تكون منذ زمن بعيد ، واعتقاد ، اثبتت عدة وقائع جرى كشفها وتعريضها للضوء بواسطة الحكومات المحلية في اجزاء عديدة من تركيا ، بأن اليهود المنتشرين عبر البلاد كانوا يقتلون المسيحيين بصورة سرية للحصول على دمهم ، من اجل الاحتفال بأعيادهم بهذا الدم أثناء ممارسة طقوسهم الدينية ٠ هذه الحقيقة جرى اثباتها هنا ٠ ان الاب توماسو ، رئيس دير الاباء الكبوشيين ، المتمتع بالحماية الفرنسية ، مع خادمه ، قد جرى قتلهما في بيتين يملكهما اثنان من اكثر اليهود نفوذا في هذه المدينة ، وفي كل منهما قام سبعة من هؤلاء الاشخاص ذوي النفوذ ، اربعة منهم مدنيون وثلاثة من رجال الدين ، بتنفيذ طقوس الضحية ، وجرى حفظ دم الضحيتين للغرض المذكور اعلاه ، وقد تم تمزيق بقايا الجسدين والتخلص منهما في البالوعة العامة للمدينة ٠ ان اربعة من منفذي جريمة القتل المرعبة هذه قد قدموا اعترافا كاملا ومفصلا بجميع ظروف الجريمة ، وجرى التثبت من صحة الوقائع بدقة متناهية في مكان حصول الجريمة ، ومن البقايا التي جرى التخلص منها ، واكتشف جزء منها ، بحيث لم يبق مجال للشك ٠ كما تمت ترجمة تلك المقاطع من التلمود التي انتزعت من الحاخامين المعتقلين ، والتي تسمح بارتكاب تلك الفظائع ، وبذلك تم كشف السر الذي كان ، حتى الان ، تقليدا لا يجري اطلاع غير الخاصة عليه ٠ ان المنفذين الرئيسيين لجريمة قتل الراهب ، هم الان في ايدي الحكومة المحلية ، وقد اعتقل اثنان ممن قتلوا الخادم ، وفر الخمسة الباقون ٠ ومن المدهش ان منفذي هذه الجرائم هم اربعة عشر شخصا من اكثر اليهود نفوذا وثراء في هذه المدينة ٠ ولا يمكننا ان نفي القنصل الفرنسي ، الكونت راتي دي مانتون ، حقه من الثناء والمديح ، للجهد والمثابرة اللتين اظهرهما بالاشتراك مع سعادة شريف باشا ، لاكتشاف هذه الجريمة المريعة ، ومن المأمول ، مع تقدم التحقيق ، ان يتم الحصول على كل دليل ضروري اخر ، بصورة مستقلة وحيادية ، قبل أن يقع تحت سلطة الحكومة او القنصل الفرنسي ، وذلك بشكل منفصل عن الادلة التي تم ابرازها حتى الان ، والتي تم انتزاعها، احيانا ، بانزال العقاب العنيف والتعذيب ، وفي حالات اخرى ، بواسطة شهود يقدمون الادلة للادعاء ، وذلك حتى لا يبقى اي خيط من عدم الثقة في اكثر العقول ميلا للشك ، او اي خلاف في الرأي ، بشأن الفروق بين الاجراءات المتبعة في المحاكم الاوروبية ، وبين السبل العنيفة والمختصرة التي تمارس في تركيا ، سواء بشأن وقائع جريمة القتل او بشأن

الغرض الذي من اجله ارتكبت · وبناء على هذه الاسس القوية سيتم انـــزال العقاب بمرتكبي الجريمة ، واتخاذ اجراءات بحق الشعب اليهودي لمنعه مـــن تكرار مثل هذه الجرائم المرعبة » (٧) ·

هناك ثلاثة امور ملفتة للنظر في هذه الرسالة ·

١ ـ رغم التعارض ، الذي كاد يصل الى حد الحرب بين فرنسا وبريطانيا ، حول مسألة محمد علي ، فان القنصل البريطاني في دمشق لا يستطيع ان يفي القنصل الفرنسي حقه من الثناء لنشاطه في اثبات التهمة بحق اليهود في دمشق·

٢ ـ انه سيقوم ، من جانبه ، بالاتيان بأدلة اضافية ، وبصورة مستقلة عن تحريات القنصل الفرنسي وشريف باشا ·

٣ ـ التفريق بين مسألتين : ارتكاب الجريمة ، والغرض من ارتكاب الجريمة· فلا يكفي اثبات وقوع الجريمة وكشف مرتكبها ، لان الاكتفاء بذلك يجعلهـــا جريمة قتل عادية ·ولكن اثبات الغرض من ارتكاب الجريمة يجعل من مرتكبها اداة تنفيذ كلفه الشعب اليهودي ، لاسباب تتعلق بالعقيدة الدينية ، بارتكابها · وبهذا فقط يمكن « اتخاذ اجراءات بحق الشعب اليهودي » ·

ان رسالة محمد علي الى شريف باشا التي يامره فيها بايقاف اجراءاته ضد اليهود ، والتي يعبر فيها عن عدم تصديقه للحكاية كلها ، والتي ارسلها قبل ٢ ايار ، لم يكن لها مفعول ، اذ لم يجر اطلاق سراح اليهود قبل ٥ ايلول كمـــا اسلفنا · والسبب الظاهر هو تمسك القنصل الفرنسي بادعاءاتـــــه · ولكـــن رسائل القنصل البريطاني تبين انه كان هناك ما هو اكثر من الموقف المتصلـب للقنصل الفرنسي ·

ان جوانب من نشاط القنصل البريطاني في دمشق ، فيما يتعلق بهذه القضية، تتضح بواسطة دخول عنصر غير متوقع ، على ما يبدو ، الى المسرح · ففـــي تلك الفترة كانت تعمل في القدس جمعية انجليزية تبشيرية تحت اسم « الجمعية اللندنية لنشر المسيحية بين اليهود » ، وعندما وردت اخبار دمشق اليها ارسلت احد عناصرها وهو القس بيرتز ، وهو ذو اصـــــل يهودي ، للحصـــــول على معلومات بشأن ما يجري في دمشق · وفي رسائل القنصل ديري الى بيدويـــل السكرتير الخاص لوزير الخارجية بالمرستون ، نجد ما يلي : « لقد جاء الينا شخص يدعى بيرتز ، وهـــو مبشر من القدس ··· وقد كـــون رأيا مختلفـــا عن رأي القنصل الفرنسي والحكومة المحلية بشأن الاغتيالات التي ارتكبها اليهود ، ومن الغريب انه ينظر الى مرتكبي الجريمة باعتبارهـــم ضحايـــا ابريـــاء · ان الاجراءات العنيفة التي لجأ اليها الباشا لانتزاع الاعتراف واستخراج الادلة ، تمنح السيد بيرتز مجالا لصنع قضية لليهود ··· ان موقفه عنيف من القنصل

الفرنسي وشريف باشا ، وهو يخصني بنصيب من غضبه مدعيا بانني كنت مستشارا للقنصل الفرنسي ··· والحقيقة انني لم إلتق القنصل الفرنسي الا بوجود اشخاص اخرين ، ولم اقم بزيارة شريف باشا او اذهب الى القصر طوال فترة التحقيق ، ولم اذهب مرة واحدة الى الحي اليهودي من المدينة ···· انني اعتقد ان الحقيقة هي كما ذكرتها في رسالتي الى اللورد بالمرستون » (٨) ·

وفي رسالة اخرى بعثها القنصل البريطاني في دمشق ، بصفة شخصية ، الى بيدويل ، ومؤرخه بتاريخ ٢٢ حزيران ١٩٢٢ ، يقول مدافعا عن نفسه : « انني اجد ان صديقي السيد بيرتز ، المبشر المكلف بمهمة تنصير اليهود في القدس ، غير قانع بالتشهير بي في بيروت ، مدعيا بأنني قمت بدور نشط في توجيه التهمة لليهود بقتل الراهب توماسو وخادمه ، وأنني احمل عواطف متعصبة ضد اليهود ، بل ذهب الى الاسكندرية وشكا من سلوكي امام الكولونيل هورجز [القنصل البريطاني في الاسكندرية] ··· انني اقسم لك بشرفي بأنه لم يكن لي اي دور في ما تم من اجراءات ، بأية طريقة كانت ، وانني بريء كليا من جميع التهم التي يلصقها بي السيد بيرتز » (٩) ·

اننا لا نستطيع الزعم بأن بامكاننا اعادة تركيب صورة ما حدث في دمشق عام ١٨٤٠ بين ٥ شباط و ٥ ايلول من ذلك العام · غير ان ما بين ايدينا من وقائع ومعطيات يمكننا من القول ان حادثة دمشق عام ١٨٤٠ لم تكن حادثة محلية ، وان اعطاء الانطباع في العواصم الاوروبية وفي اميركا بأن الحادثة تعبر عن تعصب الشرق وتمسكه بالخرافات وتميزه بالقسوة ، لم تكن عملية بريئة ابدا · فقد اتضح ان القنصل الفرنسي هو صاحب الدعوة ، وان القنصل البريطاني كان معجبا به وبنشاطه ، وان محمد علي امر بايقاف الاجراءات ، وان عدم انهاء القضية بسرعة يعود الى الضغط الخارجي · كذلك نستطيع القول ان تفسير هذه الحادثة ، وقد وقعت حوادث مشابهة لها في اماكن كثيرة في الفترة الواقعة بين ١٨٤٠ ـ ١٩١٤ ، لا يمكن ان يعتمد على دراسة الملابسات المحلية · فقد يكون من بين الاسباب الدافعة لوقوع الحادثة وللضجة العالمية التي اثيرت حولها ، تشويه صورة محمد علي واعداد الرأي العام الاوروبي للحملة العسكرية التي شنتها الدول الاربع الكبرى في ذلك الوقت لاخراج محمد علي من سوريا · ولكن عيب هذا التفسير ان هذا الغرض يخدم بريطانيا وليس فرنسا · ان المؤرخ والزعيم الصهيوني ناحوم سوكولوف يقدم وجهة النظر التالية في هذه الحادثة: « ان هذه الحوادث قد ايقظت بني اسرائيل من سباتهم العميق · وقد حركت الرأي العام اليهودي في العالم اجمع وخاصة في انجلترا وفرنسا · ومثل جميع الاضطهادات فقد عملت على تعزيز التضامن اليهودي ··· ان حادثة دمشق مثل جميع الاحداث التي جرت قبلها وبعدها

قد حركت الطموحات الصهيونية ... ذلك ان الاضطهـــاد يكشف لليهـــودي حقيقة وضعه ، وهو الوضع الذي لا يستطيـــع اليهودي فهمـــه خـــلال فترات السلام ... ان عددا من اليهود في بلدان مختلفة وخاصة في انجلترا ، بدأوا يسألون انفسهم : كيف ستكون نهاية كل هذه المعاناة ؟ وكان الجواب : هنـــاك شيئان ضروريان :

١ ـ حماية بريطانيا العظمى لليهود في الشرق .

٢ ـ استعمار فلسطين » (١٠) .

حادثة دمشق ١٨٤٠ تطرح امامنا سؤالا كبيرا : هل يهود الشرق هم الذين كانوا « يحتاجون » لحماية بريطانيا ام ان بريطانيا هي التي « تحتاج » ان تحمي يهود الشرق ؟ هذا سؤال ما زال مطروحا ، وما زال ينتظر الاجابة .

الحواشي

(١) تمت ترجمة هـذا النص عـن نص أورده البرت حايمسون باللغة الانجليزيـة في دراسة له بعنوان « حادثـة دمشق ـ ١٨٤٠ » منشورة في

The Jewish HIstorIcaL socIty of EngLand; Transaction : Sessions 1945 — 1951 VoL XVI London, 1952.

والوثائق اللاحقة ماخـوذة عن المصـدر نفسه .

(2) Tuchman, Barbara, « *BibLe And Sword* » London, 1957, p 113.

(٣) المصدر نفسه .

(٤) حايمسون ، مصدر سبق ذكـره ، ص ٦٠ .

(٥) المصدر نفسه ، ص ٦٠ .

(٦) المصدر نفسه ، ص ٥٠ .

(٧) حايمسون ، مصدر سبـق ذكـره ، ص ٥١ . نص الرسالة منقول عن وثائـق وزارة الخارجية البريطانية :

F . O . 195/170, NO, 49 of 30th March, 1840, and, F . O . 18/410 of . 23 Rd March, 1840, wherry To Palmerston.

(٨) حايمسون ، مصدر سبق ذكـره . رقم الوثيقة في وثائق وزارة الخارجية .

F . O . 18/410 g . 24th April 1840.

(٩) المصدر نفسه ، ص ٥٨ ـ ٥٩ .

(١٠) سوكولـوف ، ناحـوم ، تاريـــخ الصهيونية ١٦٠٠ ـ ١٩١٨ ، لونغمانـــز غرين ، لندن ١٩١٩ ، ص ١١٠ ـ ١١٢ .

اديب ديمتري

أعمدة العرقية الأوروبية وجذر الصهيونية

القومية الرجعية والعرقية في النظرية والتطبيق

المدرسة الالمانية : النظرية القومية الالمانية ، وهي النظرية التي اعتنقتها البورجوازية الالمانية ومارستها ، تختلف اختلافا بينا عما يسمى « بالمدرسة الفرنسية » سواء في الفلسفة او السياسة ، وذلك بسبب الاختلاف الكبير في ظروف النشأة والتطور ، والمراحل التي مر بها تكوين الامة والدولة الالمانية ، وبالاخص محاولات تحقيق الوحدة القومية الالمانية · وقد كان لهاتين النظريتين البورجوازيتين في القومية ـ الالمانية والفرنسية ـ ابعد الاثار في التاريخ الاوروبي ، وعلى مستقبل الصراعات الاوروبية ، وعلى انواع النظم التي قامت، والنظريات التي سادت ·

فقد خضعت المانيا في اثناء تكوينها التاريخي لاثار تجربتين سياسيتين على درجة كبيرة من الاهمية :

اولاهما : ان المانيا بقيت ترسف ازمانا طويلة في قيود الفيودالية ، في حين تحررت فرنسا بتحطيم هذه القيود ، فاستمرت المانيا تخضع لتأثير الاراء والمبادىء السائدة في العصور الوسطى : فلم تكن تعرف معنى للسيادة العليا غير الامبراطورية ـ الامبراطورية الرومانية المقدسة ـ اي ان الفكرة التي اصبح لها التغلغل والرسوخ هي فكرة الامبراطورية ، وبمعنى آخر ، الفكرة «العالمية» ، فلم يكن لمدلول (الدولة) القومية ، القائمة على مساحة معينة من

الارض ، اي وجود في فكر الامبراطورية ، بل تتخذ الامبراطورية مكانها متربعة فوق كل (الدول) ، ويتخذ الامبراطور مكانه متربعـــــا فوق كل الملـوك ٠ والامبراطور هو الذي يمثل الفكرة المسيحية في عالم السياسة ، كما يمثل البابا هذه الفكرة ذاتها في عالم الدين والروح (١) وهو الامر الذي سهل الانفصام بين القومية الالمانية ، والتنظيم السياسي في المانيا ، كما سهل بقاء المانيا والامـة الالمانية مفتتة ومجزأة بين عدة دويلات ودول ، خاصة في ظل ضعف البورجوازية الالمانية التاريخي ٠

أما التجربة الثانية ، فقد كانت في بعض نواحيها مناقضة لهذه التجربـــة الاولى بظهور نوع من الدول في المانيا ، خرجت تاريخيا الى حيز الوجود بفضل عوامل مصطنعة مثل بروسيا ، التي عمل آل هوهونزلسون على تكوينها من اقاليم مختلفة دخلت في حوزة هذه الاسرة ، أما بطريق الارث او التزاوج، او كفتوحات بحد السيف ٠٠ الخ وتألفت منها مملكة بروسيـا ٠ ويرجـع الفضـل فيما بلغته بروسيا وقتئذ من يأس وقوة الى تنظيمها البيروقراطي في الحكم ، وجيشهـــا النظامي القوى ٠ وظل الجيش والبيروقراطية العنصرين الاساسيين في تشييـد صروحها ، وقد بلغ بها فردريك الثاني الاكبر (١٧٤٠ ــ ١٧٨٦) القمة بحكومته المستبدة المطلقة ٠ وبذلك خرجت الى الوجود امة بروسية اختلفت في تكوينهـــا تماما عن الامة الفرنسية والانجليزية ، وهما الامتان اللتان كان قد تم اكتمال تكوينهما ووجودهما بصورة من الصور قبل تأسيس الدولة ٠

وهكذا صارت بروسيا ــ فيما يتعلق بالقومية ــ مثالا لما يمكن ان تحدثه وتوجده الدولة بما تملك من قوة وقدرة انشائية ، حتى ان المرء في وسعه ان يقدر صنـع كل شيء للدولة بعد ان خلقت امة وشعبا من عناصر مبعثرة ٠ اصبحت الدولـة تتميز بذاتية خاصة بها ، وكيان يفيض بالحيوية والنشاط ، الامر الذي انتهـــى بالفكر البورجوازي البروسي الى تقديس الدولة كما تتمثل بوجه الخصـــوص في فلسفة هيجل ، الذي لم يفعل اكثر من ان ينقل هذه الحقيقة البروسية مـــن ميدان الحوادث الواقعة الى عالم الفكر المجرد (٢) وقد كان لهذا المفهوم انصاره وانتشاره بين كافة طبقات الشعب ٠

الوجود الذهني للامـــة

وفي حين تعذر خروج المانيا الى حيز الوجود ، ولها كيانها السياسي والقومي المتجسد في دولة موحدة ، في اواخر القرن الثامن عشر ، كما حدث في فرنســا وانجلترا من قبل ، فقد شهد هذا العصر بروز امة من ميدان الادب والفكر فـــي المانيا ، بعدما اصابها من الشلل بسبب حروب الثلاثين (١٦١٨ ــ ١٦٤٨) في القرن السابع عشر ، فبعد انقضاء هذا العهد المضطرب، ومع ارتقاء البورجوازية

ونموها مع عودة الانتعاش الاقتصادي الى المانيا ، خلال هذه الفترة ، وبسبب انتشار التربية والتعليم انتشارا قويا بين ابناء هذه الطبقة ، ومن دلالاته انشاء جامعة جونجن Gottengen سنة ١٧٣٣ · من ذلك كله برزت الامة الالمانية ، والتي ظهرت في عالم الوجود في اواخر القرن الثامن عشر ، كأمة (عقل وفكر) تستند في تكوينها الى العامل الذهني والفكري ، او الادبي والروحي ، اكثر من استنادها الى الوجود المادي في دولة موحدة ·

ولقد ترتب على هذا القصور في الوجود القومي الالماني ، بالاضافة الى الضعف النسبي للبورجوازية الالمانية ، نوع من الميوعة والاضطراب في المفاهيم، بالقياس الى الفكر الليبرالي المتماسك الذي اسهم في بناء الامم المجاورة وبالاخص فرنسا وانجلترا ، كما فتح الباب واسعا لانتعاش الفلسفات الرومانسية اللاعقلانية ·

البورجوازية الالمانية والسلطة

وحتى نتبين الابعاد والمعالم الفكرية للمدرسة الالمانية القومية لا بد ان نضيف الى العوامل التي سبق ذكرها سؤالا طرحه انجلز في مقدمة « حرب الفلاحين » : لماذا تأخرت البورجوازية الالمانية في الاستيلاء على السلطة ؟

يجيب انجلز انه من سوء حظ البورجوازية الالمانية انها وصلت متأخرة جدا فقد جاءت فترة ازدهارها في وقت كانت فيه بورجوازيات البلدان الغربية تسير في طريق الهبوط والافول السياسي · فالبورجوازية الفرنسية لم تتمكن من الاستمرار في الوجود الا بالتخلي عن سلطتها السياسية للويس بونابرت والجيش، وبحكم تبادل التأثير الشديد بين الدول الاوروبية الثلاث المتقدمة : فرنسا وانجلترا والمانيا ، لم يعد من الممكن للبورجوازية الالمانية خلال تلك الفترة ، ان تتربع على عرش السلطة ، وتستقر براحة وأمان ، بينما الارض تميد من تحت اقدام البورجوازيتين الانجليزية والفرنسية ·· بعد أن لم يعد حكم البورجوازية يثبت فائدته ·

ذلك ان من سمات البورجوازية بالذات ، بخلاف كل الطبقات الحاكمة من قبلها ، وجود نقطة تحول حاسمة في نموها عندها يتحول كل ذي فيها ، وخاصة في رأسمالها وفي سلطتها ، الى عنصر سلب وعجز يضعف كفة سلطتها السياسية ، فوراء البورجوازية تقف البروليتاريا · وبقدر ما تنمي البورجوازية من صناعاتها وتجارتها ، ووسائل مواصلاتها فانها تولد البروليتاريا ايضا · وعند نقطة معينة تختلف من بلد الى آخر ، تبدأ البرجوازية في رصد ظاهرة تسبب لها الهلع وهي : ان البروليتاريا تسبقها وتتفوق عليها سياسيا ·· ومنذ تلك اللحظة تفقد الدفعة المطلوبة للانفراد بالسلطة ، وتتلفت حولها ، تبحث عن

حلفاء يشاركونها ، او تسلمها لهم تماما اذا لزم الامر ·

في المانيا ، جاءت نقطة التحول هذه بالنسبة للبورجوازية ، في راي انجلز سنة ١٨٤٨ (٣) ، اما حلفاؤها هؤلاء الذين تتطلع اليهم ، في لحظات محنتها ، فهم بالضرورة من طبيعة رجعية فهناك الملكية المطلقة بجيوشها وبيروقراطيتها ، وهناك النبالة الاقطاعية الكبيرة وطبقة اليونكرز حتى رجال الدين الرجعيين · وقد عقدت البورجوازية الالمانية مع هؤلاء جميعا الصفقات ، لعلها « تنقذ » جلدها ، حتى لم يعد لها شيء تقايض عليه على حد تعبير انجلز ·

افول الليبرالية الالمانية

وبرغم كل هذه العوامل ، والتراث الالماني المعوق لانطلاق الليبرالية والقومية التقدمية بمفاهيمها الفرنسية والانجليزية ، الا ان اثر الثورة الفرنسية ونابليون كان كاسحا بلا شك وقد شمل المانيا ، كما شمل غيرها على الصعيد الاوروبي كله · لقد اكتسح نابليون في طريقه بروسيا ، كما اكتسح معظم الامارات الصغيرة · ودك مع جيوشها علاقات الانتاج الاقطاعية ونظمها وفتح الطريق لافكار الثورة الفرنسية ومعها فرص الانتعاش للبورجوازيات القومية · ومن ثم تصاعدت تطلعات الامم للتحرر والوحدة · فقد اعقب الثورة الفرنسية وزحف جيوش نابليون موجة عاتية من المشاعر القومية اغرقت اوروبا الثورية في ذلك الزمان ·

واذا كان الحلف المقدس بقيادة مترنخ استطاع ان يركب هذه الموجة بعد سقوط نابليون ، الا انه سرعان ما دخل في صدام مباشر مع نفس المشاعر الوطنية التي اراد توظيفها لاغراضه ، وسرعان ما افتضحت قيادة الحلف (النمسا وروسيا وبروسيا) بنظمها الاقطاعية وشبه الاقطاعية ، وركائزها في النبالة الاقطاعية ، ثم اصابها الشلل والعجز في مواجهة البورجوازيات الاوروبية النامية ، بورجوازية الاعمال والمال ، وهي بالضرورة في هذه المرحلة بورجوازية ليبرالية ، تطلب الحرية بأوسع معانيها من اجل استثماراتها وانتاجها (٤) ·

ظلت موجة الليبرالية التي اثارتها عواصف الثورة الفرنسية حية برغم الظلام والرجعية التي عمت اوروبا مع الحلف المقدس · وقد حاولت الطبقة الوسطى الالمانية ، والتي كانت تضم صفوة المثقفين واساتذة الجامعات والمهنيين ، ان تتولى زعامة موجة المشاعر الوطنية الصاعدة ، وان تضفي على الحركة كلها طابعها الليبرالي ، وكانت ذروة هذه المحاولات ١٨٣٠ ، ١٨٤٨ ولكن الفشل ادى الى نكسة خطيرة لليبرالية الالمانية ، ووقعت فلول الليبراليين في قبضة فئات

الحكام الذين نجحوا في توحيد المانيا على اسس اخرى (٥) مغايــرة تماما ، ومناهضة لليبرالية · فقد طغت قضية الوحدة القومية على المطالب الدستوريـــة الليبرالية عند اقسام كبيرة من الشعب ، الذي فقد ايمانه بالمؤسسات الديمقراطية ولجأ الى العرش في طلب تحقيق هذه الوحدة ·

فلسفة الحقوق ودولة الحقوق

تمخض التحول عن الفكر الليبرالي عن فلسفة جديدة تجعل من « الدولة » لا الفرد محور النشاط الاجتماعي والسياسي ·

وتعتبر فلسفة الحقوق التي احتلت مركز الصدارة في الفكر السياسي الالماني بعد فشل الليبرالية في تحقيق الوحدة القومية ، فلسفة المانية خالصة · فقد قامت على اسس مستمدة من فلسفات هيجل وكانت وعدد من الفقهاء الالمان في النصف الثاني من القرن التاسع عشر (٦) ·

ومفهوم دولة الحقوق يقوم على فكرة الاعتراف للفرد والمواطن بحقوق معينة يحددها ويضمنها القانون ، ولا تستطيع الدولة بحكم طبيعتهـــا القانونية ، وبوصفها تنظيما قانونيا سوى احترام هذه الحقوق · وحقوق الفرد بهذا الوصف حقوق داخل الدولة وليست في مواجهتها ، تنبع من مفهوم الدولة ذاته ، وليست شيئا خارجا عنه او مضادا له ·

ومن الواضـــح ان هذا التصـــور للدولة يختلــف اختلافــا بينــا عــن مذهب « الحقوق الطبيعية » الليبرالي كما عرفته فرنسا وانجلترا · فالحقوق الطبيعيــة في الفكر الليبرالي الغربي ، خلال القرن الثامن عشر ، نشأت في مواجهة الدولة، وقيدا على نشاطها، لانها نبتت وترعرعت في ظل الصدام العنيف بين البورجوازية الصاعدة والدولة الاقطاعية · وهي لهذا السبب تتمسك بمجموعة من الحقوق الشخصية التي تراها متأصلة في الطبيعة البشرية ، ومطلقة ، بعكس مفهـــوم الحقوق في « دولة الحقوق » التي تستمد من سلطة الدولة وقانونيتها ·

ولا شك ان هذا المفهوم للحقوق وللدولة مما يتفق مع مصالح بورجوازيـــة ضعيفة عجزت عن تحقيق امانيها في الوحدة القومية من خلال الشعـــــارات الليبرالية الغربية التي بدت لهـــا مستوردة ، ولا تنبع من تربتها : كمـــا انه ممـــا يحقق الامن والاستقرار لبورجوازية جزعة من حركة الطبقية العاملة في بلادها، وفي اوروبا عموما ، وقد اخذت نداءاتها وشعاراتها الاشتراكية منذ ثورة باريس سنة ١٨٤٨ تغطي الساحة الاوروبية · ومن هنا فقد وجدت البورجوازية الالمانية في هذه الفلسفة ضالتها ، تحقق لها رغبتها المزدوجة : في تبني فلسفة كاملـــة بديلة عن الليبرالية الفاشلة ، يكون لها دورها الخاص والمميز في تحقيق الوحدة

القومية وفي التنظيم الاجتماعي ، كما تحقق لها الامن والاستقرار ٠

موجة الرجعية السوداء في اوروبا

عرف ماركس الدولة البروسية الالمانية البسماركية سنة ١٨٧١ بانها استبدادية عسكرية ، تزينها اشكال برلمانية ، وهي مزيج من علاقات الملكية الاقطاعية والنفوذ البورجوازي ، تقوم على هيكل عظمي بيروقراطي وسندبوليسي (٧) ٠

وكان بسمارك يواجه التهديد الذي خيم على اوروبا الجرمانية الكاثوليكية ، ويدعو النبالة الريفية والبورجوازية الكاثوليكية والبروتستانتية الى الاتحاد في مواجهة العدو الجديد : وهو البروليتاريا ، وكل دعوات الاشتراكية الديموقراطية والنقابات والتنظيمات التابعة لها ٠

والواقع ان وصول بسمارك الى الحكم في المانيا ، يعطينا نموذجا ، للطريقة التي واجهت بها الرجعية الاوروبية تعاظم الثورة في اوروبا على يد الطبقة العاملة وقيادتها الراديكالية الجديدة ، كما يؤذن بالتحول الكبير الذي سيطرا على الحركة السياسية في القارة ، بانتكاس القومية الليبرالية الديموقراطية وتحولها الى القومية الرجعية الشوفينية ٠

فقد كتب ماركس وانجلز بيانهما الشيوعي سنة ١٨٤٨ ٠ وكان بيان قادة الاشتراكية العلمية ثمرة لنضالات الطبقة العاملة الاوروبية ، وتكثيفا لخبرتها وانعكاسا لواقعها الجديد منذ ثورات سنة ١٨٣٠ وسنة ١٨٤٨ بوجه الخصوص في فرنسا والمانيا ، كان يؤذن بمرحلة ثورية جديدة عبرت عنها تنظيمات الطبقة العاملة واحزابها الاشتراكية العلمية في هذه الفترة ٠ وقد خيمت حركتها على الاجواء الاوروبية ، وبدت شعاراتها ونداءاتها التي ارتفعت ، في اعين الرجعية، سحابات سود تنذر ببروق ورعود مشحونة بالخطر ٠

وكان للنجاح الذي احرزته حركة الوحدة الايطالية ، بعد انتصارها الكبير سنة ١٨٥٩ ــ ٦١ تحت قيادة كافور الليبرالية ، اثر في تنشيط وتحريك الفكر الليبرالي وشد ازره في جميع الاقطار الالمانية ٠ وامام هذه الموجة الجديدة المتعاظمة من الثورة الليبرالية والراديكالية البروليتارية استدعي بسمارك ليتولى الوزارة سنة ١٨٦١ ٠ وفي مستهل وزارته حاول اجتذاب الاغلبية الليبرالية في البرلمان ، ولكنه سرعان ما عبر عن حقيقة اتجاهه عندما تحدث عن الوحدة القومية بقوله : « المانيا لا تتطلع الى ليبرالية بروسيا ، بل الى قوتها « لأن « المسائل الكبرى في العصر لا يتقرر مصيرها بالخطب وقرارات الاغلبية فهذه هي اخطاء سنة ١٨٤٨ وسنة ١٨٤٩ بل بالدم والحديد » (٨) ٠

وعندما حدث النزاع بين بسمارك والاغلبية الليبرالية في البرلمان ، اعلن تأجيل جلسات البرلمان ، ولم يكن في وسع القيادات الليبرالية ان تفعل شيئا · فقد كان الطريق الوحيد امامها هو اعلان الثورة ، ولكن البورجوازية الالمانية كانت قد بدات تخشى الانتماء للجماهير ، وظهر بوضوح انها على استعداد للتعامل مع اي نوع من الحكم ، حتى لا تنتقل قيادة الصراع الى الشعب نفسه (٩) · وكان لانتصار بسمارك الساحق على النمسا سنة ١٨٦٦ اثر بعيد على الليبرالية الالمانية ، حتى ليعد بعض المؤرخين هذا الانتصار ، انتصارا على القوى الليبرالية البروسية ذاتها قبل كل شيء ، فقد تحول قسم كبير منها الى مساندة النزعة القومية الرجعية بقيادة بسمارك واصبحوا ابواقا له ·

والواقع ان الطريقة التي وصل بها بسمارك الى الحكم ، وعالج بها ازمة البورجوازية ، تحمل دلالات ابعد من المانيا بكثير ، لتشمل القارة في حقيقة الامر · واذا كان سنده في سياسته ، المفاهيم الرومنسية الرجعية التي تقدس الدولة وتجعل منها الهدف النهائي والتي كانت تلاقي رواجا بين صفوف البورجوازية الالمانية في تلك الفترة ، الا ان سياسته في الحقيقة تحمل دلالات ابعد من المانيا وتؤذن بالتحول الكبير الذي طرأ على مواقع البورجوازية الاوروبية وموقفها من الثورة ، كما يؤذن بالتحول الذي طرأ على مفهوم ومضمون القومية في تلك المرحلة · فقد انتكست وتحولت الى القومية الرجعية والشوفينية التوسعية والتي تقودها ارستقراطية المال الامبريالية بالتحالف مع طبقات النبالة القديمة ، حدث التحول في المحتوى والمضمون الذي تحمله هذه القومية ، فبعد مرحلة الصعود في القرن الثامن عشر والذي كانت تتصدى لقياداتها بورجوازية ليبرالية ديمقراطية وثورية ، استولى على القيادة امام صعود الحركة الجماهيرية والبروليتارية ، ارستقراطية مالية معادية للديمقراطية ، ولتقودها في طريق تحقيق مصالحها الجديدة ، مصالح التوسع والعدوان والصراعات القومية ، وسياسات الالحاق والضم ، واخيرا الامبريالية والتوسع الامبريالي · وكان بسمارك نموذجا لهذا التحول والحركة الرجعية النشطة التي تصدت بنجاح لموجة الثورة المتعاظمة ، لتكبح جماحها بالتدريج وتركب موجة القومية بالتحديد ، لتلبسها مثلها واهدافها الشوفينية الرجعية ، وتجردها من كل محتوى ومضمون ديموقراطي · دفنت قومية العقل والانسانية والتقدم والتآخي البشري ، لتنبت على قبورها الشوك والحسك : التعصب الاعمى ، والتمييز العرقي والعنصري والعدوان ·

قومية الطبقات السلفية الرجعية والمنتكسة ، وقد رفعت علم الرجعية الاسود الهمجي «الحديد والدم» ·

العرقية الاوروبية

لم يعد يخفى الجذر الطبقي للعرقية حتى على المؤرخين والمفكرين البورجوازيين خاصة بعد مأساة النازية والفاشية والحرب العالمية الثانية · فهرتز يؤكد (١٠) (١١) ان العنصرية ذات جذر طبقي ولا علاقة لها في الاساس بالدم ، ويدلل على هذه الحقيقة باسبانيا ، فيقول ان الصراع الطويل بين المسيحيين والمسلمين ، ادى الى تمجيد الفضائل الحربية بين الاسبان ، والى مذهب « الدم النقي » ، اي النقي من الاختلاط بدماء المغاربة اليهود ، واصبحت الخدمة العسكرية في الجيش رمز الشرف بعد انتصار الاسبان ، في حين ظلت التجارة والصناعة والزراعة محتقرة ، لانها كانت في يد الكفرة واليهود · وقد بلغ الحماس من اجل نقاء الدم في القرن السادس عشر الى ما يشبه النازية ، وصارت الشهادات التي تصدرها محاكم التفتيش من المسوغات الاساسية لاي عمل طموح ، وبعد طرد المغاربة واليهود ادت روح العنصرية الشائعة ، وازدراء الوان النشاط الاقتصادي ، والعقلية العسكرية المسيطرة ، الى انهيار قوة اسبانيا ورخائها ·

ولا ريب ان جذر العنصرية والعرقية ، ومفاهيم الدم النقي ، والشعب المختار. يكمن في التراث التاريخي للطبقات الحاكمة التي تحاول الاحتفاظ بشكل او اخر من اشكال الرق والاستغلال والعبودية الانسانية · وكما يلاحظ هرتز بحق ان قيام الامم الحديثة اقترن بهزيمة التفتت والانقسام داخل الامة ، القائم على اساس « الدم الافضل » · وكان النزوع القومي نحو المساواة في المركز الاجتماعي يقابل على الدوام بمقاومة سافرة او متسترة وراء اغطية عرقية · ففي القرن الثامن عشر زعم النبلاء الفرنسيون والمدافعون عنهم من اعداء الامة الفرنسية الناشئة ، ان النبالة تنحدر من نسل الغزاة الفرانك ، وان العامة من نسل الرومان والغاليين المهزومين ، واتخذوا من هذه المزاعم حجة لاثبات حقهم في السلطة والحكم فيمواجهة افكار الثورة وارهاصاتها ، رغم ان هذه المزاعم لم تكن لتقف على قدميها امام حقائق التاريخ ، فقد زالت الحدود بين الاجناس تماما ابان العصور الوسطى ، نتيجة الاختلاط ، ولكن الفوارق الطبقية هي التي استمرت وتزايدت بينالنبلاء والطبقة الوسطى وعامة الشعب ، وانعكست في مفاهيم التفرقة العنصرية وادعاءات السمو ونقاء الدم ·

ووجه الخطورة ان دعاوى العرقية في عصرنا ، وخصوصا بعد هزيمة النازية قلما يكون الافصاح عنها بالشكل الصريح والفج الذي نشهده في سياسات العزل والتمييز العنصري في جنوب افريقيا وروديسيا ، بل هي اليوم اقرب الى ان تأخذ شكل الدين العلماني الذي يتخفى وراء دعاوى واقنعة علمية وتاريخية ودينية ، والعقائد الراسخة المؤسسة على العلم والاخلاق · وقد مرت تيارات العنصرية

بمراحل تاريخية محددة في اوروبا ، ووضع الاساس النظري لها خلال القرنين الثامن عشر والنصف الاول من القرن التاسع عشر ، ثم زادت قوة وانتشارا ابتداء من النصف الثاني من القرن التاسع عشر ، واكتسبت شعبية واسعة في المرحلة ما بين الحربين العالميتين ، ثم تحولت الى سياسات في التطبيق في الدولة الفاشية والنازية ٠

لقد كان الاحياء الرومنسي للتاريخ خلال القرن الثامن عشر امرا اساسيا وجوهريا لنمو المثال العرقي ، بمثل اهميته لنمو القومية الحديثة والتقدمية ، ثم اضافت قوانين التطور العضوي والبيولوجي ، والتي انتقلت من مجالات البيولوجيا ، الى مباحث اللغويات ، لتلعب دورا حاسما في نمو وتطور الفكر العرقي ٠ وكانت المعالجة العضوية للتاريخ او معالجة تاريخ الشعوب ككائن عضوي في بيئة بعينها ، وينمو ويتطور وفق قوانين التطور الحيوي والبيولوجي ،دورا خاصا في خلق الفواصل والفوارق السحيقة بين الناس والامم حتى قيل ان هذه الفوارق ليست من فعل الانسان او البيئة الاجتماعية ، بل هي ثمرة خطة الهية ٠ كان لجون جوتفريد هردر (١٧٤٤ ــ ١٨٠٥) الذي سبق الحديث عنه مثل هذه النظرة التي كان لهاتأثيرها الواسع في غرب وشرق اوروبا ٠ فقد اعتبرت الطبيعة والتاريخ بمثابة القوى الخلاقة فيالكون واصبحت الاصالة والتلقائية الغريزية للشعوب في جذر السمات انتي يتميز بها كل شعب من خلال تطوره في التاريخ ، وهي تعبر عن نفسها من خلال اللغة القومية والشعر الشعبي والاسطورة ، والادب عموما الذي يخلقه الشعب بغريزته وتلقائيته هذه ٠ واعطى هردر للقومية ابعادا جمالية وتاريخية ولغوية جعلت منها كائنا عضويا حيا ينفصل ويتميز على اي شكل من اشكال التنظيم السياسي ، وهذا الشعب او الكائن الحي اسمى من الدولة ذاتها ٠ وبالرغم من ان هردر نفسه ينتمي بلا شك الى رجال عصر التنوير ولم يكن يؤمن بالعرق أو بتفوق امة ، كما لم يكن حبه لشعبه يستبعد احترامه للشعوب الاخرى ، الا ان هذا الفكر كان له ابعد الاثر في ظروف اخرى مغايرة في خلق واثمار المفهوم العرقي (١٢) ٠

وكان تأكيد هردر على اللغة باعتبارها التعبير عن الماضي المشترك للشعوب، من الامور الشائعة بين جيل كامل من اللغويين في نهاية القرن الثامن عشر وبداية القرن التاسع عشر ٠ وقد انتهى علماء اللغة الى ان السنسكريتية كانت هي اصل اللغات الاوروبية الغربية وانها انتقلت الى اوروبا من آسيا خلال هجرة الشعوب الاوروبية ٠ ولكن سرعان ما انقلب هذا البحث اللغوي الفيلولوجي الى احكام اخلاقية وقيمية ، فأصبح الآريون الذين اعطوا الأوروبيين لغاتهم ، يعكسون في ماضيهم تفوقا اورثوه لابنائهم من الاوروبيين ٠ وقد وجد الرومنسيون الرجعيون ، من خلال علم اللغة رباطا بين ما قبل التاريخ الآري والشعوب

الجرمانية والاوروبية عموما · وصور الفيلوجيون الجنس الاري على انهم فلاحون اقوياء وعذريون يحيون حياة عائلية صحية ، لم يدخلها فساد · هنا تحول العلم اللغوي الى اسطورة تاريخية هي اسطورة تفوق هذا الجنس او ذاك·

وبعد ثورات سنة ١٨٤٨ حدث التحول الحاسم ، كما رأينا من قبل ، فقد مال الميزان بالتدريج ولكن بشكل نهائي في اتجاه المحافظة والقومية الرجعية الشوفينية ، وخفتت كفة الليبرالية الى حد كبير ، بعدما اصاب الذعر البورجوازية واصبحت القومية الرجعية الشوفينية هي الحاجز ، وهي الدرع الواقي في يد القوى المحافظة في مواجهة موجة الراديكالية المتعاظمة · حدث هذا على امتداد الساحة الاوروبية ، وفي وسط اوروبا ، وحتى في فرنسا وانجلترا وادار المحافظون وجهة القومية تجاه الضم والالحاق والتوسع من خلال الدبلوماسية والعدوان العسكري ، واصبحت الدولة هي اداة السلطة من اجل المجد القومي في الخارج والمحافظة على النظام من الداخل · اضمحل المفهوم الليبرالي التقدمي للقومية ليأخذ مكانة المفهوم المحافظ والرومنسي الرجعي · ولا جدال في ان الحرب النابليونية قد اسهمت في احداث هذا التحول ، وقد كان الليبراليون وحتى الرومنسيون الاول يؤمنون بالتعايش بين الامم وان العلاقة بين الدول تحكمها نفس العلاقة بين الافراد ولم يكن من قبيل الصدفة بعد ثورة سنة ١٨٤٨ ان يتناول الكونت دي جوبينو الفرنسي وهو رائد العنصرية الاوروبية الصريحة والفجة ، حجج الارستقراطيين القديمة ليصوغها صياغة جديدة في كتابه « بحث في تفاوت الاعراق البشرية » وقد صدر سنة ١٨٥٢ · في هذا الكتاب اعتبر النبلاء والعناصر ذات الانتاج الثقافي والفكري من الامة تنتمي للجنس الآري والتيوتون ، وهو يتحدث عن اللغة « النقية » للاريين ، ويقيم بحثه على اساس الانثربولوجيا وعلى اللغات كما تطورا في منتصف القرن · وكانت نظرياته العرقية تهدف الى تفسير العالم الغريب والمزعج الذي يعيش فيه· فاصبحت العرقية عنده هي تفسير الانحطاط في العصر · وقد صنف جوبينو السود والصفر والبيض وفق تركيبهم الاجتماعي واللغوي والفكري · فالاجناس الصفراء اثبتت انها مؤهلة للتجارة والصناعة ولكنها لا تصلح لما هو ابعد من هذه الاهداف المادية اما الاجناس السوداء فهي عاجزة عن خلق مجتمعات ثابته مستقرة وتحتاج الى سيطرة من الخارج · ومع ذلك فقد سيطرت عليه نظرة تشاؤمية ، فقد كان يرى ان مصير الجنس الاري المحتوم هو التدهور والانحطاط بسبب الاختلاط الذي لا سبيل الى تجنبه مع الاجناس الادنى (١٣) ، ولكن جوبينو لا يخفي هدفه فهو يعلن صراحة عداءه للاتجاهات التحررية واعجابه بالفيودالية ويوجه كراهيته لفكرة « الوطن » التي اطلق عليها « مخلوق فظيع من ابتكار الساميين ، والديمقراطية الليبرالية »· ومن الواضح ان جوبينو اسقط على هذه الاعراق والاجناس الصفات الحديثة التي كان يحتقرها ·

فالاجناس الصفراء هي البورجوازية بينما السود هم الدهماء امـــا الجنس الابيض فهو وحده الذي يجسد كل ما هو نبيل وروحاني · اصبح هـذا الجنس تجسيدا ليوتوبيا تقف في مواجهة حقائق العصر المفجعة (١٤) ·

وليس من قبيل الصدفة ايضـا ان حـزب المحافظيـن في انجلتـرا اعيـد احياؤه في نفس هذه الفترة على الاسس الرومنسية المحافظة تحت قيادة دزرائيلي (١٨٠٤ ـ ١٨٨١) والذي أصبح رئيسا للوزارة سنة ١٨٧٤ ·

كان حجر الزاوية في فكر دزرائيلي هو انجلترا في العصور الوسطى فـي صورتها الصوفية حيث كانت تتحقق العدالة الاجتماعية من خلال نظام النبالـة الابوي ، والعودة الى تلك العصور هو ما يمكن ان يعين على حل مشاكل انجلترا المعاصرة حينذاك فهو ما يوجد « الامتين » على حد تعبيره ، امة الاغنياء وامة الفقراء · ومثل هذه النظرة الصوفية الرومنسية تؤدي مباشرة ، اذا ما طبقـت على المفهوم القومي ، الى النظرة العرقية · وقد كان دزرائيلي يرى في الجنس او العرق مفتاح التاريخ ويرفض مفهوم القومية التقليدي ، لانه يخشى مما ينطوي عليه من مبادىء المساواة ، ويقدم العرق بديلا عن هـــذه القومية الليبراليـة الخطرة (١٥) ·

والواقع ان دزرائيلي ، وهو اليهودي المعروف ، كان قد سبق وقدم افكـاره العرقية هذه على لسان شخصيات روائية في قصصه ، حتى ان البعض يذهـب الى جوبينو ان استمد من دزرائيلي ·

ففي نفس الوقت الذي كان فيه تيار الاندماج اليهودي هو الغالب والكاسح في انجلترا والنظرة المتعصبة لليهود والمتوارثـة من العصور الوسطـى تتهـاوى وتضمحل ، وتغلب الفطرة الجديدة المتحررة من التعصب ضد اليهود ، يقـدم دزرائيلي رواياته التي تنضح بالعرقية والتعصب العرقي · فقد سبق دزرائيلي كتابان هامان في الادب الانجليزي هما رواية « هارنجتون » لماريـا ادجورث ونشرت سنة ١٨١٧ ورواية « أيفنهو » للسير والتر سكوت ونشرت سنة ١٨١٩ وقد قدم كلا هذين العملين الادبيين في وقت مبكر بالنسبة للرواية الانجليزيـة « الشخصية اليهودية الطيبة » بعكس الصورة التقليدية التي عرفت فـي الادب الانجليزي لليهودي باعتباره الرجل الشرير · بينما كتب دزرائيلي رواية « دافيد الروى » سنة ١٨٣٣ قبل ان يصبـح رئيسا للوزارة البريطانيـة · وفـي هـــذه الرواية يقدم دزرائيلي البطل اليهودي الصهيوني قبل نصف قـــرن من ولادة الصهيونية رسميا في بال (١٦) وهو يرفض الاندماج ، ويتبنى الموقف العرقـي المتطرف · فتفوق البطل اليهودي وغيره في رواية « دافيد الروى » هو تفـــوق عرقي « كل شيء عرق ليس ثمة حقيقة اخرى » وحتى « ما يعتقده الناس سلوكا فرديا ، ما هو في الحقيقة الا شخصية العرق » · وفي نفس الوقت الذي كانت

فيه كل الفرص للاندماج مفتوحة امام اليهودي ، في جو التحررية والعقلانية السائد ، يرتد دزرائيلي الى العقيدة القديمة : فهو يرى انه من المستحيل ان تهدم عرقا صافيا لانها حقيقة سيكولوجية ، وهي قانون الطبيعة البسيط ، وهو لا يكف يردد طوال فصول الرواية « ان العبريين عرق غير مختلط » ·

ومع ذلك فالفكرة العرقية لم تتحقق لها السيادة فيمفهوم القومية الانجليزي، كما حدث في المانيا ، لان الدفعة الليبرالية كان لها الغلبة وليس مفهوم دزرائيلي، وظلت المفاهيم الليبرالية الاخلاقية ، او ما يسمى بالمفاهيم الفكتورية هي الاقوى، برغم غزو الفكر العرقي للقارة والذي ارتبط بالداروينية الاجتماعية وافكار البقاء للاصلح ·

اما مفهوم القومية الفرنسي ، فقد كان اكثر تعقيدا وتركيبا ، لانه يغتذي من اكثر من تراث تاريخي · فهناك تراث اليعاقبة في المساواة وكان هناك تيار اخر يمزج بين مفاهيم العقل والثورة مع تأكيد معاني المجد والعظمة النابليونية · وكان هناك ايضا من يستمدون مفاهيم القومية من النظام القديم مع رفض مبادىء المساواة الاجتماعية والسياسية · ولكن من الملاحظ ان المناهج القومية الفرنسية التي تأسست على التراث الثوري ، كانت اقل توجها الى الماضي البعيد من النزعات القومية الانجليزية او الالمانية ·

العرقيـــة الالمانية

تيار العرقية الاوروبية وجد ارضه الممهدة والصالحة تماما في المانيا بالذات، ويبدو ان مذهب جوبينو عرف طريقه الى المانيـــا من خلال صداقتـه لريتشارد «فاجرز» اما جوبينو فانه لم يلق اي نجاح في فرنسا في تلك الفترة ، وظل نسيا منسيا مدة طويلة ، الى ان لفتت اليه الانظار شعبيته في المانيا ·

وفي المانيا انحسر نفوذ جوبينو ليأخذ مكانه هوستون ستيوارت تشامبرلين ، الذي كان احد تلاميذه ريتشارد فاجنر المتحمسين ، تزوج ابنتــه · وكـان مـن اصل انجليزي ، ولكنه صار فيما بعد من دعــاة الجرمانيــة المتعصبين ، وكـان الامبراطور وليم الثاني من اصدقائه الاقربين ، وساعد كثيرا في نشر ارائه فـي المانيا · وقد نشر كتابه الذائع الصيت « اسس القرن التاسع عشر » سنة ١٨٩٩ وهو يعتبر الالمان حماة التاريخ العالمي وحملة الثقافة الغربية ، وروحهم هـي التي تحرك وتصنع كل مكتسبات العصور الحديثة ، وهي روح تصلبت من خلال الصراع الذي لا يتوقف · والعرق الاري يوجد في وسط « فوضى من الاجناس» ولكن هناك عرق واحـد غير العـرق الاري ظـل نقيـا ، واليهـود هـم الذيـن يجسدون هذا النقيض العرقي النقي ، ومن ثم فهم الخصم الدائم في هذا الصراع

من اجل البقاء · وهكذا نستطيع ان نرى كيف تدعم العرقية بعضها البعض ، رغم الخصومة القائمة في الظاهر · فليس هناك عرق نقي يقابل العرق الاري سوى اليهود ، لكنهم في رأيه غير المؤهلين للفكر الرفيع والثقافة ، وهو ما ينقلنا مباشرة الى المقابلة الطريفة · فالصهاينة العنصريون يعتقدون بالمثل وفي المقابل ان الجنس العربي والشعوب العربية غير مؤهلة للثقافة الحديثة والعلوم وليس في مقدورها امتلاك التكنولوجيا المتطورة : واليهود في رأيه يمتلكون ارادة حديدية من اجل السيطرة والقوة ، ولكنهم يفتقدون كل عمق ميتافيزيقي · اما الحرب العنصرية عند تشامبرلين فهي حرب شاملة لا يمكن ان تنتهي الا بالفناء او النصر ، والاريون يحتاجون الى قائد من اجل تحقيق الانتصار على اليهود · وحول نهاية حياته اعتقد انه وجد هذا القائد الفذ في شخصية ادولف هتلر (١٧) · والواقع ان عبقرية هتلر لا تخرج من كونها تشامبرلين صيغ في قالب يلائم الجماهير كما يقول هرتز (١٨) ·

وتأكيد تشامبرلين على العوامل الثقافية والروحية يهتدي بتراث الرومانسية، وينقلها من ميدان العلم الى ميدان الاسطورة على دأب الرومنسيين الرجعيين · فقد كان يرى ان كل ثقافة ، وكل ما هو ثقافي ، يقوم على روحانية حقيقة ، وهي سمة آرية في مقابل ما هو يهودي والمسيح نفسه اصبح نبيا آريا · وبذلك اصبحت الحرب بين الاجناس هي حرب الروحية ضد المادية · ولا فرق بين هذا الفكر وما يعتنقه العنصريون الصهيونيون من ان حربهم ضد العرب هي حرب التقدم ضد التخلف ، والسمو الخلقي ضد الهمجية العربية ، او ما يعتقده العرقيون العرب ايضا ويردده كميل شمعون والجميل وغيره من الانعزاليين العرقيين من ان كفاحهم ضد الفلسطينية والتقدمية هو دفاع عن قيم الغرب الروحية ضد المادية · وكان العنصريون الاوروبيون يتهمون اليهود بانهم يستخدمون الماركسية المادية وحرب الطبقات لتدمير بناء الامة · وتحولت العنصرية اكثر فأكثر في وسط وشرق اوروبا الى دين غيبي جديد ·

وانه ليبدو ان الثورة الصناعية التي هجمت فجأة على المانيا ، نتيجة تطورها السريع في اخريات القرن ، افسحت المجال لمثل هذا الفكر العرقي الذي يحقق استقرارا وانسجاما قوميا موهوما ، في مقابل الصراع الاجتماعي المتعاظم والذي بدأ وكأنه يهدد الامة بالدمار ·

ولكن لا يصعب الكشف عن الجذور البعيدة للعرقية الالمانية ، والدور البارز الذي لعبته تيارات الفكر العنصري والسلفي المتأصلة في التقاليد العريقة لطبقات المحاربين واليونكرز · فقد ظلت هذه الطبقات في اجزاء كبيرة من المانيا لها السيطرة والغلبة ، نتيجة ضعف البورجوازية الالمانية ، وتخلف نموها ، كما ظلت تقاليدها وتراثاتها العرقية تمثل الفكر السائد · وقد جعل فردريك الثاني

من طبقة « اليونكرز » في بروسيا طائفة متميزة تماما ، تحولت الى طبقة عسكرية محترفة ، وجيش حاكم يحتقر غيره من الطبقات · وقد عزز بسمارك من دور العسكرية البروسية وسيطرتها على المانيا بانتصاراته المدوية ، والامبراطورية التي اقامها على اكتاف هذه الفئات ، كما كسب لها تاييد الاقسام العليا من البورجوازية الالمانية ، وحتى جزء كبير من الطبقة الوسطى البروتستانتية · ولا شك ان افكار تفوق الجنس النورديكي والعنصر الجرماني ، والتي اشاعتها هذه الفئات المسيطرة والقابضة كانت موجهة في حقيقتها ضد الطبقات الشعبية الالمانية اكثر مما كانت ضد الامم الاخرى او اليهود (١٩) فدعاة العنصرية الالمانية القدامى من امثال ج· كليم واوتوامون كان شغلهم الشاغل اثبات دونية الطبقات الشعبية ، وانها احط في اصولها من الطبقات الحاكمة واصبحت الطبقات العليا في مذهبهم آرية من حيث المنبت ، أما الدنيا فهي منغولية ، وذلك لتبرير السيطرة الفاشية للنبالة والطبقات العليا ·

وكان للوثر بوجه خاص اثره العميق في الروح الالمانية والاخلاق ، فقد استمد تعاليمه الاخلاقية والاجتماعية الى حد كبير من « العهد القديم » وان كان ذلك لم يمنعه من اثارة الالمان ضد اليهود ·

ومن اليسير ان نقارن بين اقوال لوثر واقوال المسيح ، لنرى البون الشاسع بينها ، الى الحد الذي يستحيل معه التوفيق ، ومع ذلك فقد كان لوثر يعتقد باخلاص انه ينطق بأمر الله ، كما فعل عندما وضع مسؤولية مذبحة الفلاحين في حرب الفلاحين على الله ! والكثير من السمات المسيطرة والشائعة في الروح الالمانية مثل تفضيل التصوف على العقل ، وتمجيد البطولة والاعتقاد بانهم يعملون بوحي من الله ، وهم يتصرفون كالشيطان ، يمكن تتبعها في شخصية لوثر ، وان كانت العوامل التاريخية والطبقية هي التي حددت نموها وتأصلها وحتى « سوبرمان » نيتشه يمكن ان يعد من سلالته الشرعية · وقد كان العنصر الصوفي في ايمان لوثر بعيد الاثر في نمو الفلسفة والشعر والموسيقى الالمانية· وقد مهد السبيل بصفة خاصة للرومانسية وعبادة الكون اللذين الهما الكثير من الشعراء والفنانين العظام · ولكنه لعب دورا كبيرا في تحطيم المعايير المسيحية في المانيا الحديثة · والواقع ان هيجل وبسمارك ونيتشه وفاجنر حملوا تقاليد اللوثرية (٢٠) ، ويفسر انجلز اتجاهات لوثر ومواقفه المعادية للعوام بقوله انه بين سنة ١٥١٧ وسنة ١٥٢٥ اثناء حرب الفلاحين حدث للوثرمن التحولات ، ما حدث لدعاة الدستور الالمان او الليبرالية الالمانية بين سنة ١٨٤٦) ١٨٤٨ وما يحدث لكل بورجوازي يجد نفسه لفترة من الزمن على راس الحركة الثورية ، ولا يلبث حتى تفزعه حركة العوام او البروليتاريا وتدفعه الى النكوص على عقبيه · واذا كان لوثر قد وضع سلاحا قويا في يد العوام بترجمته للانجيل ، وبمعارضته للمسيحية الاقطاعية ، الا انه لم يلبث حتى سدد نفس السلاح الى صدور الفلاحين

عندما دعاهم للخضوع حتى العبوية (٢١) ٠

ولكن فشل ثورات سنة ١٨٤٨الديموقراطية الليبرالية هو الذي انضج الظروف كما سبق ورأينا لصعود تيارات النزعة القومية الرجعية اللاعقلانية والعرقية ، لا بين الالمان وحدهم ، بل وكذلك بين الاقليات القومية في المانيا والدول المجاورة ٠ فقد كانت عواقب الفشل بمثابة الكارثة ، فقد انهارت الامال التي عقدت على الثورة الفرنسية ، وتعاظمت الفوضى ونزعات العدوان والاستبداد ، وقد هاجر من الالمان الى امريكا في السنوات العشر التالية ما يربو على المليون ٠ وبدأ اخرون في الجنوح الى اليمين ، وعقدوا الامال في الوحدة القومية على العسكرية البروسية ، وصار بسمارك وريث هذه الثورة الفاشلة ، كما سبقه نابليون في وراثة الثورة الفرنسية ٠

والواقع ان ريح الثورة المضادة كانت قد بدأت من قبل في سنوات سيطرة الحلف المقدس اثر هزيمة نابليون ٠ فالمانيا سنة ١٨١٥ كانت تحركها روح التعصب ضد اللاتين ، واصبحت شعارات الشعب الالماني هو الشعب الاصيل ولغته هي اللغة النقية ، ومسيحيته هي المسيحية الاصيلة تجري على لسان الفلاسفة الالمان ، لكن بمفهوم قومي ثوري ٠ وكان الفكر الفخي هو واضع هذه اللبنات الفكرية ٠ ولكن الاحداث تخطت الفختية والبونابرتية ٠ وجاء هيجل ليطبع الفكر الالماني بمزيد من العنف ٠ اصبحت الحرب هي التعبير عن الحق والاخلاق وبدأت تنتشر بين المفكرين الالمان صورة لالمانيا تحيط بها هالة من العظمة والتفوق الاسطوري ، يقودها ابطال تحرسهم العناية الالهية ، ويسودون على شعوب لم تستيقظ بعد ، وتحولت الاهداف القومية الالمانية ، الى اهداف اوروبية، فاصبح لالمانيا رسالة اوروبية ثقافية ٠ ورأى هيجل ان القسوة والفظاظة ذاتها قد تصبح علامة القدر ! وان التاريخ يتشكل على يد الحمقى والمجانين الذين يحركهم حماس عظيم (٢٢) فالقوة وحدها هي التي يمكن ان تقدم الحجة لتبرير العقل ٠ ويسجل انجلز انه من السمات الخاصة لبروسيا ان الثورة البورجوازية بدأت سنة ١٨٠٨ الى سنة ١٨١٢ ثم اخذت من سنة ١٨٤٨ حتى نهاية القرن الصورة البونابرتية (٢٣) ٠

وقد شارك التيار الكاثوليكي والمفكرون الكاثوليك في دعم هذا التيار الرجعي فاصبحت الفضيلة الالمانية هي التي ستنتصر اخر الامر على الفساد اللاتيني ، وعلى الشعب الالماني ، ان يحرر نفسه اولا من المواثيق والدساتير « هذهالاوراق» التي تتحدث عن الحرية ٠ اما رسالة المانيا ، والشعب الالماني ، فهي قيام الدولة المسيحية الكبرى بفضل القوة وعقيدة الجامعة الجرمانية (٢٤) ٠ هذه الافكار والدعاوى التي ستترجم بنصها وحرفها الى دعاوى رسالة اسرائيل ٠٠ وقيام اسرائيل الكبرى بفضل التفوق والقوة والجامعة اليهودية ٠

اذا تتبعنا تطور الفلسفة والفكر السياسي الالماني ، نشهد مع هزيمة الليبرالية وصعود تيار الرجعية تحول مفهوم « رسالة المانيا » عن مضمونه الانساني كما قدمه فلاسفة التنوير والتقدم البورجوازيين الالمان من امثال جوهان هردر وكانت بمعنى اسهام المانيا في تقدم الانسانية واقامة نظام من العدل والسلام الدائم . تحول هذا المفهوم ليصبح اداة دعم لتطلعات التوسع وسياسات العدوان لطبقات اليونكرز والعسكريين الالمان والامبرياليين .

وفي جذر هذا التراث والتيار الرجعي تقف (المدرسة الالمانية في التاريـخ ، ومن اقطابها المبرزين ليوبولدرانكه Leopold Ranke (٢٥) الذي كان يرى في الدولة البروسية الالمانية تجسيدا « للفكر الالهي » وهو مفهوم تأليه الدولـة القديمة الذي لم يستطع ان يتخلص منه حتى الفيلسوف العظيم هيجل (٢٦) .

وفي نهاية القرن التاسع عشر انتهت مدرسة رانكه هذه الى المذهب الوطني لهنريك فون ترتيشكه (٢٧) وهو الذي يصفه لينين بانه مؤرخ ذو عقلية بوليسية رسمية . اما ترتيشكه هذا ، فقد تحول وانقلب مع تحول اقسام كبيرة من البورجوازية الالمانية والمتعصبين الالمان مع انتصارات بسمارك ، واكتساحه لمواقع الليبرالية الالمانية . وهو في محاضراته ومقالاته وفي اعظم كتبه الـذي لم يكتمل « التاريخ الالماني » وضع الاساس لافكـار صارت فيما بعد دعامة النزعات القومية الرجعية العنصرية والعدوانية ، وكان لها اكبر الاثر في تشكيل عقلية الطبقات الوسطى والعليا الالمانية . وقد حمل افكاره بمحتوى عدوانـي اصبح اساسا لمفهوم « الرسالة الالمانية » و « اتحاد الجامعة الالمانية » ودعاتها الرجعيين من رجال الصناعة والاستثمار والتوسع . وقد اصبحت مفاهيمه هذه هي انجيل الاشتراكية الوطنية فيما بعد وشعارها المعلن « نريد مكانا تحـت الشمس » وقد أعلن معاداته الصريحة للقانون الدولي ، والاخلاق في السياسة، وللحرية والانسانية في القانون ، وللمساواة وحقوق المرأة ، والحركة العمالية، وحتى لنشر الثقافة بين الجماهير ، ووصف الشعوب الاخرى بغطرسة وازدراء اما عداءه للاشتراكية فقد كان بالغ العنف . فالتفاوت هو الامر الطبيعي ، وعلى الملايين ان تكدح لتوفر للصفوة اسباب الحكم وانتاج الثقافة وفي سنة ١٨٧٩ بدأ ترتيشكه في مهاجمة اليهود ، بحيث ان عدواته للسامية ، وهدفه من مهاجمة اليهود ، لم يكن في حقيقة الامر سوى معاداة للتحررية والحركات الثورية .

العدوان وسياسة الالحاق والضم

وسنشهد في تطور مفهوم « الرسالة الالمانية » نفس الشعارات والنداءات —

حتى لتكاد تكون بالحرف الواحد ــ التي سيترجمها العنصريون الصهيونيين الى قاموسهم ، وتنقل من الامة الالمانية الى الامة العبرية · فقد تطور هذا المفهوم على يد الامبرياليين والعنصريين ليجسد كل نزوعات السيطرة والعدوان تحت دعاوى : الدور الرائد والقائد للدولة البروسية الالمانية في التاريخ ، ومن اجل التقدم والتحديث · واعتبار القوة هي سبيل ضمان قيام الامبراطورية الجرمانية والتعبير عن تفوق الجنس الالماني ·

وتحولت دعاوى « الحرب الدفاعية » الى تمجيد « الحرب الالمانية » التي تخوض غمارها « البطولة الالمانية » لتؤكد تفوق اخلاقياتها على اخلاقيات « التقاليد الانجليزية » وغيرهم من الاجناس المنحطة تاريخيا ، والتي ليس لها الحق في اي وجود تاريخي او مستقبل ·

هذه الافكار التي غطت الساحة ١٩١٤ لم تكن سوى التعبير السافر عن نزعات العدوان التي تختفي وراء دعاوى الحرب الدفاعية والحرب الوقائية والتي تحولت الى « ضرورة تاريخية عليا » و « نداء الروح الالمانية وقدرها » ورسالة « الثقافة الالمانية » والدولة الالمانية (٢٨) ·

اعمدة العرقية السبعة

١ ــ عبادة البطل ·· ونظريات الصفوة

صورة الرواد الاول الذين هبطوا على ارض فلسطين ، او ارض اسرائيل ــ بلغتهم ــ مع الهجرات المتوالية في اواخر القرن الماضي ، واقتحموا البيد والصحارى والارض الخراب ، ارض بلا شعب ، ليعمروها ليصنعوا ليصبحوا شعبا من مشتتين مشردين · هذه الصورة التي تملأ الادب الصهيوني ، ونموذج الرائد البطل الاخلاقي ، والتي تتمثل فيه اخلاق القوة والصلابة والاقتحام الى جانب الزهد والتقشف والتضحية التي لا تزال مصدر الالهام والوحي بالنسبة للمجتمع والكيان الصهيوني · هي صورة لا تخرج عن كونها النسخة الصهيونية للمفهوم الرومانسي عن البطل الرائد المقتحم والصفوة الممتازة التي انتشرت في اوروبا خلال ازمتها في نهاية القرن ، انتشارا لا حدود له· فقد اصبحت مسؤولية البطل والصفوة انقاذ ما لم تستطع البشرية انقاذه وتحقيق الحلم التي قصرت جهود البشر عن تحقيقه ·

كانت الصورة الرومانسية الاولى كما نعرف هي صورة المعاناة والموت الصامت ، والالم المهلك الذي يعيشه ابطال شباب يموتون من الحب او من السل ويثيرون فينا الشفقة والرحمة كان نموذجهم الام فيرتر لجوتيه ·

ولكن الرومانسية قدمت شيئا اخر ، وانتقلت الى عبادة صورة البطل الذي

تتمثل فيه الاصالة والعبقرية وهو ما ينسجم مع منطق الرومانسية ، اذا صح ان لها منطق ، فهو النتيجة الطبيعية لنزعتهم الفردية والتي تكمن كما نعرف وراء المزاج الرومانسي كله · فقد حل مفهوم البطل العبقري محل روح التفاؤل والثقة بالمستقبل التي كانت تحرك كتاب ومفكري عصر التنوير ، والمفقودة تماما لدى الرومانسيين الذين يجسدون عصر المعاناة والقلق والتوتر · فقدموا صورة البطل العبقري الذي يعلو على الظروف ، وينجح برغم الظروف انطلاقا من قواه الباطنية والكامنة ·

فالاصالة والعبقرية لا يقيدها التقليد البارد او العادات والعرف السائد لانها تنطوي على تحقيق كامل للذات ، ولا يمكن ان يعوقها عائق ، وهو ما ينسجم مع المثالية الرومانسية في نمو الفرد وتحقيقه لكامل قدراته وامكانياته من خلال التوتر الرومانسي · وهكذا كانت تدفع فاوست جوتيه (١٨٠٨) عواطفه الشبوبة وعشق الحياة ·

ولكن في انجلترا ، وليس في المانيا او فرنسا ، تم الامتزاج بين الرومانسية والنزعة الواقعية لتقدم صورة للبطل العبقري الذي لا يقضي بالفشل والمعاناة والموت الرومانسي بل يضع برنامجا للمستقبل · وهكذا قدم توماس كارليل (١٧٩٥ ـ ١٨٨١) صورة شعبية لبطل يسعى الى تنمية ذاته وشخصه بدفع من داخله ، ولكنه لا يدمر ذاته بصنوف المعاناةوالمعارضات التي لا جدوى منها لحياة الجماعة بل يقوم بالفعل بتغيير المجتمع (٢٩) ·

وفي كتابة « الماضي والحاضر » (١٨٤٣) يعلن رفضه لمجتمعه المعاصر · فالارستقراطية عاطلة وحقيرة والطبقة الوسطى تعبد اله المال اما الطبقة العاملة فهي مجرد جماعة من النحل في خلية · وكارليل يوجه بصره شطر الماضي خروجا من المأزق ، ولكن لا يتعلق بهذا الماضي ، بل يصوغ منه برنامجا للمستقبل وهو اذ يرفض مجتمعه بكل طبقاته ، لا ينتهي الى اليأس او الهزيمة ، لانكارليل على خلاف الرومانسيين الاخرين ، يقبل المجتمع الصناعي ، والثورة الصناعية، وليس ذلك من قبيل الصدفة ، فهذه الثورة كانت قد سبقت غيرها في انجلترا ·

وكان لقبوله العصر الصناعي اثر في تحويل صورة العبقري الرومانسي الى نموذج القوة واصبحت المدن الصناعية في نظره مثلها مثل الطبيعة العذرية : اصوات الاتها وضجيجها وهي تصحو في الفجر في مانشستر مثل دوى شلالات نياجرا · لها نفس السحر والسمو ، وسموق القوة والعظمة ، اما هدير الالات في المصانع ، فهو كمثل امواج الاطلنطي العاتية · وما يؤكد عليه هنا هو عنصر القوة ، ليس في الصيغة المتوحشة وحدها ، بل وايضا القوة المستأنسة في مانشستر · اما المشاكل والمعضلات الاجتماعية التي جاءت معها ، فكارليل يعيها

جيدا ، ولكن حلها عنده ليس حلا اجتماعيا او اقتصاديا بل في بناء الخلق · بناء اخلاق الانسان ـ العبقري البطل ـ وهو الحل الذي تصادفه دائما في كتابات الصهاينة في التعلق باخلاق الرواد ومثال البطل الرائد الذي اقتحم وبنى وشيد · ويتمسك بمبادئه واخلاقياته ·

وكارليل يرى ان المثال الرومانسي لفروسية العصور الوسطى يصلح حلا لعصرنا ، وقد كتب عن الفروسية النبيلة للعمل التي تجمع وتوحد بين اصحاب الاعمال والعمال حتى يشنوا هجومهم على الطبيعة لاخضاعها · والعبقري كقائد عليه ان يحل معضلات زمانه ويتصدى لاخطارها · هذا العبقري يزدري المنطق والحلول العقلانية ويهجم على المشكلات ، ولا يخضع سوى لقوانين الطبيعة · وكارليل يستعير من اخلاقيات الليبرالية وهي اخلاقيات فاعلة ونشطة لان هذا البطل يحقق كمال ذاته من خلال القوة الفاعلة والشجاعة · والدافع دائما هو النجاح ، وكارليل يقدم الجسارة الجسورة الشرسة بديلا لشعرية فيرترجوتيه ، وقوة العاطفة عند بقية الرومانسيين ·

لقد انقلب كارليل من تأكيد القوة الى عبادة العنف · فاذا رفض الصينيون التجارة مع بلاده سنة ١٨٤٢ فعلى انجلترا ان تحاول «بطلقات المدافع» وتفرضها عليهم فرضا ·· أما التجارة التي كان يرفضها الصينيون حينذاك ، فهي تجارة الافيون « في حرب الافيون » ·

لقد كان عصر كارليل في انجلترا ، ليس عصر الصناعة فحسب ، بل عصر الاستعمار الكولونيالي وعلى عتبة العصر الامبريالي ، وكان كارليل يريد ان يحمل بطله مسؤولية الصناعة والفرد معا (٣٠) ·

والواقع ان الفكر العرقي ضم الى ترسانته نموذج البطل الرومانسي هذا ،وهي الفكرة التي تطورت خلال القرن التاسع عشر واوليات القرن العشرين لتلتحم بمفهوم الصفوة امتدادا من كارليل الى فاجنر ونيتشه وشبنجلر ·· وفي الطريق استعار هذه المفاهيم جميعا المفكرون الصهيونيون وثبتوها بالكامل سواء في صورة الرائد البطل او الصفوة التي خلقت الوطن القومي حتى شكلت السلطة في دولتها منذ ان وجدت حتى الان ·

اما فاجنر (١٨١٣ ـ ١٨٨٣) فقد كان يرى مثل كارليل ان هؤلاء الابطال يجسدون في اشخاصهم فحولة شعوبهم او عذريتها · وهم يشكلون جزءا من اسطورة الشعب الذي ما زال يحتفظ بقواه الحيوية التي استمدها من الماضي الجرماني البعيد ، هذه الاسطورة تقف خارج التاريخ ، لا تنال منها احداثه او تطوراته ، وهي خالدة لانها تعطى الانسان جذوره · وقد البس فاجنر ابطاله هؤلاء وهم ابناء الجنس شحنة من العاطفة جعلت لهم شعبية بين الطبقات الوسطى الالمانية (٣١) ·

ومن فاجنر ننتقل بشكل طبيعي الى سوبرمان نيتشه :

رفض نيتشه وجود حقيقة ثابتة ، فالناس يغيرون دائما من قيمهم ، والانسانية التي تترك نفسها لتلقائية الحياة ، لا بد ان تتلقى صدمه كي تفيق « فالله قد مات» ولا جدوى من خلق الهة اخرى بحثا عن الامن · اما السعادة والفضيلة وما شاكلها ، فكلها اوهام والمجتمع المعاصر وهم وكل ما يخلقه من امان فهو وهم · لان المجتمع عدو للناس والضلال ان يدعي الافراد الى ان يحيوا حياة فاضلة مقيدة !! اما المسيحية فاخلاقيات العبيد لان افكارها عن خدمة المجتمع والناس ومن بعدها المساواة هي التي خلقت الديمقراطية ، وهي شر لانها خدعت الانسان وعاقته عن معالجة فوضى الحياة ، اما العلاج فهو تغيير القيم وقلبها ، وحتى هذه قد تكون فكرة مضللة · فقد اختار نيتشه نموذجه للتغيير من الانسان البربري الهمجي القديم ، وهذا قد يبتعد اصلا عن القيم ، وخلق لنفسه قيمه الخاصة ، وهو النموذج الذي ينبغي ان نبحث عنه ونجتذبه : نموذج هذا البربري الهمجي في تعامله مع الجماعة التي يرفضها اصلا · فالانسان في نهاية الامر « معلق في فراغ » فكيف يعالج الانسان هذا العالم الفوضوي ؟ ومن الواضح انه كان يصف مجتمعه ـ اما اجابة نيتشه فهي : ان يعيش الانسان في فراغ وانسجام معا مع العالم وكيف يكون ذلك ؟ الانسان لا يتحكم في فوضى العالم الا بمقاومته وصراعه ضد هذه الفوضى ، ان يقبل الحياة في فراغ ثم يصارع ضد طبيعته ذاتها · ومثل هذا البربري الهمجي سيكون خارج اطار الخير والشر كما خلقتهما المسيحية لان المقاومة هي ان تترك ذاتك للعالم وتخاطر وتضحي · عش في خطر · وكان نيتشه يعتقد مع دارون ان الحياة قوة شاملة وغير مرئية ، والانسان لابد ان يفسح المجال لهذه القوة الحياتية ، لانها شيء ايجابي · واذا اسلم نفسه لهذه القوة ، فهو ما يعني اطلاق كل العواطف الايجابية : « الكبرياء والفرح والبغضاء والحرب » ومن اجل تحقيق ذلك فان الانسان يحتاج الى ما يسميه ارادة القوة ·· مثل هذا الانسان يسميه نيتشه باسمه الاغريقي : انسان ديونيز ، وهو البربري الهمجي الذي يخلق قيمه لنفسه ، حيث انه من خلال ارادة القوة ، يدخل بالكامل في قوة الحياة ، ليسيطر على فوضى العالم ، بتاكيده لهذه الفوضى ذاتها ·

الانسان في حرب ، وحرب لا تتوقف ، ولكنه كسبها من خلال ارادة القوة ، من حيث هو تحول الى انسان ديونيز ، لا انسانا بورجوازيا حقيرا · وهذه النزعة الفردية عند نيتشه تعني اغترابا كاملا عن الكتل والجماهير وفي « هكذا تكلم زرادشت » يصور انسانا يصمم على تحويل العالم ويحاول ان يقنع العالم بهذه الافكار ، ولكنه يفشل في ان يؤثر في عوام الناس ، كما يفشل في ان يشكل جماعة عندئذ يواجه العالم وحيدا وعندها يصبح هو نفسه السوبرمان الحقيقي ·

ووصل نيتشه الى الاعتقاد بالصفوة من خلال مفهومه هذا عن « السوبرمان » وقد تجسد سوبرمانه وصفوته في الحكماء الجرمان ·

كانت ثورة نيتشه ضد عصره ، عصر البورجوازية ، وضد الوضعية وكانما كان الناس ينظرون فيما وراء الظواهر بحثا عن اعماق طبائعهم غير المادية ولا العقلانية · فانتهوا الى الفوضى التي لا تحكمها سوى القوة و « الصفوة » (٣٢) فمهدوا الطريق ــ على غير ارادتهم ــ نظم تعبد العنف والقوة وحدها · وقد بلغ النظام البورجوازي قمة عنفوانه وهمجيته في الفاشية · وبين المفكرين الالمان بالذات تجد هذه الفلسفات والجماعات التي مجدت القوة فحولتها الى عبادة ومنهم من ربط بين مفهوم الصفوة والتكنولوجيا ، وفي رأيهم ان البورجوازية استخدمت التكنولوجيا من اجل التقدم ، بينما ينبغي استغلالها من اجل القوة·

وقدم شبنجلر كتابه عميق التأثير « أفول الغرب » سنة ١٩١٢ ضمنه تفسيرا كاملا للعالم من خلال التاريخ والبيولوجيا ونظريات الصفوة ، وينتهي فيه الى نفس النظريات النيتشويه عن « الصفوة » او « السوبرمان » او « الهمجية الجديدة » · وهو يرفض المادة ويستبدلها بدوافع الانسان الداخلية ، وهي القوة الحياتية التي تحولت عنده الى فلسفة ودين · ولا شك اننا نصادف بصمات الرومانسية الرجعية واضحة لا لبس فيها : نزعة المعارضة للعقلانية والعودة الى الدينامية الداخلية للانسان · وهو كان يعني عند الكثيرين الرفض · رفض سطحيات وحقائق الساعة السياسية والاجتماعية ·

ويعالج شبنجلر التاريخ ، وقيام الحضارات وسقوطها معالجة بيولوجية كمثل الكائن الحي · والتاريخ يبدو له عملية بيولوجية تحركها دوافع ميتافيزيقية · وانتصار المال وعداء الطبقة المتوسطة السائدة للفضائل الارستقراطية ، وافتقاد الحيوية والدينامية في الغرب ، ونمو فلسفة الخضوع ، فلسفة الاشتراكية المادية ، هو في رأيه عين السقوط ، وهو مما وصل بالحضارة الفاوستية الى الارض · ولكن القرن العشرين يشهد نهوضا ونموا جديدا يمكن ان يعيد الحياة لعملية التطور البيولوجية في الغرب · فالكبرياء والغريزة على وشك ان تنتصر على المال · وقد يبدأ عصر الحرب الشاملة المتصلة ، وهو ما سيعيد الى الحياة مبادىء الصفوة الارستقراطية ، هذه الحروب القادمة سيخوضها اتباع يلتفون حول قائد ، وهو ما يعني انبعاث جيل من « القياصرة الجدد » او « البرابرة الجدد » باعثي الحياة الجديدة ، والحضارة والثقافة ·

لقد امتزج مفهوم الصفوة والقوة لدى هذا الطابور من المفكرين كما امتزج تماما في مفهوم الرواد الصهيونيين ، ولا شك ان هذه الفلسفات الهمجية هي الثدي الحقيقي والكائن الاسطوري الخرافي الذي رضعت منه جميع الفلسفات

العنصرية والمتبربرة في عصرنا ٠٠ ولا شك ان مفهوم الصفوة يجد تأصيلا عميقا له في التراث اليهودي المسيحي في اسطورة « الشعب المختار » صفوة الشعوب والذي عليه الهداية والقيادة والذي يخرج الاطفال الذين يصرعون العمالقة كما تحكي القصة التوراتية ، وهو غير مقطوع الاسباب ايضا عن المفهوم الرومانسي الصوفي عن وحدة الله والطبيعة والانسان ، هذه الوحدة الصوفية التي تجسدت في « شعب الله المختار » واخرجت عمالقة بأذن الله ، او بأذن الشيطان « لا فرق » !!

٢ ـ القومية الثقافية ٠٠ وشعب الروح والاخلاق

من ابرز السمات التي تميز القومية الرومانسية الرجعية كما رأينا التركيز على عنصر الثقافة والروح باعتباره المكون الاساسي للامة ٠ فالامة الالمانية هي امة العقل ٠ وامة الثقافة وامة الروح ٠ وبنفس اللغة والعبارات توصف الامة العبرية ٠٠ فهي امة التوراة وشعب الله ٠ وامة الروح خلال التاريخ البشري كله ٠ ورسالتها هي رسالة الروح والاخلاق ٠٠ ذلك الشعب الكاهن !!

واذا تتبعنا جذر هذه الافكار وجدناها ـ ويا للسخرية ـ في الاوضاع المادية والظروف الاقتصادية التي عاشتها المانيا والامة الالمانية بوجه الخصوص وكثير من شعوب شرق اوروبا ايضا ٠ فقد كان للانجليز ما يفخرون به في الثورة الصناعية التي حققوها وكل التقدم والثروة التي تراكمت في ركب الصناعة والتجارة ٠ وكان هذا مصدرا للعزة والكرامة القومية ٠ وبينما كانت المانيا كما شهدنا فقيرة ممزقة محبطة ، كانت مدينة لندن وحدها في منتصف القرن تستهلك من الفحم ، ما يعادل ما تستهلكه المانيا باسرها (٣٣) ٠ في مثل هذه الظروف كان من الطبيعي ان يكتسب مفهوم الامة زخما وتضخما مفرطا، ويصبح الفرد بازائها لا شيء ، ولا وجود له الا من خلالها ٠ اصبحت هناك حقيقتان في نظر بعض الكتاب الالمان ـ ولا شيء غيرهما : الله والامة ٠ واذيب الفرد تماما داخل الكل المنسجم والمتكامل واصبحت الامة جسما واحدا ولكن هذا الجسم اكتسب شفافية ونقاء وقيمة روحية من خلال التاريخ ٠ تحول بالتاريخ والتراث واللغة الى روح ـ مجرد روح ، وتجسدت عظمة الامة المفتقدة في عظمة الثقافة والروح ، واصبحت الامة تكتسب سموها وتفوقها من سمو الثقافة والعقل واللغة : وكلها مفاهيم اكتسبت زخمها من ظروف المانيا بالذات، والشعوب المهيضة في شرق اوروبا والجامعة السلافية ، بعكس فرنسا وانجلترا٠

ولكن الفكرة اكتسبت ابعادا اكبر « فالروح الالمانية » اصبحت تضم الامة الالمانية بكاملها وتتجسد في الشعب Volk بتراثه وعاداته وتقاليده واساطيره

واغانيه وشعره · اما غير الالمان مثل اليهود فقد استبعدوا واخرجوا من هـذا الجسم ، ولم يعد ثمة مكـان لغرباء او عنصر اخر او لطبقـات تعكر صفو هذا الانسجام المتمثل في الشعب ·

وكان على فاجنر ان يضع روح الشعب ويحركها على خشبة المسرح باساطيره وموسيقاه ، هذه الروح والثقافة التي تعلو بوحدتها وانسجامها على اي شكل من اشكال الطبقات والسياسات وكان هذا كله طبيعيا تماما في المانيا ، فلم تكـن فرنسا او انجلترا بحاجة الى مثل هذا النكوص الى التاريخ البعيد ، مع كل ما حققتاه من امجاد قريبة · بينما كانت المانيا تحتاجه ، وهي الممزقة المهيضة · وقد وصل بها هذا النكوص الى شخوص الماضي واوهامه واساطيره الى الحـد الذي شهدناه فيما بعد في الاشتراكية الوطنية ، والمانيا الهتلرية التي كانـت تفقد وعيها حتى الثمالة فوق قبور الامراء الجرمان القدامى ، وفي مظاهـر العظمة والتقديس للطقوس الغابرة · ومن هنا ايضا كان من الطبيعي ان يلتحم هذا المفهوم للامة بالمدرسة التاريخية الالمانية عند سافيني (١٧٧٩ ـ ١٨٦١) التي كانت ترى ان جوهر القانون يخلقه تاريخ الامة بكامله وينبع من عمق وجودها، وبذلك لم يبعث التاريخ فحسب بل وقوانينه وممارساته البالية وتحت ثقل هـذا التراث الرومانسي الوطني امكن للطبقات الحاكمة ان تبعث التاريخ الوسيط متجردا من كل ما يشينه أو يسمه بالظلام !!

هذه الامة الروحية التي تسمو بثقافتها وروحها فوق كل الطبقات والسياسات، والتي تتميز بوحدتها وانسجامها من خلال التاريخ والعرق النقـي وممارسـات الناموس العتيق والزمن الغابر ، هي التي ورثهـا بالكامـل الصهاينة الالمـان الاول ، وصاغوا على غرارها قوميتهم العبرية والرجعية : القومية الثقافيـة العرقيـة ·

٣ ـ الانسجام القومي والاجتماعي

بلغت الرومانسية الرجعية ذروتها في عصر بالغ التوتر والاضطراب ، كمـا ساده العنف الاجتماعي ، فقد اصبحت معالم الازمة الاجتماعية لا تخفى ، بـل اخذت تتفاقم بعد ان تبددت كل الامال المتفائلة ، واحلام المساواة والاخاء والسلام العالمي ، تلك التي حركت القرن الثامن عشر وحققت الثورة الفرنسية · ولكـن ما اعقبها فاق كل تصور : فقد اشتد الصراع بين الامم وداخل الامم ، واستفحلت مظاهر القهر الاجتماعي والاستبداد · وتقدمت الرومانسية الرجعية تنشد السلام والامن ـ تـارة في الماضي ، واخـرى في احضـان الريف والطبيعة ، ودخـل العنصـر المسيحي فاصبحت الطبيعة ترتبـط بالشعب في حب اللـه ،

وتحققت الوحـــدة عنـــد شاتوبريـــان الكاثوليكـــي بيـــن اللـــه والطبيعـــة والشعـب ، وسرعان ما عبـــرت الرومانسيـــة النطـــاق الادبي لتقتحم ميدان السياسة والمجتمع ، شغلتها قضية الصـراع الاجتماعـي المتفاقم ـ فبحثت عن الانسجام ـ وتصورته عمومـا في الـــردة الى الماضـي ، الماضي الاقطاعي المسيحي ، وحياة الريف الوادعة ، والفلاح السعيد بعلاقتـه الابوية مع النبيل الاقطاعي ، وفي العلاقة التعاونية بيـــن اصحاب العمـــل والعمـــال · وقد تجـده فـي روح الشعـب ولغتـه التـي لا يفسد انسجامهـا شيء ، وفي ثقافة الامة وقوانينها التي هي من نبع غريزتها المتأصلة ووجدتها اخيرا في العرق والدم النقي الذي يشكل الجنس ، و يعلو على كل الخلافات والصراعات الاجتماعية · وكانت الطبقة الوسطى المذعـورة ، والبورجوازيـة الصغيرة المطحونة هي صانعة هذه الاحلام ووقودها ايضا ، بعد ان احاط بهـ اتون الصراع الذي لا تتبين له حل ، ولا تجد منه مخرجا · كانت المدن الجديدة تقوم وتتسع بسرعة مذهلة ، ومداخن المصانع ترتفع وترتفع ، يغطي دخانهـا السماء وعلى الارض يمتد البؤس والشقـاء والتوتر والقلق · وكـان اليهـود ، والاقليات مع مجموعة البورجوازية الصغيرة والطبقة العاملـة تطحن طحنـا ، وحيثما افتقدت الوعي باسباب شقائها ، سقطت لقمة سائغه في ايدي العرقييـن ودعاة الدم النقي والعرق الاصيل · وتراءى السلام المسيحي والانسجام الذي ينفي الصراع ،هو المخرج والامل · وجاءت الصهيونية منذ البداية في اواسـط القرن ثمرة لهذا كله ـ فطرحت الصراعات الاجتماعية جانبا ، ووجدت فـي حلم العودة الى اورشليم والمهد القديم ، والى ماضي العبرانيين ، والعـــرق واللغة النقية التي تستخرجها من جوف التاريخ ، الملجأ والملاذ · فلم تخـــرج الصهيونية في ذلك عن كونها احدى تنويعـات هذه الحلول الانسحابية الهروبية الرجعية ، التي تعددت وتوزعت بين الفرق المسيحية واليهودية ، وانخرطت في ممارسة الطقوس او الهجرة الى بلاد بعيدة ، وكل ما يحقق لها شيئا من الامن والاستقرار النفي المفتقد ، واستطاعت هذه الافكار ان تستقطب فئات مـن هـذه الطبقات الصغيرة والدنيا ·

٤ ـ الدولة العضوية السندكالية

كان المفهوم العضوي الحيوي للقومية ، للدولة والمجتمع ، من اهم دعائـم المثالية الرومانسية الالمانية بوجه الخصوص ، وكان له جوانبه الثورية فـي بداية الامر ولكنه انقلب ليصبح جوهر النظريات الفاشية والنازية · وتحول الى خدمة مفاهيم الانسجام الحيوي والعرقية بالدرجة الاولى · فالدولة مثل الكائن الحي يحكم اعضاء جسمه التعاون والتكامل ويبدو صراعه مع الخارج

وضد الخارج اكثر منه في الداخل ، فجميع الطبقــات تشكل جسما واحـــدا متكاملا، يسود علاقاتها التعاون الحيوي • وعندما تطعم هذا المفهوم الحيــوي بالافكار المسيحية ، برزت صورة الدولة التعاونية الهرمية التي تقف على رأسها الصفوة الاستقراطية والنبالة الاخلاقية الرقيقة التي ينشر القيم المسيحية •

وقد ارتبط هذا المفهوم الحيوي في الدول الفاشية بمفاهيم روح الشعـــب وقواه الغريزية المحركة ، والارستقراطية الطبيعية التي لا بد ان تحكـم مـــن خلال « القوة » والزعيم القائد الذي يعبر عن الروح المشتركة في الامة والنموذج الاعلى • وقد دعى Sorel الى خلق «الاسطورة» التي تمنح جماعة دا التلاحم والانسجام ، وتمكنها من استثمار طاقتها الحيوية على الوجه الاكمل • ذلـك ان الكائنات البشرية في رأيه تتصرف انطلاقا من مقدمات غير منطقية ومن ثم فـأن خلق الاسطورة يحفز ارادتها على العمل •

وهكذا اصبح نموذج الدولة العضوية التعاونية التي يمكن ان يسهم فيها كل فرد بجهده من خلال العرق النقي والروح المشتركة والاساطيـر القوميـة ، هـو النموذج الذي تقدمه كافة الدول والمـذاهب الفاشية والنازية في المانيـا وايطاليا واسبانيا واسرائيل بديلا عن الصراع والحرب الطبقية في عصر عرف باسم « عصر الجماهير » وعصر السياسات الجماهـرية • ويجمع بين هذه المذاهب والنظريات جميعا عنصر مشترك هو تقديم الاسطورة كعنصر محرك ، وقائـــد للجماهير ، بديلا عن الوعي والفهم العقلاني والزعيم او « الصفوة » او «الرواد» قيادة لا تنازع ، كل ذلك من اجل طمس معالم الصراع الاجتماعي •

وكانت من ابرز سمات البرنامج الفاشي الايطالي (مارس ١٩١٩) تقديم الدولة الوطن ومعها النظريات السندكالية محورا للاسطورة ، الكفيلـــة بطمس معالم الصراع ، فالقادة الذين تحتاج اليهم الادارة يمكن ان يجنـدوا من صفوف الجماهير ، وهناك في صفوف الطبقة العاملة من يستطيع ان يكتسب مهـارات الادارة والحكم • ومن خلال هذا الشكل الجديد للدولة يتوحد العامل وصاحب العمل • ولا جدال ان هذه المفاهيم السندكالية التي شاعت في بدايات القـــرن الحالي بعد خلطها بالافكار الاشتراكية قد اسهمت في خلق مفهوم الهستدروت ، ودوره في بناء المجتمع الصهيونـي ، وهو الاداة الرئيسيـة في تجنيـد الطبقـة العاملة الاسرائيلية في خدمة اهداف الدولة الصهيونية داخل اطار تعاونـــي اشتراكي مزيف •

٥ ـ الداروينية الاجتماعية

وقد استغلت الرجعيـة العرقية الداروينية بالـذات ، والتي كانت قـد احدثـت

ثورة عقلية في ميدان العلم والبيولوجيا · فقد وجد هؤلاء العرقيون في بعض مفاهيمها وافكارها ضالتهم ، من اجل اضفاء الصفة العلمية على نظرياتهم المجافية للعلم والعقل ·· وكانت تنسجم مع نظرياتهم الاصلية في النور الحيوي ومن ابرز المفاهيم التي استعاروها من الداروينية بالطبع مفهوم الصراع في المملكة الحيوانية والبقاء للاقوى والاصلح ، وثم تحويلها بالكامل الى الميدان الاجتماعي لتكريس عمليات القهر الطبقي والوطني والسيطرة الاستعمارية ·

فاذا كانت السيطرة للاقوى هي قانون الطبيعة ، فالحق اذن للقوة ، وتصبح حتى عمليات الابادة مبررة ، وبذلك اصبح قانون المجتمع الانساني هو بعينه قانون الغريزة والبيولوجيا وعلم الحيوان ، وبذلك ايضا اضيفت في الحقيقة « اسطورة » جديدة الى جعبة الاساطير التي ظل العرقيون يروجون لها للتضليل وصرف وعي الجماهير · وهي بالضبط النظرية التي يطبقها الصهاينة على العرب والفلسطينيين · فقد نشطت ابحاثهم العلمية واجهزة الاعلام قبل عدوان سنة ١٩٦٧ وبعده لاثبات ان للعرب عقلية خاصة لا تتمشى مع العقلية العالمية وكذلك اثبات التفوق الاسرائيلي الحضاري ، وعجز العرب عن استيعاب التكنولوجيا الحديثة ، ومن ثم تصبح السيطرة بل والابادة والتصفيات الجسدية مبررة لانجاز مهمة التمدن والتحضر لهذا الجزء الهمجي من العالم ·

٦ ـ الابادة الجماعية

وبذلك اصبحت سياسات الابادة الجماعية والتصفية الجسدية للشعوب جزءا لا يتجزأ من السياسات النازية والفاشية ثم الصهيونية ·· وما حدث في فلسطين منذ سنة ١٩٤٨ وخلال مجازر ايلول سنة ١٩٧٠ بالاردن ثم الحرب الاهلية اللبنانية من محاولات الابادة والتصفية الشاملة للشعب الفلسطيني مما لا يحتاج الى مزيد ·

٧ ـ الاسطورة ·· والطقوس الاسطورية

وتحولت الاساطير التاريخية والطقوس القديمة ·· الى طقوس سياسية على يد الدولة الفاشية . والهدف الثابت لكل هذه الممارسات هو التعمية الطبقية . وخلق مشاعر الانتماء في الوطن بمفهوم الدولة التعاونية العضوية ، فمن خلال ممارسة الطقوس شبه الدينية ولبس الملابس التاريخية . وفي المواقع التاريخية ، يشعر المواطن والعامل بالفخار والزهو الذي يخفي عنه حقيقة وضاعته واستغلاله · وقد بلغت هذه الممارسات الطقسية في المانيا وايطاليا حدا مضحكا وسنرى ان الطقوس والممارسات الطقسية هي احدى الدعائم الاساسية في

التربة الصهيونية للصغار والشبيبة في اسرائيل ·

خيم الظلام على القارة الاوروبية منذ هزيمة الثورة الديمقراطية الليبرالية في العديد من البلدان الاوروبية في اواسط القرن ، وامسكت الرجعية بالزمام ، وركبت موجة القومية ، وقادتها في طريق السوقية والعدوانية والتوسع · ولكن حدثا اخر في نهاية القرن ، سيدفع بالامور الى اظلام اشد ، فقد وقعت الحرب سنة ١٨٧٠ بين فرنسا وبروسيا ، وسرعان ما هزمت جيوش نابليون الثالث الذي وصل الى السلطة عن طريق انقلابي اثر هزيمة ثورة سنة ١٨٤٨ وسلمت جيوش الامبراطور في خزي لبروسيا بسمارك · وما لبثت حتى قامت في مارس سنة ١٨٧١ اول ثورة عمالية بروليتارية في التاريخ ، هي كومونة باريس ، والتي اثارت اعمق الفزع في صفوف البورجوازية الاوروبية ، وتعاونت على سحقها في المهد الجيوش الفرنسية الالمانية معا · بعدها دخلت اوروبا مرحلة جديدة ، بالسيطرة الغاشمة للرجعيات ، وبداية عصر الامبريالية ، والصراع الدموي بين الامم والشعوب ، والسيطرة الامبريالية العالمية واقترنت هذه المرحلة بدفع مشاعر الوطنية الشوفينية الضيقة ونزعات التوسع والعدوان والسيطرة الى الحد الذي بلغته في الدول الفاشية ، والذي كلف البشرية ملايين الضحايا في حربين عالميتين ، كما استخدمت كل ادوات القهر الفكري والتزييف والايديولوجيات اللاعقلانية ، مما تعززه القومية الرجعية الشوفينية وطبقاتها العنصرية · فالامبريالية في تعريف لينين هي الرخيصة من جميع الوجوه ·

استخدم الدين كغطاء ، ونفى العقل ، وقدم الحدس والغرائز كبديل ،واعتبر الصراع بين البشر قانون الطبيعة ، وبدا الصراع بين قوى مجهولة عمياء في اعين نيتشه ، وكان عداؤه للاشتراكية والديمقراطية شرسا محموما ، كما بدت سيطرة الصفوة ضرورة ـ كما اصبح لها الحق في اقتراف اي جريمة ، لان القوة والحرب الهدف الاسمى كما شاع التفاخر بالاعراق والاجناس : الجنس الجرماني والانجلوسكسوني او اللاتيني !! حسب الحاجة في مواجهة الشعوب الملونة الوضيعة من الزنج والعرب والهنود والصين · اما رسالة الاعراق فهي « رسالة الهية » « رسالة تمدن » تغنى الادب بالقوة وبرسالة الرجل الابيض وانعكست الازمة في العديد من تيارات الادب والفن ، فازدهرت التيارات المعادية للعلم وللوضعية والعقلانية ، الى جانب سيادة نزعات التشاؤم والتصوف وعبادة القوة والبغضاء بين البشر ، وهي اقانيم القومية الرجعية العنصرية ·

الحواشي

(١) محمد فؤاد شكري : **الصراع بين البورجوازية والاقطاع** ، مجلد ١ ، ص ٤٦ ـ ٤٧ ·

(٢) **المصدر نفسه** ، مجلد ١ ، ص ٤٩ ·

(3) Engels : *Peasant war in germany* , P 21 - 22 .

(4) E . Tersen , J . Dantry .. : *L'Europe Mythes et Realites* , Ed.

soc . p . 27 .

(٥) د · عبد الكريم احمد ، **القومية والمذاهب السياسية** ، ص ٢٣٦ ·

(٦) **المصدر نفسه** ، ص ٢٤٦ ·

(7) Tersen , *OP* . cit . p , 29 .

(٨) د · أحمد ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٢٥٣ ـ ٢٥٤ ·

(٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢٥٤ ·

(١٠) (١١) فردريك هرتز ، **القومية في التاريخ والسياسة** ، ص ٦٩ ·

(١٢) **المصدر نفسه** ، ص ٧١ ·

(١٣) **المصدر نفسه** ، ص ٤٠٩ ·

(14) George I . Masse : *The Culture of Western Europe*, p. 74.

(15) *Ibid* , P 56 .

(١٦) غسان كنفاني ، **من الادب الصهيوني** ، ص ٤٦ ـ ٤٩ ـ ٥٠ ·

(17) George I , Masse , op cit . p 76 .

(١٨) هرتز ، **مصدر سبق ذكره** ، ص ٧٣ ـ ٧٤ ·

(١٩) **المصدر نفسه** ، ص ٧٥ ·

(٢٠) **المصدر نفسه** ، ص ١٥٠ ـ ١٥٢ ·

(21) Engels , Peasant War , P. 62 - 69 .

(22) Felix pontail , *L,Eveil des* Nationalités , P . 27 - 28 .

(23) Engels , *OP* , *cit* , P . 29 .

(24) Pontail , *OP* , *cit* , P 29 .

(٢٥) ليوبولدرانكه ، مؤرخ الماني (١٧٩٥ ـ ١٨٨٦) ·

(26) Arkady Yernsalımsky : *German Imperialism* , Moscow P 456 .

(٢٧) مؤرخ الماني (١٨٣٤ ـ ١٨٩٦) ·

(28) Arkady , *OP cit* . P . 460.

(29) I . Masse , *OP* ,cit . P. 26.

(30) *Ibid* , P . 27 - 28 .

(31) *Ibid* , P . 82 .

(31) *Ibid* , P . 217 - 218 .

(33) *Ibid* , P . 44 .

حنه شاهين

المفهوم الاسرائيلي للحكم الذاتي
حكم ذاتي أم باتوستان ؟

بعد توقيع معاهدة السلام المنفرد بين مصر واسرائيل ، تبدأ مرحلة جديدة من المفاوضات السياسية بهدف تطبيق ما يسمى بمشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما نص عليه اتفاق كامب ديفيد ، بين كل من اسرائيل ومصر والولايات المتحدة · وكان هذا المشروع قد ذكر مجددا في معاهدة السلام ، على شكل رسالة مشتركة مرفقة ، وموقعة من قبل كل من بيغن والسادات الى الرئيس كارتر ، اهم ما نصت عليه هو موافقة حكومتي مصر واسرائيل على « بدء المفاوضات [حول الحكم الذاتي] خلال شهر من تبادل وثائق التصديق على معاهدة السلام · ووفقا لاطار السلام في الشرق الاوسط فان المملكة الاردنية الهاشمية مدعوة للاشتراك في المفاوضات ، ولكل من وفدي مصر والاردن ان يضم فلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة ، او فلسطينيين اخرين باتفاق مشترك ··· » (١) ·

وقد جاء في تلك الرسالة ايضا ان « هدف المفاوضات هو الاتفاق ، قبل اجراء الانتخابات ، على الترتيبات اللازمة لاقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة (المجلس الاداري)، وتحديد صلاحياتها ومسؤولياتها ، والاتفاق على ما يرتبط بذلك من مسائل اخرى ··· واذا ما قرر الاردن عدم المشاركة في المفاوضات ، فستجري هذه بين مصر واسرائيل والولايات المتحدة ، باعتبارها شريكا كاملا » · والهدف من المفاوضات ـ كما جاء في الرسالة ـ هو « اقامة سلطة الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، من اجل تحقيق الحكم الذاتي الكامل للسكان · [كذلك] فان مصر واسرائيل حددتا لنفسيهما هدفا للانتهاء من المفاوضات خلال عام واحد ، بحيث يتم اجراء الانتخابات بأسرع ما يمكن ، بعد ان تكون الاطراف قد توصلت الى اتفاق ، وتنشأ سلطة الحكم الذاتي المشار اليها في « اطار السلام في الشرق الاوسط » وتبدأ عملها خلال شهر من انتخابها · واعتبارا من هذا التاريخ تبدأ فترة السنوات الخمس الانتقالية ، ويتم سحب الحكومة العسكرية الاسرائيلية وادارتها المدنية لتحل سلطة الحكم الذاتي محلها ··· حيث يتم انسحاب *القوات المسلحة الاسرائيلية ويعاد توزيع القوات المتبقية في مواقع محددة* » ·

وتعتمد هذه الرسالة ، بشكل رئيسي ، على « اتفاق الاطار » الذي تم التوصل اليه في مؤتمر كامب ديفيد ، في شهر ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨ · واهم ما نص عليه هذا الاتفاق هو « وجوب اشتراك مصر واسرائيل والاردن وممثلو الشعب الفلسطيني في المفاوضات الخاصة بحل المشكلة الفلسطينية بكل جوانبها ، بحيث تمر هذه المفاوضات في ثلاثة مراحل : تطبيق حكم ذاتي كامل لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ، تنسحب بموجبه الحكومة العسكرية الاسرائيلية وادارتها المدنية حال انتخاب سلطة الحكم الذاتي من قبل السكان · ثانيا ، ان تتفق مصر واسرائيل والاردن على وسائل اقامة سلطة الحكم الذاتي المنتخبة في الضفة الغربية وقطاع غزة · وقد تضم هذه المفاوضات وفدا من مصر والاردن ووفدا من الفلسطينيين في الضفة والقطاع · او فلسطينيين اخرين حسب ما يتفق عليه · وتجري المفاوضات حول اتفاق يحدد مسؤوليات الحكم الذاتي في المناطق ، ويتم ضمان الامن الداخلي والخارجي والنظام العام بواسطة تشكيل قوة بوليس محلية قوية قد تضم مواطنين اردنيين ، اضافة الى ذلك تشترك القوات الاسرائيلية والاردنية في دوريات مشتركة ، وتشكيل مراكز مراقبة لضمان امن الحدود ، كذلك يتم توزيع القوات الاسرائيلية في مراكز ثابتة ومحددة · ثالثا ، ان تبدأ الفترة الانتقالية ذات السنوات الخمس عندما تقوم سلطة الحكم الذاتي (المجلس الاداري) في الضفة والقطاع · وان تبدأ المفاوضات لتحديد الوضع النهائي بهذه المناطق وابرام معاهدة سلام بين اسرائيل والاردن في اسرع وقت ممكن ، من دون ان تتأخر عن السنة الثالثة بعد بداية الفترة الانتقالية · وستجري هذه المفاوضات بين مصر واسرائيل والاردنيين والممثلين المنتخبين لسكان الضفة والقطاع ، حيث سيعرض الاتفاق نتيجة هذه المفاوضات على التصويت من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة » (٢) ·

اما بالنسبة للقدس ، فقد تم تبادل رسائل بشأنها بين كل من بيغن والسادات وكارتر حول موقف كل منهم من المدينة ، حيث عاد بيغن واكد في رسالته موقف اسرائيل المعروف من اعتبار المدينة موحدة وعاصمة لاسرائيل ·

وتجدر الاشارة الى ان ما تم التوصل اليه ، سواء في كامب ديفيد او في معاهدة السلام المنفردة بين اسرائيل ومصر، نتيجة لمفاوضات ثلاثية بين اسرائيل ومصر والولايات المتحدة ، دون مشاركة احد من الفلسطينيين ، سواء من المناطق المحتلة او خارجها · وسنحاول هنا كشف الموقف الاسرائيلي على حقيقته من مشروع الحكم الذاتي ، من خلال تتبع ما تم خلال تلك المرحلة من المفاوضات ورصد مواقف الشخصيات والدوائر ذات النفوذ في اسرائيل ، وكمؤشر لموقفها في المفاوضات الحالية ·

الحكم الذاتي كما تطرحه اسرائيل

تستعد الحكومة الاسرائيلية الآن لخوض المرحلة الثانية من المفاوضات مع مصر والولايات المتحدة ، بشأن تطبيق مشروع الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة · وهي تعمل على بلورة مواقف محددة ، ومقترحات اولية ، لعرضها في بداية المفاوضات · وقد شكلت حكومة اسرائيل لهذا الغرض لجنتين وزاريتين : الاولى موسعة ، وتتألف من ١١ وزيرا برئاسة بيغن نفسه ، للبحث في « مواقف اسرائيل الثابتة » من مسالة الحكم الذاتي ، والثانية تتألف من ٦ وزراء ، ويترأسها وزير الاديان يوسف بورغ (من الحزب الديني القومي المعروف بتعصبه الشديد لمسالة الاحتفاظ بالضفة الغربية وغزة) · ومن المفروض ان تتولى هذه اللجنة مسؤولية المفاوضات مع الطاقمين المصري والاسرائيلي ، بعد ان تحصل على توجيهات محددة من اللجنة الموسعة ·

ويبدو من خلال الاجتماعات التي عقدتها هاتان اللجنتـــــان مؤخرا ، والمقترحـــات والتصريحات التي جاءت على لسان اعضائها خاصة رئيس الحكومة بيغن ، ان نغمـــة التشدد الاسرائيلي في كل ما يتعلق بتفسير بنود الاتفاق حول الحكم الذاتي ، كما تم التوصل اليه في كامب ديفيد وفي معاهدة السلام الاسرائيليـــة ـ المصرية ، قد عـــادت بالموقف الاسرائيلي الى نقطة انطلاقه الاصلية تقريبا ، اي الى الوقت الذي عرض فيه بيغن مشروعه للحكم الذاتي على الكنيست في اواخر سنة ١٩٧٧ · ويذكر ان اهم ما تضمنـــه مشروع بيغن انذاك ، هو اقتراح انشاء « حكم ذاتي اداري » في الضفة الغربية وقطاع غزة (وقد سماه بيغن « اقليم غزة ») ، « من قبل سكان تلك المناطق ولصالحهم » (اي استبعاد الفلسطينيين في المهاجر) ، على اساس الغاء الحكم العسكري الاسرائيلي فـــي هذه المناطق · وسيقوم المجلس الاداري ، الذي سينتخبه السكان المحليون ، بالاهتمـــام بمعالجة جميع القضـايا الادارية ، في مجالات التعليم والشـــؤون الدينية والمواصـــلات والبناء والاسكان والصناعة والتجارة والسياحة والزراعة والعمل والصحة والانعاش · كذلك سيكون ضمن مجال صلاحياتـــه العمـــل على اعادة تأهيـــل اللاجئيـــن والاشراف على الادارة القضائية ، وعلى قوة شرطة محلية · ويحق له اصدار الانظمة المتعلقة بسيـــر العمل في جميع تلك الدوائر والاجهزة · اما شؤون الامن والنظام العام في الضفة الغربية وقطاع غزة ، فسيعهد بها الى الجيش الاسرائيلي ·

وفيما يتعلق بالجنسية ، فان مشروع بيغن يخير السكان الفلسطينيين في هذه المناطق بين الحصول على الجنسية الاردنية ـ بعد الاتفاق مع الاردن في هذا الشأن ـ او الجنسية الاسرائيلية ·

كذلك يتطرق المشروع الى الاعتراف بما يسميه الحق المتبادل في امتلاك الاراضي ، اي انه يحق لسكان اسرائيل امتلاك الاراضي والاستيطان في الضفة الغربية وقطاع غزة ، كما يحق للعرب من سكان هذه المناطق شراء الاراضي والسكن في اسرائيل ·

وفيما يتعلق بالقدس ، فانها ستبقى ـ حسب المشروع ـ عاصمة لاسرائيل ، مع ضمـــان حرية وصول ابناء جميع الديانات الى الاماكن المقدسة الخاصة بهم ·

وكان بيغن قد أقترح ابقاء مسألة السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة مفتوحة ، مع « تمسك اسرائيل بحقها ومطلبها في السيـــادة على تلك المناطق » · كذلك اقتـــرح ان تكون مبادىء مشروعه هذه قابلة لاعادة النظر بها بعد مدة خمس سنوات (٣) ·

الا ان مشروع بيغن هذا لـــم يحظ في حينه بموافقـــة تامة من جانب مصـــر والولايـــات المتحدة ، وقد دارت حوله مفاوضـــات مطولـــة ، خاصـــة في مؤتمـــر كامب ديفيد ، حين تم التوصل الى صيغة غامضة ـ سميت بأتفاق الاطار كما ذكرنا سابقا ـ وصفها دايان وزير الخارجية الاسرائيلي ، بأنها « تتحدث بصورة عامـــة جدا حـــول مبـــادىء خاصـــة بالحكم الذاتي » (٤) ، وكل طرف يحاول ان يعطيها تفسيرا مختلفا يتلاءم مع مفهومه ومنطلقاته · وعلى هذا الاساس يتوقـــع ان تكون هذه التفسيـــرات موقـــع خلاف كبير خـــلال المفاوضات المقبلة ·

وقبل التطرق الى هذه المسائل لا بدلنا من الاشارة الى التعديلات الاساسية التي ادخلت على مشروع الحكم الذاتي حسب صيغة كامب ديفيد ، بالمقارنة مع المشروع الاسرائيلي كما ذكرناه سابقا ، لندرك فيما بعد حقيقة الموقف الاسرائيلي الحالي ، والاسس التي يستنـــد

اليها في تفسيراته المختلفة لبنود اتفاق كامب ديفيد ٠

فالتعديل الاول يتعلق بجوهر الحكم الذاتي ، اذ بينما يتحدث المشروع الاسرائيلي عن حكم ذاتي اداري للسكان لا يسري على المناطق ، فأن اتفاق كامب ديفيد يتطرق الى « حكم ذاتي كامل » يسري ، حسب التفسير الاميركي ـ المصري ، على السكان والمناطق التي يعيشون عليها ٠ والتعديل الثاني يتعلق بمصدر صلاحيات الحكم الذاتي ٠ فالمشروع الاسرائيلي يتحدث حول الغاء الجهاز المدني في الحكم العسكري ، بينما يبقى هذا الحكم مصدر الصلاحية الشرعي في المناطق ٠ وحسب هذا المفهوم ، يستطيع الحكم العسكري اصدار انظمة مختلفة في المناطق الخاضعة لسيطرته ويكون بمثابة سلطة عليا فوق سلطة الحكم الذاتي ٠ وما تقرر في كامب ديفيد ليس الغاء الجهاز المدني فقط ، وانما انسحاب الحكم العسكري بكامله من المناطق ، بحيث لا يبقى فيها هيئة عليا تشكل مصدر السلطة الشرعي فوق الحكم الذاتي ٠ فاتفاق كامب ديفيد يتحدث صراحة حول وجوب انتقال صلاحيات الحكم ، التي يحتفظ بها اليوم الحكم العسكري الاسرائيلي ، الى سلطة الحكم الذاتي ٠ اما التعديل الثالث فيتعلق بترتيبات الامن ٠ فحسب المشروع الاسرائيلي يحق للجيش الاسرائيلي التحرك في المناطق دون تحديد والبقاء فيها حتى بعد الفترة الانتقالية التي مدتها ٥ سنوات « من اجل المحافظة على امن اسرائيل » ٠ وقد اتفق في كامب ديفيد على تغييرين جوهريين يتعلقان بقضايا الامن : الاول وجوب تركيز القوات الاسرائيلية في معسكرات ثابتة في الضفة الغربية وغزة ، والثاني ان تتولى « شرطة محلية قوية » الاهتمام بقضايا الامن الداخلي والخارجي ، بحيث تكون خاضعة لسلطة الحكم الذاتي ٠ اما التعديل الرابع فيتعلق بمستقبل المناطق ٠ فحسب المشروع الاسرائيلي ، يبدأ البحث في الوضع النهائي في المناطق بعد مضي خمس سنوات ، ابتداءا من يوم انشاء مؤسسات الحكم الذاتي ٠ وتؤكد اسرائيل في مشروعها أنها ستحافظ على وجودها في المناطق حتى بعد هذه الفترة ٠ اما في كامب ديفيد فقد تقرر البدء بالبحث في مستقبل المناطق ، ابتداء من السنة الثالثة بعد انشاء مؤسسات الحكم الذاتي ٠

اضافة الى هذه التعديلات يعكس القبول الاسرائيلي بمشروع الحكم الذاتي ، حسب صيغة كامب ديفيد ، تطورين اساسيين في الموقف الاسرائيلي الرسمي من القضية الفلسطينية بشكل عام ، رغم التطرف الذي تبديه الحكومة الاسرائيلية في كل ما يتعلق بتفسير هذا المشروع ٠ والتطور الاول ، هو اعتراف اسرائيلي « رسمي » بوحدة الضفة الغربية وقطاع غزة ، بواسطة ربط المنطقتين بمشروع واحد يلزم حلا مماثلا ٠ ومع ان هذا التطور جاء من خلال مبادرة اسرائيلية رسمية ، يهدف « منع تقسيم ارض ـ اسرائيل الغربية » ٠ فانه الغى عمليا سياسة طرح مشروع الحل الاقليمي الذي كان محور تفكير الحكومات السابقة ، والهادف الى تقسيم الضفة الغربية بين الاردن واسرائيل ، وفصل مصير الضفة عن مصير القطاع ٠ « ان تبني هذا المشروع ، الغى بصورة اوتوماتيكية ، قرار حكومة غولده مئير بأن قطاع غزة لن يعاد الى السيادة المصرية ، وسيضم عمليا الى مجال السيطرة الاسرائيلية » (٥) ٠

والتغيير الثاني هو اعتراف اسرائيلي رسمي ، وان كان نتيجة الضغوط في كامب ديفيد ، « بالحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، كما جاء في الاتفاق ٠ وبالرغم من عدم الاهمية التي تنسبها الاوساط الرسمية ـ خاصة المقربة من بيغن ـ لهذه المسألة ، فأن هذا الامر ، رغم عدم جدواه حاليا في الوضع السياسي القائم ، يعتبر تغييرا ملحوظا بالمقارنة مع المواقف الاسرائيلية الرسمية السابقة ٠ فاقصى ما وصلت اليه حكومات المعراخ السابقة ،

فيما يتعلق بموقفها من حقوق الشعب الفلسطيني ، هو ذلك التغيير البسيط الذي حدث سنة ١٩٧٣ ، بعد حرب تشرين ، في عهد حكومة مئير ، عندما دعت ، لاول مرة ، الى حل القضية الفلسطينية من خلال الاخذ بالاعتبار مسألة « الهوية القومية » للفلسطينيين ، وعدم التعامل معهم كلاجئين فقط (٦) ، بالرغم من انها لم تتخل عن موقفها « الاقليمي » لحل مسألة « الهوية القومية » ضمن دولة اردنية ـ فلسطينية · وعلى اي حال ، فان الاعتراف « بالحقوق المشروعة للفلسطينيين » يبقى امرا عديم الجدوى في ظل الموقفين الاسرائيلي والاميركي الراهنين ·

التطرف سيد الموقف

يبدو انه ليس هناك خلافات اساسية داخل الحكومة الاسرائيلية حول تفسير بنود الاتفاق بشأن الحكم الذاتي ، والهدف منه ، وكيفية تطبيقه · فالوزراء الاسرائيليون الذين ينتمون في غالبيتهم الى كتلة ليكود والحزب الديني القومي ، شبه متفقين في منطلقاتهم الفكرية تجاه مفهوم الحكم الذاتي ، بحيث نجد ان الخلافات بينهم احيانا تعود الى مدى التطرف الذي يعربون عنه ، وليس الى نقيض ذلك · وهذا الامر لا يعتبر غريبا ، اذا ما اخذنا في الاعتبار ، انمشروع الحكم الذاتي ، كما خطط له بيغن ، يرتكز على اسس مبدئية لا يمكن زحزحته عنها ، واهمها الاساس العقائدي ، الذي يتحكم في عقلية بيغن وسياسة حكومته · فعقائديا يرى بيغن ان الضفة الغربية جزء من « ارض اسرائيل » لا يجوز التنازل عنه ، والحكم الذاتي ، في نظره ، افضل السبل لضمان السيطرة الاسرائيلية الكاملة على هذه المنطقة مستقبلا · وهذا التفكير نابع من صلب ايديولوجية اليمين الصهيوني ، التي تثبت مبدأ بناء الدولة اليهودية على « ارض اسرائيل الكاملة » · وهناك الاساس الآخر ، الامني ، حيث يرى بيغن ان السيطرة عسكريا واستيطانيا على الضفة الغربية وقطاع غزة ستوفر الامن لاسرائيل ، « وهو على اقتناع تام بأن اسرائيل لا تستطيع الصمود في وجه جبهة عسكرية شرقية ، الا اذا كان الجيش الاسرائيلي مسيطرا بشكل تام على محاور الطرق الرئيسية في الضفة ، ويكون هناك استيطان واسع في هذه المناطق » (٧) · كذلك هناك الاساس العنصري الذي يتمثل في رفض الحقوق القومية للفلسطينيين ، على اساس ان هذه الحقوق تتعارض ومبدأ وجود اسرائيل · فمشروع الحكم الذاتي ، كغيره من المشاريع السابقة ، يرفض الاعتراف بالحقوق القومية ، اذ لا سيادة ولا قرارات مستقلة تتعلق بالامن والسياسات الخارجية ، وكل ما هو معروض ليس سوى « اعطاء الفلسطينيين فرصة لادارة شؤونهم الخاصة بأنفسهم » · وربما كان هناك تناقض بين هذا الاساس وبين ما وقعت عليه اسرائيل في اتفاق كامب ديفيد من ان الحل الناتج عن المفاوضات يجب ان يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني · لكن ، يبدو ان هذا الامر لا يقلق بال اسرائيل كثيرا ، وكعادتها تجد له تفسيرا مختلفا · وكما جاء على لسان احد وزراء ليكود المقربين من بيغن ، حاييم لانداو « فأن عرب ارض ـ اسرائيل لهم حقوق في اسرائيل [والقصد حقوق محدودة] ، اما الشعب اليهودي فله حقوق على ارض ـ اسرائيل » (٨) · اما بيغن فيردد دائما ان حق اسرائيل في السيادة على الضفة الغربية وقطاع غزة « امر غير قابل للطعن » ·

انطلاقا من هذه الاسس نشطت الحكومة الاسرائيلية ، بوزرائها ولجانها ، في بلورة مواقفها النهائية ازاء اهم المسائل التي ستطرح في المفاوضات حول الحكم الذاتي · والحقيقة

هي ان مواقف الحكومة الاسرائيلية من هذه المسائل لم تكن ابدا موضع اخفاء او غموض ، منذ ان بادر بيغن الى طرح مشروعه بعد زيارة السادات الى القدس ، وطوال فترة المفاوضات السابقة · ولقد حافظت اسرائيل على وجهات نظرها وارائها رغم تعديلات كامب ديفيد ، دون اي غموض · وخلال هذه الفترة ، شكلت تلك الحكومة لجنة من المدراء العامين برئاسة الياهو بن ـ اليسار ، مدير مكتب رئيس الحكومة ، للبحث تفصيليا في مشروع الحكم الذاتي ، وتقديم توصيات الى الحكومة في هذا الشأن · ويلاحظ من خلال ما سرب من معلومات حول توصيات هذه اللجنة ، ومن تصريحات واراء مختلف الوزراء ، وعلى رأسهم رئيس الحكومة بيغن ، ان اهم المسائل التي يتوقع ان تطرح على جدول الاعمال خلال المفاوضات وأن تكون موضع خلاف بين الاطراف المفاوضة ، تنحصر في المواضيع التالية : قضية القدس ومسألة تطبيق الحكم الذاتي في القدس الشرقية ، الاستيطان الاسرائيلي فيالضفة الغربية وقطاع غزة ، وهل ستخضع المستوطنات لسلطة الحكم الذاتي، قضية الامن والجهة التي ستتولى الاهتمام به ، مصدر الصلاحيات لسلطة الحكم الذاتي ، قضية السيطرة على مصادر المياه والاراضي العامة في الضفة الغربية ، واخيرا ما هو القصد من المفاوضات النهائية حول مستقبل المناطق ، والتي ستبدأ ، كما ذكرنا سابقا . في السنة الثالثة ، ابتداءا من يوم انشاء مؤسسات الحكم الذاتي ، ثم معارضة اسرائيل لاي استقلال فلسطيني قد تسفر عنه هذه المفاوضات ·

القدس ـ « موحدة وعاصمة لاسرائيل »

يمكن تلخيص موقف اسرائيل الرسمي من قضية القدس ، ان لا تراجع ابدا عن القرار الذي اتخذته في تموز (يوليو) ١٩٦٧ ، والذي ينص على ان القدس هي مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم ، وعاصمة أسرائيل · ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية ترفض حتى مجرد مناقشة اي شيء يتعارض وقرارها هذا ، وقد حافظت على موقفها طوال فترة المفاوضات وحتى في مؤتمر كامب ديفيد لم يجر تحديد رسمي فيما اذا كانت القدس جزءا من الضفة الغربية ، وهل ستكون خاضعة لسلطة الحكم الذاتي ام لا ، وكل ما ورد في هذا الشان هو رسائل متبادلة بين بيغن والسادات وكارتر ـ كما ذكرنا سابقا ـ يعلن فيها كل منهم موقفه تجاه المدينة · ولاثبات موقف اسرائيل المتشدد تجاه القدس ، فقد روى بيغن انه في اليوم الاخير لمحادثات كامب ديفيد ، قبل ساعات قليلة من التوقيع على اتفاقات الاطار ، قدم له سفير الولايات المتحدة في اسرائيل صموئيل لويس ، مسودة رسالة كان الرئيس كارتر ينوي ارسالها له ، وبموجبها تعتبر الولايات المتحدة ان القدس القديمة هي منطقة محتلة تسري عليها المعاهدات المتعلقة بالمناطق المحتلة · وقد رفض بيغن قبول هذه الرسالة ، موضحا ـ على حد تعبيره ـ بانه اعلن « فورا وبصورة قاطعة ومفصلة ، انه اذا ارسلت لي مثل هذه الرسالة ، فان اسرائيل لن توقع على اتفاقات الاطار ··· ولقد تم سحبها ، واعلن الرئيس انه بالامكان ايجاد صيغة اخرى · وفعلا ، تم ايجاد صيغة كهذه تتضمن ذكر اقوال اعلنها ممثلون رسميون اميركيون حول قضية القدس قبل عشر سنوات او اكثر · وثمة فرق بين قول محدد مرتبط باتفاقات كامب ديفيد ، وتبني اقوال ذكرت فيما مضى ··· ولقد اجبت على هذه الرسالة باخرى تقول ان القدس ، عاصمة اسرائيل الابدية ، مدينة تم توحيدها ولن تقسم الى الابد » (١٠) ·

ولعل البيان الاخير الذي اصدرته الحكومة الاسرائيلية ، بعد دعوة مصر الى عقد مؤتمر

قمة اسلامية للبحث في قضية القدس ، خير دليل على موقف اسرائيل المتصلب من هذه المسالة ، حيث اعلنت ان « الحكومة تكرر قولها ان القدس هي العاصمة الابدية لاسرائيل وهي مدينة واحدة غير قابلة للتقسيم ، منذ السابع من حزيران ١٩٦٧ » (١١) ٠

« الحكم الذاتي ينطبق على السكان لا على الارض »

للحكومة الاسرائيلية تفسيرها الخاص لما تعهدت به من « تطبيق حكم ذاتي كامل » لسكان الضفة الغربية وقطاع غزة ٠ فقد اعلن بيغن في خطابه في الكنيست ، قبيل توقيع معاهدة السلام مع مصر ، ان اسرائيل « وافقت على منح الحكم الذاتي للسكان العرب في [الضفة الغربية] وغزة وهذا ما نتعهد به ٠ الا اننا لم نوافق ابدا على منح حكم ذاتي كامل [لتلك] المناطق ٠٠٠ » (١٢) ٠

الى ماذا تهدف اسرائيل من وراء ذلك ؟

الهدف الاول هو منع اي تطور نحو استقلال فلسطيني في هذه المناطق ٠ فبيغن يعود ويعلن في كل مناسبة انه « لن تكون هناك دولة فلسطينيةفي [الضفة الغربية] وغزة ٠ لن نوافق على ذلك ولن نسمح به ٠ ان الحكم الذاتي لن يؤدي الى دولة فلسطينية » (١٣) ٠ واسرائيل تدرك جيدا ، ان الحكم الذاتي الذي سيطبق كمشروع تتبناه دولة كبرى حليفة ، وفي ظل استمرارية النضال الفلسطيني والتأييد الذي يتمتع به على المستويين الدولي والعربي ـ اذا لم يطبق ضمن كوابح شديدة ، فانه ، بلا شك ، سيؤدي الى قيام كيان فلسطيني مستقل تعارضه اشد معارضة ٠

اما الهدف الآخر فهو خلق واقع اسرائيلي مواز للواقع العربي في الضفة الغربية وغزة ، لكي يتسنى لاسرائيل المطالبة بالسيادة على هذه المناطق في المستقبل ، في مقابل المطالبة العربية بأستعادتها ٠

انطلاقا من هذه الاهداف تنشط الحكومة الاسرائيلية في وضع الخطط الاستيطانية الواسعة التي ستنفذها في عهد الحكم الذاتي ، وفي وضع نظام خاص يسري على المستوطنات الاسرائيلية في المناطق ، وفق السياسة التي حددها بيغن ، والقائلة « ان الشعب اليهودي يملك الحق الكامل في الاستيطان في ارض ـ اسرائيل ٠ ولقد مارسنا هذا الحق وسنمارسه » (١٤) ٠ ويلاحظ ان هناك شبه اجماع داخل الحكومة الاسرائيلية حول قضية الاستيطان خلال الفترة المقبلة ٠ والاستيطان يتطلب توفير ثلاثة عناصر اساسية : الارض والطاقة البشرية والمياه ٠ وبالنسبة للارض ، بما أن الاستيطان هو « هدف قومي » ـ حسب تعبير الوزير لانداو ـ « يجب ان يقوم الحكم العسكري بالاستيلاء على اراضي الدولة قبل قيام الحكم الذاتي » (١٥) ٠ اما وزير الزراعة ارئيل شارون ، المسؤول عن اللجنة الوزارية لشؤون الاستيطان في المناطق المحتلة ، فيعلن انه « يجب ان تتخذ الحكومة قرارا بشأن الاستيلاء على الاراضي المطلوبة لتنفيذ الخطط الاستيطانية ٠٠٠ دون اي تأخير » (١٦) ٠ وفي اعتقاده ان « الاستيلاء على الاراضي لايزيد من الاحتكاك مع السكان العرب ، وانما يمنعه في المستقبل ، والاسهل بالنسبة لاسرائيل ان تفعل ذلك الآن على ان تفعله فيما بعد ٠ فنحن اليوم في وضع تفاوض ، وبعدما نعطي كل شيء نجد انفسنا في وضع المطالب وليس لدينا ما نمنحه في المقابل ٠ ان وضع اسرائيل ، اذا ما وصلت الى حالة كهذه ، سيكون اصعب من ان يحتمل » (١٧) ٠ وقد بدأت اسرائيل ، صاحبة التجربة

الفنية في مجال سلب الاراضي ، تتحدث بالارقام حول الاملاك الخاصة والعامة والتي لم تجر تسوية حقوق ملكيتها بعد · فحسب بن ـ اليسار ، فانه من بين ٥ر٦ مليون دونم في الضفة الغربية ، هناك ٧٠٠ر٠٠٠ دونم فقط مسجلة على اسم الدولة ، ونصف مليون دونم لم تجر تسوية حقوق ملكيتها بعد · وحسب توصيات هذه اللجنة « يجب ان تبقى اسرائيل وصية على اراضي الدولة ، بصفتها وريثة المجلس الملكي الاردني ، الذي كان يملك هذه الاراضي حتى سنة ١٩٦٧ · ويجب ان يبقى هذا الوضع قائما حتى نهاية الفترة الانتقالية اي فترة الخمس سنوات ، او حتى دخول الاردن الى المفاوضات » (١٨) ·

ويبدو ، بالنسبة للعنصر البشري ، ان الوضع غير مشجع اذا ما قيس بالخطط الاستيطانية الواسعة التي تحلم الحكومة بتنفيذها في المناطق المحتلة · فقد تبين حتى الآن ان معظم الذين يستوطنون في الضفة الغربية ، منذ تولي ليكود الحكم ، هم من اعضاء حركة غوش ايمونيم · وقد اعلن احد زعمائهم ، جرشون شيفط ، انه « منذ مجيء ليكود الى الحكم استوطن في الضفة الغربية نحو ٤٠٠٠ يهودي في ١٥ مستوطنة · من بينهم ٢٧٢٠ شخصا تابعين لغوش ايمونيم » (١٩) · ولكن شيفط كشف ايضا ان الاحتياط البشري لدى حركته آخذ بالانخفاض بسرعة ، وان ما لديها الان من عائلات مرشحة للاستيطان لا يتجاوز الالفي عائلة (٢٠) · ورغم ذلك ، فان الوزير شارون يتحدث حول خطط استيطانية واسعة في المناطق المحتلة ، ينوي طرحها على الحكومة ، ليصار الى تنفيذها خلال المرحلة المقبلة · وتتمثل هذه الخطط في اقامة ثلاثة قطاعات استيطانية في الضفة الغربية : الاول قطاع الشاطىء « حيث لا يوجد لاسرائيل اي عمق استراتيجي » · فعلى بعد ٢٠ كم شرقي « الخط الاخضر » [حدود الهدنة لسنة ١٩٤٩] يجب اقامة مدن ومستوطنات [مثلا] مدينة خارض التي سيسكنها ١٥٠ الف نسمة ، وقدوم ـ ٥٠ الفا ، وكرني شومرون ـ ٣٠ الفا ··· كما يجب شق الطرق في هذا القطاع لتربط بين المدن والمستوطنات ··· اضافة الى معسكرات الجيش ومناطق التدريب · ثانيا ··· يجب انشاء مستوطنات كثيرة اخرى في غور الاردن ، اضافة الى تلك القائمة ، ومدها بمستوطنين جدد· ويجب ان تكون هذه المستوطنات مرتبطة فيما بينها ، وكذلك بينها وبين قطاع الشاطىء · والقطاع الثالث [يتمثل] في انشاء مدن صغيرة حول مدينة القدس مثل غوش عتسيون ، تكواع ، معاليه ادوميم ، ريمونيم ، كوخاف هشا حار ، بيت ايل وجفعون ، لان القدس لن تكون عاصمة لاسرائيل اذا لم تسكنها اغلبية يهودية · يجب ان يسكن ، خلال ٢٠ او ٣٠ سنة ، مليون يهودي في القدس الموحدة وضواحيها »(٢١) ·

وتحاول اسرائيل خلق مركز خاص لمستوطناتها في الضفة الغربية وقطاع غزة ، حتى قبل بدء المفاوضات حول الحكم الذاتي ، بهدف جذب مستوطنين جدد الى المنطقة ، والمحافظة على وجود سكان المستوطنات القائمة · ويتمثل هذا المركز الخاص في رفض اسرائيل خضوع مستوطناتها لسلطة الحكم الذاتي ، لان « الادارة الذاتية يجب ان تطبق على السكان العرب وليس على المستوطنين اليهود » (٢٢) ، كما جاء في توصيات لجنة بن ـ اليسار · ويبدو ان الحكومة تبنت هذا الموقف ، اذ اعلن وزير الخارجية دايان امام المستوطنين في الغور ، ان « ارتباط مستوطناتهم باسرائيل هوكارتباط نهلال [مستوطنة تقع بين الناصرة وحيفا] بها ، ومركزها كمركزه في تساهلاه [ضاحية في تل ابيب] » (٢٣) · واكد دايان انه لن تكون هناك حكومة في اسرائيل ترضى بغير هذا الوضع ، حتى بعد انتهاء السنوات الخمس ، داعيا الى قدوم المزيد من المستوطنين اليهود الى الغور ، واقامة استمرارية اقليمية من المستوطنات حتى سهل بيسان (٢٤) ·

وتجسيدا لهذه السياسة ، وقع الحاكم العسكري للضفة الغربية على امر يقضي بانشاء مجلس محلي واحد في معاليه هأدوميم (قرب القدس) ، واربعة مجالس اقليمية للمستوطنات اليهودية في غور الاردن وقضاء بيت ـ ايل والسامرة وغوش عتسيون (٢٥) ، وذلك على غرار المجالس القائمة في المستوطنات القديمة ٠ كما قررت وزارة الداخلية انشاء مجلس اقليمي لقطاع غزة ، بحيث تكون جميع مستوطنات القطاع في هذا المجلس ذات مركز مستقل وغير خاضعة للحكم الذاتي » (٢٦) ٠ لكن ، يبدو ان هذه السياسة لن تنفع في استقدام الاعداد الكبيرة من المستوطنين ، خاصة وانه ليس هنالك من مرشحين للاستيطان، كما يبدو سوى اعضاء غوش ايمونيم وبعض انصارهم٠ ويبقى كلام شارون حول اسكان مليون يهودي في الضفة بمثابة حلم بعيد المنال في الواقع السياسي الحالي ٠ فاذا كان الاستيطان الاسرائيلي منذ احتلال المناطق ، لم يؤد الى تغيير الميزان الديمغرافي في المنطقة لصالح اسرائيل ، يبدو انه من الصعب ان يتحقق ذلك في فترة انتقالية لم يتحدد بها مستقبل المنطقة ، خاصة وان تجربة اخلاء مستوطنات سيناء لا زالت في ذهن الاسرائيليين ٠ ولا يعني هذا ان الخطط الاستيطانية برمتها ستمنى في النهاية بفشل ذريع، اذ ربما استطاع دعاة « ارض ـ اسرائيل الكاملة » ، ودعاة « المحافظة على امن اسرائيل»، تحقيق نجاح ما ، بمساعدة الحكومة ، واضافة عدة مستوطنات في تلك المناطق ، الا ان هذا « الواقع الاسرائيلي » الجديد يبقى محدودا امام الكثافة السكانية العربية الكبيرة ٠

السيطرة على مصادر المياه

تعتمد اسرائيل على المصادر المائية في الضفة الغربية لمد موستوطناتها في المناطق المحتلة بالمياه وفي الري الزراعي لمساحات من الاراضي التي تحتلها منذ سنة ١٩٤٨ ٠ لذلك ، فهي تطالب بالسيطرة على هذه المصادر ، حتى بعد قيام سلطة الحكم الذاتي ٠

وحسب مذكرة قدمتها مصلحة المياه في اسرائيل ، مرفقة بتقرير لجنة بن ـ اليسار ، « فأن مصدر الينابيع المائية داخل « الخط الاخضر » هو في الضفة الغربية ، لذلك يجب على اسرائيل ان تطالب بالاشراف عليها وحدها او بالاشتراك مع هيئة عربية » (٢٧) ٠ ويصف احد الكتاب الاسرائيليين هذه الظاهرة بقوله ان « السكان في اسرائيل وفي الضفة الغربية يعيشون فوق حمام مشترك واحد من مصادر المياه الجوفية ، تمتد من نهر الاردن وحتى البحر » ٠ وتدعي اسرائيل ان استغلال هذه المياه الجوفية يجري اليوم على نطاق واسع ، لذلك « فأن كل عمل غير مراقب لاستعمال مصادر المياه هذه في الضفة ، وكل ضخ زائد ٠٠٠ سيؤدي الى دمار كامل لمصادر المياه والى [زيادة] ملوحتها » (٢٩) ٠

وتبدي اسرائيل ، في هذا الصدد ، قلقها من قيام جمعيات اميركية متطوعة بمساعدة العرب في الضفة الغربية ، على تطوير مصادر المياه في المنطقة (٣٠) ٠ وفي اعتقاد الخبراء الاسرائيليين ان هدف هذه الجمعيات هو خلق مصاعب ، قدر الامكان ، امام عمليات التطوير والاستيطان الاسرائيلي في المنطقة بواسطة « وضع اليد العربية على مصادر المياه ٠ فمن يسيطر على المياه يستطيع أن يحدد عدد وطابع المستوطنات والمستوطنين الاسرائيليين في المنطقة ٠ وبعبارة اخرى : من يسيطر على المياه ، يستطيع منع اقامة مستوطنات جديدة يشكل خطرا على تلك القائمة » (٣١) ٠

ويبدو ان الحكومة الاسرائيلية تدرك خطورة هذا الوضع بالنسبة لمستوطناتها ، وتخشى من فقدان السيطرة الكاملة على مصادر المياه في المستقبل ، لذلك فقد اتخذت ، بتاريخ

١٩٧٩/٢/١٨، بمبادرة من وزير الخارجية دايان، وموافقة وزير الزراعة شارون قرارابشأن « مد خط انابيب مائي من بحيرة طبريا الى مستوطنات الغور ، وفرض رقابة من قبل مدير مصلحة المياه على كل عملية حفر للينابيع في الضفة » (٣٢) · وقد اعلن دايان اثر اتخاذ هذا القرار انه يجب خلق توازن في قطاع المياه بين السهل الساحلي وسفوح الجبال في الضفة الغربية · اما شارون ، فقد عقب بقوله « ان هذا القرار ضروري ومطلوب لكي نوضح للولايات المتحدة والعرب في الضفة الغربية ، وجهة النظر الاسرائيلية حول وضع المناطق · واضاف ان القرار مطلوب لتوضيح مسألة حقوق المياه ، والتأكيد على ان مصادر مشتركة ستزود المياه لاسرائيل وللضفة الغربية » (٣٣) ·

على اي حال ، تبقى مصادر المياه في الضفة عنصرا مهما في تنفيذ المخططات الاستيطانية الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، خاصة اذا كان المخطط هو انشاء مستوطنات زراعية بعد الاستيلاء على الاراضي العامة ، ومصادرة جزء من الاراضي الخاصة « التي لم يجر اثبات ملكيتها بعد » ، على حد قول الاسرائيليين · ولذلك يتوقع ان تكون هذه المسألة موضع خلاف كبير خلال المفاوضات حول الحكم الذاتي ·

مصدر صلاحيات الحكم الذاتي

يلاحظ ان هنالك تناقضا كاملا بين موقف اسرائيل من سلطة الحكم الذاتي ، فيما يتعلق بمصدر صلاحياتها ، وبين ما جاء في اتفاق كامب ديفيد ، الذي يتحدث صراحة ـ كما ذكرنا سابقا ـ حول انتقال السلطة من الحكم العسكري والادارة المدنية الاسرائيلية الى الادارة الذاتية التي سينتخبها السكان ، اي ان هذه الادارة ستحل مكان الحكم العسكري الاسرائيلي · الا ان الموقف الاسرائيلي ـ كما قدمه بيغن مؤخرا الى الحكومة (٣٤) ـ يرفض ان يكون للحكم الذاتي صلاحيات تشريعية ، ويصر على انها هيئة ادارية فقط ، وان اسرائيل هي صاحبة السلطة العليا في المناطق · وتحاول اسرائيل في موقفها هذا تجاوز نقطتين اساسيتين تنبثقان ، ضمنا ، عن مشروع الحكم الذاتي : أولاهما ان هذا المشروع اذا ما نفذ ، سيطبق حسب اتفاق بين ثلاثة اطراف، هي اسرائيل ومصر والولايات المتحدة· وثانيها ، ان هذا الاتفاق ـ ليس الحكم العسكري الاسرائيلي ـ هو مصدر الصلاحية لسلطة الحكم الذاتي · اي ان ما تم في كامب ديفيد ، خلافا لمشروع الحكم الذاتي الاصلي الذي قدمه بيغن الى الكنيست (٣٥) ، استبعد الحكم العسكري الاسرائيلي كمصدر لصلاحيات سلطة الحكم الذاتي · ويلاحظ هنا ان موقف اسرائيل المتشدد من هذا الموضوع ناتج اساسا عن خوفها من ان يؤدي منح صلاحيات كاملة لسلطة الحكم الذاتي في المجالين الاداري والتشريعي ، الى تطور خطير في نظرها ، وهو ان يقوى مركز سلطة الحكم الذاتي ـ اذا ما اقيمت ـ خلال الفترة الانتقالية ، محليا ودوليا ، بحيث تصبح مطالبتها بالاستقلال التام خلال المفاوضات النهائية حول مصير المناطق ، امرا بديهيا · وبالاضافة الى ذلك ، قد يؤدي هذا الامر الى ضعف مركز اسرائيل في هذه المفاوضات وفقدانها الاساس القوي للمطالبة بالسيادة على المناطق ، وهو ما يشكل اساسا لكل سياستها حول الحكم الذاتي ، كما ذكرنا ·

وعلى اي حال ، فان الحكومة الاسرائيلية تمانع حتى في خروج الحكم العسكري بصورة نهائية من المناطق المحتلة ، بحجة المحافظة على « الامن الداخلي والخارجي والنظام العام »

الذي ستبقى اسرائيل مسؤولة عنه ، حسب مشروع بيغن (٣٦) · ويستند هذا الموقف على توصيات لجنة بن ـ اليسار التي تقضي « بأن يستمر الجيش الاسرائيلي [الذي يعتبر الحكم العسكري احد اجهزته الرئيسية في المناطق] بالمحافظة على الامن الداخلي والخارجي في مناطق الحكم الذاتي ، وفي القيام بمناوراته وفق اعتباراته الخاصة ، وبحيث تكون تجمعاته ضمن معسكرات يتم تحديدها اثناء المفاوضات » (٣٧) ·

وبناء عليه نستطيع ان نتخيل الدور الذي ترسمه اسرائيل « للشرطة المحلية القوية التي سيوكل اليها المحافظة على الامن والنظام » حسب اتفاق كامب ديفيد · فبناء على الموقف الاسرائيلي ، لن تكون تلك الشرطة على ما يبدو ، سوى جهاز في الحكم العسكري او احد فروعه ·

فترة انتقالية لفرض السيادة الاسرائيلية

تهدف اسرائيل من وراء مواقفها المتصلبة من مشروع الحكم الذاتي الى خلق اساس قوي لها ـ في حال تطبيقه ـ في المفاوضات حول مستقبل المناطق التي من المفروض ان تبدأ في السنة الثالثة بعد التطبيق ، حين ستطالب بفرض سيادتها على « ارض ـ اسرائيل » الغربية بأكملها · وقد عرف وزير الخارجية دايان نظام الحكم الذاتي بقوله « انه مشروع لنمط حياة مؤقت ، ليس دائما ولا نهائيا ، وانما لخمس سنين فقط » (٣٨) ، بهدف خلق واقع اسرائيلي ثابت في هذه المناطق ، بواسطة الاستيطان والاستيلاء على الاراضي والمياه بالطبع ، وحتى يتحسن الواقع السياسي الذي تعيشه اسرائيل الآن ، فتسنح الفرصة امامها لضم هذه المناطق نهائيا اليها · ومن جملة ما تراهن عليه اسرائيل في هذا المجال ، بعض التطورات المتوقعة في المستقبل ·

واولى هذه التطورات المتوقعة بتصور اسرائيل لعلاقاتها مع مصر ، فالحكم الذاتي اذا ما طبق سيؤدي الى تطبيع هذه العلاقات بصورة كاملة ، حين تخرج مصر ، نتيجة ذلك ، نهائيا ، من دائرة الصراع في الشرق الاوسط · وبالتالي فأن موقفها ـ اي مصر ـ في المفاوضات حول المستقبل النهائي للمناطق المحتلة سيكون ضعيفا ، لا يستند الا على اساس « الصداقة » ، والتي يبدو ان بيغن في غنى عنها ، اذا كان الامر يتعلق بمستقبل «اليهودية والسامرة » · وقد قيم بيغن صراحة موقف مصر ، في خطابه امام الكنيست قبيل توقيع معاهدة السلام ، بقوله « ان مصر لا تستطيع ان تمنحنا السلام في الشرق ».(٣٩) ، في اشارة واضحة الى ان اسرائيل لاتستطيع القبول بالموقف المصري فيما يتعلق بمستقبل المناطق المحتلة ·

أما التطور الثاني المتوقع فهو ان الاردن لن يوافق على دخول المفاوضات حتى بعد ثلاث سنوات ، لان المقصود هو تنازله كليا عن المناطق هذه المرة ـ وليس عن جزء منها كما كان يطالبه المعراخ ـ ضمن معاهدة سلام بينه وبين اسرائيل ·

والتطور الثالث يتعلق بالوضع الذي ينشأ عن موقف سكان المناطق المحتلة · فالحل النهائي الناتج عن المفاوضات في المستقبل يجب ان « يعترف بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني ومتطلباته العادلة » ، حسب صيغة كامب ديفيد · وهذا الحل يجب ان يخضع ايضا للتصويت عليه من جانب الممثلين المنتخبين لسكان الضفة الغربية وغزة · وبديهي ان هؤلاء سيرفضون مشروع السيادة الاسرائيلية ، ورفضهم هذا سيكون له الوزن الاكبر ،

بصفتهم منتخبين من قبل السكان ، وليسوا معينين ، كما هو المفروض في المفاوضات حول الحكم الذاتي · وهنا يكمن قلق اسرائيل من ان يطالب هؤلاء بدولة فلسطينية مستقلة ، وان يحظى طلبهم هذا بموافقة دولية وعربية · لذلك فانها تصر في كل مشروع تتقدم به على رفضها لقيام مثل هذه الدولة ، وتحاول ان يكون هذا الامر بمثابة مقدمة ملزمة لاية مفاوضات حول الضفة الغربية وقطاع غزة · وهناك بعض المطلعين ، في اسرائيل ، يقول ان بيغن والليكود ، كانا ولا يزالان ، يراهنان على رفض العرب لمشروع الحكم الذاتي – على حد قول ابا ايبن وزير الخارجية الاسرائيلي سابقا (٤٠) – وبذلك يتجنبان حدوث مثل هذا التطور ، بواسطة الاعلان عن انه ليس هناك من يمكن التحدث او التفاوض معه من العرب حول القضية الفلسطينية وفق شروط اسرائيل بالطبع ، فيبقى مشروع الحكم الذاتي حبرا على ورق ، وتحتفظ اسرائيل بسيطرتها على المناطق المحتلة ببقاء الوضع الراهن على ما هو عليه · وتسعى اسرائيل الى تحقيق هذا الهدف منذ الآن ، بواسطة التمسك بالمواقف المتطرفة التي لا يقبلها احد من الفلسطينيين ، في الوقت الذي تدور فيه مفاوضات اخرى حول تطبيق بنود المعاهدة مع مصر ·

المعارضة الاسرائيلية لمشروع الحكم الذاتي

يثير مشروع الحكم الذاتي ومواقف الحكومة الاسرائيلية منه نقاشا وجدلا واسعين بين مختلف الاوساط الاسرائيلية ، منذ ان اعلنه بيغن في اواخر سنة ١٩٧٧ · ويكاد لا يكون هناك احد من زعماء وكتاب ومفكرين وغيرهم الا وادلى برأيه في هذا المشروع · ويلاحظ ان مؤيدي المشروع من بين هؤلاء قليلون جدا ، وان موافقتهم مشروطة بعدة امور وتطورات تعتبر ضرورية – في نظرهم – « لتحقيق اهداف مشروع الحكم الذاتي » صهيونيا ·

لتسهيل الوقوف على اشكال هذه المعارضة وفحواها ، يمكن تقسيم المعارضين الى ثلاث فئات · الفئة الاولى هي معارضة يمينية صرفة ، تتزعمها جماعات من غلاة التوسعيين الصهيونيين المحسوبين على ليكود والحركات اليمينية المتطرفة القربة منه ، مثل حركتي « ارض – اسرائيل الكاملة » وغوش ايمونيم · ويتزعم هذه الفئة النائبة غيئولاه كوهين ، والنائب موشي شامير ، وشموئيل كاتس المستشار الاعلامي لبيغن سابقا ، والبروفيسور يوفيل نئمان وتسفي شيلواح وغيرهم من اعضاء غوش ايمونيم · ويعتبر هؤلاء ان الحكم الذاتي يشكل خطرا على مستقبل الضفة الغربية وغزة ، وان الحل الوحيد هو ضم هذه المناطق نهائيا الى اسرائيل ، وعدم السماح « بأي شكل من الاشكال بأبقاء مسالة السيادة مفتوحة في هذه المنطقة » على حد قول شموئيل كاتس (٤١) · اما غيئولاه كوهين فتعتبر ان بيغن « خان ارض – اسرائيل » لان الحكم الذاتي لن يؤدي « الا الي دولة فلسطينية رغم معارضة بيغن لها ، فهذا غير متعلق برغبته ، » ثم اين سيكون هو غدا ؟ ·· لنفرض انه لا يريد دولة فلسطينية ، ولكنه يعمل على اقامتها · وهل الامر يتعلق به ؟ » (٤٢) · وتضيف كوهين قائلة انه « يجب علينا ان نوقف الحكم الذاتي » بواسطة تشكيل « حركة فكرية ثورية ··· تؤمن بأن ارض – اسرائيل ليست اقليما اوغنديا وانما جزءا عضويا من حضارتنا ، وبدونها لن يحقق هذا الشعب ذاته · اننا نقول انه ينبغي فرض السيادة الاسرائيلية على الضفة الغربية · وسياسيا ، سنعمل على تبديل القيادة واجراء انتخابات جديدة ، لان الحكومة الحالية لم تحصل على تفويض لسياستها الراهنة » (٤٣) · ويبدو

ان هذه المجموعة تعمل الان على تشكيل هذه الحركة الجديدة التي تحدثت عنها كوهين ، وقد عدد يوفيل نئمان الاطراف التي تنضم اليها بقوله : « هناك قسم من اعضاء المستوطنات في [المناطق المحتلة] واعضاء سابقين في حركات واحزاب خانت برامجها ... كذلك يؤيدنا اعضاء في حركة حيروت وبعض كبار الاعضاء ممن كانوا في اتسل [الارغون] وليحي [جماعة شتيرن] الذين خيب بيغن املهم ، كذلك بعض الاعضاء من حزب الاحرار ... وتؤيدنا اوساط دينية ذات شأن في الحزب الديني القومي » (٤٤) .

وتعتبر هذه الفئة ان نقطة الانطلاق الاساسية لافشال مشروع الحكم الذاتي هي تنفيذ خطط استيطانية واسعة في المناطق المحتلة . ولا يبدو ان هناك تناقضا بين موقفها هذا وبين موقف الحكومة ، على اي حال . الا ان الخلاف الاساسي يبقى متمثلا ، بالنسبة لهذه الفئات ، في رفض مشروع الحكم الذاتي بشكل مبدئي . والطريف لدى هذه المجموعة المعارضة ان السادات ، رغم كل ما قدمه لاسرائيل ، شخص غير محبوب لديها - على حد قول النائب هوروفيتس - فهو « يريد النفط وسيناء ويأمل بان يبرهن للدول العربيه انه سيحقق دولة للفلسطينيين . اما باقي التصريحات الاحتفالية والقبلات والعناق فليست سوى اكذوبة مفضوحة ... انني ببساطة لا اصدق السادات » (٤٥) .

ويلاحظ ان هذه المجموعة ، رغم الضجة التي تثيرها في اوساط الاعلام الاسرائيلية، تبقى محدودة التاثير ، وذلك لسبب رئيسي وهو ان الليكود ، وبيغن على رأسه ، الذي يتزعم السلطة اليوم ، كان وما زال محور الجاذبية وعنوان التطرف الذي يلجأ اليه دعاة اليمين الصهيوني ، فمواقفه وسياسته لم تتبدل ، ومشروع الحكم الذاتي الذي هو محور الخلاف الان يفسر كاملا من منطلق يميني صرف ودون تراجع . حتى ان بيغن اعلن صراحة انه « يعرف تماما كيف يجب ان يكون شكل الحكم الذاتي ، واذا لم يكن كذلك - فلن يكون ابدا » (٤٦) . ولذلك فالضجة التي يثيرها هؤلاء في وجهه ، تبقى عديمة الاهمية ما دام هدفه النهائي « الاحتفاظ بأرض - اسرائيل » .

المعراخ امام واقع جديد

تبرز المعارضة الثانية لمشروع الحكم الذاتي من جانب اوساط حزب العمل والمقربين منه والمحسوبين عليه ، حيث لا يزال هؤلاء يرددون موقفهم التقليدي التاريخي المعروف ، وهو الدعوة الى حل القضية الفلسطينية مع الاردن . الا ان هؤلاء باتوا يواجهون الان حقائق جديدة في الموقف الاسرائيلي الرسمي من القضية الفلسطينية ، لا يمكنهم تجاوزها، خاصة على المدى القصير . فحاليا ، هم في المعارضة لا يسعهم سوى اتخاذ موقف محدد : فأما القبول بالحكم الذاتي ، كما وقعت عليه اسرائيل في كامب ديفيد ، او معارضته نهائيا ، والعمل على افشاله اذا كان ذلك ممكنا . ويبدو انهم اختاروا الطريق الوسط : القبول به كحل مؤقت ، وبشروط ، مع التحذير من مخاطره .

لماذا لم ترفض المعارضة مشروع الحكم الذاتي ؟ يبدو ان هناك عدة عوامل تتحكم في موقف حزب العمل من هذا المشروع ، وتمنعه من العمل على افشاله نهائيا رغم معارضته له . والعامل الاول هو ان هذا المشروع لم يعد اسرائيلياً بحتا ، وانما اتفاقا وقعت عليه اسرائيل مع الولايات المتحدة ومصر ، وهو بالتالي يرتبط ارتباطا وثيقا بمعاهدة السلام الاسرائيلية - المصرية ، واي سلوك اسرائيلي ، حتى وان كان من جانب

المعارضة ، لافشاله قد يؤدي الى انهيار المعاهدة ، وهذا ما لا يريده حزب العمل الذي ايد اتفاق السلم مع بعض التحفظات ·

واما العامل الثاني فهو ان مشروع حزب العمل الاقليمي لم يعد ملائما ـ حاليا على الاقل ـ للوضع الجديد الذي نشأ بعد كامب ديفيد فيما يتعلق بحل القضية الفلسطينية· فهناك الاعتراف والتوقيع على وثيقة تدعو الى احترام الحقوق المشروعة للفلسطينيين ، وهناك اعتراف آخر ضمني ، وهو ان كل المناطق الفلسطينية التي احتلت في حرب ١٩٦٧ هي بمثابة وحدة واحدة يسري علها مشروع الحكم الذاتي ، وهذا اشارة واضحة الى حدود ١٩٦٧ التي يطمح حزب العمل في تعديلها · « ففي واقع كهذا هل يرضى الملك حسين ما لم يرض به ورفضه عدة مرات في الماضي، اي التسوية الاقليمية ؟ ··· صحيح ان موقف حزب العمل لم يكن ثابتا تجاه المسألة الفلسطينية خاصة منذ حرب ١٩٦٧ ، ابتداء من اعلان يسرائيل غليلي في الاشهر الاولى بعد الاحتلال من ان هناك فلسطينيين ، ولكن لا يوجد شعب فلسطيني ، وحتى اعلان شمعون بيريس في الكنيست، في حضور الرئيس كارتر ، حول الحقوق الفلسطينية ··· وبين هذين الطرفين عرف الفلسطينيون على انهم مجموعة عرقية دون ان يهتم احد في توضيح الفرق بين مجموعة كهذه تسعى الى تحقيق الاستقلال وبين كونها شعبا » (٤٧) · الا ان حزب العمل لم يتراجع عن نقطة واحدة تتعلق باقتراح الحل الذي يقدمه للقضية الفلسطينية ، وخلاصتها تقسيم الضفة ما بين الاردن واسرائيل ، بحيث تضم اسرائيل اليها الغور على امتداد نهر الاردن وبعض المناطق في الجبال « للمتطلبات الامنية » ، وتسلم باقي المناطق للاردن وليس للشعب الفلسطيني ، لانه « في مناطق ارض ـ اسرائيل على ضفتي الاردن ، ليس هناك مكان لدولة ثالثة وانما لاثنتين فقط » ، وبناء عليه ، ينضم الفلسطينيون الى المملكة الاردنية ، التي تصبح دولة اردنية ـ فلسطينية ·

ويبدو ان زعماء المعراخ ، خاصة بيريس والون ورابين لا يزالون يراهنون على هذا المشروع · فقد اعلن بيريس امام الكنيست ان « التسوية الاقليمية والحل الاردني ـ الفلسطيني سيبرزان من جديد · ان هذه التسوية ممكنة حتى وفق قرارات كامب ديفيد التي ترتكز على قرار مجلس الامن ٢٤٢ ، الا انه في هذه الاثناء قررت الحكومة القبول بمشروع الحكم الذاتي وقد صادق الكنيست على ذلك · ولكي لا يؤدي هذا المشروع الى انهيار كامل يقترح المعراخ بضعة شروط موجهة لادارة المفاوضات حوله » (٤٨) · والانهيار الكامل في نظر المعراخ ، يتمثل في تحول الحكم الذاتي الى نواة لدولة فلسطينية مستقلة، وهذا ما تجمع المعارضة وجزء كبير من مؤيدي الحكومة على رفضه · اما شروط المعراخ لمنع الانهيار ـ على لسان بيريس ـ فهي : « ان يكون الحكم الذاتي بمثابة حل مؤقت فقط ، بحيث لا يمنع حلا دائما يرتكز على التسوية الاقليمية في حدود يمكن الدفاع عنها، وان يفضل الخيار الاردني ـ الفلسطيني على خطر قيام دولة فلسطينية تابعة لـ م·ت·ف، وان تبقى اسرائيل مسؤولة عن حماية البلد امام الاعتداءات من الخارج والارهاب من الداخل ، والا تكون مناطق الامن بمثابة تجمعات لمعسكرات الجيش الاسرائيلي فقط ، وانما يجب ابقاءها تحت السيطرة الاسرائيلية بحيث تشمل مناطق الاستيطان في الغور وغوش عتسيون وجنوبي غزة ، وان يتم ضمان التعاون في تطوير مصادر المياه في المناطق · اما بالنسبة للقدس عاصمة اسرائيل الموحدة ، فيجب ان يسري عليها القانون والقضاء والادارة الاسرائيلية » (٤٩) ·

ويلاحظ ان شروط المعراخ هذه لا تختلف عن مواقف الحكومة فيما يتعلق بتطبيق الحكم الذاتي ، سوى في البند الاول ، الذي يذكر بوجوب العودة الى التسوية الاقليمية ٠ ويعكس هذا الامر الاعتبار الاخر لدى زعماء المعراخ ، وهو ما يسمونه الخوف من السيطرة الدائمة على السكان العرب ، الامر الذي يمكن ان يؤدي الى تقويض اسرائيل من الداخل ٠ ويدعي بيريس انه « في مقابل حقوقنا التاريخية هناك رغبتنا في الا نكون شعبا من الاسياد »(٥٠)، اشارة واضحة الى الخوف من نتائج السيطرة بالقوة على شعب آخر ، يمارس النضال السياسي والعسكري ، ويملك تجربة غنية في هذا المجال ٠

كذلك فأن السيطرة الدائمة على السكان ستخل « بالميزان الديمغرافي الحساس » ـ على حد قول يغئال الون وزير الخارجية السابق ـ « في دولة اقيمت لكي تكون يهودية وليس ثنائية القومية ، وديمقراطية وليس امبراطورية صغيرة » (٥١) ٠ ويبدو ان الخوف من « الخطر » الديمغرافي لا يتملك اعضاء المعراخ فقط ، بل انه ظاهرة شبه عامة لدى الرأي العام الاسرائيلي ، اذ يكاد يتطرق اليه كل من يتحدث حول الحكم الذاتي ٠ وقد اصبح هذا الخوف ملموسا بعد ان اطلع الاسرائيليون على توقعات مكتب الاحصاء المركزي في اسرائيل حول نمو السكان اليهود بالمقارنة مع السكان العرب في اسرائيل خلال السنين المقبلة ٠ ويفيد هذا التوقع ان عدد السكان اليهود سيصل سنة ١٩٨٣ الى نحو ٣ر٤٧٢ر٠٠٠ نسمة (على اعتبار ان معدل الهجرة هو ٢٥ر٠٠٠ شخص سنويا) ، بينما سيصل عدد العرب الى نحو ٢ر٣١٦ر٠٠٠ نسمة ، اي ٤٠٪ تقريبا من سائر السكان ٠ وفي سنة ١٩٨٨ ، وحسب المقاييس نفسها ، سيصل عدد اليهود الى ٣ر٧٩٠ر٠٠٠ شخص والعرب الى ٢ر٨٥٥ر٠٠٠ ، اي ٤٣٪ من سائر السكان ٠ وفي سنة ، ١٩٩٣ ، اليهود ـ ٤ر١١٠ر٠٠٠ والعرب ـ ٣ر٥١١ر٠٠٠ ، اي ٤٦٪ من سائر السكان ٠ اما اذا تزايدت الهجرة ووصل معدلها الى ٥٠ر٠٠٠ شخص سنويا (وهذا غير مضمون) فستصل نسبة السكان اليهود بعد ١٥ سنة الى ٥٧٪ من السكان والعرب الى ٤٣٪ (٥٢) ٠ لذلك فان الاعتقاد السائد لدى الكثيرين في اسرائيل هو ان الحكم الذاتي اذا لم يؤد الى دولة فلسطينية مستقلة ، فأنه اذا طبق ، حسب صيغة بيغن ، سيؤدي حتما الى دولة ثنائية القومية ٠

دولة فلسطينية بشروط ٠٠٠

اذا كان المعراخ ، وبعض مؤيدي الحكومة ، يعتبرون ان الخط الاساسي من وراء الحكم الذاتي هو احتمال تطوره الى دولة فلسطينية مستقلة ، فأن هناك فئات داخل اسرائيل ، من « حمائم » المعراخ والحركات السياسية « التقدمية » التي تعتبر ان هذا التطور لا يعتبر خطرا على الاطلاق ، اذا كان قيام الدولة التي سيؤدي اليها ، مشروطا « بالعيش بسلام مع اسرائيل » ٠ ويلاحظ ان معارضة هذه الفئة لمشروع الحل الاقليمي لا تقل قدرا عن معارضتها لمشروع الحكم الذاتي ، خاصة وان المعراخ بمشروعه هذا قد ادى الى تفويت فرص كثيرة لحل المشكلة الفلسطينية في الماضي ، على حد تعبير هؤلاء المعارضين ٠ فأبا ايبن ، احد « حمائم » حزب العمل ، يرى انه « يجب اعادة دراسة كل موضوع الحل مع الاردن : فنحن آخر « الاردنيين » في الحلبة ٠ واذا كان الملك حسين ذا عقل سليم ، فعليه ان يتنازل سلفا عن الضفة الغربية ٠ فما حاجته الى التمرد ضد مملكته ، كما حدث لشاه ايران ؟؟ لقد تنكر سكان الضفة الغربية منذ سنين للسلطة الملكية ويصعب عليهم العودة الى قبول الملك حسين ، بينما وضعه [الحالي] يعتبر جيدا : ففي شرقي الاردن يعم الانتعاش الاقتصادي والتطوير والبناء [ويتواجد] السكان المخلصون ـ فما حاجته

للدخول الى سرير مريض اسمه الضفة الغربية ؟ ومن هنا مصدر تهربه من الدخول في المفاوضات · ان شركائنا الوحيدين هم العرب الفلسطينيون ، وهم سيكونون ، في كل حال الشركاء او الخصوم » (٥٣) · أما الحل في نظر ايبن فيتمثل في « خلق مثلث من دولة اسرائيل ودولة فلسطينية ودولة اردنية · ان عرفات لا يمكن التعايش معه ، ولكن دولة فلسطينية يجب ان تقوم ضمن المجموعة الشرق اوسطية · ولقد كان من المفروض ان تقوم منذ زمن » (٥٤) ·

ويبدو ان فكرة ايبن هذه تلقى تأييدا لدى بعض « حمائم » حزب العمل ، فالنائب يوسي سريد يعتبر ان الحكم الذاتي ومشروع الون لا يمكن ان يؤديا الى سلام شامل والى حل حقيقي للمسألة الفلسطينية ، والمطلوب الان في نظره هو « الخروج من الحلقة المفرغة فيما يتعلق بالموضوع الفلسطيني ··· ينبغي اليوم توفير حافز للاوساط المعتدلة بين الفلسطينيين بواسطة الاعلان لهم ان كل منظمة فلسطينية تعترف بحق اسرائيل في الوجود والسيادة تعتبر ···· شريكا في المفاوضات والاتفاق · وهذه صيغة معارضة تماما ل ـ م·ت·ف ، تشجع المعتدلين ولا تلحق اي ضرر · اننا ندير معركة خاسرة لان المبدأ الاساسي حول عدم التفاوض مع م·ت·ف قد اهملناه منذ زمن · ففي الانتخابات البلدية في المناطق لم ينتخب فقط ممثلون بارزون ومعروفون ل ـ م·ت·ف ، وانما من اجل انتخابهم كان عليهم الاعلان عن تماثلهم معها· ونحن نجري اليوماتصالات يومية معهم· وعندما دار الحديثحول تمثيل المنظمة في مؤتمر جنيف تم التوصل الى صيغة وفد عربي موحد ، واعلن رئيس الحكومة اننا لن ندقق في هويات المثلين العرب ··· وخلال المفاوضات حول تبادل الاسرى الم تتحدث اسرائيل مع منظمة جبريل ؟ » (٥٥) · « والشيء نفسه ينطبق على مسألة تقرير المصير للفلسطينيين · يقال ان الحكم الذاتي هو الرحم الذي ستخرج منه الدولة الفلسطينية ، ويقال ايضا ، ماذا سيمنع سكان المناطق من الاعلان صبيحة احد الايام ، اننا نحن هنا مليون فلسطيني نعيش في استمرارية [اقليمية] ، ولنا نشيدنا الوطني وعلمنا وطوابعنا ، لذلك نعلن عن انفسنا دولة · ربما ليس هناك شيء يمنع حدوث ذلك في اطار الحكم الذاتي · ولكن اي اطار آخر لن يمنع حدوثه · ان اي واحد بيننا لا يملك اليوم صيغة ضد اقامة دولة فلسطينية ، فكل الطرق تؤدي الى تقرير المصير للفلسطينيين » (٥٦) ·

ويلاحظ من خلال حديث هذه الفئة المعارضة ان الدافع الاساسي لديها ـ وينبغي التأكيد على انها عناصر صهيونية بارزة ـ هو ، قبل كل شيء ، مصلحة اسرائيل ، والخوف من تطور القضية الفلسطينية في المستقبل بشكل قد يسيء اليها ، خاصة وان الحكم الذاتي سيؤدي ، حسب وجهة نظرها ، اما الى دولة ثنائية القومية ، او دولة فلسطينية معادية لاسرائيل ، بسبب رفض اسرائيل لها سلفا · لذلك فأن نقطة انطلاقهم الفكرية هو وجوب التفاهم مع الفلسطينيين وعدم انكار حقوقهم · وهذا ما يتحدث عنه ، مثلا ، دافيد هكوهين احد السياسيين البارزين في عهد المعراخ ، ورئيس لجنة الخارجية والامن التابعة للكنيست سابقا ، بقوله انه « ينبغي عدم الاعتقاد بأننا سنفرض عليهم [سكان المناطق] الملك حسين وحكومته الى الابد ونتجاهل رغبتهم واختيارهم الديمقراطي للتغييرات في انظمة الحكم في دولتهم · ان هذه الدولة ستقوم بالطبع بعد ضمان كل شروط السلام بيننا وبينها · وكمن يعارض دولة ثنائية القومية ويتطلع الى ارض اسرائيل يهودية في طابعها [وهنا تكمن مصلحة اسرائيل في نظره] ، حتى وان كان ذلك لاسباب ديمغرافية

ملموسة وخطيرة ، فانني افضل دولة عربية مجاورة ونابلس بداخلها على اسرائيل الواسعة والعرب داخلها » (٥٧) ·

كذلك تعتبر هذه الاوساط ان هناك مصلحة امنية لاسرائيل وراء قيام دولة فلسطينية في الضفة الغربية وقطاع غزة · فالدولة الاردنية ـ الفلسطينية التي يدعو اليها المعراخ « منافية للمنطق » ، على حد تعبير احدهم · وحديث الليكود والمعراخ ، معا ، حول الخطر من دولة فلسطينية مستقلة هو بمثابة « خرافة » لم تدحض حتى الان · « فبالنسبة لامن اسرائيل ليست المشكلة اذا كانت ستقام دولة صغيرة في الضفة الغربية ام لا ، وانما كيف ستتصرف هذه الدولة وهل ستعيش بسلام مع اسرائيل · ولدينا ما نقوله في هذا الشأن وباستطاعتنا التأثير · فلماذا تكون دولة فلسطينية صغيرة ··· خطرا امنيا بينما حل المسألة الفلسطينية في اطار دولة اكبر اردنية ـ فلسطينية لا يشكل خطرا كهذا · ربما العكس هو الصحيح · ان وجود دولتين الى الشرق من اسرائيل يكون ذا خطر اقل بالنسبة لها · فالمدافع السوفييتية يمكن ان توضع في الدولة [الكبيرة] ايضا ، وتستطيع م·ت·ف السيطرة على عمان ··· ان من يعتقد ان الحكم الذاتي هو وصفة لتخليد الوضع القائم يعيش في الخيال » (٥٨) ·

ومخاوف هذه الفئات المعارضة من الحكم الذاتي والحل الاقليمي معا لا تقف عند هذا الحد ، بل ان منطلقاتهم الصهيونية تدفعهم الى نظرة بعيدة المدى تتعلق بنتائج سياسة الحكومة اذا امتد تطبيق الحكم الذاتي الى العرب داخل اسرائيل · وقد حذر من هذه النتيجة موشي شارون ، مستشار بيغن للشؤون العربية سابقا ، بقوله « ان العرب في اسرائيل يقطنون مناطق مجاورة للحكم الذاتي ، في المثلث ووادي عارة والجليل · ومع تزايد الاتجاهات المتطرفة فانني ارى خطرا محتملا يتمثل في قيام حزب عربي في اسرائيل ضمن القانون ··· يطالب بالانضمام الى الحكم الذاتي العربي ، ليس كمواطنين فقط ، وانما مع مناطقهم ايضا ، الواقعة ضمن حدود ١٩٤٨ · وفي حالة كهذه سيطالب العرب في اسرائيل بالعودة الى مشروع التقسيم في سنة ١٩٤٧ والى جليل عربي كجزء من دولة فلسطينية » (٥٩) · وهذا « الخطر » وارد في ذهن الكثير من الاسرائيليين ، خاصة وان خطط « تهويد الجليل » قد فشلت حتى الان في استقدام اكثرية يهودية الى المنطقة ، وليس هناك احتمال لنجاحها في المستقبل على ضوء سياسة الحكومة الراهنة في تشجيع الاستيطان في المناطق المحتلة ، باعتباره الان مسألة في رأس سلم الاولويات ، « فكل انسان يرسل الى الضفة وكل بيت يبنى هنالك ينبغي اعتبارها قد منعا عن الجليل ، واذا ما تذكرنا ان مصير المستوطنات في الضفة سيكون كمصير مستوطنات سيناء ندرك مغزى الهذيان وثمنه : دولة فلسطينية في المناطق وحكم ذاتي في الجليل » (٦٠) ·

الا ان هذه المخاوف تبقى في غير محلها ما دامت الحكومة الاسرائيلية مصرة على موقفها الراهن من الحكم الذاتي ، واعتباره « سلطة ادارية » فقط لا تتمتع بأي صلاحيات استثنائية من شأنها ان تدفعها نحو شيء من التحرر من قيود الاحتلال · فالمعروض هو ببساطة تجميل وجه الاحتلال بواسطة منح بعض الصلاحيات الادارية لهيئة منتخبة من السكان والاحتفاظ بالسيطرة الفعلية على المناطق ومنع اية تحركات سياسية لا تخدم مصلحة اسرائيل · وفي وضع كهذا لن يكون هناك شيء في المناطق يجذب اهتمام العرب في اسرائيل ، الا اذا كان المقصود تجميل خطط تهويد الجليل وعمليات مصادرة الاراضي ايضا ·

مفاوضات الحكم الذاتي ، والفلسطينيون

تبدأ المفاوضات حول الحكم الذاتي في جو يسوده التشاؤم ، خاصة في اسرائيل ، بشأن احتمال تحقيق اي نجاح « خلال فترة لا تتجاوز السنة » ، كما جاء في المعاهدة الاسرائيلية ـ المصرية · وكما جرت المفاوضات السابقة حول مشروع الحكم الذاتي ، خاصة في كامب ديفيد ، دون الفلسطينيين ، ستجري هذه المرة ايضا من دونهم ، ومن دون مشاركة الاردن، الذي خصص له دور فيها حسب صيغة كامب ديفيد ·

وقبل الخوض في احتمالات ما قد تسفر عنه هذه المفاوضات لا بد من ذكر بعض الملامح التي تميز المواقف الراهنة للاطراف الثلاثة المشاركة بها : مصر واسرائيل والولايات المتحدة · واولى هذه الملامح هي ان هناك فجوة كبيرة بين موقفي كل من مصر والولايات المتحدة من جهة ، واسرائيل من جهة اخرى ، ناجمة في الاساس عن تصلب الحكومة الاسرائيلية في كل ما يتعلق بالحكم الذاتي · فرغم التنازلات بعيدة المدى التي قدمتها كل من مصر والولايات المتحدة ، خلال المرحلة السابقة من المفاوضات ، فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ، فان هناك الكثير من المسائل الجوهرية التي لا زالت موضع خلاف مع اسرائيل ستطرح خلال هذه المرحلة من المفاوضات ،والاتفاق حولها يستوجب اما تنازلات مصرية واميركية جديدة ، او تراجعا اسرائيليا ، وهذا مستبعد على اي حال · فخلال المفاوضات السابقة تراجعت مصر تدريجيا ، اولا عن المطالبة بحق تقرير المصير للفلسطينيين الذي استبدل بـ « المشاركة في تقرير المصير » ، كما تم في صيغة اسوان بين السادات وكارتر ووثائق كامب دفيد وغيرها · كذلك تراجعت مصر عن المطالبة بدولة فلسطينية مستقلة تحكمها م·ت·ف الى دولة ترتبط بالاردن · وقد كشف اسحاق رابين رئيس وزراء اسرائيل السابق ان السادات قدم تنازله هذا منذ زيارته الى القدس ، عارضا مشروعا على هذا النحو ! « اذا وافقتم على موقف الولايات المتحدة ، اي الالتزام بالانسحاب الى خطوط الرابع من حزيران ١٩٦٧ في جميع القطاعات واقامة سلطة فلسطينية مستقلة غير تابعة ل ـ م·ت·ف ، فانا على استعداد لابرام السلام الكامل معكم ، حتى دون الانتظار لموافقة باقي الدول العربية لهذه الشروط » (٦١)·

وحسب قول رابين « فان السادات هو الذي الزم الولايات المتحدة ، اثر زيارته الى القدس ، بتغيير سياستها [المتعلقة بتحقيق سلام شامل] ودفعها نحو [العمل] على تحقيق السلام بينه وبين اسرائيل ، كمقدمة لتحقيق السلام الشامل والكامل على الجبهات الاخرى » (٦٢) · والجدير بالانتباه انه كان هناك دائما ، وما زال ، اختلاف شاسع ما بين فحوى التصريحات الصادرة عن الرئيس المصري ومسؤولين آخرين في حكومته ، فيما يتعلق بحقوق الفلسطينيين ، وبين التنازلات الفعلية التي كان هؤلاء يقدمونها مجانا لاسرائيل ولاميركا ، وربما لحساب تسهيل الحل في سيناء · والسؤال المطروح الان هل « تستمر مصر في اتباع هذا النهج في المفاوضات المقبلة ، حيث تقدم التنازلات هذه المرة على حساب « عدم عرقلة مسيرة السلام » بينها وبين اسرائيل ، ام ان وضعها السياسي الحالي وما تعانيه من عزلة على الصعيد العربي سيدفعانها الى اعادة تقييم موقفها من جديد ، واتباع قدر من التصلب ، على الاقل ، فيما يتعلق بالمسائل الجوهرية في المفاوضات ، كمسألة القدس وصلاحيات الحكم الذاتي ومصير المستوطنات الاسرائيلية في المناطق المحتلة ، وهي امور من شانها ان تؤثر في المستقبل في المفاوضات النهائية حول مستقبل المناطق ·

وتجمع الاوساط الاسرائيلية ـ من قبيل التنبوء حول تطورات الموقف المصري في المستقبل ـ ان السادات لا يستطيع ، بسبب وضعه البائس في العالم العربي ، والمقاطعة الشاملة ضد مصر ، الا ان يتخذ مواقف صلبه تثبت « حسن نيته » تجاه الفلسطينيين ، واصراره على حقوقهم ، وبالتالي فان موقفه هذا سيصطدم حتما بالموقف الاسرائيلي المتشدد ، مما سيؤدي الى فشل المفاوضات حول الحكم الذاتي ، وبالتالي تأخير مجرى تطبيق المعاهدة بين مصر واسرائيل · ويعتقد رابين ، مثلا ان السادات مضطر الى ان يقرر في نهاية السنة الاولى على توقيع المعاهدة : « هل ان عدم الاتفاق حول موضوع الحكم الذاتي سيؤدي الى الغاء تطبيع العلاقات مع اسرائيل ـ حيث تكون اسرائيل لا زالت في خط رأس محمد ـ العريش ؟··· ام انها ستواصل مجري تطبيع العلاقات رغم عدم الاتفاق حول جوهر الحكم الذاتي ؟· [واذا اختارت الامكانية الاولى] فانها ستلغي مركبات السلام المختلفة ، اي اعادة اقفال الحدود بين البلدين امام تنقل السكان والبضائع · وارجاع السفير المصري في اسرائيل الى القاهرة ، والطلب من السفير الاسرائيلي مغادرة مصر · كذلك يحدث جمود في مجري صنع السلام في اسوأ الاحوال ، وواضح الى اين سيؤدي ذلك · اما في افضل الاحوال ، فيبقى الغاء حالة الحرب ساري المفعول دون اية مركبات للسلام او تطبيع للعلاقات » (٦٣) ·

على اي حال ، ان الحديث حول احتمال فشل المفاوضات حول الحكم الذاتي يقلق بال الكثير من الاسرائيليين ، رغم مخاوفهم المتعددة من امكانية تطبيقه · وهذا التناقض في مواقفهم عائد ، كما يبدو ، الى ما قد يولده فشل المفاوضات من « تأثير سلبي » على المعاهدة مع مصر ، خاصة وان السادات «مضطر الى تسديد الحوالة التي اعطاها للعالم العربي فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية » (٦٤) ، رغم العزلة التي يعانيها ، على اعتبار ان تطبيق الحكم الذاتي هو الوسيلة لاثبات اهداف سياسته ، « وهي الوصول الى سلام كامل مع اسرائيل ، مع الحرص الدائم على انسحابها الى خطوط حزيران ١٩٦٧ على جميع الجبهات ، وقيام سلطة فلسطينية مستقلة في الضفة الغربية وقطاع غزة ، يحدد مصيرها في الاساس من قبل العالم العربي » (٦٥) ·

ويبدو ان هنالك شبه تطابق بين موقف السادات هذا وبين الموقف الاميركي ، خاصة فيما يتعلق بمسألة السلام الشامل مع اسرائيل ومركباته ، فالرئيس كارتر الذي كان اول رئيس اميركي يدعو الى الحاجة الى ايجاد « وطن » للاجئين الفلسطينيين ، ويعترف بان المسألة الفلسطينية هي قضية « جوهرية » في الشرق الاوسط ، ويستخدم عبارة « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، تراجع كثيرا عن مواقفه هذه بفعل الضغط الصهيوني والاسرائيلي من جهة ، وبفعل سياسة السادات من جهة اخرى · « والالتزام » الوحيد الذي قطعه كارتر على نفسه تجاه الفلسطينيين هو تطبيق الحكم الذاتي ، كما اعلن ذلك بنفسه امام بيغن اثناء زيارته الاخيرة الى اسرائيل (٦٦) · الا انه حتى هذا لا يهدىء من روع الاسرائيليين الذين يعتبرون ان هناك فجوة كبيرة بين التفسيرين الاميركي والاسرائيلي لمشروع الحكم الذاتي · وتطور الموقف الاميركي ، استنادا الى تجربة المفاوضات السابقة، يتأثر كثيرا بالسياسة المصرية ، فالتنازلات تبدأ في مصر اولا وليس العكس ·

ويبقى موقف السكان العرب ، الذين بدون موافقتهم لن تجري الانتخابات للحكم الذاتي ، بحيث قد يبقى الاتفاق حول التنفيذ ، في حال تحقيقه نتيجة المفاوضات ، حبرا على ورق · لذلك فقد طرح اقتراح بدء المفاوضات حول الحكم الذاتي وتطبيقه في قطاع غزة اولا ، حيث تستطيع مصر استخدام مختلف الضغوط على السكان لحملهم على

تأييـــد هذا المشروع · ولهذه الغاية طلبت مصر ، بواسطة الرئيس كارتـــر اثنـــاء زيارته لاسرائيل ، ان تسمح الحكومة الاسرائيلية بتواجد ضباط ارتباط مصريين في القطاع، الامر الذي رفضه بيغن رفضا قاطعا معلنا ان مصر ليس لها الحق في ذلـك ، وموضحا : « ما هو قطاع غزة ؟ انه جزء من ارض ـ اسرائيل ··· لقد شنت مصر هجوما معاديـا ضد ارض ـ اسرائيل في سنة ١٩٤٨ واحتلت جزءا منه يدعى قطاع غزة ··· اي حق لها في القطاع ؟ اننا لم نوافق ابدا على مركز ارتباط او ضباط ارتباط مصريين في هـــذه المنطقة » (٦٧) · وعلى اي حال ، هناك وجهتا نظر في اسرائيل حول هذه المسألـــة ، الاولى تعتبر ان المفاوضات حول تطبيق الحكم الذاتي في قطاع غزة اولا ، جديرة بالاهتمام لانها تسهل على اسرائيل تقديم تنازلات اكبر بسبب الارتبـــاط « النفسي » الاسرائيلي الضعيف نسبيا مع القطاع ، وسابقة القرار حول اخلاء مستوطنات رفح ، ثم الرغبـــة الاسرائيلية في التحرر من مسؤولية حل مشكلة اللاجئين في مخيمات القطاع · كذلك يمكن ان يساهم نجاح المفاوضات حول الحكم الذاتي في القطاع ، في نجاحها في الضفة الغربية ايضا · اما اصحاب وجهة النظر الاخرى فانهم يخشون من ان يستخدم الاتفاق حول قطاع غزة ، في حال تحقيقه ، كسابقة في الضفة ، وهذا ما تخشاه ايضا الحكومة الاسرائيلية على ما يبدو ·

لذلك يبدو ان المفاوضات حول غزة لن تكون اسهل من المفاوضات حول الضفة ، حيث ان التصلب الاسرائيلي قائم في الحالين · ومن يراهن على بعض التنازلات الاسرائيليـــة فيما يتعلق بمواقف الحكومة من الحكم الذاتي ، لن يكسب ابدا ، لان ليس هناك طرف واحد داخل الائتلاف الحكومي على استعداد للتراجع قيد انملة عن مواقفه : فالضفة الغربية ليست سيناء ومستوطنات الغور ليست مستوطنات رفح والقدس ليست العريش ، فهذه هـــي « ارض ـ اسرائيل الغربية » · والفلسطينيون ـ في نظر بيغن ـ ليسوا سوى « عـرب ارض ـ اسرائيل » ، لهم « حقوق ادارية » فقط في وطنهم ، لا قومية · وعلى كل حال، تبقى مخاوف الاسرائيليين من امكانية تطور الحكم الذاتي الى استقلال فلسطيني مجـرد اوهام ، لان ما هو معروض على سكان المناطق المحتلة ليس ، عمليـــا سوى اقامـــة « بانتوستان » جديد بصيغة اسرائيلية · ويبدو ان السادات الذي « سيتقدم خطوتين كلما تقدمت اسرائيل خطوة » ، على حد تعبيره ، لن يجد مكانا يخطو فيه في الضفة الغربيـــة وقطـــاع غزة ·

الحواشي

(١) مـــن اتفاقية السلم بيـــن مصـــر واسرائيل ، كما اوردتها **شؤون فلسطينية** ، العدد ٩٠ ، ايـار (مايـو) ١٩٧٩ ، ص ١٨٧ ـ ١٨٨ ·

(٢) **المصدر نفسه** ، العدد ٨٤ ، تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٨ ، ص ٢١٩ ـ ٢٢٩ ·

(٣) نص المشروع الاسرائيلي كمـــا اوردته **هارتس ودافار** ، ١٩٧٧/١٢/٢٩ ·

(٤) في مقابلة مع دايان ، **يديعـــوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٣/٣٠ ·

(٥) شموئيـــل سيجف ، **معاريـــف** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٦) المادة ١٠ مـــن وثيقـة المبـــادىء الاربعة عشر التي اقرها حزب العمل عشية الانتخابات للكنيست الثامـــن ، ١٩٧٣ ، **دافار** ، ١٩٧٣/١١/٢٩ ·

(٧) يوسف حـاريف ، **معـــاريف** .

١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٨) من مقابلة مع الوزير لانداو ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٩) راجع المصدر (٢) ·

(١٠) من مقابلة مع بيغن ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٤/١١ ·

(١١) **النهار** ، ١٩٧٩/٥/٧ ·

(١٢) من خطاب بيغن في الكنيست ، كما نشرته **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢١ ·

(١٣) **المصدر نفسه** ·

(١٤) **المصدر نفسه** ·

(١٥) انظر المصدر رقم (٨) ·

(١٦) من مقابلة مع الوزير شارون ، **معاريف** ، ١٩٧٩/١/٢٦ ·

(١٧) **المصدر نفسه** ·

(١٨) تقرير لجنة بن ـ اليسار كما اوردت مقتطفات منه صحيفة **دافار** ، ١٩٧٩/٢/١١ ·

(١٩) في حديث مع جرشون شيفط ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٢٠) **المصدر نفسه** ·

(٢١) انظر المصدر رقم (١٦) ·

(٢٢) انظر المصدر رقم (١٨) ·

(٢٣) **هآرتس** ، ١٩٧٩/٤/١٦ ·

(٢٤) **المصدر نفسه** ·

(٢٥) افتتاحية **هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٩ ·

(٢٦) **هآرتس** ، ٧٩/٣/٢٩ ·

(٢٧) انظر المصدر رقم (١٨) ·

(٢٨) اوري دان ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٢/١٢ ·

(٢٩) **المصدر نفسه** ·

(٣٠) حسب المصادر الاسرائيلية اهم هذه الجمعيات هي
American Near East Refugee Aid .
A . N . E . R . A .

التي تعمل على تأسيس قاعدة للتطور من اجل العرب في المناطق المحتلة بتعاون وثيق مع القنصلية الاميركية في القدس ووزارة الخارجية الاميركية ·

(٣١) انظر المصدر رقم (٢٨) ·

(٣٢) **هآرتس** ، ١٩٧٩/٢/١٩ ·

(٣٣) **المصدر نفسه** ·

(٣٤) نشر ملخص له في **هآرتس** ، ١٩٧٩/٥/٤ ·

(٣٥) انظر المصدر رقم (٣)·

(٣٦) انظر المصدر رقم (٣٤) ·

(٣٧) انظر المصدر رقم (١٨) ·

(٣٨) انظر المصدر رقم (٤) ·

(٣٩) انظر المصدر رقم (١٢) ·

(٤٠) من حديث مع ابا ايبن ، **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٤١) شموئيل كاتس ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٨/١/١٣ ·

(٤٢) من حديث مع غيئولاه كوهين ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/١٦ ·

(٤٣) في حديث مع غيئولاه كوهين ، **ملحق هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٤٤) من مقابلة مع يوفيل نئمان ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٤/١٣ ·

(٤٥) في حديث مع النائب يغئال هوروفيتس ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٤/٦ ·

(٤٦) كما اقتبس الكاتب يوسف حاريف من اقوال بيغن ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢٢ ·

(٤٧) ناثان يلين مور ، **هارتس** ، ١٩٧٩/٤/٩ ·

(٤٨) من خطاب شمعون بيريس في الكنيست ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢١ ·

(٤٩) **المصدر نفسه** ·

(٥٠) **المصدر نفسه** ·

(٥١) **معاريف** ، ١٩٧٩/١/١٩ ·

(٥٢) كما اوردها يسرائيل كرغمان ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٨/٢/١٥ ·

(٥٣) في حديث مع ابا ايبن ، **عل همشمار** ، ١٩٧٩/٣/٣٠ ·

(٥٤) **المصدر نفسه** ·

(٥٥) في حديث مع يوسي سرير ، **هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٢٣ ·

(٥٦) **المصدر نفسه** ·

(٥٧) دافيد هكوهين ، **دافار** ، ١٩٧٨/٤/٢١ ·

(٥٨) يسرائيل تومار ، **يديعوت احرونوت** ، ١٩٧٩/٤/٢ ·

(٥٩) في مقابلة مع موشي شارون ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٢/٢ ·

(٦٠) تيدي برويس ، **دافار** ، ١٩٧٩/٤/١٢ ·

(٦١) من مقابلة مع يتسحاق رابين ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/١٦ ·

(٦٢) **المصدر نفسه** ·

(٦٣) **المصدر نفسه** ·

(٦٤) غولص ، **هآرتس** ، ١٩٧٩/٣/٣٠ ·

(٦٥) رابين ، المصدر رقم (٦١) ·

(٦٦) من اقوال كارتر الى بيغن كما نقلها يوسف حاريف ، **معاريف** ، ١٩٧٩/٣/٢٢ ·

(٦٧) راجع المصدر رقم (١٢) ·

أبو الحسن بني صدر
غزانفار بور بول فييل

ايران : العقد الاجتماعي الجديد بين الواقع والخيال

سنتناول اولى مؤلفات الشاه السابق « مهمة من اجل بلدي » الصادرة عام ١٩٦١ ، قبيل قيام الثورة البيضاء وفي بدايات الازدهار الاقتصادي الكبير القائم على تصدير النفط · وسنركز تحليلنا على الفصل الثامن منه بالاخص ، وهو بعنوان « الديمقراطية كما افهمها » · في هذا الفصل يؤكد الشاه اولا على ان الديمقراطية تمثل الضمانة الوحيدة للحرية الفردية :

« لقد تعلم الناس من خلال تجربة قاسية ، انه لا يمكن التوصل الى حرية فردية حقيقية الا من خلال نظام ديمقراطي يتيح للناس العاديين ان يسيطروا فعليا على المجتمع الذي يعيشون فيه » ص (١٦) · وينتقد بالمناسبة انظمة الحزب الواحد :

« ان الدكتاتوريين الشيوعيين يشبهون الفاشيين في مجال اجراء الانتخابات · فهم يرغبون في ايهام العامل العادي بأن له رأيه في تشكيل الحكومة في بلده · لكن القادة الشيوعيين لا يسمحون الا بوجود حزب سياسي واحد ··· » ·

اخذت هذه المقالة عن تقرير حول « التغيير الاقتصادي والاجتماعي في ايران وتغير وظائف الانتخابات فيها » ، اعد لندوة جرت ما بين ١٧ و ١٨ أيار ١٩٧٦ ، حول عدم التنافس في الانتخابات ، ونظمت من قبل مركز « دراسات العلاقات العالمية » في الجمعية الوطنية للعلوم السياسية · وقد تم تصحيح النص الاصلي واضيفت اليه بعض النقاط · اما الجزء الآخر من هذا التقرير فقد نشر في « المجلة الفرنسية للعلوم السياسية » في عدد شباط ١٩٧٧ (ص ٣٤ ـ ٦٣) ، تحت عنوان الانتخابات ووظائفها في ايران ·

لكن الشاه كتب بعد ذلك ، انه لم يعد بالامكان النظر الى الديمقراطية بمفاهيم

سياسة ، لانه فيما مضى كان الناس احرارا ومتساوين في الحقوق وقادرين على تلبية حاجاتهم الاقتصادية والاجتماعية بفضل مبادراتهم الخاصة ، اما اليوم فقد تبدل الوضع في عصر يمتاز بالعلم والتكنولوجيا وادوات الانتاج الضخمة · فغدا الناس يطالبون بحقوق اقتصادية الى جانب مطالبتهم بالحقوق السياسية ، وهم في البلدان النامية يرغبون باكتساب وسائل الانتاج الحديثة وذلك من اجل رفاهيتهم · وكما نرى في اغلب الاحيان ، قد يؤدي التطور الاقتصادي الى فوضى ان لم يترافق مع تطور سياسي · ان بعض بلدان الشرق الاوسط لم تقدم برنامجا سياسيا يترافق مع مشاريعها الانمائية والاقتصادية ، وعلى ما يبدو فالدرس الذي نستخلصه هو ضرورة تماشي التطور السياسي المبرمج مع النمو الاقتصادي المنظم اذا اردنا تحاشي الاضطرابات ·

ان الاولوية المعطاة للحقوق الاقتصادية والتطور الاقتصادي تقود كما نرى الى التراجع عن الحقوق السياسية ، اذ ان الامر لم يعد منذ الآن اعطاء الاشخاص العاديين امكانية التعبير السياسي ، بل تولي الاهتمام بالتطور السياسي من اجلهم ومن اجل رفاهيتهم · ان صاحب هذا الكتاب لم يوضح هذه النقطة بل يحاول على العكس طمس استنتاجات خطابه بالرجوع الى الثورة الدستورية · لكنه لن يفلت ، كما سنلاحظ ، من المنطق الذي يتبعه ·

وقد اشار الشاه الى ان ثورة ١٩٠٦ هي نوعا ما عودة الى بعض المبادىء التقليدية التي داستها « القاجار » السلالة الملكية الفارسية (التي كانت تتحكم قبل سلالة بهلوي) كالتسامح واحترام الفرد ، وقد اضافت الثورة الى هذه المبادىء مؤسسة سياسية جديدة هي الحكومة التمثيلية · ولم يفهم الشعب من هذه الخطوة سوى نهاية الاعمال الاستبدادية والاكراه · « غير ان لقادة ثورتنا ، ومعظمهم من المثقفين ، اسبابا وجيهة لدعم التمرد ، اذ كانوا يرغبون في جعل نظامنا السياسي اكثر ليبرالية واقرب الى الغرب · كانوا يعلمون ان هذه هي الطريقة الوحيدة لابقاء الاستقلال في بلاد الفرس ، ولجعلها تزدهر اقتصاديا واجتماعيا » (ص ١٦٥) · « نحن الفرس لقد قمنا بخطوة كبيرة الى الامام ، فقد جمعنا لاول مرة في تاريخنا بين المفهوم الغربي للديمقراطية البرلمانية وبين التقاليد الملكية الفارسية » (ص١٦٦) · انها محاولة للجمع السحري بين الثورة والتقاليد الملكية وتحميل الاخطاء لسلالة « قاجار » والتأكيد في نفس الوقت ان اسرة « بهلوي » هي وريثة الثورة الدستورية على صعيد الديمقراطية والانفتاح على الغرب المتممين بعضهما لبعض · لكن الخطاب يحتوي على ثغرة · فقد ورد حرفيا فيه ان الشاه رضا اضطر عندما تدهور الوضع بفعل « القاجار » الى استلام السلطة وتقليص دور البرلمان · وبعدها مباشرة ، قدم الشاه رضا على انه الرائد الحقيقي للديمقراطية من خلال اللجوء

الى اللعب بالعبارة في « ان رضا شاه بوصفه رئيسا للـوزراء ومؤسس الاسرة البهلوية الجديدة حاول ان يحد من دور البرلمان لكنه في مجال اخر ساهم كثيرا في انجاح قضية الديمقراطية في ايران » (ص ١٦٦) ٠ وقد تجسدت مساهمته ، كما تقول المؤلفات ، في خلق عدالة ونظام تربوي تابع للدولة ، ومن خلال اصلاح الادارة واقامة علاقة معقولة بين الدولة والكنيسة الخ ٠٠٠ وقد تابع ابنه محمد رضا بهلوي عمله هذا . وتعني المؤسسة البرلمانية بنظره مؤسسة عقلانية تنظم الحياة السياسية في البلاد ، وتنظيمها يرجع الى قرار من الملك ٠ « يمكنني ان اعطي الحكومة التمثيلية اهمية اكبر مما اعطاها ابي ، ومرد ذلك الى سرعـة انتشار التربية في بلدي » (ص ١٦٨) ٠ « اني اشجـــع الآن تشكيل مؤسسة سياسية هامة ، ظاهرة جديدة نوعا ما في ايران، واعني بذلك الحزب السياسي٠ عندما شكلت الجمعية الوطنية في ايران عام ١٩٠٦ ترافق ذلك مع نشوء بعض الاحزاب كما سمت نفسها ٠ لكن الخلافات الداخلية والاهمية المعطاة للاشخاص اكثر من النتائج ، سرعان ما جعلت هذه الاحزاب غير فعالة ٠ حاول ابي القيـام بتجربة حزب الاكثرية الواحد ، لكنه تفكك بعد فترة ٠ يبدو ان البلاد لـم تكن وقتها ناضجة ما فيه الكفاية لنظام حزبي مقبول٠ وبفعل الانتشار السريع لنظامنا التربوي وضع والدي اسس تطور الاحزاب في المستقبل ٠ وقد برز العديد من الاحزاب خلال الحرب العالمية الثانية واحتلال البلد من قبل دول اجنبية ٠ وكان امتنهم تنظيما حزب « توده » الشيوعي ٠٠٠ وقد عرف اعضاء حزب « توده » بتكتيكهم السلبي خلال جلسات الجمعية الوطنية ، واقر بكـل اسى ان هنـاك بعض السياسيين غير الشيوعيين تعاونوا مع « توده »،من اجل تجميد كل محاولة لايجاد تشريع بناء (٠٠٠) وفي عام ١٩٥٧ بعد ان اعيد الاستقرار الى البلاد وتم تسيير الاقتصاد الوطني بعد مرحلة الجمود ايام مصدق، حاولت تطويـر نظام الحزبين في ايران بشكل واسع ٠ قد يقـول بعض المشككيـن (٠٠٠) ان حزبي الاكثرية والاقلية هما مجرد دمى تابعة للحكومة والعرش ٠ ان هـذا خارج عن الموضوع الاساسي الا وهو معرفة كيف يمكن تقوية أحزاب في بلـد نام كايران ٠ فغالبية الشعب هنا غير متعلمة ، رغم الجهود التي بذلها والدي ورغم افتتاح المئات من المدارس الجديدة منذ توليه الحكم وبعدها ٠ وكذلك، فان المفاهيم الغربية حول الديمقراطية البرلمانية والاحـزاب السياسية ما زالـت مسائل جديدةفي بلدنا٠ فمن غير الواقعي افتراض نشوء احزاب وتطورها بشكل عفوي من القاعدة في بلد ما زالت التقاليد فيه مترسخة بعمق ٠ لذا فاني اعتبر ان دوري كملك يتطلب مني تشجيع الاحزاب » (ص ١٧٢ ــ ١٧٣) ٠

اذا كنا قد اوردنا هذا النص باسهاب فلانـه واضح جدا ، فبنظـر الشاه وبنظر الفئـة الحاكمـة ، هنـاك نمـوذج للديـقراطيـة الحكيمـة « والفعالـة » (يستعمل الشاه هذه العبارة باستمرار) يجب خلقه من فوق ، اي ان اقتضت

الحاجة ، ضد اكثرية المواطنين الذين لا يقدرون ان يسلكوه نظرا لثقافتهم البالية والقديمة ٠ يجب ان يتم تربيتهم وابقاء الوصاية عليهم حتى يبلغوا النضج السياسي ٠ ان الغرب يمثل النموذج السياسي الذي على الشعب الايراني الاقتداء به ٠ ان الاشارة الى الثورة الدستورية لا تعني حصول الشعب بارادته على وسائل تعبير ديمقراطية لكنها على العكس تمثل مشروع قادة ايران في التمثل بالغرب ، (ان المعارضة التي يشير اليها خطاب الشاه تمثل بالطبع نسخة عن احداث الثورة الدستورية) فطموح القادة اكبر من امكانيات الشعب الايراني ، وقد اعتبرت سلالة بهلوي نفسها مسؤولة عن اتمام هذا المشروع ، وحتى تحقيقه ضد ارادة الشعب الايراني ولكن لمصلحته ، كونه غير قادر منذ فترة على فهم ما هو مطلوب منه ٠ في الواقع ليس هناك تناقض ما بين ميل الشاه « للديمقراطية » وبين احتقاره لاشكال التعبير الشفهية ، وهذا غالبا ما يظهر في المقابلات التي يجريها (راجع مثلا : حرية التفكير ، حرية التفكير ! الديمقراطية ، الديمقراطية ! ماذا تعنون بالديمقراطية والحرية ؟ أهو ان يضرب اولاد بسن الخامسة ويتظاهروا في الشوارع ») (٠١ فلاسي ١٩٧٧)٠

هذا النص ليس مهما لكننا حللناه هنا لانه اكثر النصوص وضوحا ، وهو يعود الى ما قبل الثورة البيضاء وتأسيس الحزب الواحد ٠ ان التناقض الذي قد نستفيد منه في جدلنا ليس سوى تناقض ظاهري ٠ فان سلوك الامير كما يريد ان يظهر نفسه لم يتغير ، سلوك القائد الداعي الى التمدن والساعي الى ترسيخ أكثر المؤسسات السياسية فعالية واكثرها تكيفا مع التطور الاقتصادي ٠ وقد اظهر ذلك ، البرنامج الانتخابي الذي قدمه حزب الانبعاث في انتخابات عام ١٩٧٥ ، فهو يطرح تربية الجماهير سياسيا داخل اطار المؤسسات المقترحة من قبل السلطة ٠ اذن فان نص الحزب الذي صدر عام ١٩٦١ لم يكن ظرفيا بل حدد سياسة طويلة المدى نتيجة تشبث ايديولوجي ٠

عندما نقرأ هذا الخطاب نتساءل مباشرة عن اهميته لماذا احست السلطة عام ١٩٦١ بضرورة تقديم تصورها عن التطور في ايران ؟ اهو لوجود تبدل ما ، او تحول اقتصادي واجتماعي يؤدي الى ضرورة اتباع خط سياسي جديد وايجاد مؤسسات سياسية جديدة ؟؟ نتساءل ايضا عن معنى « العقد الاجتماعي الجديد » ٠ (ان استعمال هذا التعبير للاشارة الى السياسة الايرانية الجديدة كان بايعاز من امير عباس هويدا رئيس الوزراء عام ١٩٧٥)٠ ما هي التناقضات الكامنة داخل نمط التطور الاقتصادي والتي تتعارض مع تحقيق وفاق اجتماعي وتتطلب تخطيطا في التطور السياسي ،اي بمعنى اوضح مؤسسات سياسية لا ديمقراطية تمركز السلطة بأيدي الدولة ؟ ٠

نمط التطور الاقتصادي الاجتماعي

منذ بداية هذا القرن المتميز بالثورة الدستورية ، يمكننا ان نميز في تاريخ الاقتصاد الايراني وفي شكل اندماجة بالاقتصاد العالمي حقبتين هامتين حسب الظروف ، تفصلهما تحولات الخمسينات والستينات ٠

ان بداية القرن العشرين الذي يشكل امتدادا للنصف الثاني من القرن التاسع عشرقد عرف تحولات هامة في طبيعة العلاقات التي تربط ايران بالدول الصناعية في اوروبا الغربية ، ونتائج هذا التحول كانت مهمة على صعيد علاقة الطبقات الاجتماعية ببعضها البعض، ووضع الدولة والمؤسسات السياسية، لكنه لم يكن بأهمية التحول الذي حصل في الخمسينات اثر التدفق المتزايد للموارد النفطية ٠ سنقوم الآن بتحديد ميزات هاتين الحقبتين لاظهار اختلافهما ٠

خلال القرن التاسع عشر ، وفي بداية القرن العشرين كانت ايران تزيد تدريجيا من حجم تبادلها التجاري مع الاقتصاديات المهيمنة ، بينما كانت علاقتها الاقتصادية بجيرانها في المحيط الهندي وافريقيا الشمالية تتقلص ٠ قبيل اندلاع الحرب العالمية الاولى جمد حجم تبادلها مع السوق العالمية بالمقارنة مع بلدان المنطقة نتيجة المنافسة ما بين روسيا وانكلترا (راجع ش٠ عيساوي ١٩٧١ ، ص ١٦ ــ ١٧) ٠ شكلت ايران منذ ذلك الوقت ، موقعا يجري التنافس عليه من قبل الدولتين العظميين ، تحاول كل منهما ، وضعها ضمن منطقة نفوذ وتعارض مبادرات خصمه في كافة المجالات بما فيها طرق المواصلات والتجارة ٠

في فترة ما بين الحرب العالمية الاولى والثانية بقي ازدياد حجم التبادل التجاري العالمي محدودا نظرا لصعوبة المواصلات مع الاتحاد السوفياتي او عبره ٠ (قبل الحرب العالمية الاولى كانت ٧٠٪ من التجارة الخارجية تمر في المراكز التجارية الواقعة شمال البلاد) ٠ اما قطار « ترانس ايران » الذي شكل منفذا رئيسيا للتبادل مع الغرب فقد اصبح جاهزا عام ١٩٣٨ ٠

ان تعزيز علاقات ايران بالسوق العالمي ستؤدي الى تحولات طبيعية في الاقتصاد الايراني : زوال الحرف التحويلية (كحياكة الصوف والقطن والحرير التي كان يصدر جزء منها في الماضي) نتيجة منافسة المنتجات المصنعة لها ، وتخصص ايران بانتاج بعض المواد الزراعية (الافيون ، الحرير ، القطن ، الرز ، الفواكه الجافة والمواشي ٠٠ الخ ٠) ٠ لم تصمد سوى حرفة واحدة تقليدية وهي حياكة السجاد المجدل التي لم تلق تنافسا صناعيا والتي تطورت بهدف تصديرها الى الاسواق العالمية الغربية ٠ هذه الحقبة الممتدة من اواخر القرن التاسع عشر حتى بدايات القرن العشرين تمتاز بنمو الرأسمال التجاري، وقد بدات بعض الشركات الايرانية الهامة تظهر وتفتح فروعاً لها في الغرب

وتتخصص وتتجه نحو توظيف اموالها في الصناعة والزراعة خصوصا ٠ (تصدير المنتجات الزراعية) ٠

لكن هناك مجموعة من الاسباب التي وقفت عائقا في وجه نمو البرجوازية الايرانية ٠

اولا : معاهدات العشرينات التجارية ، التي كانت تعطي الافضلية للتجار الاجانب (بفضل حماية القنصل وامتيازات وجودهم خارج وطنهم ، فقد فرضت ضرائب اقل على بضائعهم) ، وتلغي كل حماية للمنتجات الوطنية ، كذلك هناك سياسة البنوك الاجنبية الوحيدة في ايران والتي تميز الاجانب وتوجه التوظيفات الايرانية نحو الزراعة وحياكة السجاد على حساب الصناعة التي كان بامكانها منافسة المنتجات المستوردة، واخيرا هناك احتكار استثمار المناجم من قبل شركات اجنبية استطاعت الحصول عليه نتيجة وجود دولة تعاني من العجز المالي ٠

ان الحرب التي نشبت بين ايران وروسيا ومعاهدة « تركومانشي » عام ١٨٢٧ شكلت تحولا في وضع الدولة ٠ قبلهذا التاريخ كانت الموازنة تؤخذ من عائدات الانتاج الداخلي ٠ لكن نسبة هذا الانتاج بدأت بالانخفاض لصالح الاحتكارات والتنازلات والجمارك اولا (خاصة الضرائب المفروضة على الواردات) ومن ثم نتيجة قروض من الخارج (اول قرض يرجع الى عام ١٨٩٢) واخذ من البنك الامبراطوري الفارسي وهو شركة بريطانية ، (كما وسبق للحكومة الايرانية ان تلقت من بريطانيا مساعدات على دفعتين ايام التنافس الروسي البريطاني) واخيرا هناك مبالغ من قبل الشركات المستثمرة دفعت بمثابة دخل نفطي ، وكانت هذه المبالغ سترتفع قيمتها بسرعة (فقد تضاعف انتاج النفط من عام ١٩٢١ الى عام ١٩٤٨ ، وفي سنة ١٩٣٣ اصبح سعر النفط ضعف ما كان عليه) ٠

خلال هذه الفترة وفيما كان الخلل في الموازنة يزداد ، كانت حصة الموارد الحقيقية للدولة الناتجة عن تغلغل الاقتصاديات المهيمنة في ايران تزداد هي ايضا ، اي اننا امام عملية ازدياد تبعية الدولة للدول الامبريالية ٠ هكذا وفي فترة الثورة الدستورية ، فان اكثر من ثلث موارد الدولة كانت تؤخذ من الانتاج الداخلي ٠ اما في عام ١٩٤١ اي في نهاية عهد الشاه رضا فانها لم تعد تشكل سوى ١٢٪ منه ٠ ولم تتغير النسبة مذ ذاك (١٠٪عام ٧٢) ٠ ان استقلال الدولة عن الانتاج الداخلي سيؤدي بها الى عدم السعي لتطويره ، بل على العكس سوف يحاول تطوير القواعد الانتاجية التي تضمن عائداتها : التصدير ، التنازلات ، استثمار الموارد الطبيعية المطلوبة من قبل السوق العالمية، منح التسهيلات للمقرضين الاجانب واثقال التجارة الخارجية باعباء كبيرة ٠

لكن يجب ان نرى في هذا التوجه لسياسة الدولة الاقتصادية خصائص طبيعة الطبقة الحاكمة ، اي الملكية العقارية الكبيرة ، التي بعد ان ضعف مركزها داخليا بفعل ضعفها تجاه البلدان الصناعية ، اختارت ان ترتكز على هذه البلدان من اجل الاستمرار في الحكم ٠

وكانت الاقطاعية تحد من نمو البرجوازية حائلة دون دخول البضائع الى القرى ، ومانعة هكذا اتساع سوق داخلي محصور حتى الآن ٠ ان الملكية العقارية بالرغم من تبدل نظام الثقافة ومن التوجه نحو اكثر القطاعات الانتاجية مردودية ، ما زالت تحاول التوفيق بين هذه النزعة وبين ابقاء التجمعات الريفية خارج نطاق السوق والمدينة ٠ واخيرا فان الاقطاعية والدولة لم تكل طوال هذه الفترة عن الاهتمام بالتجارة كمصدر للدخل ، كل وفق طريقتها الخاصة ، واضعة التجار الايرانيين في حالة لا استقرار وحارمة اياهم من اية امكانية تراكم ٠

ان السلطة ايام سلالة بهلوي وكما كانت في ظل « القاجار » ، بصفتها ممثلة لجهاز الدولة (وظائف وعلاقة شخصية) ، تستخدم لخلق اوضاع تسمح بالثراء السهل ، او الاستيلاء على ارباح او حتى على رساميل الذين يتمتعون بنفوذ او ممن هم اقل شأنا ٠ في عهد الشاه رضا تم انشاء ٢٧ احتكارا للدولة بهدف حماية الاقتصاد الايراني في فترات الازمات ، لكن هذا الهدف المعلن لم يتحقق يوما ٠ وقد سعت هذه الاحتكارات الى تغذية خزينة الدولة وخزائن بعض الاشخاص على حساب التجار ٠

كانت البرجوازية الايرانية ، طوال هذه الفترة ، تعيش وضعا متناقضا ، فلقد جعلها ارتباطها بالسوق العالمية تتطور في مجالات الاستيراد والتصدير ، ولقد اصبحت هذه المجالات ، نتيجة عجز الميزان التجاري المستمر تتطلب المزيد من الرأسمال والكفاءة في المقاولة ٠ ومن جهة اخرى فان تطورها واعمالها وتراكمها اصطدم بعوائق تمثلت بالرأسمال الاجنبي الذي ينافسها مباشرة وبالطبقة المسيطرة والدولة اللذين حاولا زيادة عائداتهم وثروتهم على حسابها من خلال اللجوء الى وسائل الاستيلاء المعهودة ، وخلق عدم الاستقرار ٠ وقد اضطرت هذه الطبقة المسيطرة الى التحالف والاستناد الى القوى الغربية وانفتاحها على السوق العالمية واخيرا على اعطاء امتيازات لرأسمال الدول المسيطرة نتيجة حرصها الدائم على الاثراء اولا ، ومن ثم على اثر ضعفها حيال القوى العظمى ، اذ هي مدينة لها ٠ واخيرا نتيجة ضعفها في وجه موجة الاحتجاج الموجهة ضدها ٠

لكن البرجوازية الايرانية على امتداد القرن التاسع عشر ، احتجت على وضعها ، وعلى الامتيازات المعطاة للاجانب (مقاطعة الشاي عام ١٨٤١

والمنتوجات المصنعة الاجنبية عام ١٨٤٤ والتبغ عام ١٨٩٢) وعلى عدم المساواة في الضرائب الجمركية بين المصدرين الايرانيين والاجانب · لا بد ان نحدد هنا اية برجوازية كانت المحرك لكل هذه التحركات المطلبية وبالنسبة لمقاطعة التبغ فقد قامت بها البرجوازية الصغيرة في البازار (وهم حرفيون يعملون في تحويل التبغ ، وصغار ومتوسطي التجار الذين يهتمون بتداول التبغ والمرتبطين بالفلاحين المنتجين الصغار والمهددين بافلاس نتيجة الاحتكار) وليس البورجوازية الكبيرة التابعة للخارج نتيجة التبادل العالمي والمتمتعة باحتكار الجمارك الخ ···

ان حركة الاحتجاج عام ١٩٠٥ والتي ادت الى الثورة الدستورية ، كانت في البداية تذمرا من ظلم رئيس الوزراء ومن تفاقم الديون الخارجية ومن سياسة البنوك الاجنبية ، وقد طالبت باقالة وزير الجمارك وحاكم طهران · لقد تركزت مطالب الحركة الاساسية على الحد من القروض الخارجية ، واعادة بناء النظام الجمركي وانهاء التنازلات وتأميم البنوك ، وانشاء محكمة وغرفة مسؤولة عن مراقبة واحترام المساواة بين المواطنين امام القانون · وقد تميزت هذه الفترة بحرمان الحرفيين وسائل عيشهم بسبب تغلغل البضائع الاجنبية · وكانت النتيجة هجرة كثيفة نهائية او موسمية نحو المدن الصناعية في جنوب روسيا ، وتراكم يد عاملة ، عاطلة عن العمل في المدن الايرانية (ز·ز عبد اللائق عام ١٩٦٢ ، ص ٤٨) مما احدث خللا في التنظيم الاجتماعي وشكل عامل عدم استقرار ·

ان مرحلة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين هي مرحلة افقار للفلاحين ، وتغيير في نظام الزراعة ، وزيادة ضرائب الدولة وانخفاض جزئي لاسعار المواد الزراعية بالمقارنة مع اسعار المنتجات الصناعية والضغط المتزايد من قبل الملاكين العقاريين المشدودين الى السوق · كلها عوامل ساهمت في تدهور اوضاع الفلاحين (ن· و· كدي ١٩٦٠ و ١٩٦٨) · لا شك ان تزايد الضغط الذي مارسه الملاكون العقاريون هو العامل الرئيسي ، لان الجماهير الفلاحية كانت تعيش وقتها بعيدة عن العلاقات التجارية · وهناك عوامل اخرى ساهمت في ذلك منها حصول روسيا على مقاطعات ايرانية كالقوقاز والتركمان واوزبكستان وهذا حد من عائدات الملاكين الزراعية ومن المساحات الصالحة لتربية المواشي من قبل الرعاة · من جهة اخرى ، ان تبدل وضع الملكية العقارية قد ادى الى تقليص جهود الاستثمار والى تهديم جزئي في تجهيزات الري (القنوات) ·

ان الاستغلال الفاحش الذي مورس على الفلاحين ، يفسد تقبل الارياف في بعض الاحيان للحركات المدينية ·

لكن التشكيلة الاقتصادية والاجتماعية الايرانية تمكنت في بدايات القـــرن العشرين من فرض موقع متوازن لها رغم الازمات التي عانت منها ، خاصـــة ازمة الثورة الدستورية وتلك التي حدثت خلال الحرب العالمية الاولى والثانية · سنعالج فيما بعد التدخلات الخارجية التي كانت حاسمة لكنها لم تكن فعالة الا بفضل وجود تنظيم داخلي متين للغاية ·

سوف نذكر هنا بأسس هذا التنظيم فقط · اقطاعية من اصل بدوي تسيطـــر على زراعة هزيلة لا تصمد كثيرا تحت السيطرة ، مما يتطلب تنظيما جماعيـــا صارما لكل الجماعات الفلاحية وليس اقامة طبقة تكنوقراطية وظائفية او جهاز دولة متطور · ان الاقطاعية البدوية بعدما سيطرت على الزراعة بدأت تتفكـــك الى مجموعات متنافسة محاولة الاستقلال عن الدولة المركزية ، تاركة لهـــا القوة الكافية للدفاع عن الوطـن ضد التهديـدات الخارجية ، وهذا هو بالفعـل مصدر تجدد السلالة الملكية · يمكن تصوير المؤسسات التي نشأت نتيجة ذلـك على الشكل التالي :

ان الطبقة الحاكمة مكونة من عدد من العائلات الارستقراطية المعروفـة تماما (هناك ٥٥ عائلة) وهي متحالفة فيما بينها ومع البلاط ، كما تتصارع فيما بينها وفي وجه البلاط · وتجد كل واحدة منها قاعدتها العقارية في احدى اجـــزاء البلاد · على صعيد المناطق تقيم علاقات تحالف وصراع مع بعض العائـــلات الارستقراطية بهدف السيطرة على مصادر الدخـل وخاصـة على الارض · اما على الصعيد الوطني فان العائلات التابعة لمنطقة واحدة تقيم علاقات شبه دائمة مع عائلة ارستقراطية تابعة لمناطق اخرى وتشكل تكتلات تتحالف وتتصـــارع حول البلاط · اما البلاط فانه يملك جيشه الخاص المستقـــل عن التشكيـــلات العسكرية التابعة للقبيلة المسيطرة والقبائل الحليفة لها ، وهو يحاول ان يؤمن استقلاليته حيال القوى التي ضمنت نجاحه (معظم الجنود اجانب ، اما كبـار الضباط ومعاونوهم فمن الطبقة الريفية الوسطى والجنـرالات هـم مـن الاسرة الملكية) · من جهة ثانية هناك مجموعة من الموظفين الملكيين المنتشرين في انحاء البلاد ، ومهمتهم الرئيسية هي جبي العائدات للمركز ، فيما تسعى العائـــلات الارستقراطية الى الاحتفـاظ بهـا · ان ادارة الدولـة (اذا امكن استعمال هذه العبارة) ليست مسؤولة عن فرض قوانين محددة تحكم العلاقة بين الافراد ، اي تنظيم الحياة الجماعية وفق قواعد معينة · على العكس من ذلك ، فان مهمتهـا الاساسية هي تهديد الاشخاص والمجموعات الضعيفة · وليس للفرد الذي يخشى على دخله من اطماع الغير اية ضمانة بوصفه مواطنا ، ولا يمكنه الاستمـرار في العيش الا اذا طلب الحماية من احدى العائلات الارستقراطية ضمن تسلسل هرمي للمجموعات · وفي النهاية فان السكان منقسمون الى عدة تشكيلات هرمية حسب المناطق ، يمزقهم التنافس القائم بين تشكيلين او بين مكونات التشكيلة

الواحـة وذلك من اجل امتـلاك الارض · ان الارتبـاط بهذه المجموعـات او التشكيلات هو اهم من اي علاقة اخرى · ومن الصعب التشكيك الى حد مـا بسلطتها (المجموعات العائليـة والجماعـات القرويـة والتشكيلـة الاقطاعيـة والتشكيلات الكبيرة في المناطق) من قبل تنظيم طبقي · هكذا فان الملاك العقاري يسيطر بشكل كامل على القرية ويطلب منها الطاعة العمياء كلما احس بـأن سيطرته تتزعزع ، كمـا تسيطر الاقطاعيـة ، التي تتمتـع بكـل فائض الانتـاج الزراعي في بلد زراعي بالدرجة الاولى ، على المدن ، حيث تجد برجوازيـة تجارية تعيش من وراء تبادل تجاري خارجي وتجد طبقة دينية · ان قوة هـذه الاخيرة مستمـدة من جهازهـا الدينـي الايديولوجـي ومن عائداتهـا المتمثلـة بمساهمات البرجوازية التجارية الصغيرة والوسطى والفلاحين الميسوريـن ، وقلما تتلقى مساعدات من الاقطاعيـة العقاريـة التي تدفـع ضرائبهـا الدينيـة (سوف تزداد المساهمات العقارية للجهاز الديني بعد تطبيق الاصلاح الزراعي)· هناك جزء من رجال الدين مرتبطون بالملاكين العقارييـن الكبـار ، لكن وان كان تأثيرهم السياسي هاما ، لا يتمتعون بشعبية ولا يصلون الى المراتب الدينيـة العليا ·

تركت التحولات التي لحقت بعلاقات الانتاج والتبـادل خلال القرنين التاسع عشر والعشريـن ، كما رأينـا ، آثـارا اجتماعيـة في المـدن : صعـود طبقـة التجار التي تعارضت مع البلاط والارستقراطية ، تزايد عدد الحرفيين العاطلين عن العمل مما ادى الى تشكيل جماهير شعبية يصعب لجمها ·

بالاضافة الى ذلك بدأ الجهاز الديني يتذمر نتيجة اهمال دوره من قبل سلطة ظالمة مستندة الى الخارج · ان الآثار الاجتماعية لتفكك الاقتصاد الاقطاعي من قبل السوق العالمية تركزت في المدن · وكانت هذه المدن منذ بداية هذا القـرن مسرحا لحركات شعبية صاخبة تهدف الى اعادة تنظيم المجتمع الايراني · لكن هذه التحركات لم تنجح بسبب رفض البرجوازية والجهـاز الدينـي اي تصـور لتحرير الارياف من النظام الاقطاعي ، نتيجة العلاقات القديمة التي تربطها بهذا النظام (استثمار عقـاري يضمـن امن البرجوازيـة ذات الاصـول الاقطاعيـة وحيازة قسم هام من رجال الدين لاملاك عقارية) ·

لقد وجدت الحركات المدينية نفسها خلال تمردها على « القاجار » متحالفة مع القوة العسكرية الرئيسية التابعة للتشكيلة الاقتصادية والاجتماعية ، وهي عبارة عن قبائل من الرعاة شبه البدو وهدفها الرئيسي تغيير الاسرة المالكـة لصالحها ·

فالطبقات المدينية التي قامت بالثورة وخاصة البرجوازية والاكليروس ادركت ان الانتصار قد سحب من بين ايديها ، اذ لم يكن المطلوب هو حصر السلطـة

بأيدي قبيلة معينة ٠ كما ان التدخل الخارجي المباشر واحساس الطبقة المهيمنة بضرورة « تحديث » المؤسسات السياسية مراعية بذلك الحفاظ على علاقات الانتاج الاقطاعية في وجه التخريب الداخلي ، ادت الى ظهور حكم تسلطي تناقضت مصالحه مع مصالح بعض فئات الطبقة المهيمنة أو مصلحة الطبقة نفسها ٠ وقد اعتمد هذا الحكم في صراعه على جيش تابع للبلاط الذي قوي مركزه خلال السنوات الاخيرة نتيجة دعم خارجي وليس نتيجة وجود تشكيلات عسكرية هامشية (قبلية) قد يدخل في صراع معها ٠

لم تضرب السلطة المركزية سيطرة الملاكين العقاريين داخل القرى . بل على العكس ، قوتها نتيجة الضغط الذي تمارسه على الفلاحين ٠ ان مركز الصراع والتواطوء بين السلطة المركزية والارستقراطية العقارية كان حينها داخل المدن حيث خضعت البرجوازية ورجال الدين والطبقات الشعبية لضغط متزايد ٠

ان التحول الرئيسي الذي افتتح الحقبة الثانية تمثل بالتزايد الهام لعائدات ايران النفطية ابتداء من عام ١٩٣٣ وهو عام عودة السلالة الى الحكم ٠ وقد انتقلت قيمة العائدات من سنة ١٩٥٥ حتى سنة ١٩٧٥ من ٥٥ مليون دولار الى ٢٥٠٠٠ مليون دولار اميركي ٠ ويشكل القطاع النفطي اليوم اكثر من نصف مواد ايران الخام الداخلية (مقابل ١٠٪ عام ٤٨ ش ٠ عيسوي ١٩٧١ ص ٣٢٤) و ٨٦ الى ٩٥٪ (وفق مختلف احصاءات الخبراء الرسميين) من موارد الدولة مقابل ١٣٪ عام ١٩٣٧ و ١١٪ عام ١٩٤٨) هذه الملاحظات تقودنا الى استخلاص استنتاجات اولهما ان الدولة الايرانية اصبحت خلال العشرين سنة الاخيرة مرتبطة كليا بالنفط من خلال وارداتها ، اي انها مرتبطة بانتاج تابع مباشرة لنشاط البلدان الوسطى ، خاصة انها تقوم بتوزيع ما يقارب نصف المنتوجات الداخلية (كانت النسبة في نهاية الاربعينات ما يقارب الـ ١٠٠٪) واكتسبت نتيجة ذلك موقعا اقتصاديا استثنائيا داخل الامة (هنا يكمن الفرق بين هذه الفترة والفترة السابقة) ٠

عندما نتساءل عن نتائج هذا الوضع نصل الى السؤال عن طبيعة العلاقة القائمة بين الدولة والطبقات الاجتماعية ٠ ان عودة السلالة الملكية الى الحكم هي نتيجة للتدخل الاجنبي المباشر لكنها ساهمت في ترسيخ الارستقراطية كطبقة مهيمنة والتي حاولت سياسة مصدق بديناميتها ان تقضي عليها ٠ لقد فضلت هذه الطبقة من اجل الابقاء على امتيازاتها ، وكما فعلت في السابق ، ان تعتمد على الخارج وان تقيم علاقة وثيقة بالسوق العالمية ٠ وهي بفعل ذلك تخلت عن مشروع تأميم النفط تحت ستار اقامة اتفاق مع الاتحاد العالمي للشركات النفطية المستثمرة الواقعة تحت السيطرة الامريكية ٠

ان النمو المتسارع للعائدات النفطية قد ترك آثارا هامة على الطبقة المهيمنة

وعلى العلاقات بين فئاتها · وسرعان ما اصبح توزيع هذا المدخول بنظر الذين يقتسمونه او يساهمون في توزيعه (كبار الموظفين والشخصيات المؤثرة) وبنظر الذين يستفيدون منه (المقاولون من كل نوع ···) وهم من الطبقة المهيمنة ،اصبح هذا التوزيع مصدر ثروة كبيرة ، معتبرين اهمية الريع العقاري اقل شأنا · اي بمعنى آخر ، بدأت فئات الطبقة المهيمنة مذ ذاك بالتصارع اكثر من السابق حين كان الريع العقاري المصدر الرئيسي للدخل · وغدا هذا المصدر غير مناسب اقتصاديا وسياسيا ·

اقتصاديا لانه يقف حجر عثرة في وجه اتساع السوق الداخلية وخاصة في وجه شبكة التوزيع الكبيرة للمنتجات المستوردة · وسياسيا لان بقاء العلاقات الاقطاعية أعتبر بنظرهم عدم استقرار ، ولانهم فكروا بخلق قاعدة من الملاكين الصغار المستثمرين تشكل قاعدة اجتماعية ثابتة لدعم النظام (وجهة نظر الولايات المتحدة التي طالبت بتطبيق الاصلاح الزراعي) · واخيرا فان العائدات النفطية احدثت خللا في ميزان القوى داخل الطبقة المهيمنة بين الفئة المرتبطة بالسلطة السياسية (اذن بالعائدات النفطية) وبين الفئة العقارية · الاولى تستطيع ان تزيد امكانياتها في السيطرة السياسية (من خلال الجيش والشرطة الخ ···) على كل انحاء البلاد وبالتالي ان تتخلى عن الثانية · وقد حاول ع · اميني ان يتجنب هذه المسألة الرئيسية عندما كان في الحكم في بداية الستينات وعندما قامت الفئة العقارية وهي اهم فئة داخل الطبقة المهيمنة باطلاق الازمة الاقتصادية السياسية· وقد شمل برنامج حكومته وجهين مكملين لبعضهما· من جهة الحد من اهمية الجيش ومن الوسائل المالية المكرسة لتطويره بسبب دور الجيش في اضفاء استقلالية جهاز الدولة الواقع تحت سيطرة الشاه (الدور التقليدي للجيش عزز بفضل العائدات النفطية) · من جهة اخرى قيادة عملية التحول في ايران حتى يشكل هذا البلد محطة صناعية للاقتصاديات الغربية من خلال توظيف الطاقة المالية التي تمتلكها الدولة من جراء العائدات النفطية ·

تحول ايران هذا سيقوم على الاصلاح الزراعي لكنه موجه اساسا لخدمة فئة الطبقة المهيمنة الموجودة خارج جهاز الدولة ويتعارض هذا البرنامج مع برنامج الشاه الممثل لفئة الطبقة المهيمنة المستولية على زمام الحكم السياسي · فالشاه يشدد على تقوية جهاز القوة العسكرية في ايران كونه اداة لاستمرار تشكيلة مرتبطة بالغرب ومحطة نفوذ في الشرق الاوسط · وقد كتب لهذا البرنامج النجاح بفضل دعم الولايات المتحدة له ، بسبب حرصها على تقوية نفوذها العالمي المهدد · هذا يعني بالنسبة للطبقة المهيمنة اندماجا سريعا بجهاز دولة واسع واصبحت مذ ذاك مرتبطة بشكل رئيسي بالايراد النفطي وثانويا فقط بالريع العقاري · ورغم استمرار موظفي الطبقة المهيمنة في العمل (والذي اظهره السيد زوينس سنة ١٩٧١) فقد عرفت هذه الطبقة تحولا حقيقيا · لا شك ان اهتمام

الطبقة المهيمنة عبر التاريخ بالريع العقاري لم يكن مهما الا بمقدار ما كان يشكل مصدر ثرائها الرئيسي ، ربما لم تتصوران مصادر الدخل قابلة للتجديد · لاشك ايضا انها اعتبرت الايراد النفطي في البداية مصدرا اضافيا الى جانب مصادر ثروتها الاخرى · ان التغير الرئيسي يكمن في تأثر طبيعة العلاقات الاجتماعية بنمط الحصول على مداخيل الطبقة المهيمنة · كان جبي الريع العقاري يتم من قبل افراد ويحصل بفضل تأطير المواطنين الايرانيين داخل الشبكة التي سبق ان تحدثنا عنها ، شبكة التجمعات الهرمية القائمة على العلاقات الشخصية ، اما الايراد النفطي فتتم جبايته جماعيا من قبل الدولة · لا يمكن الحصول على جزء منه الا بنتيجة موقع الفرد داخل جهاز الدولة ·

لم يعد اليوم للشبكات التقليدية اي دور في تحصيل مداخيل الارستقراطية والطبقات المتحالفة معها · اذ لم تعد مهتمة حتى بالنسبة لمصير الارض ، فان تحصيل فائض الانتاج الفلاحي يتم منذ اليوم اما بواسطة السوق او بواسطة الارباح التي يجنيها الرأسماليون من خلال انشاء الاستثمارات الزراعية الصناعية الكبرى · فالتحولات الرئيسية في العلاقات الاجتماعية كالتضخم غير المعقول لعائدات الدولة النفطية وتطبيق الاصلاح الزراعي جعل من الضرورة اعادة تنظيم العلاقات بين الطبقات الاجتماعية بشكل متكافيء واقامة جهاز دولة آخر ، ولا يمكن القيام بذلك دون النظر الى علاقة ايران بالسوق العالمية ·

هذه العلاقة تقضي بأن تقوم ايران باستيراد المواد الاستهلاكية ، والمواد الانتاجية وفي بعض الاحيان ان تقبل ببعض الخدمات المقدمة من الدول المستهلكة للبترول مقابل تصدير النفط والحصول على ايراد نفطي ، أي بمعنى آخر ان تشكل قطاعا استهلاكيا مشابها للمجتمعات الاستهلاكية الغربية · وهذا يقتضي فرض تنظيم تكنوبيروقراطي للتخطيط الاقتصادي والاجتماعي ، هدفه تكييف ايران مع انتاج الامم المهيمنة ، وانشاء مشاريع لاستيعاب المعدات الموجودة وتطوير شبكات التوزيع المرتبطة بالمنتجين الغربيين الكبار ، واقامة منشآت في السلاسل الانتاجية ترد على حاجة التكيف · كما انه على مهام جهاز الدولة القمعية ان تتطور بشكل مواز وان تتسع حتى تحل محل التأطير الذي كانت تقوم به والذي لم يعد صالحا ، وحتى تقف في وجه كل توتر ناجم عن التناقضات الجديدة ·

لقد كان لنتائج حاجات السوق العالمية وللتحول الذي طرأ على مهام الدولة اثر بارز في تشكيل الطبقات الاجتماعية وفي العلاقة القائمة بينها ·

ان الطبقة المهيمنة هي طبقة وظائفية : تتألف من كبار الموظفين والتكنوقراطيين والعسكريين والسياسيين المرموقين الذين يسيطرون على الانتاج وعلى توزيع عائدات الدولة (البترول بشكل اساسي والغاز والنحاس ايضا الخ ···) · ان

هذه الطبقة مرتبطة بنيويا بالاقتصادات المهيمنة ، ودورها هو ربط التشكيلة الاجتماعية بالسوق العالمي وتزويده بالمواد الاولية المطلوبة وتنظيم استهلاك المنتجات المعروضة · وبوصفها طبقة مسيطرة داخليا فهي مرتبطة بهذا الدور الموكل اليها، كونها محركة لجهاز الدولة في السوق العالمي وكجزء من البورجوازية العالمية . ومن جراء توزيع العائدات البترولية ظهرت في البداية طبقة من كبار التجار والصناعيين والمقاولين وهم مرتبطون بسياسة الطبقة الآنفة الذكر ان على صعيد التجارة الخارجية (مشتريات من الخارج) والتوظيف المنّج (الذي توجهه المنافع المرتبطة بتحقيق الخطة) أو على صعيد اعمال التجهيز الدولة من قبل الدولة · ان هذه البوجوازية مرتبطة ايضا بالخارج بشكل مزدوج : اولا من خلال الطبقة الوظائفية وثانيا من واقع انها لا تسيطر على تقنيات الانتاج ولا على شبكات التوزيع التي لا تحصل منها الا على حصة ضئيلة ·

وهاتان الطبقتان قريبتان من بعضهما ، تنتسبان بشكل عام الى الارستقراطية القديمة ولنفس العائلات ، حتى اننا نرى اشخاصا يمكن نسبتهم الى هاتين الطبقتين في آن معا · مصالحها متقاربة جدا (لدرجة اننا نتساءل في بعض الاحيان أهما طبقتان ام شريحتان من طبقة واحدة) · لكن كما يبدو فانهما طبقتان متميزتان لان القضايا المتوجب على الدولة حلها ليست مرتبطة مباشرة بمصالح الرأسماليين الايرانيين ، أكانوا مرتبطين بشركات متعددة الجنسية او ظاهريا اكثر استقلالية ·

ويجب محاولة التوفيق بين السياسة الاقتصادية لهذه التشكيلة الاقتصادية الاجتماعية الايرانية (خاصة بعد نضوب البترول) وبين استراتيجية الشركات المتعددة الجنسية ، ذلك يعني محاولة ترسيخ حلقات سلاسل انتاجية تستجيب لمتطلبات الشركات ان على صعيد السياسة الداخلية او التجهيز او السياسة الاقتصادية او السياسة الخارجية (انفتاح وضمان الاسواق) ·

ان مهام جهاز الدولة يضاف اليه حرص الطبقة المهيمنة على خلق قاعدة اجتماعية ادت الى تكاثر شرائح الطبقات الوسطى (البيروقراطية ، تكنو ــ بيروقراطية والجيش الخ ···) المضمون الولاء ، عبر المشاركة في عائدات النفط والاستهلاك · من خلال تلك الطبقات المتوسطة تحققت المستلزمات المذكورة اعلاه لخلق سوق داخلي يسمح للاقتصادات المهيمنة ان تدفع ثمن وارداتها النفطية · ان خلق هذه السوق وهذه الطبقات الوسطى ، التي تقوم شرعية السلطة بنظرها على مدى زيادة الاستهلاك ، اصبحت العنصر الاساسي في الصيرورة الاقتصادية الاجتماعية · واذا كان من غير الممكن فعلا الحد سياسيا من زيادة الاستهلاك من قبل الطبقات الوسطى ، فان ازدياد الطلب الناجم عن نمو في العائدات ستتناول المنتجات الاجنبية ، حيث ان استيرادها

سينمو بمعدل اكبر من هذه العائدات · ان هذا النمو الاضافي للواردات لا يمكن دفعه الا بنسو مماثل لمبيعات ايران للخارج (بني صدر ١٩٧٤) ، فايـــران لا تستطيع ان تجد الوسيلة لبناء جهاز انتاجي ، ترى نفسها مضطرة لتصديـــر المزيد من المواد الخام او النصف مصنعة خاصة النفطية منها مجال اختصاصها· هكذا نجد ان كل الطاقات الفردية مشدودة نحو الانتماء الى هذه الطبقـــات الوسطى او نحو الترقي داخلها ، اي داخل جهاز الدولة او مـــا يسمـــى بالخدمات الخارجية التي تمتص بطريقة غير منتجة القسم الاكبر من الكفاءات التي يقدمها البلد ·

فموارد ايران النفطية غير كافية لان تسمح لمجموع الشعب بشراء منتجـات مستوردة · وهناك مسافة قاسية بين الطبقات المتوسطة المستهلكة (حيـث ان عائداتها مرتبطة بالاستهلاك) وبين الطبقات الشعبية (فلاحين وعمال) التـي اقصيت عن الاستهلاك رغم الجهود المبذولة للتعويض والتي انقلبت ضدهـــم (رساميل الاستهلاك الممنوحة اساسا للفلاحين الخ ···) · من جهة اخرى فان الاصلاح الزراعي رافقه في الارياف هجوم كبير من البورجوازية التجاريـــة والمالية (الربا والبنوك) والزراعية (الرأسمال الكبير والمتوسط) مستخدمـة جهاز الدولة · ومن خلال وسائل مختلفة (تراكم الديون ، نفاد المواد الغذائيـة ومياه الري ، طردهم من اراضيهم الخ ···) فان الفلاحين الصغار حرموا من الارض وتوجب عليهم الهجرة نحو المدن حيث تتراكم جماهير من العاطلين عن العمل · (ان تطور المهن الهامشية رغم نقص اليد العاملة المتخصصة جعـــل الهجرة ضرورية) ·

وفيما يختص بالطبقة العاملة ، لنتذكر فقط انها محرومة من الحقوق النقابية وان الاجور بقيت بمعدلاتها المنخفضة جدا قياسا لزيادة كلفة المعيشة · والـى جانب نمط التطور المتناقض هذا ، هناك تناقض اساسي ايضا ، وهو احتجـاج الشبيبة وبالاخص الشبيبة الطلابية الناقمة على موقعها في التشكيلة الاجتماعية: كمستهلكة لا دور لها في انتاج المواد ولا في بناء مستقبلها ·

ان محدودية الموارد النفطية ونضوبها مستقبلا تضع التشكيلة الاقتصاديـــة الاجتماعية امام مأزق حاسم · فلا يمكن الاعداد لبديل عن النفط دون هدم قواعد التشكيلة الحالية (الحد من الاستهلاك) · ان تقويـة التشكيلة سيكفل حتمـا مستقبلها ، وعلى الطبقة المهيمنة اختيار هذه التقوية الفورية · فصلاتهـــا بالطبقات المستغلة والفئات المعارضة (أيمكن ان نعتبر الشبيبة الطلابية شريحة طبقية ؟) ليس لها اي مضمون حاليا سوى العنف ، ولا يمكنها تطوير قاعدتها الاجتماعية الا عن طريق تطوير الطبقات الوسطى المستهلكة ، ويعني ذلك تطورا ضيقا في السوق العالمي · رغم ذلك فانها تحاول في نفس الوقت تجنب المـأزق بالسعي لتأطير سياسي وايديولوجي للطبقات الوسطى وللطبقات الشعبية · ان

وظيفة جهاز الدولة في ايران قد عرفت تحولا هاما عما كانت عليه حتى بداية القرن العشرين نتيجة تبدل علاقة ايران بالاقتصاديات المهيمنة ٠

المؤسسات السياسية

خلال الحقبة التاريخية التي ابرزناها والتي تنتهي في اواسط القرن العشرين، كانت المؤسسات السياسية الايرانية وبالاخص التنظيم السياسي الداخلي ذات الطابع المتسلط او نصف الليبرالي ، متأثرة بالوضع الدولي لايران وبموقفها من الصراعات بين القوى المهيمنة ٠ ولمن المدهش لمس انتظام التوافق القائم بين الصراعات او انعدامها بين القوى المهيمنة التي تدعي السيطرة على ايران من جهة ، ووجود او عدم وجود خصومات بين الاحزاب السياسية داخل البلاد من جهة اخرى ٠

خلال الفترة التي سبقت نهاية الحرب العالمية الاولى ، كان البريطانيون والروس اللذين اقتسموا ايران الى منطقتي نفوذ، يتنافسان للسيطرة على حكومة طهران ٠ ووجدت في الداخل عدة احزاب وشرائح سياسية متنافسة قادت البلاد الى الثورة الدستورية والى اقامة نظام ديمقراطي نسبيا ثم الى نظام « أوليغارشي » قبل مجيء رضا شاه ٠

بعد الثورة الروسية ، وقعت ايران كليا تحت السيطرة الانكليزية، اما الاتحاد السوفياتي فلم يكن من جهته مهتما بهذا الوضع او بالاحرى كان يعتبر بان الكولونيل رضا خان يمثل البرجوازية الوطنية ويقوم بحملة مناوئة للامبريالية، لذا فلا يجب التعرض له ٠

ابتداءا من سنة ١٩٢٢ ، بدأ نظام متسلط يأخذ مكانه شيئا فشيئا الى ان انتصر عام ١٩٢٦ بتتويج الشاه رضا بهلوي ٠

في ١٩٤٢ ، بعدما احتل الروس والانكليز ايران ، خلعوا الشاه رضا ونصبوا مكانه نجله محمد رضا شاه ، لسبب لم يكن مطابقا تماما للحقيقة : وهو تعاطف الدكتاتور مع المانيا الهتلرية ، تعاطفا لم يكن في الواقع يشكل خطورة ٠ عندها، عادت الحياة السياسية الداخلية الى الوجود ، متجسدة في ثلاث تيارات : الاحزاب الموالية للانجليز والاحزاب الموالية للسوفيات واحزاب الاستقلال ٠ وفي الحالات الثلاث ، كان القيمون على هذه الاحزاب تابعين في معظمهم للارستقراطية وطبقة الملاكين ٠

فشل الانكليز بعد الحرب في محاولة مد سيطرتهم من خلال اللجنة الثلاثية (انكليزية ، روسية ، امريكية) بينما كان التوتر العالمي يتزايد (الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى تحاولان الحصول على رحيل السوفيات لكنهما لم

تتمكنا من التوصل الى اتفاق حول الاشراف على ايران والنفط فيما بينهما) ٠ حاولت الاحزاب الموالية للانكليز ان تستولي على السلطة من الداخل لكنهـا فشلت بعد مساهمتها في اجلاء القوات السوفياتية عن ايران ٠ كان الظـرف السياسي الداخلي مؤاتيا لاحزاب الاستقلال التي تسلمت السلطة لفترة وجيزة زمن مصدق ٠ ان تأميم النفط دفع البريطانيين والامريكيين الى عقد اتفاق حول استغلال الابار الايرانية ، فاختفت الصراعات بين القوى المهيمنة للاشراف على ايران ، وحان وقت اقامة نظام تسلطي سيزيل عمليا وجـود كل الاحـزاب السياسية ٠

هذه المطابقات تثير العديد من الاسئلة : هل ان الطبقة المهيمنة تحس فعـلا بالحاجة الى الاعتماد على الخارج ولماذا ؟ كيف ستبرر شرعية اللجوء الى هذا الدعم ؟ ما هي اشكال التدخل الخارجي ٠ واخيرا ما هي الآلية التي تربـط وجود او انعدام الصراعات الدولية ، وفيما يختص بايران بين وجود او انعدام الاحزاب السياسية الايرانية ؟

منذ نهاية القرن التاسع عشر ، اعتمدت الطبقة الحاكمـة الايرانيـة والارستقراطية في الحكم ، على المساعدة الخارجية المباشرة : تدخل فرقـة من « القوزاق » بقيادة ضباط روس ضد البرلمان عام ١٩٠٧ وعام ١٩٠٨ ، توحيـد القوات المسلحة ابتداء من سنة ١٩٢٢ بفضل انجلترا ، والذي سمح بالقضاء على الحركات الشعبية ، وضغوط مورست في اواخر سنوات ١٩٤٠ علـى الاتحـاد السوفياتي من قبل الامم الغربية للجلاء عن ايران ، الحصار النفطي على ايران سنة ١٩٥٢ ثم انقلاب ضد مصدق نظمته وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية الى جانب تدخلات اخرى اقل تأثيرا وبالغالب اقل ظاهرية (من ابرزها ، ارسال « مورغن شاستر » وزير الخزانة البريطاني عام ١٩١١ الى ايران لتنظيم الامور المالية فيها) دون التدخل المباشر ٠ لا مجال للشك بأن الطبقة الحاكمة الايرانية كانت قد سقطت تحت احدى موجات التذمر الشعبي التي هزت ايران منذ بدايـة القرن ٠ والدعم الخارجي لم يقف عند المساعدات الآنية الهادفة الى تقويم وضع مهدد ، بل كان دعما ثابتا ٠ ابتداء من نهاية القرن التاسع عشر لم تتوقـف البلدان المهيمنة (بقدر ما كانت الخلافات في مصالحها تسمح لها) عن مساعدة الطبقة الحاكمة ، في بناء وتقوية الجهاز البيروقراطي للدولة وخاصـة جهـاز القمع ، من انشاء جهاز «القوزاق» من قبل روسيا القيصرية حتى تنظيم وتدريب وتجهيز الجيوش والشرطة من قبل الولايات المتحدة اليوم ٠ في بعض الحقبـات كما في الاربعينات وفي زمن اعادة الملكية ، حالت هذه البلدان دون حـدوث الانهيار او شجعت على اعادة بناء الجهاز البيروقراطي والعسكري بواسطـة مساعدات او قروض غطت العجز في الميزانية الايرانية (الذي ارتفع احيانا حتى الـ ٧٠٪ من مجموع الميزانية) ٠ كانت هذه التدخلات اكثر فعالية لانها كانـت

مموهة تظهر وكأنها حصيلة آلية السوق والتبعية الاقتصادية والمالية لايـــران بالنسبة للدول المصنعة • وهكذا فكل هزة في العلاقات بين ايران ومشتـــري النفط تتحول الى ازمة قومية كبرى نظرا للانعدام التام في التكامل بين قطاعات الجهاز الانتاجي الايراني : كل توقف او تخفيض او تأخير في زيادة المداخيـــل النفطية يؤدي الى احتمال تقليص الركيزة الاجتماعية للنظام ، المتمثلة بالطبقات المتوسطة المستهلكة للمواد المصنعة في الخارج والتي يزيد عددها كلما تزايـدت مداخيلها من النفط (على سبيل المثال ، مراجعة ازمة بدايـــة الستينات التـــي وقعت على اثر تخفيض سعر النفط) •

ابتداء من منتصف القرن التاسع عشر (بعد الهزائم العسكرية امام روسيا) اخذت الطبقة الحاكمة الايرانية التي كان حكمها مبنيا في الاساس على العنـف الذي تمارسه ، تعتاد الاتكال على الامم التي تسيطر عليها من اجل تدعيـــم حكمها الداخلي ، وذلك للتعويض عن ضعفها الـــــذاتي (المـالـي والاداري والعسكري) • بمعنى انها سمحت للبلدان المهيمنة بتحويل ايران الى شبـــه مستعمرة والطلب اليها من جهة اخرى بدعمها • هذه العلاقة تطورت من تلقـاء ذاتها ، اذ ان توفير التكنولوجيا الصناعية او العسكرية والخبراء واعطـــاء القروض المالية وتوجيه الاقتصاد الايراني تبعا لمتطلبات السوق العالميـة زادت باستمرار من التبعية الموضوعية والذاتية •

تحاول الارستقراطية تبرير شرعية هذه التبعية التامة للخارج امام اعيـــن الشعب وخاصة الطبقات التي تشاركها السيطرة (البرجوازية الجديدة التابعة، الطبقات المتوسطة في اجهزة الدولة والانتلجنتسيا « العصرية ») باعتمادهـا عقيدة الغرب كنموذج تقني واقتصادي ـ سياسي وثقافي • وفقا لهذه العقيدة ، لا تستطيع ايران ان تجد في ذاتها ، حوافز نموها : ثقافتهـــا ومؤسساتهـــا السياسية ونشاطاتها الانتاجية مصابة نهائيا بالجمود : فهي لا تستطيع تخطي ذاتها لتصبح مصدر خلق • طالما اقتنع الجميع بهذ المبدأ يجدر الاسراع فـــي انحطاط هذه المقومات وتقليد الامم المهيمنة دون ان تكون الوسائـل المستعملـة لبلوغ ذلك مجرد نسخ النموذج المنقول والعمل باستمرار على تأجيـل الوصـول الى الهدف المزمع تحقيقه •

وكانت اداة الدعاية الرئيسية لايديولوجية الغرب منذ نهاية القرن التاســـع عشر ، حركة الماسونية الايرانية حين ولادتها (على سبيل المثال ، مراجعـــة كتابات ميرزا ماكلوم خان ، وميرزا حسين خان سيباه سالار) كان زعماؤهـا ينحدرون من الطبقة الارستقراطية ويلتف حولهم اشخاص ينتمون الى طبقـــات حليفة (كبار الموظفين ـ تجار ومثقفين) وهذه الحركة قدمت بصورة مستمرة منذ الثورة ، عددا كبير من رؤساء البرلمان والوزراء ورؤساء الوزراء وتشكل التنظيم العقائدي الاساسي للطبقة الحاكمة •

الى جانب عقيدة الميل للغرب ، تستعمل هذه الحركة اسطورة التدخل الغربي امام الطبقات التي تهيمن عليها للحيلولة دون نشوء اي تيار استقلالي ، وتعرف هذا التدخل على انه حدث غير مرتبـــط بالخيـارات السياسيـــة للايرانيين وممارساتهم ٠

في نطاق التبعية وايديولوجية التبعية للطبقة الحاكمة بالنسبة للخارج ، يبقى علينا ان نظهر الآلية التي تربط تعددية السيطرات الخارجية الى تعددية الاحزاب التي تكافح من اجل استلام الحكم في الداخل ٠

فلنبدأ بدراسة موقف القوتين المتنافستين لكن ذات التوجه السياسي المماثـل واللتين تتصارعان للهيمنة على ايران (بريطانيا العظمى وروسيا القيصريـــة في بداية القرن ثم بريطانيا العظمى والولايات المتحدة في منتصفه) كلاهمـــا بفضل التدخل المباشر والمساعدة التي يوفرها لادارات البلاد خلق تنظيماتـــه الخاصة او حلقات نفوذه الخاصة ، الجغرافية او الوظيفية ٠

وهكذا ، قبل الحرب العالمية الاولى ، بينما كان الانكليز والروس ، يتمركـز كلمنهما بقوة في المنطقة التي يسيطر عليها ، كان جهاز « القوزاق » في الشمال الذي اوجده الروس يقابله في الجنوب جهاز الشرطة الذي انشأه الانكليز ، كل من هذين الجهازين مستقل عن الحرس الامبراطوري وعن الدرك اللذين همـــا وحدهما مرتبطين بالعرش الملكي ٠ كذلك في عهد « رازمارا » ، فقد كان الانكليز والامريكيون يتقاسمان النفوذ على الجيش الايراني فيما يتعلق بامدادات الاسلحة والخبراء ٠ لكن هذه التهديدات الحقيقية بالتقسيم الحاصل على ارض الوطـن وفي اجهزة الدولة ، لا تجد مبررا لها فيما يختص بالصراعات الداخلية سـوى لان بعض الفئات المتناقشة في الطبقة الحاكمة تعي بأنهـا تستطيـــع استعمـــال حلقات النفوذ التابعة لكل قوة عظمى من اجل التمسك بالسلطة ٠ بصورة عامة تحاول هذه الفئات ان تحصل على فوائد خاصة نتيجة الاصطدامات بين القوى الخارجية في ايران ٠ واخذت تدرك ، منذ النصف الثاني من القرن التاســـع عشر ، بان الدعم الخارجي هو احد اضمن الوسائل للوصول الى مراكـــــز المسؤولية السياسية والوسائل التي تستطيع القوى الخارجية ان تستخدمهـا لتأمين نجاح مرشحيها كثيرة : ابتداء من الحماية الشخصية ضد تعسف السلطة التي تسمح بتوجيه الانتقاد ضد ممارسات الحكومة القائمـة دون التعـــرض للخطر ، حتى التوصيات التي تجعل من الشخص المرشـــح وزيرا للمالية او رئيسا للوزراء ، مرورا بالفوائد المادية التي تمكنهم من تجميع ثروة (قـروض مصرفية في بداية القرن ، مساهمات في رأسمال شركة الزيت الانكلو ـ ايرانية حتى انحلال هذه الشركة ، مساهمات في اعمال صناعية وتجارية فيما بعـــد الخ ٠٠٠) ان استراتيجية الشخص الذي يريد ان يحظى بالدعم الخارجـــي

والتي يستقي مبادئها من ثقافته الذاتية ، تكمن برفع المزايدات وفقا للمنافسة القائمة بين القوى الخارجية وزيادة حدة خلافتها · الوضع واللعبة لا يتغيران في كل الاحوال كما كان الوضع مثلا في الاربعينات حين كان الاتحاد السوفياتي احدى القوى الخارجية المتنافسة ، اذا كان قادة الاحزاب الذين ينادون بالاشتراكية يعتمدون في نضالهم المعلن ، على الدعم الخارجي اكثر مما يعتمدون على تحريك الجماهير ، ويعلنون تأييدهم لاعطاء تنازلات نفطية لصالح الدول الحامية بينما يرفضون ذلك للقوى الغربية · ان ضعف القواعد الشعبية لهذه الاحزاب بدا جليا بعد انهيارها السريع والتفكك الفوري للجمهوريات الاذربيجانية والكردية بعد فقدان الدعم الخارجي ·

احدى نتائج الصدامات بيدن القوى المسيطرة بواسطة الاحزاب السياسية الايرانية كان احترام عدد من الحريات العامة (حرية التعبير والمشاركة والاجتماع) · هذه الحقبات سمحت بالتالي التعبير عن تيارات وطنية كان هدفها السياسي الرئيسي استغلال خلافات القوى الخارجية لصالح ايران · انها السياسة التي وصفها مصدق بأنها سياسة التوازن السلبي · لكن هذه الحركات الوطنية لم تتمتع سوى بالحريات العامة وليس بالدعم الذي تؤمنه القوى الخارجية للاشخاص الواقعين تحت حمايتها بفضل شبكات النفوذ التي تملكها داخل اجهزة الدولة · فبقيت تلك الحركات ، في معظمها ، حركات شعبية لم تتمكن الا بصعوبة ، في ان تجد لنفسها منبرا للتعبير على صعيد المؤسسات السياسية في البلاد · هكذا نرى بان مصدق الذي رغم نجاحه في تأمين حرية الانتخاب خلال الانتخابات النيابية السابعة عشرة (التي جاءت مؤيدة له في معظمها) في عدد من المدن الكبرى وطهران ، لم يستطع تأمين ذلك في الارياف والمدن الصغيرة وغيرها من المدن الكبرى (كشيراز) التي تعود الكلمة الاولى فيها لاجهزة الدولة وخاصة الجيش بفضل الشبكات الانكليزية والامريكية · عندما حمل مصدق الى الحكم طالب بالتالي بوزارة الدفاع التي لم يحصل عليها في تموز ١٩٥٢ الا من جراء تمرد شعبي ·

عندما كانت تحل الخلافات المصلحية بين الامم المهيمنة ، كانت تنتفي للتو كل فائدة للخارج يمكن ان تأتي من وجود الفئات المتعارضة في الداخل · هكذا ، بعد الثورة الروسية عام ١٩١٧ ، لم يعد للطبقة الارستقراطية التي كانت تدعمها روسيا القيصرية بعد ان فقدت هذا الدعم ، سوى اللجوء الى كنف بريطانيا العظمى للحفاظ على مصالحها الطبقية ، ومن جهتها ، لم تعد انكلترا ترى اية مصلحة في المؤسسات الخاصة التي وضعتها في الجنوب او في الحركات الانفصالية التي تدعمها ، او في الاحزاب السياسية التي ما زالت قائمة بفضل دعمها · وسمحت هكذا بتوحيد القوات العسكرية في الشمال مع شرطة الجنوب ، وتخلت عن محاسيبها في الجنوب وشجعت صعود رضا خان ، احد

ضباط « القوزاق » ٠ هذا الاخير سيعمل فيما بعد على توحيد ايران وحل الانقسامات داخل الارستقراطية (تصفية الحكم الذاتي النسبي للقبائل الكبيرة ، كقبيلة عرب خوزستان بزعامة الشيخ خزعل الذي كان في احد الاوقات احد الادوات الرئيسية للعبة البريطانية في ايران) ، لكن ايضا سحق الحركات الاحتجاجية التي كانت تهدد الطبقة الحاكمة خاصة في اذربيجان وخرسان وغيلان ٠

كذلك فان الانسحاب الروسي بعد الحرب العالمية الثانية (١٩٤٦) وامساك الولايات المتحدة بزمام المصالح الغربية في ايران (١٩٥٣) ، سمحا بامتداد سلطة حكومة طهران الى كافة انحاء البلاد والى مجمل اجهزة الدولة ، وزالت الفائدة التي كان يجنيها الخارج من الاحزاب او الفئات ، ان احياء الملكية التي هي اعادة لسلطة العرش المطلقة بينما كان النظام يعمل منذ عشر سنوات كملكية دستورية يسيطر فيها البرلمان ، من شأنه ازالة كل الاحزاب اكانت شيوعية ، وطنية ، او فقط ممثلة لبعض الفئات الارستقراطية ٠

هذه الاخيرة لها طابع طبقة مسيطرة يخضع في الوقت نفسه للسيطرة الخارجية ٠ وهي هكذا لا تستطيع الا ان تتحمل نتائج مصالح الامم المسيطرة وخلافاتها او ارتباطاتها ٠ وهذه التبعية ناجمة اساسا عن توافق مصالح هذه الطبقة مع مصالح الامم المسيطرة٠ وقد ظهر هذا التوافق بوضوح ، عبر اعادة الملكية٠ لم يكن باستطاعة الطبقة المسيطرة ان تناقش الطابع المتسلط للنظام الجديد ، ليس لانها لم تجد اي دعم خارجي ، بل لان هذا النظام يبعد عنها شبح نهايتها الذي حركه الغليان الشعبي ٠

هكذا نرى بان الحياة السياسية الايرانية هي نفسها تابعة ، فالحقبات الليبرالية او النصف ليبرالية والحقبات المتسلطة هي محصلة احداث خارجية اكثر من كونها تتبع منطقا سياسيا داخليا ٠ ان نمو الصراعات الاجتماعية في الداخل انعكس على صعيد المؤسسات السياسية ، لكن طبيعة هذه الانعكاسات تظل متأثرة بالخارج ٠ فنمو الصراعات قد حث الدول المهيمنة على تسوية خلافاتها (في عهد مصدق مثلا) والعمل بعد ذلك على تشجيع اقامة نظام متسلط والطلب منه باجراء اصلاحات كالاصلاح الزراعي في سنتي ١٩٦٢ ـ ١٩٦٣ الذي يعود في النهاية لمصلحة الطبقة المهيمنة ٠ فالتناقضات الاجتماعية لا يمكن ان تنتهي اذن لمصلحة الطبقات الشعبية الا من خلال النضال من اجل الاستقلال الوطني ٠

ان العلاقة التي تقيمها الطبقة الحاكمة الايرانية مع الخارج ، مع القوة او القوى التي تسيطر على البلاد ، تؤدي الى تأثر الحياة السياسية الايرانية بالظروف الدولية ٠

تقع المؤسسات السياسية الحالية التي تركزت منذ بداية الستينات ، ظاهريا ، في امتداد المؤسسات التي رافقت عهد احياء الملكية والتي تمثل اعادة لنظام متسلط يمتاز في الظرف الاقتصادي ـ الاجتماعي لبداية القرن العشرين ، بغياب المنافسة بين القوى الكبرى ، الهادفة الى السيطرة على ايران · لكنها تتميز كذلك ، بالتحولات الاساسية المتصلة بالتغيرات البنيوية التي ادخلها النمو المفرط للقطاع النفطي والارتفاع الهائل للمداخيل البترولية ، تقوية اجهزة الدولة ووسائل عملها بصورة لم يسبق لها مثيل ، تركيز وجود الطبقة المهيمنة في اجهزة الحكم، انهيار الانتاج غير المرتبط بالسوق العالمي، انقسام المجتمع الى طبقات مستهلكة لمواد مصنعة في الدول الصناعية وطبقات محرومة من الاستهلاك ·

ان المؤسسات السياسية منذ سنة ١٩٦٢ ، تهدف الى الغاء كل استقلال فعلي للمجتمع المدني ، محاولة تذويبه في المجتمع السياسي وبناء دولة متسلطة (من نتائج اعادة الملكية) ومهيمنة في نفس الوقت · كما لاحظنا ايضا ارادة الحكم في الاشراف على مجمل الحياة السياسية والسيطرة على الانتخاب العام ، وتركيع البرلمان تماما ، وجمع كل الشعب في حزب واحد (حزب الانبعاث الذي انشأه الشاه عام ١٩٧٥) وجعل هذا الحزب الاطار اللازم للتعبير عن التوتر والتناقضات الاجتماعية ، كما ان التنظيمات الاجتماعية الناشئة عن توافق المصالح في مجال الانتاج (اتحادات مهنية ، نقابات ، تعاونيات وتنظيمات قبلية للرعاة البدو ···) او في مجال الاستهلاك (مجالس بلدية ، مؤسسات قروية، وتنظيمات رياضية على سبيل المثال) تميل الدولة الى وضع اليد عليها لكي تصبح ادوات ادارة اشراف على نشاطات واراء الاشخاص من قبل اجهزة الدولة · هذا النشاط اصبح اليوم احد اكبر وظائف شرطة التأطير والمراقبة ، الى جانب وظيفة القمع الفعلي المكملة لها · الجيش من جهته اصبح اكثر من مجرد اداة وصل بالامبريالية ، بل اصبح يمثل بطريقة حاذقة ، خفية ، مركز الثقل التنظيمي والايديولوجي للامة كما يشاء الحكم ان ينشئها · والجيش هو اولا مدار اهتمامات الدولة : اذ خصصت له وسائل مادية هائلة (يستوعب هذا الجهاز ، بالاضافة الى مختلف اجهزة الشرطة ١٤٪ من الدخل الوطني الصافي عام ٧٠ ، و ٢٠٪ حاليا) حرمت الاقتصاد الايراني من زيادة كان يجب ان تضاف الى الاستثمار الانتاجي · والتجهيزات الجماعية المتعلقة خاصة بالاتصالات تجيب على متطلباته : فهو يستعمل اسلحة ذات تقنية متقدمة منتجة في الدول الصناعية ، وتعبىء في هذا المجال كفاءات عديدة للصيانة والاستعمال يحرم منها الانتاج الوطني · ولان الجيش موجه ثقافيا نحو الغرب ، من جراء تبعيته التكنولوجية ، فانه يأخذ حصة متعاظمة في ادارة الجهاز البيروقراطي (عدة مراكز في الوظيفة العامة موكلة الى عسكريين ، كما ان الاحكام المدنية تشرف عليها بالواقع ، المحاكم العسكرية ···) ويوكل اليها ايضا مهام التأطير

الايديولوجي للمناطق الريفية من خلال « جيوش » المعرفة والصحة والتنمية والدين التي انشئت ، لكي تحكم سيطرتها كليا على المجتمع المدني كان على الدولة ، في الواقع ، ان تحاول تأمين هيمنتها في مجال الثقافة الذي عرف تاريخيا بعدم خضوعه لها ٠ رغم امتلاكها لوسائل الاكراه ، كان عليها ان تأخذ في حسابها هذا الواقع الذي بدأ ينشأ بشكل واسع خارجها ٠

ان مشكلة العلاقة بين الضغط والواقع الجديد، يظهر على الفور في الملاحظتين المتكاملتين الآتيتين اللتين تتعلقان بالحقبة الظرفية الاولى الممتدة من القسم الثاني للقرن التاسع عشر الى القسم الاول من القرن العشرين خلال فترات التسلط ، قبل الثورة الدستورية ، في عهد رضا شاه او في السنين العشر التي تبعت اعادة الملكية في ١٩٥٣ ، بدا ان الدولة لم تكن تعتمد الا على العنف ، وغير قادرة على ايجاد حد ادنى من الاجماع بين الطبقات الشعبية والطبقات المتوسطة ، لا بل الطبقات العليا ايضا خلال الفترات الاوليغارشية والديمقراطية حين كان الحكم يتمتع بدعم شعبي اكبر ، كان ينمو تيار يساري ٠ تطرح هكذا مشكلة المجتمع المدني ، مشكلة وجود او عدم وجود الاشراف الايديولوجي القادر على ضم الشعب في شبكة من القوانين تؤمن ثبات التكوين الاقتصادي ـ الاجتماعي بنفس الفعالية التي تؤديها وسائل الاكراه ٠

من اجل ادراك الروابط بين ما هو ايديولوجي وما هو سياسي ، فان مراجعة صغيرة للتاريخ قد تكون مفيدة ٠ اذا عدنا الى نهاية القرن التاسع عشر حيث كانت الاشياء واضحة نسبيا ، نجد ان اداة الاكراه واداة الادارة الفكرية والاخلاقية تبدوان متباعدتين بوضوح ، لا بل متعارضتين ٠ ان السلطة السياسية التي تتلخص تقريبا في اجهزة الضرائب والشرطة والجيش ، كانت بيد سلالة « القاجار » ٠ بينما كانت العلوم الاخلاقية والشرع والمعرفة بيد رجال الدين الشيعة ٠ على امتداد التاريخ الايراني (حتى قبل مجيء الاسلام) كان الجهاز الديني معارضا للسلطة السياسية ٠ هذه السلطة كانت دوما بيد قبائل اجنبية اخضعت ايران بالقوة ، بينما الجهاز الديني يمثل المؤسسة القانونية والثقافية للسكان الاصليين في مواجهة السلطة السياسية الخارجية ٠ وكان هذا الاخير ، يضفي على المجتمع المدني تنظيما عقائديا يمكنه من المقاومة بشكل افضل ضد الميول الهدامة التي يخلفها الغزاة البدو ، ورغبتهم في تملك كل ثروات البلاد ٠ لذا حاولت السلالة الحاكمة عند استلامها السلطة ان تبرر شرعيتها عبر محاولة التحالف عدة مرات مع الجهاز الديني ٠ هذا ما فعلته السلالة الصفوية٠ فقد شارك الصفويون في البدء رجال الدين الشيعة في تسيير ادارة الدولة على اساس كونها جهازا عقائديا ٠ فسمحوا بالتالي بنمو قوتهم الزمنية واعطائهم الوسائل التي تمكنهم من تكوين ثروة هائلة مستقلة : الاقتطاع المباشر

للضرائب الدينية ، التصرف بعائدات المؤسسات الخيرية التي ستتوسع بكثرة · وفيما بعد ، وفقا للتتابع المعهود للسلالات ، بينما كان يضعف الصفويون ، كان رجال الدين يزدادون قوة· ووجد « القاجار » انفسهم منذ البداية امام وضع مفروض ليس باستطاعتهم تغييره : قوة واستقلال الجهاز العقائدي المتمثل برجال الدين الشيعة المعترف بهم عالميا على انهم القادة الفكريون والاخلاقيون للشعب الايراني ، والذين يملكون موارد تؤمن لهم استقلالية بالنسبة للامير · وهناك سبب آخر لهذه الاستقلالية وهو وجود الاماكن المقدسة للمسلمين الشيعة خارج ايران ، مما يعني انها كانت بمنجى عن السلطة السياسية بينما كان المؤمنون حتى نهاية القرن التاسع عشر يتنقلون بحرية ·

يتحدد النظام الاساسي للمؤسسة الدينية بالمسائل التالية : العقيدة السياسية للشيعة الاثني عشرية تؤكد قبل كل شيء بان الامام وحده يستطيع بصورة شرعية ان يطالب بالسلطة لانه لا يستطيع ان يرتكب خطأ او يقترف ذنبا ·منذ غيبة الامام الثاني عشر ، اختفت امكانية ايجاد حكومة عادلة ، وكل سلطة حتى لو كانت بيد شيعي ، هي مغتصبة وغير عادلة · ان عودة الامام مقابل ذلك ستحمل العدالة والتكفير ، وتصحيح الاخطاء · وبانتظار هذه العودة يمكن ان يؤمن الحكومة الاقل سوء اولئك الذين يحضرون لهذه العودة وبالتحديد ذلك الذي اختارته الطائفة الدينية كزعيم لها · هذا القائد الروحي هو قائد المجاهدين الذي يثبت بأنه الاكثر عدالة والاوفر علما · وبالتالي ألاكثر قدرة على اعطاء رأي موثوق به في مختلف القضايا (الدينية والاخلاقية ، والقانونية والسياسية) التي تطرح في الوقت الحاضر · ان الرأي الذي يصدره مراجع التقليد ، يلزم كافة المؤمنين والملك نفسه · ثم المظهر الثاني الرئيسي للمؤسسة الدينية هو ان الزعيم الروحي للطائفة تجري تسميته وفقا لاجراء غير تقليدي له طابع ديمقراطي ، اذ ان اجماع الطائفة الدينية وحده الذي ينظمه العلماء ، هو الذي يحدد القائد · لكن بما أن حق الاكثرية على الاقلية ليس بالامر المثبت ، يمكن للطائفة الشيعية ان تعترف بعدة زعماء عندما يكون من الصعب الوصول الى اجماع قوي ! والمظهر الاساسي الثالث لنظام المؤسسة الدينية هو الصورة التي تكونها الطبقات الشعبية عن هذا الزعيم : انتظار عودة الامام الثاني عشر الذي ستعم في عهده العدالة على وجه الارض ، نضال الحسين ضد الامويين واستشهاده هو نموذج للنضال العادل ضد الاستبداد ، فالتاريخ الشيعي هو تاريخ نضال مستمر ضد سلطة مغتصبة وطاغية ، والتنظيم الكنسي القائم على الاجماع هو نموذج للتنظيم السياسي للدولة ·

في القرن الثامن عشر ، وبدايات القرن العشرين ، كان تعارض الجهاز السياسي مع الجهاز الايديولوجي (او بصورة ادق الجهاز المنظم للحياة المدنية) ومنازعة الثاني لسلطة الاول ، والاشراف الذي يمارسه هذا على ذاك ، يؤدي

في اطار توازنهما وعدم استطاعة السلطة الدينية ان تحل محل سلطة الامير ، الى ايجاد نظام سياسي حيث التوتر المستمر (يستهوينا ان نتكلم هنا عن فصل السلطات) يجد حالة من التوازن المستقر ٠٠ ان التوترات والخلافات الحقيقية التي تجد مرتكزاتها في العلاقات الاقصادية والاجتماعية تستخدمها المؤسسة الدينية في مجال العلاقة القائمة على الصراع والتنافس بين السلطتين ٠ وهي لا تتجاوز هذه العوامل بقدر ما تعمل على ادخالها في صلب النظام المؤسسي ٠ العملية هي عملية تطهير ٠ يبدو الصراع بين الجهاز السياسي والجهاز الايديولوجي كعامل اساسي فيالتنظيم المدني وكأحد محركاته الضابطة ٠

لكن الامور تبدلت في نهاية القرن التاسع عشر ٠ ومالت العلاقات بين السلطتين الى التحول بسبب التداخل الاقتصادي والسياسي الخارجي في ايران٠ فالدولة الرازحة تحت الديون ، بدأت تزيد الضغط الضرائبي وتعطي الامتيازات للشركات الاجنبية ، مما ادى الى تصاعد التوتر الداخلي التي ردت عليه السلطة بدعم من القوى الخارجية (روسيا قبل الحرب العالمية الاولى) بتقوية وسائل الاكراه ومحاولة علمنة مؤسسات البلاد ، اي بتهديدها مباشرة او بصورة غير مباشرة للجهاز الايديولوجي المؤلف من هيئة العلماء الشيعة ٠ فضلا عن ذلك ، فان تكثيف التبادل الخارجي واستبدال المنتوجات الداخلية بمواد مستوردة ادت الى تذمر البرجوازية المتوسطة والصغيرة، «البازار» ٠ وانعكس هذا التذمر فيالجهاز الديني المرتبط تقليديا بهاتين الطبقتين ٠ فعدا عن الدور الذي تلعبه هذه الفئات الاجتماعية في تأمين الضرائب الدينية التي تؤلف مداخيل رجال الدين ، هناك القانون ، والاخلاقالاسلامية التي ينادي بها العلماء والتي تشكل الاطار المبدئي اللازم لتحقيق المبادلات ٠ كذلك فان التوتر الذي امتد الى الجماهير الريفية من جراء نفاذ حركة السوق ، تردد صداه داخل الجهاز الديني المرتبط بالريف بسبب اصل رجال الدين (اذ ان الاغلبية الكبرى من العلماء من اصل ريفي) وخاصة بسبب وظيفته في الحياة اليومية (ادارة القانون الخاص) وفي النشاطات الانتاجية (حق الماء مثلا) ٠

ان الرفضية الناشطة جدا التي اشترك بها رجال الدين في نهاية القرن التاسع عشر (قضية امتياز رويتر ، ١٨٦٣) ، (قضية التنباك ، ١٨٩١/ ١٨٩٢) هي متصلة بشكل مباشر او غير مباشر بالانقطاع الحاصل من جراء التدخل الخارجي ، في التوازنات السياسية والاقتصادية الموجودة حتى الآن ٠ كذلك فان التهمة المزدوجة التي كان الجهاز الديني يوجهها دوما ضد السلطة السياسية لملوك « القاجار » و « بهلوي » ، هي حول طابعها المستبد وتبعيتها للخارج : ظاهرتان كانتا متكاملتين تاريخيا ٠

عندما دخل الجهاز الايديولوجي الشيعي ،منذ نهاية القرن التاسع عشر في

المعارضة النشطة ضد السلطة السياسية ، وقاد طائفة المؤمنين في هذا الطريق اي الطبقات الشعبية والمتوسطة ، وطبقة التجار ، بسبب تزايد التوتر ، فانه عرض نفسه ، اذا جاز التعبير ، لخطر لم يكن موجودا في السابق ، هو الانتصار وبالتالي الوصول مباشرة او غير مباشرة الى الحكم · لم تعد العملية تتميز بشيء من التطهير : الممثلين الشعبيين المجسدين لمثال في المعارضة ، اصبحوا الان صورا تقود الجماهير وتوجه الدعم الذي تعطيه للحكم الجديد · هذا هو اصل هذه الدينامية اليسارية التي تكلمنا عنها ·

امام هذا التيار كانت الخطوات الاولى للهيئة الدينية في الانطواء على الماضي مع ارادة بابقاء الصف الشيعي فيالمعارضة · هذا ما رأيناه فعلا في عهد الثورة الدستورية وعهد مصدق · خلال الفترة الاولى بالذات بعد النجاح الاول الذي تحقق ، اخذ قسم من رجال الدين يتراجع للوراء معلنا بأن الدستور الذي جاء هو ضد الاسلام : بانتظار المهدي ، لا يمكن للحكومة الا ان تكون غير شرعية · ورجال الدين لم يستطيعوا الاشتراك فيها او دعمها · هذا المبرر يغطي علنا تقريبا الخوف من ان تحل جمعية ممثلة محل رجال الدين في وظيفتهم الايديولوجية بالنسبة للاخرين الذين اعتبروا بان انتظار زمن الكمال لا يمكن ان يعطي جهدا لتقليص عدم الشرعية وبالتالي ايجاد شكل اقل سوء للحكومة ، ان الطريق الذي تم اختياره ليس خاليا من الصعوبة ، لان الجهاز الايديولوجي ليس مؤهلا بالتأكيد لقيادة الجماهير سياسيا ولان المؤسسات السياسية التي يجب اقامتها ليست ضمن العادات او متوفرة فيالتجربة التاريخية · نجد ان الهيئة الدينية اصبحت مدفوعة بسبب مشاكل استلام السلطة ومشاكل المعارضة للسلطة السياسية القائمة ، الى عملية تأمل لم تتوقف عمليا منذ منتصف القرن التاسع عشر · هذا التأمل ادى في عامي ١٩٦٠ و ١٩٦١ الى مناقشة حول كيفية التعيين (التي لم تقنن ابدا) وحول الوظائف السياسية والدينية للزعيم الروحي·

لكن النقد لاعمال السلطة استمر ، فآراء رجال الدين الشيعة السياسية وتوجيهاتهم المتعلقة بالممارسات التي يجب اتباعها في وجه السلطة السياسية كانت كثيرة · توجيهات مقاطعة التبغ في اواخر القرن التاسع عشر تقابلها اليوم تعليمات لمقاطعة التظاهرات المؤيدة للسلطة السياسية وخاصة الانتخابات (مراجعة منع المشاركة باحتفالات الذكرى ٢٥٠٠للعرش الفارسي) ، ومنذ الحرب العالمية الثانية كانت الدعوة الى مقاطعة انتخابات ١٩٤٧ هي الدعوة الاولى الصادرة في الوقت نفسه عن العلماء والمعارضة : حين اعترضت على تعميم الاكراه الانتخابي الذي نظمه الحزب الديمقراطي ، حزب رئيس الوزراء ·

منذ سنة ١٩٦٣ ، اصبح الامتناع عن المشاركة في الانتخابات شاملا والاسباب التي يعطيها احد الزعماء الدينيين هي الآتية : غياب حرية التعبير والصحافة

والاجتماع ، المخالف للدستور ، الطابع غير الديمقراطي للاجراءات المتعلقة بتسجيل الترشيحات وبالعمليات الانتخابية (عدم وجود لوائح او بطاقات انتخابية) رغم اهمية الانتخابات التي من شأنها التعبير عن الرأي الحر للافراد من اجل الاسلام وايران والشعب الايراني · منع التجمعات الدينية والمواعظ من قبل السلطة (تصريح شريعتمداري احد مراجع التقليد في ايلول ١٩٦٣) ·

ان الاشتراك في الانتخابات يبدو كرهان اساسي في الصراع بين السلطة السياسية والجهاز الايديولوجي · انه دليل ميزان القوى بين قوتين مهيمنتين متنافستين · الاولى ، قوة رجال الدين التي وجدت بالنهاية في الانتخابات والمجلس اشكالا تمكنها من الوصول شرعيا الى السلطة السياسية · والثانية، قوة الجهاز السياسي التي تحاول اليوم من خلال الاشكال نفسها ، تبرير شرعية مطالبتها بالقيادة الايديولوجية للامة · من اجل كسب هذه المعركة ذات الدلالة يملك الجهاز السياسي ادوات ضغط على الناخبين لا يتورع عن استعمالها · لكن خطته اوسع من ذلك واكثر جذرية · فهو يرمي الى جعل الجهاز الايديولوجي بيروقراطيا تابعا له (الاشراف على الطرق المادية المتأتية من الجمعيات الخيرية من اجل لجم رجال الدين ، انشاء جيش الدين الذي اطاح به العنف، الخ ··) وفي الوقت نفسه ، الاسراع في استبدال الثقافة الوطنية بثقافة مأخوذة عن الغرب ، وهو مطلب يذكر بتيار قديم ، رأيناه سابقا ، هو تيار الارستقراطية الذي لم يأخذ طابعا رسميا او شبه رسمي ·

ان التوجه نحو تغريب ايران (بضائع ، تكنولوجيا ··) يحدد بشكل فوري طبيعة التغريب المثالية · لكن هذه السياسة المتبعة ، تتوجه نحو طبقات اخرى لا تمتلك اسبابها من اجل قبولها · هذه الطبقات تؤلف اغلبية الشعب · لذلك ، فبواسطة العنف ، تحاول السلطة ازالة ثقافة واستبدالها بثقافة اخرى ، وهي تأمل ان تصل الى حالة تقبل بها هذه الطبقات الثقافة الجديدة · عندها يصبح العنف عديم الفائدة، لان هذه الثقافة تؤسس عندها من خلال اجماع وطني وتطور متداخل مع السوق العالمي ·

ترجم النص عن الفرنسية

ندره صولي

مناقشات

فيليب حتّي والتاريخ العربي

من الممكن لاي متصد لدراسة عن البحاثة الدكتور فيليب خطار حتي ، ان يتناول الموضوع من احد جوانبه الثلاثة او منها جميعا ، الا وهي :

١ ـ « المؤرخ العربي في الولايات المتحدة » ٠

٢ ـ « المؤرخ السوري في الولايات المتحدة » ٠

٣ ـ « المؤرخ اللبناني في الولايات المتحدة » ٠

ولدى التدقيق فيما انجزه مؤرخنا الممتاز في اكثر ما جاء له في هذه المجالات الثلاثة، تظهر الحقيقة التالية : ان مؤلفاته في موضوعي « العرب والعروبة » قد فاقت في كثرتها كل انجاز اخر ، ان عن سورية او لبنان ٠

ولعلنا لا نعدو الصواب ، اذا ما قررنا ان اقل انجازاته كان في حقل لبنان ، اما سورية الشقيقة ، حاضرا ، والام سابقا فكانت بين المجالين : اذ جاء حظها من تفكير مؤرخنا ، بعد حظ « العرب والعروبة » ولا لوم عليه ، في ذلك ، ولا تثريب ٠

على هذا الاساس ، لا نرى مندوحة من التجاوز عما وقع فيه الدكتور مسعود ضاهر ، من التقصير في حصر دراسته « فيليب حتي، المؤرخ العربي في الولايات المتحدة »، شؤون فلسطينية ٨٨/٨٧ في الجانب الاول من دراسته المشار اليها ٠

ولكن لما كان صاحب « الدراسة » لبنانيا ، وواحدا ممن يعنون كثيرا بشؤون « دولة لبنان الكبير » ، ذلك الركن الركين من الوطن العربي الاكبر ٠ فقد كان ينتظر منه الا يبخل ، ولو برأي عابر فيما خلقه « المؤرخ ٠٠٠ في الولايات المتحدة من ٠٠٠ ومن ٠٠٠ ومن ٠٠٠ بشأن لبنان » ، والمواطنين الانعزاليين من الموارنة ٠

وهذا ما جعل السيد غالب ابو مصلح ، ان يقوم ، مشكورا ، بتعويضنا عما قصر

فيه ، عن غير قصد طبعا ، الدكتور مسعود ضاهـــر « قراءة في نصوص فيليب حتي ، السفير ١٥ و ١٢ نيسان ٧٩ » ٠ وهذا بالذات ايضا ما اهاب بكاتب هـذه السطور لان يدعم ابو مصلح في عمله ، وان يوجه العتب الاخوي للصديق مسعود ضاهر ٠

لذلك عدت الى ما كنت قد نقدته من مؤلفات الدكتور حتي ، في جولة سابقة ، امتدت مـا بين ١٩٦٢ و ١٩٧٢ فـــأقول : ان مـــن يطالـــع « لبنان في التاريخ » يتفحص وتقص ، لا يلبث ان يشعر بشيء من خيبة الامل ، حينما يلمس بين سطوره روحا عامـة لـــم نتعودها من قبل وخاصة حينما نتبين اولا ، عدم تقديره فضل العرب بتخليص البلاد واهلها من ظلم كانوا فيه ايام الحكم البيزنطي ، وثانيا ، الحط من شأن الدور الحضاري الذي قاموا به ، هذا ، فضلا عن متناقضات ومغالطات ، زل بها قلمه ، فشوهت الكثير مما كنا نحب ان نحافظ عليه من الاعتراف للفضل له ، والتقدير لما اتصفت به مؤلفاتـه السابقة من تجرد ، وموضوعية ، وعلم صحيح ، وتحر للحقيقة وثيق ٠

ودونك الآن بعض ما جاء له من المغالطات في كتابـه ، « لبنان في التاريخ » ، مـــن ذلك ، مثلا خلطه بين « فينيقية » ، و « لبنان الكبير » بمدلوليهما الاصليين ، اذ ان الحقيقة المقررة لدى المؤرخين ، ان « فينيقية » كانت تشتمل السهل الساحلي ، الممتد على طـول الساحل الشرقي من البحر الابيض المتوسط، بدءا من اللاذقية شمالا، وانتهاء بحيفا جنوبا، واما « لبناننا » الحاضر ، بما فيه من « دولة حرة ذات سيادة » ، فيضم من فينيقية الجزء الاوسط دون جزئيها الاخرين ، مع جبل لبنان ، وسهل البقاع ، وجبل عامل ، وسهـــول عكار ، بينما كان « لبنان الصغير » منذ ١٨٦١ حتى ١٩١٥ ، ينعم بشيء من الاستقلال الاداري لا غير ، هذا من جهة ، ومن جهة اخرى فان « لبنان » اليوم بمحتـواه الوطـن والدولة ، « لم يظفره بالاستقلال ، قبل عام ١٩٤٣ ٠ ولم يستكمل اسباب السيادة، الا في العام التالي لتلك السنة» ، هذا ما قرره الكاتب الكبير والسياسي المعروف ، المرحوم اميل الخوري في مقدمته للجزء الاول من كتاب « حقائـــق لبنانية » لصاحبه الرئيس بشارة خليل الخوري الراحل ٠

ومن تلك المغالطات ما جاء له في صفحة ٢٩٨ ، حيث يقول : « يحيط بتاريخ لبنان ، في القرون الاربعة والنصف الاولى ، التي تلت الفتح العربي ، حجب كثيفة ، فاننا نجهل تاريخ الحقبة ، التي تقع بين الفتح العربي ، ومقدم الصليبيين ، جهلا ، يكاد يكـــون تاما » ! هـ ٠

قلت : وفي هـذا القول ، آية تنكره للعرب وتاريخهم ، اذ تناسى فيه ان العروبة قـــد تمثلت سورية بأجمعها بما فيها « جبل لبنان » ، حتى غدت تعرف بالديار الشاميـــة ، ودونك ما جاء للدكتور نبيه فارس بهذا الصدد عام ١٩٦٠ ، في مجلة « الابحاث » عـدد حزيران ٠ اذ يقول : « فمؤرخو دولة الاتابكة الزنكيين ، والدولة الايوبية فمورثتها دولة المماليك ، قلما تعرضوا لشؤون لبنان « الجبل » الداخلية ، لان اهميته كانت عسكريـة اكثر منها سياسية » اهـ ، وهذا بالطبع يصدق عليه في العهود السابقة لقيام تلكم الدول الثلاث ، المشار اليها ٠

ثـــم ان الدكتور حتي يعود ليقول مستدركا٠، غير اننـا نقدر ان جزءا مـن الجموع العربية المتدفقة الى الهلال الخصيب ، اثر الفتوحات ، قد تابع تقدمه الى سواحل لبنان، لا الى جباله (كذا)، (وهذا يثبت القصد من ملحمة المؤلف)، واحتلوا المساكن المهجورة، التي كان يقطنها البيزنطيون واعوانهم ، او مساكن الذين ارغموا (؟!) على الفرار اثناء

الفتح » اهـ ·

قلت : وهنا ايضا ، نلمس تجاهلا من المؤلف لحقائق تاريخيــة ثابتة الا وهي : ان يزيد بن ابي سفيان، تقدم من دمشق نحو الساحل ، وكان على مقدمته اخوه معاويــة ، الذي لاقى « فتحا يسيرا » ، كمـــا يقول المؤرخ العربي البلاذري ، ومما لا شك فيه ان البيزنطيين قد انسحب منهم من كان من العسكريين وفر من فر منهم من المدنيين· واما اهل البلاد الاصليون فقد بقوا في بيوتهم ، ولم يغادرها منهم احد ، كما احب الدكتور حتي ان يوهمنا · ونسوق هنا ، قول جاك جاري ، الوارد في الصفحة الثالثة مـن الملحق الادبي الاسبوعي لجريدة « الاوريان » البيروتية ، في عددها الصادر صباح يوم السبـت ٢٩ تشرين الاول سنة ١٩٦٠ ، وهو : « ان ما لحق بالسوريين ، من الاضطهاد الديني ، على ايدي الروم البيزنطيين ، قد جعلهم يؤثرون الفتح العربي على اسيادهم التقليدييـن اي الروم البيزنطيين » ·

هذا بشأن الساحل ، واما قوله : « الا ان لبنـــان (الجبل) لم يكن ليستهوي (؟) فرسان الحرب ، وموظفي الدولة والبدو الرحل ، او نصف الرحل ، القادمين من الجزيرة العربية ، فانهم ارفع قدرا (!!) من ان يتعاطوا اعمال الزراعة والفلاحة » اهـ · قلت : أفلا تعجب ،ايها القارىء الكريم ، من تلك العبارات ، والجمل ، التي تدل ، بوضوح ، على روح ، كان يحسن باستاذنا حتي ان يتحاشى مثلها وهو العالم الذي نكن له كـل حب واحترام ؟ ومع ذلك فهو يتابع ليقول : « ولم يكن ثلج لبنان بالشيء المستحب لديهم ، ناهيك عن ان الحرب في مسالك الجبل ووعره ، ليس بالامر ، الذي يميل اليه المحـــارب العربي ، الذي كان يألف السهل » اهـ ·

وهنا ، ايضا ، يزداد العجب من الدكتور حتي ومن اقدامه على مثل هذا التعليـل ، الذي لم يقل به مؤرخ واحد قبله ، بل اننا لنقرأ للبحاثة ، المعتبر لدى الكثيرين مـــــن الغربيين انفسهم ، عنيت به الاب هـ· لامنس اليسوعي، اذ يقول : « ان مشارف جبل لبنان، والجهات المعروفة بالجرد بقيت الى القرن السابع (وهو عهد الفتوحات العربية)، **قليلة السكان** (كذا) **كثيرة الغابات** » اهـ · (انظر ص : ٥٢ من ج (٢) من كتابه « تسريـــح الابصار فيما يحتوي لبنان من الآثار ») ·

اذن يتضح من هذا ان « فرسان الحرب من ابطال العرب » لم يجـــدوا فائدة مـــن اقتحامهم الجبل ، (اذ لم يكن فيه احد ، يقاوم ، وامـــــا موظفو الدولة فقد توغلوا في شعاب الجبل ، وتعرفوا الى غاباته ، واستفادوا منها في بناء العمارة البحرية العربية، ودليل ذلك بين فيما جاء للاب لامنس ايضـــا في ص ١٣٨ من ج (١) لتسريح الابصار ، وهو قوله : « لقد ذكر تاوفان ، المؤرخ اليوناني ان معاويـــة اول خلفاء بني امية ابتنى ١٧٠٠ سفينة شراعية ، واتخذ موادها من جبل لبنان ، ولم تمض سنوات قليلة ، بعد ذلك، حتى جهز ايضا اسطولا ثانيا اكبر عددا ، واشد هولا من الاول ، وقد حذا حذوه غير واحد من الخلفاء في مسألة الانشاءات البحرية ، وكانوا يجعلون اخص دور للصناعـــة في مدينة طرابلس ، نظرا لقربها من غابات الارز » اهـ ·

ومن عسانا نأخذ بكلامه : الدكتور حتي المؤرخ اللبناني ام تاوفان ، المؤرخ اليوناني ؟

ومع ذلك فلم يتورع « مؤرخنا اللبناني الاصل » عن المضي قائلا : (ص ٢١٨) : « لم

يكن خلفاء الرسول في المدينة ، ليدركوا عن بعد ، **اهمية الجبل الاستراتيجية** ، فتركوه لشأنه (؟!) ولكن معاوية القريب من الجبل ادرك هذا ، فكان اول خليفة ، حاول ان يخضع سكان الجبل النصارى (!!؟) ولكن لم يفلح » اهـ ٠

والمستغرب جدا في هذا القول ، ان صاحبه اراد ان يوهم مطالعي « لبنان في التاريخ » ان الجبل كان يعج بالسكان ، والحقيقة التي لا يراء فيها ، ان « سكان الجبل النصارى » المزعومين ، لم يكونوا سوى « فرقة من الجند » ٠ وهم المردائيون ، والذين لم يخجل بعض الموتورين من ان يسميهم « المردة » ايغالا في الكذب والتضليل ، لكن تعريفهم « بالفرقة من الجنود » جاء دليلا ، على انهم لم يكونوا شعبا ، بل كانوا منظمة ، ليس الا ، « وقد ذكرهم مؤرخو اليونان ، لاول مرة سنة ٦٧٧ م٠ اي في عهد معاوية الاول ، ثم مالبث ملوك الروم ، الذين كان المردائيون يخضعون لهم ، ان امروهم بالانسحاب من جبل لبنان ،بعدظهورهم فيه ، ببضع سنين ، فاندثر امرهم على الفور ، كما ظهروا بغتة دون ان يخلصوا في لبنان (الجبل) اثرا لمرورهم فيه » اهـ ٠ انظر ص ٤١ ، ٤٢ من تسريح الابصار ج (١) ٠

« وتحت عنوان : يوحنا مارون ، يقول الدكتور حتي « اذا كان مارون (اعتبر) قديس الطائفة المارونية ، فان يوحنا مارون المتوفي حوالي ٧٠٧ م٠ كان بطل **القومية المارونية** (كذا) **وباني موطنها** (ايضا) ، على جانب وادي قاديشا ، وفي ظلال الارز » اهـ ٠

وهل بعد هذا من سبيل الى الشك فيما رمى اليه الدكتور حتي من تأليف « لبنان في التاريخ » ؟ وهو لم يقف عند هذا الحد بل اننا نقرأ في نفس الفقرة ما يلي : « وقد استطاع يوحنا مارون ، بقيادته الحكيمة ـ طبعا ـ ان يجعل من الموارنة شعبا ذا سيادة ـ كذا ـ فقد استطاع ، بدهائه ، ان يرد خليفة المسلمين باليد الواحدة ـ كذا ـ وامبراطور الروم باليد الاخرى » اهـ ٠

واذا ما بحثنا عن الخلفية، المشار اليه ، وجدناه اقوى الخلفاء الامويين على الاطلاق، وهو الوليد بن عبد الملك ، واما امبراطور الروم فهو : يوستيناتوس الثاني ، اعظم اباطرة الروم ٠

والآن فلنتحر صحة هذه الاخبار عن « البطل يوحنا مارون » لدى اهل البحث والاختصاص ، فلنستمع الى الدكتور اسد رستم ، اذ يقول: « واثبت ما يستنتج من تقاليد (كذا) الموارنة ، ان رهبان دير مار مارون نادوا بيوحنا مارون بطريركا على انطاكية وانه هو اول بطاركتهم » اهـ ، ويمضي قائلا : « ومما جاء في التقليد (كذا ايضا) ،انه (يوحنا مارون) رقد في جبل لبنان ، وتولى ، بعده ، بطاركة للموارنة » اهـ (انظر ص ٥٦٠ من ج٠ (٢) لكتابه : « تاريخ كنيسة مدينة الله انطاكية العظمى »)، ويحسن بنا ان نلاحظ ان المؤرخ المدقق ، الدكتور رستم ، قد اكد لنا ان هذه الاخبار عن يوحنا مارون ، انما تستند الى « التقليد » ، لا الى التاريخ الاكيد ٠٠٠

واما الدكتور كمال سليمان الصليبي ، وهو اول من تخصص ، مؤخرا ، في درس تاريخ الموارنة فيقول في ص : ٩٥ من كتابه : « المؤرخون الموارنة للبنان في القرون الوسطى » M. H. of Medial Volde Banon, 1959 ٠ فيقول لدى كلامه عن البطريرك اسطفان الدويهي صاحب كتاب : « تاريخ الطائفة المارونية : « ان يوحنا مارون،

المولود في مدينة سروم ، القريبة من انطاكية ، والذي هو مؤسس الكنيسة المارونية نصف اسطوري » ·

وزيادة في تعريفنا القاريء بيوحنا مارون السرومي نقول : جاء للمؤرخ الشيخ طنوس الشدياق في « كتاب اخبار الاعيان ، في جبل لبنان » ، الذي نظر فيه ووضع مقدمتــه وفهارسه « الدكتور » فؤاد افرام البستاني ، (١٩٧٠ بيروت) فقد جاء فيه ، قوله في ص ٢٣ ، ج (١) ما يلي :

« قيل ـ كذا ـ انه سنة ٦٠٠ قدم احد اعيان ملك فرنسا الى سورية الثانية ، وتملكها فسمي كرلومانيا ، فاقام في مدينة انطاكية ابن اخته اليديبوس المسمى عند العرب عبدون (؟) فولد لعبدون هذا ولد سماه اغاثون · وولد لاغاثون ولد ، وهو في قرية سروم من من اعمال السويدية ، فسماه يوحنا ، فلما شب يوحنا ترهب في دير مارون عند العاصي، ثم انتخبه جمهور الافرنج ـ كذا ـ الذين في انطاكية مطرانا على البترون وجبل لبنان ـ كذا ـ ليحفظ اهله من البدع ، ولما قوي الاسلام ـ كذا في تلك الديار ، رحل الى جبل لبنان ، ثم اقامه البابا سرجيوس بطريركا على جبل لبنان » اهـ ·

فما رأيك ، ايها القاريء الكريم، بهذه الاخبار المتناقضة عن « يوحنا مارون، الافرنجي الاصل ؟!

والاغرب من كل ما بيناه ، اننا ما زلنا نجهل الى اي المـــارديniين تنتسب الطائفة ، ألقديس مارون الكورسي ، الذي عاش في القرن الرابع ، ام لمؤسسها النصف الخرافي ، يوحنا مارون الافرنجي الاصل ، الذي عاش في القرن السابع ؟

وياليت استاذنا « المؤرخ اللبناني في الولايات المتحدة » قد اكتفى بهذا القدر مـــن تحديه للتاريخ ، لكنه لم يفعل ، بل راح يزيدنا من ذلك في ص : ٣٢٧ لدى كلامه عمـــا اسماه : « بالثورة في لبنان » ، اذ يقول : « ··· شبت اولى الثورات (؟!) في لبنان عام ٧٥٩ ـ ٧٦٠ في بلدة صغيرة في اعالي لبنان ، المنيطرة ، القريبة من افقا : لقد ثار نصارى هذه القرية ، ضد تعسف عامل العباسيين، وجوره في فرض الضرائب عليهم ، واستولوا على عدة قرى في البقاع ، وتقدموا نحو بعلبك ، التـــي كانت مقرا لعامــل العباسيين وكان زعيم هذه الثورة شابا عملاقا ، شديدا ، يلقب نفسه بالملك ، وقد نصـب له جنود العباسيين كمينا ،وهو في طريقه الى بعلبك ، فانقضت عليهم فرقـة الفرسان ، وفرقوا شملهم ··· الخ » اهـ ·

والآن فلنقرأ له ما جاء بشأن هذه « الثورة » المزعومة نفسها في ص ١٦٥ من ج (٢) بكتابه « تاريخ سورية ، ولبنان وفلسطين » حيث يقول : « ··· فقد لجأت جماعة مـــن نصارى الجبل الى السلاح ، تفاديا لمصادرات جديدة ، تنزل بهم وانتهزوا وجود الاسطول البيزنطي في مياه طرابلس ، وانقضوا من قاعدتهم (المنيطـــرة ـ في اعالـــي لبنان ـ وانتهبوا عددا من قرى البقاع ، وكان يتزعمهم فتى قروي عظيم البنية ، بلغ من جرأتـه وتهوره · ان اقام نفسه ملكا ، لكن العصابة (كذا) اللبنانية قيدت ، بعد حين ، الـــى كمين قرب بعلبك ، نصبته لهم فرقة فرسان عباسية وفتكت بهم » اهـ ·

ارأيت ، يا عزيزي القاريء ، الفرق الظاهر بين اسلوب النصين بشأن « العصابـــــة اللبنانية » ، التي « انتهز » افرادها وجود الاسطول البيزنطي في مياه طرابلس ، فقاموا « بالفتنة » التي جاء ذكرها في « تاريخ سورية ولبنان وفلسطين » الصادر عام ١٩٥١ ،

ثم كيف اصبحت « ثورة من ثورات النصارى في جبل لبنان » حتى قص المـؤلف نفسه خبرها في كتابه « لبنان في التاريخ » ، الصادر عام ١٩٥٩ ، اما قوله « انتهزوا وجود الاسطول البيزنطي الخ » ·· فيجب ان تقرأ بالاحرى : وقد انقادوا الى تحريض الاسطول الرابض في مياه طرابلس ، فكانوا عملاء مغرورين فنالوا جزاءهم الاوفى ···

ولننتقل الآن الى ما جاء له في كتابيه (١) « صانعوا التاريخ العربي » و (٢) « الاسلام منهج حياة » حيث جاء في هذا الاخير عن ابن سينا ما يلي : « وبرر ابن سينا **ادمانه** للخمر (!؟) فهو يقول : « ان الشرع حرم الخمر على القاصرين ، ولكن القانون العقلي حللها للاذكياء ، المفكرين » اهـ (ص ٢٢٥) ، علما انه لم يشر الى مستنده في هـذا الكلام ، ويمضي في سرده فيقول : « ويخبرنا ابن سينا **انه بدأ يشرب الخمر في شبابه** ، حتى يستطيع ان يظل ساهرا في الليالي للدرس والتأليف » اهـ · فلنعد الآن للدكتور حتي نفسه في كتابه الآخر « صانعو التاريخ العربي » الصادر عام ١٩٦٨ اي في عـام واحد قبل صدور « الاسلام نهج حياة » · ولنقرأ مـاذا يقول بابن سينا ودونـك هو ، « فـي سيرة حياته (ابن سينا) التي املاها على تلميذه الوفي ، وصديقه ، الذي عايشه طوال حياته ، ابي عبيدة الجوزاني ، ترك لنا ابن سينا صورة ممتعـة ، مفصلة عن طريقـة تحصيله ، وهذا الوصف تجده في الكتب الثلاثة ، التي تعنى بالسير : « القفطي ، وابـن خلكان ، وابن ابي اصيبعة » اهـ · وهنا يقدم لنا النص التالي نقلا عن كتاب ابن ابـي اصيبعة : « وكلما كنت اتحير فـي مسألة ، ولم اكن اظفـر بالحد الاوسط في قياس ، **ترددت الى الجامع وصليت وابتهلت الى مبدع الكل** ، حتى فتح لي المغلق، وتيسر المتعسر، وكنت ارجع ، بالليل ، الى داري ، واضع السراج بين يدي واشتغل بالقراءة والكتابة ، فمهما غلبني النوم او شعرت بضعف ، عدلت الى **شرب قدح من الشراب** ، ريثما تعود الي قوتي ، ثم ارجع الى القراءة ، ومهما اخذني ادنى نوم احلم بتلك المسائل بأعيانها ، حتى ان كثيرا من المسائل ، اتضح لي وجوهها في المنام ، وكذلك حتى استحكم معي جميع العلوم ، ووقفت عليها بحسب الامكان الانساني ، وكل ما علمته ، في ذلك الوقت ، فهـو كما علمته الآن » اهـ (انظر ص : ٢٨١) ·

والآن يظفر السؤال التالي : على م اعتمد مؤرخ « الاسلام ، منهج حياة » ، حين قدم بين يدي هذه الوثيقة، تفسيرا لكلمتي « قدح من الشراب » لا يتفق مع الحقيقة في شيء ، نعم كيف سوغ لنفسه ان يفسر « قدح من الشراب » بكأس من الخمر ؟

فلنر نحن ما تعني كلمة « قدح » اولا ثم كلمة « شراب » ثانيا وبعد ذلك نترك الحكـم للقارىء : فأقول : « والكأس : الاناء ، **اذا كان فيه خمر** ، والكأس **هي الزجاجة ما دام فيها خمرة ، واذا لم يكن فيها خمر فهي قدح** » « لسان العرب » واما كلمة « الشراب » فتعني : ما يشرب (بالضمة على الياء) من اي نوع كان، وعلى اي حال كان، اما «الخمر» فهي العنب دون سائر الاشياء (انظر لسان العرب في مادة : الخمر) ··

ثم جاء للمؤلف في كتابه : « موجز تاريخ الشرق الادنـى » ، الصـادر سنة ١٩٦٥ بالانكليزية قوله في « الترجمة » ، والصادرة عن « مكتبة دار الثقافة » بدون ذكر لعـام صدوره ، يقول في ص ١٩٦ : لقد ترك علماء الطب والكيميـاء العرب ، في اللغـات الاجنبية بعض الالفاظ ، مثل ··· Syrup اي «شراب» ·

والآن اذا ما استطلعنا بعض القواميس الاجنبية عن معنى كلمة Syrup تقف على ما يلي : « شراب عصير فاكهة » (انظر كلمة Syrup في المورد ، قاموس انكليزي

عربي ، تأليف منير البعلبكي) ، واذا ما راجعنا بشأن « Syrup » (قاموس المدارس الثانوية لوابستر ، الاميركي) ، قرأنا ما يلي : ان كلمتي Syrop and Sirup مأخوذتان من الفرنسية « Sirop » المأخوذة عن العربية · « شراب » ، (وهو (الشراب) سائل لزج مصنوع من عصير الفاكهة ومغلي مع السكر) ·

ولعلنا في غنى عن الرجوع الى القواميس ، اذا تذكرنا اننا نقول اليوم : « اعطنـي « قدح » شراب التوت ، او شراب تمر الهند ، او شراب الورد الخ » ·· ويحسن بنا هنا ان نتذكر جيدا ان تهمتي « المؤرخ العربي في الولايات المتحدة » ، لابن سينا « بادمانـه الخمر » « او شربها » لم تأتيا الا في كتابه: « الاسلام منهج حياة »، نعم فهو لم يذكر اية « منهما في كتابه » « صانعو التاريخ العربي » ، مع انه افرد فيه فصلا من صفحة ٢٧٧ الى صفحة ٣٠٠ خاصا بـ : « ابن سينا ، شيخ الاطباء والفلاسفة »·

والخلاصة : ان الدكتور فيليب خطار حتي ، البحاثة المتعمــــق في تاريخ « العرب ، وسورية ، ولبنان ، والشرق الادنى في الاسلام » قد دلل في بعض ما انجزه في هـــذه الحقول على أنه قد شذ حينا، وانحرف احيأنا عن جادة الصواب، مبحرا الى هذا، وذاك، بشعور طائفي ، انعزالي ،وامبريالي ، الامر الذي يجدر بمطالعي كتبه العديـــدة ، ان يكونوا على حذر من بعض ما يقرأونه ، حتى لا ينخدعوا كبعضنا ···

زكي النقاش

تقارير

النشاط الإسرائيلي في أمريكا اللاتينية في مجال بيع الأسلحة

سعت اسرائيل منذ قيامها الى توطيد علاقاتها الاقتصادية مع افريقيا ودول امريكا اللاتينية ، في سبيل الحصول على سوق واسعة لمنتجاتها ، وعلى المواد الاولية اللازمة لصناعتها من جهة ، ولتفرض وجودها كدولة من دول المنطقة — عن طريق افريقيا — من جهة اخرى ·

ولكن الموقف الافريقي ، وخصوصا منذ عام ١٩٧٣ ، وقطع معظم دول القارة لعلاقاتها مع اسرائيل ، ثم تزايد الرفض الافريقي لسياسة التحالف بين اسرائيل والانظمة العنصرية في جنوب افريقيا وروديسيا ، اصاب النشاط الاسرائيلي هناك بضربة قاتلة ، قلصته الى حد الالغاء ·

ومنذ ذلك الوقت ، بدأت اسرائيل تكثف جهودها في القارة الامريكية الجنوبية ، لتكون متنفسا اقتصاديا وسياسيا لها ولفك طوق العزلة الدولية التي تحيط بها ·

الا أن هذا لا يعني ان النشاط الاسرائيلي في امريكا اللاتينية قد بدأ متأخرا ، بل الصحيح ان هذا النشاط كان موجودا وقائما منذ البداية ، وسط غياب عربي شبه كامل · فقد شكلت اول جمعية صهيونية في امريكا اللاتينية عام ١٨٩٧ في الارجنتين ، وفي عام ١٩٣٧ اسس فرع للوكالة اليهودية في القارة ، كما عقد في عام ١٩٤٦ في مدينة « مونتيفيديو » أول مؤتمر صهيوني هناك ·

الا ان النشاط الاسرائيلي سجل تصاعدا خطيرا في دول القارة اللاتينية خلال السنوات الاخيرة ، نتيجة لما ذكرناه ، ولوجود عوامل اخرى مؤاتية · فكما هو معروف ، ترتبط الصهيونية ارتباطا وثيقا بعدد من الاحتكارات الامريكية العاملة في أمريكا اللاتينية ، ويشغل ممثلو هذه الاحتكارات مراكز قيادية في المنظمات الصهيونية في الولايات المتحدة ويتمتعون بتأثير فعال في مجال التجارة مع امريكا اللاتينية وفي مجال الاعلام الجماهيري الذي يمول الصهاينة العديد من اجهزته ·

وهكـــذا فقد اعتمد النشاط الصهيوني في امريكا اللاتينية اولا على الهيمنة الكاملة ، السياسية والاقتصادية للامبريالية الامريكية على معظم دول القارة· ومن ناحية اخرى فقد استفاد من وجود جاليات يهودية كبيرة ، متفاوتة حجما ، في كل بلدان القارة تقريبـا · وتتمتع بنفوذ سياسي واقتصادي كبير · ولعل اكبر هذه الجاليات هي الجالية اليهودية في الارجنتين وتليها البرازيل والمكسيك · ونذكر هنا بالمشروعات الصهيونية والاستعمارية التي فكرت ، في وقت ما ، في اقامة الوطن القومي لليهود في الارجنتين وما تبع ذلك من تدفق الهجرة اليهودية على هذا البلد الكبير والغني بامكانياته وبموارده الطبيعية الهائلة ·

وقد شكلت هذه الجاليات منذ البداية مجالا خصبا للنشاط الصهيوني ، كما تميزت بدقة تنظيمهـــا الذي مكنها من ان تقدم لاسرائيل مساعدات هامة سواء عـــن طريق جمـــع الاموال والتبرعات او عن طريق الهجرة وارسال المتطوعين · هذا طبعا بالاضافة الـــى الدعم السياسي الهام من دول القارة للكيان الصهيوني نتيجة لوضع هذه الجاليات المتميز ماليا واجتماعيا ، وسيطرتها على المقدرات الاقتصادية للعديد من تلك الدول · ونذكر على سبيل المثال ، انه في التصويت الذي جرى في الدورة السابعة والعشرين للجمعية العامة للأمم المتحدة على مشروع القرار الخاص بالاراضي العربية المحتلة ، صوتت ضده سبـــع دول كان من بينها ست من امريكا اللاتينية هي بوليفيا، كولومبيا، كوستاريكا، نيكاراغوا، الدومينكان والاوروغواي · كذلك فان اي مسح لخارطة التصويت في الامم المتحدة ، وفي المحافل الدولية الاخرى سيظهر ان اسرائيل تمتعت دائما بتأييد كبير من دول القارة التي يبلغ عددها خمسا وعشرين دولة ·

وفي الوقت الراهن ، لا يكاد يخلو اي بلد في امريكا اللاتينية من العديد من المنظمـــات الصهيونية ، والتي تشكل فروعا للمنظمات الاسرائيلية ، فمثلا هناك فروع لمنظمة النساء الصهيونية العالمية في ٢٢ بلدا ، وللمؤتمر اليهودي العالمي في اكثر من ١٩ بلدا ، ومنظمة « بناي بريت » تعمل في ٢٠ بلدا الخ · وفي الارجنتين ، التي تعد مركزا رئيسيا للنشاط الصهيوني ــ ومصدرا محتملا للهجرة الواسعة ــ هناك اكثر من ١٥ منظمة صهيونيـــــة وفروع للاحزاب الصهيونية المختلفة ، يقوم بالتنسيق بينها ما يدعى « باتحاد جمعيات بني اسرائيل الارجنتينيين ــ دايا ــ » والذي يضم اكثر من مائتي قسم، وتزيد موازنته السنوية ــ والمعفاة من الضرائب ــ على ٥ر٢ مليون دولار ·

وبالاضافة الى ذلك تصدر في امريكا اللاتينية اكثر من ١٣٠ صحيفة ومجلة صهيونية باللغات العبرية والاسبانية والانجليزية وغيرها ·

وعلى صعيد العلاقات السياسية ، فللكيان الصهيوني سفارات في معظم دول القارة ، كما زارها معظم القادة الصهاينة كبن ــ غوريون وغولده مئير ، وشازار ومناحيم بيغـــن ويغئال الون ·

وربما كان من الضروري هنا الاشارة الى الجاليات العربية الواسعة ايضا والمنتشرة في كل بلدان القارة تقريبا والتي هي جاليات لبنانية وفلسطينية وسورية · وبالطبع ، ليس هنا مجال دراسة واقع هذه الجاليات لان ذلك يحتاج الى دراسة خاصة كانت وما تـــزال ضرورية وملحة · ولكننا نستطيع ان نقول ان هذه الجاليات تشكلت في معظمها ــ فـــي نهاية القرن الماضي وبداية القرن الحالي ــ من سكان الارياف الذين نزحوا هربا من الظلم التركي او بسبب الضائقة الاقتصادية والخلافات الطائفية التي كانت تثيرها القـــوى الاستعمارية لتثبيت سيطرتهـا على الوطن العربي ·

ومن ناحية اخرى ، فان هذه الجاليات ، التي حملت معها الى اوطانها الجديدة ، كل رواسب التخلف والجهل ، ذات وضع اقتصادي متوسط او دون المتوسط ، حيث تتكون غالبيتهم من صغار التجار ، كما انها كانت تفتقر الى حد ادنى من التنظيم والرؤية السياسية الواضحة ، مما جعلها عاجزة عن ممارسة اي تأثير على سياسة البلدان التي استوطنتها · وطبعا لا يغير من هذا الوضع بعض الظواهر المعزولة والمتفرقة كوجود بعض النواب او الحكام والوزراء ، من اصل عربي في هذا البلد أو ذاك ·

وقد ساعد على هذا واقع الامة العربية في النصف الاول من هذا القرن ، حيث كان معظمها يخضع للسيطرة الاستعمارية ، وكذلك البعد الجغرافي لامريكا اللاتينية وضعف وسائل الاتصال في ذلك الوقت ، مما جعل ارتباط المغتربين العرب بوطنهم الام ضعيفا وعاطفيا ، كما حفزهم ــ على عكس اليهود ــ الى الاندماج في مجتمعاتهم الجديدة حيث حملوا اسماء جديدة وتزاوجوا واستقروا هناك ·

وفيما بعد ، اثر حصول الدول العربية على استقلالها ، ونتيجة للصراع العربي الصهيوني ولمعركة العرب التحررية ضد السيطرة الاستعمارية ، فقد بدأ المغتربون العرب يبدون اهتماما اكبر بقضايا وطنهم الاصلي · ولعل أهم الاسباب التي رفعت درجة الوعي لديهم كان تفجر الثورة الفلسطينية وتصاعد عملياتها ونشاطها منذ عام ١٩٦٥ وحتى الان· وقد ساعد على ذلك ايضا تطور وسائل السفر والاتصال ·

ورغم كل ذلك فقد بقي الموقف العربي ضعيفا في القارة ، نتيجة لضعف العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية بين البلاد العربية ودول امريكا اللاتينية ، ولغياب اي مخطط جاد لتنظيم المغتربين العرب والاستفادة منهم ، ما عدا بعض المحاولات السطحية والموسمية والتي لم تسفر عن اي شيء جدي · وعلى الصعيد الرسمي لم تبذل الدول العربية اي جهد يذكر لكسب هذه الكتلة البشرية الكبيرة ــ حوالي ٣٢٠ مليونا ــ ولا زال التمثيل الدبلوماسي ضئيلا او معدوما حيث ، على سبيل المثال ، لا يوجد في بلد مثل المكسيك ، يضم اكثر من (٧٠) مليونا من البشر سوى ثلاث سفارات عربية ومكتب لمنظمة التحرير الفلسطينية ، في حين تكتظ اي دولة اوروبية ، قليلة الاهمية نسبيا بمثل هذه السفارات ·

ومن المؤكد ، دون الخوض في التفاصيل ، ان هناك تطورا ايجابيا برز في الفترة الاخيرة في العديد من دول القارة لصالح القضية العربية · كما ان العلاقات التي تبنيها الثورة الفلسطينية مع الاحزاب والحركات التقدمية والثورية هناك اصبحت عنصرا لا يمكن اغفاله ، ولعل العامل الحاسم في تغير الوضع في امريكا اللاتينية سيكون مرهونا بسقوط الدكتاتوريات الفاشية والعميلة للامبريالية الامريكية والتي تجثم على صدور شعوبها · ولكن ذلك لا يعفينا من ضرورة وضع مخطط عربي جاد لتنمية العلاقات الاقتصادية والسياسية والثقافية مع دول امريكا اللاتينية ، وتنظيم الجاليات العربية ومحاربة النفوذ الصهيوني المتغلغل فيها ·

وقد كان من ألطبيعي ، كما اسلفنا ،ان تجد اسرائيل مرتعا خصبا لنشاطها في امريكا اللاتينية · وما يهمنا التركيز عليه الآن ، هو ان اسرائيل بدأت تلعب دورا نشطا في مجال بيع السلاح لدول القارة ، مستغلة حاجة الدكتاتوريات الفاشية فيها لمقاومة الحركات الثورية المسلحة التي تندلع على ارضها ، ولاحكام سيطرتها على شعوبها ، وكذلك لمواجهة الحروب والنزاعات المحلية التي تندلع بين الحين والاخر ·

وقد تميز الوضع في أمريكا اللاتينية حتى الان بعدم وجود دولة كبيرة وقوية في المنطقة، تكون الاداة القمعية الرئيسية ، في يد الامبريالية الامريكية ، من حيث قدرتها على التدخل لحماية الانظمة الدكتاتورية العميلة ولحماية المصالح الامريكية ، مما جعل العبء يقع على الولايات المتحدة نفسها ، وعلى مخابراتها مباشرة للقيام بهذا الدور كما حدث في غواتيمالا ، والدومنيكان ، وكوبا وتشيلي ٠٠ الخ ٠

ونقول عدم وجود دولة كبيرة وقادرة ، نظرا لان الدول الكبيرة هناك ، والمرشحة لمثل الدور الذي كان يقوم به شاه ايران مثل البرازيل والارجنتين كان لديها دائما وحتى الان من المشاكل الداخلية ما يمنعها من القيام بذلك ٠

وفي الفترة الاخيرة ، تحاول الولايات المتحدة ان تحسن صورتها أمام الرأي العام في أمريكا اللاتينية وذلك عن طريق تمويه حقيقة موقفها من الانظمة الفاشية والدكتاتورية في تشيلي ونيكاراغوا ، ومن خلال توقيعها لاتفاقية القناة مع حكومة بنما ٠ لذلك فقد نظرت الى دور اسرائيل الجديد في أمريكا اللاتينية، كمورد رئيسي للاسلحة لها ، بكل العطف والرضا ، لانها تتصور ان ذلك سيرفع عنها تهمة المشاركة المباشرة في قمع حقوق الانسان التي تزعم انها تدافع عنها ٠

أما بالنسبة لاسرائيل فعدا عن الفوائد الاقتصادية والسياسية التي تجنيها من لعب مثل هذا الدور ، فانها تنسجم مع نفسها في دعم الانظمة الفاشية والدكتاتورية في القارة اللاتينية لان طبيعة الكيان الصهيوني لا تختلف عن طبيعتها ٠ ولعل من الضروري ان نتذكر ان اسرائيل كانت الدولة الثانية (بعد امريكا) التي اعترفت بنظام بنوشيت العميل في تشيلي ٠ وفي الحفل الذي اقيم مؤخرا لتقليد السفير الصهيوني وساما بمناسبة انتهاء فترة عمله ، اشار وزير خارجية تشيلي الى ان « العلاقات التشيلية ـ الاسرائيلية مليئة بالمثل العليا والخبرات المشتركة » !!

ومن ناحية اخرى ، فقد استفادت اسرائيل من عاملين اخرين : اولهما هو ما تدعيه عن وجود خبرة لديها في مقاومة الثورات المسلحة ـ وقد جربت ذلك في فيتنام ! ـ ، وهو ما تحتاجه بالضبط العديد من الدكتاتوريات الدموية في امريكا اللاتينية ، وثانيهما صغر حجم اكثرها ـ ونشير بشكل خاص الى دول امريكا الوسطى ـ وضآلة احتياجاتها من الاسلحة نسبيا ، مما يجعل اسرائيل قادرة على تلبية كافة متطلباتها ٠

والمعلومات التي يتضمنها هذا التقرير ، عن مبيعات السلاح الاسرائيلي لدول امريكا اللاتينية رغم انها ليست كاملة تماما ، نظرا للسرية التي يحاط بها الموضوع ، الا أنها تدل دلالة واضحة على خطورة الامر وعلى ضرورة فضحه والتصدي له ، لانه يمثل حلقة جديدة في المؤامرة الامبريالية ضد الشعب الفلسطيني والشعوب العربية وشعوب امريكا اللاتينية ، وفيما يلي ما توفر لدينا من معلومات حول هذا الموضوع :

١ ـ الارجنتين

نشرت جريدة « البلاد » الصادرة في مدينة « مونتيفيديو » عاصمة الارغواي ، والصادرة بتاريخ ١٩٧٧/٣/١٣ تقريرا لمؤسسة رسمية سويدية ، هي « المؤسسة الدولية للابحاث من اجل السلام » جاء فيه ان البحرية الارجنتينية قد ابتاعت عددا غير محدد من

الصواريخ الاسرائيلية بحر ـ بحر قيمة كل صاروخ منهـــا (٩٠) تسعون الف دولار ، لتركيبها على زوارق سريعة ٠

٢ ـ بوليفيا

نشرت صحيفة « التجارة » الصادرة في البيرو في ٧٧/٣/١٠ خبـــرا قالت فيـه ان بوليفيا اشترت عددا من الطائرات الاسرائيلية الصنع ، ماركة (عارافا ٢٠١) تستعمل بشكل خاص لنقل الجنود ٠ وذكرت صحيفة « البلاد » السابق ذكرها ان عدد هذه الطائرات هو (٦) ستة وان بوليفيا حصلت عليها في عام ١٩٧٦ ٠

٣ ـ شيلي

ذكرت مجلة « نيوز ويك » ان التشيلي اشترت في اكتوبر ١٩٧٦ م صواريخ اسرائيلية جو ـ جو ماركة (شافيرا) ٠ وهناك معلومات تشير الى ان التشيلي التي تربطها الان علاقات ممتازة باسرائيل قد ابتاعت اسلحة اسرائيلية متعددة الا انها حافظت على سريـة هذه العمليـــات ٠

٤ ـ غواتيمالا

اشترت غواتيمالا من اسرائيل اسلحة تقدر قيمتها بـ (١٨) مليون دولار كما اصبحـت اسرائيل حاليا المورد الرئيسي للاسلحة لهذا البلد خصوصا بعد ان اوقفت امريكا مبيعاتها لهم بسبب خلافها مع انجلترا حول مستعمرة (Belice)التي تطالب بها غواتيمالا٠ وقد جاء في تصريح لرئيس الدولة في ٢٢ (مارس) الماضي ان حكومته لن تشتري اسلحـــة من امريكا وانها تخلت عن المساعدات العسكرية الامريكية بسبب انتقاد الولايات المتحدة للنظام هناك لخرقه حقوق الانسان ، واكد ان غواتيمالا تعتمد الان على نفسها لشـــراء مستلزماتها من السلاح من خارج الولايات المتحدة ٠ وتشير المعلومات الى ان غواتيمالا قد حصلت فيما بعد على اسلحة اسرائيلية تتكون من المدافع والرشاشات الخفيفة والطائرات وغيرهـــا ٠

٥ ـ نيكاراغوا

باعت اسرائيل لهذا البلد في عام ١٩٧٣ (١٤) طـائرة من طراز (عارافا ٢٠١) وقد نشرت هذا الخبر وكالة الاسوشيتدبرس مـــن نيويورك كمـــا اكدته جريدة صادرة في اورغواي في ١٩٧٧/٣/١٣ وتدل المعلومات على ان مبيعات السلاح الاسرائيلي لهذا البلد قد استمرت فيما بعد ، وخصوصا منذ اندلاع الثورة الشعبية المسلحة ضد الدكتاتـــور سومـــوزا ٠

٦ ـ هنـدوراس

باعت اسرائيل لهذا البلد مؤخرا ست طائرات مقاتلة (سوبر مستير) مع اسلحة اخرى بلغت قيمتها حوالي ستين مليون دولار ٠ وهناك محادثات تجري حاليا لبيعها عددا مماثـلا

من هذه الطائرات · ومن المعروف ان هذه الطائـــرة هي فرنسية الاصل ولكن اسرائيل زودتها بمدافع امريكية ·

٧ ـ المكسيك

اصبح معروفا الان ان اسرائيل قد اقامت في المكسيك مصنعا لطائراتها من طـــــراز « عرافا » وانها اشترت ، اي المكسيك ، عددا من هذه الطائرات لتزويد جيشها بها ·
وقـــد اكد الرئيس المكسيكي الجديد هذا الامر لعدد من الصحفيين الاسرائيليين الذين زاروه مؤخرا · كما اكده رئيس العلاقات الخارجية لصناعة الطائرات الاسرائيلية حيـث قال « ان عملية اقامة صناعة الطائرات في المكسيك تسير سيرا حسنا وستتحول منطقـــة « يوكاتان » الى مركز اقليمي لاصلاح · الطائرات التجارية والعسكرية · واكد انه سيكون هنا في مدينة المكسيك نفسها مصنع لطائرات (عرافا) » ·

وقد اقامت اسرائيل في شهر ابريل الماضي معرضا في المكسيك لصناعاتها العسكرية عرضت فيه زوارق من طراز (دابور) وصواريخ بحر ـ بحر من طراز (جبريل) ·

٨ ـ السلفادور

تشير تقارير المعهد السويدي السابق ذكره الى ان السلفادور كانت المشتري الرئيســي للاسلحة الاسرائيلية · فقد حصلت في عام ١٩٧٣ على ٤٦ طائرة · وما بين ٧٢ ـ ٧٦ فقد باعت اسرائيل الى السلفادور عددا غير معروف من الصواريخ البحرية والجوية وكذلك (٢٠٠) مدفع طويل المدى ومدافع مورتر قاذفة وناقلات جنود ·

وتشير المعلومات الى ان الطائرات الاسرائيلية التي اشترتها السلفادور هي (١٨) ـ طائرة قديمة ولكنها حسنت في اسرائيل ، وست طائرات تدريب من طراز « مستير » ، وعشرين طائرة من طراز (عرافا ٢٠١) · وقد اكدت صحيفة (الحرية) التي تصدر في « كوستاريكا » ان مبيعات اسرائيل للسلفادور قد بلغت اكثر من (٦٠) مليون دولار ·

٩ ـ الاكوادور

تشير المعلومات الى ان الاكوادور واسرائيل قد بدأتا محادثاتهما لتمتين العلاقات بينهما منذ عام ١٩٧٤ · وقد قام وفد من رجال البوليس في الاكوادور بزيارة الى اسرائيـــل في ١٩٧٤/٧/٢٢ م · وفي شهر فبراير من العام ١٩٧٧ عقدت الحكومة الاكوادورية اتفاقا مع اسرائيل لشراء اربع وعشرين طائرة من طراز « كفير » ولكن اعتراض امريكـا على الصفقة اوقفها مؤقتا ·

١٠ ـ الدومينيكان

ليس هناك معلومات مؤكدة عن قيام هذا البلد بشراء اسلحة اسرائيلية الا ان النشاط الاقتصادي الاسرائيلي هناك مهم جدا ، كما ان هناك ظواهر تدل على وجود علاقة لبيـــع الاسلحة · ففي ١٥ (ديسمبر) ١٩٧٦ اقامت اسرائيل عرضا لطائراتها « عرافا ٢٠١ » في

الدومينيكان بحضور نائب رئيس الجمهورية وضباط الجيش وسفير اسرائيل وممثـــــل صناعــة الطائرات الاسرائيلية · كما ان هناك معلومات تـدل علىان هذا البلد يستعمل عربات مدرعة مجهزة برشاشات عيار (٣٠ ـ ٥٠) ومدافع ١٠٥ مم شبيهة بتلك المستعملة في القوات المسلحة لاسرائيل ·

١١ ـ هايتـي

ليست هناك معلومات مؤكدة حول بيع اسلحة اسرائيلية لهذا البلد حتى الان ، الا ان النشاط الاقتصادي الاسرائيلي فيها واسع جدا ، حيث يسيطر الاسرائيليون على مناجـم الحديد والنحاس سيطرة كاملة كما يسيطرون على مناطق شاسعة لزراعة القهوة والرز كما يتمتعون بالحرية الكاملة وبنفوذ واسع في العمل الصحفي والاعلامي ·

واخيرا هناك معلومات متزايدة عن تصاعد النشاط الاسرائيلي في الاوروغواي ، وفي مناطق اخرى من القارة لا بد من رصدها وتسليط الاضواء عليهـا ·

عصام كامـل

مراجعات

L'Iran contre Le chah - Ahmad Faroughy et jean - Loup Reverier
(Editions Jean - Claud Sinoéu Paris 1979) .

في بلد مثل ايران ، حيث كانت الحياة الديمقراطية ملغاة ايام الشاه ، اتخذت الحركة الجماهيرية عدة اشكال في التعبير عن نفسها · فلم تكن المظاهرات الضخمة التي عرفتها المدن الايرانية في النصف الثاني من عام ١٩٧٨ سوى الوجه الابرز الذي جاء بعد حقبة طويلة من الاضرابات والكفاح المسلح · ان الحركة الجماهيرية الواسعة ضد الشاه تمتد بعيدا في تاريخ ايران ولم تكن سنة ١٩٧٨ سوى نقطة التقاء اشكال النضال تلك التي نجحت في عزل وخلخلة سلطة ال بهلوي التي كانت معظم القوى الخارجية تلتقي على دعمها· وقد برز في خضم هذه الحركة دور رجال الدين ، بقيادة اية الله الخميني ، الذين اظهروا انهم القوة الرئيسية في التصدي لسلطة الشاه والقادرة على ابتكار اشكال من التعبئة الجماهيرية المستمدة من التراث الديني الاسلامي تحت شعار بناء الدولة الاسلامية ، وهو ما طرح على الفكر السياسي العربي اكثر من تساؤل واثار جدلا وان تفاوت في مواقف الاطراف من الثورة الايرانية ، فقد بقي يعوزه وضوح المعطيات التي مهدت لهذه الثورة وطبيعة القوى الفاعلة فيها ·

وهذا الكتاب الذي صدر قبيل انتصار الثورة الايرانية، يلقي ضوءا على مقدمات هذه الثورة وهو احد الكتب القلائل التي صدرت عن ايران هذه السنة ، شارك في كتابته سينمائي وصحفي ايراني ·

عقدة سيروس

يبدأ تاريخ ايران الحديث بالنسبة للايرانيين فجر ١٩ اب ١٩٥٣ حين قام الجنرال زاهدي (١) بقلب حكومة محمد مصدق · وهكذا انطفأ الامل الذي عقده الشعب الايراني على الحكومة الوطنية التي دامت ٢٧ شهرا وسحقت في بحر من الدم وبلغت تكاليف سحقها ١٠ ملايين دولار لوكالة الاستخبارات الاميركية و ٥٠٠٠ قتيل للشعب الايراني وحركة قمع واعتقالات لم تعرف ايران لها مثيلا · وهكذا عاد شاه ايران من ايطاليا ليتسلم السلطة · ولا يمكن فهم سياسة التعمية التي مارسها الغرب باعطاء صورة مشوهة عن ايران الا بالعودة الى تاريخ ايران · فايران ، كالصين ، هي احدى الدول العريقة التكون التي لم تتعرض ـ مثلها مثل اليابان ـ للاحتلال الاوروبي المباشر في القرن التاسع عشر · فالدولة الايرانية في حدودها الحالية لم تكن صنيعة القوى الاستعمارية · فالنظام الامبراطوري الذي جدد الانكليز والاميركان جهازه القمعي هو حصيلة صراع امتد ٢٥٠٠ سنة بين الدولة والشعب تجسد حديثا في الملكية المطلقة ·

ان ايران التي تساوي مساحتها ضعف مساحة العراق وسوريا والاردن ولبنان

(١) جمع الجنرال زاهدي ثروة ضخمة خلال الحرب العالمية الثانية بتعاونه مع النازيين ·

معا هي اكثر بلـــدان الشرق الاوسـط اتساعا بعد السعودية · وسكانها البالـغ عددهم ٣٥ مليونا (١٩٧٨) هم الوحيدون الذين لا يتحدرون في المنطقة من اصــل سامي بل من اصل هندو – اوروبي ·

في الالف الثاني قبل الميلاد قامـــت هجرة هندو – اوروبية من سهول روسيـا نحو الاناضول (امبراطورية الحثييـن) ونحو المنطقة الممتدة بين بحر قزويـــن والخليج العربي ، حيث عرفت هذه المنطقة نظام ري جوفي (قنوات) متطور ساهـم في تنوع اسباب المعاش والسكان اذ تنوع اسكان بين بدو وحضر وفلاحيـــــــن ورعــــاة ·

في الالف الاول قبل المسيح قامت هجرة هندو – اوروبية ثانية نحو اوروبا واسيا الصغرى واستقر قسم من هؤلاء الآريين او الايرانيين في ايران موزعين على قبيلتين: الميد . في الشمال والغرب وعاصمتـــهم حمدان الحالية · والفرس فـي الجنـــوب والشرق وعاصمتهم قرب شيراز الحالية · وبعد حرب طويلة ودامية انتصروا علـى امبراطوريـــة اشور السامية واسســوا مملكتهم بقيادة سيروس الكبير رأس سلالة الاشميديين واصبـــح سيروس (٥٥٠ ق·م) اول « ملك للملوك » ومؤسس اول دولة موحدة في ايران قائمة علــى امبراطورية ممركزة ، عسكرية وذات سلطة ملكية مطلقة يحاول محمد رضى بهلـــوي ان يكون امتدادها المعاصر ·

وبدون الدخول في تفاصيل الصراعات التي توالت على ايران خلال ١٢ قرنا حتى مجيء الاسلام ، يمكن تقسيم هذه الحقبة الى خمس مراحل : الاشيمينيديون (٥٥٠ – ٣٣٠ ق·م) الاسكندر الكبير (٣٣٠ – ٣٢٣ ق·م) ، السلاجقـــــة (٣٠١ – ١٤١ ق·م) البارت (١٤١ ق·م – ٢٢٦) الساسانيون (٢٢٦ – ٦٥١) ·

ومع الفتح الاسلامي تبدأ مرحلة جديدة تمتد نحو ١٣ قرنا · واذ اندمجت ايران في الامبراطورية الاسلاميــــــة وارتبطت بالخلافة الى ان نكبت في القرنين الثاني عشر والثالث عشر بالغزو المغولي الـذي اعاقها اربعة قرون عن استعادة قوتهـــا واستقلالها (بعد الغزوات المغوليــــــة والتركية والافغانية) في القرن السادس عشر تحت لواء السلالة الصفوية وبقيادة الشاه عباس الكبير معاصر لويس الرابع عشر · وانهارت هذه السلالة سنــــــة ١٧٢٢ امام الغزو الافغاني الذي اغـــرق ايران في الرعب · وعام ١٧٩٦ نجح آغـا محمد خان – زعيم قبيلة القاجار التركية – في تتويج نفسه في طهران ·وهكذا حكمت سلالة القاجار ايران حتى ١٩٢٥ حيـــن انتزع رضى بهلوي السلطة منها بمساعدة الانكليز ·

وقد حاول القاجار ، للحفاظ علــــى وضعهم ، الاستفادة من التناقض القائـم بين مصالح كل من بريطانيا وروسيا ،وهم اذ نجحوا في تحييد هاتين القوتين وانقاذ ايران من الاحتلال في القرن التاسع عشر ، فقد دفعوا ثمن ذلك غاليا بالتنازلات التـي قدموها للطرفين خاصة في مجال امتيازات التنقيب عن النفط حيث استولى الانكليز منذ ١٩١٢ على ٥١٪ من اسهم شركــــة النفط الانكلو – ايرانية · وحصل الروس سنة ١٨٧٩ على حق تكوين كتيبة القوزاق الخاضعة نظرياً للشاه وعملياً لسفيـــر روسيا في طهران ·

ولكن التدخل الاجنبي ادى سنة ١٩٠٥ الى خلق حركة اصلاح ضمت المثقفيـــن المتأثرين بالغرب والقبائل ورجال الديـــن وتصدت لاستبداد سلالة القاجار واسفرت عن ثورة دستورية انصاع لهـا الشاه ، وولد بذلك دستور ١٩٠٦ المستوحى مـــن دستور بلجيكا لعام ١٨٣١ وتـم معـه اول انتخاب عرفته البلاد ، ادى الى انشــاء

مجلس نيابي من ١٣٢ عضوا · وجاء الرد الانكليزي الروسي مباشرة سنة ١٩٠٧ فقسما ايران الى منطقتي نفوذ بينهما : الشمال لروسيا والجنوب لانكلترا وقصفت كتيبة القوزاق المجلس وتنازل محمد علي شاه عن العرش لصالح ابنه سلطان أحمد ـ آخر حكام القاجار ـ واعيدت الحياة الديمقراطية البرلمانية ولكن ما لبثت الحرب العالمية ان قلبت الموازين ·

فبعد الحرب العالمية الاولى وانكفاء روسيا البولشفية على نفسها ، تنامي دور انكلترا في ايران مع تنامي مصالحها البترولية محاولة توقيع اتفاق ١٩١٩ الذي اعترض عليه المجلس · حينئذ اتجه الانكليز نحو التخلص من سلطان احمد شاه واستبداله بسلطة عسكرية تحت امرتهم ووقع اختيارهم على رضى بهلوي، قائد كتيبة القوزاق ، الذي قلب سلالة القاجار عام ١٩٢١ ونصب نفسه شاهاعام ١٩٢٦ · واسم بهلوي الذي اختاره يشير الى اللغة والكتابة السائدة في عهد السلالة الساسانية قبل دخول ايران في الاسلام ، ولهذا دلالته بالنسبة لشيعة ايران ·وبذلك بدا عهد الديكتاتورية العسكرية في ايران· ومع اندلاع الحرب العالمية الثانية ، حاول رضى شاه التخلص من الوصايةالانلكيزية بالتحالف مع هتلر ، مما حمل الانكليز والروس، على احتلال ايران عام ١٩٤١ ونفي رضي شاه الى افريقيا الجنوبية حيث توفي عام ١٩٤٤ · وخلفه ابنة محمد رضى بدعم من بريطانيا ، واعاد الحياة الديمقراطية الى البلاد ·

وفي نهاية الحرب العالمية الثانية شجع السوفيات قيام « جمهورية اذربيجان الديمقراطية » في تبرير عام ١٩٤٥ ، وقامت في سياقها جمهورية كردية مستقلة عاصمتها مهاباد ، ولكن هذه التجارب انكفات حين اجبرت الولايات المتحدة الاتحاد السوفياتي على الجلاء عن ايران عام ١٩٤٦ ·

ونتيجة لازمة ١٩٥٠ الاقتصادية الخانقة والحاح الحكومة الايرانية لدى الانكليز على اعادة النظر بالاتفاقات البترولية المعقودة معهم ، اجتمعت الاحزاب التقدمية في جبهة وطنية استطاعت ان توصل محمد مصدق الى ترؤس الحكومة في نيسان ١٩٥١ وهو من سلالة القاجار لجهة والدته · وكان اول قرار اتخذه ، رغم معارضة الشاه ، هو تأميم الصناعة البترولية واستبدال الشركة البترولية الانكلو ـ ايرانية بشركة وطنية وطرد البريطانيين من البلاد · واستعان الانكليز بالاميركيين الذين رأوا الفرصة مناسبة للتغلغل في ايران التي كانت حكرا على النفوذ الانكليزي ، في حين بقي الاتحاد السوفياتي متحفظا تجاه مصدق ، لان التأميم يضرب طموحاته في المناطق الشمالية من ايران ، لذلك لم يلق مصدق الدعم من حزب تودة الشيوعي الموالي لموسكو · وحين قرر الانكلو ـ اميركيون مقاطعة البترول الايراني ، توجه مصدق نحو موسكو لاسترداد الذهب الايراني المودع لديها ، فرفضت ، ومع ذلك صمدت تجربة مصدق بفضل الدعم الشعبي الى ان قرر الاميركيون اللجوء الى القوة ، ونفذوا حركة الانقلاب بواسطة الجنرال زاهدي في آب ١٩٥٣ كما رأينا سابقا ·

ان المقاومة الشعبية ضد النظام لم تتوقف يوما منذ انقلاب ١٩٥٣ · فالشاه الذي اعادته وكالة الاستخبارات الاميركية الى العرش بعد ان طردته الارادة الشعبية وجد نفسه محروما من الدعائم التقليدية الثلاث التي بغيابها كان دائما ملوك ايران لا يحكمون الا بدعم خارجي : موافقة الاسلام الشيعي ، الاجماع السياسي ، وولاء القبائل ·

ان العقيدة الشيعية تفترض مبدأ العدل (الامامة) · وبذلك فالشيعي ملزم حسب عقيدته بالثورة على الحكم الجائر · من هنا كانت حركات المعارضة ضد سلالة القاجار بقيادة رجال الدين · فعندما منحت الحكومة الايرانية عام ١٨٩٠ الانكليز رخصة احتكار الدخان ، تصدى لها اية الله شيرازي واجبرها على التراجع · كذلك فاننا نجد رجال الدين على رأس ثورة ١٩٠٥ الدستورية ولكنهم انقسموا بين تقليديين (مع الشريعة الاسلامية) تحالفوا مع الشاه ودستوريين تحالفوا مع الليبراليين وزعماء القبائل والبورجوازية الصغيرة المدينية · وفي الصراع بين مصدق والشاه وقف رجال الدين مع مصدق (باستثناء آية الله كاشاني الذي فقد اي تأثير في حين ازداد نفوذ اية الله الخميني حين وقف جذريا ضد النظام وبدءا من عام ١٩٦١ مما ادى الى نفيه عام ١٩٦٣)· وكذلك وقفت المعارضة السياسية ضد اجراءات النظام القمعية ·· بالاضافة الى خروج القبائل على شرعية النظام · من هنا عزلة نظام الشاه ولجوئه الى الدعم الخارجي ·

بداية الجوع او جذور الاصلاح الزراعي

لقد كانت القوة المسيطرة في ايران (انكلترا) حتى مصدق تهتم فقط بالمواد الاولية كالبترول وببيع انواع من السلع البريطانية للطبقة الحاكمة · ولكن الامر اختلف مع الولايات المتحدة التي بدأت تحل في ايران محل بريطانية منذ ١٩٥٣ · ففي عام ١٩٦١ بدأت ادارة كينيدي تضغط على معظم بلدان العالم الثالث لاحداث اصلاحات زراعية تسمح بتوسيع السوق التي تحتاجها السلع الاميركية ففي بداية الستينات كانت النشاطات الزراعية تمثل ٥٥٪ من السكان العاملين · و ٧٠٪ من الايرانيين كانوا يعيشون في مناطق زراعية · وكان المجتمع الايراني اقطاعيا بشكل يختلف عن الغرب ، وكانت بعض العائلات الكبيرة تملك نصف الاراضي المزروعة · وكان اكثر من نصف سكان الريف لا يملكون ارضا · وقد بادر الشاه بعد قلب مصدق الى الغاء الاصلاحات الزراعية التي حاول هذا الاخير اجراءها·

القبائل ضحية الاصلاح الزراعي

تشكل القبيلة في ايران وحدة سياسية اقتصادية اجتماعية وثقافية · وقد لعبت القبائل تاريخيا دورا مهما في تكون ايران فكل امبراطور كان يتحدر من قبيلة او اكثر · وكان تغير التحالفات بين القبائل هو الذي يرفع او يزيل الاباطرة · اما سلالة بهلوي التي استندت الى انقلابين بدعم خارجي بمعزل عن القبائل فقد خرجت عن تقليد ايران السياسي وحاولت احلال الجيش الحديث مكان القبائل المقاتلة التي اخذ وزنها السياسي على الدولة يخف مما ادى الى سلسلة من التمردات والانتفاضات خاصة في الستينات لذلك بقيت المسألة القبلية في ظل الشاه بدون حل ، وقد جاء الاصلاح الزراعي في محاولته تحضير القبائل ليؤزم وضعهم اكثر اذ ادى الى اقتلاعهم من حياتهم القبلية دون ان يؤمن لهم البنى البديلة — ان في الريف الزراعي او في المدن — القادرة على استيعابهم ، اذ كانت سياسة الرسملة الزراعية المعتمدة بشكلها الحديث تفيد الفئات الاجتماعية القريبة من السلطة او من الاحتكارات الزراعية الاميركية · تنقسم القبائل الايرانية الى خمس قبائل اساسية : الاكراد في مرتفعات زغروس في الغرب وفي الشمال الغربي (حوالي المليون) وهم يتكلمون لهجة ايرانية ويطالبون بالاستقلال · التركمان في منطقة غورغان قرب بحر قزوين · البختيار في منطقة اصفهان ، القشقايس في الوسط الجنوبي (فارس) يعدون حوالي الـ ٢٠٠

الف ويتكلمون لهجة تركية ، البالوتش في المنطقة الحدودية مع باكستان • يشكل مجموع القبائل الايرانية حوالي ثلاثة ملايين نسمة • ان شكل التبادل السائد بينها هو المقايضة • لذلك شكل البازار تاريخيا نقطة اللقاء بين عالمين : الريفي والقبلي • وبرزت الجوامع الى جانب البازارات •

امل الفلاحين الضائع : كان الفلاحون يخضعون للعائلات الاقطاعية « الالف عائلة » • الذين يملكون الاراضي ويقدمون للفلاحين الارض ، والمياه ، والاسمدة ، والسلفات ويقدم الفلاح الحيوانات وعمله، ويتقاضى الاقطاعي ٦٠٪ من الانتاج في حين يتولى رجل الدين مسألة توزيع المياه بالتساوي • وحين اعلنت حكومة علي اميني الاصلاح الزراعي وتوزيع الاراضي على الفلاحين بدأ التحرك الفلاحي يتنظم، وخوفا من ان يكسب هذا التحرك وزنا سياسيا بادر الشاه ، باحداث ثورة من فوق خوفا من ان تحدث من تحت ، وبذلك دعيت « بالثورة البيضاء » ، و « ثورة الملك والشعب » • وبذلك اجهضت الحركة الفلاحية • وبدل ان تفتح هذه « الثورة » الباب نحو نشوء دولة بورجوازية بالغاء الاقطاع، ادت الى مركزة الاقطاع وجعلت من الشاه الاقطاعي الاقوى • في حين اقتصر توزيع الاراضي على قسم من الفلاحين اذ بقي ٣٥٪ من الفلاحين بدون اراضي و ٤٠٪ منهم اصبحوا يملكون بين ١ و ٢ هكتار • تجاه هذا الوضع نمت الدولة وحدات استثمار : تعاونيات انتاجية شركات زراعية مقفلة ، وشركات تصنيع زراعية ادت الى ربط الفلاحين بديون باهظة وتحريرهم من الاقطاع ادى الى ربطهم بالبؤس والى حركة هجرة فلاحية مكثفة نحوالمدن • وقد كانت حصيلة هذا الاصلاح الزراعي فشل ذريع في محاولة الشاه تقليد الغرب بفرض وسائل «حديثة» على القطاعات التقليدية التي تفككت دون ان تستوعب في بنى بديلة مما ادى الى تكثيف التصنيع والتنمية بالزراعة •

بلد في طريقه نحو التخلف

« سنجعل من ايران احدى القوى الصناعيةالخمس الاولى قبل نهاية القرن » •

كان هذا شعار الشاه وكان البترول يشكل قاعدته المادية (ارتفع دخلهالبترولي بعد ١٩٧٣ من ٥ الى ٢٠ مليار دولار سنويا) • وارتفعت ارصدة الخطة الخمسية عام ١٩٧٤ الى ٧٠ مليار دولار• مما اسال لعاب الشركات الاجنبية ودفعها نحو ايران •

اعادة تحويل البترو ـ دولار : بدل ان يؤدي تضخم الثروة البترولية الى تنمية داخلية ، ادى الى تقوية تبعية ايران تجاه الغرب الرأسمالي • وهذا ما تؤكده دراسات الخبيرات (بني صدر وبول فييل)• ويمكن اختصار هذه الدوامة بما يلي :

زيادة صادرات البترول تؤدي الى تضخم نقدي • وزيادة الطلب الداخلي تؤدي الى زيادة صادرات البترول والثروات الطبيعية الاخرى • وخوفا من خطر انتهاء الاحتياط البترولي ، اتجه الشاه نحو تصنيع سريع باموال النفط يجعل من ايران يابان الشرق الاوسط •• ولكن عدم توفر شروط مساعدة في ايران حول انظار الشركات المتعددة الجنسيات عن ان تجعل من ايران قاعدة لتغلغلها في الشرق الاوسط ، واكتفت بجعلها اخر حلقة فيعملية انتاجها ، اي حلقة تمويلية باستثناء الصناعة البتروكيميائية • وهذا ما جعل من ايران حلقة تابعة للشركات المتعددة الجنسيات وكانت الوسيلة الانجع لهكذا وضع تتمثل في خطط التنمية التي انطلقت من دور الدولة الاقتصادي في خلق

قطاعات حديثة تستدعي استيراد الكفاءات الاجنبية وخراب القطاعات الصغيرة المحلية بسبب سياسة الاستيراد الموسعة كما ادى كل ذلك الى اخلال فاضح في التوازن الديمغرافي للبلد · اذ لا يكفي لبناء قوة صناعية لجوء الدولة الى الشركات الاجنبية لبناء المصانع ، بل يتطلب معرفة تشغيلها بالكفاءات المحلية ، وهذا ما يلقي ضوءا على افلاس الثقافة البهلوية المغربة والمعادية لتقاليد بلد يشكو في غالبيته من الامية ويشعر بالغربة الثقافية عن اوساط النخبة الدينية المتعلقة باهداب الحضارة الغربية ومظاهرها الجوفاء · وفي هذا الوضع بقي البازار محافظا على دوره في المدن الايرانية وبقي يمثل عصب النشاط التجاري · ولا يفسر دوره الوطني المعادي للشاه والذي برز خلال احداث عام ١٩٧٨ الا عبر تعلق تجار البازار بالتقاليد الشيعية من جهة وتناقضهم في عهد الشاه مع غرف التجارة التي تتحكم بها السافاك وكبار التجار المقربين من السلطة ، حيث تسود الرشوة ويعم التزلف والفساد على اعلى المستويات وصولا الى عائلة بهلوي التي تشكل قوة اقتصادية لا تضاهي والى الشاه شخصيا الذي يملك ثروات لا تقدر ·

تجاه هذا الوضع يتساءل الجاهل بوضع ايران عن سبب سكوت الشعب الايراني كل هذه الفترة وانفجار نقمته فجأة عام ١٩٧٨ · من المفيد في هذه المناسبة التنويه بقصة متداولة في الاوساط الشعبية حدثت في افغانستان المجاورة لايران · يروى ان كلبا فارسيا قويا دخل الى افغانستان ، فتحلقت حوله كلاب افغانية حالتها يرثى لها وتساءلوا عن سبب مجيئه الى بلدهم التعيس فاجابهم الكلب الفارسي : « لقد قصدت بلدكم لكي اتمكن من النباح » · ولكن الشعب الايراني لم يفعل مثل كلب القصة ، رغم ان بعضا من ابنائه قد نفي مدة ربع قرن ، ولكن الشعب انتهى به الامر ان ثار ولو متأخرا ولتأخر ثورته سبب جوهري يكمن في الوسائل القمعية التي كان يملكها الشاه·

جيش من صنع الولايات المتحدة الاميركية

اذا كان انخراط الاقتصاد الايراني في السوق العالمي اصبح امرا واقعا ،فذلك لم يتحقق الا بفضل ارتباط النظام البهلوي بالامكانيات العسكرية الاميركية · اذ ان تدمير جهاز الانتاج غير البترولي تدميرا منهجيا ، والحاق مصادر البلد بالبترو ـ دولار ، واعادة تحويل البترو ـ دولار الى الاقتصاد الاميركي عبر عملية الاستيراد ، كل ذلك لم يكن ليتحقق الا بشرط ان تتمسك الولايات المتحدة مباشرة بالسلطة السياسية الايرانية ـ من اجل ذلك فقد خلقت جهاز رقابة على كل المستويات اذ كان المقصود بعد سقوط مصدق ، ليس فقط السيطرة على الشاه بل بسط شبكة سلطتها لتشمل كل نشاطات البلد وربط هذه الشبكة باستراتيجية الولايات المتحدة السياسية · وقد اختير جيش الشاه لهذه المهمة ·

تكاليف التسليح الاميركي : عامل تبعية : تؤكد تقارير الكونغرس الاميركي ان الشاه اشترى اسلحة اميركية بخمسة مليارات دولار من ١٩٥٣ الى ١٩٧٣ · وقد ازداد التسليح الاميركي بعد ١٩٧٥ لسببين : الاول اقتصادي ، ذلك ان الشاه الذي اخذ يدفع مسبقا ثمن الاسلحة ، قد اخذ يشكل مساعدة لا تضاهى للصناعة العسكرية الاميركية نفسها · والثاني : مبدأ نيكسون الموضوع سنة ١٩٦٩والقاضي بتقوية حلفاء الولايات المتحدة لكي يتصدوا بقواهم الذاتية للمد الشيوعي والاستغناء عن التدخل الاميركي المباشر خاصة بعد

تجربة فيتنام · وتطور دور الشاه في المنطقة من «حامي ايران» من المد الشيوعي الى « حارس الخليج الفارسي » والبترول العربي في الشرق الاوسط · وانطلاقا من عام ١٩٧٤ اصبح الشاه يشتري اكثر من ٣٥٪ من صادرات الصناعة العسكرية الاميركية · وتبلغ ميزانية الجيش الايراني عام ١٩٧٥ ١٠ مليارات دولار · وهذا ما جعل الجيش الايراني يحتكر مراقبة توجه البلد الاقتصادي في مختلف قطاعاته · وهدف الولايات المتحدة ليس أن تجعل من الجيش الايراني القوة الوحيدة في البلد بل ان تمسك بهذه القوة بشكل دائم ، من هنا جعلت هذا الجيش مرتبطا بها عضويا خاصة من الناحية الاقتصادية ، والتقنية ·

طبيعة الاسلحة الاميركية : عامل انخراط عسكري

اذا كان انفاق هذه الرساميل الضخمة في شراء الاسلحة يضاعف تغريب الاقتصاد الايراني ، فانه يؤدي الى نفس النتيجة بالنسبة للجهاز العسكري نظرا لطبيعة الاسلحة الاميركية التي تبيعها اميركا للشاه · « لان الولايات المتحدة اصبحت المسلح الوحيد للجيش الايراني ، فقد ادى ذلك الى نتيجتين : تبعية هذا الجيش وارتباطه بالتقنية والتجهيزات الاميركية بشكل سافر · وطبيعة التسلح المتقدمة تقنيا والتي تستوجب وجود خبراء اميركيين دائمين في ايران يتعدى دورهم الاطار التقني ·

الخبراء العسكريون الاميركيون : عامل رقابة : ان ايران هو البلد الذي يتواجد فيه اكبر عدد من الاميركيين الذين يعملون لحساب حكومة اجنبية : ٢٤ الف حسب تقديرات عام ١٩٧٦ للمقيمين في ايران فقط حيث لا يخضعون للقانون الايراني وليسوا مسؤولين لا امام الجيش الايراني ولا امام الدولة الايرانية بناء « لقانون الامتيازات » لعام ١٩٦٣ الذي وقف ضده آية الله الخميني والوطنيون الايرانيون ·

عيون واذان الشاه

اذا كان الجيش يشكل القوة الضاربة لاي تحرك عسكري مناوىء لسلطة الدولة في الداخل ، فان السافاك هي المتمم لدور الجيش على صعيد التكتلات السياسية المعارضة للنظام وللحياة اليومية في البلد وهي تشكل القوة الرئيسية في ايران · انها في الحقيقة دولة داخل الدولة ·ولدت هذه المنظمة عام ١٩٥٧ وارتبطت مباشرة بالشاه من جهة وبوكالة الاستخبارات الاميركية من جهة اخرى حيث يتلقى ضباط المنظمة دورسهم في مركز المارينز في فرجينيا للتخصص في الاساليب المضادة للعمل الفدائي وفي الاساليب المتممة للعمل المخابراتي · بالاضافة الى البعثات التي ترسل الى اسرائيل بالتنسيق مع الموساد · وقد لعبا معا دورا مهما ضد عبد الناصر خاصة في حرب اليمن وقاما بعمليات مشتركة في لبنان وسوريا والعراق والاردن الذي اصبح في الستينات مركزا لعمليات السافاك في الشرق الاوسط· تضطلع السافاك ، بالاضافة الى دورها في قمع المجتمع الاهلي الايراني ، بدور مراقبة القوات المسلحة الايرانية بالتنسيق مع وكالة الاستخبارات الاميركية · وقد لجأت الى كل الوسائل من اجل ترسيخ سلطة الشاه : اغتيالات ، خطف ،اعتقالات تعذيب ، رقابة الصحف والمنشورات ، ابتزاز ، ضاربة عرض الحائط بابسط الحقوق الانسانية للفرد والمواطن ·

انا الدولة

ان حقيقة المؤسسات الايرانية تختصر بالجيش والسافاك · فمنذ سقوط مصدق.

اصبح دستور ١٩٠٦ من ذكريات الماضي · فقد حرم الشاه الاحزاب السياسية من اية حياة شرعية · فمن ١٩٥٧ الى ١٩٦٤ سمح فقط لحزبين ان يترشحا في الانتخابات : حزب مردم (اي حزب « الشعب ») الذي اسسه اسد الله علام ، وزير البلاط عام ١٩٥٧ ، وحزب مليوم (اي حزب « الامة ») الذي اسسه مانوتشيهر اقبال ، الصديق الشخصي للشاه ·

« ان قدر حزبنا ، صرح يوما علام زعيم حزب مردم ، ان يخدم الشاهنشاه بلا شروط » ، « ان سبب وجود حزبنا ، صرح بدوره اموزيغار احد زعماء حزب مليوم ، هو فخامته الامبراطورية » · لذلك اطلق الايرانيون على الاول : حزب « نعم سيدي » وعلى الثاني : حزب « بالطبع سيدي » · وعام ١٩٦٤ قرر الشاه حل حزب مليوم واستبداله بحزب ايران ـ نوفين (ايران الجديدة) بزعامة امير عباس هويدا الذي خدم الشاه ١٢ عاما كرئيس للوزراء · وفي عام ١٩٧٥ قرر الشاه وضع حد لهذه المهزلة السياسية واعلن ان ايران سيحكمها منالان وصاعدا حزب اوحد هو حزب راستاخيز (حزب البعث) ·

شعب مناضل

ان انفجار عام ١٩٧٨ العظيم قد برهن انه بالرغم من فعالية الجيش والسافاك. فان معارضة الشاه لم تنقطع منذ سقوط مصدق · ولكن القمع المنهجي الذي مورس على المعارضة الايرانية ادى الى ان هذه القوى وجدت نفسها في نهاية عام ١٩٧٨ غير قادرة على المجابهة الفعلية ضد النظام وهذا ما يفسر الطابع العفوي للمظاهرات من جهة والنمو المطرد للقوى الاسلامية من جهة اخرى · لذلك قامت الانتفاضات الجماهيرية خارج تنظيمات المعارضة · وكانت المؤسسة الشيعية ، بشبكتها الضخمة من الملا والجوامع وقوتها المادية والايديولوجية ، هي الوحيدة القادرة على قيادة الحركة الجماهيرية وطرح البديل لسلطة الشاه · ولكنها ليست الوحيدةبين القوى السياسية فهناك حركتان تشاركانها النضال ضد السلطة: الماركسة والقومية·

الماركسيون : ينقسمون الى مجموعتين متناقضتين : حزب توده (او حزب « الجماهير ») والماركسيون اللينينيون التوريون ·

حزب توده : من الاندلاع الثورة البولشفية عام ١٩١٧ انشأ العمال الايرانيون الذين يعملون في حقول النفط في اذربيجان الروسية ـ والتي يستثمرها روتشيلد ونوبل ـ مجموعة « عدالة » التي تحولت عام ١٩١٩ الى حزب ايران الشيوعي الذي ما لبث ان انتشر في البلاد وعقد مؤتمره الاول عام ١٩٢٠ · من بين قيادييه نجد بيتشيفاري · وقد تمثل الشيوعيون الايرانيون بوفد في اول مؤتمر لشيوعيي الشرق انعقد في باكو عام ١٩٢٠ برئاسة زينوفييف وكان الوفد الايراني اقوى وفود الشرق · وفي عام ١٩٢٩ قام الحزب الشيوعي الايراني في مؤتمره الثاني ضد ديكتاتورية رضا بهلوي ، فاعتبرته السلطة غير شرعي · ومع ذلك نشأ تجمع من المثقفين اليساريين بقيادة طاقي ارعني واسسوا عام ١٩٢٣ مجلة « دنيا » التي اصبحت فيما بعد من سجلات الحزب الرسمية · وبعد خروج من بقي حيا من هذه المجموعة من السجن (مجموعة الـ ٥٣) انضموا الى حزب توده الذي انشىء عام ١٩٤١ ، وانتخب الحزب لجنة قيادية مؤلفة من ١٥ شخصية تقدمية وليست شيوعية يرئسها امير سليمان اسكندري من سلالة القاجار ونور الدين عالموتي من اعيان المسلمين ، واعلن

الحزب عن خط اصلاحي موال للدستور ، وعن برنامج اجتماعي متقدم ولكنه متناقض لجهة مطالبته بتأميم الاراضي التي سبق لرضا بهلوي ان استملكها ، بينما طالب برد الاراضي التي انتزعت من القبائل وهذا ما يتلاءم مع وجهة الاتحاد السوفياتي في تدعيم القبائل لاضعاف السلطة المركزية .

في عام ١٩٤٣ دعا حزب توده الاحزاب والحركات القومية للدخول في « جبهة من اجل الحرية » دفاعا عن الديمقراطية في ايران . ولكن حينما تفرد حزب توده بموقفه المطالب عام ١٩٤٤ بمنح الاتحاد السوفياتي حق استثمار الحقول النفطية في شمالي ايران في الوقت الذي كان فيه مصدق – النائب في البرلمان – يؤكد على ان ايران قادرة على استثمار حقولها بنفسها ، حينذاك قرر القوميون قطع تحالفهم مع حزب توده .

ومع نهاية الحرب العالمية الثانية . انشأ الاتحاد السوفياتي « جمهورية اذربيجان الديمقراطية » ونصبوا عليها بيتشيفاري من حزب توده ، وحين سحب الاتحاد السوفياتي الجيش الاحمر من شمال ايران عام ١٩٤٦ بضغط من الولايات المتحدة ، انهارت هذه الجمهورية واتهم القوميون حزب توده بدعم التسلط الاجنبي على اذربيجان وخيانة الوطن .

وفي نهاية الاربعينات تبلورت حركة تطالب بتأميم الصناعة البترولية . لكن حزب توده الذي لا يريد ان يحرم الاتحاد السوفياتي من آبار البترول في شمال ايران ، وقف ضد هذه الحركة . وحين وصل مصدق الى السلطة عام ١٩٥١ على راس تحالف من الاحزاب القومية وباشر بتأميم الصناعة البترولية ، شن حزب توده حملة ضد مصدق واعتبره متآمرا مع السياسة الاميركية . ولكن التأييد الشعبي الذي لقيه مصدق اجبر حزب توده على تغيير تكتيكه ، فطالب بتأميم الصناعة البترولية في جنوبي ايران فقط. ولكن حزب توده حافظ على بعض النفوذ في اوساط الجيش ، وحين قام الاميركيون بالانقلاب ضد مصدق عام ١٩٥٣ لم يعط حزب توده اوامره لعناصره في الجيش لدعم مصدق مما سرع سقوطه وسقوط حزب توده معه الذي تعرض مثل بقية الاحزاب للقمع والتصفية . فاعدم من حزب توده من وقع بايدي السلطة . اما غالبية اللجنة المركزية فقد التجأت الى المانيا الشرقية . كل هذه المواقف ضاعفت في عزله بين الجماهير الايرانية وذلك لجيل بكامله .

الماركسيون – اللينينيون الثوريون

بعد انقضاء عشر سنوات على سقوط مصدق قامت حركة ماركسية – لينينية على انقاض حزب توده . اذ نشأت « مجموعات تأمل » في الوسط المثقف والجامعي مناوئة للستالينية وضد تبعية توده لموسكو . حاولت هذه المجموعات التفكير في اسباب هزيمة الحركة القومية وفي سمات الاستراتيجية الامبريالية الجديدة ، وفي اشكال النضال الجديدة والملائمة . من خلال ذلك برز اتجاهان داخل الحركة الماركسية : الاتجاه الاول يقول « بنظرية الاستمرار في الحياة » ويعطي الاولوية لبناء خلايا سياسية بانتظار تأزم الوضع الاقتصادي .

الاتجاه الثاني يقول بان الوسيلة الوحيدة لتعبئة الجماهير هي اعتماد الكفاح المسلح الذي يسمح للماركسيين ان يقودوا الانتفاضة الجماهيرية . ومنذ ١٩٦٣ بدأت المجموعات الماركسية تلتقي لانشاء مجموعات عسكرية في الوسط القبلي والريفي ، ولكن سرعان ما اخترقت هذه المجموعات من قبل السافاك كالمجموعة التي اعتقل من ضمنها بيجان دجازاني

احد ابرز المفكرين الشيوعيين الايرانيين واحد مؤسسي منظمة فدائيي الشعب الايراني · بدأت المجموعات العسكرية نشاطها عام ١٩٦٧ ، ولعبت هذه العمليات دورا معنويا وسط الجماهير وانضمت الى الكفاح المسلح مجموعات اسلامية وقومية ولكن الاساليب المعتمدة من قبل السافاك اضطر هذه المجموعات ان تبقى حذرة مما حرمها من مضاعفة نشاطها السياسي وسط الجماهير لاعطاء نشاطها العسكري بعدا جماهيريا ، وهذا ما حصر نشاطها بالعمل العسكري البطولي المعزول عن خط الجماهير ·

القوميون ـ وهذا التيار يضم قسما من الماركسيين ومعظم الذين يناضلون من اجل حكومة اسلامية ·

الجبهة الوطنية : وهي تجمع يضم اتجاهات مختلفة ـ ماركسية ، اشتراكية ، ليبرالية ، اسلامية ـ وجد رغم تشتته الايديولوجي نقطة مشتركة : الوطنية الايرانية المتمثلة برفض التسلط الاجنبي. وهذا هو الشعار الذي حكم نشوء الجبهة الوطنية عام ١٩٥١ التي اوصلت مصدق الى الحكم وكانت تضم : حزب ايران (جذري ذو اتجاه علماني) حزب شعب ايران (جذري ذو اتجاه ديني) منظمة « القوة الثالثة » (اشتراكية) ، حزب امة ايران (اقصى اليمين) ، اتحاد تجار وحرفيي البازار ، مجلس علماء طهران ، النقابات ، الاتحاد الوطني للصحافيين ، واخيرا « حرس حركة ايران الوطنية » المؤلف من عسكريين · وبعد سقوط مصدق وضرب هذه القوى ، نظم مناضلوها سرا حركة المقاومة الوطنية ـ التي رفضت « القوة الثالثة » الانضمام اليها لاسباب ذاتية ـ واصدرت جريدة راحي ـ مصدق (طريق مصدق) ·

ومع وصول كينيدي الى الحكم عام ١٩٦١ فرض على الشاه تليين موقفه تجاه الجبهة الوطنية التي كانت حركة دستورية غير مناوئة للملكية · فسمح لها بالخروج للعلن واقامة المهرجانات شرط الا تتعرض للشاه والا تتلفظ باسم مصدق · وبذلك تشكلت الجبهة الوطنية من جديد وانضم اليها الحزب الاشتراكي الايراني المنشق حديثا عن «القوة الثالثة» ـ التي حملت اسم « عصبة الاشتراكيين» ـ وبذلك وضعت الجبهة الوطنية ميثاقا تطالب فيه باحترام الدستور وتقييد صلاحيات الشاه بالدستور وبحل السافاك، وبمحاكمات عادلة للمعتقلين السياسيين وباعادة النظر بالاتفاقات البترولية · ولكن ما لبث الخلاف ان نشب داخل الجبهة فانشق الاتجاه الاسلامي ليكون حركة تحرير ايران التي اضافت الى توجهات الجبهة مبدأ اسلاميا يحاول أن يقيم جسرا بين المثقفين اليساريين ومؤمني الشيعة · ولكن انفجار حزيران ١٩٦٣ وضع حدا لسياسة الانفتاح التي اتبعها الشاه خلال بضعة اشهر تجاه المعارضة وبدأت حملة اعتقالات وتصفيات ونفي وقمع تفكك تنظيمات المعارضة ·

التيار الشيعي الثوري : وهو تيار ينتمي الى الحركة الوطنية الايرانية والناطق الاول باسمه هو آية الله روح الله الخميني · ولد في٩ نيسان عام ١٩٠٠ في خمين ـ قرية تقع قرب اصفهان ـ من اب هو عالم شيعي مرموق قتل في نضاله مع الدستوريين اثناء ثورة ١٩٠٥ ·

بعد دراساته الفقهية في قم ، قام الخميني بنشاط شبه سري بهدف تأمين « استقلال البلاد الاسلامية وتأسيس تقدم شعب القرآن » وهي موضوعة صاغها في كتاب وضعه عام ١٩٤٢ ·

عام ١٩٦١ ، حين سكت معظم علماء الشيعة ، دخل الخميني في تناقض مفتوح

مع الشاه ووقف ضد الاصلاحات التي فرضتها ادارة كينيدي على ايران ناعتا اياها بالاجراءات التي تمهد الطريق للتسلط الاجنبي » ٠

في حزيران ١٩٦٣ ، اعتقل الخميني بسبب مواقفه المعلنة ضد «الثورة البيضاء» وادى اعتقاله الى تمرد شعبي اجبر الشاه على اطلاق حريته ٠ ولكن الخميني عاد فوقف بعنف ضد القانون الجديد الذي يعطي الحصانة القانونية لالاف الخبراء العسكريين الاميركيين الموجودين في ايران فبادر الشاه الى نفيه عام ١٩٦٤ الى تركيا ثم الى العراق ، النجف الاشرف ٠

تبلور هذا التيار الشيعي الثوري الذي يمثله الخميني انطلاقا من مجازر حزيران ١٩٦٣ ، حين بادر مناضلو المعارضة الدينية ـ مثل رفاقهم الماركسيين ـ اللينينيين ـ الى تحضير الكفاح المسلح ٠

في عام ١٩٦٥ بادر ثلاثة من مناضلي حركة تحرير ايران ـ محمد حنيف نجاد ، علي اشفر بديزاديفان وسعيد محسن ـ الى انشاء منظمة مجاهدي شعب ايران المعروفة باسم المجاهدين ٠ وتوسعت المنظمة وتدرب اعضاؤها عسكريا في المخيمات الفلسطينية ٠ ولكنها ، وكبقية التنظيمات، اخترقت من قبل السافاك واعتقل عام ١٩٧١ ، ٧٥ من اعضائها من بينهم المؤسسون الثلاثة ٠ وفي مرافعته امام المحكمة العسكرية ، رسم سعيد محسن الخطوط العريضة لهذه الحركة التي اصبح الان الخميني رمزا لها ـ (راجع وثائق الحركة الثورية الايرانية ، منظمة مجاهدي شعب ايران) ٠

ونظرا لهول القمع ، لم يستطع المجاهدون ان يؤمنوا اللحمة السياسية مع الجماهير وحصروا نشاطهم من ١٩٧٣ الى ١٩٧٧ بالعمليات العسكرية ، وهذا ما اعترفوا به في نقدهم الذاتي الذي قدموه في اذار ١٩٧٨ ، لذلك قرروا الانخراط فيالحركة الجماهيرية التي بدات تنمو عام ١٩٧٨ ٠

وقد حاول بعض المثقفين ان يعيدوا قراءة القرآن على ضوء فهم تقدمي وتبلور ذلك في انتاج علي شريعتي الذي مات في لندن عام ١٩٧٧ وهو ما ساهم في ابراز الوجه الثوري للشيعة ٠

هذه هي اللوحة العامة بما فيها من تناقضات التي ادت الى الانتفاضة الجماهيرية العارمة التي عرفتها ايران عام ١٩٧٨ ٠

سهيل القش

الدكتور اميل توما « ستون عاما على الحركة القومية العربية الفلسطينية »
بيروت ، دار ابن رشد ودائرة الاعلام والثقافة ـ م٠ت٠ف الطبعة الثانية ، تشرين الاول (اكتوبر) ١٩٧٨ ، ٢٧٤ صفحة ٠

اميل توما اسم لا يحتاج الى اضاءة ٠ فممارساته السياسية الوطنية تشير اليه وترسم صورته ، وكتاباته التي تجاور ممارساته تعطي للصورة كل ابعادها ٠ فتوما ، مؤرخ وشاهد على تاريخ شعبه ، وعلاقة فاعلة في هذا التاريخ ومنذ

البداية حاول هذا « المثقف العضوي » ان يكتب تاريخ بلاده ، فكتب « جذور القضية الفلسطينية » ، وكتب في صحيفة «الاتحاد» وفي مجلتي «الجديد» الشهرية و «عراخيم» النظرية ، التي يصدرها حزب راكاح . وفي كتابه الجديد لا يشذ عن مساره بل يتابع نقطة البداية .

مشروع « مؤرخنا » طموح .. يبدأ من السنوات الصعبة الاولى ومن بدايات التآمر ليصل الى السنوات الصعبة « الاخيرة » . وتتراكم صفحات الكتاب لترسم التاريخ بين ضفتين : وعد بلفور وحاضر المقاومة الفلسطينية .

ان طموح المشروع « الدراسي » لا يعطيه قيمته بالضرورة ، فقد يبقى بين المشروع والتحقق مسافة ، وهذه المسافة تحاصر الطموح وترجعه الى عمل عادي .

ان طموح توما الذي حاول رصد كل التاريخ ارجع عمله الى مجرد دراسة وثائقية تفتقر الى التحليل والى الانارة الكافية . والكتاب في اكثر من مكان يتجلى كعمل ناقص ومبتور ، كأجابات على اسئلة غائبة او كأسئلة لاجابات يعوزها الحضور والوضوح .

بدأ الشعب الفلسطيني يتلمس اخطار المشروع الصهيوني منذ نهاية القرن التاسع عشر . ومنذ ذلك التاريخ تواصل النضال الوطني الفلسطيني واخذ اشكالا مختلفة، وتلاحق وتطور كنضال فلسطيني وعربي .

يستعرض كتاب توما تطور الحركة القومية العربية في الشرق العربي ، وانتقالها من شكلها القومي الشامل الى حركة قومية اقليمية ذات تيارات متباينة . وفي عملية التقاء وتفارق النضال العربي تكونت الحركة القومية العربية في فلسطين وعبرت عن نفسها في حركة الجماهير العفوية وفي نشوء الجمعيات الاسلامية ـ المسيحية . الا ان انتقال الحركة القومية من شكلها العام الى شكلها الخاص لم يلغ طموح « الوحدة السورية » لان الالغاء « يضر بمصالح البلاد الاقتصادية والعمرانية .. وبمصالح الوطنيين الثورية المحلية » .

وفي هذا المسار انقسم القوميون في فلسطين الى قسمين ، الاول انخرط في التيار القومي والاقليمي الذي فرضته الظروف الجديدة التي خلقها اقتسام القوى الامبريالية العالم العربي ، واستمر الفريق الثاني يعمل من اجل معركة قادمة تطمح الى تحرير وتوحيد سوريا الطبيعية .

اعتبر توما انعقاد المؤتمر الفلسطيني الثالث (١٩٢٠/١٢/١٤) بداية التنظيم القومي العربي في فلسطين .

وفي المؤتمر الخامس (١٩٢٢) رفض المجتمعون بضغط من الجماهير مشروع المجلس التشريعي الذي طرحته بريطانيا . اما لماذا رفض المشروع رغم انتساب اكثرية القادة الى طبقة اسياد الارض ذوي العقلية الاقطاعية بغض النظر عن مشاعرهم القومية ، ورغم اعتقادهم بامكانية التفاهم مع الامبريالية البريطانية ، فيرجع ذلك الى الضغط الشعبي المذكور والى التناقض الذي برز داخل المؤتمر بين اولئك الذين ارادوا المهادنة مع بريطانيا واولئك الذين ارادوا موقفا صلبا من المناورات البريطانية . ويقول توما ، ان قبول المجلس التشريعي كان سيوهن الكفاح الوطني ويضعف الكفاح القومي ، ويستنتج : « وهكذا صدق القوميون في موقفهم » .

عبر التناقض في القيادة القومية الفلسطينية عن نفسه في المؤتمر وفي نشوء منظمات سرية تدعو للكفاح المسلح ، كمنظمة « الكف الاسود » .

واجـــــه المؤتمر السادس (١٩٢٣) مشروع المعاهدة البريطانية ـ الحجازيـة وبرز جديا الصراع بين القيادة القوميـة التقليدية والقيادة الوطنية· وقد استطاعت الاولى فرض سياساتها وافشال قرار يدين الملك حسين ·

ادى هذا الخلاف الى تجزئة القيـــادة القومية وبداية نشوء الاحـــزاب ، الا ان « غياب التنظيم الحزبي حتى هذا الوقت يعود الى ان العناصر النشيطة في الميدان كان عليهـــا ان تستوعب التطـــورات السياسية ·· وبدء ارتباط محافل اجتماعية معينة بالانتداب » ·

ابرز توما علاقة الاحزاب الناشئـــة بالانتداب من جهة ، وبالحركة الصهيونية من جهة اخرى · فعينت بريطانيا الحاج امين الحسيني رئيسا لـ « المجلس الاسلامي الاعلى » (الهيئة العربية العليا فيمـــا بعد) وعينت راغب النشاشيبي رئيســا لبلدية القدس ، وخلقت بذلك مركز قـــوة من جديد · ونشأ ايضا « الحزب الزراعي» « الذي زرع الفرقة بين المدينة والريف »، و « الحزب الوطني » و « حزب الاهالي » و « حزب الدفاع » · والى جانب دعـــم بريطانيا احزاب الاقطاعيين الكبار ، دعمت الحركة الصهيونية ماليا و « استشاريـا » الحزبين الوطني والزراعي والجمعيـــة الوطنية الاسلامية ·

بعد ذلك « ينسف » توما مزاعم الحركة الصهيونية التي صورت الحركة القوميـة في فلسطين كحركة افندية ازاء بنـــاء صهيوني تقدمي ، فالصهيونية فـــــي ممارستها اعتمدت على الافندية بالضبط، ومن صفوفهم خرج اولئـك الذين باعـوا الارض واعطوا الضوء الاخضر لطـــرد الفلاحين من اراضيهم ·

اما في السنوات ١٩٢٥ ـ ١٩٢٨ ، التي تسمى سنوات « الهدوء » في فلسطين ، فلم تكن جمودا ، بل كانت الحركة القومية تشهد تفاعل القوى الاجتماعية فتفرز هذا التنظيم او ذاك وفي الوقت نفسه تواصل القيادة التقليدية العمل ·

ويتحدث عن دور الحزب الشيوعـــي الفلسطيني في الحركة القوميـة العربيـة الفلسطينية ، الذي على الرغـم مـــن مطاردات السلطة له ، طرح امام الحركة القومية بديلا لسياسة المهادنة مع بريطانيا فحدد العدو الجوهري ولم يهمل الصهيونية او القيادة الرجعية العربية ·

يعرض لاحداث تمرد الفلاحين (١٩٢٩) وخلفيتها الاقتصادية والسياسية ، والتباعد الذي نشأ بين القيادة التقليدية والجماهير الشعبية ، ولمؤتمر العمال العـــرب الاول عام (١٩٣٠) ·

ويتابع توما عرض النضال الفلسطيني: الاضراب التاريخي وثورة (١٩٣٦) ، والرد العربي القطري والقومي على مخطط التقسيم وتراجع بريطانيا عنه ، ثـــم صدور الكتاب الابيض والحرب العالميـة الثانية ووضوح التناقض بيـن المصلحـــة القومية للفلسطينيين والقيادة التقليدية ·

طوال تلك الفترة تتابع التضاد بيـــن الجماهير والقيادة السياسية · واتسمـت العلاقة بينهما بالفراق والاحتواء · تبـدأ الاولى انطلاقتها وتتحول الى سيل عـارم وطني يهـــدد المصالح الصهيونيـــة والبريطانية ، ثم تأتي القيادة التقليديـــة لتركب الحركـة وتستثمرهـا سياسيـــا وتدفعها الى الفشل والهزيمة · ومنـــذ الثلاثينات ، وقف الانسان الفلسطينـــي بمجموعه الفلاحية اصلا والمدينية امـــام تآمر ثلاثي المحاور : الرجعية ، الاستعمار الصهيونيه ·

لقد قدمنا عرضا مقتضبا وموجزا ، لمادة الكتاب ، لكن هذا الشكل من العرض لا تمليه ارادتنا بل مادة الكتاب وشكلها ،

فاميل توما لا ينطلق من موضوعـــات نظرية او مقولات ومفاهيم تاريخية ، بـل يقدم عرضا تجريبيا للتاريخ (كرونولوجي) انه يراكم معلومات احصائية وتواريـخ واستشهادات ·

ان الكتاب الذي بين ايدينا يحتوي على معلومات غزيرة وعلى وثائق عديدة مبوبة في فصول تعكس عناوينها فقط المنحى الذي يعرضها فيه الكاتب · فامامنا كتاب وثائقي اكثر منه تحليلي وكان من غير الممكـــن عرضه في هذا المجال سوى باعـــادة تلخيصه ، الامر الذي تفاديناه ·

يبرز امامنا تساؤل ، لماذا نعيد كتابة التاريخ ؟ كيف نكتبه ؟· هل كتابة تاريـخ ما او تاريخ حقبة معينة هي بهدف اعادة التذكير به ام اعـــادة رسم احداثـــه وتطوراتها واعادة ترتيب هذا التاريـــخ ورسم معالمه البارزة ؟·ولماذا نختار هذه الحقبة ؟ ما هو الهدف الابعد لكتابـــة التاريخ ؟ هل لحفظه ام لرؤيته من موقف نظري مغاير لما هو سائد ؟ ام لاستنبـاط « امثولات » منه وتجارب تفيد في ضبـط مجريات الحاضر وفي صنع المستقبل ؟·

لعل اعادة كتابة التاريخ هي بهدف فهم الحاضر وامكانيات تطوره والفعل فيه · اذا كان هذا هو الهدف ، فان كتاب توما لا يؤدي الى هذه الغاية على الاطلاق · بل هو ، مع اعتبار حجم واهمية المـــادة المطروحة فيه ، لا يمكن ان يصنف الا كتابا يحفظ الوثائق والمعلومات بطريقة مبوبة· ومما يجدر ذكره ، أن هذه المادة التـــي ضمها الكتاب نشرتها مجلة « الجديـد » على حلقات عام (١٩٦٩) تحت عنـــوان « دراسات في القضية الفلسطينية » مـــا عدا فصوله الاخيرة التي نشرت بعد العام (١٩٧٠) ·

ان الافكار الواردة فـي الكتـــاب او الاستنتاجات ، غير مدعومة على الاطلاق بتحليل من قبل الكاتب ، ولذلك امكـــن ازاءها « تأويل» المعلومات التي اوردهـــا للوصول الى استنتاجات مغايرة ·

نورد فيما يلي بعض الملاحظات النقدية التي تشير الى عدم التوافق بين اســلوب طرح المعلومات والتوصل الى الاستنتاجات بشكل يبدو مفاجئا او غير مدعوم بتحليـل مسبق :

١ ـ « اعرب هذا الانقسام [جمعيـــة العهد التي انقسمت الى قسمين ســـوري وعراقي اثر وضوح نيات الحلفــــاء واغراضهم] ·· عن عمق خطوط التجزئة الاقليمية التي خلفتها الاقطاعية (الشرقية) التي انتشرت في عهـــد اضمحـــلال الامبراطورية العربية الاسلامية وثبتتهـــا السيطرة العثمانية ـ» · ص ١٨

وردت هذه الفقرة دون ان يسبقها حديث عن الاقطاعية الشرقية في العالم العربي· ما هي علاقة الاقطاعية الشرقية بالتجزئة الاقليمية العميقة ، في حين كان امـــل الوحدة العربية ولا يزال مطروحـــا في معظم برامج الاحزاب العربية حتى الان ، ناهيك عن التيار الشعبي العام ·

٢ ـ « فجرت ثورة اكتوبر الاشتراكية الكبرى موجة ثورية في *انحاء العالم* ·· هزت هذه الموجة العالم العربي ·· فشهـد ثورات واصطدامات مسلحة في مصـــر (١٩١٩) والعراق (١٩٢٠) وسوريـــا (١٩٢٠) والمغرب الاقصى (ثورة الريف في العشرينات) » ص ٢٢ ·

لم يذكر هنا ايضا كيفية تأثير هـــذه الموجة الثورية على العالم العربي · هـل تم التعبير عن هذا التأثير في شعـــارات الثورات والاصطدامات المسلحة وبرامجها، ام كان التأثير فقط بـ « الايحاء » الثوري لاستلام العمال والفلاحين السلطة في اول بلد اشتراكي في العالم · وهل كانـــت هذه الثورات على نفس المستـوى مـــن

« التأثر » ؟٠ ما هي العوامل المفجـــرة لهذه الثورات واين التقى فيها تأثير الثورة الاشتراكية الكبرى بالاهداف الخاصة لهذه الثورات ؟٠

٣ ـ « ان الحركة القومية العربيـــة في فلسطين ثورية ولا يغير من طبيعتهـــا الديمقراطية تشجيع الامبريالية البريطانية عن طريق المتعاونين معها من الرجعيـــين العرب ، الاصطدامات العنصرية ٠٠٠ » ٠ « هذاما لاحظته القوى التقدمية فـــي العالم » ص ٢٤ ٠

ـ اما مؤتمر الشعوب الاول (باكـــو ١٩٢٠) فاعتبر ان بريطانيا تحاول زرع « الخلاف والتذمر والبغضاء بين جميـع الاطراف ولتضعف كلا الجانبين فتنفرد هي بالسيطرة » ص ٢٤ ٠

هل كانت الاصطدامات بين العـــرب والصهيونيين في فلسطين « عنصرية » ؟ اذا كانت كذلك فلماذا لم تقع قبل الهجرات والمستوطنات الصهيونية ؟

هنا ايضا نجد عدم مناقشة او تحليل المعلومات او على الاقل الحديث عـــن مقدمات توصل الى القول بان الهـــدف البريطاني كان الانفراد بالسيطرة ،وليس اعداد الصهيونيين ليكونوا قوة متكافئـــة من ناحية عدد السكان والمركز ، مـــع العرب ٠ رغم انه يذكر لاحقا (ص ٢٨) ان بريطانيا اعلنت ان هدفها هو ان يصبح لليهود في فلسطين مركزا يكون موضـــع اهتمامهم وفخرهم من الوجهتين الدينيـــة والقومية ٠

٤ ـ تميز المؤتمر العربـي الفلسطيني الخامس بالصراع بين المهادنين مـــع بريطانيا « وفي مقدمتهم موسى كاظـــم الحسيني » والمطالبين بصلابة الموقف ازاء المناورات البريطانية « ومن ابرز دعاتهـم توفيق حمد من نابلس ،المدينة التي مثـلت الى حد ما الصناعة الجنينية العربية » ٠ ص ٣٥ ٠

هنا ايضا لا نجد علاقة بيـــن نابلس وصناعتها الجنينية وبين توفيق حمـــد وموقفه الصلب ٠ بالاضافة الى انه لـــم يسبق هذا الربط اي حديث عن الاصـــول الطبقة للقيادات الفلسطينيـــة وعلاقـــة ذلك بمواقفها السياسية ٠ ومن البديهي ان تلك العلاقة لا يمكن ان تكون ميكانيكيـــة واحادية البعد كما ورد في الكتاب ٠

٥ ـ « وغياب التنظيم الحزبي ٠٠ يعود الى ان العناصر النشيطة في الميدان كان عليها ان تستوعب التطورات التي حصلت بعد الحرب العالميـــة الاولى وثبـــات [الانتداب] آنيا وبدء ارتباط محافـــل اجتماعية معينة معه ٠ ثم ان الحركـــة الصهيونية ٠٠ بدأت هي بدورها تسعى الى التسرب الى داخـل الحركة القوميـــة العربية ٠٠ » ص ٤٢ ـ ٤٣ ٠

لا نستطيع ان نقر بـان « استيعاب » العناصر النشيطة كان وحده قادرا علـى نشوء التنظيم الحزبي ٠ كان من المحتم ان يفرز النضال الوطني والافتـــراق

والتباعد بين القيادات التقليدية (لاسبابها الذاتية في معظـم الاحيـان) احزابـــا ومؤسسات سياسية ٠ الا ان هذه الاحزاب كانت محكومة بالمصالح الخاصة لقياداتها العائلية وبعلاقاتها الداخلية العائليـــة ٠ تطرح مسالة نشوء الاحزاب تشتت القاعدة الجماهيرية الموضوعي وضياعها امـــام احزاب لا وجود لكبير فرق في شعاراتهـا السياسية ولا اهدافها ٠

السؤال الذي يجب طرحه هنا هو غياب التنظيم او الحزب الطليعي الذي تلتقي فيه حاجة الجماهير الى تعبير سياسي متقدم وقائد ، مع طليعة ثوريـــة مبـــادرة ، اي الحزب الوطني القادر على رسم سياســـة وطنية تستطيع قيادة الجماهير والدفـــاع عن مصالحها الوطنية والاجتماعية ٠

٦ ـ « القيادة القوميـــة التقليدية ،

المتمثلة في الهيئة العربية العليا ، رفضت قرار التقسيم وساندتها دول الجامعة العربية التي اعلنت عزمها على احباطه . اما عصبة التحرر الوطني فايدت القرار». ص ٢١٠ .

كلنا يعرف ان قرار التقسيم كان مسالة على درجة كبيرة من الحسم والمصيرية بالنسبة للقضية الوطنية الفلسطينية . من الصعوبة بمكان ادراج موافقة العصبة عليه دون ان يورد الكاتب حيثيات الموافقة . في حين انه ذكر في موقع سابق (ص ٢٠٤) ان العصبة التزمت بقرار مقاطعة اللجنة الدولية « لا اقتناعا بصدقه بل رغبة منها في صيانة الوحدة الوطنية». اذن ، كان هاجس الموقف الوطني الموحد قائما في احد مواقف العصبة ، فاين كان هذا الهاجس لدى موافقتها على قرار التقسيم ؟ وما هو معيار الوحدة الوطنية في هذه الحال ؟

لكن لا يمكن انكار موقف الشيوعيين الفلسطينيين الحازم ضد الحاق الضفة الغربية بالنظام الهاشمي ، وضرورة قيام دولة فلسطينية مستقلة في الضفة ، وقيادتهم النضال الشعبي ضد الالحاق .

٧ ـ « الغزوات الاسرائيلية ضد السكان الآمنين وضد اللاجئين الفلسطينيين في المخيمات ، منها ما جرى في غزة (١٩٥٣) و (١٩٥٤) . ص ٢٣٤ .

لا يورد الكاتب اي جملة تتناول دفاع الشيوعيين في قطاع غزة ضد الغزوات الاسرائيلية ، ولا نضالهم الوطني المستقل هناك ولو انه دام فترة زمنية بسيطة .

٨ ـ « اهملت واعيا ظاهرة ، الفدائيين ، الذين نشطوا في اواسط الخمسينات وخصوصا قبل حرب سيناء او العدوان الثلاثي على مصر في خريف (١٩٥٦) ، لان هؤلاء نشأوا في اطار سياسة مصر آنذاك ، ولم يمثلوا في رأي الكثيرين من القوميين العرب الفلسطينيين ، تنظيما فلسطينيا ... وقد توقف نشاطهم فعلا واختفى تنظيمهم بعد تلك الحرب ولم يؤلفوا خميرة المنظمات الفلسطينية التي تؤلف اليوم الحركة القومية العربية الفلسطينية » . ملاحظة (١٠) ص ٢٤٤ .

ـ « ان الهوية القومية الفلسطينية لم تختف ، بل اختفى تعبيرها السياسي المنظم ...اما تعبيرها الثقافي فاغتنى ، كما ذكرنا ، بأدب الحنين الى فلسطين » . ص ٢٤٠ ـ ٢٤١ .

يبدو من المقتطفين السابقين ، ان توما، ولانه يتابع في كتابه النضال الفلسطيني كنضال اقليمي مستقل ، « اهمل واعيا » ظاهرة انخراط عدد من الفلسطينيين في العمل المسلح في اطار سياسة مصر .

لم يكن هذا الانخراط بعيدا عن انخراط مجمل الحركة الوطنية الفلسطينية في اطار الاحزاب القومية العربية . ورغم « اختفاء تعبيرها السياسي المنظم » ، الا انها انخرطت واعية في ذلك الاطار العربي الشامل على قناعة بشعار ان الوحدة العربية تقود الى فلسطين .

لذلك كان من المهم دراسة هذه المرحلة بدلا من تجاهلها ، لانها سادت فترة تشكل حوالي ٢٠٪ من سنوات النضال الفلسطيني التي يغطيها الكاتب . اضف الى ذلك ، ان هذا الانخراط شكل قاعدة لوعي فلسطيني جديد ، وعي يربط الخاص بالعام . فلا يمكن دراسة « الظاهرة الفدائية » دون دراسة تكوين الوعي الفلسطيني وتشكل الشخصية الوطنية الفلسطينية المتميزة .

٩ « واخيرا ، ان التطرق الى موضوع المنظمات الفلسطينية المسلحة ، التي برزت بشكل جدي بعد (١٩٦٧) ، والى منظمة

التحرير الفلسطينية ، بشكل سريع (٢٠ صفحة) ، بالطبع سيكون مقتضبا وغير ملم بكافة حيثيات النضال وظروف نشأته مستقلا · لذلك جاءت بعض احكامه سريعة وغير مفندة ، ولا تقدم للقارىء مواقف هذه المنظمات او رأيها فيما يعتبره توما ، عناصر اضعاف ·

يقدم عمل توما مادة تاريخية اولية لعمل نظري فالمؤلف يحاول تقديم رؤيا مادية لنضال الشعب الفلسطيني ، المرتبط جملة من المستويات السياسية والاقتصادية والايديولوجيةالتي تؤلف بنية المجتمع الفلسطيني · لكنه لا يدرس هذه المستويات ويعتبرها تحصيل حاصل او بداهة لا تحتاج الى برهان ·

اذا كان مسار الشعب الفلسطيني قد اضاء حاضره ، فان توما ينطلق من وضوح الحاضر ليشرح الماضي لكن المجهول بقي مجهولا · فهو يسقط الصراع الراهن والقائم في الحاضر على الماضي و « يشرح » ، الماضي بلغة الحاضر ·

ان كتابة التاريخ تعطي من حيث المبدأ انارة نظرية ومساهمة نضالية · لكننا نعتقد ان اميل توما لم يحقق مشروعه، فقد بقيت « الانارة الضرورية » غائبة ، وكسب الارشيف مع ذلك مادة هامة جيدة العرض ·

غادة كنفاني

SAMI KHALIL MAR'I, **ARAB EDUCATION IN ISRAEL**, (SYRACUSE UNIVERSITY PRESS, SYRACUSE : 1978)

في معرض تعليقه على النشاط السياسي الذي يمارسه الطلبة العرب في الجامعات الاسرائيلية ، تفوه السيد اوري لوبراني مستشار رئيس الوزراء الاسرائيلي للشؤون العربية في عام ١٩٦١م بهذه الكلمات : « من المحتمل جدا ان الوضع سيكون افضل اذا لم يكن هناك اي طالب عربي في الجامعة · ومن المحتمل ان تكون السيطرة عليهم اسهل اذا ظلوا يعملون حطابين وسقائين · ولكن هناك اشياء لا تعتمد على التمنيات » · هذه العبارة تلخص سياسة السلطات الاسرائيلية تجاه تعليم العرب · مفهوم لن سيكون الوضع افضل اذا لم يلتحق اي عربي بالجامعة وظل يعمل حطابا او سقاء ·

تعليم العرب في اسرائيل موضوع هام حظي بعناية واهتمام عدد من الدارسين والباحثين الفلسطينيين · وترجع اهمية الموضوع الى حقيقة ان الدراسات والابحاث التي عالجت الموضوع اشارتالى ان السلطات الاسرائيلية تستخدم جهاز تعليم العرب كأداة لتحقيق اهدافها وترسيخ اقدامها في فلسطين . وكوسيلة لانتاج جيل عربي ذليل يخدم السياسة الصهيونية دون ابداء معارضة · ورغم اهمية الموضوع فان الدراسات والابحاث الموضوعية التي عالجته لا تزال قليلة ·

الدراسة موضوع المراجعة هي احدى الدراسات القيمة والشاملة في هذا الموضوع ·

المؤلف الدكتور سامي خليل مرعي خبير في الموضوع الذي يكتب عنه · فهو احد الفلسطينيين الذين خضعوا للحكم الاسرائيلي بعد عام ١٩٤٨ م · وهو قد عاصر واختبر نظام تعليم العرب في اسرائيل · حصل المؤلف على البكالوريوس والماجستير من « الجامعة العبرية » في القدس والدكتوراه في التربية من جامعة « وسكنصن » في الولايات المتحدة · عمل مدرسا في المدارس العربية وفي كليات اعداد المعلمين · كذلك شغل وظيفة باحث مشارك في « معهد التجديدات التربوية » ومديرا « لمعهد بحث وتطوير التعليم العربي » التابعين لجامعة حيفا · وهو يعمل محاضرا بنفس الجامعة · شغل المؤلف ايضا وظيفة استاذ مشارك زائر في جامعة ولاية ميتشيغن في الولايات المتحدة اعد خلالها للدراسة موضوع المراجعة · وللمؤلف عدد من الابحاث والدراسات التي تتناول تعليم العرب في اسرائيل ·

الدراسة موضوع المراجعة تقع في ٢٠٩ صفحات : مقدمة ومدخل وتسعة فصول وملحقان · يذكر المؤلف في المقدمة بأن الكتاب فضلا عن انه يعالج موضوعا معينا وهو تعليم العرب في اسرائيل فانه يتعرض لعدد من القضايا والمسائل ذات البعد العالمي ، مثل التربية والسياسة والتربية المقارنة ، وتربية المجتمعات النامية وتربية الاقليات · يناقش المؤلف في مدخل الكتاب الوضع الفريد

والتناقض الذي وجد العرب انفسهم فيه بعد قيام اسرائيل عام ١٩٤٨ م· فمن جهة اصبحوا يشكلون اقلية ـ بعد ان كانوا أغلبية ـ تعيش مع اغلبية يهودية كانت ولا تزال في حالة حرب مع اخوانهم وبني وطنهم · ورغم انهم قد اصبحوا اقلية من الناحية العددية فهم لا يشعرون كما تشعر الاقلية ، اذ يدركون انه يعيش بجوارهم اغلبية من الفلسطينيين والعرب· ومن جهة اخرى يتعرض المجتمع العربي في اسرائيل ـ كغيره من المجتمعات النامية ـ الى مظاهر التحديث المختلفة · غير ان مصدر التحديث في هذه الحالة هو الاغلبية اليهودية والتي هي عدوهم ·هذا الوضع الفريد والمتناقض للعرب في اسرائيل يطرح عددا من المسائل والقضايا التي تستحقق الدراسة · الا ان الدراسة موضوع المراجعة تركز كما يذكر المؤلف على فحص لنوعية وكفاءة نظام تعليم العرب في اسرائيل في ضوء القوى المختلفة التي شكلته وصاغته ·

يمهد المؤلف لدراسته في الفصل الاول بعرض موجز للوضع السياسي والاقتصادي والاجتماعي والتاريخي بما في ذلك الوضع التعليمي للعرب في فلسطين منذ العام ١٨٧٥ م ، وخصوصا في الفترة بعد عام ١٩٤٨ م· ويحتوي الفصل على مقارنة احصائية بين السكان العرب واليهود ونسب كل منهم في مراحل التعليم المختلفة ·

يتضح من المقارنة الفجوة الكبيرة في التعليم لصالح اليهود · ففي الوقت الذي تصل فيه نسبة الملتحقين بالمدارس الابتدائية بين اليهود الى ٩٩٪ لا تصل بين العرب الا الى ٨٢٪ . وفي الوقت الذي تصل فيه نسبة الطلبة العرب الذين هم في سن الدراسة الثانوية (بين ١٤ و ١٨ سنة) الى ٢٠٪ ، فان نسبة الملتحقين فعلا هي ١٠٪ ، اما فيما يتعلق بالتعليم الجامعي فقد كانت نسبة الطلبة العرب الملتحقين بالجامعات الاسرائيلية في عام ١٩٧٤ م أقل من ٢٪ رغم ان نسبة السكان العرب الى اليهود كانت ١٥٪ في عام ١٩٧٣ م ·

يعالج المؤلف في الفصل الثاني تحت عنوان « المدرسة والمجتمع » وضع

المدرسة فيالقرية العربية كما يراها اولياء الامور وكذلك طبيعة العلاقة بين المدرسة والمجتمع العربي الريفي . ويتعرض للتغييرات التي طرأت على المجتمع العربي في اسرائيل وتأثير هذه التغييرات على : ـ العلاقة بين اولياء الامور والمدرسين ، المدرسة والحمولة ، نسبة العنصر النسائي في مهمنة التدريس ، المساواة في الفرص التعليمية والمناهج المدرسية واهدافها .

اهداف وسياسات قسم تعليم العرب ، والوضع الاداري لهذا القسم هي موضوع الفصل الثالث . يبين المؤلف انه حتى عندما شكلت السلطات الاسرائيلية لجانا مهمتها وضع اهداف لتعليم العرب ـ مثل اللجنة التي شكلت عام ١٩٧٢ م والتي اصدرت ما يعرف باسم « وثيقة يادين » ـ جاءت الاهداف طامسة ومشوهة للهوية العربية . كما ان هذه الاهداف تحاول تنشئة الطالب العربي على اعتناق ونقبل القيم السائدة في المجتمع الاسرائيلي . لقد كان اعضاء هذه اللجان من اليهود . ولذا فليس من الغرابة ان تعالج الاقلية العربية في توصياتها معالجة هامشية وان تنحصر جهودها في كيفية استخدام التعليم للتلاعب والسيطرة على الاقلية العربية لمصلحة الاغلبية اليهودية . أما بالنسبة للوضع الاداري لقسم تعليم العرب فهو يتفق مع الاهداف التي توختها السلطات الاسرائيلية من هذا النظام .

فللعرب نظام تعليم منفصل تسيطر عليه السلطات الاسرائيلية سيطرة كاملة ويرأسه

يهودي كما هي الحال في بقية الاقسام المختصة بشؤون العرب . ويشكل نظام تعليم العرب اداة من خلاله يتم التلاعب والسيطرة على الاقلية من خلال نظام ثواب وعقاب . فتعيين الموظفين والمدرسين لا يخضع للكفاءة وانما للولاء ومن لم يطبق سياسة الحكومة يفصل من عمله .

يعالج المؤلف في الفصل الرابع المناهج المدرسية . ويقارن بين المناهج في كل من المدارس العربية واليهودية في مواد التاريخ واللغة والادب والعقيدة . تشمل المقارنة اهداف دراسة كل مادة والساعات المحددة لدراستها والموضوعات التي تدرس . يتضح من المقارنة ان المناهج في المدارس العربية ـ المعدة من قبل السلطات الاسرائيلية ـ تتجاهل الهوية العربية وهي بذلك تتفق مع اهداف السلطات الاسرائيلية في السيطرة على العرب .ففي مادة التاريخ مثلا تؤكد الاهداف في المدارس اليهودية على غرس الشعور بالانتماء للشعب اليهودي وتشجع على اعتناق الاهداف الصهيونية ، بينما في المدارس العربية تنحو هذه الاهداف الى طمس وتشويه الشعور القومي لدىالطالب العربي وتتجاهل الهوية الفلسطينية تجاهلا تاما . هذا علما بان المناهجالمعدة للطالب العربي تؤكد على تطوير الانتماء للقيم اليهودية وتعمل على اشباع الطالب العربي باتجاهات الود والاعجاب نحو اليهود ودولة اسرائيل . وقد دفع هذا الطالب العربي الى التوجه الى وسائل التعليم غير الرسمية خارج اسرائيل مثل الاستماع الى برامج دور اذاعة وتليفزيون الاقطار العربية المحيطة باسرائيل . وقد كان لوسائل التعليم غير الرسمية هذه اثر كبير في تلافي النقص والتشوية في التربية الوطنية التي يتلقاها الطلبة العرب في اسرائيل من خلال المناهج الرسمية ، وكذلك في ربط الانسان العربي بأبناء وطنه وقوميته .

الدمج والعزل الاجتماعي والتعليمي بين العرب واليهود هو موضوع الفصل الخامس . يتعرض المؤلف الى تجارب الدمج المحدودة في اماكن الاقامة والتعليم بين العرب واليهود ويخلص الى انها كانت محاولات فاشلة بسبب التمييز وعدم

الثقة والكراهية المتبادلة التي تراكمت على مدى السنين بالاضافة الى خوف العرب من فقدان هويتهم الوطنية · ويؤكد المؤلف ان محاولات الدمج هذه لم تكن الا محاولات قامت بها الاغلبية اليهودية لتكريس سيطرتها السياسية والاقتصادية على الاقلية العربية ·

يعالج الفصل السادس من الكتاب التعليم الجامعي للعرب في اسرائيل · وتظهر المعالجة ان نسبة عدد الطلبة العرب في الجامعات الاسرائيلية اقل بكثير من نسبة عدد الطلبة اليهود ·وتزداد الفجوة اتساعا بالمقارنة مع الفلسطينيين في الضفة الغربية حيث نسبة عدد الطلبة الجامعيين الى السكان تصل الى اكثر من عشرة اضعاف النسبة بين العرب في اسرائيل · هذا علما بأن نسبة التعليم الجامعي بين الفلسطينيين من اعلى النسب في العالم بالمقارنة ليس فقط بالدول العربية والدول النامية بل والدول المتقدمة· يصف المؤلف هذه النسبة العالية بـ « الظاهرة الفلسطينية » ويشرح بشيء من التفصيل العوامل التي سببت الفجوة الكبيرة في التعليم الجامعي بين الفلسطينيين في الضفة الغربية واخوانهم في اسرائيل · يتعرض المؤلف في نهاية الفصل للدور القيادي الاجتماعي والسياسي الذي يقوم به الطلبة العرب في الجامعات الاسرائيلية · ويميز المؤلف بين فترتين من فترات نشاطهم · في الفترة الاولى ــ قبل عام ١٩٦٧ م ــ تركز نشاط الطلبة العرب على المطالبة بالحقوق المدنية والسياسية ، بينما اتخذ نشاطهم في الفترة الثانية ــ بعد عام ١٩٦٧ م ــ طابعا سياسيا وطنيا تمثل في الاضرابات والمظاهرات بهدف ايقاف مصادرة الاراضي واطلاق سراح السجناء السياسيين والعمل على اقامة الدولة الفلسطينية ·

الفصول الثلاثة الاخيرة من الكتاب تعالج مواضيع متفرقة · في الفصل السابع يتعرض المؤلف لعدد من المتغيرات الطلابية ، كالتحصيل الدراسي والقدرات الفكرية ويقارن بين الطلبة العرب في اسرائيل والطلبة العرب في الضفة الغربية ، والطلبة اليهود بالنسبة لهذه المتغيرات· يعالج الفصل الثامن التغييرات الاقتصادية والاجتماعية والسياسية التي طرأت على المجتمع العربي في أسرائيل ومدى استجابة نظام تعليم العرب لهذه التغييرات ·

كذلك يناقش المؤلف التعليم الفني والتكنولوجي للعرب من خلال استبيان قامت به سلطة البحث بوزارة التربية الاسرائيلية · في الفصل الاخير يتعرض للتغيير المقصود وغير المقصود ويناقش الافكار والمفاهيم التربوية السائدة المتعلقة بقضية تعليم الاقليات في المجتمعات ذات الثقافات والاجناس المتعددة ومدى تطبيقها على الاقلية العربية في اسرائيل ·

فيما يلي بعد هذا العرض للموضوعات التي عالجتها الدراسة بعض الملاحظات الانتقادية :

١ ــ اسلوب المؤلف ليس بالاسلوب السهل في بعض اجزاء الكتاب كما انه لم يكن موحدا في كل فصول الكتاب · كاستخدام المؤلف للجمل الطويلة المعقدة التي يصعب استيعاب معناها عند قراءتها للمرة الاولى ·

٢ ــ معالجة المؤلف لموضوع دراسته لم يكن متساويا خلال فصول الكتاب ·· فالفصل الثاني يبدو في غير محله ،وتبدو عناوين موضوعاته غير متصلة ببعضها البعض · وبالمقابل فالفصل الاخير يشكل وحدة متكاملة عالج فيها المؤلف قضايا وثيقة الصلة ببعضها البعض بطريقة جيدة ·

٣ ــ كان من الافضل لو تعرض المؤلف بشيء من التفصيل في الفصل الثالث للوضع الاداري والممارسات الادارية في

قسم تعليم العرب ٠

من الامور التي كان يمكن معالجتها بشيء من التفصيل في هذا المجال :

اجراءات تعيين المدرسين والموظفين ـ القوانين والاجراءات التي تتحكم بادارة القسم ـ مصادر تمويل القسم ٠

٤ ـ وردت بعض الاحكام والتي نبدي تحفظنا عليها ٠ مثال ذلك ما ورد في صفحة ٦ حيث يذكر المؤلف « خضع تعليم العرب في اسرائيل من الناحية التركيبية والثقافية للمبدأ العام « منفصل ولكنه مساو » ٠ حقيقة ان العرب في اسرائيل خاضعون لنظام تعليم منفصل ولكنه غير مساو لنظام تعليم اليهود ٠ والمقارنات الكمية والنوعية التي يوردها المؤلف في كثير من فصول الكتاب تشير الى ان تعليم العرب لم يكن مساويا لتعليم اليهود ٠

الملاحظات السابقة لا تنتقص باي حال من الاحوال من قيمة هذه الدراسة القيمة والشاملة ٠ وقيمة الدراسة تكمن في انها تناولت موضوعا هاما تنقصه المراجع وتعوزه الاحصاءات الدقيقة الشاملة ٠ لقد قدم المؤلف في دراسته الكثير من المعلومات عن تعليم العرب في اسرائيل واعتمد في معلوماته على المصادر الاولية وعلى الابحاث التي شارك هو في جزء منها ٠ كذلك فان معرفة المؤلف والمامه بمشاكل تعليم الاقليات وخاصة في الولايات المتحدة مكنته من اضافة بعد جديد الى دراسته ٠ ولا شك أن الدراسة جديرة بالترجمة لتصبح في متناول قراء العربية ٠

احمد محمود بدر

المناطق المحتلة

ابرز ما ميز الفترة القصيرة الماضية وضوح الفهم الاسرائيلي تجاه مستقبل الاراضي الفلسطينية المحتلة ، المرفق باجراءات استيطانية وما يستتبعها من مصادرة للاراضي وهدم للبيوت ،والمصاحب بفظائع همجية ارتكبها غلاة المتطرفين المستوطنين في الكيان الاسرائيلي بتشجيع من السلطات نفسها ·وفي المقابل شهدت المناطق المحتلة حالة من النهوض الوطني للجماهير الفلسطينية تمثلت في الاضرابات والتظاهرات العامة وعقد المؤتمرات بهدف التصدي لاطراف ثلاثة : سلطات الاحتلال وغوش ايمونيم وسياسة النظام المصري ·

الفهم الاسرائيلي للحكم الذاتي

مع اقتراب المفاوضات بين مصر واسرائيل والولايات المتحدة حول ماهية الحكم الذاتي في الضفة الغربية وقطاع غزة ، اخذت ملامح السياسة الاسرائيلية تكتسب مزيدا من الوضوح ، بحيث اصبح معروفا ان الفهم الاسرائيلي للحكم الذاتي الوارد في اتفاقيتي كامب ديفيد هو : استمرار السيطرة الاسرائيلية على جميع الاراضي الفلسطينية بدون محاولة التستر على ذلك بعبارات غامضة كما كان الامر في السابق ·

ويمكن استشفاف الفهم الاسرائيلي من خلال الوثيقة التي كتبها بيغن لتسترشد بها الحكومة الاسرائيلية في مفاوضاتها مع مصر حول مصيرالضفة الغربية وقطاع غزة ، ومن تصريحات الزعماء الاسرائيليين· ففي الثالث من ايار الماضي عرض بيغن امام مجلس الوزراء وثيقة من خمس صفحات تعتمد على مشروعه ذي الـ ٢٦ بندا ، الذي كان قدمه الى الرئيس السادات في الاسماعيلية ـ ورفضه الاخير في حينه ، الى جانب عدد من البنود المستوحاة من اتفاقيةكامب ديفيد ·

وقد اوردت وسائل الاعلام الاسرائيلية البنود الرئيسية في الوثيقة الجديدة، وهي: منح مجلس الحكم الذاتي صلاحيات ادارية فقط دون الصلاحيات التشريعية التي ستبقى وفق الوثيقة بيد اسرائيل ، وسريان مفعول الحكم الذاتي على السكان دون الارض · وفيما يتعلق بالاراضي العامة فستعد « للخدمات العامة » بحيث تأخذ بعين الاعتبار « متطلبات الاستيطان اليهودي » وكذلك متطلبات « تأهيل اللاجئين العرب » · اما السيطرة على الامن الداخلي والخارجي والنظام العام ، وما تستدعي من وجود قوات عسكرية ، فستكون بيد اسرائيل التي ستتعاون ـ وفق الوثيقة ـ مع قوة شرطة محلية · وتؤكد الوثيقة ايضا في اكثر من مكان على حق اليهود في الاستيطان في مناطق الحكم الذاتي الى جانب حق العرب في الخيار بين جنسيتين فقط : الجنسية الاردنية او الاسرائيلية · كما وتؤكد على زوال معالم « الخط الاخضر » الى الابد وعلى حرية

الحركة والتنقل (سكانيا وتجاريا) بين قطاعي الحكم الذاتي واسرائيل (هآرتس ١٩٧٩/٥/٤) ٠

لم يدع مناحيم بيغن مناسبة الا واعرب عن موقف حكومته ، المستمد من روحية وثيقته والداعي الى مواصلة النشاط الاستيطاني في المناطق العربية المحتلة ، مؤكدا على ان ليس في ذلك ما يتنافى مع معاهدة السلام ، اعتقادا منه ـ كما قال امام مركز حيروت ـ « اننا لم نتعهد ابدا ولن نتعهد بعدم اقامة مستوطنات جديدة في مرحلة السنة الاولى من المفاوضات حول الحكم الذاتي ٠ ولم يسبق لنا ابدا ان قبلنا الرأي القائل بأن الاستيطان في يهودا والسامرة غير قانوني ويشكل حجر عثرة امام السلام » ٠ وكشف بيجن النقاب عن اقامة ٣٦ مستوطنة جديدة في الضفة الغربية وقطاع غزة وهضبة الجولان ابان فترة حكمه ، وتهجم على اولئك الذين يدعون ان العمل الاستيطاني يتنافى والفقرة ٤٩ من ميثاق جنيف بقوله : « ان هذا اتهام خطير ٠٠٠ اننا لم نطرد ولم نبعد العرب عن اراضيهم من جراء استيطاننا ٠ ولم نسلب اي عربي ارضه» (دافار ١٩٧٩/٤/٣٠) ٠

التحرك الاستيطاني

رافق الفهم الاسرائيلي لمصير المناطق العربية المحتلة تحرك استيطاني « رسمي » وآخر « غير رسمي » تخللته اعمال همجية ٠ وقد انصب هذا التحرك في الاراضي السورية والفلسطينية المحتلة ٠ ففي التاسع عشر من نيسان اعلنت الحكومة الاسرائيلية عن قرارها باقامة مستوطنتين جديدتين في هضبة الجولان ، تقعان في القسم الجنوبي من الهضبة عند التقاء الحدود السورية الاردنية الفلسطينية ، وهما « سخيخ » و « دباسيه » الى جانب المستوطنات الثلاث التي كانت سلطات الاحتلال قد اقرت قيامها قبل مدة ٠ واعلن وزير الزراعة ارئيل شارون امام المستوطنين هذا القرار بقوله : « لقد جئت هنا بمبادرة مني لاتحدث امامكم عن موقف الحكومة باسم رئيس الحكومة والوزراء ، القائل بعدم الانسحاب من هضبة الجولان » ٠ واعاد شارون تمسك اسرائيل « الى الابد » بالجولان الى ثلاثة عوامل : (١) صغر حجم الجولان ، (٢) احتياطي المياه الموجودة فيه ، (٣) التغيير التام الذي طرأ على الوضع عقب ما اسماه بـ « سيطرة السوريين على لبنان » (عل همشمار ، ١٩٧٩/٤/٢٠) ٠

وفيما يخص النشاط الاستيطاني في الضفة الغربية ، فقد اتخذت الحكومة الاسرائيلية في العاشر من نيسان الماضي قرارا باقامة مستوطنتين جديدتين في منطقة نابلس ، احداهما مستوطنة مدنية. تم تخصيص الاراضي لهما ٠ هذا الى جانب اعتزام الحكومة الاسرائيلية اقامة عشر مستوطنات جديدة اخرى في الضفة الغربية « في اقرب وقت » ، كما جاء على لسان الوزير حاييم لانداو (ر٠ا٠ا٠ ، ١٩٧٩/٤/١١) ٠

الا ان القضية التي فرضت ظلالها على الضفة الغربية ، والناجمة اصلا عن سياسة الاستيطان ، هي مصادرة الاراضي ٠ ففي شهر نيسان الماضي زارت التراكتورات الاسرائيلية منطقة نعالين في قضاء رام الله، واحتلت ٧٠٠ دونم من اراضي القرية ، لتقوم بعملها المعتاد لاقامة مستوطنة يهودية عليها ، الامر الذي دعا الاهالي للتوجه بشكوى الى الحاكم العسكري لمدينة رام الله ، ومن ثم الى محكمة « العدل العليا » التي لم تجد امامها الا اصدار امر احترازي ضد وزير الدفاع وحاكم الضفة الغربية تطلب فيه منها ان يوضحا سبب « عدم اخلاء التراكتورات » من منطقة نعالين ٠

وامتــدت يد المصادرة ايضا الــى اراضي منطقة سلفيت حيث وضعــت سلطات الاحتلال يدها ، بشكل « رسمي » هذه المرة ، على اكثر من ٣٠٠٠ دونــم لتوسيع مستوطنة هرئيل · وازاء ذلــك تحركت بلدية سلفيت والقرى المجاورة لها مدعومة بالمجالس البلدية والمحليــة في الضفة الغربية ، وارسلت برقيات الى المسؤولين الاسرائيليــن وكذلك الــى السكرتير العام للامم المتحدة تشجــب اعمال مصادرة الاراضي ، وتدعو الــى رفع المصادرة عنها ولا تكتفي سلطــات الاحتلال بمصادرة الاراضي العربية لاقامة المباني اليهودية فوقها ، بل تنشط بيــن الحين والاخر بهدم البيوت العربية · ففي الثامن من نيسان زارت معاول الهــدم الاسرائيلية منطقة قرية الرام العربيــة الواقعة بين القدس ورام الله وهدمت احد البيوت بحجة انه يعيق شق الطريق الجديد الذي سيربط بين المستوطنات الاسرائيلية في تلك المنطقة · والانكى من ذلك هــو مطالبة سلطات الاحتلال صاحب البيت ، المسؤول عن تربية عشرة افراد ، بـ « دفع اجرة جرافة الهــدم » (الاتحــاد ، ١٠/٤/١٩٧٩) لمخالفته الامر الصــادر بهدم البيت ولم يقم هو بهدم بيته بنفسه · وقد وجهت رسائل هدم الى عدد اخــر من اصحاب البيوت في تلك المنطقة ·

وكانت سلطات الاحتلال قد اقدمت عنــد مطلع نيسان على اغلاق خمس ممرات في مخيم العمرية للاجئين بأسوار من الباطون بهدف فصل المخيم عن القدس · وقــد تصدى الاهالي لهذا الاجراء وقاموا بهدم اجزاء من الاســوار ، الا ان سلطــات الاحتلال عادت واشادتها تحت حراســة مشددة ·

تحرك غلاة المستوطنين

وفي غضــون ذلك تحرك غــلاة المستوطنين واقترفوا فظائع ضد السكان العرب وبساتينهم ، واخذ التحرك اشكالا عدة ، من اهمها :

١ ـ مسيرة جوش ايمونيم : في الثاني من ايار الماضي قامت حركة جوش ايمونيم بمسيرة استيطانية ضخمة ، اشترك فيها حسب مصــادر الحركة قرابة ٨٠ الف شخص ، اخترقت مناطق مختلفة مــن الضفة الغربية وتمركزت في مستوطنــة تبوح بين نابلس ورام الله · وتحدث احد قادة الحركة عن هدف المسيرة بقوله انهــا « تشكل جوابا حاسما لكل اولئك الذيــن ادعوا بأن الجمهور المستعد للقتال مــن اجل تكامل البلاد يوشك على الاختفــاء تماما على اثر السلام · ان هذه القــوة ستهب ، اذا ما تطلب الامر ، للتصــدي للمؤامرة التي تستهدف التخلي عن اجزاء من ارض اسرائيــل » (معاريــف ، ٢/٥/١٩٧٩) ·

وفي الطريــق الى نقطــة التجمع ، اصطدم المستوطنون مع السكان العــرب في اماكن مختلفة ، كان اشدها الاصطدام في بير زيت ، حيث واجهوا تظاهــرة طلابية في شوارع المدينة ، ترفع الاعلام الفلسطينية والشعارات الوطنية · وعنــد ذلك تقدم المستوطن البروفيسور عــزرا زوهر ، عضو سكرتارية جوش ايمونيــم واطلق رصاصة من مسدسه نحو الطالب الفلسطينــي رائــد داوود (١٨ سنة) لتستقــر في صدره وينقل بعدها الــى المستشفى في حالة خطرة · وقد فــر الجاني بعد ذلك الى مستوطنة نفيه تسوف القريبة · وبقيت الاشتباكات قائمة الــى ان قدمت قــوات الجيش الاسرائيلــي واشتبكت مع المتظاهرين العرب وفرقتهم ، وفرضت حظر التجول في منطقة جامعــة بير زيت واعلنــت اقفالها « حتــى اشعار اخر » وألحقت هذا العمل بإعلان اخر اغلقت فيه جامعة بيت لحم وعددا من المدارس الثانوية في الضفة الغربية بسبب

التظاهرات الوطنية ·

والجدير بالذكر ان مستوطني نفيه تسوف اعلنوا الاضراب احتجاجا على « وضعهم الامني » ورفضوا التعاون مع رجال الامن للتحقيق في اصابة الطالب العربي · ومع ذلك ، وتحت ضغط بعض الصحف التي اخذت تتحدث عن البروفيسور الجاني ، اجرى « القضاء » الاسرائيلي تحقيقا شكليا مع عزرا زوهر ، واطلق سراحه واعاد اليه المسدس الذي ثبت في التحقيق ان النار اطلقت منه (هآرتس ، ١٩٧٩/٥/٤)·

وفي الوقت الذي وقف فيه القضاء الاسرائيلي الى جانب الجاني ، اتخذ خطوتين تشيران الى مدى « نزاهة » القضاء في دولة ترتكز في اساسها على الاحتلال : الاولى بحق طالب عربي ، اذ صادقت محكمة « العدل العليا » على ابعاد الطالب الفلسطيني ، رياض ابو عواد ، لنشاطه الوطني ، من جامعة بير زيت الى لبنان · ولم ير القضاة في ذلك ما يتنافى مع ميثاق جنيف « لان الميثاق » ، حسب رأي القضاة « لا ينقص من واجب الدولة المحتفظة بالمناطق بالاهتمام للحفاظ على النظام العام فيها ، ولا من حقها في ان تأخذ الوسائل اللازمة من اجل امنها » (معاريف، ١٩٧٩/٥/٤)·

والخطوة الثانية تتمثل في تخفيف الحكم الصادر بحق المستوطن اليهودي يسرائيل لدرمان قاتل المواطن العربي خليل الصمان ، في ايلول ١٩٧٨ ، من ٢٠ عاما الى ٣ اعوام !

ويبدو ايضا ان حمى الاستيطان قد دفعت بعدد من المستوطنين الى استخدام الاسلحة النارية في مواجهة الاهلين العرب. فقد تكرر ما حدث في بير زيت في قرية معليا العربية في الجليل ، وفي اليوم ذاته ، حين تصدى سكان القرية لمجموعة استيطانية هجرت مستوطنة اوفيرا في شرم الشيخ ، وقدمت لتقيم واقعا في اراضي القرية · فما كان من احد المستوطنين الا ان اطلق النار نحو سكان القرية · مما اجج الاشتباك الذي اسفر عن اصابة ثلاثة من المستوطنين بجراح وطرد افراد المجموعة من اراضي القرية ·

٢ ـ الاعتداء على اشجار الكرمة :

وفي غضون ذلك كشف النقاب عن عمل همجي ارتكبه مستوطنو كريات اربع ، ضد بساتين كروم العنب العربية القريبة من المستوطنة ، يعيد الى الاذهان العمل « الهمجي » الذي حدث ابان حكم التجمع العمالي لحقول قرية عقربة العربية حين قامت طائرة اسرائيلية بزيارة حقول القمح والخضرة اليانعة لتحولها ، من خلال السموم التي قامت برشها ، الى حقول صفراء ميتة ، وذلك بهدف خلق الواقع الجديد المتمثل في مستوطنة غيثيت على اراضيها · ونفس الشيء فعله مستوطنو كريات اربع بكرم عنب في تلة الجعابرة ، حيث هاجموا تحت ستار الظلام الكرمة في ليلتي الرابع عشر والرابع والعشرين من نيسان الماضي ، واقتلعوا ٧٦٠ شجرة عنب بواسطة الالات الحديثة · وعلى الرغم من ان الاهلين العرب قدموا شكوى ضد مستوطني كريات اربع بعد الحادثة الاولى ، لم تحرك قوات الاحتلال ساكنا ، مما شجع المستوطنين على اعادة الكرة ثانية لاستكمال عملية الاقتلاع ، وكان يمكن لهذه القضية ان تطمس ، كمعظم القضايا المخزية التي تقع ، لولا ان قام ضابط اسرائيلي (احتياطي) يدعى منير اوزن ، بكشفها امام الرأي العام بعد ان انهى خدمته العسكرية · وقد اجاب ردا على سؤال وجه اليه عن السبب بعدم تصدي جنوده لهذا العمل المشين ، بقوله ان

« معظم رجال الوحدة يسكنون في كريات اربع ومن الصعب الطلب منهم نصب كمائن لزملائهم والابلاغ عنهم » (دافار ، ١٩٧٩/٤/٣٠) .

وبعد ان شاع خبر اقتلاع اشجار العنب ، توجه خمسة صحفيين اسرائيليين واجانب الى تلة الجعابرة برفقة صاحب الكرم – فلاح عربي طاعن في السن – وفوجيء هؤلاء اثناء تجولهم في البستان المقتلع ، برجال حرس الحدود يحيطون بهم ، ويأمرونهم بالتوجه معهم الى كريات اربع ، بحجة دخولهم منطقة محظورة وفي الوقت نفسه قام الجنود « بابعاد العربي الطاعن في السن من التلة بفظاظة . بينما كان طاقم التلفزيون الاميركي يخلد هذا المنظر » (هآرتس ، ١٩٧٩/٥/٤) .

وقد اعتقل الصحفيون لبضع ساعات . لم يتمكن خلالها الجنود الاسرائيليون من مصادرة الفيلم من الصحفيين الاجانب . بينما كانوا في السابق قد صادروا افلاما من صحفيين اسرائيليين .

ومن الجدير بالذكر ان مستوطني كريات اربع اقاموا للمرة الاولى منذ سقوط مدينة الخليل احتفالا في قلب المدينة بمناسبة اعلان قيام اسرائيل . ومن بين الذين حضروا الاحتفال النائبة غيئولاه كوهين التي القت كلمة شجبت فيها اقتلاع اشجار العنب ، وسخرت من « الحلف » الذي يسعى السادات لاقامته مع المرأة الاسرائيلية ، بقولها ان « المرأة اليهودية التي يسعى السادات لعقد حلف معها من اجل مواصلة الانسحاب من ارض اسرائيل ، كانت دائما شريكة المقاتل الاسرائيلي من اجل ارض اسرائيل» (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٥/٣) .

ويبدو ان عملية الاقتلاع التي «شجبتها» كوهين ، وعدد من الوزراء الاسرائيليين وعلى رأسهم وزير الدفاع عيزر وايزمان . قد اثارت « انسانية » حركة « السلام الآن » ، فتوجه اعضاء منها حاملين اشتالا من العنب نحو البستان ، واخذوا يغرسونها على مرأى من مستوطني كريات اربع وجهاز الحكم العسكري، في محاولة واعية منهم لـ « تلطيف » الوضع . متغاضين عن اساس البلاء المتمثل في واقع كريات اربع فوق الاراضي العربية. بيد ان السكان العرب الذين اكتسبوا بفعل واقع الاحتلال خبرة ودراية بالافكار الصهيونية ومنطلقاتها المختلفة ، لم يقبلوا هذا « الكرم » ، وتوجهوا الى البستان ، واقتلعوا ، هم هذه المرة ، اشتال العنب ، لسببين : الاول تمتع العرب بدراية افضل في غرس اشجار العنب . والثاني وهوالاهم : تخوفهم من ادعاء اليهود مستقبلا بملكية البستان . على اساس ان أنامل يهودية اعتنت بغرسه (ز.أ.ن.أ، ١٩٧٩/٥/١٣) .

٣ – الحاخام مئير كهان ينشط .... : في وسط اجواء غطرسة جوش ايمونيم ومستوطني كريات اربع ، تحرك الحاخام مئير كهانا لاعداد « حرس يهودي » مسلح في مدينة القدس العربية ، بحجة توحيد الشرطة في مجال « حماية » اليهود من « الاعتداءات » العربية . واوضح كهانا في مقابلة اذاعية (ز.ا.ن.ا. ١٩٧٩/٤/٩) مشروعه بقوله : « لقد عرضنا على الشرطة مساعدتنا ، ولكن عندما رفضت قررنا ان نطبق القانون بأنفسنا » ، واضاف ان قواته ستعتقل كل « من يثير الشغب » من العرب ، وبرر قيام حرسه بتعرض « العرب لفتيات اسرائيل واغتصاب العديد منهن !» .

٤ – صحفي فلسطيني يواجه صنوف التعذيب: في غمرة الحديث عن الاعتداءات « غير الرسمية » كشف النقاب مؤخرا عن اعتداء « رسمي » ، تعرض له الصحفي

الفلسطيني يوسف العجوة ، الذي كان قد اعتقل اداريا في كانون الاول من العام الماضي ، واطلق سراحه في نيسان دون محاكمة ، حاملا على جسمه بصمات التعذيب · ويعود الفضل في شق بصمات التعذيب هذه طريقا لها الى الرأي العام الى الصحفي الاسرائيلي عكيفا الدار (هآرتس ، ١٩٧٩/٤/٢٧) الذي كتب مقالا في صحيفته حول صنوف التعذيب التي واجهها الصحفي الفلسطيني ، داعيا « القضاء » الاسرائيلي الى التحرك · وسنكتف هنا باقتطاف نماذج منها كما وردت على لسان يوسف العجوة الذي يعمل في صحيفة « الشعب » :

« ادخلوني الى الغرفة رقم ١٠ ، انها في الحقيقة زنزانة صغيرة دون نوافذ ودون سرير · وفي الزاوية ثغرة لقضاء الحاجيات · استلقيت على البلاط البارد ، والتحفت بأربع بطانيات قديمة ··· » ··

ويصف التحقيق بقوله : « اوقفني عوزي وظهري الى الحائط ، واخذ يضغط على حلقي ، حتى امتد لساني الى الخارج · قل نعم ، توجه نحوي صارخا ، واخذ يكرر خنقي» ويصف وجبة اخرى ، حيث اوقفه المستجوبون الى جانب حائط . وكبلوا يديه من خلف ظهره وربطوهما بانبوب في الحائط ، « وهكذا قيدوا يدي ، وربطوني بالانبوب · وبقيت في هذا الوضع ٧٢ ساعة متتالية ووجهي مغطى بكيس » · ويضيف « هل يعقل حدوث ذلك · استغرب ··· لقد كنت اقضي حاجياتي في ملابسي الداخلية ···· »·· ويذكر الصحفي الفلسطيني ان التحقيق استمر على هذا المنوال قرابة ٦٠ يوما ثم نقل الى السجن ، وهناك « قالوا لي ان امرأتي تضاجع الرجال في الضاحية ، اجبتهم بتهكم ، ان لا غبار في ذلك لانني سمحت لها القيام بهذا العمل : الا ان روحي كسرت ، تخوفت على مصير اولادي وامرأتي الحامل الذين بقوا لوحدهم · لا ارغب في العمل بعد في الصحافة · ساكسر قلمي وافتش عن عمل اخر » ·

مؤتمر نابلس

تصدى الاهلون العرب وعلى رأسهم الطلبة ، بالتظاهرات والاضرابات والاعتصامات ، بشكل يكاد يكون يوميا ، لسياسة الاحتلال ، وغدا منظر الاعلام الفلسطينية فوق الجامعات والمدارس امرا مالوفا · كما واصبح من المالوف ايضا منظر الاطفال العرب وهم يركضون وراء وسائط النقل الاسرائيلية ليلقوا عليها حجرا · وقد واجهت سلطات الاحتلال حالة النهوض الوطني بوسائل عدة من بينها فرض حظر التجول على هذه البلدة او تلك لفترات طويلة ، واغلاق المدارس والجامعات « حتى اشعار اخر » ، كما حدث لجامعتي بير زيت وبيت لحم ، واعتقال الطلبة ، والافراج عنهم بعد توقيعهم على تعهد « حسن سلوك » ·

في هذا الجو ، عقد في الثاني من ايار رؤساء البلديات والشخصيات الوطنية ، اجتماعا وطنيا في مدينة نابلس ، تمخض عن قرارات ومذكرات وقع عليها الى جانب رؤساء البلديات والمجالس المحلية . ممثلو الاتحادات العمالية والمهنية والتجارية والاتحادات النسائية ·

اقر المؤتمرون ثلاثة قرارات (١) التمسك بمنظمة التحرير الفلسطينية كممثل شرعي وحيد للشعب الفلسطيني وادانة الرئيس السادات لخروجه عن الخط العربي ، (٢) اعلان الاضراب العام في الاراضي الفلسطينية المحتلة في الخامس عشر من ايار ذكرى اغتصاب فلسطين ، (٣) القيام بمسيرة احتجاجية من نابلس الى سلفيت احتجاجا على اعمال المصادرة والاستيطان · كما وبعث المؤتمرون بمذكرة الى الامين العام للامم المتحدة استنكروا

فيها «ما جاء في بيان السادات عن التمثيل الفلسطيني » مؤكدا على « تمثيلنا بقيادة م·ت·ف لشعبنا الفلسطيني · كما نؤكد رفضنا لاتفاقيات كامب ديفد والحكم الذاتي ··· » ·

وبعث المؤتمرون بمذكرة احتجاج الى الحاكم العسكري للضفة الغربية جاء فيها : « على اثر حملة الاستيطان الشرسة التي قامت بها السلطات ، والتي كان اخرها مصادرة اراضي قرية عصيرة الشمالية واراضي سلفيت واقامة مستوطنتين عليهما متحدين بذلك مشاعر وحقوق المواطنين العرب اصحاب هذه الاراضي ، وضاربين بعرض الحائط كل القوانين والمواثيق الدولية تنادت الهيئات التمثيلية للضفة الغربية الى ضرورة الوقوف في وجه هذا الخطر الداهم الذي يتهدد اراضيهم ومستقبلهم ، وحاولوا التعبير عن شعورهم بالقيام بمسيرة سلمية الى الاراضي المصادرة · الا انهم جوبهوا بالرفض ومنعوا من الوصول الى هدفهم وقد توافق هذا مع قيام السلطة بتقديم كافة التسهيلات والحماية لآلاف المستوطنين من جماعة جوش ايمونيم الاستيطانية وموقف السلطات المؤيدة لجماعات المستوطنين في حين منعنا نحن اصحاب الاراضي من التعبير عن رفضنا لهذا الاستيطان ، وهذه التصرفات الاستيطانية من قبل المسؤولين ·

« اننا نطالب الجهات المسؤولة بايقاف اجراءات المصادرة والاستيطان فورا · ان هذه الاجراءات لن تزيد شعبنا الا مزيدا من التمسك بحقوقه الوطنية والقومية على ترابه الوطني حتى تتحقق له حقوقه في تقرير مصيره على ارضه ، مهما ارتفعت دعوات الاستسلام المشبوهة والتي تحاول ايهام العالم بأن هناك اجراءات من اجل السلام في منطقتنا ، فأي سلام هذا الذي يتحدثون عنه في ظل اجراءات المصادرة والنهب » ·

عبد الحفيظ محارب

إسرائيليات

الموقف الاسرائيلي من العمليات الفدائية

شهدت الفترة الاخيرة تصاعدا ملحوظا في النشاط الفدائي ، وتتوقع دوائر الامن الاسرائيلية استمرار تصعيد هذا النشاط ، بهدف مواجهة اتفاقية السلام المنفرد بين مصر واسرائيل من جهة ، ومنع تمرير مشروع الادارة الذاتية في المناطق المحتلة من جهة اخرى ·

والتصعيد الاخير للنشاط الفدائي لا يدع مجالا للشك بأن اسرائيل تقف امام ظاهرة غير عادية تشير الى تصميم المقاومة على التصدي لتكريس الاحتلال ، متبعة جميع الوسائل والطرق الممكنة بدءا بزرع العبوات الناسفة ، مرورا بمحاولات التسلل بمجموعات مسلحة عبر الحدود ، وانتهاء بعمليات انزال عن طريق البحر ·

« ··· واذا ما اخذنا بعين الاعتبار الامكانيات الهائلة المتوفرة لدى المنظمات ، سواء من الناحية المادية او البشرية لادركنا بأنها لن تخطط لتوسيع نشاطها فحسب وانما ستعمل جاهدة من اجل رفع مستوى عملياتها ضد اسرائيل ··· »· (معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٣) ·

حجم العمل الفدائي ومستواه الراهن

فعلى صعيد العمل الفدائي في الداخل تعترف الدوائر الاسرائيلية المسؤولة ان المقاومة الفلسطينية قطعت شوطا طويلا منذ الفاتح من كانون الثاني عام ١٩٦٥ . عندما وضعت عبوتها الاولى على ارض مشروع نقل المياه القطري في الشمال . « ... وحركة فتح بالذات ، التي قام افرادها بوضع تلك العبوة البدائية لم تعد تلك المنظمة الهزيلة التي تفتقر الى الامكانيات والقوة البشرية كما كانت عليه آنذاك ... » (يديعوت احرونوت . ١٩٧٩/٤/٢٧) .

لقد استفادت المقاومة من اخطائها وتجاربها السابقة على صعيد نشاطها في الداخل . واستخلصت العبر منها . سواء فيما يتعلق بمستوى التخطيط والتسليح والتنظيم. الامر الذي « ... زاد من صعوبة عمل رجال الامن . وخلق مستوى عال في وحدة العمل الفدائي وزاد من امكانيات تنفيذه » (المصدر نفسه) .

ومما يقلق جهات الامن الاسرائيلية بصورة خاصة ظاهرة ملفتة للنظر . وهي « ... ان حوالي ٣٠ بالمئة من مجموع الفدائيين في المناطق ينضمون الى صفوف المنظمات دون علم قياداتها في الخارج .

وغالبا ما تكون دوافعهم نتيجة طبيعة العلاقات بين ادارة الحكم العسكري والسكان . فالشخص الذي لا يحصل على ترخيص معين او الذي تصادر ارضه يتخذ لنفسه قرارا بأن يصبح فدائيا ... وحتى يترجم قراره هذا الى الناحية العملية . يقوم بطبع منشور . او قطع كابل كهربائي او خط للهاتف ... وفي حالات معينة يحاول انتاج مواد تخريبية بنفسه ... » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٢/١٦) .

كما ان المستوى الثقافي والشخصي للفدائيين الناشطين ارتفع هو الآخر في الآونة الاخيرة . وتقول جهات امنية ان نسبة خريجي الكليات والجامعات من بين افراد الخلايا التي القي القبض عليها مؤخرا كانت مرتفعة بشكل ملحوظ ، واصبحت الدوافع لدى هؤلاء الناس ترتكز على النواحي الوطنية والايديولوجية .

وبالنسبة لتسليح الفدائيين ، تعترف دوائر الامن الاسرائيلية انه لم يكن فيحوزة الفدائيين في اي وقت من الاوقات كميات كبيرة من الاسلحة في المناطق المحتلة كما هو الحال عليه اليوم ، اذ طرأ تحديث جدي فيما يتعلق بوسائل التسليح وتهريب الاسلحة الى داخل المناطق المحتلة ... « ... فقبل سنة واحدة كانت ٧٥ بالمئة من المتفجرات والعبوات « بدائية » . غير انه في هذه السنة بالذات كانت ٨٠ بالمئة منها ، سواء تلك التي انفجرت او التي تم اكتشافها من نوع ممتاز وذات قوة تدميرية عالية . وهذا هو السبب في ارتفاع عدد الاصابات .. » . (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) .

وكان ضابط المتفجرات القطري في شرطة اسرائيل قد علق على هذا التحديث بقوله « ... لقد كنا نبدي دهشة كبيرة عام ١٩٧٧ عندما نعثر على عبوة زنتها ٧٦ غراما من المواد المتفجرة البلاستيكية. ولكن اليوم وصل بنا الحال الى تفكيك عبوات بزنة ٧ او ٨ وحتى ٣٨ كلغ . واخطر من ذلك كله ، فقد عثرنا على متفجرات مصدرها في اسرائيل نفسها ، كتلك التي تستعمل في الكسارات ، ولاغراض مدنية اخرى ، وحتى متفجرات مصدرها الجيش الاسرائيلي نفسه .. » (معاريف ، ١٩٧٩/٤/٣٠) .

والاحصائيات الاسرائيلية الاخيرة عن الفدائيين والعمل الفدائي في الداخل

تعطينا الصورة التالية فيما يتعلق بالتوزيع التنظيمي : ٥٠ بالمئة ينتمون لحركة فتح. ٢٠ بالمئة لباقي التنظيمات ، و٣٠ بالمئة لا ينتمون رسميا لأي تنظيم ، ولو ان معظمهم علاقة بفتح ، بصورة مباشرة او غير مباشرة ·

اما فيما يتعلق بالجيل فان ٧٥ بالمئة تتراوح اعمارهم بين ١٧ ـ ٢٤ سنة و ٧ بالمئة تتراوح اعمارهم بين ١٥ ـ ١٦ سنة ·

وبالنسبة للمستوى التعليمي فان ٦٥ بالمئة ذوو ثقافة توجيهية وابتدائية و ٢٥ بالمئة ثقافة اكاديمية و ٧ بالمئة اميين ·

وتورد المصادر الاسرائيلية الاحصائيات التالية عن حصيلة النشاط الفدائي سنة ١٩٧٧ : ٨٠ عملية « ساخنة » ، ٧٠ عملية « باردة » مثل الطعن بالخناجر والرشق بالحجارة ، الخ ، ٣٠٠ عملية مخلة « بالنظام » ، ٢٠٠ حادث طبع منشورات ورسم شعارات ، الخ · سنة ١٩٧٨ :

٨٠ عملية « ساخنة » ، ٨٠ عملية « باردة » ، ٢٨٠ عملية مخلة « بالنظام » ١٨٠ حادث طبع منشورات ورسم شعارات · وسنة ١٩٧٩ (حتى شهر نيسان) : ٨١ عملية فدائية ادت الى مقتل ٨ أشخاص واصابة ١٧٩ آخرين · وكانت ٨٠ بالمئة من العبوات التي استعملت من النوع الممتاز ذا القوة التدميرية العالية ·

وتحتل القدس المرتبة الاولى بالنسبة لعدد العمليات التي تم تنفيذها · ففي سنة ١٩٧٨ نفذت في المدينة ٥٠٪ من مجموع العمليات ، اما النصف الباقي فقد نفذ منه ٣٠ بالمئة داخل اسرائيل ، و ٢٠ بالمئة في المناطق المحتلة (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٢/١٢ ومعاريف ، ١٩٧٩/٤/٣٠)·

الحدود اللبنانية

استعادت المقاومة الفلسطينية عافيتها واعادت تنظيم صفوفها بعد « حرب الليطاني » · كما ان ثقتها بالنفس في تزايد مستمر واصبحت لديها الجرأة في الاقدام على خطوات لم تكن لتقوم بها في السابق · « ··· ففي ١٨ نيسان ١٩٧٨ سقطت اكثر من ٦٠ قذيفة على المستوطنات الاسرائيلية ، الامر الذي يعتبر بمثابة تجديد يعود الى الثقة العالية بالنفس ··» (علهمشمار ، ١٩٧٩/٤/٢٠) ·

وقد اعترف يتسحاق رابين رئيس وزراء الاسرائيلي السابق « ··· بأن امكانية ضرب « المخربين » بصورة مستمرة لعرقلة اعادة تنظيم صفوفهم محدودة جدا ، ومحاولات التسلل البرية الاخيرة اثبتت بأن منطقة الحزام الامني التي تسيطر عليها قوات سعد حداد لا تشكل عائقا جديا ··· اما بالنسبة للقصف الفدائي بالمدفعية والصواريخ ضد القرى الحدودية فان الجيش الاسرائيلي لا يملك ردا حاسما عليها ··· واصبح موضوع قصف القرى سلاحا للرد في يد الفدائيين على عمليات الجيش الاسرائيلي ضدهم ، ··· ولم يبق امام اسرائيل غير الاعتماد على الاجهزة الحديثة التي تم انشاؤها على طول الحدود خلال السنوات الماضية ، وعلى يقظة الجيش ··· » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) ·

ومن ناحية اخرى ، يستبعد المسؤولون الاسرائيليون ان يكون الملك حسين قد وافق على استئناف النشاط الفدائي من الاردن ، على الرغم من عمليات التسلل الاخيرة عبر الحدود الاردنية ، لانه ـ اي الملك ـ « ··· يبدي حذرا فائقا تجاه اسرائيل والمنظمات على السواء · غير ان التقارب بين الاردن ومنظمة التحرير قد يدفع الاخيرة للمغامرة بالانطلاق عبر الحدود الاردنية الى داخل اسرائيل ··· » (هآرتس ، ١٩٧٩/٤/٢٤)·

ولا تستبعد اسرائيل امكانية دخول

فدائيين غير مسلحين الى الاردن والتزود هناك بالاسلحة التي خزنوها قبل عدة سنوات ومن ثم التسلل الى اسرائيل ، او التسلل الى الاردن عبر هضبة الجولان ، ومن هناك الى اسرائيل ·

ويرى البعض ايضا « ··· ان استئناف العمل « التخريبي » ضد اهداف اسرائيلية في اوروبا الغربية مرهون بقرار حركة فتح ، فاذا شاءت وقعت عمليات في الخارج · واذا لم تر امامها اي سبيل اخر للتقدم فالسنة اللهب ستتصاعد في باريس وبون وروما ولندن وبروكسل وامستردام ··· » (يديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) ·

الردود العسكرية الاسرائيلية ضد المقاومة

في الخطاب الذي القاه مناحيم بيغن امام الكنيست في ١٩٧٩/٥/٧ قال بالحرف الواحد « ان سياسة اسرائيل هي ضرب « القتلة » في اي وقت وفي اي مكان وبكل قوتنا ··· فنحن نعرف قواعدهم ووحداتهم وسنعمل على تدميرها » ·

ومما لا شك فيه ان تصريح بيغن هذا يعكس النوايا الاسرائيلية المبيتة ضد المقاومة ، ولسنا في حاجة لتأكيدها · ولو كان بيغن قادرا على تنفيذ ذلك كله لما انتظر يوما واحد ·

والسؤال المطروح اذا ما هي البدائل والامكانيات العسكرية والامنية المفتوحة امام اسرائيل لتحقيق اهدافها في ضرب المقاومة او تحجيمها ؟ ولقد اصبح هذا السؤال اكثر الحاحا في ضوء قناعة المسؤولين الاسرائيليين باستحالة القضاء على المقاومة وعلى النشاط الفدائي عن طريق الحلول العسكرية · « فجميع الاجراءات الامنية والعسكرية المكثفة « ليست كفيلة بمنع حدوث اي عمل « تخريبي » لانها لا تستطيع الغاء التفوق الطبيعي الذي يتمتع به المهاجم ··· ويجب على الشعب الاسرائيلي ان يدرك بان الحرب مع المخربين هي حرب شاملة وطويلة » (هآرتس ١٩٧٩/٤/١٩) ·

غير ان استحالة القضاء على المقاومة عسكريا لا يعني اطلاقا بأن العدو لن يبذل كل ما في وسعه لضربها ومحاولة تحجيم نشاطها · ويمكن القول بأن الاجراءات الامنية والعسكرية الاسرائيلية لمواجهة المقاومة ترتكز على الاسس التالية : ١ ــ جعل الثمن الذي تدفعه المقاومة باهظا في حال استمرار نشاطها · ٢ ــ ضرب المقاومة وقادتها باستمرار ، ومتى سنحت الفرصة لذلك ، على ان يحدد التوقيت على ضوء اعتبارات الواقع السياسي · ٣ ــ العمل على تقليص عدد الاصابات في صفوف الاسرائيليين بالاضافة الى تطوير وسائل مواجهة النشاط الفدائي ·

وتبغي اسرائيل من وراء ذلك تحقيق عدة اهداف منها : ١ ــ ايقاع اكبر قدر من الخسائر في صفوف المقاومة وتدمير قواعدها · ٢ ــ اتباع سياسة الهجوم المستمر وقصف مناطق التواجد الفلسطيني بهدف التشويش على عملية اعادة تنظيم الصفوف ، وارغام المقاومة على اتخاذ موقف الدفاع لا الهجوم ·

٣ ــ ارباك المقاومة واستنزاف جهودها لاشغالها عن التركيز على القيام بنشاطات فدائية في الداخل ·

والسؤال المطروح هو الى اي مدى نجحت اسرائيل في تحقيق هذه الاهداف ؟ ان جميع الدلائل تشير ، باعتراف الجهات الاسرائيلية المختلفة ، ان الاسلوب الذي تتبعه اسرائيل لتحقيق هذا الغرض لم يثبت نفسه في الواقع ، وهو اقرب الى كونه اسلوبا استعراضيا · فبالنسبة لتكتيك

ضرب قواعد المقاومة اعترف يغئال يادين نائب رئيس الوزراء « ... بأن المشكلة التي تواجهها اسرائيل في هذا الصدد هي تواجد الفدائيين في مناطق متفرقة ... الامر الذي يحتم استخدام وسائل متطورة للتمكن من ضربهم ... » .

اما الجنرال حاييم هرتسوغ فيرى « ... ان الغارات الجوية الاسرائيلية على مواقع الفدائيين تعكس عمق المشكلة التي تواجهها السياسة الاسرائيلية في مجال الرد عليهم ... فهذه السياسة تمتاز بطابع التلقائية وعدم التجديد ، فضلا عن كونها تثير مشاكل عسكرية من شأنها الاساءة لنا مستقبلا ... واذا كان القصف الجوي هو الرد الوحيد الممكن ، فذلك ما يصمنا بالعجز ... » (معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٠) .

وعقب احدهم على القصف الجوي والبري والبحري ضد المخيمات الفلسطينية والطلعات التي تقوم بها الطائرات الاسرائيلية فوق بيروت بقوله : « ... ان على اسرائيل ان تكون مستعدة لاحتمال استئناف حرب واسعة النطاق ضد المنظمات ، على ان تكون تلك الحرب محسوبة ومتزنة ، لا حربا استعراضية لا تعود باية فائدة عملية ... » (دافار ١٩٧٩/٤/١٧) .

وفي الوقت الذي وجهت فيه الانتقادات لسياسة الغارات الانتقامية الاستعراضية التي تستهدف المدنيين في المخيمات وسكان القرى الجنوبية ، هناك شبه دعوة للقيام بالمزيد من محاولات اغتيال قادة المقاومة . « ... فطالما استمرت الحرب مع المنظمات، ليست اسرائيل بحاجة لان تقدم المبررات لضرب اهدافهم ... او اغتيال قادة من امثال علي حسن سلامة . ولا يجب ان تخشى اسرائيل ملاحظات التنديد التي تصدر عن الامم المتحدة او حتى عن وزارة الخارجية الاميركية ... » (هآرتس ، ١٩٧٩/٤/٢٤) .

ويعتقد المتحمسون لهذا الاسلوب الارهابي بأنه سيساعد على عرقلة النشاط الفدائي ، علاوة على كونه يشكل متنفسا جيدا لنقمة الاسرائيليين على نتيجة العمليات الفدائية . « ... ان الرد على الارهاب يجب ان يكون بالاسلوب نفسه .. والعمل ضد القواعد والتجمعات الكبيرة او مراكز الدول التي تسمح لهم بانشاء قواعد فيها ... » (هرتسوغ ، معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٠) .

وعلى صعيد اخر ، تتخذ السلطات الاسرائيلية اجراءات امنية مختلفة ، بغية تحقيق هدف اساسي ومحدد ، هو تقليص حجم الخسائر التي يلحقها العمل الفدائي بالاسرائيليين في الداخل والخارج . وللوصول الى هذا الهدف تتبع وسائل امنية وقائية معينة ، يأتي في مقدمتها العمل على تقوية اجهزة الامن الاسرائيلية وخاصة الشرطة والحرس المدني وحرس الحدود ، فضلا عن تكثيف دوريات الحراسات على طول الشواطىء والحدود الاسرائيلية . كما برزت مؤخرا الدعوة الى تسليح المدنيين للدفاع عن انفسهم ، وانتشرت ظاهرة التسلح الشخصي بشكل ملحوظ : « وفي اعقاب الهجوم الفدائي على مدينة نهاريا بدأت حركة نشيطة جدا لشراء الاسلحة والتدرب على استخدامها ... » معاريف ، ١٩٧٩/٤/٢٣) .

ومن الجدير بالذكر ان رئيس الاركان رفائيل ايتان كان قد اصدر امرا في شهر حزيران ١٩٧٨ ، يلزم كل ضابط في الجيش بحمل السلاح .

ومن بين الاجراءات العملية التي تقرر اتخاذها فرض عقوبة الاعدام ضد الفدائيين الذين ينفذون عمليات كبيرة .

وقد اعرب رابين في هذا الصدد عن شكه في ان يؤدي هذا الاجراء الى « ردع الفدائيين عن تنفيذ عمليات ضد اسرائيل »٠

ويتضح من كل ما تقدم ان اسرائيل ، رغم يقظتها العالية واستعداداتها القصوى، عاجزة عن تطويق العمل الفدائي وكبحه ٠ ويبدو ان اجراءاتها المستقبلية لن تحول ايضا دون تصاعد النشاط الفدائي وتشعبه على مختلف الاصعدة ٠ « ٠٠٠ فعلى الرغم من الانجازات الهامة التي حققتها اجهزة الامن ، الا انه لم يطرأ تحسن ملموس على ارض الواقع ٠ فعدد العمليات في تصاعد مستمر وفرص نجاحه اكبر ، ويرجع ذلك الى التزايد المستمر في عدد الخلايا الفدائية وكميات الاسلحة والمعدات واستخدام المواد المتفجرة الحديثة والفتاكة ٠٠والمشكلة الاساسية التي تواجهها اجهزة الامن الاسرائيلية الحفاظ على التوازن بين زيادة وسائل الوقاية والامن من جهة والمحافظة على سياسة « التعايش المشترك » بين العرب واليهود من جهة اخرى ٠ فاغلاق مناطق معينة وفرض نظام منع التجول ، وما الى ذلك ، قد يساهم في احراز تقدم في مكافحة الارهاب ، الا انه قد يؤدي ايضا الى انهيار تام « للتعايش بين الشعبين »٠٠ (معاريف) ١٩٧٩/٤/٣٠ ويديعوت احرونوت ، ١٩٧٩/٤/٢٧) ٠

نزيه مراد

قضايا دولية

اذا استثنينا حدثين جديدين على الصعيد الدولي ، هما تشكيل حكومة للمحافظين في بريطانيا والاعلان عن التوصل الى معاهدة ثانية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي على الحد من الاسلحة الاستراتيجية ، فان الاحداث الدولية خلال شهر مضى تميزت في الاساس باهتمام بدور الدول الاسلامية والتطورات الداخلية فيها ٠

☐ فقد افتتح مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في فاس (المغرب) يوم ٨ ايار (مايو) ، واصدر قراراته في ١٢ ايار ٠

☐ كذلك تتابعت احداث ايران على نحو لم يخل من حدة وعنف وتميزت الاحداث بمحاولة شق صفوف الثورة الايرانية اما عن طريق اللعب على التطرف الديني او معارضة الوجه الديني للثورة وتوجهاتها ٠

☐ وتميزت احداث افغانستان بالمثل بمحاولة لخلق صدام اسلامي ــ ماركسي في البلاد بين الجماعات التي ترفع الشعارات الدينية والسلطة الاشتراكية ٠

☐ولم تخل احداث اوغندا ايضا من الطابع الديني الذي فسرت به ــ على الاقل بعض الدوائر ــ التطورات التي انتهت بسقوط نظام الرئيس عيدي امين ٠

☐ في الوقت نفسه كانت المعالجة الاعلامية ــ في العالم الغربي كله ــ تعمق تيارا يراد به تصوير وجود « خطر

اسلامـــــي » على الحضارة الغربية ·· ويـــراد به في الوقت نفسه اثـــــارة الاضطرابات داخل البلدان الاسلامية باسم الحرص على « اسلامية » تلك البلدان ·

ويدل استمرار هذا التيار في المعالجة الاعلامية على ان « المسألة الاسلامية » ستستمر في احتـــلال مكانة بارزة فـــي الاحداث لفترة تالية ، خاصة حول مصدر قضية الصراع العربي الاسرائيلي فـــي منعطفها الجديد الذي ادخلها فيه توقيـع « معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية، وبروز مسؤولية « العالم الاسلامي » ازاء هذا الصراع ·· وبصفة خاصة ازاء جانب له طابعه الديني الخاص في هذا الصراع ، وهو الجانب المتعلق بالقدس ·

المؤتمر الاسلامي

افتتح (٥/٨) مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية في مدينة فاس (المغرب) تحت اسم « مؤتمر فلسطيـــن والقدس » بمشاركة اربعين دولة ، قدر انها تضـم نحو مليار مسلم في انحاء العالم · وقـد سبق افتتاح المؤتمر جـدال واسع بيـــن السلطات المغربية ـ المضيفة للمؤتمـر ـ والسلطـــات المصرية التي كانت تريد ان تشارك فيه على اساس حاجة نظام القاهرة الى تعويض عزلته العربية بمشاركة فـــي مؤتمر اسلامي · وقد حسم الامر قرار من وزراء الخارجية (٥/٩) بتجميد عضوية مصر في المؤتمر الاسلامي والاجهزة التابعة له الى اجل غير محدد ، ردا على قيـــام مصر بتوقيع معاهدة صلح مع اسرائيـــل بمـــا ينطوي على اعتراف باسرائيـــل وبالقدس عاصمة لها ·

وقـــد تبين ان ٨ دول امتنعت عـــن التصويت على قرار تجميد عضوية مصر هي السودان وعمان والسنغال والنيجـــر وفولتا العليا والغابون وغينيا (بيساو) وغامبيا · (الدولتان الاوليان عربيتان ، والدول الست التالية افريقية وقد بنـــت موقفها على اساس ضرورة العودة الـــى موقف منظمة الوحدة الافريقية من مصـــر قبل الموافقة على قرار بتجميد عضويتها)·

وقد حرص ممثلو الدول الافريقية التي امتنعت عن التصويت ان يوضحوا ان هذا الامتناع لا يعني اطلاقا عدم موافقة منهـا على قرار التجميد ، انما هو مجـــــرد تفصيل لاجراء مشاورات مع باقي الدول الافريقية · واكدوا مساندتهم الكاملـــة للقضية الفلسطينية ولمنظمة التحريــــر الفلسطينية ·

خطاب افتتاح المؤتمر كان للملك الحسن الثاني ملك المغرب الذي دعا الى وضـع مشروع « حد ادنى » يكفل للفلسطينيـــن ان يتولوا مسؤولياتهم على الساحـــــة الدولية · وقال ان العالم الاسلامي لـــم يسر حتى الان في الطريق الملائمة التـــي توصل الى حل للمشكلـــة الفلسطينية · واكد انه ليس لاحد ان يتكلم باســـــم الفلسطينيين او ان يقرر شيئا بدلا منهم · « ان الفلسطينيين ، ناضجون بالدرجـــة التي تسمح لهم بان يتولوا امورهـــــم بانفسهم ، وان ما يحتاجون اليه هـــو مشروع حد ادني يكفل ارضاء الجميـــع ثم يتيح لهم ان يتولوا بعدها مسؤولياتهم على الساحة الدولية » ·

وناشد الملك المغربي كل الدول الاعضاء في المؤتمر بان تقرر معونة اقتصاديـــــة كحد ادنى لمساعدة الفلسطينيين الذيـــن « يريدون المساعدة الاقتصادية لا المساعدة الكلامية » ·

وردد الملك الحسن العبارة الشهيـرة التي سبق ان قالها الملك السعودي الراحل فيصل : سوف نصلي في القدس ·

في اليوم الثاني من اعمال المؤتمـــر (٥/١٠) قدمت السعودية ـ التي مثلها وزير خارجيتها الامير سعود الفيصل ،

اقتراحا بتشكيل لجنة عليا لتحرير القدس برئاسة الملك الحسن الثاني · وتكون مهمة اللجنة العمل على اقناع العالم بضرورة عودة القدس الى السيادة العربية ، واجراء الاتصالات مع دول العالم من اجل تحقيق هذه الغاية · واعلن الوزير السعودي ان بلاده « تعتبر القضية الفلسطينية جوهر قضية الشرق الاوسط ، وان القدس جوهر القضية الفلسطينية ». كما قال ان السعودية « لا تقبل بأي حل للقضية الفلسطينية ينسى او يتناسى قضية القدس وهي قضية اسلامية جوهرية » ·

اما وزير الخارجية الليبي عبد السلام التريكي فقد دعا الى « توحيد الامة الاسلامية وايجاد تعاون اقتصادي مستمر بينها ، وايجاد تحالف عسكري بينها في المستقبل من اجل الدفاع عن الاسلام » ·

واثار التريكي بصفة خاصة (٥/١٠) مسألة « الغزو التانزاني »لاوغندا ووصفه بانه سابقة خطيرة جدا في افريقيا ، وانه يعني ان اي بلد يملك اسلحة كثيرة وقوات كبيرة حر في غزو بلد اصغر واضعف ·

ودعا التريكي الى « حل عملي حقيقي يضمن تحرير القدس بالكامل » ، وقال ان تحرير القدس واجب اسلامي يهم جميع المسلمين في العالم · وقال ان الجماهيرية اقترحت تشكيل قوة عسكرية للدفاع عن المسلمين وعن كرامتهم ، مشيرا الى ان المسلمين يتعرضون لحروب ابادة جماعية في مناطق مختلفة من العالم وخاصة في فلسطين والقدس المحتلة ·

وفي اليوم الثالث من اعمال المؤتمر (٥/١١) قال عبد الحليم خدام وزير خارجية سوريا امام المؤتمر ان معاهدة الصلح التي وقعها السادات مع اسرائيل تشكل طعنا مباشرا للمسلمين · وقال ان المعاهدة تتناقض اساسا مع قرارات الامم المتحدة التي تصر على اشراك كل اطراف النزاع في اية تسوية ، بينما لم تؤد معاهدة الصلح الا الى اتفاق منفرد ·

وتناول خدام مسألة القدس فقال ان السادات « اكمل مسلسل خيانته للامة العربية بخيانة المسلمين جميعا عندما فرط في القدس الشريف ثاني الحرمين » · واضاف : « في الوقت الذي كان فيه السادات يطعن العرب وشعب فلسطين كان يوجه الطعنات للعالم الاسلامي » ·

وفي ١٢ ايار (مايو) اصدر المؤتمر قراراته التي يتلخص اهمها في النقاط التالية :

- ☐ اعلان القدس عاصمة لفلسطين واقرار مشروع باقامة منظمة للعواصم الاسلامية ، بما فيها القدس · ودعوة الدول الاسلامية الى زيادة الدعم السياسي والمالي لحملة من اجل تحرير المدينة المقدسة من السيطرة الاسرائيلية ·
- ☐ التنديد باتفاقات « كامب ديفيد » ورفض اخذها في الاعتبار . والتنديد بمساعي الولايات المتحدة الاميركية التي تعرقل مسيرة الشعب الفلسطيني نحو الاستقلال ، وكذلك التنديد بالسياسة العدوانية الاسرائيلية ·
- ☐ تعهد بتقديم الدعم لحركات التحرير الافريقية لازالة الاستعمار والانظمة العنصرية من افريقيا ، وتوثيق التعاون مع منظمة الوحدة الافريقية · والتمسك بقرارات المقاطعة التي فرضتها الامم المتحدة على انظمة الحكم العنصرية في جنوب القارة الافريقية ومواصلة الجهود لتوسيع مدى هذه المقاطعة ·
- ☐ تقديم مساعدة لنحو ٢٥ الف لاجىء اوغندي في السودان خاصة وان السودان يعاني من نقص في المواد الغذائية · والاشارة الى الوضع في اوغندا وما تعرضت له من « الغزو الخارجي » وخرق سلامة الاراضي الاقليمية والعدوان ضد السيادة ·

☐ توصية بانشاء صندوق خاص لمساعدة البلدان الافريقية المنكوبة بالجفاف ·

☐ مناشدة جميع الدول الاعضاء اتخاذ الاجراءات الضرورية لدعم التضامن مع المسلمين في قبرص · ودعوة الطائفتين اليونانية والتركية في الجزيرة الى ايجاد حل سلمي للنزاع بينهما عن طريق المفاوضات المباشرة ·

☐ الاعراب عن اسف المؤتمر الشديد لعدم التزام حكومة الفلبين باتفاقية طرابلس التي اعتبرها المؤتمر اساسا مناسبا « لحل مشكلة مسلمي الفلبين ، في اطار الوحدة الوطنية » · ودعا المؤتمر الى تقديم « الدعم السياسي » لمسلمي الفلبين في حالة عدم احترام الحكومة ، بنود هذه الاتفاقية ·

☐ احالة عدة بنود من جدول اعمال المؤتمر الى اجتماع يعقده وزراء خارجية الدول الاسلامية في نيويورك على هامش انعقاد الدورة الرابعة والثلاثين للجمعية العامة للامم المتحدة في شهر تشرين الاول (اكتوبر) القادم ·

ايران الثورة
تواجه الثورة المضادة

في الاول من ايار (مايو) وقع حادث اغتيال سياسي خطير في ايران هو اغتيال اية الله مرتضى مطهري ، وهو من اقرب تلاميذ الخميني ويعتقد انه كان عضوا في « مجلس الثورة » الايراني ، بل تردد انه كان رئيسا لهذا المجلس ، وتردد ايضا انه كان رئيسا للمحاكم الثورية الايرانية·

وقد اطلق مجهولون النار على مطهري بينما كان يغادر منزل الدكتور مهدي بازركان رئيس الوزراء الايراني في طهران ويعد هذا ثاني حادث اغتيال سياسي خطير بعد اغتيال الجنرال ولي الله قرني اول رئيس لاركان حرب الجيش الايراني بعد انتصار الثورة ·

واعلنت منظمة « الفرقان » مسؤوليتها عن اغتيال اية الله مطهري ، وكانت المنظمة نفسها قد اعلنت مسؤوليتها عن اغتيال الجنرال قرني قبله · واعلنت المنظمة في الوقت نفسه - عن طريق الاتصال بمكاتب بعض الصحف ووكالات الانباء · انها تعتزم اغتيال اربع شخصيات اخرى هي امير عباس انتظام نائب رئيس الوزراء لشؤون العلاقات الخارجية ، وابراهيم يزدي وزير الخارجية ، وصادق قطب زادة نائب رئيس الوزراء لشؤون الاذاعة والتليفزيون ، وابو الحسن بني صدر المستشار الاقتصادي للامام الخميني·

كانت جنازة الامام مطهري (٥/٣) مناسبة لمظاهرات عارمة ضد « الشيوعيين ومنظمة فدائيي خلق الماركسيه - اللينينية» كما قام الحرس الثوري الاسلامي بتوزيع منشورات تندد بهذه المنظمة · وكانت الهتافات التي ترددت اثناء تشييع الجنازة والتي اشترك فيها عدة مئات من الالاف : الخميني زعيم الثورة والمطهري شهيدها- النصر للاسلام والدمار الشيوعية - يا حزب توده ، ايها الفدائيون ما انتم الا طفيليون تعيشون عالة على المجتمع - طبيعة الشيوعية تتعارض مع الدين بشكل عام ومع الاسلام بشكل خاص ·

ووجهت اتهامات من الجماعات الخمينية في الوقت نفسه الى « الفدائيين » بالمسؤولية عن اثارة « حركات التمرد » في المقاطعات الكردية والتركمانية وشمال ايران منذ بداية الثورة ·

في الوقت نفسه اتهم حزب « تودة الشيوعي (٥/٣) رئيس الوزراء بازركان بالضعف ، ولكنه اكد تأييده للامام الخميني · واقترح الحزب على القوى الديمقراطية والشعبية تبادل الاراء لايجاد

حلول لمواجهة مؤامرات الامبريالية والصهيونية والماوية ، وشل حركة « الشركاء الذين يثيرون الشقاق داخل صفوف الثورة » ٠

ودعا حزب توده ايضا الى تشكيل حكومة ائتلافية تشترك فيها جميع القوى الفعلية في الثورة ٠

وذكرت وكالة يونايتدبرس (٥/٤) نقلا عن « مصادر ايرانية مطلعة » ان قادة ومسؤولي الاحزاب والتجمعات اليسارية في ايران قد بدأوا عملية « النزول الى الارض » (الى العمل السري) خوفا من مضاعفات الموقف بعد المظاهرات الصاخبة المعادية للشيوعية التي تخللت جنازة مطهري ٠ وقالت الوكالة ان بعض معسكرات التدريب التي كانت منظمات يسارية قد اقامتها غداة انتصار الثورة قد اقفلت في الايام الاخيرة كجزء من العودة الى السرية ٠

اما وكالة تاس السوفياتية (٥/٤) فقالت ان منظمة « الفرقان » التي اعلنت مسؤوليتها عن اغتيال مطهري ليست سوى امتداد للسافاك ٠ وقالت « ان هذه الجريمة تثبت ان القوى اليمينية او المجموعات الارهابية تعمل جنبا الى جنب مع عملاء المخابرات الاميركية – الاسرائيلية ولم تكف عن محاولاتها الرامية الى احباط الثورة الايرانية » ٠

واصدر الامام الخميني اوامره (٥/٥) الى مجلس الثورة الاسلامي للبدء في تشكيل « جيش حرس الثورة الاسلامية » لحفظ الامن والدفاع عن الثورة في البلاد٠ وقالت اذاعة صوت الثورة من طهران انه تم بالفعل تعيين قيادة لهذا الجيش ، الا انها لم تفصح عن الاسماء ٠

وقد اتخذت الثورة الايرانية – قبل ايام من بدء اجتماعات مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي قرارا بقطع العلاقات مع مصر (٥/١) ، وحث الامام الخميني – في برقية بعث بها (٥/٨) الى العقيد معمر القذافي جميع البلدان الاسلامية على قطع علاقاتها الدبلوماسية مع مصر ٠ ووصف انور السادات بانه « خائن جلب العار للاسلام » وينبغي ان « تقطع يده » « لمحو هذا العار عن الاسلام ، اذ انه خادم للامبريالية والصهيونية » ٠

وفي برقية اخرى الى سفير الصومال في طهران (٥/٨) قال الخميني انه «اذا اتحدت جميع الدول الاسلامية تحت لواء واحد فانها ستشكل اكبر قوة في العالم »٠ وقال ايضا « ان على جميع المسلمين في العالم ان يشتركوا في حركة العدل الكبرى التي بدأت في ايران » ٠

في الوقت نفسه صرح محمد مقري سفير ايران الجديد لدى الاتحاد السوفياتي ٠ في مؤتمر صحفي في موسكو (٥/٨) بان بلاده مرتبطة بحركة عدم الانحياز ولن تشترك في اية احلاف عسكرية موجهة ضد الاتحاد السوفياتي – وقال « اننا لن نسمح بعد الان بان تصبح ايران مرة اخرى قاعدة للتجسس ضد الاتحاد السوفياتي » ٠ واعرب عن اعتقاده بان الاتحاد السوفياتي ابدى تعاطفا تجاه قضية الثورة الايرانية خلال الثورة ٠

وعلى الرغم من المصاعب الداخلية التي تواجهها الثورة الايرانية وحتى « الخلافات » بين الامام الخميني ورئيس الوزراء بازركان حول احكام الاعدام التي تصدرها المحاكم الثورية الاسلامية ، ومواجهة مشكلات الاقليات ، فقد واصلت الثورة الايرانية مواقفها المناهضة للامبريالية والداعمة للثورة الفلسطينية بقوة ٠

في ١٥ ايار (مايو) – ذكرى اغتصاب فلسطين – نظم في طهران مهرجان شعبي كبير تضامنا مع الشعب الفلسطيني ،وتليت فيه رسالة من الامام الخميني قال فيها :

« ان الشعب الفلسطيني لم ينس مفتاح وطنه الام ، وانا ارغب بشكل كبير في ان اخذ هذا المفتاح واذهب الى فلسطين لافتح ابواب الناصرة » .

وحمل الخميني السادات وبيغن وكارتر مسؤولية الام الشعب الفلسطيني . وقال انه اذا قتل وهو يمارس خلف رشاش فلسطيني فهو يريد ان يدفن في فلسطين .

اميركا تهدد

في الوقت نفسه تواصل الولايات المتحدة تهديداتها لفرض «السلام الاميركي» بالقوة في منطقة الشرق الاوسط تحت شعار حماية المصالح الاميركية والغربية في المنطقة ، خاصة المصالح النفطية .

ففي اليوم نفسه الذي صدرت فيه قرارات مؤتمر وزراء الخارجية الاسلامي (٩/٥) عاد هارولد براون وزير الخارجية الاميركي للحديث عن « احتمال تدخل عسكري اميركي في الشرق الاوسط في حال انتهاك معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية » . وقال براون : « لا استبعد استعمال القوة العسكرية للدفاع عن مصالحنا الحيوية في المنطقة. الا ان تحديد هذه المصالح يجب ان يتم وفق معيار احداث خاصة » .

واشار وزير الدفاع الاميركي الى ان التدخل الاميركي سيقتصر « على الارجح » على « تزويد اسرائيل بكميات من الاسلحة وارسال سفن وطائرات حربية لاظهار العلم (الاميركي) في المنطقة » .

وقد جاءت تصريحات براون هذه ردا على اسئلة لجنة الكونغرس التي تدرس طلب الرئيس الاميركي جيمي منح اسرائيل ومصر مساعدات مالية في اطار « معاهدة السلام » .

وقد جاءت تصريحات براون هذه ردا على اسئلة لجنة الكونغرس التي تدرس طلب الرئيس الاميركي كارتر منح اسرائيل ومصر مساعدات مالية في اطار « معاهدة السلام » .

واستكمالا لسياسة التهديد العسكري قامت الطائرات الاميركية المحمولة على حاملة الطائرات الاميركية ايزنهاور الراسية في مواجهة حيفا بعرض جوي (٥/١٠) شاهده مناحيم بيغن الذي قال بالمناسبة ان اسرائيل « على استعداد لان تعرض على الولايات المتحدة اية تسهيلات قواعد قد تحتاجها » . وقال بيغن ايضا « لا اخفي سرا اذا قلت انه عندما تريد الولايات الحصول على تسهيلات فستكون هذه التسهيلات تحت تصرف قوات الولايات المتحدة » . واضاف انه « في اعقاب معاهدة السلام قد تكون حيفا والاسكندرية نقطتين مفيدتين للرسو للبحرية الاميركية » .

والقى السفير الاميركي في تل ابيب كلمة في المناسبة نفسها قال فيها انه « لا يمكن لاية معاهدة سلام ان تلغي حاجة اي بلد لان يكون قويا ، وان يكون له اصدقاء يعول عليهم في حال وقوع الحرب ..وان وجود هذه السفينة (في حيفا) يوضح ان اسرائيل تملك هذا الصديق الوفي والحليف » .

عودة المحافظين

اسفرت الانتخابات العامة التي جرت في بريطانيا (٥/٤) عن فوز حزب المحافظين بفارق ٤٣ مقعدا عن حزب العمال ، واصبحت مارغريت تاتشر زعيمة حزب المحافظين اول سيدة تتولى رئاسة الوزارة في بريطانيا والعالم الغربي عامة. وقد توزعت مقاعد مجلس العموم نتيجة لهذه الانتخابات على النحو التالي :

المحافظون : ٣٣٩ مقعدا .

العمال : ٢٦٨ مقعدا ·

الاحرار : ١١ مقعدا ·

الاحزاب الاخرى : ١٧ مقعدا ·

لقي فوز المحافظين تأييدا واضحا واحيانا حماسيا في الدوائر اليمينية في اوروبا وخاصة في الدوائر الاطلسية وفي الولايات المتحدة وفي النظم العنصرية في جنوب افريقيا وكذلك في اسرائيل · بينما قوبل بنقد شديد من الاوساط السوفياتية التي وصفت حزب المحافظين بانه «وكيل اعمال كبار رجال الاعمال» وبانه من مؤيدي زيادة النفقات العسكرية·

والملاحظ بالفعل ان تاتشر رئيسة الوزراء البريطانية الجديدة قالت في اول تصريح لها (٥/٧) ـ ادلت به الى مجلة «التايم» الاميركية ـ ان حكومتها ستزيد نفقات بريطانيا الدفاعية ،ودعت الى انشاء قوة ردع ثلاثية بمشاركة الولايات المتحدة وبريطانيا وفرنسا «لمواجهة هدف السوفيات غير المتغير ، وهو السيطرة على العالم بواسطة النظام الشيوعي» ·

واشارت تاتشر الى احتمال اعتراف حكومتها بالحكومة الجديدة التي «انتخبت» في روديسيا (تحت هيمنة البيض) برئاسة الاسقف موزوريوا ·

وشنت تاتشر في هذا الحديث حملة شديدة على الاتحاد السوفياتي ودعت الى « ضرورة الوحدة بين البلدان الديمقراطية » · وقالت « انني اعتبر التهديد الروسي امرا يشمل العالم كله ، وليس هناك سوى ٢٥ بلدا ديمقراطيا من اصل ١٢٠ بلدا ، وعلينا معا بوسيلة او باخرى ان نضمن الا يفوز السوفيات بتحقيق اهدافهم » ·

وعلى الرغم من انه لم تصدر بعد تصريحات عن مسؤولي حكومة المحافظين الجديدة بشأن الشرق الاوسط الا انه يعتقد بوجه عام ان حكومة تاتشر ستكون اشد تبعية من حكومة العمال السابقة للمواقف التي تمليها الولايات المتحدة بالنسبة الى هذه المنطقة وغيرها · ومن المتوقع ان تكون الحكومة الجديدة اكثر صراحة في التعبير عن تأييد بريطانيا لمعاهدة « السلام » المصرية ـ الاسرائيلية·

وينتظر ان يتضح المزيد عن سياسة هذه الحكومة عندما تستقبل لندن مناحيم بيغن في زيارة تقرر ان يقوم بها لبريطانيا في اواخر شهر ايار (مايو) ·

سمير كرم

قضايا عسكرية

« استمرار تصاعد الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية »

تمشيا مع سياسة تصعيد النشاط العسكري للثورة الفلسطينية ضد اسرائيل، التي بدأت عقب توقيع معاهدة الصلح بين مصر واسرائيل ، استمرت عمليات الثوار الفلسطينيين داخل الارض المحتلة، واستمرت في الوقت ذاته عمليات الرد العسكري الاسرائيلي على الوجود الفلسطيني في لبنان طوال الشهر الماضي ،

بحيث اصبح الوضع بمثابة حرب فلسطينية ـ اسرائيلية محدودة وشبه مستمرة . ففي ليلة ٧٩/٤/٢٢ هاجمت مجموعة من اربعة فدائيين تابعين لجبهة التحرير الفلسطينية مستوطنة نهاريا الاسرائيلية ، التي تبعد نحو ١٠ كلم عن الحدود اللبنانية ، وذلك عن طريق البحر الابيض المتوسط الذي نزلوا منه على الشاطىء ، مستخدمين زورق مطاط مزود بمحرك قوته ٥٥ حصانا ويمكن ان تصل سرعته القصوى الى نحو ٨٨ كلم في الساعة . وقد اقتحمت المجموعة المذكورة بناية تحمل الرقم ٦١ ، بعد ان حاولت في البداية اقتحام منزل يقع على الشاطىء مباشرة ، واخذوا اثنين من الرهائن ، ثم اشتبكوا مع دورية من الشرطة الاسرائيلية قرب الشاطيء ، حيث دارت معركة اسفرت في النهاية عن استشهاد اثنين من الفدائيين ومقتل اربعة من الاسرائيليين ، بينهم شرطي ، ووقوع اثنين من الفدائيين اسرى . وتعكس هذه العملية قدرة متزايدة لدى تنظيمات الثورة الفلسطينية المسلحة على تنظيم وتنفيذ الاغارات البرمائية ، على الرغم من الاجراءات الامنية الاسرائيلية المتشددة، التي تزايدت دقتها وكثافتها منذ عملية « كمال عدوان » التي جرت على طريق « حيفا ـ تل ابيب » في ٧٨/٣/١١ ، وردت عليها اسرائيل بهجوم شامل على الجنوب استمر لمدة ثمانية ايام ، ابتداء من ٧٨/٣/١٤ حتى ١٩٧٨/٣/٢١ .

واثر عملية « نهاريا » ، التي اطلق عليها اسم عملية « جمال عبد الناصر » ، اعلنت حالة التأهب بين القوات الاسرائيلية الموجودة على مقربة من الحدود اللبنانية ، وهدد « مناحيم بيغن » باتخاذ اجراءات انتقامية في خطاب القاه في مأتم اثنين من المدنيين قتلا في العملية ، وذلك في مستوطنة « كريات تيفون » قرب « حيفا » . وفي الوقت ذاته حضر وزير الدفاع الاسرائيلي « عازر وايزمان » دفن الشرطي « الياهو شاهار » في مستوطنة « معلوت » وقال « ان الجيش سيتصرف بحيث لا تكون تضحيات اخرى ... ان هدف « المخربين » هو الهاؤنا في الوقت الذي نقيم فيه السلام مع مصر » .

وبدأت اسرائيل تنفذ تهديداتها ، وتشن حربا شبه مستمرة على الشعبين الفلسطيني واللبناني ، وخاصة في الجنوب ، وذلك من خلال قصف مدفعي وبحري لمنطقة « صور » ومخيمي البص والرشيدية يوم ١٩٧٩/٤/٢٣ . ثم بواسطة قصف جوي على المنطقة الساحلية الممتدة من الصرفند حتى عدلون ، وعلى منطقتي شبريحا والبرغلية في منطقة صور ، وعلى ارنون في منطقة النبطية ، مستخدمة مختلف انواع القنابل التقليدية والعنقودية والمضادة للافراد الممنوعة دوليا ، وذلك أي ١٩٧٩/٤/٢٤ .

كما قصفت ثلاثة من الزوارق المسلحة من طراز « ساعر » ، او « رشيف » ، تحميها ٣ طائرات مقاتلة ، مخيم نهر البارد قرب طرابلس في شمال لبنان بعد ظهر يوم ٤/٢٢ ، اي في اليوم التالي مباشرة لعملية « نهاريا » .

وتوالى بعد ذلك قصف القرى والمخيمات ومختلف المواقع العسكرية المشتركة شمال نهر الليطاني في جنوب لبنان ، بصورة شبه يومية ، والتي شاركت فيها مدفعية الميليشيات التابعة لسعد حداد ، الذي اعلن ما سماه بدولة « لبنان الحر » في ٧٩/٤/١٨ ، ضمن منطقة الشريط الحدودي الامني ، الذي حالت اسرائيل دون دخول قوات الامم المتحدة فيه عقب انسحابها منه في العام الماضي اثر هجومها الشامل الذي جرى في اذار (مارس) ، عقب عملية « كمال عدوان» .

وفي جميع هذه العمليات ، او تلك التي لحقتها حتى منتصف ايار (مايو) ٧٩ ،

كان الطابع العام هو تجنب الاشتباكات المباشرة بين القوات الاسرائيلية والقوات المشتركة ، حتى لا يتكبد الجيش الاسرائيلي اي خسائر بشرية جديدة كما قال « وايزمان » ٠ ولذلك اقتصرت العمليات المذكورة على القصف من بعيد ، سواء بالمدفعية البرية او بمدافع الزوارق البحرية المسلحة او بقذائف ومدافع الطائرات المقاتلة ، وفي ٧٩/٥/٦ اغارت الطائرات الاسرائيلية ، في الساعة ٩ر٥٥ صباحا على قرية الحمرة قرب مخيم نهر البارد ، فقتل وجرح عشرات من المدنيين اللبنانيين ٠

وفي صباح يوم ٧٩/٥/٩ تقدمت قوة مدرعة اسرائيلية ، ضمت نحو ٢٠ دبابة « شيرمان » تصاحبها وحدات من المشاة الميكانيكية داخل الاراضي اللبنانية ،وذلك عبر منطقة الشريط الامني الحدودي ،حتى قرية « شقرا » ، الواقعة ضمن منطقة تواجد القوة الايرلندية التابعة لقوات الطوارىء الدولية ، حيث قامت بتفتيش القرية واعتقال عدد من سكانها والتحقيق معهم للتوصل الى معرفة صلاتهم المحتملة مع الفدائيين الفلسطينيين ٠ وبعد اتصالات دولية انسحبت القوة الاسرائيلية بعد ان قصفت بلدة « صفد البطيخ » بعشر قذائف ، وهي في طريق انسحابها ٠

وقد تمت هذه العملية كرد مباشر ، او كنوع من المطاردة كما زعمت المصادر الاسرائيلية ، لمجموعة فدائية تابعة للجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، هاجمت خلال ليلة ٥/٩ مستوطنة المنارة القريبة من الحدود اللبنانية ، حيث قصفت مكمنا عسكريا اسرائيليا بالقذائف الصاروخية ، واشتبكت اثر ذلك مع القوات الاسرائيلية والمليشيات المحلية بالرشاشات والقنابل اليدوية ، ثم نجحت المجموعة ، المؤلفة من اربعة افراد ، في الانسحاب عائدة الى قاعدتها ، بعد ان اسر احد افرادها ٠

وهكذا ثبت مرة اخرى ان الشريط الامني لا يمكنه منع ، ليس فقط قذائف الثوار الفلسطينيين ، وانما ايضا وصول مقاتليهم الى داخل الارض المحتلة عبر مختلف الحواجز والاسلاك وحقول الالغام واجهزة الانذار ٠ هذا وقد قالت اذاعة الجيش الاسرائيلي يوم ٧٩/٥/١٠ ان الفدائي الذي اسر خلال هذه العملية ، التي قامت بها مجموعة « ابو امل » ، قد توفي متاثرا بجراحه !

وفي يوم ٧٩/١١/١٠ قامت مجموعة الشهيد « ابو حسن سلامة » ، داخل الارض المحتلة ، بوضع عبوات ناسفة في مصنع يعمل لحساب الصناعة العسكرية الاسرائيلية ، في ضاحية « رامات هاشارون » بتل ابيب ، مما ادى الى اصابة ١٥ شخصا بجروح ، وفقا لبيان الشرطة الاسرائيلية ٠ ونفى الجيش الاسرائيلي ان يكون الانفجار نتيجة عملية فدائية ، وذلك في بيان صادر عن الحادث قال فيه : ان الانفجار نتج عن حادث اصاب احدى الات المصنع ! وهكذا تمضي الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في التصاعد المستمر منذ توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، وسوف تزداد حدة واستمرارا بعد ان طرح « بيغن » مشروعه للصلح مع لبنان ، يوم ٧٩/٥/٧، في خطابه امام « الكنيست » ، الذي دعا فيه الى اعادة توطين الفلسطينيين الموجودين في لبنان في كل من السعودية وسوريا والعراق والجماهيرية الليبية ، كاشفا بصورة صريحة وكاملة حقيقة كل ما يجري في لبنان منذ ١٣ نيسان (ابريل) ١٩٧٥ وحتى الان ، وما سوف يجري في المستقبل ايضا ٠ ولذلك كانت وستكون الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية في لبنان حربا قاسية ومستمرة ، بحكم انها حرب بقاء او فناء للثورة الفلسطينية ٠

« الطيران السوري فوق بيروت »

تميزت المرحلة الاخيرة من الهجمات بالنيران البرية والبحرية والجوية الاسرائيلية ، التي اعقبت عملية «نهاريا». بكثرة تحليق الطيران الاسرائيلي فوق « بيروت » على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة وتصدي وسائل الدفاع الجوي الارضي لها بكثافة ، سواء تلك التي لدى قوات الردع العربية او المقاومة الفلسطينية او الحركة الوطنية اللبنانية وفي الوقت ذاته تميزت المرحلة المذكورة بتحقق قدر جيد من الوجود الجوي السوري فوق « بيروت » للمرة الاولى منذ انتهاء حرب ١٩٧٣ ·

ففي ٢٥/٤/٧٩ حلقت بعد الظهر ٣ طائرات سورية مقاتلة هجومية من طراز « سوخوي ـ ١٧ » على ارتفاع منخفض فوق بيروت واتجهت شرقا · وتعتبر هذه الطائرات من احدث الطائرات المقاتلة الهجومية لدى الاسلحة الجوية العربية التي تتسلح بالطائرات السوفييتية الصنع ، مثل سوريا والعراق (وكذلك يوجد منها لدى الطيران المصري نحو ٤٦ طائرة)، اذ تأتي في المرتبة الثانية مباشرة بعد « الميغ ـ ٢٧ » في هذا المجال · فقد دخلت « السوخوي ـ ١٧ » الخدمة العملية بالسلاح الجوي السوفييتي عام ١٩٧١ ، ثم دخلت الخدمة بالسلاحين الجويين المصري والسوري في اوائل العام ٧٣ ، وقد شاركت اعداد منها في حرب تشرين (اكتوبر) على كلا الجبهتين · وهي مقاتلة ذات قدرة خاصة على القصف الارضي ، مع توفر قدرة ذاتية للدفاع عن نفسها ضد مقاتلات العدو ، خاصة على الارتفاعات المنخفضة، نظرا لقدرتها الكبيرة على المناورة العنيفة على الارتفاعات المذكورة الناتجة عن طبيعة تصميمها · ومما يساعدها على ذلك ان اجنحتها ذات هندسة متغيرة (اي قابلة للحركة للخلف والعودة للوضع العادي مرة اخرى وفقا لمتطلبات المناورة والتسارع الخ ··) ، ولذلك كانت الطائرات السورية المذكورة تحلق طاوية اجنحتها للخلف بزاوية تقدر بنحو ٦٠ درجة ·

وهي مزودة بمحرك نفاث تبلغ قوة دفعه (عند استخدام الحراق الخلفي) نحو ١١٢٠٠ كلغ وسرعتها القصوى على ارتفاع سطح البحر نحو ١٣٠٠ كلم / ساعة ، اما على ارتفاع ١٢ ألف متر فتصل السرعة المذكورة الى ٢٣٠٠ كلم · وهي مسلحة بمدفعين عيار ٣٠ مم ، فضلا عن امكان تسليحها بعدد من الصواريخ جو ـ جو قصيرة المدى للقتال التلاحمي، خاصة على الارتفاعات المنخفضة ، وهذا هو ما نرجح حدوثه بالنسبة للطائرات الثلاث التي حلقت فوق بيروت ، نظرا لاحتمال مواجهتها للطائرات الاسرائيلية المحلقة على ارتفاع منخفض فوق المدينة وعموما فان « السوخوي ـ ١٧ ، لها ٨ نقاط تعليق تحت هيكلها واجنحتها ، يمكن تحميلها بحمولات مختلفة (قنابل ، مقذوفات صاروخية ، صواريخ جو ـ ارض ، صواريخ جو ـ جو ، خزانات وقود اضافي) وفقا لطبيعة المهمة التكتيكية المكلفة بها الطائرة ، ومدى الطيران المتوقع لها خلالها · ولذلك تستطيع الطائرة حمل ٥ اطنان من القنابل كحد اقصى عند الضرورة · ولكن حمولتها النموذجية هي ٣٫٥ اطنان وخزاني وقود اضافي ، وفي الحالة الاخيرة يكون المدى القتالي لها ٣٦٠ كلم اذا ما كانت الرحلة ذهابا وايابا تجري على ارتفاع منخفض ، ونحو ٦٣٠ كلم اذا ما كانت الرحلة تجري على ارتفاع عال ـ منخفض ـ عال (اي يتم القصف فقط على ارتفاع منخفض) · وتجدر الاشارة ان المصادر الدولية تقدر عدد

طائرات « سوخوي ـ ١٧ » (وتسمى احيانا في بعض المراجع الغربية « سوخوي ـ ٢٠ » على أساس ان رقم ٢٠ خاص بالنوع الخاص بالتصدير للخارج الذي تقل فيه الاجهزة الالكترونية ، على حد زعمها) الموجودة لدى السلاح الجوي السوري بنحو ٥٠ طائرة ٠

ولم يقتصر الوجود الجوي السوري فوق « بيروت » ، والعديد من مناطق وسط وشمال لبنان ، على طائرات « السوخوي ـ ١٧ » وانما شمل ايضا طائرات « الميغ ـ ٢١ » ، التي ظهرت عدة مرات في الاسبوع الاول من ايار (مايو) ثم كانت المفاجأة الهامة يوم ١٤ / ٥ / ٧٩ ، حين حلقت طائرتان مقاتلتان سوريتان من طراز « ميغ ـ ٢٣ » في سماء بيروت مرتين على ارتفاعات منخفضة ومتوسطة ، وامكن بوضوح في المرة الاولى مشاهدة الطائرتين وهما تحركان اجنحتهما من الوضع المائل الى الخلف الى الوضع العادي ، اثناء مناورة ارتفاعهما لتجنب نيران المدافع المضادة

التي اطلقت عليها من قبيل الخطأ والاعتقاد بأنهما طائرتان اسرائيليتان ٠

و « الميغ ـ ٢٢ » هي احدث المقاتلات السوفييتية الصنع الموجودة لدى السلاح الجوي السوري (وكذلك لدى السلاحين الجويين العراقي والليبي) ، ويقدر ما لديه منها بنحو ٥٠ طائرة ٠ وهي تفوق طائرات « الفانتوم » من حيث قدرات القتال الجوي ، ويمكنها ان تواجه بكفاءة طائرات « ف ـ ١٥ » و « ف ـ ١٦ » الاميركية ٠ وهي طائرة مقاتلة معترضة وذات قدرة تحقيق تفوق جوي (اي قتال جوي قريب وليس مجرد الاعتراض من بعيد بصواريخ جو ـ جو) ، كما انها يمكن ان تستخدم في مهام القصف التكتيكي ٠ ومزودة بمحرك نفاث من نوع حديث تبلغ قوة دفعه القصوى ، عند استخدام الحراق الخلفي ، نحو ١٢٥٠٠ كلغ ، يكفل لها نسبة قوة دفع الى الوزن (على اساس الوزن القتالي في مهام الاعتراض والتفوق الجوي البالغ نحو ١٣ الف كلغ) تبلغ ٩٦ر٠ كيلو ضغط لكل كيلو وزن ، مقابل نسبة ٩٢ر٠ للفانتوم ٠ وهي تستطيع ان تلتف ضمن شعاع التفاف قدرة ٦٠٠ متر ، مقابل ٩٠٠ متر للفانتوم ، وهذا كله يعني ان قدرتها على المناورة القتالية افضل من « الفانتوم »٠ كما ان قدرتها على التحليق من فوق مدرج طوله نحو ٨٠٠ متر فقط ، مقابل ١٣٨٥ مترا للفانتوم ٠ وتستطيع ان تصعد بمعدل يبلغ ما بين ٢٥٠ و ٢٧٥ مترا في الثانية ، مقابل ٢١٠ مترا للفانتوم ، مما يعني قدرة افضل على سرعة الاعتراض الجوي ٠ وتبلغ سرعة « الميغ » ـ ٢٣ » القصوى على ارتفاع ١٢ الف متر نحو ٢٤٤٦ كلم / ساعة ،

مقابل سرعة ٢٣٠٤ كلم / ساعة للفانتوم٠ ويبلغ المدى القتالي للميغ ـ ٢٣ بتسليح ٤ صواريخ جو ـ جو وخزان وقود اضافي

نحو ٨٠ كلم ، مقابل ٣١٥ كلم فقط لفانتوم في الحالة المماثلة ٠ وتستطيع « الميغ » ـ ٢٣ » في حالة استخدامها في مهام القصف الارضي (وهي مهمة تأتي في المرتبة الثانية بالنسبة لقدرتها الاساسية في القتال الجوي) ان تحمل ٣ اطنان من القنابل فضلا عن خزان وقود اضافي ٠ ويبلغ مداها في الحالة المذكورة نحو ٤٠٠ كلم، في حالة التحليق على ارتفاع منخفض، ونحو ٨٠٠ كلم في حالة التحليق على ارتفاع عال ـ منخفض ـ عال ٠

وفي الوقت ذاته فان التجهيزات الالكترونية المختلفة للميغ ـ ٢٣ تتماثل تقريبا مع تجهيزات « الفانتوم » ٠

« حاملة الطائرات « دوايت ايزنهاور » في حيفا »

في ١٠/٥/١٩٧٩ قام « مناحيم بيغن » بنزهة فوق ظهر حاملة الطائرات الاميركية « دوايت ايزنهاور » ، التي كانت في زيارة لميناء حيفا ، في صحبة وزير الدفاع الاسرئيلي « عازر وايزمان » والسفير الاميركي في اسرائيل « صمويل لويس » والاميرال « روبرت شولتز » المسؤول عن القطع البحرية القاتلة في الاسطول الاميركي السادس ٠

وهذه هي ثاني حاملة طائرات اميركية تزور « حيفا » خلال عام ، فقد سبق للحاملة « نيميتز » ان زارت « حيفا » في ٦/٤/٧٨ ، كما سبق ان زارت الغواصة النووية الاميركية « لابون » حيفا في ١٤/٦/١٩٧٨ ٠ وتأتي زيارة الحاملة « دوايت ايزنهاور » لحيفا هذه المرة ضمن الظروف الجديدة في منطقة الشرق الاوسط ، المترتبة على الثورة في ايران وتوقيع معاهدة الصلح الاسرائيلية ـ المصرية ٠ وكذلك في اعقاب زيارة وزير الدفاع الاميركي « براون » لاسرائيل في منتصف شباط (فبراير) ١٩٧٩ ، التي بحثت فيها مسألة تحويل حيفا الى قاعدة اميركية في شرقي البحر الابيض المتوسط٠ والحاملة « دوايت ايزنهاور » هي ثالث حاملة طائرات اميركية تسيرها الطاقة النووية تدخل الخدمة العملية ، بعد حاملتي الطائرات « انتربرايز » و «نيميتز» وذلك في ١٨/١٠/١٩٧٧ ٠ ويبلغ وزنها بحمولة كاملة ٩١٤٨٧ طنا ، ويبلغ طولها ٣٣٢ مترا ، وعرض هيكلها ٤٠٫٨ مترا ، وعرض سطحها المخصص للطيران ٧٦٫٨ مترا ، ولها مهبطان للطائرات ٠ وتبلغ قوة دفع محركاتها التوربينية البخارية ٢٨٠ الف حصان ، وهي مزودة بمفاعلين نوويين ، وتصل سرعتها القصوى الى اكثر من ٣٠ عقدة (اي اكثر من ٥٥٫٥ كلم في الساعة) ٠ وتستطيع ان تحمل اكثر من ٩٠ طائرة قتال من مختلف الانواع ٠ ويتألف طاقمها البحري من ٣٣٠٠ رجل ، يضاف اليهم ٣٠٠٠ رجل اخرين يشكلون افراد الجناح الجوي الذي يعمل على سطحها ٠ ومن المتوقع ان تجهز الحاملة المذكورة بمركز سيطره مضاد للغواصات، وطائرات هليكوبتر مضادة للغواصات ، بحيث يتم تعديل مهام الحاملة الحالية من حاملة طائرات هجومية الى حاملة طائرات متعددة المهام ، لتتوفر لها قدرة اضافية ضد الغواصات الى جانب قدرتها الهجومية الجوية ٠

« السعودية تقاطع مصر عسكريا »

اعلنت السعودية ، باسم الدول العربية الثلاث (عدا مصر) المشاركة في الهيئة العربية للتصنيع الحربي ، يوم ١٤/٥/٧٩، انهاء وجود الهيئة من الناحية القانونية اعتبارا من اول تموز (يوليو) المقبل ، وتشكيل لجنة من الدول الاربع المؤسسة للهيئة وهي السعودية وقطر ودولة الامارات ومصر للبدء في تصفية اموال الهيئة ، على ان تجتمع فورا في مقر الهيئة في باريس ٠ وذلك نظرا لاعتراف مصر باسرائيل بصورة منفردة ، الذي اوجد ظروفا تصطدم مع البواعث والاهداف التي قامت من اجلها الهيئة المذكورة ٠

وقد انشئت الهيئة منذ ٤ اعوام برأس مال قدره ١٤٠٠ مليون دولار ، ساهمت فيه اساسا الدول النفطية الثلاث المشار اليها انفا ٠ وبدأت اولى خطواتها العملية على طريق تصنيع بعض انواع الاسلحة والمعدات العسكرية في ١٤/١/٧٨ ، حين اعلن « الجمسي » ، وزير الحربية المصري وقتئذ ، عن توقيع بروتوكول للتعاون الفني بين الهيئة وبريطانيا في مجالات الصناعة الحربية ٠ وكان من

المفروض ان تنشأ بمقتضاه ثلاث شركات مشتركة لتصنيع الصواريخ المضادة للدبابات من طراز « سوينغ فاير » ، ومحركات وهياكل طائرات الهليكوبتر من طراز « لينكس » . وعلى ان يبدأ الانتاج في اواخر العام ١٩٧٨ (راجع شهريات عدد ٧٨ من شؤون فلسطينية) ٠

وقد اعلنت مصر اثر ذلك ان قرار السعودية وقطر ودولة الامارات لن يؤثر على استمرار الهيئة ، وتنفيذها لتعاقداتها والمضي في سياسة التصنيع الحربي المفترضة وفقا لوجودها ٠ ولكن الشركات البريطانية والفرنسية التي تعاقدت معها الهيئة ، او كانت على طريق التعاقد معها، تبدي قلقها العميق وشكها في امكان استمرار مصر منفردة في تنفيذ برامج الهيئة المذكورة ، بسبب مشكلات التمويل المالي في ظل الظروف الاقتصادية والمالية الصعبة التي تواجهها مصر ٠ كذلك فانه ليس من المتوقع ان تقدم الولايات المتحدة الاميركية مساعدة مالية تكفل استمرار الهيئة بدون تمويل الدول العربية المذكورة، نظرا لكثرة التزامات الولايات المتحدة المالية نسبياً تجاه مصر . نتيجة لتوقيعها المعاهدة مع اسرائيل ٠ فضلا عن عدم حماسها اصلا لتشجيع قيام صناعة عسكرية عربية تعتمد على دول اوروبا الغربية ، التي كانت ستستفيد من فوائض الدخول النفطية العربية عند تنفيذ مثل هذه المشروعات ٠

وفي الوقت نفسه صرح الامير فهد ، ولي العهد السعودي ، يوم ٧٩/٥/١٢ عقب اجتماعه بالرئيس الفرنسي « ديستان » بباريس ، ان « السعودية لن تدفع ثمن طائرات « ف ـ ٥ اي تايغر ٢ » الخمسين التي طلبت مصر شراءها من الولايات المتحدة كما كان مقررا » ٠ وكان « الكونغرس » الاميركي قد وافق على بيع مصر الخمسين طائرة المذكورة في ٧٨/٥/١٦ ، ضمن ما عرف بصفقة الطائرات الثلاثية لكل من مصر والسعودية واسرائيل ، التي شملت بيع اسرائيل ٧٥ طائرة « ف ١٦ » و ١٥ طائرة « ف ـ ١٥» وبيع السعودية ٦٠ طائرة « ف ـ ١٥ » ، فضلا عن الخمسين طائرة « ف ـ ٥ اي » المذكورة لمصر ٠ (راجع شهريات عددي ٧٧ و ٧٩ من شؤون فلسطينية) ٠ وكان من المفروض ان تتسلم مصر الدفعة الاولى من هذه الطائرات ، وقدرها ١٠ طائرات، في اواخر ايلول (سبتمبر) ٧٨ ٠ ولكن ذلك لم يتم بسبب رفع الولايات المتحدة لثمن الطائرات الى ٧٣٠ مليون دولار ، بدلا من ٤٠٠ مليون دولار كما كان مقررا في الاصل ، بحجة ان مصر تطلب اضافات تقنية معينة على الطائرات ٠ وقد امتنعت السعودية عن المضي في تمويل الصفقة على هذا اساس ، ثم عادت ووافقت على تمويلها بسعر ٥٢٥ مليون دولار ، اثناء زيارة « براون » الاخيرة للمنطقة فيشباط (فبراير) ١٩٧٩ ٠ وذلك بعد ان تنازلت مصر عن بعض المعدات التي تجهز بها الطائرات المذكورة ، وتعدل موعد تسليم الدفعة الاولى منها الى مصر بحيث اصبح من المرجح ان يبدأ التسليم في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٩ ٠ وقد اعلن « السادات » ، في حديث له يوم ٧٩/٥/١٣ ، انه سيطلب من الشعب الاميركي جمع الاموال والتبرعات لتغطية قيمة الصفقة المذكورة عندما تبلغه السعودية رسميا بقرارها بعدم تمويلها ٠

وتجدر الاشارة ان هذه الطائرات كان من المفروض ان تحل جزئيا محل ٢٥٠ طائرة « ميغ ـ ٢١ » موجودة لدى مصر ، علما بأنها اقل قدرة من طائرات الجيل الثاني من «الميغ ـ ٢١» المعروفة باسم « م ف » ٠

محمود عزمي

سامية حلبي

ألفن ونيويورك

انا فنانة فلسطينية اقيم في مدينة نيويورك منذ اربع سنوات · وقبل المجيء الى هنا ،كنت اقيم وادرس في الولايات الاميركية الغربية المتوسطة · ولدت في القدس عام ١٩٣٦ ، وفي عام ١٩٤٨ انتقلت مع عائلتي الى بيروت ، وبعد اربع سنوات أي عام ١٩٥٢ غادرنا الى الولايات المتحدة · وهذه المقاله ، هي عبارة عن بعض انطباعاتي حول الفن في اميركا ·

نيويورك هي السوق المركزي للفن التشكيلي في الولايات المتحدة · والمراكز الفنية الاخرى كشيكاغو ولوس انجلوس تسلم بهذه القيادة ، كما انها تكرم معروضات فناني نيويورك اكثر من تكريمها لفنانيها ، وهكذا ، فان هواة جمع اللوحات الفنية ، يسافرون غالبا الى نيويورك من اجل اقتناء لوحات لفنانيهم المفضلين ·

وفي النتيجة ، فالجميع هنا ، هواة الرسم والرسامون الذين يشعرون بضرورة الاقامة الدائمة في المدينة ، وذلك بسبب امتناع الوكلاء عن عرض اعمال الفنانين الذين يقيمون خارج المدينة · وبينما تعج المدينة بآلاف الرسامين ، فان عدد الوكلاء قليل جدا ، مما يسمح للوكلاء بحرية اختيار اللوحات والاساليب · اما الفنان ، فان جل طموحه هو ان يقع عليه اختيار احد الوكلاء من اجل أن يستطيع الوصول الى جمهوره · وهذا ، يعطي الوكيل مركزا كبيرا ، ويشجع النظرة الى الفنان باعتباره شيئا · ومن جهتي ، فانا لا اعرف تجربة اقل انسانية من تلك التي يتعرض لها الفنان عندما يقف في المعارض ، امام صور فوتوغرافية عن لوحاته على امل ان تنال رضى احد الوكلاء ·

ويصبح الامر اكثر صعوبة عندما يكون الفنان امرأة او زنجيا او اميركيا هنديا او أجنبيا غير اوروبي ·لقد حاولت شخصيا ، ولعدة سنوات ، ان أنال فرصة عرض لوحاتي في معارض نيويورك · واعرف الان كم هو هراء القول ان جودة الرسم هي قاعدة العرض· انه نظام يلغي مقاييس الفن ، بحيث لا يعود أحد قادرا على نيل فرصة الاستفادة من المعارض الا بتوصية من أصحاب النفوذ او بكسب رضاهم ·

كما أن الفنانين ، محكومون بالمنافسة الشرسة ، على الرغم من صداقاتهم · فتبادل

الافكار بين الفنانين ، مثلا ، ليس أمرا عاديا كما يمكن الاعتقاد · ان منبر تبادل الافكار هو مجلات نيويورك الفنية ·وعادة ما يكون الشارح ناقدا او مدير متحف او عالما جامعيا في شؤون الفن · ونادرا ما تنشر هذه المجلات مقالات لفنانين · فالعادة ان يكون الفنان أخرس ومضطربا · وتصبح بذلك اللوحات عرضة للتفسير ، وغالبا ما تفسر على غير ما هي عليه · والامر هذا يصح على الرسومات الواقعية والمجردة · والاكيد ان الرسم يعاني من حساسية دقيقة عند تعرضه لهذا المستوى من الاستغلال · حتى ان المجموعة التي تضاف اليها لوحة ما تغير من معناها · والفنانون عاجزون في هذه الحالات· ذلك انه في حال بيع لوحة ما يصبح للمالك الحق القانوني في التصرف الكامل بهذه اللوحة وحتى في اتلافها ·

وبموجب هذا النظام لا تتمتع اللوحات بقيمة نقدية ذاتية · بل ان بعضها يصبح ذات قيمة سلبية الى درجة لا بد من وضعها في الاستيداع · كما ان الفنان عاجز عن تنمية قيمة لوحاته ، الا في حال استثمار هذه اللوحات من احد الوكلاء عن طريق وضعها في تصرف النقد ، والحاقها بنظام شهادات البراءة المكتوبة · وبذلك يمكن شراء لوحة ما على ضوء قيمتها في المستقبل بموجب هذه الشهادة الممنوحة لها · وفي حال ابداء احد الهواة رغبته شراء لوحة ما يسارع لسؤال الوكيل عن الشهادة الممنوحة لهذه اللوحة من المتاحف أو المعارض · وكلما اشترى متحف او وكيل لوحة ما أو وضعها في العرض ، وكلما تناولت مجلة ، تصدر في نيويورك ،اعمال فنان ، كلما ارتفعت القيمة النقدية لهذه الاعال · وفي مطلق الاحوال لا يمكن للفن المرئي تجنب هذه المصائد · وبقدر ما يكون الفن مصنوعا من مادة ، اي مادة ، وبقدر ما يكون فريدا او مكررا بدرجة محدودة جدا ، بقدر ما يمكن تغييره ونسخه · حتى ان الاعمال الفنية التي ظهرت منذ العصور القديمة والتي لا علاقة لانتاجها بهذه الانظمة ،هي عرضة لهذه العملية من التقييم والتبادل ·

ان اكثر من تسع وتسعين بالمئة من فناني مدينة نيويورك لا يمكنهم العيش من مردود انتاجها الفني · وهناك قلة من الاسماء اللامعة والثرية · الا أن الفوائد الكبيرة هي التي يجنيها هواة الفن والوكلاء · حتى أن بعض الرسومات تصبح ذات قيمة مرتفعة جدا بعد تنسيبها الى بعض المتاحف ، على الرغم من انها بيعت في البداية بأسعار متدنية ·

ان هذا الادعاء هو وسيلة لتخفيض قيمة الضرائب · فالنتيجة ان الذين يدفعون ثمن المجموعات المنسوبة الى المتاحف هم في غالبيهم من الذين يدفعون الضرائب ، ومن الذين يفقدون الخيار خارج هذه المجموعات · وعلى الرغم من ذلك فان متاحف نيويورك تبقى مكتظة بالزبائن ·

الا ان هذا النظام يبقى قادرا على تسليط الاهتمام على الفن الرفيع لانه يشتمل على جمهرة كبيرة من الناس ولان اتفاقا عاما يبقى ضروريا لتقدير المستوى الرفيع · كما ان هذا النظام يبقى قادرا ايضا على تسليط الاهتمام على المزيف ، كما يمكنه التأثير سلبيا على كل الفنانين . ويضعنا جميعا في العذاب · وبالنسبة لي فانه امر مؤلم ان ابيع لوحة غير معروضة ·

ان بعض الاراء عن تاريخ الفن السائد هنا يجب تصحيحها ·البعض يسميها بنظرية طريق سكة الحديد بسبب سلوكها طريقا مرسومة من غير محطات فرعية · وهذه الاراء تنظر الى الفن الغربي باعتباره متفوقا · وتصف كل من لا ينطبق عليه تعريفها بانه بدائي مبسط او انه تزييني بلا قيمة · كما ان هذا الفن المتفوق يكون اجمالا من صنع الرجال ·

وينظر الى النساء باستخفاف ، من قبل علماء الفن ٠كما ان اعمال النساء الفنية (مثل اغطية السرائر والسجاد) تصنف على أنها ادنى قيمة من فن الرجال المتفوق (مثل الرسم والنحت والهندسة) ٠ وحسب ما تقول هذه النظرية ، فلقد بدأ الفن المتفوق مع اليونان القديمه وبعدها مع عصر النهضة الايطالي والفن الروماني الاوروبي ٠ وعندها اصبح يعرف بفن الباروك الايطالي ، ثم الروكوكو الفرنسي طوال فترة القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين ٠ ثم وصل خلال الحرب الكونية الثانية الى نيويورك وما زال يقيم فيها ٠ هذه النظرية البائسة ، لا علاقة لها بالفن ، انها جزء من ممارسة اجتماعية سحرية ، تحاول ان تقنع المجتمع بكامل افراده بأن بعض الاجناس والمجتمعات متفوق على العكس من بعضها الاخر ٠ لكن الثابت ان الامور لم تتطور هكذا ٠ فالفن المعاصر لمدينة نيويورك مدين للمصادر الافريقية والهندية الاميركية بقدر ما هو مدين للمصادر الاوروبية ٠ كذلك هو مدين للعالم الثالث بقدر ما هو مدين للعالم المتفوق ٠ الحقيقة انه لا بد من اعادة كتابة تاريخ الفن ٠ ومن الخطأ أن نديـن الفن نفسه ، من خلال ادانتنا لنظام نقد الفن وكتابة تاريخه ٠

والسؤال هو : لماذا يؤمن عدد كبير من الفنانين أن طريق نيويورك للنجاح هي الطريق الوحيد لنيل المصداقية لرسوماتهم ؟ بعيدا عن الواقع الذي يعترف لمدينة نيويورك بالزعامة الفنية في جميع انحاء العالم ، علينا ان ندرس التعليم الفني حتى نفهم ظاهرة تدريس عبادة الابطال للطلاب من خلال المناهج التعليمية ٠ وهذه الشخصيات مثل ، مايكل انجلو وفان كوخ وسيزان ، يعاد صنعها لكي تصبح مقدسة ، ويصبح الاخذ بها كمثل اعلى للالهام ٠ كما أنه يعاد بناء اسطورة الفقر ، الذي يرافق الفنان ، بناء رومانتيكيا ، من اجل ان يبقى الرسامون مستسلمين لمداخيلهم المتدنية ، ومعرضين عن وسائل الترفيه المادية من أجل التمسك بعملهم الشريف ٠ ويصبح كل رسام او رسامة مقتنعا في داخله انه يملك شيئا خاصا يضيفه الى المجتمع ٠ كما يشحن طلاب الفن بخصوصية معينة في داخلهم تختلف عن كل انسان آخر ، وتحقيق الاعتراف الاجتماعي بالفنان ، هو في الحقيقة، تأكيد لهذه الخصوصية الفردية الانسانية ٠ وبذلك يتحول الرسم رديفا الى الحاجة لتأكيد الانا الذاتية ، مما يدفع الفنان الشاب للبحث عن افكار عن الرسم ، تدور في جوهرها حوله كفرد ، اكثر مما هي موجهة من أجل افكار عالمية او جتماعية ، او من اجل التعاون في سبيل حاجات المجتمع الجمالية ٠ ان الصياغة الرومانتيكية لتاريخ الفن ، تقود الى هذا البحث الداخلي ٠ فتحقيق « الانا » ، يشبه وضع الاعشاب امام الحمار ، فنترك الفنان وحيدا معزولا فقيرا ٠ كما ان تاريخ الفن وأدبه مثل الاغطية التي توضع على جانبي رأس الفنان ـ الحمار على طول الطريق الضيق الذي يقود الى النجاح ، حتى ولو كان الجميع يعرف ان هناك مكانا لما نسبته واحد بين كل خمسمائة على رأس هرم النجاح ٠

واستعمار العالم يقدم اضافة ، كما يبدو ، لهذا الفن ٠ فمن المؤكد ان الفنانين التعبيريين الفرنسيين مدينون الى حد كبير الى الكتابة اليابانية ٠ كما ان التعبيريين بالخطوط الهندسية نقلوا الكثير عن فن النحت الافريقي ٠ تماما كما هي حال التعبيريين التجريديين الذين نقلوا افكارا من سجاد قبائل نافاجو الهندية ٠ واصبح تقليديا هنا البحث عن افكار واشكال من العالم لاستخدامها في الفن ٠ والفن العربي غير مستثنى في اي حال من الاحوال ٠ ومن سخرية القدر أن تستطيع الدعاية الصهيونية استخدام الفن العربي ٠ كما يظهر الميل الاستعماري عندما تنسب الفنون المنقولة من العالم الثالث على انها اكتشافات ٠ ان الاسطر التي مهرت بها الصور الفوتوغرافية لبعض المنحوتات الافريقية ، باعتبارها

براءة اكتشاف ، غالبا ما تكون اسم الرجل الذي احضرها من افريقيا · ان عملية بناء الاسطورة تحيط بالاكتشافات وليس بفناني العالم الثالث ·

وفي الوقت ذاته فان فنون شعوب العالم الثالث تأثرت هي ايضا بالفنون الغربية والاميركية · والسؤال هو : لماذا تكون التأثيرات الغربية والاميركية على العالم الثالث سلبية بشكل دائم ، بينما تكون تأثيرات العالم الثالث على الفنون الغربية ايجابية ومنتجة؟ هل هي الثقة عند الفنانين الغربيين والمظاهر السحرية الاحتفالية التي أقنعتهم بأنهم يحيون تاريخا بارزا بينما يعيش فنانو العالم الثالث داخل مشاعر الانحطاط في بلدان مجهولة ؟ ام أن الامر يعود لدعم يقدم للفنان ؟ الحقيقة انه نادرا ما وجد فنان من العالم الثالث مجتمعا يعتبره مبدعا · ويجد هؤلاء الفنانون ضرورة ان يعترف بهم الغرب حتى تعترف بهم شعوبهم · من جهتي ليس لدي ما أقوله · يمكنني فقط القول أن هناك سببا أساسيا غير الذي أظنه وان الاحتمالات التي اصفها ليست الا عوارض فقط ·

لكن هناك احتمالا آخر لتفسير الظاهرة : ان بنية الفن المعاصر تقوم على ان مقياس الفن وجودته هو باستمرار تدفقه واندفاعه · اي ان الفن يجب ان يكون رائدا ودائم التقدم · الا انه في حال التدقيق برسم فنان وبأسواق نيويورك فمن الممكن التوصل الى نتيجة ان ليس لدى الفنانيين تعريفا « للتقدم » · انهم الرهبان الكبار للادب وتاريخ الفن المعاصر الذين يحددون « الرواد » والجدد والاتجاه الذي يسلكه الفن · ومن بين الاف الفنانين الذين تضمهم نيويورك من السهولة تصنيف عدة مجموعات كل مجموعة من خمسة فنانين تتشابه رسوماتهم الى حد ما ، كما يمكن الكتابة حولها الى لا نهاية ، غير ان النقد هو الذي يضع التصنيف والذي يحدد المجموعة التي يتناولها بالتعليق مما يسلط عليها الاهتمام بحجة انها مدرسة جديدة واصيلة · وبالمقابل يمكن اهمال ونسيان الفن الجيد · وفي سبيل الاحتفاظ بسطوتهم وهيبتهم ، يحتفظ النقاد بحركة المسرح وصعوده وهبوطه · فليس هناك شيئا ما يسبق زمن شخص ما · وما على الفنان الا ان يلعب لعبة النقاد انفسهم : أي ان يضع رسوماته ، التي سيتعرض لها النقاد فيما بعد ، بموجب ما كان النقاد انفسهم قد كتبوه من قبل · وفي حال القيام باللعبة جيدا وسبقت النقاد ببضع خطوات فلن تمنح الاعتراف من أحد · وربما اتهمت بالحماقة وشيدت عمارة باتجاه آخر · ان فناني مدينة نيويورك يعيشون بالقرب من بناء آداب النقد ومن السهولة معرفة الاتجاهات دائما · وعلى عكس ذلك ، فان فنون العالم الثالث متأخرة عن ذلك بنحو ثلاثين سنة · والنقاد لن يعترفوا بالذين يحققون ماضيهم بقدر اعترافهم بالذين يحققون نظراتهم المستقبلية · وبقدر ما يبقى فنانو العالم الثالث يسيرون بخطى مؤسسات الرواد الاوائل ، بقدر ما يعجزون عن اللحاق بهم · وعندما يغامرون على حسابهم الخاص سيكونون جديرين ومستقلين عن طغيان التأثيرات الغربية وامكانية استخدامها بشكل منتج ·وهي تشبه الرغبة المستحيلة للاخت الصغرى التي تسعى بين ليلة وأخرى للحاق بجيل شقيقتها الكبرى ·

كان لكل هذه الاسئلة أهمية شخصية عندي · هل أنا رسامة فلسطينية اسكن في اميركا ام انا فلسطينية اسكن كفنانة اميركية ؟ هل بمقدوري ، وانا اسكن هنا في نيويورك ، ان اسلك طريق الفن العربي او اسمح لرسوماتي ان تتأثر بفن مدينة نيويورك ؟ ربما كان السؤال نفاقا · وربما كان بمقدور علمائنا ومنظرينا اعطاء جواب · لكن من جهتي اعتقد ان من واجبنا ، نحن الفنانين ، الشروع في الكتابة عن الفن في المنابر العامة · واضافة الى المنابر العامة . فان امرا بارزا يتملك ذهني ومجرى تفكيري · فلان لغتي مرئية ، ولا تهدف ان تكون شفهية او متصلة بالكلام ، فان كل ما أقوله عن رسوماتي هو في النهاية

ترجمات مفيدة غير مؤذية · ان كل لوحة هي تراكمات من عدة أفكار مرئية ، على المستويات المختلفة للحقيقة من تجربة المشاهدة الى التفكير في مسألة او مضمون او شكل او مادة ما· ان الرسم يساعد في تعلم طرق المشاهدة· فنحن نشاهد من خلال مصادر معارفنا وحاجاتنا، كما نشاهد من خلال ستائر حاجبة للنور تشكل ثقافتنا وحاجتنا للبقاء وسلامتنا الشخصية· علينا ، بطريقة ما ، ان نشاهد غرفة او شارعا يمكننا المناورة فيه بأمن وسلامة ، ونكون قادرين على الوصول الى وجهتنا بنجاح · تماما كما نشاهد ، بواسطة أجهزة التصوير الفوتوجرافي وبواسطة الفلم ، كل سلالة نظريات البرت الثاقبة عن عصر النهضة ونماذج المشاهدة الغربية البارزة · ففي حالة رجل أعمى أعيد اليه بصره بعملية جراحية غالبا ما يقطع المسافة التي يراها خلال نافذة غرفته في الطابق الثالث من المستشفى لانه يعجز عن استيعاب المسافة · فهو لا يعرف كيف يراها ·

ولوحاتي هي محاولات واعية في تجارب مرئية · أنني اشاهدها كلها كأفكار عقلية رغم انها احيانا توحي بأشياء خرافية وتجارب خيالية · لقد كانت لي اهتمامات خاصة ببعض الافكار الهندسية وعلاقاتها بالروحانيات ولهذا السبب تتعلق معظم لوحاتيبالشكل الهندسي· وعشقي للروحانيات والاشكال الهندسية كان حدسيا وغريزيا · ولم أتمكن من التحقق من أصولة العربية حتى وقت زيارتي للقدس ودمشق واسبانيا سنة ١٩٦٦ · في ذلك الوقت صورت قبة الصخرة والجامع في دمشق والحمرا في اسبانيا ، وبعدها بعض المساجد في تركيه · ولقد تفحصت كل الذي شاهدته بدهشة عندما اكتشفت الاسس الروحية لافكار لوحاتي · ومنذ الوقت وانا أعاني العيش في الوحدة · وخلال تدريسي الفن في الولايات الاميركية المتوسطة الغربية ، لم اكن أحظى بأي دعم يؤكد افكاري وتصوراتي ، او بنقد يعلن خطأي · وتطورت افكاري ورسوماتي بشيء من الاستقلالية وسط هذه الدراسات · ولا زلت ابحث بين الاشكال العربية والهندسية لاستخدامها كمصدر لرسوماتي ·

ولقد بدأت منذ فترة قصيرة ، في محاولة متواضعة ، لدراسة الفلسفة الصوفية باللغة العربية ، واكتشفت انها تحمل افكارا عن طريقة تفكيرنا ورؤيتنا للاشياء · وهي تقدم مساعدة كبيرة من اجل توضيح الافكار عن ان العين ترى ما يراه العقل · والسؤال هو : هل ان تقليد شخص ما في رسم معين ، حسب ما تراه العين ، يوضح تماما ويكشف بنفسه من غير اعتبار لتجربة القلب والعقل مع ذلك الانسان ؟ وكيف يمكن للفهم والشعور والتفكير ان يكون في الرسم من غير ان تكون تقليدا لما تراه العين ؟ وتصبح هذه الاعتبارات اكثر تعقيدا في حال وضع اسئلة عن الذي تراه العين بشكل مستقل عن الثقافة · ان معظم الناس يعتقدون انه حتى يصبح ممكنا رسم لوحات واقعية عن الاشياء التي تراها العين ، يجب ان يكون هذا الرسم شبيها برسوم ليوناردو دافينشي او الرسم التعبيري الفرنسي · وبالنسبة لي فان هذا الافتراض هو افتراض كاذب ·لقد علم هؤلاء الفنانين العظام وبفعالية كبيرة . كيف يمكن النظر اليهم بالقياس العالمي ، بحيث نتج عن هذه الفكرة لوحات تسمى ، نفاقا ، بالواقعية والتجريدية ·

اميره الزين

بـدو الجَـحيم

وحدنا مع الفجر الملكيّ:

ايها المبحرُ في طوفانٍ يغسلكَ من البشر ، يا سجينَ السفينةِ يا نوحُ يا ابانا البعيدَ اوقفْ زحفهم نحو شواطئنا ·

الموتُ لا موتَ فوق البحر الميِّت ، والملحُ لا ملحَ في البحر الميِّت ·

وجنود جهنم يوقدون النارَ ، يقيسون خطوطَ الطول وخطوط العرض · سآتيكنّ يا اخواتيَ الخمس ، يا اخواتي الثكالى على ضفاف البحر الميت · القدس عمان دمشق بيروت القاهرة · الليل يشتعل فوقكنّ وانتن تضربنَ بايديكن الناحـلاتِ اسواراً عاليةً · سآتيكنّ بنور اشجار اللوز وخضرة ثمارها · يا قدس يا محكمة الاقفال ساتيكِ ·

آهدلنَ يا اخواتي الخمس مع المساء ، وانسجنَ شفقاً ليس ميتا ·

يهدلن مع ذهب الشمس السائل عند عمان ·· يصمتنَ ·· يتمدّدن كما تستسلم للعرافة الكفُّ ·

الساعةُ اتيةٌ لاريبَ والمحو وشيكٌ لاريبَ · ثمة خبزٌ يتكاثر سنبلُهُ ، يقول الموتُ ليس لعنةً والبحرُ ليس ميتا ·

الليل · لا نرى لا نسمع سوى ضرب الجذور العمياء في الارض · والليـل لا

يخرج من اوَّله · ننصت لهن تصطك رئاتهنَّ · لا كفَّ تحجب الرعبَ · لا نومَ يغلِّفُ بضبابهِ ، لا افقَ يشطرُ الارضَ ·

حين اسروا بالتيار الكهربائي في اجنتهن التوى عنق المدينة · وحين انبتـــوا الكف قبل اوانها زلزلت الارض وانشقّ القمرُ · وحين شوهوا قلوب الاجنـَّــة ضجت المدينة بأدغال تقرعُ حتى الآذان · وعلمنا ان الاجنة صارت مسوخاً تلبطُ في الارحام ·

انشدنا · قلنا للقمحِ تعالَ ، للغيثِ أَمطِرْ · قلنا ازحفْ يا برتقالَ يافا ·

انشدنا : يا نوحُ يا صديقنا البعيدَ · يا كفاً نورانية · عبثا تنسل الاجنة المسوخ من الارحام ، وتتمتم فوق المقابر · ما بين الخيط الابيض والاسود انشدنا دعونا ·
دعاءٌ · همس في المدن العربية · تأكل من صدرنا · دعاءٌ وباطنيةٌ · ومركبتنا تنزل عشرَ درجاتٍ في الجحيمِ ·

انشدنا دعونا حتى انتحر فجرنا ، وسكنتنَّ رؤانا :

رمل الصحراء يلفح القاهرة ، وفوق الجيزة يقلب الاهــرام · في الطرقــات اناسٌ مضغوطة فرَّت من معلَّباتها ·

مياه ليطانيَّةٌ تهرول نحو بيروت يشطرُ سيلُهـــا المدينةَ ذاخراً باللاجئيــن ·· راحلين الى الحربِ ·

مخيم الرشيدية بعد القصف ،ارحامِ الامهـــات تحبك عناكب تضلل الاجنـــة · اسلاك شائكة في دورة الدمِ · اسلاكٌ ، يأتونـكَ سعيا وعلـى كلِّ ضامرٍ والحـجُّ اسودُ اسودُ · بلقيس تنتحر برمال معلَّقةٍ ·

حشرٌ من الحمالين في ازقة القدس يصعدون ينزلون · كلُّ حجرُهُ الاسودُ فــي عنقهِ · وفي حي « مياشريم » قداديس دامية لروح العرب · بدوي يرعــى ولا قطيعَ ، يهش بعصاه على الفضاء العربيِّ ، وشريط غزة يستقيم بداخل الضفـــة بالجليل · واجهة جهنم في ارض النقب والبدو صابرون حتى مطلع القدس · تأخذك الصيحة يا عمان وتخرين بجبالكِ ·

عبثا تقفل بيروت قلبها · يغشاها غزاة البر والبحر · و « وصور الملعونة » تهدر بالنار وتطفو بالجثث رحلة الشتاء والصيف · والجنوب بين داخلٍ وخارجٍ فصلٌ في الجحيمِ ، وللساحل العربي شكلُ انفِ الموتِ وفمِ الموتِ ·

رتَّلنا · دعونا · يا نوح يا ابانا البعيد · يا كفا نورانية اوقف زحفهم نحـو شواطئنـا ·

قوافلَ قوافلَ يجيءُ البدو ملتهبةً ذيولُهُم · يتوسلون للشمس تنزل عليهم بردا وسلاما · وجوههم مشبكة وارجلهم ضريرة توسوس ساعية الى طريق لا يتلقفها خزنةُ جهنم ·

ايُّ شهاب يذيلهم ، ايُّ نبات يخبئهم في انغلاقه ، ايُّ ظهيرةٍ تجلوهم ؟

الليل يسبح في عباءة موته ، يتقدم بدو النقب نحو الاخواتٍ الخمس · لا افق يرعاهم · لا دوار يردهم.ينتشرون · يشدهم اليهن عفنٌ بعيد ، ورطوبة مرمدة كرطوبة جهنم بعد ان يطفيءَ الالهُ نارها ·

سأتيكنَّ يا اخواتيَ الخمس · اخواتي الثكالى على ضفاف البحـر الميِّـت · اسمعكن تفحُحْنَ كالحيات ، تتنفسن بقية ·· ارى اطفالكن يتقلبون · شيوخكـن يلتهون مثل الرياضيين في نهاية الشوط ·

يا نوح يا ابانا البعيد · يا كفا نورانية ، هلا اخرجتنا من صحراء الحناجر ، وشككتَ بنا في قدس القلبِ ·

مباركةٌ يدٌ لم تُصَبْ بجذام العدو ·

مباركٌ الفراشُ ، ما زال سعيدا في الضفة ·

محمد أبي سمرا

مسرح بلا أقنعة
يكشف "أقنعة مسرح الكيان"

ـ ١ ـ

من عادة الكتابة الصحفية ، في اعلانها وكتابتها ، عن النشاطات والاعمال الفنية ونقدها ان تبدأ الحديث عن المؤلف او المخرج ، عن الممثل او المحاضر ، عن المفكر او الشاعر او الرسام . عن دار النشر او مكان وزمان العرض ... البدء بالكتابة على هذه النقاط ، يحمل دلالة ، تتعلق بكيفية انتاج العمل وتوزيعه واستهلاكه وعلاقة الجمهور به .

تتبدى هذه العمليات واضحة في انتاج الاعمال المسرحية والكتابة عليها . فالمسرح اللبناني ، منذ نشأته « الحديثة » يرتبط بأسماء المخرجين او المؤلفين او الممثلين وهوياتهم . كما وتخضع امكنة العرض لتقاليد موسمية دورية راسخة ، تضفي طابعا من التمركز والثبات والهوية ، تحدد كيفية استدعاء المشاهد وحضوره ، واحيانا هويته الاجتماعية والثقافية ، وحينا اوليات وخصائص تعاطيه مع العمل . وكان هذا النشاط المسرحي يتركب عميقا ، على خارطة توازن الكيان اللبناني ، الذي ترافق انهيار رموزه السياسية ـ الاجتماعية ، اثناء الحرب الاهلية ، مع انهيار رموزه الفنية والثقافية ، وتبدت للجميع استحالة استكمال مشروعاتهم وتوجهاتهم . لان الجبهات والقذائف لا تتيح ذلك اولا ، لان روح الاعمال المسرحية وامكنة عرضها ، كانت تقوم وتتأسس على استمرارية وثبات التوازن . اما الاعمال والعروض التي عاودت نشاطها ، بعد انخفاض حدة الحرب وتقلصها ، على نفس المعادلة السابقة ، مثل (« بترا ـ للرحبانية » و « اخوت لبنان ـ نبيه ابو الحسن » و « بالنسبة لبكرا شو ـ زياد الرحباني ») فقد كانت تهجس استمرارية المعادلة ، وهي تشهد احتضارها ، ولم تستطع تركيب نص مسرحي يهجس الحالة الجديدة . وربما تدل هذه المسألة على امانة صارمة وجدية ومسؤولة ، رغم مأساويتها ، تجاه تاريخ تشكل تجاربهم ، خاصة مع الاخوين وزياد رحباني .

ان النصوص المسرحية وامكنة عرضها ، كانت تمر عبر خارطة توازن الكيان . فليس

صدفة ان تكون مواقع « المسرح الوطني ، ومسرح بعلبك ، ومسرح البيكاديللي ، ومسرح الاورلي ··· وغيرهم » في الوسط التجاري للمدينة ، على خطوط التماس العسكرية ، حيث كانت تتشكل مدينة « الكيان » الكرتونية المسالمة الموحدة ، تنمو وتزدهر ، تصطنع وتؤسس وطن المصارف والاستهلاك والتجارة والزينة ، على انقاض الهوية والانتماءات الفعلية للمجتمع ، وخارج قواه واستقطاباته « الاهلية ـ المحلية » في الداخل · ورغم ان امكنة العرض كانت تؤسس لوحدة تستوهمها وتسقطها ، من ايديولوجية وحدة الكيان ، على انقساماته وتراتباته وصراعاته الفعلية ، رغم ذلك لم تستطع مضامين النصوص المسرحية وكيفية ادائها ومخاطبتها لجمهورها ، من اخفاء عناصر تكونها وتماسكها الداخليين · اذ كانت هذه الاعمال تستلهم وتتحدث خصوصيات ازمة فئات الكيان ، من ضمن غطائه ووهمه الايديولوجي الذي يفترض الوحدة الموهومة ، دون ان تخدش (هذه الاعمال) الغطاء ، لا على مستوى النص والاداء ، ولا على مستوى علاقتها بجمهورها · لذا كانت تحمل خصوصياتها ، فلكلوريا وسياحيا ، كما هي ايديولوجية سلطة الكيان · وتعرضها وسط المدينة الذي يتشكل موحدا على الاستهلاك السريع الذي لا زمن له ولا هوية سوى التجارة والاستلاب ·

تجارب اخرى كانت تقوم على فسحة الاندماج الثقافي لفئات الكيان اللبناني ، ولكن هذا الاندماج كان لا يطال الا فئة من المثقفين ، بانفصالهم عن الزمن الشعبي · لذا كانت هذه الاعمال تشتغل على هموم وهواجس النخبة ، وهم يتحدثون من مواقعهم وبلغتهم الثقافية ، مسرحيا ، عن ذلك الزمن الشعبي · كذا بقيت هذه الاعمال التجريبية محصورة في الهامش الثقافي الذي تتيحه ايديولوجية الكيان ، دون ان تتمكن من خرقه ، لانها في مثل هذه الحالة مضطرة الى اعادة النظر جذريا بمادة النص المسرحي ولغته وطريقة ادائه وعلاقته بجمهوره وهويته · فايديولوجية الكيان تسمح للمثقف بالنقض والنقد بلغته وقيمه ولهجته الثقافية المنفصلة عن القيم واللغة واللهجة الشعبية ، لانه نقد لا يطال مرتكزات هذه الايديولوجية في مواقعها الفعلية · لذا لم ترس هذه التجارب تقاليد مسرحية ذات افق ، فانهارت جميعا مع انهيار الكيان ، وكانها لم تكن الا وليدة توازنه وسياق تطوره ، مثبتة ان لا فعالية للثقافة الا باستلهامها للزمن الشعبي ، الذي لا تحيا الثقافة ويكون لها معنى ، الا بتماسها معه وتمثله في التفاصيل ·

أما الاعمال التي بدأت تظهر استنادا الى افرازات الحرب الاهلية معطياتها الجديدة ، والتي تقوم بانتاجها فرق مسرحية شابة ومبتدئة ، فلا تعدو كونها اعمالا سريعة تعتمد على خطابية درامية مقتعلة ، مستمدة من ضجيج الحرب الخارجي ، مفتقدة الحساسية الفنية والفكرية · وهي بهذه الطريقة تبتذل العمل المسرحي بتحويله الى خطاب انفعالي مسطح عن الواقع · هذه الاعمال والنشاطات ، في اغلبها ، وليدة ظروف استثنائية سريعة ، غير جدية في تعاملها مع الفن عامة والمسرح خاصة ، لانها اعدت في زمن الانهيار والتغيرات والانكسارات العميقة ، لتملأ فراغا محدقا ··· ورغم ذلك ، تبدو هذه البداية الخيار الوحيد الملائم لهذه الظروف المرتبكة الراهنة ، وربما حتى انقشاع الافق·

ـ ٢ ـ

الحرب الاهلية التي فجرت توازن الكيان كما فجرت ليبرالية ثقافته الاستهلاكية الرائجة القائمة على تهميش وتهجين ايقاع الحياة الشعبية بحيويتها وقيمها ووسائل تعبيرها ،

اوصلت المثقفين وثقافتهم وانتاجهم الفني الى المأزق الفعلي · فبانكسار ذلك الزمن الملفق، انطرحت مسألة التعبير الفني والثقافي ، بكافة مستوياتها ، بحثا عن زمن وهوية وعن علاقة بالزمن الحي الذي يصنع · نموذج المثقف الحديث الهامشي انكسر الى الابد وبدا ان لا ثقافة ولا تعبير فنيا يتمكن من العيش على لاهوت ونبوية حداثة تضرب الزمن الشعبي المتدفق · انها تجربة الحرب ، حين تقلب الرؤية الثقافية والفنية للمثقف الذي لا يريد العيش على استهلاك ثقافة الكتب وتكرارها ··· المسألة ليست بهذه السهولة والحتمية المتفائلة ، ولكنها الوجهة الوحيدة التي تستطيع مواكبة ومعايشة الزمن الوجودي الحي ، لخلق ثقافة وفن جديدين يستلهمان غزارة تجربة هذه الحرب المريرة وافقها ·

اتضحت هذه المشكلة ـ المأزق بأقصى صورها على مستوى التجربة المسرحية· فبينما استعادت الانواع الفنية والثقافية الاخرى ، بعد الحرب ،بعض نشاطها بتفاوت ، بدا ان المسرح يعاني شرخا فعليا ، لا يستطيع العاملون به القفز من فوقه · فانطرحت امامهم خيارات جدية ، تطال بنية توجههم جذريا ، خاصة بالنسبة للمحترفين الذين شاركوا بخلق التجربة المسرحية اللبنانية الحديثة ، منذ بداياتها ·

روجيه عساف احد هؤلاء المشاركين المحترفين ، وربما هو اول من عانى هذا المأزق ووضع نفسه امام الخيارات الصعبة · في العام الماضي ، عندما تنقلت « فرقة مسرح الحكواتي » في عديد من المناطق والضواحي ، عارضة مسرحية « بالعبر والابر » ، ورغم اننا لحظنا بدايات تغير نوعي في التعامل مع المسرح ، لم نكن نضع في حسابنا ولم ننتبه للمشروع الجديد الذي ينخرط روجيه عساف باعداده وترسيخه ، ربما لان الرؤية والظروف لم تكن ناضجة لتلمس وجهة الخيار وافقه والحاجة اليه · ولكن العمل الثاني « لفرقة مسرح الحكواتي » ، الذي شاهدنا اولى عروضه في الجامعة العربية والامريكية، تحت عنوان « مشاهد من ١٩٣٦ » افسح لنا تلمس وجهة المشروع ، ومكننا من تتبع سياق ونوعية وافق التجارب المسرحية ، وصياغة رؤيتنا وملاحظاتنا لما انتجته سابقا ··· فما هو هذا المشروع ، وما هي وجهته ؟؟·

المسافة بين الجمهور والمسرح في « مشاهد من ١٩٣٦ » موضوعة دائما قيد الكسر ، سياقا وتفاصيل · الممثلون ليسوا ابطالا ، ولا هم نماذج مركبة معدة او مؤلفة في الذهن او على الورق · الزمن ليس زمنا مسرحيا ، يتشكل منفصلا ومقفلا على الخشبة · انه زمن مفتوح ومتقطع ، لا يبدأ ولا ينتهي ، لا يتصاعد ولا ينخفض ، ولا يدور حول عقدة تتشابك حولها العناصر حتى تنفجر بحثا عن حل تراجيدي او درامي · انه ليس مسرح الممثلين ولا المخرج ولا النص ولا الديكور ولا الملابس ولا الماكياج ولا الادوار ، بل مسرح عار ، بلا اقنعة وبلاقفازات ، كأنك تعيش معه في الهواء الطلق ، خارج القاعة ، وخارج حدود الخشبة · ليس الاعتماد هنا على الادوار الفردية المنمذجة المنمقة التي تحتكر الزمن وتختزله في حركتها الذاتية الخاصة · وتدهشك هذه الحيوية الحميمة الجماعية ، التي تتحرك على المسرح وبين المقاعد ، لممثلين شبان لم تأسرهم وترهلهم مهنة الاحتراف والنجومية ، فيتسرب استفزازهم الى اعصابك المسترخية ، وتنكسر بينكما المسافة ، لتدخلا طقسا يشبه العيد ، ولتطفح حواسك بما يشبه الفرح السري ··· لتتحول القاعة الى حقل مغناطيسي آسر ·

الواقع بحركته التفصيلية المنفلشة الحية هو النص · الرؤية الفكرية غير مسقطة على الخشبة والواقع المحول الى حركة مسرحية لا تترابط في سياق الفكر ، بل في سياق الاداء

الطبيعي للتفاصيل الحياتية · الادوار ليست نمطية ، ولا تسعى الى ترسيخ او محاكاة او فبركة هالة مسرحية · انه مسرح بلا اطلالة مسرحية مفخمة ، وكأنك تشاهد فصولا من حياة جارية · المسرح هنالا يشتغل على ديناميكية داخلية خاصة به ، يقفل الخشبة على زمنها ويفصلها عن المشاهد · الممثل الذي يؤدي دوره يتذكرك دائما ، يحاورك ويثير انتباهك ، لا ينساك ولا يدعك تنساه ، فتنسى انك امام خشبة مسرح وينسى هو انه فوق الخشبة ، فتنعقد تلك الصلة الحميمة الحادة بينكما وتنكسر المسافة المنمقة الباردة التي تعودها المسرح الكلاسيكي والممثل الكلاسيكي ، بينه وبين المشاهد ·

وانت تدخل الصالة ، تجد المسرح بلا ستار وبلا ديكور · الممثلون ليسوا في الكواليس يتهيأون · بل هم يتجولون في القاعة بين الحضور ، يغنون ويتحدثون معهم · العرض يبدأ دون اعلان ودون ان تدري ، يبدأ في وسط والقاعة وينتقل الى الخشبة وويغادرها من حين لآخر · انه مسرح يكشف لك تفاصيل اللعبة ، اخراجا وادارة ممثلين ، ينزع عن حواسك وهم التمثيل ، ويمنك من الانسياق وراء مناخ تحتشد فيه طاقات انفعالية يستحضرها او يحفظها الممثلون لايهامك واستبعادك ، لكي تسيطر عليك تقنية الاداء والديكور والاضاءة ·

على هذه المسافة المنكسرة تبدأ « مشاهد من ١٩٣٦ » ، بمعاهدة « سايكس ـ بيكو » لتقرأ لحظة تاريخية من افواه وهموم ولهجة ناس جبل عامل ، لحظة تاريخية كما عاشها رجال ونساء « بنت جبيل » ، في بيوتهم وحقولهم وسهراتهم ، وبالتفاصيل · فترى التاريخ الذي تقرأه كلمات في الكتب قد تحول ، على المسرح ، الى تفاصيل حياتية حسية ملموسة · صورة الحدث والتاريخ ، في الكلمات ، مجففة وباردة ، خطابية او ايديولوجية ، لكنه هنا على المسرح يستعاد كزمن حياتي ، بدون بطولة او نمذجة ، فتدخل كمشاهد ومشارك ، في متعة السياق ومتعة التفاصيل · فقط الشعر وحده يستطيع ان يصفعك بهذه الحيوية للزمن · والمسرحية ، بهذا المعنى ، وثيقة شعرية باللغة العامية ، وثيقة تؤدي بتلقائية الزمن الشعبي ولهجته الحميمة ، احيانا تكثفه وتضغطه ، وحينا تتركه ينساب حتى الاقاصي · انه النص حين يصير على المسرح بشرا عاديين ، او العكس · الانسياب التلقائي يقع في التفاصيل والترابط يقع في السياق الفكري او الثقافي · لذا تبدو المسرحية وكأنها تعرض معنى او رؤية فكرية للحظة عيش تاريخي · ولذا يبدو قصدها سياسيا مباشرا · في كل لحظة تفصح المشاهد المسرحية عن دلالة تخدم السياق الفكري ـ السياسي ، اما السياق الفني فلا تستطيع لمسه ، لانه يتركب امامك مباشرة ، في كل لحظة ، ثم ينكسر ويختفي · التعبير المسرحي يعتمد دائما على طريقتين في الاداء : الكوميديا التلقائية والحماس الجماعي ، كي ترى ان ادوات وطرائق التعبير الشعبي ، عن الاحلام والهموم والمشاعر والتناقضات والاستياءات والفرح ، بسيطة ومعقدة ، في اللحظة نفسها ، مفتوحة ولا تنضبط في اتجاه محدد متساوق · طريقة غريزية حسية في التعبير ، تتدفق بتلقائية حيوية ، تتحدث العيش الوجودي للجماعة والافراد ··· هكذا يتحدث الناس ، دائما ، هومهم ، سياسيا ، بغزارة لا يعرفها ولا يستطيع ان يلتقطها المقال السياسي النظري ، لتتكشف اسطورة التسييس المفتعل لمشاعرهم وهواجسهم ، حينما توظف في بنية كلامية مفهومية مجردة ·

« مشاهد من ١٩٣٦ » تصف زمن العيش الشعبي وردود فعله المباشرة اثناء وبعد معاهدة « سايكس ـ بيكو » ، مسرحيا · وهي بهذا المعنى تقدم قفزة نوعية عن مسرحية « بالعبر

والابر » التي سقطت احيانا كثيرة في الخطابية والترميز السياسي ـ النظري ، المسقط على الادوار والخشبة ، اسقاطا ثقافيا · وهي من ناحية اخرى ، تتحرك خارج زمن توازن الكيان اللبناني ، ليس لانها تتناول حقبة لم يكن الكيان اثناءها ناجزا بعد فحسب ، بل لانها ، فنيا ، كشفت اقنعة « مسرح الكيان » ، باعتمادها على دينامية مسرحية مغايرة تماما للتناول السائد للتاريخ ··· مسرح بلا اقنعة يكشف اقنعة التاريخ · لهذا تستطيع ان تعاين ، من خلال الماضي ، ازمة حاضرة ··· ازمة التجزئة العربية وفكرها· ازمة الفكر الوحدوي المنفصل عن الزمن الشعبي ، والقائم على تهميشه ··· ويبقى السؤال قائما :

لماذا لا نستطيع رؤية الوحدة الا في حقبات التاريخ البعيدة او القريبة ، بينما مقاربة الحاضر تبدو مستحيلة من منظور هذه الرؤية ؟

نوريت غيرتز

الروائيون الإسرائيليون شهودٌ على المعاناة

على عكس ما كان الامر خلال السنوات الاولى من ربع القرن الاخير ، بات القارىء العربي مؤخرا يعرف أشياء كثيرة عن الادب « الاسرائيلي » ·· كما عن الفنون الاخرى، وذلك بفضل مجموعة من الدراسات والكتب التي صدرت تباعا ·

في كتاب عاموس كنعان « الذبيحة ٢ » (١٩٧٦) ، يقيم لاجئو تل ـ ابيب المدمرة ، في مخيم كبير لا سماء له ، ولا نهار فيه ولا ليل ، لا عصافير ولا شجر ولا طبيعة ، ولا ماض له ولا مستقبل· وفي قصة يتسحاق بن نير «بعد المطر» (١٩٧٦)، نتواجه مرة اخرى معمدينة تل ـ ابيب بعد الدمار : مدينة عابقة بالفوضى تهيمن عليها العصابات ، ويجول فيها اناس وحيدون خائفون يملأون شوارعها لانهم خائفون من البقاء وحدهم في المنازل ·· وكل واحد منهم يأمل بحدوث المعجزة الفجائية ·

وفي رواية ا·ب· يهوشواع الجديدة « العاشق » (١٩٧٧) يطالعنا صاحب كاراج اسرائيلي فقد قدرته على العيش بشكل طبيعي : هناك عرب يعملون عنده ، وعرب يقاتلون عنه ، وهو الآن بحاجة الى من يحب زوجته بدلا منه ، ومن يحلم بدلا منه ، ويعتمر قلبه بالامل بدلا منه ·

*** ضمن اطار هذا التعرف المشروع يأتي المقال التالي الذي كتبه نوريت غيرتز الإستاذ في جامعة تل ـ ابيب ، عن الرواية والقصة الحديثة في الدولة الصهيونية ، ونشرته صحيفة « لوموند ديلوماتيك » في عددها الاخير (نيسان) ١٩٧٩ · اهمية هذا المقال ، الذي قد لا يكون من السهل موافقته على بعض ما يرد فيه من مفاهيم وتعابير ومصطلحات تطرح على شكل مسلمات وبديهيات ، اهميته تكمن في انه يطرح الادب الاسرائيلي من منظور اجتماعي يربط « رؤيته للعالم » بالواقع الراهن في الدولة الصهيونية · من هنا ، حين يقول الكاتب ان الروائيين الاسرائيليين انما هم شهود على المعاناة ، فهو يعني التعبير عن روح عامة قد يكون من الخطأ عدم التعاطي معها بكثير من الجدية والاهتمام ·**

اما قصة عاموس اوز الاخيرة « تلة النصيحة السيئة » (١٩٧٦) ، فانها تروي حكاية دمار عائلة في القدس ، قبل انشاء دولة « اسرائيل » ، والقصة تروي ، عبر تلك الحكاية، حكاية انعدام الحلم بانشاء الدولة ، حتى قبل ان يبدأ الحلم بالتحقق ·

ماذا في الامر ؟ هل يتوقع الادب الاسرائيلي مذبحة جديدة ؟ حربا اخرى ؟ من أين يأتي هذا الشعور القوي بحتمية وقوع الكارثة ؟

تقول الفكرة السائدة ان حرب الغفران (١٩٧٣) هي التي الهبت الوعي الاسرائيلي، ودمرت شعور الامان الذي كان يخالج المواطن الغازي والمظفر · غير ان الواقع يقول لنا بان القلق يعود الى فترة زمنية اكثر قدما ، فخلال الفترة القصيرة التي فصلت بين الحربين الاخيرتين ، بل وقبل حرب العام ١٩٦٧ ، في نفس اللحظات التي ازهر فيها لدى الاسرائيلي الحس بالامان القومي ، كان الادب الاسرائيلي يلح بدأب على هذه الموضوعات : موضوعات المعاناة والدمار ·· مع فارق بسيط هو ان هذه الموضوعات ظلت ، الى سنوات قليلة ماضية ، معكوسة في الداخل ، حيث لم تظهر الا على شكل مجازي ، وعلى صور حبكات ثانوية ، بل وحتى حين كانت تصاغ بصورة جلية وواضحة، لم يكن النقاد والقراء ينظرون اليها على هذا الاساس ·

بالتحديد ، حين وصلت القوة الاسرائيلية الى ذروتها ، كان الادب يصر على الوقوف طويلا عند آلام « اليهودي المضطهد » الذي لم يجد بعد مأوى له ، حتى ولا في ارض فلسطين التي يعتبرها « وطنه التاريخي » ، وهذا اما لان ماضي الدمار والكارثة لا يمكن له الا ان يتكرر (كما في كتابات أهارون ابلفلد) ، واما لان الماضي الحقيقي ، واستطرادا، المستقبل الحقيقي في هذه المنطقة يرتبطان بالعربي وليس باليهودي (كما في كتابات أ · ب · يهوشواع) ، واما لان « هذه الارض اللعينة وسكانها من العرب وبنات آوى ، « معادون لنا » (كما يقول عاموس اوز) ، واما اخيرا لان الحرب « كجبرية قائمة معلقة فوق رؤوسنا » تشكل تهديدا دائما (كما تشير الموضوعة الخفية في كتاب أماليا – كاهانا كارمون « انت ايها القمر ، فوق وادي ايالون » (١٩٧١)) ·

في بداية سنوات الستين ، بدأ كتاب اسرائيل بانتاج ادب تطبعه رغبة حاسمة في تفادي اي التزام سياسي ، وتميزه كتابة مجازية ورمزية · انذاك كان المؤلفون من الكتاب الشبان الذين لم يشتركوا في « حرب الاستقلال » (١٩٤٨) ، وكانوا في معظمهم خاضعين لتأثير فرانز كافكا واغنون · اما اعمالهم فكانت تشهد على رد فعلهم المعادي لادب المناخ السياسي – الاجتماعي ·

غير ان كتابا مثل عاموس اوز ، وأ·ب· يهوشواع، ودافيد شاهار، ويتسحاق اورباز ويهودا أميهاي ، وهم جميعا من الذين اتخذوا على الدوام مواقف يسارية ملتزمة ، لم يتمكنوا ابدا من تفادي مجابهة المشكلات الاجتماعية والقومية · وفي معظم الحالات ، كانت الدلالات الاجتماعية مبطنة في كتاباتهم ، بواسطة بنيان رمزي ، مجازي ·· او كانت تشهد على تلك الدلالات رؤية ما للعالم (حسب تعبير لوسيان غولدمان) مطبقة على مواقف خاصة (وبالتحديد ، رؤية متحدرة من ، او مرتبطة بـ « الايديولوجية الاشتراكية – الصهيونية اليسارية) ·

الاتصال المستحيل

بوسعنا ان نلخص تلك الرؤية على النحو التالي : ان كافة القيم الما – بين – الافراد

التي يأمل ابطال الروايات والقصص في الانتماء اليها (الاخر ، الطبيعة ، القوى الالهية التي تحكم العالم بصورة تعسفية ... الخ .) ، كل هذه القيم يمكن الحصول عليها ، ولكن الثمن سيكون دمارا متوازيا للطرفين ، الذي يحصل والذي تاخذ منه . انها مغامرة بطل متوحد ، مهجور ، غريب ، يحاول (او بشكل اكثر تحديدا ، يدفع الى المحاولة ، لان هذا النوع من الابطال هو نوع سلبي ، لا يمكنه ان يقوم بأية مبادرة من تلقائه) يحاول ان يقيم علاقة ، او اتصالا بامرأة او برجل ، او بالطبيعة او القوى الالهية ، او القوى المتوحشة ، خلال مجرى القصة ، وفي اللحظة التي يتم فيها انجاز الاتصال او الحلم ، يبدو واضحا (للقارىء اكثرمما للبطل) ان العالم الذي يحاول هذا البطل ان يقيم اتصالا به ، انما هو عالم مشوه ، وان البطل نفسه مشوه ، او انه لا يتمتع بما يكفي من القوى لمقارعة محيطه .وهكذا ، في النهاية ، نجد ان اللحظة التي يتم فيها الوصول الى الهدف ، هي هي لحظة انبثاق الاهواء ، والدمار والكارثة ، ان البطل هو الذي يدمر ذاته ، او يدمر ما يقرب منه ـ انها الاسطورة العريقة ، اسطورة تضحية اسحاق ، وحكاية يافت ، تقدم ها هنا في صورتها الحديثة المعاصرة ، على شكل تضحية بـ / أو دمار ، الاطفال على يد اقربائهم باسم هدف مشبوه او هدام . ان مثل هذه الحبكة موجودة في شكلها الاكثر نقاء ، بشكل خاص في الاعمال الاولى لكل من اورباز واوز ويهوشواع . وهذا الاخير يقدم لنا مثالا جيدا عليها في قصته «قافلة ياطر الليلية» (١٩٧٢). في هذه القصة يصف لنا الكاتب قرية معزولة في الجبال ، يقرر سكانها اقامة اتصال مع العالم ، مع البشر الاخرين ، عبر اخراج القطار السريع الذي يمر بالقرية مرتين في اليوم ، عن سكته الحديدية . وهكذا بشكل مفاجيء ، وسط بريق الحادثة ، وصراخ المتألمين والجرحى ، يتمكن القرويون من الحصول على لحظة ارتقاء روحي ، ومشاركة حقيقية مع الآخرين ، وعند هذا فقط يمكن للبطل ان يتحد بمحبوبته « في تلك الارض غير المزروعة ، والتي مرت بالتجربة ، ارض البلد الحبيب » .

في بداية سنوات الستين ، لم تكن المستتبعات السياسية لمثل هذا البنيان الروائي ، جلية . كانت الاهداف المنشودة اهدافا انسانية وشخصية ، لكنها كانت محملة احيانا بدلالات سياسية سوف تتخذ مكانتها المهيمنة خلال السنوات اللاحقة .

الواقع ان هذه التوليفة بين المخطط الفردي ، والدلالة السياسية ، تظهر لنا كيف ان الادب الاسرائيلي كان في سنوات الستين ، متأثرا ، على طريقته الخاصة ، بأدب فرانز كافكا ، وبالفكر الوجودي الغربي . غير ان استحالة اقامة علاقة مع طبيعة لا مبالية وغريبة ، كانت تتخذ في اسرائيل تفسيرا قوميا : ان الطبيعة غريبة لان الاسرائيليين لم يتمكنوا من الاندماج في بلد غريب ليس هو بلدهم . لقد بدت الحياة ها هنا وكأنها مجموعة من اللحظات المفككة ، وكأنها استمرارية حاضر دائم غير ذي دلالة ، وليس ذلك فقط على نحو ما صاغه البير كامو في « الغريب » بل على نحو آخر ، حيث ان الماضي والمستقبل في هذا البلد ، هما ملك قوم آخرين . ان الابطال يهتزون ويثورون في عالم الرواية ، وحيدين ومقتلعين ، ليس فقط لانهم سوف يموتون وحيدين (تبعا لتعبير هيدجر) بل لانهم عاجزون ، لان ثمة عجزا عن اقامة اتصال بين اشخاص لا يجمعهم ماض اجتماعي مشترك، اي انهم ـ استطرادا ـ لا يمتلكون امكانية بناء مستقبل اجتماعي مشترك.انطلاقا من ذلك الماضي . ان المعاناة ليست هنا معاناة وجودية وحسب ، وهي لا تنتج فقط عن واقع ان الفرد قد القي به في هذا العالم ، بل ايضا عن واقع ان هذا الفرد القي به في بلد غريب يستعد للقطه .

من ناحية ثانية نرى انه ، فيما كان البطل الوجودي الذي اثر على البطل الاسرائيلي، يكتشف امكانية التوحد مع الطبيعة عن طريق الانعزال والوحدة المطلقة (كما في « الغريب ») او عن طريق النضال الاجتماعي اليائس (كما في « الطاعون » لكامو ، و « الوضع الانساني » لاندريه مالرو) ، كان البطل الاسرائيلي الذي طبعته تجربة اجتماعية خاصة ـ هي انجاز الحلم الصهيوني بعد حرب قاسية ومرة ـ لا يصل الى التوحد المنشود الا عبر الدمار والحرب ·

على هذا المزيج من الموضوعات الوجودية والقومية ، والمواقف السياسية الاجتماعية والانسانية ، يمكننا ان نصر على مثل جيد في كتاب عاموس كنعان « الذبيحة ٢ » (١٩٧٦) فاحداث هذا الكتاب تدور في معسكر وهمي ، في مستقبل خيالي يلي دمار الدولة والعالم · غير ان هذا المكان الوهمي يوصف هنا ، في الوقت نفسه ، بتعابير الوجودية ، وتعابير الواقع السياسي الاسرائيلي ، واخيرا ، بتعابير اجتماعية ذات قيمة كونية · في كل يوم يتم تنفيذ حكم الاعدام بنزيل من نزلاء المعسكر · ولكن ، لان لا احد ، من المحكومين او من الاصدقاء ، يعلم من سيكون ضحية اليوم ، يبدو كل يوم وكأنه يوم موت ممكن لكل واحد من النزلاء · ان ما نراه هنا هو التعريف بوضع وجودي لا ينتمي بالضرورة الى معسكر محدد ، غير ان السبب سياسي واجماعي : انها مذبحة قومية · وبما ان كل لحظة ها هنا هي اللحظة الاخيرة ، صار بالوسع التحدث عن زمن برغسوني ـ نسبة الى برغسون ـ : ما امامنا هو تتابع لحظات في حاضر لا ماضي له ولا مستقبل · في المعسكر ليس ثمة من امل ، لكن الذكريات تتشوش ايضا ، ان البطل يحاول باستمرار ان يتذكر مدينته العتيقة تل ـ ابيب ، غير ان ذكرياته سرعان ما تتحول الى ذكريات موت ودمار · يحاول ان يتذكر الكثبان الذهبية ، لكنه لا يتذكر سوى الماسادا · يحاول ان يتذكر الجمال لكنه لا يتذكر سوى احداث يوم دمار المعبد (تيشا بيعاف) · الحقيقة انه حين ينعدم الامل تنعدم الذكريات · الذكريات الوحيدة الممكنة هي ذكريات الموت · يظهر الموت والمستقبل الفردي ها هنا وكأنهما مستقبل المذبحة والدمار القومي (والعالمي ـ طالما ان المذبحة التي تطالعنا هنا ليست سوى جزء من مذبحة البيئة ، العالمية) ·

ليس الانفتاح على زمن آخر هو الامر الوحيد المستحيل ، المستحيل الآخر هو الانفتاح على مكان آخر ·· فذكرى الغابات الصنوبرية البعيدة والسماء الزرقاء والبراري المغمورة بالثلوج تتحول الى صور قوافل تتجه نحو معسكر الاعتقال · ان كل ما يتم لمسه هنا يتحول ، ليس الى ذهب ، بل الى دم وحرب وموت · كذلك تتحول لحظة الحب بدورها، الى لحظة اعدام ·

يشكل معسكر الاعتقال هنا ، مكان الوقائع المختلفة : الوضع الانساني ، الواقع السياسي الراهن في اسرائيل ، والواقع السياسي العالمي · كذلك تتقاطع اساليب مختلفة: الريبورتاج الصحفي الذي يصف الواقع الاسرائيلي على نحو شبه وثائقي ، الوصف الشاعري الذي يدخل في الموضوع دلالات كونية ، وكتابة الحكاية ، التي تعزز ما في القصة من عنصر تخييلي ·

ان ثمة كتابا آخرين لجأوا الى نفس هذه الوسيلة التي تتقاطع عبرها الموضوعات ، لوصف اوضاع مجازية مختلفة· وعلى هذا النحو، مثلا ، نجد بطل أ·ب· يهوشواع الذي

يعمل حارس احراج في رواية « في مواجهة الغابات » ، يحلم بالحرارة والضوء ، مما يفسر رمزيا انجذابه الى النار · ان الحلم الشخصي هنا يتحول الى حلم اجتماعي حين يكتشف البطل ان هذه الغابة اليافعة ، انما تخبيء في باطن ارضها اطلال قرية عربية· عندئذ ، وانطلاقا من تلك اللحظة تتخذ النار دلالتها الاجتماعية : احراق الغابة بهدف الكشف عن ماض مخبوء ، حقيقي ودال ·

من « السوبرمان » الى البطل السلبي

ان الادب الاسرائيلي ، في ارتباطه الزماني والمكاني ، يعطي في تطوره فرصة طيبة لتحليل العوامل الاجتماعية التي كانت ذات تأثير عليه ·

في اربعينات هذا القرن وخمسيناته ، تميز « ادب جيل البالماخ » خاصة بنوع من الواقعية الاشتراكية ، وبدا متشابها ـ على طريقته الخاصة ـ مع الادب الاميركي الذي ساد في سنوات العشرين ، وعرف باسم « ادب الفعل »· هنا ليس البطل شخصا متوحدا، بل هو فرد محاط بالناس وبالقيم · شخص مندمج في بيئته ـ كيبوتز في غالب الاحيان ـ يشارك اصدقاءه في حمل امل اجتماعي وقومي واحد · اما المشكلة الرئيسية التي يتصدى لها فتكمن في ضرورة المصالحة بين نظامين للقيم ، في الانجاز الاجتماعي (في المجتمع والعمل والحرب) وفي الانجاز الفردي (في الابداع الفني والحب والعائلة) · احيانا كان الهدفان يتناقضان ، وغالبا ما كان البطل مرغما على التضحية بعالمه الفردي على مذبح المجتمع ، الجماعة ، غير ان هذه التضحية نفسها كانت ترتبط باختيار قيم صحيحه ·· على الرغم من انه اختيار جزئي · وهكذا ، مثلا ، نرى في قصة موشي شامير « حتى الفجر » (ضمن مجموعة « نساء ينتظرون في الخارج » (١٩٥٢) ، بطلا مثقلا بعمله في الكيبوتز ينتهي به الامر الى تجاهل اسرته ، وزوجته وابنه · وعندما تترك زوجته الكيبوتز ، يراجع صاحبنا ضميره بشكل جدي فيكتشف خطأه ويلحق بها باحثا عنها في المدينة · مثل هذه الموضوعة تلوح لنا ، بشكل اكثر او اقل تعقيدا ، في عدد آخر من قصص هذا المؤلف نفسه ، وفي روايته المسماة « حدث في الحقول » (١٩٤٧) ، وكذلك في اعمال اهارون مجيد (١٩٥٧)، وناثان شاهام (١٩٦٠) ، وايغال موزنسون (١٩٤٦) وبارتوف (١٩٦٢) وغيرهم ···

ثمة نوع آخر من القصص ينتمي الى هذا الجيل نفسه ، ويحمل حبكة لا يكون فيها سبب الصراع داخليا بل خارجي : العدو ·· كما في رواية موشي شامير « بيديه » على سبيل المثال ، حيث يكون البطلمزيجا من سوبرمان الغرب الاميركي ومن مقاتل الصابرا · ان الحبكة تتألف هنا من سلسلة من الاحداث المتحلقة حول بنية متواترة : مهمة مستحيلة ، معركة صعبة ، امرأة محبوبة ينبغي انقاذها ··· الخ · ان امامنا ابطالا مختلفين يجربون قوتهم ويفشلون · لكن البطل الرئيسي ينجح بفضل مزاياه وشجاعته ومثابرته ، ويكسب وينقذ الوضع : ينقذ الكيبوتز ، والمرأة والشعب ·

ان رؤية العالم ـ حسب تعبير لوسيان غولدمان ايضا ـ التي يمكن استخلاصها من هذه الاعمال ، قريبة من رؤية المجموعة الاجتماعية ، ومن رؤية مقاتل البالماخ : الحلم الاشتراكي ـ الصهيوني ومعه على الارجح كل الاحلام الاخرى التي يمكن انجازها خلال الحرب والنضال والعمل · ولسوف تمضي عشرة اعوام قبل ان يبدأ الكتاب الاسرائيليون المميزون بطرح مسألة الثمن الهدام لانجاز مثل هذا الحلم على بساط البحث ·

الواقع ان الشاعرية المهيمنة في هذا الادب ، تتوافق تمام الموافقة مع هذه الرؤية

للعالم · هنا نرى الراوي ، قابلا لان يصدق دائما ، والبطل يقبل الضوابط الجلية كلها· لم يكن الخطأ ممكنا ، كذلك لم يكن بوسع البطل ان يخطيء · ان مثل هذه الشخصية لا يمكن التفكير فيها لدى كتاب الجيل التالي · فالابطال الرواة لدى اوز ويهوشواع واورباز يكذبون ويخفون الحقائق ـ عن انفسهم وعن القراء ـ ويفتقرون الى سلم للقيم يمكنهم من فهم الواقع والحكم عليه ·· ثم ، في معظم الحالات ، نجد ان القاريء ، حتى بعد ان يكتشف اكاذيب الراوي ومخاتلاته ، غير قادر على ان يستخلص من العمل ضوابط جلية وواضحة ·

كان عالم القيم لدى جيل البالماخ بسيطا وقادرا على ان يتجسد في العمل : كذلك كانت حبكة القصص اشبه بحبكة عمل ذات سببية بديهية · كان البطل يجابه المعضلات ويتصرف بهدف حلها ، ثم يحلها بشكل خاطيء او صحيح ، اما الحل فكان يؤدي الى نتائج ، وهذه النتائج كانت تطلق معضلات جديدة وهكذا دواليك · ان مثل هذه السيرورة باتت مستحيلة بالنسبة الى الجيل التالي · فالقصص هنا صارت اشبه بتركيبات تتجمع فيها تفجرات متتالية للغرائز الداخلية والكوارث الخارجية · اما البطل ، السلبي ، فلم يعد بامكانه لا ان يفهم ذاته ولا ان يفهم العالم الذي يحيط به ، لم يعد هو الذي يحدد مصيره : بات خاضعا لتأثيرات الغرائز العميقة او القوى الخارجية القدرية ·

واللوحة نفسها باتت مختلفة · بالنسبة الى الجيل السابق كان المكان ذا اطار محبوب ومعروف · كان البطل يشعر وكأنه في بيته ، والراوي يصفه بكل ما فيه من تفاصيل · بالنسبة الى الجيل الاصغر اضحت البيئة بيئة معادية ، مليئة بجبال ترتادها بنات آوى ، والعرب ، والقوى الضارية الاخرى · لم يعد المكان قابلا لان يوصف بشكل محدد ومفصل ، بل صار يذكر وكأنه يرمز لقوى ضارية دائمة التهديد وعابقة بالخطر ·

لقد ضاع اولئك الذين اصطدموا بالبريطانيين وحلموا بالدولة الصهيونية وحاربوا العرب ، صاغوا ادبا ، كان البطل فيه قادرا على الحفاظ على احتكاكه بالعالم · لدى الجيل التالي اختفى هذا الاحتكاك مع فقدان الثقة بالقيم الصهيونية ، وخاصة ، بوسائل انجاز تلك القيم · ويبدو ظاهريا كأنه قد حدث نوع من الانفلات الشامل لرؤية العالم وللشاعرية الادبية ، خلال الجيلين الاخيرين · لكن الحقيقة هي ان هذا الانقلاب كان موجودا كنواة لدى بعض كتاب الجيل الاسبق ، ولا سيما لدى يزهار سميلانسكي ، الذي يعتبر واحدا من اهم كتاب جيل البالماخ · البطل لدى سميلانسكي لا ينتمي الى ذلك النوع من الصابرا ـ القاتلين ، الذين يحتلون الارض بالجسد والسلاح · انه كائن سلبي لا يجد موقعه الطبيعي بين صفوف فريق العمل او فريق العراك (حتى ولو كان ، بشكل عام ، يقبل كل قيم الفريقين) · بالتعارض مع ابطال شامير ومجيد ومزنسون ، نلاحظ ان وسيلة التعبير لدى بطل سميلانسكي ليست العمل ، بل المونولوغ الداخلي ذو النمط الشاعري ·

لقد مارس يزهار سميلانسكي اكبر قدر من النفوذ على كتاب الجيل التالي ، ولا سيما عبر قصتيه السياسيتين « خربة خزعة » و « الاسير » (١٩٤٩) اللتين كانت لهما اصداء عديدة ، وثارت حولهما مناقشات شغلت الاوساط الثقافية لفترة طويلة ·

في « خربة خزعة » يصف سميلانسكي احداث يوم عند نهاية حرب العام ١٩٤٨ ، يتلقى خلالها البطل الراوي واصدقاؤه امرا باحراق وتدمير قرية عربية وطرد سكانها · بين المعسكرين (معسكر الجنود الاسرائيليين القساة الغلاظ ، ومعسكر العرب الضحايا المطرودين العزل من السلاح والذين يتجاوزهم القدر الغاشم) بين هذين المعسكرين يختار

البطل الانتماء الى معسكر العرب ، وذلك لانهم هم (وخاصة عند نهاية القصة) الذين يعتبرون بالنسبة اليه ، الممثلين الحقيقيين لعالمه ٠

الواقع المحطم

الواقع ان تاريخ الادب الاسرائيلي في سنوات الستين انما هو تكرار لقصة « خربة خزعة » ، وذلك لان قرية سميلانسكي كانت المكان الذي فيه قطع مقاتلو « حرب الاستقلال » كل علاقة مع عالم القيم الجوهرية ٠ فالغريب في ان يستيقظ الكاتب الاسرائيلي غداة « خربة خزعة » ليكتشف ان كل ما له معنى قد صار في الجانب الاخر : التاريخ الامكنة ، الطبيعة ، الزمن ، الاخلاق الاجتماعية والقوى الالهية ؟ كل هذا موجود الآن في الجبال ، لدى العرب وبنات آوى ، وهؤلاء ينتظرون معا لحظة الدمار والثأر ٠

في تلك الفترة بالذات كانت مجموعة سياسية معارضة تحمل اسم « الكنعانيين » تمارس نوعا آخر من الكتابة (نوعا له اشكال حديثة وتحديثية سوف يستعيرها كتاب الجيل التالي) وذلك بهدف التعبير عن رؤية للعالم ، هامشية واحتجاجية ٠

المحور الرئيسي الذي تمركز حوله ذلك النوع هو السخرية التي تهاجم ضوابط ونمط بطل تلك المرحلة عبر تسخيف الحبكة والشخصيات ، وكل ما حفلت به المرحلة من اغنيات وقصائد ٠٠ كما فعلت قصة ايتان نوتيف « معركة قلعة ويليامز » (التي نشرت في مجلة الف ، التي كانت الجماعة الكنعانية تصدرها في العام ١٩٥٠) وتتحدث القصة عن معركة حقيقية من معارك حرب العام ١٩٤٨ ، مقارنة اياها بكل المعارك الكبرى التي شارك فيها البطل حيث كان طفلا ، ابتداء بثورة اليهود على الرومانيين ، حتى غزو الغرب الاقصى في اميركا الشمالية ٠ كانت هذه القصة تمهد الطريق لكتابات الجيل التالي انطلاقا من انها كانت ، للمرة الاولى ، تحطم وهم الواقع الادبي ، لم يعد هذا الواقع سوى لعبة ايهامية ، وسخرية تسخف البطل ، السوبرمان ، رجل البالماخ ٠ اضف الى هذا ان هذه القصة قد اطلقت موضوعة لن تصبح مركزية في الوعي الادبي الاسرائيلي الا لاحقا : موضوعة ان الحرب مع العرب انما هي حرب ضد اشباح تمتليء بها هواجس « الشعب » الاسرائيلي القومية٠ اما الوسيلة الثانية التي استخدمها ادباء تلك الجماعة الهامشية لمواجهة الادب والوعي السائدين ، فهي ازالة العلاقات الزمنية ، التأريخية والسببية ، بالتعارض مع الوصف الذي لجأ اليه مؤلفو البالماخ ٠ لقدلعبت كتابة مجموعة « المجلة الف » لعبة تعسفية مع الزمن٠ مونولوغا قصيرا لشخصيتين ، بين ثلاثة ازمان ، بحيث انه لا يعود واضحا في النهاية ما اذا كان الاخ الكبير موجودا فعلا ، ما اذا كان له وجوده الان ، او ما اذا كان حلم يقظة ، سيصبح في الغد حلما عاديا ٠ ان هذا الارتباك في الزمن يأتي ليحطم الواقع الذي كان جيل البالماخ يؤمن به بشكل يفوق كثيرا ايمان الجيل التالي به ٠ لقد عمد كتاب جيل « الكنعانيين » الى تحطيم بنية الزمن والحبكة (وشخصية البطل ايضا) بشكل اكثر حدة ٠٠ ولعل هذا هو السبب الذي جعلهم حتى الان غير مقبولين لدى الاوساط الادبية في اسرائيل ٠

يمكن اعتبار قصة عاموس كنعان « الحصان المتقن » (١٩٦٦) نوعا من القصة ــ المضادة، ببطل ــ مضاد وحبكة ــ مضادة ٠ هنا لا يمكن للحبكة ان تنمو ، لان البطل يبني لنفسه،

في كل لحظة من لحظات الحاضر ، حلما عن المستقبل ، وهذا الحلم يتحول الى ماض قبل ان يصبح واقعا وحاضرا · في مثل هذا القلب للزمن ، ليس ثمـــة وجـود او واقع لاي ظاهرة من الظواهر : كل شيء يختفي قبل ان يحدث ، المرأة المحبوبة تصبح امرأة عجوزا تكنس الارصفة وتدهسها القاطرة · والبطل يتحول الى بديلـة ، رجـل عجوز يقف فـــي الجانب الاخر من السكة ·· ومن بين كل هذه التحولات نجد ان الشيء الوحيد الذي يظل قائما ، هو القطار الذي يمر ويدهس ويرمز الى الرحلة الهدامة والعدوانية التي تتم فـي الزمان والمكان في ظل هذه الحبكة ، تقوم رؤية سياسية لكاتب سبق له ان خاض « حرب الاستقلال » ·· لكنه بدأ في الوقت نفسه ينتقد تلك الحرب وغاياتها ووسائلها ·

في نهاية سنوات السبعين ، وفي رواية « الذبيحة ٢ » نلاحـــظ ان الايديولوجيـــة الاجتماعية التي كانتمطمورة في البنية الزمانية لقصة « الحصان المتقن » ، باتت تبـدو بوضوح : « عندما نصبح كبيرين ، هاباكوك وانا ، سوف نقيم وطنا جديدا · وفي وطننـا الجديد هذا ، لن يفعل الناس الا الاشياء التي يحبون فعلا ان يفعلوها » غير ان الحلـم سرعان ما يتحول الى حلم جرحى ينبغي رتقهم : « هناك سوف نداوي الجرحى ، ونقيـم اود كل ما يمكن اقامة اوده ، وبعد ذلك سوف نعلمهم الكلام من جديد ، كما سنعلمهـمكيف يمشون ويتذكرون ويبولون كما يحلو لهم ·· كذلك سنعلمهم كيف يحيون من جديد الحياة العائلية وكيف يكفون عن الصراخ ليلا » ·

نلاحظ هنا ان الامل الكبير والحلم الكبير لم يشوها على يد الواقع ، بل هما تحولا الـى حالة الحلم · بطريقة او باخرى ، ولا سيما بعد الحربين الاخيرتين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) ، حين اصبح الادب الاسرائيلي اكثر واقعية ، وصارت البنية السياسية التحتية اكثـــر ظهورا ، كانت حالة الحلم تلك شعورا عبر عنه معظم الكتاب الاسرائيليين الجيدين : اناس لا يكفون عن السير باتجاه « اورشليم » لكنهم لا يصلون اليها ابدا · وفي خلال طريقهم، يتشوه حلمهم ، ويسقط عالمهم الداخلي طللا ·· أما العالم الخارجي فيتحطم (عاموس اوز « حتى الموت » ١٩٧١) ويظلون وحيدين في ظل سماء خاوية وصامتة ·

ان السماء صامتة كلية الصمت بالنسبة الى اليهـــود ، منذ ايام بـسكال ·· وهي هكذا بالنسبة الى الاسرائيليين كما بالنسبة الى غيرهم · ولكن الفارق الاساسي بيـــــن الاسرائيليين و ·· الفرنسيين على سبيل المثال ، هو ان المعضلة الوجودية بالنسبـــة الى الاوائل ، معضلة سياسية : في اسرائيل « نكون او لا نكون » ليس مسألة فردية ، بـل مسألة جماعية · والكتاب يعالجون المشاكل القومية ليس لانهم تررروا بان على الكاتـــب ان يكون ملتزما ، بل لان السؤال الوجودي الاساسي هو سؤال مشترك بين جميع الافراد : ان السيرة الفردية لكل اسرائيلي ، هي تاريخ المجتمع بأسره ·

نقل النص الى العربية

ابراهيم العريس

جـدول بالعـمليّات العسكريّـة لقوّات الثورة الفلسطينيّة من ١٩/٢ ـ٢٥/٤/٧٩

١٥ـ ٧٩/٣/٢٣	١٥,٠٠	القدس ـ موقف سيارات القدس ـ تل ابيب .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	مقتل وجرح (٣٠) من افراد العدو		ـ قتل وجرح ما لا يقل عن ثلاثين من افراد العدو. ـ تدمير واعطاب عدد من السيارات . تدمير مداخل وواجهات عدد كبير من المحلات .	ـ	ـ	٧٩/٣٣	٧٩/٣/٢٤
١٦ـ ٧٩/٣/٢٥	٢٣,٠٠	القدس ـ مطعم بولفين .	هجوم	قنابل يدوية	ـ	غيرمحدد	اصابة عدد من افراد العدو . ـ اتلاف جزء كبير من محتويات المطعم . ـ تحطيم عدد من السيارات المتواجدة قرب المطعم . اصابة العشرات من المتواجدين في المطعم .	ـ	ـ	٧٩/٣٤	٧٩/٣/٢٦
١٧ـ ٧٩/٣/٢٦	٢١,٠٠	القدس ـ احد المطاعم شرقي المدينة .	هجوم	قنابل يدوية	ـ	غيرمحدد	ـ اتلاف جميع محتوياته . تحطم زجاج الابنية المجاورة .	ـ	ـ	٧٩/٣٥	٧٩/٣/٢٧
١٨ـ ٧٩/٣/٢٧	٩,٠٠	اللد ـ السوق المركزي .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	ـ قتل وجرح العشرات من افراد العدو . ـ اصابة العديد من المحلات التجارية باضرار بالغة .	ـ	ـ	٧٩/٣٦	٧٩/٣/٢٧
١٩ـ ٧٩/٣/٢٨	ـ	الشاطىء المحتل ـ جنوب تل ابيب .	معركة بحرية	صواريخ واسلحة رشاشة	سبع اصابات		وقوع سبع اصابات في صفوف العدو . اصابة زورق واشعال النيران في جزء منه واصابة زوارق اخرى	٣	٣	٧٩/٣٧	٧٩/٤/ ٣
٢٠ـ ٧٩/٤/٤	١٩,١٥	نابلس ـ سيارة عسكرية .	هجوم	قنابل يدوية	قتل وجرح (٦)		ـ مقتل وجرح ستة من افراد العدو .	ـ	ـ	٧٩/٣٨	٧٩/٤/ ٥
٢١ـ ٧٩/٤/٥	٦,٤٥	تل ابيب ـ احد الباصات العسكرية التابعة لشركة ايجد .	هجوم	اسلحة رشاشة	ـ	غيرمحدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو . ـ وقوع اضرار كبيرة في الباص .	ـ	ـ	٧٩/٣٩	٧٩/٤/ ٧
٢٢ـ ٧٩/٤/٦	٩,٢٠	طبريا ـ احد الباصات .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	(٢)	ـ اصابة خبير المتفجرات واثنين من افراد العدو .	ـ	ـ	٧٩/٤٠	٧٩/٤/ ٦
٢٣ـ ٧٩/٤/٦	٢٣,٠٠	القدس ـ مطعم بولفين .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	مقتل وجرح اكثر من (٢٠)		ـ مقتل وجرح اكثر من عشرين من افراد العدو . ـ تدمير المطعم تدميرا تاما . ـ تحطم معظم زجاج الابنية المجاورة . ـ اعطاب عدد من السيارات القريبة من مكان الانفجار .	ـ	ـ	٧٩/٤١	٧٩/٤/ ٧
٢٤ـ ٧٩/٤/٨	٧,٠٠	القدس ـ احراش جبل المكبر .	قصف	صواريخ ثقيلة	ـ	ـ	ـ اكتشف العدو احد الصواريخ وقام بتفكيكه.	ـ	ـ	٧٩/٤٢	٧٩/٤/ ٨
٢٥ـ ٧٩/٤/٩	٢,٠٠	يافا ـ احد المطاعم التي يرتادها ضباط العدو .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	(٢)	ـ اصابة اثنين من الحرس المدني . ـ تدمير اجزاء كبيرة من واجهات وجدران المطعم. ـ اتلاف محتويات المطعم .	ـ	ـ	٧٩/٤٣	٧٩/٤/ ٩
٢٦ـ ٧٩/٤/٨	١٨,١٥	عسقلان ـ اسفل احد السيارات العسكرية .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	ـ	ـ	ـ اكتشفت العبوات وتم تفكيكها .	ـ	ـ	٧٩/٤٤	٧٩/٤/ ٩
٢٧ـ ٧٩/٤/٨	١٥,١٥	دير البلح ـ المغازي ـ احد باصات شركة دان.	هجوم	اسلحة رشاشة	ـ	غيرمحدد	ـ اصابة عدد غير محدد من افراد العدو .	ـ	ـ	٧٩/٤٥	٧٩/٤/ ٩
٢٨ـ ٧٩/٤/١٠	١٢,١٥	تل ابيب ـ سوق الكرمل المركزي .	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (٥٠)		ـ قتل وجرح ما لا يقل عن خمسين من افراد العدو. ـ تدمير اربع محال في السوق تدميرا تاما . ـ تدمير جزء كبير من شبكة الكهرباء ، وانقطاع التيار الكهربائي .	ـ	ـ	٧٩/٤٦	٧٩/٤/١٠

الرقم	تاريخ العملية – اليوم	الساعة	موقعهـا	نوع العملية	السلاح المستعمل	خسائر العدو البشرية – قتيل	جريح	خسائر العدو المادية	خسائر المقاومة – شهيد	جريح	شهيد	البلاغ العسكري – الرقم	التاريخ
١ –	٧٩/٢/١٩	١٥ر٣	تل ابيب – بيت حركـة الستوطنات ، الوشافيم	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	– اصابة عدد غير محدد من افراد العدو – اتلاف جميع محتويـات الطابق الاول ٠	–	–	–	٧٩/١٩	٧٩/٢/٢٠
٢ –	٧٩/٢/٢٠	٥٠ر٦	القدس – موقف باصات شركة ايجد	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	غيرمحدد	– جرح عدد غير محدد مـن المستوطنين الصهاينة ٠ – تحطيم جزء من موقـف الباصات ٠ – اصابة المبنى المجـاور للموقف باضرار بالغة ٠	–	–	–	٧٩/٢٠	٧٩/٢/٢٠
٣ –	٧٩/٢/٢٠	٢٥ر٧	بتاح تكفا – داخل محطة الباصات المركزية ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	–	– غير محدد ٠	–	–	–	٧٩/٢١	٧٩/٢/٢٠
٤ –	٧٩/٢/٢٧	١٥ر٩	خان يونس – المحطـة المركزية الباصات ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	–	– تدمير جزء كبير مـن الباص واصابة احـد الباصات المجاورة ٠	–	–	–	٧٩/٢٢	٧٩/٢/٢٧
٥ –	٧٩/٢/٢٧	٥٠ر١٤	القدس – سوق محنـى يهودا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	(١٠)	– اصابة حوالي عشرة من افراد العدو ٠ – تصدع جدران احد المحال التجارية ٠ – اتلاف محتويات عدد مـن المحلات ٠	–	–	–	٧٩/٢٣	٧٩/٢/٢٧
٦ –	٧٩/٣/٤	صباحا	القدس – القطار بين بيتر – وبيت صفافا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	– قتل وجرح عدد غير محدد من ركاب القطار ٠ – قتل خبير المتفجـرات واصابة عدد من رجـال الشرطة ٠ – تدمير جزء كبير من خـط سكة الحديد ٠	–	–	–	٧٩/٢٤	٧٩/٣/٤
٧ –	٧٩/٣/٧	٣٠ر٧	القدس – داخل احـد الباصات ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	غيرمحدد	– تدمير الباص نهائيا ٠ – اصابة عدد غير محـدد بينهم اثنين من شرطـة العدو ٠	–	–	–	٧٩/٢٥	٧٩/٣/٧
٨ –	٧٩/٣/٧	٩ر–	القدس – احد الباصـات التابعة لشركةالسياحة٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	قتل وجرح (١٥) مـن افراد العدو		– قتل وجرح ما لا يقل عـن خمسة عشر شخصا مـن افراد العدو ٠ – تدمير جزء كبير مـن الباص ٠	–	–	–	٧٩/٢٦	٧٩/٣/٧
٩ –	٧٩/٣/٧	٣٠ر١٢	العفولة – احد الباصات التابعة لشركةالسياحة٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	–	– اكتشفت العبوات وابطـل مفعولها ٠	–	–	–	٧٩/٢٧	٧٩/٣/٧
١٠–	٧٩/٣/٨	٣٠ر١٨	القدس – محطة الباصات المركزية ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	–	– اكتشفت العبوات وابطـل مفعولها ٠	–	–	–	٧٩/٢٨	٧٩/٣/٨
١١–	٧٩/٣/٩	٠٥ر٧	تل ابيب – فندق بلازا ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	–	غيرمحدد	– اصابة عدد غير محدد من افراد العدو ٠ – احراق محتويات الطابق التاسـع ، واتـلاف محتويات الطوابق العليا٠	–	–	–	٧٩/٢٩	٧٩/٣/٩
١٢–	٧٩/٣/١١	٣٠ر٦	ايلات – مدخل بنايـة للمخابرات ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد	– قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو ٠ – تدمير المدخـل والمكتب المحاذي له ٠	–	–	–	٧٩/٣٠	٧٩/٣/١١
١٣–	٧٩/٣/١٤	٠٠ر٨	القدس – داخل احـد باصات العدو ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	غيرمحدد	غيرمحدد٠	– قتل وجرح عدد غير محدد من افراد العدو ٠ – تدمير الباص واشتعـال النيران فيه ٠	–	–	–	٧٩/٣١	٧٩/٣/١٤
١٤–	٧٩/٣/٢٠	١٥ر١٠	نابلس – مقر الحاكـم العسكري ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوتة	–	(١)	– اصابة خبيـر المتفجرات بجروح خطيرة ٠ – اصابة مبنـى الحاكـم العسكري باضرار بالغة٠	–	–	–	٧٩/٣٢	٧٩/٣/٢٠

							– اعطاب ثـــلاث سيارات كانت متوقفة داخــــل السوق ٠					
٢٩ – ٧٩/٢/١٠	٠٠ر٢٤	اريحا –	معركةمواجهة	اسلحة مختلفة	غيرمحدد ٠	غيرمحدد ٠	– سقوط عدد كبير للعدو من القتلى والجرحى ٠	٤	–	–		راا الساعة ٠٠ر٢٤ السبت ١٩٧٩/٣/١٠ العدد ١٧٢١ ص ١٢٢ ٠
٣٠ – ٧٩/٤/١٤	٠٠ر٢٣	مستوطنة الزراعة ، طيرة تسفي ، ٠	هجوم	اسلحة رشاشة وصاروخية	غيرمحدد	غيرمحدد	– وقوع عدد كبير مــــن الخسائر البشرية فـــي صفوف جنود العدو ٠ – تدمير البيتين بما فيهمـا من جنود ٠ – ايقاع خسائر في عدد من المراكز العسكرية فـــي المستعمرة ٠	٤	–	–	٧٩/٤٨ـ٤٧	٧٩/٤/١٥
٣١ – ٧٩/٤/١٦	٠٠ر٢٣	الجليل – مستعمـــــرة زرعيت ٠	هجوم	اسلحة مختلفة	غيرمحدد	غيرمحدد	– تدمير مربض مدفعيـــة تدميرا كاملا ٠ – تدمير مهجع لجنود العدو نهائيا بعد اشتعال النيران فيه ٠ – تدمير مستودع للذخيرة ٠ – تدمير دبابـة واليتيـــن مدرعتين ٠	٦	–	–	٧٩/٤٩	٧٩/٤/١٧
٣٢ – ٧٩/٤/١٧	٠٥ر١٢	القدس – احد الباصات	تفجير	عبوات ناسفة موقوته	غيرمحدد	غيرمحدد	– قتل وجرح عدد غير محدد من ركاب الباص ٠ – تدمير الباص نهائيا بعـد ان اشتعلت فيه النيران ٠ – تدمير وتحطيم زجــــاج وواجهات المحال والبيوت القريبة من مكان الانفجار	–	–	–	٧٩/٥٠	٧٩/٤/١٧
٣٣ – ٧٩/٤/١٨	٣٠ر٩	القدس – الطريق الترابي المؤدي الى منطقـــة تلبيوت ٠	تفجير	عبوات ناسفة مشتركة	قتل وجرح خمسة من افراد العدو		– قتل وجرح جميع افـراد الدورية البالغ عددهــم خمسة ٠	–	–	–	٧٩/٥١	٧٩/٤/١٨
٣٤ – ٧٩/٤/١٨	٠٠ر١١	الجليل الغربي – مرابض مدفعية العدو ٠	قصف	صواريخ ثقيلة	–	–	– اصابة الصواريخ اهدافها المحددة ٠	–	–	–	٧٩/٥٢	٧٩/٤/١٨
٣٥ – ٧٩/٤/٢١	٣٠ر٢٠	القدس – موقف سيارات العدو العسكرية فيبوابة يافا ٠	تفجير	عبوات ناسفة موقوته	–	٢	– اصابة خبير المتفجـرات واثنين من جنود العدو ٠	–	–	–	٧٩/٥٣	٧٩/٤/٢٢
٣٦ – ٧٩/٤/٢٥	بعدالظهر	مستوطنات العدو فـي منطقة الجليل ٠	قصف	صواريخ ثقيلة	–	–	– تكبيد العدو خسائــــر عسكرية بشرية ومادية كبيرة ٠	–	–	–	٧٩/٥٤	٧٩/٤/٢٥
٣٧ – ٧٩/٤/٢٥	٠٠ر٢٠	تل ابيب – مبنى لمخابرات العدو في ، حي شاليا، ٠	تفجير	عبوات ناسفة حارقة	غيرمحدد	غيرمحدد	– قتل وجرح عدد من افراد العدو ٠ – تدمير جزء من المبنــى واشتعال النيران فيه ٠	–	–	–	٧٩/٥٥	٧٩/٤/٢٥

اعترافات العدو

٧٩/٢٣ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : انفجرت عبوة ناسفة في ســوق محنى يهودا فيالقدس ظهر اليوم وقد جرح خمسة اشخاص حالة واحد منهم خطـرة (٠٠٠)

راا الساعـة ٠٠ر١٦ ، الثلاثـــاء ١٩٧٩/٣/٢٧ ،

العدد ١٧١٤ ، ص ٥٠٧ ٠

٧٩/٣٠ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : في ايلات انفجرت عبوة من المواد الناسفة (٠٠٠) ولم تقع اصابات الا انهـا احدثت اضرار بالغة لثمانية مساكن(٠٠٠)

راا ، الساعـــة ٠٠ر٨ ، الاحـــد ١٩٧٩/٣/١١ ،

العدد ١٧٢١ ، ص ١٢٢ ٠

٧٩/٣١ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : وقع انفجار في اتوبيس خاص لنقل الطلاب كان يقف في حي موراشاه بالقدس صباح الاحد لكن احدالم يصب باذى(٠٠٠)

راا ، الساعـــة ٠٠ر٩ ، الاربعـــاء ١٩٧٩/٣/١٤ ،

العدد ١٧٢٤ ، ص ٢١٨ ٠

٧٩/٣٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : القيت قنبلة يدوية باتجاه مطعـــم غولبي، في المدينة الشرقية ولم يصب احد، لكن تضررت سيارة متوقفة كما تحطـــم زجاج المطعم (٠٠٠) ٠

راا ، الساعـــة ٠٠ر٧ ، الاثنيـــن ١٩٧٩/٣/٢٦ ،

العدد ١٧٣٤ ، ص ٤٨٧ ٠

٧٩/٣٦ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : وقع انفجار في سوق مدينة اللـد صباح اليوم واصيب عدد من النـــاس بجروح كانت اصابات بعضهم بالغة (٠٠٠)

راا ، الساعـــة ٠٠ر١٠ ، الثلاثـــاء ١٩٧٩/٣/٢٧ ،

العدد ١٧٣٥ ، ص ٥١٩ ٠

٧٩/٣٧ صرحت اذاعة العدو بالعمليـة قائلة : اعلن الناطق بلسان جيش الدفاع الاسرائيلي ان سفن سلاح البحريــــة احتجزت قبل عدة ايام سفينة شحن كانت في طريقها لانزال خلية « مخربين » للقيام باعمال قتل (٠٠٠) ووجد على متنها ستـة

« مخربين » فلسطينيين وفريق ملاحة من خمسة اشخاص (٠٠٠)

را ، الساعة ٠٠ر١٩ ، الاثنين ٢/٤/١٩٧٩ ،

العدد ١٧٤١ ، ص ٥٩ ٠

٧٩/٤٠ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : عثر في محطة ايجد في طبريا صباح اليوم على عبوة ناسفة في باص كان قادما من العفولة وقد تمكن خبير المتفجرات من ازالة العبوة قبل انفجارها (٠٠٠)

را ، الساعة ٠٠ر١٢ ، الجمعة ٦/٤/١٩٧٩ ،

العدد ١٧٤٤ ، ص ١٤٣ ٠

٧٩/٤٣ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : فجر هذا اليوم وقع انفجار في مستودع احد المطاعم في يافا دون وقوع اصابات ، الا ان المستودع وعدة حوانيت مجاورة منيت باضرار (٠٠٠)

را ، الساعة ٠٠ر٨ ، الاثنين ٩/٤/١٩٧٩ ،

العدد ١٧٤٦ ، ص ١٧٧ ٠

٧٩/٤٥ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : مساء امس اطلقت نيران الاسلحة الخفيفة على باص كان يسير من ناحية سيناء الى عسقلان عندما مر في بلدة دير البلح ولم تقع اصابات (٠٠٠)

را ، الساعة ٠٠ر٨ ، الاثنين ٩/٤/١٩٧٩ ،

العدد ١٧٤٦ ، ص ١٧٧ ٠

٧٩/٤٦ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : انفجرت عبوة ناسفة في سوق الكرمل في تل ابيب ، كانت معبئة في محل لبيع السمك ومحل لبيع الاحذية ٠ وقد قتل من جراء الانفجار شخص واحد وجرح ٣٥ شخصا ، اصابة ثمانية منهم خطرة (٠٠٠)

را ، الساعة ٠٠ر١٣ ، الثلاثاء ١٠/٤/١٩٧٩ ،

العدد ١٧٤٧ ، ص ٢١٢ ٠

٧٩/٤٩ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : في اشتباك وقع بين جنود جيش الدفاع الاسرائيلي ومجموعة « مخربين » حاولت اجتياز حدودنا في منطقة زرعيت٠ قتل الليلة ستة « مخربين » وقتل في الاشتباك احد جنود جيش الدفاع الاسرائيلي (٠٠٠)

ر١٠١٠ ، الساعة ٠٠ر٨ الثلاثاء ١٧/٤/١٩٧٩ ص ٣١٠ العدد ١٧٥١ ٠

٧٩/٥٠ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : انفجرت ظهر اليوم عبوة في باص خالي من الركاب على خط ١٩ بالقدس ٠ لم تقع اصابات ، الا ان الانفجار تسبب في اضرار مادية للجزء الخلفي من الباص (٠٠٠) ٠

ر١٠١٠ الساعة ٠٠ر١٣ الثلاثاء ١٧/٤/١٩٧٩ ص ٣١٥ العدد ١٧٥١ ٠

٧٩/٥٢ صرحت اذاعة العدو بالعملية قائلة : اطلق صاروخ كاتيوشا ظهر اليوم من الاراضي اللبنانية باتجاه الجليل الغربي (٠٠٠) ٠ اصيب شخص واحد بجروح بسيطة في يده وبعد حوالي الساعة من انفجار الصاروخ اطلق صاروخ اخر (٠٠٠) ٠

ر١٠١٠ ٠٠ر١٤ الاربعاء ١٨/٤/١٩٧٩، ص ٣٢٢ العدد ١٧٥٢ ٠

٧٩/٥٤ صرحت اذاعة العدو بالعملية الجليل الغربي بيوم من صواريخ الكاتيوشا قائلة : مرت المستوطنات الاسرائيلية في (٠٠٠) وقد ادى هذا القصف الى اضرار بسيطة والى جرح ثلاثة اشخاص بجروح طفيفة (٠٠٠) ٠

ر١٠١٠ الساعة ٠٠ر١٩ الاربعاء ٢٥/٤/١٩٧٩ ص ٤٧٥ العدد ١٧٥٧ ٠

محمد قدورة

Palestine Affairs

No. 91, June 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

السعر: ٥ ل.ل. في لبنان
٦ ل.س. في سوريا
٦٥٠ فلساً في الكويت والعراق
١٠ دراهم في دولة الامارات العربية
٦ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
٧٥٠ درهماً في ج.ع.ل.

شؤون فلسطينية

٩٢ /٩٣ تموز /آب (يوليو / اغسطس ١٩٧٩



شؤون فلسطينية

رئيس التحرير : محمود درويش
سكرتير التحرير : الياس خوري

٩٢/ ٩٣ تموز / اب (يوليو / اغسطس) ١٩٧٩

شهرية فكرية لمعالجة أحداث القضية الفلسطينية وشؤونها المختلفة .
تصدر عن مركز الأبحاث في منظمة التحرير الفلسطينية

العنوان : بناية الدكتور راجي نصر ، شارع كولومباني
(متفرع من السادات) . رأس بيروت ــ لبنان ، ص . ب ١٦٩١

تلفون : التحرير والتوزيع ٣٥١٢٦٠

برقيا : مرابحاث ، بيروت .

مدير التوزيع : **غازي دانيال**

الاشتراك السنوي (بريد جوي) : ٦٠ ل . ل . في لبنان وسوريا ، ٧٥ ل . ل . في سائر الاقطار العربية ، ١٠٠ ل . ل . في اوروبا ، ١٢٥ ل . ل . في بقية بلدان العالم .

الاشتراك السنوي (بريد عادي) : ٦٥ ل . ل . في جميع الدول غير العربية .

الغلاف للفنان
إميل منعم

السياسة الاميركية
في الشرق الاوسط

بالاشتراك مع جمعية خريجي الجامعات الاميركية العرب ، وبالتعاون مع الدائرة السياسية والاعلام الموحد في منظمة التحرير الفلسطينية ، عقدت ما بين ٢٢ ــ ٢٤ حزيران [يونيو] الماضي ، ندوة « شؤون فلسطينية » لدراسة السياسة الاميركية في الشرق الاوسط تحت رعاية رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية القائد العام للثورة الفلسطينية الاخ ياسر عرفات ، وبمشاركة رئيس الدائرة السياسية الاخ فاروق القدومي الذي افتتح الندوة . وقد اختتمت الندوة بحديث شامل ومهم للاخ ياسر عرفات تناول فيه الوضع العربي الراهن ، ووضع المقاومة الفلسطينية

المحتويات

الصامدة امام الهجمات الصهيونية والمؤامرات الاميركية ومعاهدة الاستسلام .

وقد ناقش المجتمعون جوانب السياسة الاميركية التي قدمتها دراسات كل من : د. فؤاد مغربي ، د. سميح فرسون ، د. مايكل سليمان ، د. نصير عروري ، د. حسني حداد ، د. ماري ايلين لاندستين ، د. عاطف قبرصي ، د. عباس النصراوي ، د. الياس شوفاني ، د. محمد شديد ، د. حاتم الحسيني ، ود. عابدين جبارة .

هذا العدد من « شؤون فلسطينية » مكرس للدراسات التي قدمت للندوة ، ونرجو ان يلبي المفكرون والكتاب دعوتنا لمناقشة هذه الدراسات على صفحات « شؤون فلسطينية » .

الصفحة

اميركا هناك
اميركا هنا ...

لا تطمح هذه الندوة الى ما يفوق امكانياتها . فهذه الاولى من نوعها تريد ان تقول ، ببساطة ، ان الذين كانوا دائما موضوع الدراسة الاميركية ، نحن ، يريدون ان يدرسوا الذين يدرسونهم في مختبر الابادة .

بعد قليل ستمر طائراتهم فوق رؤوسنا ستمارس نشاطها الروتيني في تشريد المشردين ، وستعطي للسلام الاميركـي جانبه التطبيقي في الجسد الفلسطيني ـ اللبناني ، وستعطي للمعاهدة صفة الديناميكية الوحيدة في منطقة تعج بالرفض الذي لا يتزحزح الى الامام ! وبنفط تدعو صيانته الى استقرار الدعائم التي يقوم عليها امن المعاهدة .

ومنذ سنين طويلة ، لم تملك اميركا القدرة على تقديم وجه اخر للعرب . وفي الصراع المباشر مع اندلاع المد الصهيوني ، يدرك الجميع ان هذا العدو هو احد الوجود القبيحة للسياسة الاميركية .. احد الوجوه . ومع ذلك ، فان التردد لا يصيب الا المثقفين ، ولا يصيب الا الحكام .

ولا تطمح هذه الندوة الى اكثر من الغاء النسيان الذي اصاب اصحاب ورشة القرار العربي ، نسيان طبيعة النظام الاميركي الذي لا يستطيع ، ولا يريد ، ان يكون غير ما هو في علاقاته التدميرية بحركة التحرر العربي ، بما فيها ، وبشكل خاص ، حركة المقاومة الفلسطينية التي تطرح مشروع النجاة من الابادة بمشروع الثورة .

لقد انقلبت لغة الصراع على ذاتها . واتخذ هذا الانقلاب تجليه الساطع في المعاهدة ـ الحلف ، التي هي احدى النتائج المنطقية لمسيرة الانتقال التدريجي في عملية فهم السياسة الاميركية من سياسة معادية الى سياسة محايدة ، فسياسة قادرة على انجاز مهام حركة التحرر العربي في تحرير الاراضي المحتلة وفي استقلال فلسطين !

ان التعامل مع السياسة الاميركية خارج علاقات الصراع ، بمستوياته المختلفة ، هو الذي اسس القاعدة الشرعية للعمر الصهيوني الجديد . وادخل مرحلة من مراحل النضال العربي في تهديد الشيخوخة . وهو ذاته الذي يهدد الاعتراض العربي الكبير ، عددا ، على المعاهدة ونتائجها، باخطار لا يكون اقلها توفير المناخ لنمو المعاهدة ، وجعلها القوة ذات الحركة الاولى في هذه الفترة . ولا يكون اقلها استئصال وعي الصراع التدريجي من امة مهددة بمزيد من القمع والاستلاب ثمنا للتعامل ، غير المتوازن ، مع اميركا ، بما يقتضيه ذلك من تنظيف المجتمعات العربية من لغة الصراع ، ومن مفاهيم الصراع ، ومن بناء المقومات القادرة على خوض الصراع .

لذلك ، نرى ان حاجة موضوع الدراسة ، الابادة الاميركية التقليدية ، اي حاجتنا الى التمرد على صياغة الاسئلة ـ وهو المستوى الذي يستطيع مثقفون ان يفعلوه في ندوة ـ هي حاجة ملحة ، لا لانعاش الذاكرة العربية فقط ، بل لاطلاع العربي على كيفية فهم اميركا لشروط المصالحة مع الذين تحولت املاكهم الى مصالح اميركية . وقبلوا المصطلح حتى صاروا هم انفسهم مصلحة اميركية ، او بضاعة اميركية ، تحتاج المحافظة عليها الى تطهير المنطقة منا ومن لغتنا ، ولكي يطلع المواطن العربي ايضا على كيفية فهم اميركا لشروط المصالحة معه . واولهاامتصاصه او تحويله الى عبد .

يبدو لي اننا مقبلون في هذه الندوة على الاشتباك مع بديهية صارت مرشحة للانقلاب ، وهي : استحالة دراسة السياسة الاميركية في الشرق الاوسط خارج معادلة الصراع . سنرى ان برميل النفط ، وعود الثقاب الذي يهدده ، والآلة العسكرية الاسرائيلية التي تحميه ، وزجاجة الكوكا كولا التي ترطب العاملين حوله ، هو المفهوم الاميركي لهذا الشرق .

وسنواجه وهما اخر يتعلق بطبيعة العلاقات الاميركية ـ الاسرائيلية ـ اليهودية ، التي يفهمها عرب اميركا بطريقة تطمح الى ابتزاز تعاطفنا مع العجز الاميركي . اذ ما زال الكثيرون من المسؤولين العرب يصوغون سياستهم تحت ضغط المفهوم القائل ان اميركا هي ضحية الصهيونية وان على العرب ان ينقذوا اميركا البريئة من الشيطان اليهودي بتقديم كافة التسهيلات لها والتراجعات امامها ، لكي يسلبوا اسرائيل دورها في ضمان امن المصالح الاميركية التي يبدو انها لم تعد مصالح عربية ! اي ان نتحول عن عملية صياغة استقلالنا الوطني ، وان ننزع عن الثروة العربية حافزها السياسي ، ونتحول الى منافسين اذلاء للطريقة التي كسبت فيها اسرائيل حب اميركا !

اريد ان اؤكد مرة اخرى اننا لا ندرس السياسة الاميركية ومقومات القرار الاميركي من اجل الترف ، او من اجل البرهنة على ان المدروس يستطيع ان يدرس دارسه ، فان معرفة المحكوم بالاعدام لحبل المشنقة ولطريقة عملها لا تدمر الجلاد . نحن ندرس من اجل متطلبات الصراع ، من اجل ان تتسلح جماهيرنا بالمعرفة الدقيقة لطبيعة المعركة والقوى التي تخوضها في داخل مجتمعاتها ، وعلى حدود اوطانها .

واستطيع ان اؤكد ان هذه الجماهير لا ترى اميركا فقط في القاذفات التي تزورها يوميا ، بل تراها ايضا في محاولات عملية استبدال اعدائها الحقيقيين باعداء وهميين ،

وتراها في علاقة الرعاة السياسيين بالرعية ، في علاقات البطش التي تحاول طرد الناس كليا من ذاتها ومن مجتمعها ومن فلسطينها ،

وتراها في المشانق المنصوبة تحت كل حنجرة تتأهب للاحتجاج على سجن بلا محاكمة ، وفي مواجهة كل حلم بسيط برغيف مصنوع من الدقيق العادي ، لا من المهانة ،

وتراها في تغييب وعي الامن القومي ، واستبداله بالامن القطري ، او العشائري ، وفي ترجمة هذا الامن الى معنى واحد هو امن الحاكم .والحاشية ،

وتراها في شبق الاستهلاك الملخص بزجاجة الكولا وبنطلون الجينز اللذين حولتهما سيادة قيم الاستهلاك الاعقيدة ، .

وتراها هنا ، لا تهدد بالاحتلال المحتمل ، بل ترى الاحتلال وقد خيم ،

وتراها هنا . فان اميركا ليست خطرا قادما ، وانما هي وجود قائم ...

محمود درويش

فـاروق القـدومي

ألسـياسـة الأميركيّـة والشـرق الأوسَط

أيتها الاخوات والاخوة :

يسعدني ان أتحدث اليكم في هذا الملتقى الفكري والسياسي ، ويطيب لي ان اشكر للاخوة في مركز الابحاث الفلسطيني ، وفي جمعية الخريجين العرب في الولايات المتحدة الاميركية ، مبادرتهم الهادفة لاقامة هذه الندوة ، بالتعاون مع الاخوة في الاعلام الموحد والدائرة السياسية لمنظمة التحرير الفلسطينية . ويسرني ، في الوقت نفسه ، ان ارحب بالاخوة اعضاء جمعية الخريجين العرب ، القادمين من الولايات المتحدة الاميركية ، والذين يسهمون بطاقاتهم الفكرية والسياسية البناءة والموضوعية، في هذه الندوة الجادة حول « السياسة الاميركية والشرق الاوسط » .

ولعله غني عن البيان ان اشير الى اهمية المرحلة التي تنعقد فيها ندوتنا هذه ، مما يجعلها تكتسي صفة مميزة ، خاصة وان الدور الذي تلعبه السياسة الاميركية في منطقة الشرق الاوسط ، هو من ابرز سمات هذه المرحلة الدقيقة والخطيرة في آن معا ، عقب ما آلت اليه من نتائج ، وافرزته من تطورات ، تجسدت في اتفاقيتي كامب ديفيد ومعاهدة الصلح المصرية ــ الاسرائيلية ، المعقودة تحت المظلة الاميركية .

لقد كانت خيوط السياسة الاميركية واضحة المعالم في مساندة الكيان الصهيوني منذ نشأته ، وامتدت انسجة هذه الخيوط منذ عهد الرئيس الاميركي ترومان ، متخذة نفس الابعاد والمعالم عبر مختلف الرئاسات الاميركية التي تتالت حتى يومنا هذا ، وان كانت تكتسي في بعض العهود الوانا اكثر وضوحا ، وفي بعضها الآخر الوانا رمادية . ولعل اكثر هذه الالوان وضوحا في خيوط السياسة الاميركية كان في عهد الرئيس الاميركي نيكسون ، حين بدأ وزير خارجيته هنري كيسنجر يرسي دعائم سياسة « الخطوة خطوة » في وضع حلول اميركية لأزمة الشرق الاوسط ، تضمن ، في نهاية الامر ، التوصل الى سلام اميركي ، يكفل للكيان الصهيوني الديمومة والبقاء ، والسيطرة المطلقة على مجمل القوى المحيطة بها . وقد بدا واضحا ان هنري

كيسنجر، مهندس سياسة «الخطوة خطوة»، قد عكف على وضع معالم سياسته هذه موضع التنفيذ بعد أن انكب على دراسة الثغرات التي خلقتها سياسة سلفه روجرز ، عبر مبادرته الشهيرة عام ١٩٧٠ ، والتي قبلها الرئيس الراحل جمال عبد الناصر ببراعة تكتيكية ، مكنته من بناء قواعد صواريخ سام الدفاعية التي اربكت الطيران الاسرائيلي في فترة زمنية حرجة ووجيزة ، والتي مكنت القوات المصرية من ان تواصل بناء قدراتها ، وتتمكن من ان تحرز انتصار حرب تشرين ١٩٧٣ .

من خلال هذه المعطيات ، وضع هنري كيسنجر الخطوط العريضة لسياسته ، وباشر التحرك لبلورتها بعد حرب اكتوبر مباشرة ، حتى لا يسبقه الزمن فيترسخ انتصار تشرين الى المدى الذي يصعب معه امتصاصه او محو آثاره .

ومن هنا كانت اتفاقية سيناء الأولى في اول سبتمبر عام ١٩٧٥ ، وهي الاتفاقية التي توج فيها كيسنجر اول تحركاته على هدى سياسة « الخطوة خطوة » .

ومن خلال قراءة سريعة لبعض بنود تلك الاتفاقية ، والملحقات السرية التابعة لها ، يستطيع المرء ان يستقرىء معظم التحركات الاميركية اللاحقة حتى يومنا هذا ، لان كل الوقائع والتطورات ، جاءت لتترجم الخطوات الاجرائية التي نصت عليها اتفاقية سيناء الاولى ، وملاحقها السرية . وكمثل على ذلك ، فقد نص البند ٦ من مذكرة الاتفاقية الاولى المعقودة بين حكومة الولايات المتحدة واسرائيل ، والملحقة باتفاق سيناء الأول في مطلع سبتمبر عام ١٩٧٥ على ما يلي : « تتفق حكومة الولايات المتحدة الاميركية مع اسرائيل على ان الاتفاق التالي مع مصر ، يجب ان يكون اتفاق سلام نهائيا » .

اما البند الثالث من الوثيقة الثانية السرية ، الملحقة باتفاق سيناء ، تحت عنوان مذكرة اتفاق بين حكومتي الولايات المتحدة واسرائيل ، فينص على التالي : « ستبذل الولايات المتحدة كل الجهود لتضمن كل المفاوضات الاساسية في المؤتمر على اساس ثنائي » .

ولم يقتصر دور السياسة الاميركية هذه على التحركات بين الاطراف الثنائية فحسب ، بل تعداها الى كل المحافل والمواقع ، اذ طالما نص البند الثامن والتاسع من الوثيقة الاولى في الاتفاق المعقود بين الولايات المتحدة واسرائيل والملحق باتفاق سيناء على ان : « حكومة الولايات المتحدة ستقترع ضد اي قرار لمجلس الامن تعتبر انه يخلق تأثيرا مضرا بالاتفاق او معدلا له » .

« وستسعى حكومة الولايات المتحدة الاميركية الى منع جهود الآخرين لدرس اقتراحات تتفق هي واسرائيل على انها ضارة بمصالح اسرائيل » .

وكذلك البند ٤ من الوثيقة الثانية ، في مذكرة الاتفاق اياه ، والذي يقول : « ستعارض الولايات المتحدة الاميركية وتقترع ، عند الحاجة ، ضد كل مبادرات مجلس الامن لاجراء تعديل على القرارين ٢٤٢ و ٣٣٨ في اشكال لا تتفق مع هدفها الاصلي » .

وقد تبلور الموقف الامركي بشأن هذه التعهدات الاميركية لاسرائيل ، في جلسة مجلس الامن المنعقدة في يناير عام ١٩٧٦ ، حين استخدم المندوب الامريكي مونيهان حق النقد

« الفيتو » ، ضد مشروع القرار المقدم من مجموعة دول عدم الانيحاز ، والذي نال ٩ اصوات من اعضاء مجلس الامن ، لانه يشير الى حقوقنا .

وقد واصلت السياسة الاميركية لعب هذا الدور لصالح اسرائيل مستهدفة خلق واقع جديد مبني على التصدي للعقبات التي تعترض طريقها والمتمثلة في :

١ ــ قوى التصدي التي تقف حركة المقاومة الفلسطينية كطليعة لها .
٢ ــ قوى التضامن العربي التي تجسدت في حرب تشرين ، وما بعدها ، والتي استحالت الى قرارات اتخذها مؤتمر القمة العربي في الرباط عام ١٩٧٤ .

وقد افصح كيسنجر عن تصوره في القضاء على هاتين العقبتين الشائكتين اللتين تقفان في وجه السياسة الاميركية ، لاكثر من زعيم عربي ، وغير عربي ، قابله في مطلع العام ١٩٧٥ ، وما بعده .

فبشأن العقبة الاولى ، دفعت السياسة الاميركية باعوانها في المنطقة لافراز مشكلات ونزاعات فيها ، تجعل صعبا على حركة المقاومة الفلسطينية تجنب مواجهتها ، فاختارت لبنان ساحة لها لتفجير الصراع فيها ضد حركة المقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية المساندة .

وفيما يتعلق بالعقبة الثانية ، عمدت السياسة الاميركية ، الى خلق جذور الصراعات والنزاعات المختلفة بين الدول العربية أحيانا ، ومحورة أطراف عربية لجرها ضد الاجماع العربي ، وسوقها الى طريق مغاير ، وكان ان نجحت في ذلك بجر النظام المصري الى الموقع المعادي لمصالح الامة العربية ، والمساند لاعدائها ، توطئة لخلق واقع جديد في المنطقة ، يمكنها من جرها الى تحالفات عسكرية جديدة تضمن لها المحافظة على مصالحها وتقوية نفوذها فيها .

ومن هنا كان الاهتمام الكبير الذي اولاه الرئيس الاميركي كارتر لقمة كامب ديفيد ، في السابع عشر من سبتمبر عام ١٩٧٨ م ، وهي القمة التي علق عليها الرئيس كارتر اهمية كبيرة ، تؤثر على رصيده السياسي كرئيس للولايات المتحدة الاميركية ، وعلى مصيره في الانتخابات الرئاسية المقبلة .

وقد قامر الرئيس كارتر بالكثير من رصيده اثناء قمة كامب ديفيد ، ومارس شتى أساليب الضغط والترهيب والترغيب على الجانب المصري ، الذي رضخ لكل أساليب الابتزاز تلك ، حتى تم التوقيع على اتفاقتي كامب ديفيد المذكورتين ، وما اعقبهما من خطوات ، كانت ابرزها زيارات فانس المكوكية لكل من مصر واسرائيل التي توجتها زيارة كارتر للمنطقة ، معرجا لبضع دقائق على اسوان لينقل للرئيس المصري بعض مطامحه في اتفاق ثنائي مع اسرائيل .

ولم تكن زيارة الرئيس المصري انور السادات للقدس ، التي سبقت كل ذلك ، مجرد حلم شاعر ، او طيف خيال ، او نزوة عابر سبيل ، اذ لن يطول الوقت حتى يتكشف السر الاميركي الذي يقبع خلف وتحت وفوق تلك الزيارة ، التي شهدتها القدس بمرارة يوم التاسع عشر من نوفمبر العام ١٩٧٧ .

وعوداً على بدء ، فلم تكن خيوط السياسة الاميركية اكثر وضوحا في حقبة من حقب

الرئاسات الاميركية مما هي عليه الآن ، استمراراً لمنهج مهندس سياسة « الخطوة خطوة » ، والتي كانت معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية ، الموقعة في ٢٦ مارس من هذا العام ١٩٧٩ ، أخر ابرز ثمارها .

لقد بات واضحا ان الولايات المتحدة الاميركية قد مارست ، وتمارس ، حتى اليوم ، شتى الضغوط على الدول العربية المختلفة ، والتي يصنفونها حسب العرف الاميركي بـ « المعتدلة » ، من اجل جرها للقبول بالمعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية ، او على الاقل ، الصمت ازاءها ، وعدم رفضها او مهاجمتها . وفي الوقت نفسه ، اوعزت لادواتها في المنطقة ، وعلى رأسها اسرائيل ، لخلق المشكلات ، وممارسة العدوان ضد القوى الرافضة والمتصدية للمعاهدة ، والتي تقف الثورة الفلسطينية في طليعتها .

ومن هنا كانت الهجمات البربرية الاسرائيلية بمختلف الاسلحة الجوية والبرية والبحرية ضد شعبينا اللبناني والفلسطيني في جنوب لبنان ، وفي مخيمات اللاجئين ، منذ صبيحة يوم توقيع المعاهدة حتى هذه اللحظة التي تنعقد فيها ندوتنا .

ولم يمض يوم واحد ، منذ ذلك التاريخ ، الا وشهدت قرى الجنوب اللبناني ، ومخيمات شعبنا الفلسطيني ، اعتداءات وحشية اسرائيلية او انعزالية استهدفت النساء والشيوخ والاطفال في محاولات محمومة لالهاء شعبنا عن مواجهة المعاهدة ـ المؤامرة ، والتصدي لها .

ولم تكن هذه الوقائع شغل السياسة الاميركية الشاغل في المنطقة وحسب ، بل زادتها حدة وحيوية وانفعالا احداث اخرى ، كانت الثورة الايرانية احدى ابرز صورها ، وهي التي لم تكن واردة في حساب السياسة الاميركية ، حتى سقطت في ايران اقوى وامنع القلاع الاميركية النافذة في المنطقة بسقوط شاه ايران ، وقد واكب ذلك ، سقوط حلف السنتو بانسحاب ايران وتركيا والباكستان منه ، وما تركه ذلك من آثار على الدول المجاورة ، بالاضافة الى الفشل الذي منيت به السياسة الاميركية في اثيوبيا ، وافغانستان ، والتغييرات التي نجمت عن ذلك . وهنا سارعت السياسة الاميركية الى التحرك الحثيث لوضع صورة بديلة تعوض بها عن خسارتها ازاء هذه التطورات .

وكان ان اوفد الرئيس الاميركي وزير دفاعه المستر براون في زيارة لمنطقة الشرق الاوسط ، زار خلالها كلا من السعودية ، والاردن ، ومصر ، واسرائيل ، طارحا بشكل مباشر فكرة ايجاد ما سماه بـ « صيغة تحالفية امنية » على دول المنطقة الاربع ، تكون الولايات المتحدة مظلتها الواقية ، ولسنا هنا في معرض تفسير ما لقيه المستر براون من ردود على طروحاته هذه من الدول الاربع التي زارها ، ولكننا نستطيع القول انه لقي آذانا صاغية من قطبي المعاهدة المصرية الاسرائيلية فقط .

ومن زاوية اخرى ، فاننا اذا اجرينا استعراضا شاملا للتصريحات الاميركية التي وردت ، سواء على لسان الرئيس الاميركي جيمي كارتر او على السنة مسؤولين اميركيين آخرين ، او بمجمل السياسة الاميركية بشأن منطقة الشرق الاوسط ، نصل على ضوء التناقضات الواردة فيها الى إحدى نتيجتين : أولاهما : إما أن الولايات المتحدة الاميركية لا تملك حرية القرار

بشأن منطقة الشرق الاوسط بعيدا عن تأثير وضغوطات اللوبي الصهيوني المتحكم في القرار الاميركي ، والمسيطر على مختلف نواحي الحياة الاميركية ، او انها تتبع خطوات تكتيكية تستهدف كسب ود اصدقائها من العرب المعتدلين ، والابقاء على الخيط الرفيع الذي يربطها بهم ، من اجل الحفاظ على مصالحها ، من خلالهم ، في المنطقة العربية ، بحيث لا تؤثر هذه التكتيكات على جوهر سياستها في المنطقة ، والتي تتلخص في ضمان ديمومة البقاء والامن للكيان الصهوني ، والمحافظة على تفوقه الاستراتيجي ازاء مختلف القوى المحيطة به .

ولعله من المفيد ان نذكر هنا بعضا من التراجعات التي اقدم عليها الرئيس الاميركي كارتر في تصريحاته ، وتصريحاته المضادة ، والتي تقع كلاهما في محصلة احدى النتيجتين المشار اليهما آنفا .

فبعد ان تنكر الرئيس كارتر لسياسة الانفراج الدولي ، وعمد الى المناداة بحقوق الانسان التي حصرها في مشكلات المنشقين من الدول الاشتراكية ، وفي السماح بهجرة اليهود من الاتحاد السوفياتي الى فلسطين المحتلة ، مقدما ذلك على الاولويات الاخرى التي تشكل قاعدة الوفاق بين القوتين الاعظم ، لجأ عقب ذلك الى اصدار عدد من التصريحات التي تستهدف استرضاء الجانب العربي ، فتناول في أحدها ما أسماه بالـ «HOME LAND» ، اي : وطن للفلسطينيين ، الامر الذي يرد للمرة الاولى على لسان رئيس اميركي ، ثم تبع ذلك في خطاب آخر له ، بقوله : « ان منظمة التحرير الفلسطينية تمثل جزءا جوهريا من الشعب الفلسطيني » ، وهو ايضا الامر الذي يرد للمرة الاولى على لسان رئيس اميركي ، ثم اعقب هذا وذاك البيان السوفياتي الاميركي المشترك ، الذي صدر عقب زيارة وزير الخارجية السوفياتي غروميكو للولايات المتحدة الاميركية ، في الاول من تشرين اول عام ١٩٧٧ ، والذي اقرت فيه الولايات المتحدة الاميركية بالحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني .

غير انه بعد مضي اقل من ٢٦ ساعة على صدور هذا البيان الذي اعقبته زيارة موشي دايان ، وزير خارجية اسرائيل ، للولايات المتحدة الاميركية ، صدر رد واضح وصريح له في البيان الاسرائيلي الاميركي الذي صدر على اثر تلك الزيارة ، والذي برأ الطرف الاسرائيلي من الالتزامات المشار اليها في البيان السوفياتي الاميركي المشترك ، وتنكر لها تماما ، ثم اعقبه مباشرة خطاب الرئيس الاميركي جيمي كارتر في الامم المتحدة الذي اشاد فيه بما أسماه : « نضال الشعب الاسرائيلي طيلة الثلاثين سنة الماضية » ، وتنكر فيه للشعب الفلسطيني ، وتجاهل مأساته المزمنة .

ولم تقف التراجعات الاميركية عند هذا الحد ، بل تجاوزتها الى حد اقدامها على التراجع عن اوراق العمل التي اعدتها الولايات المتحدة الاميركية لتكون اساسا في المفاوضات المصرية ــ الاسرائيلية ، واعتمدت ورقة العمل الاسرائيلية بديلا لها ، بناء على طلب اسرائيل ، ثم تجاوز الامر هذا الحد ايضا الى المزيد من ممارسة الضغوط على الجانب المصري ، الامر الذي دفع بالرئيس المصري انور السادات لزيارة القدس في ١٩ نوفمبر عام ١٩٧٧ ، وما استتبع تلك الزيارة من خطوات قادت بالتالي إلى المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية ، الموقعة تحت المظلة الاميركية الواقية ، وحيث اميركا هي الشريك الكامل فيها ، يوم ٢٦ مارس من العام الحالي ١٩٧٩ .

وقد كانت السياسة الاميركية تحرص دائما على ضرورة عزل مصر عن الصف العربي ، وتلجأ الى ان توثق ذلك رسميا في كل تحركاتها ، وتنسق مع اسرائيل بنفس القدر من الجهد في هذا الشأن ، وقد حمل البند الثاني عشر من الوثيقة السرية الملحقة باتفاق سيناء ، الموقع في سبتمبر عام ١٩٧٥ ، هذا المعنى حين نص على الآتي : « يقوم موقف حكومة الولايات المتحدة الاميركية على ان الالتزامات المصرية بموجب الاتفاق المصري الاسرائيلي وتطبيقه ، وسريان مفعوله ومدته ليست مشروطة بأي عمل او تطورات بين دول عربية أخرى واسرائيل ، وان حكومة الولايات المتحدة الاميركية تعتبر ان الاتفاق قائم بذاته » .

كما وثقت السياسة الاميركية استراتيجيتها الرامية الى المحافظة على التفوق العسكري الاسرائيلي في اكثر من اتفاق ومذكرة ، ومن بين النصوص المتعلقة بهذا الشأن ، ما ورد في الوثيقة السرية الثالثة الملحقة باتفاق سيناء ، التي ينص بندها الاول تحت عنوان « تأكيدات من الحكومة الاميركية لاسرائيل » على التالي : « ان الولايات المتحدة الاميركية مصممة على الاستمرار في المحافظة على قوة اسرائيل بواسطة امدادها بانواع متطورة من الاعتدة مثل طائرات ف ــ ١٦ ، وتوافق حكومة الولايات المتحدة على اجتماع مبكر لاجراء دراسة مشتركة حول مواد عالية التقنية ، ومتطورة ، تشمل صواريخ « بير شنج » ذات الرؤوس الحربية التقليدية في سبيل اعطاء رد فعال » .

ان هذه الخطوط العريضة للسياسة الاميركية في المنطقة ايتها الاخوات والاخوة تعطي مؤشرا واضحا الى أين تسير تلك السياسة في مناهضتها لمصالح امتنا العربية ، واي اتجاه استراتيجي تسلك في معاداتها لشعبنا وممالاتها لاعدائنا .

ولعلي في هذا العرض السريع لهذه الخطوط العريضة ، اترك لكم مجال المناقشة ، وسبر اغوار تلك السياسة الى ابعاد اكثر تفصيلا في هذه الندوة البناءة .

وفي ختام كلمتي هذه، اكرر شكري لكم ، ولجميع القائمين على هذه الندوة ، متمنيا لكم التوفيق ، والسلام عليكم .

فاروق القدومي
رئيس الدائرة السياسية لمنظمة
التحرير الفلسطينية .

فؤاد مغـــربي

التأثيرات الداخليّة على السّياسة الخارجيّة الاميركيّة نحو العالم العربي

من المفارقات التي تطالع المرء انه في حين تطغى اميركا الى حد كبير على حياة العرب ، يوجد جهل واسع الانتشار لاميركا وتاريخها ومجتمعها وسياستها في جميع انحاء العالم العربي . وعلى حد علمنا ليست ثمة مؤلفات محترمة وموثوقة باللغة العربية حول الولايات المتحدة . وليس ثمة علماء في العالم العربي تمكن تسميتهم بحق خبراء في شؤون المجتمع الاميركي . وانه لأمر يدعو الى السخرية بعض الشيء انه من اصل ألوف الطلبة العرب الذين يتخرجون من المؤسسات الاميركية ، لم يظهر احد الكثير من الاهتمام في دراسة السياسة او الاقتصاد او المجتمع الاميركي . وبالفعل فان الطلبة العرب في كثير من الحالات اسهموا في نشر الاساطير الخطرة حول اميركا ودورها في الشرق الاوسط .

من الاساطير المحيطة بالسياسة الخارجية الاميركية ، ربما كانت الاسطورة الاكثر ثباتا هي الاطروحة القائلة ان اسرائيل والقوى الموالية لاسرائيل في الولايات المتحدة تقرر السياسة الخارجية الاميركية حيال العالم العربي . وترجو هذه المقالة ان تتمكن من تفجير هذه الاسطورة عن طريق تفحص التفاعل الحقيقي للقوى الداخلية في الولايات المتحدة وتأثيرها على رسم السياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط . ان الاطروحة الاساسية لهذه المقالة هي ان قرارات السياسة الخارجية الاميركية تنشأ عن تقويم تقوم به القوى المتنافسة المختلفة لمصالح الولايات المتحدة كقوة عالمية .

أ) مدخل تاريخي : أسطرة السياسة الخارجية الاميركية

للاسطورة مصدر او مصادر . فهي تثبت وتستمر بصورة رئيسية لأنها تخدم غاية بالنسبة للذي ينشرها أو يتلقاها على حد سواء . واسطورة وجود لوبي صهيوني كلي القوة تجد مصدرها في مؤلفات الكثير من اصدقاء العرب الاميركيين ، ومنهم المرسلين والمستشرقين ومستعربي وزارة

الخارجية الاميركية ، وبعض الاكاديميين ، وبعض المتصلين بالمصالح النفطية ، والكثيرين من الذين يعلنون انفسهم خبراء عرب في شؤون اميركا .

ان اعمال المرسلين الاميركيين لاجل العرب يدرسها جوزف غرابيل دراسة جيدة في مؤلفه « الدبلوماسية البروتستانتية في الشرق الادنى »[١] . وفي العشرينات اسهم المرسلون الاميركيون اسهاما نشيطا في تحديد السياسة الخارجية الاميركية نحو العالم العربي . ولكن منذ ذلك الحين ركز النفوذ الصهيوني ونجاحه الأخير في فلسطين الانتباه اكثر من اي وقت مضى على الدور الواضح جدا الذي يلعبه الصهاينة في اميركا والعالم ، في محاولتهم التأثير على سياسات الدول الكبرى نحو الدولة اليهودية .

وفي الآونة الأخيرة برز نقاش يتعلق بسياسة الرئيس هاري ترومان نحو فلسطين . واتهم المؤرخون التعديليون REVISIONIST الاميركيون ترومان بانه كان متأثرا الى حد كبير بالحاجة الى اقتناص الاصوات اليهودية في ولاية نيويورك ، وهي ولاية ذات اهمية رئيسية في انتخابات العام ١٩٤٨ . ورد كلارك كليفورد بان تعقب العوامل الأخرى المختلفة التي اثرت في قرارات سياسة الادارة الاميركية حول فلسطين . ومنذ ذلك الحين تركزت القضية الاساسية بالنسبة للعالم العربي حول مدى الضغط اليهودي على السياسيين الاميركيين . وتكثر النظريات المختلفة وهي تمتد من السخيف المضحك كالفكرة القائلة بأن اليهود قتلوا كندي بالنظر الى تقاربه المرتقب مع عبد الناصر ، الى الرأي نصف المعقول والقائل بان القوى اليهودية قد أرغمت الرئيس كارتر على التراجع عن الحث على اقامة دولة مستقلة للفلسطينيين في الضفة الغربية وغزة .

هذه الاسطورة يشجعها احيانا الرسميون الاميركيون لأنها تطلق يدهم اكثر في التعامل مع المنطقة . فهم يزعمون ، على سبيل المثال ، ان القوى الموالية للصهيونية هي من القوة بحيث لا يسعهم التوجه ضدها او بحيث انه ينبغي عليهم التحرك بمنتهى الحذر . ويشيرون عادة الى ان الاصوات اليهودية في الولايات المتحدة هي اكثر بكثير من الاصوات العربية وان لدى اسرائيل دائرة انتخابية قوية ونشطة تفرض قيودا خطيرة معينة على قدرة الولايات المتحدة على المناورة ازاء النزاع العربي ـ الاسرائيلي .

كما ان الطبيعة المعقدة للنزاع فضلا عن عواقبه التاريخية ، قد اسهمت في المزيد من الأسطرة . مثال ذلك ان الكثيرين من الأفراد في معسكر السلام او على الجناح اليساري في اميركا يتمنعون عن مقاربة قضية الشرق الأوسط . ويجد المرء كتابات مطولة ومدروسة جيدا تفضح تورط اميركا في بلدان مثل التشيلي واندونيسيا ونيكاراغوا والبرازيل والارجنتين وكوريا الجنوبية وغيرها الكثير . ونادرا ما يجد المرء تحليلا مماثلا للتورط الاميركي في الحرب في لبنان ، حيث تذهب المعونة الاميركية مباشرة الى القوى اليمينية ، او للتورط الاميركي في الأردن العام ١٩٧٠ ، او للدعم الاميركي للمستوطنات الاسرائيلية غير القانونية في الاراضي المحتلة . وتمارس الجماعات الموالية لاسرائيل، التي طالما الفت جزءاً من الائتلاف المعادي للحرب الفيتنامية،فضلا عن الائتلاف الموالي للحقوق المدنية ما يشبه الفيتو على النقاش حول شؤون تتعلق بالسياسة الخارجية الاميركية حيال ذلك الجزء من العالم .

لقد أبقي على اسطورة اللوبي الصهيوني المهيمن لأنها مؤاتية ايضا للأنظمة العربية المتعاطفة مع الولايات المتحدة . فهي تمكن هذه الأنظمة من تركيز الانتباه بعيدا عن الغايات الحقيقية التي من اجلها تساندها حكومة الولايات المتحدة عسكريا وسياسيا . وتقدم القوة الكلية المزعومة للوبي الصهيوني ستارا ملائما من الدخان يمكن هذه الأنظمة من تسويغ عجزها عن الضغط على الولايات المتحدة من اجل سياسة من شأنها ان تكبح المغامرات والعدوان الاسرائيلي .

ان تضمينات الأسطورة واضحة بقدر ما هي عديمة الجدوى : ان السياسة الخارجية الاميركية حيال العالم العربي هي في الأساس ودية وكريمة لولا تحريفات القوى الموالية للصهيونية ، وان على العرب التكلم مباشرة الى الشعب الاميركي بلغة يفهمها ، وان على العرب ان يوظفوا بعض الاموال في العلاقات العامة بغية الظهور بمظهر معتدل وحسن ، واخيرا ان المجتمع الاميركي هو سوق للأفكار المتنافسة التي تؤثر في النهاية في اتخاذ قرارات السياسة الخارجية .

ب) اتخاذ القرارات في السياسة الخارجية الاميركية

لعدة اعوام خلت كتب احد اكثر السوسيولوجيين ادراكا في اميركا يقول : « ان الطريقة لفهم قوة النخبة الاميركية لا تكمن فقط في التعرف الى النطاق التاريخي للأحداث ولا في القبول بالادراك الشخصي الذي يتحدث عنه رجال ذوو قرار ظاهري . فوراء امثال هؤلاء الرجال ووراء احداث التاريخ هناك المؤسسات الرئيسية للمجتمع الحديث التي تربط بين الاثنين . ان هيكليات الدولة والشركات والجيش هذه تؤلف وسيلة القوة . وهي بحد ذاتها الآن ذات اهمية لم تضاه قبلا قط في التاريخ البشري، وعند قممها هناك الآن مراكز قيادة المجتمع الحديث التي تقدم لنا المفتاح السوسيولوجي لفهم دور الحلقات العليا في اميركا »(٢) .

وهؤلاء الرجال هم الذين يتخذون القرارات. انهم نتاج عمليات معقدة من الأخذ والعطاء والمساومة والتسوية والخداع والتلاعب . وهذه القرارات توضع موضع التنفيذ عند كل درجة من درجات السلم وهي تشرح وتسوغ وتبرر للشعب . وفي شؤون السياسة الخارجية ، يصف غبرييل كولكو KOLKO هؤلاء الرجال بالطريقة التالية : « ان لم تحقق اوراق البنتاغون اي شيء آخر ، فانها تسجل بشكل حاسم ان الرجال الذين يعملون عند اعلى مستويات الدبلوماسية والقوة العسكرية الاميركيتين يتصفون بحزم ووضوح في الذهن والميل هذه هي سمتهم المميزة الحقيقية . العاطفية المستمرة ، والسذاجة الظاهرية ، والاهتمام بمزاجات الشعب ــ لقد تظاهروا بهذه الصفات ليتلاعبوا عمدا بالرأي العام الجماهيري بغية اجتناب مواجهة فكرية مع ضحاياهم الداخليين يمكنها ، اذا ما وضعت التعميمات جانبا ، ان تفضي الى عواقب سياسية عميقة والى بروز معارضة اميركية يكون لها اساس سياسي ومعنوي لمقاومة توجيه هذا المجتمع »(٣) .

تحت قوة هؤلاء الرجال يكمن توزيع الثروة والموارد في المجتمع الاميركي . ان الفعالية السياسية لهذه الجماعات والأفراد المختلفين تقررها الى حد كبير موارد القوة المتوافرة لديهم . وحول معظم القضايا الرئيسية ينال رجال الأعمال ما يريدون في الكونغرس ولدى رئيس

الجمهورية والمحاكم والبروقراطية . واهداف رجال الأعمال (النمو السريع والارباح والاسواق المأمونة) تصير اهداف الحكومة . ولا يوجد اجماع في اوساط رجال الأعمال حول جميع القضايا . مثال ذلك ان بول سويزي يصف الاختلافات الاقليمية والايديولوجية فضلا عن الاختلافات بين الشركات . الا ان سويزي يحذر من عدم تضخم اعماق هذه الانقسامات : « بامكان الراسماليين ان يتشاجروا بين بعضهم البعض ، وهم يتشاجرون فعلا لتعزيز المصالح الفردية او الجماعية ، ويختلفون حول الطريقة الفضلى لمعالجة المشكلات التي تنشأ عن مركز طبقتهم . لكن الأمر الذي يرجح على جميع هذه الانقسامات هو مصلحتهم المشتركة في حفظ وتعزيز نظام يضمن ثروتهم وامتيازاتهم . »[٤]

ويستنتج غرانت ماكونل في تحليله الكلاسيكي « القوة الخاصة والديموقراطية الاميركية » PRIUATE POWER AND AMERICAN DIPLOMACY[٥] ، ان « جزءا لا يستهان به من الحكومة الاميركية قد اضحى تحت تأثير او سيطرة نخب ضيقة القاعدة ومستقلة ذاتيا الى حد كبير . وهذه النخب لا تعمل بصورة متماسكة مع بعضها البعض حول الكثير من القضايا . انها لا « تحكم » بمعنى قيادة الامة بأسرها . بل على العكس تماما فهي تحتاج الى ان تنتهج سياسة عدم تورط في القضايا الكبرى لشؤون الحكم ، الا حيث تمس مثل هذه القضايا شؤونهم هم الخاصة »[٦] .

تستجيب الحكومة الاميركية للمصالح المنظمة الخاصة . وهذه الاخيرة لا تغير من السياسة العامة فحسب ، بل انها في كثير من الأحيان ترسمها . وتمارس الشركات نفوذا داخليا وفي ما وراء البحار الى حد ان توصياتها كثيرا ما تصير هي السياسة . وكما يشير مايكل بارنتي : « ضمن حكومة تتصف بسلطة مجزاة الى حد كبير ، تشكل (مصالح الشركات) كتلا متماسكة ، وان تكن احيانا متداخلة ، حول المصالح المنتجة الرئيسية مثل النفط والصلب والمصارف والعقاقير والنقل والاسلحة . وهذه الكتل تتألف من بروقراطيين عند جميع المستويات ، ومفوضين منظمين ، وكبار اعضاء مجلس النواب ، والعاملين في اللوبيات LOBBYISTS ، وناشري الصحف ، والنقابات وشركات الاعمال ، ويعملون بكل الاستقلال الذاتي وعدم المسؤولية اللذين تتمتع بهما الولايات الاساسية (Princly states) ضمن السياسة الاميركية »[٧] .

السياسيون الاميركيون ليسوا غير مبالين بالعاطفة الشعبية ، ولكن عندما تثار هذه الاخيرة فانها كثيرا ما تستجيب بصورة رمزية وغير جوهرية . وكما يقول بارنتي ، فان « الاداء الشامل لنظامنا السياسي ... يمكن وصفه على افضل نحو بأنه يعطي حصصا رمزية للعاطفة الشعبية وحصصا جوهرية للمصالح الخاصة القوية »[٨] .

ج) دور الراي العام

يوافق جميع المحللين تقريبا على ان الشعب بوجه عام في الولايات المتحدة يلعب دورا

محدودا جدا في رسم السياسة الخارجية الاميركية . وعلى وجه التعميم ، ينقسم الشعب الى اربع فئات : **(١) الجمهور العام THE MASS PUBLIC** ، ويتألف من نحو ٣٠٪ من مجموع السكان ، وهم اناس لا يعون الا اهم الاحداث في الشؤون الخارجية . **(٢) الجمهور المتنبه THE ATTENTIVE PUBLIC** ، ويتألف من نحو ٤٥٪ من مجموع السكان ، وهم اناس يعون الاحداث الرئيسية ولكنهم ليسوا مطلعين اطلاعا عميقا على اي من القضايا . وتفتقر مواقفهم عادة الى الحدة والتماسك الداخلي . وتميل اراؤهم الى التقلب بسرعة استجابة للاحداث وللمواقف التي يعرب عنها الرسميون . **(٣) قادة الرأي OPINION LEADERS**، ٢٥٪ من السكان على وجه التقريب ، وهم عادة مطلعون على الشؤون الخارجية . ومواقفهم مستقرة الى حد ما ومتماسكة داخليا . **(٤) اصحاب الفعاليات ACTIVISTS** ، نسبة مئوية صغيرة جدا من الفئة الرقم ٣ ، لا تتجاوز ١ ـ ٢٪ ، تتألف من اناس يقدمون المال والوقت للنشاطات السياسية ويوصلون اراءهم الى الرسميين العامين[٩] .

وفي حين ان الشعب بوجه عام لا يقرر السياسة الخارجية الاميركية ، فان الحقيقة هي ان الرأي العام يضع فعلا الحدود التي يمكن لراسمي السياسة الخارجية ان يناوروا ضمنها . وقد تختلف هذه الحدود وفقا للقضية المعنية . وفي بعض الحالات قد تكون لراسمي السياسة الخارجية يد مطلقة لمعالجة قضية لا تثير الجدل او لا علاقة لها بدائرة انتخابية قوية . وفي مثل هذه الحالات نجد ان كون الشعب غير مطلع وغير مهتم في الوقت ذاته يميل الى منح راسمي السياسة امكانيات مختلفة للعمل . الا ان وجود دائرة انتخابية موالية لاسرائيل قوية وتتمتع بمستوى عال نسبيا من الدعم الشعبي يميل ، في حال الشرق الاوسط ، الى تضييق الخيارات المتوفرة لراسمي السياسة . والى ذلك فانه قد يرغمهم على التحرك ببطء وبحذر .

ان المسألة الفلسطينية هي على الارجح اكثر تعقيدا من معظم المسائل المهمة للسياسة الخارجية الاميركية . وعند مستوى الجمهور العام ، لا يعرف معظم الناس الشيء الكثير عنها . فهم قد يعرفون الخطوط الخارجية الغامضة لنزاع يضع العرب ضد الاسرائيليين في مكان ما من الشرق . ولدى معظم هؤلاء الناس انطباع سلبي حول الفلسطينيين ، معتبرينهم « ارهابيين » او « مثيرين للمتاعب » . وبين الجمهور المتنبه ثمة وعي للفلسطينيين اكثر تعقيدا بعض الشيء . ففي حين ان الصورة الغالبة هنا هي سلبية ، فانه يوجد فعلا بعض الوعي للحاجة الى حل البعد الفلسطيني للمشكلة . ومن المحتمل جدا ان يقبل امثال هؤلاء الافراد بتسوية تذهب بعيدا في اتجاه تمكين الفلسطينيين من تحقيق تقرير المصير في تاريخ مقبل . ويميل معظم قادة الرأي الى ان يكونوا مؤيدين لاسرائيل ولكنهم يحددون انفسهم كموالين للاميركيين اكثر من كونهم موالين للاسرائيليين او للعرب .

وبين قادة الرأي في الولايات المتحدة فان الصورة السائدة للفلسطينيين سلبية ولكنها ليست غير مميزة . فهم يقدرون وجهة النظر الاسرائيلية اكثر مما يقدرون وجهة النظر العربية . الا انهم في معظم الحالات مستعدون للاصغاء الى وجهة نظر فلسطينية بشرط ان تكون حسنة الاطلاع ، موثوقة وغير مطروحة بصورة خطابية بلاغية .

بيد ان الشعب الاميركي بوجه عام ليس غير مميز بقدر ما يعتقد معظم الناس . فهناك خطوط خارجية عريضة معينة من التطورات المهمة التي ينبغي على راسمي السياسة ان ينتبهوا اليها . مثال ذلك ان هناك في اعقاب الحرب في الفيتنام تمنعا واسع الانتشار عن خوض حرب اخرى حتى ولو عنى ذلك مد يد العون لاسرائيل . وهكذا في حين ان الشعب الاميركي ما يزال في سواده الاعظم مواليا لاسرائيل ، فان اكثرية كبيرة من الاميركيين تنصح ببقاء الولايات المتحدة خارج نزاع واسع النطاق في الشرق الاوسط . ففي رد على سؤال : « ماذا يجب ان تفعل الولايات المتحدة اذا ما اندلع نزاع واسع النطاق في الشرق الاوسط ؟ » قال ٥٥٪ ان على الولايات المتحدة ان تبقى خارج النزاع ، في حين ان ٩٪ فقط نصحوا بارسال المعونة العسكرية الى اسرائيل وقال ٢٪ فقط ان على الولايات المتحدة ان ترسل قوات[١٠] .

وربما كان الأمر الاكثر كشفا للتغير في الرأي العام الاميركي هو الاستطلاع التالي الذي اعلنه غالوب في ايلول (سبتمبر) ١٩٧٨[١١] :

« اي من الخطط المدرجة على هذه البطاقة تفضلها فيما يتعلق بالفلسطينيين » .

أ) يجب ان تكون لهم دولة مستقلة منفصلة على الضفة الغربية من نهر الاردن في المنطقة التي كانت سابقا للاردن ولكنها الآن محتلة من اسرائيل .

ب) يجب ان تكون لهم على الضفة الغربية دولة ليست مستقلة تماما بل مرتبطة مع الاردن .

ج) يجب ان يستمروا في العيش كما يعيشون الآن في اسرائيل وفي الدول العربية القائمة .

	(أ)	(ب)	(ج)	لا يعرفون
عينة وطنية	٣٢٪	١٩٪	٢٢٪	٢٩٪
الذين يتعاطفون مع اسرائيل	٢٣٪	٢٢٪	٢٦٪	١٩٪

والى ذلك فان اكثرية ساحقة من الاميركيين يعارضون ارسال اسلحة الى اسرائيل (٥٦٪ مقابل ٣١٪ من الذين يؤيدون ارسال اسلحة لها) . وجدير بالملاحظة كذلك ان اكثرية جوهرية تعارض قيام مستوطنات اسرائيلية في الاراضي المحتلة . ويكشف مسح قام به إفريت لاد وسيمور ليبسيت ان اكثرية من اساتذة الجامعات في الولايات المتحدة لا يعتبرون اسرائيل حليفة يجب حمايتها من الدمار . ويعتقد نحو ٦٤٪ ان على الولايات المتحدة ان تنتهج سياسة اكثر انصافا في الشرق الاوسط . ويوافق نصف المجيبين عن الاسئلة على ان الولايات المتحدة يجب ان تمارس ضغطا على اسرائيل لتذعن للمطالب العربية . ويشعر ٥٦٪ ان اسرائيل يجب ان تتخلى عن معظم الاراضي التي احتلتها في العام ١٩٦٧ .ويشعر نحو ٦٤٪ انه يجب ان يسمح للفلسطينيين باقامة دولة منفصلة على الضفة الغربية من نهر الاردن . ويستنتج لاد وليبسيت انه « اذا ما هددت الاحداث السياسية في المستقبل بقاء اسرائيل او ضغطت على الولايات المتحدة لتصير متورطة على نحو مباشر اكثر كمشارك في نزاع الشرق الاوسط ، فان المرء يستطيع ان يتصور حرما جامعيا منقسما حول هذه القضايا انقساما حادا ستبدو معه نزاعات اواخر

الستينات سلمية نسبيا بالمقارنة مع هذه »(١٢) .

وعلى ضوء هذا التقدير لما يحتمل ان يحدث ، يمكن القول بثقة ان راسمي السياسة الاميركية سيفعلون على الارجح كل شيء ممكن لاجتناب حدوث نقاش مفتوح وحاد حول القضايا المتصلة بالسياسة الخارجية الاميركية في الشرق الاوسط . وعلى المرء ايضا الا يقلل من شأن الزيادة المحتملة في المشاعر القوية من اللاسامية او صعودها الى السطح في الولايات المتحدة وهو الأمر الذي قد يهدد بالخطر امن وسلامة الجالية اليهودية الاميركية .

د) الوضع الاجتماعي ـ الاقتصادي

بعد تجريد اميركا من الاساطير المحيطة بها ، فانها تبدو كأي مجتمع صناعي متقدم أخر معقد ، متغاير العناصر ، وقابل للفهم . ومن اجل اغراضنا المحدودة سترسم هذه المقالة موجزا عاما للقوى الاجتماعية والاقتصادية القائمة التي تؤثر في السياسة الخارجية الاميركية . وفي قسم أخر سنتفحص الطرق التي تشارك بها مراكز القوة المختلفة هذه في رسم السياسة الخارجية الاميركية .

في الآونة الأخيرة برز فارق عام واحد في الأبحاث حول العوامل الداخلية في السياسة الخارجية الاميركية . وهذه الفكرة تمعن النظر في الفوارق بين الشركات المتعددة الجنسيات او « الثلاثية » « TRILATERALISTS » من جهة ، والشركات الداخلية من جهة اخرى .

أسس اللجنة الثلاثية TRILATERAL COMMISSION في اوائل العام ١٩٧٣ كل من ديفد روكفلر وزبيغنيو بريزنسكي . ويصف روبرت مانينغ الدافع الذي ادى الى نشوء هذه اللجنة على النحو التالي :

المبادرة للجنة جاءت كليا من روكفلر . ووفقا لما يقوله جورج فرانكلين ، السكرتير التنفيذي للجنة ، كان روكفلر قد « صار قلقا حول العلاقات المتدهورة بين الولايات المتحدة واوروبا واليابان » . وشرح فرانكلين ان روكفلر اخذ يطرح افكاره على جمعية نخبة اخرى : « ... لدى جماعة بلدربرغ THE BILDERBERG GROUP ـ وهي جماعة انكلو ـ اميركية ممتازة جدا كانت تجتمع منذ وقت بعيد ـ قال مايك بلومنتال انه يعتقد ان الأمور هي في وضع خطير للغاية في العالم ـ اوليس في وسع جماعة خاصة ما ان تفعل شيئا اكثر حول هذا الأمر ؟(١٣)

يجب وضع نشوء اللجنة الثلاثية في سياقها التاريخي الصحيح . ويحدد هذا السياق عاملان رئيسيان : الاتكال المتبادل المتزايد في النشاط الاقتصادي بين الأمم الغربية . ويتضح هذا على نحو تام بنشوء رؤوس الاموال الدولية خلال العقدين الماضيين من الزمن ، وبالاهمية المتزايدة للمصارف الاميركية في هذا التمويل الضخم لرؤوس الأموال . والجدول التالي يوضح الزيادة الحادة في نشاطات المصارف التجارية الاميركية في ما وراء البحار(١٤) :

النشاطات الدولية للمصارف التجارية الاميركية

(نهاية اعوام مختارة)

	١٩٦٠	١٩٧٠	١٩٧٤
	ببلايين الدولارات		
عدد المصارف الاميركية التي لها فروع اجنبية	٨	٧٩	١٢٩
عدد الفروع الاجنبية	١٣١	٥٣٦	٧٣٧
الموجودات (ببلايين الدولارات) لدى الفروع في ما وراء البحار	٣٢٥	٥٢٣٦	١٥٢٥
الموجودات الاجنبية كنسبة من مجموع الموجودات	٣٢٠	١٠٢٩	١٧٢٧

المصادر :

J. BLACKMAN AND E. BLOCK, EDS., **MULTINATIONAL CORPORATIONS, TRADE, AND THE DOLLAR,** NEW YORK, 1974, AND ROBERT Z. ALIBER, «INTERNATIONAL BANKING: GROWTH AND REGULATION,» **COLUMBIA JOURNAL OF WORLD BUSINESS,** WINTER 1975.

يعترض الدوليون INTERNATIONALISTS على التصرفات والحواجز التجارية . وهم مهتمون بصورة رئيسية بالعثور على « الموضع الأكثر كفاءة وربحا وانتاجا وملاءمة لاستثمارهم »(١٥) . وفي الولايات المتحدة ركز هؤلاء الدوليون عملهم النظري في « مؤسسة بروكينغز » و « المجلس حول العلاقات الخارجية » . وبوصول كارتر الى السلطة ، صار لديهم حليف قوي في البيت الأبيض .

العامل الثاني الذي يجب ان يحدد سياق نشوء اللجنة الثلاثية هو انهيار « نظام » النقد الدولي . وبحلول العام ١٩٧٠ كان قد بوشر في البحث الجدي لاصلاح هذا النظام . وقد اثارت « السياسة الاقتصادية الجديدة » التي انتهجها نيكسون ومحاولته ايقاف انهيار النظام عداوة حلفاء اميركا الاوروبيين فضلا عن الدوليين . وقد اعتبرت سياسة نيكسون في ذلك الحين كمحاولة من طرف واحد لاعادة تثبيت السيطرة الاقتصادية الاميركية على اوروبا واليابان . ولذا كانت اللجنة الثلاثية جواب الدوليين عن المشكلات الخطيرة التي تواجه التحالف الاوروبي الغربي . وقد حددت « وحدة المهمة السياسية » التابعة للجنة الهدف على النحو التالي : « ان الهدف الرئيسي هو جعل العالم آمنا للاتكال المتبادل ، عن طريق حماية الفوائد التي يقدمها لكل بلد ضد التهديدات الخارجية والداخلية التي تبرز باستمرار من هؤلاء المستعدين لدفع ثمن من اجل المزيد من الحكم الذاتي الوطني »(١٦) .

ان تقرير مؤسسة بروكينغز، « نحو سلام في الشرق الاوسط » (تقرير بروكينغز ،

١٩٧٥) هو احد الأمثلة على مثل هذا التحليل . ففي معرض تحديد اهداف الولايات المتحدة ، يشدد التقرير على ان « للولايات المتحدة مصلحة قوية في امن واستقلال وسلامة اسرائيل والدول العربية » ، وان للولايات المتحدة « مصلحة كبيرة ونامية في التجارة مع المنطقة بأسرها والاستثمار فيها والمواصلات عبرها » ، واخيرا ان « المحاولات التي تقوم بها الولايات المتحدة لاقامة استقرار عالمي اعظم للمساعدة في ادارة الاتكال المتبادل الاقتصادي النامي بين الامم بمزيد من الفعالية ستحبط على الارجح طالما بدا النزاع والمواجهة محتملين في هذه المنطقة حيث يلتقي الكثير من المصالح القومية » .

وعلى المرء ان يلاحظ ايضا ان كتابات الاستاذ بريزنسكي في مجلة فورين بوليسي قبل ان يصير مستشارا حول الأمن القومي تعكس كذلك وجهة النظر العامة هذه . والى ذلك فان مقالة السيد جورج بول BALL الشهيرة في مجلة فورين بوليسي حول « كيف ننقذ اسرائيل على الرغم منها » ، تنسجم ايضا مع وجهة النظر هذه .

غير ان كثيرين آخرين في المجتمع الاميركي لا يشاركون بالضرورة في هذا المنظار الدولي . فالذين يتكلمون بالنيابة عن مؤسسات الاعمال الداخلية كالمركب العسكري ـ الصناعي ، وشركة يو إس ستيل او تكستايلز يبدون معادين لوجهة النظر هذه . مثال ذلك ان موازنة الدفاع التي اقترحها السيد كارتر للعام ١٩٨٠ تمثل القوة المتزايدة لائتلاف مختلف في السياسة الاميركية .

في اعقاب الحرب العالمية الثانية كان يسيطر على السياسة الخارجية الاميركية ائتلاف يؤيد التوسع في الداخل والخارج على السواء . وكان بين اعضاء هذا الائتلاف نقابات العمال والاقليات والجماعات الاثنية المختلفة وسكان المدن وبعض اقسام الشركات الكبيرة وبعض الدوليين وبعض دعاة الحرب الباردة . فاوساط رجال الاعمال ارادت التوسع الاقتصادي فيما وراء البحار . والدوليون الليبراليون جادلوا من اجل نظام عالمي مستقر تقوده اميركا غير منعزلة . والشعب اراد ببساطة ان يتجنب نشوب حربٍ اخرى . وحفز توسيع دور اميركا الدولي الاقتصاد الداخلي . وكانت هذه احدى الحلقات الحاسمة التي ربطت معا نسيجا معقدا من المعونات الخارجية والوجود العسكري الاميركي والتوسع الاقتصادي الاميركي ومناهضة الشيوعية .

وكانت مناهضة الشيوعية بمثابة اللصاق الذي ربط التوسع الدولي بالدعم الاميركي الداخلي . ولكن بحلول اواخر الستينات واوائل السبعينات ادى معدل ابطأ للنمو الاقتصادي الى تآكل الأساس المنطقي لهذا الائتلاف . وازداد هذا التآكل حدة بعض الشيء نتيجة للهزيمة الاميركية في الفيتنام ، ولبروز اوروبا واليابان كمنافستين معقولتين ، وللزيادة الدراماتيكية في قوة الاتحاد السوفياتي .

ويحاول الرئيس كارتر حاليا ان يشكل ائتلافا جديدا بغية تدعيم مركزه السياسي الضعيف . ويشمل هذا الائتلاف الطبقة الوسطى الساخطة التي قد تفيد من تقليص النفقات العامة . وفي الوقت ذاته يواصل بنشاط تقديم اعانات مالية حكومية للشركات عن طريق الفوائد الضريبية الارتدادية ، وتحرير الصناعة ، بما فيها النفط ، من الانظمة وتقديم معونات حكومية

كبيرة لتشجيع الصادرات . وعلى الصعيد الدولي فان السبيل نفسه يعني فتح الصين امام الصادرات الامريكية ، وحماية الامدادات المعدنية الاستراتيجية في جنوبي افريقيا ، والضغط على اوروبا واليابان لتوسيع اقتصاداتهما بسرعة اكبر بغية استيعاب المزيد من المنتجات الاميركية ، وبرنامج مبيعات اسلحة نشط الى الدول الاجنبية . وباختصار فان الزيادة في النفقات الدفاعية تهدف الى ربط الجناح اليميني من الحزب الديموقراطي والطبقة الوسطى والمركب العسكري ـ الصناعي الى اهداف السيد كارتر الانتخابية والسياسية .

وبصورة جوهرية تمكن ترجمة العلاقة بين النفقات الدفاعية والاقتصاد الداخلي الى دولارات فعلية لجماعات مختلفة . والى حد كبير يعزى نمو ولايات كاليفورنيا وواشنطن وكولورادو واريزونا الى الانفاق الدفاعي(١٧) . وصناعة الطائرات قائمة في ولايات جورجيا وكانساس وواشنطن وميسوري . وتصنع الصواريخ في كولورادو . وتتخصص مايــن وفيرجينيا بصناعة السفن . وتقوم شركة بوينغ في ولايتي كانساس وواشنطن ، ولوكهيد في جورجيا ، ومكدونيل ـ دوغلاس في ميسوري ، ويونايتد ايركرافت وجنرال داياميكس في كونيتيكت(١٨) . ويشير ادام يارمولنسكي الى تأثير النفقات الدفاعية على الاقتصاد : « كان للنفقات الدفاعية تأثير مزدوج على تطور القوة العاملة للاقتصاد الاميركية . فهي تمثل مصدرا رئيسيا للطلب وللعرض في آن معا ، وخصوصا للطاقة البشرية المتخصصة . في العام ١٩٦٧ كان النشاط المنبثق عن الدفاع مسؤولا عن ٧,٥٠٠,٠٠٠ عامل، تمثل ١٠٪ من مجموع العمالة الاميركية . كان اكثر من النصف بقليل مستخدمين مباشرة لدى الحكومة الاتحادية ، إما في القوات المسلحة او كمستخدمين مدنيين في المؤسسة العسكرية . وكانت البقية في العمالة المنبثقة عن الدفاع في الصناعة الخاصة ، يعملون لدى ملتزمي الدفاع الرئيسيين او الملتزمين الفرعيين ، او الشركات التي تزود الملتزمين بالمواد والخدمات »(١٩) .

والملاحظ ان الشيوخ والنواب الممثلين لولايات تتأثر تأثيرا قويا بالنفقات الدفاعية كثيرا ما يؤيدون زيادة في موازنة الدفاع . ويجادل امثال هنري جاكسون من ولاية واشنطن من اجل موازنة دفاع عالية بالنظر الى ما يعنيه هذا للاقتصاد الأساسي للولاية التي يمثلون . وكثيرا ما تترجم الحجة الى خط من خطوط السياسة الخارجية معاد للاتحاد السوفياتي ومؤيد جدا لاسرائيل التي تعتبر احدى الحليفات الاكثر استقرارا ودولة واقية ضد النفوذ السوفياتي في الشرق الادنى . ومن الممتع ان نلاحظ انه يسمح الآن للشركات الاسرائيلية ان تقدم عطاءات لالتزامات تتعلق بالنفقات الدفاعية الاميركية . وقد تمثل هذه خطوة اخرى في عملية دمج اسرائيل اكثر فاكثر في البنية الاقتصادية والسياسية للولايات المتحدة .

ويمثل السناتور جاكسون وغيره من الشيوخ ، وبينهم السيد باتريك موينيهان ، السناتور من ولاية نيويورك ، ائتلافا محافظا جديدا في السياسة الاميركية . وهذا الائتلاف ينشر آراءه بين الشعب عن طريق مجلتين ، هما كومنتري ، وهي مجلة اللجنة اليهودية الاميركية ، وبابليك انترست . وتتألف هذه الجماعة من رجال فكر ، وسياسة قد يكونون ليبراليين نوعا ما حول القضايا الداخلية ولكنهم محافظون حول القضايا الخارجية . وهم يجادلون من اجل سياسة متشددة نحو الاتحاد السوفياتي ومن اجل زيادة في القدرة الدفاعية الاميركية . كما انهم

يجادلون من اجل دعم غير مشروط لاسرائيل التي تعتبر حليفا طبيعيا ، مرتبطا ارتباطا عضويا بالولايات المتحدة . ويحثون على زيادات في شحنات الاسلحة الاميركية الى اسرائيل لتمكينها من حماية المصالح الاميركية في المنطقة . وفي اعقاب الثورة الايرانية جادلت هذه الجماعة بان اسرائيل هي الحليف الوحيد الموثوق به للولايات المتحدة وبانه لا ينبغي الضغط عليها من اجل تقديم اية تنازلات قد تهدد امنها بالخطر .

ومع هذا تبقى حقيقة ان جماعات معينة مثل رؤساء الاركان المشتركين فضلا عن آخرين ضمن الاوساط الدفاعية قد حذرت احيانا من مغبة تقديم الكثير من المعونة لاسرائيل . ومن حين لآخر يجادل الجنرال براون من رؤساء الاركان المشتركين وغيره بان المعونة العسكرية الضخمة لاسرائيل تبقي دفاعات اميركا مكشوفة وتخفض قدرة حكومة الولايات المتحدة على الضغط على اسرائيل لجعلها تتبنى سياسات في مصلحة الولايات المتحدة[٢٠] . وبكلام آخر فانه من غير المحتمل ان تتحمل جماعات ضمن المؤسسة الدفاعية استنزافا لاحتياطيات الولايات المتحدة او سياسة مساعدة ضخمة لاسرائيل اذا ما هددت مثل هذه السياسة مصالحها الثابتة في الولايات المتحدة او بدأت في تفتيت موازناتها .

في العهد اللاحق للحرب الفيتنامية قد يكون تمنع اميركا عن اللجوء الى التدخل العسكري قد اشرف على الانتهاء . ويشير مسح اخير اجرته وكالة الاستخبارات المركزية الاميركية الى ان الولايات المتحدة هي القوة العسكرية الرقم ١ في العالم[٢١] . ولذلك فان على المخططين العسكريين الاميركيين الا يقرروا « عرض او عدم عرض الاسطول » ، ولكن تحت اية ظروف يجب عرضه ، وبأية تأكيدات بان اهداف حكومة الولايات المتحدة ستلبى . وتقوم دراسة اخيرة اجراها لمؤسسة بروكينغز[٢٢] كل من باري بليشمان وستيفن كابلان بعنوان « قوة بلا حرب : القوات المسلحة الاميركية كاداة سياسية » (واشنطن العاصمة : مؤسسة بروكينغز ــ ١٩٧٨) ، بتفحص ٢١٥ حادثا سعت فيها الولايات المتحدة الى تحقيق هدف في العالم عن طريق التهديد باستخدام قوتها العسكرية . والاستنتاج الرئيسي للدراسة هو ان « التهديدات الاميركية باستخدام القوة العسكرية لها صلة بالتطورات السياسية الداخلية اكثر مما لها صلة بالتهديدات الفعلية للامن القومي للولايات المتحدة »[٢٣] . ويتوقع معظم المحللين ، الذين ادهشتهم موازنة الدفاع الجديدة ، تجديد دورة الاشتراك الفعلي في الحروب من قبل حكومة الولايات المتحدة . وهكذا يختم ألان وولف تحليله للدراسة بالطريقة التالية : « ان جميع العلامات موجودة : فالديمقراطيون في السلطة ، وشعبية كارتر كانت في ازدياد ، وثمة عودة الى قيم الخمسينات ، والجناح اليميني آخذ في النمو . وفي ظل هذه الظروف يستطيع المرء ان يتكهن بانه سيصار الى العثور بصورة اكثر تكرارا على حوادث دولية لتسويغ التهديدات الاميركية باستخدام القوة . ومهما كانت قيمتها العسكرية المشكوك بها فان جولة جديدة من الحروب الاميركية تبدو مؤكدة ، الا اذا تغير الوضع السياسي في الداخل »[٢٤] . ومع استعداد السادات لتقديم خدمات جيشه ومع استعداد اسرائيل لتقديم نفس الخدمات ، يبدو من المرجح ان امثال هؤلاء الوكلاء قد يستخدمون بصورة فعالة اكثر من تدخل الحكومة الاميركية الفعلي . وتبدو منطقة الخليج بؤرة اهتمام اميركي متزايد وقد تضحي منطقة تدخل عسكري اميركي .

هـ) دور الكونغرس

يعكس كونغرس الولايات المتحدة مقتطفا نموذجيا للمجتمع الاميركي . ومعظم اعضاء الكونغرس في هم كثير من الاحيان غير مطلعين حسنا على قضايا السياسية الخارجية، الا اذا كان قد مضى على وجودهم في الكونغرس فترة من الوقت وعملوا في بعض اللجان التي تعالج الشؤون الدولية . وليس ثمة شك ، اذن ، في ان الكونغرس يعكس الشعور العام السائد بالعطف على اسرائيل . وحول قضايا الشرق الاوسط ، يتبع الكونغرس عادة الهيئة التنفيذية ونادرا ما يشرع في عمل اي شيء قد يمس المشكلة باستثناء حث رئيس الجمهورية على دعم اسرائيل اكثر فاكثر .

ويعزو معظم المحللين العواطف الموالية لاسرائيل بين اعضاء الكونغرس الى مجموعة منوعة من العوامل : تأثير الاصوات اليهودية واموال الحملات الانتخابية في دوائرهم ، وعدم وجود اية قوة موازية في الدائرة ، والثمن الباهظ لاتخاذ موقف موال للعرب ، واخيرا مطامح رئيس الجمهورية .

ويشير روبرت ترايس ، في معرض تحليله لمستوى الدعم لاسرائيل في مجلس شيوخ الولايات المتحدة بين العام ١٩٧٠ والعام ١٩٧٣ ، الى انه « من اصل مجموع الاصوات الـ ٥٥١ التي ادلي بها في عمليات التصويت السبع التي اجريت بنداء اسماء الحضور ، يمكن اعتبار ٤٦٣ (٨٤٪) مؤيدة لاسرائيل ، في حين يمكن اعتبار ٨٨ (١٦٪) فقط غير مؤيدة »(٢٥) ويؤكد ترايس ، الى ذلك ، انه ليس ثمة فرق بين الديمقراطيين والجمهوريين في الدعم الفعلي لاسرائيل . ويعتبر ترايس ان التفضيلات الايديولوجية للشيوخ ، ومدى تأثير الاصوات اليهودية في دوائرهم ، او كمية الاموال التي يتلقونها من المنظمات اليهودية ، انما هي عوامل مقررة ثانوية وليست حاسمة تماما لسجل الشيوخ في التصويت حول القضية . ويشير الى ان مجموعة متنوعة من الاسباب تميل الى تقرير الاصوات ويحدد بضعة اسباب غير عادية مثل تأثير اعوان الشيخ الذين يعطفون عادة على اسرائيل . الا ان عضو الكونغرس يدعم اسرائيل بالدرجة الاولى لأنه بفعله ذلك انما يكون ضمن الاتجاه السائد للرأي العام في دائرته .

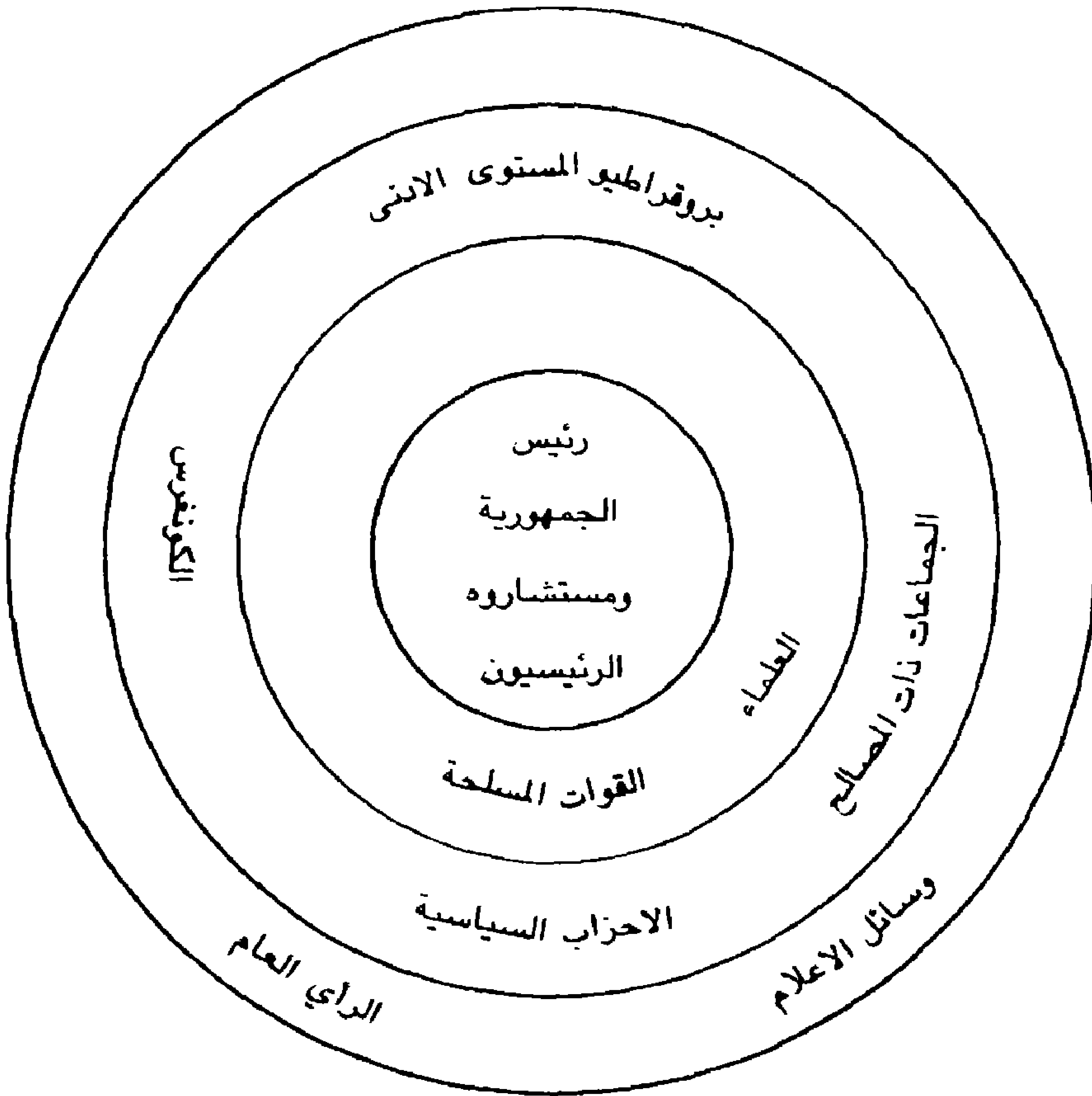
ويعكس كونغرس الولايات المتحدة بوجه عام المقتطف النموذجي للمجتمع الاميركي . ولذلك فان للرأي العام تأثيرا ، بمعنى انه يحدد اطر السلوك السياسي للعضو . وفي معظم الدوائر كثيرا ما تفصح جماعات صغيرة حسنة التنظيم عن عطفها الواضح على اسرائيل . ويكسب عضو الكونغرس الشيء الكثير بمجاراته رأي الاتجاه السائد ويخسر الشيء الكثير بوقوفه ضده .

وفي اللجان المختلفة ، التي يتم فيها اتخاذ قرارات السياسة الفعلية ، كثيرا ما يتعرض عضو الكونغرس لهجمات العاملين في اللوبيات والضغط الحكومي . وكثيرا ما تكون لجنة مثل لجنة العلاقات الخارجية التابعة لمجلس الشيوخ منبرا للمرشحين الطامحين الى رئاسة الجمهورية الذين لا يرغبون في استعداء العناصر القوية . ومع هذا فان الضغط الاكثر حسما على هؤلاء الشيوخ يأتي من الحكومة التي ترسل ممثلين للادلاء بشهاداتهم وتقديم بيانات

للشيوخ . ومعظم هؤلاء الشيوخ يعكسون في كثير من الاحيان المصالح العالمية الامبريالية للولايات المتحدة او للقوى التي يميلون الى تمثيلها .

وبصورة جوهرية يلعب الكونغرس دورا اقل اهمية من دور الهيئة التنفيذية في رسم السياسة الخارجية الاميركية . فرئيس الجمهورية يحدد نبرة واتجاه السياسة الخارجية الاميركية . كما انه بممارسته مبادرته لا يبقي للكونغرس اي خيار سوى ان يتبع ما بداه هو . واخيرا يوجد لدى رئيس الجمهورية مجموعة من الادوات الرسمية وغير الرسمية التي تمكنه من استعمال امتيازاته . ويمثل الرسم البياني التالي تفوق رئيس الجمهورية ومستشاريه(٢٦) :

الدوائر المتراكزة للسلطة
في اتخاذ قرارات السياسة الخارجية



المصدر : جون سبانيير واريك اوسلانر ،

HOW AMERICAN POLICY IS MADE (NEW YORK: PRAEGER, 1974) P. 55.

و) اليهود في السياسة الاميركية

يروي ستيفن ايزاكس(٢٧) الحكاية التالية في مؤلفه الهام « اليهود في السياسة الخارجية » JEWSIN AMERICAN POLITICS. ففي الخامس من كانون الثاني (يناير) ١٩٧٠ اجتمع جورج مكغوفرن بجماعة مهمة من الذين يتبرعون تقليديا بمبالغ « كبيرة من المال » لمرشحي الحزب الديمقراطي . ورتب الاجتماع هنري كيملمان ، وهو مليونير من جزر فيرجن كان قد التقى بمكغوفرن في العام ١٩٦٧ . وقد دعا لورنس تيش ، رئيس مجلس ادارة لوز LOWES اصدقاءه وبينهم عمالقة ماليين امثال الفرد ب . سلامر رئيس كيزر – روث ، وموريس لفينسون رئيس اسوشييتد برواكتس ، وبريستون ر . تيش شقيق لورنس وهو رئيس شركة تملك ذا توباكو ريجنسي (التي تسيطر على دور للسينما وعقارات ولوريلارد ، الى جانب الفنادق) ، وروبرت برنستين رئيس دار النشر راندوم هاوس ، وصول شتاينبرغ رئيس مجلس ادارة لياسكو وهي احدى الشركات المادرة التي تؤجر الكومبيوترات ، وآرثر كوهن رئيس مجلس ادارة آرلين ريالتي ، ور . بيتر شتراوس وهو احد اعضاء العائلة التي تملك المتاجر الكبيرة ماسيز ورئيس شتراوس كوميونيكيشنز ، وميشولام ريكليس رئيس مجلس ادارة رابين – اميركان كوربوريشن (انترناشنال بليتيكس ، بي في دي ، شنلي اندستريز) .

ولم يصب مكغوفرن النجاح امام هذه الجماعة . فعندما سئل عن موقفه من اسرائيل ، أجاب ان الأمل الوحيد لسلام عادل ودائم لا بد من التوصل اليه عن طريق الامم المتحدة . ولم يكن مكفوفرن يدري ان الامم المتحدة شيء بغيض بالنسبة الى الصهاينة والاسرائيليين .

ويزعم ستيفن ايزاكس ان المتبرعين اليهود « يقدمون اكثر من نصف الهبات الكبيرة للحملات الانتخابية الديمقراطية القومية » . وفي العام ١٩٧٢ ذهبت معظم هذه الأموال الى هيوبرت هامفري وفيما بعد الى الحملة الانتخابية الجمهورية واللجنة العاملة على اعادة انتخاب السيد نيكسون . ويستشهد ايزاكس بقول احد الاستراتيجيين السياسيين : « لا تستطيع ان تأمل في الوصول الى اي مركز مهم في السياسة القومية ، اذا كنت ديمقراطيا ، بلا اموال يهودية » .

وعلى نطاق قومي نجد ان اليهود هم الجماعة الاكثر نشاطا في السياسة الاميركية . انهم يؤلفون نحو ٣٪ من السكان ومع هذا يدلون بأكثر من ٤٪ من الاصوات . وفي ولاية نيويورك ، مثلا ، يمثل اليهود نحو ١٤٪ من السكان ويدلون بما بين ١٦٪ و ٢٠٪ من مجموع الاصوات . ويدلي اليهود بصوت واحد من كل اربعة اصوات في الانتخابات التمهيدية للحزب الديمقراطي على صعيد الولاية كلها (حيث يتم انتخاب مرشحي الحزب) وذلك الى حد كبير بالنظر الى نشاطهم في السياسة والى اللامبالاة النسبية لجماعات اخرى (في بعض الانتخابات المحلية ، قد يقترع ٢٧٪ – ٣٠٪ على وجه التقريب ، وفي الانتخابات القومية لا يزيد عدد المقترعين على ٥٥٪) . وبوجه عام فان نسبة مئوية صغيرة جدا من الناس هم ديمقراطيون او جمهوريون نشطون . ومع هذا فان نحو ٢٠٪ من الذين يعملون بنشاط في الحزب الديمقراطي هم يهود . وكما يشير ايزاكس : « في اية مدينة حيث يقيم اي عدد كبير من اليهود ، يحتمل ان يكونوا ، اكثر نشاطا في عملية السياسة من اعضاء اية جماعة اخرى » .

في العام ١٩٧٢ كان لكل مرشح لرئاسة الجمهورية ، باستثناء جورج والاس ، معاون يهودي رئيسي واحد في حاشيته . فان ماسكي كان لديه بيرل برنارد ، وجاكسون كان يدير حملته بن واتنبرغ ، وهامفري كان يدير حملته ماكس كومبلمان ، وماكغوفرن كان لديه فران مانكيفيتش .

وينشأ مصدر كل هذه الطاقة السياسية عن التأليف الاجتماعي ـ الاقتصادي لليهود في المجتمع الاميركي . فهم في اكثريتهم الساحقة من الطبقة الوسطى ، ويشكلون الجماعة الأكثر بحبوحة في المجتمع الاميركي . ويقدمون نحو ٢٠٪ من محامي الامة ، ويلتحق نحو ٨٠٪ من جميع الشبان والشابات اليهود بالجامعات ويصيرون من اصحاب المهن .

وفي حقول اخرى من الشؤون العامة كوسائل الاعلام، يحدث ان يكون الكثيرون من الشخصيات الشهيرة يهودا ـ ولتر ليجان ، آرثر كروك ، ديفد لورنس ، تيودور وايت ، جوزف كرافت ، هيرب بلوك ، ديفد برودر ، اليزابيت درو ، ديفد هالبرستام ، سيمور هيرش ، ساندر فانوكور ، دانيال شور ، ماكس ليرنر ، وآخرين . وتطورت جميع الشبكات التلفزيونية التجارية الثلاث تحت قيادة يهود لامعين ـ الجنرال ديفد سارنوف من أر سي إي (إن بي سي) ، وليم بيلي (سي بي إس) ، وليونارد غولدسون (إن بي سي) .

ومن الصعب تعقب تحرك الاموال . يقول ايزاكس ان « المسألة التي يميل اصحاب الفعاليات اليهود الى تجنب الحديث عنها هي المنطقة المتعلقة بالأموال اليهودية » . ومع هذا فمن المعروف ان التبرعات كثيرا ما تذهب الى الديمقراطيين والجمهوريين على السواء . في العام ١٩٧٤ ، نشرت (ذي ناشنال جويش مونثلي) ، التي تصدرها بناي بريت ، مقالة بقلم فرانكلين سيبلي ، وهو احد معاوني رجال الكونغرس ، يلفت فيها الانتباه الى اصدقاء اليهود واعدائهم الذين يخوضون المعركة الانتخابية لاعادة انتخابهم . واشتملت قائمة الاصدقاء على بيرتش باي BAYH وفرانك تشورتش والان كرانستون وروبرت بول وطوماس ايغلتون ودانيال اينويي وورن ماغنوسون ور . باكوود ورتشارد شوايكر وادلاي ستيفنسون الثالث . واشتملت قائمة الاعداء على فولبرايت وهنري بلمون وغيلورد نلسون .

ليس ثمة شك في ان الجالية اليهودية الاميركية تلعب دورا نشطا في التأثير على السياسة الخارجية الاميركية نحو الشرق الاوسط . لكن نجاحها لا يعود الى اية مؤامرة او حتى الى مراكز نفوذها في المؤسسات المختلفة في اميركا ؛ وهي الى حد كبير مؤيدة للسياسة الخارجية الاميركية نحو الشرق الاوسط . ولو كانت السياسة الخارجية الاميركية معارضة لاسرائيل لتقلصت سلطة هذه الدائرة الانتخابية الى حد كبير . وينشأ مصدر آخر للقوة عن كون الكثيرين من اليهود منهمكين في اكثر من مجرد ممارسة الضغط بالنيابة عن اسرائيل . فهم يشاركون بنشاط في كل وجه من وجوه المجتمع الاميركي ، وبذلك يسهمون بطريقة جازمة في عملية تحديد المشكلات واقتراح حلول لها . واسهامهم ، كجماعة ، في قضايا اخرى وحقول نشاط اخرى كثيرا ما يكون متفوقا على اسهام اية جماعة اخرى . وفي مجتمع حيث النشاط السياسي الفعال محدود جدا وحيث الملايين من الناس يقصرون اسهامهم السياسي ببساطة على فعل الاقتراع ، كان في مقدور اليهود الاميركيين ان يملأوا الكثير من الفجوات للاسهام بطريقة غير اعتيادية في حياة

الولايات المتحدة . ولا يمكن بسهولة تحطيم الاجماع الذي خلقوه حول اسرائيل بين الشعب الاميركي ، بل هو جوهري بالنسبة لهذه الجالية وبالنسبة الى امتدادها في ما وراء البحار .

يؤلف اللوبي الموالي لاسرائيل جماعة فيتو في السياسة الاميركية . ويسمح لقضايا معينة بان تصعد الى السطح وبان تناقش . ويصار الى اغراق قضايا اخرى . وعلى راسمي السياسة ان ينتبهوا الى هذه الجماعة خصوصا في الاوقات التي تكون فيها مسائل الشرق الاوسط واضحة جدا . وخلال الاوقات « العادية » يصار الى حشد التأييد الضروري عن طريق وسائل مختلفة على مستوى الجمهور العادي ولدى الكونغرس . ولا تستطيع جماعة فيتو ان تمنع تنفيذ احدى السياسات . كما لا تستطيع ان تمنع رئيس الجمهورية الاميركية من التكلم عن القضايا . بل ان جماعة الفيتو تفرض حدودا على ما يقال ويفعل وفوق كل شيء ترغم السياسي على ان يحسب حسابا لقوتها .

ز) دور وسائل الاعلام

اضحت وسائل الاعلام الالكترونية والمطبوعة في الولايات المتحدة مؤسسات كبرى ، تكاد تكون في مثل قوة الحكومة في تكوين المواقف والمفاهيم فضلا عن توجيه السياسة العامة . ويتوقف الكثير من الصحف الاصغر حجما عن الصدور صارت الصحف الرئيسية كالنيويورك تايمز والواشنطن بوست واللوس انجيلوس تايمز والوول ستريت جورنال مؤسسات كبرى في المجتمع الاميركي . وبصورة يومية يكون لدى كل مكتب حكومي عادة نسخة من التايمز ومن البوست . وكثيرا ما تحدد المقالات الرئيسية نبرة النقاش على الصعيد العام وفي الكونغرس وفي المكاتب الحكومية .

وتشير معظم الدراسات التي تتناول الصحف الاميركية الرئيسية الاميركية الى انحيازها الواضح الموالي لاسرائيل . وتصاب صورة العرب وخصوصا الفلسطينيين بقدر كبير من التشويه . بيد انه كانت هناك تحسينات ملحوظة خلال الاعوام الثلاثة الماضية في تغطية الشرق الاوسط في الصحف الاميركية . فالنيويورك تايمز مثلا خصصت سلسلة من المقالات للتحدث عن الفلسطينيين ويتحول الاميركيون العرب الآن بصورة متزايدة الى موضوع للتحقيقات الصحفية ،ومـــع هـــذا فمن المهم ان نلاحظ ان وسائل الاعلام في معظم الحالات تستوحي ما يتعين عليها ان تفعله من الحكومة الاميركية . وليست ثمة مراقبة او رقابة ، الا ان هناك اتفاقات غير مكتوبة وتفاهمات واضحة .

وقد كانت الصحافة الاميركية متمنعة الى اقصى حد عن التورط في تحقيقات صحافية سابرة لاغوار مشكلات الشرق الاوسط من النوع الذي قامت به حول الفيتنام . وهي نادرا ما تثير الاسئلة حول اتجاه السياسة الخارجية الاميركية نحو تلك الجزء من العالم . وتميل اكثر نحو مجاراة وشرح وتسويغ مواقف الحكومة من قضايا الشرق الاوسط . ولكن مما لا ريب فيه ان ثمة استعدادا متزايدا للتحقيق في شؤون ربما كانت اثارت في الماضي غضب العناصر الموالية لاسرائيل . وعلى الرغم من هذا الانفتاح الجديد تبقى حقيقة انه لم يتم قط تحطيم الاجماع حول الشؤون المتعلقة بالشرق الاوسط ، وما تزال المحرمات حول طبع مواد انتقائية معينة تتعلق باسرائيل قائمة الى حد كبير . وآخر محاولة قامت بها وزارة الخارجية الاميركية للاشارة الى ان

اسرائيل « قد تكون منهمكة في تعذيب منظم » قوبلت بوابل من الانكار وبمحاولات متطرفة للتلطيف والحذر .

خلاصة واستنتاجات

القرارات في المجتمع الاميركي تتخذها نخبة تستمد سلطتها من المؤسسات التي تقودها ومن قدرتها على ضبط الموارد وتوزيع الثروة في المجتمع . ويستجيب الرسميون للمصالح الخاصة المنظمة او للجماعات التي تملك سلطة اقتصادية . ويصير الكثير من هذه الجماعات منظورا في بعض الاحيان عندما تصير القضايا التي تهمها بارزة . وفي احيان اخرى ، تشارك في عملية تحديد المشكلات واقتراح حلول لها . وبكلام آخر كثيرا ما تكون اقتراحات السياسة نتيجة لعمليات مساومة بين اجزاء المجتمع المتنافسة المختلفة .

القضايا المتعلقة بالشرق الاوسط تستدعي اسهام جماعات منظمة مختلفة في المجتمع الاميركي ، يجد الكثير منها امتدادات لنفسها في الكونغرس وفي البيروقراطية .. وتشترك جماعات اقتصادية ، كقطاع الطاقة ، والشبكة العسكرية ـ الصناعية ، وقطاع التكنولوجيا ، وقطاع المال وغيرها في تحديد سياسة الولايات المتحدة ازاء الشرق الاوسط . والى ذلك يشارك اللوبي الموالي لاسرائيل والممثل لمنظمات رسمية وغير رسمية معينة بنشاط في حياة المجتمع الاميركي وفي تحديد سياسته الخارجية .

وتستمد القوى الموالية لاسرائيل سلطتها من طبيعة الجالية اليهودية الاميركية والمجموعة الواسعة من نشاطات اعضائها ، المتمتعين بالبحبوحة ، والمنتمين الى الطبقة الوسطى ، والمشاركين بشكل عميق في السياسة . ويتضخم هذا الدور بالنظر الى اللامبالاة البالغة لمعظم الاميركيين وتمنعهم عن العمل في الجهود المنظمة المختلفة التي ترمي الى تعزيز مصالحهم . لكن قوة هذه الجماعة هي عظيمة بالدرجة الاولى لأنها تتفق جوهريا مع تقويم السياسة الخارجية الاميركية ازاء الشرق الاوسط . وكثيرا ما تسير الجماعات العربية بعكس الاتجاه السائد ويكون لها بالتالي تأثير محدود في محاولتها تغيير السياسة الاميركية . واقصى ما تستطيع الجماعات الموالية للعرب تأمله هو ان تثير النقاش العلني حول شؤون السياسة الخارجية الاميركية المتعلقة بالعالم العربي . ولن يكون في مقدورها ان تفعل ذلك الا اذا اقامت اتصالات مع الائتلافات المختلفة من الجماعات الاميركية التي تنتقد السياسة الخارجية الاميركية .

ومن الملاحظ ان رئيس الجمهورية الاميركية الذي يكون سياسيا مدركا لاحتياجات اعادة انتخابه ولأخذ حزبه في الحسبان ، نادرا ما يسير ضده الاتجاه السائد للرأي العام الاميركي . واذا ما تغير ذلك الرأي بحيث يزوده بالحرية اللازمة للتصرف ، فانه قد يغير موقفه تدريجيا بصورة موازية ، ولذلك فان الرأي العام يقدم الخطوط الكفافية التي يتم ضمنها تفاعل السياسة واتخاذ القرارات . وبالتالي فانه من الصعب على سياسي اميركي ان يتخذ موقفا معاديا لاسرائيل او موقفا قد يفسر بانه معاد لاسرائيل . وحول مثل هذه القضايا قد يسير رئيس الجمهورية الاميركية على رؤوس اصابع قدميه بمنتهى الحذر . الا ان ذلك يبقى على مستوى السياسة الرمزية . اما على مستوى السياسة الجوهرية فان مما لا ريب فيه ان لدى رئيس الجمهورية الاميركية ادوات قوية في تصرفه لمعالجة قضايا كالشرق الاوسط .

واخيرا ما هي التوصيات التي يمكن تقديمها من اجل السياسات التي تتعلق بالولايات المتحدة ؟ بالدرجة الاولى ، ان الهجمات ضد الولايات المتحدة كحكومة او كبلد تؤدي عادة الى غير النتائج المرجوة وتميل الى استعداء الراي العام لأن القوى الموالية لاسرائيل تستطيع استغلالها بمنتهى السهولة . ويمكن توجيه انتقادات اكثر تحديدا وهجمات واضحة ضد رئيس الجمهورية او ادارته وخصوصا ضد سياسات ادارته . ويجب ان يكون هدف الهجوم محددا والهجوم نفسه معقولا . ونشير ببساطة الى ان عبارات مثل الامبريالية الاميركية وغيرها هي عديمة النفع . واحد الامثلة على هجوم حسن التوجيه وواضح الهدف كان ذلك الموجه ضد بيع الولايات المتحدة القنابل العنقودية لاسرائيل .

والى ذلك فان الشعب الاميركي يميل الى ان يستقبل على نحو افضل هجمات ضد الحكومة الاميركية او بصورة محددة ضد سلبية تصرف الرئيس كارتر حيال مسألة القدس والمستوطنات وغيرهما .

وعلينا ان نتذكر ان الدائرة الانتخابية التي يحاول الفلسطينيون وغيرهم ان يخاطبوها في الولايات المتحدة والتي قد تكون ايجابية بالنسبة اليهم هي حسنة الثقافة ومميزة تماما . وهذه الدائرة الانتخابية هي اكبر بكثير مما كان متوقعا قبلا ويمكن في المستقبل ان تقدم نواة مهمة للعمل السياسي في الولايات المتحدة .

من المهم النظر الى الولايات المتحدة لا ككيان متكشف عن وحدة متراصة وتناغم كلي ، بل بالاحرى كخارطة سياسية متغايرة يمكن اجراء العمليات الجراحية عليها بطرق متنوعة ، باستخدام مجموعة متنوعة من الادوات الجراحية في الوقت ذاته ، ومثل هذه النظرة هي اكثر فائدة بكثير من التأكيد التبسيطي بأن القوى الموالية لاسرائيل هي قوية جدا او بأن اميركا هي عدو لا رجاء منه . وفي حين ان لا شك هناك بأن الحكومات الاميركية كانت معادية وما تزال معادية للمطامح الفلسطينية ، فان الحقيقة هي ان جماعات مختلفة في المجتمع الاميركي يمكن تعبئتها بصورة فعالة لتزويدنا بدائرة انتخابية مهمة قد تلعب دورا حاسما في مستقبلنا .

الحواشي

(1) Joseph Grabill, *Protestant Diplomacy in the Near East* (Minneapolis: University of Minnesota Press, 1974).

(2) C. Wright Mills, *The Power Elite* (New York: Oxford University Press, 1956), P. 5.

(3) Gabriel Kolko in a preface to Mike Klare, *War Without End* (New York: Random House, 1972).

(4) Paul Sweezy, *The Present as History* (New York: Monthly Review Press, 1970), p. 138.

(5) Grant McConnell, *Private Power and American Democracy* (New York: Random House, 1966),

(6) Grant McConnell, *Private Power and American Democracy* (New York: Random House, 1966), p. 399.

(7) M. Parenti, *Democracy for the Few* (New York: St. Martin's Press, 1977), p. 292.

(8) M. Parenti, *Democracy for the Few* (New York: St. Martin's Press: 1977(, p. 318.

(9) Barry Hughes, *The Domestic Context of American Foreign Policy*(San Francisco: W. H. Freeman and Co., 1978).

(10) *Gallup Opinion Index*, Feb. 1975.

(11) *Gallup Opinion Index*, September 1978 ,p.158.

(12) The Ladd-Lipset Survey, *The Chronicle of Higher Education*

(13) Robert Manning,«A World Safe for Business,» *Far Eastern Economic Review* (March 25, 1977), p. 39.

(14) Jeff Frieden, «The Trilateral Commission: Economics and Politics in the 1970's»,*Monthly Review*, Vol. 29 *P 7*, December 1977, p. 6.

(16) *The Reform of International Institutions*, A Report of the Trilateral Task Force on International Institutions to the Trilateral Commission of New York, 1976.

17) Rger E. Bolton, *Defense Purchases and Regional Growth* Washkngton D.C.: The Brookings Institution, 1966).

(18) Adam Yarmolinski, *The Military Establishment* (New York: Harper and Row, 1971), p. 254.

(19) Adam Yarmolinski, *The Military Establishment* (New York: Harper and Row, 1971), p. 256.

(20) See Anthony Cordesman, «How Much is Too Much?» *Armed Forces Journal International*, October, 1977.

(21) Drew Middleton in *The New York Times*, January 7, 1979.

(22) Barry Blechman and Stephen Kaplan, *Force Without War: U.S. Armed Forces as a Political Instrument* (Washington D.C.: The Brookings Institution, 1978).

(23) Alan Wolfe, «The Cycles of Belligerency»,*The Nation*, February 3, 1979).

(24) Alan Wolfe, «The Cycles of Belligerency», *The Nation*, February 3, 1979). p. 107.

(25) Rbert Trice, «Congress and THE Arab-Israeli Conflict: Support for Istael in the U.S. Senate, 1970-73», *Political Science Quarterly*, vol. 92 *P 3*, Fall 1977, pp. 443-463.

(26) John Spanier and Eric Uslamer; *How American Foreign Policy is Made* (New York: Praeger, 1974), p. 55.

(27) Most of this information is derived from stephen Isaac's work and the *American Jewish Yearbook*.

Stephen Isaacs, *Jews And American Politics* (New York: Doubleday, 1974).

سميح فرسون

أزمة الرأسمالية الأميركية ، وسياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاه الشرق الأوسط

مقدمـــة

غرض هذه الدراسة هو تشخيص طبيعة الأزمة في الرأسمالية الأمريكية ، في وجهيها الداخلي والخارجي ، وتحليل التأثير الذي تفرزه الأزمة على سياسة الولايات المتحدة الخارجية تجاه الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية . ولا بد ـ لتحقيق هذا الغرض ـ من تصوير ووصف للدور الذي يلعبه الشرق الأوسط في الاقتصاد السياسي العالمي المتأزم من ناحية ، وموقعه الخاص بالنسبة للرأسمالية في الولايات المتحدة من ناحية أخرى . على هذا الضوء سوف نسعى لتحديد مسار الهجمة الأمريكية ، وطبيعة سياسة الولايات المتحدة الخارجية في المنطقة ، وما يتصل بذلك بصفة خاصة بقضية فلسطين .

تكامل الراسمالية العالمية

بادىء ذي بدء لا بد من القول بوضوح ان الأزمة لا تنحصر في الولايات المتحدة ، بل تتخطاها لتؤثر في الاقتصاد الراسمالي في العالم قاطبة . إنها أزمة ذات نطاق عالمي ، وان اقتصاديات جميع البلدان تكابد مشكلات مماثلة وبالطريقة نفسها . وعلى سبيل المثال يؤكد تقرير الأربعة والعشرين عضواً في OECD بشأن الوضع الاقتصادي :

« في غالبية البلدان الأعضاء في منظمة التعاون الاقتصادي للبلدان الصناعية OECD ، ظل التوسع في حالة تردد ، فيما استمرت البطالة في الصعود ... وان التوقعات الشاملة لأي تخفيض مهم في التضخم بالنسبة للعام المقبل ، لا تبدو جيدة بصفة خاصة » ـ أنظر تقرير OECD ص ٢٠ .

ومرد هذا جزئيا ، ان النظام الرأسمالي العالمي أصبح منذ الحرب العالمية الثانية متكاملا الى حد بعيد ، ومن العسير للغاية على أي بلد رأسمالي أن يفعل شيئاً بمفرده لحماية نفسه من

تيارات الأزمة العالمية (أو النمو) . ومن اللافت للنظر حقا أنه عند نقطة التطور المرئي للأزمة ؛ أي في السبعينات ، أن تكامل الرأسمال الأميركي مع الرأسمالية العالمية استمر في كامل قوته ، بل وأقوى من أي وقت مضى . ثم إن صيغة هذا التكامل تختلف نوعيا هي أيضا عن الفترة التي سبقت الحرب العالمية الثانية . فنحن الآن أمام اقتصاد عالمي رأسمالي ، لم تعد ميزته الرئيسية التجارة والاستثمار في الأسهم في المشروعات الأجنبية ، بل الاستثمار المباشر في جميع القطاعات الاقتصادية ، ونشوء نظام مالي ومصرفي دولي يتجاوز الحدود القومية . ولعل الأمثلة التالية تدل على هذا التكامل :

شكلت صادرات الولايات المتحدة بين خمسة وستة في المائة من الناتج القومي الاجمالي GNP خلال الستينات ، أما في منتصف السبعينات ، فكانت قد ارتفعت الى زهاء العشرة بالمائة من الناتج القومي الاجمالي GNP (ويمكن قول الشيء نفسه بالنسبة للواردات) .

مثال آخر بالنسبة للواردات النفطية الى الولايات المتحدة التي تزايدت اهميتها لتشكل في منتصف السبعينات نحو ٤٠٪ من امدادات البلاد ، ونحو ٢٠٪ من إجمالي الواردات .

مثال ثالث : إن قيمة الاستثمار الأمريكي المباشر في الخارج ، تضاعفت تقريباً بين ١٩٧٠ و ١٩٧٥ ، وبلغت ١٣٣ بليون دولار في نهاية العا م الماضي . وبلغت أرباح الاستثمارات في البلدان الأجنبية نحو ٣٠٪ من مجموع ارباح الشركات في منتصف السبعينات ، من بعد احتساب الضريبة .

مثال رابع يتعلق بالاستثمار الأجنبي المباشر في الولايات المتحدة الذي نما بصورة ملحوظة في السبعينات . فبينما ارتفع الاستثمار الأجنبي المباشر في الولايات المتحدة من ثمانية بلايين دولار في ١٩٦٢ إلى ١٥ بليون دولار في ١٩٧٢ ، نراه يقفز إلى ٢٧ بليون دولار في ١٩٧٥ (وهو يسجل رقماً أعلى في ١٩٧٩) .

مثال خامس : القروض المصرفية الأمريكية في الخارج ، زادت ثلاثة أضعاف بين ١٩٧١ و ١٩٧٥ ، وقفزت من ١٧ بليون دولار الى ٥٩ بليون دولار . وان أكثر من نصف هذه الديون يتمثل في قروض الدول الرأسمالية الأكثر فقراً . (انظر ماكيوان ص ٥٠) .

وينكر جي. هيل في تقريره «إن ثمانية مصارف أمريكية في ١٩٦٠ كانت تدير ١٣١ فرعاً وراء البحار ، تبلغ موجوداتها وراء البحار ثلاثة بلايين دولار ونصف البليون . أما في ١٩٧٠ فلقد أصبح عدد المصارف ٧٩ مصرفاً ، تدير ٥٨٣ فرعاً في الخارج ، وموجوداتها ٧٧,٤ بليون دولار . لكن الحال في ١٩٧٤ أصبح كما يلي : ارتفع عدد المصارف الى ١٢٩ ، وعدد الفروع الى ٧٣٧ ، والموجودات الى نحو ١٥٥ بليون دولار . ولغرض المقارنة فقط نذكر أن الموجودات الاجمالية لجميع المصارف التجارية في الولايات المتحدة كانت ٢٥٥,٧ بليون دولار في ١٩٦٠ ، وأصبحت ٤٤٨,٩ بليوناً في ١٩٦٧ . أما في ١٩٧٤ (حزيران) فلقد أصبح الرقم ٨٧٢ بليون دولار . وهكذا يتبين انه بينما ارتفعت الموجودات المصرفية الاجمالية داخل الولايات المتحدة بنسبة ٢,٥ مرة بين ١٩٦٠ و ١٩٧٤ ، فان الموجودات الخارجية ارتفعت بنسبة ٤٢ مرة تقريبا . (أنظر هيل ، ص ١٣٠) .

على أن هذا التكامل يمكن التدليل عليه بالحقيقة التالية :

« ان نحو ٢٠٪ فقط من الاستثمار الأمريكي المباشر في الفترة التي أعقبت الحرب كانت تتألف فعلياً من رأسمال (سلعي ونقدي) مستورد من الولايات المتحدة . أما الثمانون بالمائة المتبقية فلقد تم تكوينها في الأسواق الرأسمالية الأجنبية . وان قسطاً كبيراً ومتزايداً من هذه الثمانين بالمائة ، أتى من الأسواق النقدية الأوروبية ، منذ منتصف الستينات » . (هيـل ، ص ١٢٩) .

وفي الختام ، يشير جي . هيل الى « أن كلا من المصارف الأمريكية الخمسة الأكبر حجماً في الولايات المتحدة حقق أكثر من ٤٠٪ من أرباحه من عمليات أجنبية . وفي ١٩٧٦ كان سيتي بنك على رأس القائمة إذ جاءت ٧٨٪ من أرباحه ، من وراء البحار » . (هيل ، ص ١٢٨) .

على انه ينبغي القول بالطبع إن النمط المذكور آنفاً للتكامل على صعيد الرأسمال العالمي ، يوازيه تحول نوعي في الاقتصاد الأميركي نفسه . ويلاحظ هـ . شيرمان أنه بعد الأزمة الرأسمالية لنظام « الحرية الاقتصادية » :

« في تسعينات القرن الماضي والعقد الأول من القرن العشرين ، أدت موجة عمليات دمج الشركات الى خلق شركات عملاقة ، مثل شركة فولاذ الولايات المتحدة ، وفي معظم الصناعات . تلك كانت اندماجات أفقية ، المقصود منها إزاحة المنافسين المباشرين من الطريق . هذه المرحلة التي شهدت قوة الاحتكار في أجلى صورها باعتبارها الميزة البنيوية المهيمنة على الاقتصاد الأمريكي ، تلك الموجة تعززت بموجة اندماجات جديدة في عشرينات القرن العشرين ... كانت في معظمها رأسية ، ناشرة الاحتكار خلفاً الى المواد الخام ، وأماماً حتى الى منافذ البيع بالتجزئة (القطاعي) . وفي الأخير ظهرت موجة ضخمة أخرى للاندماجات ، في الستينات ، كانت في معظمها تكتلات مختلطة هائلة الحجم لمصالح متباعدة تماماً ، خالقة بذلك شركات عملاقة جديدة تفرض سطوتها وسيطرتها في عدة مجالات متنوعة من الصناعة ، بصورة فورية » . (شيرمان ، ١٩٧٩ ، ص ٩٦) .

وتلاحظ مجلة فورتشن التي تجمع المعلومات عن أكبر ٥٠٠ شركة أميركية ، ان الخمسمائة شركة أميركية الكبرى كان لها ٢٤,٦٪ من المبيعات الأمريكية ، و ٣٩,٥٪ من الأرباح الأمريكية ، وذلك في ١٩٥٤ . لكن الوضع في ١٩٧٥ ، عصر التكتلات الجبارة ، أصبح كما يلي : فالنسبة من المبيعات الأميركية أصبحت ٤٢,٩٪ ، والنسبة من الأرباح الأمريكية بلغت ٥٨,٢٪ .

هذه التكتلات هي نفسها الشركات المتعددة الجنسية ذات الدور الدولي البارز (بارنت ومولر ، ١٩٧٥) . وهكذا فان الترابط أو التشابك بين الولايات المتحدة والرأسمالية العالمية وثيق ووطيد الى حد كبير . وعلى هذا يصبح من الجلي ان اي حل لأزمة الرأسمالية الأمريكية يصبح متعذراً على صعيد « قومي » أميركي فقط . فالحلول ينبغي أن تكون بالضرورة ذات مدى دولي ، كما لا بد أن تكون في نطاق وسائل دولية ومؤسسات دولية . وان الافتقار الى مثل هذا الحل ذي الطبيعة المؤسسية الدولية يمثل عقبة كبرى أمام معالجة وانهاء هذه الأزمة ، سواء في الولايات المتحدة ، أو في العالم قاطبة .

الدورات والأزمات : الأجل الطويل والأجل القصير

يتفق معظم الاقتصاديين أو الاقتصاديين السياسيين على ان اقتصاد الولايات المتحدة والاقتصاد العالمي يعانيان « من المتاعب » في الظرف الراهن . ومع ذلك فان الكلاسيكيين الجدد أو الكينزيين الجدد ، وعلى نقيض الاقتصاديين السياسيين ، يرون الى هذه الحالة على أنها مجرد تراجع دوري سيتم تجاوزه والتغلب عليه على المدى القصير . والواقع انه حسب رأي مكتب الميزانية التابع لمجلس النواب الأميركي ، تدخل الولايات المتحدة الآن فترة تراجع جديدة : بانه المكتب المذكور :

« نبه الكونجرس سراً الى وجوب توقع إنكماش شامل هذا العام (١٩٧٩) وفي معظم الثمانينات ، وتوقع استمرار التضخم برقم من خانتين ، وارتفاع البطالة الى نسبة ٧,٥٪ » (**ذي واشنطن بوست** ، ١٠ حزيران ١٩٧٩) .

إذا احتسبنا الأنكماش الراهن ، تكون الولايات المتحدة قد شهدت سبعة انكماشات دوريةخلال مرحلة النمو الذي لا سابق له والازدهار في الفترة التي تلت الحرب العالمية الثانية. وفي حين أن هذه التراجعات الدورية مهمة وملازمة لتعاظم/ إخفاق (أو دورة الأعمال) النظام الرأسمالي ، فان الدورة ذات الأجل الطويل التي يتحدث عنها الاقتصاديون السياسيون ، هي مع ذلك أشد أهمية وتأثيراً بكثير . (أنظر العدد الخاص عن الدورات والاتجاهات الذي أصدرته **ريفيو** ، ١٩٧٩ ، وانظر كذلك « الشيخ » ، ١٩٧٨ ووايسكويف، ١٩٧٨) . فمنذ الحرب العالمية الثانية ارتفع الناتج القومي الاجمالي GNP للعالم من ٧٠٠ بليون دولار في ١٩٥٠ ، أعظم فترة للتوسع الاقتصادي في التاريخ العالمي » . (هيـل ، ص ١٢٨) . إنها نهاية تلك الدورة ذات الأجل الطويل ، التي خلقت الأزمة الحالية . فهناك اجماع عام على ان الولايات المتحدة تمر في أزمة بنيوية ذات أمد طويل ، لا تقل خطورتها المحتملة عن اثار الركود العظيم في الثلاثينات . ونمضي الى أبعد من ذلك لنقول انه بسبب التكامل العالمي للرأسمالية العالمية ، مقارنة بالثلاثينات ، فان الأصداء والآثار والنتائج الاقتصادية والاجتماعية والسياسية على صعيد العالم بأسره ، اكثر درامية وخطورة من ازمة الثلاثينات .

فالأزمة الراهنة تختلف عن ركود الثلاثينات في عدة نواح مهمة ، ولعل أهمها أن الأزمة الراهنة ليست انكماشاً حاداً ومفاجئاً مع آثار اجتماعية وسياسية سريعة مع الهجمة على سوق الأسهم كما حدث في ١٩٢٩ . إنها أزمة ذات خطورة عميقة ، لكنها تتطور ببطء (ركود زاحف حسب وصف سويزي وماكدوف ، ١٩٧٧) ، وبشكل منهجي ، سواء من حيث النطاق أو العمق . وهناك فارق حاسم آخر بين الأزمة الراهنة وبين أزمة الثلاثينات هي حقيقة أن العالم الثالث في الوقت الحاضر ، أقل قابلية للتأثر بالخارج مما كان عليه في ١٩٢٩ ، وهو يملك مؤسسات ومنشآت اكثر بكثير من السابق، كما يملك مبادرة أكبر للتعامل مع صميم البلدان الرأسمالية والرد عليها . والواقع أن مبادرة العالم الثالث من أجل « نظام اقتصادي جديد » ، أو في حوار « الشمال والجنوب » ، تمثل في جوهرها محاولة هذا العالم الثالث لمعالجة تأثير الأزمة العالمية و « تثليم » حدتها ، واحباط المسعى الجوهري الذي تبذله البلدان الرأسمالية « لتصدير » الأزمة ، كوسيلة للتخفيف من ذيولها الداخلية .

إذن ، الاقتصاد الرأسمالي العالمي متكامل فعلا ، مع اقتصاد الولايات المتحدة ومتشابك فعلا مع اقتصاد الآخرين (اقتصاديات الأوروبيين الأكثر تقدماً واليابانيين وكذلك اقتصاديات العالم الثالث التابعة) . ومع ذلك ــ وكما يقول جويس كولكو : « إن مفتاح الاقتصاديات الصناعية الرأسمالية ما زال مصير أكبر الأعضاء (الولايات المتحدة) » (كولكو ، ١٩٧٤ ، ص ٢٥) . ولهذا ينبغي أن نقوم بتحليل الدور الخاص للولايات المتحدة ، ومزاياها الخاصة . ووفقاً لما يقوله أمين (الثورة الاشتراكية ، ١٩٧٥) فان الولايات المتحدة والرأسمالية العالمية بلغا في ١٩٦٨ (ذروة حرب فيتنام) نهاية مرحلة طويلة ومديدة (اتجاه جيلي) للنمو الاقتصادي والازدهار ، بدأت في الحرب العالمية الثانية . ومنذ ذلك الحين ، أي ١٩٦٨ ، وحتى الآن ، اي منذ عشر سنوات ، دخلت الولايات المتحدة والرأسمالية العالمية اتجاهاً جيلياً جديداً وطويلا قوامه الأزمة البنيوية . وذلك يعني نهاية « الأمبراطورية الأمريكية » ، وبالتالي نهاية « الهيمنة الأمريكية العالمية » على الأصعدة الاقتصادية والسياسية والعسكرية . (وهي مؤشر كذلك على صعود الامبراطورية الجديدة ، امبراطورية الاتحاد السوفياتي ، وفقاً لاعتقاد أمين) .

الأزمة في الولايات المتحدة

تعاني الولايات المتحدة أزمة في عدة جوانب من اقتصادها . وتتدرج جوانب الأزمة من معدل بطالة مرتفع نسبياً ، الى « أزمة الأرباح » . إن أرباب العمل القياديين يشكون من أن معدلات الأرباح ... تناقصت من ٩٪ للأسهم الصافية لرأس المال الثابت غير الخاص بالانشاءات في ١٩٦٦ إلى ٤,٧٪ في ١٩٧٠ » (سلتزر ، ١٩٧٨ ، ص ٣٥) . انظر الرسمين البيانيين الأول والثاني .

كما إن معدلات الربح للشركات الأمريكية الكبرى هبطت هي أيضاً . إن الخمسمائة شركة العظمى وفق قائمة مجلة فورتشن حصلت حسب الاحصاءات الرسمية ٦,٧٪ على المبيعات في ١٩٦٥ ، لكن النسبة هبطت في ١٩٧٠ الى ٤,٧٪ ، فيما تدنى معدل الربح للموجودات من ٧,٩٪ الى ٥٪ (سلتزر ، ١٩٧٨ ، ص ٤٠) . هذا هو الوضع ، على الرغم من أن حكومة الولايات المتحدة انتهجت خطاً ثابتاً في هذه المرحلة ، لانقاص معدل المدخول الضريبي من الشركات ، إذ كان هذا المدخول ٣١٪ في ١٩٥٢ ، في حين هبط المدخول الحكومي من ضريبة الشركات الى ١٤٪ في ١٩٧٥ . وان المعدلات التالية للأرباح مؤشر على مديونية متزايدة للشركات . نسبة الدين / الأسهم المتزايدة هذه ، ومعدل السيولة المتناقص ، جعلا الشركات الأميركية عرضة للتأثر بالهزات الخارجية (سلتزر ، ١٩٧٨ ، ص ٣٦) . والخلاصة :

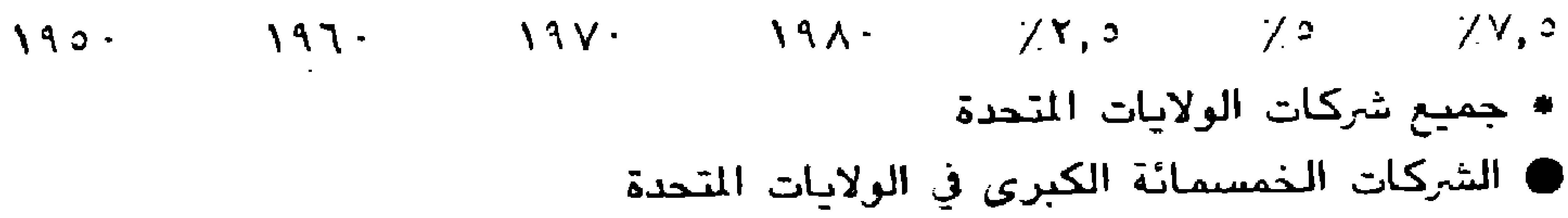
« ان التركيب الاقتصادي للشركات الأمريكية ، يماثل الآن منزلا من الورق المقوى . فأي تخلف كبير عن تسديد الديون قد يفجر سلسلة من إلغاء القروض والعجز عن الوفاء بالديون ، الأمر الذي قد يؤدي الى انهيار البنيان بكامله . (سلتزر ، ١٩٧٨ ، ص ٣٧) .

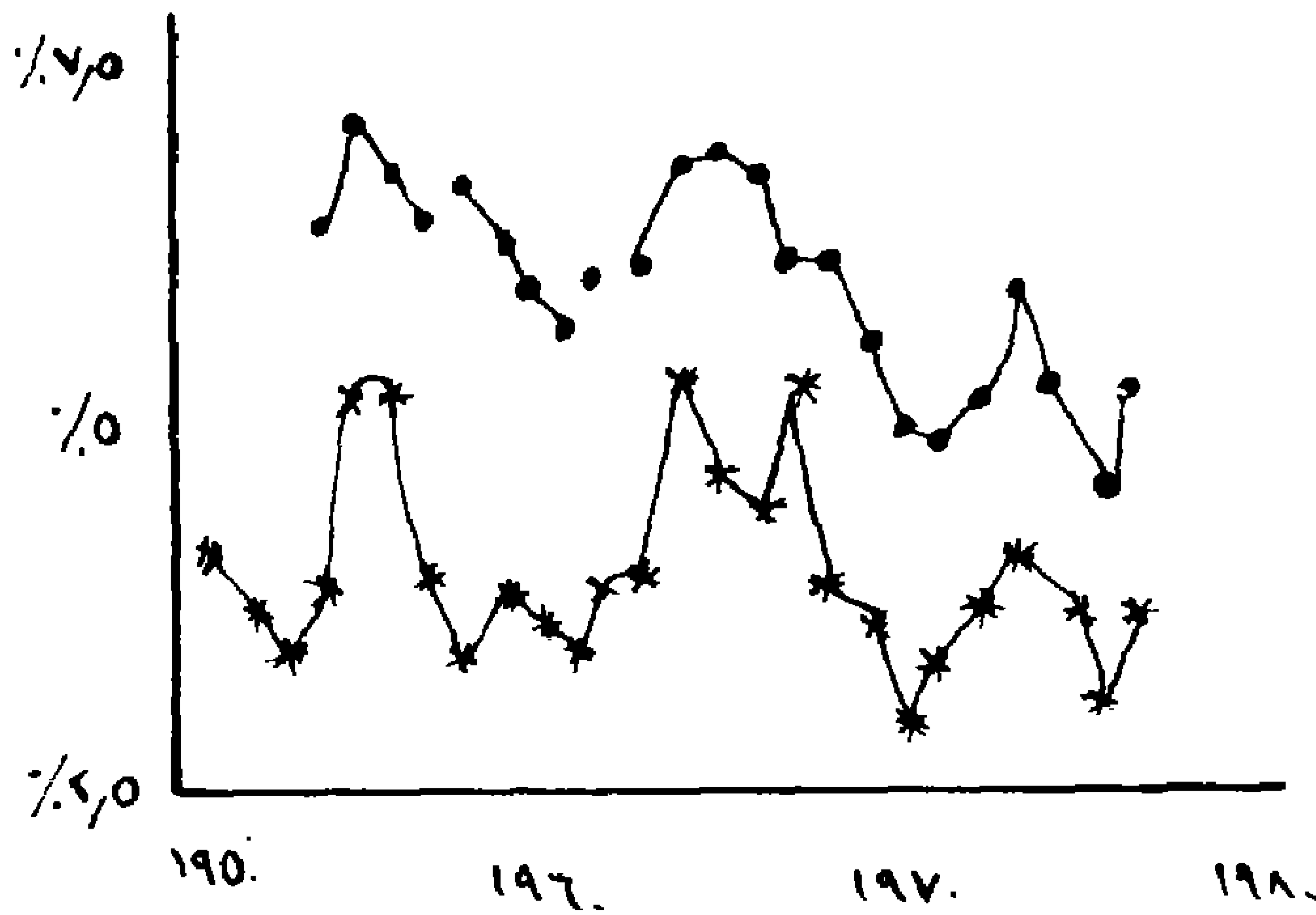
لكن مشكلة السيولة هذه ليست وقفاً على الشركات وحدها ، فالأفراد والدولة والحكومات المحلية تعاني منها كذلك . فلقد حدث توسع في الاعتمادات الائتمانية وفي المديونية . وارتفع الدين الفردي إلى ٦١٣ بليون دولار (بمعدل زيادة سنوية ٧,١٪ منذ ١٩٥١) في عام ١٩٧٢ ، وتذبذب منذ ذلك الحين ، ليصبح مسؤولا بصورة جزئية عن تسخين حرارة الاقتصاد ، خصوصاً

ان معظم الزيادة تمثلت في أموال مقترضة(وهذا سبب جزئي للأزمة التي عانتها مؤخراً مدينة نيويورك وكليفلاند) . (أنظر سلتزر ، ١٩٧٨ ، ص ٣٨) .

كما ان الولايات المتحدة تعاني من أزمة بطالة . فاذا استثنينا فترة الركود العظيم في ١٩٣٠ ، نرى أن معدل البطالة الحالي لم يسبق له مثيل ، ولقد تزايد الرقم المطلق للعاطلين عن العمل بصورة مثيرة نتيجة للتزايد العام في القوة العاملة . ويبين الرسم البياني الرقم ٣ معدلات البطالة المسجلة بين مختلف فئات الناس ، وكذلك بين الأقليات في الولايات المتحدة . ويكشف الجدول الرقم واحد عن تقدير أكثر واقعية للبطالة في شهر نيسان ١٩٧٥ ، مما يبين الفارق الكبير بين الأرقام الرسمية للبطالة وبين الرقم الاجمالي للبطالة الحقيقية .

الرسم البياني الرقم واحد
معدل الربحية على المبيعات



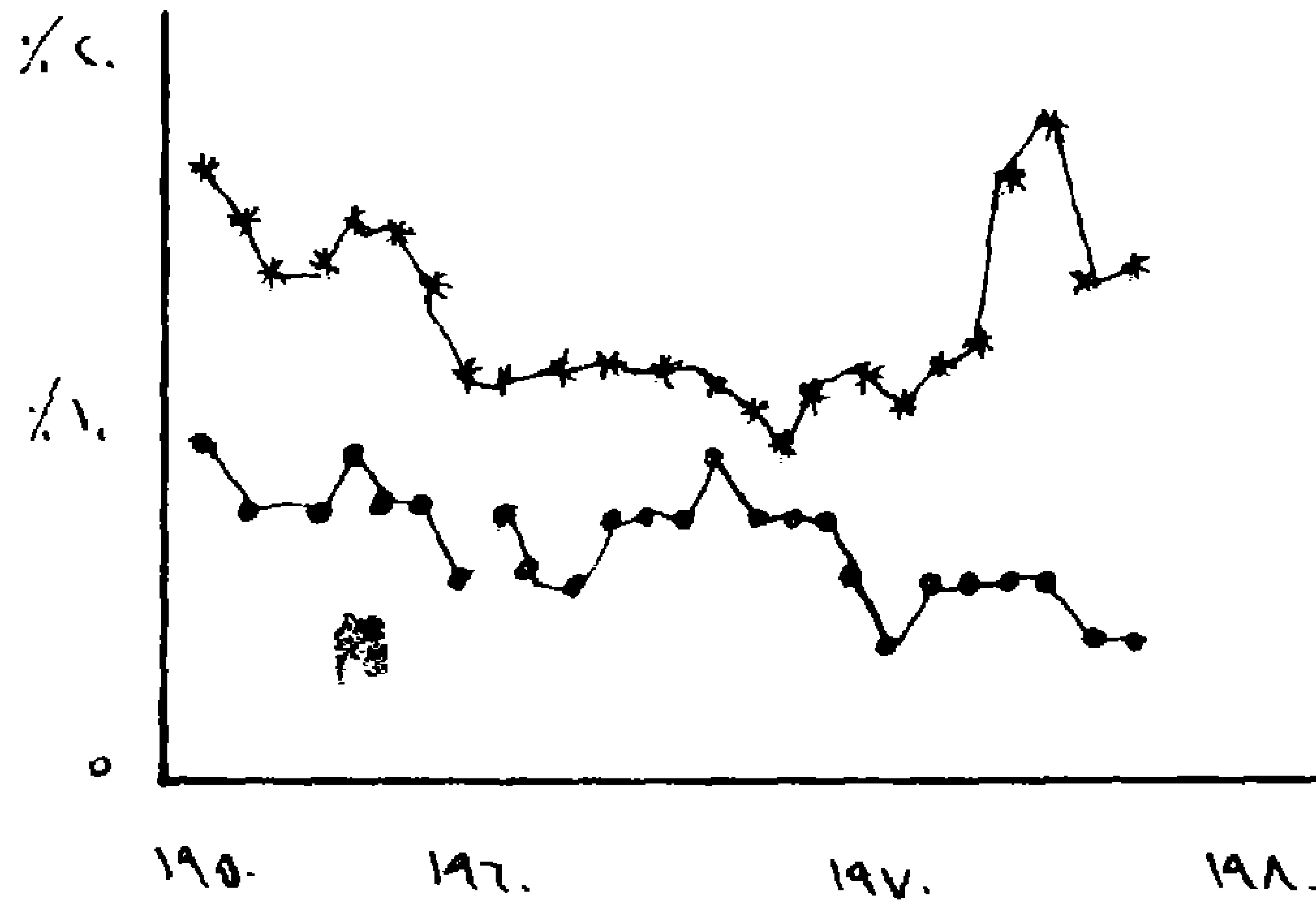


الرسم البياني الرقم ٢
معدل لربحية على الموجودات



* المستثمرون الأجانب
● الشركات الداخلية

المصدر : بيزنس ستاتستكس ـ الطبعة العشرون



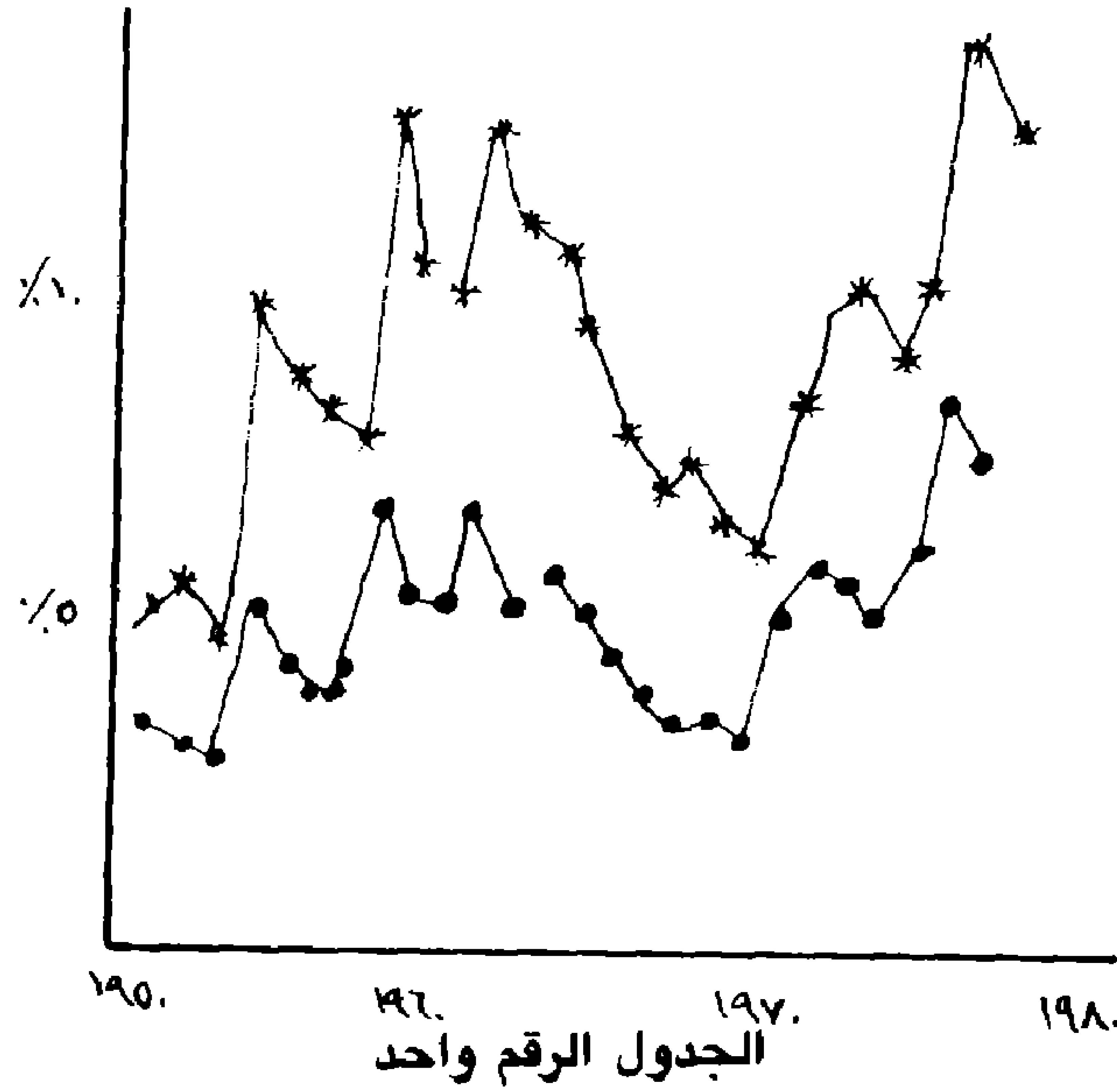
الرسم البياني الرقم ٣
معدلات البطالة بالأرقام الرسمية

١٩٥٠ ١٩٦٠ ١٩٧٠ ١٩٨٠ ٠ ٥٪ ١٠٪ ١٥٪

* الأقلية

● إجمالي البطالة

المصدر : بيزنس ستاتستكس ــ الطبعة العشرون ، وسير في أف كرنت بيزنس ، آب ١٩٧٦ وأيار ١٩٧٧ .



الجدول الرقم واحد

	ملايين
(١) البطالة المسجلة رسمياً	٨,٢
(٢) أشخاص يطلبون عملا لكنهم غير مشمولين في الأرقام الرسمية*	٣,١
(٣) أشخاص يعملون جزئياً ــ لبعض الوقت ــ بصورة غير ارادية**	١,٧
الرقم الاجمالي للبطالة	١٢,٠

* باستثناء أولئك الذين يطلبون عملا لكنهم أبلغوا أنهم لم يكونوا يبحثون بنشاط عن عمل لأنهم مرتبطون بمدرسة أو بسبب المرض . هذه الأرقام خاصة بالربع الأول من العام ١٩٧٥ ، آخر تاريخ توفرت فيه هذه المعلومات . إنما على ضوء الاتجاهات الملموسة مؤخراً ، يبدو أن من المحتمل كثيراً أن هذه المعطيات تقل فعلا عن الواقع في نيسان ١٩٧٥ .

** البطالة الكاملة التي توازي اولئك الذين يعملون بعض الوقت (بمعدل ٢٢,٥ ساعات اسبوعياً) لكن الذين يطلبون عملا كاملا (٤٠ ساعة اسبوعياً) .

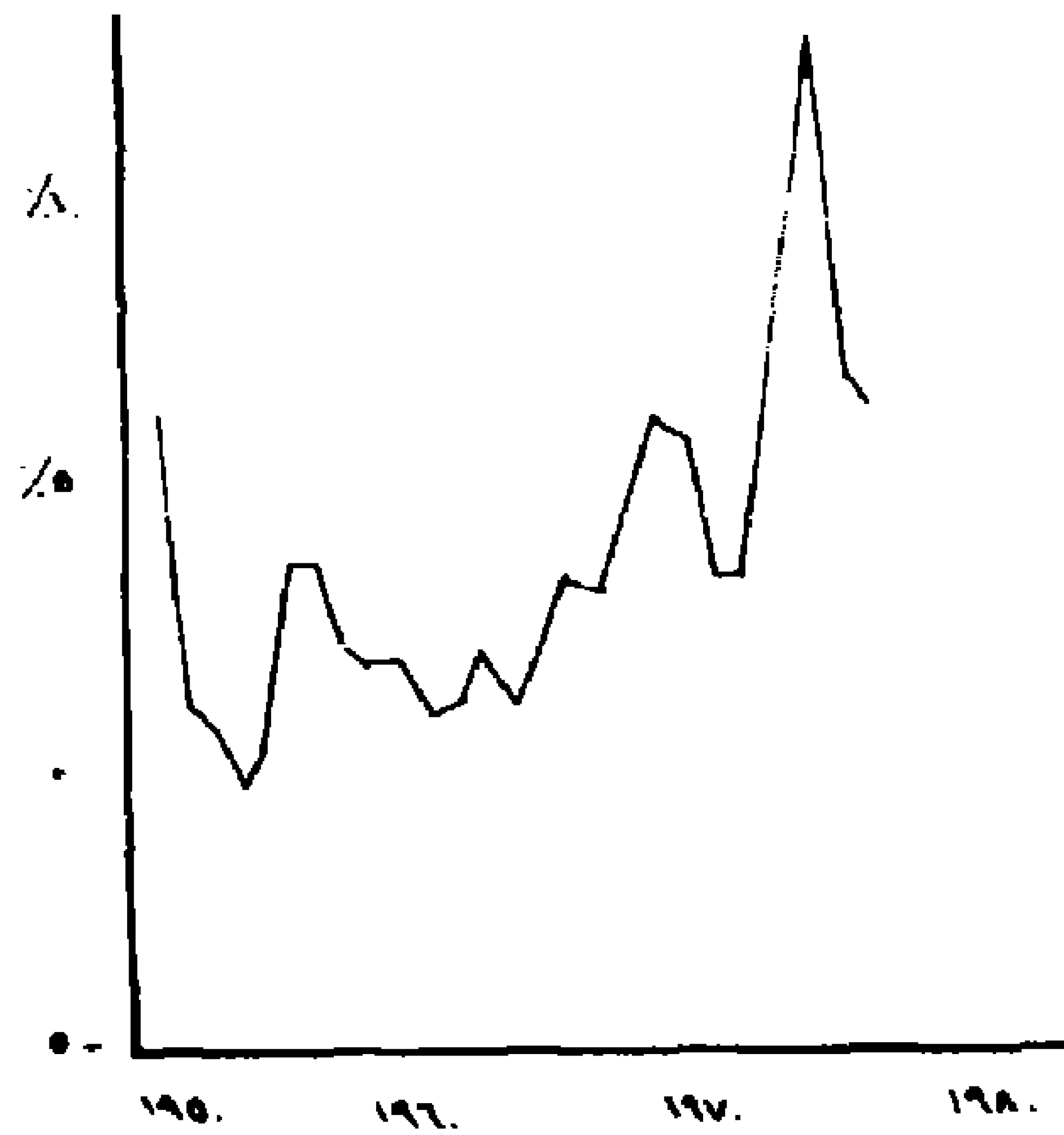
البطالة هي مظهر للتدهور في المستوى المعيشي للطبقة العاملة الأميركية . المظهر الآخر هو التضخم ، التضخم الذي لم يصبح في الولايات المتحدة مشكلة حادة كما في بقية أنحاء العالم الرأسمالي ، لكنه مع ذلك يقضم رفاه جميع الأمريكيين . لقد كان التضخم المعتدل مقبولا ، بل وموضع تشجيع ، من جانب حكومة الولايات المتحدة ، حيث انه كان ــ في أوائل السبعينات ــ عوناً لها للخلاص الى حد من أزمة ربحية الشركات ، وأزمة السيولة ، وتوفر الاعتمادات . لكن التضخم تزايد كثيراً منذ ١٩٧٠ ، وخرج على السيطرة ، وأصبح يتذبذب بصورة حادة (انظر الرسم البياني الرقم ٤) .

الرسم البياني الرقم ٤
معدل التضخم

٥ ــ   ٠   ٪٥   ٪١٠   ٪١٥

١٩٥٠   ١٩٦٠   ١٩٧٠   ١٩٨٠

المصدر : وول ستريت جورنال ، ١٨ تشرين الأول ١٩٧٦ .



وهذا التضخم يخلق عدم استقرار لا في الولايات المتحدة وحدها ، بل على الصعيد الدولي أيضاً . فتشابك الأسواق النقدية يجعل ضبط التضخم أمراً عسيراً للغاية . والواقع ان هذه ربما كانت المرة الأولى في تاريخ الرأسمالية حيث يرتبط التضخم بفترات التراجع أو التقلص الاقتصادي ، لا بفترات النمو والازدهار والتوسع . وعلى هذا فان التدخلية الكينزية البسيطة ليس من المحتمل أن تكون قادرة على شفاء الاقتصاد من معضلاته . إن جوهر الأزمة

الاقتصادية الأمريكية كما رأينا إذن يتمثل في المشكلات المزدوجة لحد الركود الاقتصادي (إذن البطالة) والتضخم . هاتان القضيتان متشابكتان ومتداخلتان الآن الى درجة أن الاقتصاديين اشتقوا من الكلمتين مصطلحا جديداً لوصف الموقف الحالي الذي لم يسبق له مثيل . (المصطلح المقصود هو Stagflation اي الركود التضخمي) .

الركود التضخمي : هو جوهر الأزمة الاقتصادية في الولايات المتحدة والرأسمالية العالمية . وهو ذو طبيعة رباعية : معدل هابط للأرباح ، تضخم متزايد ، بطالة متزايدة ، ودوامة الادراك بأن لها انعكاساتها الاجتماعية .

وهذه الأزمة البنيوية تزيدها تعقيداً وحدة « أزمة الطاقة » التي تقود الى « سعار الطاقة » وما يصاحبه من ذعر وهلع في هذا الربيع والصيف من العام ١٩٧٩ . وأزمة الطاقة هذه مزدوجة ، فهي أزمة في الامدادات ، وهي كذلك أزمة في التكاليف . وتشير وزارة الخزانة الأمريكية في مذكرة الى الرئيس ، الى ان الواردات النفطية كجزء من طلب الاستهلاك الداخلي ، ارتفعت نسبتها من ١٨٪ في ١٩٥٩ الى ٤٥٪ في ١٩٧٨ . فالمستوردات من النفط ارتفعت من ١,٨ مليون برميل يومياً في ١٩٥٩ ، الى ٨,٧ مليون برميل يومياً في ١٩٧٨ .

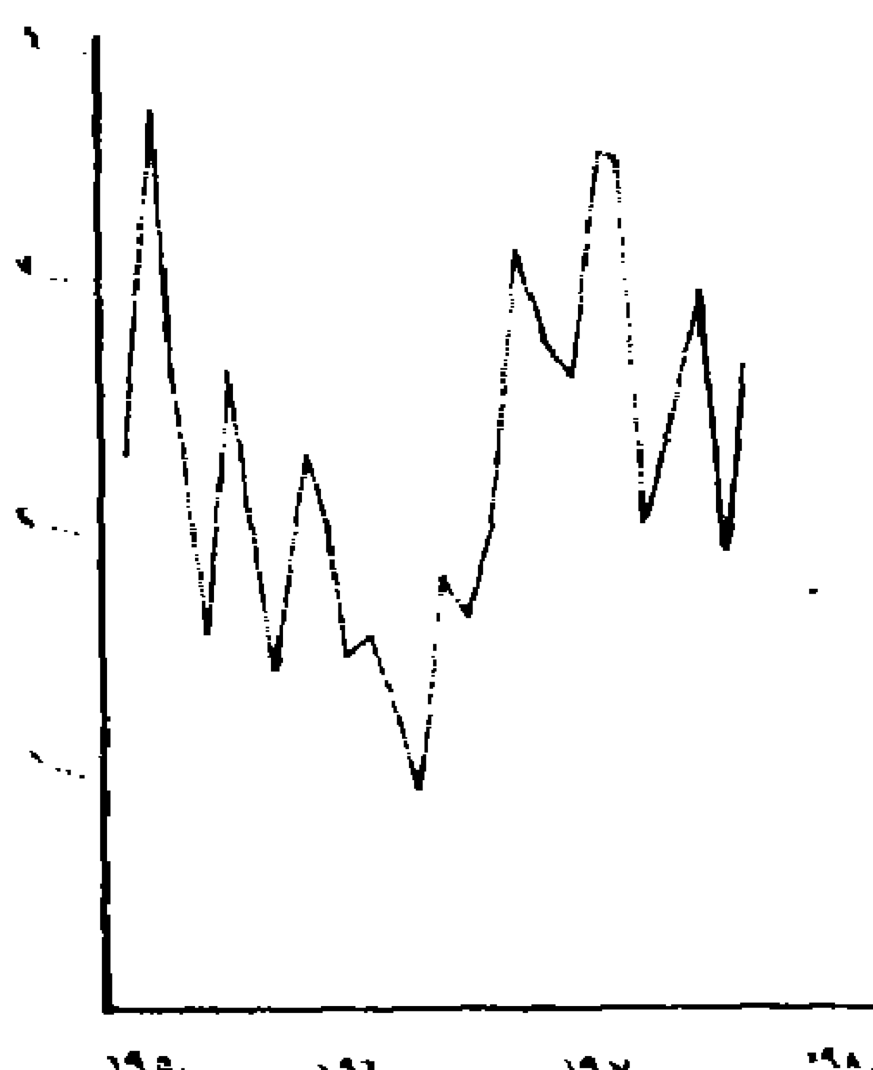
ولقد ارتفعت قيمة الفاتورة النفطيةمن ١,٥ بليون دولار في ١٩٥٩ الى ٤٢,٣ بليون دولار في ١٩٧٨ . وهذه الأرقام المثيرة تكشف عن تزايد اعتماد الولايات المتحدة على غيرها كمصدر للنفط ، كما تكشف من جهة أخرى الارتفاع الكبير في التكاليف . على أن هذه الأرقام ينبغي وضعها في مكانها الصحيح . فبينما الواردات النفطية كجزء من الطلب الداخلي على النفط ، هي مرتفعة ، فان الواردات النفطية كجزء من الطلب الداخلي على مجمل مصادر الطاقة (الفحم الحجري ، الغاز ، الذرة) ، هي أدنى . لقد كانت النسبة ٩٪ في ١٩٥٩ . وارتفعت في ١٩٧٨ الى ٢٣٪ . وهذه الأرقام تقلل من حجم الأعتماد الأميركي على الخارج ، كما تشير الى التزايد في استخدام الطاقة النووية والغاز المحلي في الولايات المتحدة . لكن ستبقى الولايات المتحدة ، على أي حال ، تعتمد اعتماداً كبيراً على مصادر النفط الأجنبية . (الأرقام المقتبسة أعلاه واردة في المذكرة الآنفة الذكر الى الرئيس ، من وزارة الخزانة ، أنظر **منثلي إنرجي ريفيو** (١٤ آذار ١٩٧٩) التقرير الخاص بالمقطع ٢٣٢ بشأن التحقيق حول الواردات النفطية) .

ويمكن القول باختصار إن ارتفاع تكاليف الوقود يمثل حافزاً آخر لتنشيط وزيادة معدل التضخم . فمشكلات الأمداد النفطي والاعتماد الأمريكي على الخارج ، تعقد الوضع ويمكن أن تكون ذات أثر تمزيقي على الانتاج والمواصلات . كل هذا يقلل من قدرة الرأسمال الأمريكي ومن قدرة الحكومة الأمريكية على ايجاد حل لمشكلة الركود التضخمي . والواقع انه نتيجة لتآكل الرفاه العام ، فان الصراع الطبقي في الولايات المتحدة يزداد زخماً وحدة . وعلى سبيل المثال فان عدد العمال الذين اشتركوا في الاضرابات ، تزايد بصورة مثيرة في السبعينات . أنظر الرسم البياني الرقم ٥ .

الرسم البياني الرقم ٥
عدد العمال الذين اشتركوا في حالات وقف العمل ، بالآلاف

٤٠٠٠	٣٠٠٠	٢٠٠٠	١٠٠٠
١٩٨٠	١٩٧٠	١٩٦٠	١٩٥٠

المصدر : بيزنس ستاتستكس ـ الطبعة العشرون ، وسير في أوف كرنت بيزنس ـ آب ١٩٧٦ وأيار ١٩٧٧ .



نشوء الأزمة في الراسمالية العالمية

إن الظروف والمعطيات التي تسببت في أزمة الرأسمالية الأمريكية وأعطتها صبغتها المميزة ، مماثلة كثيراً للعوامل التي كانت وراء الأزمة في الرأسمالية العالمية . وفي هذا الصدد يلاحظ ديفيد جوردون :

« يبدو من الممكن تماماً انها (هذه الأزمة العالمية) تمثل بداية فترة من الركود ، ومن الانكماش ذي الأجل الطويل . وهذا يعني ... أن البنية المؤسسية لمرحلة التراكم قد بدأت بالانحلال . ولعل الأزمة الراهنة تمثل ... تفكك مجموعة واحدة من المنشآت (المؤسسات) وبداية الكفاح بين الرأسماليين وبين البقية منا ، على القاعدة التي سيعاد فوقها بناء المؤسسات » . (جوردون ، ١٩٧٨ ، ص ٣١) .

ومن المهم لفهم الانحلال الراهن لمؤسسات التراكم ، أن نصف تركيبها وديناميتها . وفي هذا السياق يقدم ماكيوان أحد أكثر التحليلات سلامة وتبصراً . وهو يرى أن ربع القرن من النجاح الذي أعقب الحرب العالمية الثانية . تميز بالتكامل المتزايد للنظام الرأسمالي . على ان « النجاح نفسه الذي عرفته هذه الفترة كان هو ذاته وراء خلق الظروف المهدة لتمزق النظام ... باتجاه تدمير استقراره » . « وان عمليتي التكامل وفقدان الاستقرار اللتين عرفهما النظام الرأسمالي العالمي بصورة متزامنة ، شكلتا تناقضاً مهماً » جعل اقتصاد الولايات المتحدة متقلقلا الى حد بعيد في السبعينات .

كانت الولايات المتحدة ، عند انتهاء الحرب العالمية الثانية ، صاحبة أقوى اقتصاد ، وصاحبة الاقتصاد الأقل تضرراً في العالم ـ « وكانت قوة سياسية واقتصادية فريدة وغير قابلة

للتحدي ، بين الأمم الرأسمالية » . وبذلك بدأ عهد الهيمنة الأمريكية . ووجدت الولايات المتحدة نفسها في وضع أتاح لها أن ترسي دعائم نظام عالمي كان مفقوداً منذ الحرب العالمية الأولى . وبهذا كانت قادرة على إملاء الخط الاقتصادي والسياسي على امتداد العالم الرأسمالي برمته . والأهم من ذلك كله ، أن الولايات المتحدة ، في عهد هيمنتها هذا ، ساعدت في إقامة مؤسسات مهمتها ضبط النظام الرأسمالي والتحكم فيه . وبين تلك المؤسسات : هيئة الأمم المتحدة ، والتنظيمات النقدية في بريتون وودز ، وسواهما . وأصبح الدولار الأمريكي العملة العالمية الرئيسية . وان دور الدولار كاحتياطي نقدي دولي ، كان وثيق الصلة بالنمو الدولي السريع وبربحية المصالح الاقتصادية الأمريكية . ولقد اشتمل هذا على التوسع السريع وراء البحار للمصارف الأمريكية أولا ، وللصناعة الأمريكية ثانيا ، وللاستثمار الأمريكي ثالثاً ، وللتجارة الأمريكية رابعاً . وارتفع حجم الاستثمار الأمريكي في الخارج ، بين ١٩٥١ و ١٩٧٣ ، من ١٦,٨ بليون دولار ، الى ٧٥ بليون دولار ، أي من نسبة ٤٪ من الناتج القومي الاجمالي GNP إلى ٧,٨٪ من الناتج القومي الاجمالي GNP في الفترة ذاتها . (سلتزر ، ١٩٧٨ ، ص ٢٨) .

واتجهت الولايات المتحدة نحو التحكم بالمواد الخام في العالم . « ان قيمة الموجودات الأجنبية في صناعات النفط والمناجم وصهر المعادن تضاعفت ثلاث مرات بين ١٩٥٠ و ١٩٥٩ (أي من ٤,٥ بلايين دولار الى ١٣,٣ بليون دولار) ، وتضاعفت ثلاث مرات تقريباً ، مرة أخرى ، عند حلول ١٩٧٣ (ارتفعت الى ٣٧,١ بليون دولار) » (ماكيوان ، ص ٥٤) .

ويمكن القول باختصار ، ان الولايات المتحدة تمكنت من تحقيق سيطرتها على الصناعة النفطية في الشرق الأوسط - في إيران (بعد الانقلاب الذي دبرته وكالة المخابرات المركزية والذي أعاد الشاه الى العرش وأطاح بنظام مصدق في ١٩٥٢) وفي شبه الجزيرة العربية . وان الولايات المتحدة لم تكتف باختراق اقتصاديات دول العالم الثالث ، ووراثة نفوذ القوى الأوروبية ، لكنها بالاضافة الى ذلك اخترقت اقتصاديات الدول الأوروبية ذاتها . وفيما يتعلق بالمسألة الأخيرة :

« ان حجم الاستثمار الأمريكي المباشر في اوروبا تضاعف ثلاثة أضعاف بين ١٩٥٠ و ١٩٥٩ (ارتفع من ١,٧ بليون دولار إلى ٥,٣ بليون دولار) ، ثم زاد أربعة أضعاف (الى ٢١,٦ بليون دولار) عند حلول ١٩٦٩ ، وربما تضاعف مرة أخرى عند نهاية ١٩٧٤ » . (ماكيوان ، ص ٤٧) .

وهكذا فان الهيمنة الأمريكية وفرت للرأسمالية الأمريكية مزايا ومنافع فريدة :

« ان الأرباح التي حققتها الشركات الأمريكية من الخارج ، بعد احتساب الضريبة ، ارتفعت نسبتها بشكل ثابت ، من ١٠٪ في بداية الخمسينات ، الى زهاء ٢٠٪ في بداية السبعينات » (ماكيوان ، ص ٤٧) .

ويقدم الرسم البياني الرقم ٦ صورة مقارنة لمعدلات الأرباح التي حققتها الشركات الأمريكية في داخل الولايات المتحدة من ناحية ، وفي خارجها من ناحية ثانية . فالحقيقة هي أن

الرأسمالية الأمريكية حلت بعض معضلاتها ، من خلال التوسع الذي حققته في الخارج . ويمكن القول بصورة رئيسية :

الرسم البياني الرقم ٦
معدلات الأرباح على الموجودات



« من المعروف عامة انه بجعل الدولار العملة المركزية للرأسمالية العالمية ، توفرت للمصالح الأمريكية على الدوام الفرصة الكاملة للقيام بنشاط في البلدان الأجنبية . ثم ان الأعمال في الدول الرأسمالية الأخرى ، إزاء قيام النظام النقدي على الدولار ، وجدت نفسها أمام الحاجة المتزايدة للدولارات ، وذلك للقيام بصفقاتها الدولية الخاصة . ففي الستينات مثلا ، كان معدل نمو الدولارات المحتفظ بها خارج الولايات المتحدة ، نحو بليوني دولار سنويا . وبالنتيجة كان في وسع المصالح الأمريكية أن تعقد مشتروات في الخارج بالدولارات ، دون أن تسترد جميع هذه الدولارات بمشتروات مقابلة في الولايات المتحدة من قبل المصالح الأجنبية . وكانت بقية العالم تقدم للمصالح الأمريكية ، اعتمادات مهمة بمقدرا بليوني دولار اضافية كل عام من الستينات » . (ماكيوان ، ص ٤٧) .

لكن مظلة الهيمنة الأمريكية والاستقرار الاقتصادي ، وفرا للاقتصاديات الاوروبية واليابانية التي دمرتها الحرب ، أن تعيد بناء نفسها . لقد تقدمت أوروبا الغربية واليابان ، خصوصاً وأن تكاليف الامبراطورية ، وأعباء الدفاع عن الرأسمالية العالمية ، أصبحت على عاتق الولايات المتحدة . ولقد جرت عملية إعادة البناء هذه الى درجة ان هذه البلدان أصبحت قادرة على تحدي الولايات المتحدة اقتصادياً ، بل وسياسيا . لكن الهيمنة العسكرية الأمريكية واجهت التحدي والهزيمة في الهند الصينية في حرب فيتنام . وبصعود منظمة البلدان المصدرة للنفط (اوبيك) في الستينات ، دخل العالم الثالث مسار التحدي للولايات المتحدة في حقل

إمدادات المواد الخام الرخيصة الى الولايات المتحدة .

منذ حوالي نهاية الحرب العالمية الثانية ، الى حوالي ١٩٦٦ ، كان معدل الصادرات ـ الواردات (بالنسبة للناتج القومي العام) ٤,٥٪ في الولايات المتحدة . أما بعد ١٩٦٦ وضغط الحرب الفيتنامية ، فقد قفزت الواردات الى معدل سنوي يبلغ ١١,٣٪ بين ١٩٦٦ و ١٩٧٤ . وهذا المعدل السنوي يواصل الارتفاع بسبب الواردات النفطية . كان ميزان المدفوعات الأميركي يتمتع بثمانية بلايين دولار كفائض في ١٩٦٥ ، لكنه أصبح يعاني من عجز مقداره خمسة بلايين دولار في ١٩٧٢ ، وارتفع هذا العجز التجاري الى ٢٥ بليون دولار في ١٩٧٧ » (المصدر السابق نفسه) . ولقد شهد هذا الميزان الكثير من التذبذب منذ ذلك الحين . أنظر الرسم البياني الرقم ٧) .

الرسم البياني الرقم ٧

ميزان المدفوعات بالحساب الجاري ببلايين الدولارات في ١٩٦٧

١٠ـ ٠ ١٠ ٢٠

١٩٥٠ ١٩٦٠ ١٩٧٠ ١٩٨٠

المصدر : بيزنس ستاتستكس ـ الطبعة العشرون ، كرنت بيزنس ، آب ١٩٧٦ .



وهكذا ما أن حلت السبعينات ، حتى كان التحديان : التحدي من الرأسمالية الأوروبية ـ اليابانية ، والتحدي من العالم الثالث ، يلتحمان مع الانهاك في اقتصاد الولايات المتحدة نفسها . ولينتهي هذا بانهاء الهيمنة الأمريكية . وبانتهاء عهد الهيمنة الأمريكية بدأت الأزمة . وباختصار :

« ان التوسع السريع للأعمال الداخلية في السبعينات ، هو كذلك نتيجة طبيعية ترتبت على النجاح في عهد الهيمنة الأمريكية . فالدعائم لتكامل الرأسمالية العالمية كانت قد أرسيت ، وفي ظل هذا النهج ، ضعفت بشكل مطرد قيود الحدود القومية ، وانطلق رأس المال في حركته الحرة. لكن مثل هذا النظام التكاملي في الرأسمالية العالمية كان يستوجب الاستقرار، إنما لم تعد مقومات الاستقرار متوفرة في غياب الهيمنة الأمريكية . وكانت النتيجة ظهور التناقض بين نظام رأسمالي عالمي متكامل وبين نهج رأسمالي كان قد دمر قواعد استقراره » ١٨ .

الأزمة النقدية في العالم الرأسمالي

ان التكامل الرأسمالي الذي أعقب الحرب العالمية الثانية ، أنتج نظاماً مترابطاً ليس فقط عبر الشركات العالمية وانما كذلك عبر المصارف الدولية ، والتبادل النقدي والأسواق النقدية الخاضعة للسيطرة من خلال اتفاقات بريتون وودز . لكن نجاح هذا النظام هو ذاته الذي قاد في النهاية الى زواله . فتدويل رأس المال ساعد في تطوير نظام للتمويل الدولي . وان النمو السريع في الغرب الرأسمالي (وخصوصاً اوروبا) وتوسع الشركات المتعددة الجنسية في العالم الثالث ، كل ذلك خلق فترة من التوسع المالي الهائل .

وفيما يتعلق بداخل الولايات المتحدة ، أدى ذلك الى انفجار ائتماني ، وخصوصاً بالنسبة للفرد . فالدين الفردي بلغ ٦١٣ بليون دولار في ١٩٧٢ ، وما زال يتابع تزايده في الوقت الحاضر .

« ان الافراط في الاقراض والتوسع الزائد في مجالات عمل المصارف » كما يقول سويزي وماجدوف « كانا بالضبط ما كان النظام الرأسمالي بأمس الحاجة اليه لحمايته ولحماية أرباحه . وذلك للتغلب ولو مؤقتاً على تناقضاته ، ولدعم التوسع الامبريالي وحروب الولايات المتحدة » . (منثلي ريفيو ، شباط ١٩٧٥) .

ولقد تمثل التعبير عن ذلك ، على الصعيد الدولي ، في تطورين رئيسيين : المال الاوروبي أو أسواق النقد الأوروبية ، وأزمة الديون التي تعاني منها بلدان العالم الثالث . فسوق النقد الأوروبي تضخم من زهاء سبعة بلايين دولار في ١٩٦٣ إلى ٢٥٠ بليون دولار في ١٩٧٥ ، وما يزال يتابع نموه الكبير بسرعة . هذا النظام الائتماني الجديد يخدم مصالح كل من المصارف والتكتلات الاحتكارية أو الشركات المتعددة الجنسية . فهو يتيح للصفقات المالية أن تأخذ مجراها خارج نطاق التحكم والمراقبة من جانب الحكومات القومية .

بمعنى آخر ، ما حدث هو أن « اللاقومية » أو عملية تدويل رأس المال والنقد ، قد حدثت دون ان تصاحبها أو تقترن بها عملية تدويل للسياسة الحكومية ، وللوكالات والعمليات . هذه الحقيقة ، مضافة الى حقيقة كون الدولار أساساً للنقد الأوروبي ، هما اللتان قادتا الى تدمير تنظيمات بريتون وودز النقدية ، وجعل وكالتها IMP أقل فاعلية في ضبط النظام النقدي الدولي .

وباختصار :

« لقد بدأ النظام النقدي الدولي بالتفتت والانهيار ، بفعل التضخم ، وانتشار المنافسة ، وارتفاع معدلات الفائدة ، وتحول الأنماط التجارية ، وتزايد العجز في التجارة الأمريكية . وان الدولار الأوروبي كان يعدو مسرعاً حول الأسواق النقدية ، وازدادت المضاربات حدة » (جوردون ، ١٩٧٨ ، ص ٣٣) .

وهكذا انهار نظام معدلات التبادل ، الثابت والمستقر ، الذي أنشأته بريتون وودز بين البلدان الرأسمالية المتطورة . وما أن حل العام ١٩٧١ حتى كان الدولار يواجه الضغوط وتهبط قيمته ، ثم خفضت قيمة الدولار مرة أخرى في ١٩٧٣ ، وبرز نظام جديد **وواقعي** لمعدلات « التبادل العائم » . هذه التدابير النقدية متقلبة للغاية ، وقابلة للتوسع السريع ، لكنها قابلة

كذلك للتأزم وبالتالي للخروج عن نطاق السيطرة ، وفي النهاية فقدان الاستقرار . هذه الفوضى والتخبط في الأسواق النقدية أدت الى ضغوط متباينة لتنسيق السياسة النقدية ، ومعدلات الفائدة ، والامدادات النقدية ، والسياسة المالية . وتبرز الأهمية الخاصة لهذه المسألة على ضوء التضخم العالمي الواسع . ومع ذلك فان البلدان الرأسمالية الغربية عجزت عن وضع « بريتون وودز » جديدة ، أو سبل لمعالجة الوضع ذات نطاق يتخطى الكيانات القومية ... سبل قادرة على ضبط الفوضى وتنظيم الأوضاع والتحكم في هيكل الأزمة الرأسمالية العالمية . (انظر **الدين الدولي ، المصارف وسياسة الولايات المتحدة الخارجية** ، تقرير الهيئة ، اللجنة الفرعية للسياسة الاقتصادية الخارجية التابعة للجنة العلاقات الخارجية ، الولايات المتحدة ، (آب ١٩٧٧) .

ويمكن القول بايجاز ، إن النظام النقدي العالمي المتخبط هو من ناحية نتيجة طبيعية للأزمة الرأسمالية المستمرة ، ومن الناحية الثانية عنصر من عناصرها .

« إن قدرة الدول الرأسمالية المتقدمة على تنظيم النظام العالمي بشكل متماسك وثابت ... تبدو غير ممكنة نظراً لأن الأوضاع الاقتصادية والسياسية في كل منها ، تتجه الى أن تستوجب حلولا وضرورات مختلفة وغالباً متعاكسة » .

وختاماً :

« إن الشبح الذي يخيم ظله على العالم الرأسمالي اليوم ، هو الانهيار المحتمل لمؤسساته المالية ونشوء أزمة اقتصادية عالمية . فجو الذعر الخانق ينشر ظلاله على ضوء ما يجري في عدة بلدان رأسمالية ، بصورة متزامنة ، من تضخم خارج على السيطرة ، وانتاج متناقص ، وانعدام الاستقرار في الأسواق النقدية) . (منثلي ريفيو ، شباط ١٩٧٥) .

الشرق الاوسط في الرأسمالية العالمية والاميركية

برز الشرق الأوسط ، وبخاصة العالم العربي ، في الستينات ولكن خصوصاً في السبعينات كمنطقة خطيرة بالنسبة الى كل من الرأسمالية العالمية والرأسمالية الاميركية . وينشأ الكثير من مركزيته من موارد طاقته التي لها وجوه مالية وتجارية واستثمارية . ويمكننا ان ننظم بحث دور الشرق الاوسط (بما فيه خصوصاً العالم العربي) في نطاق الفئات التالية : ١) النفط والطاقة بوجه عام ، ٢) المال ، ٣) التجارة ، ٤) الاستثمار* اما الاعتبارات الاخرى ، كموقعه الاستراتيجي ، وكونه حلقة اتصال ، ومنطقة منافسة سوفياتية ـ اميركية ، ومنطقة حركات عالية التسييس ومناهضة للامبريالية ، فمن الواضح انها حاسمة في الديناميكيات العالمية ولكنها وجوه سنبحثها ادناه . وسوف نشدد على الدور الاقتصادي .

يجب ان نبدأ بالنفط . ان حصة اوبيك في مجموع ما استوردته الولايات المتحدة من النفط قد ارتفعت من ٧٠٪ في العام ١٩٥٩ الى ٨٣٪ في العام ١٩٧٨ . الا ان النسبة من الشرق الأوسط (بما فيه ايران) قد ارتفعت بصورة دراماتيكية اكثر : فقد ارتفعت نسبة مجموع مستوردات

---

* المعلومات عن الاستثمار ليست متوفرة ولكن يجري جمعها الآن .

النفط الاميركية في الشرق الأوسط من ٢١٪ في العام ١٩٥٩ الى ٣٤٪ في العام ١٩٧٨ . وتستنتج المذكرة الى رئيس الجمهورية الاميركية التي اخذت منها الارقام الآنفة الذكر كذلك ان الاعتماد على نفط الشرق الاوسط سيستمر في الزيادة حتى العام ١٩٨٥ على الأقل* . حتى ان هذه المدة قد تطول اكثر اذ ان الطاقة النووية في الولايات المتحدة تتعرض لهجوم سياسي شعبي . وفي حين ان هذه مسألة خطيرة بالنسبة الى الولايات المتحدة ، فان اليابان واوروبا تعتمدان الى حد اكبر بكثير على النفط المستورد : ما يقارب ١٠٠٪ . والكثير ، ان لم يكن اكثرية هذا النفط المستورد هي من الشرق الاوسط ، وبخاصة العالم العربي . وبالنسبة الى اوروبا فانه سيكون لتطورات نفطية جديدة نتائج سياسية مهمة في المستقبل . وتقول الواشنطن بوست :

خلال الأشهر الأخيرة خفضت العربية السعودية الى حد كبير كمية النفط التي تبيعها مباشرة الى شركات نفط اميركية رئيسية . فشركة النفط العربية الاميركية (ارامكو) تتلقى الآن ٦,١ مليون برميل في اليوم ، بالمقارنة مع ٧ ملايين برميل يوميا او اكثر لبضعة اشهر خلت . وفي الوقت ذاته وقع السعوديون عقودا مباشرة مع حكومات اوروبية غربية من اجل نفط كان سابقا مخصصا لتسوقه الشركات الاميركية الرئيسية في اوروبا (١٢ حزيران ـ يونيو ، ١٩٧٩) .

وبما أن هناك دراستين حول مسألة الطاقة والسياسة الخارجية الاميركية في هذا المؤتمر ، فانني لن اتوسع في هذه الناحية من الموضوع . وحسبي ان اكرر الحقيقة الواضحة ان الشرق الأوسط ، ولا سيما النفط (والغاز) العربي ، هو شريان حياة الرأسمالية الغربية واليابانية . ولذا فان السياسة الخارجية لجميع البلدان الرأسمالية ، افراديا وجماعيا ، لا يسعها بحال من الأحوال ان تتجاهل هذه الحقيقة في حساباتها واعتباراتها . وفي ضوء مختلف نجد ان النفط ضروري للأعمال الاميركية .

خلال بعض الأعوام في الستينات جاء دولار واحد من كل اربعة دولارات من الارباح التي اخذتها الشركات الاميركية في الخارج من نفط الشرق الاوسط ، ان خمسا من اعلى ١٠ شركات من الشركات الخمسماية التي ادرجتها مجلة فورتشون في قائمتها لها مصالح واسعة في نفط الشرق الاوسط (س . ريان ، الغارديان ، ٣٠ ايار ـ مايو ، ١٩٧٩) .

الا ان للنفط قضية مشتقة خطيرة هي المال . ذلك ان اسعار النفط ، خصوصا بعد الحظر الذي فرض على النفط في ١٩٧٣ ، قد ارتفعت بسرعة كبيرة وخلقت ارباحا طائلة لشركات النفط ، كما خلقت لأول مرة في التاريخ فوائض لبلدان العالم الثالث المصدرة للنفط ، وكان للزيادة السريعة في الفوائض تأثير عميق على اسواق المال ، والنقد الاوروبي بخاصة ، وعلى المصارف والمال الدولي . مثال ذلك ان الواشنطن بوست تقول :

ان اسعار النفط العالمية المتزايدة باستمرار سترفع حسابات النقد الراهنة لمنظمة البلدان المصدرة للنفط (اوبيك) الى ٢٩ بليون دولار ـ اي بزيادة عشرين ضعفا ـ بنهاية العام ١٩٧٩ ، وذلك وفقا لتقديرات وكالة الاستخبارات المركزية . (٥ حزيران ـ يونيو ، ١٩٧٩)** .

---

* ولا يشمل هذا الغاز الطبيعي من الجزائر .

** من جهة اخرى يقول السناتور تشيرتش انه كان لمصدري النفط في العام ١٩٧٤ وحده « حساب فائض

بعد حظر النفط في العام ١٩٧٣ كانت البلدان المصدرة للنفط ، وبخاصة دول النفط العربية ، اهم البلدان المهمة في اسواق العملة الاوروبية . وقد اعيد استثمار الكثير من مئات البلايين التي جمعت منذ ١٩٧٣ في مؤسسات مالية غربية ، انتهازا لفرص مربحة في الغرب . « في العام ١٩٧٥ كان ١٢٪ من اموال الشرق الأوسط في ادوات وممتلكات العملة الاوروبية . وفي العام ١٩٧٦ ازدادت هذه النسبة الى ١٩٪ » . (هاولي HAWLEY ١٢٤) . ان نمط « اعادة استخدام » البترو دولارات تصفه الخزينة الاميركية بهذه الطريقة :

... من مجموع يبلغ على وجه التقريب ١٣٣ بليون دولار في موجودات مالية جمعتها اوبيك في الفترة ١٩٧٤ ـ ١٩٧٦ ... استثمر ما يقدر بـ ٤٨ بليون دولار في سندات الخزينة الحكومية والاستثمار المباشر الطويل الأمد في البلدان الصناعية . واقرض مبلغ ٩,٧٥ بليون دولار آخر الى منظمات دولية . واودعت الكمية الأكبر بكثير ، ٤٩ بليون دولار او ٣٧٪ من المجموع في مصارف تجارية خاصة ، معظمها في نيويورك ولندن . (الديون الدولية ، ص ٣٦) .

ونتيجة لذلك صارت موارد المصارف الخاصة تقزم موارد مؤسسات الاقراض الرسمية وغير التجارية . ويبلغ مجموع موجودات اكبر ٢١ مصرف تجاري اميركي نحو ٤٠٠ بليون دولار في نهاية ١٩٧٥ ، في حين ان موارد الاقراض لصندوق النقد الدولي والتسهيلات الخاصة للمجلس الاقتصادي الاوروبي بلغت معا ٢١ بليون دولار . ولدى سيتي كورب CITICORP وحدها موجودات بقيمة ٦٤ بليون دولار ، او اكثر مما لدى صندوق النقد الدولي بثلاث مرات ونصف المرة » (الديون الدولية ، ص ٤٣) . وتتلقى العربية السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة ٤٧٪ من ايرادات النفط ولكن لديها ٩٠٪ من الفوائض المالية . واعيد استخدام معظم هذه الفوائض في بريطانيا والولايات المتحدة . وبحلول ١٩٧٧ ، من اصل مبلغ قدر بـ ١٣٣ بليون دولار جمعتها اوبيك (وبالدرجة الأولى العربية السعودية والكويت والامارات العربية المتحدة) اعيد استخدام ١٠٢ بليون دولار او ٧٧٪ في الولايات المتحدة والبلدان الغربية . وتملك الدول المنتجة للنفط موجودات بقيمة نحو ٥٠ بليون دولار في مصارف الولايات المتحدة والمصارف الاميركية في ما وراء البحار ومعظمها في شكل سائل جدا كسندات الخزينة التي يمكن سحبها بسرعة ، واي حركة مفاجئة لهذا الحجم من المال يمكن ان تكون ممزقة للنظام المالي .

لهذا النظام المالي من اموال النفط بعض النتائج المهمة بالنسبة الى العالم الثالث . فلدى المصارف الخاصة زبائن جدد : حكومات اجنبية ، مصارف مركزية اجنبية ، شركات حكومية ، مرافق عامة ، وغيرها من الهيئات الحكومية . وهؤلاء الزبائن من بلدان صناعية ولكن بخاصة من بلدان العالم الثالث تدفقوا على المصارف الخاصة للحصول على قروض . وبما ان التضخم وحالات العجز في ميزان المدفوعات وأسعار السلع ، وخاصة النفط قد ارتفعت ، فان هذه البلدان او الوكالات المتفرعة عنها اضطرت الى الاقتراض اكثر حتى انها في اواخر السبعينات اقترضت مبالغ ضخمة لمجرد تسديد قروض سابقة : « وتقدر دراسة اجرتها

جار يزيد على ٦٥ بليون دولار ، بينما كان للبلدان الصناعية عجز جماعي يبلغ ٣٢ بليون دولار ، وللبلدان النامية عجز يبلغ ٢١ بليون دولار » . وقد تدنت هذه الارقام حتى هذه السنة والآن عكست الاتجاه الى زيادة تصاعدية .

اميركان إكسبرس ان واحدا من كل اربعة دولارات اقترضتها LDC البلدان الأقل تطوراً في ١٩٧٧ سيذهب لتسديد الديون . وبحلول ١٩٨٠ سيستخدم واحد من كل دولارين لتسديد الديون القديمة » . (الديون الدولية ، ص ٥١) . وهذه الحالة تفضي الى « ازمة ديون » ضخمة تبلغ ذروتها الآن في الكثير من بلدان العالم الثالث ولكن يمكن ان يكون لها ايضا تأثير جماعي وخيم ، ومثل « ازمة الديون » هذه التي لا يوجد مناعة منها حتى في بريطانيا تفرض على الكثير من الدول المضطربة تخفيضات وتقشفا وغيرها من القيود التي يمكن ان تطلق جيشانا اجتماعيا وسياسيا كما شاهدنا في مصر في كانون الثاني (يناير) من العام ١٩٧٧ . لكن الأمر الأكثر مدعاة للتشاؤم بالنسبة الى النظام الرأسمالي ككل هو **سيناريو يوم الدينونة** التالي :

يجادل بعض المراقبين بانه فيما يزداد عبء تسديد الديون بالنسبة للكثير من البلدان نحو نهاية هذا العقد ، فان الوقت قد يأتي عندما سيجد واحد او اكثر من هذه البلدان انه في مصلحته اكثر ان يستمر في الاقتراض لتسديد الديون القديمة فقط . واذا حدث هذا ، فقد يحدث تأثير دومينو تحذو فيه البلدان المدينة حذوها . وآنذاك ستصاب المصارف بالذعر وتبدأ في استدعاء قروضها الدولية . وسيهبط سوق الأسهم بشكل حاد وينهار سوق الرأسمال الدولي . (الديون الدولية ، ص ٥) .

وفي الختام نقول ان حجم واهمية اموال البترول بوجه عام ، وخصوصاً فوائض اموال النفط العربية (التي تمثل ٩٠٪ من فوائض اموال النفط) بالنسبة الى الرأسمالية العالمية والرأسمالية الاميركية ، لا سابق لهما تاريخيا . ويعطي هذا بعض الدول العربية « سلاحا ماليا » لا يقل اهمية عن « سلاح النفط » . وبالطبع ان الحدود التي يمكن ضمنها استخدام هذين السلاحين اما لاغراض اقتصادية او سياسية هي العائق بالنسبة للدول او الاقتصادات المتشابكة ، العربية والغربية .

بيد ان اهمية اموال النفط العربية ، وبخاصة البترو دولارات السعودية ، ليست محدودة بالمبالغ الضخمة واعادة استخدامها في الولايات المتحدة وبقية الغرب ، والحقيقة هي ان هذه الفوائض ، اولا وبالدرجة الأولى بالنسبة للولايات المتحدة ، قد ابقت الدولار الاميركي عملة الاحتياط والصفقات الدولية على الرغم من انهيار اتفاقيات بريتون وودز BRETTON WOODS واضعاف الدولار وخفض قيمته . وهذا الدولار الامبريالي يستمر في منح الولايات المتحدة امتيازات هيمنة على الرأسماليات اليابانية والاوروبية المتنافسة وعملاتها* .

ان المحافظة على الدولار كعملة امبريالية ممكنة جزئيا لأن سياسة اوبيك ، وخصوصاً سياسة العربية السعودية مع كل الفوائض الضخمة تربط سعر النفط بالدولار الاميركي ، ودفع ثمن النفط بالدولار الاميركي* .

* هذا المركز الامبريالي لا يخلو من الخطر . فانه لأمر اصعب على الولايات المتحدة ان تتلاعب باسعار التبادل لخلق وضع مستقر . ويمكن ان يفضي الى مشكلات في تطبيق السياسة الاقتصادية الداخلية .

* الولايات المتحدة لا تشجع الابتعاد عن الدولار الى « سلة عملات » الخ ، الا في الحالات المتطرفة حيث الممتلكات الاجنبية بالدولار تهدد الصحة الاقتصادية الاميركية الداخلية .

وستبذل الحكومة الاميركية قصارى جهدها لاغراء الحكومة السعودية او الضغط عليها للمحافظة على هذه السياسة . وبالفعل يمكن القول ان السيطرة الاقتصادية الاميركية المستمرة عالميا تتوقف على هذه الممارسة والسياسة . وبدونها ستنزلق الولايات المتحدة اكثر فاكثر وستخوض في منافسة اشد شراسة مع البلدان الرأسمالية . وباختصار ان هذا الدور الاقتصادي غير المنظور لمصدري النفط العرب هو الذي يجعل العالم العربي في مثل هذه الاهمية البالغة بالنسبة الى السياسة الخارجية والسياسة الاقتصادية الاميركية .

وبعدما اثبتنا هذا الدور الاقتصادي الخطير للعالم العربي ، لنتحول الآن الى وجوه اضافية اخرى : التجارة . يظهر الجدول رقم ٢ الارقام حول تجارة الولايات المتحدة مع الشرق الأوسط بما فيه البلدان العربية خلال الاعوام الستة الماضية : ١٩٧٢ ـ ١٩٧٧ . وهذه الارقام ، كما هي الحال في جميع الحقول الاخرى تقريبا ، تزداد بصورة دراماتيكية ، شابكة الولايات المتحدة اكثر فاكثر مع العالم العربي . ومع هذا فان النسب ليست عالية جدا . وكما يلاحظ في الرسم البياني ، فان صادرات الولايات المتحدة الى العالم العربي بلغت مجموع ١١٧٢,٣ مليون دولار او ٢,٣٦٪ من مبيعات الولايات المتحدة العالمية . وبحلول ١٩٧٧ بلغ المجموع ٨٢٥١,٥ مليون دولار او ٦,٨٧٪ . وبالنسبة الى الشرق الأوسط ككل ، فان الزيادة هي من ٥,٢٢٪ من صادرات الولايات المتحدة العالمية في ١٩٧٢ الى ١٠,٧٧٪ في ١٩٧٧ . وخلال هذه الفترة نفسها ارتفع مجموع التجارة الاميركية (الصادرات والمستوردات) مع الشرق الأوسط بسرعة اكبر بكثير من سرعة ارتفاع تجارة الولايات المتحدة مع العالم ، والعربية السعودية هي النجم في هذا الحقل . وجميع الارقام المذكورة آنفا هي في التجارة المدنية ، باستثناء المبيعات العسكرية .

الجدول الكبير

المبيعات العسكرية الاميركية الى الشرق الأوسط ضخمة . وهي تمثل نسبة مئوية اعلى بكثير من المجموع العالمي .

بدءا من سنة ١٩٧٣ المالية ، نجد ان مبيعات الأسلحة الى « منطقة الخليج العربي » (ايران ، العربية السعودية ، البحرين ، عمان واليمن) وحدها هي على الأقل ٥٠٪ من مجموع العالم . وفي العام ١٩٧٧ بلغت المبيعات ٦٠٢١,٦ مليون دولار من اصل مجموع عالمي يبلغ ٩٥٠٥,٥ مليون دولار .

وتمثل التجارة العسكرية والمدنية مجتمعة مع العالم العربي والشرق الاوسط نسبة مئوية من مجموع المبيعات الاميركية اعلى بكثير من النسبة المئوية للسلع غير العسكرية وحدها . ومن هنا برز العالم العربي والشرق الأوسط من جديد كمنطقة بالغة الاهمية بالنسبة للرأسمالية الاميركية .

وباختصار ، في ما يتعلق بالنفط والمال والتجارة (وربما الاستثمار) فان العالم العربي ـ الشرق الاوسط حيوي للرأسمالية الاميركية . وهكذا فان الاستقرار السياسي على الأقل ، او في افضل الأحوال السيطرة على المنطقة التي يمكن ان تضمن وتفرز هذه العلاقة

المربحة صارا فجأة يحتلان المرتبة العليا في الاولوية بالنسبة الى راسمي السياسة الخارجية الاميركية . وهذا تطور حديث تم خلال عقد السبعينات . ويفسر هذا ، اذن ، الدخول او التدخل الاميركي سياسيا وبلوماسيا وحتى عسكريا في المنطقة ، وهذا ، ايضا ، هو الذي يدفع الحكومة الاميركية ، بعد اعوام طويلة من الاهمال الكريم ، الى معالجة المسألة الفلسطينية اذ انها تنظر الى تلك المسألة كمصدر رئيسي لجعل المنطقة غير مستقرة وللتعبئة الشعبية المناهضة للامبريالية (اي المناهضة لاميركا) في المنطقة .

غير ان السيطرة السياسية على الشرق الاوسط ، بما فيها معالجة المسألة الفلسطينية ، ليست مهمة سهلة بالنسبة الى الولايات المتحدة . فهذه المهمة متشابكة مع مجموعات متعددة من التناقضات في سياق ازمة رأسمالية عالمية وازمة في الاقتصاد الاميركي . وهذه التناقضات هي التنافس الاميركي مع البلدان الراسمالية الاخرى ، والنزاع ـ الوفاق الاميركي مع الاتحاد السوفياتي عالميا واقليميا (مباشرة او بالوكالة) ، ونزاع الولايات المتحدة مع العالم الثالث (التحرر الوطني) .

المنافسة بين البلدان الراسمالية وازمة القوة

لقد برزت اقتصادات الشرق الأوسط عموماً ، واقتصادات العالم العربي بصورة خاصة ، منذ أوائل السبعينات ، بشكل تكاملي مع كل من الرأسمالية الأمريكية والرأسمالية العالمية . على ان الشرق الأوسط متشابك مع الرأسمالية الغربية بشكل متناقض ، ذلك انه يسهم في رخائه من ناحية ، وفي مشكلاته من ناحية أخرى . ونجد بشكل محدد أن السعر المتزايد للنفط (أو تقليص التجارة الشاملة ، أو إنهاء قاعدة الدولار النفطي) يعزز التضخم ، ويزيد من حدة الركود ـ التضخم الأميركي . إنما بدون النفط الوفير والفوائض المالية ، قد تصاب الرأسمالية بالركود (في أحسن التقديرات) أو تنهار (في أسوأ التقديرات) ، مما يهدد بدوره نظام الرأسمالية العالمية . وان الرأسمالية الأمريكية ، دون هيمنتها على الشرق الأوسط ، وفي أدنى التقديرات ، تفقد مركزها الراهن باعتبارها الأولى بين أكفاء بالنسبة الى الرأسماليات الأوروبية ـ اليابانية .

ومنذ فقدان هيمنتها الاقتصادية (ومعها الهيمنة السياسية والعسكرية) راحت الولايات المتحدة تبحث عن نظام عالمي جديد ، يمكنها من تنظيم الرأسمالية المتعددة المراكز والتنافس المحتم فيما بينها .

كان نظام « المراكز الثلاثة » وعقد مؤتمرات الذروة ، أبرز الجهود التي بذلت بحثاً عن آليات عملية لمعالجة كل من المنافسة بين البلدان الرأسمالية ، والمشكلات المشتركة التي تجابهها الرأسماليات العالمية ، نتيجة لكونها أصبحت متشابكة الى حد بعيد في نظام رأسمالي عالمي . وان المشكلات التي تواجهها جميعا ، عديدة وكثيرة ، مع وجود أوضاع خاصة بكل بلد منها . وبين هذه المشكلات : التضخم ، وازمة الديون الدولية ، والطاقة ، والسياسات النقدية والمالية ، والأعمال المصرفية غير المنظمة ، والسياسات العامة للحفز الاقتصادي ، وتنظيم التسلح ومبيعات السلاح ، وتهديد سياسة الحماية التجارية ، والحرب التجارية ، وأخيراً

النزاع الاجتماعي ــ السياسي . وان الرأسماليات الغربية واليابانية منظمة بصور مختلفة وغير متكافئة ، ولهذا فان أي حل شامل أو صيغة مركزية ذات نتائج مختلفة لا تقبل بها إحدى هذه الرأسماليات أو أكثر . ولهذا هناك شلل ينتاب عملية صنع القرار السياسي وفي التطبيق على المستوى العالمي . فالولايات المتحدة اللامسيطرة ليس في وسعها أن تفرض ارادتها كما فعلت في أعقاب الحرب العالمية الثانية في مرحلة الذورة للسيطرة الأمريكية . لقد كان الناتج الممكن الوحيد للعلاقات الرأسمالية المتداخلة ، وربما كان نفسه الناتج الوحيد الممكن مستقبلا ، عقد اتفاقات بهذا الشأن سرعان ما تنحل وتتفكك ليعاد ترقيعها من جديد . هذا هو جوهر أزمة الامبريالية . وباختصار نقول إن تراكم رأس المال على مستوى عالمي يتطلب الحفاظ على نظام سياسي ، وتنسيق مشترك للسياسات السياسية ــ الاقتصادية ، وعملة دولية مستقرة ، وتجارة حرة ، وحدود مفتوحة أمام الاستثمار . لكن تدويل رأس المال (أي جعله يتخطى الكيانات القومية) . وانهيار الاجراءات المالية ، وعودة ظهور رأسماليات متنافسة وشبه متساوية ، يجعل من المستحيل على أية دولة أن تتولى زمام القيادة بمفردها ، وبدرجة أقل أن تمارس السيطرة . وهكذا فان المعدلات المتفاوتة للنمو ، والنزاعات الداخلية المتباينة بين الأمم الرأسمالية الرئيسية يجعل من شبه المستحيل تنظيمات سياسية ــ اقتصادية ثابتة فيما بينها . ففترات الاتفاق والتعاهد ، سرعان ما تعقبها فترات التنازع والتنافس على الصعيد الدولي .

ان معضلات هذا النظام نافعة في المرحلة الراهنة لبلدان العالم الثالث عموماً ، وللعالم العربي خصوصاً ، نظراً للأهمية البارزة والهائلة للعالم العربي على الرأسماليات العالمية المتنوعة كما مر معنا . ولهذا ليس مفاجئاً ولا مدهشاً ما نراه من مسعى مختلف القوى الرأسمالية الامبريالية لاقامة علاقات أفضل مع العالم العربي ، وبأسلوب الاحتيال والمناورة ، في حين تقوم هذه القوى بالتنافس وبتوتير العلاقات فيما بينها . وتحت عنوان : « الطاقة والشرق الأوسط يوتران علاقات واشنطن المنسجمة » (٦ حزيران ١٩٧٩) :

« ... مصادر جديدة للتوتر تظلل العلاقات الفرنسية ــ الاميركية ، بينما تسوق أزمة الطاقة من ناحية ، واتفاقية السلام المصرية ــ الاسرائيلية ، كلا من واشنطن وباريس ، في منحى مختلف » .

« لقد ابلغ كارتر وزير الخارجية (الفرنسي) خلال اجتماعهما الذي استمر ٢٠ دقيقة ، ان (فشل فرنسا في دعم الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية) « يميل الى تعزيز موقف الراديكاليين ، ويضطر المعتدلين (في العالم العربي) إلى إخلاء ساحة الاعتدال » . (أنظر **واشنطن بوست** ، ٦ حزيران ١٩٧٩) .

كما يمكن ملاحظة توتر مماثل يشوب العلاقات البريطانية ــ الأميركية ، وخصوصاً بشأن مسألة روديسيا . فان قبول حكومة تاتشر البريطانية الجديدة بحكومة موزيريوا ، وعزمها على رفع العقوبات الاقتصادية عن روديسيا ، يتعاكسان مع سياسة كارتر القاضية بالابقاء على هذه العقوبات . وان في استطاعة دول العالم الثالث وحركات التحرر الوطني والقوى الثورية في العالم ان تفيد من هذه الفرصة التاريخية لتستغل هذه التشققات في المعسكر الرأسمالي . وفي

استطاعة هذه الدول والقوى والحركات أن تعتمد على حقيقة أن الراسمالية الغربية على الأرجح غير مستقرة وليست حاسمة ، إنها ـ ومن المرجح ان يستمر هذا ـ انجرافية في التيار . ولعل المثل الأفضل لهذه السياسة الانجرافية كان خلال الثورة الايرانية عندما أمر الرئيس كارتر بتحرك وحدات من الاسطول الأميركي السابع الى المحيط الهندي قرب ايران ثم ـ وفي خضم الأزمة ـ صدرت الأوامر الى هذه القوة لكي تدور وتعود الى الشرق الأقصى . فالخطوات الجريئة سرعان ما تنعكس أو تواجه الاخفاق . والسياسة الخارجية تبدو متذبذبة وتتقاذفها الأمواج .

ان عجز الولايات المتحدة عن التدخل في انجولا واثيوبيا وافغانستان واليمن الديموقراطية ، وفوق هؤلاء جميعاً في ايران ، لمحاولة عكس التيار وقلب الموجة لصالحها ، هو مؤشر على ما قد أسميه **بأزمة القوة الأمريكية** .

أزمة القوة الأمريكية هذه ، يجري التعبير عنها كذلك في النزاع بين حكومة الولايات المتحدة (ادارة كارتر) وبين الكونجرس ، حول مسألة العقوبات ضد روديسيا . فالأمر يبدو وكأن لكارتر سياسة هي سياسة الخط المتشدد ، وكأن للكونجرس سياسية أخرى هي سياسة الخط اللين . والشأن نفسة ، كما سنرى لاحقاً ، ينطبق على الشرق الأوسط ، على الرغم من أن مواقع اللين والتشدد تبدو هنا مختلفة .

أزمة القوة الأمريكية والمحكومية Governability والشرق الأوسط

أزمة القوة في السياسة الخارجية المشار اليها أنفاً ، لها ما يقابلها على صعيد السياسة الداخلية . فتقرير اللجنة الثلاثية المعنون **أزمة الديمقراطية** (نيويورك : منشورات الجامعة ، ١٩٧٥) يشخص الولايات المتحدة باعتبارها تعاني من **أزمة في المحكومية Crisis of governability** . والتقرير يحمل بكل قسوة على ما يلاحظه من انحطاط في « شرعية القسر ، والنظام ، والسرية ، والخداع » . ويدعو التقرير بدلا من ذلك ، الى «الاعتدال في الديموقراطية » من أجل افساح المجال أمام قدر أكبر من المحكومية Governability . « هذا العجز في المحكومية » ينذر بالشؤم في رأي واضعي التقرير ، لأنه يحدث في مرحلة دولية طابعها « الندرة الاقتصادية ، والتضخم ، وامكان نشوء ركود اقتصادي ذي أجل طويل » . فالدولة الأمريكية التي كانت على الدوام قادرة على الحفاظ على/ أواخر الطلب الاقتصادي الاجمالي ، والتي كانت قادرة على ضبط المنافسة ، وضبط الصراع الطبقي (كالعلاقات بين الادارة والعمال) وتخفيف الضائقة الاجتماعية ، ومعالجة السخط الاجتماعي ـ الاقتصادي ، تجد ان من العسير عليها في السبعينات التأثير في النواحي السالفة الذكر . صحيح انه كما يبين الجدول الرقم ٢ ، فان هناك هبوطاً حاداً في موثوقية الزعامة للمؤسسات الأمريكية الرئيسية . فالادارة الاتحادية ، والكونجرس ، والقوات المسلحة ، مثلها في ذلك مثل الشركات العملاقة ، كابدت انهيارا مثيرا في درجة الثقة بها على الصعيد الشعبي . وكنتيجة طبيعية للأزمة الاقتصادية والأزمة الملازمة لها في الثقة السياسية ، نجد في الولايات المتحدة حالياً موجة واسعة للغاية من تبديل التحالفات وتغيير المواقف والتقلب المستمر ، في علاقات القوى السياسية ببعضها بعضاً . وان التحالف الأعظم بين الشركات الكبرى والليبرالية الذي شكله روزفلت في الثلاثينات ، والذي ساد الولايات المتحدة منذ ذلك الحين ، يتعرض الآن للارتجاج . واذا استثنينا الايديولوجية (التي تبقي عليها وسائط الاعلام) ، فاننا لا نجد أي إجماع قومي .

الجدول الرقم ٣
ما الذي يقلق اللجنة الثلاثية ؟
... تدني الثقة في المؤسسات الرئيسية
النسبة المئوية للجمهور الذي يعبر عن « ثقة عظيمة » في القيادة في :

	١٩٦٦	١٩٧٣	التغير ١٩٦٦ ـ ١٩٧٣
الادارة الاتحادية	٤١	١٩	ـ ٢٢
الكونجرس	٤٢	٢٩	ـ ١٣
المحكمة العليا	٥١	٣٣	ـ ١٨
القوات المسلحة	٦٢	٤٠	ـ ٢٢
الشركات الكبرى	٥٥	٢٩	ـ ٢٦
التنظيمات العمالية	٢٢	٢٠	ـ ٢
التعليم العالي	٦١	٤٤	ـ ١٧
الصحافة	٢٩	٣٠	+ ١
أنباء التليفزيون	٢٥	٤١	+ ١٦

فيما يتعلق بالسياسة الاقتصادية تداعى الاجمـاع الكينزي ، وظهرت في السياسة عملية التشظي . وهناك إجماع اقل كذلك في أوساط الطبقة الحاكمة حول سؤال : الى أين ؟ وحول مسألة طبيعة الأزمة ، وحول طبيعة الحلول . وهذا أمر مزعج بصورة خاصة ، وفقاً لما يقوله أحد كتاب تقرير اللجنة الثلاثية :

« ان الحكومة التي تفتقر الى الصلاحية والملزمة ببرامج داخلية ملموسة ، تجد لديها القليل من المقدرة ... لكي تفرض على شعبها التضحيات التي قد تكون ضرورية لمعالجة السياسة الخارجية والدفاعية . **إن هبوط القوة الأميركية وهبوط النفوذ الأميركي في الشؤون العالمية أمر (يتصل مباشرة) بأزمة المحكومية Governability** » . (خطوط التشديد من عندما) .

ويمكن أن نلخص هذا كله لنقول بايجاز إن الولايات المتحدة ، وفق أحكام المؤسسة الأميركية والنقاد التقدميين ، تعاني من أزمة محكومية Crisis of Governability ، وأزمة قوة ، ومن شلل في رسم السياسات ووضعها موضع التطبيق .

هناك خلاف وشلل في الولايات المتحدة حول الشرق الأوسط والقضية الفلسطينية . هذا الخلاف أو الشقاق بسيط ومن اليسير تحديده في بعض النواحي ، لكنه معقد ومتلاحم مع موضوعات أخرى ، في نواح أخرى . وبادىء ذي بدء نقول انه لا توجد قطاعات محددة في الاقتصاد الأميركي ، تقف بشكل صريح وقاطع الى جانب العرب وضد اسرائيل ، أو العكس . وهكذا ، فان المصالح النفطية ليست مساندة للعرب أو مناصرة للفلسطينيين اكثر من أي قطاع آخر مثلا . ولعل السبب الأساسي هو أن المصالح الاقتصادية ، النفطيـة والماليـة ،

والعسكرية ـ الصناعية ، متداخلة وملتحمة ومتشابكة ومتكاملة الى درجة ان من المتعذر أن نجد بينها فوارقَ قاطعة وخطوطاً فاصلة محددة وواضحة ، أو تناقضات ظاهرة . ومع ذلك فان التناقضات تبرز بين الدوليين (ويضم هؤلاء رجال صناعة النفط والمالية وسواهم) وبين رأس المال الأكثر قومية والى جانب الفريق الأخير هذا ـ وان بدرجة أقل نسبياً ـ معسكر العسكريين ـ الصناعيين . فهذا المعسكر الأخير يميل الى الاتجاهات الصقرية نحو الاتحاد السوفياتي وشؤون العالم الثالث بما فيها الشرق الأوسط وفلسطين . وهناك قطاعات مهمة من المجتمع اليهودي الأميركي تقيم علاقات متينة مع هذه القوة الاجتماعية التي تتطور على شكل ائتلاف محافظ جديد . وكارتر يسعى كذلك لمد الجسور معهم .

أما في داخل مؤسسات الدولة فان بعض الموضوعات فقط يمكن أن تكون مثار خلاف في الآراء . وبالتحديد ، يمكن أن تظهر خلافات في الرأي بين الخارجية الأمريكية ، والبنتاجون والخزانة ، حول النفط ، والشؤون المالية ، واوبيك ، إنما لا توجد خلافات ظاهرة فيما يتعلق بقضية فلسطين . وما ترويه الأقاويل عن مختلف الدوائر والوزارات ، ان هناك خلافات بين الأشخاص المسؤولين .. بعضهم مناصر لاسرائيل وبعضهم الآخر بدرجة أقل ، وأحياناً تتحدث الأقاويل عن فلان المعادي لاسرائيل و/ او المعادي للسامية .

لكن الخارجية الأمريكية هي موضع اتهام بصورة خاصة ، من قبل الدوائر السياسية المساندة لاسرائيل . انها بالتأكيد ليست معادية للصهيونية ، لكنها قد تضم بعض العناصر التي تعارض سياسة التوسع الاقليمي الاسرائيلية . ولقد اتهمت منذ أمد بعيد بشيء من صبغة العداء للسامية .

على العموم، يمكن القول ان السلطة التنفيذية ، تمثل مصالح رأس المال الاحتكاري أكثر من أي شيء آخر . وبناء عليه ، فانه ليس أمراً عجباً أن كارتر ومونديل واثني عشر شخصاً غيرهما من كبار أعضاء الفريق الحاكم (وبينهم فانس وبلو منتال وزير الخزانة وبريجنسكي) هم من جماعة اللجنة الثلاثية . وفي حين ان الادارة تولي الاحتكارات اهتمامها ، فان الكونجرس أكثر تنوعاً طبقياً ، حيث يتوفر تمثيل للمصالح الدولية ، والقومية ، والمنطقية ، بل وحتى المحلية جداً .

في أوقات الأزمات ، لا يوجد مركز واضح للسيطرة وطغيان النفوذ على غيره من المراكز . وبهذا فانه في موضوع الشرق الأوسط وفلسطين ، فان السلطة التنفيذية ـ بما فيها وزارة الخارجية ـ هي أكثر تقديراً وتفهماً للموقف العربي وللقضية الفلسطينية . والأمر نفسه ينطبق على « الدوليين » في أوساط المؤسسة سواء من كان منهم في الحكم أم لم يكن . فبالنسبة لهؤلاء جميعا ، يمثل تقرير بروكينجز (الذي هو أحد منجزات فكر اللجنة الثلاثية) والذي نشر بعنوان : **نحو سلم في الشرق الأوسط : تقرير لجماعة دراسية** ، بروكينجز ، ١٩٧٥ ، يعتبر هذا التقرير بالنسبة للأوساط السالفة الذكر ، برنامج العمل للتسوية . ويقوم التقرير على قرار الأمم المتحدة الرقم ٢٤٢ مع تطبيع الدولة وجعلها علاقات دولية ، و « حكم ذاتي فلسطيني في الضفة الغربية (وغزة) ؟ ، إما ككيان مستقل أو ككيان ملحق بالأردن » . ويمضي التقرير الى القول : « انه لمن العسير ان نرى كيف يمكن إقامة تسوية شرق أوسطية دائمة ، لا تسلم

بطريقة من الطرق ، بحق تقرير المصير لمعظم (كذا) الشعب الذي يعيش الآن في الضفة الغربية ... » وتتوفر في الكونجرس جميع درجات التأييد والمعارضة لهذا المخطط . وثمة الآن أكثر من أي وقت مضى ، أصوات في الكونجرس تنقد أو تتساءل عن التصلب الاسرائيلي ، خصوصاً السياسة الاسرائيلية نحو التسوية . لكن هذا لا ينبغي أن يقودنا الى الاعتقاد بأن اسرائيل فقدت دعم الكونجرس . فالأمر ببساطة ان الاجماع القوي الذي طالما تمتعت اسرائيل به في اوساط الكونجرس ، يمر الآن بمرحلة من الضعف النسبي .

طالما اننا سجلنا أن السلطة التنفيذية وكذلك ذوي الاتجاهات الدولية في المؤسسة السياسية الأمريكية ، قد تقبلوا وثيقة بروكينجز باعتبارها البرنامج للحل في الشرق الأوسط ، فلماذا إذن لم يسع كارتر لتطبيق بنود تلك الخطة وتنفيذ ذلك البرنامج ؟ مرة أخرى الجواب هو الشلل والعجز والركود في السياسة الأمريكية وفي القوة الأمريكية وفي الحكومية الأمريكية Governability . ولكي نفهم هذه المسألة بشكل ملموس أكثر من المهم أن نشير الى مجموعة العوامل المتنوعة التي تشكل المعادلة السياسية الأمريكية الراهنة . وأولها هو تداعي وضعف مركز الرئاسة منذ جونسون ونشوء الأزمة السياسية ــ الاقتصادية . ويتمشى مع العامل السابق تنامي قوة مركز الكونجرس كمنافس للرئاسة في هذا الميدان ، ميدان السياسة الخارجية . وثاني العوامل أن التحالفات السياسية القائمة هشة وغير ثابتة ولا مستقرة ، كانعكاس للشلل السياسي والتنافس القائم في صلب « المؤسسة » من ناحية ، وكعنصر مغذ لهذا الشلل ولذلك التنافس من ناحية ثانية . أما ثالث العوامل فهو أسطورة الصوت اليهودي والحلف الصهيوني وتأثيره على الشؤون الداخلية والدولية بالتعاون مع مجموعات المصالح والكتلة الضاغطة في الكونجرس ، هذا يبقي القوى الفاعلة مساندة لاسرائيل ومعادية للفلسطينيين ، باعتبار أن الفلسطينيين يمثلون « نقيضة » اسرائيل . أما رابع العوامل فهو أن منظمات اتحاد العمال تقف بحماسة الى جانب الصهيونيين وضد الشيوعية ، منذ أمد بعيد ، وذلك بسبب سيطرة الجناح اليميني عليها . وهذا يقودنا الى العامل الخامس ، وهو أحبولة تداخل موضوع اسرائيل/ فلسطين بقضية الحرب الباردة ومعاداة الشيوعية ومعاداة السوفيات ايديولوجية ومواقف . فمعاداة الشيوعية ومعاداة السوفياتية صارتا تعنيان مناصرة اسرائيل ومعاداة الفلسطينيين في الشرق الأوسط . وأخيراً ، العامل السادس ، ظهور اتجاهين سياسيين : مجموعات الاهتمام المنفرد كجماعة الحفاظ على البيئة وجماعة معاداة الطاقة النووية ، واللامبالاة السياسية والانسحاب من المشكلات الدولية للاهتمام بالذات ، والعزوف عن « المعارك الجانبية » . وبالطبع فان ضعف اليسار ، قديمه وجديده ، في الولايات المتحدة ، يمثل خسارة صافية للقضية الفلسطينية .

ان المشتقات الديناميكية من العوامل السالفة الذكر ، في المعادلة السياسية الأميركية ، تترجم عمليا وبصورة إجمالية الى شلل سياسي وعجز السلطة التنفيذية عن المبادرة والحسم. وبالنسبة لكارتر وادارته ، تعني محاولة تطبيق برنامج بروكينجز ، فتح معركة متعددة وشائكة ومفتوحة مع حشد من القوى السياسية داخل المؤسسات الرسمية وخارجها . وان ما سيضطر لتقديمه كارتر ومساندوه والقوى الداعمة له ، في سياق معركة مديدة وصعبة كهذه ، من تنازلات ومقايضات وخسائر ، تمثل ثمنا باهظا بالنسبة له وعبئاً على مصالحه شخصياً ومصالح

مؤيديه . واذا ما دخل كارتر معارك كهذه ، قد يخسر الانتخابات الرئاسية المقبلة إذا ما قرر خوضها . ولهذا فان من الأيسر والأدعى للراحة الخضوع لتصلب بيجن وضغط السادات ، بدلا من العكس . فهذا العكس سيجر عليه معركة سياسية داخلية هو لا يريدها .

وفي الحقيقة أن اسرائيل قد وصلت إلى حد تضييق مجال الخيارات السياسية الاميركية تجاه العالم العربي . أي أن اسرائيل قد قيدت ، بصورة متزايدة ، يدي الولايات المتحدة فيما يتعلق بالنزاع العربي ـ الاسرائيلي/ الفلسطيني الصهيوني .وعلى سبيل المثال ، من أجل تنازل ثانوي في مجال الانسحاب من سيناء ، اجبرت اسرائيل الولايات المتحدة على الالتزام بعدم اقامة اتصال رسمي بـــم . ت . ف . وهذا الأمر قدم لنامشهدأسوقيا من الاتصالات غير المباشرة ، والسرية والملتوية بين م . ت . ف . والولايات المتحدة . والأمر الأكثر أهمية ، أن اسرائيل كنظام استعماري استيطاني تملك دينامية خاصة بها ، أي قوانين حركتها الخاصة ، التي تتناقض ، تناقضاً ثانوياً ، مع دينامية الامبريالية .

إن الاستعمار الاستيطاني يتميز بغزو الأرض ، والتغيير السكاني ، (استبدال السكان المحليين بالمستوطنين) . وبالتدريج غزو واستغلال العمال المحليين . وفي العادة يكون هذا مرتبطاً بالاستراتيجية الامبريالية الشاملة وجزءاً صغيراً منها ، تلك الاستراتيجية التي تقضي باكتساب السيطرة الاقتصادية والسياسية وحتى الاجتماعية على المناطق غير الاوروبية .. إن المستوطنين يشكلون الشرطة المحلية للامبرياليين . ومع ذلك ، عندما يكتسب السكان المحليون قدراً كافياً من القوة يتحدون بها المصالح الامبريالية ، يجري التضحية بالمستوطنين ، من أجل الوصول إلى ترتيب علاقات جديدة مع السكان المحليين الناهضين . لقد كان هذا ما جرى في فرنسا الديغولية بالنسبة للجزائر . وهذا ما جرى في كينيا وفي روديسيا مع الحكومة البريطانية . وحتى ما جرى مع بريطانيا في فلسطين عام ١٩٣٩ واعوام ١٩٤٥ ـ ١٩٤٨ . فعندما يبدأ السكان المحليون بتهديد المصالح الموضوعية العليا في البلاد وفي الخارج ، يصل التناقض بين الامبريالية والاستعمار الاستيطاني الى حد الصدام : المنظمة العسكرية السرية الفرنسية في الجزائر ضد الجيش الفرنسي ، الارغون ضد الجيش البريطاني . فعندئذ فقط يتم التضحية بالمستوطنين لصالح الترتيب الاستعماري الجديد للعلاقات مع السكان المحليين .

بالنسبة للولايات المتحدة واسرائيل ، برز هذا التناقض بشكل جنيني . ومع ذلك لا تزال اسرائيل هي الشرطة المحلية الرئيسية . فلا العرب (السكان المحليون) أقوياء بصورة كافية لتحدي مصالح الولايات المتحدة ، ولا يوجد حلفاء عرب (سكان محليون) موثوقون ومتمتعون بالاستقرار ، لأداء نفس الوظيفة . ولهذا ستحاول الولايات المتحدة كبح دينامية الاستعمار الاستيطاني ، ومنعه من تجاوز الحدود المناسبة (هكذا وصلت الولايات المتحدة إلى اعتبار المستوطنات الاسرائيلية في الضفة الغربية وقطاع غزة ، « غير شرعية ») ، بحيث تؤدي إلى زيادة سوء العلاقات بين العرب (السكان المحليين) والاميركيين (الامبريالية) . وهكذا يصبح من الضروري **انقاذ اسرائيل من نفسها** حسب ما ورد في مقالة شهيرة لجورج بول ، أحد الرسميين العاملين في السياسة الخارجية الاميركية ، نشرتها مجلة فورين افيرز (الشؤون الخارجية . إنه خادم جيد ومخلص للمصالح الاميركية الاحتكارية الدولية .

وهكذا فان الولايات المتحدة تبنت موضوعيا خطة بيجن للحكم الاداري الذاتي . وانها ــ مثل اسرائيل ــ تسعى للعثور على فلسطيني أو فلسطينيين يتقبلون بعض هذا الحكم الذاتي الاداري . الولايات المتحدة تبحث حقاً عن موزيريوا فلسطيني .

وخلاصة القول أن المصالح الرأسمالية ذات الاتجاه الدولي في الولايات المتحدة ، تدرك جيداً ما يمثله من تهديد لمصالحها الافتقار الى تسوية ثابتة ومديدة في الشرق الأوسط (تشتمل على حق تقرير المصير للفلسطينيين) ، لكنها مع ذلك عاجزة عن تطبيق كلامها ، لماذا ؟ بالضبط بسبب شللها .. إنها مرة أخرى أزمة الحكومية Governability وأزمة القوة .

ان الولايات المتحدة لا تمتلك في أيديها ٩٩٪ من الأوراق . بل انها بالكاد تملك أياً من الأوراق المتعلقة بحل المشكلات الخاصة بالشرق الأوسط وفلسطين . وكائنة ما كانت قوة الولايات المتحدة ، فانها تستخدمها لابتزاز التنازلات من العرب لا من الاسرائيليين ، كما أصبح السادات يعلم الآن .

إنه هذا الشلل بالذات ، الذي أخرج الى العلن الجدل الحكومي الداخلي حول استخدام القوات المسلحة الأميركية في الشرق الأوسط . وان خطوط المعركة في هذا الجدل قد رسمت ، حيث الخارجية ضد مثل هذه الروح المغامرة ، وحيث مجلس الأمن القومي والبنتاجون مع ، وكلاهما من الصقور المعادين للسوفيات . وعموماً من المعادين للعرب وللفلسطينيين . وهذا الجدل بين مؤيدي التدخل العسكري الأميركي الفعلي في الشرق الأوسط وبين معارضيه قد بدأ للتو ، ولم يتحول بعد الى سياسات . واذا اخذنا في الاعتبار ما وصفناه آنفاً من معاناة الولايات المتحدة لأزمة القوة ، ولأزمة الحكومية Governability ، والشلل السياسي ، فاننا لا نتوقع أن تكون السياسة التي ستتمخض عن هذا الجدل ، حاسمة وقاطعة على أي حال . السياسة التي ستتمخض ، قد تكون عالية الصوت ، لكنها في الميدان العملي المحسوس قد تكون ضعيفة ومتقلبة .

الاستراتيجية الفلسطينية في هذا الوضع التاريخي ، لا ينبغي تشييدها على اتصال أمريكي لا يستطيع أن يقدم الحل . والأصح أن تبنى على استثمار التناقضات سواء العالمية أو الاقليمية أو المحلية ، التي ظهرت نتيجة للأزمة في الرأسمالية العالمية والأمريكية . انها بايجاز التنافس بين الرأسماليات الاوروبية/ واليابانية/ والأمريكية ، والتناقضات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، والتناقضات بين الكولونيالية الاستيطانية الاسرائيلية وبين الامبريالية الأمريكية . وينبغي على الفلسطينيين أن يسعوا حثيثاً لوضع استراتيجية توصل العرب الى استخدام أسلحة النفط والقوة المالية ، ولاحباط المقولة الأمريكية قبل كل شيء ، مقولة أن المال والسياسة ، والنفط والسياسة ، لا يقترنان . وعلى الفلسطينيين بدلا من ذلك تأكيد الصلة الوثقى بين النفط والسياسة ، بين المال والسياسة ، والسياسة والبندقية .

على الفلسطينيين تصعيد هذه التناقضات ، وشحذ حدتها ، بحيث لا يعود في وسع الولايات المتحدة الحصول على النفط ، ودولارات التحويل ، والاستقرار السياسي ، معاً ، كلها معاً ، وفي الوقت نفسه .

مـاري إيـلين لانـدسـتين

من المستنقع رجوعاً إلى الامبراطوريّة
استراتيجية المقايضة الأميركية اثناء "عصر المفاوضات" ١٩٦٩-١٩٧٩

في ربيع ١٩٦٩ ، مثل وزير الخارجية الأميركية المعين حديثاً ، وليم روجرز ، أمام لجنة العلاقات الدولية في مجلس الشيوخ ، حيث كان ممثلو الادارة قد تعودوا ، في السابق ، على الاستجوابات القاسية والحقودة .

وحين طلب إليه أن يفصل توكيدات الادارة الجديدة بشأن المفاوضات المتعلقة بالنزاع ، أعلن روجرز الهدف الذي ترمي إليه الادارة الجديدة في الشرق الأوسط : « لقد عرف بوضوح وبساطة على أنه التوصل الى سلام عادل ونهائي » (وفي التحضير للدور الذي اعتقد انه دور رئيس الديبلوماسية الأميركية ، أعترف روجرز في مقابلة عرضية : « علي أن أتعلم لغة من المصطلحات الكـــاملة الجديدة ، لأنني لست معتاداً ، على الاطلاق ، على اللغة الديبلوماسية ») .

في ربيع ١٩٧٩ نظم كل شيء بسرعة في البيت الأبيض ، وكانت اللغة الديبلوماسية في ذلك الحين قد تطورت إلى مستوى جديد ، فأنذاك بدت اللغة الديبلوماسية ، وبشكل يلائم خطورة المرحلة ، رائعة مليئة بالايقاع الديني الغزير ، ومؤهلة لأن تستعمل في الاعلان عن تحقيق اطار السلام العادل والنهائي . وإذاك شكلت مصر واسرائيل شراكة جديدة ، وتم تجهيز رأس المال المندمج بضمانات أميركية عسكرية واقتصادية وسياسية .

في المناسبتين معاً ، واللتين فصلت بينهما مئات الساعات من الطيران المكوكي واجتماعات القمة ، وآلاف الضحايا في ايلول الأسود ، وعبور القناة ، والحرب « الأهلية » في لبنان ، وملايين الانشات في اعمدة الصحف التي تعلن عن « عصر المفاوضات » وفي المناسبتين كان يمكن للمستمعين أن يتذكروا تعريف جوزيف كونراد للعبارة الديبلوماسية : « العبارة التي هي صحيحة في كل شيء إلا في الغرض الذي يقف وراءها » .

ويبدو ، على قاعدة اكثر نقدية وتماسكا ، أن أولئك المعنيين بالعدالة والقدرة على إحلال التسوية ، يقومون اليوم ، وبشكل يقظ ، بامتحان « الغرض » بعيد الأمد وراء هذا العقد

الديبلوماسي ، أي ، الستراتيجية التي كانت تقف وراء العبارات الأميركية والأحداث الشرق أوسطية منذ ١٩٦٩ .

هذا التقييم يتطلب ، أولا ، إيضاح الفروقات الاجرائية أو « التكتيكية » التي ربما استترت وراء دائرتي الاهتمام الديبلوماسي قصيرتي الأمد ، حيث تشكل الأولى سنوات قيادة نيكسون ـ كسنجر ـ فورد ، وتشكل الثانية سنوات كارتر ـ بريجنسكي .

ثانيا ، على التحليل أن يميز مثل هذه الفروقات التكتيكية عن الاتجاهات متوسطة الأجل ، الأمر الذي يتطلب تصوراً موجزاً عن الالتزامات الثابتة ، والتي ستشكل العناصر الستراتيجية الدائمة في تكوين السياسة الاميركية في الشرق الأوسط على مدى العقد المقبل .

وأخيراً ، فالتقييم يتطلب فهما للعملية الطويلة الأجل، والتي من خلالها تخضع الستراتيجيات التي كانت قائمة ، للتغيير . وتحليل « الستراتيجية العظمى » لأميركا يتطلب تفحصا للمفهوم المركزي المنظم وللروابط المنطقية التي تشكل بنيته .

ومن ثم يمكن النظر إلى المفاوضات بوصفها فرصا أمام الديبلوماسيين لامتحان مقترحاتهم العلمانية بالنسبة لحلفائهم وأعدائهم ، خصوصاً ما يتصل بمدى رد فعل كل منهم على أشكال الاغراءات والعقوبات المتنوعة . هذه المفاهيم والعلاقات المنطقية تشبه بنية ما يسمى في العلوم بـ « النماذج »[١] ، ففي نقطة محددة يتم تنظيم الفكر والتطبيق العلميين بنموذج شمولي واحد يسيطر على البحث ويتقدم ، حتى حين يبدأ بمواجهة الحالات الشاذة . والستراتيجيات العظمى ، شأنها في ذلك شأن النماذج العلمية ، تصطدم بالمعضلات حين تحيط بعملياتها « الحالات الشاذة » عن التوقعات التي خرج بها صانعو السياسة على ضوء المفهوم الستراتيجي المسيطر .

قد يطرح، هنا، ان استراتيجية السيطرة التي قامت عليها السياسة الاميركية الكونية في الستينات ، وجهود المفاوضات الأميركية في الشرق الأوسط أثناء العقد الماضي ، قد بدأت تواجه مثل هذه الحالات الشاذة . وقد كتب زبجنيو بريجنسكي ، المستشار الحالي للأمن القومي الأميركي ، في ١٩٧٠ عن التوتر الذي تولده هذه الفوضى ، في الدوائر السياسية ، قائلا :

« ... لفترة من الزمن ، يقوم الاطار المؤسس ، وبمفعول رجعي ، بدمج الجديد ، عن طريق تكييفه بشكل اكثر إلفة . لكن عند نقطة معينة ، يصبح الاطار القديم محملا اكثر مما يطيق . ويمتنع الزاد الجديد عن أن يعرف بأشكال تقليدية ، وبالتالي فهو يؤكد نفسه بقوة جبرية » (بريجنسكي ١٩٧٠ ، ص ٢٧٤) .

ويمكن إيضاح الستراتيجية المطلوبة لمواجهة نموذج السيطرة الضخم ، من خلال تحليل توماس كوهن عن الثورات بنماذج علمية . فالأدوار التكتيكية المتخصصة والملائمة يمكن أن تكون من حصة العناصر المكونة العديدة لحركة المقاومة كوسائط قصيرة الأجل للتقدم نحو الهدف البعيد . وهذا الهدف لا يكون أقل من استبدال النموذج المسيطر بآخر يعبر عن المطالب العادلة للأغلبية الكونية ، ويكون نموذجاً مقرراً اجتماعياً اكثر منه عسكرياً .

ويكشف تحليل الدائرتين قصيرتي الأجل في محاولات نيكسون ـ كسنجر ـ فورد

وكارتر ـ بريجنسكي ، لاجراء مفاوضات بشأن تسوية في الشرق الأوسط ، عن تشابهات اجرائية ، وفروقات أساسية تشير الى تكون نمط جديد من الامبريالية .

ويمكن تبين أربعة أطوار في عملية المفاوضات في الدائرتين الديبلوماسيتين الأخيرتين معاً . فالطور الأول والذي هو الانخراط الأولي يتألف من ثلاثة « حبال » تلف المفهوم الستراتيجي المسيطر ، واحد « الحبال » الديبلوماسية هو وضع العبارات المبدئية ، واضفاء الشرعية على اندفاعة الستراتيجية الأميركية بمحاولة الحصول على تأييد عالمي . والمجموعات التي توجه إليها أساساً مطالبة التأييد هي الاعلام الدولي ومجموعات الحقوق في الغرب المعنية بالأمر ، بالاضافة إلى النخب المتغربة في المناطق (المعنية) .

في الوقت نفسه تستعمل القدرات العسكرية الاسرائيلية التي استثمرتها الادارات الأميركية سابقاً ، لمعاقبة الخصوم العرب ، وخصوصاً أولئك الملتزمين بمواقع أيديولوجية ـ تاريخية غير ممتثلة ، وبالتالي يتم الامساك بلائحة القضايا التي تتم عليها المقايضة عشية التفاوض .

ومن موقع مركزي في السيطرة ، ضمن جهاز الأمن القومي الأميركي ، يمكن للمفاوضات أن تضم في فعاليتها « جزر » الاقتناع من قبل الزبائن ، « وعصا » ضربات القصاص الاسرائيلي .

ويقدم الطور الستراتيجي الثاني بنية مجريات التفاوض : تقرير الحد الأدنى من الأعضاء الذين يلعبون الدور النقدي المطلوب لجعل الاتفاق ناجحاً . وتنبع الفرضيات العملياتية المنتقاة من المفهوم العام ، كوسيلة لامتحان تكيف اسرائيل والدول العربية لأدوارها في النظام المتطور . في هذا الطور تنبع البديهيات الاستشراقية عن العالم العربي ، من المتطلبات الستراتيجية ويتم تعيينها على يد « حكمة موجودة » منذ قرنين من الثقافة المدرسية الاستعمارية ـ مع دعم مؤسساتها ، مؤسسات العرقية والحكم البيروقراطي .

الطور الأخير ، وينسجم في (عهد) إدارتي نيكسون وكارتر مع تحضيرهما لاعادة انتخابهما ، ويستلزم تبريراً للسياسات التي اتبعت والمقايضات التي حدثت وهكذا تقدم فرصة موازية للمدافعين السياسيين عن مدارس استراتيجية معارضة ، لكي يفضحوا أخطاء النظام القائم ويطرحوا صلاحية بديلهم المفضل .

دائرة مفاوضات نيكسون ـ كسنجر

يمكننا أن نبدأ بتحليل اكثر تفصيلية لهذه الأطوار من خلال مراجعة أهداف السياسة الشرق أوسطية التي تطورت في السنوات الأولى من (عهد) إدارة نيكسون . فقد كان من الواجب أن تطبق قوة أميركا ، التي لا تزال مسيطرة ، وبالحد الأقصى من الفعالية لخلق توازن جديد بين المصالح الدولية العظمى .

وفي مناطق المواجهة الحادة مع الاتحاد السوفياتي والصين ، كان على الولايات المتحدة أن تحافظ على سيطرتها حيث ثمة ضرورة لذلك ، من خلال الطاقة السياسية والعسكرية لزبائنها المحليين ، وكانت تقدم تجزئة المنافع على مجموعة من القضايا الاقتصادية والجغرافية الاخرى ، بوصفها وسيلة لاستمالة هذه القوى كي تقبل باستمرار السيادة الاميركية وقد اعتبر

الصراع العربي ـ الاسرائيلي « برميل بارود » بحيث أنه إذا ما استمر سيعطي السوفيات فرصة كي يقوبوا « قوى الفوضى في عالم يناضل من أجل النظام » . ومنذ تعيين كسنجر مستشار نيكسون للأمن القومي ، أخذ على عاتقه مسؤولية الجوانب الأمنية في الشرق الأوسط ، وخصوصاً لجهة حجز التقدم الثوري الذي سيدمر ، بالتعريف ، الهدف الأميركي في « الاستقرار » .

ومن الحيوي أن تتبع الادارة الجديدة سياسة ليندون جونسون في الدعم الاميركي العسكري والديبلوماسي المكثف لاسرائيل ، لكن « موجودات المقايضة » التي حصلت عليها اسرائيل في حرب ١٩٦٧ ، ستستعمل في الدفع نحو سلام نهائي على أسس مثلى بالنسبة لمصالح الولايات المتحدة .

هذا الهدف الاجمالي ، والضمانة المحددة بابقاء التفوق العسكري الاسرائيلي ، شكلا استراتيجية ديبلوماسية لأميركا عبرت عن نفسها في ثلاثة اتجاهات :

الطور الاولي : الانخراط الديبلوماسي

حلت على وزير الخارجية وليم روجرز مهمة ديبلوماسية هي توليد دعم دولي أعرض عن طريق « الكبيرين » و « الأربعة الكبار » للمحادثات حول فرض قرار مجلس الأمن ٢٤٢[٢] . وكان الهدف من تعددية الأطراف المسيطر عليها ، هذه ، تحويل الاصرار الاسرائيلي على المفاوضات العربية ـ الاسرائيلية المباشرة ، ريثما يصبح بالامكان توفير كل عناصر السياسة الواقعية المطلوبة لاحلال نظام الهيمنة الأميركية الجديد . والتوجه القائم على تعددية الأطراف المسيطر عليها هذه ، كان يهدف لاقناع القادة العرب المحافظين بسياسة « اليد العادلة » الأميركية ، وأصبحت مهمة روجرز أن يصب في القنوات الديبلوماسية متطلبات السياسة الواقعية في الدعم الاميركي الكثيف للتفوق الاسرائيلي العسكري ، ووقف الضغوط الدولية المتزايدة على إسرائيل ، وفي الآن نفسه ابقاء آمال الأردن ومصر مرتبطة بأفق مثل هذا الضغط الدولي الذي توجهه الولايات المتحدة . هذه « المحطة الأمامية » المعقدة تعثرت ليس بسبب عدم كفاءة روجرز أو مخاضات التعددية كما تمثلت في جهود يارنغ ، بل بسبب « محطة خلفية » محسوبة بشكل أكثر مباشرة هي التي أنشئت من خلال كسنجر وتواطؤ الاستخبارات الاسرائيلية ـ الأميركية ، وبشكل ملحوظ الجهاز الخاص بجيمس انجليتون ، صلة الوصل بين مكافحة التجسس الاميركية والاستخبارات الاسرائيلية .

والدافع الأول أو الدافعان الأولان وراء انشاء هذه « المحطة الخلفية » نشأ عن رغبة اسرائيل في إذلال مصر والجناح الأكثر نضالية في الجيش البعثي السوري ، وبعد ذلك ، توجيه تحذير مسبق للنظام السوري الجديد « المعتدل » بصدد مخاطر العمل المستقل .

في الوقت نفسه أرادت اسرائيل أن تستأصل علم القومية العربية الذي أعادت المقاومة الفلسطينية رفعه .

وهكذا تم توسيع هجمات القصف (الاسرائيلية) على البنية التحتية المصرية والرادار الدفاعي ، في عمق الأرض المصرية ، وقتل أربعة آلاف مصري كانوا يعملون بشكل محموم لتثبيت الجهاز الدفاعي الجوي الجديد .

وحين تكاثرت نشاطات الفدائيين الفلسطينيين المنطلقين من نقاط داخل الأردن ، قدمت

للحسين ضمانات اسرائيلية باحباط أي هجوم سوري مضاد إذا ما هو تحرك لسحق حركة المقاومة[٤] (شيبهان ١٩٧٦ ص ١٢٧ ـ ٩) وفي العملية لا بد أن يقود الاعتماد السوري على العراب السوفياتي المتردد إلى المزيد من شعور السياسة السورية بالخوف .

أما الدافع الحيوي الثاني وراء « المحطة الخلفية » فقد وفره الموظفون المتوسطون ورسميو السفارة الاميركية داخل مصر. فالاقتصاد المصري كان قد حلل في عدد متتال من الدراسات التي استنتج معظمها أن اعادة ضخ الرساميل من الغرب واعادة توجيه الاقتصاد المصري نحو الغرب يمكن أن ينعشا الانتاج المصري . وبدأ رجال أعمال مطلعون من أمثال دافيد روكفلر وجون ماكلوي وروبرت اندرسن يزورون مصر بين الفينة والأخرى ، وقام الاخصائيون بالشؤون العربية في وزارة الخارجية منذ أواسط الستينات ، بصياغة الهدف العملياتي لشق مصر عن التضامن القومي العربي مع القضية الفلسطينية ، وباتجاه خيارات تنموية « واقعية » .

وهكذا فحين رفض السوفيات خطة محطة « الواجهة » التي طرحها روجرز ، أرسل وزير الخارجية المساعد جوزيف سيسكو إلى القاهرة ليفتح للولايات المتحدة ممرا مباشرا ، وعلى أعلى المستويات ، مع عبدالناصر .

مع فرض أول وقف لاطلاق النار حول القناة ، ومع أزمة الأردن ووفاة عبد الناصر ، جهز الأساس لنظام استراتيجي اميركي من ثلاثة اقسام في الشرق الأوسط . وقدمت الفترة الممتدة بين خريف ١٩٧٠ و١٩٧٣ فرصة لقرع الناقوس من قبل الادارة الاميركية ، فالادارة التي اتجهت نحو العناصر الأخرى في الستراتيجية الكونية ، استطاعت في الآن نفسه أن تمتحن مدى ملاءمة تطور بنية الهيمنة في الشرق الأوسط .

لقد بدأت لغة توازن القوى العلنية تسيطر على النقاشات الستراتيجية الدائرة حول تصور مركزي : ان موقع التفوق السياسي العسكري لأميركا يمكن الحفاظ عليه إذا ما تم تقديم تنازلات غير أساسية في الاقتصاد والنفوذ الجغرافي للمنافسين والزبائن المختارين . أما اسرائيل بوصفها النقطة الثابتة التي تدور حولها قوى موازنة صغرى في الشرق الأوسط ، فيجب أن تنمي وتستمر في تلقي المعونات من طائرات الفانتوم الأميركية المقاتلة والقاذفة ف ٤ ، وبشكل كلاوزفيتزي ثابت بهدف رفع تأثير قوتها الحقيقية الى الحد الأقصى من خلال الحرب النفسية .

وهكذا فحين وقعت مصر على المعاهدة السوفياتية ـ المصرية ، تحركت اسرائيل بهدف مفاقمة الشعور المصري بالخسارة الجغرافية من خلال بناء ميناء ياميت ، الأمر الذي انضاف إلى عزلة مصر عن غزة وجعل مصر اكثر ترحيباً بمبادرات الوزير روجرز الجديدة حول « الحل الجزئي » وتحديد وقف إطلاق النار ، ودفع مصر إلى إعادة فتح القناة وعرض انسحاب اسرائيلي محدود من الأراضي المصرية في سيناء .

وكتمهيد لزيارة روجرز ، توصل مبعوث أميركي بدرجة وزير إلى حد إقناع وزارة الخارجية المصرية بـ « خطئها المزمن في العرض » (عرض القضية) حتى انه عرض تقديم مسودة اقتراح التسوية بنفسه .

كذلك كان للعائلة السعودية المالكةدورا اكثر حيوية في تمرير الرسائل من الولايات المتحدة إلى مصر . فكمال ادهم ، صهر فيصل ، والذي يشرف على الاستخبارات السعودية ، قال للسادات في تشرين الثاني ١٩٧٠ إلى أي حد يؤدي الحضور السوفياتي في مصر إلى « تعقيد » مساعي السلام الأميركية . والسادات العاجز عن تخطئة انحياز وجهة النظر السعودية إلى هذه المساعي ، أجاب بأنه سوف يطلب من السوفيات أن يغادروا بعد الانسحاب الاسرائيلي الأول . وبعد ذلك أعلن السادات عن تصميمه على عدم السماح لأية دائرة منافسة على السلطة أن تتمثل في القيادة المصرية وذلك من خلال اقصاء مجموعة علي صبري . وبعد قليل قام فيصل بنقل الاهتمام الأميركـــي الرفيع في مصر ، علما بوجود المشكلة الاضافية حول المعاهدة السوفياتية ــ المصرية الجديدة (هيكل ١٩٧٥ ص ١٤٦) .

بعد وقت قصير على هذه الأحداث ، تم الكشف عن جاسوس معاد للسوفيات يرتبط بشبكة السي . آي . إي داخل مصر (المرجع السابق ص ١٤٩) .

أما اقتراح إرسال موفد مصري يلتقي شخصياً بكسنجر فقد وضع في خلال عام ١٩٧٢ ، وهو الذي توج نفسه بمحادثات شباط ١٩٧٣ التي لم تظهر نتائجها المثمرة بشكل مباشر ، والتي كان قد رتبها رئيس (شركة) البيبسي دونالد كندال ، بين نيكسون وكسنجر وحافظ اسماعيل ، زميل كسنجر بوصفه مستشاراً رئاسياً للأمن . في الوقت نفسه كانت تسير المفاوضات مع روجرز حول « التسوية المؤقتة » وبدأت ثقة السادات بالقيادة السوفياتية وعلاقاته الشخصية معها تتميز بتدهور ملحوظ . وحين قام السادات بفصل الطاقم العسكري المصري ، أخبر الصحافة بأنه تلقى « رسالة من تحت الطاولة » من واشنطن تذكره بأن مفتاح الوضع في الشرق الأوسط هو في واشنطن (هيكل ١٩٧٥ ص ١٤٩ ــ ٢٠٣) .

لقد أمسك بالسادات بـ « كماشة » الحرب النفسية الاسرائيلية ــ الاميركية ودفع به في وجهة غربية عن طريق السعوديين الذين كانوا القادرين على حل مشاكل مصر منذ ١٩٦٧ ، وكان كل ما يأمله السادات أن يكون ذا جانبية اعظم من جانبية حسين بالنسبة لدور زبون أميركا العربي الأول . واستجاب السادات بالتظاهر بأنه يحيي القدرات العسكرية المصرية من خلال عمليته الدراماتيكية « بدر » التي استعرضت المبادرة المصرية والقدرات الأمنية والأهداف الستراتيجية المحدودة .

وقد بدأ استئناف المفاوضات ، التي كان يمكن من خلالها تطبيق مضامين عمليات « السياسة الواقعية » لكسنجر على ميدان المقايضة ، مع وقف إطلاق النار الذي تلا حرب تشرين ١٩٧٣ والمقاطعة النفطية التي صاحبتها . وفي ١١ تشرين الثاني ، حين وقع السادات اتفاقية وقف اطلاق النار ، كان قد تخلى عن اصراره على عودة اسرائيل إلى خطوط ٢٢ تشرين الأول ، ووافق كذلك على تجديد العلاقات الديبلوماسية الكاملة مع الولايات المتحدة . وفيما الزم مصر بتفريغ القناة واقامة منطقة منزوعة السلاح مع خفض القوات في سيناء الى فرقتين ، ودفع السادات باتجاه التحرك السريع نحو اتفاقية فصل للقوات هي التي وقعت في ١٨ كانون الثاني ١٩٧٤ .

وقد اثبــت الزبائن العرب الآخرون انهم أكثر صعوبة ، وكان الرئيس السوري الأسد ، وبشكل واضح ، مرشحاً اكثر تردداً لتلقي مهارات كسنجر في الوساطة . فقد اتخذ موقفاً

علينا ثابتاً من مسألة المشاركة الفلسطينية في مؤتمر جنيف ، وكان قبل ذلك قد جدد القتال على جبهة اسرائيل الشرقية .

ومن تكتيكات « سياسات الجوار » في مبدأ السياسة الواقعية ، جيء بالضغوط الحاسمة التي ألقيت على نقاد سوريا من العراقيين ، عن طريق الدعم الأميركي ــ الايراني للانفصاليين الاكراد ، كما وهددت الأزمة المتصاعدة في لبنان بالتدخل الاسرائيلي في « الخاصرة » السورية (موريس ، ١٩٧٧ ص ٢٧٧ ــ ٢٧٨) .

وقد بدأ موقع حسين يتآكل مع رفض اسرائيل لخطة اريحا في تموز ١٩٧٤ ومع تأجيل الموضوع في ايلول . من ثم استطاعت الدول العربية في قمة الرباط ، ومن دون أفق واضح لاجراء مفاوضات شاملة ، لأن تحمي حدودها السياسية بالاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثل في المفاوضات عن الضفة الغربية وقطاع غزة، وهكذا وجد حسين « عميل العميل » نفسه مؤقتاً مدفوعاً إلى الوراء في صفوف المقايضة . وكانت موازنة كسنجر لمصالح الدولة ، تهدف إلى تأمين « الجبهة الشمالية » التي كان عبد الناصر قد سدها قبل سنوات .

الذي يمكن إنجازه الآن . إذا أخذنا بالاعتبار الصورة الجديدة في الشرق الأوسط ، هو إعادة ترتيب موقع مصر مع باقي الزبائن العرب خطوة فخطوة . هذه الهندسة الستراتيجية استدعت حكماً ملحقة عن قابلية الثقافة والشخصية العربيتين لمثل هذه التحولات السياسات .

وبقي جهاز كسنجر من « الواقعيين » حذراً على العموم من أن عقود التوجه المعادي للامبريالية من خلال القومية العربية ، لن ينوي بين ليلة وضحاها ، لكن تقليداً أطول في الاستشراقية المدرسية الذي كان قد تطور على امتداد ثلاثة قرون ليخدم نظام الدولة الغربية المتوسع ، قدم مجموعة اكثر تنوعاً من التوقعات بالنسبة للسلوك العربي .

هذه الهندسة قد تخدم في مواجهة التضامن القومي العربي والوحدة الثقافية بالشكل الذي طرحهما ناصر .

وكان جلياً في سلوكية كسنجر في مواجهة العالم العربي أن ثمة آثاراً في الهندسة الادراكية ــ الحسية التي كان كتاب ادوارد سعيد « الاستشراقية » قد حددها . فالمواصفات التي نسبها كبار المدرسيين للعرب كانت تتضمن السمات الثقافية للشهوانية والذهنية الشاذة والطغيان والاعتلال المزمن والتخلف (سعيد ١٩٧٨ ص ٢٠١) ، وفي بيروقراطية الشؤون الخارجية ، حيث يجب عقلنة المصالح المتضاربة وتبرير الاجراءات القهرية ، يتم « شحذ واستثمار » هذه الصور والسمات على يد التفكير العرقي (ارندت ١٩٥١ ، ص ٦٣) . هذه الهندسات التي تجد أصلها في المدرسية الأوروبية العظمى ، وجدت طريقها إلى بيروقراطية الأمن القومي الاميركي عن طريق إشراف الحكومة على مراكز التدريب . فكما كان متوقعاً ، تم وصل المفاهيم المترابطة بالتعقيد البنيوي المطلوب والتقريرية الحديثة في العلوم الاجتماعية .

لكن بغض النظر عن التنصل الدفاعي ، فان النمط الأساسي الذي لم يكشفه سعيد ، واضح في محللي العلوم الاجتماعية المدربين والذين خدموا آلة السياسة الأميركية في الشرق الأوسط .

وفي التحليل البنيوي للصراع العربي الاسرائيلي تنقسم تراكيب الاستقطاب ، فتكون الثنائية الأساسية بين الشرق والغرب ، بين الخيال والعقلانية ، وبين المرض والصحة .

لقد سئل صانعو السياسة في مؤتمر عقد قبل سنوات عديدة وأشرف عليه غوستاف فون غرونيباوم من خلال شل الدولية ومدرسة الدراسات الشرقية والافريقية في لندن ، أن يدرسوا العلاقة بين « الحرب والتقنية والمجتمع في الشرق الأوسط » ، والمنطق التالي نقدمه كأحد الايضاحات على المجتمع « الحربي » المفترض في العالم الاسلامي :

« ... لقد مالت بعض الدراسات الانثروبولوجية الاخيرة لأن تعطي بعض الوزن الجدي لآراء اوروبيي القرن التاسع عشر الذين قالوا أن بنية العائلة الاسلامية ، وموقع النساء في القانون ، والأبوية الصارمة ، والتركيز الذي تحظى به فضائل الذكورة ، تعطي المجتمع الاسلامي طابعاً طغيانياً عدوانياً يعبر عن نفسه بشكل طبيعي في الحرب » مقابل هذا النمط الاجتماعي (القائم على) « الخيال » العربي الانعكاسي ، وضعت اسرائيل « الواقعية » التي يوازن قادتها بشكل دقيق بين « الرؤية الشاملة الثابتة والمهارات التكتيكية » ، ومع الاقرار ببعض الخاصيات الجغرافية فان المعالجة على أساس الثنائية تبقى شيئاً ثابتاً .

واستناداً إلى ادوارد شيهان ، نصح كسنجر بأن يتعاطى مع سوريا من ضمن الاقرار بـ « الشروطيتين التوأمين » في « العقل الشرقي » : « أعراض البادية » « وأعراض القصبة » ، والمقايضة مع المشرق تتطلب مفاوضاً يميز « المماحكة » في طباع القصبة عن العودة عن الخطأ التي تستدعي الطباع البدوية من أجل إنجازها تدخل الوسيط (شيبهان ١٩٧٦ ، ص ١١٩ ـ ١٢٠) وقد حاضر في ايار ١٩٧٩ باحث في قسمINR في وزارة الخارجية وكان ذلك في إحدى الجامعات الأميركية عن النظرة العالمية السعودية بوصفها تنقسم إلى دار الحرب ودار الاسلام ، مع تقديم مجموعة متوازنة من الذميين التي تزود بمعنى التركيز على الحرب وعلى ديناميكيتها .

وفي درسه العظيم لعلم فقه اللغة عند الشرقيين ، وللانثروبولوجيا والتأريخ ، اعاد سعيد دمج عنصري الفصل الثنائي المزيف للثقافة العربية ، كاشفاً عن التصور المركزي الراهن لدى الاستشراقيين بالنسبة للمجتمع العربي ، فالعربي وعلى الصعيدين الشخصي والسياسي ، يتم النظر إليه كخليط شاذ من العدوانية الذكورية والسلبية الانثوية ، وهو خليط يستحيل الى عجز على المستوى السلوكي .

وينظر ضمنياً إلى الزبائن العرب بوصفهم سلبيين ويمكن معالجتهم من خلال المداهنة والاغراءات المادية . وهذه السلوكية الشبيهة بسلوكية الالعوبة يمكن أن تخفي نفسها بلغة تقريرية ، حتى حين يكون الزبون العربي إياه خاضعاً لحكم السلطة الغربية ، ويجب التودد للزبائن العرب الذين يجب « كسبهم » من موقع ثنائيتهم هذه .

وقد قال شيهان ان تقنية كسنجر في ممارسة السحر والتعذيب الشخصيين قد استعملت لهذا الهدف في أثناء زيارته إلى دمشق في آيار ١٩٧٤ . وقد قيل عن كسنجر أنه التفت إلى عبد الحليم خدام « وزير خارجية الأسد الشاب الذي يتنفس ناراً » وقال له : « مثل هذه العيون الزرقاء الجميلة (...) الن تأتي معي إلى اسرائيل ؟ سأرتب أمورك مع غولدا » . وفي مناسبة

وصف شيهان كيف أن كسنجر « أخرج دفتر ملاحظات أسود من جيبه وقال لخدام : في هذا اكثر أرقام التليفونات حرارة في واشنطن ، وحين توقع الاتفاقية تصبح ملكاً لك » (شيهان ١٩٧٦ ص ١٢١) وعلق جورج بول على موقع الأسد بين غروميكو وكسنجر « شعر غروميكو بأنه مضطر لأن يسافر عدة مرات إلى دمشق ليرى الرئيس الأسد ، وفي كل مرة كان يصل بعد كسنجر الذي ـ كما قال أحد الأذكياء ـ يكون قد ترك البلدة وكأنه العاشق المتيم لزوجة بحار مسافر » (بول ١٩٧٦ ص ١٣٧) .

والخصوم العرب الذين يظهرون بمواصفاتهم التقريرية والذكورية ، سيتعرضون للفضح بوصفهم أصحاب أمزجة صبيانية ، عاجزين عن التصرف بعكس ما يقولونه ، وعاجزين عن الاستمرار في عمل متناسق (سعيد ١٩٧٨ ص ٣١٢ ـ ٣١٧) .

وقد استنتج جورج بول في أحد مقالاته ، وبشيء من الرضا ، ان منظمة التحرير قد تمتعت بمجرد لحظة عابرة من « التبختر » على المسرح الدولي في ١٩٧٤ ، في حين أن الملك المعتدل حسين كان يعود أدراجه تدريجياً نحو التمتع بالاحترام العربي » وصورة مقاتلي منظمة التحرير وقادتها بوصفها « متبجحين » عاجزين عن الصمود أمام هجوم مضاد جدي ، لا زالت هي الصورة السائدة لدى رسميي وزارة الخارجية حتى الوقت الحاضر .

وفي ظل هذه الافتراضات الأساسية عن الثقافة والشخصيات التي كان يواجهها كسنجر ، تقدمت دبلوماسيته المكوكية في عام ١٩٧٥ . فالالتزامات التي نتجت عن هذه العملية حافظت على البنية البسيطة نسبياً للبلورة المفهومية الأولية ، ولكن كان عليها أن تعمل في ظل نتائج أكثر تعقيداً خلال المرحلة التالية من الديبلوماسية .

واستعملت « العلوم الجوية » لتجنب نشوء شك دولي بالنسبة للمفاوضات المحيطة ، وفعالية المظاهر المكوكية لكسنجر ولرؤية السلام ، التي رفعها الاعلام الى مستوى التقديس ، لم يكن مسموحاً لها أن تنافس صورة « برميل البارود » ومع هذا فالمساهمة الدولية في عملية حسم الصراع كانت تتجاوز بمساعدة الاعلام ، ويتم انشاء منطق وشرعية للعلاقات الخاصة بين مصر واسرائيل . إن الموقع الذي حظيت عليه منظمة التحرير في الاجتماع العام للأمم المتحدة ، والقوة الجديدة التي حصلت عليها أقطار النفط العربية ، كانتا معرضتين في وقت واحد للاستخفاف بهما وعرضتين للهجمات الكلامية . وطور دانيال موينهان انتقاده اللاذع للأمم المتحدة الى أن شمل جميع العالم الافرو آسيوي الذي تجرأ على دعم منظمة التحرير الفلسطينية . أما الرئيس فورد فاستعمل استشهادات شوفينية متزايدة لكي يطرح « مشروع الاستقلال » وتم التعبير عن قلق كسنجر الجديد بشأن الحساسيات الأوروبية من خلال المحاولات المبذولة لانشاء كارتل للأمم المستهلكة للنفط .

ووضع المزيد من العناصر الأساسية البنيوية والستراتيجية موضع التنفيذ مع توقيع اتفاقية سيناء ؟ وقامت قاعدة هرمية جديدة للولايات المتحدة وزبائنها الرئيسيين ـ اسرائيل ومصر والعربية السعودية ـ بتأمين نظام الهيمنة في مركز الشرق الأوسط . ونظر إلى انفصال مصر بوصفه رائداً في « عملية مفيدة » وبهذا تم اضفاء الشرعية على دور مصر اللاحق كزبون . وعن طريق الضمانة النفطية وأجهزة الاستخبارات التي تعاونت على تثقيف السادات

بـ « السياسة الواقعية » ، نشأ ارتباط مع الزبون المسيطر الآخر ، الشاهنشاه الذي عهد إليه بضمانة الشطر الشرقي من المنطقة .

لكن لم يكن الاشكال قد حل بالنسبة لما إذا كانت هذه القاعدة الهرمية في المركز قادرة على التواصل مع بنية اكثر تعقيداً من مصالح الزبائن العرب الصغار بين مصر وايران . فاسرائيل قد بدأت تمارس تقييمها الداخلي الخاص للستراتيجية التي ترتبت على مباغتة الهجوم المصري على المحيط الغربي في تشرين الأول ١٩٧٣ .

وقد نظر بكثير من الجدية بعد الحرب إلى المضامين التي أشارت إليها الأسلحة التي وجهت بدقة،مثل الصواريخ المضادة للدبابات التي استعملت بكثير من الفعاليةمن قبل المشاةالعرب، والمخاطر المضاعفة من مواجهة هذه القوى الفعالة على عدة جبهات في وقت واحد . وقد أشارت التضمينات الستراتيجية لهذه التطورات كما بحثت في عدد من المؤتمرات وفي دعوات منفردة ، إلى حاجات اسرائيل الجديدة : سلاح دبابات افضل لكي يحافظ على البراعات الأقل كلفة ، وذخائر للبنادق الكبيرة ، والاستعمال التكتيكي المتزايد لهدف اللايزر الذي يعين المدفعية المضادة للطائرات ، وتوظيف التطورات الجديدة في الهيليكوبترات المهاجمة للدبابات . وقد عنى تحسن أجهزة الدفاع الجوي العربية لاسرائيل تقليص الاعتماد على « البندقية الواحدة في المعركة » والمزيد من الاهتمام بمسائل القيادة والاشراف المتلازمة مع استعمال العديد من الاسلحة ، وخصوصاً إضافة الناقلات العسكرية الثقيلة المقاتلة .

لقد ولدت مرحلة جديدة تأكد معها التصور العام حول أهمية السلاح ، وحظي الدفاع التكتيكي على الافضلية ، معتمداً على العمق ومفضلا استراتيجية الاستنزاف على استراتيجية تصفية دول العدو . وتنكر مستشارو اسرائيل توكيد مولتكه على المناورة الستراتيجية التي تتمسك بالمواقع كما وتجبر العدو على أن يحول المبادرة التكتيكية إلى دفاع حسن التجهيز ، الأمر الذي سوف يعمل بعد ذلك ضد العدو في جبهته الخارجية أكثر مما في خطوطه الداخلية ، ويمكن ان يدفع العدو الى التركيز في ساحة المعركة لا قبلها . وهكذا أعلن عن نوع جديد من العدوان (فان كريفيلد ١٩٧٥ ص ٣١ ـ ٥٠) كما وتكون ضمناً مشروع ايقاع سكان المناطق الفلسطينية العربية المحتلة في الفخ ضمن خطوط المعركة .

وفي ١٩٧٥ ومع الانتهاء من مفاوضات سيناء ٢ وضع في التداول مفهوم عن الدور الذي يستطيع الزبون المصري أن يلعبه لأجل حاجات تحصين اسرائيل ، ففي ظل الافتراض القائل بأن السياسة الخارجية المصرية ينقصها العامل القومي العربي الأصيل ، تنبأ أحد المعلقين بالفوائد التي توجب على مصر لكي تحصل عليها أن « تقوم بوظيفة زعيمة الدول العربية في ظل الاشراف الاسرائيلي العام » الأمر الذي يجعلها بالتالي محررة من مخاوف الهجوم الاسرائيلي ، وقادرة على رفض الحماية السوفياتية بشكل دائم ، ومتحررة من الاعتماد على الدول الغنية بالنفط ، ومتخلصة من الفيتو السيء الذي يمارسه الأطراف العرب الأضعف مثل سوريا والفلسطينيين (روبيرتس ١٩٧٣ ص ١٣٤ ـ ٥)

هذه النقاشات التي أطلقتها التحديثات التقنية التي تؤثر على تكتيكات المعركة وبالتالي استراتيجيتها ، تدعمت عن طريق نقاشات « الستراتيجية العظمى » التي قدمها عدة نظريين

أميركان شديدي الالتزام بالسياسة الاسرائيلية ، فتوكيد ادوارد لوتواك على الطور الثالث للامبراطورية الرومانية والذي سوف يبحث في هذا التحليل ، يقدم توازيات قديمة ليس فقط للسياسة الأميركية في حقبة ما بعد فيتنام ولكن أيضاً لاسرائيل بوصفها جرماً مصغراً عن أميركا العظمى .

استناداً إلى هذا التفكير ، فان مرتفعات الجولان والضفة الغربية لا يجب الاحتفاظ بهما تبعاً لستراتيجية « الدفاع في العمق » التي تؤكد على أهمية المواقع المحتواة ذاتياً ، « القادرة ذاتياً على احتمال هجوم من دون طلب الدعم المباشر من العناصر المتحركة » ومثل هذا التحول الستراتيجي يمكن أن يوفر « المحافظة النهائية على كامل الأمن الاقليمي » (لوتواك ١٩٧٦ ص ١٣١) .

وتطور بسرعة تدعيم مستوطنات الضفة الغربية في أثناء هذه الفترة نفسها من إعادة النظر الاسرائيلية الستراتيجية . وكانت نتيجة دبلوماسية كسنجر ، خريطة جهزها الاسرائيليون تظهر لحسين أية مناطق يريد الاسرائيليون ان يقدموها له في تسوية نهائية ، ففي حين أن اسرائيل ستحتفظ بالقدس العربية والمناطق العسكرية الهامة في الضفة الغربية ، وجبهة دفاعية على امتداد نهر الأردن ، فانها مستعدة لأن ترد ما أسماه الصحافي ادوار شيهان بـ « البالونات والسجق والممرات » مع تشبيكها بالجيش الاسرائيلي . وانتقد شيهان العرض بوصفه « ليسوتو عربية » (شيهان ١٩٧٦ ، ص ١٤٧) وقد نصح كسنجر حسين بأن اسرائيل ستقدم فقط « فصل قوات إداري » اكثر منه انسحاباً من أراضي الضفة الغربية (كوانت ١٩٧٧ ص ٢٢٩) وسوف تظل منظمة التحرير خارج الصورة ، كما وستكون الوسيلة قصيرة الأجل الأكثر فعالية ، كما وصف التكتيك عضو سابق في جهاز الأمن القومي ، « استثمار الحرب الاهلية اللبنانية » لتدمير منظمة التحرير (كوانت ١٩٧٧ ص ٢٢٩) .

وفي ظل تزايد التمسك الاسرائيلي بالاحتفاظ بالضفة الغربية ومرتفعات الجولان ، وتزايد رغبتها في استعمال سيناء كجسر إلى زبون عربي جديد يقع ضمن دائرة الهيمنة الخاصة باسرائيل ، وقعت على الدبلوماسيين الاميركيين مهمة وضع الترتيبات المرضية للزبائن التقليديين الآخرين ، واستناداً إلى التعليقات المنشورة لمعاوني كسنجر ، تضمن تكتيكه اللعب على « سياسة التقصير » مع السعوديين ، محذراً من أن الرئيس نيكسون ذا الوضع الرجراج لن يستطيع إذا ما خذل أن يحقق السلام الكامل بالشكل الذي أراده السعوديون . وفي خلاف آخر هدد السعوديون بنشر مراسلات محرجة . وللتغلب على الحرد السوري ، علم أن كسنجر اتصل بالشاه الذي قدم المزيد من الدعم للانتفاضة الكردية التي تضايق العراقيين ، وبهذا دفع الأخيرين إلى التخلي عن هجماتهم اللفظية ضد سوريا . وافترض آنذاك أن سوريا ستجد طريقاً مقبولاً للتوصل إلى اتفاقيتها الخاصة بفصل القوات (شيهان ١٩٧٦ ص ١١٦ وموريس ١٩٧٧ ص ٢٧٧ ــ ٢٧٨ وكوانت ١٩٧٧ ص ٢٢٣) .

إن المحطات الستراتيجية الثلاث التي اشير إليها ، في بداية ادارة نيكسون ، قد دعمت بشكل مربح أجهزة السيطرة الاسرائيلية والاميركية : فمصر أصبحت الآن « معتمد » سياسة كسنجر العربية ، وعمل الملوك المحافظون والمعتمدون عليهم بوصفهم مكملين لبعضهم ،

فالمدفوعات تذهب إلى الولايات المتحدة على شكل مقاومة للمزيد من رفع أسعار النفط ، وبشكل مباشر تذهب للولايات المتحدة على شكل معونات كبيرة لمساعدة حكومة السادات على الاستمرار في مصر . أما الأمم المتحدة فكان كل دورها انتدابياً يقوم على مراقبة منطقة سيناء العازلة ، كما اتفق في المعاهدة الأولية لفصل القوات .

ومع ان اتفاقات ١٩٧٥ كانت غامضة بشكل يكفي لانكار أي تدخل اميركي واسع النطاق على شكل مباشر ، فقد كان على أية حال في اتفاقية سيناء ٢ مجموعة من الالتزامات التي تتصل بالجهاز المدني الاميركي : تقنيون للاشراف على التحركات العسكرية في سيناء ، وطاقم للاستطلاع الجوي ، وجهاز مدني من ٢٠٠ شخص معينين لمحطات المراقبة .

وفي الاتفاقات السرية الأربع عملت الولايات المتحدة بنفسها لتحقيق مجموعة من المنافع لاسرائيل : اقتصادياً ، ضمان تدفق النفط الاسرائيلي على مدى السنوات الخمس المقبلة ، مطالبة ايران بأن تكون مصدراً للدعم إذا كانت ثمة حاجة لذلك ، ولأن تقدم ٢,٥ مليار دولار كمساعدات لسنة ١٩٧٦ المالية . وعسكرياً ، الاستجابة ايجابا لطلب اسرائيل الحصول على طائرات ف ــ ١٦ المقاتلة لكل الفصول وصواريخ بيرشنغ (وبهذا يتم توكيد السياسة طويلة الأمد القائمة على التزويد بالسلاح المتطور ، والتخلص من الحظر قصير الأجل على السلاح لاسرائيل والذي كان قد أعلن في مطالع السنة نفسها) ، وسياسياً ، رفض الاعتراف بمنظمة التحرير أو التفاوض معها ، ريثما تعلن المنظمة عن قبول القرارين ٢٤٢ و٣٣٨ ، والتمسك بالشكل الثنائي للتفاوض ، والتحرك في الخطوة التالية من المفاوضات نحو معاهدة نهائية مع مصر ، « والتشاور » بشكل ثابت مع اسرائيل ولو انطوى ذلك على تشكيل تحد لأية « قوة دولية » . أما بالنسبة للرئيس السادات فقد وصله عون من ٧٥٠ مليون دولار (معظمه لتغطية اكلاف جهاز الانذار الذي وضع قبلا) ووعود أميركية بدفع سوريا إلى عملية المفاوضات ، في وقت تجري فيه « المشاورات » مع مصر في ما إذا كانت اسرائيل تقوم بانتهاك الاتفاقية .

وخاطب الرئيس السادات مجلس الشعب المصري دفاعا عن الاتفاقية،وكان يستعرض «الواقعية الجديدة»التي سر المعلقون الاميركيون لان يلاحظوا وجودها في العالم العربي: « يجب أن نكون واقعيين في تقييمنا لقوة العدو ونقاط ضعفه ، كما علينا أن نكون واقعيين في فهمنا للعلاقات بين الأمم في حدود تأثيرها على الوضع ... لقد قاتلنا ولقد فاوضنا ولقد ربحنا ... فكما أن أميركا لم تضيع الوقت في استعمال جسرها الجوي لانقاذ اسرائيل أثناء القتال ، فقد أرسلت إلينا وزير خارجيتها ليقيم الاتصالات معنا وليبدأ المحادثات التي يمكن أن توصل الى التسوية . ما الذي تغير ؟ ... يقع التغير في أن أميركا قد اكتشفت أن حساباتها كانت خاطئة ... لقد رأت عالما عربياً جديداً بالكامل ، ورأت انها لا يجب ان تضيع الوقت فتتصل بنا ... عندما كنت أطري الدور الذي كان على أميركا أن تلعبه ، عندما قلت أن أميركا تمسك بمعظم الأوراق ، بحيث فسرها البعض بأنني كنت أرمي نفسي في حضن أميركا ــ فهدفي كان أولا أن أؤكد حقيقة ، ولأن أمارس ضغطاً على أميركا لكي أضعها أمام مسؤولياتها وكنا ناجحين كثيراً في هذا .. » (القاهرة ٤ ايلول ١٩٧٥ ، عن الاهرام ٥ ايلول ١٩٧٥) .

وقد أدينت ردود الفعل السلبية التي صدرت في أجزاء أخرى من العالم العربي بوصفها

مراهقة ومؤقتة . فالسادات ضمن كلامه أن هناك محاولات اضافية من الولايات المتحدة ستقود الى التحرك نحو حل المصاعب السورية والفلسطينية ، وبعد قليل تسلم الكونغرس من هارولد ساوندرز ، نائب مساعد وزير الخارجية الاميركي ، عبارته الاحتفالية التي صاغها كسينجر بعناية ، فجاءت لتعين البعد الفلسطيني بوصفه « قلب الصراع » وتؤكد ان « المصالح الشرعية للفلسطينيين العرب يجب أن تؤخذ في الحساب في مفاوضات السلام العربية الاسرائيلية .

تقييمات الستراتيجية من قبل الاخصائيين الأميركيين

في تقييم وسائل السلام عند كسنجر ، بدأ النقاش السياسي ينفرز بشكل بطيء ، فالاستياء العام من الوفاق قد تم التعبير عنه من قبل عدد من القادة السياسيين على رأسهم هنري جاكسون ومنهم باتريك مونيهان ووزير الدفاع المفصول لتوه جيمس شليسنجر . ولاحظ وليم كوانت الموقع المركزي لمسألة اسرائيل في هذا النقاش العريض : « فكل أعداء الوفاق هؤلاء أثبتوا أنهم داعمون متشددون لاسرائيل : فاسرائيل معادية للسوفيات ، واسرائيل هي في رأس المدافعين عن الحقوق الانسانية لليهود السوفيات ، واسرائيل ديمقراطية ، وبالنسبة لهؤلاء النقاد يجب بشكل خاص أن يزول الضغط الأميركي على اسرائيل الذي يهدف للحصول على الوفاق أو النفط العربي » (كوانت ١٩٧٧ ص ٢٧٩) .

وبدأ يظهر تقييم وسائل كسنجر الديبلوماسية مع عقد مفاوضات سيناء ٢ ، وفي السنتين التاليتين فرض النقاش الستراتيجي على الستراتيجية الأميركية في الشرق الأوسط انقساماً بين مدرستين استراتيجيتين(٤) ، نهضت الأولى من الوسط الذي يمكن أن نسميه بوسط « الانتداب الأميركي » في الشرق الأوسط ، وكان هذا النظام من السيطرة جذاباً لمن يعتبرون أنفسهم « امميين ليبراليين » والأعضاء في « مؤسسة » السياسة الخارجية الأميركية لما بعد الحرب العالمية الثانية ممن يفضلون هيمنة عريضة ومعترفاً بها دولياً في الشرق الأوسط . أما المجموعة الثانية الأكثر صرامة ، فتضم مجموعة من الستراتيجيين المولودين في أوروبا ممن ينهض تحليلهم لمتطلبات السياسة الأميركية على تواريخ الامبراطوريات القديمة ، وايجاز الوسائل الصالحة للاستعمال الفعال لقوة القهر الاميركية في الشرق الأوسط . وأعضاء المجموعتين الاثنتين يتشاركان في تأييدهم الثابت لاسرائيل ، ويأخذون بوصفه اهتمامهم المركزي نفس « الأحجية » أو المعضلة الستراتيجية التي تحل في مواجهة حالات شاذة متنامية .

لكن المجموعتين قدمتا حججهما انطلاقاً من مفهومين مختلفين في تعريف طبيعة السيطرة الأميركية ، وبالتالي فالمجموعتان تؤكدان على تكتيكات مختلفة وتفضلان اتباع خطوط مختلفة في المجازفة .

لقد كان ممثل المجموعة من النقاد جورج بول ، الذي ينبع تحفظه تجاه ديبلوماسية كسنجر من تكتيكات الأخير وتوقيتها وبرجات التوكيد ، اكثر مما ينبع من تصور أساسي للعمل الرسمي . « والاحجية » المركزية أو المعضلة الستراتيجية في عالم متزايد « الازدحام » ، تنبع من تنقية محاور السياسة وقضاياها . فكما أن بعض الأمم تمتعت بأشكال من السيطرة على الاقتصاد والموارد ، فيما حافظت أمم أخرى على تفوق قوتها العسكرية مع الاعتماد اقتصادياً

وديبلوماسيا على مورد ثابت وشبكة تسويق ، فان بوسع بول أن يتبين قابليات بنيوية ملائمة للقوى الغربية .

وفي محور أخر تقع المسألة التي يفضل الستراتيجيون أن ينبذوها ، وهي عدم القدرة على التوفيق بين البرامج القومية ــ الايديولوجية المتصارعة ضمن جهاز الدولة الحالي » الأمر الذي يستمر في توكيد دور السيطرة والسيادة على الأرض بوصفها المقياس النهائي للقوة والحق . وامكانية وقوف المحارر المتعددة التي تتحرك في الشرق الأوسط في مواقع نازعة للاستقرار ، تنتج المعضلة الستراتيجية الرئيسية في تحليل بول . ودور الفلسطينيين في المحافظة على الدافع العربي القومي ، في حين تبقى اسرائيل ، وبعناد معادية لأي تراجع جغرافي أمام هذه القومية ، هو الذي يوفر ديناميكية مثل هذا الاصطفاف النازع للاستقرار .

وهكذا فقد نظر إلى وجه الخطورة في الاعتماد على القوة الأميركية ، على أنه يستدعي استعمالا دقيقاً لجهاز السيطرة الأميركية ، وخصوصاً في دعم الأنظمة العميلة . وتحتل اسرائيل الموقع الأول في نظام التبعية ، لكن هذا الموقع مشروط بقدرة اسرائيل على تدعيم السيطرة الأميركية وسط مجموعة أعرض من الزبائن . وحرية اسرائيل في الحركة تصبح موضوعاً مشكلياً عند النقطة التي تولد فيها ضغوط ثورية داخلية ضد أنظمة العملاء العرب « المعتدلين » . وهكذا يتم الحكم على قابلية القوى السياسية التي تدعم الأنظمة الحاكمة في مجتمعات العالم الثالث بوصفها عنصراً متحركا خطيراً على السياسة الأميركية أن تأخذه في الحساب .

« إن العنصر القائم في الوضع الراهن والذي يطعم السيناريو الكالح هذا بحتمية المأساة اليونانية ، هو أن قاده الحكومات في كل العواصم الرئيسية هم أسرى القوى السياسية المحلية ، وبالتالي فلديهم حرية ضئيلة في القرار والحركة » .

وكما يمكن أن نتوقع ، يقع بول على استقطاب في طبيعة هذه القوى كما تظهر في اسرائيل وفي العالم العربي :

«. . .ففي اسرائيل تركز لا مثيل له للرجال والنساء النشيطين والأنكياء والمثقفين وأصحاب النزعات الفردية ، لكنه في الوقت نفسه حسن وسيء ، فرغم انه يغني الثقافة الاسرائيلية ، إلا أنه يقود الى التفرقة ، مع وجود الميل إلى التبعثر السياسي ممزوجاً بالتمثيل النسبي ، والائتلافات سريعة الزوال التي تظهر يمكن أن تعكس شيئاً يزيد قليلا عن قاسم الحد الأدنى المشترك . . . كذلك فالقادة العرب لا يملكون حرية حركة اكبر ، فبغض النظر عن مدى رغبتهم في التخلص من الكابوس المكلف للنزاع العربي الاسرائيلي ، فهم لا يزالون عرضة للاثارات الشعائرية والديماغوجية من قبل اخوانهم العرب الاكثر تعصباً (بول ١٩٧٦) .

إن نقد بول لتعاطي نيكسون ــ كسنجر مع مفاوضات الشرق الأوسط ، فشل في أن يرى « تبادل التنازلات » في الخطوة خطوة ، وكذلك تقنيات كسنجر الخادعة واستعمالاته الشفافة . فأخطاء التوقيت المنسوبة لاستثمار كسنجر لموقعه الشخصي في الحصول على الاتفاقية ، كانت هي المسؤولة ، حسب هذا النقد ، عن تعليق المفاوضات عند النقطة الحرجة . ويدعو بول استناداً لمنطق « شرعي » لاطار شامل يستطيع أن يضمن استقرار

الزبائن . وهذا التعاطي يتطلب إصدار نص مبدئي حول النطق باسم الفلسطينيين ، والتمهيد لكيان فلسطيني مسيطر عليه ، أي مرتبط بالأردن ، الأمر الذي يكون مقبولا من الأنظمة المحافظة العميلة ويمكن أن يتعايش مع دولة اسرائيل الصهيونية .

وسوف تتطلب التكتيكات التي سيتم تبنيها ، انخراطاً اميركيا غير مباشر ، على المستويات العسكرية والاقتصادية ومستوى الطاقة الاستخباراتية ، لكنها سوف تعمل من خلال النخب المحلية ضمن مساحات « الانتداب » الدولي .

أما الادارة الاميركية التي ستطبق هذا النظام فستحتاج في الداخل ، إلى شجاعة سياسية في مواجهة المجموعات المؤيدة للتصلب الاسرائيلي . (بول ١٩٧٧) .

إن لمدرسة « الامبراطورية المستعادة » والستراتيجية العظمى قاسماً مشتركاً مع مدرسة بول عن « الانتداب الدولي » هو الاهتمام بأشكال القوى الراهنة وأخطار الفوضى التي تهدد الأمم المكونة ، لكن أنصار الامبراطورية المستعادة يفترضون أن القوة العسكرية لا زالت تعرف التراتب السياسي الكوني (ص ٥)

هذا الخط من التفكير يطبق على الشرق الأوسط كتفريعة معلنة من نظرية « القوة العظمى » لجورج ليسكا الديبلوماسي التشيكي السابق . والتحويل المفهومي يتم عرضه شعبياً على يد تلامذة ليسكا وأصدقائه الذين هم ، كأصدقاء لاسرائيل ، مشدودون الى نمط ليسكا في التحليل ، وبين هؤلاء ادوارد لوتواك وروبرت و . تكر الذي كثيراً ما يساهم في التعليق ، أما الأصوات الأخرى فهي أصوات المحللين الستراتيجيين الأوروبيين ، كبرنارد برودي وريمون آرون ، وساموبل روبرتس تلميذ تكر وليسكا الذي صور الاستراتيجية الكبرى الخاصة باسرائيل على ضوء تلك النظرة ، الأعرض على الستراتيجية العظمى .

وتنهض المعضلة الستراتيجية أو « الأحجية » المركزية بالنسبة لهؤلاء المحللين من نفس القوى التي رأى فيها بول فرض مشاكل التجزئة على الأمم الناضجة . وبهذه اللغة صاغ دانيال بل وستانلي هوفمان المشكلة في الموضوعات الأخيرة في السياسة الخارجية ، كذلك حللت تفصيليات المعضلة في كتاب هوفمان « السيادة أو النظام العالمي » . ثمة ثنائية اساسية في « ميادين » القوة تمثل المواجهة بين « الحضارات المسؤولة » أو القوى العظمى ، مع البرابرة أو القوى الأقل قوة .

« ... فالهدف في الميدان الكوني الأساسي هو وضع ومن ثم تأمين نظام دولي متعدد القوى اكثر من ايجاد أي وضع محدد (شأن الوفاق الأميركي ــ السوفياتي) والهدف الايجابي المحدد هو ادامة القيادة الأميركية في نظام جديد من التوازن ، يمنع التقارب الدائم بين الصين والاتحاد السوفياتي ويعمل لصعود أوروبا الغربية (أو بدلا عنها المانيا الغربية) وكذلك يعمل على إيصال اليابان لأن تكون على الأقل ذات دور داعم أو ذي استقلال ثانوي في ديبلوماسية الدول العظمى .. والميدان الاقليمي متفرع عن ميدان القوى العظمى الكونية في رؤية عالمية بيسماركية ، فيما القوى العظمى تناور من أجل وصول الستراتيجيات المتشابكة ، بهدف الوصول إلى صراعات اقليمية متفجرة على ارضية التسويات السياسية في أطر هيمنوية أو

متوازنة ، تتغاضى عن ، بل تطور أنظمة من توازن القوى الاقليمية على قاعدة الاصطفاف التراتبي » (ليسكا ١٩٧٥ ، ص ٩٩) .

ونقد ليسكا الأساسي على كسنجر هو في مزاوجة الأخير المعكوسة بين القسوة التكتيكية والرقة الستراتيجية في سعيه لبناء قاعدة جديدة لا تتغير للسيطرة الاميركية . واعتبر نمط الآحادية عند كسنجر « حديثاً » كما وأدان ليسكا لجوء كسنجر لـ « العبارات الاخلاقية » حول شرعية النظام الذي كان يتجه وبسرعة نحو العجز ، في حين كان أن النظام الجديد لم يكن قد نضج بعد .

وهكذا ففي المناطق حيث استطاع كسنجر أن يوظف القبول المؤقت للقوى الشيوعية بالسياسة الأميركية ، كان كسنجر يفتقد البعد « المعماري » في العمل السياسي . وما كنا بحاجة اليه هو « تزامن البواعث في ميادين القوة المختلفة » (ليسكا ١٩٧٥ ص ٢٠٨) .

وتحديداً بالنسبة لمنطقة الشرق الأوسط ، طرح ليسكا ومساعدوه اصطفافاً تراتيبياً تحتل اسرائيل فيه قمة النظام بوصفها القوة « شبه المهيمنة » . وبسبب المنطق غير القابل للمصالحة بين الصهيونية وقومية الفلسطينيين العربية ، طرح ليسكا ـ وهذا ما قاله في ندوة اسرائيلية حول انهاء الحروب عقدت في حزيران ١٩٧٦ ـ بأن القاعدة الوحيدة للتوازن تكون بخلق « مجموعة تكون جماعية بنيوياً وتضم عدداً من الأطراف الثانوية وعدداً من القضايا المتداخلة » ويعد ذلك ميز ليسكا الصراعات بين طرفين عن الصراعات بين جانبين حيث يكون أحدهما ائتلافاً على الأقل : « دور القوة الخارجية أو ظهور عامل جديد ، يخلق نزوعات تعادلية متعددة الأنماط ... (لكن) بغض النظر عن الاتجاه الذي يأخذه التعادل ، ستكون هناك عناصر للسلام المنفصل الذي هو الأساس الجوهري للتبديد الثلاثي الأطراف ... إن مصر ستكون عاملا أساسياً في هذا التبديد ... أكان ذلك القوى العظمى الضامنة والمشرفة التي تجعل الهدف المشترك نسبياً للمضمونين ، أم المرتدين من القوى الصغرى الذين يطفئون صراعهم لتجنب ضغوطه ، أو الحاجة للدعم من الأسياد السابقين » (ليسكا ١٩٧٧ ص ٢٣١) .

على أية حال ، فليسكا أكد على الاتجاه نحو التبديد ، و « التعددية في الأطراف والحصص والمستويات » التي « توفر المجال لاطفاء الصراع وبهذا تضع حداً نهائياً له » الأمر الذي يعمل ضد « السمات الهامة ذاتياً » مثل قضايا التعاقب المحق أو الايديولوجيا ويصل تحليل ليسكا للستراتيجية الاسرائيلية الى القول :

« بهذه الحدود ومع هيمنة السمات الهامة ذاتياً ، يكون الصراع قابلا فقط لانهاء كارثي بالنسبة لأحد الطرفين أو الطرفين معا » . ومع الحؤول دون اجتثاث أحد الطرفين الذي يمكن تحقيقه دون كلفة كبرى من الطرف الآخر ، فالنتيجة تكون عرضة لأن تخرج عن خانة تحقيق الانتصار ، طالما أن النصر معرف بشكل صحيح على أنه ، أولا ، تحقيق الأهداف الأساسية للصراع ، ثانياً ، الانجاز على يد الطرف أو الأطراف التي لم تتغير في قسماتها الداخلية أو الخارجية الجوهرية ، وثالثاً ، بفضيلة التطبيق الحاسم للقوة ولأدوات التقرير الديبلوماسي » .

وتعتمد السيناريوهات التي بناها ليسكا على هذا التحليل اعتماداً كبيراً على الاكراه

العسكري الاسرائيلي وعلى صورة « سويس ١٩٥٦ معدلة » من خلال « التواجد العسكري الأميركي في الخليج الفارسي أو الشاطيء المتوسطي » وهذا الاستخلاص يرى إليه ليسكا بوصفه مقايضة اضافية لصالح الطرف الأميركي ـ الاسرائيلي (ليسكا ١٩٧٧ ص ١٥٨) . والقبول المحلي بهذه الستراتيجية الأميركية الرسمية ولتبنيها من قبل أنصار اسرائيل ، هو الذي يقرر ما إذا كان الجمهور الأميركي قد صدق أن العرب رفضوا التسوية على أرضية ورطة ١٩٧٣ . وبالنسبة لليسكا ، فان عمليات اكثر تطورية على امتداد مراحل طويلة من الزمن ستكون على الأرجح معروضة من خلال دورات عديدة متعاقبة من الحرب والديبلوماسية . وبين المراحل الممكنة التي أوجزها في العملية الطويلة يمكن ان تكون ثمة مرحلة تقوم فيها اسرائيل « بحصر المزيد من العمليات العسكرية على أرض المواجهة مع مصر وسوريا في ممارسة العمل الدفاعي ، وأن تكون جاهزة لتحريك « الأدوات الجوية المباشرة للتدمير » الذي يطال المشاريع الصناعية النامية وباقي المواقع المتصلة بالتنمية (ما عدا النفط) في بلدان كالعربية السعودية والعراق » .

ويمكن تطوير المزيد من فصل مصر عن « الدول العربية المولعة بالقتال » عن طريق « استعراض التبعية العسكرية لمصر من المشارقة العرب » وفي مثل هذه الحالة فان « القوات العسكرية المصرية والاسرائيلية ستضم بحكم الظروف عناصر التنبيه والاصطدام » مثل « حرب زائفة على الجبهة الغربية » في المرحلة الأخيرة التي تقوم فيها مصر بـ « انقاذ » الجبهة الشرقية من الكارثة العسكرية .

أما بالنسبة لـ « القضايا الأساسية والروحية الحية » فسوف تبقى ، مثل القضايا التاريخية السالفة التي ذكرها ليسكا ، « خارج المفاوضات ، وبالكامل غير مذكورة » « فان يتم تجاهلها في أدوات انهاء الحرب هو الذي يتيح للحرب ان تنتهي فعلا»اما « التفسير الوظيفي » بين اسرائيل والطرف غير المذكور الذي يمسك بالهم الذي لا يخضع للتفاوض ، فيمكن ان يكون « الحل الوحيد المتوفر » لكن « قبل أن يعرف مثل هذا الانجاز ... فان الاعتراف الشكلي بحق (أي حق اسرائيل في الوجود) هو التنازل الأخير ، بل الأول الذي يجب الحصول عليه من الطرف الذي خسر عسكرياً على أرضية تقنية ... والاصرار على مثل هذا الاعتراف بوصفه المفتاح الأساسي ، سيكون بالتالي ، كثير الفائدة لتأخير المفاوضات الجدية التي اعتبرت غير ناضجة » ..

ويستنتج ليسكا من مراقبته ان « قضية الدولة الفلسطينية ربطت نفسها إلى حد ضئيل » بانهاء القتال عبر تطور سلمي . ففي المدى القصير ، ذكر الحاجة إلى « التدخل الجراحي » ضد القوات الفلسطينية التي لا مجال للتصالح معها ، ملاحظاً أن « الاستئصال هو الشكل الأسرع لانهاء القتال » .

بالنسبة لعلاقات اسرائيل مع باقي الاطراف العربية ، والذين يمكن أن تطبق معهم العمليات التطورية ، فـ « فالمزيد من التطور فقط هو الذي يسهل اعادة تقييم الحالات الشاذة المعنية ، والحصص المحددة ، والأطر الأعرض في حسابات الربح والخسارة التي سوف تتكرس في العمق ، حتى حين يندرج تحديدها على مستوى سطحي فقط . وفقط حين يحدث

هذا ، سيتقرر مصير القضايا التي ينقسم الرأي بشأنها ، بما فيها المشكلة الفلسطينية ، فاما أن تشتمل عليها المفاوضات واما أن تنتبذ، اما أن تحال الى اتفاقيات أو يكون حظها الضمور » .

وجاءت مساهمة ادوارد لوتواك في هذا النقاش تحدد كيف يكون الحصول على « تقديم الضمانة في العمق » من خلال التقليدالعسكري،فكما ثبت مع الامبراطور الروماني دايوكليتيان فان « سياسة منهجية من التنظيم الداخلي الصارم (مراسيم على الأسعار) » و « تصليب الجبهة » «عبر قلاع قومية تبنى حول المساحة الملكية ، بالاضافة إلى تحالف القوى المحلية داخلياً ، تستطيع الحفاظ على قوى الامبراطوزية في أوقات تصبح معها عوامل الكلفة عوامل حاسمة وتصبح خطوط التموين مختلة وظيفياً » . وعملياتيا فان منهج « الدفاع في العمق » يتمتع « بأفضلية الدعم المشترك ، بين المواقع المحتواة ذاتياً والقوات المتحركة في الميدان ...»

« فاذا كانت المواقع قابلة بشكل كاف لأن تتحمل الهجمات دون أن تطلب دعماً مباشراً من العناصر المتحركة ، واذا كانت العناصر المتحركة بدورها قادرة على أن تقاوم أو تتجنب الهجمات المركزة في الميدان دون حاجة إلى اللجوء للمواقع ، وأخيراً ، إذا كان على الهجوم أن يقلص المواقع في النهاية في سبيل انتشاره ، عند ذلك تكون الشروط حاضرة لدفاع ناجح في العمق » (لوتواك ١٩٧٦ ص ١٣١) .

ومضى لوتواك في توكيد التوظيف الاقتصادي للقوة المصاحبة للحرب النفسية ، فالقدرة على استنباط ردود الفعل المرغوبة من خلال قرارات ممثل وأدوات علاقة القوى، هي ليست، ببساطة ، وظيفة في القدرة على الامساك بالاكلاف والارباح ، بل بالقدرة المستوعبة للقيام بذلك (المرجع السابق ص ١٩٧) .

إن وظيفة صياغة وتوضيح ملاءمة الستراتيجيات العظمى القديمة للمتطلبات الاميركية الراهنة تعود إلى ليسكا . ففي كتابه الصادر في ١٩٧٨ « وظيفة الامبراطورية » يكشف ليسكا الشروط المحددة للانحلال السلطوي وشكا فشل الرؤساء الأميركان السابقين في تحديد العلاقة بين المنافع التي حظي بها الأميركيون من جراء موقعهم الممتاز ، وضرورات المحافظة على هذا الموقع :

« إلى درجة أن انحلال الامبراطورية الاميركية كانت أساساً مشكلة قرار حر وغير اكراهي اكثر مما كانت مشكلة تبخر أي من (الامبراطوريتين) الرومانية أو البريطانية ، والى هذه الدرجة نفسها يكون الأمر قابلا للعكس من خلال كشف الشروط المقررة للتغير » .

في المفاوضات المستقبلية كانت ثمة حاجة لحس التوقيت الديبلوماسي وشطاره الاخراج اللائق للتوازنات الاقليمية المتعددة ، من أجل التهيئة لانتقال السلطة من الامبراطورية ، ووجود الشك بقدرة رسل أميركا يؤخر الانحدار الأميركي عن طريق التدخل القسري والمحافظة على السيطرة في مناطق حساسة محددة .

والسؤال الذي يبقى من حصة ادارة كارتر ، عند تحليل النقاش الستراتيجي الذي جرى في أواسط السبعينات ، هو تقرير مدى نفوذ هذين المتغيرين على نموذج السيطرة الملكية ــ الهيمنة

الانتدابية التي تضمنها منطق بول أو السيطرة على الأرض في امبريالية ليسكا .

واحد المفاتيح توفره كتابات زبغنيو بريجنسكي في خلال فترة التقييم نفسها ، حيث تزاملت مع الحملة الرئاسية التي عمل فيها بريجنسكي كمستشار رئيسي لشؤون السياسة الخارجية . وفي خلال الفترة اياها ، كان بريجنسكي يساعد في اقامة اللجنة الثلاثية التي يمولها دافيد روكفلر لتنسيق السياسات بين الولايات المتحدة « والقوى الوسطى » لأوروبا الغربية واليابان .

وتحتوي المقالات التي كتبها بريجنسكي في خلال إدارة نيكسون ، عبارات تردد ببغائياً تقريباً بعض مصطلحات ليسكا عن « الستراتيجية العظمى » لكنها تنبذ اصالة مفهوم التقرير الذاتي في الفكر السياسي الأميركي ، كما وتكرر انتقادات مماثلة لتعاطي كسنجر مع تسوية الشرق الأوسط . وفي مقالته لعام ١٩٦٨ عن « السلم والقوة » والتي نشرت في « انكونتر » استرجع بريجنسكي مخاطر قوتين كبريين تسعيان وراء استراتيجيات كونية تصارعية في العالم الثالث غير المستقر ، فـ « القوة العظمى المتدفقة (أو المتحركة) يجب أن تتحرك نحو اكتساب حقوق الأولوية ومجال التدخل » بعد ذلك استشهد بريجنسكي بمثال الحكومة الفرنسية التي تنازلت عن مطالبها في فاشوده أمام الضغوط البريطانية . وفي كتابه لعام ١٩٧٠ « بين عصرين » لاحظ أن فاشوده لم تفسد الوفاق الأوروبي الصاعد ودافع عن كونسورتيوم القوة المتعددة هذا والصالح لـ « الأمم المتقدمة » في يومنا :

« فالحركــة باتجاه مثل هذه المجموعة ستتطلب في كل الحالات طورين عريضين ومتجاوزين ، الأول منهما يتصل بصناعة روابط للمجموعة تربط بين الولايات المتحدة وأوروبا الغربية واليابان كما وبين بلدان متقدمة أخرى (مثلا ، استراليا واسرائيل والمكسيك) . أما الطور الثاني فيتضمن توسيع هذه الروابط إلى الأقطار الشيوعية الأكثر تقدماً (بريجنسكي ١٩٧٠ ص ٢٩٦ ـ ٢٩٧) .

لا وجود لأواليات محددة سوى تعديلات التسعيرة الجمركية « والعون غير السياسي » يقترحهما (بريجنسكي) لتحسين وضع العالم الثالث . والستراتيجية يمكن بالتالي أن تنبع من متطلبات ميدان « القوة العظمى » وسوف تتطلب إقناع « النخب الطامحة في الأمم النامية » بتبني القيم « الواقعية » المرتكزة على تطورات حقيقية لا على أصداء تطورات غارقة في « التعميمات التجريدية » (المرجع السابق ص ٢٨١) . وقد أكد بريجنسكي في مقابلة أجريت معه في ١٩٧٨ على عنصر القوة في مثله عن فاشوده « نعم ، إذا كان حيوياً بشكل كاف .. فنعم . علينا أن نحاول الدخول إلى هناك أولا . أو أننا ندخل ، ثانياً ونصبح الأول » (١٩٧٨) .

وبريجنسكي ، في ملاحظته للمحاور المتعددة في الصراع الحاضر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، وميدان الشمال ـ الجنوب الاكثر جده ، والقضايا العنصرية ، والقومية ، خرج باستنتاجاته من الزاوية الأضيق لمصالح الامبراطورية الأميركية في السيطرة . « انه أكثر تهديداً بكثير لكرامتنا ولدورنا في العالم . لا طريقة إلى معرفة أين نقف حين نبدأ بالانحدار » . بعد ذلك أضاف بريجنسكي مفهوم « المهمة » التي عقلنت المثل

الأميركية التقليدية والتدخل القهري » فالى جانب نلك ، هناك المضمون الأخلاقي والديني . فاذا وقف الغرب إلى جانب أي من القيم ، فسيكون نلك إلى جانب القيم الروحية ، وروحانية الفرد . ويكون من المؤسف ان يصبح هذا الأمر اقل اهمية في الشؤون الانسانية » (١٩٧٨ ص ١١١) .

إن التحويل المفهومي عند بريجنسكي هو انتقائي بشكل عام ، يتضمن مجموعة متباينة من القوى والضغوط الاقتصادية والنفسية ـ الاجتماعية الهادفة للمساواة . ويجد المرء في كتاباته تطلبا لـ « موقف اكثر ابتعاداً عن العمليات الثورية العالمية» . وفي مقالاته عن « السياسة الخارجية في ١٩٧٥ و١٩٧٦ تمنح القضايا الاقتصادية العالمية موقعاً مركزياً بوصفها القوى الجديدة « النازعة للاستقرار » التي تواجهها أميركا في « عالم معاد » ، والسيطرة غير المباشرة على هذه القوى ، كما قد يقترح مفهوم بول عن « الانتداب الاميركي » ، تتطلب تأمين شرعية دولية لمزيد من الاختراق الاميركي الى الانظمة الزبونة واضفاء الاستقرار عليها .

وقد ظهرت آراء بريجنسكي بالنسبة لتسوية مفيدة في الشرق الأوسط في مقالة إلى جانب مقالات أعضاء من « اللجنة الثلاثية » الأوروبيين واليابانيين ، وقد طرحوا عروضاً بشأن تسوية ممرحلة بحيث « ولأول مرة ، لا تكون سياسة اسرائيل سابحة ضد التيار ، بل معه » . وتضمن اقتراحهم للمدى القصير دوراً رئيسياً لأميركا من خلال اتفاق مشترك اميركي ــ سوفياتي ، واتفاقية حول حدود الدول القائمة ، وتجارة اسرائيل مع الأراضي المحتلة مقابل قبول عربي بـ « انتداب على الأرض الفلسطينية القديمة بين اسرائيل وما يمكن أن يكون دولة فلسطين التي تحكمها منظمة التحرير في الضفة الغربية وقطاع غزة » .

مثل هذه الاتفاقية ستدعم بضمانات اميركية ــ سوفياتية مشتركة وقوات إشراف تكون حسب عبارات بريجنسكي ، لأغراض سياسية وعسكرية ، إذ الولايات المتحدة لا تستطيع (وحدها) أن تتحمل قوة كبيرة . أما بالنسبة للمأزق المباشر في فصل القوات بسيناء والذي كان لا يزال مستمراً فيما كان أعضاء اللجنة الثلاثية يحضرون برنامجهم الخاص ، فقد اقترح بريجنسكي امكانية توقيع معاهدة مؤقتة إذا استطاع السادات أن يجد الطريق لضمان انهاء حالة الاعتداء ، واذا تم الاقرار بالمسألة الفلسطينية بوصفها المسألة المركزية في الاطار طويل الأمد ، فان مسألة التقاطع الأخيرة ستكون ما اذا توفر « لأحد أطراف النزاع أن يكون قادراً على اختراق الوضع نحو السلام » .

ويبدو على قاعدة كتابات بريجنسكي انه حافظ على فهم ثنائي للستراتيجية الاميركية ، التي نظم من حولها تصورات نمط الانتداب المتفائلة عن انتقال السلطة والتعاون في ظل استقرار اقتصادي مشترك وعلاقات زبائنية ، ولكن التي استنتج من ضمنها التوكيد القديم على التفوق العسكري الاميركي والاستعراض الرمزي للقوة .

اما وان هذا التحويل المفهومي الثنائي لم يكن متلاحماً في إطار استراتيجي موحد فكان أمراً مرشحاً لأن يعرض سياسة كارتر للنقد من قبل مدرسة « الانبعاث الملكي » الاكثر احساساً بالذات . وكون انتقاداتهم قد وجهت إلى الادارة الجديدة بشكل اكثر حدة مما كانت توجه به إلى كسنجر ، فهو أمر يمكن توقعه .

دائرة كارتر ـ بريجنسكي للتفاوض

إذا انتقلنا إلى أطوار مفاوضات الشرق الأوسط التي رعتها إدارة كارتر ، يمكن أن نسأل إلى أي حد مثلت عملية التحويل المفهومي الثنائي عند بريجنسكي في المقايضة ؟

في أثناء مناخات الانتقال من ادارة فورد إلى ادارة كارتر ، كان ثمة عرض ضمني يرتكز على عبارة ساوندرز القائلة انه : مع قبول منظمة التحرير بقرار ٢٤٢ والتخلي عن الكفاح المسلح ، فان « التفكير الأميركي في المسألة الفلسطينية يمكن ان يتطور » . لكن قرار الأمم المتحدة العام ١٩٧٥ عن الصهيونية والعرقية بقي مناسبة احتفالية لشخصيتي المرشحين والوسط الاعلامي كي يظهروا تضامنهم الاخلاقي مع اسرائيل . وهوجمت المقاطعة العربية والعالم ثالثية للأطراف التي تقيم علاقات مالية وتجارية مع اسرائيل ، وصنفت هذه الأعمال بوصفها أعمال تمييز معارضة للقوانين الأميركية المضادة للترستات ، والمرشحان طالبا بايجاد التشريعات التي تحول دون التواطؤ مع المقاطعة ، وأقسم فورد على عدم معاقبة التعصب .

الطور الأولي : الانخراط الديبلوماسي

تجاوز طور انخراط الادارة الجديدة هذه القضايا ، لكن التركيز على الشمولية ، كما في تقرير بروكنغز ، ميز حالة الاختلاف لدى مسؤولي كارتر . فقبل مدة كانت أية إشارة إلى تعاط جديد مع منظمة التحرير واستعادة علاقات التعاون مع السعوديين النافذين تمتزج بصورة الذي يضع مهمة صناعة السلام على حساب مصالح اسرائيل طويلة الأمد .

واذا أخذنا التحول الذي كثر الضجيج بشأنه ، حول الشمولية ، فان ادارة كارتر حاولت أن تغطي كل زوايا الحقل الديبلوماسي ، فقد استعمل اندرو يونغ من موقعه الجديد في الأمم المتحدة والذي حل فيه محل موينهان ، لغة مقصود منها أن تصلح الخراب الذي حل بعلاقات أميركا مع العالم الثالث ، كما وقدم ادراج الاهتمام بالحقوق الانسانية في العلاقات الثنائية لأميركا مع بعض الأقطار ، وتكرار الحديث عن القيم الاجتماعية كقاعدة للسياسة الاميركية ، في سبيل الحفاظ على الدعم الليبرالي في مجال الرأي الدولي .

واكثر ما يتصل بالشرق الأوسط كانت عبارات كارتر في خطابه بكلنتون ، ماساشوستس ، في آذار ١٩٧٧ ، عن قضية « الوطن » الفلسطيني ، فهذه « الجزرة » الديبلوماسية التي تنكر على نحو غير مريح بلغة بلفور ، كانت قد عرضت لتغري أعضاء المجلس الوطني الفلسطيني الذين كانوا يجتمعون في القاهرة ، بأن يخرجوا من برنامج عملهم كل حديث عن طبيعة المجتمع الاسرائيلي والأسس التاريخية للنضال التحرري . ولم ترفض « الجزرة » فقط ، بل ان قيادة منظمة التحرير تصلبت عند مطلبها بالدعوة المنفصلة للمشاركة في جنيف . وطرحت مذكرة منظمة التحرير التي أوجزها دافيد هيرست في الغارديان الأسبوعي الشروط التي تشكل اعترافاً مرضياً . ففيما مضت المذكرة لتؤكد على العمليات العسكرية بوصفها وسيلة للحصول على الهدف السياسي في سيادة فلسطينية مستقلة ، فانها طمأنت واشنطن إلى أن الدولة الفلسطينية لن تكون قاعدة عسكرية سوفياتية ولا كيانا محكوماً بالمساعدات الخارجية « من الشرق أو الغرب » . وفي الفترة نفسها نظم ١٠ آلاف فلسطيني

داخل اسرائيل نشاطات الاحتفال بذكرى يوم الأرض والاحتجاج على المصادرة الاسرائيلية للأراضي العربية .

لقد سجل توضيح كارتر الأخير للعنصر الفلسطيني في السياسة الأميركية « حق الفلسطينيين بأن يكون لهم وطن ، وأن تعوض عليهم الخسائر التي تكبدوها ، وأن يحصلوا على الانسحاب الاسرائيلي من اراض احتلت عام ١٩٦٧ ، وأن تحل نهاية حالة العداء وتنشأ حدود سلمية وآمنة » .

واستمر الضغط الديبلوماسي على منظمة التحرير خلال الصيف وما بعده ، ففي حزيران اجرى فانس محادثات مع القادة الاسرائيليين الذين عارضوا مصطلح « الوطن » الفلسطيني ، واقترح فانس أن يتلو قبول منظمة التحرير بالقرار ٢٤٢ لقاءات أميركية مع ممثلي منظمة التحرير في الأمم المتحدة بعد شهر على القبول بالقرار .

وحين أنتج هذا الضغط صدورشرط مضاد من منظمة التحرير مفاده ضرورة آن يعدل القرار ٢٤٢ليعترف بالكيان الوطني الفلسطيني وحين أكد الاتحاد السوفياتي في تشرين الأول على حق الممثلين الفلسطينيين بحضور مؤتمر جنيف ، فان إدارة كارتر تراجعت مباشرة لمستوى « ورقة العمل » الأميركية ــ الاسرائيلية المشتركة لكي تضع الجوانب الاجرائية لجنيف . منذ تلك اللحظة أصبحت القضايا الاجرائية تعطى الأولوية على إعلان المواقف المبدئية التي كان بول سابقاً قد حث عليها بوصفها وسيلة للحفاظ على القاعدة الدولية للشرعية .

وفي حين تراجع ذكر القلب الفلسطيني لصراع الشرق الأوسط ، انتشرت شائعات عديدة حول حوار فلسطيني ــ اسرائيلي سري . لكن العلاقات العسكرية الاميركية الاسرائيلية تدعمت بشكل لا لبس فيه مع إعلان كارتر في ١٢ أيار عن استمرار « المعاملة الخاصة » لترتيبات السلاح الاسرائيلي ، بما يتضمن السماح بالمشاركة في انتاج انظمة السلاح المتقدمة (مع بعض أنظمة المواصلات التي أعلن لاحقاً أنها للاسرائيليين بلا حدود) .

وهكذا أعطيت اسرائيل موقعاً كموقع بلدان الناتو لجهة اعفائها من الاعتبارات التي وضعتها ادارة كارتر لتقييد بيع الاسلحة . وأشارت استجابة اسرائيل إلى تصليب الحكم المحلي والسيطرة الجغرافية كقاعدة للستراتيجية الاسرائيلية ، وتم التعجيل ببناء المستوطنات اليهودية الجديدة في الضفة الغربية .

في تموز أعاد بيغن تسخين تاريخ الانتداب البريطاني من خلال الخروج بمقترحات سلمية تتضمن نسقاً من « الحكم الذاتي » يمكن ان يحول مطلب « التمثيل الذاتي الفلسطيني » إلى موضوعات بلدية تتناول الوظائف الحكومية ــ تماماً كما اقترح المفوض الصهيوني هيربرت صموئيل وخلفه لورد بلمر ، وجود مجالس بلدية قبل خمسين عاماً ، كوسيلة لامتصاص التفوق العددي العربي ، والسماح في الوقت نفسه لنشوء سيطرة صهيونية على المستعمرات الجديدة التي يمكن تحصينها ، وفيما بعد توحيدها في ظل القيادة القومية الصهيونية .

لكن المبادرة الاسرائيلية الأساسية تركزت على مد خط للسادات في سنة ١٩٧٧ ، مع زيارة وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان للمغرب كي يقابل سرا مساعد السادات الأعلى حسن التهامي ، وليكشف تفاصيل عن ان الموساد قد قضت على مؤامرة ضخمة أعدتها ليبيا ضد

السادات . وكان هذا اللقاء ، استناداً الى صحافيين اسرائيليين ، مجرد واحد في سياق طويل من الاتصالات المصرية ـ الاسرائيلية التي كانت الحكومة المغربية توفر لها السرية المطلوبة ، واستناداً لمعلومات الصحافيين ، فان اعتماد مخابرات السادات على اسرائيل ، وانزعاجه من مشاورات كارتر مع السوفيات ، وشوقه لأن يوجه ضربة مضادة لليبيين ويبرهن عن قيمة بلاده كقوة لها حقوق الاستيلاء ، بالاضافة إلى رغبته بالظهور في صورة رجل العقل والتسامح ، كلها أنتجت « ايماءة السلام الدراماتيكية » التي اقترحتها واشنطن . ومع أن طاقم وزارة خارجيته قد تريث وأبقى مسافة بينه وبين السادات ، إلا أن الأخير وجد نفسه على الطريق الى الكنيست ومن هناك الى السلام المنفصل .

إن المحطة الخلفية التي انشأها كسنجر من خلال الاستخبارات الاميركية والمصرية ، قد استعملت من قبل اسرائيل للحؤول دون وجود مشاركة أعرض في مناقشة المستوطنات ، أما العلاقة الثنائية الاسرائيلية ـ المصرية فقد تدعمت بقوة الجعجعة العاطفية واللقاءات الشخصية في القدس التي جعلت لاعبيها الرئيسيين يحظيان بتهليل الاعلام وجوائز السلام . واستمر السادات معلنا انه سيستعمل موقعه الشخصي بوصفه رجل السلام لهذا العقد ، لتأمين التنازلات من قبل الاطراف العربية الاخرى .

امتحان الأهداف العملياتية والمحاور الاستشراقية

لقد تصلبت العلاقات بين مصر والأردن وسوريا من خلال التوجهات المشتركة لفانس بأن الأنظمة الثلاثة ستوقع اتفاقيات سلام مع اسرائيل كجزء من تسوية شاملة . واستمرت الحكومات الثلاث في اجراء الاستشارات مع بعضها ، والتقى عرفات بالسادات قبل يوم واحد فقط من إعلان الأخير عن رغبته بالذهاب إلى القدس ، واستمر السعوديون في تشجيع التبديلات في مواقع منظمة التحرير ، كما وبدا القادة السعوديون في العديد من اللقاءات كمنسقين لاستجابات الحكومات العربية على القضايا المطروحة للمفاوضات . لكن فجائية « مبادرة » السادات المنفردة وقلة اكتراثه بالسعوديين ـ الذين أدى دعمهم الى تمكين نظامه من الاستمرار المالي ، حطمت تضامن زبائن أميركا الثانويين في المنطقة .

وأدى التحرك المتسارع للأحداث إلى دفع إدارة كارتر نحو إعادة تقييم العناصر العملياتية في استراتيجيتها . فقد وفرت أحداث ١٩٧٨ للادارة وسائل امتحان الأهلية السياسية للتسوية الثنائية المصرية ـ الاسرائيلية . وفي سبيل الاحتفاظ بنوعية الشمولية ، التي كثر حولها الضجيج بوصفها التعاطي المميز لكارتر ـ بريجنسكي مع السلم في الشرق الأوسط ، كان على كارتر أن يسعى وراء مجموعة من الاتفاقات الملحقة . فمن منظور السيطرة الملكية ، ستكون هذه الاتفاقات ، وراء الاتفاقية الثنائية ، ضرورية إذا ما أرادت الولايات المتحدة أن تحافظ على الهيمنة في كامل المنطقة بدل أن تقتصر الهيمنة على منطقة القناة .

وبهذه الطريقة ، فان مبادرة اسرائيل الستراتيجية المستقلة ، ومداعبة السادات التكتيكية للبادرة الكريمة ، شكلتا « عنصرين شاذين » أمام النموذج المفهومي الاميركي المتطور .

وعلى أية حال ، فبغض النظر عن هذه المضامين العكسية ، فان إدارة كارتر ضاعفت

جهودها باتجاه نظام السيطرة الملطف لنموذج « الانتداب » وللحفاظ على الشرعية الدولية التي يستدعيها ذلك النظام ، كان على الديبلوماسيين الأميركان أن يمتحنوا الاستجابة الدولية على العلاقة المنفصلة مع مصر والتي فضلتها إسرائيل . عند ذاك صاغ بريجنسكي نظريته عن « الدوائر متحدة المركز » ، محاولا أن يمزج التحويلين المفهومين الشمولي والمنفصل ، فيما تستمر المحادثات الثنائية الاسرائيلية ـ المصرية . وعلى طول الخط قام بيغن والسادات بادانة هذا الاقتراح عن الشمولية باختيار لغة تقتصر على المساحة المحددة للمقايضة ، أي تلك التي بين مصر واسرائيل : طلب بيغن أن تلعب الولايات المتحدة دور « الوسيط الشريف » بالنسبة للبلدين ، فيما طالب السادات بالانخراط الأميركي بالمثلث كـ « شريك كامل » .

وزادت اسرائيل في تعقيد اللطافة الأميركية من خلال تسريب أن السادات قد علم سلفاً بهجوم اسرائيل المنتظر طويلاً ضد منظمة التحرير . أما انتهاكات اسرائيل لاتفاقية التعاون الدفاعي المشترك مع الولايات المتحدة ، عبر استعمالها للقنابل العنقودية أميركية الصنع ، فقد ذكرها فانس بشكل غامض . وبعد نقاش ثانوي في الدوائر السياسية الأميركية لم يقترح فانس أي عمل آخر لكي يقوم وراء المشاورات المباشرة مع الاسرائيليين . والحكومة الاسرائيلية في سياستها لتصليب حكمها في الضفة الغربية ، استمرت في توسيع المستوطنات وأعلنت في ٤ آذار ١٩٧٨ انها لا توافق على إصرار القرار ٢٤٢ بالانسحاب الاسرائيلي من الضفة الغربية وغزة . وحاولت إدارة كارتر غير الراغبة في مواجهة هذه التحركـات الاسرائيلية الستراتيجية المستقلــة ، أن تمزج العنصرين « المنفصل » « والشمولي » في تعاطيها الثنائي من خلال دمج المبيعات العسكرية والعون الاقتصادي وفي حين كانت إدارة كارتر تطلب الموافقة على قروض امتيازية لسوريا وتستمر في توجيه دعمها المالي السنوي للأردن ، فانها وقفت بحزم وراء بيع الطائرات الحربية لمصر والعربية السعودية واسرائيل . وكانت العربية السعودية بوصفها العميل التمويلي الضروري لعمليات الجيش المصري ، وللنظام العربي الأكثر اتساعاً ، حلقة الارتباط الأساسية في هذا الطور من الستراتيجية الاميركية . فحين تحرك الكونغرس لاحباط المبيع للسعوديين ، بقي موقف كارتر شديد الثبات ومع ان الادارة مضت في تعيين الفروقات الكبيرة ، أمام داعمي اسرائيل في الكونغرس ، بين المقدرة الهجومية لطائرات ف ١٦ الاسرائيلية بالمقارنة مع طائرات ف ١٥ « الخليعة » التي سمح بها للسعوديين وطائرات الـ ف ٥ ي للمصريين ، فقد استمر الحجب من قبل الكونغرس ، وأخيراً أعلن فانس عن إضافة عشرين طائرة ف ١٥ إلى الطلب الاسرائيلي .

الزبون التقليدي الوحيد الذي بقي على الهامش في أثناء طور « الامتحان » هذا ، كان الأردن . فالتبعية العربية المركزة للسادات والسعوديين وفرت في تلك اللحظة « ائتلاف الحد الأدنى المطلوب للربح » والقابل للحياة تكتيكياً . ومنذ إعلان حسين عن تبعيته لنظام الهيمنة الاميركية في ١٩٧٠ ، حتى بالشكل الذي أظهر فيه هذه التبعية ضمن النظام ، فقد كان واضحاً في ١٩٧٨ أن أي دور آخر للأردن سينتظر مصير التسوية النهائية .

وواجه كارتر في محاولته وضع عناصر نظام الزبائن على محك التطبيق ، إزعاجاً سياسياً حاداً في الداخل . فمباشرة قبل مغامرة السادات بالتوجه إلى القدس ، كانت شهور « الأزمة العميقة » ـ كما سماها بيغن ـ في الشراكة الاميركية ـ الاسرائيلية قد جعلت من المستحيل

على كارتر أن يدفع بيغن نحو تنازلات ضرورية كحد أدنى للتقدم نحو جنيف . ثم ، بعد رحلة السادات ، كان على كارتر أن يتجنب الاتهامات بـ « الخروج عن خط » قطار السلام الاكثر إثارة للابتهال حتى لو اقتصر على سيارتين فقط .

واختار كارتر أن يتجنب الخطأ السياسي الاضافي الذي قد ينجم عن الضغط الاميركي على اسرائيل في شكل تأخير العون أو السلاح الأميركي من هذه القيود على المقايضة جاء حل كامب ديفيد ، حاملا الاطار الثنائي الذي استدعاه المزج بين المعاهدة المصرية الاسرائيلية وخطة الحكم الذاتي الفلسطيني .

كان مؤيدو اسرائيل في الولايات المتحدة قد أعلنوا عن موافقتهم على تحول التركيز عند كارتر عن الشمولية فكما كتب روبرت تاكر : « قد يفضل المرء سلاماً عاماً على سلام جزئي ، لكن إذا كانت حظوظ السلام الشامل ليست متوفرة عملياً ، واذا كان السعي وراءه يشل المنظور القائم لسلام منفصل ، فالتفصيل يمكن أن يستبدل . هذه قد تكون حالة يكون معها تفضيل الأفضل الذي لا ينجز عدواً للجيد الذي يمكن انجازه » (آذار ٧٨) .

عند ذاك كان المطلوب فقط احتلاء السادات مع المفاوضين الاسرائيليين في كامب ديفيد للخروج بقرار نهائي حول ما إذا كان السادات ، حسب عبارات الصحافيين الاسرائيليين ، « راغباً في الوصول الى تفاهم بشأن الضفة الغربية بدون حسين » . أما استقصاء دايان حول الموضوع في حجرة السادات فقد يجعله يخرج باستنتاج ايجابي . أما السادات فقد تعلق بالصيغة النهائية حتى ولو واجهته استقالة وزير خارجيته . إن صدى تلك المستشرق الكبير اللورد كرومر كان حاضراً : إن الوجود الانجليزي في مصر لن يكون هدفه تدريب العقل المصري بقدر ما هو تشكيل طابعه (سعيد ١٩٧٨ ص ٢١٢) .

الالتزام

في الالتزامات التي قدمتها ادارة كارتر في كامب ديفيد ، وتم التصديق عليها في آذار ١٩٧٩ ، يمكن العثور على العنصرين المتغيرين في استراتيجية السيطرة الاميركية معاً ، لكن أياً منهما يبدو مفصولا عن جهازه الكامل من العناصر والروابط المنطقية ، فضرورات السيطرة الملكية كما حددها ليسكا نظرياً تقوم أساسا في « إعادة الطمأنة في العمق » التي قدمتها مصر لاسرائيل المدعمة عسكرياً . واعادة تملك مصر لسيناء ونزع المظاهر العسكرية عملياً عن الجبهة الغربية لاسرائيل يفترض أن يتصاحبا مع إقامة جهاز إنذار أميركي مبكر هو أكثر الأجهزة كلفة وتعقيداً في النقب . والطيران الاستطلاعي اسبوعياً بالاضافة للمساعدات البالغة ٣ ملايين دولار للتحرك وبناء القواعد في النقب هما أيضاً من الالتزامات . ومع أن صحفيي الاذاعة الاميركية قدموا العديد من المعلومات السريعة في شهر آذار حول الاتفاقات الاميركية الاسرائيليـة بالنسبة للترتيبـات العسكرية المباشرة في المعاهدة ، متحدثين عن قاعـدة بحرية للولايات المتحدة في حيفا ووجود ضمانة أمنية مكتوبة ، فان الصحف الأساسية تجاهلت هذه التقارير . أما الاتفاقية بالمضاعفة ثلاث مرات لعدد السنوات التي تضمن فيها الولايات المتحدة تزود اسرائيل بالوقود فبالكاد أشير إليه في التعليقات العامة ، كذلك لم تحظ « مذكرة التفاهم » بين دايان وفانس بما تستحقه ، رغم انها انطوت على اجراء « استشارات »

اميركية ــ اسرائيلية مباشرة في حال نشوء أي تغير في موقع مصر يمكن أن يهدد بانتهاك القيود على نزع المظاهر العسكرية .

لقد ظهر الموقع الستراتيجي الاسرائيلي الذي تصلب في كامب ديفيد ، على شكل واضح . فبعد الدفعة التي تسلم في مطالع ١٩٨٠ من ف ١٦ التي تم التفاوض بشأنها في أثناء ١٩٧٨ ، فان الاسلحة الملائمة لـ « دفاع اسرائيل في العمق » ستشحن حسب لائحة « الدفاع لخمس سنوات » التي تمت دراستها . ومن ضمن هذه الأسلحة ٨٠٠ ناقلة حربية مصفحة و٢٠٠ دبابة و٢٠٠ مدفع ١٧٥ م م و٦٠٠ صاروخ مفريك جو ــ أرض ، و٦٠٠ صاروخ سايدوندر جو ــ جو .

وبالمنطق نفسه ، وبتقشف دايوكلاتيني جيد ، أنذر ارليخ وزير المال الاسرائيلي مواطنيه بأن القيود الاقتصادية يجب تقبلها بنتيجة كامب ديفيد ، اي ان المشاريع الاجتماعية الاسرائيلية ستتوقف ، وستتوقف المشاريع غير الحيوية ، بحيث ان البنية التحتية للنقب لن تشهد اي تطور .

أما دور مصر بوصفها الحارس الخلفي لاسرائيل حسب استراتيجية « الاستعادة الملكية » فيتطلب من مصر أن تحمي السفن الاسرائيلية وكل المنشآت التي ستبنى في منطقة البحر الأحمر وقناة السويس . كذلك فتأمين عناصر الانتاج التي تحتاجها اسرائيل ــ مثل العمل الرخيص والدخول الموسع إلى الاسواق ، هو دور آخر لمصر يتأتى من التصور الأساسي عن « الدفاع في العمق » . وتخصص مصر كقوة بوليسية ثانوية في منطقة شمال شرق افريقيا ، يعوض إلى حد ما خسارة اسرائيل للنقطة الفضلى في أثيوبيا الملكية ، ويتطلب من مصر وجود قوات قادرة على الانتقال بحركة أكبر .

لقد أعطيت الأولية للمشاة والكوماندوس المدعومين بشحنات بطائرات النقل الـ ١٩ من طراز س ١٣٠ (مضافة الى العشرين طائرة من طراز أ . ن ١٢ الباقية من عهد التزود بالسلاح السوفياتي) وكذلك بشراء طائرات الهيليكوبتر الفرنسية غزال . وبذلت أيضاً الجهود لجعل مصر تحوز على طائرات لينكس البريطانية ، أما آمال السادات الاكثر طموحاً في الحصول على ٣٠٠ طائرة ف ١٦ فيمكن نبذها الآن حيث انها غير ملائمة للدور المصري ضمن نظام السيطرة الجغرافية .

كذلك ظهرت مصر بوصفها المفصل الذي يربط نظام « الاستعادة الملكية » بالنظام الهيمنوي الاكثر رقة ، والذي يكرر المواصفات الجوهرية العسكرية والبيروقراطية غير المباشرة لمرحلة الانتداب .

إن سيطرة السادات القوية على الجيش المصري قد دعمت عن طريق اتفاقية وزير الدفاع الاميركي هارولد براون القاضية باستبدال طائرات الفانتوم ف ٤ وف ٥ ي الاكثر قدرة على المناورة والتي كانت مصر قد سددت ثمنها في ١٩٧٨ ، أما إذا كانت الولايات المتحدة ستسلم بقية طائرات ف ٤ فهو أمر سيعرف في حينه .

كذلك طلب المزيد من العون لمصر على صعيد التدريب العسكري ، بالاضافة الى الشحنات الجديدة من أنظمة هوك للدفاع الجوي ومن المدمرات والبوارج والدبابات والناقلات العسكرية

الصفحة . إلى جانب البرامج العسكرية ، سيتم تحقيق المزيد من السيطرة غير المباشرة على السياسة المصرية ، من خلال العون الاقتصادي الاميركي ومشاريع الاستثمار المشترك ، وكذلك ، الوصاية الثقافية المتزايدة .

وبالتنسيق مع هذه الالتزامات لمصر ، كانت تنطلق التحركات الاميركية المحتجة على المستشارين الروس والكوبيين في جمهورية اليمن الديمقراطي ، والتحرك الاميركي المضاد الذي تضمن فصل حاملات الطائرات كونستاليشن وقوة عاملة عسكرية الى البحر العربي، والشحنة الجوية « الطارئة » من السلاح الذي تقدر قيمته بـ ٤٠٠ مليون دولار ـ بما في ذلك ٧٠٠٠ قنيفة مضادة للدبابات تطلق من الكتف ـ وعروض بفرز طائرات ف ١٥ الأميركية لحماية العربية السعودية اذا ما أرسلت السعودية طائراتها المقاتلة الى اليمن الشمالي . وأرسلت طائرتا استطلاع معقدتان ومجهزتان برادار « إلى الأسفل » للسعوديين كي تستعمل في مراقبة الطيران السوفياتي إلى اليمن .

ووصل الى الرياض فريق من ٢٢ مسؤول عسكري ليضعوا خططاً طارئة لتوزيع القوات على المنطقة . ومع ان الناطق بلسان البنتاغون قد أكد ان أياً من القوات المقاتلة الاميركية أو السعودية غير مطروح للاستعمال في المستقبل ، فان وسيلة التدخل « الوقائي » قد تأكدت .

استنتاجـــات

في أطوار الالتزام بالمفاوضات في (عهد) الادارتين ، كان اللاعب الذي يوزع الأوراق (أي الذي يمسك بـ ٩٠٪ من الأوراق) يقدم الوعود بالمزيد من العون غير العسكري للتخلص من الخيوط التي تعرقل حياكة التسوية التي تكاد أن تتم . هذا العنصر غير العسكري يقدم تمييزاً مركزياً بين « المدرستين » الستراتيجيتين المتنافستين اللتين أجرتا نقاشاً علنياً منذ مفاوضات سيناء في ١٩٧٥ . والالتزامات بالعون العسكري التي زادت بشكل ملحوظ على يد ادارة كارتر كان يتم تبريرها على أساس استراتيجي من قبل أنصار مدرستي نظام الهيمنة على « النمط الانتدابي » التي دافع عنها بنجاح خاص جورج بول ، ومدرسة « الاستعادة الملكية » من الستراتيجيين الذين عرض لآرائهم منهجياً جورج ليسكا ، مع أن العرض كان تجريدياً .

لكن بسبب أن العنصر غير العسكري في العون الأميركي الاضافي ، يستدعي المزيد من مستويات العلاقة المعقدة والنتائج الأقل ملاءمة للسيطرة الملكية ، فان هذا النوع من الالتزام هو الذي يجده استراتيجيو الاستعادة الملكية اكثر اشكالا .

إن التورط الاميركي الأعمق في مصر التابعة اقتصادياً ، والتي في الآن نفسه تتصدى لدور الدرب العسكري وبركي البحر الأحمر ، ينذر بنشوء « نموذج اقتصادي » يمكن ان يصبح مصدراً رئيسياً للنقاش الستراتيجي والتحضيرات الطارئة في الدائرة الديبلوماسية المقبلة .

ويظهر أحد الفروقات في دائرتي المفاوضات على أنه يتمثل في التطور الزمني والذي من خلاله انشأ كسنجر أصلا رابطة « المحطة الخلفية » (بمساعدة السي . اي . إي ورجال الاعمال الأميركان) لتوضع في صالح اسرائيل في الدائرة الثانية . فمن خلال هذه المحطة متنت اسرائيل

علاقتها المنفصلة مع السادات في ١٩٧٧ أي مباشرة، قبل أن يجد السادات نفسه في الكنيست الاسرائيلي .

إن اقتراح حاكم عربي عميل يقوم بقلب دراماتيكي لصورة المستشرقين التي تؤكد السلبية العربية واللاعقلانية ، هذا الاقتراح متضمن في هذا الطور . فالمدى الذي بلغه العديدُ من القادة العرب في القبول الضمني لهذه المحاور الاستشراقية عن ثقافتهم وعن أنفسهم يستحق المزيد من التحليل .

والتطور الثاني الذي يميز بين الدائرتين قصيرتي الأجل ، هو ظهور استراتيجيي « الاستعادة الملكية » في مجال الارشاد السياسي ، فبعد وقوف الجميع في ١٩٧٥ ـ ١٩٧٦ ضد نظام كسنجر البسماركي المخفف ، فان المجموعة تطرح اليوم تركيزها غير الخجول على الأراضي ، محتفظة بالاهتمام المركزي بالضرورات السياسية العسكرية التي تحافظ على الامبراطورية الاميركية ، هذا المفهوم الستراتيجي قد أعيد توكيده بالتواطؤ مع الستراتيجيين الاسرائيليين الذين وضعوا ، كما يبدو ، متطلباته التكتيكية في نظام للسيطرة المحلية اكثر تناسقاً بعد ١٩٧٣ . بعد ذلك بدأت تشكل المتطلبات الستراتيجية الاسرائيلية ، في حدها الأدنى ، « البعد » الاجباري في استراتيجية امبركا . هذا التطور قد عنى أن محصلة النظامين تظهران سيادة موجب السيطرة الجغرافي ، حتى حين كان نمطا الأنظمة الستراتيجية قيد التداول ، أي هيمنة « نمط الانتداب » بتوكيداتها الاقتصادية والشرعية ، والتأويل السياسي ـ العسكري للامبراطورية ، وحتى حين كان الاثنان يصارعان بعضهما في مواضع محددة .

إن نظام الهيمنة يتطلب تسلسلا وشروطاً في التوقيت اكثر دقة بكثير ، وحين يفشل توفير أي من هذه الأمور بفعل النقص في ديبلوماسية البشر ، فعند ذلك تبقى محركات السيطرة الجغرافية الأبسط بوصفها البديل الوحيد للفوضى السياسية . في هذه المصادفة بدأت أمبركا ـ الربع الأخير من القرن العشرين ، تشبه بريطانيا في المراحل الأخيرة لسيطرتها الجغرافية ، بعد فقدان الثقة الثقافية بشكل عام الأمر الذي جرها الى حرب البوير وتدعم بالمواجهات الطبقية في الداخل ، والتحولات في السلوكية الاجتماعية ، والاحساس بأن قيادة بريطانيا تقنياً قد تآكلت .

ومع أن منطق الستراتيجيين الملكيين يعامل مرحلة ما بين الحربين في الثلاثينيات بوصفها المرحلة التي تصلح للمشابهة مع السياسة الأميركية الراهنة ، فان تحليلهم يميل في المقابل لأن يرتكز على المراحل المبكرة ، حيث بدأ القادة الرومان القدامى والقادة الملكيون البريطانيون المعاصرون بادراك علائم الابطاء التقني والانحدار الاقتصادي ، ويتحركون بالتالي نحو تصليب نظامهم الداخلي وتمتين سيطرتهم الجغرافية على المحيط .

ولقلب ما يراه هؤلاء الستراتيجيون بوصفه تراجعاً اميركياً كونياً وقدرة سوفياتية متزايدة على تهديد الدفاع الوطني ، فانهم يدافعون عن اتخاذ خطوات تستثمر ما يقع خارج الحاجة السوفياتية للوفاق على نطاق كوني ، ورغبة السوفيات الملازمة بالبقاء كقوة ثانوية في الشرق الأوسط ، الأمر الذي يمكن الولايات المتحدة من تصليب الاصطفاف التراتبي لزبائنها في المنطقة ومن البدء في تكديس السلاح ، واعادة توزيع حاملات القوى العسكرية ، ضمن نطاق من التوجهات الجذرية والأنظمة المهتزة .

وبالحدود التي أكد فيها كامب ديفيد هذه الاجراءات ، في ظل اشراف وزير الدفاع هارولد براون ، وفي ظل تنسيق مستشار الأمن القومي بريجنسكي ، يستطيع المرء أن يتوقع المزيد من التأكيد على السيطرة الجغرافية في استراتيجية الشرق الأوسط الاميركية . وبحدود وجود هذا المفهوم الذي دافع عنه استراتيجيو « السيطرة الجغرافية » في كتابات بريجنسكي نفسه على امتداد العقد الماضي ، رغم انه مخلوط باحالات غامضة عن القوى الجديدة التي على القوى الغربية أن تتكيف معها ، يستطيع المرء أن يتوقع من ادارة كارتر في السنة المقبلة ، أن تدافع عن سياستها في وجه النقاد الانتخابيين ، وذلك من خلال الارتداد نحو لغة السيطرة الجغرافية الأسهل مفهومياً .

وقد تنتج ضغوط التحزب الانتخابي إياه ، حيث تجري الانتخابات في وسط مصاعب اقتصادية وتراخ تشريعي يعاني منه جمهور مثبط الهمة ، درجة أرفع من الشيوعية القومية الموجهة ضد تسعير النفط العربي وتكتيكات حرب العصابات .

وتشكل الأحداث العديدة الماثلة في السياسات الراهنة للشرق الأوسط ، المضمون الاختباري للمبادرة الديبلوماسية الكبرى الثانية في المنطقة . فالتوظيف المستمر ، لكن الأكثر تعقيداً للزبائن ، من خلال الحرب النفسية والاختراق الاستخباراتي للمناطق شديدة الخطورة ، هي أمور يمكن توقعها . ومع تزايد الروابط الأكيدة بالقاعدة الجغرافية في اسرائيل ، فان حركات التنقل العسكري الأميركي في المحيط الأعرض سوف تزيد الاعتماد الأساسي على اسرائيل ، والاحتمالات الملائمة التي أشار اليها استراتيجيو « الاستعادة الملكية » في معرض النصح لاسرائيل ، تحمل مضامين اكثر خطورة على (مهمة) الدفاع عن بقايا الأمة العربية . وهذه تتضمن استعمال مصر « الموازنة » لتقديم نسخة جديدة من استراتيجية « الدفاع في العمق » الاسرائيلية ، أكان هذا الاستعمال يعني توفير مخزن إضافي تزود اسرائيل منه ، او ساحة معركة موسعة ، او اكان يعني قيام مصر بدور عميل يخدع ويحير ومن ثم - ينقذ - الشرق العربي ، ويحتل حقول النفط الليبية او ينافس ، وفي النهاية يحطم ، الادعاء السعودي بحمل لواء القيادة ضمن الانظمة العربية ذات التوجه الاميركي .

إن المتطلبات التكتيكية للدفاع الاسرائيلي في العمق ، يحمل معنى خاصاً للفلسطينيين الذين سيقلصهم الستراتيجيون الملكيون الى طرف لا علاقة له بالموضوع ، من خلال معالجة « جراحية » اخرى ، مثل ضربة في لبنان ، أو العديد من الحلول النابعة من حكمة المستشرقين ، مثل « الاجهاض » في عمل غير ناضج تحث عليه ترتيبة اسرائيلية مسبقة .

والبديل لمثل هذه العملية الجراحية في منطق الستراتيجيين الملكيين ، سيكون اختراقاً وظائفياً على قاعدة يفضلها نائب القنصل الملكي ، أي ، تشكيلة من العلاقات الاجتماعية التعددية بنيوياً ، والمحسوبة على انها تقلص الهموم الايديولوجية والتاريخية لبعض مصالح الدول وخصائص الانظمة المحلية .

إن « المواصفات الهامة ذاتيا » سوف تبقى لغة الستراتيجيين « غير المعرضة للنقاش وغير المذكورة اطلاقاً » ومن الضروري ان يتم « تجاهلها في الحرب التي تنهي الأدوات لكي تسمح للحرب بأن تنتهي في الواقع » (جورج بول) .

لكي نخرج باستخلاصنا عن متطلبات الستراتيجية طويلة المدى ، يمكننا أن نتذكر الجسد الفكري الذي طوره توماس كاهن حول كيفية استبدال النماذج العلمية بنماذج أخرى جديدة . والنظرات العامة في داخل هذه الثورة المفهومية يمكن أن يطلقها أولئك المنخرطون في النضال اليومي في الشرق الأوسط والمناطق الأخرى من العالم الأفرو آسيوي لمواجهة النموذج الملكي .

فمن موديل* كاهن العلمي يستطيع المرء أن يتحرك نحو القضايا التفصلية التي تحتل اولوية رفيعة بالنسبة للتحليل السياسي والدراسة الستراتيجية من قبل جميع القوى التقدمية العربية . وهذه القضايا تتضمن بالطبع ،المشاكل المتداخلة للامبريالية الثقافية ، وأنماط الانتاج والتشكل الطبقي وسيطرة الدولة التي يتم بحثها على نحو واسع من قبل المثقفين في العالم العربي .

لكن الجهد الستراتيجي الأكبر الذي هو توسيع النموذج الثوري ليواجه السيطرة الملكية ، (يعادل) إعادة تعريف تم الاعتراف بها كمهمة عاجلة مطروحة على الثورة الفلسطينية ، ونحوها ثم قطع تقدما ملحوظا وهذا الجهد الأكبر يتطلب حذرا في التعامل مع المجموعة الكاملة من العناصر وعلاقاتها المنطقية الضرورية .

إن تشابه ديناميكيات التغير في النموذج ، يطرح كيف أن إطارا موحدا ينهض على مفاهيم متنافسة وشروط تابعة يتم تقديمها على يد مجموعات ذات آراء ووسائل مختلفة ، لكنها ذات توجه متساو بالنسبة للعملية طويلة الأمد . وفي التجربة العربية تتمركز هذه العملية حول ما أسماه جاك بيرك بـ « البحث عن الاصالة » .

وريثما يتم إيضاح الهدف طويل الأمد ، ويتم تفصيل المتطلبات العملياتية ، فان الحركة تواجه مخاطر قصيرة الاجل أوجزت سابقا . فاذا كان اولئك الذين هم في السيطرة الكونية لنموذج سلطة الدولة يقدمون للفلسطينيين خيارات عضة سمك القرش من خلال هجوم عسكري ، أو قبضة المجس على يد أخطبوط الانتداب ، أو العنف الهضمي للحوت الملكي ، فأية أسس للمقاومة لا تستطيع أن توفر الامن الضروري . اكثر من هذا وكما يقترح كاهن ، فان الذين يهيئون النموذج المضاد ليس لديهم خيار سوى أن يبنوا على جثة نموذج السيطرة القائم .

لقد كشف التحليل الذي تقدم ان النموذج يعرض لغموض دقيق ومقاييس مختلفة تكون هجينة (كما لاحظ هناه ارندت بالنسبة لنظام السيطرة البريطاني في عملية مماثلة) .

وكما ان النموذج الملكي قد حاك خيوطا مختلفة في المنطق ، ومواد البيع ، فهكذا رسملت الحركة الصهيونية على مجموعة منقسمة من المهام الدبلوماسية والاقتصادية والعسكرية من أجل ان تنتصر في فترة الانتداب البريطاني . وهكذا تستطيع الحركة الفلسطينية أن تفعل . فمتى يظهر أفق حقيقي لدولة من دون فقرة خضوع ، وحتى يتم الاعتراف بحقوق كل الفلسطينيين في العودة الى بلادهم ، تقوم الحركة الفلسطينية بتوظيف الادوار المميزة والضرورية بنفس القدر في قطاعاتها المختلفة . إن الدياسبورا المتغربة ضرورية للمساعدة على تنظيم المواهب الثقافية والعملية للجماعة الفلسطينية . والكوادر الثورية تصيغ الاحساس

---

* استعمل « موديل » ولم يستعمل « نموذج » تمييزا عن « نموذج » الذي استعمل كمرادف لـ Paradigm

الاعمق بالتاريخ وتبقي التواصل مع باقي المثقفين الثوريين ، وتطلب العبور الديمقراطي من خلال العالم العربي من أجل ان تحمل هذا البرنامج « القادر على إرشاد العرب الى ممرات المستقبل » كما عبر عبد الله العروي عن المهمة . وتقدم مؤسسات بناء الدولة القاعدة العسكرية والاقتصادية للنضال الراهن .

فباظهار طاقة تنظيمية أرفع ، وتخصص في الأدوار ، وتلاحم منظم بين مجمل النشاطات المتصلة بشؤون العمل والشؤون العسكرية ، سيخطيء قادة هذه المؤسسات الافتراض الاستشراقي عن العجز العربي عن التناسق ، وسوف يقدمون في الوقت نفسه حالات شاذة تعيق عمل الستراتيجية الملكية ، حتى لو على المدى القصير . كذلك من الهام دور القيادة في تأمين الحماية الديبلوماسية الضرورية للحركة في أدق مراحلها من المجموعة الدولية ، وأخيرا ، فأولئك العمال الفلسطينيون العاملون في الانتاج الصناعي والسلعي ذي الاهمية الاقتصادية ــ الستراتيجية بالنسبة للغرب ، يمسكون « بالأوراق » المتبقية في حماية القطاعات الفلسطينية الاخرى .

مع تقدم هذه العملية ، التي بدأت في الواقع ، ومع تكريس اهتمام كاف لتدعيم القيادة ومتطلبات السيطرة التي هي حلقات حيوية بين الاجزاء المتعددة للحركة ، تستطيع الحركات بشكل أفضل أمام ضربات مباشرة في المستقبل ، وقد تصبح جاهزة لاشكال جديدة من العمل حالما تنتج الحالات الشاذة متوسطة الاجل في نظام السيطرة الاميركي « فيتناما أو اثنتين .. او فيتنامات عديدة » التي حث عليها غيفارا والتي تنبأ بها الستراتيجيون الملكيون انفسهم على قاعدة المشابهات الملكية الماضية ، كما لاحظ ادوارد لوتاك في المثال الروماني :

« كون البرابرة المتخلفين قد واجهوا ، ولمدة طويلة ، عدوا واحدا استطاعت ثقافته أن تتغلغل في كل جوانب حياتهم المنفصلة ، فقد وجدوا قاعدة ثقافية مشتركة للعمل ضد الامبراطورية . وأصبح من الأصعب على الديبلوماسية الرومانية ان تستمر في زرع الانقسامات بين الناس الذين صار يجمع بينهم الشيء الكثير » .

ويغض النظر عن التاريخ واللغة المشتركين ، فان النظرة الى القضايا المعاصرة هي التي تمتحن القدرة على التوحيد في الأمة العربية ، وهي التي تربط هذه القدرة بالنضالات في افريقيا وآسيا . إن الثورة طويلة الأمد في النماذج الستراتيجية ، مهما كان شكلها الخاص ، مرشحة لأن تعرف على هذه القاعدة الأعرض .

عبّـــاس نصراوي

الطاقـة والسّـياسـة الخارجيّـة الأميركية

مقدمـــة

كانت السمة المميزة لنظام اتفاقيات الامتيازات ، الذي كان حتى الآونة الأخيرة الاداة الوحيدة لتنمية موارد النفط العربية ، انه ما ان يتم منح الامتياز او الحصول عليه ، حتى تسلم الحكومة المضيفة معه سلطة سيطرتها على تنمية موارد النفط ، ومستوى الانتاج ، والسعر الذي يباع به النفط . واستمر انعدام التنسيق حتى العام ١٩٦٠ عندما تم خلق منظمة البلدان المصدرة للبترول (اوبيك) . وكان خلق اوبيك نفسها عملا دفاعيا يقصد منه حماية دخل النفط من المزيد من التفتت . وحتى مع وجود اوبيك ، اخفقت بلدان النفط العربية في صياغة سياسة مشتركة من شأنها ان تنسق السياسات المتحكمة بقطاعاتها النفطية او دمجها مع بقية اقتصاداتها . وهدف السياسة المشتركة الوحيد الذي رأوه مناسبا كان الهدف الذي من شأنه أن يزيد الدخل للبرميل الواحد ويزيد الدخل الاجمالي .

كان من المتعذر نوعا ما تجنب هذه الحالة اذ ان السلطة النهائية لزيادة النمو أو تأخيره كانت تكمن مع اداره الشركات ، وهذا يعني خارج سيطرة الحكومات العربية . وبالاضافة الى اتفاقيات الامتيازات ، كانت شركات النفط المتعددة الجنسيات (الشركات الكبرى) في مركز يمكنها من الدخول في اشكال مختلفة من المشاركات للسيطرة على معدل تنمية موارد النفط ومن ان تكون القوة التقريرية النهائية فيما يتعلق بكمية النفط التي يتوجب على كل بلد ان ينتجها . وهذه نقطة مهمة تدعو الى بعض التوسع .

النفط واهداف السياسة الخارجية الاميركية

خلال الحرب العالمية الثانية ، صار واضحا انه لن يكون في مقدور الولايات المتحدة ان تواصل دورها بوصفها البلد المصدر للنفط الرئيسي في العالم ، وانه لا بد من تنمية موارد نفط الشرق الاوسط لتوفير الطاقة الضرورية من اجل التنمية الاقتصادية اللاحقة للحرب ونمو الاقتصادات المصنعة . وانعكس تقدير هذه الحقيقة في اتفاقية النفط الانكلو ــ اميركية للعام

١٩٤٤ والتي كان لها هدفان رئيسيان (١) تمكين شركات النفط الاميركية من ان يكون لها المزيد من حرية الوصول الى نفط الشرق الاوسط ، (٢) اقتراح كيف يمكن ربط العرض بالطلب بغية دعم الادارة النظامية لدرجة النفط الدولية . ونجم عن عدم ابرام الاتفاقية تفويض الوظيفة العالمية لآلية تخصيص الانتاج الى الشركات الكبرى بمساعدة الحكومة الاميركية . وارتكز النظام على الافتراضيين الأساسيين التاليين : (١) ان الشركات كانت ادوات للسياسة الخارجية الاميركية ، (٢) ان مصالح الشركات كانت متطابقة مع المصلحة القومية للولايات المتحدة . وحددت اهداف السياسة الخارجية الاميركية آنذاك على انها :

١) ان الولايات المتحدة رغبت في توفير امداد ثابت من النفط لاوروبا واليابان باسعار معقولة .

٢) ان يصار الى المحافظة على الحكومات المستقرة في البلدان المنتجة للنفط غير الغربية .

٣) ان تكون الشركات التي لها قواعد اميركية قوة مسيطرة في نفط العالم . ان اهداف السياسة الخارجية الاميركية التي عبرت عنها وزارتا الخارجية والدفاع في تقرير رفع في العام ١٩٥٢ الى مجلس الامن القومي هي نفسها الآن في العام ١٩٧٩ كما كانت في العام ١٩٥٢ . كما لا يجب على المرء ان يتوقع تغيرها . بل على العكس فان الأهمية الحاسمة للنفط لا من اجل اقتصادات اوروبا واليابان فحسب ، ولكن الآن من أجل الولايات المتحدة نفسها ، من شأنها أن تجعل هذه الاهداف حتى اكثر اهمية ، وبما ان الدفع الرئيسي لسياسة النفط الاجنبي الاميركية يبقى هو نفسه ، فانه من المناسب للحالة الراهنة على ما اعتقد ان استشهد ببعض النقاط الاكثر اهمية من تقرير العام ١٩٥٢ .

قال التقرير ، الذي اعد لايقاف العملية القضائية التي كانت تقوم بها وزارة العدل لمقاضاة الشركات الكبرى لخرقها القانون الاميركي في عملياتها الخارجية ، ان ثمة خطرا جديا بأن محاكمة شركات النفط ستكون مضرة باهداف السياسة الخارجية الاميركية — ومضى التقرير مؤكدا ان الاقتصادات الصناعية المعقدة للعالم الغربي معتمدة اعتمادا مطلقا على وفرة مستمرة لمصدر الطاقة الاساسي هذا . وبما ان النفط هو المصدر الرئيسي للدخل والثروة في بلدان الشرق الاوسط ، فذلك يعني ان وجودها الاقتصادي والسياسي يعتمد على المعدل والشروط التي يتم بها إنتاج النفط . وهذا يعني ان « عمليات النفط الاميركية هي عمليا ادوات لسياستنا الخارجية نحو هذه البلدان » . و « احدى النتائج الطبيعية الرئيسية لهذا الامر هي حقيقة ان الانماء الاقتصادي الداخلي لهذه البلدان يعتمد الى حد كبير على سياسة عمليات شركات النفط » . وبما ان معدل النمو الاقتصادي يعتمد الى درجة مهمة على السياسات التي تنتهجها شركات النفط ، فانها بالتالي « تستطيع ان تساعد او تؤذي الاستقرار السياسي الذي نحتاج اليه في المنطقة . » وفقا للتقرير كانت عمليات الشركات مهمة ايضا لاهداف السياسة الخارجية الاميركية بطريقة جوهرية اكثر اذ « ان الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي سيكونان في الوقت الحالي ولفترة مقبلة من الوقت منهمكين في صراع لاقتناص تأييد وولاء الجماعات السياسية في جميع أنحاء العالم الحر . وسوف نقدم الحجج والبراهين من اجل قضية حرية الفرد وكرامته وحرية الاعمال الحرة . وتنبغي معالجة نشاطات الحكومة الاميركية في النفط بطريقة من شأنها تجنب اعطاء القوة للادعاء بان النظام الاميركي هو نظام امتيازات واحتكارات وامبريالية » .

ويظهر هذا التقرير ، الذي لم ينشر علنا الا في العام ١٩٧٤ ، الرؤية والتوقعات التي كانت لدى صائغي السياسة الاميركية للبلدان المنتجة للنفط . وكما ذكرنا سابقا ، ليس ثمة سبب للافتراض بأن الاهداف الاساسية قد تغيرت . بل على العكس يمكننا بثقة الافتراض بأن هذه الأهداف اكثر ارتباطا بالحاضر وبالمستقبل المنظور .

اذا صحت الملاحظات التي ابديناها في الفقرة الاخيرة ، فان سؤالا مركزيا سيطرح نفسه . والسؤال هو الى اي حد وكم ستطول الفترة التي ستستمر فيها حكومات البلدان المنتجة للنفط بتنفيذ الدور الذي لعبته الشركات الكبرى بنجاح تام حتى العام ١٩٧٣ . وبكلام آخر ، هل ستدير هذه الحكومات وتنتج وتحفظ وتسعر نفطها وفقا لاهداف سياسة النمو والانماء الاقتصادي القومي البعيد المدى أم هل ستستجيب فحسب لطلب السوق العالمية وتعدل امداداتها النفطية تبعا لذلك ؟

ان نقطة الخلاف هنا جوهرية ، وتتلخص بمسألة حرية الاختيار بين مجالات اختيار مختلفة للسياسة . ومركزية هذه القضية جلية بحد ذاتها ولا تحتاج الى توسع او تسويغ اذ انها تنبثق من حقيقة ما اذا كانت البلدان العربية كجماعة من البلدان النامية المعتمدة الى حد كبير على مورد واحد ولا يمكن تجديده تستطيع ان تستعيد المبادرة لتدفع الى الامام بسياسة من شأنها أن تزيد الى الحد الأعلى رفاهية شعوبها حتى نهاية هذا القرن وبعده .

تأثير الطاقة على حرب تشرين الاول (اكتوبر)

فيما كانت الحكومات العربية وسط التفاوض على اسعار جديدة لنفطها الخام مع شركات النفط الكبرى ، اندلعت حرب تشرين الاول . ونتج تأثير حرب تشرين على مسرح الطاقة في ذلك الحين بصورة مباشرة عن قرار حكومة الولايات المتحدة الشروع في عملية نقل جوي كبرى للاسلحة لتعويض الخسائر التي تكبدتها اسرائيل ابان الحرب .

هذا القرار السياسي من جانب الولايات المتحدة جعل المفاوضات مع شركات النفط الكبرى تصير في غير محلها . والى ذلك فان عملية النقل الجوي لم تترك للحكومات العربية اي خيار سوى أن تتخذ قرارات من طرف واحد فيما يتعلق بالاسعار ــ وفيما يتعلق بالحظر وتخفيضات الانتاج ، وهو الامر الأهم في ذلك الحين . وخلقت القرارات الاخيرة حالة في السوق العالمية شجعت اوبيك على رفع اسعار النفط مرة أخرى ابتداء من كانون الثاني (يناير) العام ١٩٧٤ ، ومن المهم ان نتذكر ان هذه القرارات المهمة التي اتخذت في سياق حرب تشرين الاول ساعدت في تحويل مركز الحكومات العربية بصورة جوهرية وفي اعطائها لا كميات وافرة من الدخل والثروة فحسب بل كذلك نفوذا جديدا و مهما جداً .

وبكلام آخر أدخلت قرارات العام ١٩٧٣ عهدا جديدا من العلاقات بين البلدان المتطورة والجماعة الصغيرة من البلدان النامية المصدرة للنفط . وكانت تلك هي المرة الاولى التي اضطرت فيها البلدان المصنعة الى التسليم بأن سلطة السيطرة على احتياطيات وانتاج واسعار النفط قد انتقلت الى المنتجين . ومثل هذا الاعتراف باعتماد متبادل ومتناسق الى حد غير مريح حمل معه ضرورة المساومة . وكانت هذه الضرورة مقلقة بعض الشيء بالنسبة الى البلدان المعتادة على الافتراض بأن تلك السلطة هي حكر مقصور عليها ، وبأن الوضع القائم هو

الترتيب الصحيح والطبيعي للأمور ، وبأنها تحتكر الحكمة (والسلطة) التي تضمن السلام .

قبل تناول ردة فعل الغرب (والولايات المتحدة بنوع خاص) للعلاقات المتغيرة ، سيكون من المفيد ان نتناول بنية العرض والطلب للطاقة والمركز الخاص والاحتياجات الخاصة للولايات المتحدة في هذه السوق .

بنية العرض والطلب للطاقة

بعد تعقب بعض أهم القوى التي الفت تطور قطاع الطاقة العالمية ، من المهم الآن ان نقدم صورة لسوق الطاقة العالمية ومكان النفط العربي في مثل هذه السوق .

في العام ١٩٧٧ بلغ مجمل الاستهلاك العالمي للطاقة ١٢٤ مليون برميل يوميا ، (م ب ي) بالمقارنة مع ٨٩ م ب ي قبل ذلك بعشرة أعوام و ٥٤ م ب ي فقط في العام ١٩٥٧ . ومن هذه الكمية الاجمالية للطاقة ، قدم النفط اقل من ثلث الاستهلاك العالمي في العام ١٩٥٧ ، مرتفعا الى ٤٠٪ في العام ١٩٦٧ ومرتفعا من جديد الى ٤٥٪ في العام ١٩٧٧ . من المهم ان نتأمل في هذه المعطيات اذ انها تشير بوضوح الى الزيادة المستمرة في حصة النفط في استهلاك الطاقة في العالم . وبكلام أخر صار الاقتصاد لعالمي ككل معتمدا بصورة متزايدة على مصدر الطاقة هذا خلال الاعوام العشرين الاخيرة . ومن المتوقع ان يستمر هذا الاتجاه في المستقبل اذ ليست هنالك اية اشارات مهمة الى ان النمط سيتغير على نحو جدي بأية طريقة ممكن ادراكها .

واذا استثنينا البلدان الاشتراكية من حسابنا لهذه اللحظة ، لوجدنا ان النفط قدم ٥٢٪ من استهلاك الطاقة في العالم غير الاشتراكي .

ولكن ضمن هذه الصورة يختلف الاعتماد على النفط اختلافا كبيرا من بلد الى آخر، وهي حقيقة يجب ان تكون باعثة على مواقف واختيارات سياسية مختلفة لكل من المستهلكين والمنتجين . وهكذا في العام ١٩٧٧ ، مع ان النفط قدم ٥٢٪ من استهلاك الطاقة في العالم غير الاشتراكي ، الا ان اسهامه بلغ ٤٧٪ من استهلاك الطاقة في الولايات المتحدة من جهة و ٧٣٪ في اليابان من جهة اخرى . اما استهلاك اوروبا الغربية من النفط فيقع بين استهلاك الماردين الصناعيين الآخرين ، ويبلغ ٥٥٪ من مجموع استهلاك الطاقة .

يمكن النظر الى مكان النفط في بنية الطلب على الطاقة من زاوية مختلفة واكثر اهمية بكثير . فاذا نظرنا الى معدل نمو استهلاك الطاقة ، لوجدنا انه خلال الماضي القريب ازداد مثل هذا الاستهلاك بمعدل متوسط يبلغ ٣،٦٪ سنويا للعقد الممتد من العام ١٩٦٧ الى العام ١٩٧٧ . وفي الولايات المتحدة وحدها ازداد مثل هذا الاستهلاك بمعدل ٢،٤٪ (ادنى من متوسط العالم) وفي اوروبا الغربية ازداد بمعدل ٢،٥٪ في حين ازداد في اليابان بمعدل ٦،٢٪ ، مشيرا الى المعدل الاعلى من النمو الاقتصادي الذي استطاع البلد الأخير أن يحققه . ومع هذا اذا نظرنا الى مستوردات النفط (وهي اهم شكل من اشكال مستوردات الطاقة الى حد بعيد) ، لوجدنا انه في حين ازدادت مستوردات النفط ألعالمية بمعدل متوسط بلغ ٦،٨٪ فان مستوردات النفط اليابانية ارتفعت بنسبة ٦،٥٪ سنويا ، ومستوردات النفط الاوروبية الغربية ازدادت بنسبة

٣,٧٪ ، في حين ان مستوردات نفط الولايات المتحدة ازدادت بمعدل متوسط بلغ ١٢,٧٪ لفترة الاعوام العشرة التي ننظر فيها . والامر الاهم من ذلك هو حقيقة انه في حين افلحت منافستا الولايات المتحدة الاقتصاديتان الرئيسيتان (اوروبا الغربية واليابان) في ان تبطئا في الاعوام الاخيرة معدل نمو مستورداتهما النفطية ، استمرت الولايات المتحدة في زيادة مستورداتها بالنسب العالية نفسها . ويكشف النفط المستورد ، بوصفه عنصرا اساسيا من مجموع استهلاك الطاقة في الولايات المتحدة ، عن زيادة اعتماد استهلاك طاقة ذلك البلد على النفط الاجنبي . ويظهر هذا في حقيقة ان النفط المستورد في العام ١٩٦٧ لم يمثل غير ٨,٥٪ من مجموع استهلاك الطاقة في الولايات المتحدة (او ٢٠٪ من استهلاك النفط) في حين ان عنصر النفط المستورد الأساسي كاد يؤلف بعد ذلك بعشرة اعوام ربع مجموع استهلاك الطاقة (وما يقرب من نصف مجموع استهلاك النفط) . ومن المهم على ما اعتقد ان نتأمل في دلالة هذه التغييرات اذ انها تشير بوضوح الى ان مصلحة الولايات المتحدة في المنطقة العربية ليست مجرد مصلحة استثمارات اجنبية تقوم بها شركات . وسأتحدث عن هذا الموضوع فيما بعد . وقبل ان اتناول الجانب الآخر من قضية استيراد النفط الى الولايات المتحدة ، اي اهمية النفط العربي لاقتصاد الولايات المتحدة ، سيكون من المفيد على ما اعتقد ان الخص باقتضاب بعض المعطيات التي عرضت حتى الآن .

في العام ١٩٧٧، استهلكت الكتل الاقتصادية الرئيسية الثلاث في العالم الرأسمالي (الولايات المتحدة واوروبا الغربية واليابان) ٢٧,٥ م ب ي وانتجت ١١,٢ م ب ي فقط . واستهلكت الولايات المتحدة وحدها ما يقرب من نصف ذلك المجموع . واستوردت هذه الكتل الاقتصادية الثلاث في تلك السنة ٢٧,٥ م ب ي من النفط . واستوردت الولايات المتحدة وحدها ٨,٧ م ب ي (او ثلث مجموع ما استوردته الجماعة من النفط) .

القضية التالية التي احب ان اعالجها هي من اين جاء النفط واي دور يلعبه النفط العربي في مجموع واردات النفط في العالم .

اولا في العام ١٩٧٧ استورد العالم مجموع ٣٢ م ب ي من النفط الخام . وكما لاحظنا آنفا ذهب ٢٧,٥ م ب ي من هذا المجموع الى الكتل الاقتصادية الرئيسية الثلاث للعالم الرأسمالي . وبكلام آخر ذهب نحو ٨٠٪ من تجارة العالم في النفط الخام الى هذه الكتل الاقتصادية الثلاث .

وفيما يتعلق بالـ ٣٢ م ب ي من النفط التي استوردها العالم ، فقد جاء نحو ٢ م ب ي من البلدان لاشتراكية وجاءت البقية من بلدان العالم الثالث ، ومن البلدان العربية بالدرجة الاولى . وقدمت البلدان العربية في تلك السنة ما يزيد على ١٨ م ب ي او ما يزيد على ٥٤٪ من المجموع . فانه من الطبيعي ، اذن ، في ظل اوضاع الاعتماد والتخلف الاقتصاديين التي تميز البلدان العربية ان يكون معظم هذا النفط قد شحن الى اسواق الكتل الاقتصادية الثلاث .

وفي حين انه من الصحيح القول بأنه في ظل النظام الاقتصادي العالمي الراهن ، لا خيار للبلدان العربية سوى ان تصدر نفطها الى البلدان الراسمالية في العالم ، فانه من الصحيح القول الى الحد نفسه ان الكميات التي تصدرها اكبر من احتياجاتها الداخلية . وقبل تناول هذه النقطة المهمة ، سيكون من المفيد ان نكرس بضع فقرات لتفاصيل علاقة الطاقة بين

الولايات المتحدة والبلدان العربية في الوقت الحالي .

كان واضحا جدا من البحث في القسم الاول ان صلة الطاقة بين الولايات المتحدة والبلدان العربية كانت ثابتة الاركان لعقود من الزمن . الا ان صلة الطاقة اتخذت بالدرجة الاولى شكل استثمار اجنبي لشركات النفط الاميركية المتعددة الجنسيات ، وهذا الاستثمار جنى ارباحا طائلة وزود حكومه الولايات المتحدة بنفوذ السياسة الخارجية الذي كان مفيدا لاهدافها العالمية . وبكلام آخر لم يكن للولايات المتحدة اية مصلحة في نفط العالم العربي من اجل استهلاكها الداخلي . فقد كانت احتياجات الولايات المتحدة من النفط المستورد تلبى بالدرجة الاولى من مصادر غير عربية وغير منتمية الى اوبيك . وكانت المصادر الرئيسية لمستوردات النفط الخام هي كندا وفنزويلا . وهكذا حتى العام ١٩٧٠ كانت مستوردات النفط الاميركية من العالم العربي اقل بقليل من ٤٪ من مجموع المستوردات الاميركية للنفط الخام . وبحلول العام ١٩٧٧ كانت النسبة قد قفزت بصورة دراماتيكية الى ما يزيد على ٣٦٪ . واشار هذا الى حدوث تغيير من استيراد ٢،٤٨م ب ي في العام ١٩٧٠ الى استيراد ٣،٢ م ب ي في العام ١٩٧٧ . حتى ان احتمالات الاعتماد على النفط العربي في المستقبل القريب ستكون اكبر اذا ما التزمت جمهورية ايران الاسلامية بسياستها المعلنة الرامية الى جعل انتاج النفط الخام في ايران خاضعا لاحتياجات الاقتصاد الايراني وليس الى الطلب من المصادر الاجنبية .

الاقتصاد السياسي وارتباط الطاقة

خلافا للرأي الشائع على نطاق واسع فان الاعتماد المتزايد للولايات المتحدة على النفط العربي لم يحمل حتى الآن اية فوائد سياسية او اقتصادية للعالم العربي . ومما لا نزاع فيه ، بالطبع ، ان الزيادة الدراماتيكية في سعر النفط الخام وضعت في تصرف منتجي النفط ، العرب وغير العرب ، كميات كبيرة من العملة الاجنبية ، ولكن خلاف ذلك استمر نمط الاعتماد الاقتصادي دون تغيير .

من الامور المتفق عليها بوجه عام ان البلدان العربية المنتجة للنفط التي توجد لديها اموال فائضة تجد نفسها في المركز الغريب لانتاج النفط الذي تنخفض قيمته بسرعة بسبب التأثير المشترك للتضخم وتقلب اسعار العملات . وفيما يتعلق بالعجز التجاري الاميركي الذي كثر الحديث عنه فانه من المفيد ان نوضح بعض الافكار الخاطئة . وتنشأ هذه الأفكار الخاطئة عن الخلط بين مفهومين متصلين ولكنهما مميزان . وهذان المفهومان هما الميزان التجاري وميزان المدفوعات . صحيح انه على اساس الميزان التجاري تظهر حسابات منتجي النفط فائضا في تجارتهم مع الولايات المتحدة من حيث انهم يبيعون الى الولايات المتحدة اكثر مما يشترون منها . غير ان هذا المفهوم يحدد الصفقات الاقتصادية على نحو ضيق جدا ولا يأخذ في الحسبان جمهرة الصفقات الاخرى التي تجري عادة بين الامم . وهذه الصفقات ، بما فيها الميزان التجاري ، تؤلف ميزان المدفوعات . ووفقا لهذا القياس نجد ان الاموال التي يتلقاها منتجو النفط العرب على نفطهم انما تعود الى الولايات المتحدة في شكل مستوردات سلع ، ومستوردات خدمات ، وفوق كل شيء في شكل اموال تستثمر في اسواق المال ورؤوس الاموال في الولايات المتحدة . ومن المفيد جدا ان نتذكر ان نفقات الولايات المتحدة على النفط المستورد ، وفقا لهذا

القياس ، يعوضها ، بل ويزيد ، تدفق الأموال العربية الى الولايات المتحدة . وثمة وجوه اخرى لصلة الطاقة بين الولايات المتحدة والعالم العربي لا بد من معالجتها علما بانها قد لا تكون مرتبطة ارتباطا مباشرا بالقضية التي نحن بصددها . اولا لا بد من ان نذكر ان الزيادة في سعر النفط في سياق حرب تشرين الأول (اكتوبر) كان لها تأثير متناقض ظاهريا من حيث انها تعطي الولايات المتحدة امتيازات اكثر نسبة الى منافساتها الرئيسية ، اذ ان حصة النفط المستورد من مجموع استهلاك الطاقة في الولايات المتحدة هي اصغر من حصتها في البلدان الاخرى .

ثانيا ، فان معدل ايرادات شركات النفط المتعددة الجنسيات قد ازداد نسبة الى الاعوام السابقة . وبكلام آخر فان زيادات الاسعار للعام ١٩٧٣ قد مكنت هذه الشركات المتعددة الجنسيات من ان تنقل الى المستهلكين ، لا الزيادة في التكلفة فحسب بل تضخيم مثل هذه الزيادة ايضا . وبما ان معظم هذه الشركات هي اميركية القاعدة فانه يصح القول ان ايراداتها الاعلى قد افادت الاقتصاد الاميركي ، وزادت من قدرتها على تنويع مصادر الامدادات ومكنتها من مواصلة عملية نقل الموارد من بلدان العالم الثالث الى الولايات المتحدة .

ثالثا ان سياسة الطاقة التي انتهجتها الولايات المتحدة قد اتبعت ما يبدو انه سبيل عمل متناقض . وهذه السياسات المتضاربة ظاهريا اظهرت نفسها في محاولة الولايات المتحدة اعادة فرض مركزها المهيمن في العالم الغربي عن طريق اشراك شركائها الصناعيين في خلق « وكالة الطاقة الدولية » بينما هي تدخل ، في الوقت ذاته ، في علاقة خاصة مع العربية السعودية . ولدى إمعان النظر يصير من الواضح جدا انه لم يكن هناك اي تناقض كهذا . بل على العكس فان فرض الولايات المتحدة زعامتها المهيمنة في حقل الطاقة مكنها من تقويض اية قوة قد يكون اظهرها او حاول اظهارها منتجو النفط (العرب وغير العرب) . وبدخول الولايات المتحدة في العلاقة الخاصة مع اهم بلد منتج للنفط في العالم فانها تكون قد ضمنت لنفسها موردا يمكنها الاعتماد عليه في وقت يتوقع ان تستمر احتياجاتها هي من النفط المستورد في الارتفاع . والى ذلك تستطيع الولايات المتحدة ، بدخولها في العلاقة الخاصة ، ان تمارس درجة معينة من الضغط على منافساتها .

رابعا ، طالما بقيت الشركات المتعددة الجنسيات والاميركية القاعدة مسيطرة على المراحل غير الانتاجية للصناعة وطالما استمرت في ادارة القطاعات النفطية لبعض البلدان المنتجة للنفط ، فانه لا سبب هناك يدعو الى الافتراض بان مركزها في الصناعة قد ضعف . وبالتالي ، ليس ثمة ما يدعو الى الافتراض بان مركز الولايات المتحدة قد صار اضعف الآن مما كان عليه لبضعة اعوام خلت . بل على العكس ، فبالنظر الى النظام الاقتصادي الدولي الراهن وبالنظر الى ان معظم الانظمة العربية ما زالت تربط نفسها ايديولوجيا بالسياسات العالمية للولايات المتحدة ، يستطيع المرء ان يقول ان الولايات المتحدة كانت قادرة على تعزيز مركز قوتها في هذا الجزء من العالم .

الاقتصادات الراسمالية : نزاع وتعاون

لقد قلنا سابقا ان احد أهم اهداف السياسة الاقتصادية الخارجية للولايات المتحدة كانت

تمكين شركات النفط الاميركية من ان يكون لها المركز المسيطر في صناعة النفط الدولية . وكان من المهم بالنسبة الى الولايات المتحدة كذلك ان يكون لها حلفاء قابلون للحياة سياسيا واقتصاديا ومزدهرون . فالنمو الاقتصادي غير الاعتيادي الذي ميز بلدان العالم المتطورة خلال العقود الثلاثة الماضية ساعدته الى حد كبير ، حقيقة ان النفط العربي كان ينتج ويباع باسعار زهيدة جدا . والاعتماد المتزايد على النفط العربي زود الولايات المتحدة بنفوذ مهم ازاء شركائها التجاريين . وكان استخدام مثل هذا النفوذ غير مهم طالما ان الولايات المتحدة لم تكن هي نفسها معتمدة على النفط العربي من اجل احتياجاتها الداخلية . ونشأت المشكلة في اعقاب حرب ١٩٧٣ عندما واجهت الولايات المتحدة حالة كانت فيها مصالحها مهددة بالخطر الجدي ووجدت ان شركاءها التجاريين كانوا يدخلون في بعض الترتيبات التجارية غير التقليدية اطلاقا مع البلدان المنتجة للنفط في المنطقة لضمان استمرار الوصول الى النفط العربي .

واثار مثل هذا العمل المستقل الذي اقدم عليه شركاء الولايات المتحدة التجاريون خطرا في منتهى الجدية بالنسبة الى القوة المهيمنة للولايات المتحدة على حلفائها ، وهدد بتقويض مصالحها الاقتصادية والسياسية والعالمية في المنطقة . وينبغي ان نتذكر دوما ان اعتماد الولايات المتحدة على النفط العربي هو في التحليل الاخير اقل بكثير من اعتماد شركائها التجاريين .

ولكي تعيد الولايات المتحدة تجميع شركائها التجاريين وراء قيادتها وتعيد تثبيت مركزها ازاء شركائها التجاريين والبلدان المنتجة للنفط ، تم اتخاذ اجرائين سياسيين مهمين في اوائل العام ١٩٧٤ .

كان الاجراء الاول خلق وكالة الطاقة الدولية . وهذه الوكالة هي في الأساس ائتلاف البلدان المتطورة (باستثناء فرنسا) وكان يقصد منه ان يستخدم كقوة موازية ضد اوبيك . واهم معلمين اثنين من اتفاقيات الوكالة هما سياسة ابطاء معدل النمو في الطلب على النفط (والطاقة بوجه عام) والآلية المطلقة لترتيبات المشاركة في النفط اذا ما نشأت من جديد حالة شبيهة بحالة العام ١٩٧٣ . وبغية خفض التعرض لقطع الامدادات ، اتفقت بلدان وكالة الطاقة الدولية على زيادة حجم مخزونها النفطي لتلبية احتياجاتها لمدة تسعين يوما وتقاسم احتياطياتها النفطية في حال حدوث قطع الامدادات .

وفي الولايات المتحدة سبق للحكومة ان وضعت الخطة وبدأت في تنفيذ (احتياطي نفط استراتيجي) من بليون برميل يضم ما يوازي امدادات ثلاثة اشهر من النفط المتسورد . ومع انه لم يتم التوصل قط الى هدف البليون برميل ، فان الحقيقة تبقى ان البلدان المستهلكة للنفط ، بامتلاكها لمثل هذا الاحتياطي من النفط ، ستكون في مركز يمكنها من تخفيف او اضعاف وقع اي استخدام ذي دافع سياسي لامدادات النفط من قبل البلدان المنتجة للنفط العربية وغير العربية . وباستعداد البلدان المنتجة للنفط لمجاراة فكرة تأمين الاحتياطيات الضرورية ، فانها تحرم نفسها من اداة سياسية مهمة .

كان خلق وكالة الطاقة الدولية مبادرة اميركية الى حد كبير ، وبنوع خاص انعكاسا لرغبة كيسنجر في اعادة تثبيت قيادة الولايات المتحدة في العالم الصناعي وفي ان يمنع من ان تقوم بين

بعض منتجي النفط وشركاء الولايات المتحدة التجاريين ترتيبات تفضيلية تستثني الولايات المتحدة ، وكذلك في مواجهة اوبيك بثقل مواز من الدول المستهلكة . وبكلام آخر كانت خطة كيسنجر هي انذار البلدان المنتجة للنفط من ان استخدام سلاحها النفطي سيكون اغلى ثمنا من الناحيتين السياسية والمالية .

وكان الحدث الاكثر امتاعا ، وان لم يكن الاكثر مفاجأة ، هو اعلان الولايات المتحدة ، في غمرة مفاوضاتها لخلق وكالة الطاقة الدولية ، انها اقامت علاقتها الخاصة مع العربية السعودية حول الشؤون الاقتصادية والعسكرية . وهكذا نجح راسمو السياسة الاميركية ، في المدى القصير على الاقل ، في تعبئة البلدان المتطورة في وكالة الطاقة الدولية وفي ان تدخل ، في الوقت ذاته ، في اتفاقات خاصة مع اهم بلد منتج للنفط في العالم (العربية السعودية) : من اجل الحصول على مركز ممتاز . وجوهر ترتيب تقاسم النفط بسيط : ان عبء النقص في الامدادات لدى اي بلد من البلدان ، او لدى المجموعة ككل ، يجب ان تتقاسمه الدول المشاركة . الا ان تطبيقات صيغة تقاسم النفط في الحالات الطارئة تسبب مشكلات اقتصادية وسياسية خطيرة . وهكذا اذا كانت الولايات المتحدة هي هدف حظر فرض عليها بسبب سياساتها فيما يتعلق بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي ، فانه سيصار الى دعوة اوروبا واليابان لتتقاسما خسارة الولايات المتحدة . ومن الناحية الاخرى ، اذا كانت اوروبا واليابان هدف الحظر ، بغية ممارسة ضغط غير مباشر على الولايات المتحدة ، فانه من غير المحتمل اطلاقا ان تكون لدى الولايات المتحدة امدادات كافية لموازنة العبء . وهذا يعني ان اوروبا واليابان ستضطران الى امتصاص العبء نفسهما .

من المهم تكرار نقطة سابقة . فكلما طالت مدة بقاء النزاع العربي ــ الاسرائيلي بلا حل ، ارتفع مستوى احتياطيات النفط في البلدان المستهلكة . وهذا سيعني حتما ان استخدام النفط كاداة للسياسة الخارجية سيميل الى فقدان فعاليته مع مرور الوقت .

الولايات المتحدة ، الاتحاد السوفياتي والشرق الاوسط

قبل تناول العلاقة المتبادلة بين اهداف السياسة الخارجية للولايات المتحدة في المنطقة العربية وتفاعلاتها مع الاتحاد السوفياتي ، سيكون من المفيد قول بضع كلمات حول قطاع الطاقة في الاتحاد السوفياتي نفسه .

باديء ذي بدء لا بد من ان نذكر ان الاتحاد السوفياتي هو أكبر بلد منتج للنفط في العالم وتتبعه العربية السعودية ثم الولايات المتحدة . والاتحاد السوفياتي هو كذلك بلد مصدر للنفط وتذهب معظم صادراته النفطية الى الغرب . ويبدو ان خطط الطاقة للاتحاد السوفياتي حتى العام ١٩٩٠ تتركز على الاهداف المركزية التالية :

١) ان يكون مكتفيا ذاتيا في الطاقة لجميع الاحتياجات الداخلية السوفياتية .

٢) ان يلبي الحد الادنى من احتياجات اوروبا الشرقية .

٣) توفير حجم متزايد من صادرات منتجات النفط والغاز الطبيعي لتمويل مستويات متوسعة من الاتكال الاقتصادي المتبادل مع الاقتصادات الصناعية الغربية .

٤) توفير صادرات متواضعة من النفط الى البلدان النامية . الا انه لا بد من التذكر ان الاتحاد السوفياتي لا يتوقع منه ان يكون عاملا رئيسيا في سوق الطاقة العالمية الا بالنسبة لبلدان اوروبا الشرقية .

وقد تنشأ مشكلة بالنسبة الى الاتحاد السوفياتي اذا لم تتحقق خططه او اذا ازدادت احتياجاته الى المنتجات وسلع الانتاج الغربية الى النقطة التي قد لا يعود قادرا معها على تحقيق الاحتياجات المرتقبة لبلدان اوروبا الشرقية . وفي ظل هذه الاوضاع يجب ان نتوقع ان يصير التنافس السوفياتي ـ الاميركي على النفط العربي عاملا مهما في السياسة الخارجية الاميركية نحو المنطقة العربية . وثمة وجه أخر لهذه الحالة . فقد يجد الاتحاد السوفياتي ، في حملته للحصول على كمية متزايدة من السلع والتكنولوجيا الغربية ، انه من الضروري ان يزيد التسليمات النفطية الى اوروبا الغربية وان يعوض الفرق بزيادة مستورداته هو من الشرق الاوسط وايضا ان يشجع بلدان اوروبا الشرقية على ان تحذو حذوه .

إلا انه يمكن الافتراض بثقة ان الاتحاد السوفياتي ، للعقد المقبل من الزمن او نحو ذلك ، لن يدخل في اي نزاع خطير مع الولايات المتحدة من أجل موارد طاقة العالم العربي . واذا صحت هذه الملاحظة الاخيرة فان السؤال التالي سيكون : ما هي اهم المتغيرات التي ستدخل السياسة الخارجية الاميركية نحو المنطقة في العقد التالي من الزمن او نحو ذلك .

عامل الطاقة في السياسة الخارجية الاميركية

هناك على الاقل اربعة متغيرات يجب ان ننظر فيها من هذه الناحية .

١) الاحتياجات الاميركية الى النفط العربي .
٢) احتياجات شركاء اميركا التجاريين للنفط العربي .
٣) قدرة البلدان العربية على تلبية هذه الاحتياجات .
٤) اعتبارات السياسة القومية للبلدان العربية .

يبدو ان جميع الاشارات والدراسات تتفق على ان لا مناص من ملاحظة حقيقة ان كلا من الولايات المتحدة وشريكاتها التجاريات ستستمر في الاعتماد على مصادرها التقليدية لامدادات النفط حتى أخر هذا القرن . وقد تكون الكميات مختلفة من مصادر مختلفة لكن الحقيقة تبقى ان النفط العربي سيستمر في لعب دوره التقليدي كعنصر طاقة اساسي ومهم وجوهري في صورة الامدادات بالنسبة لهذه البلدان .

ومقابل هذه الحاجة الى النفط العربي ، من المهم ان نلاحظ ان هناك قيودا مهمة وجدية على قدرة المنتجين على تلبية الطلب . والقيود هي مادية واقتصادية واجتماعية .

اهم القيود هو قدرة العربية السعودية على توسيع انتاجها لتلبية الطلب العالمي . وكان الكثيرون من المراقبين وراسمي السياسة قد افترضوا ، منذ فترة غير بعيدة ، انه سيكون في وسع العربية السعودية ان توسع قدرتها الانتاجية لانتاج ٢٠ م ب ي بحلول منتصف العقد التالي . اما هذه الايام فان اجماع الاراء هو ان الحقول السعودية عاجزة ببساطة عن تحقيق هذا المستوى من الانتاج . وبالاضافة الى هذه الحقيقة فان الانتاج الحالي لجميع

البلدان العربية يفوق احتياجاتها لنفقات التنمية الاقتصادية . وهذا يعني انه من مصلحة البلدان العربية في المدى البعيد ، من وجهة النظر الاقتصادية البحتة ، ان تجعل انتاجها النفطي مستقرا او ان تخفضه بدل ان تنتجه بالمستويات الراهنة . والى ذلك ، فان الثمن الاجتماعي للاضطرار الى مواجهة نتائج الارتفاع المفاجيء في اسعار النفط وايرادات النفط يرغم الحكومات العربية على اعادة النظر في سياساتها للتصنيع المعجل في وقت لا تلبى فيه الاحتياجات الاساسية للجماهير . ولا حاجة الى القول ان الثورة الايرانية قد غيرت الكثير من المقدمات المنطقية التي بنيت عليها السياسات . واذا افترضنا ان البلدان العربية ستكون إما غير راغبة او غير قادرة على تلبية طلب البلدان الصناعية للنفط ، فان عدة مشكلات ستنشأ حتما في المستقبل القريب .

اولى هذه المشكلات واهمها هي النزاع الذي سينشأ بين البلدان المصنعة نفسها فيما يتعلق بوصولها الى نفط المنطقة . ان المركز الممتاز الذي اوجدته الولايات المتحدة لنفسها مع العربية السعودية ومصر اضافة الى علاقتها الخاصة مع اسرائيل سيمكنها من لعب دور مهم في عملية تخصيص الامدادات المتوفرة بين مستعملي النفط المختلفين . وستستمر شركات النفط المتعددة الجنسيات المتمركزة في اميركا في لعب دور مهم في عملية التخصيص هذه .

المشكلة الثانية هي مشكلة وصول بلدان العالم الثالث المستوردة للنفط الى النفط العربي . ولن تعاني هذه البلدان من عجزها عن تلبية احتياجاتها الى النفط المستورد فحسب ، ولكنها ستعاني ايضا من الزيادة الحتمية في سعر النفط .

والمشكلة الثالثة والاكثر خطورة التي ستواجه البلدان العربية هي تلك التي تتعلق بحرية تصرفها كدول مستقلة . ومن المعروف تماما ، بالطبع ، ان الولايات المتحدة لن تتردد في اللجوء الى اية اداة من ادوات الضغط السياسي والعسكري الموجودة في تصرفها ، مباشرة او مداورة ، لتأمين الوصول الى النفط العربي . ويجري في الولايات المتحدة وضع خطط طواريء لاقامة قوى من ١٠٠,٠٠٠ بينها ٤٠,٠٠٠ جندي مقاتل لاستخدامها لحماية مصالح النفط الاميركية في المنطقة من العراق الى عمان . ولا حاجة الى القول ان المخططين الاميركيين يعتبرون المنطقة العربية في الشرق الاوسط حساسة جدا وفي غاية الاهمية للمصالح الاميركية الداخلية والعالمية .

وبما ان الاتحاد السوفياتي سيكون مكتفيا ذاتيا في الطاقة فان البلدان المصنعة الاخرى هي التي تحب الولايات المتحدة ان تحرمها حرية الوصول الى النفط العربي . وتفترض الملاحظات الاخيرة الثلاث ان البلدان العربية ستكون ممثلة سلبية في ما سوف يحدث لها وان الاوضاع السائدة في العالم العربي ستبقى جامدة . ان ايا من هذه الافتراضات ليس صحيحا ، بالطبع ، كما اظهرت الاحداث الاخيرة في ايران . ومن المهم ان نتذكر كذلك ان التناقضات بين بلدان العالم الرأسمالية فيما هي تدنو من العقد التالي يجب ان توفر فرصا مهمة للبلدان العربية لاستخدام نفوذها الاقتصادي المهم لتحقيق اهدافها السياسية القومية .

ملاحظات ختامية

ان مسألة الطاقة والسياسة الخارجية الاميركية ليست مسألة جديدة . وكذلك الصلة بين

السياسة الخارجية الاميركية والنفط العربي .

ان التغييرات التي تمت في السبعينات والتغييرات التي يرتقب ان تتم في العقد التالي من الزمن لن تؤدي الا الى تقوية تورط الولايات المتحدة في شؤون المنطقة العربية .

ان الاهمية المتزايدة للنفط العربي بالنسبة الى قابلية الحياة الاقتصادية المستقبلية للبلدان المصنعة هي ببساطة اهمية عامل اضافي سيميل الى تعميق التناقضات التي ميزت العلاقات الاقتصادية بين هذه البلدان .

من المتفق عليه بوجه عام ان الركود الاقتصادي في العام ١٩٧٤ قد فاقم حالة نزاع كانت موجودة بين البلدان الصناعية . وفي الواقع كان النزاع الذي وجد اهم تعبير له في انهيار نظام بريتون وودز THE BRETTON WOODS SYSTEM قيد الاعداد طيلة عقدين من الزمن .

ويكمن في اساس النزاع الضعف في المركز المهم نسبيا لاقتصاد الولايات المتحدة ازاء شريكاتها التجاريات في اوروبا واليابان . وقد بدأت المراكز النسبية المتغيرة لهذه الكتل الاقتصادية الثلاث عملية اعادة ضبط لم تنته بعد ، كما انه من غير المتوقع ان تكتمل في المستقبل القريب . ان الميل الجديد لدى البلدان العربية المنتجة للنفط ولدى غيرها من اعضاء اوبيك فضلا عن بلدان العالم الثالث ، لفرض مواقفها قد اضاف بعدا جديدا الى مشكلات البلدان الصناعية والنزاعات فيما بينها .

وفيما تتلمس البلدان الرأسمالية طريقها لوضع مجموعة جديدة من الانظمة للتحكم في سلوكها الاقتصادي ، فان احد اهم التطورات في هذا العقد من الزمن هو بروز العالم الثالث كقوة اقتصادية مهمة في الاقتصاد الدولي . ومالت هذه الحقيقة بحد ذاتها الى زيادة النزاعات بين البلدان المصنعة في محاولاتها خلق او تعزيز مراكز سيطرتها في بلدان العالم الثالث . الا ان بروز العالم الثالث كقوة اقتصادية مهمة (وكسوق مهمة) قد خلق ايضا فرصة تاريخية مهمة للبلدان العربية . فلدى البلدان العربية المنتجة للنفط فرصة تاريخية لم يسبق لها مثيل لضم قواها الى قوى بلدان العالم الثالث الأخرى لتغيير نمط الاعتماد الاقتصادي والسياسي الذي ميز معظم الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية .

ان البلدان العربية المنتجة للنفط ، باستخدامها النفط كأداة للتغيير ، لن تغير نفسها فحسب بل ستفيد ايضا اكثرية البشر .

ان التحدي ، بالطبع ، هو ما اذا كان العرب مستعدين وراغبين في القبول بهذا التحدي التاريخي .

عاطف عبد الله قبرصي

الاقتصاد السياسي لسياسة الطاقة للولايات المتحدة

تنطوي سياسة الطاقة ، المتعلقة بالانتاج والتسعير والتملك والاستيراد ، على قضايا معقدة في علم الاقتصاد ، لكن هذه القضايا لا تشكل في حد ذاتها مسائل اقتصادية بحته ، النظر اليها من وجهة الاقتصاد النظري فقط يكون وجهة نظر مشوشة ومضللة[١] . فالموارد الطبيعية في حدود أي دولة هي في معظم الحالات ملك الحكومات الوطنية ، كما أن القرارات المتعلقة بسرعة التنقيب والاستثمار هي قرارات حكومية ، سياسية . كما ان تنظيم وفرض الضرائب على الطاقة هي قضايا سياسية ، وتنظيم تدفق الطاقة بين الامم ينظر اليه من قبل جميع الحكومات كوظيفة سياسية . اما بالنسبة للنواحي الاقتصادية ونتائج وتكاليف السياسات البديلة ، فان علم الاقتصاد النظري يسلط عليها ضوءا غير ان الموضوع ككل ليس موضوع اقتصاديات الطاقة بل الاقتصاد السياسي للطاقة[٢] .

وعليه فان سياسة الطاقة لا تتبلور في فراغ بل ان ارضيتها مؤصلة في القياسات الاولية الجغرافية والسياسية والاقتصادية الاجتماعية العائدة لها ، كما هي في شبكة الاهداف المعقدة المستهدفة التحقيق من قبل الحكومات .

تشتمل محدودات الوضع العالمي الحالي للطاقة على ما يلي :

أ ـ ان زيادة الاسعار من قبل منظمة الاوبيك (الدول المنتجة والمصدرة للنفط) لم تجار معدل التضخم الحالي وهبوط سعر الدولار منذ سنة ١٩٧٤ حيث هبط السعر الحقيقي بشكل ملحوظ[٣] . بالرغم من ازدياد سعر البترول الاسمي اربعة اضعاف في تلك السنة .

ب ـ ان معظم العائدات الجديدة من النفط او ما يسمى بالبترودولار توجهت للغرب ، وعليه فان مشكلة انتقال الثروة التي اثارت كثيرا من القلق لم تشكل تلك الكابوس الذي كان متوقعا ان يحدث في سنة ١٩٧٤ .

ج ـ انخفض الطلب على النفط في الفترة الاخيرة عن كمية العرض .لقد ازداد استهلاك الطاقة في

الدول الصناعية الهامة بسرعة تفوق الزيادة في الانتاج المحلي القائم في السنوات التي سبقت ١٩٧٤ ، غير ان النسبة بين معدلي النمو أي معدل الطاقة (energy coefficient) فقد هبط هبوطا ملحوظا في السنوات التالية . اما بالنسبة للولايات المتحدة فقد ازداد استهلاك النفط بصورة اجمالية تقدر بعشرة بالمائة بين سنة ١٩٧٢و١٩٧٧ .

د ـ ان جميع التقديرات للطلب على النفط في المستقبل تشير الى زيادة في كميات النفط التي سيحتاجها العالم في المدة المقبلة . واذا اخذنا بعين الاعتبار الكمية المتاحة والاستعمال الكلي لجميع مصادر الطاقة من غير النفط فان اكثر التقديرات تحفظا تنبيء بأن استهلاك النفط في العالم باستثناء العالم الشيوعي سيزيد على ٦٢ مليون برميل في اليوم في سنة ١٩٨٥ . وهذا يشكل زيادة بنسبة ٢٢٪ على مستوى الاستهلاك لسنة ١٩٧٧ والذي بلغ ٥١ مليون برميل في اليوم(٤) . وبناء على هذه الزيادة وعلى افتراض صحة التنبوات المتفائلة عن انتاج النفط من غير دول الاوبيك ، فان الدول المستهلكة بحاجة الى ٢٧ مليون برميل في اليوم من دول الاوبيك مقابل ٣٢ مليون برميل في اليوم في سنة ١٩٧٧ . هذا بالاضافة الى الافتراض الغير واقعي ، بان حاجة الكتلة الشيوعية لا تحتاج فقط الاوبك ابدا . والجدير بالذكر هنا ان منظمة التعاون 'الاقتصادي والتنمية OECD تتنبأ لحاجة اكبر لنفط الاوبيك في سنة ١٩٨٥ . فبالنسبة لجميع دول OECD ، فان مجموع استيرادها من الاوبيك يمكن ان يصل الى ما بين ٣٨ و٤٠ مليون برميل في اليوم ، واذا اضفنا استهلاك دول الاوبيك الى استيراد الدول النامية LDC فان مجموع الانتاج المطلوب من دول الاوبيك يجب ان يتراوح بين ٤٣ و٤٤ مليون برميل في اليوم(٥) .

هـ ـ ان طاقة الاوبيك لانتاج الطلب المستقبلي سيكون مضمونا من دول الاوبيك بنظر بحاثي MIT . ولكن وكالة المخابرات المركزية الامريكية تفترض ان هذه الطاقة ستنقص عن ٣٩ مليون برميل في اليوم خصوصا بالنسبة لانخفاض الانتاج في ايران وتمنع او عدم قدرة السعودية على زيادة انتاجها الى المستوى التي تحاول الولايات المتحدة فرضه عليها .

و ـ ان الاكتشافات الجديدة في الصين والمكسيك والقطب المتجمد ستعمل على تغطية جزء بسيط فقط من الفجوة المتوقعة بين الطلب والعرض . كما انه حتى في حالة الاستثمار الكلي (الاقصى) فان الاكتشافات الجديدة ستعجز عن تخفيف النقص المتوقع بنسبة مهمة . اما الاستهلاك المتراكم من سنة ١٩٧٨ ولنهاية ١٩٩٠ سوف يبلغ قرابة ٣٠٠ بليون برميل او على وجه التقريب نصف مجموع الاحتياطيات المعروفة حاليا . وبما ان نسبة الانتاج لسنة ١٩٧٨ الى الاحتياطي المعروف هي ٣٢ سنة فان معدل الاكتشافات التعادلي المطلوب لتثبيت واستدامة هذه النسبة يجب ان يبدأ بكمية ١٨ بليون برميل في السنة على ان يزداد تدريجيا الى ما يقرب من ٢٨ بليون برميل في نهاية سنة ١٩٨٥(٦) وبموجب دراسة حديثة لشركة اكسون EXXON فان معدل الاكتشافات في السنوات العشر المقبلة يتراوح بين ١٢ ـ ١٨ بليون برميل . وذلك بناء على افضل التوقعات . وهذا يعني ان نسبة الانتاج الى الاحتياطيات مرشحة للهبوط من ٣٢ سنة عام ١٩٧٨ الى اقل من ٢٥ سنة عام ١٩٨٥ . طبعا ستكون نسب الاستنزاف مختلفة في مختلف اقطار الاوبيك . ففي السعودية ستكون النسبة ادنى مما هي عليه في فنزويلا انما صلب القضية هو ان كثيرا من بلدان الاوبيك

ستواجه مشكلة الاستنزاف الكلي لاحتياطاتها البترولية في المستقبل القريب . لذلك فان الاكتشافات الجديدة في الصين والمكسيك والمنطقة المتجمدة لن تغير من صورة النقص في موارد النفط في المستقبل ، زد على ذلك فان مناطق الانتاج الجديدة او مناطق الانتاج الحالية الموسعة لن تعمل بالتأكيد دون اعتبارات العرض / الطلب وعوامل التواجد الطبيعي والتي تحدد مسيرة وقرارات اعضاء منظمة الاوبيك الحاليين . » بل على العكس ، فمن المفترض ان يندمج الانتاج الجديد آجلا ام عاجلا في انماط العرض والتسعير لدول الاوبيك »(٧) .

ز ـ سقوط الشاه في ايران وفقدان ايران كرجل الشرطة الاميركي في الخليج وكحليف اكيد للغرب في منظمة الاوبيك ، وقطع النفط الايراني عن اسرائيل وافريقيا الجنوبية ، وانخفاض تدفق البترول الايراني .

ح ـ معاهدة السادات ـ بيغين الاستسلامية وتراجع اسرائيل عن ابار النفط في سيناء .

ط ـ سيطرة الاتحاد السوفياتي الكاملة على المحيط الهندي .

ي ـ بروز اوروبا واليابان كقوى اقتصادية عظمى على حساب الولايات المتحدة .

ك ـ ميوعة الوضع العسكري السياسي في جنوب افريقيا وانتفاضة شعوب المنطقة على الانظمة العنصرية .

انطلاقا من هذه الحقائق ، تظهر سياسة الطاقة في الولايات المتحدة وكأنها خططت لتخدم غرضين رئيسيين : اولا ، الغرض المألوف وهو المصالح الاقتصادية الداخلية وثانيا ، الاهداف السياسية والاقتصادية والعسكرية للسياسة الخارجية التي تبقى عادة سرية او غير معلنة . والتي يمكن الاشارة الى عناصرها الاساسية كما يلي :

(أ) اسعار متدنية للطاقة للاستعمال الداخلي .

(ب) ضمانة مؤن النفط وضمانة طرق التموين .

(ج) ضبط وتطويق وترويض الاوبيك .

(د) تأكيد زعامتها على اوروبا واليابان .

(هـ) دعم الانظمة الرجعية العميلة .

لقد استخدمت الولايات المتحدة عدة استراتيجيات وتكتيكات لخدمة هذه الاهداف التي قد تظهر وكأنها غير مترابطة ، ولكن الاهداف المذكورة اعلاه تشكل الرابط الاساسي لفهم هذه الاستراتيجيات .

استطاعت الولايات المتحدة بطرق مختلفة ، منها طويل الامد ومنها صيغ بسرعة اثناء ازمة الطاقة ، ان تبقي سعر الطاقة في الولايات المتحدة دون المستوى العالمي . وقد حرم على المنتجين

المحليين من الاستفادة من الاسعار العالمية العالية . اما بالنسبة للنفط فقد فرضت ضريبة عالية على الانتاج المحلي لتمويل المعونات للنفط المستورد من الخارج [٨] . ونتج عن ذلك ازدياد في حجم الفجوة بين الطلب والعرض للطاقة ، وقد ازداد الاستيراد بشكل ثابت وكان معظم هذه الزيادة في الاستيراد من الدول العربية في منظمة الاوبيك .

الجدول رقم (١)

استيراد الولايات المتحدة من نفط العالم العربي

(آلاف الاطنان المترية)

السنة	مجموع الاستيراد	المصادر العربية	نسبة المصادر العربية الى مجموع الاستيراد
١٩٧٥	٢٠٧،٨٠٦	٦٥،٧٩٩	٣١،٧
١٩٧٦	٣٠١،٠٧١	١٢٩،١٧٢	٤٣،٠
١٩٧٧	٣٧٤،٢٤٥	١٦٧،٩٥٦	٤٤،٩

Source, World Oil, General Issue, February 15, 1978.

وتظهر مشكلة الطاقة في الولايات المتحدة وكأنها لا تتضمن أكثر من المبدأ الاقتصادي المعروف القائل بأن الزيادة في السعر تكون نتيجتها انخفاض في الطلب وزيادة في العرض . طبعا ان تحديد الوقت الذي يؤثر فيه السعر على الطلب والعرض هو موضع نقاش ، انما خلاصة الشواهد تظهر بأن الطلب ينخفض بنسبة ١٪ لكل ٤٪ من الزيادة في السعر ، وان العرض يزداد بنسبة ١٪ مقابل زيادة ٥٪ في السعر ، ولا شك ان هذه التعديلات تأخذ بعض الوقت لتتحقق. وعليه فهناك بعض الشك في سرعة وحجم التأثير على السوق . انما هذه الارقام تكون اساسا معقولا لوصف اولي لسوق الطاقة في الولايات المتحدة[٩] . ومن الواضح ان السياسة القائمة اليوم في الولايات المتحدة ابقت اسعار الطاقة فيها حوالي ٢٠٪ دون مستوى الاسعار العالمية ، ولذلك فان الاستهلاك هو ٨٪ اعلى مما يمكن ان يكون والعرض ينقص ٦٪ واذا ترجمت هذه النسب الى ارقام معادلة للنفط فان مجموع استهلاك النفط في الولايات المتحدة في الوقت الحاضر هو حوالي ٣٨ مليون برميل في اليوم منها ٣١ مليون برميل من النفط والغاز والفحم المنتج محليا والرصيد الباقي هو مستورد . وعليه فان ٨٪ من الاستهلاك يعادل ٣ ملايين برميل يوميا بينما ٦٪ من الانتاج المحلي يقارب مليوني برميل يوميا . اما النتيجة الصافية لسياسة استبقاء اسعار النفط على حالها فتتبلور في زيادة الاستيراد بحوالي ٥ ملايين برميل يوميا . ومن هذا يظهر استنتاج خارق وهو ان مشكلة المستوى العالي للاستيراد في الولايات المتحدة هي من صنع الولايات المتحدة نفسها اذ ان مستوى الاستيراد يمكن تخفيضه كثيرا ، لو ان الولايات المتحدة لم تعتمد سياسة المحافظة على اسعار متدنية للطاقة في السوق الداخلي[١٠] .

والسؤال الوارد هنا هو لماذا فرضت الولايات المتحدة على نفسها هذه السياسة ، اذا كانت هي وحدها سبب مشكلة ازدياد الاستيراد ؟ طبعا لا يجهل صانعو السياسة الامريكية بديهيات

اقتصاد العرض والطلب كما انهم لا يقللون من حجم اثر السعر على العرض والطلب . الجواب الصحيح هو ان هذه السياسات كانت وليدة استراتيجية مدروسة لمنع اسعار المنتوجات الصناعية في الولايات المتحدة من الارتفاع بالنسبة لاوروبا واليابان من اجل افادة المستهلك والمنتج المحلي للبضائع الصناعية. وان الفوائد التي يجنيها منتجو البضائع الصناعية هدفها تحسين الوضع التنافسي المتدهور لصادرات الولايات المتحدة ، زد على ذلك فان منع اسعار الطاقة المحلية من الارتفاع الى المستوى العالمي يحول دون اعادة توزيع الدخل ، بشكل اجمالي من المستهلكين المحليين الى شركات النفط ، كما يخفض حجم الطاقة المنتجة محليا فيحافظ على الاحتياطيات المحلية باستعمال الاحتياطيات الاجنبية . كما يجبر دول الاوبيك على المحافظة على مستوى اعلى من الانتاج مما لا يتوافق مع قدرة اعضاء منظمة الاوبيك على الاستيعاب الامر الذي يؤدي بالنهاية الى اسعار ادنى للطاقة وتراكم الاموال الرهينة . (Hostage Funds) .

ان تمويل Subsidization خفض اسعار النفط يورط الحكومة الاميركية في عملية تمويل النفط المستورد من دول الاوبيك ، وانه من السذاجة ان يصدق بأن هذه الظاهرة هي ناتجة عن رغبة حكومة الولايات المتحدة في تحديد ومنع تحويل الدخل من المستهلك الى شركات النفط[١١] . فلو كان هدف حكومة الولايات المتحدة ان تعيد توزيع الدخل ، فهذا يمكن تحقيقه بسهولة عن طريق الضرائب بدلا عن طريق الاسعار . وان كتب الاقتصاد حتى الابتدائية منها تزخر بمثل هذه الحالات[١٢] . ولذلك فاننا نميل الى الاعتقاد بأن الولايات المتحدة تتبع الاهداف الاخرى التي ذكرناها مثل تحسين الوضع التنافسي الدولي للبضائع الاميركية والمحافظة على مدخر الطاقة المحلي ، واجبار دول الاوبيك على ان تزيد من اعتمادها على الولايات المتحدة ماليا وكمنفذ لصادراتها من النفط .

ان زيادة القدرة التنافسية للبضائع الاميركية تتأتى عن الاوضاع التالية:

اولا : ان حصول المنتج الاميركي على النفط باسعار تقل عما يحصله الاوروبي او الياباني يخفض من كلفة انتاجه ويسمح له باستيعاب اكلاف اخرى ليس بمقدور المنتج الاوروبي استيعابها . واذا افترضنا كما هي الحال ، ان الطلب على الصادرات الصناعية يخضع لمرونة عالية ، اكتسب المنتج الاميركي فائدة مهمة من جراء تدني اسعاره نتيجة تدني كلفة الطاقة . ثانيا ان استيراد الطاقة بالكميات التي تستوردها الولايات المتحدة ادى بطريقة مباشرة الى تخفيض سعر صرف الدولار مما ادى بدوره الى رفع القدرة التنافسية للبضائع الاميركية تجاه الدول التي ارتفعت نسبيا اسعار صرف عملتها بالنسبة للدولار . هذا مع العلم ان انخفاض سعر صرف الدولار ادى الى تخفيض اكلاف تحويل الثروة Transfer Problem الى دول الاوبيك ايضا . ثالثا ، ان تحديد الانتاج من قبل الاوبيك للمحافظة على سعر الطاقة المقرر يؤدي بالضرورة الى انخفاض الكمية المتاحة لاوروبا واليابان بالقدر والنسبة التي تزيد بها الولايات المتحدة استيرادها من الطاقة من الاوبيك . وبما ان الطاقة ترتبط ارتباطا تكنولوجيا مع رأس المال الثابت فأي تقلص في الكمية المتاحة من الطاقة يعني نقصا حتميا في استعمال الطاقة الانتاجية للاقتصاد الذي يعاني نقصا في الطاقة . لهذا نجد اليوم ان معدلات البطالة في اوروبا واليابان قد وصلت الى ارقام لم تعهد مثيلها هذه الاقتصاديات الا في زمن البطالة الكبرى Great Depression في الثلاثينيات .

ان ربط الاوبيك وزيادة اعتمادها على الولايات المتحدة مهم للاخيرة من عدة اوجه . اولا انها تحرم منظمة الاوبيك من حرية التصرف والتحكم بالسعر والكمية المنتجة واتباع النمط الكفيل بتحقيق المنفعة القصوى لها . ثانيا انها تعطي الولايات المتحدة موقفا مهما بالنسبة لاوروبا واليابان لاعتمادهم عليها من اجل رعاية مصالحهم مع الاوبيك ، اذ انهم اكثر ارتباطا واعتمادا على الاوبيك من الولايات المتحدة .أن هدف تعميق ارتباط الاوبيك بالولايات المتحدة يتحقق بواسطة رفع صادرات الاوبيك اليها وكون الشركات الاجنبية العاملة في دول الاوبيك هي على الغالب اميركية ، يضاف الى ذلك الضغوطات السياسية التي تمارسها الحكومة الاميركية على حكومات الاوبيك مباشرة او بطرق غير مباشرة عبر الانظمة المرتهنة لها .

ان زيادة الصادرات من الاوبيك الى الولايات المتحدة خاصة عندما تكون هذه الصادرات زيادة في الانتاج تفوق الكمية المناسبة للاوبيك ، فانها تعني في النهاية خفضا للاسعار وزيادة في الاستثمار الاجنبي الذي هو في الغالب بالدولار الاميركي .

ان زيادة العائدات البترولية التي ليس بالامكان استيعابها في الاقتصاد الوطني هي بالضرورة استثمار في الخارج . والولايات المتحدة لها حصة الاسد في ذلك . تبلغ هذه التوظيفات حاليا اكثر من ١٦٠ بليون دولار ، اكثر من ٩٥ بليون دولار موظفة في الولايات المتحدة .

الجدول رقم ٢

توزيع توظيفات الرأسمال النقدي لدول الاوبيك ١٩٧٧

نوع الاستثمار	الكمية المستثمرة	النسبة المئوية
١ . استثمار مباشر في الولايات المتحدة	٤٢	٢٦,٣
٢ . استثمار في الدول الصناعية غير الولايات المتحدة	١٦	١٠,٠
٣ . ديون للدول الصناعية	١٢	٧,٥
٤ . ودائع بالعملات الاجنبية الاوروبية	٦٠	٣٥,٥
٥ . توظيفات وديون للدول النامية	٢٠	١٢,٥
٦ . ديون المؤسسات الدولية	١٠	٦,٢
المجمـــــــوع	١٦٠	١٠٠,٠

Source A. Alnasrawi. Arab Oil and The Industrial Economies: The Paradox of Oil Dependency *Arab Studies Qearterly, Vol. 1, No. 1, 1979, p. 14.*

ان التوظيفات الكبيرة في الولايات المتحدة او في الدولار ، من شأنها ان تربط الدولة الموظفة

بمصالح الاقتصاد الاميركي . انها تؤدي في النهاية الى تحديد قدرة الدول الموظفة على اتباع سياسات مستقلة ان من حيث الطاقة او من حيث التوظيفات النقدية ،وتعرض اقتصادياتها لتقلبات الدولار وسياسات الدولة الاميركية . كما ان معظم هذه التوظيفات تتصف بسيولة عالية ، هي مجبرة عليها ، لذلك فانها تخضع لتآكلات عدة من حيث ارتفاع الاسعار والعمولات .

تدرك الولايات المتحدة على جميع المستويات ما يترتب على هذا الارتباط من نتائج ، ولقد سعت الحكومة الاميركية بشكل واضح وبمقتضى خطة محكمة الى تعميق هذا الاعتماد واستعماله كسلاح في وجه الاوبيك والاوروبيين معا . كما ان هناك عدة اوجه اخرى لظاهرة الارتباط المحكم التي حبكته السياسة الاميركية حول بعض دول الاوبيك . فمثلا بالرغم من كون دول الاوبيك مجموعتين بالاساس . مجموعة تزيد عائداتها على نفقاتها و تتمتع بمدخرات كبيرة كالسعودية والكويت والامارات هناك ايضا مجموعة مقابلة تتدنى عائداتها عن نفقاتها وليس لها مدخرات كبيرة كفنزويلا ، وايران والجزائر الخ . المجموعة الاولى يهمها ان لا ترتفع الاسعار في السياق القصير بسرعة وبكميات كبيرة لان لديها المدخرات والانتاج على المدى الطويل . اما المجموعة الثانية فيهمها زيادة كبيرة في السعر والاستفادة من عدم مرونة الطلب في السياق القصير حيث ان انتاجها لن يدوم طويلا . ان هذا التنافس الطبيعي داخل الاوبيك حتمي وضروري . غير انه من المستغرب ان ايران قبل الثورة والسعودية وكل ينتمي الى مجموعة مختلفة يتفقان على تحديد السعر والانتاج معا . ان القاسم المشترك يكمن في سباقهم لخدمة المصالح الاميركية والقرارات الاميركية . فالولايات المتحدة تربط بيع اسلحتها و تكنولوجيتها ودعم الانظمة لقاء سيطرتها غير المباشرة على قرارات الاوبيك. يقول جون وست سفير الولايات المتحدة في السعودية « حصلت حكومة الولايات المتحدة بنتيجة بيع الاسلحة للسعودية على شيئين اوتوماتيكيا . ستبقى اسعار البترول مجمدة عبر ١٩٧٨ وستبقي السعودية الدولار اساسا للعائدات »(١٣) .

اما ضمان مصادر الطاقة فتستهدفه الولايات المتحدة من جراء تنويع مصادر الاستيراد ومصادر الطاقة المستعملة . فهي جاهدة لتعميم استعمال الطاقة النووية ، غير ان المشاكل التقنية والصحية وسلامة الاستعمال ادت مؤخرا بعد حوادث المحولات في بنسلفانيا الى اعادة النظر والتمهل والتريث في الاعتماد على هذا المصدر . والجدير بالذكر هنا انه حتى قبل حادثة بنسلفانيا Three Miles Island ، اظهرت تقديرات منظمة الـ OECD ان الكمية المتاحة من هذه الطاقة والمحددة بحوالي 300,000 ماغاوات منها 200,000 ماغاوات للولايات المتحدة لسنة ١٩٨٥ غير واقعية وتفوق كثيرا تقديرات دائرة الطاقة الاميركية Department of Energy للمدة نفسها والتي حددت العرض في اميركا بحوالي نصف الكمية المقدرة من قبل OECD (١٤) . اما بعد الحادثة فحتى تقديرات الدائرة الاميركية للطاقة اصبحت نفسها مبالغا فيها . للفحم الحجري دوره في اشباع حاجة السوق الاميركية من الطاقة ولكن المضاعفات والاثار الاسيئة على البيئة من شأنها ان تحول دون الاستعمال الاقصى لهذا المصدر الذي هو بحد ذاته مكلف ومحدود الكمية . كما ان استعمال Shale oil and Tar Sznds سيكون محدودا ما بقيت القضايا التكنولوجية المتعلقة باستعمالها غير محلولة .

اما تنويع مراكز الاستيراد فيظهر ان اميركا تحاول جاهدة تحقيقه تخوفا من استفحال اعتمادها على بترول العرب . ولهذا الهدف عدة مضامين : اولا الاعتماد على مصادر من غير الاوبيك . ثانيا الاعتماد على غير العرب في الاوبيك . وثالثا الأعتماد على عرب الاوبيك الاصدقاء لها . فاكبر المصدرين العرب لاميركا هي السعودية (وتمثل عشرين بالمائة من مجموع استيراد الطاقة في اميركا سنة ١٩٧٦) . ومن الامارات استوردت ٦٪ من حاجتها في نفس السنة . اما من ليبيا فقد استوردت ٩٪ سنة ١٩٧٦ وخفضت هذه النسبة الى ١,١٪ في سنة ١٩٧٧ . اما الدول النفطية التي هي خارج الاوبيك فقد صدرت الى الولايات المتحدة اكثر من ١٦٪ من حاجة اميركا . اما الدول الغير عربية في منظمة الاوبيك فقد صدرت ما يقارب الـ ٤٠٪ من مجموع حاجة اميركا في تلك السنة .

ان تكاثف اعتماد اميركا على بترول العرب بدأ يثير القلق في اوساط الصهاينة والاميركيين المتصهينين . وقد اتخذ قلقهم اشكالا عدة . فمنهم من يحاول تضخيم ازمة الطاقة محاولا تأليب الرأي العام الاميركي على الاوبيك والعرب . ومنهم من يحاول ايهام الشعب الاميركي ان الطاقةمتوفرة ليس بامكان العرب التضييق على مصادر الطاقة.وان الازمةاساسها الشركات الاميركية المتكالبة على الربح مع العرب والبيروقراطية الاميركية الغبية . اما القاسم المشترك لهذه المجموعات فهو التمثيل الاكبر للصهاينة في صفوفها . اما الصيغ التي يقترحها هؤلاء لمعالجة الوضع فتعبر بشكل واضح على نيتهم المبيتة للنيل من العرب وعلى اثرهم الفعال في تأليب الراي العام الاميركي والتأثير المباشر على اصحاب السلطة . وسنعرض الآن لبعض مقترحاتهم :

اولا : الاستعجال ببناء وتعبئة الخزين البترولي الاستراتيجي

تعمل الولايات المتحدة الاميركية منذ ١٩٧٣ لبناء خزانات كبيرة تحت الارض في منطقة خليج مكسيكو . الكمية المستهدفة تبلغ بليون برميل أي حوالي ٦ ملايين برميل في اليوم لمدة ستة أشهر او ما يقارب ثلاثة ارباع القيمة المستوردة حسب ارقام سنة ١٩٧٧ . اما استكمال هذا المخزون فلن يتم قبل سنة ١٩٨٤ . فحسب تقديرات الاحصائيين لن يتم الحصول على نصف الكمية قبل ١٩٨١ . وقد وضع هذه التقديرات قبل الثورة الايرانية وتخفيض ايران لانتاجها . غير ان المخططين الاميركيين يدركون كل الادراك انه حتى في حال الحصول الكامل على الكمية المستهدفة فانها (أي هذه الكمية) ستكون غير قادرة على درء مترتبات حظر البترول العربي عن اميركا . لهذا ترتفع اصوات الصهاينة واصدقائهم بالطلب من اجل رفع الكمية الى اربعة بلايين برميل على ان يتم تخزين هذه الكمية في اسرع وقت ممكن ومن مصادر غير عربية . فالاساتذة بانديك وادلمان من الـ MIT صرحوا مرارا وتكرارا ان لا وقاية لاميركا من انقطاع البترول العربي قبل استكمال مخزون يكفي حاجة اميركا لسنة[١٥] .

ثانيا : اعتماد سياسة زيادة الانتاج النفطي في اي مكان

تتمتع هذه السياسة المقترحة بتأييد عدد كبير من اعضاء الكونغرس الاميركي . يقول وليم لاين جونيوز .WILLIAM LANE .JR الذي عمل كمستشار للسناتور فرانك تشورش المعروف بميله الصهيوني ، ان هناك ضعفي عدد الابار البترولية الموجودة في اميركا الجنوبية في مقاطعة

كانساس وحدها ، وهناك ثلاثة اضعاف عدد الابار الموجودة في كل افريقيا في ولاية اركنساس. لهذا يطالب لجنة مجلس الشيوخ المختصة بالسياسة الاقتصادية الخارجية تعميم انتاج البترول في كل انحاء العالم لتفتيت تجمع الانتاج في دول الاوبيك .

اما السناتور دانيال موينـاهـان (الصهيوني الكبير) فقد قدم عدة تشريعات مقترحة امام مجلس الشيوخ الاميركي تطالب الحكومة بوضع جميع امكاناتها الخاصة والغير مباشرة مثل البنك الدولي لتوسيع مصادر انتاج النفط . كما ان احد مشاريعه القانونية المقترحة لمجلس الشيوخ تقترح تحديد نسب الاستيراد النفطي من كل دولة(١٦) . اما خلاصة المشاريع القانونية المقترحة امام مجلس الشيوخ بهذا الصدد فهي :

(أ) رفض حسم الضرائب التي تدفع للدول المصدرة للنفط من قبل الشركات الاميركية من الضرائب المتوجبة على هذه الشركة للحكومة الاميركية .
(ب) توسيع صلاحيات بنك التصدير والاستيراد الاميركي ليقدم المعونات المالية لأية دولة خارج الاوبيك تعتزم زيادة انتاجها النفطي .
(ج) وضع كوتا على استيراد البترول واستثناء واعفاء كندا ومكسيكو منها لتشجيع بناء سوق طاقة حر بين الولايات المتحدة وهاتين الدولتين الاميركيتين .

ثالثا : بناء سوق لعقود الكوتا للاستيراد

لا يزال موريس ادلمان ، وراء محاولات ترويض الاوبيك وشقها . اما آخر اقتراحاته الشيطانية حول هذا الموضوع فتتعلق بانشاء سوق لحقوق الاستيراد تحت اشراف الحكومة الفدرالية . تباع اوراق او صكوك الكوتا بسرية لكل من يريد الاستيراد ولا يحق الاستيراد الا بشراء الصكوك . وتفتح المزايدة على هذه الاوراق وتباع لدافع السعر الاكبر . ينتج عن هذا بنظر ادلمان سباق وتنازع بين اعضاء الاوبيك للحصول على حقوق البيع في السوق الاميركية . ان التنازع هذا يؤول الى زيادة في اسعار الصكوك مما يشكل انخفاضا في سعر البترول المستورد ونزاع حاد بين اعضاء الاوبيك قد يؤدي الى الانشقاق(١٧) .

رابعا : وضع خطة طوارىء في حال انقطاع النفط عن اميركا

صاحب هذا الاقتراح آرثر رايت من جامعة ماســاشوستس . اما تفاصيل الاقتراح فتقضي برفع اسعار النفط داخليا بشكل كبير لوقت محدد وفرض ضريبة دخل استثنائية على شركات البترول . من شأن ارتفاع السعر ان يؤول الى تحقيق التوازن بين العرض والطلب مهما قل العرض .

خامسا : اخضاع التصدير لدول الاوبيك الى رخص مسبقة

يطالب بعض اعضاء الكونغرس الاميركي الحكومة استعمال صلاحيتها القانونية بفرض رخص تصدير للدول غير الحليفة . وبما ان الاوبيك بنظر هؤلاء عدوه للمصالح الاميركية الاستراتيجية ، فعلى الحكومة الاميركية منع تصدير البضائع الاميركية الى هذه الدول دون موافقة الحكومة . اما الموافقة فتأتي بعد تأكد الحكومة الاميركية من ضمانة سياستها

ومصالحها على تلك الدول . كما ان اخضاع التصدير لاجازات مسبقة من شأنه اضعاف اصحاب المصالح مع العرب من التأثير على الحكومة والراي العام الاميركي . احد كبار مؤيدي هذا الاقتراح هو رئيس مجلس ادارة البنك المركزي الاميركي الصهيوني آرثر بيونز(١٨) .

في ندوة عقدتها مجلة التايم TIME ونشرت في ٢٢ نيسان ١٩٧٩ (VOL. 113, No. 117) يلخص موريس ادلمان مواقف الصهاينة والمتصهينين من الطاقة والعرب بقوله « لا جدوى من التحدث عن تمزيق الاوبيك ، اذ اذا غابت اليوم فستعود الى الوجود غدا . ولكن بامكان الولايات المتحدة ان تستخدم قوتها الشرائية ، الكبيرة في تحجيم قوى الاوبيك لرفع الاسعار . الهدف يجب ان يكون تحويل المال من الاوبيك الى صناديق خزينة اميركا . اما رد الاوبيك الفعلي الوحيد فسيكون قطع النفط عنا . فاذا فعلوا ذلك بامكاننا مصادرة اموالهم الموظفة هنا وارسال بعض بوارجنا لحظر وصول المواد الغذائية اليهم . فاذا قطعوا عنا النفط قطعنا عنهم الطعام . واذا تطورت المشادة وصعدت فهذا من مصلحتنا لاننا سنربح التصعيد » .

بات من البديهي ان الولايات المتحدة حاولت تحطيم الاوبيك فعجزت ولكنها عند عجزها عن ذلك بدأت محاولات الترويض والتحجيم وخاصة الاستفادة من التناقضات بين دول الاوبيك ومن فقدان الامن الغذائي ومن تراكم التوظيفات النقدية في الولايات المتحدة . ولتسهيل عملية الترويض يبدو ان السلطة الاميركية تسكت وتغض الطرف عن الحملة الاعلامية العلنية المحرضة على العرب والاوبيك . كما ان اميركا سارعت الى تقوية الانظمة العسكرية العميلة للتهويل بها على عرب الاوبيك ـ فالولايات المتحدة تتباهي بقيمة المساعدات العسكرية والاقتصادية التي تقدمها لاسرائيل مقابل هذا الدور التي وظفته لها. كما انها تعمل بسرية على دعم وتسكين الانتفاضات الشعبية حول نظام جنوب افريقيا العنصري . وها هي الحكومة الاميركية تدعم نظام السادات الذي تعتبره السلطات الاميركية النظام العميل البديل لنظام الشاه الذي قوض . فمعاهدة الاستسلام لا يمكن فهمها الا من خلال الدور الذي ترتأيه السياسة الاميركية لنظام السادات وللكيان الصهيوني المرتهن لضمان خطوط النفط ومصادر الطاقة .

الخلاصة

لا يمكن فهم خفايا سياسة الطاقة الاميركية ، الا من خلال دراستها ضمن الاهداف السياسية والاستراتيجية للسياسة الخارجية للحكومة الاميركية . فالعجز عن حل منظمة الاوبيك ، دفع السلطات الاميركية الى محاولة ترويضها وجعل تحكمها بها سلاحا تواجه به اوروبا واليابان وكأنها قادرة وحدها على التصرف بالاوبيك حيثما وكيفما تشاء . وتستعمل الولايات المتحدة في عملية الترويض هذه جميع انواع الترهيب والترغيب مهددة باحتلال ابار النفط وبقطع المواد الغذائية ، مهددة وبكونها تعتمد بشكل واضح على الكيان الصهيوني كبعبع عسكري تروض به الخليج والصحراء العربية من جهة والدول العربية التقدمية من جهة اخرى . وها هي تلوح بنظام السادات حليفا للكيان الصهيوني وعدوا للمصالح العربية والقضية القومية .

ان المصلحة المشتركة لدول الاوبيك تتطلب سياسة عقلانية واضحة لترجمة الانتاج النفطي

والعائدات النفطية الى تطور اقتصادي ونمو صناعي وزراعي ، وخاصة نمو في المواد الغذائية وسبل توزيعها على الدول الاعضاء لتأمين الامن الغذائي المستقل . كما يتطلب من الدول الاعضاء في الاوبيك ان توزع ثروتها وتوظيفاتها النقدية على اكبر عدد من الدول للحيلولة دون تجميع هذه الثروة النقدية في ايدي الدول التي بامكانها مصادرتها وتحديد وتقليص حرية تصرف الاوبيك في الانتاج والاستثمار . كما يتوجب على الاوبيك ان تناهض الحملة الاعلامية الصهيونية في العالم الغربي بذكاء وجدية وكفاءة .

واخيرا وبعيدا عن التشاؤم فباستطاعة اكثرية دول الاوبيك الاستمرار دون عائداتهم النفطية لاشهر وسنين ، اما العالم الغربي فليس باستطاعته الحياة لايام بدون نفطنا .

الحواشي

(1) See the interesting paper by David M. Winch, «The Political Economy of Canadian Oil Policy», Unpublished, 1974.

(2) D.M. Winch, *Ibid*, *p.* 25.

(3) Walter J. Levy, «The Years that the Locust Hath Eaten: Oil Policy and OPEC Development Prospects», *Foreign Affairs*, Vol. 57, No. 2, (Winter, 1978-79), *p.* 287.

(4) The above figures would represent an increase in oil consumption of 2.5% per annum between 1977 and 1985 - versus a rate of 7.5% between 1965 and 1973. This is predicted on an OECD economic growth rate of 3.6% per year from 1977 to 1985 - versus a 4.7% from 1965 to 1973. See Levy. *Ibid, p.* 289.

(5) Levy, *Ibid, p.* 289, R.S. Pindyck. OPEC oil Prices and the Western Economies», Massachusetts Institute of Technology, *Energy Laboratory Working* Paper, MIT-EL 78-001 WP, January, 1978 and IEA. World Energy Outlook (OECD, Paris, 1977).

(6) *Ibid.*

(7) *Ibid, p.* 291.

(8) The main instruments for holding U.S. energy prices below world prices have been price controls on natural gas and the price controls - entitlements programme for crude oil. See R. E. Hall and R. S. Pindyck, «The Conflicting Goals of National Energy Policy», *The Public Interest*, No. 47, (Spring, 1977) *p.p.* 3-15.

(9) R. E. Hall and R. S. Pindyck. *Ibid. p.* 475.

(10) *Ibid. p.* 6.

(11) *Ibid*.

(12) See james R. Quirk, *Intermediate Microeconomics*, Chicago, Scientific Research Associates, 1976.

(13) Craig S.Karpel. «Ten Ways to Break OPEC», Harper's (January, 1979), *p.* 73.

(14) See I.E.A., *World Energy Outlook* (OECD, Paris, 1977).

(15) Karpel, *Op. Cit.*, p. 72.

(16) Karpel, *Ibid.*, p. 71.

(17) R. E. Hall and R. S. Pindyck, *Ibid* and Karpel, *Ibid.*

(18) *In Business Week*, August 28, 1978.

نصير عاروري

الإنفراج والشرق الأوسط

سيدرس هذا البحث طبيعة وجوهر الانفراج في اطار العلاقة بين القوتين العظميين ، والعلاقة بينهما وبين الصين ، وتفاعلها مع اطراف النزاع المختلفة في الشرق الاوسط . وسنحاول القاء بعض الضوء على طبيعة التركيب الدولي الحالي ونحدد اثره على الشرق الاوسط .

عندما تسلم نيكسون وكيسنجر السلطة في مجال العلاقات الخارجية الامريركية ، كانت العلاقات بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي قد مرت بتغير جديد آخر . فقد تطورت من حالة تعايش سلبي ، كان قد حل محل سياسة المواجهة في الخمسينات ، الى سياسة قائمة على بحث إيجابي عن التكيف ومناطق الاتفاق ، وهي سياسة بدأت تنمو متحولة الى نمط من المواقف السياسية التي تدعى الانفراج .

لقد أخذت الحرب الباردة مداها ، وكرست كلتا القوتين الكبيرتين قسما كبيرا من مواردها وطاقاتها لنزاعات في زوايا بعيدة من الكرة الارضية . فقد كان للولايات المتحدة في عهد هاري ترومان وجون فوستر دالاس نظرة مانوية الى العالم ، حيث تنفصل قوى النور عن قوى الظلام ، بشكل واضح . وكانت تنظر الى الشيوعية كفلسفة شريرة لا يجوز تقديم اي تنازل لها . بل ان الحياد وعدم الانحياز كانا أمرين لا أخلاقيين في نظر جون فوستر دالاس . لقد شنت امريكا بعد الحرب العالمية الثانية حملة صليبية ضد الشيوعية والاتحاد السوفياتي دون أي تمييز بين العقيدة والدولة . وكان مبدأ ترومان أول اعلان عن هذه الحملة ، تلته مبادىء أخرى ، صيغت بعبارات مثالية تمثل محاولة سيئة للتستر على الطبيعة الامبريالية لسياسة الاحتواء .

وكثيرا ما تميز الروايات الصحفية بين الرؤساء الذين يتبعون اسلوبا اخلاقيا قانونيا في العلاقات الخارجية ، واولئك الذين يميلون نحو السياسة الواقعية . فقد قورن جيمي كارتر مثلا بتوماس جيفرسون ، باعتباره رئيسا شعبيا ونظيفا ، ويؤمن بالمساواة ، في حين قورن نيكسون وكيسنجر بمترنيخ وبسمارك . لكن الدلائل المتوفرة لا تظهر كبير اختلاف بين اسلوب

كارتر في العلاقات الدولية ، واسلوب نيكسون وكيسنجر . لقد تجاهل الليبراليون الامريكيون الذين توقعوا تغييرات كبرى في السياسات الداخلية والخارجية ، خلال فترة رئاسة كار ، حقيقة ان زعامة امريكا السياسية خلال المئتي سنة الماضية كانت زعامة محافظة بصورة أساسية ، بمعنى انها تقبلت الاجماع الأساسي الكامن خلف النظام السياسي والاقتصادي الامريكي،فلم تجر اية اعادة نظر جذرية في النظام الامريكي ، طوال تاريخه ، في القرنين الماضيين . وكانت التغيرات بطيئة ومتراكمة وتطورية . وهذا ينطبق على هاملتون وجفرسون وجاكسون ، تماما كما ينطبق على فرانكلين روزفلت ، وجميع من خلفوه بما فيهم كارتر . وربما اختلفت النخبة الامريكية فيما يتعلق بالوسائل ، لكنها لم تختلف اطلاقا حول اهداف العمل السياسي .

ويبدو ان الصحفيين الذين قارنوا كارتر بجفرسون تجاهلوا حقيقة ان سياسة جفرسون الشعبية ، في السياسة الخارجية ، تعكس ذلك النوع من الامبريالية الذي يجسد مفاهيم من نوع « الشعب المختار » . لقد كان يتنبأ لأمريكا عام ١٨٠١ ان تشمل نصف الكرة الارضية الغربي بأسره ، باعتبار أن « الشعب الامريكي كان شعبا مختارا ... يتمتع بموهبة من الحكمة والقوة المتميزين » . ان النظريات عن « نظام عالمي » جديد ، يمثل « هيكل سلام » وسياسة خارجية قائمة على حقوق الانسان ليست بالأمر الجديد . ان وردو ويلسون ، المشهور بمثاليته ومبادئه الرفيعة ، والذي دعا الى نظام عالمي جديد خال من المعاهدات السرية ، والتعويضات العقابية، واضطهاد الأقليات ، أظهر الدوافع الامبريالية نفسها التي تميزت بها سياسة الولايات المتحدة الخارجية . لقد قادته حماسته السيانية برسالته الى أن يدلي بهذا التعليق على الحرب الاسبانية الامريكية : « لقدايقظتنــا على حقيقة علاقتنا بباقي البشرية » ، وأن « واجبنا الخاص » هو تعليم الشعوب المستعمرة (بفتح الميم) « النظام وضبط النفس » وأن « ننقل اليها ، اذا امكن ، خبرة القانون والطاعة والاعتياد عليهما، وهو ما تعلمناه منذ زمن بعيد من التاريخ الانجليزي » .

ان انعزالية أمريكا في القرن التاسع عشر كانت في حقيتها مجرد اسطورة ، والفرق الوحيد بين موقف الولايات المتحدة،قبل وبعد الحرب العالمية الثانية،هو استمرار التدخل الامريكي، الذي بدأ خلال العقود الثلاثة السابقة،وأصبح يعتبر خطوة لا رجوع عنها نظرا لقدرات بريطانيا وفرنسا الكسيحة العاجزة عن الحفاظ على السيطرة الغربية على الامبراطوريات . ولم يعد باستطاعة امريكا ان تحتفظ بكعكتها ، وأن تأكلها في آن واحد ، اذ ازداد ت صعوبة الاعتماد على البحرية البريطانية ، التي تحولت الى قوة من الدرجة الثانية . فالصعود الامريكي على الساحة الدولية في اعقاب الحرب العالمية الاولى كان تجربة مؤلمة ، ومصدر احباط رهيب لشعب طالما اعتاد الاعتقاد بأن بلاده مخلصة للمسحوقين ، وملتزمة بمساعدة المضطهدين . ان تزايد القوة الامريكية بحجة الحفاظ على الوضع القائم ، والذي اعتبرها ثلثا سكان العالم ، على الاقل ، تزايدا غير عادل ، فسر على أنه جزء ضروري من سياسة احتواء الشيوعية . وكانت الزعامة الامريكية قادرة على توحيد اليمين واليسار السياسي ، عن طريق الحفاظ على الخوف من الشيوعية ، ودعم حماسة من النوع المسياني ، وذلك عبر رغبتها في نشر « التمدن » وبناء « الديمقراطيات » . لكن الاجماع الذي قامت عليه تلك السياسة بدأ يظهر علامات توتر

وضغوطا تحت تأثير كارثة فيتنام . وتحت تأثير خيبة الامل من نتائج تلك السياسة ، أصبح من الضروري اعادة تقييم السياسة في مطلع السبعينات ، وهو أمر تبين أنه ليس أكثر من مجرد جراحة تجميلية أجريت لسياسات عفى عليها الزمن ، ولم تعد تمت الى الحاضر بصلة .

ونما الانفراج مع الاتحاد السوفياتي في هذه الظروف . وبالنسبة للولايات المتحدة كانت هذه السياسة تهدف الى وقف التدهور المتزايد في ثقة العالم بها ، وبصلاحيتها كشرطي للعالم . فقد كانت تكاليف الامبراطورية المعنوية والمادية أكثر مما يستطيع الشعب الامريكي تحمله . اما بالنسبة للاتحاد السوفياتي ، فكان الانفراج هو الاستمرار المنطقي لسياسة التعايش السلمي التي نتجت عن المؤتمر العشرين للحزب الشيوعي عام ١٩٥٦ . والتي كانت تهدف ، أيضا ، الى تخفيف ضغوط تعدد المراكز داخل الكتلة الشيوعية .

معنى الانفراج : أصبح الانفراج يعني امورا كثيرة لشعوب كثيرة . وبالرغم من غموضه ، الا انه اطار لتخفيف التوتر بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اساسا . وهو يرتكز على أمل خلق مجموعة مصالح بين القوتين العظميين ، قائمة على حاجتهما المشتركة لتحاشي كارثة نووية . وفي نشرة بعنوان **معنى الانفراج** ، ص ٨٧٦٦ (حزيران/يونيو ١٩٧٤) ، قالت وزارة الخارجية الامريكية ان « الانفراج » يشتمل على وفاق » ، وان النزاعات بين القوتين العظميين ستظل تتكرر رغم الانفراج .

وكانت استراتيجية نيكسون الاساسية هي التفاوض مع الاتحاد السوفياتي على سلسلة واسعة من المشاكل المترابطة فيما بينهما ، بدلا من التركيز على مشاكل محددة مثل الحد من التسلح . وكان الحد من التسلح يعتبر قضية سياسية أكثر منها تكنيكية ، وبالتالي تعتبر جزءا من مجموعة المشاكل السياسية . والجديد في هذا الاسلوب هو اختلافه عن سياسة جونسون ، وحتى سياسة ويليام روجرز ، حيث كانت كل قضية تعالج بمعزل عن الأخرى . وأصبح اسلوب كيسنجر يسمى مبدأ « الربط » ، وهي سياسة مقايضة دبلوماسية كانت الولايات المتحدة تأمل بواسطتها أن تكسب تعاون السوفيات في الهند الصينية ، والشرق الاوسط ، مقابل تنازلات امريكية في مجال التجارة ، والحد من التسلح . وقد امتعض الاتحاد السوفياتي من فكرة الربط ، واعتبرها شكلا من اشكال الابتزاز الدبلوماسي . ولكن مسألة تجاوب السوفيات مع برنامج كيسنجر ، تبقى مسألة تحتاج الى توضيح .

وكانت الناحية الاخرى من الانفراج ، في نظر نيكسون وكيسنجر ، هي القدرة المحتملة على خلق نظام عالمي متوازن ، او ما اسماه كيسنجر « هيكل السلام » ، عبر نوع من الشراكة بين القوى الكبرى ، قائمة على مبادىء مترنيخ التسعة عشر حول الشرعية والتوازن . وكان الانفراج معلنا على أساس ان الولايات المتحدة ستمنح الاتحاد السوفياتي سندا من الاستقرار الذي يساعد على تحويله من قوة ثورية مصممة على تبني الثورة العالمية الى دولة « شرعية » . وبهذا الصدد كان الانفراج خطوة تهدف الى المساعدة على انقاذ الامبراطورية الامريكية ، واحد اشكال التعاون التي يكافأ فيها الاتحاد السوفياتي في اماكن معينة لقاء خدمات قدمها الى شرطي عالمي ، اتسعت نشاطاته كثيرا . وبالتالي يجب تعديل أهداف القوى الكبرى بما يتلاءم مع ضرورات نظام عالمي متزن ولو فشلت الولايات المتحدة في تحقيق هدفها ، وهو وقف التحول

الاجتماعي والثورة العالمية بواسطة تكتيكات الحرب الباردة ، والمواجهة ، لحاولت عندها استبدال القوة بالدبلوماسية والتكيف ، اي الانفراج . ان نجاح هذا الاسلوب ، او فشله ، كان يعتمد على رغبة الاتحاد السوفياتي في دخول لعبة الربط .

وسنتفحص ظاهرة الربط هذه في مكان آخر في الدراسة ، بعد ان ندرس « نظام العالم الجديد » الذي دعا اليه كيسنجر ، والذي يجسد اسلوب امريكا في التعامل مع الاتحاد السوفياتي ، والتغير الاجتماعي في العالم. والهدف المطلوب التوصل اليه من هذه الدراسة هو ان كيسنجر استخدم الانفراج ليعطي امبراطورية في طور الانحلال جرعة جديدة من الحياة .

نظـام كيسنجر العالمي الجديد

منذ اعتناق مبدأ ترومان ، لم يطرأ تغير يذكر على مبدأ الولايات المتحدة الاستراتيجي ، الذي يشكل أساس كل مجرى الحرب الباردة ، والقائم على رؤيا مضخمة عمدا لنوايا السوفيات « العدوانية » . وتنطبق رؤيا كيسنجر بخصوص العالم مع هذا المبدأ ، وهو مأخوذ من أول كتاباته المنشورة في الخمسينات . وكانت النتيجة هي استمرارية وثبات في السياسة الخارجية الامريكية منذ الحرب العالمية الثانية . لقد صاغ كيسنجر اصطلاحات جديدة مثل « هيكل السلام » ، و « نظام عالمي جديد » ، و « عالم خماسي » ، لوصف مبدئه ، القائم أساسا على نفس الافتراضات التي بنيت عليها سياسة الاحتواء . وقد وضعت هذه السياسة اقتراحا يقول ان هناك نظاما عالميا شرعيا مكونا من القوى الكبرى وحلفائها ، بزعامة الولايات المتحدة ، والاعتقاد بأن القوى الشيوعية الثورية ، ودول العالم الثالث ، مصممة على تحدي النظام القائم . ويشكل هذا الافتراض أساس مشروع مارشال الذي تبناه ترومـان ، والناتو ، ومبدأ ترومان . ويشكل بالنسبة لايزنهاور « الرد الجماعي »، السياتو ، حلف بغداد ومبدأ ايزنهاور ، وبالنسبة لكيندي « الرد المرن » مع فروعه المكونة من « الحرب النووية المحددة » والتمرد المضاد ، وبالنسبة لجونسون « نظرية الدومينو » ، ومبدأ جونســون بخصوص نصف الكرة الغربي .

وفي حين بقي جوهر السياسة هو نفسه ، منذ عهد ترومان مرورا بنيكسون وحتى كارتر ، تمكن رؤية تغييرات في الاسلوب ، ذات طبيعة تجميلية في سياسة كيسنجر وخلفائه ، فرضتها التطورات الجديدة في البيئة الدولية ، بما في ذلك الخلاف الصيني ــ السوفياتي . ان النزاع الايديولوجي بين العملاقين الشيوعيين جعل من الممكن للولايات المتحدة أن تخلص نفسها من تحالفات متشابكة ، ومن دور الشرطي العالمي المكلف بحراسة الوضع القائم « المقدس » . وبدلا من أن تتصرف بمفردها لوقف مد التغيرات الثورية في العالم ، بدأت الولايات المتحدة في عهد كيسنجر بتحريك النزاع السوفياتي ــ الصيني ، في محاولة لمنع أي منهما من الوصول الى السيادة وتحدي اطار النظام العالمي ، اي التصرف بطريقة ثورية . ان الاستقرار الذي نتج عن ذلك ، أي غياب الحرب ، الأمر الذي يعادل السلام بالنسبة لكيسنجر هو بالنسبة له ليس وصفاً يمكن تحقيقه بواسطة جهود الدبلوماسيين الحكماء ، او رجال الدولة الطيبي النوايا بل هو نتاج مبادىء موضوعية معينة يجب أن توجد في البيئة الدولية . ان كيسنجر يذكرنا ، في كتابه « **عالم مستعاد** » بأن الاستقرار ليس نتاج السعي نحو السلام ، بل يأتي من « شرعية

مقبولة » ، أي قبول اطار النظام العالمي من قبل القوى الكبرى في العالم ، التي يوجد منها خمس في السبعينات ، بما فيها اليابان واوروبا الغربية .

ويعتبر كيسنجر ان هذا النوع من الشرعية شرط ضروري لتحقيق السلام . ورغم انه لا يستبعد النزاعات تماما ، الا ان له قدرة على تحديد مجال هذه النزاعات . ولن يتم منع الحرب المحدودة أبدا ، بل ستعتبر وسيلة تساهم في تحقيق « سلام أكثر كمالا » . ان هذه الحروب تقام باسم الهيكل القائم وترتكز على افتراض ان السلام الذي سيتبعها سيكون تعبيرا أسمى بكثير عن الاجماع الشرعي العام .

وباصطلاحات عملية ، يعني هذا أن أطار النظام العام ، او الاستقرار العالمي ، الذي كان سابقا مسؤولية الولايات المتحدة بمفردها ، بفضل حلولها محل القوى الاستعمارية السابقة ، أصبح بفضل النزاع السوفياتي ـ الصيني ، وقدرة كيسنجر على استغلاله ، مسؤولية القوى الكبرى التي تعمل أحيانا بشكل متفق كليا او جزئيا ، من أجل فرض ارادتها على المتقاتلين الاقل شأنا ، الذين يتحدون النظام القائم . وكم كان ذلك مصدر فرج لقوة كبرى كانت منذ عهد ترومان مضطرة الى تقديم الرجال والمال والاسلحة ، بمفردها ، في حملة صليبية ضد الثورة الاجتماعية .

وكان السلام الذي أتى اثر حرب الهند الصينية اكثر توافقا مع الحقائق الجديدة من ميزان القوى في جنوب شرق آسيا . لقد كانت الولايات المتحدة التي فشلت في تحقيق نصر عسكري على فيتنام الشمالية تبحث عن مخرج ، يحفظ الكرامة ، من المأزق الذي بدأ يهدد التركيبة الاجتماعية في المجتمع الامريكي ، ويقلل من استقراره . وأصبح المخرج أسهل جزئيا ، لان الصين فهمت ضرورات اطار النظام العالمي والتوازن في الكرة الارضية .

ان التوازن الكامن في اساس نظرية كيسنجر عن العلاقات الدولية خادع أكثر بكثير من نظرية سلفه ، ومصدر الهامه الذي ساد في مرحلة ما بعد نابليون ، والذي تميزت به علاقات الدول الكبرى خلال القرن التاسع عشر . ففي حين كانت البديهية السياسية لدى مترنيخ هي « تطبيق مبدأ التضامن والتوازن ... والجهود الموحدة لمجموعة الدول ضد سيادة قوة واحدة » ،كان توازن كيسنجر يرتكز على سيادة القوة الامريكية . وكان عالمه الخماسي يتكون من قوى عالمية وأخرى محلية . فأما القوى العالمية فلم تكن سوى الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . ان اليابان واوروبا الغربية لم تشتركا في التسوية في الهند الصينية ، ولم يكن لليابان والصين علاقة بمؤتمر هلسنكي للتسوية الاوروبية ، تماما كما ان الصين لا تلعب اي دور في افريقيا ، او الشرق الاوسط ، او امريكا الجنوبية . ولكن ، حتى عند تحقيق « رسالة » كونية ، تستمر الولايات المتحدة في التمسك بوجهة نظرها القائلة ان القوة العسكرية هي اللغة الوحيدة التي يفهمها السوفيات ، وبذلك تصل سياسة الاحتواء الى مرتبة رسالة أخلاقية للقضاء على الهرطقة السياسية ، التي يجب على امريكا ان تظهر عزمها على القضاء عليها خوفا من اختلال الاستقرار في العالم ، وتعريضه للخطر .

ولو قبلنا هذه الفرضية الأساسية لوصلنا الى نتيجة مفادها ان امريكا لم تتعلم من أخطائها السابقة . فالهوس بالاستقرار ، والخوف من الثورة الاجتماعية ، قد استمرا في

اقلاق راحة زعامة أمريكا . وربما ساعد الانفراج على تغطية موقف مواجهة ، لكنه لم يتطور اطلاقا الى شراكة في البحث عن نظام عالمي متزن . ان تصريح كيسنجر في نيسان (ابريل) ١٩٧٤ ، يعطي فكرة مركزية عن الانفراج :

«ان الانفراج بالنسبة لنا هو عملية ادارة العلاقات مع دولة ذات قابلية عدوانية من أجل الحفاظ على السلام ، مع المحافظة على مصالحنا الحيوية في آن » .

ضرورات التكيف

رغم أن الانفراج لم يتطور اطلاقا ليصبح جهدا مشتركا صالحا لتحقيق الاستقرار ، الا انه جاء ردا على حاجات ملحة لدى القوى الكبرى . وكانت الفكرة السائدة عن الانفراج في الدوائر الاكاديمية الامريكية هي ان الحاجة السوفياتية الى التكنولوجيا والقمح والاموال الامريكية قد فرضتها . كما عجل في حدوثها الصراع الصيني السوفياتي ، والتقارب الصيني الامريكي هو نتيجة لذلك . كما كان نمو القومية في اوروبا الشرقية يقدم كسبب ثالث دفع الى تحريك السياسة السوفياتية الخارجية باتجاه الانفراج مع الولايات المتحدة . وأدرك الاكاديميون أنفسهم حاجة الولايات المتحدة الى المساعدة السوفياتية في الهند الصينية والشرق الاوسط . وبالتالي فان العلاقة غير متماثلة ، ويبدو فيها الاتحاد السوفياتي اكثر تلهفا على التكيف . ان هذا تحليل فعال في التبسيط ، يتجاهل ازمة الامبريالية ، وأهمية التغير الاجتماعي .

صحيح ان النزاع الصيني ــ السوفياتي ، والتجارة ، والتكنولوجيا ، لعبت دورا بارزا في تطوير الانفراج من المنظور السوفياتي ، الا ان لدى الولايات المتحدة أسبابا أكثر الحاحا تدفعها الى البحث عن التكيف مع الاتحاد السوفياتي . فمنذ نهاية الحرب العالمية الثانية كانت الولايات المتحدة مسيطرة على الهيكل الاقتصادي الاعلى : القدرة على الانتاج والاستغلال والتوزيع ، وعلى القدرة الاستراتيجية على فرض ارادتها ، سواء داخل الحدود الدولية او عبرها ــ تدريب الشرطة ، والاسلحة ، تكنيك المراقبة وتكنولوجية الاسلحة ، وادارة الثقافة ، أي نشر المعلومات والافكار بواسطة وسائل الاعلام المتعددة . كما كانت الولايات المتحدة ايضا مصرفا مركزيا وشرطيا دوليا .

وبوجود كل هذه القوى بتصرفها ، لعبت الولايات المتحدة دور الحارس على المصالح الغربية في جميع انحاء العالم ، وبقيت قوتها دون أن تجد من ينافسها . لقد ردت بعنف على تأميم الموارد التي كانت الشركات الغربية تستغلها ، ونظمت وكالة الاستخبارات المركزية انقلابات ضد من يحتمل ان يشكلوا تحديا للسيادة الامريكية . وكانت الولايات المتحدة تستطيع ان تفرض النظام على حلفائها وزبائنها ، بأن تهدد بقطع الاسلحة ، او المال ، او السلع الصناعية . وكان على العالم الغربي ابقاء الاحزاب الشيوعية خارج السلطة ، والامتناع عن اقامة علاقات طبيعية مع جمهورية الصين الشعبية ، والتقيد بالحظر الامريكي على بيع السلع الى كوبا ، كما كان على العالم الثالث ان يمتنع عن تأميم ممتلكات الشركات الكبرى متعددة الجنسيات او الممتلكات التي تديرها هذه الشركات .

ووصلت الامبراطورية اعلى قمة في وسط الستينات ، لكنها بدأت تظهر دلائل ضعف تحت

تأثير تعدد المراكز . لقد اختارت الشعوب الجديدة في افريقيا وأسيا ، التي بدأت تسيطر على الجمعية العمومية في الامم المتحدة ، طريق عدم الانحياز . وهو موقف رحب به الاتحاد السوفياتي باعتباره حركة في اتجاه الابتعاد عن الامبراطورية الغربية . وتحدت فرنسا الديغولية ، السيادة الامريكية في حلف شمال الاطلسي ، كما تحدت المقاييس الامريكية في التعامل مع العالم الشيوعي . لكن الحادثة المنفردة الأكثر اهمية التي ساهمت في تدهور السيادة الامريكية كانت نزاع فيتنام . ان الشقوق في أساسات الامبراطورية الامريكية كانت ظاهرة منذ شعر ليندون جونسون انه مضطر للتخلي عن البيت الابيض .

وعندما تسلم ريتشارد نيكسون الرئاسة كان الدولار الامريكي ، الذي اعتبر وسيلة المبادلات النقدية العالمية ، قد أخذ يتدهور . وعندما تسلم كارتر السلطة كان الحلفاء الاوروبيون قد بدأوا يتفاوضون حول نوع جديد من الاتحاد النقدي ، الأمر الذي يمثل فقدان الثقة في الدولار وتزايد تدهور النفوذ الأمريكي ، وصعود في المقابل لاوروبا الغربية . ولم تعد لأمريكا أسرع نسبة في النمو الاقتصادي ، اذ حلت محلها اوروبا الغربية واليابان . ولم تعد أمريكا قادرة على لعب دور المصرف المركزي وشرطي العالم . ان ارتفاع تكاليف الشرطي العالمي أدى الى نقص في ميزان المدفوعات . وتم تخفيض الدولار الامريكي للمرة الاولى عام ١٩٧١ ، عندما سجل أول نقص في ميزان المدفوعات أيضا ، وتصادف وقوع الامرين مع هزيمة وشيكة في فيتنام . وفي تلك اللحظة بالذات كان السعي وراء الانفراج في أقصى اندفاعه . وكان مبدأ نيكسون ــ كيسنجر الذي يحاول تخفيض العمليات الخارجية الأمريكية يشمل تقليصا للنفقات في الخارج وسحب القوات وفرض قيود على الاستيراد . وكان يدعو ايضا الى اقامة أنواع من الشراكة كما حاول ايجاد البديل الذي يحل مكان أمريكا في ساحة المعركة . ان خطاب نيكسون الشهير في غوام عام ١٩٦٩ يوضح حدود القوة الأمريكية . فلن تعود الولايات المتحدة قادرة او راغبة في تقديم الرجال والمال والسلاح للحفاظ على الوضع القائم في العالم . وتم تذكير الآخرين بأن لديهم مسؤولية عليهم أن يشتركوا بها في هذه المهمة . كما أن الولايات المتحدة لن تستمر في دور شرطي العالم، لأن هذا الدور أدى الى كارثة اقتصادية والاساءة الى معنويات امة يزداد ارتباكها واحساسها بالذنب. لقد قررت الولايات المتحدة ان تلعب دور رئيس الشرطة : بأن تقدم المياه وخراطيم المياه فيه فيما يقدم الآخرون رجال الاطفاء . وكان عليها أن تكتفي بمخرج سليم من فيتنام ، وهو أمر بعيد عن النصر العسكري الذي كان يفكر فيه ماكسويل تيلور ووالت روستو . لقد ادرك كيسنجر ونيكسون اكثر من أي شخص أخر في المؤسسة الأمريكية ان الطريق الى مخرج سليم من الهند الصينية هو الطريق الى موسكو وبكين ، لأنه لن يصبح سهلا الا بالانفراج .

لقد أدت هزيمة الولايات المتحدة في الهند الصينية ، الى فقدان الثقة في « الحماية » الامريكية لدى الوكلاء والاتباع في جميع انحاء العالم ، في الوقت الذي أدى فيه تدهور الدولار الى تقليل قوة الضغط التي كانت الولايات المتحدة تمارسها عبر تقديم المساعدات والقروض . ان ترسانة الاسلحة التي ابقت انظمة غير شعبية في السلطة في امريكا الجنوبية وكوريا الجنوبية وفيتنام الجنوبية وتايلاند واثيوبيا واسبانيا تبين أنها فشلت في الهند الصينية وانغولا وموزمبيق والقرن الافريقي ، ومؤخرا في ايران . لقد اهملت تهديدات كيسنجر الموجهة الى السوفيات في

انغولا تماما مثل تحذيراته الموجهة الى ايطاليا حول احتمال وصول حكومة شيوعية الى السلطة ، كما أهملت تحذيراته لدول الاوبيك بخصوص ارتفاع الاسعار المستمر .

وكتبت ماري كالدور ، صاحبة كتاب **الغرب المتحلل** في افتتاحية في **النيويورك تايمز** (١٩٧٨/١١/٩) « ان امريكا تقف على حافة هاوية بين التكاليف المحلية لقاء كونها قوى كبرى والتكاليف العالمية لقاء عدم كونها كذلك » . لقد انتهت الايام التي كان فيها الدولار الذي ينفق في الخارج على القوات العسكرية يرجع على شكل مشتريات من البضائع الامريكية . ولم تعد هذه البضائع قادرة على منافسة منتجات اوروبا الغربية واليابان . لقد خسرت امريكا سباق الانتاجية : فمن سنة ١٩٦٥ الى ١٩٧٢ هبط الانتاج الصناعي في ساعة عمل من ٢,٥ بالمئة الى اقل من واحد بالمئة . كما اضطرت امريكا الى تحمل أزمات طاقة وغذاء ونقد . وأدت هذه العوامل مشتركة الى ضرورة اعادة تقييم مركز أمريكا في العالم الذي يجعل الانفراج مع الاتحاد السوفياتي والصين خطوة ضرورية وعلاجية . ومع تحول انتشار القوى الى ظاهرة عالمية في منتصف الستينات ، لم تعد الولايات المتحدة قادرة على تحمل عبء الاستمرار في وقف مواردها على فرض منع الثورة الاجتماعية في الوقت الذي كان فيه الاتحاد السوفياتي يجني ثمار التحول الاجتماعي في العالم الثالث دون مقابل تقريبا .

وفيما يتعلق بالاتحاد السوفياتي كان الانفراج تبريرا لمبدأ التعايش السلمي . فمن وجهة نظر عملية فتح المجال أمام التجارة والتكنولوجيا والحد من التسلح اضافة الى احتمال تسوية مشكلة المانيا المزعجة .

العلاقات السوفياتية ـ الامريكية واكتمال الانفراج :

كانت ازمة الصواريخ في كوبا عام ١٩٦٢ نقطة تحول في العلاقات الامريكية السوفياتية . اذ لم يحصل سابقا ان اقترب العالم بهذه الدرجة الى حافة مواجهة نووية . ومع ذلك تم توقيع معاهدة حظر التجارب النووية في موسكو في العام التالي ، وتبع ذلك سلسلة اتفاقات بين القوى الكبرى ، التي شكلت بمجموعها ما يسمى بالانفراج . وعشية الاجتياح السوفياتي لتشيكوسلوفاكيا في مطلع تموز (يوليو) ١٩٦٨ تم توقيع معاهدة منع تزايد الاسلحة النووية ، و في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٦٩ كانت وفود القوتين العظميين تتفاوض في هلسنكي حول ما أصبح يسمى سالت ـ أي مفاوضات الحد من الاسلحة الاستراتيجية . واستمرت هذه المفاوضات طوال حرب الهند الصينية والغزو الامريكي لكمبوديا واختتمت في قمة موسكو يوم ١٩٧٢/٥/٢٦ بين نيكسون وبريجنيف . وكانت خلاصته سالت ١ هي ان القوتين تخلتا عن الدفاع عن أراضيهما وشعبيهما ضد الاسلحة النووية التي يمتلكها الآخر . وعقد اجتماع قمة آخر في واشنطن في حزيران (يونيو) ١٩٧٣ بين نيكسون وبريجنيف ، مباشرة بعد توقيع معاهدة سلام بين ألمانيا الاتحادية والاتحاد السوفياتي وقبل المانيا الديمقراطية والاتحادية في الأمم المتحدة . وعقدت مفاوضات من أجل اتفاقية سالت ٢ بين فورد وبريجنيف في فلاديفوستوك في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٤ ، لكن التقدم في هذا المجال أعاقه حملة ضد الانفراج في الولايات المتحدة تزعمها الاميرال الو زوموالت ووزير الدفاع شليسنجر والسناتور هنري جاكسون وادعى زوموالت في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٥ أن الاتحاد السوفياتي ارتكب « انتهاكات ضخمة » لاتفاقية سالت ١ عام ١٩٧٢ ، بينما

اتهمشليسنجر كيسنجر بانه يعقد اتفاقات مضرة مع الاتحاد السوفياتي للحفاظ على وهم بوجود انفراج زائف . وتزعم جاكسون القوى التي كانت تشكك بالانفراج عموما . وحاول أن يربط بين اتفاقية التجارة التي تقدم للاتحاد السوفياتي مرتبة الدولة المفضلة وبين الهجرة اليهودية . وكان الهجوم صاخبا الى حد ان فورد قرر شطب كلمة انفراج من الكلمات التي استخدمها خلال حملته الرئاسية في آذار (مارس) ١٩٧٦ . وتجاوب جيمي كارتر مع نفس الضغوط المحلية عندما شن حملة حقوق الانسان في الاتحاد السوفياتي . وحذر في جداله العلني مع بريجنيف عام ١٩٧٧ من أن الاصرار السوفياتي على دعم حركات التحرر في العالم الثالث سيحرم الاتحاد السوفياتي من حق الاعتراض على الدعم الخارجي المقدم الى « المنشقين » السوفيات باعتباره تدخلا في الشؤون السوفياتية الداخلية . وهكذا أصبحت حقوق الانسان خاضعة لصفقات بين القوى الكبرى مثلها في ذلك مثل سباق التسلح أو درجة ازالة الاستعمار في افريقيا . لقد كان كارتر ينظر الى شارافسكي وغينز برغ تماما مثل اقليم شابا واثيوبيا ، باعتبارهما جزءا من سياسة الربط ، التي يعتبرها كيسنجر شرطا ضروريا للانفراج .

اختبار الانفراج

قلنا سابقا ان مفهوم كيسنجر للانفراج مع الاتحاد السوفياتي قائم على فكرة ان القوتين العظميين يمكن في النهاية ان تشكلا شراكة ما في سعيهما من اجل نظام عالمي مستقر ، وان الانفراج يعتمد على رغبة الاتحاد السوفياتي في استبدال التصرف « الثوري » بتصرف « شرعي » . وكان استعداد الاتحاد السوفياتي لقبول سياسة الربط هو الذي يحكم على قبوله « شرعية » النظام العالمي . وقد فسر كيسنجر الأمر التالي :

« ما أريد أن أقوم به هو أن أعمل على أن يكون لدينا محادثات حول الاسلحة الاستراتيجية بأسلوب وفي وقت يؤدي ان أمكن الى زيادة التقدم بشأن القضايا السياسية المعلقة **في ذات الوقت** ــ مثلا حول مشكلة الشرق الاوسط ومشاكل معلقة أخرى يمكن فيها أن تخدم الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي عملية السلام اذا عملا سوية » .

هل قبل الاتحاد السوفياتي فعلا الأسس التي طالب بها كيسنجر للانفراج ؟ والى أية درجة تعاون مع الولايات المتحدة في الهند الصينية والشرق الاوسط ؟ وهل تم اختياره ليقوم بدور الشريك الصغير في سيادة مشتركة من القوى الكبرى ؟ يمكن الحصول على اجابات على هذه الاسئلة من دراسة الأمثلة التالية التي وقعت بين ١٩٧٠ والآن :

١ ــ الشرق الاوسط (١٩٧٠ ــ ١٩٧٩) .
٢ ــ النزاع الهندي الباكستاني (١٩٧١) .
٣ ــ حرب الهند الصينية (١٩٦٩ ــ ١٩٧٣) .
٤ ــ انجولا (١٩٧٥) .

وعلينا أن نلحظ ان جميع هذه النزاعات وقعت خارج دوائر نفوذ القوتين العظميين في المناطق التي لا يزال النزاع يدور حولها ، بعكس غرب وشرق اوروبا وأمريكا الجنوبية ، وحيث لم يتم رسم دوائر النفوذ بدقة ولا زالت الحدود بين الشرق والغرب غير محددة بدقة . ان كلا من هذه المنازعات يقدم نمط من العلاقات والتكيف بين القوى الكبرى . ففي الشرق الاوسط

وافريقيا كان النمط يقوم على المواجهة ، وفي شبه القارة الهندية نمط تكيف وفي الهند الصينية خليط من الاثنين .

ففي الشرق الاوسط ، قدمت الولايات المتحدة الى الاتحاد السوفياتي عدة تهديدات وانذارات ادت في النهاية الى تدهور موقعه وصعود في النفوذ الامريكي . فمنذ ١٩٧٠ تلقى الاتحاد السوفياتي تهديدين باجراءات امريكية ملموسة بما فيها التدخل المباشر . وتراجع السوفيات وشاهدوا عودة للقوى المحافظة في المنطقة . فعندما تقدمت الدبابات السورية في الاردن عام ١٩٧٠ حذرت الولايات المتحدة من أنه ما لم تنسحب سوريا ستتحرك القوات الاسرائيلية ضد سوريا وتتوقع دعما امريكيا في حالة تحرك سوفياتي او مصري لمساعدة سوريا . ووضعت عدة وحدات محمولة جوا في الاسطول السادس في حالة تأهب ، كما اجتمعت « مجموعة واشنطن للتحرك الخاص » ، وهو فريق اداري رفيع المستوى لحالات الطوارىء ، بصورة مستمرة لبحث الخيار الموجود أمام الولايات المتحدة . وانتهى النزاع بانتصار القوى الموالية للغرب . وبعد ذلك وصف نيكسون الحادثة بأنها « أخطر تهديد للسلام العالمي منذ قدوم هذه الادارة الى السلطة » . وفسرت فئات « الصقور » في الادارة الامريكية هذه النتيجة على انها تبرير لاسلوبهم في الشرق الاوسط . ففي رسالته عن « اوضاع العالم » في شباط (فباير) ١٩٧٠ ، اعلن نيكسون « ان الولايات المتحدة ستعتبر أية محاولة من قبل الاتحاد السوفياتي لتحقيق سيطرته في الشرق الاوسط مسألة خطرة للغاية » . ويوم ٢٦ حزيران (يونيو) تحدث كيسنجر عن « طرد » الاتحاد السوفياتي من الشرق الاوسط . لكن الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي اشتركا في مفاوضات تهدف الى الوصول الى نوع من التكيف في تلك المنطقة . فاثر محادثات القوى الاربع عقدت مفاوضات ثنائية امريكية سوفياتية في الوقت الذي كانت فيه مصر واسرائيل مشتبكتان في حرب الاستنزاف على طول قناة السويس . ولم تؤد نتائج هذه المحادثات يضاف اليها مشروع روجرز ومهمة يارينغ الى شيء . لقد ألزم نيكسون الولايات المتحدة بأن ١ ـ تعارض أية دعوة صريحة من مجلس الامن الى انسحاب اسرائيلي الى حدود ١٩٦٧/٦/٤ ، ٢ ـ تمتنع عن فرض تسوية ، ٣ ـ تضمن لاسرائيل « احتياطيا » من التفوق العسكري والتكنلوجي على جميع الدول العربية مجتمعة ، وبالتالي لم يعد ثمة مجال للتسوية « المتوازنة » التي تحدث عنها نيكسون .

ومن الناحية الاخرى طبق الاتحاد السوفياتي في الشرق الاوسط الاستراتيجية نفسها التي اتبعها في الهند الصينية ـ تزويد حلفائه بالمعدات العسكرية والتدريب الضروري لتحرير الاراضي المحتلة في حرب دفاعية . لكن الشرق الاوسط يختلف عن الهند الصينية في ان الكثير من الدول العربية مرتبطة بالمصالح الأمريكية ، الأمر الذي يجعل معارضتها لاسرائيل غير مجدية . وكان قبول هذه الدول بمشروع روجرز ووقف اطلاق النار أول اشارة صريحة منذ عام ١٩٦٧ على رغبتها في التنازل بشأن الحقوق الفلسطينية . وهنا ، بعكس فيتنام ، كان ثمة غياب لحركة تحرير وطنية متماسكة ذات اهداف واضحة وأيديولوجية متماسكة . فمنذ البداية كان الصراع العربي مقتصرا على استعادة الأراضي المحتلة واتباع اسلوب دبلوماسي . ويجب ان نذكر ان تاريخ النضال الفيتنامي لا يحتوي على فصول تتعلق بالأمم المتحدة. لقد كان تدخل القوى الكبرى في الهند الصينية تدخلا عسكريا بشكل أساسي . ولم يكن مؤتمر جنيف عام

١٩٧٦ واتفاقية باريس عام ١٩٧٣ سوى مصادقة على الحقائق العسكرية وايجاد صيغة لانقاذ ماء وجه الامبراطوريات المتدهورة .

لكن العرب قبلوا وقف اطلاق نار غير مشروط عام ١٩٦٧ على طول خطوط كانت اسرائيل تعتبرها حدودا طبيعية ، واكتفوا بالكلام تأييدا لنضال من أجل التحرر الوطني يخوضه الشعب الفلسطيني ، وعرضت قضيتها في أروقة لامم المتحدة .

عندما تسلم انور السادات الحكم في مصر كان قد تم تحضير الاتحاد السوفياتي ليكون كبش الفداء . وقد تحرك السادات باتجاه تحقيق الهدف الامريكي الاساسي عندما أمر باخراج الخبراء السوفيات من مصر في تموز (يوليو) ١٩٧٢ . ولم تضطر الولايات المتحدة لدفع الثمن الذي توقعت ان تدفعه مقابل هدية كهذه ـ وهو تسوية سياسية . وكان المبرر الذي قدمه السادات هو أن الاتحاد السوفياتي لم يقدم أسلحة كافية . ان تحرك السادات المفاجىء ضيق على الخيار السوفياتي وبالتالي أصبح الانفراج طريقا ذا اتجاه واحد في الشرق الاوسط . ولم يعد هناك شك كبير منذ ١٩٧٢ بأن الولايات المتحدة هي التي تتولى القيادة في الشرق الاوسط . وطوال تلك الفترة كانت الولايات المتحدة تحاول استغلال النزاع العربي الاسرائيلي لصالحها مع الحفاظ على خيار التسوية النهائية مفتوحا حتى اشعار آخر عندما توجه الدعوة الى الاتحاد السوفياتي للانضمام الى التصديق على الترتيبات ، بعد ان يكون قد تم ارساء الاساس وبناء الجدران .

ولذلك دخلت الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي عهد انفراج في الشرق الاوسط اكتفى فيه الاتحاد السوفياتي بانقاذ استثماره الذي دام عقدين من الزمن. البيان الامريكي السوفياتي المشترك الموقع اثر قمة نيكسون وبريجنيف في موسكو أيار (مايو) ١٩٧٢ يؤكد بأسلوب عرضي دعم القوتين « لتسوية سلمية في الشرق الاوسط تتفق مع قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ » . مما حدا باسرائيل الى التعبير عن رضاها .

ان ظروف حرب تشرين الأول (اكتوبر) ٩٧٣ تكشف خليطا من نمطي المواجهة والتكيف في علاقات القوى الكبرى . وهي تتفق مع الوصف الذي أطلقه اقبال أحمد على الانفراج ـ التعاون المعادي . وقال معارضو الانفراج في الولايات المتحدة ان الاتحاد السوفياتي انتهك روح الانفراج بتشجيعه العرب على شن الحرب في اكتوبر ، بما يتعارض واتفاقية نيكسون ـ بريجنيف في قمة واشنطن ١٩٧٣ التي تنص على اجراء مشاورات عند قيام وضع قد يصبح خطرا . ان هذه الانتقادات الموجهة الى نيكسون وكيسنجر ، يضاف اليها ضغوط ووترغيت . أدت الى حالة تأهب نووي للقوات الامريكية في جميع انحاء العالم . كان أساسا ردا على التحذير السوفياتي باتخاذ « خطوات فردية » لمواجهة عبور اسرائيل قناة السويس . ولكن خلف هذا التصلب كانت القوتان مشتركتين في جهود دبلوماسية لتضخيم اهدافهما الخاصة . فقد قال كيسنجر مؤكدا مبدأ الربط « لو عملنا متعاونين مع الاتحاد السوفياتي ، اولا من أجل اقامة وقف اطلاق نار ، ثم من أجل تسوية دائمة في الشرق الاوسط ، اذن لأثبت الانفراج نفسه » . وبعد ذلك بقليل وافقت القوتان على وقف اطلاق نار ، وعلى مؤتمر جنيف للتوصل الى حل شامل . بل ان الاتحاد السوفياتي نجح في اقناع سوريا بقبول قرار ٣٣٨ اثر تطمينات بأن اسرائيل ستنسحب من جميع الاراضي العربية المحتلة ، وتعترف بحقوق

الشعب الفلسطيني . وتبين أن هذا الوعد باطل عندما قدمت الولايات المتحدة لاسرائيل فيتو حقيقيا حول اشتراك م . ت . ف . في اية اجتماعات تعقد في المستقبل في جنيف ، وعندما استبدل الحل عن طريق مؤتمر جنيف بدبلوماسية كيسنجر المكوكية . وأصبحت هي المحاولة الدبلوماسية الوحيدة في الشرق الاوسط . واختتمت اتفاقات فك الارتباط التي تفاوض عليها كيسنجر على جبهتي السويس والجولان باتفاقات كامب ديفيد والسلام المنفرد بين مصر واسرائيل . وتم تعليق حظر النفط العربي في آذار (مارس) ١٩٧٤ ، ثمنا لفك الارتباط السوري ـ الاسرائيلي ، الذي قوى بحد ذاته من دركز الولايات المتحدة ، بالمقارنة مع الاتحاد السوفياتي ، في الشرق الاوسط . وطالما ان العرب اختاروا حلا دبلوماسيا حتى قبل حرب اكتوبر ، فقد كانت الولايات المتحدة تستطيع أن تقدم لهم ما لا يستطيعه الاتحاد السوفياتي . فالولايات المتحدة فقط تستطيع ان تقدم الاسلحة . وان تضغط على اسرائيل في الوقت نفسه من أجل تنازلات اقليمية . ولكن في النهاية ، اصبحت قدرة الولايات المتحدة و/أو رغبتها في الضغط على اسرائيل . مثار شكوك كبيرة . ولم يترك للاتحاد السوفياتي سوى خيارات قليلة ، بينما راحت مصالح جيمي كارتر ، ومناحيم بيغن ، وأنور السادات ، تتركز على ضرورة وقف التحول الاجتماعي ، وابقاء السوفيات خارج الشرق الاوسط ايضا .

ونختتم هذا بقولنا ان الانفراج في الشرق الاوسط لم يكن يستحق هذا الاسم . وأنه مجرد نسخة مضخمة من التنافس « السلمي » . لقد استفادت منه الولايات المتحدة على المدى القصير ، بسبب طبيعة النزاع والمتنازعين . وبعكس الهند الصينية ، وانغولا ، كانت أطراف النزاع هنا تنظر الى نزاعها من وجهة نظر اقليمية وأمنية ، بدلا من ايديولوجية ـ قومية . ان العامل الغائب في الشرق الاوسط كان الالتزام بحرب تحرير طويلة النفس كطريق وحيد لازالة الاستعمار . فثبات القوى التي أمنت بهذا المبدأ في الهند الصينية ، وانغولا مكنت الاتحاد السوفياتي من تقديم المساعدة الضرورية ، التي ساهمت في النهاية في ظهور نمط تكيف ادى الى ضمان زوال الاستعمار .

فعندما حققت انغولا استقلالها عن البرتغال ، كانت ثلاث قوى تتنافس للسيطرة على البلاد ، أحداها يدعمها الاتحاد السوفياتي وكوبا (ج . ش . ت . ا .) ، في حين تدعم القوتين الاخريين القوى الاوروبية ، التي كانت تأمل في اجراء تعديل طفيف على الوضع القائم ومرة اخرى حاول كيسنجر تطبيق مبدأ الربط ، عندما حذر الاتحاد السوفياتي بأن الكونغرس الامريكي ، الذي كان يتعرض آنذاك لضغوط معادية للانفراج ، سيتردد في منح تنازلات تجارية او التجارب مع سالت ٢ . وكان تحذير كيسنجر قائما بالطبع على افتراض ان ج . ش . ت . ا . مجرد دمية يمكن تحريكها في أي اتجاه ، وأن الاتحاد السوفياتي يستطيع استخدامها كحجر شطرنج في لعبة الدبلوماسية الدولية . لكن صلابة وتصميم ج . ش . ت . ا . هي التي أدت في النهاية الى الاعتراف بها كحكومة رسمية في انغولا .

ولكن ، كانت القوى الكبرى ، في شبه القارة الهندية ، يتكيف كل منها مع اهتمامات القوى الاخرى ، أكثر مما حدث في الشرق الاوسط أو افريقيا . فبرغم كل التحذيرات التي وجهتها واشنطن الى الهند خلال الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١ ، اقتصرت الولايات المتحدة في دعمها على شحنة رمزية من الاسلحة الخفيفة الى باكستان ، عن طريق الاردن ، وصل

ثمنها الى خمسة ملايين دولار ، اضافة الى مرور الغواصة الامريكية انتربرايز في خليج البنغال . لقد امتنعت الولايات المتحدة تماما عن دعم المجهود العسكري الباكستاني بشكل فعال في باكستان الشرقية ، وسكتت على تجزئة باكستان التي كانت ملتزمة بالحفاظ على وحدتها الاقليمية . كما أن الولايات المتحدة لم تقم بأية خطوات ملموسة لاحباط الغزو الهندي ، رغم ان الهند كانت قد عقدت معاهدة عسكرية مع الاتحاد السوفياتي . لقد كانت الولايات المتحدة أكثر رضوخا لما يشبه سيادة مشتركة من القوى الكبرى في شبه القارة الهندية ، وهو موقف حددته بسالة الهند العسكرية ، اضافة الى النزاع الصيني السوفياتي ، وطبيعة القوى السياسية المحلية في الهند وبنغلادش . فبالنسبة للولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ، على حد سواء ، كان حزب المؤتمر الهندي الذي ترأسته انديرا غاندي ، وحزب عوامي الذي يرئسه مجيب الرحمن ، هما أهون الشرين . لقد كان التعايش ممكنا في شبه القارة الهندية ، والاستقرار مرغوبا فيه من جانب القوى الكبرى ، لكن الولايات المتحدة استمرت ، في الشرق الاوسط ، في مناوراتها من أجل تدعيم مفهومها الخاص لما يعنيه الاستقرار ، وأبقت الاتحاد السوفياتي من أجل المصادقة المظهرية فقط .

وفي الهند الصينية طلبت الولايات المتحدة ، التي كانت ترغب بشدة في مخرج كريم ، مساعدة الاتحاد السوفياتي والصين . لقد كان المقصود من زرع الألغام في مياه هايفونج وهانوي في أيار (مايو) ١٩٧٢ ، والقصف الاشباعي في كانون الأول (ديسمبر) ١٩٧٢ ، استعراض تصميم امريكا على ضمان انسحاب آمن . ولم يكن الزعماء السوفيات الذين استضافوا نيكسون في موسكو في ذات الوقت (أيار/مايو ١٩٧٢) ، وعقدوا معه اتفاقية التجارة والسلاح ، غافلين عن المأزق الامريكي . ان دعمهم المستمر للنضال الفيتنامي حرم الولايات المتحدة من الانتصار الذي كان يرغب فيه بعض جنرالاتها . وقررت القوى الكبرى ، التي وجدت نفسها في طريق مسدود ، انهاء الحرب سعيا وراء مصالحها الخاصة .

ولما كان الاتحاد السوفياتي لا يبحث عن السيادة والأولية في الهند الصينية ، وانغولا ، لم يكن التكيف بشكل بالضرورة تنازلا للقوة الاخرى . فبالنسبة للاتحاد السوفياتي كان يكفي أن يحدث تغير كبير ، يتفق مع متطلبات زوال الاستعمار أكثر من متطلبات ما كان يشار اليه في الغرب ، بتهذيب ، باسم الاطار الدولي الشرعي . بل يمكن القول ان مبدأ الانفراج ، كما يعرفه الغرب ، يمثل قناعا يهدف الى اعطاء انطباع بتدهور القوة الأمريكية كعملية تكيف طبيعية سعيا وراء الشرعية الدولية والاستقرار العالمي .

ان صيغ كيسنجر المقتبسة من دبلوماسية القرن التاسع عشر ، وخاصة مؤتمر فيينا ، تشوه وتموه مجموعة كبيرة مركبة من التغيرات الشاملة في العالم أجمع ، هي الميزة الرئيسية ، ان لم تكن جوهر الحياة والتاريخ المعاصر . ان عبارات مثل « هيكل السلام » ، « توافق القوى » ، « الاتزان » ، والتي تشير الى اعادة تقييم استرضائية لسياسة امريكا في الحرب الباردة ، هي مجرد مظاهر لهذا التغير العظيم ، الذي يجعل هذه المرحلة من تاريخ العالم « مرحلة انتقالية مضطربة وعظيمة »* ، يمكن مقارنتها بتدهور وسقوط الامبراطوريـة

---

* أدين بهذا الاصطلاح للبروفسور نيل هيوتون .

الرومانية ، وظهور الدولة ــ الأمة ، والثورة الصناعية وغيرها .

ان السياسة الامريكية الخارجية تواجه تحديا دائما ، هو ضرورة التكيف مع متطلبات ومطالب هذه الفترة الثورية ، حيث تصبح « العلاقات الخاصة » ذات الوكلاء والشركات المتعددة الجنسيات ، دعائم الامبريالية الامريكية .

لقد اثبتت ايران أنها حقل تجارب « للعلاقة الخاصة » بين الولايات المتحدة ودولة من العالم الثالث ، منذ الحرب العالمية الثانية . وهزيمة هذه العسكرية المدربة على يد امريكا هزيمة كبرى للسياسة الخارجية الامريكية ، مما يلقي ظلالا كبيرة من الشك على صلاحية مبدأ نيكسون . لقد اعترف مساعد وزير الخارجية السابق جورج بول بهذا الفشل في مقال بعنوان « دروس من ايران » (**بوسطن غلوب** ، ١٩٧٩/٤/٢) .

مع ازالة ايران « كحامية » لمنطقة الخليج ، تندفع ردة فعل عملاء الكثيرين الى البحث عن دولة عميلة اخرى ، كمصر او السعودية ، لتولي دور الشاه « كشرطي » . لكن هذا يبدو لي اغراء يجب تجنبه بشدة .

ان الدرس الاول من كارثة ايران هو ننا لا نستطيع ان نضمن أمن منطقة استراتيجية بأن نملأ دولة متخلفة بكميات هائلة من الاسلحة ــ كما يفترض مبدأ نيكسون .

لكن العلاج الذي اقترحه بول ، يثير تساؤلات حول ما اذا كان هو نفسه قد استفاد من هذا الدرس :

« علينا ان نزيد تواجدنا بشدة في المحيط الهندي ، ونساعد السعودية في مهمة المراقبة ، ونقدم تنكيرات مستمرة على قدرتنا المتحسنة على نقل القوات بسرعة ، وايصالها ، حتى من القواعد الامريكية » .

ان هذا النوع من اللجوء الى التدخل الامريكي ، لاحباط التغير الاجتماعي في العالم الثالث ، يؤيد ، واضع مبدأ نيكسون نفسه . فقد قال هنري كيسنجر ردا على سؤال من « **الايكونوميست** » (١٩٧٩/٢/١٠) ، حول ما اذا كان على الولايات المتحدة أن تستخدم القوة العسكرية للحفاظ على نظام معين :

« علينا بالتأكيد ان لا نستبعد نلك علنا ، رغم انه لن يكون سوى ملجأ أخير بالطبع » .

لقد حذر جيمس شليسنجر ، وزير الطاقة ، وهارولد براون ، وزير الدفاع ، من أن الولايات المتحدة ستحمي « مصالحها الحيوية » في الشرق الاوسط ، حتى لو تطلب نلك القوة العسكرية ، أو **الوجود** العسكري . ونكرت **النيويورك تايمز** ، يوم ١٩٧٩/٤/٢٠ ، ان وزارة الدفاع الامريكية تخطط لاقامة قوة ضاربة جديدة ، مشكلة من مئة ألف فرد ، من أجل « رد عسكري سريع » على اوضاع في الشرق الأوسط ، تشتمل على ثورات شعبية ، او الاستيلاء على منشآت النفط .

وهذه النبنبات التي تبعت سقوط الشاه في ايران ، كانت تضم شحنة أسلحة ضخمة الى اليمن الشمالي ، وارسال حاملة الطائرات الامريكية كونستيليشن ، واسطول صغير من السفن

الحربية ، الى بحر العرب كعرض عضلات . وفي تلك الاثناء قام وزير الدفاع الامريكي هارولد براون بجولة في الشرق الاوسط ، في شباط (فبراير) ، في محاولة لاستعادة الهيبة الامريكية ، واصلاح هيكل التحالف الذي تضعضع . ويجب رؤية معاهـدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية في اطار « الأمن الاقليمي » ، هذا حيث تصبح القوات الامريكية قادرة على الوصول الى قاعدة مصيرة في عمان ، والقواعد المصرية التي استردت مؤخرا ، والتي يسميها الاسرائيليون « اتسيون » ، قرب البحر الاحمر ، و « ايتام » ، قرب البحر الابيض المتوسط . ان الاسطول الخامس الذي شكل حديثا من سفن في الاسطولين السادس والسابع ، هو حلقة اخرى في هذه السلسلة الجديدة من الوجود السعكري الامريكي .

وقد اختارالاتحاد السوفياتي السكوت ازاء هذا التعبير الامريكي عن القلق.لقد ارتفعت اسهم الاتحاد السوفياتي في المنطقة في الأشهر الأخيرة دون ان يضطر لادخال قواته ، او لاقناع الكوبيين بتدخل قواتهم . وحتى لو لم يكن للسوفيات علاقة بالثورة الايرانية ، فقد كانت الخسائر الامريكية ربحا سوفياتيا صافيا . بل ان جزئا كبيرا من هذه « الخسائر » ، في جميع أنحاء العالم ، نتجت عن مبادرات من شعوب العالم الثالث ، أكثر من أعمال علنية أو خفية قام بها الاتحاد السوفياتي . وهذا ما حدث في فيتنام ، ولاوس وكمبوديا ، وموزمبيـق ، وافغانستان ، واليمن الجنوبي ، والحبشة ، وايران . كما حدث الشيء نفسه في اوروبا ، حيث اطيح بالدكتاتوريات اليمينية في اسبانيا والبرتغال واليونان ، مؤخرا .

ولذا ، فان الانفراج لا يعتمد على حسن نوايا ، او تصلب قوة كبرى معينة ، او قابلية الاتحاد السوفياتي لتبني دبلوماسية « الربط » . ولا يوجد دليل يشير الى ان مصلحة الاتحاد السوفياتي في التجارة والتكنولوجيا قد أدت الى تحييد دعمه للتحول في العالم الثالث . كذلك لا يمكن الافتراض أن أيا من القوى الكبرى تتحكم في المفاتيح التي تفتح الأبواب ، وتشق الطريق امام تسوية النزاعات في الاطراف . ان الاتجاه في الماضي القريب ، وفي الحاضر ، يشير الى ان الولايات المتحدة لم تنته من ممارسة ضغوطها . ان الانفراج يزود القوى الكبرى بصمام الامان الذي تحتاج اليه ، لتحاشي صدام مباشر ، بينما تستمر في سعيها وراء مصالحها المختلفة ، من أجل ، او لمعاكسة استقرار عالمي . لم تعد اكثرية العالم تعتبره مقدسا ، او أرضا حراما .

اليـاس شـوفـاني

أمـيركا واسـرائيل

منذ بدأت اعي الكلام السياسي وانا اسمع مقولة تتردد ، تندد بالسياسة الاميركية ، وتصف القائمين على صنعها بالغباء . ثم تطرح ، بشكل او بآخر ، السؤال التالي : ما دامت مصلحة اميركا مع العرب ، فلماذا تنحاز هذه الى اسرائيل ؟ واذا كان الامر كذلك ، فلماذا لا تتعامل اميركا مع العرب كما تفعل مع اسرائيل ؟ ثمة من يتهم العرب بالتقصير ، ويتساءل لماذا لا يحاول العرب ، وبشكل جدي ، ذكي وفعال ، شرح قضيتهم العادلة في اميركيا ، وبالتالي احداث شرخ بينها وبين اسرائيل . وبالفعل ، لماذا تتصرف الولايات المتحدة كذلك ؟ ولماذا تفضل صهيونييها على عربها؟ ثم ما هي تلك المصلحة الاميركية معنا ؟ وهل هي مصلحة لنا ايضا ، او لمن منا ؟ ومن وعي تلك المصلحة ، فقه سر العلاقة الخاصة التي تربط اسرائيل باميركا ، وفهم مغزى الكلام الذي تردده اوساط المؤسسة الحاكمة في واشنطن ، بأن امن اسرائيل هو من صميم المصلحة الاميركية القومية . فواشنطن تفضل اسرائيل لانها منها واليها . والعرب ليسوا كذلك ، حتى وان دقوا ابوابها ، وارتموا على اقدامها . ولقد اثبتت التجربة ان طريق واشنطن تؤدي الى تل ابيب ، وان التحرير لا يكون بالتعاون مع هذا الطرف المستعمر او ذاك . وامامنا عبرة في الثورة العربية الكبرى ، ثورة الشريف حسين .

إن أي تقويم جاد لطبيعة العلاقة بين الكيان الصهيوني والولايات المتحدة لا يستقيم دون تحديد صحيح لطبيعة الكيان ، الذي هو نتاج العمل الصهيوني . ولا مجال هنا للخوض في التفاصيل ، وانما هي بضع نقاط تساق ، تشكل منطلقات لهذا التحديد .

الكيان نتاج عمل مشترك بين الاستعمار والصهيونية اليهودية

للمشروع الصهيوني في جوهره شقان : الاول ، وهو الاصغر ، يهودي ذاتي ، يعبر عن تطلعات الصهيونية اليهودية . والثاني ، وهو الاكبر ، امبريالي ، يعبر عن مصالح الاستعمار الغربي في المنطقة العربية ، اي ما يسمى احيانا « صهيونية الاغيار » . والعمل الصهيوني كان مشتركا بين هذين الطرفين ، مع تغير الطرف الثاني ، كل دولة امبريالية ودورها في حينه . والشراكة في هذا العمل ليست ، ولم تكن قط ، متكافئة . وانما ظلت ، منذ البداية والى يومنا ،

تعكس موازين القوى بين الشريكيين . فكان سهم الاستعمار فيها ، ولا زال ، هو الاكبر . وهكذا كان مردود المشروع على اصحابه، اذ انه خدم الاستعمار الغربي اكثر مما قدم للصهيونية اليهودية . والكيان الصهيوني اصاب نجاحا اكبر في مهمته الامبريالية مما في عمله اليهودي . لقد عرقل مسيرة حركة التحرر العربية اكثر مما اسهم في « حل المسألة اليهودية » .

٢ ـ المشروع الصهيوني لم يستكمل بعد

والمشروع كما يصوره اصحابه لم يحقق غايته بعد ، سواء في شقة اليهودي ام الامبريالي . فلا هو حل « المسألة اليهودية » ، ولا تغلب على حركة الجماهير العربية ، المنطلقة الى الاستقلال والوحدة . ففي جانبه اليهودي ، اريد للمشروع أن يجمع اكثرية يهود العالم في « دولته القومية » على ارض فلسطين ، ويبسط حمايته على الاقلية المتبقية في الشتات . والذي جرى الى الآن هو العكس تماما . اذ تجمعت في فلسطين الاقلية من يهود العالم ، وهي بحاجة مستمرة الى دعم الاكثرية في الخارج : ناهيك عن انه خلق « مسألة » جديدة مزدوجة : « المسألة الاسرائيلية » و « المسألة الفلسطينية » . وفي جانبه الامبريالي ، لم يفلح الكيان ، الى الآن ، في ضرب الحركة القومية العربية ، واخضاعها لاملاءات المصالح الامبريالية في المنطقة . واذا كانت المهمة التي من اجلها اقيم الكيان لم تنته بعد ، وكان اصحاب المشروع لا يزالون يسعون وراء اهدافهم الاصلية ، فمن الطبيعي أن يستمر الكيان في محاولة تحقيق ذاته كاملا . وفي هذه المرحلة التي تمر بها المنطقة ، نشهد هجمة امبريالية شرسة عليها ، لنهب ثرواتها وضرب حركة جماهيرها . وبالمقابل تبقى القوى السياسية الفاعلة في الكيان الصهيوني صهيونية بمجملها ، ترى مبرر وجودها واستمرارها في انجاز المشروع الصهيوني وتحقيق « حلم الاباء » في استكماله . واذا كان الامر كذلك ، فان اية تسوية يقوم بها الكيان الآن ، لن تكون اكثر من محطة اخرى على طريق استكمال المشروع ، على الاقل من زاوية نظره وتطلعاته . وستكون هذه المحطة حلقة أخرى في المسلسل بعد مؤتمر بازل ، وعد بلفور ، مؤتمر بلتمور ، قيام الكيان ، حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، « المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية » . والخلاف الدائر في الكيان اليوم ، بين تيارين صهيونيين رئيسيين، وكذلك بين الكيان ككل وواشنطن ، انما هو على تحديد معالم هذه المحطة ، ورسم خطوطها ، بحيث تستطيع تأدية مهامها المستقبلية بشكل اكثر نجاعة . وهنا تختلف التقويمات طبقا لاختلاف فهم الاولويات لدى الاطراف المعنية .

٣ ـ السمة البارزة للكيان كونه قاعدة عدوانية متقدمة للامبريالية الاميركية

اكيد ان للمشروع الصهيوني جانبا اقتصاديا واجتماعيا ، كون القيادة الصهيونية اليهودية ارادت ان تحل المسألة اليهودية عن طريق بناء دولة بالمفهوم البرجوازي ، تكون لليهود وبهم ومنهم . ولكن الشريك الاكبر في المشروع ـ الاستعمار ، اراده ان يصير قاعدة عدوانية . فكان له ما اراد . وهكذا فان التوازن بين هذين الجانبين للكيان يعكس موازين القوى بين الطرفين المشاركين في اقامته . ومن وجهة نظر الشريك الاكبر ، لم يكن المشروع استيطانيا اقتصاديا ، الهدف منه استغلال الرقعة الجغرافية التي يقوم عليها ، او حتى اهالي البلد الاصليين ، وانما تهيئة الظروف الملائمة للنفاذ الى ثروات المناطق العربية المجاورة . وعلى هامش هذا الهدف

الرئيسي ، قام الشريك الاصغر ، بمشروع على حجمه هو ، اقتصادي وسياسي واجتماعي ، يعطي للثكنة طعما ، ورائحة ، يجعلان الحياة فيها مستساغة ، ولو لفئة من الناس ، لها ذوقها الخاص. وليس ادل على ذلك من الفارق الشاسع بين تنامي المؤسسة العسكرية في الكيان ونضوجها ، وبين هشاشة مؤسساته الاخرى ، اقتصادية كانت ام اجتماعية . وليس ذلك الا لان الالة العسكرية الصهيونية مرتبطة مباشرة بالمهمة الامبريالية ، ويرعاها الشريك الاكبر بعناية خاصة . وما دامت مهمة الالة العسكرية الامبريالية هي ضرب حركة الجماهير العربية ، فان نشاطها ينحصر بالاساس خارج حدود استيطان الكيان . وعليه فان ما يسمى « امن الكيان القومي » ـ اي مبرر وجوده ، وبالتالي استمرار تقديم الدعم له ، لا يتوقف عند حدوده او داخلها ، وانما يمر في عواصم الدول العربية ، حيث نشاط حركة الجماهير العربية . وهذا « الامن » لا يستتب دون التحكم بالمسارات السياسية لتلك الحركة ، وضبط نشاطها . من هنا ، يبقى العامل الحاسم في قرار الشريك الاكبر الاستمرار في دعم الكيان والحفاظ على بقائه، او عدمه، وبالتالي انهائه ، لا يتوقف على ميزان مدفوعات الكيان، سلبا ام ايجابا وانما على مدى نجاعة فاعليته في تهيئة الظروف لاستمرار الهيمنة الامبريالية على المنطقة ، وضمان مصالحها فيها .

والواقع ان الكيان قد اثبت مصداقيته في خدمة الشريك الاكبر ، وصدقت الى الان مقولة ان « ليس للغرب افضل في المشرق من الغرب نفسه ، المتمثل في اسرائيل » . اما حلفاء الغرب من العرب وغيرهم في المنطقة ، فلم يثبتوا مصداقيتهم في اداء المهمة المطلوبة . وحتى الشاه سقط . ويبقى الكيان يصارع على اثبات تلك المصداقية ، وبالتالي الحفاظ على موقعة المتميز في المعسكر الامبريالي ، ليحافظ على خصوصيته التي هي جزء اساسي مما يعتبره « امنه القومي » . من هنا قوة الكيان في الساحة الاميركية . ومن هنا يحظى بمعاملة خاصة في واشنطن ، يحسده عليها « عرب اميركا » ، رغم ان « مصلحة هذه معهم»، بل واكثر من ذلك ، فواشنطن تعلم يقينا ان بقاء هؤلاء رهن بوجود اسرائيل قوية في المنطقة وهم بدورهم يعون ذلك جيدا ، حتى ولو كابروا . وهذا يفسر فشل منافسي اسرائيل العرب على احتلال موقع مواز لها في واشنطن ، وبالتالي في الاستراتيجية العالمية للامبريالية الاميركية .

☐ ان التحديد الصحيح لدور الكيان الصهيوني الامبريالي ، لايستقيم الا اذا تم الربط الجدلي بين انشائه ونشاطه ، وبين الظواهر السياسية التي واكبت ذلك زمانا ومكانا ، وتطورها ، وبالتالي تحديد المهام الموكلة اليه في الصراع بين القوى وراء الاحداث . ولا بد لهذا التحديد من الربط بين اربع ظواهر اساسية ، حكمت تاريخ المنطقة في القرن الاخير ، ومن ثم استنباط العلاقة الجدلية بينها ، وهي : ١) انحلال الامبراطورية العثمانيــة ـ أخـر الامبراطوريات الاسلامية من القرون الوسطى . ٢) تكالب الدول الاستعمارية على تقسيم اراضي الامبراطورية ، وضمان مناطق نفوذ فيها . ٣) بروز الحركة القومية العربية ، تنادي بالاستقلال والوحدة العربيين . ٤) بروز الحركة الصهيونية السياسي ، تنادي باقامة دولة يهودية ، عن طريق الاستيطان ، وبالتعاون مع الاستعمار ، وفي هذا الاطار يبرز الدور الصهيوني ، والذي اوكلت اليه من خلال مشروعه ، ومن ثم كيانه ، مهمة التصدي للحركة القومية العربية ، وضربها واحباط نضالها من اجل الاستقلال والوحدة . وذلك عن طريق بناء الكيان كقاعدة للعدوان على شعوب الامة العربية ، من اجل اجهاض حركة جماهيرها ،

والحؤول دون تحقيقها للوحدة ، من خلال ترسيخ تفتيتها ، سواء بالتدخل المباشر ، ام بالحفاظ على نظم حاكمة فيها ، لا مصلحة لها في الوحدة او حتى في الاستقلال .

وعليه فان مهمة الكيان الامبريالية تنفذ خارج حدود استيطانه فالحركة القومية العربية، المتصدية للمصالح الامبريالية والنفوذ الاستعماري في المنطقة ، لم يكن مركزها فلسطين بالذات ، وانما بعض العواصم العربية الكبرى ، وهكذا فان « امن الكيان » يمر بتلك العواصم ، عابرا اليها من ثغورها . ولكن للتناقض بين الكيان الصهيوني والشعب الفلسطيني خاصة بعدا اضافيا . فالى جانب كون ذلك الشعب جزءا من الامة العربية ،وبالتالي مستهدفا في العدوان ، اسوة بغيره من شعوبها ، فقد شكلت ارضه الوطنية الرقعة الجغرافية التي قامت عليها القاعدة انطلاقا من ملاءمة الرقعة لبناء القاعدة ، سواء من الناحية الاستراتيجية ام لناحية علاقة التراث اليهودي بها . وهذا الواقع يسبغ على النضال الفلسطيني ضد الكيان طابعا خاصا . ويعطيه موقعا متميزا . بالمقابل ، فان هذا البعد الاضافي للتناقض ، وهذا الموقع المتميز للنضال الفلسطيني ضد الكيان ، قد يقود الى فهم خاطىء لما يسمى « جوهر الصراع » في المنطقة ، باعتباره ينحصر في استيلاء المشروع الصهيوني على ارض الشعب الفلسطيني وتشريده ، وبالتالي فان انهاء الصراع مع العدو يتوقف على حل لمسألة الفلسطينيين . ومع ذلك ، فان اي صراع يخوضه الشعب الفلسطيني ضد الكيان ، حتى وان انطلق من مواقع اقليمية ، يبقى موضوعيا ، وبالمحصلة ، نضالا قوميا .

والقيادة الصهيونية تعي ذلك جيدا . ومن هنا اصرارها على تغييب الشعب الفلسطيني ، بدءا بالتغييب المادي ، ومرورا بالتغييب الحضاري ، وانتهاء في التغييب السياسي ، مع كل ما رافق ذلك من تشويه لتاريخ ذلك الشعب ونضاله . ومن هنا ايضا العمل الصهيوني الدؤوب على تذويب الشعب الفلسطيني ، وحل مشاكل افراده ، عن طريق اطراف عربية ومن خلالها . والمهم في نظر تلك القيادة الا يقوم كيان سياسي فلسطيني ينازع القاعدة على الرقعة الجغرافية التي تقوم عليها . ولذلك فهي تحاول كما يبدو واضحا من مسار مفاوضات التسوية ، حشر الاطراف المعنية ، بمن فيها الشريك الاكبر في المشروع الصهيوني ، في مأزق الخيار بين الخدمات التي يؤديها الكيان للمصالح الامبريالية ، وهي التي تسميها مجازا امنه ، وبين اقامة دولة فلسطينية ، تدعى انها ستكون على حساب « امن الكيان » ، وقاعدة لانطلاق مضاد لتلك المصالح ، بما فيها وجود الكيان نفسه .

☐ **اميركا « البلد الام » (المركز) للكيان الاستيطاني**

في جوهرها علاقة اسرائيل باميركا هي علاقة كيان استيطاني ، ب « البلد الام » الامبريالي (المركز) بشكل عام . ولكن لاسرائيل فرادة تنبع في الاساس من فرادة الحركة الصهيونية ، ومن الدور الذي اوكل للكيان ، وبالتالي لطبيعة الشراكة في اقامته ، والخصوصية التي يتميز بها عن اترابه من الكيانات الاستيطانية ــ جنوب افريقيا وروديسيا . وعندما تتضارب وجهات النظر بين القيادة في المركز ، والوكالة في الكيان ، يوصف ذلك بانه خلاف بين حكومة « س » وادارة « ص » وليس بين دولتين منفصلتين ــ الولايات المتحدة واسرائيل. ومثل هذا الخلاف يحسم في العادة داخل المؤسسة الحاكمة في المركز ، ومن خلال تفاعل اجنحتها . وعندما يحتدم الخلاف يصار الى التقاضي امام « الراي العام الاميركي » ، والذي تصنعه مراكز القوى . في المركز ، وبالتالي فانه يعكس موازين القوى بينها . ولعله امر ذو دلالة ، ان يحمل رئيس

حكومة اسرائيل خلافه ، اذا حصل مع الرئيس الاميركي ، الى واشنطن ، ليحله هناك ، من خلال توازنات الادارة الاميركية ذاتها ، او تناقضات المؤسسة الحاكمة ككل . فالعلاقة بين الطرفين عضوية ، وهما يشكلان بالاساس وحدة متكاملة رغم التمايز الظاهري .

ولكن اسرائيل ليست مستعمرة بالمعنى الكلاسيكي للكلمة ، اذ انها ليست بالاساس مشروعا اقتصاديا رأسماليا ، وانما قاعدة عسكرية متقدمة مما يضفي على علاقتها بالبلد الام طبيعة خاصة . هذا طبعا الى جانب الشق الصهيوني اليهودي من المشروع ، والذي ضمن اطار هامشه الصغير نسبيا ، يسعى الى اعطاء الكيان طابع « الدولة القومية » القائمة على الفكرة الصهيونية . وهذه في اساسها « قومية ثقافية » لا تخلو من عنصرية وغيبية . ومن اطراف هذا الشق ، سواء عن اليمين ام اليسار ، ترتفع عادة اصوات تنادي بتوسيع هامش الاستقلالية عن البلد الام ،أما التيار العام في الكيان ، وهو صاحب الحل والعقد فيه ، فيعي تماما تبعيته للمركز ويقدر ما يترتب عليها .

واسرائيل جزء من النظام الامبريالي الاميركي ، وركن اساسي في استراتيجية الرأسمالية الاميركية العالمية . وهي ضمن ذلك النظام اشد ارتباطا باكثر اجنحته رجعية وعدوانية ــ المجمع الصناعي الحربي . ولكن للاحتكارات النفطية مصلحة كبيرة فيها . وفي حين تصدر في اسرائيل ، واحيانا بشكل مكثف ، انتقادات لوزارة الخارجية الاميركية ، وتنديد بارتباطها ، او ارتباط « المستشرقين » فيها ، باحتكارات النفط ،فانه نادرا ما يوجه نقد للمجمع الصناعي الحربي ، او الى البنتاغون والالة العسكرية الاميركية . وبالعكس فان علاقات اسرائيل بالالة العسكرية الاميركية ، وكذلك بالصناعة العسكرية ، اقوى ما تكون . وكثيرا ما تستفيد بعض الشركات الاميركية لانتاج الاسلحة من تأييد اسرائيل لها في طلبها دعما ماليا فيدراليا لانتاج الاسلحة المتطورة والمكلفة (طائرات ف ــ ١٨ مثلا) . ونظرا لارتباط القاعدة بالعسكرتارية الاميركية ، فقد تطورت فيها المؤسسة العسكرية بشكل يفوق جميع المؤسسات الاخرى واصبح الجيش ، بفعل ارتباطه بالعسكرتارية الاميركية ، المؤسسة الاكثر اهمية في الكيان ــ فهو الجيش الذي يعتبر اغلى من الدولة واعز .

وحتى على صعيد اقتصاد الكيان ، تبرز الصناعة العسكرية التي هي مغامرة مشتركة بين الكيان والبلد الام ، يسهم فيها هذا الاخير بالقسط الاوفر من الرأسمال والتكنولوجيا. وهذه المغامرة هي من زاوية نظر اسرائيل اقتصادية بالاساس ، لانها تتزود بالسلاح من البلد الام اصلا ، وتصدر الجزء الاكبر مما تنتج الى الخارج ، وجيش نيكارغوا مثلا مزود ببنادق « جليل » الاسرائيلية الحديثة الصنع ، بينما يستعمل الجيش الاسرائيلي الرشاشات الاميركية . وكذلك الامر بالنسبة الى الطائرات والدبابات . ومن زاوية نظر اميركا ، فالمغامرة سياسية اصلا ، واقتصادية فرعا . وعن طريق اسرائيل تؤمن واشنطن السلاح والعتاد للانظمة الفاشية التي تدعمها سرا ، وتتحاشى الاحراج في تأييدها العلني .

وهذه الشبكة الواسعة من العلاقات ، بتشعباتها الكثيرة اخذت تحاك منذ الحرب العالمية الاولى ، ولكنها اكتسبت دفعا قويا اثناء الحرب العالمية الثانية ، مما انعكس في « مؤتمر بلتمور » (١٩٤٢) ، حيث نقل مركز النشاط الصهيوني الى الولايات المتحدة ، بدلا من بريطانيا . وتنامت هذه العلاقة لدى قيام الكيان وبعده ، وازدهرت بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، وتصاعدت بشكل بارز اثناء حرب تشرين وبعدها . واليوم هي في ذروتها ، حيث يدور

الكلام ، وبشكل مكشوف ، عن قيام حلف بين الولايات المتحدة وكل من اسرائيل ومصر ، في اعقاب « معاهدة السلام المصرية ـ الاسرائيلية »

والكيان الصهيوني يخدم الاهداف الاستراتيجية للامبريالية الاميركية في المنطقة والعالم بشكل صارخ الوضوح . ومن هنا كثرة ترداد القول ، وعلى لسان صانعي السياسة الاميركية ، بان « امن اسرائيل هو جزء من المصلحة القومية الاميركية » . ومن هنا ايضا الحرص الكبير على الحفاظ على قوة اسرائيل العسكرية ، ومنه مقولة ان اسرائيل ، حتى تستطيع الدخول في « التسوية السلمية » لا بد من اغداق بالدعم العسكري والمادي عليها « كي تطمئن نفسيا الى امنها وسلامته » . وهكذا حصلت المفارقة بان تحولت اسرائيل الى ترسانة ضخمة ، وهي تفاوض على « تسوية سلمية » .

وعلى الاقل ، فان الكيان يخدم مصالح الامبريالية الاميركية في الامور التالية : ١) يشكل قاعدة متقدمة للعدوان على الامة العربية وحركة جماهيرها ، لابقائها متخلفة ومفتتة . ٢) يشكل قوة ومرتكزا لاي عمل عسكري ، قد تقوم به اميركا في المنطقة . ٣) يهيء الظروف اللازمة لاستمرار الاستغلال الاميركي لموارد الثروة العربية ، خاصة النفط ، وتأمين طرق نقله الى الغرب . وذلك عن طريق :

١) حماية الرجعيات العربية ب) التصدي للحركة الثورية العربية . ج) دعم الفئات الانعزالية ، وتحريك الاقليات الدينية و لاثنية . د)الدخول في حاور سياسية للحفاظ على المصالح الامبريالية في المنطقة . ٤) يوفر على البلد الام مؤونة دعم النظم الفاشية والعنصرية في العالم . اذ يقوم هو ، نيابة عنها ، بتزويد تلك النظم بالسلاح والخبرة في التصدي للحركات الثورية ضدها ، كما في افريقيا ، واميركا اللاتينية ، وكذلك في الشرق الاوسط . ٥) يسهم بشكل فعال في اعمال التجسس لصالح اميركا ، خاصة في دول الكتلة الشرقية ، كما يلعب دورا بارزا في الحملات الاعلامية التي تديرها واشنطن ضد دول المنظومة الاشتراكية ، وخاصة ضد الاتحاد السوفياتي .

□ مع الانسجام الاستراتيجي الكامل هناك تناقضات ثانوية

ان الانسجام الكامل في الاستراتيجية الامبريالية للولايات المتحدة ، لا يلغي وجود تناقضات ثانوية ، او خلافات تكتيكية ، تنبع اساسا من تطلعات الهامش اليهودي في المشروع الصهيوني ، واحيانا من التناقضات بين مراكز القوى داخل البلد الام ، والتي تتفاوت درجة تطابق مصالحها مع الكيان ككل ، او مع تيارات مختلفة داخله . فكثيرا ما يلاحظ تحالف ، اشد وثوقا او اقل ، بين هذا الجناح او ذاك من مراكز القوى ، السياسية او الاقتصادية ، في البلد الام ، وبين هذا التيار الصهيوني او ذاك في الكيان . وفي هذا المجال يلعب اللوبي الصهيوني الاميركي دوراواضحا .فهو يستطيع ان يحور اتجاها معينا في السياسة الاميركية ، او الاسرائيلية ، فقط عندما يستطيع ان يقدم البديل الذي يتبناه جناح مضاد في المؤسسة الحاكمة الاميركية . ولكنه لا يستطيع ، وهذه مسألة شاذة ان يطرح موضوعا يتناقض ومجمل السياسة الاميركية في المنطقة ــ فهو لا يستطيع ان يطرح موضوعة مقاطعة النفط العربية مثلا ، او الدفاع عن احتلال اسرائيل ، ولحسابها ، بعض منابع النفط العربي ، وكذلك لا يستطيع الدفاع عن سياسة اسرائيلية ترمي الى توجيه الاوضاع في لبنان مثلا ، بشكل يتعارض تماما مع السياسة الاميركية . وقد ثبت ذلك في الحرب اللبنانية . ولكنه يملك هامش المناورة في تحركاته

في الجنوب اللبناني مثلا ، او في العمليات العسكرية التي يقوم بها ضد قواعد الثورة الفلسطينية ومخيماتها . وهذا الهامش من حرية الحركة ، او الاستقلالية ، يزداد اتساعا وضيقا تبعا لموازين القوى داخل المؤسسة الحاكمة في اميركا ، او تبعا لقدرة الكيان وحلفائه على انتهاز الظروف المواتية في الوضع الاميركي المعين ، كفترة انتخابات الرئاسة مثلا ، او فترة ازمة يمر بها النظام الاميركي ، سياسية كانت ام اقتصادية ام اجتماعية .

والكيان الصهيوني يريد مثلا ، الاحتفاظ بموقعه المتميز في الاستراتيجية الاميركية ، ولا يرغب في ان ينافسه عليه احد ، خاصة من الدول العربية المتهافتة على ذلك ، وهذا الموقع هو بالفعل عنصر اساسي جدا في ما يسمى « أمن الكيان القومي » والخصوصية التي يتمتع بها الكيان . ومصلحته الحيوية فيها ، تمليان عليه التفاني في الذود عنهما ، لانه ينطلق من منطق انه اذا « زال المسبب زال السبب » فاذا ضاعت تلك الخصوصية وتساوى في الموقع مع الاخرين ، فقد عنصرا اساسيا من مقوماته ، وربما تدهور الوضع الى مبرر وجوده كاملا .

واحيانا تسمع اصوات في الكيان ترفع شعار المشاركة مع الولايات المتحدة ، ولو بحجم صغير . وهذا الكلام زاد بعد حرب حزيران (يونيو) ١٩٦٧ ، خاصة على لسان بعض جنرالات الجيش ، انطلاقا من القناعة بقوة اسرائيل الذاتية ، وحاجة الولايات المتحدة الحيوية اليها . ولكن هذا الاندفاع قدفتر بعد حرب تشرين . وفي « مفاوضات التسوية » ، اثناء حكم حزب العمال ، كان الخط الحاكم لسياسة الحكومة (حكومتي مئير ورابين) هو التنسيق المسبق مع الادارة الاميركية ، قبل الاقدام على اية خطوة ، اما في حكومة بيغن فقد اختلف الوضع ، واخذ ينطلق من تقدير لموازين القوى داخل المؤسسة الحاكمة الاميركية . وانطلاقا من تنسيق مع بعض اجنحتها ، التي قد تكون داخل الحكم او خارجه . ومن هنا شعار « رفض الاملاءات الاميركية » الذي رفعه بيغن ، وسار فيه الى حد الصدام مع ادارة كارتر . ولم يتورع عن فتح معركة معها ، سواء في اميركا (مسألة البيان السوفياتي – الاميركي المشترك) ، ام في اسرائيل ، عندما ادعى ان ادارة كارتر تريد اسقاطه واستبداله برئيس حكومة آخر يكون اكثر طواعية لاملاءاتها . ولقد نجح بيغن بفضل قوة موقعه في المؤسسة الاميركية الحاكمة ، فانجز ما اراد من المفاوضات مع مصر .

والكيان بطبيعة الحال ، يحاول جاهدا ان يكون ارتباط « عرب اميركا » بواشنطن من خلاله .فهو يسعى لأن يصبح المركز الاقليمي والوكيل الاول للبلد الام في المنطقة تمر عبره جميع المعاملات مع واشنطن ، وهو بدوره يوزع الوكالات الاقليمية القانونية ، وفي كتاب صدر في اسرائيل ، وعن حكومتها ، بعنوان « اسرائيل في العام الفين » اشارة واضحة الى تطلعات الكيان لان يصبح هذا المركز الاقليمي للحركة الاقتصادية بين المنطقة عامة والغرب الرأسمالي خاصة اميركا. ولكن لبعض الاطراف العربية تطلعات مماثلة ، وتدعمها الى حد ما بعض الاجنحة في المؤسسة الاميركية ، وان لم يكن هذا الدعم . بحجم التطلعات. ففي اثناء المفاوضات مع مصر مثلا ، كثر الكلام في اسرائيل ، بان السادات انما يريد من خطوته في المبادرة ومن التسوية عامة ، ان ينافس اسرائيل على موقعها في واشنطن . وكان ذلك احد اهم اسباب تصلب اسرائيل في المفاوضات ، وتعنتها في تحديد تفاصيل العلاقة المثلثة الاطراف ، والتي كثيرا ما وصفتها الادارة الاميركية بانها مسائل هامشية ، في حين ردت حكومة بيغن بانها على العكس ، مسائل حيوية جدا لها . وهذا بالفعل تقديم صحيح . وعلى سبيل المثال فقط

تجدر الاشارة الى القول الذي تردد كثيرا في مسار المفاوضات من ان المشاكل الجوهرية قد تم الاتفاق عليها ، وان الخلافات هي امور تفصيلية او شكلية واحيانا وصفت بانها مسألة صياغات كلامية فقط . والواقع ان اسرائيل ارادت ان يدخل السادات الى شبكة العلاقات المثلثة الاطراف ـ واشنطن ـ القاهرة ـ اسرائيل ـ ليس كشريك متكافىء مع اسرائيل ، وانما دونها ، فكان لها ما ارادت . واذا كانت اسرائيل قد فعلت كل ذلك بالسادات ، رغم ثقله العربي ، وموقعه الافريقي ، ناهيك عن تهافته على الارتباط بالاستراتيجية الاميركية ، وبالتالي عدائه للاتحاد السوفياتي ، واستعداده للتخلي عن تضامنه مع العرب ، فماذا سيكون نهجها ازاء الاطراف العربية التي لا تملك مثل هذه المقومات وليست النية لسلوك نهج السادات او القدرة على ذلك ، خاصة اذا كان الكلام عن تسوية للصراع ، تكون سلمية ، ومن خلال المفاوضات وبرعاية واشنطن .

ولا تخلو العلاقة بين اسرائيل وواشنطن من خلاف حول مردود الخدمات التي تقدمها الاولى للثانية ، من فائض القيمة الذي تجنيه الثانية من المنطقة العربية ، نتيجة لنشاط الاولى . وطبيعي ان تسعى اسرائيل الى زيادة حجم هذا المردود ، وان تثور خلافات حول الموضوع ، كما يحدث بين بؤر اقتصادية في النظام الرأسمالي الواحد . فزيادة الدعم الاميركي لاسرائيل او تقليصه في الميزانية الاميركية ، لا يختلف كثيرا عن معالجة الموضوع نفسه ازاء الشركات الاميركية الكبرى ، والمتعاقدة مع الحكومة الفدرالية لانتاج اسلحة متطورة وكما تتنافس هذه الشركات بينها على قضم اكبر شريحة ممكنة من الميزانية المخصصة لها ، هكذا تصارع اسرائيل ، ومن خلال اجهزة المؤسسة ذاتها ، على نهش الجزء الاكبر مما تسميه الادارة الاميركية « المساعدات الخارجية » والاكيد انها تصيب نجاحا كبيرا في هذا المضمار ، كما يتضح من نصيبها الوافر في تلك « المساعدات » اذ يصل احيانا الى النصف واكثر ، خاصة في السنوات الاخيرة .

وللكيان موقف خاص من الشعب الفلسطيني ومن حركته الوطنية ، بغض النظر عن التوجهات السياسية للطرفين ، او للتيارات الرئيسية فيهما . وهذا الموقف الاسرائيلي لا يتطابق بالضرورة وبشكل مطلق على الاقل نظريا ، مع موقف البلد الام . فواشنطن لا ترى بنفس الخطورة قيام كيان سياسي للفلسطينيين كما تراه اسرائيل خاصة اذا كان ذلك الكيان الفلسطيني من طبيعة معينة . وواشنطن لا تثمن مسألة الاستيطان الصهيوني في الاراضي المحتلة عام ١٩٦٧ ، بنفس الحيوية التي يثمنها الكيان لامنه وبقائه . وكذلك فهناك خلاف اليوم بين واشنطن واسرائيل حول طبيعة « الادارة المدنية الذاتية » التي طرحت في « كامب ديفيد ».والظاهر ان هناك خلافا ايضا حول مسألة مستقبل القدس . وكذلك بالنسبة الى التسوية مع الاردن ، وربما الى الوضع في لبنان ، والاهم بالفعل هو الموقف من الشعب الفلسطيني،ولكن اسرائيل ، ومن خلال مفاوضات التسوية ، وعلى خلفية التطورات السياسية في المنطقة ، وبالتالي التوجهات الاميركية المستجدة فيها ، قد دفعت الاطراف المفاوضة ، مصر وواشنطن خاصة بعد توقيع المعاهدة وفي اعقاب انهيار حكم الشاه في ايران ، واختلال ميزان القوى في المنطقة ، الى مأزق الخيار بين مصالح تلك الاطراف في اسرائيل قوية ، قادرة على تنفيذ المهام المطلوبة منها في اطار الاستراتيجية الجديدة لواشنطن في المنطقة ، وبين مبدأ « احقاق الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني » كما كانت مطروحة في بداية « مفاوضات التسوية » .

وكان طبيعيا ان تقبل الولايات المتحدة ، ومعها مصر الى حد ما ، بالخيار الاول ، مما انعكس في كلمة بريجنسكي « وداعا لمنظمة التحرير الفلسطينية ». وهذا وضع سيستمـــر ما دامت « التسوية » الراهنة هي السائدة .

☐ انجازات اسرائيل في « التسوية » تخدم مصالح اميركا

لقد حصلت خلافات بين اسرائيل وواشنطن على مسار مفاوضات «التسوية» ولكنها كانت بالاساس تدور حول تحديد معالم هذه المحطة على طريق تطويع العالم العربي لاملاءات « كامب ديفيد ». والواقع ان هذه الخلافات قد حسمت وفقا للنظرة الاسرائيلية لما يجب ان تكون عليه الاستراتيجية الامبريالية الاميركية ، وبما يضمن بطبيعة الحال ، افضل النتائج للهامش اليهودي مع المشروع الصهيوني . وهذه النظرة تحظى بدعم وتأييد مراكز قوى ضخمة في الراسمالية الاميركية . ومن هنا كانت قدرة الكيان على الصمود في وجه ادارة كارتر ، عندما قدرت حكومة بيغن ان واشنطن قد شطت عن نهجها التقليدي . وليس ادل على ذلك من الموقف المتصلب الذي ابداه بيغن اثناء زيارة كارتر الى كل من اسرائيل ومصر ، والتي انتهت بالاتفاق على توقيع المعاهدة ، لما قدمه السادات من تنازلات . وهناك دلائل كثيرة تشير الى ان بيغن ظل يعمل على افشال زيارة كارتر حتى اللحظة الاخيرة ، وربما كان ذلك جزءا من خطة مدروسة ، قد يكون شارك فيها بعض اطراف المؤسسة الاميركية ، لافشال كارتر ، وبالتالي تقليص حظه في الولاية الثانية للرئاسة الاميركية .

لا خلاف كبير على ان ما تم التوقيع عليه في«المعاهدة المصرية ــ الاسرائيلية» ليس سلما، ولا هو تسوية عادلة وشاملة ، ولا حل للنزاع في المنطقة على اساس القرار ٢٤٢ ، وانما هو نواة حلف جديد ، ذي طابع هجومي عدواني . ولا خلاف كبيرا في ان الدبلوماسية الاميركية قد حققت في المفاوضات على « التسوية السلمية » اكثر مما كانت تراهن عليه بكثير ، فالتسوية التي سارت المفاوضات تحت يافطتها ، انتهت الى معاهدة ، هي اقرب ما تكون الى الحلف . وهذا الانجاز الضخم يعود الى التصلب الاسرائيلي ، والى استعداده للصراع على ما تعتبره حكومة اسرائيل حيويا لها ، وللبلد الام في آن معا . ولا شك في ان قدرة اسرائيل على انجاز ذلك انما تعتمد اصلا على فاعليتها في العمل داخل مراكز القوى في النظام الاميركي ، والى التأييد الذي يحظى به خطها لدى تلك القوى . وبيغن لم يكن يصارع ادارة كارتر من اسرائيل ، واستنادا الى مراكز القوى هناك ، وانما كان ينقل الصراع دائما الى واشنطن ، ويخوضه على ارضية كارتر ، وبالتعاون مع مراكز قوى في واشنطن ومراكز القوى هذه ليست اللوبي اليهودي في الولايات المتحدة فحسب وانما تتعداه الى شبكة واسعة من الحلفاء المحليين .

ونظرة الى الانجازات الاسرائيلية في مفاوضات « التسوية » تكفي للدلالة على أنها جميعاً تخدم مصالح اميركا ، الى جانب المكاسب التي احرزتها هي لذاتها . وفيما يلي قائمة ليست كاملة لتلك الانجازات :

١) حورت المفاوضات على تسوية سلمية الى مفاوضات على بناء نواة حلف جديد في المنطقة ، هدفه الأساسي الحفاظ على المصالح الاميركية فيها .

٢ ــ استبدلت مشروع روجرز المتواضع بمشروع كيسنجر الطموح .

٣ ـ أخرجت المفاوضات من مؤتمر جنيف الى مؤتمر « كامب ديفيد » ومن ارضية قرار مجلس الأمن رقم ٢٤٢ ، إلى ارضية مقررات « كامب ديفيد » .

٤ ـ ضربت التضامن العربي ، واستأثرت بالسادات معزولا . فدخل هذا الى الحلف شريكاً ضعيفاً ، بعد أن كان طرفاً أساسياً وقوياً في التضامن العربي ، والنزاع في المنطقة عامة .

٥ ـ وكذلك ، بانجازها المعاهدة ضمن شروطها وظروفها ، أضعفت اسرائيل موقع السعودية في العالم العربي ، وكذلك موقع الأردن في واشنطن .

٦ ـ أخرجت الاتحاد السوفياتي من مفاوضات التسوية .

٧ ـ مهدت الطريق لعودة أمريكا العسكرية الى المنطقة ، خاصة الى المناطق المحيطة بالجزيرة العربية ، وخاصة الى سيناء ، وكذلك الى المطارات والموانيء المصرية والاسرائيلية .

٨ ـ وعلاوة على كل ذلك ، مررت مشروعها للادارة المدنية الذاتية ، وهو ما ترى فيه مصلحتها الصهيونية اليهودية على حساب الشعب الفلسطيني .

□ بعد المعاهدة ـ الحلف ازاء « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني .

بعد المعاهدة يلاحظ ما يلي :

١ ـ عزلت مصر عربياً ، واتجهت افريقياً ، مع دلائل واضحة على توجه جاء نحو توثيق العلاقة مع اسرائيل .

٢ ـ تحولت اسرائيل من « حاملة طائرات » الى قاعدة عسكرية لها غور استراتيجي في حليفها المصري . وبذلك اصبحت أقدر على الفعل في المشرق العربي ، في اطار تنفيذ اهداف الحلف .

٣ ـ نشطت الولايات المتحدة في انجاز مشروعها لتجسيد قرارات « كامب ديفيد » .

٤ ـ واذا نجح الحلف الجديد ، فالظاهر أن الولايات المتحدة ستتولى بنفسها « حفظ الأمن » في الجزيرة العربية ، وفي البحر العربي الى الجنوب منها ، وستحاول ان تضرب حول الجزيرة طوقاً ، يشكل خط الدفاع الأول ، تتولى كل من مصر واسرائيل مهام كبيرة في اطاره . وفي هذه المجال ستلعب اسرائيل دوراً أساسياً .

ومقابل ذلك الدور العام ، تطالب اسرائيل اطراف الحلف الأخرى ، اطلاق يدها في معالجة القضية الفلسطينية ، أو مساعدتها على تجسيد خطها في هذا المجال . وهي تتذرع بحجة قوية ، تقول انه إذا كان مطلوباً منها القيام بدور فعال في الحلف ، مما يتطلب أن تبقى قوية ، فكيف ينسجم ذلك مع اقامة دولة فلسطينية الى جانبها ، تكون بمثابة قنبلة موقوتة تحتها ؟ في هذه « التسوية »،نجحت اسرائيل في المساومة على شقها الامبريالي مقابل اليهودي الخاص ، فكان الأول هو الأرجح ـ أي انها طرحت خدماتها في الحلف الجديد مقابل مصلحتها الذاتية على الصعيد الفلسطيني ، فكان لها ما أرادت . إذ ازاء تقدير موقعها في الحلف ، سلمت لها

الاطراف الأخرى بما تريد كحل للمسألة الفلسطينية . وفي اطار مثل هذه « التسوية » لا مجال لغير مثل هذا الحل .

ولو افترضنا جدلا ، وليس من مبرر لذلك ، وانما هو حسم للجدل أو تحاشياً له ، ان ادارة كارتر ، لأمر ما ، تبنت قرارات المجلس الوطني الفلسطيني ، ومضت الى تجسيدها من خلال مفاوضات التسوية ، فهل تستطيع ذلك ؟ في تقديري ، ضمن المعطيات الراهنة ، أن الجواب هو لا . واذا افترضنا ان إدارة كارتر اصرت على موقفها ، بغض النظر عن جميع العقبات ، فانه لن يكون باستطاعتها تحقيق إرادتها قبل منتصف عام ١٩٨١ ، نظراً لأنها ستخوض معركة انتخابية في العام ١٩٨٠ ، وكذلك الحكومة الاسرائيلية في العام ١٩٨١ . واذا افترضنا أن ادارة كارتر خاضت معركة شرسة مع حكومة بيغن ، فان ذلك سيضعف كلا منهما سياسياً ، وتبقى الالة العسكرية الاسرائيلية لتعوض عن العجز السياسي لحكومة بيغن . ولماذا هذا الافتراض ؟ الجواب انه قطع لكل المراهنات على واشنطن من خلال « التسوية السلمية » . والظاهر أن جميع الدلائل تشير الى عكس ذلك . فأي اعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ، في حالة حصوله ، لن يكون إلا على أساس قرارات « كامب ديفيد » ، وليس قرار مجلس الأمن ٢٤٢ ، الذي ألغته « المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية » ، بتجاوزها اياه . والأكيد أن الكيان الصهيوني في هذه المرحلة من تطوره ، ليس فقط انه لا يريد حلا للمسألة الفلسطينية ، يقوم على أساس الاعتراف بـ « الحقوق المشروعة » للشعب الفلسطيني ، وانما هو عاجز ، بسبب توازن القوى داخله ، عن اتخاذ القرار الحاسم على هذا الصعيد . واذا فرض عليه اتخاذ مثل هذا القرار ، فان ذلك لن يتم دون كسر ظهر الكيان ، الذي تنقصه ، في هذه المرحلة ، المرونة اللازمة للتعامل مع المسألة الفلسطينية ، والسؤال ، هل من ادارة اميركية ، تستطيع من خلال « تسوية سلمية » ، أن تعتمد حلا من شأنه تحطيم الكيان الصهيوني ، أو حتى تحجيمه ؟ يبقى اذن ، طريق آخر للوصول الى مثل هذا الهدف ، يعتمد فرض مثل هذا الحل من خلال مسار مغاير لـ « التسوية السلمية » ، يبدأ بتخليص القرار العربي والفلسطيني من ارهاب التسوية ، والانطلاق للتصدي لها ، وحشد القوى للصمود في وجه اطرافها ، ومن ثم الهجوم عليها لانهائها ، وخلق ارضية صلبة لمسار تسوية حقيقية ، ينطلق من موازين قوى مختلفة ، تفرض حلا عادلا وشاملا للنزاع العربي ـ الاسرائيلي .

عـابـدين جبـــاره

التعَـامل مَع أمـــيركا الأخــرى

في أعقاب النجاحات التي حققها الصهاينة ، بدعم من الدول الغربية ، في خلق دولة يهودية في الشرق الأوسط سنة ١٩٤٨ ، نظرت الدول العربية المستقلة سياسياً آنذاك ، تحت مظلة جامعة الدول العربية ، إلى النجاح الصهيوني على أنه منبثق ، جزئياً على الأقل ، من جهاز اعلامي متفوق في الغرب ، وأوردت تلك الدول الحجة القائلة انه بما أن القضية العربية هي عادلة ، فمن الضروري فقط نشر المعلومات في الغرب حول « الحقائق الفعلية » المتعلقة بالنزاع الفلسطيني ـ الصهيوني ومن ثم ستؤدي هذه « الحقائق الفعلية » الى تغير في سياسات الدول الغربية التي كانت معادية لوجهة النظر العربية . ومن هذا التفكير جاء خلق دائرة الاعلام العربي ضمن الجامعة العربية وتأسيس مكاتب المعلومات العربية في العديد من بلدان الغرب . وفي الولايات المتحدة توقف عدد هذه المكاتب ونوعية موظفيها على الموازنة السنوية التي تخصصها لها الجامعة ، وعلى الاعتبارات السياسية في تعيين كبار الموظفين ، وبوجه عام كانت نشاطات المكاتب ، خلال العقود الثلاثة لوجود ستة أو سبعة من مثل هذه المكاتب في جميع أنحاء الولايات المتحدة ، تقتصر على التوزيع المتقطع لمنشورات باللغة الانكليزية حول العالم العربي وثقافته وتاريخه ، وحول القضية الفلسطينية . وبالاضافة إلى ذلك كان موظفو المكاتب يتكلمون أمام جماهير المدارس والكنائس ورجال الأعمال والأندية الاجتماعية ويجيبون عن استعلامات وأسئلة حول العالم العربي أو فلسطين كانت ترد الى المكاتب من حين إلى آخــر . ويمكن إثارة الشك حول جدية هذا الجهد الاعلامي بالاشارة إلى ممارسات مثل تعيين رجل اعمال عربي كمدير جزئي لمكتب الاعلام العربي في إحدى مدن الغرب الأوسط الاميركي الرئيسية أو ، في حال مكتب آخر ، تعيين مدير لا يتقاضى أجراً ويعمل في إحدى الجامعات المجاورة . وفي إحدى الحالات الأخرى صرف أحد رؤساء المكاتب الفرعية الأكثر كفاءة مهنية من منصبه عندما أساءت منشورات أرسلت بالبريد من مكتبه الى إحدى الدول الأعضاء في الجامعة العربية

ولم تحاول أية دولة من الدول الأعضاء في الجامعة العربية ، في أي وقت خلال الفترة اللاحقة لخلق إسرائيل ، ان تقوم بتحليل في العمق للمجتمع الاميركي وكيف توزع السلطة أو تتخذ القرارات فيما يتعلق باستعمالات السلطة في مجتمع مصنع معقد ومتعدد الجماعات . ومن

الناحية الأخرى فهم الصهاينة فهما حسنا ديناميكية الحياة السياسية في الولايات المتحدة والطريقة التي قد يتفاعلون فيها مع الجماعات والمصالح المختلفة . وذلك لأنهم كانوا منخرطين بنشاط منذ فترة طويلة في الغرب ولأن لديهم مؤسسات تمثيلية قوية على صعيدي الجالية والطائفة وفي الحقلين الاجتماعي والسياسي . وفهمت القيادة الصهيونية في الولايات المتحدة ضرورة اقامة تحالفات مع جماعات المصالح المختلفة التي لها صلة بالسياسة الخارجية الأميركية . وكان جوهر هذا التحالف هو انه قائم بين مصالح النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة والأهداف الصهيونية . وقد أشار مؤتمر بيلتمور BILTMORE الذي انعقد في العام ١٩٤٢ ، والذي سمي هكذا نسبة الى فندق بيلتمور في مدينة نيويورك حيث أقيم المؤتمر ، إلى انتقال الصهيونية من تحت الرعاية الامبريالية البريطانية انها آخذة في البروز بوصفها القوة العالمية المسيطرة من الحرب العالمية الثانية ، وابتدأ الصهاينة حملة تستهدف قطاعات متنوعة من الحياة الأميركية المنظمة عن طريق استعمال أفكار مختلفة .

فبالنسبة إلى حركة العمال والحركة الديموقراطية الاشتراكية كانت الصهيونية حركة ريادية ومساواتية EGALITARIAN لاعادة اليهود إلى الأرض . وبالنسبة الى المتدينين المحافظين والكنائس ، كانت الصهيونية تحقيقاً لوعد الله .

وبالنسبة الى الاميركيين الليبراليين كانت الصهيونية عقاباً على الذنب الغربي الجماعي المرتبط بقتل اليهود في أوروبا من قبل النازيين . واخيراً ، وهو الأمر الأهم ستقف الصهيونية كمركز قوي عسكرياً ومتقدم للمصالح الامبريالية الغربية ضد « القبائل » في البلدان المتخلفة في الشرق الأوسط ،التي ستتحدى اكيداً الاستعمار الغربي اولا ، ثم الاستعمار الجديد .

منذ بروز الأنظمة القومية في عدة دول عربية بعد العام ١٩٤٨ ، استمر نقاش ضمن هذه الأنظمة حول ما إذا كان يجب أن تحاول التعامل مع الولايات المتحدة أم لا . وهناك اليوم في العالم العربي هؤلاء الذين يقولون « الى الجحيم بالأميركيين والى الجحيم بالولايات المتحدة » ، في حين أن هناك آخرين يقولون بحذر يجب ان نتعامل مع الأميركيين أو يجب ان نتعامل مع الولايات المتحدة .

هذان هما الموقفان المتناقضان اللذان كثيراً ما يسمعهما المرء في الشرق الأوسط حتى اليوم . وهذان الموقفان ، بالنسبة الى رجل مثلي ولد وترعرع وتثقف في الولايات المتحدة ، وملتزم التزاماً حميماً بمسائل تحرير فلسطين والعدالة الاجتماعية في العالم العربي ، يثيران اسئلة يجب ان يجيب عنها كل من هو معني بهذه المشكلات . ولا يجب الاجابة عنها بالنظر إلى الحقيقة الموضوعية للقوة الأميركية الاقتصادية والعسكرية والسياسية في العالم اليوم ، فحسب ، بل أيضاً لأن الجواب ضروري للنشاط السياسي الصحيح والفعال وذي المبادئ في سياق المجتمع الاميركي حول تورطه لا في الشرق الأوسط فقط بل في جميع انحاء العالم .

السؤال الأول الذي ينبغي الاجابة عنه هو ما إذا كنا نساوي الاميركيين بحكومة الولايات المتحدة عندما نقول أن الولايات المتحدة جائرة بالنسبة الى حقوق ومصالح الشعوب في الشرق الأوسط . واعتقد ان معظم العرب لن يقولوا أن كل اميركي هو مسؤول عن سياسة حكومته أو يشارك فيها . وثمة تفهم بأن السياسات الأميركية في الخارج لا تعكس بالضرورة مصالح أو

رغبات أو مشاعر الكثيرين من الاميركيين .

والسؤال الثاني الذي يجب الاجابة عنه هو : « عندما تتعامل مع الولايات المتحدة ، فمع من انت تتعامل ؟ » بالطبع هناك علاقات من حكومة إلى حكومة عبر أقنية ديلوماسية منتظمة وهذا هو ما عناه معظم العرب عندما قالوا أن على العرب ان يتعاملوا مع الولايات المتحدة . ويفترض هذا ، بالطبع ، ان السياسة الخارجية الاميركية هي نتاج نخبة اميركية ولهذا فان المرء يتعامل مع هذه الطبقة ضمن المجتمع الاميركي في حل النزاعات بين الطريقة التي تنظر بها حكومة عربية الى مصالحها القومية والطريقة التي تنظر بها النخبة الحاكمة في الولايات المتحدة إلى المصلحة القومية الأميركية .

والأمر الذي تريد ان تثبته هذه الدراسة هو ان الحكومات أو الحركات السياسية أو التحريرية في العالم العربي لم تفهم ، إلا بطريقة محدودة جداً ، تعقيد المجتمع الأميركي وتناقضاته وديالكتيكاته وهي بالتالي لم تكن قادرة على الافادة من مصدر حقيقي جداً للدعم الطبيعي لبرامجها أو أهدافها . واذا وافقنا على أن المواطن الأميركي ليس بالضرورة مرادفاً للحكومة الأميركية ، فعلينا من ثم أن نسأل إذا كان لذاك الفرد أي تأثير على عملية اتخاذ القرارات في المجتمع الأميركي .

لقد صارت الولايات المتحدة مجتمعاً صناعيا بيروقراطيا تميزه منظمات رسمية واسعة النطاق . وتلعب السياسة ، ولا سيما السياسة الخارجية دوراً غير مهم في مصلحة المواطن المتوسط . وليس للافراد أي وجود مستقل عن انتسابهم لاحدى الجماعات ، كما ان مواقفهم وسلوكهم تحدد الجماعات التي يرتبطون بها ، والجماعة تقرر بدورها ، وتعزز مواقفهم وسلوكهم . ولا يستطيع المواطن المتوسط أن يكون له تأثير إلا في المجتمع الأكبر كعضو في جماعة أو جمعية من نوع ما .

وهكذا نلاحظ ان لدى الولايات المتحدة الألوف من الجماعات والجمعيات المختلفة التي تسعى الى دعم المصالح الخاصة لاعضائها ، سواء كانت هذه الجماعات والجمعيات دينية أو اجتماعية أو ثقافية أو إثنية أو سياسية أو اقتصادية . وتسمى هذه جماعات المصالح « الخاصة » . وشعرت الطبقات الحاكمة التقليدية التي تدعي انها تمثل المصلحة الاميركية « العامة » ، بقلق متزايد ازاء نفوذ ونشاطات جماعات المصلحة الخاصة هذه . واللوبي الموالي لاسرائيل في الولايات المتحدة هو أحد جماعات المصلحة الخاصة هذه .

وبما أن النظام الاجتماعي ــ الاقتصادي الاميركي يرتكز على الرأسمالية فان أهم الجماعات هي تلك التي تعكس المصالح الاقتصادية ، وهذه الجماعات هي التي كان لها تأثير مسيطر على صياغة وتحديد وتنفيذ السياسة الداخلية والخارجية الاميركية . وبالنظر الى الفرق الشاسع في الموارد المتوفرة لجماعات المصلحة الاقتصادية و « جماعات المصلحة الخاصة » ولأن محك السياسة الاميركية هو المحافظة على نظامها الاقتصادي ، فان جماعات المصالح الاقتصادية هي مختلفة نوعياً بحيث انها توصف كمصالح عامة وليس كمصالح خاصة .

وتتنافس جماعات المصالح الخاصة أحيانا فيما بينها وأحياناً تقيم تحالفات فيما بينها لجهة الضغط من أجل مطالبها على النخبة الحاكمة . وتسعى السلطة الى الاشراف على المحافظة

على اهتمامها الأولي وتعمل كحكم ومصالح لهذه المطالب والمصالح التي تتبناها جمهرة الجماعات العنصرية والدينية والاجتماعية والاثنية والمهنية ، وتعمل نخبة السلطة هذه عبر خطوط الاحزاب السياسية الرئيسية ولها جناح ليبرالي ، وعناصر محافظة وعناصر تقف بين الاثنين .

واذا كان المجتمع الاميركي يتألف من جماعات مختلفة عديدة تضغط من أجل مطالبها على النخبة الحاكمة ، وهي المطالب التي اما ترفضها النخبة الحاكمة أو تقبلها أو تقولبها بطريقة تنسجم مع المصالح الاقتصادية التي هي اساس اسنادها الثابت ، فكيف ينظم هذا في نطاق النظام السياسي ؟ إن نظام الحزبين الموجود في الولايات المتحدة هو نظام يمثل القطاعات المختلفة للمجتمع لكن هناك اتفاقاً على المقدمات المنطقية الأساسية في الطريقة التي ينظم بها المجتمع . فرئاسة الجمهورية والسلطة التنفيذية للحكومة الاميركية ، التي يسيطر عليها رئيس الجمهورية ويديرها ، هما النظير السياسي لتركيز السلطة الاقتصادية في الشركات الكبيرة والمؤسسات المالية. والكونغرس منظم بحيث يمثل المصالح الاقليمية. وقام رجال الكونغرس بوظيفتهم الى حد كبير بوصفهم ممثلين لبنى السلطة المحلية أو المصالح الخاصة .

في السياسة الخارجية ، ولنحو ٢٠ سنة في الولايات المتحدة من العام ١٩٥٠ وحتى أواسط الستينات ، كان هناك اجماع سياسي وطني على الخطوط العريضة للسياسة الخارجية . وكان ذلك الاجماع يدعى BIPARTISANISM يعني أنه ايما حزب من الحزبين فاز برئاسة الجمهورية ، فان الحزب الآخر سيؤيده في السياسة الخارجية . ومع بروز الولايات المتحدة في الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية بوصفها القوة العالمية الرئيسية واندماج الاتحاد السوفياتي واوروبا الشرقية تحت المبادىء الاقتصادية والسياسية لماركس وانجلز ، اعتبرت الولايات المتحدة أن محك سياستها الخارجية هو احتواء الشيوعية .

وصارت سياسة احتواء الشيوعية هذه ، التي دعا إليها اولا جورج ف . كينان حملة صليبية في عهد ايزنهور ودالس لخلق تحالفات عسكرية تحيط بالاتحاد السوفياتي والصين ، ولتطوير اسلحة نووية حرارية متقدمة .

ولما واجه جون ف . كندي خطراً متزايداً تثيره الأسلحة النووية ، وحقيقة ان التحالفات العسكرية الاميركية لم تمنع حركات التحرر الوطني من تهديد حليفات الولايات المتحدة ، أخذ ينمي قدرة أميركية على خوض حروب محدودة في البلدان النامية . وكانت الحرب الفيتنامية محك قدرة نخبة السلطة في الولايات المتحدة على خوض حرب غير نووية محدودة من أجل المحافظة على المصالح الاقتصادية الاميركية ضد حركة « عصابات » جماهيرية شعبية ومنظمة . وكانت نتائج الحرب حاسمة تماماً . فان التورط الاميركي في جنوب شرق آسيا وتأثير ذلك التورط على المجتمع الأميركي ، اضافة الى صراع الحقوق المدنية السوداء في الولايات المتحدة وفضيحة ووترغيت ، كان لها جميعاً تأثير على المجتمع الأميركي عميق كأي حدث آخر في الفترة اللاحقة للحرب العالمية الثانية .

لن أتناول بالبحث إلا تأثير هذه الاحداث الثلاثة (وأحدها حركة اجتماعية ، والآخر حرب استعمارية جديدة ، والثالث خلع شخص انتخب لأعلى منصب في الحكومة) على امكانيات

وضع برنامج عربي فعال للتفاعل مع القوى الشعبية في الولايات المتحدة .

كانت الحرب الفيتنامية أول حرب استعمارية لأميركا وانطوى خوضها على ثمن مادي وبشري ومعنوي وسياسي باهظ بالنسبة الى الولايات المتحدة . وقبل أن تنتهي الحرب على حساب البرامج والاحتياجات الاجتماعية الداخلية ، كان ثلاثة ملايين رجل وامرأة اميركيين قد خدموا عسكرياً في الفيتنام . وأحدثت الحرب ، إلى جانب ما سمي بفضيحة ووترغيت ، فقدان ثقة هائلا لدى الشعب الاميركي من نظام الحكم وقيم المجتمع . وطوال فترة الحرب نشأت في الولايات المتحدة حركة كبيرة وان تكن غير منظمة ضد الحرب ، وفي أوج تلك الحركة زحف نصف مليون شخص على واشنطن للتظاهر ضد الحرب وطرأ ارتفاع في المنحى الراديكالي والعنف السياسي بين الطلاب في اميركا .

وفي حين أن حركة السلام في الولايات المتحدة سبقت تورط اميركا في الفيتنام ، فقد نمت الى حجم هائل لأنه كان يصار الى ارسال الشبان الاميركيين الى الخارج ليموتوا أو ليصيروا مقعدين ، وذلك دعماً لسياسة كان يمكن تحملها في ظروف اخرى . ولا بد من التشديد هنا على أن النمو السريع في حجم الحركة المناهض للحرب بحيث تحولت الى حركة يشارك فيها الكثيرون من الاميركيين المنتمين الى مجموعات أعمار مختلفة ، وخلفيات اجتماعية – اقتصادية مختلفة ، وديانات وخلفيات دينية مختلفة . يمكن رده الى فقدان الأرواح الاميركية في الخارج في حرب لم ينظر اليها على انها تعزز اية قيم اميركية معبر عنها . وهذا التمزيق لحياة الملايين من الاميركيين هو الذي كان العامل الحاسم . ولم يكن التأثير الاقتصادي للحرب على حرمان الأميركيين الخدمات الداخلية التي يحتاجونها سوى عامل ذي اهمية ثانوية لم يكن بوسعه ، في حد ذاته ، أن يبني الحركة المناهضة للحرب .

في أواخر الخمسينات وأوائل الستينات كانت هناك ادلة متزايدة على أن تجارب القنابل النووية تلوث الجو، وكان استراتيجيون امثال هنري كيسنجر وهيرمان كاهن يحثون على درس استخدام الأسلحة النووية رداً على أي خطر تقريباً يهدد المصالح الاميركية المفترضة . كذلك خلال هذه الفترة كان عدد كبير من الطلبة ومهنيي الطبقة الوسطى قلقين من أن الولايات المتحدة تنتهج سياسات من المرجح أن تورط الولايات المتحدة في حرب رئيسية . وانتعشت الحركة المناهضة للحرب نتيجة لتصعيد الحرب في الفيتنام ، وانتشرت في الجامعات في جميع انحاء البلاد حركة « تعليمية » انطوت على حلقات دراسية طويلة كانت تدوم احياناً ٢٤ ساعة واحياناً طيلة عطلة نهاية الاسبوع . وكانت هذه الحركة حملة تثقيفية واعلامية كبرى حول الحرب انتشرت في جميع انحاء الولايات المتحدة ووضعت الأساس لخلق جماعة نواة مطلعة من منظمي الحركة المناهضة للحرب .

من المهم التعريف بجماعات النوى التي استطاعت ان تبني ائتلافات واسعة تمثل العمال والجماعات الدينية والجماعات المهنية وجماعات الطلبة والسياسيين الخ . وفي قلب الحركة كان دعاة السلام التقليديون ، الذين عارضوا الحرب كحرب ، والاشتراكيون على اختلاف الوانهم .

هاتان الجماعتان النواتان كان اعضاؤهما المنظمين الأساسيين الذين استطاعوا أن

يخرجوا الألوف الى الشوارع وينسقوا نشاطات على نطاق الأمة كلها ضد الحرب . واستطاعوا ان يجتذبوا الملايين من الاميركيين الذين لم يكونوا سياسيين او الذين كان لهم مستوى متدن من الفهم السياسي . وعن طريق هذه الحركة تمت ربكلة RADICALIZED اعداد كبيرة من خريجي وطلبة الجامعات الذين صاروا يشكون في التنظيم الأساسي للمجتمع الاميركي .

لا شك هناك في ان هذه الحركة المناهضة للحرب كان لها تأثير عميق على المجتمع الأميركي . واستطاعت ان تستغل انشقاقاً ضمن نخبة السلطة فيما يتعلق بتورط الولايات المتحدة في الفيتنام . وكان الخوف من تعبئة معارضة واسعة الانتشار عاملا رئيسيا في القرار الذي اتخذه الكونغرس الأميركي عدم السماح بالمزيد من التورط في الفيتنام . وأخيراً فان التأييد العام للمركب العسكري ــ الصناعي انخفض الى حد كبير ، كما ان الكونغرس يمعن النظر أكثر حالياً في المخصصات المالية العسكرية .

هذه العناصر المناهضة للحرب ، بالنظر الى فهمها الواضح لسياسة التورط الاميركي في الخارج هي حليفات طبيعية لنضالات شعوب العالم الثالث في كل مكان ، ولا سيما النضال الفلسطيني ، لانها لا تسمح للشعور الغربي بالذنب بأن يغشي الرؤية السياسية الواضحة .

في أغلب الأحيان كان الاميركيون السود والاميركيون المكسيكيون والهنود الاميركيون والبورتوريكيون وأعضاء الاقليات العنصرية والاثنية الاخرى يستثنون من فوائد الازدهار الاميركي اللاحق للحرب . وهذه الاقليات ، التي تؤلف نحو ٤٠ بالمئة من مجموع سكان الولايات المتحدة ، أخذة بالنمو في القوة والنفوذ السياسيين بالنظر الى النضالات التي خاضتها في مجتمعاتها وفي المجتمع الأكبر . فلدى الولايات المتحدة ، على سبيل المثال ، احدى اكبر مجموعات السكان الناطقين بالاسبانية في العالم .

وقد نظم الممثلون السود المنتخبون في الكونغرس مؤتمراً اسود يضم نحو ١٦ عضواً يعملون معاً على القضايا التي تؤثر على السود في الولايات المتحدة . وهذه الأقليات فرض عليها القيام بأحط الأعمال (حيث لا تجد عملا على الاطلاق) ، وأرغمت على العيش في مناطق غير مرغوب فيها من المدن الاميركية ، ويقدم لها أسوأ الخدمات العامة في حقول مثل التربية والصحة العامة . وأطلقت هذه الأوضاع حركات اجتماعية في الولايات المتحدة لتغييرها . وكان الاميركيون السود ، بوصفهم اكبر جماعة اقلية في طليعة هذا النضال ، الذي انطوى على اضرابات اعتصام ، وتظاهرات احتجاج ، واجتماعات حاشدة ، وتسجيل المقترعين ، والانتخابات ومعارك قضائية الخ .

وطور الكثيرون من هؤلاء السود ، عن طريق التعرض للثقافة الافريقية ، ونضالات التحرير الافريقية ، وأوضاعهم هم الموضوعية والمنطوية على الظلم الفاضح ، منظورات عالم ثالث واعية وغير واعية ، ووعياً مناهضاً للاستعمار وتأييداً لنضالات التحرير .

مثال ذلك ان المحافظ الأسود لمدينة ديترويت ، خامس اكبر منطقة مدينة في الولايات المتحدة ، لدى عودته من رحلة الى الشرق الأوسط في العام ١٩٧٨ مع وزير الخارجية الأميركية سايروس فانس ، كان فيها الأسود الوحيد بين ٤٠ أميركياً خاصاً دعوا إلى مرافقته ، قال في رد على سؤال عما إذا كان يؤيد الارهاب :

« إن موقفي هو انه بنفس الطريقة التي يحتاج فيها اليهود الى وطن فان الفلسطينيين يحتاجون إلى وطن » .

وتحدث يونغ الى المراسلين بعد المؤتمر فقال انه لا يعتقد ان الاعتراف الاسرائيلي بمنظمة التحرير الفلسطينية يجب ان يكون شرطاً لتسوية في الشرق الأوسط .

إلا أن المحافظ اعترض على خطاب القي في الكنيست . برلمان اسرائيل ، ندد فيه موندیل بالتكتيكات الارهابية لمنظمة التحرير الفلسطينية .

وقال يونغ ان « الارهاب هو تكتيك تستخدمه الشعوب المضطهدة من وقت لآخر » .

وقال يونغ ان رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن هو ارهابي سابق . « كان قائداً للارهابيين . كان قائداً للارغون ، التي كانت الموازي اليهودي لمنظمة التحرير الفلسطينية في تلك الأيام » .

وأضاف يونغ : « كان أشهر اعمال بيغن الارهابية نسف فندق الملك داود » . ولدى سؤاله عما إذا كان الارهاب تكتيكاً شرعياً يحق للشعوب المضطهدة ان تستخدمه ، أجاب يونغ اولا : « لم أقل ذلك » . ولكنه ، بعد التفكر لحظة ، غير جوابه قائلا : « أقول نعم » . وأضاف يونغ : « ماذا عساكم تفعلون ؟ » وقال : « اعتقد أن أي تكتيكي هو شرعي عندما تكون قدم شخص ما موضوعة على عنقك » وأضاف انه إذا لم تستطع جماعة مضطهدة ان تواجه عدوها « في العلـن ، فانها ستحاول آنذاك ان تأتي من ورائه » .

كانت هذه لغة خطيرة وقوية جداً من احدى اهم الشخصيات السياسية في الحزب الديموقراطي ويقينا أهم شخصية سياسية سوداء في الولايات المتحدة اليوم . وتأتي فطنته السياسية المزوجة بالشعور الانساني من خلفيته كعضو في اقلية مضطهدة في الولايات المتحدة ، وقد شق طريقه الى منصب القيادة العليا .

كان السود في الولايات المتحدة بعض اوائل التجمعات الاجتماعية التي أعربت عن دعمها للفلسطينيين . ولذلك فان برنامجاً لزيارات تقوم بها جماعات من الزعماء السود وغيرهم من قيادات الأقليات الى الشرق الأوسط ، من أجل التفاعل مع قادة هذه المنطقة حول جمهرة من القضايا ، ومن أجل الاعراب عن تأييد حقيقي لاهتمامهم ونضالاتهم ، هو برنامج من المحتم أن يزيد التفهم والدعم المستند الى مبادئ للحقوق الفلسطينية . وتماماً كما سافر قادة الحركة المناهضة للحرب تلبية لدعوة الى جنوب شرق آسيا خلال خوض الولايات المتحدة الحرب هناك ، كذلك ايضاً يجب ان تقوم وفود مختارة من الاشخاص ذوي الدوائر الانتخابية في الولايات المتحدة بزيارات الى مخيمات الفلسطينيين والمنظمات الجماهيرية الشعبية على أســاس متواصل .

لقد قامت هندية اميركية ، هــي أيضــا عضو في « اللجنة الدولية لمجلس الكنائس الوطني » بالسفر الى لبنان في ربيع العام ١٩٧٨ كعضو في وفد من الاميركيين الذين يمثلون جميع مراتب الحياة ، وقد نظمت تلك الزيارة ورعتها « جمعية خريجي الجامعات الأميركية

العرب » . سافرت الى جنوب لبنان بعد فترة قصيرة من الاحتلال الاسرائيلي والتقطت قطعاً من وحدات القنابل العنقودية المضادة للأشخاص والاميركية الصنع ، وكان الاسرائيليون قد استخدموها ضد القرويين في الجنوب . وقد نشرت النيويورك تايمز تقريراً عما حدث بعد عودتها الى الولايات المتحدة في اجتماع لمجلس الكنائس الوطني ، وهو ائتلاف ديني اميركي قوي :

فاز اقرار المحتوي على صيغة كلام اقوى . وتضمن قسماً من البديل المقترح يدعو الولايات المتحدة الى القيام بما يلي :

« التوقف عن تزويد أي بلد بأسلحة مضادة للأشخاص .

نشر قائمة بالبلدان التي زودت بهذه الأسلحة والمحدوديات ، إذا كان ثمة محدوديات ، التي وضعت على استخدامها من قبل البلدان التي تلقتها .

الكشف علناً عن أن أي استخدام لمثل هذه الاسلحة يخرق الشروط التي بموجبها زودت بها البلدان الأخرى .

الغاء أية طلبات بارزة لانتاج « القنبلة العنقودية » C. B. U.- 72 وأسلحة مماثلة » .

في النقاش حول القرار ، عرضت زعيمة هندية اميركية من كاليفورنيا ، هي جوان بوردمان ، غلاف قنبلة عنقودية قالت أنها التقطته في زيارة اخيرة إلى لبنان الجنوبي .

وقالت أنها رأت الدمار الذي انتجته القنبلة ، وجعلت من المتعذر على اللبنانيين الوصول الى بساتين البرتقال ومناطق اخرى .

القرار الأصلي قدمه زعيم هندي اميركي ، هو يوجين كروفورد من شيكاغو وضغط بعض انصار اسرائيل من أجل قرار بديل وضعت مسودته لجنة إسناد المجلس ، وهو يخفف الاشارات إلى اسرائيل . إلا أن مؤيدي القرار الاصلي ، بمن فيهم الممثلون الارثونوكس الذين لهم صلات بالمسيحيين في لبنان حالوا دون ذلك .

وكانت هذه ضربة قوية بالنسبة للقوى الموالية لاسرائيل في الولايات المتحدة لأنها أظهرت أن العناصر الهندية الاميركية الاصيلة بالاضافة الى تجمعات دينية مسيحية مهمة كانت قادرة ومستعدة للتكلم بصراحة حول قضايا الشرق الأوسط بطريقة تجد القوى الموالية لاسرائيل انها مضرة بمصالحها .

وعاد اميركي مكسيكـي ، هو أيضاً عضو في هذا الوفد ، الى الاودية الزراعية بولاية تكساس حيث يرأس حركة عمال زراعيين مكسيكيين وكتب مقالات لصحيفتهم وتحدث عن التضامن مع الاخوة والاخوات الفلسطينيين وشبه النضال الفلسطيني بنضال المكسيكيين في جنوب غرب الولايات المتحدة من أجل المعاملة المنصفة .

هذه الأقلية الوطنية المناضلة هي الحليفات الطبيعية لنضالات الشعوب العربية . كما ان صحافيين ليبراليين ، من مجلة تقدمية مهمة صغيرة تقرأ على نطاق واسع بين رجال الفكر الليبراليين ، عادا إلى الولايات المتحدة بعدما كانا جزءاً من الوفد نفسه ، ووصفا النزاع في

لبنان بأنه ليس نزاعاً دينياً ، كما يصور احياناً كثيرة في وسائل الاعلام الاميركية ، بل هو نزاع اجتماعي وسياسي . وهناك الكثيرون من أمثال هؤلاء الاميركيين الليبراليين والتقدميين الذين يصيرون ، لدى اطلاعهم على الحقائق الفعلية ، مستعدين لكتابة التقارير حولها كما يرونها ، وهم يؤلفون تجمع إسناد او قطاعاً ضمن المجتمع الاميركي .

لقد كان ما يسمى فضيحة ووترغيت ، إذا نظرنا اليها في منظور تاريخي ، محاولة قام بها الجناح الليبرالي الاميركي من نخبة السلطة لانتزاع السلطة من الجناح المحافظ وتجديد المؤسسات السياسية الاميركية بعد الهزيمة في الفيتنام . وبالنظر الى ما كشف النقاب عنه من الفساد المالي والسياسي في الولايات المتحدة خلال فضيحة ووترغيت ، فان ثقة الأكثرية الساحقة من الاميركيين في المؤسسات السياسية قد تضاءلت الى النقطة التي أخذ معها الناس يشكون في بعض المقدمات المنطقية التي قبلوا بها سابقاً حول الولايات المتحدة . وجاء جيمي كارتر الى الحكم استناداً الى برنامج سياسة خارجية ينطوي على اهتمام عميق بحقوق الانسان في الخارج واعتبر كارتر ومستشاروه استخدام حقوق الانسان هذا أداة يستطيع بها أن يتقدم على طول هدفين استراتيجيين رئيسيين في الوقت ذاته : اولا ، كانت قضية حقوق الانسان عنصراً لا يتمنى في المساعدة لاعادة حاسة الهدف والايمان الذي يحمله الشعب الاميركي بمجتمعه وحكومته بعدما اصابته الفيتنام ووترغيت بصدمة قوية . ثانياً ، كانت قضية حقوق الانسان اداة اضافية يجب ان تستخدم في المعارك الايديولوجية بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي .

كان كثيرون من الناشطين سياسياً في الولايات المتحدة يدعون منذ سنوات الى احترام لحقوق الانسان . ولم تمتنع الولايات المتحدة عن توقيع وابرام اتفاقيات حقوق انسان دولية مهمة فحسب ولكنها كانت تدعم بعض الدكتاتوريات الأكثر استبداداً في العالم . وعندما أخذ جيمي كارتر يتكلم عن حقوق الانسان ، أصبنا بصدمة وفوجئنا وأدركنا على حين غرة ان قيام رئيس جمهورية الولايات المتحدة بجعل قضية حقوق الانسان شعبية إنما يفتح أبواباً عديدة . أولا انه سيجعل الكثير من المؤسسات الاميركية الرئيسية (وسائل الاعلام ، التربية ، جماعات اصحاب المهن الخ) ذا حساسية لقضية حقوق الانسان . فهذه المؤسسات ، كوسائل الاعلام ، احياناً تنظر الى رئيس الجمهورية لتستوحي منه الموقف الذي يجب ان تتخذه. وباختصار رأينا ان دائرة انتخابية لحقوق الانسان آخذة في التطور وانه من الممكن ربط تلك الدائرة بقضية حقوق الانسان الفلسطينية وتم اطلاق حملة حقوق الانسان الفلسطينية في ربيع العام ١٩٧٨ مع فكرة الاتصال بالأشخاص والمنظمات الذين يحتلون مركزاً ما ضمن القوى الموازية في الولايات المتحدة . فالقادة السابقون لحركة السلام ، ورجال الدين والمنظمات الاشتراكية وتجمعات اصحاب المهن ، وزعماء العمال والتربيون جميع هؤلاء وغيرهم اعتبروا جزءاً من الجمهور المستهدف من أجل المصادقة على حملة حقوق الانسان ومن أجل نشر الحملة بين ابناء دوائرهم الانتخابية . واستخدمت أساليب كثيرة لاختراق الحواجز التقليدية التي بنيت وفرضت على النشاط الموالي للفلسطينيين في الولايات المتحدة . ومثل هذا النشاط على أساس منظم ومتواصل يخلق المناخ الذي تتم فيه التغييرات في السياسة الأميركية ، وذلك عن طريق خلق بيئة قبول بالمفاهيم والأفكار التي كانت سابقاً ممنوعة كاختيارات قابلة للحياة

بالنسبة الى صانعي القرارات . وهذا النوع من الاتصال بالقوى والمنظمات الاميركية الشعبية يرتكز على الفهم الجوهري ان المجتمع الاميركي ، كجميع المجتمعات ، له حياة سياسة ولا يمكن معاملته كمجرد كتلة غير مميزة ولا شكل لها .

وأظهر اختبار اخير مع منظمة مؤلفة من ٧٠٠٠ محام وطالب حقوق وعامل قانوني تقدمي ، وهي منظمة منخرطة في الكثير من القضايا القانونية والسياسية الاميركية الداخلية والدولية ، إن العمل مع القوى التقدمية والشعبية ، لا لرفع مستوى وعي اعضائها الافراد حول قضايا الشرق الأوسط فحسب ، بل أيضاً للحصول على دعم ومصادقة تنظيميين ليس ممكناً فحسب ولكنه ضروري جداً . وفي حال « نقابة المحامين الوطنيين » ، التي تصف نفسها كنقابة محامين راديكالية بديلة وقد دافعت عن الناشطين في الحركة المناهضة للحرب ، والمناضلين من أجل استقلال بورتو ريكو والثوريين السود ، طرحت قضية الشرق الأوسط أمامها في عدة مناسبات مختلفة. وبالنظر الى وجود عدد كبير من الاعضاء ذوي الخلفية اليسارية اليهودية ، فان الميل الأول كان الى تجنب معالجة القضية على الاطلاق لأنها لم تكن مركزية بالنسبة الى عمل نقابة المحامين . ثم طرح في العام ١٩٧٤ قرار سياسي يدعو المنظمة الى المصادقة على الحق الفلسطيني في تقرير المصير ، وعلى اعتراف الولايات المتحدة بمنظمة التحرير الفلسطينية بوصفها الممثلة الشرعية الوحيدة للفلسطينيين والى التنديد بانتهاك حقوق الانسان الفلسطينية . ونوقش القرار ووضع على جدول الأعمال على أساس ان المنظمة لم تكن مطلعة اطلاعاً كافياً على عناصر النزاع لتبني موقف سياسي . وأدى النقاش ضمن المنظمة اخيرا ، في العام ١٩٧٥ ، إلى تبني نقابة العمال قراراً يدعو فروعها الخمسة والسبعين في جميع انحاء الولايات المتحدة لدراسة نزاع الشرق الأوسط . وحددت الخطوط الهادية حول القضايا التي يجب درسها كما يلي :

١) هل يوجد لدى الشعب الفلسطيني حق في تقرير المصير ؟

٢) هل يخوض الشعب الفلسطيني نضالا من أجل التحرير الوطني ؟

٣) هل يوجد لدى الشعب اليهودي حق في تقرير المصير في الشرق الأوسط ؟

٤) هل يجب ان توجد اسرائيل كدولة يهودية ؟

٥) هل يجب ان يكون للفلسطينيين حق في العودة الى بيوتهم وأراضيهم ؟

٦) هل كان تأسيس الدولة اليهودية في الشرق الأوسط استجابة شرعية لاضطهاد اليهود في اوروبا ؟

٧) ماذا كان دور الطبقات الحاكمة الاميركية والبريطانية والفرنسية في تشجيع قيام اسرائيل وفي تأسيسها ؟

٨) إلى أي حد ، إذا كان هناك من حد ، أثرت العنصرية ضد اليهود والعرب في قدرة اليسار الاميركي على الوصول الى موقف ذي مبادئ فيما يتعلق بالنزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي ؟

٩) بأية طرق تعمل اسرائيل وبعض الدول العربية كعملاء للامبريالية الغربية في الشرق الأوسط ؟

كذلك دعا القرار الى الدفاع عن الفلسطينيين والعرب في الولايات المتحدة ضد الاضطهاد القانوني لنشاطاتهم السياسية ، والى نشر دراسات حول انتهاكات الحقوق الانسانية للفلسطينيين والاسرائيليين التقدميين ، والى ارسال بعثة استقصاء حقائق الى الشرق الأوسط .

ونتيجة لقرار الدراسة ، قامت المنظمة بنشاطات في فروعها في جميع انحاء البلاد . وتم اعداد منشورات هداية للدراسة ، وعرضت افلام ، واقيمت مناقشات وحلقات دراسية . وبسبب الحرب الأهلية اللبنانية ارجئ تنظيم بعثة استقصاء الحقائق حتى صيف ١٩٧٧ . وفي تموز من العام ١٩٧٧ ، أمضى ١٠ اعضاء من المنظمة ، من خلفيات مختلفة ، ثلاثة اسابيع مكثفة في السفر في لبنان والأردن واسرائيل والاراضي المحتلة . وفور عودتهم عقد مؤتمر صحافي في مدينة نيويورك لشجب انتهاكات حقوق الانسان التي وجدها الوفد في الضفة الغربية وغزة . ونشرت المعلومات على نطاق واسع . ونتيجة للمؤتمر الصحافي حدث الكثير من الجدل ضمن المنظمة وخارجها . وفي مؤتمر وطني لاحق عقد في آب (اغسطس) من العام ١٩٧٧ ، قدم اعضاء الوفد للمنظمة قرارين ليصار الى التصويت عليهما . تعلق القرار الأول بالقضايا السياسية للنزاع وتعلق الثاني بانتهاكات حقوق الانسان . واستغرق النقاش الداخلي عدة اشهر وبرز قراران قويان يدعمان النضال الفلسطيني وحق تقرير المصير ، ويشجبان انتهاكات حقوق الانسان . والأمر المهم الى الحد نفسه هو ان الوفد اعد تقريراً من ١٤٣ صفحة حول الأوضاع في الضفة الغربية وغزة وهذا التقرير هو الدراسة الأكثر شمولا التي وضعت حتى هذا التاريخ وقد لقيت توزيعاً وانتباهاً على نطاق واسع . إلا أن الأمر الذي لا بد من فهمه في العمل مع المنظمات الاميركية التي تقف ، في الجوهر ، موقفاً ودياً من النضالات المناهضة للامبريالية في جميع انحاء العالم ، هو ان العلاقات معها يجب ان تكون اخوية وعميقة ومستمرة ، وليس محاولة لاستغلال تأييدها . ففي كثير جداً من الأحيان لم تكن العلاقات متبادلة . او لم تنطو على تفاعل شعبي وتفهم حول مشكلات محددة او متبادلة .

إن احدى الحكومات العربية التي سعت الى خلق تفاعل مع الشعب الاميركي انما فعلت ذلك على أساس الاميركيين **الافراد** او كمحاولة لتأمين الدعم لقضيتها عن طريق اشخاص شهيرين في الولايات المتحدة لم يبرزوا بفضل انجازاتهم ولم يكن لهم تاريخ سياسي بتأييد النضالات التقدمية . وقد استطاعت وسائل الاعلام الاميركية ان تدمر هذه الجهود تدميراً كاملا . وتنبثق هذه المشكلات من انعدام الاطلاع الكافي على المجتمع الاميركي والنظام الأميركي والحياة السياسية للولايات المتحدة . والى ذلك تنشأ هذه المشكلات من الاعتماد على أفراد (بصفتهم صلة الوصل الاميركية) نلاحظ ان نشاطهم هو ليس مع القوى الشعبية في الولايات المتحدة ، ولا مع منظماتها الجماهيرية ونضالاتها لانهاء الحرب والتمييز وشخصياتها التي برزت بفضل اسهامها في حقول العمل المهني او القضايا الاجتماعية المهمة في الولايات المتحدة اليوم . وبالطبع لا يمكن فصل النضال من أجل العدالة للفلسطينيين في الشرق الأوسط عن النضالات من أجل العدالة في أي مكان من العالم . وهناك مثل هذه النضالات في الولايات المتحدة اليوم .

مايكل سليمان

الرأي العام الأميركي والمسألة الفلسطينية

أعتزم في هذه الدراسة تقديم معلومات جمعت من استطلاعات للرأي العام في الولايات المتحدة وتركزت بنوع خاص على المسألة الفلسطينية . ولكن بما ان الفلسطينيين هم ايضا جزء من العالم العربي فان الموقف الاميركي الأساسي من العرب يعرض على انه ينطبق كذلك على الفلسطينيين . وبالاضافة الى معلومات الرأي العام ، يجدر بنا ان نستكشف المناخ العام للرأي في الولايات المتحدة فيما يتعلق بفلسطين والقضايا العربية ، وان نقترح سبلا من شأنها ان تيسر حدوث تغير نحو الأفضل .

المواقف الاميركية من فلسطين والفلسطينيين

من المؤسف ان نلاحظ ان قسما كبيرا من الشعب الاميركي كان يكن ويظهر مشاعر ومواقف عنصرية ولا سامية . وهذه المشاعر والمواقف كانت في الثلاثينات معادية لليهود ، بينما هي في السبعينات تميل الى ان تكون معادية للعرب . وهكذا اظهرت عدة دراسات اجريت في الثلاثينات والاربعينات ، ان نحو ثلث الجمهور الاميركي كان ينسب صفات مميزة خاصة وبغيضة اخلاقيا الى اليهود ، مثال ذلك انهم « مختلفون » او انهم يزاولون « وسائل تجارية مختلفة » . وفي الواقع قبل ١,٢٪ في احد الاستطلاعات بالفكرة القائلة « اننا يجب ان ننتهج سياسة ابعاد اليهود عن هذا البلد الى وطن جديد ما باسرع ما يمكن فعل ذلك بلا وحشية »(١) .

ولكن بعد تأسيس دولة اسرائيل اخذت المواقف من اليهود تتغير نحو الافضل ، بينما اصيبت صورة العرب بين الاميركيين بتغيير نحو الأسوأ . وتم دعم هذا التغير بالوثائق على نحو واضح في الدراسات المختلفة لوسائل الاعلام في الولايات المتحدة ، خصوصاً في تغطية الاخبار من الشرق الأوسط وحوله(٢) . ولكن للأسف لا توجد سوى بضع دراسات قليلة حول صورة العرب او الفلسطينيين بين الاميركيين . وفي السبعينات قمت انا باستطلاعين لتقدير الصور العالقة في اذهان معلمي الدراسات الاجتماعية ومواد تاريخ العالم وطلبتهم في المدارس الثانوية فيما يتعلق بشعوب الشرق الأوسط ، بمن فيهم الفلسطينيون . والنتائج من دراسة العام

١٩٧٤ التي شملت معلمين في ولايات نيويورك وبنسيلفانيا وإنديانا وكانساس وكولورادو وكاليفورنيا هي كما يلي :

يميل المعلمون الى رؤية الفلسطينيين كلاجئين في حين ينظر الطلاب اليهم كفدائيين . وبوجه عام يبدو المعلمون اكثر تفهما لمحنة الفلسطينيين ويميلون الى ان يكونوا اكثر تعاطفا مع قضيتهم مما يتصورون ان طلبتهم متفهمون لهم ومتعاطفون معهم . وفي حين ان الكثيرين ممن اجابوا عن الاسئلة ، وان لم يكن معظمهم ، اشاروا الى الفلسطينيين بمجرد انهم « لاجئون » او ضحايا ظروف ، فان البعض حدد المسؤولية لتشردهم وشقائهم . والامثلة التالية توضح الاجابات التي لا تحدد من هو الملوم للجريمة الموصوفة: ضحايا نزاع شرق اوسطي ، أكباش محرقة مسلوبون ومظلومون ، مشردون ، ومنبوذون ، الاقرباء الفقراء ، مهجرون ، جماعة سلب منها وطنها بالخداع ، وقعوا اسرى في الوسط ، قوم مطرودون ، قوم منسيون الخ . ولم يتحاش بضعة مجيبين « تسمية المجرم » في المأساة الفلسطينية فحسب ولكنهم بدوا منزعجين لأن الفلسطينيين لم يواجهوا الحقائق ، مثال ذلك : « ضحايا تاريخ تعساء يرفضون أن ان يكونوا واقعيين » . الا ان بعض الآخرين اظهر اهتماما وانحى باللائمة بشكل محدد على بلد او جماعة من الناس من أجل محنة الفلسطينيين ، كما تبين الامثلة التالية : ضحايا الدولة اليهودية ، ضحايا الامبريالية ، ضحايا التصلب العربي ـ الاسرائيلي ، ضحايا الامم المتحدة ... « ضحايا حل مفروض لمشكلة اوروبية » .

وكوحدات قتال او فدائيين ، جاء التفكير في الفلسطينيين في نطاق العبارات التالية ، بين عبارات اخرى : عنف ، ارهابيون ، مختطفو طائرات ، حرب ، عسكرية ، فتح ، ايلول الأسود ، جيش التحرير الفلسطيني ، ثوري ، ومغاوير . ووصفهم آخرون كـ « جماعات ارهابية غير عقلانية » ، « جماعات ارهابيين في الوطن اليهودي يعارضون الاسرائيليين » ، او اشاروا الى « فظائع فدائيين راديكاليين تتناول الألعاب الاولمبية وخطف الطائرات واعمال الخطف » . وهذه الصورة للفلسطينيين « كلاجئين وارهابيين » تولد العطف والتفهم لدى بعض المجيبين ، والاشمئزاز لدى البعض الآخر . والجماعة الثانية ، الأصغر عددا نسبيا ، تظهر عداءها وكراهيتها للفلسطينيين في ملاحظات مثل : جبناء ، ثوار ، يساريون وغانغسترز شيوعيون ، متطرفون ، مثيرو متاعب ، يسببون المتاعب للولايات المتحدة ، رجال اردياء جدا ، متعصبون ، « غير عقلاء ، عنيفون ، مضللون » . عديمو الرحمة ، اغبياء ، رجال مجانين ، يطعنون في الظهر ، « جماعة مصطنعة يحافظ عليها من أجل غايات دعاوية » او مجرد « جماعة لا فائدة منها من الناس » . بيد ان نسبة مئوية اكبر من المجيبين ، ولا سيما بين المعلمين الذين يعربون عن آرائهم الخاصة (بدل اظهار آراء الطلبة) شعرت بعطف أكبر على الفلسطينيين واعربت عن الحاجة الى حل مشكلتهم . مثال ذلك انهم اشاروا الى الفلسطينيين كقوم « غير مرغوب فيهم ، غير محبوبين وغير معتنى بهم » ، ويساء فهمهم الى اقصى حد و « يهملهم الجميع » . واشاروا الى « الموت واليأس والاستغلال » ، واللاعدالة ، والمأساة ، و « بعض الشفقة على مشكلتهم » ، واعتقدوا ان الفلسطينيين « يريدون حياة بسيطة » و « يستحقون معاملة افضل » . وقال مجيب آخر ان الفلسطينيين « اشخاص مهجرون ، وغضبهم له ما يبرره ، ومشكلتهم يجب ان تحل قبل ان يكون هناك سلام في الشرق الاوسط » .

وجدير بالذكر ان مجيبين قليلين نسبيا اشاروا الى التاريخ القديم لفلسطين ، والى الكتاب المقدس او الأرض المقدسة .الا أن الأمر الأهم هو ان قلة ضئيلة من المجيبين ذكرت لب المشكلة ، وهي النزاع الفلسطيني ــ الصهيوني ــ الاسرائيلي بعبارات مباشرة وواضحة . اذن فان الصفة الأكثر بروزا بالنسبة لهؤلاء المعلمين وطلبتهم هي انهم قوم لاجئون او مشردون يستخدمون وسائل عنيفـة للانتقام او لاستعادة وطنهم[٣] .

وربما كان أفضل مثل موضح للصور الاميركية عن كل من العرب والاسرائيليين ، وهو مثل يظهر الفرق بجلاء ، يأتي من مسح جرى في العام ١٩٧٥ استجابة لسؤال يدرج عدة كلمات ايجابية وسلبية ويسأل : « هل كل كلمة تنطبق على العرب اكثر أم على الاسرائيليين اكثر ؟ » وربط نحو ٤٠٪ او نسبة اعلى كلمات : مسالم ، صادق ، ذكي ، « كالاميركيين » ، و « وودي » بالاسرائيليين ، في حين ان نفس النسبة المئوية من المجيبين تقريبا اعتبرت العرب متأخرين ، متخلفين ، جشعين ، متعجرفين ، وبرابرة[٤] .

عندما نركز بنوع خاص على المسألة الفلسطينية ، فان الاكتشاف البارز الذي يطالعنا هو[٥] :

مركزية المسألة اليهودية واسرائيل بالنسبة الى الوكالات المختلفة التي تقوم الرأي العام . وفي الوقت ذاته يبدو ان هناك جهلا تاما تقريبا ، او اهمالا مقصوداً ، لمصير الفلسطينيين العرب . وعندما يبحث المرء عن « فلسطين » او « العرب في فلسطين » في الفهرست ، على سبيل المثال ، فانه يحال الى « اليهود : الاستعمار » والى اسرائيل . وليس هذا لمجرد ان فلسطين لم يعد لها وجود كبلد في العام ١٩٤٨ . والامثلة التالية توضح الى حد كاف اهتمام الاميركيين الكلي باليهود واسرائيل وانعدام الاهتمام الموازي بالفلسطينيين العرب ــ وهو موقف جرد الفلسطينيين من الصفات الانسانية والغى عنهم صفة الشعب . في كانون الأول (ديسمبر) العام ١٩٤٤ ، طرحت نورك NORC السؤال التالي : « هل تعتقد انه يجب اعطاء اليهود فرصة خاصة للاستيطان في فلسطين بعد الحرب ، ام تعتقد انه يجب اعطاء جميع الناس الفرصة نفسها للاستيطان هناك ؟ »[٦] .

تجدر الملاحظة إلى انه كان يجري بحث « اليهود » بالنسبة الى آخرين (نفترض انهم اوروبيون) ممن قد يعطون فرصة خاصة للاستيطان في فلسطين ــ متجاهلين حقيقة ان فلسطين كانت آهلة بالسكان ومتجاهلين هؤلاء السكان الفلسطينيين العرب . وحتى عندما يؤتى على ذكر الفلسطينيين ، فان احتياجاتهم ورغباتهم لا تعلن بشكل ايجابي بل فقط بالنسبة الى اعدائهم ، كما في السؤال التالي الذي طرحته نورك في العام ١٩٤٤ : « هناك ما يزيد على مليون عربي وما يزيد على نصف مليون يهودي في فلسطين . فهل تعتقد انه ينبغي على البريطانيين ، الذين يسيطرون على فلسطين ، ان يفعلوا ما يطلبه بعض اليهود ويقيموا دولة يهودية هناك ، ام هل يجب ان يفعلوا ما يطلبه بعض العرب فلا يقيموا دولة يهودية ؟ »[٧] .

ان مركزية المشكلة اليهودية واضحة ايضا في السؤال الذي طرحته نورك في العام ١٩٤٨ حول رفع الحظر عن بيع الأسلحة الى اليهود والعرب . وللذين اعتقدوا انه ينبغي رفع الحظر (١٠٪) ، وجه سؤال تابع : « هل يجب ان نبيع كلا الجانبين ام اليهود فقط ؟ »[٨] كذلك ،

قبل نلك ببضعة اشهر ، وفي رد على السؤال : « هل لك ان تخبرني اية جماعة من الناس كانت تواجه المتاعب في فلسطين مؤخرا » ؟ بلغ عدد الاميركيين الذين سموا اليهود (او الصهاينة) ضعفي عدد الاميركيين الذين سموا العرب (او المحمديين) تقريبا[٩] . والى نلك طرحت غالوب في العام ١٩٦٨ السؤال : « ماذا تعتبر انه السبب الرئيسي للمشكلة بين الاسرائيليين والعرب » ؟ وكانت الاجابات[١٠] :

العداوة القديمة	٢٢٪
الحقوق الاقليمية	١٦٪
العرب يدعون ان اليهود اخذوا اراضيهم	٥ ٪
الشيوعية	٤ ٪
اسباب اقتصادية	٤ ٪
اسباب سياسية	٣ ٪
اسباب منوعة	١٠٪
لا رأي	٤١٪
	١٠٥٪ *

وهكذا استمر الفلسطينيون في ان يكونوا « شيئا غير موجود » بقدر ما يتعلق الأمر بالاميركيين . ويتضح الجهل بالفلسطينيين وبقضيتهم في نتائج سؤال طرحته غالوب في احد استطلاعاتها في العام ١٩٤٦ : « استنادا الى ما سمعت او قرأت، لماذا لا يسمح البريطانيون بدخول المزيد من اليهود الى فلسطين »[١١] ؟ ـ وهو سؤال يحدد ايضا مركزية المسألة اليهودية .

البريطانيون يريدون الاحتفاظ بالسيطرة	٥ ٪
يخافون استثارة العرب	١٥٪
لاسترضاء العرب وحماية مصالحهم في الهند ومصر والجزيرة العربية	٤ ٪
لا متسع في فلسطين	٥٪
متحيزون ضد اليهود ، يخشون ان يصيروا دولة رئيسية	١٠٪
يثيرون الكثير من المتاعب في فلسطين	٤ ٪
يخشون ان يحصل العرب على المساعدة من روسيا	١ ٪
اسباب منوعة	١ ٪
لا جواب	٥٤٪
	١٠٠٪

وجدير بالملاحظة فعلا ان الفلسطينيين العرب الذين سكنوا البلاد منذ قرون ، والذين كانوا يؤلفون اكثر من ٩٠٪ من السكان في العام ١٩١٧ ، والذين كانوا يؤلفون ثلثي السكان في وقت

---

* اعطى البعض اكثر من جواب واحد .

الاستطلاع ، والذين كانوا ينشدون الاستقلال عن بريطانيا ، لم يتركوا اي تأثير على وعي الاميركيين الا في اجوبة الـ ٥٪ الذين قالوا ان « لا متسع في فلسطين » . ويبدو ان ما « سمعه او قرأه » الاميركيون قد اسقط من الحساب ايضا اهمية الفلسطينيين العرب .

فليس من المفاجىء ، اذن ، انه عندما سئل الاميركيون حول « السماح لليهود بالاستيطان في فلسطين » ، كان رد الاكثرية الساحقة (٧٦٪) ايجابيا(١٢) . وكانت هذه هي الحال سواء صيغ السؤال بعبارات عامة ، او حدد الدخول بمئة الف يهودي ، كما اوصي في تقرير اللجنة الانكلو اميركية(١٣). وتنبغي الملاحظة ان الجمهور الاميركي اظهر الكثير من « السخاء » في دعمه الحماسي والقوي للاستيطان اليهودي في فلسطين ، وهي بلد اجنبي لا يعرف عنه الشيء الكثير ويبدو انه لا يهتم كثيرا بشعبه . ولم يكن ثمة تلميح الى ان مثل هذا القرار يجب ان يترك للفلسطينيين انفسهم . وفي اية حال عندما سئل الجمهور الاميركي في العام ١٩٤٢ : « هل يجب ان نسمح لعدد اكبر من المنفيين اليهود من المانيا بالمجيء الى الولايات المتحدة للعيش فيها » ؟ ، فانه لم يظهر لا سخاء ولا إحسانا اذ اجاب ٧٧٪ بالنفي(١٤) . وكذلك في العام ١٩٤٦ استهجنت النسبة المئوية نفسها تقريبا (٧٢٪) خطة الرئيس هاري س . ترومان الطلب من الكونغرس السماح لعدد اكبر من اليهود واللاجئين الاوروبيين الآخرين بدخول الولايات المتحدة مما كان مسموحا به بموجب القانون(١٥) .

وفي حين ان التأييد لدخول اليهود الى فلسطين وللاستيطان اليهودي هناك كان قويا بين الاميركيين ، فان مسألة تقسيم فلسطين الى دولتين ، واحدة عربية واخرى يهودية ، لم تلاق موافقة ساحقة . وفي شباط (فبراير) من العام ١٩٤٨ لم يوافق على التقسيم الا ٣٨٪ ، واستنكره ١٩٪ ، وكانت البقية إما غير مطلعة على الموضوع (٢٨٪) او غير مقررة (١٥٪)(١٦) . وايضا بين « مقتطف نموذجي قومي من رؤساء تحرير الصحف » فضل ٤٤٪ ديموقراطية علمانية للجميع ، واختار ٣٠٪ التقسيم(١٧) . والى ذلك اخذ التأييد للتقسيم يتفتت فيما تحولت الحال في فلسطين الى العنف . وفي اية حال عندما قدمت للمجيبين اختيارات اخرى (مثل « جربوا حلا آخر ») ، كما حدث في حزيران (يونيو) من العام ١٩٤٨ ، لم يفضل التقسيم آنذاك سوى ٢٦٪(١٨) .

وبعد تأسيس دولة اسرائيل ، لم تعد فلسطين بلدا معترفا به دوليا . وفي الواقع كانت ثمة محاولة اكيدة من جانب اسرائيل واصدقائها وايضا من جانب بعض الانظمة العربية لالغاء تسميتي فلسطين او فلسطينيين . وبدلا من ذلك صارت عبارات مثل قطاع غزة ، والضفة الغربية، و « اللاجئين العرب » واسرائيل، البدائل لاغراض مختلفة . واضحت المسألة الفلسطينية النزاع العربي ــ الاسرائيلي ، خصوصا بعدما خاض « العرب » الحرب ضد اسرائيل في الخامس عشر من ايار (مايو) من العام ١٩٤٨ .

في العام ١٩٦٤ ، وآنذاك فقط حسبما اعلم ، طرح سؤال حول معاملة « اللاجئين العرب » في فلسطين . والأمر المفاجىء هو ان اقل من ٩٪ اعتقدوا انهم كانوا يعاملون معاملة حسنة جدا (١,٦٪) او حسنة نوعا ما (٧,٢٪) . واعتقد ١٥٪ على وجه التقريب ان « اللاجئين العرب » يعاملون معاملة سيئة نوعا ما (١١,٩٪) او سيئة جدا (٣,٠٪) . اما البقية فلم تجب او لم تقرأ حول الوضع(١٩) .

ولكن منذ حرب ١٩٦٧ صار السؤال حول ماذا يجب فعله بالأراضي الشاسعة التي احتلها الاسرائيليون سؤالا ملحا بعض الشيء . وفي اول الأمر لم يؤت على ذكر الفلسطينيين او دولة فلسطينية . وكان السؤال يصاغ عادة على النحو التالي : « ماذا تعتقد انه يجب فعله ــ هل يجب ان يطلب من اسرائيل ان تعيد جميع هذه الأراضي المحتلة ، أم الاحتفاظ بها ، ام الاحتفاظ ببعضها » ؟ وحتى بعد فترة اقل من شهر على حرب ١٩٦٧ ، فضل ٢٤٪ من الاميركيين جعل اسرائيل تحتفظ بجميع الأراضي المحتلة ، واعتقد ٤٩٪ ان اسرائيل يجب ان تحتفظ ببعض الاراضي ، وقال ١٥٪ فقط ان على اسرائيل ان تعيد جميع الاراضي المحتلة[٢٠] . واظهر استطلاعا هاريس في العام ١٩٧٠ والعام ١٩٧٤ تمنعا من جانب الجمهور الاميركي عن رؤية اسرائيل تعيد الاراضي التي احتلتها في العام ١٩٦٧[٢١] . ولكن عندما عرضت اختيارات مختلفة ، كما في استطلاعات غالوب الثلاثة في العام ١٩٧٧ ، فضل ٤٢ ــ ٥٠٪ اعادة جميع الاراضي المحتلة او جزء منها ، فيما لم يعرب ٣٠ ــ ٣٣٪ عن اي رأي[٢٢] .

في اعقاب رحلة السادات الدراماتيكية الى القدس في تشرين الثاني (نوفمبر) من العام ١٩٧٧ ، كانت ثمة تكهنات متزايدة حول تسوية سلمية ومصير الفلسطينيين . الجدول رقم ١ يظهر نتائج ثلاثة استطلاعات اجريت جميعها في العام ١٩٧٨ وتتناول اجابات الجمهور الاميركي عن ثلاث خطط مقترحة من اجل « حل » فلسطيني ، خصوصا لمنطقة الضفة

الجدول رقم ١

خطط من أجل حل فلسطيني

	كانون (يناير) ٢٠-٢٣ ، ١٩٧٨	آذار (مارس) ٣١ ــ نيسان (ابريل) ٢، ١٩٧٨ .	نيسان (ابريل) ٢٩ ــ ايار (مايو) ١ ، ١٩٧٨ .
الخطة أ : يجب ان تكون لهم دولة مستقلة منفصلة ، على الضفة الغربية من نهر الأردن في المنطقة التي كانت سابقا للاردن ولكنها محتلة الآن من اسرائيل .	٪٢٤	٪٣٢	٪٣٢
الخطة ب : يجب ان تكون لهم دولة على الضفة الغربية من نهر الأردن لا تكون مستقلة تماما بل مرتبطة مع الأردن .	٢٢	٢٥	١٧
الخطة ج : يجب ان يستمروا في العيش كما يفعلون الآن في اسرائيل وفي الدول العربية الاخرى	٣٠	٢٢	٢٢
لا يعرفون	٢٤	٢١	٢٩
	٪١٠٠	٪١٠٠	٪١٠٠

الغربية . ففي استطلاع نيسان ـ ايار (ابريل ـ مايو) اختار ٣٢٪ دولة مستقلة للضفة الغربية ، واختار ١٧٪ دولة مرتبطة بالأردن . وكذلك من اصل الـ ٧٧٪ من الاميركيين الذين قرأوا عن منظمة التحرير الفلسطينية او سمعوا بها ، اعتقد ١٤٪ فقط ان المنظمة تمثل « وجهة نظر اكثرية فلسطينية » ، في حين ان ٦٣٪ لم يعتقدوا ذلك[٢٣] . وبكلام آخر مال الجمهور الى ان يعكس رأي الادارة ووسائل الاعلام في الولايات المتحدة .

صياغة كلمات الاسئلة

وكما سبقت لنا الاشارة اظهرت الاستطلاعات تحيزا أكيدا ضد الفلسطينيين العرب ولمصلحة اليهود او الاسرائيليين . ونود الآن ان ندعم هذه الحقيقة بالوثائق على نحو اكمل . بادىء ذي بدء نلاحظ ان جميع وكالات الاستطلاع تقريبا طرحت من الاسئلة الوثيقة الصلة باليهود واسرائيل عددا اكبر بكثير من الاسئلة الوثيقة الصلة بالفلسطينيين العرب . وهكذا فان اسئلة عديدة عالجت مشكلات اضطهاد اليهود ، واعادة اسكانهم ، وهجرتهم الى فلسطين ، وادخالهم الى الولايات المتحدة ، وخلق دولة يهودية ، واحتياجات اسرائيل الامنية ، والمساعدة الاميركية (الكمية والنوعية) ، الخ . وفي المقابل فان الاستطلاعات لم تستكشف ولم تبحث الفلسطينيين العرب ومشكلاتهم ، اذا كانت ثمة مشكلات .

الشكل الآخر من اشكال التحيز هو في صياغة الاسئلة[٢٤] . فقد تعمل مؤسسة الاستطلاع على قيادة المجيبين في اتجاه معين عن طريق تزويدهم بمعلومات لمصلحة احد الجانبين . وهكذا في العام ١٩٤٦ سئل الجمهور : « كما تذكرون ، فان تقرير اللجنة الانكلو ـ اميركية) توصي بادخال مئة الف يهودي آخر الى فلسطين على الرغم من احتجاجات العرب هناك . وقد قال الرئيس ترومان انه يعتقد ان هذا يجب ان يحدث . وتقول انكلترا الآن ان على الولايات المتحدة ان تساعدها في المحافظة على النظام في فلسطين اذا اندلعت الاضطرابات بين اليهود والعرب . هل تعتقد اننا يجب ان نساعد في المحافظة على النظام هناك ، ام هل يجب ان نبقى خارجا »[٢٥] ؟ ويأتي مثل آخر من هاريس أند اسوشييتس : « كما تعلمون احتلت اسرائيل جميع القدس ، ولكنها فتحت المدينة امام جميع الناس الذين يرغبون في زيارة ذلك المكان ، بما فيه جميع المعابد الدينية . هل تعتقد انه يجب ان يسمح لاسرائيل بالاحتفاظ بالقدس ، ام هل تعتقد ان المدينة يجب ان تصير مدينة دولية »[٢٦] ؟ .

احد التكتيكات التحيزية الأخرى هو ترتيب ورق اللعب ضد احد الفريقين . وفي كثير من الاحيان انتزاع العطف على الفريق المفضل في الوقت ذاته . ونجد احد الامثلة الجيدة على ذلك في الجملة التالية التي سأل بها استطلاع هاريس المجيبين اذا كانوا يميلون الى الموافقة او عدم الموافقة عليها : « اذا بدا كأن الروس والعرب سيستولون على اسرائيل ، سيكون على الولايات المتحدة ان تفعل كل شيء لانقاذ اسرائيل ، بما فيه خوض الحرب »[٢٧] . وثمة سؤال آخر من هذا النوع طرحه احد استطلاعات هاريس : « الروس يريدون ان تندد الامم المتحدة باسرائيل بوصفها المعتدي في حرب الشرق الاوسط وجعل اسرائيل تدفع للدول العربية تعويضات عن الاضرار في الحرب . هل توافق او لا توافق على مثل هذا العمل من قبل الامم المتحدة »[٢٨] ؟

وأحد اساليب التحيز الأخرى هو استخدام كلمات مختلفة لاسئلة يقصد بها ان تكون

متشابهة أو يزعم انها متشابهة. ففي العام ١٩٦٧، مثلا ، تجنب هاريس اند اسوشييتس سؤال الجمهور « من تشعر انه بدأ الحرب الأخيرة في الشرق الأوسط ــ العرب ام الاسرائيليون » ؟ ومع هذا كانت هذه هي الصيغة نفسها التي استخدمت في تشرين الأول (اكتوبر) ١٩٧٣ . ولكن في العام ١٩٦٧ سأل هاريس الشعب الاميركي « ما اذا كان يميل الى الموافقة او عدم الموافقة على ان العرب ارادوا ان يبدأوا الحرب ؟ ان اسرائيل ارادت ان تبدأ الحرب » . وهكذا بدلا من تأمين نتائج من شأنها ان تظهر ان اسرائيل بدأت الحرب ، فان المعلومات ستعكس الموقف الاميركي من الفرقاء ــ وهو موقف سبق ان كان مناهضا للعرب بقوة ومواليا لاسرائيل بقوة .

واحد الاجراءات الأخرى التي قد تؤثر على المجيبين هو الترتيب او المكان الذي تظهر فيه الاسئلة . وهكذا سئل الاميركيون في استطلاع لهاريس اجري في تشرين الأول (اكتوبر) من العام ١٩٧٣ ما اذا كانوا يميلون الى الموافقة او عدم الموافقة على عدة اقوال اظهرت العطف على اسرائيل او ربطت « العرب » بروسيا ، فضلا عن الجملة التالية : « اذا خضعنا لقيود العرب على النفط الآن ، فاننا سرعان ما سنجد ان العرب يملون على الولايات المتحدة الكثير من سياستها الخارجية ، وهذا مضر » . وبعد ذلك قدمت للمجيبين الجملة التالية : « اننا نحتاج الى النفط العربي من اجل النقص في بنزيننا هنا في الداخل ، ولذا يجدر بنا ان نجد طرقا لمسايرة العرب ، حتى ولو عنى ذلك دعم اسرائيل الى حد اقل »[٢٩] . وانه معقول ظاهريا على الأقل ان الجمل السابقة قد تكون خفضت التأييد للجملة الأخيرة .

مصادر التأييد الفلسطيني والاسرائيلي

لا شك في ان العطف والتأييد الاميركيين للاسرائيليين ووجهة النظر الاسرائيلية يفوقان بكثير اي عطف او تفهم للفلسطينيين وحالتهم . ومع هذا فان الوضع ليس ميؤسا منه كليا كما انه من غير المحتمل ان يبقى دائما لا متوازنا . ولكي نعرف اية اجراءات يحتمل ان تكون فعالة في تغيير آراء الناس ، نحتاج اولا الى معرفة مواقف الجماعات المختلفة بين السكان الاميركيين من المسألة الفلسطينية . وللأسف هناك معلومات قليلة جدا حول هذا الموضوع . ومع هذا تشير المعلومات المتوفرة الى الاستنتاجات التالية .

اولا وقبل كل شيء نلاحظ ان الدين هو اقوى وافضل متنبيء عن المواقف حول المسألة الفلسطينية . وهكذا نجد ان الاميركيين اليهود (بصرف النظر عما اذا كانوا او لم يكونوا اعضاء في منظمات صهيونية) هم الى حد بعيد اشد انصار دولة اسرائيل . وهذه هي الحال سواء كان السؤال يتعلق بالعطف العام او الملامة او القدس او الاراضي المحتلة او المعونة العسكرية الاميركية بما فيها ارسال قوات عسكرية ، او مجرد موقف ايجابي من دولة اسرائيل[٣٠] . وفي الواقع فان الاكتشاف الأكثر اثارة للازعاج هو ان اليهود الاميركيين على ما يبدو لا يربطون انفسهم بقوة وبصورة ايجابية مع اسرائيل فحسب ، ولكنهم ايضا وفي الوقت ذاته ينظرون الى الفلسطينيين والعرب نظرة سلبية وبطريقة عنصرية ، كما يظهر بوضوح في الجدول رقم ٢[٣١] . وفي كل حالة تقريبا نجد ان الاميركيين اليهود بوجه عام يحتمل ان يربطوا الصفات الايجابية باسرائيل والصفات السلبية بالعرب اكثر من غير اليهود بمرتين .

الجدول رقم ٢

« هل تنطبق كل كلمة على العرب اكثر ام على الاسرائيليين اكثر » ؟

الانتماء الديني	الكلمة	على اسرائيل اكثر	على العرب اكثر	على الاثنين بصورة متساوية	لا تنطبق على اي منهما	لا اعرف
بروتستانتي	مسالم	٪٣٩	٪٧	٪٩	٪٢٤	٪٢٢
كاثوليكي		٤٠	٧	٩	٢٧	١٨
يهودي		٨٩	١	—	٨	١
غيره		٤٧	٧	٨	٢٣	١٦
لا انتماء		٢٤	١٣	١٤	٢٨	٢١
بروتستانتي	صادق	٪٣٧	٪٥	٪١٣	٪١٧	٪٢٨
كاثوليكي		٣٧	٦	١٢	٢٢	٢٣
يهودي		٨٦	١	٨	١	٣
غيره		٣٩	٨	١٢	١٣	٢٨
لا انتماء		٣١	٨	١٧	٢١	٢٤
بروتستانتي	ذكي	٪٣٦	٪٨	٪٢٦	٪٦	٪٢٤
كاثوليكي		٤٠	١٠	٢٦	٥	١٩
يهودي		٧٨	—	١٧	—	٥
غيره		٤٢	١١	٢٥	٥	١٨
لا انتماء		٣٢	٥	٣٨	٥	٢٠
بروتستانتي		٪٤٩	٪٥	٪٧	٪١٧	٪٢٣

الانتماء الديني	الكلمة	على اسرائيل اكثر	على العرب اكثر	على الاثنين بصورة متساوية	لا تنطبق على اي منهما	لا اعرف
كاثوليكي	« كالاميركيين »	٤٨	٥	٩	٢٠	١٨
يهودي		٧٨	—	٥	١٢	٦
غيره		٥١	٧	١٤	٧	٢٢
لا انتماء		٥٥	٢	٦	١٤	٢٢
بروتستانتي	ودي	٪٤٤	٪٥	٪١٤	٪١٢	٪٢٥
كاثوليكي		٤٦	٨	١٥	١١	٢١
يهودي		٧٨	٤	١٢	٥	١
غيره		٥٢	٣	١٧	٧	٢١
لا انتماء		٣٩	٩	١٦	١٣	٢٤
بروتستانتي	متاخر	٪٦	٪٤٤	٪٧	٪١٤	٪٣٠
كاثوليكي		٦	٤٩	٨	١٨	٢٠
يهودي		٢	٨٦	١	١٠	١
غيره		٩	٤٧	٧	١٤	٢٤
لا انتماء		٢	٥٠	٩	١٣	٢٥
بروتستانتي	متخلف	٪٩	٪٤٤	٪١٠	٪٨	٪٢٩
كاثوليكي		١١	٤٧	١٠	١٢	٢٠
يهودي		٣	٨٤	٥	٩	—
غيره		٩	٤٨	١٠	٩	٢٢
لا انتماء		٧	٥٢	١٠	٧	٢٣
بروتستانتي	فقير	٪٢٢	٪٣٩	٪٩	٪١٤	٪٢٥
كاثوليكي		٢٠	٣٦	٨	١٧	٢٠
يهودي		١٢	٥٧	٦	١٩	٤
بروتستانتي	جشع	٪٩	٪٣٩	٪٢٠	٪٧	٪٢٥
كاثوليكي		١٠	٤١	٢١	٧	٢٢
يهودي		٤	٧٦	٦	٨	٦
غيره		٧	٤٦	٢١	٥	٢٢
لا انتماء		١٠	٣٣	٢٣	١٠	٢٤
بروتستانتي	متعجرف	٪١١	٪٣٦	٪١٨	٪٦	٪٢٩
كاثوليكي		١٢	٣٥	٢٢	٨	٢٣
يهودي		٨	٧٠	٩	١٠	٤
غيره		١٠	٤١	١٧	٥	٢٧
لا انتماء		١٣	٢١	٢٧	١٠	٢٩
بروتستانتي	معتدل	٪٣١	٪٨	٪٩	٪٢٠	٪٣٢
كاثوليكي		٣٠	٨	١٠	٢٣	٢٩
يهودي		٥٠	٩	٦	١٦	٢٠
غيره		٣٨	٧	٨	١٧	٣٠
لا انتماء		١٧	١١	١٣	٢٩	٣٠
بروتستانتي	نام	٪٣٢	٪١٩	٪٣٠	٪٣	٪٢٧
كاثوليكي		٣٣	٢٢	٢٠	٤	٢١
يهودي		٥٣	١٩	٢٧	—	١
غيره		٣٨	٢٠	٢٠	١	٢٢
لا انتماء		٢٧	١٩	٢٥	٥	٢٤
بروتستانتي	بربري	٪٤	٪٣٧	٪٨	٪٢١	٪٣٠
كاثوليكي		٣	٣٥	٩	٢٧	٣٦
يهودي		٤	٦٩	—	١٨	٩
غيره		٤	٤٥	٩	٢٠	٢٢
لا انتماء		٩	٢٦	١٥	٢٠	٣٠

الجدول رقم ٢ يظهر ايضا ان الاميركيين غير المنتسبين كأعضاء الى اية كنيسة مؤسسة ، والى حد اقل ، هؤلاء الذين ينتمون الى كنائس اصغر حجما او اقل تأسيسا : LESS ESTABLISHED يحتمل الى درجة اقل ان يعتبروا اسرائيل اكثر تفوقا بكثير على العرب . ومن الناحية الأخرى يفضل البروتستانت والكاثوليك اسرائيل على العرب في نسب مئوية متساوية تقريبا في هذا المسح . الا ان ادلة اخرى تظهر ان البروتستانت اكثر موالاة لاسرائيل بعض الشيء من الكاثوليك(٣٢) .

العوامل الأخرى المؤثرة على المواقف من الفلسطينيين العرب والاسرائيليين هي السن والعنصر والتربية والدخل والمهنة . ونلاحظ بوجه عام ان الاميركيين الأكبر سنا (فوق الخامسة والثلاثين من العمر) ، والبيض ، والأفضل ثقافة ، وذوي الدخل الأعلى واصحاب المهن هم اكثر موالاة للاسرائيليين من الشبان ، وغير البيض (السود ، والناطقون باللغة الاسبانية ، والمتحدرون من اصل اميركي الخ) . والاقل ثقافة والمتخلفين اقتصاديا(٣٣) .

وتختلف التفسيرات حول الاسباب التي تجعل بعض الجماعات تؤيد اسرائيل الى حد اقل من الجماعات الأخرى . حتى وان كان غير البيض وحدهم يقتربون مجرد اقترات من موقف متوازن او حيادي ازاء العرب / الفلسطينيين والاسرائيليين ، فان ردة الفعل الأولى بين الغربيين وعلماء الاجتماع الغربيين هي اختبار ما اذا كانت جماعات غير ملتزمة كليا وعلى نحو متين باسرائيل وأرائها هي معادية لليهود ام لا . بيد ان مثل هذه الجماعات في الواقع ليست غير معادية لليهود فحسب ، بل على العكس من ذلك ، تشير الأدلة الى ان الشعب الاميركي ، ولا سيما البيض الافضل ثقافة ، والأعلى منزلة بينهم ، قد يكونون معادين للعرب !(٣٤) وبالفعل فانهم كثيرا ما يكونون متحيزين في هذا الاتجاه ولكنهم لا يعون هذا التحيز . وهذا ما اكتشفناه بالفعل ارتكازا على نتيجة الحلقة الدراسية حول وسائل الاتصال بين الشرق والغرب التي رعتها مؤسسة فورد (بيت مري ، لبنان ١٩٧٢) ، وعلى مسح لمعلمي المدارس الثانوية في ست ولايات اميركية(٣٥) .

خلاصة واستنتاجات

اول واهم اكتشاف لهذه الدراسة هو انعدام الحساسية من جانب الشعب الاميركي (فضلا عن وكالات الاستطلاع) نحو الاهتمامات العربية ، وخصوصا الفلسطينية . وعدم الحساسية هذا هو مؤشر الى التحيز ويحاذي العنصرية . وقد يكون ان القائمين بالاستطلاعات ، ان لم يكن الاميركيين بوجه عام ، هم متحيزون ولكنهم لا يعون تحيزهم(٣٦) . وقد يفسر هذا الاستخفاف بالفلسطينيين في الطريقة التي تطرح بها وكالات الاستطلاع الاسئلة .

وهكذا فان الاسئلة الموجهة الى الجمهور الاميركي تهمل بصورة كلية تقريبا الفلسطينيين كشعب وتبنى الاسئلة احيانا بطريقة تكون لمصلحة الاسرائيليين . وعندما يؤتى على ذكر الفلسطينيين في اسئلة الاستطلاعات ، لا تتلقى احتياجاتهم ورغباتهم الكثير من العطف او التأييد . وتغيرت هذه الحال بشكل طفيف منذ العام ١٩٧٣ فيما اخذت « فلسطين » و « الفلسطينيون » تبرزان كقضيتين جديرتين بالبحث .

اذا كان العرب والعالم العربي والفلسطينيون هامشيين ، بقدر ما يتعلق الأمر بالوعي الاميركي ، فان العكس هو الصحيح بالنسبة الى المواقف الاميركية من اليهود واسرائيل . ولم تتغير مركزية مسألة اليهود واسرائيل منذ الثلاثينات . وفي اول الأمر كانت القضية تتعلق باليهود الاميركيين ومعاملتهم وما اذا كانوا قد استحقوا مثل هذه المعاملة او تصرفوا على نحو يفضي اليها . ثم تحول التركيز الى اعادة التوطين ، والى وطن يهودي ودولة يهودية في فلسطين . وبعد قيام دولة اسرائيل صار الاهتمام الأولي هو امن الدولة وشعبها ــ وكيف تستطيع الولايات المتحدة ان تساعد . واشتملت الاشكال المختلفة المقترحة للمساعدة على مواد ومعونة اقتصادية واعتدة عسكرية والتزام بارسال قوات للدفاع عن الدولة اليهودية . وبعد العام ١٩٦٧ كثيرا ما كانت مسألة الأراضي المحتلة تصنف او تنزل الى المقام الثاني وراء الاهتمام بأمن اسرائيل . وبعد العام ١٩٧٣ فقط ، كما لاحظنا سابقا ، كانت هناك بداية بحث يتعلق بكيان فلسطين له شكل ما ويرتكز على جميع او بعض اجزاء قطاع غزة والضفة الغربية ــ وقد اعرب نحو نصف الشعب الاميركي عن تأييده لهذا الكيان . الا ان الاسئلة المتعلقة بأمن اسرائيل استمرت في السيطرة .

وفي حين ان المواقف الاميركية من اسرائيل هي وظيفة من وظائف العلاقات الاميركية ــ الاسرائيلية ، فان لدى اسرائيل ومؤيديها ، وخصوصا الصهاينة في الولايات المتحدة ، بعض القدرة على التلاعب بالرأي الاميركي . ويمكن فعل هذا ، وقد تم فعله حقا ، بواسطة وسائل الاعلام . وفي حين انه ليس من السهل عادة اثبات وجود صلة بين ما يقرأه الشعب الاميركي او يستمع اليه ، او يراه على التلفزيون او في الافلام السينمائية ، وعواطفه نحو العرب والاسرائيليين ، فقد لوحظ وجود علاقة اكيدة في حالتين مهمتين على الأقل . وهكذا اكتشف في دراسة « لردة فعل الجمهور ازاء محاكمة « ايخمان » ان اكثر من ٣٠٪ من الجمهور الاميركي قالوا انهم نتيجة للتعرض للدعاية المرافقة لمحاكمة أيخمان وتفاصيل تلك المحاكمة صاروا اكثر عطفا على اسرائيل واليهود(٣٧) . وكذلك في مسح اجراه المعهد الاميركي للرأي العام (غالوب) بين الثامن والعشرين من نيسان (ابريل) والأول من ايار (مايو) ١٩٧٨ ، سئل المجيبون بالتحديد اذا كانوا قد شاهدوا كل او اجزاء من المسلسل ذي الاجزاء الأربعة الذي أذاعته شركة الأذاعة الوطنية (ان بي سي) بعنوان « المحرقة » « HOLOCAUST » ، وهو البرنامج الذي يصور محنة اليهود في اوروبا ابان الاحتلال النازي في الحرب العالمية الثانية . ووفقا لما جاء في تقرير غالوب :

بين الاميركيين الواعين للحالة في الشرق الأوسط الذين شاهدوا « المحرقة » ، لوحظ ان العواطف موالية لاسرائيل الى حد اكبر بكثير مما هي بين الذين لم يشاهدوا البرنامج . وبنوع خاص ، بين الذين شاهدوا جزءا واحدا على الأقل من البرنامج الخاص المؤلف من اربعة اجزاء ، يقف ٥٠ بالمئة الى جانب اسرائيل وتسعة بالمئة الى جانب الدول العربية . وبين الذين لم يشاهدوا اي جزء من البرنامج نجد ان الارقام المقارنة هي ٢٩ بالمئة و١١ بالمئة(٣٨) .

لا يترجم العطف على اسرائيل بصورة اوتوماتيكية الى التزام اميركي بالمعونة او التورط . والاميركيون بوجه عام متمنعون جدا عن رؤية القوات الاميركية ترسل الى الشرق الأوسط . وفي اقصى الحالات ستوافق فئات صغيرة على مساعدة اقتصادية او عسكرية الى الفرقاء

الاصدقاء ، وبخاصة اسرائيل . والتفضيل الأكيد هو للبقاء خارج النزاع ـ الا اذا كانت المصالح الاميركية الحيوية مهددة بالخطر .

وكان مناخ الرأي العام ، وخصوصا بين الجمهور المطلع ، مواليا بصورة غالبة للاسرائيليين منذ تأسيس دولة اسرائيل في العام ١٩٤٨(٣٩) . ولهذا السبب وبالنظر الى وجود جماعة كبيرة موالية لاسرائيل ، فان كتابة اية تقارير موضوعية ، ناهيك بان تكون موالية للفلسطينيين ، تصير مثار جدل . والنتيجة هي القاء الشك على صحة التقرير . والى ذلك ، تقدم هذه الحالة فرصة امام الموالين لاسرائيل لعرض وجهة نظرهم مرة اخرى ـ ووجهة النظر هذه تتلقى قبولا اكبر واسهل لأنها بالضبط مألوفة اكثر .

ان المواقف اليهودية الاميركية (وليست الصهيونية فقط) من العرب والنزاع العربي ـ الاسرائيلي والفلسطيني ، هي متميزة ومتطرفة جدا . وتنعكس هذه المواقف ، مباشرة او مداورة ، في نشاطاتهم وكتاباتهم . وكثيرة هي نتائج المشاعر اليهودية القوية حول قضايا الشرق الأوسط ، وجميعها معادية للفلسطينيين والعرب بعامة . وبين هذه النتائج : ميل الى تحاشي انتقاد اسرائيل او الصهاينة خشية توجيه الاتهام باللاسامية ، اي بالمشاعر المعادية لليهود ، وتكوين آراء ايجابية حيال اسرائيل والاسرائيليين وآراء سلبية حيال الفلسطينيين ، وتمنع عن استخدام اشخاص من خلفيات فلسطينية او عربية لاجتناب اثارة « الجدل » والاستعداد للقبول بوجهة النظر الاسرائيلية لأنها شائعة وتقدم نسبة اقل من اوجاع رأس لمناصريها .

ومع هذا فالوضع ليس ميؤسا منه كليا . وفي الواقع فان الاحداث الاخيرة ، كبروز الفلسطينيين من جديد كقوة مهمة على مسرح الشرق الاوسط ، وحربي العام ١٩٦٧ والعام ١٩٧٣ ونتائجهما ، قد احدثت بعض التغييرات في آراء راسمي السياسة الاميركية والشعب . وكردة فعل لهذه الاحداث الى حد ما ، صارت الجالية العربية ـ الاميركية اكثر فعالية ونشاطا واكثر وعيا لاحتياجاتها وامكانياتها. وابتدأت مراكز دراسات الشرق الأوسط وبرامج الحكومة الاميركية الاتحادية تمول وترعى برامج « امتدادية » « OUTREACH » وعيادات لمعلمي المدارس الثانوية لتفحص وتصحيح المفاهيم الخاطئة او المقولبات STEREOTYPES عن شعوب الشرق الأوسط ، بما فيها الفلسطينيون(٤٠) . وقد منحت الشركات الخاصة ومعاهد الابحاث الأموال لاجراء المزيد من الدراسات عن العالم العربي والافلام حول العرب ـ الاميركيين(٤١) . وحتى وسائل الاعلام حسنت الى حد ما تغطيتها لاحداث الشرق الأوسط وشعوبه ، بما فيها الفلسطينيون(٤٢) . وهذه التغييرات ليست كبيرة ولا هي كافية ـ الا انها ليست غير ذات أهمية كليا .

ولذا فان استنتاجنا هو ان الرأي العام حول الشرق الأوسط آخذ في التغير ـ ولكن ببطء بالغ . وتؤثر فيه العلاقات الاميركية مع الانظمة في المنطقة وكيف تنظر الادارة الحاكمة الى الحالة . وفيما صار الفلسطينيون عاملا مهما في الشرق الأوسط وصارت الأهمية الاستراتيجية للعالم العربي بالنسبة الى الولايات المتحدة اكثر وضوحا ، برزت الدعوة الى مقاربة اميركية اكثر « توازنا » . واذا كانت ادارة كارتر (او اية ادارة في المستقبل) جادة حول تسوية شاملة

للشرق الأوسط (واية تسوية كهذه غير ممكنة دون الفلسطينيين) ، فالحاجة تدعو اذن الى القيام . بمحاولة واضحة لادخال الشعب الفلسطيني في وعي الشعب الاميركي . كما تدعو الحاجة الى الاعتراف بمركزية فلسطين والفلسطينيين بغية توليد التأييد من اجل حل مقبول وعادل .

توصيـــات

العلاقات العامة لن تكسب الحرب ضد الامبريالية او الغرب او الولايات المتحدة . وفي النهاية ندرك ان المعلومات والمعركة على عقول البشر هي ادوات ينبغي استخدامها كجزء من العملية الدبلوماسية ــ ولكنها ادوات في غاية الاهمية . ولا يزال الاسرائيليون وانصارهم الذين يملكون في الواقع جميع الامتيازات في الولايات المتحدة يعملون باجتهاد اكثر من اية جماعة اخرى لعرض وجهة نظرهم وحجب وجهة نظر خصومهم . ويحتاج الفلسطينيون الى ان يعملوا باجتهاد اكبر بكثير ضد ارجحية اكبر بكثير . ولا يمكن قصر حملة معلومات عامة فعالة حقا على بضعة غربيين مختارين عند المستويات العليا من الحكومة ودوائر الأعمال والجامعات والصحافة الخ . فحتى لو تم إقناع هؤلاء إقناعا تاما بعدالة القضية العربية ، فان كلماتهم ستكون لها رنة جوفاء بالنسبة الى جمهور معظمه غير مصدق في الغرب . وسيكون لتأثيرهم حد ادنى .

١) اذ ما تدعو اليه الحاجة هو مسح دقيق للجمهور الغربي وسيكولوجيته . ولا يكفي ان نصنف الناس اصدقاء واعداء ، (فذلك في الواقع يؤدي الى عكس النتيجة المرجوة) . بل يجب ان يقرر المسح كيف تقف **العناصر المختلفة للجمهور الغربي** حول **جميع** الوجوه المهمة للعالم الغربي والمسألة الفلسطينية . ثم من الضروري ان نقرر على نحو صحيح ودقيق لماذا يحمل الغربيون مثل هذه الآراء . وآنذاك فقط سيكون في مقدور الفلسطينيين ان يعرفوا كيف يعملون على تغيير المواقف التي يجدون انها معادية او غير متعاطفة .

ان ما عرضناه في هذه الدراسة هو مجرد اسكتش لتوضيح اية آراء حملها الجمهور الاميركي حول القضايا المختلفة المؤثرة في الفلسطينيين . ولكن حتى في هذا المسح القصير كان واضحا انه يمكن ، الى حد ما ، التلاعب في الآراء . ولذلك تدعو الحاجة الى وضع تقارير اكثر صحة ودقة ، واقل تحيزا ، عن الآراء ، ربما تقوم به منظمة استطلاع خاصة .

٢) تنظر اقوام من ثقافات مختلفة الى المشكلات (وحلها الممكن) بصورة مختلفة . وبما ان الفكرة هي كسب الغربيين الى الجانب الفلسطيني ، فان على الفلسطينيين ان يحاولوا رؤية المشكلة من منظور الغرب ثم ان يعرضوا حججا مقنعة من اجل التغيير . وبكلام آخر ، اذا كان الفلسطينيون يأملون في التأثير حقا على الغرب ، فان عليهم ان يتكلموا لغته . ومن المهم جدا ان يكون مستشار للعلاقات العامة حسن الاطلاع حول الغرب متورطا بنشاط في عملية صنع القرارات على مستوى عال بغية تقديم الزاد المتعلق بالتأثير الممكن للقرارات المتوقعة على الحكومات الغربية وجماهير المستمعين اليها . وهذا ضروري كذلك في حالات يصار فيها الى اجراء مقابلات موجهة نحو الجماهير الغربية مع قادة منظمة التحرير الفلسطينية في الصحف ، او خصوصا على الراديو والتلفزيون .

٣) يجب القبول بالادعاءات الغربية بالصدق والموضوعية على انها صحيحة . فهي بالفعل صحيحة . وما ينبغّي الاشارة اليه هو كيف ان تلك الآراء متحيزية (دون ادراك) وكيف صارت متحيزة . ولكن يجب فعل ذلك بلطف ودون اي تلميح الى ان المتعاطفين مع اسرائيل قد خدعتهم الدعاوة الموالية للصهيونية .

٤) يجب ان يوضع التشديد على انتاج صورة ايجابية لشعب مفعم بالحياة . وتدعو الحاجة الى هذا الأمر بنوع خاص في حالة الفلسطينيين . وبكلام آخر ليس الفلسطينيون مجرد او حتى في الأغلب « اعداء لاسرائيل » . ويجب تجنب الرثاء للذات . فالعالم الخارجي يجب ان يعرف الفلسطينيين كبشر .

الحواشي

(١) للامثلة انظر .

Hadley Cantril, (Ed.), *Public Opinion, 1935- 1946* (Princeton, NJ: Princeton University Press, 1951), *pp.* 381-385; Hazel Gaudet Erskine, «The Polls: Religious Prejudice, Part I», *Public Opinion Quarterly*, Vol. 29, No. 3 (Fall 1965), *p.p.* 486-496; And Hazel Gaudet Erskine, «The Polls: Religious Presjudice, Part II: Antisemitism», *Public Opinion Quarterly*, Vol 29, No. 4 (Winter 1965-66), *p.p.* 649-664.

(٢) اظهرت دراسات عديدة تحزب الاميركيين حول النزاع الفلسطيني ـ الاسرائيلي : في عواطفهم ومواقفهم ورواياتهم وتقاريرهم الصحفية وافلامهم السينمائية ومن اجل بعض هذه الدراسات والمراجع ، انظر .

Janice Terry, «A Content Analysis of American Newspapers», In Abdeen Jabara and Jonice Terry, (Eds.), *The Arab World: From Nationalism To Revolution* (Wilmette, ill Medina University Press International, 1971), *p.p.* 94-113; «Domestic Communications : Aspects of The Middle East Crisis, A Special Report», (Washington, April-July, 1967); Leslie Farmer, «All We Know is What We Read In the Papers», *Middle East Newsletter* (February, 1968), *p.p.* 1-5; M.E. Batroukha, «The Editorial Attitudes of the *New York Times* And The *Christian Science Monitor* Toward The Arab-Israeli Dispute (January 1, 1955-June 30, 1956», (Syracuse University, ph.d. Dissertation, 1961); Hazel Erskine, «The Polls: Western Partisanship in the Middle East», *Public Opinion Quarterly* Vol. XXXIII, No. 4 (Winter, 1969-70), *p.p.* 627-40; Karen Cedzo, «The Arab Stereo Type and the Mass Media: An Emphasis on Film», Paper Delivered at the Association of Arab American University Graduates Meeting in Cleveland, Ohio, October 25-27, 1974; and the Following Articles by Michael W. Suleiman: -An Evaluation of Middle East News Coverage in Seven American Newsmagazines, July — December, 1956» (University of Wisconsin, M. A. Thesis, 1961); «American Mass Media and the June Conflict», In Ibrahim Abu-Lughd, (Ed.), *The Arab — Israeli Confrontation of June 1967: An Arab Perspective* (Evanston, ill.: Northwestern University Press, 1970), *p.p.* 138-154; and «National Stereotypes as Weapons in the Arab — Israeli Conflict», *Journal of Palestine Studies*, Vol., III, No. 3 (Spring 1974), *p.p.* 109-121.

انظر ايضا الدراسات الممتازة المختلفة الموجودة في

Baha Abu Laban and Faith T. Zeady, Eds., *Arabs In America: Myths and Realities* (Wilmette, ill: Medina University Press International, 1975).

(3) Michael W. Suleiman, *American Images*

of Middles East Peoples: Impact of the High School (N. Y., Middle East Studies Association of North America, 1977), *p.p.* 45-46. The Results of The 1972 Study Were Reported in Michael W. Suleiman, «The Middle East in American High School Curricula: Akansas Case Study», *Middle East Studies Association Bulletin,* Vol. 8, No. 2 (May 1974); *p.p.* 8-19.

(4) *The Cambridge Report,* Vol. 4 (Summer 1975); *p.* 180.

(٥) انظر :

Cantril, *Op. Cit., p.p.* XVI; George H. Gallup, *The Gallup Poll: Public Opinion 1935-1971,* Vol. 3 (New York, Random House, 1972), *p.* 2365.
(6) Cantril, *Op. Cit., p.* 385.
(7) *Ibid., p.* 385.
(8) The Quarter's Polls, *Public Opinion Quarterly,* Vol. 12 (Fall 1948), *p.* 551.

(9) Norc Poll of October 1, 1947, *Public Opinion Quarterly.* Vol. II (Winter 1947-48); *p.* 654.

سمى اليهود او الصهاينة ٧٥٪ (تحت سن الحادية والعشرين) و ٨٢٪ (في سنة الحادية والعشرين ومـا فوق) ؛ وسمى العرب او المحمديين ٤٠٪ و ٤٥٪ على التوالي .

(10) Gallup Poll of June 26 — July 1, 1968. See George Gallup, *Op. Cit., p.* 2149.
(11) Cantril, *Op. Cit., p.* 387.
(12) Gallup Poll Of Decembers, 1945. *Ibid., p.* 386.
(13) Gallup Poll of May 15, 1946, *Ibid., p.* 386.
(14) Cantril, *Op. Cit., p.* 383.
(15) *Ibid., p.* 387.
(16) Norc Poll of July 1, 1948. «The Quarter's Polls», *Public Opinion Quarterly,* Vol. 12 (Fall, 1948), *p.* 550.

(17) Norc Poll of November, 1947. «The Quarter's Polls», *Public Opinion Quarterly,* Vol. 12 (Spring 1948); *p.* 160.

(18) Fortune Poll of June, 1948. «The Quarter's Polls», *Public Opinion Quarterly,* Vol. 12 (Fall 1948), *p.* 550.

٣١٪ ارادوا « تجربة حلول اخرى » . ٢١٪ « لم يفكروا في الامر » ، و ١٢٪ « لم يكن لهم راي » .

(19) Src California, November 1964.

(20) Gallup Poll Of July 9, 1967.

قال ١٢٪ « لا اعرف » .

(٢١) سئل المجيبون فقط ما اذا كانوا يميلون الى الموافقة او عدم الموافقة على القول بأن « على اسرائيل ان تعيد الأراضي التي كسبتها من حرب ١٩٦٧ » (١٩٧٠) او ان « على الولايات المتحدة الا تضغط على اسرائيل لاعادة جميع الأراضي العربية التي حصلت عليها في حرب الشرق الأوسط العام ١٩٦٧ » (١٩٧٤) . ولم يوافق ٤٣٪ على الجملة الأولى ، ووافق ٥٦٪ على الجملة الثانية . انظر ايضا

Louis Harris, «Oil or Israel?», *New York Times Magazin,e* April 6, 1975, *p.p.* 21-22, 34-35.

(22) *The Gallup Opinion Index* (Henceforth Referred To As *G. O. I.)* April, 1978, Report No. 153); *p.* 12.

(23) *Ibid., p.* 12; *Ibid.,* July, 1978 (Report No. 156), *p.* 9; *Ibid.,* September, 1978 (Report No. 158), *p.* 3.

في أوائل ١٩٧٥ اعتبر ٣٥٪ من الشعب الاميركي ياسر عرفات الزعيم المعترف به للفلسطينيين ـ بعدما كانت النسبة المئوية ١٩٪ قبل ذلك بستة أشهر . انظر

Harris, *Op. Cit., p.* 22.

(٢٤) جرى بصورة مقتضبة بحث مشكلة صياغة كلمات الاسئلة وكيف تميل الاجابات حول قضايا الشرق الأوسط الى الاختلاف وفقاً لشكل السؤال في :

Seymour Martin Lipset and William Schneider, «Polls For The White House, and the Rest of U.S.», *Encounter,* Vol. XLIX, No. 5 (November, 1977), *p.p.* 24-34. See Also George F. Bishop *Et. Al,* «Effects of Question Wording and Format on Political Attitude Consistency», *Public Opinion Quarterly,* Vol. 42, No. 1, (Spring 1978), *p.p.* 81-92.

ان تأثير المستجوب على المجيبين ، خصوصاً عندما تطرح اسئلة حساسة ، قد درس دراسة جيدة . ومن أجل مصادر تلخص نتائج الدراسات التـي تظهـر تحيـز المستجوب انظر

Hadley Cantril, *Gauging Public Opinion* (Princeton, N.J.: Princeton University Press, 1944); Herbert H. Hyman et, al., Interviewing in Social Research (Chicago, University of Chicago Press, 1975); Seymour Sudman And Norman

M. Bradburn, *Response Effects In Surveys* (Chicago Ill.: Aldine Publishing Company, 1974); and Eugene J. Webb, D. J. Cambell, R. D. Schwartz, L. Sechrest, *Inobtrusive Measures*, (Chicago, ill.: Rand McNally and Company, 1971).

من أجل دراسات تظهر تاثير عنصر المستجوب عندما تطرح اسئلة عنصرية انظر

K. R. Athey, J. E. Coleman, A. P. Reitman, and J. Tang, «Two Experiments Showing the Effect of the Interviewer's Racial Background on Responses To Questionaires Concerning Racial Issues». *Journal of Applied Psychology*, Vol. 44, No. 4, (August, 1960), *p.p.* 244-46; E. C. Bryant, I. Gardner, Jr., and M. Goldman, «Responses on Racial Attitudes as Affected by Interviewers of Different Ethnic Groups», *Journal of Social Psychology*, Vol. 70, 1st Half, (October, 1966), *p.p.* 95-100; and Howard Schuman and Jean M. Converse, «The Effects of Black and White Interviewers on Black Responses In 1968», *Public Opinion Quarterly*, Vol. 35, No. 1, (Spring, 1971), *p.p.* 44-68.

ترد دراسات تظهر تاثيرات سن المستجوب وجنسه واعتباره في

J. S. Ehrlic and D. Riesman, «Age and Authority in the Interview», *Public Opinion Quarterly*, Vol. 25, No. 1, (Spring, 1961) *p.p.* 39-56.

اظهر ان الطبقة الاجتماعية للمستجوب ملوثة في

Daniel Katz, «Do Interviewers Bias Poll Results?», *Public Opinion Quarterly*, Vol. 6, No. 2, (Summer, 1942) *p.p.* 248-68; David Riesman, «Orbits of Tolerance, Interviewers, and Elites», *Public Opinion Quarterly*, Vol. 20, No. 1, (Spring 1956), *p.p.* 49-73; nd G. E. Lenski and J. C. Leggett, «Caste, Class, and Deference in the Research Interview», *American Journal of Sociology*, Vol. 65, No. 5, (March 1960), *p.p.* 463-67.

اظهر تاثير دين المستجوب في

Duane Robinson and Sylvia Rohde, «Two Experiments with an Anti-Semitism Poll», *Journal of Abnormal and Social Psychology*, Vol. 41, No. 2 (April 1946), *p.p.* 136-44.

جرى بحث مسألة تلويث المعلومات نتيجة لتعرف الاسم لدى معالجة استطلاعات الشرق الأوسط من قبل

Suleiman, «American Images», *Op. Cit.*, *p.p.* 32-42.

(25) Norc Poll of May 1946, Cantril *Op. Cit.*, *p.* 386.

(٢٦) طرح السؤال نفسه في تموز (يوليو) وايلول (سبتمبر) ١٩٦٧ . وفي حين ان ٧٠ بالمئة من الجمهور الأميركي اختاروا ان يصار الى جعل القدس ، مدينة دولية ، في تموز ، فان ٢٣٪ فقط كانوا يحملون ذلك الراي في ايلول وازداد هؤلاء الذين اختاروا السيطرة الاسرائيلية من ١٠٪ الى ٤٢٪ في غضون شهرين . والف الذين قالوا انهم ، غير متاكدين ، ٢٠٪ و٢٤٪ من العينات على التوالي .

(27) *The Harris Survey Yearbook of Public Opinion, 1970* (Henceforth Refered to as *Harris Yearbook, 1970*) (New York, Louis Harris and Associates, Inc., 1971), *p.* 100.

(28) Harris Poll of July 10, 1967.

(29) *Harris Yearbook, 1973, Op. Cit.*, *p.* 249.

رفض الجملة ٥٠٪ (مقابل ٢٦٪ قبلوا بها) في صيف ١٩٧٤ رفض الجملة ٦١٪ وقبل بها ٢٢٪ . في حين كانت النسبتان المئويتان في كانون الثاني (يناير) ١٩٧٥ ، ٦٨٪ الى ٢٠٪ . انظر

Harris, *Op. Cit.*, *p.* 34.

(٣٠) ان عدد المجيبين اليهود في عينة قومية هو عادة اصغر من ان يمكن اعتباره ممثلا لتفكير الأميركيين اليهود . ونتيجة لذلك نادرا ما يكتب عنه . إلا ان لا شك هناك حول قوة المشاعر اليهودية الاميركية فيما يتعلق باسرائيل . انظر

Seymour Martin Lipset and William Schneider, «Carter us. Israel: What the Polls Reveal», *Commentary*, Vol. 64, No. 5 (Nov., 1977); *p.p.* 21-29; and Shanto Iyengar and Michael W. Suleiman, «Trends In Public Support for Egypt and Israel, 1956-1978», (Mimeographed), 1979.

(٣١) الجدول مبني من عدة جداول في

The Cambridge Report, Op. Cit., p.p. 182-194.

(32) See Iyengar and Suleiman, *Op. Cit.*, Table 3; Lipset and Schneider, «Carter us. Israel», *p.* 27. See also Carlo Caldarola, «Fundametalist Christianity: Israel and the Second Coming», in

Abu-Laban and Zedey, *Op. Cit.*, *p.p.* 171-183.

(٣٢) إلا أن الافضل ثقافة اخذوا يعتقدون « بالنوايا الحسنة » لانور السادات اكثر مما يعتقدون « بالنوايا الحسنة » لناحيم بيغن في العام ١٩٧٨ . انظر

Seymour Martin Lipset, «The Polls on the Middle East», *Middle East Review*, Vol. 11, No. 1, (Fall, 1978), *p.p.* 24-30.

(٣٤) انظر

Iyengar and Suleiman, *Op. Cit.*, *p.p.* 15-16.

35 Suleiman, *American Images*, *p.* 53.

(٣٦) يقدم لويس هاريس مقالا عن الكتابة التي تظهر عاطفة موالية لاسرائيل ، ممزوجة مع ملاحظات معادية للعرب ومعادية للفلسطينيين من قبل احدى مؤسسات الاستطلاع القومية . فبعد ان يطمئن هاريس الجالية اليهودية الاميركية عن التأييد الاميركي (شعبا وقادة) ، يسعى الى التقليل من شأن التأييد الاميركي كزعيم للفلسطينيين (٣٥٪) عن طريق تشويه سمعة عرفات كـ « مقتد » واظهار الاحتقار لجميع الزعماء العرب كما في الملاحظات التالية : « ان الاسباب التي تجعل الناس يعتقدون ان عرفات يجب ان يكون له مقعد في جنيف هي ممتعة وتعكس سخرية اساسية حول السياسة العالمية . انها سخرية واسعة الانتشار الى حد صار معها من الصعب العثور على اكثريات من الاميركيين المستعدين لشجب المعتدين . وينظر الى رئيس منظمة التحرير الفلسطينية على انه ليس أدنى مرتبة بكثير من العديد من الشخصيات الاخرى التي قد تخصص لها مقاعد في جنيف . والى ذلك صار الاميركيون معتادين على رؤية وزير الخارجية كسينجر يعقد جلسات مفاوضات ودية مع جميع انواع الزعماء المعادين سابقا — بريجنيف ، ماو ، الفيتناميين الشماليين وكل لون من الوان الحكام العرب . فلم لا يجلس عرفات في مؤتمر جنيف ، كما يقول هذا التفكير ، حتى ولو كانت اعمال ارهاب منظمة التحرير الفلسطينية جديرة بالاحتقار » . انظر

Harris, *Op. Cit.*, *p.p.* 22, 34.

(٣٧) قال ٦١٪ انه لم يحدث أي تغيير ، بينما صار ٧ — ٨٪ اكثر عطفا على المانيا والالمان . انظر

Irving Crespi, «Public Reaction to the Eichmann Trial», *Public Opinion Quarterly*, Vol. 28, No. 1 (Spring 1964) *p.p.* 91-103.

(38) *G. O. I.*, September, 1978 (Report No. 158) *p.* 1.

(٣٩) انظر

Erskine, Western Partisanship in The Middle East».

(٤٠) انظر مثلا الدراستين الصادرتين عن

The Middle East Studies Association: Suleiman, *American Images*, *Op. Cit.*, and William J. Griswold, *The Image of the Middle East In Secondary School Text Books* (New York, N. Y.: Middle East Studies Association, 1975).

(٤١) شركة موبيل اويل ، مثلا ، رعت نشر

John R. Hayes, Ed., *The Genius of Arab Civilation* (New York, N.Y., New York University Press, 1975),

وانتاج الشريط السينمائي المؤلف من ٤ أجزاء والذي يحمل نفس العنوان . كما انها رعت (مع تمويل سابق من وزارة الصحة والتربية والرفاه) انتاج الفيلم الذي يستغرق عرضه ٢٠ دقيقة بعنوان « رحلة الى الغرب » وهو فيلم وثائقي حول الاميركيين — العرب .

(٤٢) بالاضافة الى كتابات سبق ذكرها ، بما فيها كتابات سليمان ، انظر

Janice Monti Belkaoui, «Images of Arabs and Israelis in the Prestige Press, 1966-74», *Journalism Quarterly*, Vol. 55, No. 4 (Winter 1978), *p.p.* 732-38, 799.

(٤٣) إن أهمية الاستطلاعات وتقويم الرأي العام الاميركي هي واضحة بالنسبة الى الاسرائيليين وانصارهم إذ انهم يقيسون باستمرار عاطفة الشعب حول قضايا بارزة بالنسبة لاسرائيل والاسرائيليين . وفي الواقع جرى اخيرا الاعراب علنا عن القلق من ان الرئيس كارتر كان يعتمد اكثر من اللازم على السيد بات كادل CADDELL ووكالته للاستطلاع في اتخاذ القرارات السياسية المتعلقة بالشرق الأوسط . انظر

Lipset and Schneider, «Polls for the White House».

حسني حدّاد

الصهيونيّة المسيحيّة في أميركا
العامل الديني في سياسة أميركا الشرق أوسطيّة

كثيراً ما يستغرب مراقبو السياسة الاميركية في الشرق الأوسط شدة التزام الساسة الاميركيين والرأي العام الاميركي بدعم اسرائيل معنوياً ومادياً .

وقد درج اكثرهم على القاء اللوم في ذلك ، على النفوذ الكبير الذي يمارسه اليهود على الرأي العام ، وعلى ضغط المنظمات الصهيونية على المؤسسات الحكومية الاميركية . ويضاف الى ذلك قوة اللوبي الاسرائيلي في واشنطن ، وتحيز الصحافة ووسائل الاذاعة نحو اسرائيل كتأثير أصحاب الأعمال اليهود عليها . وتلام كذلك قوة اليهود الانتخابية خاصة ، في الولايات المهمة مثل نيويورك وكاليفورنيا ، بالتأثير على آراء الشيوخ والنواب في الكونغرس ، وعلى حكام الولايات ، وعلى رئيس الجمهورية بالذات .

ولكننا نرى نقصاً في هذا التفسير لملابسات ، هذه العلاقة غير العادية بين اميركا واسرائيل . فان تقييم تأثير اللوبي الاسرائيلي وقوة اليهود الانتخابية ، وكذلك تقدير قوة النفوذ الصهيوني على الصحافة والراديو والسينما ، لا بد أن فيه شيئاً من المبالغة ، فلا يمكن لهذه التأثيرات ، مهما كانت فعاليتها ، ان توضح عمق واتساع هذا الالتزام الشديد تجاه اسرائيل على الصعيدين الرسمي والشعبي في الولايات المتحدة ، او أن تفسر لنا هذا الاستعداد التام عند الحكومة لاتخاذ قرارات سريعة جداً لمساعدة اسرائيل ودعمها عند الحاجة . حتى في المناطق التي لا وجود لقوة انتخابية يهودية فيها ، نرى النواب ورجال السياسة يتسابقون على مديح اسرائيل ، والوعود بتقديم المساعدات لها ، دون ان تكون هناك حاجة سياسة واضحة لذلك . وفي بيانات الاحزاب السياسية الاميركية نوع من التنافس على اتخاذ مقررات من شأنها ان تظهر اسرائيل وكأنها جزء من أميركا ، بينما تهمل هذه المقررات بلداناً اخرى ابناؤها يتواجدون اكثر من اليهود في اميركا .

رئيس جمهورية نيكاراغوا ، سوموزا كان يحاول في مقابلة تلفزيونية في شهر نيسان الماضي ، اقناع الرأي العام الاميركي بصداقته لبلادهم ، وفي سبيل ذلك اكد ، دون ان تكون هناك حاجة ظاهرة لذلك ، انه كان دائما يدعم اسرائيل في اروقة الأمم المتحدة ، وهكذا فان

صداقته لاسرائيل هي عربون على ولائه للولايات المتحدة وان الوقت والجهد الذي صرفه كسنجر ، وكارتر بعده ، في التدخل الشخصي لاجراء وانجاح مفاوضات السلام بين اسرائيل ومصر لاكبر دليل على أن اسرائيل لها منزلة خاصة عالية ، ليس في مجال السياسة الخارجية الاميركية فقط ، بل في شعور وعواطف الشعب الأميركي .

من يراقب مدى اهتمام الصحافة ووسائل الاذاعة باخبار اسرائيل ، وبالتحيز الواضح ، كمياً وكيفياً في ايراد الاخبار والمقالات والصور عن اسرائيل ، يرى انه لا يمكن ان يكون هذا التحيز نتيجة أو صادر من فوق . فالمسؤولون عن الصحافة والاذاعة ، كالسياسيين واصحاب الأعمال ، يتصرفون اعلامياً وسياسياً تحت تأثير ما يعرفونه من الآراء والمعتقدات الشائعة عند الزبائن ــ أي عامة الشعب . والايمان بأن « الزبون دائماً على حق » موجود عند التجار والسياسيين وأصحاب الصحف والاذاعات في اميركا .

واننا نرى ان الحكومة الأميركية تسعى بين الحين والآخر الى تغيير مجرى الرأي العام حيال بعض متطلبات السياسة الخارجية وهناك بعض الأمثلة : معاهدة قناة باناما ، معاهدة السالت مع الاتحاد السوفييتي ، الاعتراف بالصين ، الخ ... ولكننا نادراً ما سمعنا بمحاولة لتغيير اتجاهات الرأي العام الاميركــي حيال اسرائيـل ، إلا عندما حاول الرئيس كارتر ، في السنة الأولى من رئاسته ، ان يتخذ موقفاً « جديداً » بدعمه لفكرة الوطن الفلسطيني ، ثم بقبوله بمشاركة الاتحاد السوفييتي في السعي لايجاد حل لمشاكل الشرق الأوسط . وكان ان اضطر كارتر على التراجع عن مواقفه هذه ، وراح يتطرف في سياسة معاكسة . وسبب ذلك ان الرأي العام لم يستجب له ، فقد قرن هذا الرأي العام شعوره المعادي للاتحاد السوفييتي بانحيازه نحو اسرائيل .

ولذلك نقول ان شعور الانحياز لدى الجمهور الاميركي لاسرائيل وضد العرب هو عامل هام في توجيه السياسة الاميركية الخارجية بشأن النزاع العربي الاسرائيلي . وهذه الدراسة تفترض ان هذه النزعة العامة هي مبدئياً نتيجة لعقيدة دينية شديدة وعميقة غير مبنية على أساس علمي ، أو على تغيير اقتصادي أو سياسي ، أو على معرفة مداخلات وملابسات السياسة الخارجية .

ستعنى هذه الدراسة بالأسس الدينية اللاهوتية ــ الحضارية التي بني عليها هذا الشعور المتحيز . وسنتناول بالبحث هذا التحيز عند العامة ، وعند رجال الدين واللاهوتيين الذين يبحثون في موضوع اسرائيل من ناحية دينية غيبية . وسنقتصر في بحثنا هذا على اتباع المذهب البروتستنتي ــ الانجيلي ــ في شقيه: الليبرالي والمحافظ . فان المذاهب البروتستنتية في اميركا ــ وهي كثيرة التشعب ــ تمثل الاكثرية الغالبة لهذا الشعب وفيها تكمن اكثر مصادر النفوذ السياسي . اما الكاثوليك واليهود فلم نتعرض لهم هنا فقط لضيق المكان ، ولا بد من متابعة دراسة هذه الظاهرة التحيزية عندهم في مكان آخر .

لقد انتجت جذور هذه النزعة المتميزة لاسرائيل ، تأثيرات لا شعورية احياناً وشعورية احيانا اخرى نراها متغلغلة في الوعظ والجمعيات الدينية والمجلات والنشرات الكنسية والدينية ، وعند عامة اعضاء الكنائس ويتضح لنا ان هذه النزعة مع دعمها الواضح لاسرائيل

لا تجنح لمحبة اليهود كأشخاص . ولكن ذلك لا يؤثر مطلقاً على الدعم الذي تلقاه هذه المؤسسات البروتستانتية من المنظمات الصهيونية في أميركا ومن اسرائيل بالذات .

وسنتعرض في هذه الدراسة للبحث في تأثير النزعة الاسرائيلية عند البروتستانت على السياسة الاميركية وذلك بتبيان القوة العددية والمالية والدعائية الموجودة عند هؤلاء الذين اطلقنا عليهم اسم « المسيحيين الصهيونيين » . وقد وجدنا ان هذه القوة ، هي في ازدياد ، خاصة خلال السنوات التي اعقبت حربي ١٩٦٧ ــ ١٩٧٣ . فان التقدم البطيء نحو شيء من التفهم للقضية الفلسطينية عند بعض المفكرين بعد حرب ١٩٧٣ ، يتضاءل امام ازدياد عدد « الانجيليين » والمسيحيين الصهيونيين خلال الفترة نفسها .

الصهيونية المسيحية في اميركا

الصلة بين دولة اسرائيل المعاصرة واسرائيل التوراة هو حجر الزاوية في صرح هذا الدعم الشديد عند المسيحيين لاسرائيل . وبما أن ذلك الوصل هو فكرة صهيونية في الأساس ، لذلك نطلق على هذا الدعم ــ الذي بني على الاعتقاد بالتوراة عند المسيحيين ــ اسم الصهيونية المسيحية .

والصهيونية عند المسيحيين لا توجد عند البروتستانت المتعصبين للحرف التوراتي Furdamentalits فقط ، بل اننا نجد ذلك في الآراء والكتابات الدينية والسياسية عند المشيخيين، واللوثريين، والاسقفيين والكاثوليك. ويأتي هذا الدعم الفكري للصهيونية بشكل مواعظ في الكنائس وفي التدريس في مدارس الأحد ، ونجده في المجلات الدينية ، وفي النشرات التي توزع مجاناً ، وفي اعلانات غالية الثمن في الصحف الواسعة الانتشار . ثم نجده بصورة مكثفة في برامج خاصة على شاشة التلفزيون وفي الراديو ــ وازداد عدد هذه البرامج سنوياً ، وهي تدعو إلى مساعدة اسرائيل ودعمها معنوياً واقتصادياً . احياناً بالتلميح والايماء ، وأحياناً بصراحة ووضوح ــ « لابداء الحب لليهود ولدولة اسرائيل » . أما البرامج السياحية التي يقهم بها أعضاء الكنائس لاسرائيل فهي أكثر من ان تحصى . وتتباين مظاهر هذا الدعم لاسرائيل من دعوة واضحة لحب اسرائيل وكره العرب ، (خاصة لصداقتهم للاتحاد السوفييتي) إلى دراسات مثقفة لاهوتية تعنى بتفسير المغزى الديني لعودة شعب الله المختار الى الأرض الموعودة ، ولأهمية تلك العودة للبرهان على صدق التوراة ، وعلى اكتمال الزمان وعودة المسيح » .

ومع أننا نرى بعض الاعتدال « المسيحي » في آراء بعض المفكرين البروتستنت والكاثوليك بما يتعلق باسرائيل ، وبابداء الشفقة على اللاجئين الفلسطينيين ، ولكن النزعة التوراتية في تفسير عودة اسرائيل كتتمة للوعد الالهي ولتكملة التاريخ تتغلب على ذلك عند اكثرهم **الأسس اللاهوتية للصهيونية المسيحية**

إن مراجعة سريعة لنماذج من التفكير التوراتي واللاهوتي عند المسيحيين الصهيونيين في مجال الفلسفة الدينية أو في مجال الايمان بالنبوات وتطبيقها على الأحداث الجارية ، تكفي للدلالة على مدى تغلغل هذه النزعة الصهيونية ضمن الكنيسة المسيحية في أميركا .

ونبدأ بنبذة من تفكير لاهوتي معتدل عن مقام اسرائيل في الخطة التاريخية الالهية ، وعن اهمية ذلك في تسيير سياسة الدولة الاميركية تجاه الدولة اليهودية . يقول العالم اللاهوتي اللوثري رتشارد نويهاوس في كتابه « الايمان المسيحي وسياسة الدولة » ما يلي :(١)

«إن الولايات المتحدة لديها مسؤولية فريدة نحو اسرائيل . فالكنائس عليها أن تحتج على بعض اعمال اسرائيل السياسية ، وأن تشجب بعض التصرفات غير العادلة التي صاحبت اقامة دولة اسرائيل ، وان تعترف بالظلم الذي لحق بالفلسطينيين وغيرهم ممن اسيء معاملتهم ظلماً من قبل اسرائيل والعرب على السواء »

وهكذا أراح المؤلف ضميره المسيحي في اطار هذه العبارة القصيرة بالاعتراف بالظلم اللاحق بالفلسطينيين ، ولكنه ينتقل سريعاً إلى قلب الموضوع فيقول :

« ولكن يجب ألا تخامرنا الشكوك في حق اسرائيل التام بالحياة ، وبقوة ودوام التزام الولايات المتحدة بدعم هذا الحق . ونأمل أن تتزايد ضماناتنا لبقاء ورخاء اسرائيل ، وان تشترك معنا بذلك دول اخرى . ولكن اذا اقتضى الأمر ، فعلينا ان نقف وحدنا الى جانب اسرائيل » . هذا التصريح المعبر عنه بصيغة نهائية غير قابلة للشك ــ لا بد أنه يستند الى تفكير ديني ــ لاهوتي . فتشكيل الفكرة الصهيونية ضمن نطاق لاهوتي توراتي هو ما يعطيها الصيغة الايمانية التي تتمكن من تخطي القضايا الانسانية ، كالعدل والظلم ، بنظرة عابرة سطحية ، ولا تقبل بالتركيز الا على المسائل الالهية .

يتابع المؤلف القول :

« إن هذا التفكير بشأن اسرائيل يقوم على العلاقة المتينة بين الكنيسة المسيحية والدين اليهودي الحي . وهذه العلاقة ستبقى سراً لاهوتياً ، كما كانت خلال تاريخ حافل بالمآسي . ضمن هذه الصلة الوثيقة نجد حكم الله واضحاً بدءاً من بيت الايمان (في سلالة ابراهيم) » .

وهكذا فان دعم اسرائيل من قبل اميركا يتقدم على مسائل حقوق الانسان والاعتبارات السياسية والاجتماعية والاقتصادية في الحياة العادية . بعد أن وضع الأسس اللاهوتية (السرية) للمسيحية الصهيونية ، ينتقل المؤلف إلى حديث عقدة الذنب عند المسيحيين ــ التي هي من مقومات العمل الصهيوني .

« إن الكنائس اللوثرية مطلوب منها أن تعالج معالجة خاصة موضوع هذا الحكم الالهي ، لمسؤولياتها في المحرقة الاوروبية (تحت الحكم النازي) » .

هنا يجمع المؤلف بين عقدتي ذنب، تتعلق الأولى بمسيحيته والثانية بكونه المانياً .

ولا بد أن يعتمد البحث في مركز اسرائيل الديني على الاعتقاد بأن اسرائيل لها علاقة عضوية لا تقبل الشك باليهود أينما وجدوا وبالدين اليهودي ، وعلى ان اسرائيل واليهود يشكلان كياناً متواصلا خلال اكثر من ألفي سنة عبر التاريخ . ولا يشك المؤلف بذلك اطلاقاً ، إذ يقول

« من الضروري أن ندرك الفارق بين اسرائيل والدين اليهودي ، ولكن علينا أن نعترف باستحالة الفصل بينهما . الكثير من المسيحيين واليهود يعتقدون أن بقاء الدين اليهودي حياً قد

يتعلق مباشرة ببقاء دولة اسرائيل . وقد يحتج بعض المسيحيين على هذا الربط بين الاثنين ، ولكننا لا نتمكن من المجازفة باحتمال عدم صحة هذه النظرية » .

اهتمام نويمان البالغ ببقاء اسرائيل وبقاء الدين اليهودي حياً يأتي من معتقد مسيحي واسع الانتشار ويقول بأن اليهود ، وهم شعب الله المختار ، لهم دور مركزي اساسي في خطة الله التاريخية سيبقى الى أن تتم الازمنة ويأتي المسيح .

ومع أن نويمان ينتمي الى كنيسة غير محافظة وحرفية Furdamenllit فاننا نجد في قوله هذا ، حضوراً للفلسفة الاخروية (وسنعود الى هذه الفلسفة فيما بعد) مع انه يبدي بعض الشك في مدى صحة هذه الاعتبارات ، إلا أنه لا يريد المجازفة ، فيلتزم بها .

ولكننا نجد لاهوتيين كثيرين آخرين ، ممن يمكن تسميتهم بليبراليين (أي انهم لا يعتقدون بعصمة وحرفية التوراة) لا يخامرهم الشك ، ولو قليلا ، بصفة اسرائيل التوراتية الدينية . من أهم اللاهوتيين المسيحيين الاميركيين في فترة الحرب العالمية الثانية وما بعدها مباشرة (أي خلال اشتداد الصراع للاستيلاء على فلسطين من قبل الصهيونيين) راينهولد نيبور ، وقد اهتم في بداية نشاطه الفكري بالتحليل الاجتماعي ، ويظهر انه تأثر كثيراً بماركس . ولكنه انتقل بعد ذلك الى تفكير اكثر لاهوتية تحت تأثير كتابات كسيركفار ومارتن بوبز ثم التزم بالمنظور التوراتي ، أي ان مفهومه عن تناقضات أسرار وجود الانسان التاريخي تتمركز على مقولات توراتية اسطورية[٢] ونجد في تفكيره عن الصهيونية واسرائيل عاملا آخر قد يكون عقدة الذنب المسيحية ــ الالمانية مما قاده الى الانتقال من التفكير الصهيوني الى النشاط الصهيوني .

فالتفكير الصهيوني المسيحي عند نيبور (كما هو في الواقع عند الصهيونية العالمية) يقف على أسس توراتية . ففي مقال كتبه لمجلة Nation ، خلال الحرب العالمية الثانية[٣] دافع بشدة عن حق اليهود في الاستيطان في فلسطين ، لكون هذا الحق هو حق جماعي . ويهاجم المفكرين الليبراليين العصريين « لأن لديهم افتراضات وتوهمات فردية وكونية » تمنعهم من تفهم « مقتضيات الحياة الجماعية عند الانسان » .

وهكذا فان « نزعة الحياة الجماعية » عند اليهود هي أساساً حق تاريخي واضح . واذا لم يكن ذلك فالحاصل هو انقراض جماعي . فالارادة الجماعية عند اليهود ، تفترض تعبيراً جغرافياً ، أي مواطناً يهودياً . ومع أن نيبور يوبخ الصهيونيين لبعض ما اقترفوه من أعمال العنف ، إلا أنه لا يرى في ذلك مبرراً حتى للشك البسيط في حقهم في الأرض الفلسطينية[٤] . أما الحق الجماعي للفلسطينيين فلم يكن وارداً في البحث ، وربما كان السبب في ذلك توراتياً أيضاً ــ إذ أن الفلسطينيين ــ وهم كنعانيو التوراة ــ قد كتبت عليهم الهجرة .

في مثل هذا التفكير تخل واضح عن تعاليم المسيح التي تدعو إلى العدل ومحبة الفرد الانساني ، وفيه انكار للمثل الموجودة في العهد الجديد والرجوع إلى فلسفة العهد القديم التي تؤكد على اخضاع كل القيم الانسانية لامتيازات خاصة بهيئة جماعية قبلية عنصرية معينة .

نشاطات المسيحيين الصهيونيين

في عام ١٩٤٢ نشطت الهيئات الصهيونية في اميركا في تعبئة قوى بعض رجال الدين المسيحيين لخدمة هدفهم الأكبر وذلك بعد مقررات بلتمور في العام نفسه ـ وهو اقامة الدولة اليهودية في فلسطين . وقد وجدوا الكثيرين من رجال الدين مستعدين لتقديم خدمات في ذلك السبيل ، ومنهم لاهوتيون لهم سمعتهم الفكرية . راينهولد نيبور ، ومعه آخرون ، وأسسوا جمعية لهذه الغاية : المجمع المسيحي لفلسطين .

وكان هدف المجمع ، تركيز نظار الهيئات الدينية المسيحية في اميركا على دور فلسطين الحيوي كملجأ وحيد لانقاذ اليهود المشردين . وضم هذا المجمع ، بالاضافة الى نيبور رجال دين وعلم مشهورين مثل جون هولز[٥] بول تلك ، اللاهوتي المعروف ، ودانيال بولنغ محرر مجلة الكرستشان هرلد ، ووليم البرايت عالم الآثار المشهور[٦] .

ولد المجمع المسيحي لفلسطين في اجتماع ضم سبعين من رجال الدين البروتستانت في لجنة دعيت باسم «لجنة قادة الفكر المسيحيين، القسس والرعايا، لتسهيل هجرة اليهود الى فلسطين». وبعد عامين من تأسيس المجمع وصل عدد اعضائه الى ١٢٠٠ ، اكثرهم من القسس البروتستانت ، وذلك بعد تلقي دعم مالي كبير من الهيئات الصهيونية في اميركا .

كارل فوس ، أمين عام المجمع ، حدد مسؤولياته بأنها « طلب المعونة من رجال الدين في كنائسهم لتهيئة وتأهيب رعاياهم للعمل على انجاح هذه القضايا [الصهيونية] المتعلقة بفلسطين » ثم عدد أربعة أهداف لأعضاء المجمع هي **أولا** : قبول مبدأ كون القضية اليهودية هي قضية مسيحية ، **ثانياً** : شرعية وعد بلفور ، **ثالثاً** : معارضة الكتاب الأبيض البريطاني (١٩٣٩) ، **ورابعاً** : البحث في تنمية فلسطين بما يفيد اليهود والعرب فيها[٧] .

إن هذه القضايا المدنية والسياسية في أساسها ، تصبح قضايا مهمة لرجال الدين وللكنائس لسبب مبدئي ، هو علاقة فلسطين والأحداث التي تجري فيها بالتوراة . وهذه العلاقة المتينة بين الصهيونية والمسيحية المائلة للصهيونية تتأتى عن الأسس الثابتة للصهيونية في التوراة[٨] .

ولذلك فان المسألة اليهودية (وهي آنذاك تأسيس دولة يهودية في فلسطين) أصبحت بالتالي مسألة مسيحية . أما بعد تأسيس اسرائيل فقد تقدم هذا التحالف الصهيوني ـ المسيحي خطوة اخرى . فقد أصبحت دولة اسرائيل مسؤولية مسيحية لانها ، حسب تفسيرهم هي تتمة للوعد التوراتي[٩] .

وفي سنة ١٩٤٦ ، اندمج المجمع المسيحي لفلسطين مع مؤسسة مسيحية اخرى تخضع للصهيونية ، وهي اللجنة الاميركية لفلسطين ، وهذه الأخيرة كانت قد تأسست في سنة ١٩٣٢ كلجنة مدنية لدعم الأهداف الصهيونية . ودعيت المؤسسة الجديدة الموحدة باسم اللجنة الاميركية المسيحية لفلسطين وكان عدد اعضائها عند الدمج اكثر من ثلاثة آلاف رجل دين ، اكثرهم من البروتستنت ، ولها اكثر من مئة فرع في انحاء الولايات المتحدة . أما مجموع الاعضاء في هذه المؤسسة فقد وصل الى اكثر من ١٥ الف شخص من اصحاب النفوذ .

في عام ١٩٤٢ ـ ٤٥ تسلمت هاتان الجمعيتان من/ المجمع الاميركي الصهيوني American Zioint Emergency conceil معونة مالية قدرها ٧٢ ألف دولار سنوياً . وفي عام ١٩٤٧ ـ ٤٨ ، بلغت هذه المعونة ١٥٠ ألف دولار . وقد ناشد المجمع الصهيوني فروعه المحلية بتقديم مزيد من المعونات المعنوية والمالية لهاتين المؤسستين المسيحيتين. ورداً على التهم التي وردت من بعض الجهات ضد مثل هذا الربط المادي بين المؤسسة المسيحية والصهيونية الاميركية ، قال مدير الجمعية بصراحة ، « إننا لا نتمكن ابداً من ايجاد الدعم الكافي بين المسيحيين لاهداف ومشاريع الجمعيات الصهيونية بدون هذه المعونة المالية ... ان المسيحيين الذين يهتمون بالمشاكل الاجتماعية ، لا بد ان يشاركوا بالشعور العميق بالذنب للمصائب والويلات التي الحقت بالشعب اليهودي . وقد حان الوقت « للقيام بشيء لمعالجة الداء الأخلاقي المتأصل في جسم ما يدعى بالحضارة المسيحية »(١٠) .

قبل تأسيس الدولة اليهودية ، لا بد أن بعض المؤيدين للصهيونية بين المسيحيين في اميركا لم يدركوا آنذاك تماماً عظم المحنة التي كان يلاقيها الشعب الفلسطيني . والبعض الآخر كان قد تأثر تأثراً شديداً بعقدة الذنب امام ما لاقاه اليهود من النازيين في المانيا ، فلم يبق عندهم متسع للشعور بالذنب نحو الفلسطينيين .

ولكن المثقفين ، كنيبور ، كانوا على شيء من المعرفة بالظلم اللاحق بعرب فلسطين . ولكنه تمكن من ايجاد مبررات ، وحاول سد هذه الثغرة الاخلاقية ، باقتراح مشاريع لتخفيف العبء . وجد أن على اميركا ان تساعد على توطين اللاجئين الفلسطينيين في الدول العربية المجاورة ، وبالاضافة إلى ذلك ، عليها أن تساعد في قيام اتحاد او وحدة عربية « للتعويض عن فقدان فلسطين »(١١) .

وهناك تبرير آخر لهذا التفاوت الاخلاقي جاءنا في خطاب القاه رالف هارلو ـ استاذ الدين في كلية سمث ـ في الاجتماع التأسيسي للجنة المسيحية الاميركية لفلسطين ، قال فيه : « إن اعطاء فلسطين للصهيونيين لهو اقل ظلماً من أي حل آخر للمسألة الفلسطينية ، لأن الدول العربية المجاورة لفلسطين تتلهف على التزايد السكاني » .

ولكننا نرى ان الصهيونيين استغلوا في ذلك الوقت ، وفي الدرجة الاولى ، هذا الشعور الكبير بالذنب عند المسيحيين ، ولا يقابل ذلك شعور مماثل نحو المسلمين أو نحو العرب ، أو الفلسطينيين .

قال رئيس اللجنة المذكورة في مقال في مجلة **المسيحية والمعضلات** في عام ١٩٤٣ ، ان « ايجاد ملجأ للملايين من اليهود المشردين » في فلسطين لا يعني ان في ذلك دعماً « للقومية اليهودية » بل هو بالحري ، « الجواب القاطع على معضلة مسيحية » هي معضلة اللاسامية. وتابع يقول ان « موقفنا هذا لا يعني اننا صهاينة ـ بروتستانت بل هو حل لمشكلة ، ليست يهودية بالأساس ، بل مسيحية »(١٢) .

في هذه الفقرات نجد المبدأ الأساسي للصهيونية المسيحية . وفي تفكير الصهيونيين البروتستانتيين بعض التناقض فيما يتعلق بالقضية الفلسطينية ـ هل هي مركز اهتمام يهودي

اولا ام مسيحي . فهناك من ركزوا على احتياجات اليهود وهنالك من غالوا في شعورهم بالذنب ـ ولكن في الحالتين لم يحظ الفلسطينيون بأي اهتمام من أية جهة ، ولم يرد ذكر الاسلام اطلاقا ضمن نطاق هذا التحالف اليهودي ـ المسيحي الذي يتجاوب مع ما يسمى بالحضارة اليهودية ـ المسيحية (Judaeo- Christian) .

المسيحيون الصهيونيون والدولة اليهودية

بعد صدور قرار بلتمور سنة ١٩٤٢ ثم قرار المؤتمر الاميركي اليهودي عام ١٩٤٣ بالمطالبة بالدولة اليهودية كهدف واحد للصهيونية ، انتقل المجمع المسيحي لفلسطين (CCP) واللجنة الاميركية لفلسطين (A PC) من المطالبة بمعونة اللاجئين اليهود وتوطينهم في فلسطين الى دعم الدولة اليهودية . وكان المؤتمر الوطني المسيحي المنعقد في مدينة واشنطن عام ١٩٤٦ ، قد عمل لتوحيد هاتين المؤسستين في جمعية واحدة ـ تجاوبا مع هذه السياسة الجديدة ـ دعيت باسم اللجنة الاميركية المسيحية لفلسطين (ACPC) ـ وقد جرى ذكرها سابقا . وقام المؤتمر المذكور بجهود كبيرة للضغط على اعضاء الكونغرس الاميركي الذين كانوا يبحثون في قضايا الشرق الأوسط آنذاك ، وذلك لتدعيم اهداف الصهيونية ومطالبها .

ولكن بالرغم من التحول السياسي فان هذه اللجنة التي خدمت أهداف الصهيونية العالمية بامانة قبل تأسيس دولة اسرائيل عام ١٩٤٨ ، بدأت تفقد أهميتها نظر لتغير التشديد في الحركة الصهيونية من اهتمام انساني الى نشر فكرة اسرائيل كحقيقة سياسية . ثم أن فترة ما بعد الحرب العالمية الثانية في أميركا أدت للحرب الباردة ، والهستيريا المكارثية المعادية للشيوعية . وفي هذه الفترة تحمس الواعظون ، خاصة « الحرفيون » منهم في التنديد بالشيوعية واخطارها من على منابر الكنائس . وبينما كانت اسرائيل في فترة أمان نسبي بعد انتصارها في حرب الـ ٤٨ ، كان « جنود المسيح » يدافعون بشدة عن « اسرائيل الجديدة في العالم الجديد » ضد الخطر الزاحف من ياجوج وماجوج .

وأخيرا ، في عام ١٩٥٠ ، انكشف امر اللجنة المسيحية لفلسطين في كونها واجهة للحركة الصهيونية وانقضى امرها ، بعد أن أمضت وقتا طويلا في محاولة اقناع اعضاء الكنائس بحق اسرائيل المعنوي والتوراتي في أرض فلسطين . ولم يتوقف نشاط الصهيونيين بين الكنائس المسيحية بعد انفراط عقد الجمعية ، فلا تزال هناك جبهات كنسية عديدة تعمل لدعمهم معنويا وماليا ودينيا . ويظهر لنا ان اكثر هذا الدعم المسيحي للصهيونية يأتي عن اقتناع مسيحي وليس بضغط صهيوني . هذا الاقتناع المسيحي يأتي بالدرجة الأولى عن اعتناق الكثيرين من المسيحيين البروتستانت (وغير البروتستانت ايضا) فلسفة الحرفية التوراتية ، وتطبيق النصوص التوراتية على احداث التاريخ .

هذه النزعة التوراتية التي انتشرت انتشارا واسعا خاصة في بريطانيا واميركا تتميز ، بنظرنا من ناحية قوتها وعمقها ، على عقدة الذنب تجاه اليهود ، وعلى المبدأ الاخلاقي المسيحي ، العدالة المسيحية . وقد تمكن الصهيونيون من استغلال عقدة الذنب عند المسيحية وخاصة اثناء الاضطهاد النازي وفي فترة ما بعد الحرب مباشرة . أما بعد تأسيس اسرائيل ، ووجود معضلة اللاجئين الفلسطينيين ، فقد حول الصهيونيون ، ومن لف لفهم من الصهيونيين

المسيحيين ، جهودهم من استغلال عقدة الذنب كدافع لدعم اسرائيل ، الى الاستغلال التوراتي ، أي في التأكيد على الاختيار الالهي لاسرائيل ، ومكان اسرائيل الجذري في سياق التاريخ التوراتي . وهذه النظرية التوراتية هي أساس مذهب الانجيليين الاميركيين .

في انهماك الاميركيين بالحرب الباردة ، وبسلامة اسرائيل كدولة مضمونة ، ظهر أن نشاط المسيحيين الصهيونيين قد خف . ولكن الهجوم الثلاثي على مصر سنة ١٩٥٦ أثار الاهتمام من جديد ، ووضع الصهيونيين موضع الدفاع عن هجوم اسرائيل على مصر . وكان أساس هذا الدفاع يقوم على أن مصر وناصر بالذات ، في حلف مع السوفيات ، وان اسرائيل تدافع عن وجودها ضد العرب والروس المتحالفين ، ولذلك تقف في وجه التوسع الشيوعي في الشرق الأوسط .

وهنا نرى ان نيبور قد عاد الى نشاطه في حمل راية اسرائيل . ومع انه لم يوافق مبدئيا على الهجوم على مصر من قبل الدول الثلاث ، الا انه كان غاضباً حسب قوله على « جمود اميركا الأخلاقي » وبرر موقف الدول الثلاث بكونها قد فقدت ثقتها « بمقدرة اميركا او بميلها الى الدفاع عن حقوقهم ضد تهديد الديكتاتور المصري لهم بدعم من روسيا » وأضاف انه من ضعف الايمان ان تقوم اميركا بمساعدة العرب على حساب اسرائيل لأن « الشيوعيين قد استولوا على قلب ناصر بواسطة تقديم الأسلحة الحديثة اليه »(١٤) ومع انه لم يقل ذلك علناً ، إلا ان نيبور كان توراتياً في ربطه التحالف الروسي العربي بالعمل الشيطاني الموجه ضد اسرائيل ــ فقد ذكر المعتقدون بالنبوات التوراتية مراراً أن هذا التحالف لا بد أنه واقع .

هرمجدون تقترب

كـــان عام ١٩٦٧ نقطة تحول في نشاط المسيحيين الصهيونيين في اميركا فالهوس بالخطر الشيوعي الذي كان سائدا في الخمسينات من توسع الشيوعية العالمية خفت حدته في الستينات . وبدت حرب الأيام الستة ، وكأنها حادثة اسطورية بين قوى الشر وقوى الخير . والنزعة الالفية عند البروتستانت المتحفظين (وبعض الكاثوليك ايضا) وجدت حدثاً مهماً في تلك الحرب ، التي ظهرت وكأنها معركة على طريق هرمجدون ، المعركة في نهاية العالم .

وفي البداية ، اهتم اكثر الصهيونيين وانصارهم بسلامة اسرائيل ، لأن ابواق الدعاية الصهيونية صورت الحرب وكأنها دفاع اسرائيل الصغيرة عن حياتها ضد التجمع العربي . وهذا الخطر الموهوم على وجود اسرائيل ، اصبح عند هؤلاء « الالفيين التوراتيين » تأكيداً على صحة معتقدهم بتهديد اسرائيل بالزوال ، كان تهديداً لصحة التوراة لديهم ، ويضع وجود الله ذاته على المحك .

بعض المنظمات والمؤسسات المسيحية ، مثل المجلس الوطني للكنائس (NCC) والمؤتمر الوطني للأساقفة الكاثوليك ، بدت وكأنها تقف على الحياد . ولكن أصوات كثيرة ، خارج النطاق الانجيلي (أي من البروتستانت الليبراليين) ارتفعت عند ذاك بدعم اسرائيل وبالتنديد « بالمسيحيين الصادقين » أي الذين لم يلتزموا بالتحزب لصالح اسرائيل .

ويمثل هذا الفريق احد تلامذة نيبور ، وهو روي ايكارت الذي يعد من اقوى اصوات المسيحيين الصهيونيين في فترة حرب الأيام الستة . وايكارت هو محرر « مجلة الاكاديمية الاميركية للأديان » ، وأستاذ علوم الدين في جامعة ليهاي . وقد هاجم بشدة ما دعاه بصمت

الكنائس خلال محنة اسرائيل ومحاولة العرب ابادة اليهود متهما المسيحيين الذين لم يقفوا علنا الى جانب اسرائيل « بأخلاقية ضبابية » وأعلن ان « العرب مخطئون في محاولتهم افناء الدولة اليهودية . هذه السياسة ليست مجرد خطأ جزئي يمكن مقاومته جزئيا ، بل انها مخطئة كليا ولذلك فمن الواجب محاربتها بدون هوادة »(١٥) .

وأكد بالتالي أن صمت البروتستانت والكاثوليك « عند محاولة النازيين افناء اليهود » قد تجدد في حزيران ١٩٦٧(١٦) .

وهذا الاتهام الصارخ للمسيحيين الذين لم يعلنوا انضمامهم الى جبهة اسرائيل ، تحول ، عند السيد ايكارت ، كما تحول عند الصهيونيين ، الى اتهام شامل للكنيسة المسيحية ، إذ قال ان « اللاسامية عند المسيحيين » مردها الى « داء اصاب المسيحية ، هو قلة احساس جماعي ، مرده الى قرون عديدة من تعاليم الكنيسة في كره اليهود »(١٧) .

ومع ذلك ، فان رجال الدين الذي اتهموا بالصمت خلال ازمة ١٩٦٧ ، لم يكونوا بالواقع اعداء لاسرائيل . وهؤلاء الذين نددوا بالتوسع الاسرائيلي ، وبالمعاملة القاسية للفلسطينيين لم يترددوا أبداً في التأكيد على وجوب ابقاء اسرائيل ، وعلى حق اسرائيل في فلسطين ، وكل ما في الأمر ان موقفهم كان متأثراً بالظلم الذي لحق بالعرب من جراء هذه الحرب . ولكن غضب ايكارت ، ومحاولة استاذه نيبور بتبرير الهجوم الاسرائيلي بقوله ان « دولة مهددة بالاختناق لا بد ان تستعمل قبضات يدها »(١٨) . لا يمكن تفسيره إلا برده الى « التزام ايماني » باسرائيل يتطلب اخلاصاً تاماً . ولا يمكن بالتالي التساؤل عن صحة هذه « الحقيقة الكاملة » ، فان هذا التساؤل يدخل في باب الكفر ، ولا يخضع للشكوك الفكرية . ان هذا الالتزام الايماني ، هو الذي يفسر ، في القاموس الاميركي الديني ــ السياسي ، الى ما يدعى **الالتزام الاخلاقي** إلى جانب اسرائيل .

يتركز العهد القديم حول فكرة اسرائيل : اسرائيل الدولة واسرائيل الشعب ، ويدور حول مركزية اسرائيل في التاريخ الالهي . والعهد الجديد ، خاصة رسائل بولس الرسول ، تزودنا ببعض النصوص التي تؤكد على اختيار الله لاسرائيل ــ الدولة والشعب ــ ولكنه يضيف أن هذا الاختيار بعد مجيء المسيح ، قد توسع لكي يضم الأمم . يقول بولس في اصول رسائله ان اسرائيل هي كشجرة الزيتون الاصلية ، وان الأمم (أي غير اليهود) الذين قبلوا المسيح هم اغصان طعمت على الشجرة الاصلية . (روحية ١١ : ٢٤) . وعلى ذلك فان المسيحيين ، لا بد لهم ان يعالجوا قضية اسرائيل لأن تلك القضية تدخل في صلب ايمانهم . واذا حاول المسيحي رفض الاعتراف بأهمية اسرائيل ، فعليه عند ذلك ان يقوم بجهد لاهوتي كبير لكي يؤيد هذا الرفض . ومن ناحية اخرى ، فان القبول بأهمية اسرائيل ، هو تأكيد لصحة وحرفية نصوص التوراة . وعلى كل حال فان اسرائيل مركز اهتمام كبير عند المسيحيين الاميركيين (وغير الاميركيين) ويفوق هذا الاهتمام أي اهتمام آخر لدول اخرى . ولا بد لنا من القول أن هذه العقيدة المسيحية اصبحت واقعاً عندما قرر الصهاينة إطلاق اسم « اسرائيل » على دولتهم .

وهكذا فان وجود اسرائيل الحديثة يطرح سؤالا مسيحياً ويتطلب كذلك موقفاً مسيحياً . فان المجمع العالمي الثاني للكنائس المسيحية ، الذي انعقد في افانستون سنة ١٩٥٤ ، صرف

وقتاً طويلا وجهداً كبيراً في بحث مسألة الدولة اليهودية وعلاقتها بالكنيسة . وقد تواجد في المؤتمر عدد من المسيحيين العرب وغيرهم من بلدان آسيا وافريقيا ، الذين عارضوا بشدة ان يصدر المؤتمر قراراً بشأن اسرائيل . وهكذا فان المؤتمر قرر لذلك ان يبقى صامتاً صمتا رسميا . أما القرارات التي قدمت بهذا الشأن فهي تبين بوضوح مدى استعداد بعض رجال الدين المسيحيين لتبني قضية اسرائيل باعتبارها قضيتهم . وقدمت اللجنة التي كانت تبحث في علاقة الكنيسة باليهود تقريراً للمجمع يقول :[١٩] « إن الرجاء المسيحي (بالمجيء الثاني) لا يمكن بحثه عبر فصله عن رجاء اسرائيل ، الذي نراه بوضوح فقط في كتب العهد القديم ، بل في ما نراه من عون الهي دائم للشعب اليهودي ، فان بقاء الكنيس اليهودي ، وبقاء الشاهد اليهودي لاله ابراهيم بعد الفين من السنين على تواجد الكنيسة المسيحية لأمر يتحدى الكنيسة لمجابهته . فالكنيسة لا تتمكن من الراحة قبل ان يقبل شعب الله المختار المسيح كملك » .

وبما أن المؤتمر قرر أن لا يصدر بلاغاً رسمياً ، فقد قامت مجموعة من الأساقفة باصدار بلاغ الاقلية : يقول :[٢٠] « إننا نؤمن ان الله اختار اسرائيل لكي يتابع خلاصه للبشرية ... ومهما كان موقفنا ، فلا نتمكن من نكران اننا اغصان قد تطعمت على الشجرة القديمة التي هي اسرائيل ولذلك فان شعب العهد الجديد لا يمكن ان ينفصل عن شعب العهد القديم ... إن انتظارنا مجيء المسيح الثاني ، يعني املنا القريب في اعتناق الشعب اليهودي للمسيحية ، وفي محبتنا الكاملة لهذا الشعب المختار من الله .

في هذا البلاغ نجد الأساس اللاهوتي التوراتي الذي يبني عليه المسيحيون المحافظون في اميركا ايمانهم بعلاقة اسرائيل بالكنيسة : هو هذا الربط بين العهد الجديد والعهد القديم ، وأهمية وجود اسرائيل كسابقة لربح اليهود في كنيسة المسيح ، كل ذلك لكي يمهد الطريق لمجيء المسيح الثاني .

سياسة الاخرويات

بعض اللاهوتيين ، والمفكرين المسيحيين ، وبعض المجلات الدينية مثل Christion Century يخاطبون المثقفين المسيحيين . وفي معالجتهم للقضية الفلسطينية نجد اختلافاً في الاراء،في النظر الى الامر من زوايا مختلفة.اما الدعم لاسرائيل الذي نجده عند المسيحيين المحافظين ، الذي يعتقدون بالرؤيا و النبوآت .والذين يؤمنون بالألفيــة ، وغيرهم ممن ينتمون الى طوائف متعددة (نسميهم عامة بالانجيليين) ان هذا الدعم شامل ودغمائي . الدغمائية فيه تعتمد على ايمان بأن نصوص التوراة بما فيها العهد القديم ، تحتوي على كل الحقيقة بما يتعلق بهذه المشكلة ، وبكل المشاكل الأخرى .

وكما نجد أن بعض المتزمتين المسيحيين في اميركا يرفضون قطعاً نظرية التطور الدراد ينية ويجاهدون في سبيل منعها من الظهور في الكتب المدرسية ، كذلك نجدهم يؤكدون على دغمائية صحة وعد الله لاسرائيل في التوراة . ونقطة الوصل هنا هي في اقناعهم ان دولة اسرائيل الحديثة هي امتداد أو اعادة لاسرائيل التوراتية . فمع هذا الاقتناع بتلك الصلة لا يبقى عائق في سبيل اعتناقهم مبدأ المسيحية الصهيونية . هذه المسيحية الصهيونية لها قانون ايمانها . وهو يتلخص بالنقاط التالية .

أولا : كل مسيحي مخلص يجب ان يؤمن بمجيء المسيح الثاني ، وينتظر ذلك المجيء بأمل ان يحصل قبل وفاته .

ثانياً : ان تأسيس دولة اسرائيل هو اشـارة الهية وآية تشير الى ان المجيء الثاني سيحصل قريبا ، فكل الاشارات تؤيد ذلك وترجع إلى نصوص توراتية في العهدين القديم والجديد .

ثالثاً : وبناء على ذلك فان كل عون اقتصادي ، أو معنوي ، أو حربي لاسرائيل هو في سبيل الخير ، لأن ذلك يؤيد ويسرع في قدوم المسيح .

رابعاً : وبالتالي فان كل من هو ضد اسرائيل فهو ضد المسيحية وضد الله بالذات .

هذه الفرضيات الأساسية للصهيونية المترسخة في النظرة الانجيلية الحرفية ، نراها واضحة عيانا في اعلان نشرته الجرائد الاميركية في طول البلاد وعرضها ، وضع من قبل اكثر من مئة كنيسة ، أكثرها من المذهب المعمداني . وهذا الاعلان هو واحد من عدة اعلانات مشابهة تهدف الى التأثير في اتجاه السياسة الاميركية والرأي العام الاميركي ، خاصة بعد أن اعلن الرئيس كارتر في السنة الاولى من رئاسته ، انه يؤيد مبدأ الوطن الفلسطيني ، وأيضا بعد اصدار البيان الاميركي ـ السوفييتي المشترك في عام ١٩٧٧ . ونص الاعلان هذا يعطي فكرة عن روح اكثر هذه الاعلانات وعن اتجاهها الحرفي المسيحي (عن جريدة شيكاغو تريبون ١٠ تموز ١٩٧٦) .

« إذا أردت ان تعلم في أي مرحلة من مراحل التاريخ نحن الآن فانظر الى الشعب اليهودي . إن اليهود هم ساعة الله وشعب النبوة . ان ساعة التاريخ الأزلية في دقاتها المتواصلة تذكرنا ان هذا الشعب بقي وسيبقى الى الأبد ، بينما قامت شعوب وانقرضت . وذلك كذلك لأن ارادة الله شاءته . ولأن الله وعد به ، ولأن الله خطط له ، منذ زمان سحيق .

« إن الله قطع عهداً مع ابراهيم ، ووعده بجزء كبير من أرض الشرق الأوسط كميراث له ولنسله من بعده . هذا العهد لم يكن مشروطاً ، كمحبة الله لهذا الشعب . » وهذا هو التاريخ اليوم . وفي استمرار اليهود في العودة الى الأرض الموعودة بالآلاف تكملة وتتمة للنبوءات التوراتية وكما هو التاريخ اليوم ، فهو غداً . في استمرار الخطوات نحو اهم الاحداث على الاطلاق ، عودة المسيح الى الأرض .

« وبما ان اليهود هم شعب النبوة ، لذلك هم أيضاً شعب الأرض . ونحن الذين نؤمن بالله وبوعوده ، نؤيد تأييداً كاملاً شعب وأرض اسرائيل ، في البقاء لأن ذلك هو وعد الله ، وهبة الله ، وقضاء الله .

« لذلك فان اي شخص كان ، وأي مجموعة من الدول التي تعارض هذا الحق الالهي ، لا تحارب اسرائيل فقط ، بل تحارب الله والتاريخ بالذات » .

تكمن أهمية هذه الوثيقة في كونها **أولا** تمثل تضامناً وتأييداً مطلقاً مذهبياً لاسرائيل ، **وثانياً** ، انها تعبر عن رأي مجموعة كبيرة من المسيحيين في اميركا .

إنها تؤكد اولا ان تأييد اسرائيل ليس امرأ اختياريا ، أو مبنيا على اعتبارات اخلاقية انسانية ، أو حتى على اعتبارات سياسية ، بل انه قضاء إلهي . ولذلك فان معارضة اسرائيل خطيئة مميتة . والكنائس العمدانية وغيرها التي وقعت على هذا الاعلان منتشرة في جميع انحاء اميركا ، شمالها وشرقها وغربها وجنوبها ، وهذه الكنائس تضم عدداً كبيراً من الاعضاء مجموعة لكنائس المعمدانية الجنوبية (وهناك كنائس معمدانية اخرى كثيرة) هي اكبر المذاهب الانجيلية في اميركا باعتبار عدد الاعضاء ، الذي يصل الى ١٢ مليون عضواً (الكنائس المعمدانية جميعها تبلغ ضعف هذا العدد) .

ولا بد وان الصهاينة في اميركا يقدرون هذا الدعم الانجيلي المسيحي اكبر التقدير ، ولا بد أنهم يعبرون عن ذلك بالدعم المالي . ولكن الصهيونية تعترض بشدة على مبدأ الانجيليين القائل بأن على اليهود ان يقبلوا يسوع المسيح قبل أن يتم مجيئه الثاني . وينظرون بكثير من الاستياء إلى انتشار مذهب المسيحيين اليهود ، أي اليهود الذين اعتنقوا الاعتقاد بأن يسوع هو المسيح دون ان يتخلوا عن يهوديتهم ولكن الصهاينة يعلمون ان هذه المضايقات هامشية نسبة الى العوائد الجمة التي تتأتى عن المعتقدات الدينية الانجيلية التي تدفعهم نحو دعم اسرائيل .

اما نشاطات الانجيليين في حقل اسرائيل فانها تترجم في اميركا بالتأييد الشعبي لاسرائيل، وبالتالي في الانتخابات على المستوى المحلي والفدرالي . ومع انهم قد يحصلون على مساعدات مالية ، علنية أو خفية ، من المنظمات الصهيونية قد تكون بشكل اعلانات في المجلات الانجيلية أو في برامج الراديو والتلفزيون التابعة لهم ، إلا أن هذه الحملة الواسعة لتأييد اسرائيل ، حسب معلوماتنا الراهنة ، تمول من تبرعات اعضاء الكنائس ، ومن المدفوعات الى برامج التلفزيون والراديو .

اججـ اعلان دولة اسرائيل في ١٩٤٨ ، وحربا ٦٧ و٧٣ ، اكثر من أي حدث تاريخي منذ اعلان استقلال اميركا ، نار النبوات التوراتية في معتقدات المسيحيين المحافظين . ولهؤلاء الذين يعنيهم قدوم المسيح الثاني اكثر من أي أمر آخر ، أدت هذه الاحداث المتعلقة باسرائيل الى ترسيخ ايمانهم بالنبوات التوراتية وهذه المعتقدات الالفية المتشددة ، هي اقدم من استيطان اميركا . وكان المؤمنون بها دوما يرصدون الاحداث التاريخية التي تتوافق مع قراءتهم للتوراة .

وجاءت الحرب الباردة بعد الحرب العالمية الثانية ، ومعها موجة كراهية السوفيات في الأربعينات والخمسينات فجعل منها الانجيليون قضية توراتية ، وتلى ذلك الاهتمام الشديد باسرائيل في الستينات والسبعينات ، فدمج الانجيليون هذين التيارين ــ كراهية السوفيات ومحبة اسرائيل ــ في تفسير توراتي موحد . فعندهم ان الدلائل على قدوم المسيح هي في قيام اتحاد بين روسيا والدول العربية في محاربة الدولة المفضلة عند الله .

وتلعب مدينة القدس دوراً مهما في آمال الصهيونيين والانجيليين ــ الصهيونيين على السواء . فالقدس عند الطرفين ــ وان كان ذلك لاسباب مختلفة ــ هي محور دراما قدوم المسيح الجغرافي والتاريخي . فهي عند الانجيليين عاصمة العالم في دولة الالف سنة تحت حكم المسيح ، بعد انتصاره على قوى المسيح الدجال في معركة هرمجدون (ويقولون انها مجدد في

فلسطين) . والنبؤات التوراتية تشير بصراحة ــ كما يزعمون ، إلى ان الهيكل اليهودي لا بد ان يكون قائما قبل المجيء . والهيكل يجب ان يقوم على أرض الحرم الشريف بدون شك . ولذلك فان المسجد الاقصى وفيه الصخرة لا بد لهما من الزوال لكي يفسح المجال للهيكل .

وأكثر الحرفيين التوراتيين ، وكذلك بعض الصهيونيين ــ يصفون ثقتهم بان الله الأب ، وقوى الطبيعة الام . سيتعاونان في ازالة المسجدين ، اما بواسطة هزة ارضية او نار . وقد حاول مسيحي حرفي من استراليا ، اسمه مايكل روهان . ان يمد يد المعونة في استعجال قدوم المسيح ، فحاول احراق المسجد الاقصى سنة ١٩٦٩ .

نجد المعتقدات الحرفية الانجيلية المتصلة بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي . في كثير من الكتب . وخاصة في السنوات الاخيرة . وفي كتاب لوليم سمث يدعى « النزاع الاسرائيلي ــ العربي والتوراة » ، الذي ظهر بعد حرب ١٩٦٧ وبعد « فتح » القدس نجد مثالا على هذه المعتقدات يخصص المؤلف اكثر فصول كتابه لتوضيح ان اسرائيل هي نفس اسرائيل التوراة ، ويذكر النصوص التي تؤيد ذلك . ولا ياتي على ذكر العرب إلا في الفصل السادس إذ يقول انهم ــ أي العرب ــ هم اعداء الخير والبر ، لأنهم اعداء اسرائيل . ويصل المؤلف الى هذه النتيجة لانه يؤكد على ان العرب هم الادوميون المذكورون في التوراة كأعداء لبني اسرائيل ، ولذلك فان العرب مكتوب عليهم ان « يكرهوا اسرائيل عبر القرون . كرها لا هوادة فيه »[٢١] .

حكاية الأخرويات الصهيونية

المنشورات الصادرة عن الانجيليين الحرفيين لاستهلاك العامة ، والتي تعني بشؤون النبؤات والعصر الالفي واسرائيل ، كثيرة جداً . المقالات في المجلات ، الأفلام ، القصص والروايات ، والكتب التي تشرح لاهوت النبؤات بانتشارها الواسع بين اعضاء الكنائس ، تصبح اداة للعمل السياسي .

اكثر هذه الكتب انتشاراً ، وأكثرها تضامنا مع اسرائيل ، هو كتاب « الأرض الكبيرة المتوفاة » . لهال لندسي . وقد ظهر هذا الكتاب عام ١٩٧٠ ، وطبع منذ ذلك الوقت أوائل ١٩٧٩ تسعة وستين طبعة ، أي أكثر من عشرة ملايين نسخة . هذا النجاح المنقطع النظير أدى إلى عدد كبير من الكتب المقلدة ، والتي تتمادى في تفسير التوراة بما يؤيد مزاعم اسرائيل ، وكذلك أدى إلى كتابة روايات بهذا الشأن ، وافلام سينمائية ، وقد نشر المؤلف بعد ذلك أربعة كتيبات لاقت كلها انتشاراً واسعا وهي ليست سوى اعادة مع تحوير بسيط في صلب الموضوع . وكذلك ظهر شريط سينمائي عن « الأرض المرحومة » ، يدعو إليه ، ويلقي حواره ، الممثل المشهور ورسون ولز ، وشاهد هذا الشريط ملايين من الناس في انحاء العالم .

لا ياتي لندسي بنظريات جديدة في حقل النبؤات التوراتية في كتابه ، ولكنه يربط الأحداث الحاضرة ربطا « وثيقا » بالنصوص الكتابية ، ويحدد اسماء « الممثلين » الحاليين الذين تشير اليهم تلك النصوص صراحة . ويجعل من « اعادة » اسرائيل في الأرض المقدسة ، اهم احداث التاريخ الحديث ، لأن ذلك يؤكد على أن الوقت قد قرب لمجيء المسيح .

يقول لندسي ان الاتحاد السوفياتي هو جوج (وماجوج) المذكور في نبؤوة حزقيال (٣٨ :

١٨) كعدو لاسرائيل . ثم في الفصل السادس Sheik to Sheik ، يؤكد على أن العرب ، بقيادة مصر ، هم ما تشير اليه التوراة باسم (ملك الجنوب) الذي يعاهد (ملـك الشمال) ـ (أي جوج وماجوج روسيا) للقيام بحرب شاملة ضد دولة اسرائيل المستعادة . وهاتان القوتان ، سينضم اليهما (سفر الرؤيا ، ١٦ : ١٢) « الملوك الذين هم من مشرق الشمس » وذلك يعني الصين ، الذين يزحفون على اسرائيل بعد ان تقطع جيوشهم نهر الفرات الذي يحققه لهم الملاك السادس . وهؤلاء الملوك الشرقيون سيفنون ثلث سكان الارض بالنار والدخان والكبريت ، التي يعتبرها المؤلف اشارة للأسلحة النووية . ويتابع لندسي فيقول ان « الأمم العشرة » المذكورة في الرؤيا ، هي اشارة الى دول السوق المشتركة الأوروبية ، وسيحكم هذه الأمم شخص قوي ، هو الوحش ، أو المسيح الدجال الذي « عدده ستمائة وستة وستون » (رؤيا ١٣ : ١٨) هذا المسيح الدجال يجعل من « اورشليم » عاصمته ، ولذلك فسيكون الخصم الأول للمسيح القادم . اما دور الولايات المتحدة في هذه النبوءات فليس واضحا تماما ، ولكن كحليفة وعضد لاسرائيل ، لا بد انها ستحصل على الخلاص .

وفي الروايات ذات النزعة الالفية السعيدة نجد جرعة كبيرة من هذا العنف الرؤيوي مع شيء من الرومانسية . ومن هذه الروايات « لقد رأوا القدوم الثاني » رواية متفجرة حول نهاية العالم « لنوغ كلارك (هارفست هاوس ١٩٧٩) وهي مثال على مستوى الكتابة المنخفض وعلى تكاثر المعلومات الخاطئة التي تحتوي عليها هذه الروايات الاخروية .

أما الكاتب فهو ايضا صاحب برنامج تلفزيوني ذي شعبية واسعة يدعى « برنامج النبوءة المدهشة » والذي يذيع معلومات مماثلة . اما جهله المطبق عن العرب والفلسطينيين فلا يزيد عليه سوى تعصبه ضدهم ، مع انه زار اسرائيل ومنطقة الشرق الأوسط اكثر من مرة . وكمثال على المسيحيين الاشرار الذين يكرهون اليهود ولا يتبعون تعاليم التوراة ، ورد في الرواية اسم ادولف هتلر وياسر عرفات (كـــذا)(ص ٣٦) وعن « المخربين الفلسطينيين المتعطشين لسفك الدم » يقول « يمكنك ان تعرف بسهولة اعضاء منظمة التحرير الفلسطينية من لباسهم وهو الرداء الابيض والعمامة السوداء » (ص ٧١) . ويقول أيضا أن في مدينة القدس القديمة « مناظر غريبة واصوات صادرة عن الجمال والعرب والحمير » (ص ١٢٧) . ومثل هذه المعلومات تنتشر في أرجاء الرواية بالاضافة الى نصوص توراتية متعددة .

وتنص حبكة الرواية على ان اميركا ستجتاز دمار هرمجدون بسلام لانها « وعظت الانجيل اكثر من اية دولة اخرى ... وكانت صديقة لليهود لفترة طويلة (ص ٢٠٩) .وفي نهاية العالم يختفي معظم البشر بعد هرمجدون و « الوحيدون الباقون في جميع الشعوب هم اولئك الذين لم يتلقوا دمغة المسيح الدجال ولم يؤذوا الجنس اليهودي اطلاقا » (ص ٢٢٤) .

ويضاف إلى قوة الكتب وتاثيرها قوة الاذاعة والتلفزيون ، والتي توسع بشكل كبير مجال التبشير الانجيلي باسرائيل . إن بيلي غراهام مثال جيد على الجيل الجديد من الوعاظ الانجيليين الذين يستخدمون أساليب فعالة من معالم الاستعراض (Show-business) للوصول الى المزيد من النفوس والجيوب . وتسمى هذه الأساليب الاستعراضية الدينية « بالكنيسة الالكترونية » أو « بالديانة في الأوقات المناسبة » (Prime-time religion) ، وهي وسائل فعالة جداً من أجل

جمع الأموال . ومثال على ذلك فان كنيسة الله ، وهي احدى اقدم الكنائس الالكترونية ، تجمع ٦٥ مليون دولار سنويا من الوعظ في الراديو والتلفزيون ، كما تجمع « شبكة الاذاعة المسيحية » ٢٥ مليون دولار ، ورابطة بيلي غراهام الانجيلية تحصل على ٢٨ مليون دولار و « نادي المجد للرب » ٢٥ مليون دولار الخ(٢٢) وهناك على الاقل ٢٥ محطة تكاد تكون مكرسة للبرامج الدينية اليوم ، وتكاد جميعها تمثل وجهة النظر الانجيلية وتؤمن بعلاقة النبوءة التوراتية باسرائيل وتدعو إلى الصهيونية المسيحية . وبالاضافة إلى التلفزيون يوجد عدد كبير جداً من محطات الراديو المنتشرة في جميع انحاء الولايات المتحدة الاميركية ، تنشر الدعاية التوراتية الصهيونية ، وتجمع الاموال .

كما ان الاعلانات المؤيدة لاسرائيل ، كالاعلان الذي ذكرناه سابقا ، والتي تكلف مئات الآلاف من الدولارات ، ترعاها الجماعات الانجيلية وتبث من خلالها اراءها المنحازة الى اسرائيل بصراحة . يضاف الى ذلك المؤتمرات الكثيرة لدعم الدولة اليهودية التي تقوم بها المنظمات الانجيلية مثل « المؤتمر العالمي من أجل سلام القدس » الذي عقد في القدس عام ١٩٧٨ والذي قام بتنظيمه شخصيات شهيرة في دنيا الانجيلية الصهيونية مثل دوغلاس يونغ واسرائيل كارمونا . ووزعت جماعة تدعى « الانجيليون المتحدون من أجل صهيون » والتي نشأت في مدينة فيلادلفيا أثناء انعقاد مؤتمر عن النبوأت عام ١٩٧٦ ، جوائز على الذين ساهموا في مناصرة اسرائيل . فاز بيلي غراهام « بجائزة الاديان المشتركة » التي قدمتها « اللجنة اليهودية الاميركية » وذلك بسبب « مساهمته في تدعيم حقوق الانسان ، ونصرة اسرائيل ، ومحاربة اللاسامية ، وتنمية الوثائق بين اليهود والانجيليين » . وبدأت جماعة تنسق من أجل الدعم المسيحي لاسرائيل في خريف ١٩٧٨ تحت اسم « رابطة المسيحيين الدولية من اجل اسرائيل » في ولاية واشنطن(٢٣) .

وقد انتج بيلي غراهام (ولعله أشهر انجيلي ، وقد يشاركه للآن في شهرته جيمي كارتر) اكثر الافلام الدينية فعالية كدعاية لصالح اسرائيل . الفيلم الذي يدعى « ارضه » (أي ارض المسيح) شاهده اكثر من ١٥ مليون في اميركا وحدها . وهو عرض ديني مصور لمشاهد الأرض المقدسة ، ولكنه يحتوي على اشارات صريحة الى الأهمية التاريخية والدينية لعودة الشعب المختار الى أرضه الموعودة ، والى الانجازات العظيمة لدولة اسرائيل الحديثة . وتقول دعاية الفيلم ان « بعث دولة اسرائيل هو أعظم حدث توراتي في القرن العشرين ... »

ويتهم ناقدوا هذه النشاطات الانجيلية بأنها تحمل « صهيونية سانجة » مشيرين إلى أن المنظمات الصهيونية واسرائيل تدعم اعمالهم هذه ماليا . ولا شك أن هناك حول الدعم الصهيوني المعنوي والسياسي والحالي لمعظم هذه النشاطات ، بعضها يأتي بصورة اعلانات في مجلات انجيلية ، أو دفعات مباشرة لنشر اعلانات سياسية باهظة التكاليف في الصحف الكبرى الاميركية ، أو اعداد رحلات الى اسرائيل لجماعات انجيلية . لكن الحقيقة باقية وهي ان الانجليليين ينشرون مباديء ومعتقدات سياسية ودينية يؤمنون بها ، وكما كان الآمر مع اللجنة المسيحية لفلسطين في الاربعينات ، كذلك هو مع الجماعات الانجيلية في السبعينات وهو ان اسرائيل الصهيونية تستخدم توراتية الانجيليين والمسيحيين عامة لغاياتها الخاصة . ان

الصهيونية اليهودية قد تكون القابلة المولدة لبعض هذه الجمعيات ، ولكنها ليست الوالدة . إن الصهيونية المسيحية التوراتية هي الثمرة الناضجة في دعم اسرائيل ، والتي استفادت منها الصهيونية اليهودية دون ان تزرعها أو تتعهدها .

مدى قوة الانجيليين

نطلق اسم الانجيليين (وهو اصطلاح غير محدد تماماً) على المسيحيين المحافظين من العصميين (Fundamentalist) والالفيين (millenarians) وغيرهم من المؤمنين بحرفية التوراة ، وهم منتشرون بين الكثير من الفئات البروتستانتية وبين الكاثوليك أيضاً . وفي تقرير لمؤسسة غالوب (الدين في اميركا ١٩٧٧ ــ ١٩٧٨)(٢٤) يحددون على انهم « تحولوا الى المولودين من جديد » والذين « يقبلون المسيح كمخلص شخصي ويؤمنون أن للتوراة سلطة على كل المباديء ، ويشعرون بحاجة ملحة لنشر الايمان ، وبكلمة اخرى هم ممتلئون بأهمية ايمانهم » .

وأشار استفتاء غالوب الى أن عددهم يتزايد باستمرار وكذلك نشاطاتهم . ويمكن اعتبار تأييدهم لاسرائيل امراً مضموناً نظراً لتمسكهم الصارم بحرفية التوراة ولسبب تأكيدهم الكبير على النبوآت وبما انهم قد توصلوا إلى الاعتقاد بأن اسرائيل حالياً هي امتداد لاسرائيل وجعلها قضية دينية مهمة . وازدياد هذا الدعم لاسرائيل بسبب تزايد اعداد الانجيليين يفوق جداً في تأثيره على السياسة الاميركية على تأثير الليبراليين الدينيين وبعض المثقفين الذين افصحوا عن بعض الشك في الالتزام الأدبي الاميركي حيال الدولة اليهودية .

وقد أظهر استفتاء غالوب ــ مع اعترافه ان الأرقام قد تكون أقل من الحقيقة ــ ان حوالي ٢٨ بالمئة من الاميركيين أي ٤٠ مليون انسان راشد ، هم من الانجيليين وان معظمهم يسكن في الجنوب في الولايات المتحدة المتوسطة . كما أشارت إلى أن أكثر الانجيليين هم ناخبون مستقلون ، وبالتالي فان لهم تأثيراً كبيراً على السياسة المعلنة من قبل الحزبين الرئيسيين في الولايات المتحدة ومعظم الانجيليين هم من أعضاء الكنيسة المعمدانية التي ينتمي إليها جيمي كارتر(٢٥) . ولكنها تسللت الى معظم الطوائف البروتستانتية وقد اشار الاستفتاء ان ٢٠ بالمئة من الكاثوليك الراشدين (أي ثمانية ملايين شخص) وصفوا أنفسهم بأنهم انجيليون .

هذه الروح الانجيلية ليست حديثة في اميركا ، فقد نشأت في أوروبا منذ نشوء البروتستانتية، خاصة الفلسفة الكلفينية فيها . وفي زمان حرب الاستقلال الأميركي كانت المواعظ الدينية تشبه الولايات المتحدة بشعب اسرائيل الذي يسعى لدخول الأرض الموعودة . ويقول راي ابرامز ان سبب معظم نجاح الخطابات المؤيدة للحرب العالمية الأولى التي القاها رجال الدين في اميركا الى انطباقها على المذهب الالفي(٢٦) . وقد حركت هذه الروح نفسها الكثير من الوعاظ لتقديم عظات حماسية دعماً للصهيونية وللهجرة اليهودية الى فلسطين في الثلاثينات وفي الأربعينات . ولتسخين الحرب الباردة في عظات ملتهبة مضادة للشيوعية في الخمسينات ولتأييد الحرب الاميركية في فيتنام في الستينات ، وللعودة بحماس متجدد الى دعم اسرائيل خاصة بعد حرب ١٩٧٣ .

إن الحركة الانجيلية في اميركا في ازدياد ، فعدد الانجيليين ونفوذهم السياسي ونشاطاتهم

المؤيدة لاسرائيل كلها تتزايد . وبما ان التزام اميركا الأدبي والديني تجاه اسرائيل يقوم الى حد كبير على أساس انجيلي توراتي ، فلن يكون من السهل التأثير على هذا التيار بواسطة تزايد الاهمية المالية والسياسية للعالم العربي .

ويؤمن الانجيليون بأن معتقداتهم يجب ان تترجم الى نشاط عملي . وتشرح الفقرة التالية كيف يجب ان يؤدي الايمان التوراتي باختيار اسرائيل الالهي الى عمل سياسي لصالح الدولة اليهودية(٢٧) !

إن وعد الاله الأبدي لابراهيم ابي اليهود القائل « وسأبارك من يباركك وألعن من يلعنك » ينطوي على عمل اما مع أو ضد اليهود . إن تأييد دولة اسرائيل هو التزام بالانجيل كما هو عمل انساني . وهو وسيلة ملموسة يشهد فيها المسيحي لصالح اليهودي في هذا العصر الذي يعمل الله فيه من جديد خلال اسرائيل في موطنها التاريخي . ويقول هارولد دارت (مدير اللجنة الاميركية المسيحية في اسرائيل ، وهي منظمة تشجع السياحة المسيحية في اسرائيل والاشتراك في اعادة تشجيرها واصلاح الأراضي فيها ، انه لو ظهر توراتياً ان اعادة دولة اسرائيل ينطبق على رغبة الله وارادته ، فلن يستطيع الانجيلي المسيحي الا ان يتخذ موقفاً مؤيداً لهذه الاعادة ، بل بالحري يصبح ذلك واجباً عليه .

هذا النشاط المتاتي عن معتقدات الانجيليين يميزهم عن معظم الليبراليين المسيحيين الذين قد يكتفون بالنشاطات الفكرية ، كالتحدث والكتابة لصالح أي جانب من النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، فان برامج الجماعات الانجيلية تدعو الى دراسة العبرية ، والمساهمة بالأعمال التمويلية في اسرائيل ، والتبشير بين اليهود ، بالاضافة الى السياحة واصلاح الأراضي . ومحاولة الانجيليين جلب اليهود الى المسيحية يغضب الصهيونيين خاصة ، ولكن هؤلاء يعرفون ان تساهلهم في هذه النقطة هو ثمن بخس للخدمات الكثيرة الاخرى التي يتقلونها .

في عدد من المجلة الانجيلية « كرستشن لايف » ، وهو عدد كرس تقريباً لاسرائيل (أب ١٩٧٨) توجد قائمة بالنشاطات التي يجب على المؤمنين ان يفكروا بها جدياً .

١ ـ انضم إلى ، أو شكل ، جماعة مؤيدة لاسرائيل .
٢ ـ تعرف على الشرق الأوسط بواسطة الكتابة الى وزارة الاعلام الاسرائيلية ، والقنصليات الاسرائيلية ، والكنس المحلية (العناوين مرفقة) .
٣ ـ اشتر سندات اسرائيلية .
٤ ـ اكتب رسائل الى رؤساء تحرير الصحف والمجلات بالتأييد لاسرائيل .
٥ ـ اشتر منتوجات اسرائيلية (القائمة المرفقة تضم برتقال يافا) .
٦ ـ سافر الى اسرائيل .
٧ ـ تعلم العبرية
٨ ـ تعرف الى الكنس اليهودية واعضاء الطائفة .
٩ ـ صل من أجل سلام القدس .

إن هذه التوصيات تشكل نموذجاً على ما تقدمه برامج الاذاعة والتلفزيون التي تعنى

بالدراسات التوراتية والتنبؤات من وجهة نظر الانجيليين . ومن الواضح ان لا وجود للفلسطينيين في تفكيرهم وفي شعورهم .

الديانة المدنية في اميركا

لقد استكشفنا حتى الآن الموقف الديني من المسألة العربية ـ الاسرائيلية من وجهات نظر مجموعتين من البروتستانت الاميركيين . الليبراليون ينظرون الى المشكلة من زاوية لاهوتية وتوراتية ولكنهم يدركون المأزق الذي يعود إليه اعطاء اسرائيل رخصة كاملة غير محددة . ويتساءلون في كثير من الاحيان عن حقوق اللاجئين والموقوفين الفلسطينيين . ورغم ان بعضهم قبل الاربعينات لم يكن يؤيد الهدف الصهيوني في اقامة دولة يهودية ، بل كان يفضل وطنا ثقافيا روحيا لليهود في فلسطين ، الا انهم بعد ان اصبحت اسرائيل حقيقة ، تحولوا، الى القليل النادر منهم ، الى فكرة ان اسرائيل موجودة لتبقى .

أما موقف المحافظين أو الانجيليين من المسألة فهو قائم فقط على أساس تفسير حرفي للنصوص التوراتية مع تأكيد خاص على المناظر التنبؤية والرؤيوية . ان صهيونيتهم توراتية صرفه ومباشرة ، واهتمامهم باسرائيل هو اهتمام أخروي يتعلق بنهاية العالم وقدوم المسيح .

ولكلا الفريقين تأثير معين على الجهاز الانتخابي في الولايات المتحدة . ولكنهم بالاضافة الى ذلك ، يؤثرون على المجتمع الاميركي تأثيراً اعمق اذ يشكلون جواً ثقافياً تاريخياً معيناً بواسطة المؤسسات التوراتية الدينية المنتشرة انتشاراً واسعاً .

عن التأثير الديني على الحياة الاميركية ، قال شنايدر « ان الدين يمتزج بالتعليم ، بالطب ، بالسياسة ، بالاعمال ، بالفنون ، ولا يوجد شيء ينجو من قبضته وان جميع الجهود التي تبذل لعزل ناحية من نواحي الحياة عن الكنيسة ونفوذها قد ذهبت هباء ، كما حدث للجهود لتحديد نفوذ الحكومة أو العلوم . فعن طريق الدين يمكن القيام بكل شيء ، ولا ينجو امر ما من اهتمام الاكليروس . لقد مضت الأيام التي كان فيها خلاص النفوس عملا مميزا قائما بذاته . ان فصل الدين عن الدولة لا يفصل الدين عن السياسة كما ان فصل المدرسة عن المسرح لا يفصل التعليم عن الفن(٢٨) .

يقول روبرت بيلا « ان فصل الكنيسة عن الدولة في أميركا لم ينزع البعد الديني عن الحقل السياسي »(٢٩) . ونرى نحن ان ذلك لم يحد من البعد السياسي في الحقل الديني . ان الموقف الاميركي من اسرائيل هو نموذج واضح لما ينتجه هذا الاختلاط بين الدين والسياسة في اميركا خاصة فيما يتعلق بالسياسة الخارجية الاميركية .

ويقترح بيلا ان هذا التعاضد بين المؤسسات الدينية والسياسية في الولايات المتحدة رغم الاعتراف بمبدأ فصل الكنيسة عن الدولة ، أدى إلى وجود نوع من « الدين الشبحي » ، أي انفعالية دينية باطنة تعطي معنى كونياً لنشاط الشعب الجماعي .. وهذا هو « الدين المدني » في اميركا وهو دين الكيان السياسي الذي يستخدم اسلوباً خطابيا دينيا ومدينا معا قائماً على تراث مشترك بين المذاهب الاميركية الثلاثة : البروتستانتية والكاثوليكية واليهودية(٣٠) . « ان حكومة الولايات المتحدة والهيئات الدينية المنظمة في اميركا قد دخلت في ميثاق محدد عملي للغاية

تنبع جذوره من تفهم للدور الذي تلعبه الخطابية العامة في عقول المواطنين وعن العامل المسكن الذي يمكن ان يكون للخطابات الرسمية على حياتهم »[٣١] .

ويقول هربرغ ان هناك ثلاثة مكونات أو معتقدات أساسية في الحياة الاميركية . « وتتداخل هذه المعتقدات في صلب البيانات والتصريحات الدينية التي يلقيها رؤساء الولايات المتحدة » وكذلك القادة السياسيون والزعماء المدنيون بالضرورة .

« هذه المعتقدات تضم الايمان بالله ، الايمان بالدين ، والايمان بنظام الاديان الثلاثة »[٣٢] .

وهكذا فانه يجب على السياسيين والزعماء المدنيين في اميركا ان يستخدموا **رموزاً خطابية** تستقى عادة من مورد الكتب الدينية.ولكي يصار الى ابعاد هذا النظام الديني ــ الثلاثي عن الاصابة بالتوتر فقد تحدد هذا المورد الديني في كتاب يتفق عليه الجميع ، وهو العهد القديم دون التوراة ، والذي يدور في غالبيته حول تاريخ اسرائيل ، ومستقبلها ، وقانون اخلاقها . كلمة « اسرائيل » ليست مجرد مصطلح سياسي ، بل انها اضافة الى ذلك رمز خطابي سياسي ذو فعالية كبيرة.ان سياسيي اميركا الذين ينتمون بالضرورة الى هذه الديانة المدنية ، لا بد انهم يستعملون هذا الرمز الخطابي لتدعيم مطامعهم السياسية .

من الواضح اذاً ان جذور الدين في اميركا عبرانية . « شروحه وضعت في قوالب عبرانية مثل الشعب المختار ، الامة المفضلة، العبودية في مصر ، الأرض الموعودة . كما ان توقعاتها للالف السعيد وجدت تعبيراً لها في خيال الانبياء العبريين الخصب »[٣٣] . وكما كان في عهد المستوطنين الأوائل ، كذلك هو في الوقت الحاضر عند عدد كبير من مسيحيي اميركا ، نجد ان اميركا تشكل في نظرهم « اسرائيل جديدة » كأرض ممتلئة باحساس عارم بالقدرية الدينية أو القدرية الواضحة (Manifest Destiny) . وهكذا فان ديانة اميركا المدينة هي في أكثر اعتباراتها ديانة توراتية وقد يفسر لنا ذلك المبدأ الظاهر في السياسة الاميركية الشرق أوسطية والذي يضع « اسرائيل اولا » .

ولا يوجد لدينا تفسير آخر أكثر اقناعاً لهذا التأكيد الذي يردده دوماً ساسة اميركا وبعض عامتها على أن التزام الولايات المتحدة بدعم اسرائيل هو التزام ادبي ــ اخلاقي . مع اننا نشعر بأن تركيب اسرائيل العرقي والديني يجب ان يعمل ضد هذا « الالتزام الأدبي » من جانب الولايات المتحدة التي تدعو دوماً الى المساواة والحقوق الانسانية ، دون اعتبارات دينية أو عرقية . ولكن المقاييس التوراتية التي يؤمن بهـا المتدينون في اميركا ، وفعالية استعمال الرموز الخطابية التوراتية في العمل السياسي ، تأتي قبل كل الاعتبارات الاخرى في حياة اميركا السياسية .

ان اصطلاح « الالتزام الأدبي أو الأخلاقي » (moral Commitment) يستعمل فقط بالنسبة لاسرائيل ليس لأية دولة اخرى غيرها . ان الولايات المتحدة قد تقيم علاقات خاصة (مع السعودية مثلا) أو علاقات صداقة متينة مع الدول الأخرى ولكن هذه العلاقات لم تكن قط علاقات ادبية أو اخلاقية . اما مع اسرائيل فالاتصال يجري في المجال الاخلاقي « والادبي » كما ذكر الرئيس كارتر ذات مرة .

إن هذه الاصطلاحات (أدبي ، أبدي ، اسرائيل) كلها بالواقع رموز خطابية (Rhetorical Symbols) تستعمل لسد الفجوة بين المجالين الديني والسياسي في الكيان الاميركي . ومنذ ان قرر الصهاينة اطلاق اسم « اسرائيل » على الدولة اليهودية ، حققوا ضربة ناجحة فورية في العلاقات العامة ، ونالوا مكسباً فورياً ضمن النظام الاميركي الديني ـ السياسي . ولهذا الاسم كونه « رمزاً دينياً خطابياً » تأثير ظاهر وله أيضاً تأثير عفوي لا شعوري (Subliminal) يشكل عنصراً مهماً في ممالئة الرأي العام الاميركي والنظام الاميركي لاسرائيل .

خلاصة

تساءلت كراسة انجيلية « ماذا ستفعل امريكا لو وصلت الأمور الى « إما اسرائيل أو النفط » ؟

إن الاجابة بسيطة. امريكا تود ان تحتفظ بالاثنين ان جوهر السياسة الاميركية في الشرق الاوسط في السبعينات وسبب اتفاقات كامب ديفيد هو موازنة هذين الاتجاهين اللذين يبدوان متناقضين : التزام تام باسرائيل وحاجة ملحة الى النفط العربي .

إن الذين يدرسون الشؤون الاميركية من بيننا من وجهة نظر سياسية واقتصادية بأقل قدر من المنطق العلماني ، لا يستطيعون ان يدركوا تماماً لماذا تذهب أمريكا الى حافة الحرب ـ أو إلى جحيم الحرب ان لزم الأمر ـ للحفاظ على اسرائيل والنفط. ان المفتاح الى سياسة امريكا الشرق اوسطية واقامة هذا التوازن مع كونه خطراً وباهظ التكاليف . ولو فرض العرب على امريكا ان تختار بأن يمنعوا عنها النفط ، هل ستتخلى أمريكا عن اسرائيل او تذهب الى الحرب لانتزاع النفط من أيدي العرب ؟ وهل العرب مستعدون للمجازفة بتجربة الأمر ؟

لماذا تعادي الولايات المتحدة دولة كبرى بسبب اساءة معاملتها المزعومة لمواطنيها اليهود ؟ ولماذا تحتل اسرائيل هذه الاهمية لدى الولايات المتحدة رغم انها احد اثقل الاعباء التي يحملها دافعو الضرائب الاميركيين ؟

إن الاجابة على هذه الأسئلة لا توجد ببساطة في الامبريالية والرأسمالية وأصوات الناخبين اليهود ، أو خدمات اسرائيل العظيمة لأميركا ورغم انه لا يمكن انكار اهمية بعض هذه العوامل ، إلا أن الجواب يظل غير مرض دون الأخذ بعين الاعتبار العامل الديني ، ودون اعطاء هذا العامل الاهمية التي يستحق .

(1) Richard John Neuhaus, *Christian Faith and Public Policy, Thinking and Acting in the Courage of Uncertainly*. Augsburg Publishing House, Minneapolis, 1977, p. 90.

(2) Cf. Langdon Gilkey, «Sources of Protestant Theology in America», in McLaughlin and Bellah, *Religion in America*, Houghton Mifflin, New York, 1968, p. 155.

ويلارد ج. اوكستوبي، الذي يتخذ موقفا اكثر ميلا الى العرب .

(17) *New York Times*, July 13, 1967.

(18) *Christianity and Crisis*, June 26, 1967, pp. 141-42.

(19) *International Review of Missions*, 44 (1955), p. 199.

(20) *Collection of Statements Made by the World Council of Churches and Representative Bodies of its Member Churches*, (Geneva, World Council of Churches, July 1964), p. 15.

(21) Wilbur M. Smith, *Israeli-Arab Conflict and the Bible*, Glendale, Ca. 1967.

(22) See John Mariani, «Television Evangelism' Milking the Flock», in *Saturday Review*, February 3, 1979, pp. 22-25.

(23) *Eternity*, January 1978, p. 8.

(24) Princeton Religious Research Center, *Religion in America 1977-78*.

(25) Ibid. *Also Christianity Today*, January 27, 1978, p. 550.

(26) Roderick P. Hart, *The Political Publit*, Purdue University Press, Lafayette, Ind., 1977, p. 85.

(27) *Christian Life* August 1978, p. 30.

(28) Herbert Schneider, *Religion in Twentieth Century America* Harvard University Press, Cambridge, Mass. 1952, p. 58.

(28) Robert N. Bellah, «Civil Religion in America», in *Daedalus*, Winter 1967, p. 3.

(30) Bellah's article referred to above created a new concept (Civil Religion) which became the subject of much debate among writers on religious and social topics.

(31) Hart, *The Political Pulpit*, p. 46.

(32) Will Herberg, «Religion in a Secularized Society: the New Shape of Religion in America», in *The Sociology of*

(3) *The Nation*, February 21, 1942, pp. 214-16.

(4) Hertzel Fishman, *American Protestantism and a Jewish State*, Wayne State University Press, Detroit, 1973, pp. 68 ff.

(٥) كان جون هينز هولز عضوا بارزا في منظمة بروتستانتية مؤيدة للصهيونية سابقة (في الثلاثينات) وهي الاتحاد المؤيد لفلسطين ، وكان الصهاينة يمولونه ويديره امين سر تنفيذي يهودي ، هو اهرون ب . الياس . وكان هولز ، وهو بروتستانتي غير منتمي الى فئة معينة ، مؤيدا للاستيطان الصهيوني في فلسطين منذ ١٩٢٩ . وكان المشروع الصهيوني في فلسطين بالنسبة له ، فرصة لليهود لبناء مجتمع مثالي ليس فقط لانفسهم بل للعالم اجمــع » . جون هولز ، « صهيـــون ، رومانسيـــة ومغامرة » ، في بروبالستاين هيرالد ، ١ ، ١٩٣٢ ، ص ٢ .

(6) Hertzel Fishman, *American Protestantism*, p. 72-73.

(7) Carl H. Voss, «Christian Ministers Speak Out,» *in New Palestine*, March 31, 1944, pp. 339-40. Cf. Fishman, *Ibid*, p. 73.

(8) See H. S. Haddad, «The Biblical Bases of Zionist Colonialism» in Journal of Palestine Studies, Vol. III, No. 4, pp. 97-113.

(9) Fishman, *Ibid*.

(10) Carl H. Voss, «Christians and Zionism in the United States», in *Palestine Year Book* (1946), 497, 500.

(11) Fishman, *Ibid.*, p. 74.

(12) *Christianity and Crisis*, June 28, 1943, pp. 3-4.

(13) *U. S. Department of State, Hearings*, p. 101, quoted by Fishman, *Ibid.* p. 79.

(14) *Christianity and Crisis*, November 26, 1956, p. 158.

(15) A. Roy Eckardt, «Again, Silence in the Churches», in *Christian Century*, July 26, 1967, p. 973.

(١٦) انظر ايضا في نفس العدد من ذي كريستيان سينشوري، ديفيد بوليش . لماذا زالت اوهام اليهود الامريكيين . الذي يكرر نفس فكرة مقالة ايكارت، «اسحق واسماعيل : ١٩٦٧ » . من ن. بروس ماكليو د ، الذي يتخذ موقفا وسطا، والمسيحيون وازمة الشرق الاوسط من

Religion: An Anthlogy, ed. by Richard D. Knudten New York, Meredith, 1967, p. 475.

(33) Winthrop Hudson, *Religion in America,* 2nd ed., New York, Scribner's Sons, 1973, p. 112.

محمد شديد

العنف الثوري الفلسطيني كعامل في السياسة الشرق أوسطية للولايات المتحدة

ظهرت خلال العقد الحالي كمية كبيرة من الأدبيات في الولايات المتحدة ، حول العنف الثوري الفلسطيني، ندمغه بـ « الارهاب » ، نتيجة للتزايد المطرد في العمليات الفدائية ، داخل فلسطين المحتلة وخارجها . وإن رهطاً من الأمريكيين ، من المتكسبين الأكاديميين والارتزاقيين الجامعيين ، تحول بين ليلة وضحاها الى خبراء في شؤون « الارهاب » ، وهرول الى مختلف الوكالات الحكومية والشركات الخاصة ، للحصول على المنح الدراسية التي تعطى للأبحاث . ولهذا ، يندر أن يجد المرء لدى هؤلاء ، أي اعتراف بأن العمليات الفدائية تشكل جزءاً أساسياً من العنف الثوري المشروع ، وانها تمثل بالفعل جانبا واحدا من استراتيجية كفاح الشعب الفلسطيني من أجل تحرره الوطني .

وفي بعض الأحيان ، يلجأ الأكاديمي أو الصحافي عند الكتابة في الموضوع ، الى الاشارة المبطنة والمبهمة الى العنف ، كجانب مشروع من جوانب الكفاح ، وذلك باقتباس القول المعروف : « الارهابي في نظر البعض ، مقاتل من أجل الحرية في نظر البعض الآخر » . فالفهم الأمريكي العام ، سواء في وسائط الاعلام ، والمطبوعات الجامعية ، وفي السجلات الحكومية الرسمية ، يتناول العمليات الفلسطينية على أنها « إرهاب » وكفى ، بصرف النظر عن الدوافع والأهداف . وفي المقابل ، نجد صورة العنف الاسرائيلي على انه « انتقامي » ، وصورة القائمين به على انهم « مغاوير » .

ينظر الفلسطينيون ومعظم العرب الى هذه العمليات الموجهة ضد إسرائيل (وحلفائها) باعتبارها عنفاً ثورياً ، وكعنصر أساسي من الكفاح المتكامل العناصر ضد الكولونيالية الاستيطانية الصهيونية . والفلسطينيون كشعب مستعمر ومنفي ، يعون كفاحهم ، باعتباره في جوهره ، مماثلا للكفاح الذي خاضه الشعبان الجزائري والفيتنامي ، تحقيقاً للتحرر الوطني . لكن هذا لا يعني أنهم غير منتبهين لمخاطر استخدام العنف وعواقبه . ولعل فرانز فانون في كتابه « **معذبو الأرض** » يقدم أفضل تعبير عن هذا الجانب المهم من الـ ـجة الاضطرارية الى عنف كهذا : انه يرى الى المنبوذين في المجتمع ، الذين هم فوق مستوى

الاحسان ، لكنهم ليسوا دون مستوى الاصلاح ، على انه يمكن « تخليصهم » أو إنقاذهم ، وذلك من خلال انخراطهم في العنف الثوري . فازالة الاستعمار تأتي بعد « مجابهة حاسمة وعسيرة بين الفريقين » ، وهي مجابهة من شأنها تحويل « الشيء » المستعمر (بفتح الميم) الى « إنسان » . إن حافز التدمير الذاتي ، العميق ، يستنفد في حقل العمل :

« العنف وحده ، العنف الذي ينجزه شعب ، العنف الواعي والمنظم من جانب قادته ، هو الذي يجعل من الممكن لكتل الجماهير أن تفهم الحقائق الاجتماعية ، وهو الذي يقدم لها المفتاح ... والعنف على مستوى الأفراد يمثل قوة مطهرة ... (انه) يعتق « ابن البلد » من مركب الدونية والقنوط والتواكل : ويحرره من الشعور بالخوف ، ويعيد له احترامه لذاته »[١] .

لا ريب في ان فانون سيتفق مع الرأي القائل إن العنف الفلسطيني ، المنظم والموجه نحو تحقيق أهداف معينة في سياق الاستراتيجية العامة للحركة ، يمكن تصنيفه كعنف ثوري . ومع ذلك ، فالعنف الذي يفتقر الى الغايات السياسية ، أو يتناقض واستراتيجية التحرر الوطني للشعب الفلسطيني ، ينبغي تصنيفه إرهاباً . وانه لأمر يتجاوز مجال هذه المقالة ، السعي الى وضع معيار نظري للتمييز بين الارهاب والعنف الثوري ، وهو موضوع واسع وشائك يتطلب قدراً هائلا من البحث والنقاش . وجل مبتغاي في هذا المقام ، هو الاكتفاء بالاشارة المجردة الى التباين الحاصل بين النظرتين الفلسطينية والأمريكية إلى كيفية فهم وتناول موضوع أعمال العنف الفلسطينية .

تكمن خطورة النظرة الأمريكية الى العنف الفلسطيني في أنها ترسم سياسة أمريكية عامة إزاء مثل هذا العنف . وما تتوخى طرحه هذه المقالة ، هو أن العنف الثوري الفلسطيني يمثل متغيرا بارزا يؤثر على السياسة الأمريكية إزاء الفلسطينيين ، وازاء الشرق الأوسط كله سواء بسواء . وقبل الغوص في الموضوع ، يحسن بنا أن نلم بصعود العمليات الفلسطينية ، وبأنماطها ومساراتها ، وبسياسة الولايات المتحدة واستجاباتها واهتماماتها في هذا النطاق .

أ ـ صعود العنف الثوري الفلسطيني

تعتبر منظمات المقاومة الفلسطينية « العلاقة الخاصة » بين الولايات المتحدة واسرائيل ، مسئولة جزئياً على الأقل عن استمرار تشتت الشعب الفلسطيني واغترابه عن موطنه . وترتب على ذلك ، أن المواطنين الأمريكيين والممتلكات الأمريكية ، كثيرا ما أصبحوا أهدافاً لعمليات فلسطينية فدائية .

ولقد سجل الثالث والعشرون من يوليو (تموز) من العام ١٩٦٨ ، ظهور أول عملية فلسطينية على النطاق الدولي ، إذ إختطفت الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين طائرة تابعة لشركة إلعال ، واقتادتها الى الجزائر . ولقد شقت هذه العملية الطريق أمام سياسة جديدة قوامها ضرب الأهداف الاسرائيلية أينما كانت . وتمخض عن هذه السياسة الجديدة كذلك ، التوجه الى ضرب أهداف لدول معروفة بمساندة اسرائيل .

ونقدم فيما يلي قائمة مختارة لعمليات قام بها الفدائيون الفلسطينيون . وسنحدد من قام بكل عملية ، كلما أمكن ذلك . أما علامات الاستفهام التي سنستخدمها أحيانا ، فهي دلالة على العمليات التي لم يتحمل مسئوليتها أحد ، أو تلك التي تحملها طرف باسم مستعار .

قائمة بالعمليات الفدائية الفلسطينية : تموز (يوليو) ١٩٦٨ ــ اذار (مارس) ١٩٧٨

التاريخ	الفاعـــل	الهـــدف	الموقـع
٢٣ تموز ١٩٦٨	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين (قبل انشقاق القيادة العامة عنها)	اختطاف طائرة إلعال (اسرائيلية)	روما الى الجزائر
٢٦ كانون الأول ١٩٦٨	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	طائرة إلعـال (اسرائيليـة) قنابـل يدوية ، واطلاق نار	اثينا
١٨ شباط ١٩٦٩	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	طائرة إلعال (اسرائيلية) رشاشات	زيوريخ
أيار ١٩٦٩	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	التابلاين (الولايات المتحدة) تفجير	الجولان
١٨ تموز ١٩٦٩	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	متجران يملكهما يهود (الصهيونية) إطلاق نار وتفجير	لندن
٢٥ أب ١٩٦٩	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	زيم (شركة ملاحية اسرائيلية) تفجير	لندن
٢٩ أب ١٩٦٩	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطـين وامريكيون لاتينيون	تي دبليـو . إي (الولايـات المتحدة) اختطاف طائرة وتدميرها	باريس الى سوريا
٩ أيلول ١٩٦٩	اشبال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	مكتب إلعال (اسرائيلي) تفجير	بروكسل
٩ أيلول ١٩٦٩	اشبال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	السفارة الاسرائيلية ، تفجير	بون
٩ أيلول ١٩٦٩	اشبال الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	السفارة الاسرائيلية ، تفجير	لاهاي
تشرين الأول ١٩٦٩	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	التابلاين ، الزهراني (الولايات المتحـدة) صواريخ	لبنان
٢٧ تشرين الثاني ١٩٦٩	جبهة النضال الشعبي	مكتب إلعال (اسرائيلي) . تفجير	اثينا

التاريخ	الفاعل	الهدف	الموقع
١٠ شباط ١٩٧٠	الجبهة الشعبية الديمقراطية لتحرير فلسطين (الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين) المنظمة العربية لتحرير فلسطين (؟)	باص لشركة العال واستراحة (اسرائيل) . قنابل يدوية	ميونيخ
٢٠ شباط ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة	الخطوط الجوية السويسرية (سويسرا واسرائيل) تفجير في الهواء	زيوريخ
٢٠ شباط ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ـ القيادة العامة	الخطوط الجوية الامريكية (النمسا واسرائيل) تفجير في الهواء	فرانكفورت
٢٥ نيسان ١٩٧٠	جماعة ما	مكتب إلعال (اسرائيل) تفجير	استانبول
٤ أيار ١٩٧٠	فتح	السفارة الاسرائيلية . إطلاق نار	باراغواي
٧ حزيران ١٩٧٠	جماعة ما	اختطاف موظف اميركي ليوم واحد	عمان
٧ حزيران ١٩٧٠	جماعة ما	محاولة اختطاف موظف أميركي	عمان
٩ حزيران ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	فندقان ورهائن	عمان
١٠ حزيران ١٩٧٠	جماعة ما	قتل موظف اميركي	ـــ
٢٢ تموز ١٩٧٠	جبهة النضال الشعبي	الخطوط الاولمبية ، اليونان ، اختطاف	بيروت الى القاهرة
٥ أيلول ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	بان أميركان (الولايات المتحدة) اختطاف	أوروبا الى القاهرة
٥ أيلول ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين وأمريكيون لاتينيون	اختطاف طائرة لشركة إلعال (اسرائيل)	امستردام الى لندن
٥ أيلول ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	تي . دبليو . إي (الولايات المتحدة) اختطاف	فرانكفورت الى الاردن
٥ أيلول ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	الخطوط الجوية السويسرية (سويسرا) اختطاف طائرة	زيوريخ الى الأردن
٩ أيلول ١٩٧٠	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	الخطوط الجوية البريطانية	البحرين الى الأردن
٢ نيسان ١٩٧١	جماعة ما	التابلاين (الولايات المتحدة والاردن) تفجير	الأردن
١٤ حزيران ١٩٧١	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	ناقلة ليبيرية (اسرائيل/ايران والسعودية) صاروخ	البحر الأحمر (اليمن الجنوبي)
٢٤ آب ١٩٧١	فتح (لم تعلن التبني)	طائرة عالية (الاردن) تفجير	مدريد
٨ أيلول ١٩٧١	شخص من فتح	طائرة عالية (الأردن) اختطاف طائرة	الى ليبيا

التاريخ	الفاعل	الهدف	الموقع
٩ ايلول ١٩٧١	جماعة ما	التابلاين (الولايات المتحدة ، السعودية ، الاردن) تفجير	الاردن
١٥ ايلول ١٩٧١	جماعة ما	التابلاين (الولايات المتحدة ، السعودية ، الاردن) تفجير	الأردن
٧ تشرين الأول ١٩٧١	جماعة ما	طائرة عالية (الاردن) تفجير ، لا اضرار ، قبل الشحن	بيروت
٢٤ تشرين الأول ١٩٧١	جماعة ما	التابلاين (الولايات المتحدة ــ الاردن) تفجير	الاردن
١٠ تشرين الثاني ١٩٧١	جماعة ما	فندق انتركونتيننتال (الأردن ــ الولايات المتحدة) أربع قنابل	عمان
٢٨ تشرين الثاني ١٩٧١	منظمة ايلول الأسود	وصفي التل (الاردن) اغتيال	القاهرة
١٥ كانون الاول ١٩٧١	منظمة ايلول الاسود	زيد الرفاعي (الأردن) محاولة اغتيال، إصابة بجروح باستخدام رشاش	لندن
١٦ كانون الأول ١٩٧١	منظمة ايلول الاسود ــ حركة التحرير الوطني الأردنية	السفير الاردني ــ طرود ملغومة ، ثلاث إصابات	جنيف
٨ شباط ١٩٧٢	منظمة ايلول الاسود	محطة ضخ الغاز (هولندا، إسرائيل) تخريب	هولندا
٨ شباط ١٩٧٢	منظمة ايلول الاسود	محطة توليد الكهرباء (اسرائيل، المانيا) تخريب	هامبورج
٢٢ شباط ١٩٧٢	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ومنظمة ضحايا الاحتلال الصهيوني	طائرة لوفتهانزا (المانيا) هجوم	نيودلهي الى اليمن الجنوبي
٨ أيار ١٩٧٢	منظمة ايلول الاسود	طائرة سابينا (اسرائيل) اختطاف الطائرة	فيينا الى تل أبيب
٣٠ أيار ١٩٧٢	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين والجيش الاحمر الياباني	مطار اللد (اسرائيل) اختطاف طائرة	تل أبيب
٥ اب ١٩٧٢	منظمة ايلول الاسود	خزانات النفط (المانيا ، النمسا ، اسرائيل) تخريب	تريستا ، ايطاليا
١٦ اب ١٩٧٢	منظمة الشباب القومي العربي لتحرير فلسطين (٢)، منظمة ايلول الاسود (٢)	طائرة إلعال (اسرائيل) تخريب ــ قنبلة	روما
٥ ايلول ١٩٧٢	منظمة ايلول الاسود	الفريق الأولمبي الاسرائيلي (اختطاف)	ميونيخ

التاريخ	الفاعل	الهدف	الموقع
أيلول – تشرين الثاني ١٩٧٢	منظمة ايلول الاسود	موظفون اسرائيليون ومصالح يهودية– طرود بريدية	لندن ، روما ، جنيف ، باريس (على امتداد العالم)
٦ تشرين الأول ١٩٧٢	جماعة ما (طلبة فلسطينيون)	السفارة الالمانية (المانيا)	الجزائر
٢٩ تشرين الأول ١٩٧٢	منظمة الشباب القومي العربي لتحرير فلسطين (؟) منظمة ايلول الاسود (؟)	لوفتهانزا (المانيا) اختطاف طائرة	بيروت الى يوغسلافيا الى ليبيا
٢٠ كانون الأول ١٩٧٢	منظمة ايلول الأسود (؟)	سفارة الولايات المتحدة – صواريخ	بيروت
٢٨ كانون الأول ١٩٧٢	منظمة ايلول الأسود/علي طه	السفارة الاسرائيلية – رهائن	بانجكوك
٨ كانون الثاني ١٩٧٣	منظمة ايلول الأسود	وكالة الهجرة اليهودية (الصهيونية) تفجير	باريس
٢١ كانون الثاني ١٩٧٣	الجيش الجمهوري الاردني – قوات العقاب	التابلاين (السعودية، الاردن، الولايات المتحدة)	السعودية
١ أذار ١٩٧٣	منظمة ايلول الاسود	السفارة السعودية وموظفون أمريكيون وبلجيكيون رهائن	الخرطوم
٤ أذار ١٩٧٣	منظمة ايلول الاسود	سفينة يونانية (السياحة الاسرائيلية) تفجير	بيروت
٩ نيسان ١٩٧٣	منظمة الشباب القومي العربي لتحرير فلسطين	السفير الاسرائيلي . طائرة إلعال – تفجير	قبرص
١٤ نيسان ١٩٧٣	جماعة ما	التابلاين (الولايات المتحدة) تفجير	لبنان
١٦ نيسان ١٩٧٣	جماعة ما	التابلاين (الولايات المتحدة) تفجير ، لا أضرار	لبنان
٢ أيار ١٩٧٣	جماعة ما	قتل السفير الاميركي	بيروت
١٩ تموز ١٩٧٣	منظمة ضحايا الاحتلال الصهيوني/ فردي	مكتب العال (اسرائيل) هجوم ، إخفاق ، فندق ، رهائن	اثينا
٢٠ تموز ١٩٧٣	منظمة أبناء الأراضي المحتلة (شهداء الكرمل) – الجيش الاحمر وامريكيون لاتينيون (الجبهة الشعبية ؟) حداد ؟	الخطوط الجوية اليابانية ، اختطاف وتدمير طائرة يابانية	هولندا الى دبي الى سوريا
٥ آب ١٩٧٣	منظمة ايلول الاسود (؟) الفرقة الانتحارية السابعة	مسافرون في المطار (السياحة الاسرائيلية) (تي. دبليو. إي تل ابيب) هجوم	اليونان
٥ أيلول ١٩٧٣	فتح والجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	السفارة السعودية (رهائن) اختطاف موظفين سعوديين (الاردن ، السعودية)	باريس، الكويت/ الرياض
١١ أيلول ١٩٧٣	منظمة ايلول الاسود (؟)	الجناح الاسرائيلي في معرض	برلين الغربية

التاريخ	الفاعل	الهدف	الموقع
٢٨ ايلول ١٩٧٣	نسور الثورة الفلسطينية	قطار من روسيا (رهائن – اسرائيل والنمسا)	النمسا
٢٥ تشرين الثاني ١٩٧٣	(الصاعقة ، منظمة الشباب القومي العربي لتحرير فلسطين	الخطوط الجوية الهولندية (هولندا ، الهجرة اليهودية) اختطاف	بيروت الى دمشق الى قبرص الى ليبيا الى مالطا الى دبي
١٧ كانون الاول ١٩٧٣	جماعة غفور	(ايطاليا، الولايات المتحدة، مؤتمر السلام) طائرة لشركة بان أميركان وركاب ، عيارات نارية وتفجير قنابل ... لوفتهانزا (اليونان) هجوم	روما الى اثينا
١ كانون الثاني ١٩٧٤	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	هجوم (الصهيونية البريطانية)	لندن
٢٥ كانون الثاني ١٩٧٤	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	بنك اسرائيل – تفجير	لندن
٣١ كانون الثاني ١٩٧٤	الجبهة الشعبية والجيش الاحمر ومنظمة أبناء الاراضي المحتلة	مصفاة شركة شل (هولندا) تفجير	سنغافورة
٦ شباط ١٩٧٤	الجبهة الشعبية والجيش الاحمر ومنظمة أبناء الاراضي المحتلة	السفارة اليابانية – رهائن	الكويت
٣ شباط ١٩٧٤	جماعة غفور	ناقلة يونانية – اليونان – اختطاف بحري – رهائن	باكستان
٤ آذار ١٩٧٤	منظمة الشباب القومي العربي لتحرير فلسطين	طائرة بريطانية (بريطانيا والولايات المتحدة) اختطاف الطائرة	بيروت الى هولندا
١١ نيسان ١٩٧٤	الجبهة الشعبية – القيادة العامة	اسرائيل	اسرائيل
١٥ أيار ١٦٧٤	الجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين	اسرائيل	اسرائيل
١٣ حزيران ١٩٧٤	الجبهة الشعبية – القيادة العامة	اسرائيل	اسرائيل
٢٤ حزيران ١٩٧٤	فتح	اسرائيل	اسرائيل
١٥ ايلول ١٩٧٤	لم يعلن تبنيها أحد	قتل شخصين باريسيين ، واصابة ٢٦ شخصا في مستودع أدوية	باريس
٢١ تشرين الثاني ١٩٧٤	الفدائيون الفلسطينيون	طائرة بريطانية من دبي – اختطاف ومقتل شخص واحد	هبطت في طرابلس الغرب
٢٣ كانون الاول ١٩٧٤	الفدائيون الفلسطينيون	(الحج الى الارض المقدسة) – إصابة شخص واحد	باص سياحي للعيزرية

التاريخ	الفاعل	الهدف	الموقع
٦ آذار ١٩٧٥	فتح	ستة جرحى ـ ١٨ قتيلا ، فندق سافوي	تل ابيب
١٦ ايلول ١٩٧٥	الفدائيون الفلسطينيون	اخذ خمس رهائن الى الجزائر ـ الافراج عنهم	السفارة المصرية في مدريد
٢ كانون الاول ١٩٧٥	فتح	ناد للكيبوتس والضباط ـ ٢٠ رهينة	قرب تل ابيب
٢٣ أب ١٩٧٦	ثلاثة فدائيين عرب (قائد ليبي)	(مصر) بوينغ ٧٣٧ ، ٩٧ راكبا وستة ملاحين	القاهرة
٢٨ حزيران ١٩٧٦	الجبهة الشعبية وراديكاليون المان	نفاثة للخطوط الفرنسية ـ ٢٥٧ رهينة	تل ابيب
١٢ اب ١٩٧٦	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	طائرة إلعال (اسرائيلية) بوينغ ٧٠٧	استانبول
٥ ايلول ١٩٧٦	الفدائيون الفلسطينيون	الخطوط الجوية الهولندية و ٨٢ راكبا	نيس ، امستردام
٢٩ أيار ١٩٧٧	فتح	متفجرات	القدس
٩ تموز ١٩٧٧	جماعة ما	الخطوط الجوية الكويتية	الكويت
١٥ تشرين الاول ١٩٧٧	الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين	لوفتهانزا ـ بوينغ ٣٢٧	تركيا ـ دبي
١٧ شباط ١٩٧٨	جماعة ما	حقن البرتقال الاسرائيلي بالسموم	اوروبا
١٩ شباط ١٩٧٨	جماعة ما	اغتيال يوسف السباعي (صحافي مصري)	قبرص
١٢ آذار ١٩٧٨	فتح	باص اسرائيلي	حيفا ـ طريق تل أبيب[٢]

ملاحظة : لقد تزايدت العمليات والهجمات داخل فلسطين المحتلة بعد العام ١٩٧٤ . ولم نورد منها في القائمة أعلاه سوى تلك التي استهدفت التأثير على النشاطات السياسية خارج اسرائيل ، كمفاوضات السلام مثلا . ومن الجلي أن العمليات الفدائية تقلصت بصورة ملموسة في العام ١٩٧٦ نتيجة للانغماس الفلسطيني في الحرب الأهلية في لبنان .







يتبين من فحص القائمة والرسم البياني ، تزايد العنف ، كاستجابة للظروف والغايات السياسية . من ذلك :

أعمال إثبات الوجود التي تستهدف نيل الاعتراف بالحركة كلها أو بجماعة معينة منها ، كالجبهة الشعبية لتحرير فلسطين ، والجبهة الديمقراطية لتحرير فلسطين ، ومنظمة ايلول الأسود . ولقد لوحظ التزايد في مثل هذا النشاط بين حزيران وايلول ١٩٧٠ ، ردا على مبادرة روجرز لوقف اطلاق النار على قناة السويس . لقد شعرت الحركة الفلسطينية بخطر العزلة ، وارتأت أن الحكومات العربية قد أذعنت تماماً للمبادرة الأمريكية . وانتهت العملية الغريبة لاختطاف الطائرات الأربع في ايلول ، بالحرب بين قوات الفدائيين وبين قوات الحسين في الأردن . على انه يمكن النظر الى النشاطات الفدائية في تلك الفترة من خلال غاية أخرى : الدفاع عن الحركة بالقيام بأعمال استهدفت التشويش على مبادرات السلام . فمبادرات السلام بدا أنها كانت تهدد بنسف الهدف الفلسطيني المهم ، وهو حق تقرير المصير .

والغرض الثالث يتصل بالتنافس الداخلي بين المنظمات . فجماعات فلسطينية عديدة أصغر حجماً تحركت لتثبت قدرتها ــ عملياً ــ على تبني أهداف معينة . كما ان تلك الأعمال أدت الى تدعيم العلنية ، وتعزيز الشرعية ، وتنسيط الجهود المبذولة لتجنيد أعضاء جدد . وان الكثير من عمليات الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين يمكن تصنيفه في هذا الباب .

وكان هناك هدف رابع ، هو معاقبة البلدان والجماعات والأشخاص بسبب مواقف وسياسات معادية (للعرب والقضية الفلسطينية) . ونذكر من هذا النوع عملية اغتيال رئيس الوزراء الأردني وصفي التل في القاهرة . كما يمكن أن ندرج في هذه الفئة إرسال الطرود البريدية الملغومة الى الرسميين الاسرائيليين والى أنصار إسرائيل وراء البحار .

هناك صلة وثيقة بين نمط العمليات الفدائية وبين المبادرات السلمية . فلقد كان الرد على المبادرات السلمية الأمريكية عادة ، تصعيدا دراماتيكيا في أعمال العنف . ويدل الرسم البياني على تزايد العمليات ردا على المبادرة الأمريكية لوقف إطلاق النار في حزيران ١٩٧٠ ، وردا على تمديد وقف إطلاق النار عاماً آخر ، وردا على محادثات التسوية المؤقتة . وفي المرحلة اللاحقة ، أي تزايد العمليات من تموز ١٩٧٢ الى أيار ١٩٧٣ ، يتمشى هذا التزايد مع طرد السادات للمستشارين السوفيات ، الأمر الذي أدى في حينه الى التكهن باحتمال عقد اتفاقية سرية بين مصر والولايات المتحدة ، بعد انتهاء الانتخابات الرئاسية الأمريكية .

اما ما حدث في ١٧ كانون الأول ١٩٧٣ من إلقاء القنابل واستخدام الرشاشات ضد طائرة بان أميركان في مطار روما ، وكذلك تكاثر الهجمات بين كانون الثاني ونيسان من العام ١٩٧٠ ، فيتوافق وجهود كيسنجر من أجل فك الارتباط . على أي حال ، فمنذ أمر عرفات بوقف العمليات خارج فلسطين المحتلة ، تدنى عدد العمليات بصورة كبيرة . ولقد اتخذ عرفات ذلك القرار كبادرة حسن نية من جانب منظمة التحرير الفلسطينية ، وكان يأمل أن يتلقى دعوة للمشاركة في مؤتمر جنيف للسلام . كما ينبغي أن نسجل ان عرفات وافق على عملية اختطاف باص سياحي اسرائيلي على طريق حيفا ــ تل أبيب في ١٩٧٨ ، وهي العملية التي قتل فيها ٣٦ إسرائيلياً وأمريكي واحد ، والتي استخدمتها اسرائيل ذريعة لغزو جنوب لبنان . وما كان

يتوخاه عرفات من المصادقة على هذه العملية هو نسف مبادرة السادات للسلام ، أو على الأقل كشف « طبيعتها الحقيقية » .

ويتضح بسهولة من مراجعة قائمة العمليات الفدائية التي قام بها الفلسطينيون منذ ١٩٦٨ ، أن اسرائيل كانت الطرف المستهدف بمعظم العمليات . وكان الأردن الثاني . واحتلت الولايات المتحدة المرتبة الثالثة .

ب ـ جهود الولايات المتحدة لمكافحة العنف الفلسطيني

نظرت الولايات المتحدة بكثير من القلق الى تصاعد موجة « الارهاب » و « الارهاب المضاد » التي أعقبت حرب ١٩٦٧ العربية ـ الاسرائيلية . فتلك الظاهرة جعلت السلم في المنطقة مزعزعا للغاية . ولقد وقف ناظر الخارجية الأمريكية دين راسك ، في مؤتمره الصحافي في الثالث من كانون الثاني ١٩٦٩ ليقر بالمخاطر ، وليحث الفريقين على ضبط النفس :

« إننا ندعو الحكومات العربية الى ان تدرك ان عليها القيام بأقصى ما تستطيع لضبط النشاط الارهابي . وندعو إسرائيل الى التسليم بأن سياسة الانتقام المفرط لن ينتج عنها السلام الذي ترغب فيه بالتأكيد »(٣) .

ولم يلق نداء راسك اكتراثا . فعملية الاختطاف الجوي الفلسطينية الأولى التي استهدفت طائرة إلعال في ٢٣ تموز ١٩٦٨ ، سرعان ما لحقتها عمليات . واستهدف بعض هذه العمليات الطائرات الأمريكية ، وكانت المطارات مسارح هذه العمليات ، حيث السياح الأمريكيون أبدا حاضرون ! وشجبت الولايات المتحدة أعمال اختطاف الطائرات، وادانتها باعتبارها أفعالا إرهابية وغير مشروعة ولا يمكن قبولها . وبهذا بدأت مرحلة من المجابهة بين الولايات المتحدة وبين منظمة التحرير الفلسطينية . وأطلقت الولايات المتحدة على مختطفي الطائرات نعت « مجرمين دوليين » . كما انضمت الى ركب مستنكري الارهاب الاسرائيلي تحت عنوان « الانتقام » . وكانت أولى الطائرات الأمريكية التي اختطفت خارج نصف الكرة الغربي ، طائرة تي . دبليو . إي التي اقتادها أعضاء الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين في ٢٩ آب ١٩٦٩ . وكانت وجهة الطائرة تل أبيب ، مع توقف في أثينا . لكنها أرغمت على الهبوط في دمشق حيث قام الفدائيون بتفجير الطائرة بعد إخلائها من الركاب . ووصف ناظر الخارجية روجرز العملية بأنها « قرصنة جوية » .(٤) .

وردا على هجمات المنظمات الفلسطينية على الأهداف الأمريكية والاسرائيلية ، سعى الكونجرس الأمريكي الى قطع المساهمة المالية الأمريكية في ميزانية الاونروا ، للضغط على اللاجئين الفلسطينيين كيما لا ينضموا الى « كفاح التحرير » . وأضيف الى قانون المساعدات الخارجية الأمريكية للعام ١٩٦٩ مقطع يتعلق بهذا الشأن :

« لا ينبغي أن يتاح الحصول على أي قسط من المساهمة المالية للولايات المتحدة في ميزانية الأونروا ، لأي لاجىء يتلقى تدريبا عسكريا كعضو في ما يسمى بجيش التحرير الفلسطيني أو في أية منظمة أخرى من منظمات الغوار ، أو شارك في أي من أعمال الارهاب »

« ... وانه لمن الأساسي توجيه ضغوط مستمرة على موظفي الأمم المتحدة الذين يقيمون

اتصالات مع تلك المنظمة ، والى اولئك المسئولين مباشرة عن ادارتها ، للحؤول دون استخدام ميزانية الوكالة لتعزيز النشاطات العسكرية أو الارهابية ، في أية صورة من الصور . »(٥)

ومع أن الولايات المتحدة اقتطعت مبلغاً بسيطاً من قيمة مساهمتها في ميزانية الأونروا ، فانها كانت بعملها هذا تنطلق من الاعتقاد بوجوب قيام الدول الاخرى بزيادة أنصبتها في أعباء الأونروا المالية . على أن المقطع المشار اليه آنفا والذي أضيف الى قانون المساعدات الخارجية ، لم يوضع قط موضع التطبيق ، لأن الادارة (الأمريكية) شعرت بأنه قد يكون ذا تأثير شامل على زعزعة الموقف ، والإضرار بمصالح الولايات المتحدة في النهاية .

تنظر جماعات منظمة التحرير الفلسطينية الى الولايات المتحدة على أنها النصير الرئيسي لاسرائيل ، والتي لولاها ما كان بوسع اسرائيل مواصلة احتلال الاراضي العربية « وانتهاكاتها الفاضحة للحقوق الانسانية والمدنية للفلسطينيين » . وبناء عليه ، شعرت بأن الولايات المتحدة ينبغي أن تكون هدفاً مشروعاً لعملياتها الفدائية ، وجرى فعلاً توجيه المزيد من العمليات نحو ضرب المصالح الأمريكية . فكانت هناك هجمات على الدبلوماسيين الامريكيين ، مثلما كانت هناك هجمات على المصالح الاقتصادية الامريكية . في اذار ١٩٧٣ ، قتلت منظمة ايلول الأسود سفير الولايات المتحدة في السودان ، كليو نويل ، والقائم بالأعمال كيرتس مور ، بعد أخذهما رهينتين من حفلة في السفارة السعودية في الخرطوم . وفي ذلك الحين ، عندما كانت الولايات المتحدة تتصرف خلال أقنية غير مباشرة ، وجهت إنذارا جادا الى منظمة التحرير الفلسطينية : « إبتعدوا عن دبلوماسيينا ، وإلا ! » . لقد هددوا برد سريع .(٦)

وكانت الفترة التالية لوقف إطلاق النار على الجبهة المصرية ــ الاسرائيلية الذي تم تحقيقه باشراف أميركي في صيف العام ١٩٧٠ ، فترة مجابهة شديدة بين الولايات المتحدة والفلسطينيين . وقرر فدائيو الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين القيام بخطوة عنيفة ، في ظل الخشية من تجاهل مستقبلهم في أية تسوية سلمية ، والخوف من سحق الحركة (الفلسطينية) . وترجمت هذه المخاوف بصورة صارخة الى سلسلة من عمليات الاختطاف الجوي في اوائل ايلول ١٩٧٠ . ولقد أنزلت الطائرات المختطفة في مهبط جوي قليل الاستعمال في الصحراء الاردنية قرب عمان ، وعلى متونها مئات الرهائن .

كشفت هذه الأحداث عن القدرة التي تمتعت بها منظمة التحرير الفلسطينية ، قدرتها على هز المنطقة ، وإفقادها استقرارها ، بل وقدرتها على تشكيل خطر لجر القوى الكبرى الى معمعة النزاع . ولقد شهد ذلك المهبط الصحراوي فصول الدراما المثيرة ، قبل أيام قليلة فقط من اندلاع نيران الحرب القصيرة نتائج مدمرة بالنسبة للفلسطينيين : فالفدائيون تم إخراجهم من المدن تطبيقاً لاتفاق بين حسين والحكومات العربية ، وقتل الآلاف من الفلسطينيين ، ومعظمهم من المدنيين العزل ، بأيدي قوات البادية الموالية للملك .

وأدى اختطاف الجبهة الشعبية للطائرات الاربع بين ٥ و ٩ ايلول الى انفجار شعور معاد للفدائيين في أوساط رجال الكونجرس الاميركي ، الذين وصفوا منفذي العملية بأنهم نفر من « المعتوهين والمجانين » الذين « يغتصبون » معاني الكلمات إذ يصفون أنفسهم بأنهم مناضلون من أجل التحرير . وكان الوصف السائد للعملية أنها « عديمة الانسانية وعمل

حيواني » ، هذا على الرغم من أن الرهائن ذكروا فيما بعد أن مختطفيهم عاملوهم بطريقة متحضرة وتبعث على الاعجاب . ومما قاله الشيخ لونج من لويزيانا إنه اذا كان الاردن يفتقر الى حكومة ، فان على الأمم الأخرى أن تهب لتنشىء حكومة لشعب ذلك البلد ، ريثما يصبح قادراً على إقامة حكومة بنفسه . وأضاف انه ينبغي إبلاغ الأردن بأن من واجبه احتجاز الخارجين على القانون ومعاقبتهم ، واذا قتل الارهابيون أي شخص ، فلا بد من قتلهم جميعاً » وشنقهم من أعقابهم ... »(٧)

في الفترة السابقة للحرب الأهلية الأردنية وخلالها ، كانت هناك خشية عظيمة في واشنطن وتل أبيب على الملك حسين ، الصديق الصدوق للولايات المتحدة ، والزعيم العربي المعتدل ، الخشية من أن يطاح به، ويستبدل بنظام راديكالي حليف للفلسطينيين وسواهم من العرب الراديكاليين . ولقد أماط أحد المراسلين اللثام ، في مقالة نشرتها له **نيويورك تايمز** ، عن المدى الذي بلغته التحضيرات الأمريكية ـ الاسرائيلية من أجل القيام بعمل عسكري مشترك في الأزمة الأردنية ، فيما لو أصبح الملك حسين عاجزاً عن السيطرة على الوضع بنفسه .

وتمثل سيناريو تلك الخطة في هجوم اسرائيلي على القوات السورية التي كانت قد دخلت الأردن دعماً للفلسطينيين ، إذا ما بدا أن جيش الملك عاجز عن التصدي لها . وفي هذه الحالة ، كان على الولايات المتحدة أن تحرك أسطولها السادس ووحدات عسكرية أخرى لحماية مؤخرة جناحي إسرائيل من أية هجمات مصرية أو سوفياتية تنطلق من منطقة قناة السويس .

ولقد تولى الرئيس نيكسون شخصياً قيادة النشاط الدبلوماسي والعسكري الكثيف ، بينما كانت الأزمة تقترب من ذروتها . لكن خطط التدخل في حال وقوع اختراق عراقي أو سوري جدي وخطير للأردن ، لم يقيض لها أن توضع موضع التطبيق أبداً . فالمائتان والخمسون دبابة لجيش التحرير الفلسطيني، التي كانت تحت السيطرة السورية، أجبرت على الانسحاب بضغط من حافظ الأسد قائد سلاح الجو السوري ووزير الدفاع آنئذ .(٨) ومع ذلك ، تحركت القوات الاسرائيلية واقتربت من خط الحدود السورية ـ الأردنية ، فيما أمر الرئيس نيكسون وحدات عسكرية في فورت براج في المانيا الغربية ، وفي الأسطول السادس، بأن تكون في أعلى درجات الاستنفار .

وفي الثاني عشر من تشرين الأول ١٩٧٠ عرض عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية على الصحافيين في عمان ، فوارغ لقذائف تحمل علامات عبرية ، واتهم الأمريكيين والاسرائيليين بالتورط في الحرب . لكن اتهاماته نفيت بالدليل .

ولقد استشاط غضب الولايات المتحدة ، وبلغ ذعرها مداه ، إبان الهجمة التي قامت بها منظمة ايلول الأسود السرية ، على الرياضيين الاسرائيليين في قرية الألعاب الأولمبية في ميونيخ . وطالب الفدائيون يومئذ بالافراج عن مائتي أسير فلسطيني في السجون الاسرائيلية مقابل إطلاق الأحد عشر رياضياً إسرائيلياً . ورفضت اسرائيل الطلب . وقامت كل من المانيا واسرائيل بوضع خطة مشتركة لقتل الفدائيين وتحرير الرهائن . لكن الخطة منيت بالاخفاق ، ولاقى الأحد عشر رياضياً اسرائيليا حتفهم ، سوية مع خمسة من الفدائيين .

وفي ظل الخوف من احتمال حدوث عمل مماثل في الولايات المتحدة نفسها ، تحركت إدارة

نيكسون لشن حملة لمكافحة الارهاب على صعيدين : ١ ـ برنامج لخطوات وقائية داخل الولايات المتحدة . و ٢ ـ خطوات لمحاربة الارهاب على المستوى الدولي ، بالتعاون مع امم أخرى .

أ ـ الخطوات والجهود الداخلية

في ايلول ١٩٧٢ أصدر الرئيس نيكسون أمرا تنفيذيا بتأليف لجنة وزارية مهمتها درس الوسائل الناجعة من أجل منع الارهاب في داخل الولايات المتحدة وخارجها . وتولى ناظر الخارجية رئاسة اللجنة ، التي ضمت في عضويتها بالاضافة الى عدد آخر من الوزراء ، كلا من مدير وكالة المخابرات المركزية ، ومدير مكتب التحقيقات الاتحادي ، ومجموعة من مساعدي الرئيس لشؤون الأمن القومي والشؤون الداخلية . وتبنت اللجنة عدة خطوات ، واقرت عدة إجراءات لتحسين سبل مكافحة الارهاب سواء في داخل الولايات المتحدة وخارجها . ومن الخطوات التي لجأت اليها اللجنة :

١ ـ الأمر الى وكالة المخابرات المركزية باجراء فحص أمني يتناول كل شخص عربي مسافر الى الولايات المتحدة . وعمم ناظر الخارجية روجرز ثلاث برقيات وجهها الى جميع المكاتب الدبلوماسية الأمريكية في الخارج ، في الثامن ، والثامن عشر ، والعشرين من ايلول ١٩٧٢ ، يحدد فيها تفاصيل الفحص الأمني المطلوب : البرقية الأولى المعروفة باسم « عملية باولدر » أرسلت بعد ثلاثة أيام من الهجوم الفدائي على القرية الأولمبية في ميونيخ . وطلبت الى السفارة الأمريكية القيام بعملية غربلة لجميع العرب وسواهم من الذين قد تكون لهم صلة بمنظمات الارهاب .. على غرار الوطنيين في فرنسا والمانيا وأمريكا اللاتينية . أما البرقية الثانية فأمرت باجراء غربلة وتدقيق في شأن كل عربي يطلب أي نوع من سمات الدخول ، وأينما كان في العالم ، وبتحضير قائمة يومية بطالبي التأشيرات من العرب ، وتقديم القائمة يومياً الى الخارجية الأمريكية ، وتضمينها معلومات وافية عن كل شخص .

ولقد واجهت الخطوات والاجراءات الأمنية السالفة الذكر ، مصاعب فورية عند التطبيق ، إذ لم يكن هناك أحد يعلم ما هو تحديد أو تعريف « العربي » . ففي أمريكا اللاتينية وحدها زهاء ٥٠ ألفا من العرب الناطقين بالاسبانية الذين يعرفون باسم « توركوس » ، من الذين ولدوا ، أو ولد اباؤهم وأمهاتهم في بلدان الشرق الأوسط ، لكنهم يعيشون الآن في المكسيك وهايتي وجمهورية الدومينيكان والاكوادور. ولتوضيح هذه الفوضى، بعث روجرز بالبرقية الثالثة معرفا « العربي » بعيار عرقي ، بأنه كل عربي ولد ، أو ولد أبواه في البلدان التالية ، بغض النظر عن جنسيته الحالية أو موطن إقامته : الجزائر ، البحرين ، مصر ، العراق ، اسرائيل ، الأردن ، الكويت ، لبنان ، ليبيا ، موريتانيا ، المغرب ، عمان ، قطر ، العربية السعودية ، السودان ، سوريا ، تونس ، الأمارات المتصالحة ، اليمن ، والأمارات العربية المتحدة .

وأدت عملية إخضاع جميع الزائرين للفحص الأمني من جانب واشنطن ، الى خلق صعوبة أخرى تمثلت في تأخير طالبي التأشيرات عدة أسابيع أو أشهر . ونتج عن هذا تذمر من جانب أولئك العرب الذين كانوا من أصدقاء المصالح الأمريكية ، ناهيك عن أولئك الذين كانوا أعضاء

في جماعات خاصة أو عائلات . وبعد أن قدم احد الأمراء السعوديين شكوى الى وزارة الخارجية ، احتجاجاً على تأخير حصوله على تأشيرة دخول الى الولايات المتحدة ، بعث ناظر الخارجية روجرز ببرقية أخيرة في أوائل تشرين الأول ، لتعديل « عملية باولدر » ، وذلك بتخويل السفارات الأمريكية صلاحية إعطاء التأشيرات مباشرة الى طالبيها « من المعروفين لديها شخصياً والمرضي عنهم » .(٩)

٢ ـ الأمر باجراء فحوص أمنية خاصة للبريد الوارد من مناطق مشتبه بها .

٣ ـ التشدد في تطبيق البرنامج الخاص بمكافحة اختطاف الطائرات ، وذلك بتضمينه خطة للتدقيق في جميع ركاب الطائرات ، وتفتيش كل الحقائب والأمتعة المحمولة بالأيدي ، على الخطوط الأمريكية .

٤ ـ مضاعفة الجهد في التنصت على المخابرات الهاتفية .

٥ ـ عملية مسح شاملة على نطاق الأمة للتحقيق في النشاط السياسي للعرب عموماً وللفلسطينيين خصوصاً ، يقوم بها مكتب التحقيقات الاتحادي ومسئولو شؤون الهجرة .

لقد ترتب على وضع هذا البرنامج موضع التطبيق ، الكثير من التعسف وسوء الاستخدام والتهويل والازعاج . وكثيرا ما قام رجال الأمن بتهديد الأشخاص بالترحيل أو الحجز إذا لم يظهروا استعدادا للتعاون . ويمكن لنا أن نورد قائمة طويلة بالحالات التي أسيء فيها استخدام البرنامج ، لكننا نكتفي بتسجيل بعض الأمثلة . فرجال الأمن يطرقون الباب في منزل أي شخص موضع تحقيق ، في أية ساعة من ساعات النهار أو الليل ، ويرفضون إعطاء أي إشعار مسبق . ولقد قال أحدهم لشخص فلسطيني في منطقة واشنطن ، إنه يقوم بهذه الزيارة ، « لمجرد التأكد من وجوده في المنزل » .

وقال سام زوتي رئيس مكتب الهجرة في نيويورك، للدكتور سامي البنا أستاذ الهندسة في جامعة كولومبيا ، « إن الأجانب مجرد زائرين ، وانهم مثل الأطفال ليس من حقهم الكلام » . وفي تعبير يصور خواطره الدفينة ، قارن المسئول الأميركي العقوبات التي « يوزعها » ، بتلك التي كان يمكن للدكتور البنا أن يواجهها في الخارج . ومضى قائلا : « ينبغي أن أذكرك بأنه في بلدان معينة في العالم ، عندما يعبر شخص ما عن آراء مخالفة ، يؤتى به الى الجدار وتطلق عليه النار . أما نحن في هذا البلد فلا نفعل ذلك . أما إذا كان لدي شخص قذر ، فاني أقلبه على حضني وأضربه على مؤخرته ! »(١٠)

وفي بروكلين ، نيويورك ، اقتحم رجال المباحث الاتحاديون نادياً عربياً ، واندفعوا الى غرفة تزين جدرانها صور فلسطينية فأزالوها عن الجدران . وقال أحدهم لصاحب النادي متوعداً : « إننا لا نحب أن نرى مثل هذه الملصقات هنا » . وتعرضت نوادي التجمعات العربية في كثير من أنحاء الولايات المتحدة لمثل ذلك ، وحيث عومل أعضاؤها بفظاظة وتهديد . وأدى هذا الى استنكاف الأعضاء عن ارتياد النوادي مما أدى الى إقفالها .(١١)

خلال الشهرين الأولين من تطبيق البرنامج المذكور وحملة التدقيق والتحقيقات ، جرى ترحيل ١٢٥ طالبا عربياً ، وفي معظم الحالات ، بطريقة غير لائقة . كما ألقي القبض على ٧٠

طالبا ، أفرج عنهم فيما بعد مع تبرئتهم من جميع التهم .(١٢)

لقد استعرت في العام ١٩٧٤ حرب إرهابية سرية ضارية في أوروبا والشرق الأوسط بين رجال منظمة التحرير الفلسطينية وبين رجال الموساد (المخابرات الاسرائيلية) . واشتملت تلك الحرب على أعمال اغتيال ورسائل ملغومة . ومخافة أن ينتقل اليها ميدان الحرب الارهابية ، شنت الولايات المتحدة حملة أخرى من التحقيقات في أوساط الفلسطينيين . لكنها كانت هذه المرة أكثر تحفظاً ، وأقل علنية .

ولعل مرد ذلك التحفظ في إجراءات الحملة الجديدة ، حقيقة أن خطر الارهاب ، الذي كان وراء الأمر التنفيذي في العام ١٩٧٢ ، والذي تسبب في انتهاك الحقوق الدستورية لكثير من الفلسطينيين ، لم يتجسد فعلا ولم يتحقق على الأرض . وبناء عليه صدر الأمر الى مكتب التحقيقات الاتحادي ، في حملة ١٩٧٤ ، باجراء التحقيقات دون انتهاك القانون . وتبقى الحقيقة المهمة وهي أن الولايات المتحدة لم تصبح ميداناً لحرب الارهاب والارهاب المضاد الفلسطينية ـ الاسرائيلية ، مع العلم أن الاجراءات الخاصة التي سنتها لمكافحة الارهاب لم يكن لها شأن ينكر في هذه الحقيقة .

ب ـ الجهود الدولية :

وفي هذا الميدان تحركت الولايات المتحدة بغية دفع الأمم المتحدة الى اتخاذ اجراء على المستوى الدولي لمكافحة الارهاب . ففي ايلول ١٩٧٢ ، وزعت الولايات المتحدة مسودة لاتفاقية دولية لمنع أعمال الارهاب الدولي والمعاقبة عليها . وتتألف الاتفاقية من ١٦ مادة ، وتوصيات وحيثيات . ودعت المسودة الدول الأعضاء الى محاكمة أو تسليم أي شخص يرتكب عملا اجرامياً ، او ايذاء جسدياً بالغاً ، أو اختطاف في دولة أجنبية أو ضد شخص أجنبي ، في نية « الاضرار بمصالح دولة أو منظمة دولية ، أو بقصد تحقيق تنازلات من دولة أو منظمة دولية » . هذه كانت الجرائم الوحيدة التي دعت المسودة الى المعاقبة عليها أو تسليم الفاعلين . أما باقي موادها فلقد أسهبت في وصف التزامات كل دولة تجاه الدول الأخرى حيال تصرفات رعاياها . وبموجب المسودة ينبغي على كل دولة أن تعاقب على الجرائم بعقوبات مشددة : وأن تلاحق عملية المقاضاة خارجاً إذ كان الفاعل قد هرب أو أن الفعلة ارتكبت في الخارج : وأن تلجأ الى التوقيف الاحتياطي اذا كان ذلك لازماً للتثبت من حضور الفاعل وبقائه مستعداً للمحاكمة أو للتسليم : وأن ترفض استخدام ترابها الاقليمي ملجأ للفاعلين : وأن تسن قوانين وتتخذ إجراءات للحيلولة دون ارتكاب مثل هذه الجرائم ، بما في ذلك تبادل المعلومات والبيانات حول الخطط والأنشطة والحركات الارهابية .(١٣)

وفي خطابه أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في الخامس والعشرين من ايلول ١٩٧٢ ، دعا ناظر الخارجية الأمريكية روجرز ، الأمم المتحدة ، الى القيام بعمل على عدة جبهات للتغلب على الارهاب الدولي . وبالاضافة الى مسودة المعاهدة السالفة الذكر بشأن العقوبات والمحاكمات ، اقترح روجرز معاهدتين دوليتين أخريين بخصوص الارهاب : معاهدة تنص على تعليق جميع الخدمات الجوية المتجهة الى بلدان أخفقت في معاقبة او تسليم خاطفين ، أو مخربين ، للطيران المدني . ومعاهدة غيرها تطالب بمحاكمة أو تسليم الأشخاص الذين

يرتكبون أعمال القتل أو الايذاء أو الاختطاف ، ضد المدنيين الأبرياء ، في بلد أجنبي ، بهدف نيل تنازلات من دولة ما أو من منظمة دولية .[١٤]

ولقد أنزعجت دول العالم الثالث من مبادرات الولايات المتحدة ضد الارهاب ، لشعورها بأن تلك المبادرات مكرسة لخدمة أولئك الموجودين في سدة السلطة . وكان من رأي هذه الدول أن ما ترمي اليه خطة الولايات المتحدة حقاً ، هذا اذا أخذت بها الأمم المتحدة وأقرتها ، إنما هو عرقلة حروب التحرر الوطني . ومن هذا المنطلق تقدمت الجزائر بصيغة أخذت في الاعتبار هموم أمم العالم الثالث . ودعت الصيغة الجزائرية الى دراسة الارهاب ، أكدت حق الشعب في تحرير ذاته من الحكم الأجنبي . وجاء في فقرتها الثالثة :

(إن الجمعية العامة) تعيد تأكيد الحق الثابت لجميع الشعوب الرازحة تحت حكم أنظمة استعمارية وعنصرية وجميع أشكال الهيمنة الأجنبية ، وتؤيد شرعية كفاحها ...[١٥]

ولقد فاز مشروع القرار الجزائري عند التصويت عليه في الجمعية العامة ، ونال ٧٦ صوتاً مقابل ٣٤ . المهم أن الولايات المتحدة اقترعت ضد هذا القرار ، لشعورها بأنه لا يدين الارهاب ، وبأن المطلوب أعمال لا دراسات .

ومع أن مجهودات الولايات المتحدة أخفقت في الجمعية العامة في كسب التأييد الكافي للمعاهدة التي اقترحتها لمكافحة الارهاب في ١٩٧٢ ، فانها نجحت في العام التالي ، وذلك بمساندة خطوة أكثر اعتدالا . ففي كانون الأول ١٩٧٣ تبنت الجمعية العامة اتفاقية لحماية الدبلوماسيين ، نصت على محاكمة أو تسليم الأشخاص الذين يهاجمون أو يختطفون الدبلوماسيين ، وموظفي الحكومات الأجنبية ، أو المنظمات الدولية .[١٦]

الواقع أن جهود الولايات المتحدة لمكافحة الارهاب لم تقتصر على منظمة التحرير الفلسطينية وعملياتها . أجل ، فالولايات المتحدة تزعمت الحملة باتجاه جهد عالمي لحصر الارهاب ، لأسباب عديدة . فلربما كانت الولايات المتحدة أبرز هدف واضح للارهاب الدولي ، ولها أكبر عدد من البعثات الدبلوماسية على امتداد العالم قاطبة ، والشركات الامريكية تنشط في العديد من البلدان ، وارتحال الأمريكيين الى الخارج يفوق أي شعب آخر . زد على ذلك كله أن الولايات المتحدة تتكبد خسائر من أي تمزق يصيب النظام العالمي الراهن . ثم ان للولايات المتحدة مصلحة مفهومة في صيانة الاستقرار السياسي لأصدقائها وحلفائها . ومن هنا ، فان الصعود الأخير للارهاب الأوروبي ، في ايطاليا وهولندا والمانيا ، كان هماً ثقيلا على قلب الحكومة الأميركية .

إن سياسة الحكومة الأمريكية حيال الارهاب الدولي هي الرد بحزم وصلابة على أعمال الارهاب . انها لا تدفع فدية عند وقوع الاختطاف ، وتقاوم شتى أنواع الابتزاز ، وتحبذ اتخاذ أشد الاجراءات الممكنة ضد أولئك الذين يرتكبون أعمالا ارهابية .[١٧] وهذا الرد ــ الموقف يزيد من الاجراءات الوقائية المتخذة ، بغية إحباط الارهاب . ويتضمن هذا عقد اتفاقات ثنائية مثل الاتفاقية الأمريكية ــ الكوبية المضادة للاختطاف الجوي ، كما يشتمل على اتفاقات متعددة الأطراف ، كالاتفاقية المضادة للاختطاف الجوي المعقود في ١٦ تموز ١٩٧٨ إبان

انعقاد قمة بون الاقتصادية التي شارك فيها السبعة الكبار من الدول الصناعية خارج العالم الشيوعي ، وهي بريطانيا وكندا وفرنسا والمانيا الغربية وايطاليا واليابان والولايات المتحدة .(١٨)

وثمة اتفاقية سارية المفعول بين الولايات المتحدة واسرائيل ، يجري بموجبها جمع وتبادل المعلومات حول الأشخاص الذين يعتقد بأنهم قد يكونون ارهابيين محتملين . وفي هذا الصدد صرح رفائيل روتشتاين مؤلف كتاب « **الفدائيون : مغاوير ضد اسرائيل** » ، والذي يحتفظ بصلات وثيقة بالمسئولين الاسرائيليين ، بعد عودته من زيارة لاسرائيل في ١٩٧٦ ، بأن « الموساد تتمتع بتعاون كامل من جانب وكالة المخابرات المركزية الأمريكية ومكتب التحقيقات الاتحادي » . وأضاف روتشتاين نقلا عن الاسرائيليين ، « ان الولايات المتحدة أبدت مبادرة عظيمة في متابعة ونقل المعلومات الاستخبارية ، وفي تنسيق التقنيات المضادة للارهاب . » وفي المقابل يتلقى مكتب التحقيقات الاتحادي ، وربما وكالة المخابرات المركزية كذلك ، معلومات من الاسرائيليين ، الأمر الذي جرى تأكيده خلال سماع إفادات في لجنة مجلس الشيوخ ، وذلك حين طلب الشيخ جيمس أبو رزق (ديمقراطي ، داكوتا الجنوبية) معلومات من مكتب التحقيقات الاتحادي تتعلق بتقارير لتلك الوكالة تزود إسرائيل بمعلومات عن نشاطات سامي اسماعيل في هذا البلد (الولايات المتحدة) .(١٩) وكانت شهادة مندوب مكتب التحقيقات الاتحادي أن « المكتب » تلقى من الاسرائيليين معلومات بأكثر مما زودهم .(٢٠)

يبدو أن الولايات المتحدة قد تقبلت الأمر الواقع بشأن أعمال العنف الفلسطينية وأعمال اسرائيل الانتقامية . ومع ذلك تعتقد الحكومة الأمريكية بوجوب احتواء هذه المسألة . وفي هذه الأثناء تواصل شجبها لأعمال العنف كافة .

تأثيرات العنف الثوري الفلسطيني على سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية

لقد عبر صانعو السياسة الأمريكية منذ الخمسينات عن خشيتهم من احتمال اندلاع العنف الفلسطيني ، وخصوصاً من جانب أولئك الفلسطينيين الذين يرزحون تحت العذاب في مخيمات اللاجئين . وشعرت الحكومة الأمريكية بأن مثل هذا الاحتمال سيكون له تأثير عميق على الاستقرار السياسي والاقتصادي وعلى الأمن في المنطقة . وثمة تقرير للجنة الفرعية للشرق الأدنى وأفريقيا التابعة للجنة مجلس الشيوخ الخاصة بالعلاقات الخارجية ، تاريخه ٢٤ تموز ١٩٥٢ ، يعبر عن قلق الولايات المتحدة من احتمال تحول اللاجئين الفلسطينيين الى قوة ثورية ، وتأثيرات ذلك على مصالح الولايات المتحدة :

« إن للولايات المتحدة مصلحة في أن تفعل ما تستطيع للمساعدة في حل مشكلة اللاجئين ، بسبب علاقتها المباشرة بالاستقرار الاقتصادي والسياسي وبالأمن في الشرق الأدنى . ولن تغتبط الولايات المتحدة بمشاهدة النظام الداخلي واستقلال بلدان الشرق الادنى ، تتهددهما الفوضى الاقتصادية ، والتسلل الشيوعي ، أو الاشتباكات العسكرية . إن فقدان النظام وما ينتج عنه من احتمال تجدد الأعمال العدائية في هذا الجزء من العالم ، كفيل بتهديد المصلحة الأمنية للولايات المتحدة وللعالم الحر عامة . »

وهكذا فان السياسة الأمريكية تجاه اللاجئين كانت معنية أساساً بالحيلولة دون انطلاق

العنف الثوري الفلسطيني . وكان هذا بالذات وراء المساهمة المالية الكبيرة للولايات المتحدة في ميزانية الأونروا ، خلال العقود الثلاثة الأخيرة . كما رعت الولايات المتحدة عروضاً كثيرة قدمت للاجئين في سبيل إعادة توطينهم ودمجهم في العالم العربي ، في مجهود جل غايته إجهاض نمو الحركة الثورية الفلسطينية . فهذا النمو مع استخدام العنف الثوري كان أمراً وعته المصالح الأمريكية في المنطقة . وفي هذا السياق ، رسمت الولايات المتحدة سياسة للمجابهة مع الثورة الفلسطينية غداة انطلاقتها ، كما رسمت في أعقاب ذلك سياسة لاحتوائها . لقد خلق العنف الثوري الفلسطيني هموماً لا تعد ولا تحصى للولايات المتحدة ، وهي هموم تؤثر بلا ريب وبكل قوة في اعتبارات السياسة الأمريكية . وتتضمن مصادر القلق الأمريكي نشوء الاحتمالات المتعددة التالية التي تترتب على الكفاح الثوري : (١) ان تصعيد العنف الثوري الفلسطيني والهجمات الاسرائيلية قد يجر سوريا ، وربما العراق ، الى ساحة الوغى ، مما يزيد من احتمال نشوب حرب عربية ــ اسرائيلية أخرى قد تتسبب في مجابهة أمريكية ــ سوفياتية . (٢) احتمال آخر هو شحن الجماهير العربية بتيار الكفاح ضد اسرائيل وحلفائها ، الأمر الذي سيعيق خطط التسوية الأمريكية . وقد تتولد عن هذا هجمات تشن على المصالح الأمريكية في العالم العربي بما في ذلك زعزعة النشاطات التجارية الأمريكية وتدفق النفط الى الولايات المتحدة وحلفائها . (٣) وأبعد من ذلك كله أن العنف الثوري يهدد بنسف الوضع القائم ، ويقوض الأنظمة العربية الصديقة للولايات المتحدة والمؤهلة لعقد تسويات توفيقية مع اسرائيل . هذه الاحتمالات كافة تشكل خطراً داهماً على إدامة المصالح الأمريكية وهيمنتها على المنطقة .

لا مراء في ان هذه الهموم ومصادر القلق تفعل فعلها في تحديد مسار السياسة الأمريكية في الشرق الأوسط ، وعند رسم الاستراتيجية والمخططات . وتتجلى هذه السياسة في كلا الاتجاهين : الجهود المبذولة للتوفيق، وعلى المستوى نفسه المحاولات المبذولة لاجتثاث مصدر العنف الثوري ، وبالتحديد منظمة التحرير الفلسطينية . الجانب الأخير من السياسة الأمريكية تجلى تماماً في الدور الأمريكي في محاولة تدمير الحركة الفلسطينية ، وذلك بالهجمة الضارية على الفلسطينيين في الأردن عام ١٩٧٠ وفي لبنان عامي ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ .

في المقابلات مع رجال الاعلام ، يصر الرسميون الأمريكيون البارزون في وزارة الخارجية ، على أن العنف الفلسطيني ليس له أي تأثير مباشر أو غير مباشر من أي نوع على سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية أو تجاه السياسة الفلسطينية . لكن هذا غير صحيح . فالحقائق تكشف أن العنف الثوري الفلسطيني يلعب دوراً بارزاً في مسار السياسة الأمريكية . وتكفي نظرة أخرى الى الرسم البياني السابق الذكر والخاص بالعمليات الفدائية الفلسطينية ، لملاحظة التلازم بين تزايد العنف الثوري الفلسطيني وبين التغيرات في السياسة الأمريكية ، على امتداد السنوات العشر الأخيرة . وإني لا أزعم أن العنف الثوري الفلسطيني كان المتغير الوحيد المؤثر على ذلك التغيير ، بل إنه كان عنصراً ملحوظاً في ذلك المسار . ففي ١٩٦٨ ، في الفترة التي سبقت صعود العمليات الفدائية الفلسطينية ، كانت نظرة الولايات المتحدة الى الفلسطينيين ببساطة أنهم لاجئون عرب . لكن بعد التزايد في العنف الثوري في ١٩٦٩ و ١٩٧٠ ، بدأت الولايات المتحدة بالاقرار بأن للفلسطينيين وجوداً سياسياً . وبالمثل انطلق الحديث عن المصالح في ١٩٧١ و ١٩٧٢ ، والمصالح الفلسطينية المشروعة في ١٩٧٣ ــ ١٩٧٤ ، والحقوق

الفلسطينية في ١٩٧٥ ــ ١٩٧٦ ، وفي ١٩٧٧ استخدمت الحكومة الامريكية مصطلحات الحقوق المشروعة للشعب الفلسطيني . والحاجة الى وطن قومي للفلسطينيين . إن لكل من هذه المصطلحات مضامينه السياسية المحددة . ومع أن الرسم البياني لا يدل على تزايد في العمليات الفلسطينية في ١٩٧٥ ــ ١٩٧٧، فان الكفاح الفلسطيني المتصاعد في لبنان خلال تلك الفترة ، أحدث مع ذلك تغيرا آخر في السياسة الامريكية .

خاتمة

كان للعنف الثوري الفلسطيني تأثير لا حد له على الشعب الفلسطيني والعربي ، وخصوصا غداة الهزيمة التي لحقت بالجيوش العربية في حرب ١٩٦٧ . لقد أصبح الفدائي رمزا للنهوض والكرامة والشرف. وهكذا فان دعم الجماهير العربية للثورة الفلسطينية عزز الاعتقاد بأن الجماهير العربية هي الخزان الاحتياطي الذي تغرف منه الثورة الفلسطينية في كفاحها الطويل الأمد من أجل تحرير فلسطين . وان سياسات الحكومات العربية حيال النزاع مع الصهيونية ، تدرك مساندة شعوبها للكفاح الثوري ضد الكولونيالية الاستيطانية الصهيونية . ويمكن لنا أن نتبين كذلك أن الأحداث التي وقعت منذ ١٩٦٧ كان لها تأثير على مساندة الجماهير العربية للكفاح الفلسطيني ، كما ونوعاً وكثافة. ومع ذلك ما زال بوسع المرء أن يقول باطمئنان إن العنف الثوري ضد الاحتلال الصهيوني وحلفائه ، ما زال يتلقى مباركة الجماهير العربية ودعمها . وان العمليات الفدائية ذات الطابع الاستثنائي في مستوى إثارتها وبطولتها ، كعملية دلال المغربي ، تمتلك تأثيرا خاصا وفعالا . وفي الوقت نفسه لا يجوز افتراض ان الدعم الجماهيري حقيقة مسلم بها ومحتمة الحدوث . فما لم تتبع العمليات (المستهدفة لاستقطاب الدعم العربي) بحملة سياسية وتثقيفية بغية رفع مستوى الوعي ، وتوثيق العرى بالحركات الجماهيرية العربية الأخرى ، فانها ــ أي العمليات ــ سوف تفقد في النهاية مفعولها ، بل وقد تأتي بعكس النتائج المرتجاة . ولا ينبغي أن نغفل أن الخصم سوف يستغل بطريقة انتهازية كل موقف لصالحه هو . على انه لا توجد دراسة قياسية لمدى تأثير العنف الثوري الفلسطيني على مساندة الجماهير العربية ، الامر الذي سيؤثر بالنتيجة على تأييد الحكومات العربية للنضال الفلسطيني ، على افتراض أن السياسة الحكومية ليست انعكاسا لدعم الجماهير في هذه المنطقة . وفي النهاية يجري استخدام هذا من جانب الحكومة العربية الخاصة للتأثير على سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط . وان فعالية ذلك التأثير تتوقف نسبياً على طبيعة العلاقة التي تربط تلك الحكومة بالولايات المتحدة، وكذلك على المدى الذي ترغب في أن تمضي اليه في استخدام قوتها الممكنة أو نفوذها . بكلمات أخرى ، العنف الثوري مقترنا ببرنامج للتوعية السياسية للجماهير العربية ، سيكون له تأثير كبير ، وان كان غير مباشر ، على سياسة الولايات المتحدة الشرق أوسطية .

وكثيرا ما يقال في الولايات المتحدة أن العمليات الفلسطينية تثمر عكس غايتها ، وأنها تضر كثيرا بصورة الفلسطينيين في الولايات المتحدة ، كما انها تضعف التأييد العام لقضيتهم . وهذا ليس صحيحاً تماما ! ففي حين أن العنف لن يكسب اية مساندة أو تعاطف مع منظمة التحرير الفلسطينية أو الشعب الفلسطيني ، فانه مع ذلك يحيي في الذهن العام باستمرار فكرة انه لا بد من عمل شيء في القضية الفلسطينية . ومن الناحية الجوهرية يتحول هذا بطريقة غير

مباشرة الى تأييد ايجابي للقضية الفلسطينية . هذه الناحية السيكولوجية نفسها تستعملها العقلية التجارية الأمريكية : فوكالات الاعلان اكتشفت أن اشد مزايا السلعة تأثيراً هي تلك التي تسر الجمهور أو على العكس تماما تلك التي تثير غضبه ! ومن الناحية الجوهرية مرة أخرى ، وعلى الرغم من غضب الجمهور الأميركي من العمليات الفلسطينية ، فان هذه العمليات سوف تقنعه في النهاية بأن السلام غير ممكن بدون الفلسطينيين .

ويصر المسئولون الأمريكيون على ان « الارهاب مرفوض كلياً » ، وغير مقبول كوسيلة للتأثير السياسي ، وأكثر من ذلك انه اذا كانت القيادة الفلسطينية تأمل في أن تبدو كقيادة « مسؤولة » ، فان من واجبها وقف هذه العمليات . واذا طرح عليهم السؤال ، انه اذا كان الأمر كذلك ، ماذا سيكون رد الولايات المتحدة إذا أوقف الفلسطينيون الآن جميع أعمال العنف ؟ وجواب هؤلاء المسؤولين هو بكل بساطة أن الأمر لن يغير سياسة الولايات المتحدة ، لكنه مع ذلك سيؤدي الى تحسين الجو ، ويساعد الولايات المتحدة في « إقناع » اسرائيل بتقديم « تنازلات » في المسألة الفلسطينية وفي مفاوضات الحكم الذاتي . وبكلمات أخرى ، ان الولايات المتحدة **لن تفعل شيئاً** ، وأكثر من ذلك تأمل أن تشق القيادة الفلسطينية باللعبة المعروفة ، لعبة المعتدلين والمتطرفين . زد على ذلك أن المسئولين الأمريكيين يصرون على أن من واجب الفلسطينيين الاعتراف بقرار الأمم المتحدة الرقم ٢٤٢ كشرط مسبق لقيام الولايات المتحدة بمحاورتهم واجراء محادثات مباشرة معهم ، وهي محادثات لن ينتج عنها في اعتقادي أي شيء مطلقاً . ومع ذلك يجادل هؤلاء المسؤولون بقولهم إن وقف العمليات الفلسطينية ، واعتراف منظمة التحرير الفلسطينية بالقرار ٢٤٢ ، سوف يخلقان ضغطاً « أخلاقياً » كبيراً على اسرائيل ، وسوف يقودان الى تحسين الجو بقوة لصالح الفلسطينيين ! ولكم يبدو غريباً في هذا المقام حشرهم لكلمة « أخلاقي » في مضمار الحديث عن سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط . فاذا ما تركنا جانباً الحديث عن مدى « أخلاقية » دولة الاستيطان الكولونيالية ، فان سياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط لم تبن قط على المبادىء الخلقية ، والحقيقة على العكس تماماً ، فسلوك الولايات المتحدة في المنطقة العربية ، على امتداد سنوات العقود الأربعة الأخيرة ، يدل بكل جلاء على أن سياستها قامت على النفعية السياسية وحماية مصالحها الخاصة . وهذه المصالح سوف تبقى موضع تهديد طالما استمر العنف الثوري الفلسطيني .

الحواشي

(١) فرانز فانون ، **معذبو الأرض** .

(٢) بول إي . جريديني ووليم ي . هازن ، **الحركة الفلسطينية في السياسة** ، (كتب لكسنجتون ، ادوارد هيث وشركاه ، لكسنجتون ، ١٩٧٦) ، ص ٧٧ ـ ٨١ ، **اراب ريبورت اند ريكورد** ، ١٩٦٨ ـ ١٩٧٨ و **نيويورك تايمز** ، ١٩٧٤ ـ ١٩٧٨ . إن العمليات الاسرائيلية الانتقامية تبلغ على الأقل ضعفي عدد العمليات الفلسطينية . تتضمن القائمة جميع الهجمات الفلسطينية ضد إسرائيل بدءاً من أيار ١٩٧٤ ، وذلك عندما قررت حركة فتح إنهاء عملياتها الدولية وزيادة عملياتها داخل اسرائيل .

(٣) **نشرة وزارة الخارجية**، المجلد ٦٠ ، الرقم ١٥٤٣ (٢٠ كانون الثاني ١٩٦٩) ص ٢٤.

(٤) **المصدر نفسه** ، المجلد ٦١ ، الرقم ١٥٧٧ (١٥ ايلول ١٩٦٩) ص ٤٦

(٥) تعديل قانون المساعدات الخارجية للعام ١٩٦٩ ، في ٦ تشرين الثاني ١٩٦٩ ، المقطع ٤٠١٥ ، ص ٤٥ ـ ٤٦

(٦) ومنذ ذلك الحين لم يتعرض أي دبلوماسي اميركي لهجوم مادي من جانب منظمة التحرير الفلسطينية . إن اغتيال سفير الولايات المتحدة فرانسيس ي . مولي والمستشار الاقتصادي روبرت أو . ويرنج في بيروت ، لبنان ، في السادس عشر من

حزيران ١٩٧٦ ، في خضم الحرب الأهلية اللبنانية ، نسب الى فصيل لبناني راديكالي صغير . ولقد عبرت منظمة التحرير الفلسطينية عن استعدادها للبحث عن الجناة ومعاقبتهم . أنظر « اغتيال الديلوماسيين الأمريكيين في بيروت ، لبنان . » . شهادة امام اللجنة الفرعية للتحقيقات التابعة للجنة العلاقات الدولية . مجلس النواب ، الكونجرس ٩٤ ، الدورة الثانية ، ٢٧ تموز ١٩٧٦ . (مكتب الطباعة الحكومي الأمريكي ، واشنطن ، دي . سي . ١٩٧٦) .

(٧) **محاضر الكونجرس الأمريكي** ، الكونجرس ٩١ ، الدولة الثانية ، ١٩٧٠ . (١٦ ، في ١١ ايلول ١٩٧٠ ، ١٥٢٢٤) .

(٨) **نيويورك تايمز** ، ٨ تشرين الأول ١٩٧٠ ، الصفحة الأولى .

(٩) رالف ل . ستافينس ، « **الانزعاج العالمي من الفلسطينيين** » (مخطوطة غير منشورة ــ معهد الدراسات السياسية ، واشنطن دي . سي . أيار ١٩٧٦) ، ص ١٤ ــ ١٩

(١٠) **المصدر نفسه** ، ص ٢٤

(١١) **المصدر نفسه** ، ص ٢٧ وبين الأماكن التي اقفلت عبر الولايات المتحدة « البيت الفلسطيني » ، وهو جمعية أكاديمية ثقافية انشئت اصلا في جامعة جورج واشنطن في ١٩٧٠ . ثم انتقلت في وقت لاحق الى غرفة في جادة كونكتيكت في واشنطن . وكانت عضوية « البيت » مفتوحة للجمهور قاطبة ، واقتصرت نشاطاته على المحاضرات والندوات حول شؤون الشرق الأوسط . وبعض النشاطات الثقافية . لقد اخضع العديد من اعضاء « البيت الفلسطيني » للاستجواب من جانب مكتب التحقيقات الاتحادي . وفي إحدى الحوادث ، خلال زيارة قام بها رجال المكتب المذكور « للبيت » ، تولى السيد انيس قاسم أحد مؤسسي « البيت » ، شرح أهداف « البيت » الأساسية بأنها ممارسة الحرية الأكاديمية . ورد عليه أحدهم ، واسمه جرانت ، قائلا « نحن لا نتدخل في الحرية الأكاديمية . لكننا بكل بساطة مهتمون بالأبعاد السياسية لتلك الحرية الأكاديمية » .

(١٢) **نشرة الخريجين الجامعيين العرب ــ الأمريكيين** . ديترويت . ميتشيغان . كانون الأول ١٩٧٢ ، ص ٣

(١٣) « عالم بلا عنف » . بيان لناظر الخارجية روجرز أمام الجمعية العامة للأمم المتحدة في ٢٥ ايلول ١٩٧٢ . **نشرة وزارة الخارجية** ، ٦٧ ، ١٧٣٨ (١٦ تشرين الأول ١٩٧٢) ص ٤٢٥ ــ ٤٣٤

(١٤) **المصدر نفسه** .

(١٥) وثائق الأمم المتحدة أ/القرار ٣٠٣٤ (٢٧) كانون الأول ١٩٧٢ .

(١٦) « مقترب الحكومة الأمريكية إزاء الارهاب : مقترب عالمي » . خطاب للسفير لويس هوفاكر في نيو اورليانز . لويزيانا ، في ٢٨ شباط ١٩٧٤ ، **نشرة وزارة الخارجية** ، ٧٠ ، ١٨١٢ (في ١٨ آذار ١٩٧٤) ص ٢٧٥ ــ ٢٧٦

(١٧) **إفادات حول الارهاب الدولي** ، في المرجع المشار اليه ، ص ١١

(١٨) ينظر الى هذه الاتفاقية على أنها أقسى إجراء اتخذ حتى الآن لمكافحة اختطاف الطائرات . انها تنص على وقف الخدمات الجوية التجارية من والى اي بلد يمنح ملجأ لمختطفي الطائرات . **واشنطن بوست** ، ١٨ تموز ١٩٧٨ ، ص ١١٩

(١٩) سامي اسماعيل مواطن اميركي بالولادة ومن اصل فلسطيني . القي القبض عليه في اسرائيل في كانون الأول الماضي بينما كان في طريقه لزيارة والده المقيم في الضفة الغربية ، والذي كان على فراش الموت . ولقد اقتيد فيما بعد الى المحكمة بتهم تلقي تدريب عسكري في ليبيا ، والانتماء الى الجبهة الشعبية لتحرير فلسطين . لقد اقر بزيارة ليبيا ، لكنه انكر تلقي اي نوع من التدريب العسكري ، كما نفى أن يكون عضوا في الجبهة الشعبية . وقال ان الاعتراف الذي وقع عليه أخذ منه « تحت التعذيب » . لقد أدين سامي اسماعيل ، وحكم عليه بالسجن لمدة ١٥ شهرا . فأثارت قضيته قدرا عظيما من الاهتمام الاعلامي في الولايات المتحدة . أنظر **ذي واشنطن ستار** ، ٢٧ حزيران ١٩٧٨ ، **ونيويورك تايمز** ، ١٥ حزيران ١٩٧٨ .

(٢٠) **ذي واشنطن بوست** . ٢٠ آذار ١٩٧٨ ، ص ١

حاتم الحسيني

الاستراتيجيّة الأميركيّة الراهنة والقضيّة الفلسطينيّة

ان المنطقة العربية مقدمة على مزيد من الصراع والاقتتال ، لأن الامبريالية الامريكية تخطط بكل وضوح للسيطرة على المنطقة واستغلال طاقاتها المادية والبشرية ، ولذلك لا بد من دراسة الاستراتيجية الاميركية الراهنة لمعرفة وسائل مواجهتها والتغلب عليها .

تعتمد السياسة الامريكية الراهنة تجاه المنطقة العربية على استراتيجية جديدة اساسها استخدام القوة الامريكية في المنطقة . ولقد أكد مساعد وزير الخارجية الامريكية هارولد ساندرز في تقريره السنوي امام الكونجرس الامريكي عام ١٩٧٨ ثم عام ١٩٧٩ بأن « الشرق الاوسط اصبح أهم منطقة في العالم بالنسبة للمصالح الامريكية الحيوية والمتشعبة . « بالاضافة الى كونها ملتقى الطرق الاستراتيجية والجسر الارضي بين اوروبا وآسيا وافريقيا ، فهي ايضا هامة لضمان أمن اسرائيل ، ولأنها شريان الحياة لدول حلف الناتو ، ولدعم الدول العربية الرئيسية « المعتدلة » ولضمان البترول والتجارة[١] . وبذلك بلورت الحكومة الامريكية استراتيجية جديدة تعتمد على التدخل المباشر في المنطقة في عصر جديد أسماه وزير الخارجية الامريكية سايرس فانس « بعصر التعاون السلمي » والذي بدأ حسب قوله منذ توقيع معاهدة السلام بين مصر واسرائيل[٢] .

قاعدتنا العسكرية الامريكية الجديدة ، مصر واسرائيل

تعتمد هذه الاستراتيجية الجديدة على ركيزتين اساسيتين في المنطقة الأولى اسرائيل والتي لا بد من دعمها لتبقى القوة العسكرية في المنطقة ، والثانية الدول العربية « المعتدلة » والتي لا بد من تقويتها وتطويرها لتقف ضد القوى المتطرفة « الراديكالية » في المنطقة . ولقد أكد هارولد ساندرز بأنه لا بد من تعاون سلمي بين اسرائيل وجيرانها وكذلك دعم امريكي عسكري مستمر لتحقيق وضمان « عصر التعاون السلمي » في المنطقة[٣] .

وتعتبر مصر السادات الركيزة الاساسية في المعسكر العربي المعتدل . فبالدعم العسكري

والمالي الامريكي تصبح مصر قاعدة عسكرية امريكية لضمان « الامن والسلام » في المنطقة . ولقد ذكر الرئيس الامريكي جيمي كارتر بأن معاهدة السلام ستمكن مصر من استخدام خمسة ألوية مصرية كانت في الماضي تواجه القوات الاسرائيلية في سيناء ، لضمان السلام في المنطقة ومساعدة أية دولة في المنطقة تهدد بالعدوان[٤] .

وذكر المراقبون العسكريون بأن الحكومة الامريكية تساهم في تطوير هذه القوات لتصبح قوات وحدات مظلية وكوماندوز ، سريعة التحرك عن طريق طائرات النقل الحربية الامريكية[٥] . كما ذكرت تقارير اخرى بأن امريكا اصبحت شريكة السادات في تطوير اسلحته العسكرية وانها تساهم حاليا في بناء أجهزته الدفاعية[٦] . كما صرح المتحدث باسم وزارة الخارجية الامريكية بأن الحكومة الامريكية ستقوم بدفع ثمن الاسلحة التي ستشتريها مصر من الصين الشعبية ، وكذلك تحث امريكا حلفاءها على تقديم الاسلحة المتطورة لمصر . وأكد وزير الخارجية سايرس فانس في بيانه أمام لجنة الشؤون الخارجية بأن المساعدات الامريكية لمصر واسرائيل والتي تقدر بحوالي ٤ ونصف بليون دولار هي لمواجهة احتياجاتها الامنية الضرورية[٧] . واما السادات فلقد اشار صراحة في لقاءاته مع اعضاء الكونجرس الامريكي بعد توقيع معاهدة السلام بأنه يحتاج الدعم العسكري الامريكي لمواجهة خطر التغلغل السوفيتي في افريقيا وخاصة في ليبيا وتشاد واليمن الجنوبي[٨] . وبالاضافة لمصر تعمل الحكومة الامريكية على دعم المملكة السعودية باعتبارها ركيزة اساسية في المعسكر العربي المعتدل . ولقد أكد ذلك وزير الخارجية فانس في بيانه أمام الكونجرس الامريكي وذكر بأن السعودية تلعب دورا اساسيا في دعم الحل السلمي وفي مواجهة خطر الدول المتطرفة وخاصة العراق . وأكد ضرورة استمرار الدعم العسكري الامريكي للسعودية لتتمكن من مواجهة خطر العدوان من اليمن الجنوبي[٩] .

وأما الركيزة الاساسية الأخرى اسرائيل ، فأصبحت مرتبطة بأمريكا في معاهدة عسكرية بناء لاتفاقية التفاهم الامريكي ـ الاسرائيلي التي صدرت بعد توقيع الاتفاقية المصرية ـ الاسرائيلية . وبناء لهذه المعاهدة تتعهد امريكا بالتدخل العسكري المباشر لحماية اسرائيل من أي عدوان أو منعها من استخدام الممرات المائية .

كما تتعهد بتقديم الدعم العسكري في حالة الطوارىء ، وفرض العقوبات والقيود على أية دولة تدعم العدوان على اسرائيل[١٠] . وبذلك تؤكد الاتفاقية ما صرح به رئيس وزراء اسرائيل مناحيم بيغن بأن اسرائيل هي القاعدة الاساسية لحماية المصالح الامريكية ، ومصالح « العالم الحر » في منطقة الشرق الاوسط . وذكر امام اعضاء الكونجرس الامريكي بأن الاتحاد السوفيتي يهدد المنطقة ، وان « اسرائيل هي الحليف الحقيقي والقوى الذي يستطيع حماية الحرية »[١١]. وكان بيغن قد أشار مرارا الى استعداد اسرائيل انشاء قواعد عسكرية بحرية للاسطول السادس الامريكي خاصة في ميناء حيفا . وبذلك لم يكن من قبيل الصدفة أن يزور الاسطول السادس ميناء حيفا وان يقوم بيغن وجميع اعضاء وزارته وكبار العسكريين الاسرائيليين بالمشاركة في مناورة عسكرية قامت بها القوات البحرية الامريكية[١٢] .

وأكد المسؤولون الامريكيون التزامهم الأكيد بدعم اسرائيل عسكريا واقتصاديا . واشار

الرئيس جيمي كارتر الى التزام حكومته بدعم اسرائيل باعتبارها حليفا لامريكا ، وتقديم المساعدات لها لتبقى القوة الرئيسية في المنطقة[١٣] . وكرر وزير الخارجية فانس هذا التعهد عندما صرح أمام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس بأن « البرامج العسكرية الامريكية ستمكن اسرائيل من الاستمرار في تطوير اجهزتها العسكرية لمواجهة الاخطار التي تهدد أمنها في المنطقة »[١٤] . وكان فانس قد اكد عام ١٩٧٨ بأن اسرائيل عسكريا اقوى من أي وقت مضى ، وانه يجب دعم تفوقها العسكري في المنطقة وذلك بتقديم الاجهزة والمعدات والطائرات الامريكية الحديثة لها[١٥] . وقد بدأت امريكا بدعم مشاريع صناعة الاسلحة المتطورة في اسرائيل ، وعقدت معها عدة اتفاقيات في هذا المجال ، منها مشروع صنع الزوارق البحرية العسكرية ، وصنع الاجهزة الالكترونية لطائرات ف ــ ١٦ . كما وافق الرئيس كارتر على تقديم الدعم المالي لمشروع اسرائيلي لصنع الدبابات الاسرائيلية «Chariot» .

وفي الكونجرس الامريكي ، حيث يتمركز النفوذ الصهيوني يطالب معظم اعضاء الكونجرس وخاصة اعضاء لجان الشؤون الخارجية بالدعم الامريكي المطلق وغير المحدود لاسرائيل . ويردد هؤلاء الطلبات الصهيونية التي تركز على زيادة الدعم العسكري والاقتصادي لاسرائيل لتمكنها من حماية حدودها وتطوير اجهزتها الدفاعية ، ولتقوم بدورها الاستراتيجي في مواجهة خطر العدوان السوفيتي[١٦] . ويدعو السناتور كليفارد كيس الى المزيد من الدعم الامريكي لاسرائيل باعتبارها قاعدة هامة لحلف الناتو . ويؤكد كيس « بأن اسرائيل هي التي تجعل موقف الدول الغربية قويا في المنطقة . وهي اعظم قاعدة عسكرية لنا في المنطقة . وان حلف الناتو والجبهة الجنوبية لاوروبا تعتمد بشكل اساسي على اسرائيل »[١٧] .

ويدعو كل من السناتور جاكوب جافيتس والسناتور رتشارد ستون الى عدم الضغط على اسرائيل وتقديم المزيد من المساعدات المالية والعسكرية لها لتتمكن من القيام بدورها في مواجهة الخطر اليساري في المنطقة . ويطالب اعضاء الكونجرس الرئيس كارتر بعدم انتقاد اسرائيل وعدم الضغط عليها لتقديم التنازلات فيما يتعلق بالضفة الغربية وغزة . ويؤكد السناتور بوب باكوود « يجب ان يكون شعار امريكا عدم تخلي اسرائيل عن شبر واحد من الأرض بدون معاهدات سلام ملزمة وترضي اسرائيل »[١٨] . وهكذا يمثل الكونجرس الامريكي قوة مؤيدة كليا لاسرائيل وضاغطة على الرئيس الامريكي وعلى وزارة الخارجية ، تطالبهما بدعم اسرائيل الى اقصى الحدود ، وتعارض اية ضغوط امريكية على الحكومة الاسرائيلية .

دور الرأسمال الامريكي والاحتكارات الامريكية

من الواضح ان اتفاقيات كامب ديفيد ومعاهدة السلام المصرية ــ الاسرائيلية لا تهدف لاحلال السلام في المنطقة ، وانما تهدف الى اعادة ترتيب الاوضاع بحيث تتمكن امريكا من السيطرة على المنطقة وضمان مصالحها الاقتصادية وخاصة استمرار تدفق البترول . وبذلك تهدف الاتفاقية الى اقامة تحالفات أمنية جديدة في المنطقة ، ومن اهمها الحلف الامريكي المصري الاسرائيلي ، لحماية أمن المنطقة مما يراه الامريكيون « بالخطر السوفيتي » . ويشير المؤرخ جون كامبل الى ان الاضطرابات والقلاقل في لبنان وعمان وايران وراءها الاتحاد السوفيتي ، وانه يسيطر حاليا على افغانستان واليمن الجنوبي واثيوبيا . ويدعو الى اعداد القوة

الامريكية العسكرية لمواجهة هذا الخطر وتحذير الاتحاد السوفيتي بأن امريكا لن تقبل بالتدخل السوفيتي في المنطقة(١٩) . ولذلك اسرعت الادارة الامريكية في التوصل الى سلسلة تسويات بين مصر واسرائيل نتج عنها معاهدة السلام والتي تخلت كليا عن حقوق شعب فلسطين(٢٠) . من هذا المنطلق لن تحاول الادارة الامريكية حل المشكلة الفلسطينية لأنها تعتقد بأن أي كيان أو دولة فلسطينية سوف تخلق المشاكل والقلاقل في المنطقة ، وبالتالي فستعطي الاولوية لبناء التحالفات الامنية والعسكرية الجديدة والتي تعتمد على الوجود العسكري الامريكي . كما أنها تعتقد بأن الاتفاق المصري الاسرائيلي سيفتح المجال لتعاون اقتصادي يشارك فيه رأس المال الامريكي . وتركز الشركات والبنوك الامريكية على امكانيات الاستفادة في هذا المجال من الخبرة الاسرائيلية بالاضافة الى الايدي العاملة المصرية ، ودعا عدد من الاقتصاديين المصريين الشركات الامريكية للاستفادة من فرص الاستثمار في مصر في عهد الانفتاح والسلم الجديد(٢١) .

ومن جهة اخرى يؤكد الاقتصادي شارلز عيساوي بأن اموال السعودية وامكانيات السودان الزراعية ستلعب دورا هاما في تشجيع الرأسمال الامريكي والاوروبي في الاستثمار في مصر(٢٢) . وهناك ايضا دراسات ومشاريع اقتصادية اسرائيلية تهدف بالتعاون مع الشركات المصرية الى اقامة مشاريع اقتصادية لدعم وتطوير اقتصاد اسرائيل ، ومنها مشروع لتحويل مياه البحر المتوسط لري الاراضي الخصبة شرقي الضفة الغربية ، والاستفادة من مياه البحر الميت .

كما بدأت الشركات الامريكية الاستفادة من اتفاقية السلام وذلك بالحصول على مقاولات تقدر ببليون دولار لبناء قاعدتي الطيران الاسرائيلي الجديد في النقب . وبعض هذه الشركات يملكها امريكيون يهود لهم علاقات اقتصادية باسرائيل(٢٣) .

وأما بالنسبة للشركات الامريكية ، فلقد اصبح العالم العربي جزءا هاما من احتكاراتها ومشاريعها العالمية . واصبحت تعتمد على الاسواق العربية بشكل كبير . ولذلك اصبح الاقتصاد الامريكي والميزانية الامريكية تعتمد ايضا على الاسواق العربية ، واي خلل في هذه العلاقات يؤثر مباشرة على ميزانية المدفوعات الامريكية وعلى الاقتصاد الامريكي المحلي . وأكد هذا مساعد الخارجية الامريكية هارولد ساندرز عندما ذكر في تقريره السنوي للكونجرس الامريكي بأن دخل المبيعات الامريكية للشرق الاوسط بلغ عام ١٩٧٧ ١٢,٣ بليون دولار . وان الشركات العربية تشتري ما يزيد على ١٠٪ من الصادرات الامريكية كما ان هناك مئات الملايين من الدولارات التي تمثل الخدمات الامريكية في مجال الهندسة والاعمار والخبرات الفنية التي تدخل للميزانية الامريكية ، وبذلك تؤثر مباشرة على ميزانية التجارة الامريكية(٢٤) .

استراتيجية التدخل العسكري الامريكي المباشر

ولحماية هذه المصالح ، لم تكتف امريكا بالاعتماد على حلفائها في المنطقة مصر واسرائيل . وانما بدأت تطور قواها وامكانياتها العسكرية للتدخل المباشر للسيطرة على المنطقة . وهذا هو قلب الاستراتيجية الامريكية الجديد ــ تكثيف التواجد العسكري الامريكي في البحر الاحمر والبحر المتوسط والاعتماد على قواعد عسكرية بحرية وبرية لحماية منابع النفط

والجزيرة العربية . ولقد دار صراع بين مستشاري الرئيس كارتر حول تفاصيل هذه الاستراتيجية الجديدة . فشدد رئيس مجلس الامن القومي برزنسكي على ضرورة الاعداد « للتدخل المباشر » وتطوير القدرة العسكرية في منطقة الشرق الاوسط لتقوم بحماية المنطقة ومواجهة التغلغل السوفيتي . بينما دعا وزير الخارجية فانس الى عدم التدخل المباشر والتخفيف من الاعتماد على القوة العسكرية الامريكية ودعم الانظمة العربية لتطور امكانياتها العسكرية . واستطاع برزنسكي بدعم من عسكريي البنتاجون الامريكي وبسبب الاعتماد الامريكي المتزايد على البترول العربي من اقناع الرئيس كارتر بدراسة اقتراحاته(٢٥) كما ساعده على ذلك اللوبي الصهيوني الذي يريد مواجهة السوفيت والحد من نفوذهم في منطقة الشرق الاوسط وساهم الاعلام الصهيوني في خلق رأي عام شعبي يعارض سياسة الاتحاد السوفيتي ويطالب بمواجهتها بالقوة العسكرية وعدم التراجع امامها(٢٦) وتحالفت المنظمات الصهيونية في هذا المجال مع القوى اليمينية والمحافظة وخاصة في الحزب الديمقراطي والجمهوري والتي انتقدت سياسة الرئيس كارتر بشدة واتهمته بانه ضعيف امام الاتحاد السوفيتي ويقدم التنازلات ويتراجع امام المد السوفيتي في افريقيا وآسيا(٢٧) .

ولقد بدأ الرئيس كارتر بتنفيذ بعض اجزاء هذه الاستراتيجية الجديدة ، وذلك بتحريك قطع من الاسطول الامريكي السابع والسادس خاصة خلال الحرب القصيرة بين اليمن الشمالي والجنوبي وارسال الخبراء والطيارين لليمن الشمالي ، والتهديد بالتدخل المباشر في القتال لمواجهة الطيارين السوفيت والكوبيين(٢٨) .

وتتلخص الخطة العسكرية الامريكية للتدخل في الشرق الاوسط في انشاء قيادة عسكرية جديدة مختصة بالشرق الاوسط ورشح لرئاستها الجنرال رالف لورانس الذي يشارك في المفاوضات العسكرية بين مصر واسرائيل والذي يرأس حاليا بعثة عسكرية امريكية لتطوير السلاح السعودي . ويكون لدى هذه القيادة قوة مقاتلة تتكون من مئة الف مقاتل لحرب الصحراء ، بالاضافة الى انشاء قوة حربية جديدة تتواجد في البحر العربي ومضيق عمان وتعتمد على قواعد بحرية في المحيط الهندي وجزر ديجو جارسيا(٢٩) . ولقد ساهم في وضع هذه الخطط وزارة الدفاع وكذلك سلاح الطيران والبحرية والبرية ، وسميت هذه الخطة العسكرية « بالحرب المحدودة » لأنها تعني التدخل السريع في الخليج العربي لحماية المناطق الحساسة البترولية(٣٠) .

وتهدف هذه الخطط العسكرية الامريكية الى « حماية » النفط والتدخل المباشر في الجزيرة العربية ،وكذلك الى حماية الاتفاقية المصرية ــ الاسرائيلية ودعمها بقوة عسكرية امريكية ضارية تكون مستعدة لمساعدة اسرائيل ومصر مباشرة . ولقد اشار السناتور الامريكي جيسي هيلمز الى أن امريكا قد تعهدت رسميا بدعم اسرائيل عسكريا بالتدخل المباشر لردع أي عدوان عربي واستخدام القوات الأمريكية الجديدة والأسطول الأمريكي الجديد في المنطقة لحماية اسرائيل ودعم اتفاقية السلام . وذكر السناتور هيلمز بأن أمريكا تتحمل أيضا مسؤولية تسليح اسرائيل بالأسلحة الذرية ، وان اتفاقية كامب ديفيد ستلحق اضرارا بالغة بالمصالح الامريكية بسبب الحرب القادمة والدمار الذي ستحدثه في المنطقة والاصطدام مع الاتحاد السوفيتي(٣١) .

من الواضح أن الخلاف بين وزير الخارجية فانس والمستشـــار برزنسكي حول

الاستراتيجية الامريكية واتجاه الادارة الامريكية نحو اعتماد سياسة التدخل المباشر والتخلي كليا عن الحل الشامل وحل القضية الفلسطينية ، نتج عنه استقالة عدد من مستشاري مجلس الأمن القومي ، ومنهم وليم كوانت . وكان كوانت من دعاة حل القضية الفلسطينية والاعتراف بحقوق الشعب الفلسطيني وعدم الدخول في صدام مع منظمة التحرير والدول العربية الاخرى وخاصة السعودية . وبالرغم من أن وزير الخارجية فانس أكد في خطابه في بئر السبع على ضرورة حل « مشكلة الحقوق القومية لشعب فلسطين » ، الا أن هذا مجرد تغطية للموقف الأمريكي الحقيقي الذي لا يريد حل المشكلة الفلسطينية ، ويعطي الأولوية الآن لفرض الهيمنة الأمريكية على المنطقة . ولقد أكد هذه النظرية السناتور هيلمز حينما ذكر بأن أمريكا « تجاهلت المشكلة الفلسطينية وأجلت الى الأبد امكانية احلال سلام شامل وعادل في المنطقة يشمل الفلسطينيين »(٣٢) .

ولقد جاء تعيين المستشار اليهودي روبرت ستراوس وعدد من اليهود الصهاينة في مجلس الأمن القومي دليلا على تمكن اللوبي الصهيوني من السيطرة على القرار الأمريكي وتجاهل حل المشكلة الفلسطينية . هذا بالاضافة الى تصريح وزيرا لخارجية فانس بأنه لن يستمر في منصبه بعد عام ١٩٨٠ ، واستعداد الرئيس كارتر لدخول الانتخابات يضيف الى قوة اللوبي الصهيوني وتمكنه من السيطرة على القرار الامريكي فيما يتعلق بالشرق الاوسط .

المعاداة الكاملة لمنظمة التحرير الفلسطينية

ضمن هذه الاستراتيجية الامريكية الجديدة ، تحاول المنظمات الصهيونية والقوى الامريكية اليمينية والعسكرية اخراج منظمة التحرير والشعب الفلسطيني من العودة كليا . فركزت الدعاية الصهيونية على ان المنظمة تمثل قوة « ارهابية » « متطرفة » في المنطقة مدعومة من الاتحاد السوفيتي – وتهدد بذلك المصالح الامريكية وحلفاء أمريكا في المنطقة .

وركزت اسرائيل ومنظماتها الصهيونية في أمريكا على موضوع « الدولة الفلسطينية » التي ستكون حسب ادعائهم قاعدة للسوفيت في المنطقة وتهدد بذلك أمن وسلامة اسرائيل والدول العربية الأخرى بما فيها الأردن ومصر. وأشار بيان الجميعة الأمريكية الاسرائيلية السنوي الى ان « أي دولة في الضفة الغربية بقيادة منظمة التحرير ستصبح قاعدة ارهابية سوفياتية ، هدفها القضاء على اسرائيل وقلب أنظمة الحكم العربية المجاورة »(٣٣) . وبسبب الضغط الصهيوني ، ردد معظم أعضاء الكونجرس الأمريكي هذه النظرية الاسرائيلية . واتخذ الكونجرس الأمريكي عدة قرارات هامة تؤكد معارضته لمنظمة التحرير ، أهمها قرار بمطالبة وزارة الخارجية بعدم السماح لممثلي المنظمة بدخول أمريكا ، وقرار بقطع المساعدات الامريكية عن لجنة تنفيذ حقوق شعب فلسطين في الأمم المتحدة ، وتوصيات رفعت للرئيس كارتر بعدم الضغط على اسرائيل للانسحاب من الضفة الغربية وغزة واقامة دولة فلسطينية تكون خطرا على أمن واستقرار اسرائيل(٣٤) . وهاجم عدد من أعضاء الكونجرس ، خاصة اليهود ، منظمة التحرير متهمينها بأنها تابعة للسوفيت وانها تعمل من أجل خلق المشاكل والاضطرابات في المنطقة . واتهم السناتور اليهودي رتشارد ستون المنظمة بأنها « عميلة للسوفييت » وبأنها تتعاون مع اليمن الجنوبي لضرب المصالح الامريكية ، كما حاول عدد من أعضاء الكونجرس

الضغط على الحكومة الامريكية للاقرار بأن المنظمة « ارهابية » وتعرض وزير الخارجية فانس ومساعدوه هارولد ساندرز والفرد اثرتون لضغوط شديدة من السناتور الصهيوني جاكوب جافيتس ورتشارد ستون خلال جلسات لجان الشؤون الخارجية تهدف الى حملهم على الاقرار بأن المنظمة ارهابية ، ولكن ساندرز اجاب بأنها اطار واسع يشمل المنظمات الارهابية ، ولكنه أكد بأن داخل المنظمة هناك افراد « معتدلون » ويجب التعامل معهم وتشجيعهم[٣٥] . وبذلك حاولت وزارة الخارجية تصنيف الافراد داخل المنظمة واختيار من تود التحاور معهم هذا بالاضافة الى اتجاهها مؤخرا نحو محاولة الحوار مع رؤساء البلديات والشخصيات الهامة في الضفة الغربية وغزة في محاول يائسة ، لايجاد قيادات بديلة لمنظمة التحرير . ولقد باءت هذه المحاولات بالفشل امام اصرار جميع رؤوساء البلديات في الارض المحتلة على أن الممثل الوحيد والشرعي لشعب فلسطين هو منظمة التحرير الفلسطينية[٣٦] .

واما الاقلية الامريكية التي تدعي التعاطف مع شعب فلسطين داخل الكونجرس الامريكي او خارجه ، فهي ايضا تحاول فرض الشروط على منظمة التحرير وتطالبها بالاعتراف بقرار الامم المتحدة ٢٤٢ والاعتراف باسرائيل والدخول في المفاوضات مع اسرائيل للحصول على الحقوق الفلسطينية . ولقد دعا النائب بول فندلي منظمة التحرير الى اتخاذ سياسة واقعية والاعتراف بقرار ٢٤٢ والدخول في حوار غير رسمي مع الحكومة الامريكية من أجل الحصول على اعتراف امريكي بالمنظمة[٣٧] . كما دعت منظمة العرب الامريكيين الى اعتراف متبادل بين امريكا والمنظمة ، على اساس ان تعترف المنظمة بقرار ٢٤٢ مقابل اعتراف امريكا بمنظمة التحرير كممثل لشعب فلسطين . ومن الواضح ان هذه المواضيع كالدوران في حلقات مفرغة فالحكومة الامريكية قد وضعت استراتيجية جديدة لا مكان فيها لمنظمة التحرير . ومن منطلق هذه الاستراتيجية ، تعتبر امريكا المنظمة قوة متطرفة معادية ، ولذلك لا بد من مواجهتها والقضاء عليها من أجل احكام السيطرة الامريكية على المنطقة العربية .

نحو استراتيجية العمل الفلسطيني في امريكا

على العمل الفلسطيني في امريكا اعتماد استراتيجية جديدة ، تنطلق من معرفة حقيقة موقف الامبريالية الامريكية ، وسياستها الواضحة في ضرب جميع حركات التحرر والتقدم والسلام في العالم . من هذا المنطلق يجب ان تتجه القوى والمنظمات الفلسطينية نحو تحالفات وتعاون مشترك مع القوى التقدمية وقوى التحرر في مريكا التي تناضل ضد قمع وارهاب السلطة الامريكية . وأهم هذه القوى حركات واحزاب السود التي تناضل من أجل تحرر الامريكي الاسود وتدرك طبيعة النظام الامريكي ووسائل مواجهته ، وكذلك قوى واحزاب الاقليات المضطهدة في امريكا ومنها الامريكيين من أصل أسباني ، والهنود الحمر . ويكون هؤلاء قوى جديدة مناضلة ترفع راية التحرر والتقدم . هذا بالاضافة الى القوى والاحزاب اليسارية والشيوعية التي تدرك طبيعة النظام الامريكي والتي يمكن ان تساند الثورة الفلسطينية ، بالرغم من قلتها وتشرذمها في الساحة الامريكية .

واما الحركة العمالية ، فان قياداتها هي جزء من الطبقة الحاكمة وبالتالي تساند كليا اسرائيل وتدعمها بشكل قوي . لذلك لا بد من العمل مع القواعد العمالية والحركات العمالية

المتمردة على قياداتها ، ويمكن في هذا المجال اقامة تحالفات وتعاون بين العمال العرب والفلسطينيين خاصة في المدن الصناعية كديترويت والقواعد العمالية الامريكية .

ان هذا العمل الفلسطيني هو محدود الهدف ، خلق قوى سياسية مناصرة لمنظمة التحرير والثورة الفلسطينية يمكنها ان تناضل من داخل المجتمع الامريكي ضد السياسة الامريكية الامبريالية والعسكرية . واما الاعتقاد بأنه يمكن تغيير السياسة الامريكية وخاصة في الكونجرس الامريكي أو البيت الأبيض عن طريق اللوبي العربي أو النفوذ العربي المالي ، فهذه نظرة سطحية وخاطئة ولا يمكن ان تحقق أي مكاسب في ظل نظام امريكي امبريالي معادي لاماني الامة العربية في الحرية والتقدم والسلام .

ان من يعتقد بأن علاقات امريكا مع العالم العربي يمكن ان تقوم على « اساس المساوات والاحترام والمصالح المشتركة » لمخطيء تماما[٣٨] . ان الدراسة العلمية للاستراتيجية الامريكية الراهنة تؤكد بأن امريكا تريد السيطرة على المنطقة واستغلال طاقاتها وارهابها بالقوة العسكرية . كما أن هذه الاستراتيجية تعتمد على تقسيم الامة العربية بين « معتدل » و « متطرف » ودعم ما يسمى بالمعتدلين بالسلاح الامريكي لتعميق الصراعات في الوطن العربي . واما القضية الفلسطينية ، فحلها هو بمزيد من الدعم العسكري والمالي لاسرائيل وضمان أمنها واستقرارها في المنطقة وارغام العرب والفلسطينيين على الاعتراف بها .

ان الامبريالية وشركات الاحتكار الامريكية لا ترسم سياستها على اساس « الصداقة والمساواة والاحترام » وانما السيطرة والاستغلال واستخدام القوة العسكرية . وتتحرك بسرعة لضرب وتصفية كل القوى التقدمية والوطنية التي تقف في طريقها . لذلك فان الاعتقاد بأن مخاطبة الحكومة الامريكية بلغة « الصداقة والمصالح المشتركة »، خاطيء كليا . وان الصراع الجديد القادم في المنطقة العربية سيبرهن بان الرد الوحيد على الامبريالية هو بتصعيد النضال العربي والعالمي لهزيمتها ونحر مخططاتها العسكرية والاحتكارية .

الحواشي

(١) بيان مساعد وزير الخارجية الامريكية هارولد ساندرز امام لجنة العلاقات الخارجية لمجلس النواب الامريكي ، ١٢ حزيران (يونيه) ١٩٧٨ ، و ١٢ شباط (فبراير) ١٩٧٩ .

(٢) بيان وزير الخارجية الامريكية سايرس فانس امام لجنة الشؤون الخارجية لمجلس النواب الامريكي ٨ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٣) بيان هارولد ساندرز ، ١٢ حزيران (يونيه) ١٩٧٨ .

(٤) « الدور المصري الجديد كما يراه السادات » **نيويورك تايمز** ، ٨ آذار (مارس) ١٩٧٩ .

(٥) **المصدر نفسه** .

(٦) وذكرت جريدة واشنطن بوست بأن الحكومة الامريكية ارسلت فريقا من خبراء الدفاع الجوي للتعاون مع مصر في الشؤون العسكرية المتعلقة بالصواريخ **واشنطن بوست** ، ١٩ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ .

(٧) واوضح بأنها حوالي ٣ بليون دولار لاسرائيل ، وبليون ونصف دولار لمصر . ومنها ٨٠٠ مليون دولار بشكل منح لمساعدة اسرائيل في بناء قاعدتي الطيران الحربي في النقب . بيان وزير الخارجية الامريكي سايرس فانس امام لجنة

الشؤون الخارجية بمجلس النواب . ٨ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٨) واشنطن بوست بتاريخ ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ . كما ذكر الصحفي رولاند ايفانز بأن السادات قد يهاجم ليبيا لاحياء الشعور القومي المصري **واشنطن بوست** ، ٢٠ ايار مايو ١٩٧٩.

(٩) بيان وزير الخارجية الامريكي سايرس فانس امام لجنة العلاقات الخارجية بالكونجرس ، ٣ ايار مايو ١٩٧٩ .

(١٠) ورقة الاتفاقية بين الولايات المتحدة واسرائيل . نشرة الشرق الاوسط ، ٤ ابريل ١٩٧٩ . ولقد اعتبرت مصر بأن الاتفاقية تعتبر معاهدة عسكرية بين امريكا واسرائيل وانها كما ورد في رسالة رئيس الوزراء مصطفى خليل للخارجية الامريكية « موجهة ضد مصر» **نيويورك تايمز** ٢٩ آذار (مارس) ١٩٧٩ .

(١١) وذكر الرئيس السادات نفس الموضوع في لقاءاته مع اعضاء الكونجرس بعد توقيع اتفاقية السلام ، اذ اكد بأن الخط السوفيتي يهدد منطقة الشرق الاوسط ، وبأن مصر ستلعب دور القوة العسكرية لمواجهة هذا الخطر الحقيقي . « بيغن والسادات يزورا الكونجرس » **واشنطن بوست** . ٢٨ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ .

(١٢) ذكر بيجن بعد مشاهدة العرض العسكري الامريكي من على حاملة الطائرات النووية ايزينهاور والذي استخدمت فيه الصواريخ والقنابل والطائرات الامريكية بأنه يرحب بالاسطول السادس في ميناء حيفا في اي وقت ، وبأن البحرية الامريكية قد حمت وضمنت اتفاقية السلام . واشنطن بوست ١١ ايار (مايو) ١٩٧٩ . كما أشارت دراسة لجنة الشؤون الخارجية بالكونجرس الامريكي بأن اسرائيل والأراضي المحتلة فيها مناطق عديدة لانشاء قواعد عسكرية ، وخاصة ميناء حيفا الذي يمكنه ان يستقبل الاسطول السادس وكذلك ميناء اشدود . راجع دراسة « السياسة الامريكية الخارجية والقواعد العسكرية الخارجية » لجنة الشؤون الخارجية للكونجرس الامريكي (ابريل ١٩٧٩) . ص ، ٨٠ .

(١٣) من نص خطاب الرئيس جيمي كارتر في حفل الترحيب بمناحيم بيغن وزعماء اليهود ، البيت الابيض ، ١ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(١٤) وذكر فانس بأن اسرائيل تقدر المساعدات العسكرية المباشرة بحوالي ٤ بليون دولار . بيان وزير الخارجية فانس امام لجنة الشؤون الخارجية ، ٨ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(١٥) بيان وزير الخارجية فانس امام لجنة الشؤون الخارجية ، ٣ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(١٦) يركز بأن لجنة العلاقات الاسرائيلية التي تمثل اللوبي الصهيوني بواشنطن على هذه النقاط ويذكر « بأن اسرائيل تلعب دورا رئيسيا واستراتيجيا في خط الدفاع امام خطر العدوان السوفيتي » . **نشرة الشرق الاوسط** ، ١٦ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(١٧) « مراحل السلام في الشرق الاسوط » ، مناقشات اللجنة الفرعية للجنة العلاقات الخارجية في الكونجرس الامريكي . ٢٨ حزيران (يونيه) ١٩٧٨ . ص ١٢ . وذكرت نشرة السياسة العالمية بأن اسرائيل تقدمت ايضاً بطلب منع طائرات (ف ــ ١٦) بالاشتراك مع امريكا ، وكذلك صنع شبكة اتصالات عسكرية ، ولكن الحكومة الامريكية لم توافق على الطلب . **نشرة الدراسات العالمية** ، واشنطن ايار (مايو ١٩٧٩) ص ١٤ .

(١٨) خطاب السناتور بوب باكوود امام لجنة العلاقات الامريكية الاسرائيلية . **نشرة الشرق الاوسط** ، ٢٢ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(١٩) جون كامبل « الشرق الاوسط ، مشاكل الامبراطورية » ، مجلة **الشؤون الخارجية** ، المجلد ٥٧ ، العدد الثالث ١٩٧٩ .

(٢٠) أكدت ذلك مقالة هامة في جريدة **كرستيان ساينس مونيتور** ، بتاريخ ٨ آذار (مارس) ١٩٧٩ .

وذكرت المقالة بأن الرئيس كارتر يعطي الأولوية الآن للأتفاق المصري ــ الاسرائيلي وسيكون ذلك على حساب الفلسطينيين الذين لن يقدم لهم اي شيء حقيقي .

(٢١) راجع في هذا المجال الدراسة الخاصة عن امكانيات التعاون والاستثمار الاقتصادي في مصر واسرائيل في العهد الجديد . ويدعو الدكتور ابراهيم عويس الرأسمال الامريكي الى الاستفادة من فرص الاستثمار في مصر السادات ، كما يركز وزير الاقتصاد المصري حامد السيد على دور البنوك

الامريكية في دعـم الاقتصـاد المصري . « مصر واسرائيل احتمـالات العهـد الجديـد » . مجلـة **واشنطن** ، ربيع ١٩٧٩ .

(٢٢) **المصدر نفسه** ، ص . ١٧ .

(٢٣) ذكرت نشرة الشرق الأوسـط اسمـــاء الشركات الامريكية التي حصلت على المقاولات لبناء قاعدتي الطيران وهي التالية :

Negev Airbase Constructors, Perini Corps. of Framingham, Mass., Harbart Construction Co. of Birmingham, Ala.,

Paul N. Howard Co. of Greensboro, N.C. and Louis Berger International, Inc. of East Orange, N. J.

العدد ٢١ ـ ٢٢ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٢٤) بيان مساعد وزير الخارجيـة هارولـد ساندرز ، ١٢ حزيران (يونيه) ١٩٧٩ .

(٢٥) نشر الصحفي جيم هوجلاند تفاصيل هذا الصراع وتفاصيل خطط التدخل الامريكي العسكري المنطقة بالتفصيل ، تحت عنوان « خطة كارتر تجاه بترول الشرق الاوسط » . **واشنطن بوست** ، ٣ حزيران (يونيه) ١٩٧٩ . كمـا نشرت مكتبـة الكونجرس الامريكي دراسة تفصيلية عن خطـط استخدام القوات الامريكية لاحتلال منابع النفط ، ومواجهة الانقلابات السياسية في المنطقة ومواجهة الاتحاد السوفيتي عسكرياً . وتدعو الدراسة الى انشاء قوات عسكرية خاصة لهذه المهام . « ايرادات النفط من الخليج : استخدام القوات العسكريـة الامريكية لضمانها » . جون كولنز - قسم دراسات الامن القومي ، مكتبة الكونجرس ٤ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٢٦) دعت الجمعية الامريكية ـ الاسرائيليـة التي تمثل اللوبي الصهيوني في مؤتمرها السنوي الى مواجهة العدوان السوفيتي بخطة دفاعية قوية ، والى زيادة مخصصات ميزانية الدفاع الامريكية لمواجهة السوفيت ، كما دعت الى الضغط على السوفيت عن طريق اتفاقية السولت للسماح ليهـود الاتحـاد السوفيتي بالهجرة الى اسرائيل . البيان السياسي للجمعية الامريكيـة الاسرائيليـة . نشرة **الشرق الاوسط** ، ١٦ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٢٧) راجع تصريحات زعماء الحزب الجمهوري المحافظين ومنهم رولاند ريجان والسناتور بوب بيكر والسناتور بوب دول والمرشحين لمنافسة الـرئيس كارتر في انتخابات الرئاسة عام ١٩٨٠ .

(٢٨) ذكر الصحفي جيم هوجلاند ان الكونجرس الامريكي كان مستعدا لاقرار حق الرئيس كارتر في استخدام ٨٥ طائرة حربية لمواجهة السوفيت في اليمن الجنوبي . **واشنطن بوست** ، ٣ حزيران (يونيه) ١٩٧٩ .

(٢٩) **المصدر نفسه** ، ص ٢ .

(٣٠) نشرت جريدة **نيويورك تايمـز** ايضـا تفاصيل الخطط العسكرية الامريكية ، ٢٠ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ . كمـا نشرت مجلـة **Fortune** الامريكية تفاصيل التدخل العسكري الامريـكي المباشر في الجزيرة العربية بما فيها احتلال الرياض من الجو والانزال البحري واحتلال مضيق هرمز ، واحتلال منابع النفط ، وكذلك قصـف القـوات العراقية من الجو والانزال العسكري الامريكي في الكويت . مجلة **Fortune** ، ٧ ايار (مايو) ١٩٧٩ ، صفحة ١٥٥ ـ ١٦٠ .

(٣١) لذلك عارض السناتور جيسي هيلمز معاهدة السلام واتفاقيات كامب ديفيد وصوت ضدها في الكونجرس الامريكي . راجع خطابه الشامـل . **تقرير الكونجرس** ، المجلد ٢١٢٥ ، العدد ٦٠ ، ٤ ايار (مايو) ٧٩ .

(٣٢) **المصدر نفسه** .

(٣٣) بيان الجمعية الامريكية الاسرائيلية . نشرة **الشرق الاوسط** ، ١٦ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٣٤) قدم مشروع قرار منع ممثلي المنظمة من دخول امريكا النائب اليهـودي ستيفـن سولارز والنائب اليهودي ادوارد ديرونسكي . كمـا قدم مشروع قطع المعونة الامريكية بمبلغ ١٥٠ الف دولار عن اللجنة الخاصة لحقوق شعب فلسطين في الأمم المتحدة النائب الصهيوني لسترولف . نشرة **الوكالة اليهودية** ، ٢٧ نيسان (ابريل) ١٩٧٩ .

(٣٥) راجع بيان وزير الخارجية فانس نشرة **الشرق الاوسط** ، ٢٤ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٣٦) خلال زيارته لواشنطن اكد رئيس بلدية حلحول محمد ملحم لمن قابلهم من الكونجـرس الامريكي ومسؤولي الخارجية الامريكية بأن الممثل الشرعي والوحيد للفلسطينيين هو منظمة التحرير ،

ولا بد من الاعتراف بها والاعتراف بحق شعب فلسطين في تقرير المصير واقامة دولته المستقلة .

(٢٧) راجع نص خطاب النائب بول فندلي في المؤتمر السنـوي لاتحـاد العـرب الامريكيـين . **واشنطن**. ٧ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

(٢٨) راجع خطاب الدكتور هشام شرابي رئيس جمعية العرب الامريكيين والذي يقول فيـه « ان موقفنا السياسي يستند على وجود علاقات طيبة بين الولايات المتحدة والعالم العربي لمصلحة الشعب العربي والشعب الامريكي والسلام العالمي . ولكن اواصر العلاقات الطيبة بين الجانبين تتعرض حاليا لتهديد خطير بسبب ادارة كارتر في العالم العربي » ، جريدة **الشرق الاوسط** ، ١٥ ايار (مايو) ١٩٧٩ .

شفيق الحوت *

"المقصلة" التي أسموها "الحكم الذاتي"

ورد في الاطار السياسي « لاتفاقيتي كامب دافيد » ، الذي اعتمد مرجعا اساسيا لمعاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية ، بند اطلق عليه تجاوزا : « الحكم الذاتي » .

ولا شك ان اطراف « كامب دافيد » قد اختارت هذه التسمية بوعي وعن قصد ، لتحقق مجموعة من الاهداف :

اولها ، للتمويه على حقيقة المضمون السياسي لهذا البند ، والمناقضة لكل مفاهيم « الحكم الذاتي » المعروفة في الكتب او الممارسة على الارض .

وثانيها ، لخداع الرأي العام العالمي والعربي ، وأيهامه بأن اطراف « الكامب » لم تستهدف حلا جزئيا او صلحا منفردا بين مصر واسرائيل ، وانما تستهدف الحل الشامل « لازمة الشرق الاوسط » بما في ذلك جوهر ولب هذه الازمة اي قضية فلسطين .

وثالثها اعلامي ، بهدف الترويج لبضاعة مرفوضة باسمها الحقيقي ، فغلفوها باسم آخر قادر على ايجاد بعض الاسواق التي قد تقبل به ، او على الأقل لا تبادر الى رفضه . وكلنا يعلم مدى التأثير الرهيب لوسائل الاعلام الغربية وقدرتها على التسويق ، في عالم تكتفي قطاعات واسعة منه « بعناوين » القضايا والحلول دون التلفت الى المضمون .

واذا كان بعض المعلقين والسياسيين من بيننا ، وقع في خطأ اعتماد هذه التسمية فروج لها من حيث يريد فضحها وكشفها ، فان العديدين من المعلقين الاميركيين والاوروبيين الذين سبق لهم ان تعاطفوا معنا ، ومنهم من قاسى بسبب ذلك ، وجدوا في توقيع السادات والتنازلات التي قدمها ، مناسبة للتحلل مما سبق ان التزموا به ، وتحولوا الى دعاة للحل الاميركي ـ الصهيوني ـ المصري ، ويحاولون استثمار هذه التسمية الخادعة لتصوير المضمون على غير حقيقته بقصد تزيينه وتمريره .

واحد من هؤلاء المعلقين قال لي ذات يوم ساخرا : لقد بقيتم انتم العرب تضعون كلمة

اسرائيل بين مزدوجين اكثر من ثلاثين سنة ، ومنكم من لا يزال يضعها حتى الآن . وباستطاعتكم اليوم ان تضعوا مصطلح « الحكم الذاتي » كذلك بين مزدوجين ، ولكن هذا لن يغير من الأمر اكثر مما غيرت مزدوجاتكم السابقة .

ولذلك وقبل الخوض في تفاصيل هذا البند وتبيان اسباب رفض شعبنا له ، وحتى لا يتبادر لبعض الاذهان مثل ما تبادر لهذا المعلق ، ان القضية التي نناقشها هنا هي أي نوع من انواع الحكم الذاتي نقبل وايها نرفض ، لا بد من المبادرة لتحديد موقفنا المبدئي الرافض لاي نوع من انواع الحكم الذاتي بما في ذلك ارقى انواعه ، والتأكيد أن هدف شعبنا الاستراتيجي الذي ناضل ولا يزال يناضل من اجل تحقيقه ، وعلى امتداد اكثر من ستين سنة ، هو الاستقلال الوطني الكامل ، اي اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة ذات السيادة الكاملة وغير المنقوصة فوق ترابها الوطني . وهو هدف مشروع وحق ثابت ، وليس في الدنيا من لم يعترف لنا به باستثناء دولة الكيان الصهيوني وحليفتها الاستراتيجية والتاريخية الولايات المتحدة .

اذن ، ومن هذا المنطلق ، وبهذا الفهم لهدفنا الوطني والقومي ، يندرج رفضنا للحكم الذاتي ، وبشكل اعنف واصرح لهذا « الحكم الذاتي » بالذات الذي يصل بالمؤامرة الصهيونية الامبريالية الى ذروتها الاجرامية ، الطامعة « بتشريع فلسطيني » لتكريس احتلال كامل التراب الفلسطيني واغتصاب كل حقوق شعب فلسطين الانسانية والوطنية بما في ذلك هويته التي يعرف فيها بين الشعوب .

ولما كان الهدف من هذا الحديث ، تحديدا ، هو الرد على الاقلام والتصريحات التي تحاول الترويج « لاتفاقيتي كامب دافيد » واطارها السياسي ، وكلها تقوم على الكذب والخداع والتمويه ، لا بد من استهلال الحديث بكلمة عامة عن موضوع « الحكم الذاتي » ، اي « حكم ذاتي » قبل الرد المباشر على ما اسموه زورا بهذه التسمية .

عرفت البشرية نوعين اساسيين من « الحكم الذاتي » :

النوع الأول : جاء وليد الارادة الاستعمارية والطغيان الاوروبي بالذات ، عندما كانت اوروبا في ابان جبروتها . فحيث كانت تعجز الدولة الاستعمارية ، لسبب او لآخر ، عن ممارسة استعمارها بشكل مباشر ، فتلحق البلد المستعمر (بفتح الميم) بادارتها المباشرة ، كانت تلجأ الى صيغ ملتوية لتحقيق اهدافها ، منها صيغة « الحكم الذاتي » ، فتمنح المواطنين بعض حقوقهم في ادارة شؤونهم الحياتية والثقافية والادارية ، واحيانا حتى السياسية الداخلية ، شرط ان يبقى هذا كله داخل دائرة الهيمنة الاستعمارية ولا سيما فيما يتعلق بقضايا السيادة والاستقلال السياسي والاقتصادي .

وليست صيغة « الانتداب » الا نوعا آخر من هذه الصيغ الملتوية لفرض الارادة الاستعمارية بعد ايجاد المبررات الكاذبة لها . ولعل تاريخ الاستعمار البريطاني بالذات ، هو خير دليل على هذه الالاعيب السياسية ، اذ ما من بلد حل فيه البريطانيون – بهدف تمكين شعبه عن طريق تلك الصيغ وتأهيله للاستقلال وقيادة نفسة (!) – الا وكانت نهايته الانهيار والانقسام وربما الضياع الكامل كما حدث في فلسطين .

اما النوع الثاني الذي عرفناه ، فلقد جاء نتيجة شبه حتمية في مناطق تميزت اطرها

وحدودها السياسية بتكوينات ديموغرافية متعددة . اذ ان نشوء الامم ونشوء الدول ، ولا سيما في العالم القديم ، لم يسيرا بخطى متوازية دائما ، مما فرض تواجد اقليات قومية ، ذات سمات حضارية وثقافية خاصة ، ضمن حدود دول من قومية اخرى . ومع انحسار المد القومي العنصري ، وتقدم العلاقات الطبقية والانسانية ، جاء هذا النوع من « الحكم الذاتي » ليمنح هذه الاقليات حقوقها القومية الكاملة (ليس دائما) ولكن شرط بقاء الولاء التام للسلطة المركزية للدولة والحفاظ على الخريطة الجغرافية لها . وبقدر ما يمكن للمراقب المتجرد ان يتعاطف مع مطالب الاقليات القومية ولا سيما التراثية والثقافية واللغوية ، الا انه في نفس الوقت لا يستطيع ان لا يقدر المخاوف التي تبديها الحكومة المركزية عادة من ان تتطور تلك المطالب الى مطالب انفصالية يترتب عليها تغييرات جذرية في الخرائط المعاصرة . والحقيقة ان المطلوب ، وبالحاح ، هو ايجاد المعادلة الحضارية المتقدمة لحل هذا النوع من المشكلات التي تتعلق بالاقليات القومية والدينية ، وبشكل تقدمي يرفض الانسياق وراء الشوفينية الضيقة والقومية المتعصبة .

هذان هما النوعان الاساسيان « للحكم الذاتي » المعروف والممارس في الخريطة السياسية ، فاذا ما انتقلنا الى موضوعنا بالذات ، موضوع « الحكم الذاتي » المشار اليه في الاطار السياسي « لاتفاقيتي كامب دافيد » نجد انه لا يمت باية صلة لاي من هذين النوعين من انواع الحكم الذاتي المعروفة والممارسة ، لا من حيث الشكل ولا من حيث المضمون ، ولا من حيث الاسباب او المبررات التي تدعو لاقامته . هناك صلة واحدة تربطه بالنوع الأول الذي افرزته الارادة الاستعمارية اي صلة التحايل بقصد فرض هذه الارادة ولكن بصيغة غير مباشرة تكون قابلة « للأخذ والرد » ولو من حيث الشكل في بقايا المجتمعات والدوائر الاستعمارية العريقة .

ومع ذلك تبقى جميع الصيغ الاستعمارية السابقة اقل طغيانا وظلما ووحشية ــ هذا اذا جاز مثل هذه المقارنات اصلا ــ اذا ما قورنت بالصيغة التي تبناها الاطار السياسي « لاتفاقيتي كامب دافيد » حتى لم يعد ثمة علاقة بين تلك الصيغة والاسم الذي اطلقوه عليها . واذا كان لا بد من اطلاق اسم عليها فلا بد من نحت كلمة جديدة لم يسبق ترددها في القاموس الاستعماري كله بما في ذلك ابشع مصطلحاته وتسمياته .

مرة ثانية ، وقبل الخوض في تحليل « الصيغة ــ المؤامرة » لما اسموه ببند « الحكم الذاتي » ، لا بد من الاشارة الى ان مجمل الاطار السياسي « لاتفاقيتي كامب دافيد » ولا سيما في الجزء « الفلسطيني » منه جاء انعكاسا واضحا لموقف السادات التنازلي الاستسلامي ولموقف بيغن الترزمتي المتطرف . فحتى مضمون القرار ٢٤٢ الشهير والذي كان منطلق الاتفاقيتين وجسر الوصول اليهما ، تم تشويهه لصالح العدو الصهيوني ، اذ نلاحظ بكل الوضوح ، ان مقدمة الاتفاقيتين قد ركزت على ما ورد في ذلك القرار لصالح اسرائيل بينما تجاهلت ما ورد فيه لصالح الجانب العربي . اكثر من ذلك فان الفقرات التي فيها ايجابية لصالح اسرائيل تطورت واعطيت احجاما وأوزانا جديدة . المثل على ذلك ان ما ورد في القرار ٢٤٢ عن « **انهاء حالة الحرب** » اصبح فيما بعد يتجاوز ذلك الى تطبيع العلاقات وفتح الممرات والحدود واقامة التمثيل الدبلوماسي الخ . ومثل آخر ، هو تجاهل ما ورد في القرار ذاته حول

« **عدم جواز الاستيلاء على ارض الغير بالقوة** » . ولأنه يستحيل البحث في بند من اطار سياسي كامل دون الوقوع في خطأ فادح ، كانت هذه الاشارة الموجزة لكي نوضح ان كل ما في الاطار يساعد على تقزيم ذلك البند رغم قزميته المنصوص عليها والتي يحاولون نفخها وتصويرها على غير حقيقتها .

ينص الاطار السياسي في صدد هذا البند على ان « **مسؤوليات وسلطات الحكم الذاتي التي ستمارس في الضفة الغربية وقطاع غزة ، ستحدد من خلال مفاوضات تتم بين مصر واسرائيل والأردن** » . وهذا يعني ان لكل طرف من الاطراف حق النقض ! وأول سؤال يخطر على البال : « وماذا لو فشلت هذه الاطراف في الاتفاق » ؟ والرد الذي جاء على لسان بيغن يجسد الاحتمال الوحيد الممكن وهو « **بقاء كل شيء على ما هو** » أي استمرار الاحتلال والحاق الضفة والقطاع نهائيا ورسميا باسرائيل .

طبعا ، ان السؤال الاكثر بداهة والأحق بالأولوية هو « **كيف يتم البحث في مصير شعب وممثلو هذا الشعب غائبون لا يشاركون** » ؟ ولكننا اجلنا طرحه ، لأن هناك من سيقول لنا ، كما قال وزير الخارجية الاميركي فانس في اول خطاب له في الجمعية العامة للأمم المتحدة ، بعد التوقيع على الاتفاقيتين ، في ٢٩ ايلول ١٩٧٨ : « **ان هناك دورا حيويا للفلسطينيين في تقرير مصيرهم بعد ان تم الاعتراف بهم كمشاركين في كل مجالات التفاوض التي ستقرر مستقبلهم** » . وهذا كذلك هو نوع من الدجل السياسي الذي لا يستند على اي نص . لأن كل ما ورد في هذا الصدد ، اي المشاركة الفلسطينية لا يتجاوز شبه الجملة التالية وهي « **ان الوفدين المصري والأردني ، يمكنهما ان يتضمنا فلسطينيين من الضفة الغربية وقطاع غزة ، وفلسطينيين اخرين ، وذلك بعد الاتفاق المتبادل** » . وهذا يعني بايجاز ، وبعد ابعاد منظمة التحرير الفلسطينية الممثل الشرعي الوحيد لشعب فلسطين ، ان الاطار السياسي « **يسمح** » ولكنه لا « **يفرض** » وجود التمثيل الفلسطيني ، ويبقيه معلقاً « **للاتفاق المتبادل** » مع اسرائيل كما هو النص .

ومع ان الكلمة الأخيرة في هذا الموضوع تبقى بالطبع لاسرائيل ، فان مثل هذا التمثيل **يبقى شكليا لتغطية الموقف النهائي واسباغ الشرعية الفلسطينية عليه دون ان يكون له اي قيمة فعلية** ، وذلك لعدة اسباب : منها ان نوعية الاشخاص الفلسطينيين (الذين سيشاركون) ستختار وفقا لارادة غير فلسطينية (اردنية ومصرية) ، كما ان رفض او قبول هؤلاء الممثلين لاية صيغة تطرح يبقى بلا قيمة قبل الموافقة المسبقة للوفدين المضيفين لهم وللموافقة الاسرائيلية النهائية .

هذا يوضح خديعة ما يسمى بالمشاركة الفلسطينية ! « وبماذا » ؟ في مفاوضات حول « حكم ذاتي » غير محدد المسؤوليات والسلطات .

ومما يكشف عدم جدية اطراف « الكامب » حول هذه المشاركة اصلا بالاضافة الى ما ورد في النصوص ، هو ما جاء على لسان السادات في احدى رسائله المتبادلة مع كارتر ، والذي يعلن فيه عن استعداد مصر لتمثيل كل الجانب العربي والنطق باسمه في حال اصرار الأردن على عدم المشاركة واصرار الفلسطينيين على المقاطعة التامة .

ولقد رفض الأردن هذه المشاركة بالفعل ولا يزال ، كما ان الموقف الرافض لشعب فلسطين وقيادته اكثر من واضح ومؤكد . وفي هذه الحالة باستطاعة اي مراقب ان يتصور مدى جدية السادات وصدقه في الحديث عن حق الفلسطينيين في تقرير مصيرهم ومستقبل حياتهم . ولا حاجة بالطبع لتكرار ما اصبح معروفا ، وما نسمعه كل يوم ، من تصريحات اسرائيلية مسؤولة حول المفهوم الصهيوني لهذا « الحكم الذاتي » والتي تتمحور كلها حول تفسير بيغن له والقاضي بفصل مصير « **الوطن** » عن مصير « **المواطن** » او « السكان » كما يجب ان يشير الينا نافيا عنا صفة « **الشعب** » المتكون والكامل التكوين . « **ان الارض ـ يقول بيغن قاصدا الضفة والقطاع ـ ستبقى تحت السيطرة الفعالة لحكومة اسرائيل » . وهذا بعض ما دفعنا منذ البداية الى القول بان ما سموه بـ « الحكم الذاتي » لا يمت بصلة الى اي مفهوم لاي حكم ذاتي ، بما في ذلك اردأ الأنواع .**

رغم ذلك يصر المروجون لبضاعة « كامب دافيد » بأن في الاطار السياسي بنودا واشارات اخرى من شأنها ، في حالة مشاركة شعب فلسطين فيها ، ان تحقق مطامح الشعب الفلسطيني . وفي هذا الصدد يحدثوننا عما ورد حول « **الحقوق المشروعة لشعب فلسطين** » ويتباهون بانها المرة الأولى التي يعترف فيها الاسرائيليون بهذه الحقوق . وتلك ايضا كذبة اخرى . ولنبدأ بنص الصيغة لنعرف ما تقول .

يقول النص « **ان الحل الذي ستتمخض عنه المفاوضات يجب ايضا ان يعترف بالحقوق المشروعة لشعب فلسطين ومتطلباتهم العادلة** » .

والسؤال الفوري الذي لا بد من طرحه يتطلب ردا حول مفهوم او مفاهيم اطراف « الكامب » لهذه الحقوق .

ولكيلا نطيل في بحث باتت تفاصيله معروفة ، نكتفي بسؤال الثلاثة عن موقفهم من المفهوم الدولي لهذه الحقوق ، كما تحدد في العام ١٩٧٤ ، في الجمعية العامة للأمم المتحدة بنص قرار واضح يحمل الرقم ٣٢٣٦ ، والذي يحدد هذه الحقوق بما يلي : **حق العودة ـ وحق تقرير المصير ـ وحق اقامة الدولة الفلسطينية المستقلة فوق تراب فلسطين ! ؟ .**

فلقد اجمعت الاسرة الدولية ، في اطار الامم المتحدة ، وخارجها ضمن التكتلات الاقليمية والدولية المختلفة ، على هذا التحديد للحقوق المشروعة لشعب فلسطين . فاين تقف مصر ـ السادات ، وحكومة الولايات المتحدة من هذا التحديد ؟

اما الموقف المصري الحقيقي ، **فهو اللامبالاة الحقيقية** الا بقدر ما يمكن لبعض التصريحات اللفظية ان تساعد على اخراج مصر من عزلتها العربية والاسلامية بعد توقيعها على المعاهدة . وفي رأيي ان ما يبدو احيانا من « **تشدد** » مصري ، بعد توقيع الاتفاقية ، هو « **تشدد** » غير جاد وغير ممكن اصلا . ولكن مصر ـ السادات بعد ان حققت ما تريده « مصريا » ، فلقد اصبح موقفها القومي نوعا من « الرفاهية » بهدف إسدال الستار عما تنازلت عنه في الاطارين الوطني والقومي . **وكما قال السادات ويردد من حوله افراد بطانته فان « عملية السلام » رغم كل ما بدر من اسرائيل بالنسبة لمصير الضفة والقطاع ، ستبقى مستمرة وانه « لا حروب بعد اليوم » ... اي اسقاط الخيار العسكري نهائيا**

حتى كورقة ضغط للمساومة . اذن لا جدية في « التشدد » المصري ، وربما هو مقصود بهدف غسل اليدين نهائيا بعد تامين الصلح الثنائي .

اما حكومة الولايات المتحدة ، فعلى الرغم من الاشارات المتباينة التي صدرت عنها خلال السنوات الثلاث الأخيرة ، فانها عندما حددت مفهوما لحقوق شعب فلسطين المشروعة ، على لسان رئيسها كارتر فان هذا التحديد جاء ليرجح مرة اخرى انحياز واشنطن لحكومة اسرائيل ، ومطابقا لسلبية الاطار السياسي « لاتفاقيتي كمب دافيد » التي لم تشر على الاطلاق الى اي من هذه الحقوق الشرعية ، ولا سيما الاساسي والثابت منها مثل حق العودة ، وتقرير المصير ، والسيادة الوطنية . وفي خطابه امام الجمعية العامة للامم المتحدة في ٤ تشرين اول ١٩٧٧ ، والذي ادلى به بعد ان تراجع عن البيان الاميركي ــ السوفياتي المشترك بعد اربعة ايام من توقيعه ، قال كارتر : « **انه يجب الاعتراف بالحقوق الشرعية لشعب فلسطين** » **ثم اضاف** « **ولكن ماهية هذه الحقوق وكيفية تحقيقها يجب ان يتما بالطبع عبر مفاوضات تفصيلية بين الاطراف المعنية** » ، اي بمشاركة اسرائيلية كما هو واضح . وختم بقوله : « **ونحن ــ اي الولايات المتحدة ــ لا نملك ان نملي رأينا في هذا الموضوع** » . وفي حديث أخر له ، أكثر وضوحا قال كارتر في مؤتمر صحفي بعد خطابه باسبوعين تقريبا : « **ان الفلسطينيين ــ ككل البشر ــ لهم نفس التطلعات للحرية ، واحترام الذات الانسانية ، والى بيت يعيشون فيه ويقيمون مع عائلاتهم ، وان يكون لهم مدارسهم وعنايتهم الصحية ، والطعام الكافي .. ففي هذا الاطار . استطيع القول بأن لهم نفس ما لغيرهم من حقوق** » . مرة اخرى تركز على تجاهل الرئيس الاميركي على الحقوق الاساسية واكتفائه بالحقوق الانسانية التي استطاعت بعض الجمعيات في اوروبا والولايات المتحدة انتزاعها لبعض الحيوانات التي ترعاها وترفق بها .

وبعد تفسير حقائق الموقفين المصري والاميركي من هذا الذي يروجون له تحت بند « الحقوق المشروعة لشعب فلسطين » هل من حاجة الى التعرض لما يقوله بيغن وكل حكام اسرائيل ؟ فقط نود الاشارة الى السخرية التي علق بها بيغن على هذا البند ، الذي قال انه لم يقبل به الا لانقاذ ماء الوجوه التي اعتادت الحديث عنه . واضاف عندما « **يأتي دورنا في المفاوضات سنتحدث عما هو مشروع وغير مشروع من الحقوق . ونحن نعرف ما سنقوله حول حقوقنا ومطالبنا !!** » .

ومع ذلك ايضا وايضا ، لا ييأس المروجون لبضاعة « الحكم الذاتي » الواردة من « كامب دافيد » ويطرحون في صيغة تساؤل **اذا ما كان اجدى وانفع للفلسطينيين ان يشاركوا او يجروا انتخاباتهم بدلا من بقاء الاحتلال على ما هو عليه !** ويشيرون في هذا الصدد الى انتخابات البلديات التي اتت بعناصر وطنية الى تلك المجالس ورفعت صوت منظمة التحرير عاليا !!

خديعة اخرى ، تحاول الباس النصوص غير ما ورد فيها ، وتتجاهل في الوقت ذاته ما تجاهلته هذه النصوص من قرارات مبدئية كان لا بد من النص عليها ... ولو من اجل سمعة الديمقراطية !

فلقد وافق الاطار السياسي « لاتفاقيتي كامب دافيد » على اجراء انتخابات « الحكم الذاتي » في ظلال الاحتلال الصهيوني العسكري للضفة والقطاع ، ولم يشر الى اي انسحاب لقوات الاحتلال قبل اجراء هذه الانتخابات ، كما لم يشر حتى الى اعتماد اي جهة دولية للاشراف على حرية هذه الانتخابات والتأكد من وسائلها واجراءاتها . اكثر من ذلك فان الاطار السياسي لا يشير اطلاقا الى امكانية اي انسحاب مستقبلي لقوات الاحتلال واكتفى بالاشارة الى اعادة تمركزها في اماكن تحدد لها وتضمن — من وجهة نظر المفاوض الاسرائيلي — أمن اسرائيل !!!

هذا من ناحية ، اما بالنسبة للمقارنة بين انتخابات بلدية لا تخضع لاي اطار سياسي ، وليس فيها اي التزام مصيري ، وبين انتخابات يقبل بها الفلسطينيون وفقا لاطار واضح ، بل ومفضوح ومتآمر ، فهي غير واردة والفرق واضح شاسع ، لان **مجرد القبول بهذه الانتخابات يتضمن بالضرورة القبول — ولو الضمني — لنصوص الاطار السياسي وافاقه المعروفة . اي بعبارة اخرى ، فان القبول بذلك يعني الرضى بمبدأ اضفاء الشرعية الفلسطينية على هذا الاطار ... اي التسليم الفلسطيني بالحل الصهيوني لقضية فلسطين ، وتصفيتها نهائيا من الخريطتين الجغرافية والسياسية معا .**

هذا بعض ما يقوله المروجون « للحكم الذاتي » ، وأما ما يغفلون الاشارة اليه ، وعن تعمد ، فلا يقل خطورة واهمية .

فهم لا يشيرون مطلقا إلى ما اغفله الاطار السياسي عن **مصير الفلسطينيين الذي يحيون خارج الضفة والقطاع باعتبار ان « المنفى الابدي » او « الابادة الجماعية » هما الخياران الوحيدان امامهم .**

بل انهم لا يجرؤون على الاشارة إلى القيود التي فرضها هذا الاطار حول مصير الفلسطينيين من ابناء الضفة والقطاع الذين ابعدوا بالقوة عن مناطقهم بعد حرب ١٩٦٧ . فلقد ورد في هذا المجال نص يقول : « **انه خلال الفترة الانتقالية ، سيشكل المصريون والاسرائيليون والاردنيون وممثلو الحكم الذاتي لجنة دائمة لتقرير المعايير التي يمكن بموجبها اعادة المبعدين عن الضفة الغربية وقطاع غزة ، مع الترتيبات الضرورية لمنع الفوضى وتأمين النظام** » !

واخطر ما في هذا النص انه ينسف بشكل ضمني والى الابد « حق العودة » ، وهو حق مقدس ومعترف به دوليا ، ولطالما تكرر تأكيده خلال الثلاثين سنة الماضية في الامم المتحدة . ان هذا النص حول **هذا « الحق »** الى « **منحة** » لا يمكن تمريرها دون الموافقة الاسرائيلية المحصنة وراء ما ورد في النص عن « **الترتيبات الضرورية لمنع الفوضى ولتأمين النظام** » . واكثر من ذلك فان النص اقتصر في النص عندما تحدث عن هؤلاء المبعدين ، على من غادر في سنة ١٩٦٧ وليس « **منذ** » ذلك التاريخ .

كذلك فان هؤلاء المروجين « للحكم الذاتي » الدافيدي ، يتجاهلون اغفال الاطار السياسي **لمصير « الارض » الفلسطينية التي احتلت عام ١٩٤٨ ، واغفاله لقضية القدس العربية التي احتلت عام ١٩٦٧ .**

وحجة هؤلاء الواهية على هذا التجاهل تتلخص في معظم ردودهم على الزعم بان كل هذه القضايا المعلقة لا بد وان تدخل في صميم المفاوضات وعملية المقايضات المفترض ممارستها . ولكن هذه الحجة الواهية تسقط نهائيا عندما تبادرهم بالسؤال التالي : **اذا عجز الاطار السياسي عن الاشارة الى هذه القضايا ، وكلها من مخلفات الماضي ، فبماذا تفسرون عجزه عن الاشارة الى قضية « المستوطنات » التي لا تزال قائمة ــ الآن ــ بتحد اسرائيلي مكشوف ؟ ومن الآن وحتى تنتهي فترة الخمس سنوات الانتقالية او لا تصبح هذه القضية هي خط المجابهة الاول وورقة المساومة الأولى ، هذا اذا افترضنا ــ التفاؤل المطلوب منا من قبل المروجين ــ واستسلمنا لما يسمى « بعملية السلام » ؟ ! .**

وبعد ... من الواضح اننا لم نضع ، في هذه المقالة ، دراسة تحليلية وقانونية « لاتفاقيتي كامب دافيد » واطارهما السياسي ، فهذا لم يكن بالاصل هدف هذه المقالة ، والا لما تركنا لا شاردة ولا واردة الا وفندناها كما تستحق . فاغفلنا العديد العديد واكتفينا باثارة الناحية السياسية فقط ، في محاولة للرد على المروجين العلنيين والسريين الذين يحاولون سوق شعبنا الى مقصلة اسموها عن قصد ووعي ، « الحكم الذاتي » للفلسطينيين .

ولكن يبقى شعبنا اكثر وعيا ، وادرى من غيره بما يحاك ضده ، وليست وقفة اهلنا في الضفة والقطاع وفي كل اماكن تجمعه داخل الوطن المحتل وخارجه الا الدليل الناصع على هذا الوعي المقرون بالارادة التي لن تلين ولن تركع وستواصل الصمود والتحدي حتى تتحقق اهدافنا في الاستقلال الوطني الكامل واقامة الدولة الفلسطينية ذات السيادة غير المنقوصة .

إدوار سعيــد

مقــدّمة في معــاني الإسـتشــراق

ـ ١ ـ

خلال زيارة لبيروت ابان الحرب الأهلية الرهيبة (١٩٧٥ ـ ١٩٧٦) كتب صحافي فرنسي بكثير من التحسر والأسف عن المنطقة التجارية بأزقتها وشوارعها الضيقة قائلاً : « إنها قد بدت في وقت من الأوقات وكأنها تنتمي إلى ... الشرق الذي عرفه شاتوبريان ونرفال »(١) وبالطبع ، كان مصيباً بشأن المكان ، لا سيما وان الأمر يتعلق بشخص أوروبي . فالشرق هو اختراع اوروبي تقريباً ، ولقد درج منذ عهود سحيقة في القدم على كونه موئلاً للرومانس (Romance) والكائنات الغريبة جداً والذكريات والمناظر الطبيعية الخلابة والتجارب الرائعة . والآن أخذ هذا الشرق في الزوال . كان حدثاً بمعنى ما ، وانتهى وقته . ولربما بدا الأمر غير وثيق الصلة في أن الشرقيين أنفسهم كانوا يجازفون بشيء ما خلال العملية ، وانه حتى في زمن شاتوبريان ونرفال عاش هناك شرقيون ، وهؤلاء هم الذين يعانون ويتألمون حالياً . فالشيء الرئيسي بالنسبة للزائر الأوروبي هو قصور أوروبي للشرق ولمصيره المعاصر ، وكلاهما قد انطوى على دلالة أهلية امتيازية بالنسبة للصحافي الفرنسي ولقرائه الفرنسيين .

ولن يشعر الاميركيون على نحو مماثل تماماً تجاه الشرق ، لأنه من المرجح اكثر أن يرتبط الشرق في تصورهم على نسق مختلف جداً بـ « الشرق الأقصى » (أي : الصين واليابان ، بشكل رئيسي) . وخلافاً للأميركيين ، فقد امتلك الفرنسيون والبريطانيون ـ والألمان والروس والاسبان والبرتغاليون والايطاليون والسويسريون بدرجة أقل ـ تقليداً طويلاً مما سوف ندعوه [في هذا الكتاب] بـ « الاستشراق » ، وهو كناية عن طريقة للتصالح أو التفاهم مع الشرق ترتكز على المكانة الخاصة التي يحتلها الشرق في التجربة الغربية الأوروبية . فالشرق ليس متاخماً لأوروبا فحسب ، بل هو المكان الذي قامت فيه أعظم مستعمرات اوروبا وأغناها واقدمها ، إنه مصدر مدنياتها ولغاتها ، ومنافسها الحضاري ، وصورة من أعمق صورها عن الآخر وأكثر تكراراً . واضافة الى ذلك ، فالشرق ساعد في تحديد أوروبا (أو الغرب) وصورتها المتباينة . وفكرتها وشخصيتها وتجربتها . ومع ذلك لا شيء من هذا الشرق هو مجرد تخيل .

فالشرق يؤلف جزءاً متكاملا من المدنية المادية والحضارة الأوروبيتين . والاستشراق يعبر عن ذلك الجزء ويمثله حضاريا وحتى ايديولوجيا بوصفه أسلوبا أو صيغة للمحادثة والتخاطب مع ما يدعمه من مؤسسات وذخيرة لغوية وبحث اكاديمي وصور ومذاهب ، وحتى البيروقراطيات الاستعمارية والأساليب الاستعمارية . وبالمقابل ، فان الفهم الاميركي للشرق سوف يبدو أقل كثافة بشكل بارز ، رغم ان مغامراتنا الحديثة العهد في اليابان وكوريا والهند الصينية يتوجب علينا أن تخلق الآن وعياً « شرقيا »اكثر رزانة وواقعية.وعلاوة على ذلك ، فان الدور السياسي والاقتصادي الأميركي الذي اتسع نطاقه كثيراً في الشرق الأدنى (الشرق الأوسط) له كبير الحق في مطالبتنا بفهم لذلك الشرق .

سوف يتضح للقارئ (مثلما سوف يصبح الأمر أشد وضوحاً في صفحات الكتاب التالية) بأنني اعني بـ « الاستشراق » عدة أشياء ، وكلها في رأيي اشياء متوافقة ومتداخلة. إن المعنى الأكثر قبولا على نحو مباشر لكلمة استشراق هو معنى أكاديمي ، وحقاً إن التسمية ما زالت تخدم الغرض في عدد من المؤسسات الاكاديمية.فكل امرئ يقوم بتدريس الشرق أو الكتابة عنه أو يبحث فيه ـ وهذا ينطبق على ما إذا كان الشخص عالم للانثروبولوجيا أو عالما للاجتماع أو مؤرخاً أو لغوياً ـ سواء كان ذلك من النواحي الخاصة أو العامة للشرق ، **هو مستشرق** . وما يفعله هذا الشخص هو استشراق ومن الصحيح ان لفظة « استشراق » لدى مقارنتها بلفظتي « الدراسات الشرقية » أو « دراسات المنطقة » تلقى تحبيذاً أو تفضيلا أقل من جانب المختصين اليوم ، ويرجع ذلك لسببين اثنين : أولاهما ، لأنها لفظة غامضة جداً ومغرقة في العمومية ، وثانيهما ، لكونها تدل على الموقف التنفيذي الاستعلائي المنبثق عن الاستعمار الأوروبي في القرن التاسع عشر ومطلع القرن العشرين . ومع ذلك يجري تأليف الكتب وعقد المؤتمرات التي تتناول « الشرق » كموضوع رئيسي للتركيز ، حيث يصبح المستشرق بمثابة الثقة الرئيسية لهذه المؤتمرات وتلك الكتب ، سواء كان هذا المستشرق في زية القديم أم الجديد . والنقطة التي نتوخى الوصول إليها هي ان الاستشراق ، رغم كونه ليس على قيد البقاء كما كان شأنه في الماضي ، فانه لا يزال مستمراً على قيد الحياة الأكاديمية من خلال مذاهبه وطروحاته عن الشرق والانسان الشرقي .

ثمة معنى أعم للاستشراق ، يتصل بهذا التقليد الأكاديمي ، حيث تؤلف حظوظ هذا التقليد وتناسخاته وتخصصاته وانتقالاته على نحو جزئي موضوع هذه الدراسة.فالاستشراق هنا يعني اسلوباً في التفكير يرتكز إلى التمييز الانطولوجي والمعرفي بين « الشرق » « والغرب » (في معظم الوقت) (بمعنى Occident) . وهكذا نجد كتلة كبيرة من الكتاب تضم بين صفوفها الشعراء والروائيين والفلاسفة والمنظرين السياسيين وعلماء الاقتصاد والاداريين الامبرياليين، ممن قبلوا التمييز الأساسي بين **الشرق والغرب** باعتبارهما نقطة البداية لنظريات مفصلة . وملاحم مستفيضة وروايات وأوصاف اجتماعية وتقارير سرد سياسي تتعلق بالشرق وشعوبه وعاداته و « عقله » ومصيره وهلم جرا . ويمكن لهذا النمط من الاستشراق ان يستوعب اسخيلوس مثلا . إلى جانب فيكتور هوغو ودانتي وكارل ماركس . وفي مكان لاحق من هذه المقدمة سوف نتناول المشكلات النهجية التي يلاقيها الباحث في « حقل » مثل هذا الحقل الذي جرى توسيع نطاقه بصورة مفتعلة .

والتقاطع بين المعنى الأكاديمي والمعنى المتخيل نوعاً ما للاستشراق هو تقاطع ثابت ،

ومنذ أواخر القرن الثامن عشر كانت هناك حركة سير وانتقال بين هذين المعنيين ، حيث تميزت هذه الحركة بانضباطها البارز تماماً ، وربما خضعت للضبط والتنظيم . وهنا نصل إلى المعنى الثالث من معاني الاستشراق ، وهو معنى يتسم بتحديد تاريخي ومادي اكثر من أي واحد من المعنيين السابقين ! فلو أخذنا أواخر القرن الثامن عشر كنقطة بدء محددة تحديداً أولياً جداً ، يمكن بحث الاستشراق وتحليله بوصفه المؤسسة المشتركة للتعامل مع الشرق ــ التعامل معه بواسطة اطلاق الأقوال البيانية عنه ، واضفاء طابع الثقة على أراء حوله ، وصف الشرق وتدريسه واستيطانه وتوطينه ، وممارسة الحكم عليه : وباختصار ، فالاستشراق بمعناه الثالث هو أسلوب غربي للسيطرة على الشرق واعادة تكوينه وامتلاك السلطة عليه . ولقد وجدت من النافع هنا استخدام مفهوم ميشال فوكو عن المقالة (Discourse) للتعريف بهوية الاستشراق (وهو مفهوم وصفه فوكو في كتابين له هما : « علم آثار المعرفة »* Archaeology and Know Ledge و « المراقبة والعقاب » Discipline and Punish ويقوم ادعائي على القول إنه بدون تفحص الاستشراق كمقالة Discourse لا يمكن للمرء ان يفهم حقل الانضباط والدراسة المنهجي الضخم الذي استطاعت الحضارة الأوروبية بواسطته أن تدير ــ وحتى ان تنتج ــ الشرق سياسياً وسوسيولوجياً وعسكرياً وأيديولوجياً وعلمياً وتخيلياً خلال فترة ما بعد عصر التنوير . وعلاوة على ذلك فان الاستشراق تمتع بمركز من الثقة والسلطة الى درجة تحملني على الاعتقاد إنه ما من أحد كتب عن الشرق أو فكر به أو اتخذ القرار بشأنه قد استطاع أن يفعل ذلك دون ان يأخذ بعين الاعتبار الحدود التي فرضها الاستشراق على الفكر والفعل . وخلاصة القول ، فان الشرق لم يكن (وليس هو) ، بسبب الاستشراق ، موضوعاً حراً للتفكير أو الفعل . وليس معنى هذا القول إن الاستشراق يحدد بشكل أحادي الجانب ما يمكن قوله عن الشرق . بل يؤلف الاستشراق تلك الشبكة بكاملها من العلاقات التي يتحتم عليها ان تحشد كل طاقاتها لاداء المهام في أية مناسبة (وبناء على ذلك فان الشبكة المذكورة هي ملتزمة بالعمل دوماً) عندما تكون تلك الوحدة المعينة « الشرق » موضع تساؤل . كيف يحدث هذا الأمر ؟ هذا ما يحاول الكتاب بيانه مثلما يحاول ان يبين بأن الحضارة الأوروبية اكتسبت قوة وهوية عن طريق طرح نفسها ضد الشرق بوصفه نوعاً من الذات البديلة أو حتى الذات السفلية (التحتية) .

وعلى الصعيدين التاريخي والحضاري يوجد فارق كمي ونوعي بين الانهماك الفرنكو ــ بريطاني في الشرق ــ حتى فترة الصعود الأميركي إثر الحرب العالمية الثانية ــ وانهماك كل دولة من الدول الأوروبية والأطلسية الأخرى . فالحديث عن الاستشراق إذن ، هو التحدث بشكل رئيسي ، وان يكن غير حصري ، عن مشروع حضاري بريطاني وفرنسي ، وهو مشروع تمتد أبعاده حتى تشمل حقولا ومجالات متباعدة على امتداد الخيال ذاته : الهند كلها والليفانت بكامله ، النصوص التوراتية وأراضي التوراة ، تجارة الأفاوية والبهارات والجيوش الكولونيالية ، بالاضافة الى تقليد طويل من الاداريين الكولونياليين ، ومجموعة كاملة رائعة من الدراسات والبحوث العلمية ، وعدد لا يحصى من « الخبراء » و « الأعوان البارعين » في الشرقيات ، وكراسي استاذية للدراسات الشرقية ، ومجموعة معقدة من « الافكار » الشرقية (مثل : الاستبداد الشرقي والأبهة الشرقية والقسوة والفجور الشرقيين) ، والعديد من الشيع

---

* مقدمة كتاب الاستشراق للأستاذ ادوار سعيد ، الذي صدر حديثاً بالانكليزية ،
New York Pantheonbooks, 1978.

والفلسفات وجوامع الحكم الشرقية التي تم تدجينها لكي يصار إلى استخدامها محلياً في أوروبا ـ ويمكن المضي في التعداد وتطويل هذه القائمة إلى ما لا نهاية له تقريباً . والنقطة التي أود تسجيلها هي أن الاستشراق يستمد من قرابة خاصة تقوم خبرتها بين بريطانيا وفرنسا والشرق ، حيث كان هذا الشرق يقتصر في معناه بالفعل حتى مطلع القرن التاسع عشر على الهند وأراضي التوراة فقط . ومنذ بداية القرن التاسع عشر حتى نهاية الحرب العالمية الثانية سيطرت كل من فرنسا وبريطانيا على الشرق والاستشراق . بينما نجد امريكا قد سيطرت على الشرق منذ الحرب العالمية الثانية ، وهي تقارب هذا الشرق على غرار ما فعلته بريطانيا وفرنسا . ومن صميم هذا الاقتراب بديناميتها المنتجة على نحو هائل حتى وان كانت تبرهن دائماً على القوة الأكبر نسبياً وبالمقارنة التي يمتلكها الغرب (سواء كان فرنسياً أم بريطانياً أم أميركياً) ، تخرج تلك المجموعة الكبيرة من النصوص التي أدعوها بنصوص استشراقية » .

ومما ينبغي قوله على الفور أنه بالرغم من ذلك العدد السخي من الكتب والمؤلفين الذين أتناولهم بالدراسة والتمحيص ، هناك عدد أكبر بكثير ترتب علي بكل بساطة أن أتركه جانباً وخارج نطاق هذا الكتاب . بيد أن حجتي لا تعتمد على قائمة شاملة من النصوص التي تعالج الشرق ولا على مجموعة محددة المعالم بوضوح من النصوص والمؤلفين والأفكار التي تؤلف مجتمعة قانون الاستشراق ، وقاعدته الأساسية . لقد اعتمدت عوض ذلك على بديل منهجي مختلف ـ حيث يتألف العمود الفقري لهذا البديل بمعنى من المعاني من مجموعة التعميمات التاريخية التي درجت على إطلاقها حتى الآن في هذه المقدمة ـ وهي التعميمات التي أريد الآن مناقشتها بمزيد من التفصيل التحليلي .

ـ ٢ ـ

لقد بدأت بالافتراض القائل إن الشرق ليس واقعة خاملة من وقائع الطبيعة . فهو ليس مجرد **هناك** فحسب ، مثلما ان الغرب ذاته ليس **هناك** تماماً . ينبغي لنا أن نأخذ بعين الجدية ملاحظة فيكو العظيمة بأن الناس لا يصنعون تاريخهم ، وان ما يمكنهم معرفته هو ما صنعوه ، وان نسحب هذه الملاحظة على الجغرافيا : باعتبارها تنطبق على الوحدتين ـ الجغرافية والحضارية ـ ناهيك عن الوحدات التاريخية ـ فالأماكن والمناطق في القطاعات الجغرافية مثل « الشرق » و « الغرب » هي من صنع الانسان . لذا ، فان الشرق ، بقدر ما هو الغرب ذاته ، هو فكرة لها تاريخ وتقليد فكري ، وصور متخيلة وذخيرة لغوية اسبغت عليه حقيقة وحضوراً في الغرب ومن أجله . وهكذا فان الوحدتين الجغرافيتين تتساندان وتعكس الواحدة منهما الأخرى إلى حد ما .

بعد إطلاق هذا القول يجب علينا المضي قدماً نحو بسط عدد من الاستدراكات المعقولة . ففي المقام الأول ، إنه لمن الخطأ الاستنتاج بأن الشرق كان في جوهره فكرة أو بدعة لا تقابلها حقيقة واقعة . وعندما قال دزرائيلي في روايته **تانكرد** بأن الشرق هو مهنة حياة عملية ، كان يقصد من وراء ذلك القول ان الاهتمام بالشرق كان شيئاً سوف يجده الشبان الغربيون اللامعون بمثابة الهوى الذي يستقطب كافة مشاعرهم . فلا يجب تفسير دزرائيلي بأنه يقول عن الشرق إنه مهمة حياة عملية فحسب للغربيين . كانت هناك ـ وهي لا تزال موجودة ـ حضارات

وأمم يقوم موقعها في الشرق ، بينما حياتها وتاريخها وعاداتها تتميز بواقع عنيد (فظ) هو بوضوح جلي اكبر من أي شيء يمكن قوله عنها في الغرب . إن هذه الدراسة عن الاستشراق ليس لديها سوى القليل جدا لكي تسهم به فيما يختص بتلك الواقعة ، باستثناء الاقرار بها ضمنياً . لكن ظاهرة الاستشراق كما أدرسها في هذا الكتاب لا تتناول بشكل رئيسي موضوع المطابقة بين الاستشراق والشرق ، بل تركز على التماسك الداخلي للاستشراق وأفكاره عن الشرق (المشرق بوصفه مهنة حياة عملية) بالرغم من أية مطابقة أو فيما يتعداها ، أو في انعدام تطابق ذلك مع شرق « حقيقي » في الواقع . والنقطة التي أنوي تسجيلها هنا هي ان عبارة دزرائيلي عن الشرق تسير بصورة رئيسية إلى ذلك التماسك المخلوق ، وتلك الكوكبة المنظمة من الأفكار بوصفها الشيء البارز عن الشرق ، وليس إلى مجرد كينونتها ــ كما تقول عبارة دالاس ستيفنز .

ثمة استدراك ثان ومفاده ان الأفكار والحضارات والتواريخ لا يمكن فهمها أو درسها جدياً بدون قوتها ، أو على نحو أكثر دقة بدون دراسة أشكالها السلطوية . ونحن نكون ماكرين مخادعين حين نعتقد بأن الشرق جرى خلقه ــ أو ، كما أسمي ذلك : جرت « مشرقته » ــ وان مثل هذه الأمور تحدث ببساطة كضرورة للخيال . فالعلاقة بين الغرب والشرق هي علاقة سلطة وسيطرة ، ودرجات متنوعة من الهيمنة المعقدة ، وتتم الاشارة إليها بدقة تامة في عنوان الكتاب الكلاسيكي الذي أصدره ك . م . بانيكار : « آسيا والسيطرة الغربية »[٢] فالشرق تمت مشرقته ليس فقط بسبب اكتشاف كونه « شرقياً » في كافة تلك الاساليب التي كان الانسان الأوروبي العادي في القرن التاسع عشر يعتبرها مبتذلة ، بل ايضا بسبب إمكان جعله شرقياً ــ أي : إخضاعه لأن يكون شرقياً . وهناك قدر ضئيل جدا من الموافقة مثلا ، يمكن العثور عليه في حقيقة كون لقاء فلوبير مع محظية مصرية قد انتج انموذجاً عن المرأة الشرقية واسع النفوذ والتأثير . فالمحظية لم تتحدث عن نفسها أبدا ولم تعبر عن مشاعرها أو حضورها أو تاريخها . لقد تحدث فلوبير بالاصالة عنها وعبر عن نوازعها . كان أجنبياً ، واسع الثراء ، ومن الذكور ، وهذه الأمور كانت حقائق تاريخية عن السيطرة أفسحت أمامه المجال ليس لكي يمتلك « كوتشوك هانم » جسدياً فحسب ، بل لكي يتحدث بالاصالة عنها ويخبر قراءه كيف كانت « انموذجاً للمرأة الشرقية » . وحجتي مؤداها ان موقع القوة الذي امتلكه فلوبير بالنسبة الى كوتشوك هانم لم يكن ظاهره معزولة . بل انه موقع يمثل تمثيلا صادقاً على نمط القوة النسبية بين الشرق والغرب ، وعلى المقالة عن الشرق التي امكن قيامها بواسطته .

ينقلنا هذا إلى استدراك ثالث . يجب ألا نفترض ابدا بان بنية الاستشراق لا تعدو كونها بنية من الاكاذيب او الاساطير التي تتحول الى هباء بكل بساطة فيما لو جرى قول الحقيقة بشأنها .

وانا نفسي أعتقد بأن الاستشراق هو أكثر قيمة ، بصورة خاصة ، كعلاقة للسلطة الاوروبية ــ الاطلسية على الشرق منه كمقالة صادقة عن الشرق (وهو ما يزعم الاستشراق كونه في شكله الاكاديمي أو العلمي) . ومع ذلك فان ما ينبغي علينا احترامه ومحاولة استيعابه هو القوة المحبوكة سوية وتماماً للمقالة الاستشراقية ، وصلاتها الوثيقة جدا مع المؤسسات السياسية والاقتصادية ــ الاجتماعية المكنة لها ، ومتانتها المروعة . وبعد كل شيء ، فان أي منظومة للأفكار التي باستطاعتها البقاء على حالها بوصفها حكمة قابلة للتدريس (في

الاكاديميات والكتب والمؤتمرات والجامعات ومعاهد السلك الخارجي) منذ عهد ارنست رينان في أواخر ١٨٤٠ وحتى الزمن الحاضر في الولايات المتحدة الاميركية يجب ان تكون شيئاً أشد هولا من مجرد مجموعة من الأكاذيب . وبناء عليه ، فالاستشراق ليس ثمرة وهمية من ثمرات الخيال الأوروبي عن الشرق . بل يؤلف مجموعة تحتضن طيلة أجيال متعاقبة قدراً لا يستهان به من الاستثمار المادي . فالاستثمار المتواصل جعل من الاستشراق بوصفه منظومة من منظومات المعرفة عن الشرق ، شبكة مقبولة لكي يتسرب الشرق من خلالها إلى الوجدان الغربي ، تماماً مثلما أدى الاستثمار ذاته ــ لا بل جعلها منتجة حقاً وبالفعل ــ إلى مضاعفة الأقوال والتصريحات المنتشرة عن الاستشراق في الثقافة العامة .

لقد أجرى غرامشي التمييز التحليلي المفيد بين المجتمع المدني والمجتمع السياسي ، حيث يتألف الأول من ارتباطات طوعية (أو على الأقل عقلانية وغير اكراهية) مثل المدارس والعائلات والاتحادات ، ويشتمل الثاني على مؤسسات الدولة (مثل الجيش والشرطة والبيروقراطية المركزية) التي يكون دورها في الكيان السياسي ممارسة السيطرة المباشرة . طبعاً . يتم العثور على الثقافة وهي تمارس عملها ضمن المجتمع المدني ، حيث نجد تأثير الافكار والمؤسسات والأشخاص فاعلا ليس عبر السيطرة ، بل من خلال ما يسميه غرامشي بـ « الموافقة » (القبول) . لذا ففي أي مجتمع غير توتاليتاري (شمولي) نجد أشكالا ثقافية معينة تسيطر على الأخرى ، مثلما أن بعض الأفكار هي أشد تأثيرا ونفوذا من غيرها . وشكل هذه الزعامة الثقافية هي ما عرفه غرامشي بـ « الهيمنة » ــ وهي مفهوم لا غنى عنه في أي فهم للحياة الثقافية داخل الغرب الصناعي . فالهيمنة ، أو بالأحرى النتيجة التي تسفر عنها الهيمنة الثقافية حين تمارس عملها، هي التي تسبغ على الاستشراق المتانة والقوة اللتين قد تحدثنا عنهما حتى الآن . والاستشراق لا يبعد أبداً عما دعاه دنيز هاي بـ « فكرة اوروبا »(٣) وهي كناية عن مفهوم جماعي تعرف « نحن » الأوروبيين مقابل جميع « أولئك » غير الاوروبيين . ويمكن المجادلة حقاً بأن العنصر الرئيسي في الثقافة الأوروبية هو بالضبط ما جعل تلك الثقافة مهيمنة داخل اوروبا وخارجها على السواء : أي باعتبار فكرة الهوية الأوروبية فكرة متفوقة على كل ما عداها وبالمقارنة مع كافة الشعوب والحضارات غير الأوروبية . هناك بالاضافة إلى ما تقدم هيمنة الافكار الأوروبية عن الشرق . وهي أفكار تكرر موضوعة التفوق الاوروبي على التخلف الشرقي . وتتجاهل عادة الامكانية القائلة بأن مفكرا أشد استقلالية أو أكثر تشكيكاً قد تكون لديه آراء مخالفة حول المسألة .

وبطريقة ثابتة تماماً يعتمد الاستشراق في استراتيجية على هذا التفوق الموقعي المرن ، مما يضع الانسان الغربي في سلسلة كاملة من العلاقات المكنة مع الشرق دون أن يفقده ابداً اليد الطولى نسبياً . ولماذا يجب أن يكون الأمر خلاف ذلك ، لا سيما خلال فترة الصعود الأوروبي الباهر منذ أواخر عصر النهضة وحتى الزمن الحاضر ؟ فالعالم والباحث والمبشر والتاجر أو الجندي كان في الشرق أو فكر به ، لأنه **استطاع أن يكون هناك** ، أو كان بمقدوره التفكير به ، دون مقاومة تستحق الذكر من جانب الشرق . واندراجاً تحت العنوان العام : معرفة الشرق ، وضمن مظلة الهيمنة الغربية على الشرق خلال الفترة الممتدة منذ أواخر القرن الثامن عشر ، برز هناك شرق معقد وملائم للدراسة في الأكاديمية ، وللعرض في المتحف ،

ولاعادة الانشاء في وزارة المستعمرات ، وللبيان النظري في الأطروحات الانتروبولوجية والبيلوجية واللغوية والعرقية والتاريخية عن الجنس البشري والكون ، ولتقديم أمثلة على النظريات الاقتصادية والسوسيولوجية في النمو والثورة والشخصية الحضارية ، والخصائص المميزة من قومية أو دينية . وعلاوة على ذلك ، فان التفحص التخيلي للأشياء الشرقية استند بشكل اقتصادي تقريباً إلى وجدان غربي ذي سيادة ، حيث برز من صميم المركزية غير المنازعة لهذا الوجدان عالم شرقي تشكل في البداية تبعاً لأفكار عامة تتعلق بمن وما هو الشرقي ، ثم ما لبث أن خضع في تشكله لمنطق تفصيلي لا يحكمه الواقع التجريبي المجرد بل تتحكم به مجموعة من الرغبات والكوابت والتوظيفات والاسقاطات . واذا كان بمقدورنا ان نشير إلى أعمال استشراقية عظيمة تنم عن البحث العلمي الحقيقي مثل « المختارات العربية » التي جمعها سيلفستر دو ساسي أو كتاب ادوارد وليم لين عن « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » ، فالضرورة تحتم علينا ان نلاحظ بأن الأفكار العرقية التي نادى بها رينان وغوبينو انبثقت عن الباعث ذاته ، مثلما صدرت عنه اعداد كثيرة من الروايات الفيكتورية الاباحية (انظر تحليل ستيفن ماركوس لرواية « التركي الماجن »(٤)) .

ومع ذلك ينبغي للمرء أن يسائل نفسه مراراً وتكراراً عما إذا كان الشأن الهام في الاستشراق هو المجموعة العامة من الأفكار المهيمنة على كتلة المادة ، حيث لا يسع المرء ان ينكر بأن مذاهب التفوق الأوروبي تتخللها ، وتخترقها شتى انواع العرقية والامبريالية وما أشبه ذلك بالاضافة الى نظرات جامدة حول « الشرقي » بوصفه نوعاً من التجريد المثالي والثابت ؟ أو تلك الأعمال الأكثر تنوعاً والتي انتجها كتاب أفراد غير مسؤولين تقريباً ، حيث يمكن للمرء اعتبارهم كأمثلة فردية على مؤلفين يعالجون موضوع الشرق . وبمعنى ما فان البديلين ، العام والخاص . هما في الواقع منظوران للمادة نفسها : ففي الحالتين كليهما يترتب على المرء ان يتعامل مع رواد في الحقل مثل وليم جونز ، ومع فنانين كبار مثل نرفال وفلوبير . ولما لا يكون من الممكن استخدام المنظورين سوية ، أو الواحد منهما تلو الآخر ؟ ألا يوجد هناك خطر واضح في التسوية (وهو بالضبط من النوع الذي كان الاستشراق الاكاديمي ميالا اليه دائماً) لو جرى بصورة منتظمة اعتماد مستوى للوصف يكون إما مغرقاً في العمومية أو مفرطاً في الخصوصية ؟

تنحصر مخاوفي في أمرين هما التشويه وعدم الدقة ، أو بالأحرى في ذلك النوع من عدم الدقة الذي تنتجه عمومية شديدة الجزم وبؤرة تركيز مفرطة في الوضعية . ففي محاولتي ان أعالج هذه المشكلات والتعامل معها ، حاولت ان أتناول ثلاث نواح رئيسية من واقعي المعاصر إذ يبدو لي ان هذه النواحي تشير إلى الطريق للخروج من الصعوبات المنهجية أو المنظورية التي كنت أناقشها . وهي صعوبات قد ترغم الباحث ، في المقام الأول ، على كتابة مقال هجومي خشن على مستوى وصفي غير مقبول في عموميته بحيث أن الجهد يذهب سدى ، ترغمه ، في المقام الثاني ، على كتابة سلسلة من التحليلات المغرقة في تفاصيلها وتنافرها إلى درجة تفقدها كل صلة بخطوط القوة العامة المكونة للحقل ، والمسبغة عليه قوة حجته الخاصة به . كيف السبيل إذن إلى الاقرار بالفردية والى مصالحتها مع قرينتها العامة الذكية والمهيمنة ، لكنها ليست بالقرينة السلبية أو الديكتاتورية المجردة بأي صورة من الصور ؟

ـ ٣ ـ

نكرت ثلاث نواح من واقعي المعاصر : ويتوجب علي الآن أن أشرح هذه النواحي وأناقشها باختصار ، بحيث يتبدى كيف توصلت إلى مسار خاص في البحث والكتابة .

١ ـ التمييز بين المعرفة الخاصة والمعرفة السياسية

من السهل المجادلة بأن المعرفة عن شكسبير أو وردزورث ليست معرفة سياسية ، بينما المعرفة عن الصين المعاصرة أو عن الاتحاد السوفياتي هي كذلك . إن لقبي الشكلي والمهني المميز هو « إنساني النزعة » ، وهو لقب يشير إلى الانسانيات باعتبارها حقل اختصاصي ودراستي ، ولذا فانه من المستبعد وجود أي شيء سياسي يتعلق بما أقوم به في ذلك الحقل . طبعاً ، إن جميع هذه التسميات والتعابير تستخدم هنا بمعزل تام عن ظلال معانيها ، لكنني أعتقد بأن الحقيقة العامة لما أشير اليه تحظى بقبول واسع النطاق . وثمة سبب وراء القول بأن الشخص الانساني النزعة الذي يكتب عن وردزورث ، أو المحرر الأدبي المختص بموضوع الشاعر كيتس ، ليس متورطاً في أي شيء سياسي ، وهذا السبب مفاده ان ما يفعله الواحد منهما يبدو انه لا ينطوي على أثر سياسي مباشر في الواقع بمعناه اليومي . فالباحث العلمي الذي يتخذ من الاقتصاد السوفياتي حقلا لنشاطه يعمل في مجال مشحون لدرجة عالية ، حيث يكثر الاهتمام الحكومي بموضوعه ، وما يمكنه انتاجه على صعيد الدراسات أو المقترحات سوف يتلقفه صانعو السياسة والمسؤولون الحكوميون وعلماء الاقتصاد المؤسساتيون ، وخبراء المعلومات والمخابرات . والتمييز بين « أصحاب النزعة الانسانية » والأشخاص الذين ينطوي عملهم على مضاعفات في السياسة أو على دلالة سياسية هو تمييز يمكن توسيع نطاقه اكثر بالقول إن اللون الايديولوجي لصاحب النزعة الانسانية هو مسألة ذات أهمية عرضية بالنسبة للسياسة (بالرغم من إمكانية كونه على جانب كبير من الأهمية بالنسبة لزملائه في الحقل الاختصاصي ، إذ قد يعترض هؤلاء على ستالينيته أو فاشيته أو على ليبراليته الهينة جداً) ، بينما نجد أيديولوجية الطرف الثاني وقد حبكت مباشرة في نسيج مادته ـ حقاً ، إن الاقتصاد والسياسة وعلم الاجتماع في الاكاديمية الحديثة هي علوم ايديولوجية ولذا يفترض جدلا كونها علوماً « سياسية » .

ومع نلك فان العامل المحدد بالنسبة لمعظم المعرفة المنتجة في الغرب المعاصر (وانا أتحدث هنا بشكل رئيسي عن الولايات المتحدة الأميركية) هو أن تكون معرفة غير سياسية ، أي علمية وأكاديمية ومتجردة ومترفعة عن الاعتقادات المذهبية المتحيزة أو ضيقة التفكير . فالمرء ربما لا يسعه منازعة طموح من هذا النوع على الصعيد النظري ، غير ان الواقع على صعيد الممارسة العملية هو أشد تعقيداً واشكالية . ولم يسبق لامرئ حتى الآن ان استنبط طريقة لتجزيد العالم الباحث عن ظروف الحياة ، وعن حقيقة انتمائه (الواعي أو غير الواعي) إلى طبقة اجتماعية ومجموعة من المعتقدات ومركز اجتماعي أو عن مجرد النشاط الذي يجعل منه عضواً في مجتمع ما . هذه الأمور ما زالت وثيقة الصلة بما يفعله المرء على الصعيد المهني ، بالرغم من كون أبحاثه وثمارها ـ وهذا أمر طبيعي بما فيه الكفاية ـ تحاول بلوغ مستوى من الحرية النسبية حيال الكوابح والقيود التي يفرضها عليه الواقع اليومي الفظ . لأنه يوجد هناك شيء مثل المعرفة

التي تقل تحيزاً عن الفرد الذي ينتجها ولا تفوقه بالأحرى (هذا الفرد بكل ظروف حياته المعقدة والمربكة) بيد ان هذه المعرفة ليست بالتالي معرفة غير سياسية بصورة آلية .

وسواء كانت أبحاث الأدب أو الفيلولوجيا الكلاسيكية مشحونة بالمغزى السياسي — أو تنطوي مباشرة على معنى سياسي — هذه مسألة كبيرة جداً ولقد حاولت ان أعالجها بشيء من التفصيل في مكان آخر(٥) . إن ما يهمني عمله الآن هو الايحاء كيف ان الاجماع الليبرالي العام في اعتباره ان المعرفة « الحقة » هي في الأساس معرفة غير سياسية (وعلى العكس من ذلك : كيف ان المعرفة السياسية المكشوفة ليست معرفة حقة) يؤدي إلى طمس الظروف السياسية المنظمة جدا وان تكن غامضة والمتحصلة عندما يتم انتاج المعرفة . فلا يلقى اليوم أحد المساعدة على الفهم عندما يجري استخدام النعت « سياسي » كوصف يرمي إلى إضعاف الثقة بأي عمل لتجاسره على خرق بروتوكول الموضوعية التي يدعى لها أنها فوق السياسة .يمكننا القول اولا ان المجتمع المدني يقر ويعترف بتراتب في درجات الأهمية السياسية داخل مختلف حقول المعرفة . والى حد ما فان الأهمية السياسية الممنوحة الى حقل من الحقول تأتي من امكانية ترجمته مباشرة إلى لغة الاقتصاد . إنما الى حد اكبر من الأول ، فان الأهمية السياسية تأتي عن قرب حقل من مصادر السلطة والقوة التي يمكن التأكد منها داخل المجتمع السياسي . وهكذا فان دراسة اقتصادية تتناول مخزون الطاقة السوفياتية على المدى الطويل وتأثير هذا المخزون على القدرة العسكرية من المرجح ان يصدر التكليف باجرائها عن وزارة الدفاع الاميركية ، ومن ثم تكتسب الدراسة نوعاً من المكانة السياسية يتعذر اكتسابها من جانب دراسة عن روايات تولستوى المبكرة تقوم احدى المؤسسات بتمويلها جزئيا. مع ان العملين ينتميان الى ما يعترف به المجتمع المدني على أنه حقل مماثل هو حقل الدراسات الروسية. هذا مع العلم بأن احدى الدراستين قد يضعها عالم اقتصادي شديد المحافظة ، بينما تكون الثانية من تأليف مؤرخ ادبي راديكالي . والنقطة التي اريد ابرازها هنا هي ان « روسيا » بوصفها مادة عامة للدراسة تتمتع بأولوية سياسية إزاء التمييزات الأكثر دقة مثل« الاقتصاد » و « التاريخ الأدبي » ، ذلك أن المجتمع السياسي بمفهوم غرامشي يبلغ مجالات من المجتمع المدني مثل مجال الاكاديمية (الجامعة) ويشبعها من مغزى الاهتمام المباشر بها .

لا أريد المضي في التشديد على هذا الأمر على اسس نظرية عامة: إذ يبدو لي أن قيمة قضيتي ومصداقيتها يمكن التدليل عليهما بانتهاج طريق أكثر تخصيصاً ، وذلك على النحو الذي سلكه نعوم شومسكي ، مثلا ، حيث قام بدراسة الصلة الذرائعية بين حرب فيتنام ومفهوم البحث العلمي الموضوعي كما جرى تطبيقها لتغطية الأبحاث العسكرية التي تمولها وترعاها الدولة(٦) . وبما أن بريطانيا وفرنسا ، والولايات المتحدة الأمريكية مؤخراً ، هي دول امبريالية ، فان مجتمعاتها السياسية تضفي على مجتمعاتها المدنية حسا من الالحاح العاجل ، كأنها تنفخ فيها روحاً سياسية مباشرة ، حيثما وكلما كان الأمر متعلقاً بمسائل ذات صلة بمصالحهم الامبريالية في الخارج . وتساورني الشكوك فيما إذا كان الأمر مثاراً للجدل ، مثلا ، القول بأن شخصاً انجليزياً في الهند أو في مصر عند أواخر القرن التاسع عشر قد أبدى اهتماماً بهذين البلدين ولم يكن هذا الاهتمام بعيداً أبداً عن مكانتهما في ذهنه كمستعمرين بريطانيين . إن قولنا هذا قد يبدو مغايراً تماماً للقول إن كل المعرفة الاكاديمية عن الهند ومصر

تخالطها وتطبعها ،وتنتهكها الواقعة السياسية الفاضحة ــ ومع ذلك (**هذا هو ما اقوله**) في هذه الدراسة عن الاستشراق . لأنه إذا كان صحيحاً بأن أي انتاج للمعرفة في العلوم الانسانية لا يمكنه ابداً أن يتجاهل أو ينكر تورط مؤلفها كذات انسانية في ظروفه الخاصة ، فلا بد أيضاً من كونه صحيحاً بأنه بالنسبة للأوروبي أو الاميركي الذي يدرس الشرق لا مجال هناك لانكار الظروف الرئيسية العائدة لواقعه الفعلي : وذلك بأنه يتصدى للشرق كأوروبي أو اميركي في الدرجة الأولى ، وبوصفه فرداً في الدرجة الثانية . وان يكون المرء اوروبياً أو أميركياً في وضع من هذا القبيل ليس واقعة خاملة على الاطلاق . فالأمر قد عنى وهو يعني كون الشخص المذكور مدركا ، مهما كان ادراكه على قدر ضئيل ، انه ينتمي الى دولة لها مصالح محددة في الشرق . والاهم من ذلك ، انه ينتمي الى جزء من الكرة الأرضية له تاريخ محدد من التورط في الشرق يرجع إلى زمن هوميروس تقريباً .

إن صياغة المسألة بهذه الطريقة تبين بأن هذه الحقائق الفعلية السياسية لا تزال غير محددة إلى درجة كبيرة وعامة جداً حتى تثير الاهتمام بالفعل . ومن شأن أي شخص ان يوافق عليها دون ان يوافق بالضرورة على كونها مهمة جداً ، وكمثال على ذلك : فلوبير عندما كتب رواية **سالامبو** ، أو هـ . أ . ر . جب حين كتب « **الاتجاهات الحديثة في الاسلام** » . والمشكلة هي وجود مسافة كبيرة جدا بين الواقعة الكبيرة المسيطرة ، كما وصفتها ، وبين تفاصيل الحياة اليومية التي تتحكم في الانضباط الدقيق للرواية أو لنص البحث العلمي خلال كتابة كل منهما . ومع ذلك فلو أقصينا منذ البداية كل فكرة تقول بأن الحقائق أو الوقائع « الكبرى » مثل السيطرة الامبريالية يمكن تطبيقها بصورة آلية وحتمية إلى مثل تلك المسائل المعقدة كالحضارة (الثقافة) والأفكار ، فاننا سوف نبدأ حينذاك بالاقتراب إلى نوع من الدراسة مثير للاهتمام . وتقول فكرتي بأن الاهتمام الأوروبي والاميركي فيما بعد بالشرق كان سياسياً بحسب بعض الروايات التاريخية الواضحة عنه والتي سردتها في كتابي ، غير أن الثقافة هي التي أوجدت ذلك الاهتمام ، مما جعلها تتفاعل ديناميا مع المسوغات السياسية والاقتصادية والعسكرية الفظة لكي تجعل من الشرق ذلك المكان المتنوع والمعقد على النحو الذي بدا الشرق عليه واضحاً في الحقل الذي أدعوه انا بالاستشراق .

وبناء على ما تقدم ، فان الاستشراق ليس مجرد مادة سياسية أو حقل سياسي ينعكس سلبياً بواسطة الثقافة والبحث العلمي أو المؤسسات ولا هو مجموعة كبيرة ومنتشرة من النصوص عن الشرق ، ولا هو بالتالي يمثل على أو يعبر عن مؤامرة امبريالية « غربية » شنيعة تهدف إلى عرقلة تقدم العالم « الشرقي » وابقائه قيد التخلف والجمود . إنه بالأحرى **توزيع** للوعي الجغراسي وبثه في النصوص الجمالية ونصوص البحث العلمي ، والنصوص الاقتصادية والسوسيولوجية والتاريخية والفيلولوجية .إنه **توسيع** ليس فقط لتمييز جغرافي أساسي (قوامه ان العالم يتألف من نصفين غير متساويين : الشرق والغرب) ، بل لسلسلة كاملة من «المصالح» التي لا يخلقها عن طريق سبل مثل الاكتشاف العلمي واعادة البناء الفيلولوجي والتحليل السيكولوجي ووصف المناظر الطبيعية بالاضافة إلى الوصف السوسيولوجي فحسب . بل يحافظ على تلك المصالح ايضاً . إنه يؤلف إرادة معينة، بدلا من التعبير عنها ، أو قصداً معيناً لفهم عالم مختلف في مظهره (أو عالم بديل وجديد) وللسيطرة على هذا العالم في

بعض الحالات ، وللتلاعب به وحتى إلى دمجة واستيعابه . والاستشراق ، قبل كل شيء ، هو مقالة لا تقوم بأي شكل من الاشكال على علاقة مباشرة ومطابقة مع السلطة السياسية في صورتها الخام ، بل يتم انتاجها ووجودها بالأحرى في مبادلة غير متكافئة مع أنواع مختلفة من السلطة ، ويجري تكوينها إلى درجة ما بواسطة التبادل مع السلطة السياسية (كما مع مؤسسة كولونيالية أو امبريالية) ومع السلطة الثقافية (كما هي الحال مع العلوم المسيطرة مثل علم اللغة المقارن أو علم التشريح ، أو أي علم آخر من علوم السياسة الحديثة) ومع السلطة الحضارية (كما هي الحال بالنسبة لمذاهب وقوانين الذوق والنصوص والقيم) ومع السلطة الاخلاقية (كما هي الحال بالنسبة للافكار عما نفعله « نحن » وما لا يستطيعون « هم » فعله أو فهمه كما نفهمه « نحن ») . حقاً ، إن حجتي الحقيقية تعتبر ان الاستشراق هو ــ ولا يمثل تمثيلا بسيطاً ــ بعد لا يستهان به من ابعاد الثقافة الفكرية ــ السياسية الحديثة ، وبفعل كونه كذلك فهو يتناول الشرق أقل مما يتناول عالمنا « نحن » .

ولأن الاستشراق يؤلف حقيقة ثقافية وسياسية ، فهو لا يقوم إذن ضمن شيء من الفراغ الأرشيفي . بل على العكس تماماً من ذلك ، وأعتقد أنه يمكن أن نبين بأن ما يجري التفكير به أو قوله عن الشرق أو حتى عمله بشأن الشرق يسير وفقاً (وربما يحدث ضمنها) لخطوط معينة واضحة المعالم وقابلة للمعرفة فكرياً . هنا ايضاً يمكننا رؤية درجة لا يستهان بها من ظلال المعاني والتوسع وهي تعمل كأنها فاعلة بين الضغوط العريضة النوعية (superstructural) وتفاصيل التأليف ، إنها حقائق النصوصية.إن معظم الباحثين في حقل الدراسات الانسانية على ما أعتقد يشعرون بسعادة تامة حيال الفكرة القائلة إن النصوص توجد ضمن قرائن ، وأن هناك شيئاً مثل النصوصية على نحو متبادل ، وان ضغوط التقاليد والأسلاف والأساليب البلاغية تحدد ما دعاه والتربنجامين مرة بـ « إرهاق كاهل الشخص المنتج باسم ... مبدأ « الابداعية » حيث يعتقد أن الشاعر يكون هناك في عالمه الخاص . وانه أنجب عمله من صميم عقله الخالص »[٧] . ومع ذلك يوجد هناك تردد في الاقرار بأن القيود السياسية والمؤسسية والايديولوجية تعمل بالطريقة ذاتها على المؤلف الفرد . فالباحث الانساني سوف يعتقد بوجود حقيقة مثيرة للاهتمام في نظر أي مفسر لبلزاك ، وهي انه تأثر في **الكوميديا الانسانية** بالنزاع الذي كان قائماً بين جيوفري سانت هيلير وكوفييه ، لكن النوع نفسه في الضغط على بلزاك ، وهو ضغط الملكية الرجعية للغاية ، يتم الشعور به بطريقة غامضة إنه يحط من شأن « عبقريته » الأدبية ، وبناء عليه فهو أقل جدارة بالدراسة الجدية. وعلى نحو مماثل ــ كما نجد هاري براكن ما فتىء يعكف على تبيان ذلك ــ فان الفلاسفة سوف يديرون مناقشاتهم لكل من لوك وهيوم والتجريبية دون ان يأخذوا بعين الاعتبار ابدا ان هناك صلة واضحة وصريحة لدى هؤلاء الكتاب الكلاسيكيين بين مذاهبم « الفلسفية » والنظرية العرقية ، وتبريرات الرق ، أو الحجج المؤيدة للاستغلال الكولونيالي[٨] . هذه أساليب شائعة بما فيه الكفاية تستخدمها الابحاث العلمية المعاصرة للحفاظ على نقاوتها وصفائها .

ربما كان صحيحاً أن معظم المحاولات الرامية إلى تمريغ أنف الثقافة في وحول السياسة قد كانت محاولات مهاجمة للمعتقدات أو المؤسسات التقليدية على نحو فج وغير بارع . وربما كان التفسير الاجتماعي للأدب ايضاً في حقل اختصاصي غير مواكب ببساطة للقفزات التقنية

الهائلة التي حققها التحليل التفصيلي للنصوص . بيد أنه لا مفر هناك من الاعتراف بالحقيقة القائلة ان الدراسات الأدبية عامة ، والمنظرون الماركسيون الاميركيون على وجه الخصوص ، قد تحاشوا بذل المجهود الرامي الى سد الثغرة جدياً بين مستويات البنية القومية والتحتية على صعيد الدراسة العلمية التاريخية والنصوصية . ولقد بلغ بي الأمر في مناسبة أخرى ان قلت بأن المؤسسة الثقافية ـ الأدبية هي أرض محرمة . ذلك أن الاستشراق يحمل المرء على التصدي مباشرة لتلك المسألة ـ أي انه يقوده إلى الادراك بأن الامبريالية السياسية تحكم سيطرتها على حقل بكامله من الدراسة والتخيل وبمؤسسات البحث العلمي ـ وهذا على نحو يجعل من تجنبها ضرباً من المحال الفكري والتاريخي . ومع ذلك سوف تبقى هناك على الدوام آلية التهرب الخالدة والقائمة على القول إن باحثاً أدبياً أو فيلسوفاً ، على سبيل المثال ، تلقى تدريبه العلمي في الأدب والفلسفة على التوالي ، وليس في السياسة أو التحليل الايديولوجي . وبكلام آخر ، فان حجة الاختصاصي يمكنها ان تعمل بشكل فعال تماماً لكي تسد الطريق أمام المنظور الذي اعتبره أنا بمثابة المنظور الفكري الاكثر جدية .

يبدو لي هنا انه توجد إجابة بسيطة ذات شقين وينبغي اعطاؤها ، على الأقل فيما يتعلق بدراسة الامبريالية والثقافة (أو الاستشراق) . ففي المقام الأول ، إن كل كاتب من كتاب القرن التاسع عشر تقريباً (ويصدق الشيء ذاته ، تماماً على كتاب الفترات السابقة) كان واعياً تمام الوعي ـ وبشكل خارق للمألوف ـ لحقيقة وجود الامبراطورية : وهذا موضوع لم يدرس دراسة جيدة للغاية ، لكن الأمر لن يطول بأحد المختصين المحدثين في دراسة العصر الفيكتوري حتى يقر بأن الابطال الثقافيين الليبراليين أمثال جون ستورات ميل ، وأرنولد وكارليل ونيومان وماكولي وروسكين وجورج اليوت وحتى ديكنز كانت لهم آراء محددة بشأن العرق والامبريالية ، وهي موضوعات يسهل العثور عليها فاعلة في كتاباتهم . حتى انه يتوجب على الاختصاصي التعامل مع المعرفة القائلة ان جون ستورات ميل ، على سبيل المثال ، أوضح في كتابيه « **في الحرية** » و « **الحكومة التمثيلية** » بأن الآراء التي عرضها هناك لا يمكن تطبيقها على الهند (لقد كان موظفاً في وزارة الهند طيلة فترة لا بأس بها من حياته) ، ذلك أن الهنود كانوا متخلفين بدنياً ، إن لم يكن عرقياً .ويمكن العثور على النوع ذاته من المفارقة لدى ماركس ، كما أحاول تبيان هذا الأمر في كتابي . وفي المقام الثاني ، فالاعتقاد بأن السياسة على صورة الامبريالية تؤثر في انتاج الأدب والبحث العلمي والنظرية الاجتماعية وكتابة التاريخ ليس معادلا على الاطلاق للقول بأن الثقافة هي بالتالي شيء ذو شأن منحط أو سيء السمعة . بل على العكس تماماً : جل ما أسعى للوصول إليه هو القول إننا نستطيع تحقيق فهم أفضل لأنظمة الهيمنة المشبعة في مثابرتها وتحمليتها ، والثقافة أو الحضارة هي مثال لهذه الأنظمة ـ عندما ندرك بأن قيودها الداخلية المفروضة على الكتاب والمفكرين كانت **منتجة** ، وليس صادة من جانب واحد . ومن المؤكد ان هذه الفكرة هي التي كان يحاول غرامشي وكل من فوكو وريموند وليامز ، تبيانها والتدليل عليها بطرق مختلفة . إن كل صفحة أو صفحتين مما كتبه وليامز عن « استخدام الامبراطورية ومنافعها » في كتابه « **المسيرة الطويلة** » The Long March تخبرنا عن الغنى الثقافي في القرن التاسع عشر اكثر مما تخبرنا إياه مجلدات من تحليل النصوص وقد جاءت ثمرة العزلة والعمل الدؤوب(٩) .

لذلك فانني أدرس الاستشراق باعتباره تبادلا ديناميا بين مؤلفين فرديين والاهتمامات السياسية الكبرى التي كونتها الامبراطوريات العظمى الثلاث ـ البريطانية والفرنسية والأميركية ـ حيث تم انتاج الكتابة الاستشراقية ضمن أراضيها الفكرية والمتخيلة . إن ما يهمني أكثر من سواه بوصفي عالماً بحاثة ليس الحقيقة السياسية الاجمالية بل التفاصيل ، وحقاً ان ما يهمنا لدى شخص مثل لين أو فلوبير أو رينان ليست الحقيقة التي لا تقبل الجدل (بالنسبة اليه) والقائلة بأن الغربيين متفوقون عن الشرقيين ، بل الدليل المدروس والمعدل بعمق عن عمله المفصل ضمن الحيز الواسع جداً والذي تشق آفاقه تلك الحقيقة . وما على المرء إلا التذكر بأن كتاب لين عن « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » هو كتاب كلاسيكي في المعاينة التاريخية والانتروبولوجية بسبب اسلوبه ، وبسبب تفاصيله اللامعة والذكية لدرجة هائلة ، وليس بسبب انعكاسه البسيط للتفوق العرقي ـ لكي يتسنى له أن يفهم ما أقوله هنا .

إن نوع الاسئلة السياسية التي يثيرها الاستشراق إذاً هي كالآتي : ما هي الأشكال الأخرى من الطاقات الفكرية والجمالية والعلمية والثقافية التي دخلت في تكوين تقليد امبريالي مثل التقليد الاستشراقي ؟ وكيف عملت الفيلولوجيا وصناعة تأليف المعاجم ، والتاريخ والبيولوجيا (علم الحياة) والنظرية السياسية والاقتصادية وكتابة الروايات والشعر الغنائي في خدمة النظرة الامبريالية العريضة التي اتخذها الاستشراق من العالم ؟ وما هي التغييرات والتعديلات والتحسينات ، وحتى الثورات التي تحدث داخل الاستشراق ؟ ما هو معنى الاصالة والاستمرار والفرادة في هذا السياق ؟ كيف يتسنى للاستشراق أن ينقل نفسه ويزرعها أو يولدها من حقبة إلى أخرى ؟ وقصارى القول ، كيف يمكننا أن نعالج ظاهرة الاستشراق الثقافية والتاريخية كنوع من العمل الانساني النابع عن إرادة وليس مجرد استدلال أو استنتاج منطقي غير مشروط ـ بكل ما تتسم به الظاهرة المذكورة من تعقيد تاريخي وتفاصيل وجداره ، دون أن يغرب عن بالنا في الوقت نفسه ذلك الحلف القائم بين العمل الثقافي والنزعات السياسية والدولة والحقائق المخصصة عن السيطرة؟ إن دراسة من زاوية العلوم الانسانية إذ تحكمها مثل تلك الاهتمامات يمكن التصدي بمسؤولية لموضوع **السياسة والثقافة** . لكن هذا لا يعني القول إن مثل هذه الدراسة ترسي قاعدة صارمة ولا سبيل إلى إغفالها عن العلاقة بين المعرفة والسياسة . وحجتي في ذلك هي أن كل بحث استقصائي في العلوم الانسانية يجب عليه ان يصوغ طبيعة العلاقة ضمن السياق الخاص للدراسة ولمادة الموضوع وظروفه التاريخية[١٠].

٢ ـ المسألة المنهجية

كنت في كتاب سابق لي قد اوليت قدراً لا بأس به من التفكير والتحليل للأهمية المنهجية المتعلقة بالعمل في العلوم الانسانية والرامي إلى العثور على صياغة خطوة أولى ونقطة لنطلاق ومبدأ بداية[١١] . واحدى الامثولات الرئيسية التي تعلمتها وحاولت عرضها وتقديمها هي انه لا يوجد هناك شيء مثل نقطة البداية كمعطى مجرد أو متوفر ببساطة : فالبدايات يجب صنعها لكل مشروع على نحو يؤدي إلى **افساح المجال** أمام ما يستتبع عنها . إن صعوبة هذه الامثولة لم احياها بوعي ثاقب في تجربتي مثلما حييتها في هذه الدراسة عن الاستشراق (ولا يمكنني القول بالفعل ماذا كان مقدار حظي من النجاح أو الفشل) . إن فكرة البداية ، والحق يقال ان فعل البداية ، ينطوي بالضرورة على فعل للتحديد أو رسم الحدود ، حيث يجري اقتطاع شيء من كتلة

مادة ضخمة ، وفصله عن تلك الكتلة وجعله يقوم مقام نقطة بدء أو بداية وان يكونهما . وبالنسبة لدارس النصوص هناك مفهوم مماثل عن التحديد الأولي لدى فكرة لويس التوسر عن الاشكالية (problematic) ، الوحدة المحددة الخاصة لنص أو مجموعة من النصوص ، يؤدي التحليل الى بروزها[١٢] غير ان الأمر في قضية الاستشراق (مقابل قضية نصوص ماركس التي يدرسها التوسر بالفعل) ليس مجرد مشكلة ايجاد نقطة انطلاق أو إشكالية ، بل أيضا مسألة تعيين النصوص والمؤلفين والفترات المناسبة أفضل من سواها للدراسة .

لقد بدا لي ضرباً من الحماقة أن أحاول سرد رواية تاريخ موسوعي للاستشراق ، وذلك عائد قبل كل شيء إلى أنه إذا كان مبدأي الهادي سوف يكون « الفكرة الأوروبية عن الشرق » ، فلن يكون هناك حد بالفعل للمادة التي ينبغي علي معالجتها ، وثانياً ، لأن النمط الروائي بالذات لا يتناسب مع اهتماماتي الوصفية والسياسية . وثالثاً ، لوجود كتب مثل ريموند شغاب : « **النهضة الشرقية** » وكتاب يوهان فوك عن « **الدراسات العربية في أوروبا حتى مطلع القرن العشرين** » وكتاب دوروني مليتزكي الأحدث عهداً « **الشأن العربي في انجلترا إبان القرون الوسطى** »[١٣] ــ وهي أعمال موسوعية تتناول أوجهاً معينة من اللقاء الأوروبي الشرقي على نحو يجعل من وظيفة الناقد أمراً مختلفاً ضمن السياق الفكري والسياسي العام الذي رسمت خطوطه اعلاه .

بقيت هناك مشكلة اقتطاع أرشيف دسم جداً إلى أبعاد يمكن السيطرة عليها ، والأهم من ذلك ، رسم الخطوط العريضة لطبيعة نظام فكري ضمن تلك المجموعة من النصوص دون اتباع نظام غبي للتسلسل الزمني في الوقت ذاته . لذا فان نقطة بدايتي كانت التجربة البريطانية والفرنسية والأميركية في الشرق باعتبارها تؤلف وحدة ، وما جعل تلك التجربة ممكنة على صعيد الخلفيات التاريخية والفكرية ، وماذا كانت نوعية تلك التجربة وطابعها المميز . ولأسباب سوف أتناولها بالشرح حالياً قمت بتحديد مجموعة الأسئلة المحددة سلفاً (لكنها لا تزال واسعة المدى على نحو غير مكبوح) وحصرها بالتجربة الانجلو ــ فرنسية ــ اميركية لكل من العرب والاسلام ، وهما الركنان اللذان مثلا الشرق سوية طيلة ما يقارب الألف عام . وفور الانتهاء من عملية الحصر هذه ، بدا لي أن قسماً كبيراً من الشرق قد جرى اقصاؤه ــ الهند واليابان والصين وقطاعات اخرى من الشرق الأقصى ــ وذلك ليس لأن هذه المناطق لم تكن على جانب من الأهمية (فمن الواضح بجلاء انها كانت هامة) ، بل لأن الباحث يمكنه البحث في تجربة اوروبا عن الشرق الأدنى أو الاسلام بمعزل عن تجربتها للشرق الأقصى . ومع ذلك ، ففي فترات معينة من ذلك التاريخ الأوروبي للاهتمام بالشرق ، لا يمكن البحث في أقسام معينة من الشرق مثل مصر وسوريا والجزيرة العربية دون دراسة تورط اوروبا في الاقسام الأبعد من الشرق في الوقت ذاته وأهم هذه الأقسام : بلاد فارس والهند . وهناك حالة بارزة تؤيد هذا الرأي ، ألا وهي الصلة بين مصر والهند بالنسبة لبريطانيا في القرنين الثامن والتاسع عشر . وعلى نحو مماثل ، فان الدور الفرنسي في فك رموز كتاب « الأفستسا » (كتاب الزريشتيين المقدس) ، وظهور باريس كمركز مرموق للدراسات السنسكريتية خلال العقد الأول من القرن التاسع عشر وحقيقة كون اهتمام نابوليون بونابرت في الشرق مرتبطا بوعيه للدور البريطاني في الهند : جميع هذه الاهتمامات في الشرق الأقصى قد أثرت مباشرة بالاهتمام الفرنسي في كل من الشرق الأدنى والاسلام والعرب .

لقد سيطرت بريطانيا وفرنسا على المتوسط الشرقي منذ حوالي نهاية القرن السابع عشر فصاعداً . غير أن مناقشتي لتلك السيطرة والاهتمام المنظم لا تنصف المسائل التالية : (أ) الاسهامات المهمة التي أسدتها للاستشراق كل من المانيا وايطاليا وروسيا واسبانيا والبرتغال . (ب) الحقيقة القائلة ان أحد البواعث المهمة على دراسة الشرق في القرن الثامن عشر كانت الثورة في الدراسات التوراتية والتي أنكاها رواد مثيرون للاهتمام المتنوع مثل المطران لوث وآيشهورن وهردر وميخائيلس . ففي المقام الأول ترتب علي التركيز بشدة وصرامة على المادة البريطانية ـ الفرنسية وفيما بعد على المادة الأميركية لأنه بدا لي صحيحاً بشكل لا مفر منه ليس فقط ان بريطانيا وفرنسا كانتا الأمتان الرائدتان في الشرق والدراسات الشرقية ، بل ان هذه المواقع الطليعية قد جرى التمسك بها بفضل الشبكتين الكبيرين الكولونياليتين في التاريخ السابق للقرن العشرين . واعتقد أن المركز الاستشراقي الاميركي قد تلاءم منذ الحرب العالمية الثانية بوعي ذاتي تماماً في الأماكن التي اكتشفتها ونقبتها الدولتان الأوروبيتان السابقتان .'كما اعتقد ايضا بأن مجرد النوعية والثبات التي ميزت الكتابة البريطانية والفرنسية والأميركية عن الشرق ترفعها فوق العمل الحاسم دون شك والذي تم في المانيا وايطاليا وروسيا وغيرها من البلدان . بيد اني اعتقد أنه من الصحيح ايضا بأن الخطوات الرئيسية في حقل الدراسات والأبحاث العلمية الاستشراقية قد جرى اتخاذها أولا إما في بريطانيا أو فرنسا ، ومن ثم بادر الألمان إلى توسيعها والاضافة إليها . إن سيلفستر دوساسي ، مثلا ، لم يكن فحسب أول مستشرق اوروبي حديث ومؤسسي ، اشتغل في موضوعات الاسلام والأدب العربي المذهب الدرزي وبلاد فارس في ظل الساسانيين . بل كان معلم شامبوليون وفرانز بوب ، مؤسس علم الدراسات اللغوية المقارنة في المانيا.وثمة ادعاء مماثل في الاسبقية واحتلال المركز المرموق لاحقاً وتجوز نسبتهما لكل من وليم جونز وادوارد وليم لين .

وفي المقام الثاني ـ وهذا ما يعوض باسهاب عن النواقص التي تعتري دراستي للاستشراق ـ ثمة أعمال مهمة وحديثة العهد قامت بدراسة الخلفية المصاحبة في الدراسات العلمية التوراتية لنشوء ما دعوته بـ الاستشراق الحديث . أما العمل الأفضل والوثيق الصلة بالموضوع على نحو مضيء فهو دراسة إ . س . شيفر المثيرة للاعجاب بعنوان « **قبلة خان** » **وسقوط القدس**(١٤) . إنها دراسة لا مناص منها عن جذور الرومانسية والنشاط الفكري المدعم لكثير مما يدور في كتابات كولريدج وبراونينغ وجورج اليوت . والى درجة معينة فان عمل شيفر يحسن الخطوط العريضة التي قدمها شغاب ، وذلك من خلال تبيان المادة ذات الصلة الوثيقة بالموضوع والتي يمكن العثور عليها لدى علماء التوراة الألمان ، ومن ثم يستخدم تلك المادة لقراءة أعمال ثلاثة كتاب بريطانيين رئيسيين بطريقة ذكية ومثيرة للاهتمام دائماً . مع ذلك ، فالشيء الذي ينقص الكتاب هو بعض احساس بالحافة السياسية والأيديولوجية الممنوحة للمادة الشرقية على يد الكتاب البريطانيين والفرنسيين الذين يشكلون محط اهتمامي الرئيسي ، وعلاوة على ذلك ، فانني احاول ، بخلاف شيفر ، بسط التطورات اللاحقة في كل من الاستشراق الاكاديمي والأدبي ، وهي تطورات تؤثر في الصلة بين الاستشراق البريطاني والفرنسي من جهة ونشوء امبريالية ذات عقلية كولونيالية صريحة من جهة ثانية . إذ أرغب ايضاً في إظهار كيف أن جميع هذه المسائل المبكرة يتم استخراجها إلى حد ما في الاستشراق الاميركي بعد الحرب العالمية الثانية .

وبغض النظر عن ذلك هناك ناحية في دراستي يمكنها التضليل ، حيث انني لا أبحث بشكل استنفادي التطورات الألمانية في أعقاب الفترة التدشينية التي يسيطر عليها ساسي ، باستثناء اشارات متفرقة هنا وهناك . فكل عمل دراسي يسعى إلى تقديم فهم للاستشراق الاكاديمي ولا يمنح اهتماما كافيا لعلماء أمثال شتاينتال وموللر وبيكر وغولدتسيهر وبروكلمان ونولدكه ـ لكي نكتفي بذكر حفنة منهم فقط ـ يحتاج إلى التقريع ، ولذا أبادر تلقائيا إلى تقريع نفسي ، وأشعر بالأسف على الأخص لأنني لم آخذ اكثر بعين الاعتبار تلك المكانة العلمية العظيمة والمرموقة التي استحقتها الابحاث العلمية الألمانية عند منتصف القرن التاسع عشر ، حيث أدى إهمالها إلى ادانة الباحثين البريطانيين المحصورين في جزرهم على يد جورج اليوت . هنا تحضرني الصورة التي لا تنسى والتي رسمتها جورج اليوت للسيد كازوبون في رواية « ميدل مارش » (أواسط آذار) إن أحد الأسباب في كون كازوبون لا يستطيع انهاء مفتاحه لكافة الميثولوجيات مرجع في نظر ابن عمه الشاب ويل لاديسلاف إلى انه غير مطلع على الأبحاث العلمية الألمانية . ذلك ان كازوبون لم يختر موضوعا « متغيراً كالكيمياء : الاكتشافات الجديدة تقود باستمرار نحو قيام وجهات نظر جديدة » فحسب ، بل إنه يضطلع بمهمة تشبه دحضاً لباراسيلزوس لأنه « كما تعرف ، ليس مستشرقاً »(١٥) .

لم تكن إليوت مخطئة في تضمينها القول إنه عند حوالي العام ١٨٢٠ ، حيث تبدأ أحداث روايتها « ميدل مارش » ، كان البحث العلمي الألماني قد بلغ تفوقه الأوروبي كاملا ، ومع ذلك ففي أي وقت من الأوقات خلال الثلثين الأولين من القرن التاسع عشر لم يتسن لشراكة وثيقة ان تتطور داخل البحث العلمي الألماني بين المستشرقين واهتمام قومي بالشرق طويل الأمد ومتواصل . ففي المانيا لم يوجد شيء مقابل للحضور الانجلو ـ فرنسي في الهند والليفانت وشمال افريقيا . وفضلا من ذلك ، فالشرق الألماني كان مقتصراً تقريباً على شرق علمي ، أو على الأقل كلاسيكي : فالألمان جعلوا من الشرق موضوعاً للشعر الغنائي والخيال وحتى للروايات ، لكنه لم يكن واقعا فعلياً على الاطلاق ، على النحو الذي مثلته مصر وسوريا لكل من شاتوبريان ولين ولامارتين وبورتن وديزرائيلي أو نرفال . وهناك شيء من المغزى والدلالة في الحقيقة التي مفادها ان العملين الالمانيين الأوسع شهرة، عن الشرق ، وهما كتاب غوته « الديوان الشرقي الغربي » ودراسة فردريك شليغل عن « لغة الهنود وحكمتهم » قد استندا بالتتالي الى رحلة على نهر الراين وساعات أمضاها المؤلف في مكتبات باريس . إن ما فعله علم الاستشراق الألماني هو تحسين وتوسيع التقنيات التي جرى تطبيقها على نصوص وأساطير وأفكار ولغات جرى تجميعها حرفيا تقريباً من الشرق على يد امبراطوريتي بريطانيا وفرنسا .

ومع ذلك فان القاسم المشترك بين الاستشراق الألماني والاستشراق الانجلو ـ فرنسي ، والأميركي لاحقاً ، هو امتلاك نوع من السلطة الفكرية على الشرق ضمن الحضارة الغربية . هذه السلطة يجب ان تؤلف في القسم الأكبر منها موضوع أي وصف للاستشراق ، والأمر هو كذلك في هذه الدراسة . حتى ان اسم « الاستشراق » يوحي بوجود اسلوب جدي في الشرح والتعليق الماهرين ، وربما اسلوبا مملا ومضجراً .

حين أقوم باطلاق لفظة استشراق على علماء الاجتماع الاميركيين المحدثين (وبما أنهم لا يطلقون على انفسهم تسمية مستشرقين ، فان استخدامي لهذه اللفظة غير سوي) ، فالهدف

من وراء ذلك هو اجتذاب الانتباه الى الطريقة التي ما فتىء خبراء الشرق الأوسط يسلكونها إذ يمكنهم أن يستمدوا مادة لهم من بقايا المركز الفكري للاستشراق في أوروبا القرن التاسع عشر .

ليس هناك من شيء تحف به الأسرار أو طبيعي بشأن السلطة ، إنها تتشكل وتفيض وتنتشر . وهي ذرائعية ومقنعة . السلطة لها مكانة ، وهي ترسي قوانين الذوق والقيم . إنها غير قابلة للتمييز فعلياً عن بعض الأفكار التي تجلها على أنها أفكار صحيحة ، وعن التقاليد والادراكات والأحكام التي تشكلها وتنقلها وتولدها . فالسلطة يمكن تحليلها ، قبل كل شيء ، ويجب تحليلها حقاً . إن جميع هذه الصفات التي توصف بها السلطة تنطبق على الاستشراق ، والكثير مما أقوم به في هذه الدراسة هو وصف أمرين : السلطة التاريخية ضمن الاستشراق والسلطات الشخصية التي امتلكها هذا الاستشراق .

إن أدواتي المنهجية الرئيسية في دراسة السلطة هنا هي ما يمكن تسميته بـ « **الموقع الاستراتيجي** » ، وقوامه طريقة في وصف مركز المؤلف ضمن نص بالنسبة للمادة الشرقية التي يكتب عنها ، **والتشكيل الاستراتيجي** ، وهو طريقة في تحليل العلاقة بين النصوص وكيف ان مجموعة من النصوص وانواعاً من النصوص ، وحتى أجناساً من النصوص تكتسب كتلة وكثافة وقوة مرجعية فيما بينها وبالتالي في الثقافة بصورة عامة . إنني استخدم مفهوم الاستراتيجية لمجرد تعريف المشكلة التي واجهها كل كاتب عن الشرق : كيف يتم الامساك بها ، ومقاربتها ، وكيف الحؤول دون الانهزام أو الانسحاق أمام سموها ونطاقها وأبعادها المخيفة ، إن كل شخص يكتب عن الشرق يجب عليه تجديد موقعه ازاء الشرق . فلو قمنا بترجمة هذا الموقع إلى النص المستخدم ، لوجدنا انه يشمل نوعية الصوت الروائي السردي الذي يتبناه الكاتب ، ونوع البناء الذي يشيد صرحه ، وانواع الصور والموضوعات والأفكار الرئيسية التي يدور عليها نصه ـ وكل هذه تضاف الى الاساليب المعتمدة في مخاطبة القارئ ، واحتواء الشرق ، واخيراً تمثيل هذا الشرق أو التحدث بالأصالة عنه . إنما لا شيء من هذه الأمور يحدث على صعيد التجريد . فكل كاتب عن الشرق (وهذا يصدق حتى على هوميروس) يتخذ لنفسه سابقة شرقية ، ويفترض شيئاً من المعرفة المسبقة بالشرق ، حيث يرجع إلى ذلك ويعتمد عليه . أضف إلى ما تقدم ، أن كل دراسة عن الشرق تقيم روابط النسب بينها وبين دراسات اخرى ، ومع جماهير ومؤسسات ، ومع الشرق ذاته . لذا فان مجموع العلاقات بين الأعمال والجماهير وبعض النواحي الخاصة عن الشرق تؤلف تشكيلا قابلا للتحليل ـ وعلى سبيل المثال نذكر : الدراسات الفيلولوجية والمختارات المقتطفة من الأدب الشرقي ، وكتب الرحلات ، والخيالات الشرقية ـ حيث يضفي عليها حضورها في الزمن وفي المقالة وفي المؤسسات (المدارس ، المكتبات والسلك الخارجي) قوة وسلطانا .

من الواضح ، على ما آمل ، ان اهتمامي بالسلطة لا يستلزم تحليلا لما يقبع مختبئا في النص الاستشراقي ، بل تحليلا بالأحرى لظاهر النص ، ولخارجيته بالنسبة لما يصفه . ولا أعتقد انه يمكن الامعان في التشديد على هذه الفكرة . فالاستشراق يفترض الخارجانية كمقدمة منطقية ، أي انه يقوم على الحقيقة القائلة بان المستشرق ، شاعرا كان أم باحثا علامة ، يجعل الشرق يتحدث ، ويصف الشرق ، ويفك رموز أسراره الخفية مبسطا إياها أمام الغرب ولأجله .

فهو لا يهتم بالشرق أبداً ، باستثناء اعتباره له بمثابة العلة الأولى لما يقوله . إن ما يقوله ويكتبه ، بفضل حقيقة قوله أو كتابته ، يقصد منه الاشارة إلى أن المستشرق يقف خارج الشرق ، كحقيقة وجودية ومناقبية على السواء . أما النتاج الرئيسي لهذه الخارجانية فهو طبعاً التمثيل : منذ زمن مبكر يعود إلى مسرحية اسخيلوس « **الفرس** » يجري تحويل الشرق من آخرية (Otherness) بعيدة ونائية جداً وغالباً ما تكون مهددة (بكسر الدال) إلى صور مألوفة نسبياً (إلى نساء آسيويات حزينات ، في حالة اسخيلوس) . إن الفورية الدراماتية للتمثيل في مسرحية الفرس تطمس الحقيقة في أن الجمهور شاهد حدثاً مصطنعاً للغاية عما فعله شخص غير شرقي محولاً إياه إلى رمز للشرق بكامله . لذا فان تحليلي للنص الاستشراقي يضع التشديد على الأدلة ، وهي أدلة غير مرئية بأية حال ، بالنسبة للتمثيلات بوصفها **تمثيلات** وليس تصويرات « طبيعية » للشرق . هذه الأدلة يمكن العثور عليها بشكل بارز في النص المزعوم (التواريخ والتحاليل الفيلولوجية والمقالات السياسية) كما في النص الفني المعترف به (أي المتخيل بصراحة) . فالأشياء التي ينبغي النظر إليها هي الأسلوب والتشابيه والاستعارات ، مكان وزمان المشهد ، الوسائل السردية الروائية ، والظروف التاريخية والاجتماعية ، وليس صوابية التمثيل ولا امانته بالنسبة لأصل عظيم . إن خارجانية التمثيل تحكمها على الدوام صيغة معينة للحقيقة البدهية القائلة إنه لو استطاع الشرق تمثيل نفسه ، لفعل ذلك . وبما انه لا يستطيع ، فالتمثيل يؤدي هذه الوظيفة ، من أجل الغرب ــ ولعدم وجود شيء أفضل من أجل الشرق المسكين (الفقير) . وكما كتب ماركس يقول في « الثامن عشر من برومير لويس بونابرت : « إنهم لا يستطيعون تمثيل أنفسهم ، وينبغي لأحد ما ان يمثلهم » .

ثمة سبب آخر وراء الالحاح على الخارجانية وهو اعتقادي بضرورة توضيح المسألة التالية بالنسبة للمقالة الحضارية وللتبادل ضمن الحضارة الواحدة : إن ما يجري تداوله بصورة شائعة على يدها ليس « الحقيقة » بل التمثيلات . ولا حاجة بنا إلى التبيين والتدليل مجدداً بأن اللغة في ذاتها هي منظومة في غاية التنظيم والترميز ، تستخدم عدة وسائل للتعبير والاشارة ، وتبادل الرسائل والمعلومات والتمثيل وهلم جرا ففي أية حالة من حالات اللغة المكتوبة هي حضور للقارئ بفضل كونها قد أقصت واستبدلت أي **شيء حقيقي** مثل « الشرق » وجعلته نافلاً . وهكذا فان الاستشراق بمجمله يقف من هنا فصاعداً بعيداً عن الشرق : ذلك ان كون الاستشراق ينطوي على معنى اطلاقاً يعتمد على الغرب اكثر من اعتماده على الشرق ، وهذا المعنى مدين مباشرة الى تقنيات غربية متنوعة في التمثيل ، وهي التي تجعل الشرق مرئياً وجلياً و « هناك » في المقالة عنه ، وهذه التمثيلات والتصورات تعتمد بدورها على المؤسسات والتقاليد والأعراف والمفاتيح المتفق عليها للفهم في ممارسة تأثيراتها ، وليس على شرق هلامي ونائي البعد .

أما الفرق بين تمثيلات الشرق قبل الثلث الأخير من القرن الثامن عشر والتمثيلات التي جاءت بعد هذا التاريخ (أي التمثيلات التي تنتمي إلى ما أدعوه بالاستشراق الحديث) هو أن مدى التمثيل اتسع بشكل هائل في الفترة الثانية .

ومن الصحيح ان أوروبا توصلت ، بعد وليم جونز وانكوتيل ــ دوبيرون وبعد حملة نابوليون المصرية ، الى معرفة الشرق بشكل علمي اكثر ، والى أن تعيش مع هذا الشرق بمزيد من

السلطة والانضباط اكثر من أي وقت مضى . لكن الشيء الذي استأثر باهتمام أوروبا كان المدى الموسع والتحسين الأكبر جداً والذي طرأ على تقنياتها لاستقبال الشرق . وعندما كشف الشرق بصورة محددة عن عمر لغاته ـ عند منعطف القرن الثامن عشر ـ مما أدى إلى اهمال واماتة شجرة النسب الالهي العبرانية ، كانت مجموعة من الأوروبيين هي التي قامت بالاكتشاف ، ونقلته إلى غيرها من العلماء الباحثين ، وحافظت على الاكتشاف في العلم الجديد للفيلولوجيا الهندو أوروبية . لقد ولد علم قوي جديد للنظر إلى الشرق اللغوي ، وكما أظهر فوكو في « نظام الأشياء » ، ولدت مع هذا العلم شبكة كاملة من الاهتمامات العلمية المتصلة بالموضوع . وعلى نحو مماثل ، أقدم وليم بكفورد وبايرون وغوته وهوغو على إعادة بناء الشرق بواسطة فنهم ، وجعلوا ألوانه واضواءه وأناسه مرئيين من خلال صورهم وايقاعاتهم وموضوعاتهم الرئيسية . وفي أقصى الحالات فان الشرق « الحقيقي » أثار حفيظة الكاتب في الوصول إلى رؤيته ، لكنه من النادر جداً هدى تلك الرؤية وارشدها .

واستجاب الاستشراق للحضارة التي انتجته اكثر من استجابته لموضوعها المزعوم والذي جرى انتاجه في الغرب ايضاً . وهكذا فان تاريخ الاستشراق يتسم بأمرين على السواء : تماسك داخلي ومجموعة مترابطة باتساق وانتظام للغاية من العلاقات مع الثقافة (الحضارة) السائدة والمحيطة به . إن تحليلاتي بناء على ذلك تحاول ان تبين شكل الحقل الاستشراقي وتنظيمه الداخلي ، ورواده وثقاته من ذوي السلطة الأبوية ، ونصوصه المعترف بها ، وأفكاره التسبيحية وأشخاصه القدوات ، واتباعه وشارحيه وموسعيه وسلطاته الجديدة ، مثلما أحاول ايضاً أن أشرح وأفسر كيف استعار الاستشراق وأخذ المعلومات مراراً عن الأفكار « القوية » والعقائد والاتجاهات المسيطرة على الثقافة ، وهكذا كان هناك (ويوجد هناك) شرق لغوي ، وشرق فرويدي ، وشرق اشبنغلري ، وشرق داروبني ، وشرق عرقي ـ وهكذا دواليك ، ومع ذلك فانه لم يوجد أبداً شيء من قبيل الشرق الخالص أو غير المشروط . وبالمماثل ، لم يوجد أبداً شكل غير مادي للاستشراق ، كما لم توجد على الاطلاق « فكرة » بريئة عن الشرق . إنني اختلف في هذا الاعتقاد الكامن و في النتائج المنهجية المستسقاة منه عن العلماء الباحثين الذين يدرسون تاريخ الأفكار . ذلك أن التشديدات والشكل التنفيذي وفوق كل شيء الفعالية المادية للعبارات التي تطلقها المقالة الاستشراقية هي ممكنة بطرق تجعل أي تاريخ منغلق للأفكار يميل إلى الاستخفاف بها كليا . والاستشراق بدون هذه التشديدات وتلك الفعالية المادية من شأنه أن يكون مجرد فكرة اخرى ، بينما هو بالفعل وقد كان اكثر من مجرد ذلك . لذا فانني انطلق ليس إلى تفحص الاعمال العلمية فقط ، بل أعمال الأدب والمقالات السياسية والنصوص الصحفية وكتب الرحلات والدراسات الدينية والفيلولوجية أيضا . وبكلمات اخرى ، ان منظوري الهجيني هو منظور عريض تاريخياً و « انتروبولوجيا » ، لا سيما متى كنت اعتقد بأن جميع النصوص هي دنيوية وظرفية (بالطبع) في طرق تختلف من نوع إلى نوع ، ومن فترة تاريخية إلى فترة تاريخية .

ومع ذلك ، بخلاف ميشيل فوكو ، الذي أدين لعمله إلى حد كبير ، فانني أعتقد بالتأثير المحدد للكتاب الأفراد على تلك الكتلة الجماعية المجهولة من النصوص التي تؤلف تشكيلا استطراديا مثل الاستشراق . إن الوحدة في المجموعة الكبيرة من النصوص التي أقوم بتحليلها

ترجع جزئياً إلى حقيقة كون النص الواحد منها يشير إلى الآخر في كثير من الأحيان : فالاستشراق قبل كل شيء هو نظام للاتيان على ذكر الاعمال والمؤلفين والاستشهاد بهم . وكتاب ادوارد وليم لين عن « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » قد قرأه واستشهد به اشخاص متفرقون مثل نرفال وفلوبير وريتشارد بورتن . كان ثقة في الموضوع واستخدام هذه الثقة كان أمراً إلزامياً لأي شخص يكتب عن الشرق أو يفكر به ، وليس مجرد مصر . عندما يقتبس نرفال فقرات بنصها الحرفي من « عادات وتقاليد المصريين المحدثين » فانه يتوخى الاستفادة من ثقة لين في الموضوع لكي تساعده على وصف المشاهد القروية في سوريا وليس في مصر ، إن الثقة المسبغة على لين والفرص المتاحة أمام الاستشهاد بكتابه على نحو مميز كما بدون تمييز كانت هناك لأن الاستشراق كان في استطاعته ان يمنح نصه ذلك النوع من التداول والرواج التوزيعي الذي اكتسبه . بيد أنه لا توجد طريقة لفهم الرواج الذي لقيه لين دون ان نفهم أيضاً الخصائص المميزة لنصه . هذا يصدق أيضاً على رينان وساسي ولامارتين وشليغل ومجموعة من الكتاب النافذين الآخرين . ويعتقد فوكو بأن النص الفردي أو المؤلف بمفرده على العموم لا يعتد به إلا قليلا جداً . بينما اجد أنا ، على الصعيد التجريبي ، بأن هذا الأمر ليس كذلك بالنسبة لقضية الاستشراق (وربما ليس في مكان آخر) . وبناء على ذلك فان تحليلاتي تستخدم قراءات متقاربة من النصوص وهدفها الكشف عن الجدلية القائمة بين النص المفرد أو الكاتب بمفرده وبين التشكيل الجماعي المعقد الذي يؤلف عمله اسهاماً فيه .

بيد أن هذا الكتاب بالرغم من اشتماله على انتقاء مسهب من الكتاب لا يزال بعيداً عن كونه تاريخاً كاملا للاستشراق أو رواية عامة لسيرته . إنني أعي هذا النقص تمام الوعي . فالنسيج السميك لمقالة الاستشراق قد بقي على قيد الحياة ومارس عمله الوظيفي في المجتمع الغربي بسبب ثرائه وغناه : وجل ما قمت به هو وصف أجزاء من ذلك النسيج في لحظات معينة ، والاكتفاء بمجرد الايحاء بوجود كل أكبر من الأجزاء ، مفصل ومثير للاهتمام تحتشد فيه صور ونصوص وأحداث فاتنة . ولقد عزيت نفسي بالاعتقاد أن هذا الكتاب هو القسط الأول من سلسلة متتابعة ، وآمل انه يوجد هناك علماء ونقاد ممن يريدون كتابة دراسات أخرى غيره . لكن هناك مقالة عامة ما زالت تحتاج إلى من يكتبها عن الامبريالية والثقافة . ومن شأن الدراسات الأخرى أن تتعمق في تقصي الصلة بين الاستشراق وعلم التربية ، أو في دراسة الاستشراق الهولندي والايطالي والألماني والسويسري ، أو في تناول الدينامية القائمة بين البحث العلمي والكتابة المتخيلة ، أو في رصد العلاقة بين الأفكار الادارية والنظام الانضباطي الفكري . وربما كانت المهمة التي تستأثر بالجانب الأكبر من الأهمية إزاء كافة المهمات هي القيام بدراسات عن البدائل المعاصرة للاستشراق ، والتساؤل كيف يستطيع المرء أن يدرس حضارات وشعوب اخرى من منظور يسترشد بمبادئ الحرية أو لا يعتمد الكبت ويتجنب التحوير والتلاعب ، لكن يترتب على الباحث عند ذاك أن يعيد التفكير في المشكلة المعقدة بكاملها ، مشكلة المعرفة والقوة . هذه كلها مهمات يجري تركها ناقصة على نحو محرج في هذه الدراسة .

اما الملاحظة الأخيرة حول الطريقة والتي أريد ابداءها هنا ــ وربما كانت ملاحظة تنطوي على اطراء ذاتي ــ فهي أنني قد كتبت هذه الدراسة وفي ذهني عدد من جماهير القراء .

بالنسبة لطلاب الأدب والنقد الأدبي يقدم الاستشراق مثالا رائعا على العلاقات الداخلية والمتداخلة بين المجتمع والتاريخ والنصوصية . وفضلا عن ذلك فان الدور الثقافي (الحضاري) الذي لعبه الشرق في الغرب يربط بين الاستشراق والأيديولوجية والسياسة ومنطق القوة ـ وهذه أمور ذات صلة وثيقة ـ على ما أعتقد ـ بالاسرة الأدبية . أما بالنسبة لطلاب الشرق المعاصرين ، من الباحثين الجامعيين إلى صانعي السياسة ، فقد كتبت وفي ذهني هدفان اثنان : الهدف الأول هو تقديم سلسلة نسبهم الفكري لهم بطريقة لم يتم عملها من قبل . والثاني هو انتقاد الافتراضات غير المحصنة في الغالب والتي يستند إليها عملهم في القسم الأكبر منه ، على أمل اثارة النقاش . أما بالنسبة للقارئ العام فان هذه الدراسة تعالج مسائل تنتزع منه الاهتمام دائماً ، وجميع تلك المسائل لا تمت بصلة إلى التصورات والمعالجات الغربية للآخر فحسب ، بل إلى الدور الفريد في أهميته والذي لعبته الحضارة الغربية في ما دعاه فيكو بعالم الأمم . وأخيرا وبالنسبة إلى القراء في ما يدعى بالعالم الثالث ، تطرح هذه الدراسة نفسها كخطوة نحو تحقيق فهم ليس للسياسة الغربية وللعالم غير الغربي في تلك السياسة بقدر ما هو فهم لقوة المقالة الثقافية الغربية ، وهي قوة يجري اعتبارها في كثير من الأحيان على نحو خاطئ بأنها مجرد قوة زخرفية أو « فوق بنيوية » وأملي يتركز على تبيان البنية الهائلة للسيطرة الثقافية ، وعلى الأخص بالنسبة للشعوب التي كانت مستعمرة في السابق ، لايضاح الاخطار والمجازفات التي ينطوي عليها استخدام هذه البنية وتطبيقها على انفسهم أو على الآخرين .

إن الفصول الثلاثة الطويلة والوحدات الاثنتي عشرة الأقصر منها والتي يقسم اليها هذا الكتاب ترمي إلى تسهيل العرض بقدر الامكان . فالفصل الأول وعنوانه « نطاق الاستشراق » يرسم دائرة كبرى حول كافة أبعاد الموضوع ، على صعيدين : صعيد الزمن التاريخي والتجارب التاريخية ، وصعيد الموضوعات الفلسفية والسياسية . والفصل الثاني « البنيات الاستشراقية واعادة تركيبها » ، يحاول تتبع تطور الاستشراق الحديث بواسطة وصف يعتمد التسلسل الزمني العريض ، وكذلك من خلال وصف لمجموعة من الأدوات والوسائل تؤلف القاسم المشترك لعمل شعراء وفنانين وعلماء على جانب من الأهمية ويبدأ الفصل الثالث ، وعنوانه « الاستشراق الآن » ، حيث توقف سلفه ، أي حوالي العام ١٨٧٠ . هذه هي فترة التوسع الكولونيالي العظيم في الشرق ، وتبلغ ذروتها في الحرب العالمية الثانية . أما القسم الأخير بالذات من الفصل الثالث فانه يصف الخصائص المميزة للانتقال من الهيمنة البريطانية والفرنسية إلى الهيمنة الأميركية . وأحاول أنا هناك أخيرا أن أرسم الخطوط العريضة للواقع الفكري والاجتماعي الحالي الذي يلازم حقيقة الاستشراق في الولايات المتحدة الأميركية .

٣ ـ البعد الشخصي

يقول غرامشي في « مذكرات السجن » : « إن نقطة البدء في التوسيع النقدي هي وعي المرء لحقيقة كونه بالفعل ، وهي « إعرف نفسك » كنتيجة للعملية التاريخية حتى تاريخه ، والتي رصدت فيك عددا لامتناه من الآثار ، دون ان تترك قائمة جرد للموجودات » . والترجمة الانجليزية الوحيدة المتوفرة تترك تعليق غرامشي عند ذلك الحد على نحو يتعذر تفسيره أو تعليله ، بينما النص الايطالي لعبارة غرامشي ينتهي بالواقع مضيفا ما يلي : « لذا يصبح أمرا إلزاميا في البداية ان نضع مثل تلك القائمة لجرد الموجودات »(١٦) .

إن الكثير من التوظيف الشخصي في هذه الدراسة يستمد من وعيي لكوني « شرقياً » ، كطفل نما وترعرع في مستعمرتين بريطانيتين . وكل التربية والتعليم الذي تلقيته في هاتين المستعمرتين (فلسطين ومصر) وفي الولايات المتحدة ، كان غربياً ، ومع ذلك فقد بقي قائماً ذلك الوعي العميق المبكر . وفي طرق عديدة فان دراستي عن الاستشراق قد كانت محاولة لوضع قائمة جردية بالآثار التي خلفتها في نفسي ، أنا الموضوع الشرقي ، تلك الثقافة أو الحضارة التي كانت سيطرتها عاملا قويا للغاية في حياة جميع الشرقيين . ولهذا السبب فان الشرق الاسلامي بالنسبة لي كان يجب ان يؤلف مركز الاهتمام ، وسواء كانت القائمة الجردية التي أنجزتها هي القائمة التي يصفها غرامشي ، فالحكم على ذلك ليس منوطاً بي ، بالرغم من شعوري بأهمية كوني واعياً لمحاولة انتاج مثل تلك القائمة . وعلى امتداد المسيرة التي قطعتها في هذه الدراسة ، لقد حاولت متسلحاً بدرجة من الصرامة والعقلانية على قدر الامكان أن أحافظ على وعي نقدي ، هذا بالاضافة إلى استخدام تلك الأدوات في البحث التاريخي والانساني والثقافي التي جعلتني تربيتي العلمية المستفيد المحظوظ منها ، غير انني في كل ذلك لم أفقد أبداً سيطرتي على الواقع الثقافي (الحضاري) والتورط الشخصي الناجم عن كوني « إنساناً شرقياً » .

إن الظروف التاريخية التي تجعل مثل هذه الدراسة امراً ممكناً هي معقدة تماماً ، ولا يسعني هنا سوى سردها بشكل منسق ومنتظم . وكل امرئ مقيم في الغرب منذ الخمسينات ، ولا سيما في الولايات المتحدة الأميركية ، لا بد انه عاش خلال حقبة من الاضطراب غير المألوف في العلاقات بين الشرق والغرب . فلا أحد من الناس قد أخفق في الملاحظة كيف ان « المشرق » قد دل دائماً على الخطر والتهديد خلال هذه الفترة ، حتى عندما كان يعني الشرق التقليدي وروسيا على السواء ، ولقد أدى في الجامعات نمو متزايد لانشاء برامج ومعاهد دراسات المنطقة إلى جعل دراسة الشرق فرعاً من فروع السياسة القومية . وتشتمل الشؤون العامة في هذه البلاد (اميركا) على اهتمام معاق بالشرق ، ومرد هذا الاهتمام عائد إلى أهمية الشرق الاستراتيجية والاقتصادية بقدر ما يعود إلى غرابته التقليدية ، واذا كان العالم قد أصبح على الفور في متناول مواطن غربي يعيش في العصر الالكتروني ، فان الشرق قد اقترب منه أيضاً ، ولربما هو الآن أقل منه أسطورة من كونه مكاناً تتقاطع فيه المصالح ، والاميركية منها بنوع خاص .

وثمة ناحية من نواحي العالم الالكتروني ما بعد الحديث وهي انه يوجد هناك تعزيز للقوالب الجامدة التي يتم النظر من خلالها إلى الشرق . فالتلفزيون والأفلام وجميع الموارد المتوافرة لوسائل الاعلام قد حشرت المعلومات في قوالب معيارية مقننة اكثر فأكثر . وبقدر ما يتعلق الأمر بالشرق ، فان المعايرة والقولبة الثقافية الجامدة قد عززت من السيطرة العائدة لعلم دراسة الشياطين والعفاريت الاكاديمي والمتخيل والمتحدر من القرن التاسع عشر بالنسبة إلى « الشرق الغامض والمليء بالأسرار » . هذا لا يصدق على أي شيء مثلما يصدق على الطرق التي يتم بها استيعاب الشرق الأدنى وفهمه . وهناك ثلاثة أمور قد أسهمت في جعل حتى أبسط إدراك للعرب والاسلام شأناً مسيساً للغاية ، لا بل خشناً تقريباً : أولا ، تاريخ التعصب الشعبي المناوئ للعرب والمناهض للاسلام في الغرب ، حيث ينعكس هذا بشكل فوري في تاريخ الاستشراق . ثانياً ، الصراع بين العرب والصهيونية الاسرائيلية وتأثير ذلك على اليهود

الأميركيين كما على الثقافة الليبرالية وعلى السكان عامة . ثالثاً ، الغياب الكلي تقريباً لأي موقع ثقافي يجعل من الممكن اما التماثل مع العرب أو الاسلام أو بحثهما بتجرد عن الهوى. وعلاوة على ذلك ، فمن نافل القول انه لكون الشرق الأوسط حالياً يتلازم مع سياسات الدول الكبرى واقتصاديات البترول ، ومع الانقسام الثنائي الساذج إلى اسرائيل الديمقراطية والمحبة للحرية والعرب الاشرار والتوتاليتاريين والارهابيين ، فان الفرص والمجالات المفتوحة أمام قيام ما يشبه النظرة الواضحة إلى ما يتحدث عنه المرء عندما يتحدث عن الشرق الأدنى هي ضئيلة الى درجة تبعث الكآبة في النفس .

إن تجاربي الخاصة لهذه المسائل هي التي دفعتني جزئياً إلى كتابة هذه الدراسة . وحياة العربي الفلسطيني في الغرب ، ولا سيما في أميركا ، هي مثبطة للهمة. يوجد هنا اجماع تام تقريباً على ان هذا الشخص لا وجود له سياسياً ، وعندما يجري التسليم بوجوده ، فاما كمصدر ازعاج أو بوصفه شرقياً . فالشبكة المنسوجة من العرقية والقوالب الثقافية الجامدة ، والامبريالية السياسية ، والايديولوجية المجردة من الصفات الانسانية ، والتي تطبق على العربي أو المسلم هي شبكة قوية ومتينة للغاية ، وهي بالذات ما تسنى لكل انسان فلسطيني ان يشعر به على أنه يؤلف مصيره الاقتصاصي الفريد من نوعه . ومما جعل الأمور تبدو أسوأ بالنسبة اليه عندما لاحظ بأنه ما من شخص ينهمك اكاديمياً بدراسة الشرق الأدنى – أي ، ما من مستشرق – قد سبق له أبداً في الولايات المتحدة الأميركية ان وضع نفسه ثقافياً وسياسياً بجانب العرب من صميم قلبه . من المؤكد انه كانت هناك مماثلات أو مطابقات عاطفية على مستوى من المستويات ، لكنها لم تأخذ أبداً شكلاً مقبولاً مثلما اخذته المطابقة الأميركية الليبرالية مع الصهيونية ، وفي كثير من الأحيان كان يعتريها خلل جذري من جراء ارتباطها اما مع المصالح السياسية والاقتصادية المخزية (مثلا ، مستعربو شركات النفط أو نظارة الخارجية الاميركية) أو مع الدين .

لذا فان الشبكة المعقدة من المعرفة والقوة التي تخلق « الشرقي » وتطمس معالمه بوصفه كائناً بشرياً ليست بالنسبة لي شأناً اكاديمياً على وجه الحصر . ومع ذلك فهي شأن فكري ينطوي على شيء من الأهمية الواضحة . لقد استطعت ان استخدم اهتماماتي الانسانية والسياسية في وصف وتحليل مسألة دنيوية للغاية ، ألا وهي نشوء الاستشراق وتطوره وتوطيد دعائمه . وفي اغلب الأحيان ينشأ الافتراض بأن الأدب والثقافة هما بريئان سياسيا ، وحتى تاريخياً . لكن الأمر قد بدا لي خلاف ذلك بصورة منتظمة ، ومما لا شك فيه أن دراستي للاستشراق قد اقنعتني (ولي أمل في انها سوف تقنع زملائي في حقل دراسة الأدب والنقد الأدبي) بأن المجتمع والثقافة الأدبية لا يمكن فهمهما ودراستهما إلا سوية . اضافة الى ذلك ، وبفعل منطق لا مفر منه تقريباً ، لقد وجدت نفسي اكتب تاريخ مشارك سري وغريب الأطوار في العداء الغربي للسامية ، لذلك ان العداء للسامية والاستشراق كما بحثته في فرعه الاسلامي ، يشبه الواحد منهما الآخر أقرب الشبه . وهذه حقيقة تاريخية وثقافية وسياسية ما علينا إلا أن نذكرها أمام العربي الفلسطيني للسخرية التي تنطوي عليها وحتى يصار الى فهمها فهما كاملا . لكن الشيء الذي يطيب لي ايضا ان أكون قد أسهمت به هنا ، تحقيق فهم أفضل للاسلوب الذي عملت به السيطرة الثقافية . واذا كان هذا الأمر منبهاً الى نوع جديد من التعامل

مع الشرق ، وحقا إذا أدى إلى حذف « الشرق » و « الغرب »والتخلص منهما كلياً ، نكون بذلك قد احرزنا قليلا من التقدم في مسار العملية التي دعاها ريموند وليامز بـ « اطراح » « أسلوب الهيمنة المتأصل »(١٧) .

نقل النص من الانكليزية الى العربية

اسعد رزوق

الحواشي

(1) Thierry Desjardins, *Le Martyre du Liban* (Paris: Plon, 1976), p. 14.

(2) K M. Panikkar, *Asia and Western Dominance* (London: George Allen and Unwin 1959).

(3) Denys Hay, *Europe: The Emergence of an Idea*, 2nd ed. (Edinburgh: Edinburgh University Press, 1968).

(4) Steven Marcus, *The Other Victorians: A Study of Sexuality and Pornog-raphy in Mid-Nineteenth Century England* (1966; reprint ed, New York: Bantam Books, 1967), PP. 200-219.

(5) See my *Criticism Between Culture and System* (Cambridge, Mass.: Harvard University Press, forthcoming).

(6) Principally in his *American Power and the New Mandarins: Historical and Political Essays* (New York: Pantheon Books, 1969) and *For Reasons of State* (New York: Pantheon Books, 1973).

(7) Walter Benjamin, *Charles Baudelaire: A Lyric Poet in the Era of High Capitalism*, trans. Harry Zohn (London: New Left Books, 1973), p. 71.

(8) Harry Bracken, «Essence, Accident and Race», *Hermathena* 116 (Winter 1973), pp. 81-96.

(9) In an interview published in *Diacritics 6*, no 3 (Fall 1976), p. 38.

(10) Raymond Williams, *The Long Revolution* (London: Chatto and Windus, 1961), pp. 66-7.

(11) In my *Beginnings: Intention and Method* (New York: Basic Books, 1975).

(12) Louis Althusser, *For Marx*, trans. Ben Brewster (New York: Panthon Books, 1969), pp. 65-7.

(13) Raymond Schwab, *La Ranaissance orientale* (Paris: Payot, 1950); Johann W. Fück, *Die Arabischen Studien in Europa bis den Anfang des 20. Jahrhunderts* (Leipzig: Otto Harrassowitz, 1955); Dorothee Metlitzki, *The Matter of Araby in Medieval England* (New Haven, Conn.: Yale University Press, 1977).

(14) E. S. Shaffer, *Kubla Khan and The Fall of Jerusalem: The Mytho-logical School in Biblical Criticism and Secular Literature*, 1770-1880 (Cambridge: Cambridge University Press, 1975).

(15) George Eliot, *Middlemarch: A Study of Provincial Life* (1872; reprint ed., Boston: Houghton Mifflin Co., 1956), p. 164.

(16) Antonio Gramsci, *The Prison Notebooks: Selections*, trans. and ed. Quintin Hoare and Geoffrey Nowell Smith (New York: International Publishers, 1971), p. 324. The full passage, unavailable in the Hoare and Smith translation, is to be found in Gramsci, *Quaderni del Carcere*, ed. Valentino Gerratana (Turin: Einaudi Editore, 1975), p. 1363.

(17) Raymond Williams, *Culture and Society*, 1780-1950 (London: Chatto and Windus, 1958), p. 376.

مــراجعات

وليم كوانت ، عقد من القرارات : السياسة الاميركية تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي من ١٩٦٧ إلى ١٩٧٦ .

يحرص وليم كوانت في تقديم هذه الدراسة التي كتبها خلال صيف العام ١٩٧٦ على تنبيه القارىء إلى ان الكتاب* في حالته الراهنة (تموز ١٩٧٧) هو « حصيلة عملي الأكاديمي ، ولا يعكس سوى آرائي فقط ، وليس آراء الحكومة الأميركية او إدارة الرئيس كارتر » . وقبل الانتقال إلى عرض الآراء والتحليلات والاستنتاجات التي تتخلل فصول الكتــاب وإلى تعريف القارىء بأسلوب المعالجة والتحليل الذي يعتمده كوانت ، لا بد من التوقف قليلا عند المحطات الرئيسية في مسيرة الاستاذ الجامعي الذي بات يشكل عشية صدور هذا الكتاب أحد العناصر البارزة التي يؤثر عنها (أو يؤخذ عليها) تفهمها لوجهة النظر العربية في البيت الأبيض . فالمعروف ان وليم كوانت قد شغل منصب مدير شؤون الشرق الأوسط في مجلس الامن القومي الاميركي وعمل كمساعــد لمستشار الرئيس كارتر في مسائل الامن القومي ، زبيغنيو بريجنسكي ، منذ مطلع العــام ١٩٧٧ وحتى استقالته مؤخرا (أيار ١٩٧٩) لكي ينصرف إلى تأليف كتاب جديد عنوانه : « لماذا يعجز الرئيس الأمــيركي عن الضغــط على اسرائيــل في سنــة الانتخابات » ؟

فاللوبي الاسرائيلي واليهــودي في الولايــات المتحدة يرى في وليم كوانت مسؤولا اميركيا عربي الميول ، دون الاشارة الى كونه ينتمي إلى تلك الفئة من أهل الاختصاص الجامعي الذين يتعاطون قضايا الاستعراب (وليس الاستشراق بمعناه التقليدي) . وكلمة مستعرب (Arabist) تستعمــل لوصــف الباحث الغربي الذي يملك إلماما بأحوال العالم العربي وإطلاعا على أوضاعه ، بالاضافة الى معرفة باللغة العربية تجعله يتكلمها بطلاقة . وهناك فارق يصعب تجاهله بين كون المرء « عربي الميول » وبين كونه « مستعربا » ويتعاطى الاستعراب ، بمعناه المتداول في الأوساط الأكاديمية الغربيــة . ففــي حزيران ١٩٧٧ ثارت ثائرة اللوبي الصهيوني في الولايات المتحدة عقب تصريحات الرئيس كارتر التي طالب فيها بوطن للفلسطينيين ، واقترح على إسرائيل الانسحاب تقريبا من جميع الأراضي التي استولت عليها في حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ ، مثلما دعا إلى دفع تعويضات للنازحين العرب . وكتبت مجلة تايم (٢٧ حزيران ، ١٩٧٧) تحت عنوان « كارتر والعالم واليهود » ما يلي :

« يخشى الزعماء اليهود من ان تكون قضيتهم غير ممثلة تمثيلا صحيحــا . ويشتــكون من ان الدبلوماسية (الاميركية) تجاه الشرق الاوسط هي بأيدي مستشار (الرئيس) لشؤون الأمن القومي زبيغنيو بريجنسكي ومساعده وليــم كوانــت ،

* William B. Quandt: *Decade of Decisions: American Policy Toward the Arab-Israeli Conflict, 1967-1976,* (University of California Press, Berkeley: 1977).

الاختصاصي في الشؤون الفلسطينية . ويعتقدون ان بريجنسكي مؤيد للعرب (وربما كان اعتقادهم غير محق ومنصف) ذلك انه كان أحد واضعي تقرير بروكينغز ١٩٧٥ الذي دعا إلى انسحاب إسرائيل إلى حدودها عام ١٩٦٧ » .

حين أصدر وليم كوانت كتابه الأول عن « الثورة والزعامة السياسية في الجزائر : ١٩٥٤ ــ ١٩٦٨ » في اواخر الستينات ، كان عضواً في دائرة العلوم الاجتماعية التابعة لمؤسسة راند الاميركية ذائعة الصيت حينذاك بالنسبة لعدد من الدراسات والأبحاث عن العالم العربي . وخلال انتقال كوانت للعمل في مجلس الأمن القومي كمساعد لهارولد ساوندرز ١٩٧٢ ــ ١٩٧٤ ، نجد انه قد اشترك عام ١٩٧٣ مع فؤاد جابر وآن موزلي ليش في إصدار كتاب عنوانه«سياسة القومية الفلسطينية»* (من الدراسات البحوثية الصادرة عن مؤسسة راند) . فالدراسة التي كتبها كوانت عالجت « الأبعاد السياسية والعسكرية للقومية الفلسطينية المعاصرة » وتناول فيها موضوعات مثل « خسوف القومية الفلسطينية ١٩٤٧ ــ ١٩٦٧ » والتطورات التنظيمية من حزيران ١٩٦٧ إلى ايلول ١٩٧٠ ، بالاضافة الى الزعامة السياسية الفلسطينية والايديولوجيا والاهداف . والملاحظ لدى تصفح الكتاب ان المؤلفين الثلاثة قد ركزوا اهتمامهم الرئيسي على البعد السياسي للقومية الفلسطينية ، وابرزوا الجهود السياسية التي بذلها الفلسطينيون في السنوات الاخيرة من اجل تحقيق امانيهم القومية . كما ان الأبحاث التي ضمها الكتاب قد اتسمت بقدر عال من الجدية والموضوعية .

ولا يخفى ان وليم كوانت كان في عداد فريق الاختصاصيين الاميركيين (المؤلف من ١٦ اختصاصيا) الذي اعد التقرير المعروف بتقرير مؤسسة بروكينغز** ، بعد ان استغرق العمل في إعداده سبعة أشهر . لقد صدر التقرير في اواخر ١٩٧٥ ، وقام مكتب المعلومات في السفارة الاميركية في بيروت بتوزيع ملخص مفصل له عن كيفية « تحقيق تسوية سلمية دائمة وعملية في الشرق الأوسط » ((انظر النهار والسفير : (١٩٧٦/١٠/٩) وجاء في المعلومات المتعلقة باعطاء الفريق (ومنهم على سبيل المثال : زبيغنيو بريجنسكي ، ونجيب الحلبي ومالكوم كير [استاذ وليم كوانت] وتشارلز يوست وموروبرجر) ان وليم كوانت ، الاستاذ المشارك للعلوم السياسية في جامعة بنسلفانيا ، هو « واضع استراتيجية تقسيم المنطقة العربية إلى مراكز قوى تتعامل معها اميركا حاليا أو مستقبلا » (السفير : ١٩٧٦/٩/١) .

اما الكتاب الذي يعنينا هنا فهو دراسة كتب كوانت القسم الأكبر منها خلال صيف العام ١٩٧٦ ، حيث تلقى منحة لانجاز عمله (من مركز الشرق الاوسط وبرنامج العلاقات الدولية في جامعة بنسلفانيا) . ودفع كوانت بمخطوطة كتابه إلى الطبع في نهاية العام ١٩٧٦ . ثم عاد في مطلع ١٩٧٧ وحصل على إجازة من جامعة بنسلفانيا لكي ينضم الى هيئة مجلس الأمن القومي كمدير لمكتب شؤون الشرق الأوسط . وفي مستهل الكتاب نجده يرفع كلمة شكر وامتنان إلى هارولد هـ. ساوندرز (كبير الاختصاصيين وعضو مجلس الأمن القومي منذ إدارة الرئيس جون كينيدي ، والذي ارتبط اسمه

• William Quandt et al: *The Politics of Palestinian Nationalism* (A Rand Corporation Research Study), University of California Press, Berkeley: 1973).

• • ثمة كتاب آخر صدر عن مؤسسة بروكينغز الاميركية بعنوان : « القوة من دون الحرب : القوات المسلحة الاميركية كأداة سياسية » وهو من تاليف باري بلخمان وستيفن كابلن . ولقد اسهم كوانت في هذا الكتاب بفصل عن أزمة لبنان عام ١٩٥٨ . وقام « النهار العربي والدولي » (٢١ ــ ٢٧ أيار ، ١٩٧٩) بترجمة أهم ما جاء في مقال مستشار كارتر لشؤون الشرق الاوسط .

ومما تجدر الاشارة اليه في معرض الحديث عن مؤسسة بروكينغز ان التقرير المتعلق بتحقيق السلام في الشرق الاوسط ودور الولايات المتحدة في المنطقة قد نشر بنصه الحرفي في ربيع ١٩٧٧ (انظر مجلة الحوادث ١٩٧٧/٤/١ ، العدد رقم ١٠٦٤) .

Toward Peace in the Middle East:
Report of a Study Group, 1975.

وقيل في ذلك الحين ان الرئيس جيمي كارتر يستلهم سياسته في أزمة الشرق الأوسط من تقرير لجنة بروكينغز .

بالتقرير المرفوع إلى الكونغرس : وثيقة ساوندرز) إن كوانت يبدي إعجابه بالبراعة التحليلية لدى ساوندرز وبفهمه الثاقب للقضايا ، لاسيما « إحساسه بالأبعاد الانسانية للنزاع العربي ـ الاسرائيلي ترك في نفسي تأثيرا عظيما » .

يقول كوانت انه في القسم الاكبر من الفترة التي يتناولها كتابه ، عقد من القرارات ، كان يحاول التعرف الى السياسة الخارجية الاميركية تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي ، وان « اشرح وأنشر هذه السياسة بقدر الامكان » . وهناك أمران ما برحا يؤثران في نفسه أيما تأثير : التعقيد الملازم للموضوع والمشاعر التي تكتنفه . وينتهي إلى التأكيد على أمور ثلاثة :

ـ كتب كوانت توطئة الكتاب في تموز ١٩٧٧ ، دون إقدامه على إدخال تعديلات تذكر منذ دفع المخطوطة إلى المطبعة (اواخر ١٩٧٦) .

ـ يحاول كوانت ـ على حد قوله ـ استقراء السجلات والوثائق والمعلومات على نحو معقول ، وبدون تحيز .

ـ تعمد كوانت الامتناع عن التأمل بالنسبة للسياسة في المستقبل (« وربما كنت أقدمت على ذلك في ظروف اخرى بدافع الاغراء ») .

□

كيف تصنع السياسة الخارجية الأميركية ؟

السؤال عن كيفية صنع السياسة الخارجية وعن العوامل المؤثرة في ذلك يطرح أمامنا عنصرين بارزين من عناصر التركيز : (١) عملية صنع القرار و (٢) جوهر السياسة . وهذا يصدق بالنسبة للنزاع العربي ـ الاسرائيلي على العقد الذي اعقب حرب الخامس من حزيران ١٩٦٧ . ويؤكد كوانت في مطلع الفصل الأول (المقدمة) من كتابه على ان « صنع السياسة الخارجية هو عملية معقدة خصوصا حين يتعلق الأمر بالشرق الأوسط . والعملية التي تصاغ بها السياسة تتضمن الجهود التي تبذل (أ) لاعطاء معنى ودلالة للخليط المتنافر من الأحداث ، و (ب) لتعبئة الموارد وفقا للمقاصد ، و (ج) لترجمة القيم الى قرارات ملموسة » . هذا بالاضافة إلى دور الالهام في صنع السياسة واتخاذ القرارات .

لذا يعمد كوانت إلى القيام بتحليل وتفهم وتفسير لعملية صياغة السياسة تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي من خلال تشديده على دور الأزمة في تكوين آراء صانعي السياسة وعلى اهمية الزعامة الرئاسية في ترجمة المبادىء العامة إلى قرارات ملموسة .

ولكي تتضح الصورة اكثر يكرس كوانت الفصل الأول من كتابه لشرح المناظير الأربعة المختلفة ، والمتكاملة على تمايزها ، في عملية صنع القرارات بالنسبة للسياسة الاميركية . وهي كما يلي :

أولا : المنظور الاستراتيجي الذي يأخذ المصالح القومية بعين الاعتبار ، وغالبا ما يلجأ إليه صانعوا القرارات من أجل تبرير سياساتهم .

ثانيا : منظور السياسات الأهلية او الداخلية في تأكيده على دور الجماعات المصلحية وعلى دور الرأي العام والكونغرس الاميركي في قولبة السياسة الخارجية وتوجيهها .

ثالثا : منظور السياسات البيروقراطية في تركيزه على وظيفة الجهاز التنفيذي في رسم السياسات ووضعها موضع التنفيذ . ويمكن هنا عزو العمل الذي لا يقبل التفسير إلى المنافسة الديوانية والروتين الحكومي والتنظيمي أو المفاوضات والمساومات بين الاجنحة والفئات القوية داخل جهاز الحكم : [وزارة الخارجية والدفاع ، وكالة المخابرات المركزية والبيت الأبيض] .

رابعا : منظور القيادة الرئاسية أو زعامة الرئيس الاميركي ، حيث يبرز دور المقربين والمستشارين إلى جانب دور الرئيس في اتخاذ القرارات السياسية العليا .

وبعد ان يفيض في شرح هذه المناظير وتحليلها ينتقل إلى إبراز الدور الحاسم الذي تلعبه الأزمات في صنع القرارات . فيقول : « وتلعب الأزمات دوراً بالغ الاهمية في تنمية خطوط الاستهداء .. فالأزمات تتضمن من حيث تعريفها ، المفاجأة والخطر وتعزز الشك والريبة . وقد تعرض السياسات السابقة كسياسات متهاوية او مفلسة .... ومن المهم ان نسجل ان الأزمات تستطيع ان تنتج تغييرات سياسية ذات شأن من دون ان تتسبب في إعادة تقييم شاملة لرؤى صانع السياسة .

وسنرى في حالة الدراسات التي ستلي ، دور الأزمات المهم في تعريف المشاكل وتحديدها بالنسبة

إلى الرؤساء ومستشاريهم ... وسنظهر كيف انه من الصعب إحداث تغييرات ، وسط الأزمـات ، في السياسات المتحدرة من رؤى صيغت في غمرة الأزمات والتي تكون ممهورة بموافقة رئاسية » .

ومما يسترعي الانتباه ، بعد هذا العرض السريع لمقدمة كوانت ، ان المؤلف يختم شروحاته وتحليلاته شبه النظرية بعبارة تحمل في طياتها شيئـا من التحسب للمستقبل القريب ، حيث يقول : « وإذا كان النزاع العربي ـ الاسرائيلي سيرى الحل عبر مساعي الولايات المتحدة الاميركية الحميدة ، فان سجايا القيادة الرئاسية وشجاعتها سوف تكون عنصرا أساسياً في هذا الحل » .

الأزمات واتخاذ القرارات :

هناك ازمات أربع في الشرق الاوسط تخللت العقد الذي يمتد من العام ١٩٦٧ إلى العام ١٩٧٦ . وهي أزمات دولية حادة او اتخذت طابعاً دولياً . ومنها جاءت تسمية الكتاب بـ « عقد من القرارات » . فالسنوات العشر التي يتناولها وليم كوانت في تتبعه لعملية صنع القرارات بالنسبة للسياسة الخارجية الأميركية تجاه النزاع العربي ـ الاسرائيلي شهدت الازمات الأربع التالية :

١ ـ الحرب العربية ـ الاسرائيلية في الخامس من حزيران ١٩٦٧ .

٢ ـ أزمة الأردن في ايلول ١٩٧٠ .

٣ ـ حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ .

٤ ـ والحرب الأهلية اللبنانيـة خلال عامـي ١٩٧٥ و ١٩٧٦ .

ومن المستغرب أشد الاستغراب ان يقول كوانت إثر تعداده لهذه الأزمات إن الولايات المتحدة « قد فوجئت ... في الأزمات الثلاث الأولى بالأحداث التي لم يكن يبدو أن لها إلا القليل من التحكم بها » . فالفصول التالية من الكتاب لا تعطي هذا الانطباع على الاطلاق . ومن المؤكد ان المؤسسات الحكومية الاميركية التي يناط بها أمر إدارة الأزمات (Crisis management) وتوجيـه السياسـة في ضوء المصلحة وعناصر الأزمة لم تفاجأ إلى هذا الحد بالأزمات المشار إليها . لا بل عمدت إلى التحكم في أحداثها من خلال التنسيق المستوحـى من ذلك « الشعور العميق بالتزام تجاه اسرائيل » . ومما يكتبه كوانت في مستهل الفصل الأول من دراسته ، نقرأ الفقرة التالية :

« ولا ريب في ان النزاع العربي ـ الاسرائيلي سيظل شاغلا من اكبر شواغل السياسة الخارجية الاميركية للسنوات المقبلة . وإذا كان لنا ان نستهدي بما كان في العقد الماضي (١٩٦٧ ـ ١٩٧٦) ، فان بوسعنا استباق ازمات خطيرة بين الدول العظمى قد تجرها إلى شفير المواجهة ، وتجنب استخدام النفط كسلاح سياسي ، وتلافي ازدواجية جزء من صانعي السياسة الاميركية وتذبذبهم حين يحاولون التغلب على مشاكل الشرق الأوسط العسـيرة ، وربمـا المستعصية » . إلى ان يقول ما مفاده ان الماضي وأحداثه وفهم الاثنين لا تشكل ضمانة في ان تأتي سياسة المستقبل اكثر تنورا أو أشد فعاليـة . والسؤال الذي لا مناص من إثارته هنا يتعلـق باستخلاص العبرة من أحداث الماضي والافادة من منحاها في تجنب الأزمات اللاحقة واستباقها وفي رسم سياسة الحاضر الراهن والمستقبل البعيد . من الصحيح انه يوجد جانب أخاذ في تاريخ السياسة الخارجية الاميركيـة حيـال النـزاع العربـي ـ الاسرائيلي ، خاصة خلال الحقبة التي يغطيها كتاب « عقد من القرارات » . لكن هل ينبغي على المحلل ان يكتفي بذلك فحسب ، مشيرا إلى عنصر الاثارة في المرحلة بالنسبة للتجربة الاميركيـة في الشـؤون العالمية .

لننتقل إلى الفصول التالية من كتاب وليم كوانت ، علنا نحرز بعض التقدم في توضيح معالم الصورة التي يرسمها للأزمات التي حفزت صانعي السياسة الخارجية الاميركية إلى اتخاذ القرارات وإعـلان المبادىء والتراجع عنها والازدواجية في التنفيذ وتعمد الغموض والتباس المعاني ، بالاضافة إلى المجاهرة بشيء وتبطين النقيض تماما وإلى تنازع الصلاحيات والسلطات بين مختلـف الأجهـزة والمؤسسـات البيروقراطية . وسوف يفاجأ القارىء بان مؤلف كتاب « عقد من القرارات » يقلل من اهمية بعض الأحداث البارزة ، مثل الغارة الجوية الاسرائيلية على سفينة التجسس الاميركية « ليبرتي » ودور اللوبي الصهيوني في اميركا ومحاولـة تحجيـم مسألـة استخدام النفط العربي كسلاح سياسي في المعركة .

عشر سنوات من القرارات والأزمات

يتألف كتاب كوانت من تسعة فصول ، حيث تأتي

المقدمة بمثابة الفصل الأول . ويحرص المؤلف في الفصل الثاني عن « الحرب العربية ــ الاسرائيلية في الخامس من حزيران ١٩٦٧ » على اعتماد الدقة في شرح مراحل ازمة إغلاق مضيق تيران وحصار خليج العقبة (أيار ١٩٦٧) وعلى التنبيه إلى ان الرئيس عبد الناصر لم يطلب حينذاك سحب قوات الطوارىء الدولية من المنطقتين الأشد حساسية ، وهما قطاع غزة وشرم الشيخ . كما يشير إلى كون القيمين على اتخاذ القرارات في واشنطن قد استبعدوا منذ البداية خيارين اثنين : النظر في مسألة قيام الولايات المتحدة بعمل من جانب واحد ، وإطلاق العنان لاسرائيل كي تتصرف وفق أهدافها واطماعها . فالرئيس جونسون كان يسعى ــ على حد قول كوانت ــ إلى ضبط إسرائيل وكبحها إلى جانب السعي من أجل اعتماد حل متعدد الجوانب . والعبارة التي كثر ترددها في تلك الأيام والساعات : « إسرائيل سوف تكون وحدها فقط إذا ما سارت في طريقها بمفردها » أو إذا ما قررت السير بمفردها . (ص ٥٢) .

وبين قمة غلاسبورو (١٩ حزيران ، ١٩٦٧) والتصويت على القرار رقم ٢٤٢ في الأمم المتحدة (٢٢ تشرين الثاني ، ١٩٦٧) تغير الموقف الاميركي . ومما اسهم في احداث هذا التبدل قرارات مؤتمر القمة العربي في الخرطوم (آب ١٩٦٧) وفي طليعتها اللاءات الشهيرة : لا اعتراف ، لا مفاوضات ، لا صلح ، ولا تخلي عن حقوق الفلسطينيين . هنا يؤكد لنا كوانت ان الغموض والتباس المعنى في لغة القرار ٢٤٢ كان مقصوداً . إذ تعمد واضعوا القرار المذكور استخدام اسلوب في التعبير يكتنفه الغموض ويمكن حمله على اكثر من معنى وطرحه على بساط التفسيرات والمساومات .

ويلخص كوانت المبادىء الأساسية التي انطلقت منها السياسة الأميركية في كل مرحلة من مراحل الأزمة (ص ٦٨) على النحو التالي :

إلزاميات ما قبل الحرب : لا استخدام اميركيا للقوة من جانب واحد ، ولذا ينبغي على المسؤولين ان يحاولوا منع اندلاع الاشتباكات وتطوير إطار متعدد الجوانب لفك الحصار عن مضيق تيران .

سياسة زمن الحرب : ردع التدخل السوفياتي ، والبحث عن صيغة لوقف إطلاق النار دون العودة إلى وضع ما قبل الحرب ، لأنه كان وضعا متسما بالخطورة وعدم الاستقرار .

سياسة ما بعد الحرب : حاول الحصول على السلام الكامل ، والأراضي يمكن مبادلتها في السباق الاخير لقاء الحصول على السلام .

الابقاء على اسرائيل قوية من خلال تزويدها بشحنات السلاح .

ويتناول الفصل الثالث : « مبادرات روجرز ، ١٩٦٩ ــ ١٩٧٠ » مسألة السياسة الخارجية الاميركية في ظل إدارة الرئيس نيكسون ، منذ تسلمه سلطاته الدستورية (٢٠ كانون الثاني ، ١٩٦٩) وحتى قبول الرئيس عبد الناصر بمبادرة روجرز (٢٢ تموز ١٩٧٠) . وهنا تجدر الاشارة إلى ان وليم روجرز اطلق مشروعه الأول في ٨ تشرين الأول ١٩٦٩ ، عقب تقديم النقاط التسع بصدد الموقف الاميركي إلى غونار يارينغ في نيسان ١٩٦٩ ، وبدء الحديث عن صيغة رودس . بينما يرجع تاريخ مبادرة روجرز إلى ٢٥ حزيران ١٩٧٠ ، وإعلانها في ١٩ حزيران .

لقد مرت السياسة الاميركية في ظل إدارة نيكسون ومستشاره لشؤون الأمن القومي ، هنري كيسنجر ، بمرحلتين :

في السنة الأولى (١٩٦٩) كان على نظارة الخارجية ان تأخذ زمام المبادرة في التفاوض مع الاتحا السوفياتي من أجل التوصل الى مجموعة من المبادىء التي تتهجأ بشيء من التفصيل شروط التسوية . اما المرحلة الثانية ، فانها تبدأ مع فشل مشروع روجرز ومبادرته وتصعيد التورط السوفياتي في مصر (مستهل العام ١٩٧٠) .

وهنا يشير كوانت في خاتمة هذا الفصل إلى انتصار آراء نيكسون وكيسنجر ، وكيف جرى ابعاد المسؤولين العاملين في نظارة الخارجية والداعين إلى اعتماد الانصاف في النظر إلى طرفي النزاع . لقد تم اقصاء هؤلاء عن خشبة المسرح . (ص ١٠٤) .

وعندما ينتقل إلى تناول « ازمة الأردن : ايلول ١٩٧٠ » (الفصل الرابع) يؤكد كوانت بانها كانت « في ذروتها اكثر صلة بالعلاقات الاميركية السوفياتية منها بالنزاع العربي ــ الاسرائيلي او الفلسطينيين » (ص ١٠٥) . لقد نجحت إدارة الرئيس نيكسون في معالجة الأزمة ، من وجهة نظرها . والمعروف ان انتخابات الكونغرس كانت على الأبواب بالنسبة للرئيس نيكسون في تشرين

الثاني ١٩٧٠ . وفي النهاية استقر رأي صانعي القرارات على اعتماد مثلث إقليمي للحفاظ على السلام في المنطقة : اسرائيل والأردن وايران . وذلك بدلا من الوجود العسكري الاميركي بنفقاته الباهظة أو التدخل العسكري غير المحبوب شعبيا في المنطقة ـ كما يشرح ذلك وليم كوانت .

اما الفصل الخامس ، وعنوانه « ديلوماسية الجمود : ١٩٧١ ـ ١٩٧٣ » أو فترة اللاسلام واللاحرب . ويطيب لوليم كوانت ان ينظر إلى هذه الفترة باعتبارها فترة الفرص الضائعة للحيلولة دون نشوب حرب وللتحرك نحو التسوية . « فقد شهدت فترة تجميد الأشياء على وضعها الراهن قيام فكرة التسوية المؤقتة Interim settlement في شباط ١٩٧١ . ثم جاءت رحلة هنري كيسنجر السرية إلى الصين (تموز ١٩٧١) وانفتاح إدارة نيكسون على بكين . والمعروف ان ١٩٧٢ كانت سنة انتخابات رئاسية . فالمبادرة الاميركية انحصرت بمحاولة التوصل الى اتفاق مؤقت حول قناة السويس . وفي ٤ ايار ١٩٧١ كان وليم روجرز أول ناظر خارجية اميركي يزور مصر وإسرائيل ، منذ زيارة جون فوستر دالاس عام ١٩٥٣ . ثم جرى في ٢٧ أيار من العام نفسه توقيع معاهدة الصداقة المصرية السوفياتية لمدة ١٥ عاما . وراح الرئيس السادات يعلن « سنة الحسم » ، لكنه ما لبث أن تخلى عن فكرة التسوية المؤقتة ، وأسهم في قمع الحركة الانقلابية في السودان (تموز ١٩٧١) .

ويقول كوانت ان فشل اتفاق التسوية المؤقتة بشأن قناة السويس قد جاء ليضع حدا لهيمنة روجرز وسيسكو بوصفهما من صانعي السياسة الاميركية تجاه الشرق الاوسط . فقد برز هنري كيسنجر الى الواجهة ليتولى الزمام ، وطرح كلمة السر : « فليقدم السادات على طرد الخبراء السوفيات ، ومن ثم يمكن لمحادثات السلام ان تبدأ . والمقصود هنا صيغة المحادثات المعروفة بـ « محادثات القرب » (في المكان والزمان) Proximity talks .

وفي السنة التالية (١٩٧٢) توالت الأحداث على النحو التالي : قام الرئيس نيكسون في اواخر شباط ١٩٧٢ بزيارة بكين . ومن ثم انتقل الى موسكو (أيار ١٩٧٢) ليدشن بعد ذلك سياسة الانفراج الدولي ، وتأخذ الادارة الاميركية بالرجوع إلى تصور « الارتباط » أو الربط «Linkase» الذي استرشدت به مبادرة روجرز وسيسكو عام ١٩٦٩ .

وفي ٢٩ أيار ١٩٧٢ توصل كل من غروميكو وكيسنجر إلى إعلان اتفاق على مجموعة من المبادىء الأساسية (ص ١٥٠) ، بينما طلب السادات في ٨ تموز ١٩٧٢ سحب الخبراء السوفيات واعلن قراره رسميا في ١٨ منه . وفي ١٧ حزيران من العام نفسه حدث اقتحام المقر الرئيسي للحزب الديمقراطي في مبنى ووترغيت ، بينما تمت اعادة انتخاب نيكسون بنسبة ساحقة (٧ تشرين الثاني ١٩٧٢) . وفي ٢٧ كانون الثاني ، ١٩٧٣ جرى التوقيع على اتفاقية باريس حول فيتنام .

لقد اخذ هنري كيسنجر يصول ويجول وقامت استراتيجيته على إقصاء معادلة يارينغ : « السلام لقاء الانسحاب » لأنها لم تستهوه . واقترح مساعدوه إقامة توازن بين السيادة والأمن ، بينما اعاد هو طرح المعضلة على النحو التالي :

العرب يطلبون استرجاع الأراضي واحلال العدالة .

الاسرائيليون يطلبون السلام والاعتراف . (ص ١٥٢) .

وفي ٢٢ آب ١٩٧٣ بادر الرئيس نيكسون إلى تعيين هنري كيسنجر ناظرا للخارجية ليحل محل وليم روجرز . فماذا حدث لعملية صنع القرارات والتنافس البيروقراطي ومبدأ التوازن (إقرأ : التفوق) العسكري . يقول كوانت في خاتمة هذا الفصل ما يلي :

« برهن التوازن العسكري على انه ليس مفتاح الاستقرار الاقليمي ومنع نشوب الحرب . ولقد تجاهل نيكسون وكيسنجر الأهمية المتزايدة للنفط العربي كعنصر في المعادلة الاقليمية (ص ١٦٤) .

هنا يبرز الازدواج في المواقف والمبادرات : فمن جهة ، كانت نظارة الخارجية ترعى تحركات ديلوماسية من طراز « محادثات يارينغ » وفكرة التسوية المؤقتة لقناة السويس و « محادثات القرب » . بينما بلغ التنافس البيروقراطي أشده وتجسد في الخلاف بين روجرز وكيسنجر . ومن جهة ثانية كان الاطار المرجعي الاساسي الذي وضعه نيكسون وكيسنجر يشدد على أمرين : (١) العلاقات الاميركية السوفياتية في المنطقة و (٢) الحاجة الى المحافظة على الميزان العسكري لصالح اسرائيل .

لقد بدأت السياسة الداخلية والأهلية تقحم على

صنع السياسة الخارجية . وعاشت ادارة نيكسون مرحلة من التعاون بين اسرائيل والولايات المتحدة بسبب ازمة الاردن (ايلول ١٩٧٠) . بينما راح كيسنجر ينظر الى اسرائيل باعتبارها مصدر قوة استراتيجيا a Strategic Asset واصبح السيناريو جاهزاً للتحرك التالي . والأزمة الثالثة خلال عقد القرارات . يقول كوانت : « كان لا بد من نشوب حرب اكتوبر (تشرين ، ١٩٧٣) لتغيير سياسة الولايات المتحدة ولتوريط نيكسون وكيسنجر كليا في مسألة البحث عن تسوية عربية ــ اسرائيلية ! (ص ١٦٣) .

الحرب فاجات معظم العالم

يتناول كوانت في الفصل السادس من كتابه « حرب تشرين ــ اكتوبر ــ ١٩٧٣ » . لكي يخصص الفصل السابع لمعالجة « ديلوماسية الخطوة خطوة » والمكوكية التي اشتهرت عن هنري كيسنجر . بينما يأتي الفصل الثامن ليطرح مسألة ما وراء فك الارتباط ويتوقف عند سياسة الرئيس جيرالد فورد تجاه الشرق الاوسط . والفصل التاسع والاخير من الكتاب يتضمن بعض الاستنتاجات التي يستخلصها كوانت من الأحداث والأزمات التي شهدها العقد الماضي من القرارات والمواقف .* والحق يقال إن هذه الأزمة تندرج بسهولة في الخانة التي يسعى وراءها تحليل وليم كوانت للأزمات ودورها في صنع القرارات .

يقول كوانت في مطلع الفصل السادس إن « الأزمات ، بطبيعتها ، تفضح او تكشف الافتراضات السائدة عن الواقع بطرق حادة خاصة . وحين يجد صانعوا القرارات انفسهم وجها لوجه أمام الخطر والمفاجأة والريبة ، فانهم يتصرفون على اساس تصورات للواقع قد تمت صياغتها سابقا » (ص ١٦٥) . وحرب تشرين ١٩٧٣ كانت هامة بصورة مزدوجة كموضوع للدراسة التي ينشدها كوانت . فهي ، اولا ، قد كشفت عن الافتراضات الكامنة وراء السياسة الاميركية تجاه النزاع العربي ــ الاسرائيلي من ١٩٧٠ إلى ١٩٧٣ . وثانيا ، ادت الى انتاج مراجعة رئيسية واعادة نظر جوهرية في تلك الافتراضات ضمن فترة زمنية قصيرة .

ومن استخلاصات كوانت : ان السياسة الاميركية نحو النزاع العربي ــ الاسرائيلي قد تأثرت جوهريا باحداث حرب تشرين ١٩٧٣ . فالاعتقاد السائد على نطاق واسع قبل اندلاع الاشتباكات كان يعتبر الاستقرار في الشرق الاوسط مضمونا بواسطة التفوق او السيطرة العسكرية الاسرائيلية ، وانه من المتعذر استخدام النفط العربي كسلاح للضغط على الغرب ، وان النفوذ السوفياتي في المنطقة قد بلغ حده . لكن كوانت يسارع إلى التنبيه بان من الخطأ القول ان الولايات المتحدة الاميركية انتقلت من جراء النتائج التي افرزتها حرب اكتوبر ١٩٧٣ من انتهاج سياسة موالية ومؤيدة لاسرائيل إلى تدشين سياسة عربية الميول . ماذا حدث إذاً ؟

لقد جاءت حرب اكتوبر (تشرين الاول ١٩٧٣) لتزعزع الامثولة التي عززتها ازمة الأردن في ايلول ١٩٧٠ (ص ٢٠٠ ــ ٢٠١) ومن المؤكد ــ كما يستنتج كوانت ــ ان الحرب تحدث العديد من الافتراضات الاساسية لصانعي السياسة الاميركيين ، وهي افتراضات كانت تلعب دورا محوريا في السياسة الخارجية قبل الحرب . ما هي الافتراضات المتزعزعة ؟

تزعزع الافتراضات ، والنقلة

هناك افتراضات ثلاثة تزعزعت من جراء حرب اكتوبر ١٩٧٣ ، مما ادى الى وضع السياسة الاميركية امام تحديات جديدة ، وهي كالآتي :

اولا : القوة العسكرية الاسرائيلية لم تضمن الاستقرار ، كما كان متوقعا في اوساط صانعي القرارات بعد العام ١٩٦٧ .

ثانيا : الوفاق الاميركي ــ السوفياتي (الانفراج الدولي) يمكن استخدامه للتقليل من خطر النزاعات الاقليمية . لقد تبين ان عمق الالتزام لدى كل جانب او طرف دولي حال دون السماح

---

* نشير هنا إلى ان **النهار العربي والدولي** قامت بنشر بعض فصول الكتاب التي ترجمها إلى العربية نصير مروة . فالحلقات التسع التي نشرها الملحق ابتداء من ١٠ كانون الأول ١٩٧٧ وحتى ٤ شباط ١٩٧٨ ، تناولت مقدمة الكتاب بالاضافة الى الفصول ٧و٨ و٩ . والملاحظ ان الفصل التاسع والاخير تعرض لشيء من التسوية في سياقه وترتيب فقراته وفقا لتسلسلها الموضوعي .

بتضحية اصدقائه في سبيل روح الوفاق والانفراج . اي ان المصالح المحلية والملموسة قد فازت على التجريدات الكونية عندما وضعت على المحك .

ثالثاً : الموقف السائد نحو العالم العربي والذي اتخذه صانعو السياسة من أزمة المنطقة . هذا الموقف جاءت الحرب لتتحداه . فالمصريون والسوريون أبلوا بلاء حسناً في القتال . واستفادوا من عنصر المفاجأة في الهجوم الأول . وبرجة التضامن العربي كانت تبعث على الاعجاب . اما استخدام سلاح البترول فقد كان منسقاً بشكل جيد مع التحركات الدبلوماسية والعسكرية . وتجلت نغمة ضبط النفس في التصريحات الخاصة والعامة .

هنا يشير كوانت إلى حدوث تحول او نقلة في السياسة الاميركية ، حيث جاء ذلك على صعيدي الكم والنوع . كيف تفسر هذا التحول ؟ هناك ما يغري الباحث ــ على حد قوله ــ بالسعي للعثور على تفسيرات لهذا التحول في ميدان السياسة الداخلية أو مجال البيروقراطية . أو في التكوين السيكولوجي للأفراد المعنيين فالموضوعات المتكررة على الدوام خلال هذه الأزمة كانت : فضيحة ووترغيت وأزمة الطاقة . ويقول كوانت في معرض تحليله لهذه الظاهرة التي تجلت في صعود نجم هنري كيسنجر بان :

« فترات الأزمات تميل بنوع خاص إلى عزل صانعي السياسة عن الضغوط الداخلية والأهلية ... والقرارات كانت استجابات لأحداث خارجية بدا انها تتطلب العمل الملح والمتسارع » (ص ٢٠٣) .

أما مفتاح الاجماع الذي تبدى لدى كبار المسؤولين الاميركيين وصانعي القرارات السياسية فمرده الى قدرة هنري كيسنجر على ان يستمد ويغرف من سلطة الرئيس نيكسون « . ويجب اعتبار كيسنجر في هذه الحالة « امتداداً للرئيس » . إذ كان وحده على اتصال مباشر ومستمر بالرئيس نيكسون . بينما جاءت حرب اكتوبر لتظهر مجدداً محورية دور الرئيس الاميركي في صنع السياسة الخارجية ، خاصة إبان الأزمات (ص ٢٠٤) . والحق يقال ان هذه العبرة المستخلصة لطالعنا في جميع فصول الكتاب ، اي الدور المحوري للزعامة الرئاسية الاميركية في صنع السياسة الخارجية واتخاذ القرارات خلال الازمات .

وحين بادر كيسنجر الى تدشين دبلوماسية الخطوة خطوة وباشر القيام في رحلاته المكوكية ، بدات الولايات المتحدة تلعب دور الوسيط . يقول كوانت في معرض تقويم هذه السياسة ما يلي : « إن سياسة نيكسون ــ كيسنجر قد امكن النظر إليها بوصفها موالية لاسرائيل . وموالية للعرب . وموالية للوفاق الدولي أو مناوئة للسوفيات : وذلك تبعاً للشيء الذي كان المرء يبحث عنه » (ص ٢٠٥) .

ومن الاستنتاجات التي يتوصل إليها كوانت في دراسته عن القرارات وصنعها إبان الازمات ان صانعي السياسة الاميركية قد افرطوا احياناً في تقدير مركزية الوضع الكوني (الدولي) لدى تعاملهم مع أزمات الشرق الاوسط ، وغالباً ما جرى ذلك على حساب فهم دقيق للتطورات الاقليمية .

ففي الفصل الاخير من كتابه يتحدث كوانت عن السلام المرحلي والدروس المستفادة من الماضي وبعض التصورات الخاطئة أو المغلوطة ، هذا بالاضافة الى اطار للسلام والدور الاميركي في التسوية والخطوط الاسترشادية للمستقبل . طبعاً ، هناك إشارة واضحة الى تقرير لجنة بروكينغز وإلى خطأ المفهوم النيكسوني في الربط Linkage والقائل بامكانية إبعاد السوفيات عن اصدقائهم في الشرق الاوسط لمصلحة الوفاق والانفراج الدوليين ، وكذلك خطأ الاعتقاد القائل بانه يمكن الحيلولة دون نشوب حرب من خلال الحفاظ على توازن عسكري يميل لمصلحة اسرائيل ، وخطأ الاعتقاد بان عنصر الوقت يعمل لمصلحة السلام . إلى ان يقول بضرورة التوصل إلى حمل القاهرة ودمشق والرياض والقدس على اتخاذ قرارات السلام وليس في موسكو او واشنطن .

ان كوانت لا يخفي امتعاضه من مفهوم « التسوية الاجمالية » Package Settlement ، وتفضيله للحل المرحلي في إطار من المبادىء المتفق عليها . فهو ينبه إلى صعوبة تجاهل الفلسطينيين ويسجل أثرهم البعيد في الأزمات التي يعالجها الكتاب ، إلى ان يقول :

« إنهم لا يملكون ما يقدمونه من تنازلات سوى تنازل واحد كبير ، الاعتراف باسرائيل ، لكنهم لا يستطيعون لعب هذه الورقة سوى مرة واحدة ، وبالتالي فانها ورقة تلعب في آخر اللعبة لا في اولها ، هذا إذا لعبت » .

وفي السياق النهائي ، ترسو المسألة عند مقام

الزعامة الرئاسية الاميركية . فالرئيس الاميركي مدعو بنظر كوانت إلى اخذ زمام المبادرة للحيلولة دون وقوعه اسيرا لتعريف محدود للوضع . وعليه ، للخروج من ذلك ، ان يعلن ترحيبه بمجموعة من الرؤى والمناظير . كما ينبغي له ان يعمد إلى اعادة النظر ، دوريا ، في المقدمات التي تستند اليها السياسات الاميركية . وهنا يجدر بنا التذكر ان كوانت يكتب هذه الآراء قبل زيارة السادات للقدس وقبل اتفاقيات كامب دافيد ، كما قبل تقديم استقالته من مجلس الأمن القومي .

ولكي لا نطيل هذه المراجعة اكثر ، فلا بأس من التشديد على الدور الذي يرسمه كوانت للزعامة الرئاسية الاميركية ، حيث يقول :

« وفي نهاية المطاف ، ان امتحان الزعامة هو في تأليفها بين الرؤية والفهم للقضايا المحسوسة . وليس ثمة مكان في العالم للزعامة فيه دور اساسي في تحقيق السلام مثلما لها في الشرق الاوسط . وليس ثمة طرف — ربما لسوء الحظ — اكثر تلاؤما مع دور صانع السلام بين العرب واسرائيل ، من رئيس الولايات المتحدة . وواضح ان هذا التحدي ضخم ، وان الاخطار كبيرة وان احتمالات الفشل هامة ... وستكون أمام رئيس الولايات المتحدة مجموعة من الخيارات الصعبة في تعامله مع النزاع العربي — الاسرائيلي ، لكنه لن يملك خيار البقاء لا مباليا » . (ص ٣٠٠) .

يعيدنا هذا التحدي المشدود إلى المستقبل من حيث بدانا في التساؤل عن كيفية صنع القرارات ودور الازمات في بلورة القرار ، والمناظير المختلفة في تناول الموضوع . ومما لا ريب فيه ان منصب الرئاسة يشكل مركز الثقل في السياسة الخارجية مدعوما بالطبع من جانب مجلس الأمن القومي ومستشاري الرئيس لشؤون الأمن القومي . وليس بمستغرب او مستبعد ان يكون كوانت قد اغفل هذه الناحية أو لم يمنحها القدر الكافي من التركيز والاهتمام — إلا بالنسبة الى الثنائي : نيكسون — كيسنجر . وإذا صح انه سوف ينصرف في اعقاب استقالته من عضوية مجلس الأمن القومي الاميركي إلى وضع كتاب عنوانه « لماذا يعجز الرئيس الاميركي عن الضغط على اسرائيل في سنة الانتخابات ؟ » — فاننا نتوقع الكشف عن المزيد من ملابسات وخلفيات صنع القرارات . لاسيما ابان تلاحق الأحداث ونشوب الازمات .

اسعد رزوق

خـالد العراقي

لا اعرف اذا ما كنت تسمعني ، وانت في نعشك ، ملتفا بذلك العلم الذي يخيف هذه الجغرافيا . لا اعرف إذا كنت تسمع صخب الحناجر ، الصخب المبارك للهتاف الذي فجره كاتم صوت رخيص ، ومسدس من عيار ٧ مم . لقد كنت رسالتهم الينا ، رسالة وعيد خفي ، وكان غضبنا ، إذ شيعناك ، رسالة وعيد معلن .

لا باس يا صديقي خالد ، لا باس ، فليس من حق احد منا ان يتفجع عليك .وكيف نتفجع ونحن ذاهبون الى العذوبة ذاتها التي شملتك برداء الشهادة ؟ وكيف نتفجع على احدنا ، وقد اخترنا ان نكون الفجيعة التي تخلخل هذا الكهف العربي ؟ . انت ذاهب الى سمرك هناك ، حيث ينتظرك طلال ورشاد وعزيز ، وها نحن في سمرنا ، وحولنا الغضب والبنادق ، فاي كاتم صوت كان ذاك الذي بارك لك في سمرك ، وبارك لنا في اشتعال الحناجر ، لنقول لهم من « فتح » ، ومن المعقل الصغير الاخير للحرية ، انك حي حي ، وها انت تتطلع الى قاتليك باعيننا ، وتتقرى بايدينا سلاح الصرخة .

لا ، لا يا صديقي خالد ، يا كوبا من الشاي العراقي ، لا ، لم يقتلوك ، بل انذروا شعبا ... ومن ذا ينذر شعبا ، يا صديقي ، بكاتم صوت ، او بطلقة من عيار ٧ مم ؟ اووه ، لا اعرف قاتلك (اقصد الشخص الذي ضغط الزناد) ، لكنه ترك اثرا ذا رائحة لا تخفى على احد ، رائحة ذات رنين كرنين الدرهم المعدني ، وترك صورته في عينيك ، حين ربت على كتفك فاستدرت فاطلق طلقته التي اشعلتنا . وها نحن إذ ننظر الى صورتك نرى الصفقة التي عقدت في مبنى فخم ، نرى مكافاة القاتل وجواز سفره الذي يحمل ختم الجحيم .

□

عزيزي خالد :

كنت اخي في « فتح » ، لكن المصادفة جعلتك جاري ايضا ، في المبنى ذاته ، على علو ست عشرة درجة من شقتي ، ست عشرة درجة تموج كالفرات كل يوم ، حين ارى طفلتك البكر صاعدة او هابطة الى بيت جدها لصق شقتي ... اه كم هي جميلة طفلتك يا خالد ، وجميلة طفلتك الصغرى التي لم تكتمل ملامحها بعد . لقد وعدت زوجتك عطاف ان تحمم طفلتك بيديك نهار الاحد ، لكنك ضننت عليها يا خالد ، وغسلت الشارع كله بدمك . لا باس ، لن تعاتبك على هذا ، يقينا لن تعاتبك على إخلالك بوعدك يا خالد،إنما قلقها عليك ان لا تعتني بنفسك هناك ، في « عمارة الشهداء » ، العمارة المنبسطة افقيا ، ذات الشقق الصغيرة المتلاصقة كحروف الكتابة ، والتي ترفرف من فوقها غصون الشجر والاكباد .

سلاما خالد ،

لا نعرف متى يجيء دورنا ، إنما سلاما سلاما خالد .

سليم بركات

تقارير

عرب النقب الضحيّة الاولى لمعاهدة السلم المصريّة - الاسرائيليّة

يتعرض عرب النقب في الآونة الأخيرة إلى هجمة شرسة تشنها السلطات الاسرائيلية ضدهم ، لتنفيذ مخططاتها التي تستهدف اقتلاعهم بشكل نهائي مما تبقى لهم من اراضيهم ، وحشرهم في « غيتوات عمل » بحجة التطوير والتمدين ، وبادعاء ان « تطوير » النقب الشمالي ، والذي يشكل « محمية بدوية » قد اصبح « ضرورة قومية بعد اتفاقات كامب ديفيد بين اسرائيل ومصر » (هآرتس ، ١٣/٣/١٩٧٩) ، وبعد « تبلور المشاريع لاخلاء سيناء ونقل منشآت الجيش الاسرائيلي الى النقب » (المصدر نفسه ، ٢/٣/١٩٧٩) .

لمحة تاريخية *

ولكي ندرك ما يتعرض له الـ ٤٥ ألف عربي في النقب ، لا بد من القاء نظرة إلى الوراء ، نستعرض فيها التطور التاريخي الذي ادى إلى « هذا الوضع المقزز والخطير في الحاضر » (المصدر نفسه) ، والذي يشكل الاحتلال الاسرائيلي للنقب عام ١٩٤٨ بداية له .

كان عدد السكان العرب في النقب قبل احتلاله حوالي ٦٦ الف نسمة ، ينتمون إلى سبع قبائل رئيسية هي : الطرابين والتياهة والعزازمة والحناجرة والجبارات والسعديين والحيوات . كان معظم افرادها يعيشون في مراحل متباينة من الانتقال إلى الحياة المستقرة وترك حياة البداوة ، أو كانوا قد بداوا فعلا في تطوير الزراعة وفلاحة الأرض ، إلى جانب اعتمادهم على الرعي كمصدر اساسي للرزق . وكانت هناك « مناطق محددة يقيمون عليها ويستفيدون منها في الزراعة والرعي » معترف بها رسميا ، و « مدونة في خرائط فلسطين » (الاتحاد ، ٦/٣/١٩٧٩) .

ومع الاحتلال الاسرائيلي للنقب عام ١٩٤٨ ، اجلي الكثيرون من مواطنيه العرب عن أراضيهم ومساكنهم ، فمنهم من هجر قسراً ومنهم من فر هربا ، خوفا من انتقام القوات الاسرائيلية ، إلى الأردن ومنطقة الخليل وقطاع غزة وسيناء المصرية ، وخاصة « اولئك الذين اشتركوا في المعارك ضد ... القوات [الاسرائيلية] » (عمانوئيل ماركس ، **هاحفراه هابدويت بانيغيف**،المجتمع البدوي في النقب ، ص ١١) . إلا ان سلطات الاحتلال الاسرائيلية لم تكتف بما لحق باولئك البدو من تشريد وتمزيق بسبب الحرب ، بل عملت على اجلاء قبيلتي العزازمة والطرابين ، عام ١٩٥١ ، وحشر افرادهما مع قبيلة التياهة وبعض العشائر القبلية المتبقية في « منطقة عسكرية مغلقة ، ولم يسمح لهم بفلاحة ارضهم التي كانوا يعيشون عليها منذ اجيال واجيال ، واجبروا على ضمان ارض بعقود سنوية » (هآرتس ، ٢/٣/١٩٧٩) وكان عرب النقب الذين اقتلعوا من ارضهم يعتقدون انه سوف يسمح

* انظر ايضا **شؤون فلسطينية** ، العدد ٨٥ ص ١٥١ .

لهم بالعودة إليها ، مع إلغاء الحكم العسكري ، ، الا ان اعتقادهم هذا سرعان ما تبدد ، (المصدر نفسه) . فظلوا يعيشون تحت الحكم الاسرائيلي ، بعيدين عن أرضهم الأصلية ، . ولكنه على الرغم من التغييرات الأساسية التي طرأت على نهج حياتهم طيلة هذه الفترة لم ، يتغير لديهم [شيئاً واحداً] : وهو الارتباط العميق بأرض النقب التي يعيشون عليها منذ أجيال وأجيال ، (المصدر نفسه) .

وفي عامي ١٩٦٦ ــ ١٩٦٧ ، اعدت سلطات الاحتلال الاسرائيلية مخططاً آخر ، في اطار خطة شاملة ، لسلب البدو ما تبقى من أرضهم وتهجيرهم بحجة التمدين ، باعتمادها مشروعاً ، لاقامة ١٢ قرية في النقب لتوطينهم .. ، (المصدر نفسه) . إلا ان عرب النقب قاوموا هذا المخطط ، ولم ينفذ من مشروع الاثنتي عشر قرية المزمع اقامتها سوى ، ثلاث قرى فقط ، وهي تل شيبع [تل السبع] وكسيفا [الكسيفة] وراهط ، (المصدر نفسه) . ورغم ادعاء سلطات الاحتلال بأن هذا المشروع قد نجح ، غير ان هذا الادعاء لم يكن ، سوى ذر رماد في العيون ، أو ، ان الغالبية الساحقة من العائلات التي تم توطينها في هذه القرى ، ليست عائلات بدوية خالصة من التي عاش اجدادها في النقب ويطالبون بحق الملكية على اراضيهم ، ، وانما هي عائلات ، ملحقة بالبدو ، (المصدر نفسه) . ولذلك ، تفجر مشروع اقامة القرى وتوطين البدو على صخرة كبيرة ، هي ملكية الأراضي ، (المصدر نفسه) .

ملكية الأراضي

كان مشروع توطين البدو قد كشف لعرب النقب الذين اقتلعوا من أرضهم عام ١٩٥١ ، أن سلطات الاحتلال الاسرائيلي قد ، سجلت أراضيهم وكأنها ملك دائرة التطوير ، (الاتحاد ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) . ولذلك بدأوا يطالبون اسرائيل بتسوية قضية أراضيهم والاعتراف بحق ملكيتهم لها ، وحين راحت السلطات تماطلهم في ذلك ، وبدأوا يلحون على انجاز هذه التسوية بشكل اكثر حدة ، ، ويعملون ضد ، الخطط لسلبنا اراضينا ، (هارتس ، ٢/ ٣/ ١٩٧٩) ، أملين ان يتم انقاذ الأرض التي تعمل السلطات الاسرائيلية على نزع ملكيتهم عنها ، إذ أن التجارب علمتهم أن ، كل مشروع تطوير في النقب يجر خلفه مصادرة أراضيهم على يد الدولة ، (المصدر نفسه) ، إلا ان السلطات كانت قد لجأت إلى المراوغة والمماطلة والتسويف ، ومختلف أشكال الضغوط ، لحمل عرب النقب على التنازل عن أراضيهم ، (الاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) ، فظل البحث في هذه القضية ، يسير بخطى سلحفاة ، (هآرتس ، ٢/ ٣/ ١٩٧٩) . واما اللجنة التي شكلت لهذا الغرض ، والمؤلفة من رجال السلطة في غالبيتها ، فلم ، تتقدم بتوصياتها الا في ٢١/ ١/ ١٩٧٥ ، (المصدر نفسه والاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) . وكانت هذه التوصيات قد كشفت عن حقيقة ما تبنته السلطات الاسرائيلية من نهب فاضح لأراضي عرب النقب متذرعة بالقانون والقضاء .

القضاء في خدمة السلب

وجد عرب النقب أنفسهم يواجهون ، بموجب التوصيات المشار إليها ، عقبتين ، قانونيتين ، اثارتهما السلطات الاسرائيلية لاضفاء الطابع القانوني على عملية السلب هذه ، وهما :

١ ــ ، تحديد نوعية الأرض في النقب بموجب القانون العثماني لعام ١٨٥٨ ،

٢ ــ ، قانون امتلاك الأراضي [المصادقة على الأعمال والتعويضات] لعام ١٩٥٢ ، وهو قانون اسرائيلي ، (الاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) .

وتدعي السلطات الاسرائيلية ان ، ملكية الأراضي كلها في النقب تعود [للدولة] بعد تصنيف النقب كله كأرض غير صالحة للزراعة ، [من صنف] موات وفقاً للقانون العثماني لعام ١٨٥٨ ، (هآرتس ، ٢/ ٣/ ١٩٧٩ والاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) . والأرض الموات في هذا القانون هي الأرض التي لم يفلحها أحد ولم تعط لأحد . وكان هذا القانون قد اشترط على كل من يحيي أرضاً مواتاً ان يسجلها على اسمه في الطابو ارضاً ميري . ثم جاءت الحكومة البريطانية الانتدابية في فلسطين لتسن مرسوماً يتعلق بالأرض الموات عام ١٩٢١ ، حظر بموجبه احياء الأرض ، وطلب إلى كل من أحيا أرضاً من هذا الصنف ، قبل صدور المرسوم ، ان يسجلها على اسمه في فترة لا

تزيد عن شهرين من موعد صدوره وتم ذلك على الرغم من ان الظروف الاجتماعية التي كانت سائدة بين القبائل العربية في النقب ، في حينه ، لم تمكن أولئك العرب من تسجيل كل أرض احيوها على اسمهم في دائرة الطابو ، ويضمن ذلك الأراضي التي كانوا قد امتلكوها بالوراثة أو اشتروها بموجب عقود متعارف عليها أنذاك . وخاصة فيما يتعلق باحياء الأرض الموات للفترة القصيرة جدا التي حددها المرسوم الانتدابي .

و « الطريف » في القضاء الاسرائيلي انه يعتبر تاريخ تحديد نوعية الأرض ــ موات ــ كما كانت عليه عام ١٨٥٨ ، أي عام صدور القانون . كما ان السلطات الاسرائيلية عملت على الاستفادة من القانون العثماني وبالتالي المرسوم البريطاني وسعت إلى تنفيذهما حرفيا وبتشدد لم يعرف من قبل لاضفاء الشرعية القانونية على عملية سلب الأرض على عكس السلطات العثمانية وكذلك البريطانية التي لم تتشدد في تحديد نوعية الأرض وفي ما يتعلق بموعد تسجيلها ، كما لم تحاول التشكيك في ملكية تلك القبائل ، ولم تسع الى نزع ملكيتهم للأرض وحرمانهم من التصرف بها . وفي عام ١٩٦٩ الغي العمل بموجب القانون العثماني فيما يتعلق بالأراضي والعقارات . ومنذ ١/ ١/ ١٩٧٠ نص القانون (المادة ١٥٥ من قانون العقارات الاسرائيلي) على ان الأرض ، التي اعتبرت ارضا مواتا عشية سريانه ، ينبغي ان يشمل على اسم الدولة . وهكذا تم نقل ملكية كل ارض اعتبرت ارضا مواتا إلى « الدولة الا الأرض التي استطاع صاحبها اثبات تسجيلها على اسمه بموجب القانون العثماني او البريطاني » (الاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) .

أما قانون امتلاك الأراضي (المصادقة على الأعمال والتعويضات) لعام ١٩٥٣ ، فقد جاء ، في حينه ، ليتمم ما لم ينجز القانون العثماني والمرسوم البريطاني . وقد جرى استخدامه ضد عرب النقب بهدف اضفاء الشرعية على « مصادرة الأرض المسجلة في الطابو ، سواء كانت ارض ملك أو ميري » ، إذ ان الكثيرين من عرب النقب « يملكون وثائق رسمية تثبت ملكيتهم للأرض » (المصدر نفسه وهآرتس ، ٢/ ٣/ ١٩٧٩) . وقد اجاز هذا القانون نقل أية أرض إلى « ملكية دائرة التطوير وتسجيلها على اسمها في الطابو » ، إذا قدم وزير الزراعة شهادة تؤكد توفر ثلاثة شروط بالنسبة لها ، وهي :

١ ــ « ان تلك الأرض لم تكن تحت تصرف أصحابها ــ مالكيها في يوم ١/ ٤/ ١٩٥٢ . ٢ ــ ان الأرض قد استخدمت في الفترة بين ١٤/ ٥/ ١٩٤٨ و ١/ ٤/ ١٩٥٢ ، او خصصت لاغراض التطوير الحيوية او الاستيطان او الأمن . ٣ ــ ان الأرض مطلوبة لأحد هذه الأغراض » (الاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) . مع العلم ان مئات الآلاف من الدونمات التي يمتلكها البدو (وغيرهم في مناطق اخرى ايضا) لم تكن بالامكان ان تكون تحت « تصرف اصحابها ــ مالكيها » في يوم ١/ ٤/ ١٩٥٢ ، لأن سلطات الاحتلال كانت قد اقتلعتهم من اراضيهم وحشرتهم في لحمية مغلقة ، تحت سيطرة الحكم العسكري عام ١٩٥١ .

ولكن القضاء الاسرائيلي لم يكتف بهذا ، بل قررت محكمة العدل العليا الاسرائيلية ، في ايار ١٩٥٤ ، ان « شهادة الوزير [بحد ذاتها] تشكل دلالة قاطعة لتوفر تلك الشروط الثلاثة المحددة في القانون » ، وان المحكمة « لا تجد داعيا لفحص الأمر » (المصدر نفسه) . ويكفي ان نشير إلى ان وزير المالية قد « اصدر في الفترة بين ٢٠/ ٣/ ١٩٥٣ و ٢٠/ ٤/ ١٩٥٤ ــ أي خلال سنة ــ ٤٦٥ شهادة تتعلق بالأرض » (الاتحاد ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) وذلك وفقا لما جاء في « تقرير مديرية عقارات اسرائيل لعام ١٩٧٠ ــ ١٩٧١ » ، تم بموجبها « مصادرة ما يزيد عن مليون و ٢٢٥ الف دونم من الأراضي العربية » (المصدر نفسه) .

اخلاء سيناء من الاسرائيليين ، واخلاء النقب من العرب

مع اخلاء ونقل منشآت جيش الاحتلال الاسرائيلي من صحراء سيناء الى النقب ، وفقا لمعاهدة السلام المصرية الاسرائيلية المنفردة ، تصل مأساة عرب النقب الى ذروتها ، إذ انه « لا يوجد أدنى شك في أن عملية انتشار الجيش الاسرائيلي في النقب ستمس غالبية البدو في نهاية الأمر ، وربما جميعهم ، والبالغ عددهم ٤٥ الف نسمة » ، حيث يبدو انه « لا بد من اخلائهم مرة اخرى وتوطينهم من جديد » (هآرتس ، ٢٧/ ٢/ ١٩٧٩) . وسيكون « ابناء قبيلة الظلام ، البالغ عددهم ٦٠٠٠ نسمة ، والمركزين الى الشمال الشرقي من بئر السبع هم الأوائل الذين سيتم اجلاؤهم » ، إذ ان هذه المنطقة بالذات هي التي « خصصت لاقامة مطار عسكري ومدني كبير » (المصدر

نفسه) . وقد تم « اخطار البدو في هذه المنطقة بالجلاء من تلقاء انفسهم خلال ثلاثة أشهر — اي حتى نهاية شهر حزيران من هذه السنة — إلى إحدى المراكز المدينية المعدة لهم في النقب » (المصدر نفسه ، ودافار ، ٤/ ٤/ ١٩٧٩) .

وكانت اعمال البناء في هذا المطار العسكري قد بدأت بالفعل في « المنطقة التي تدعى تل ملحاتا [تل المالحة] ، التي تبلغ مساحتها ٨٠ الف دونم » (هآرتس ، ١٣/ ٣/ ١٩٧٩) . وتمتد هذه المنطقة من منحدرات جبال الخليل وحتى حدود مستوطنة دعيونا الى الشرق من بئر السبع ، و « يعيش فيها حوالي ٦٠٠٠ بدوي من قبيلة الظلام ، المؤلفة من ربع عشائر اساسية هي أبو جويعد وأبو قرينات وابن عرار وأبو عمار ، والمنتشرة في ٢٦ نقطة تجمع ، مؤلفة من ٢٠١ بناء صلبا و ٣٠٤ بناء خفيفاً و ٥٩ خيمة ومدرسة وعيادة ومقبرة » (المصدر نفسه ومعاريف ، ٢/ ٣/ ١٩٧٩) . ومن الثابت تاريخياً ان قبيلة الظلام ، تقطن منطقة تل المالحة هذه ، والتي تنوي السلطات الاسرائيلية طردهم منها ، منذ اكثر من ١٥٠ سنة » (المصدر نفسه) . وكان هذا ما أثبته ، أيضاً الباحث الاميركي ادوارد روبنسون الذي « مر في هذه المنطقة عام ١٨٣٩ » وسجل في مذكراته : « بدو الظلام يقطنون في المنطقة التي تقع بين تل عراد وبئر السبع ولهم مقبرة بالقرب من تل المالحة ، ومصدر المياه الرئيسي لهم هو بئر عرعرة » (المصدر نفسه) .

وامام هذه الهجمة الوحشية على اراضي قبيلة الظلام ، في اطار خطة شاملة لترحيل عرب النقب وتركيزهم في اماكن اخرى ، « توجه شيوخ ورؤساء قبائل بدو النقب بالأمس [١٥/ ٢/ ١٩٧٩] بكتاب احتجاج الى وزير الدفاع عيزر وايزمن » مطالبين بوقف « عمليات الحفر التي تقوم بها الجرافات في تل المالحة إلى الشرق من بئر السبع دون موافقة اصحاب هذه الأرض » (معاريف ، ١٦/ ٢/ ١٩٧٩) . وقد جاء في كتاب الاحتجاج هذا أن « الحفريات التي تجري في اراض مزروعة ومفلوحة تابعة لهم هي بهدف اقامة معسكر » ، وأن اعمال الجرافات « تسبب اضراراً بالغة لمحاصيلهم » . وأضاف هؤلاء الشيوخ في كتاب الاحتجاج : « اننا نعارض ونحتج على هذه الحفريات . اننا مواطنو هذه الدولة ولنا حقوق ككل شخص أخر ، بما في ذلك حق اشراكنا في تقرير مستقبلنا .. اننا نعلن ان هذه الأعمال ، التي تهدف الى خلق امر واقع في المنطقة تضر بالعلاقات الجيدة بين رجالنا والحكومة » (المصدر نفسه) . ووقع هذا الكتاب « الشيخ محمد أبو قرينات والشيخ أحمد أبو جويعد والشيخ فرج الحمامدة والشيخ سليمان قبوع وأخرون ، كلهم رؤساء عشائر بدو الى الشرق من بئر السبع » ، الا انهم « لم يتلقوا أي جواب » عليه (المصدر نفسه وهآرتس ، ١٢/ ٣/ ١٩٧٩) . ولكن بنيامين غور — أرييه ، مستشار رئيس الحكومة بالوكالة للشؤون العربية كان قد صرح أن « مشكلة اجلاء البدو عن المناطق التي يحتفظون بها كانت قد بحثت قبل انعقاد مؤتمر كامب ديفيد ، وقبل ان يتعلق الأمر باقامة مطارات في النقب » (معاريف ، ٢/ ٣/ ١٩٧٩) . وأضاف غور — أرييه ، بأن الحكومة كانت قد اتخذت « قراراً واضحاً وصريحاً » ، وهو أن « أراضي النقب التي تحتفظ بها قبائل البدو هي أرض موات ، كتصنيف القانون العثماني » ، ولذلك فانها « مخولة لأن تفعل بها ما تشاء » (المصدر نفسه) . واستطرد مستشار رئيس الحكومة للشؤون العربية قائلا بأنه على الرغم من ان هذه الأرض هي أرض موات » ، قررت الحكومة « أن تعامل البدو بالعدل » ، طارحة عليهم احدى الامكانيات التالية : « إما دفع تعويضات لهم بمعدل ٦٠٪ من قيمة الأرض ؛ أو الحصول على ٢٠٪ من الأرض التي يحتفظون بها ؛ أو استبدال كل ١٠٠ دونم من الأرض البعل مقابل دونم واحد مروي » (المصدر نفسه وهآرتس ، ٢٧/ ٢/ ١٩٧٩) . ولكن المشكلة هي أيضاً في أن « هذا التعويض العقيم لن يدفع لبدو كثيرين سواء من قبيلة الظلام او غيرهم » ، لأن القلائل فقط هم الذين « يستطيعون ابراز ما يشبه الكوشان على مكان سكناهم الحالي ، اذ لم يكن ثمة سجلات طابو منظمة في النقب » . وهذا بالاضافة إلى ان البدو « كانوا قد اجلوا عن اراضيهم عام ١٩٥١ بحكم قانون امتلاك الأراضي الوحشي الصادر عام ١٩٥٣ » (هآرتس ، ٢٧/ ٢/ ١٩٧٩) . ووفقاً لهذا « القانون الرهيب » ، فان الأرض التي لم تكن « في يد أصحابها في تاريخ ١/ ٤/ ١٩٥٢ انتقلت تلقائياً لملكية الدولة » . إلا انه « لم يكن بامكان البدو ان يكونوا في هذا التاريخ على أرضهم لأنهم اجلوا عنها بالقوة ، كالهنود الحمر ، الى محمية تقع الى الشمال الشرقي من بئر السبع قبل عام من هذا التاريخ » (المصدر نفسه) . ولهذا فان النتيجة العملية للخطوات المتوقعة في المستقبل القريب ستكون « اقتلاع الكثيرين من بدو النقب من الزراعة وتربية المواشي » وتركيزهم في ستة مراكز شبه مدينية مكتظة ، دون أي مصدر

رزق ذاتي ، لا في الزراعة او الصناعة او التجارة » . والنتيجة الحتمية بالطبع هي أنهم « سيحولون الى بروليتاريا رثة تزود الصناعات القذرة في مثلث اورن ــ سدوم ــ ديمونا [في النقب] بالأيدي العاملة » (المصدر نفسه) .

إلا أن قبيلة الظلام بل وعرب النقب كلهم يرفضون هذه العروض المقترحة عليهم ، ويعارضون أية عملية مصادرة لاراضيهم ، و « يرون فيها مساساً بحقوقهم الطبيعية » (هارتس ، ١٣/٣/١٩٧٩) . والسلطات الاسرائيلية « ترفض من ناحيتها أن تغير من أسلوبها في حل مشكلة اراضيهم وتوطينهم » ، ولم يعد أمامها غير طريق واحد فقط وهو اجلاؤهم عن اراضيهم وتركيزهم بالقوة » (المصدر نفسه) . وهذا ما اكده بنيامين غور ــ أريبه ، في مقابلة تلفزيونية بقوله ان السلطات الاسرائيلية « سوف تلجأ الى استخدام القوة اذا لم ينصع البدو لأوامر الجلاء من تلقاء انفسهم حتى حزيران ١٩٧٩ » (الاتحاد ، ٢٧/٣/١٩٧٩) ، كما أن وزارة العدل الاسرائيلية « تعد قانوناً جديداً يسهل على السلطات مصادرة الأراضي وطرد البدو منها » ، بينما تنظم السلطات في الوقت نفسه ، عملية اجلاء شاملة تشترك فيها قوات الجيش الاسرائيلي والدوريات الخضراء وقوات حرس الحدود » (المصدر نفسه ، هارتس ، ١٣/٣/١٩٧٩) . والنتيجة ، كما يبدو ، هي أن « العائلات الـ ٨٠٠ الأولى التي ستجلى بالقوة ، ستبقى دون مأوى إذ ليس من خيام لدى معظمها أو مسكن بديل ، كما لم يعد لها ذلك » . ويتم هذا على الرغم من ان اولئك البدو « هم مواطنون مخلصون للدولة ، والكثير من ابنائهم [الذين] خدموا ويخدمون في جهاز الأمن والجيش الاسرائيلي سيكونون في حالة من التذمر لا يمكن تصحيحها . [كما أن] هذه العملية الوحشية سوف تغطيها بالتأكيد وسائل الاعلام في البلاد وفي الخارج ، وستزيد من صورة اسرائيل السلبية كدولة متوحشة تمس بحقوق الانسان » (المصدر نفسه) . والأكثر من ذلك « سنخلق بأيدينا أوكار عداء ضد اسرائيل » (معاريف ، ٢/٣/١٩٧٩) ، اذ لا بد وأن « تتحول هذه القرى التي سيركز [البدو] فيها ، بعد اجلائهم بالقوة ، إلى « مثلث » عربي آخر يكون مع المستقبل بؤرة للتوتر والعمل التخريبي » (المصدر نفسه) .
وبالاضافة إلى ذلك ، هناك « شائعات من مصادر موثوقة » تفيد بأن عرب النقب « سوف يقاومون اجلاءهم بالقوة وساعتهم الرملية تشرف على الانتهاء » (هارتس ، ٢/٣/١٩٧٩) .

الدوريات الخضراء تتعجل التهجير

والى أن تنتهي المهلة الزمنية المحددة للبدء في اجلاء عرب النقب بالقوة ، تقوم « الدوريات الخضراء » ذات الممارسات شبه الفاشية ، التابعة لوزير الزراعة ارئيل شارون ، بارتكاب الجرائم الوحشية ضدهم وضد قطعانهم ومزروعاتهم لحملهم على الجلاء عن اراضيهم والقبول بمقترحات السلطات المعروضة عليهم . وقد وصلت هذه الاعتداءات الوحشية ذروتها يوم ٢٦/٣/١٩٧٩ ، حين شنت هذه الدوريات « اشرس هجوم لها على عرب النقب ... فداهمت بيوت عرب العطاونة قرب عراد ونهبت مئات رؤوس الماعز والمواشي واحرقت خيام الأهالي ، واعتدت على الرجال والنساء والأطفال القاطنين فيها وأحرقت كذلك بالات القش التي تستخدم طعاماً للمواشي » (الاتحاد ، ٣٠/٣/١٩٧٩) . وقد أكد عرب العطاونة ان هذا العدوان كان « اشرس عدوان عرفوه حتى اليوم » وأن رجال الدوريات الخضراء اظهروا وحشية لم يعرفوا لها مثيلا « خصوصاً ، حين اخلوا النساء والأطفال من الخيام قبل احراقها بعد ان » ابعدوهم عن سيارات نقل المواشي إلى مخزن هذه العصابة الهمجية في بئر السبع » (المصدر نفسه) . وكان قائد « الدوريات الخضراء » ، الون غاليلي ، وهو « موظف كبير في وزارة الزراعة » قد امر رجاله بكل وضوح : « أريد عملية قصيرة وسريعة . أريد أن تختفي من المنطقة بأقصى السرعة » (هارتس ، ٢٧/٣/١٩٧٩) . ولم تقف الأمور عند هذا الحد ، بل ان قائد « الدورية الخضراء » التي هاجمت بيوت عرب العطاونة توجه فور الانتهاء من العملية إلى مركز شرطة عراد بشكوى ضد عرب النقب لأنهم « يقومون برعاية المواشي في مناطق مغلقة » (المصدر نفسه) .

ومن ناحية اخرى ، عقدت « لجنة الدفاع عن حقوق عرب النقب » مؤتمراً صحفياً في بيت سوكولوف في تل ابيب ، يوم ١٤/٣/١٩٧٩ طالبت فيه باقامة « لجنة تحقيق برلمانية او شعبية محايدة للتحقيق في قضايا عرب النقب وفي الجرائم التي يرتكبها رجال الدورية الخضراء ضدهم ، بغية اجبارهم على هدم بيوتهم والرحيل عن اراضيهم » (الاتحاد ، ١٦/٣/١٩٧٩) . وروى المشاركون في هذا المؤتمر للصحافيين « تفاصيل الاعتداء الذي قامت به هذه الدوريات على قبيلة الاعصم ، في ٢١/٢/١٩٧٩ ، باشتراك رجال الجيش الاسرائيلي » ،

وافادوا بأن هذه القوات « هاجمت بيوت عشر عائلات بقيادة رئيس الدوريات الخضراء ، الون غاليلي ، وأجبرت المواطنين على الانبطاح أرضا ، وقامت بتعذيبهم وضربهم ثم اعتقلتهم لمدة ستة أيام ، وصادرت قطيعهم وطالبتهم بدفع ٦٧ الف ليرة مقابل اعادة القطيع » (المصدر نفسه) .

وأمام هذه الهجمة الشرسة تقدمت كتلة « الجبهة الديموقراطية للسلام والمساواة » بطلب الى رئاسة الكنيست الاسرائيلي « دعتها فيه لبحث قضية الاعتداءات على عرب النقب ومشاريع ترحيلهم عن اراضيهم في الكنيست » (الاتحاد ، ١٦/ ٢/ ١٩٧٩) . وقد طرح هذا الاقتراح على جدول اعمال الكنيست في ٢٨/ ٢/ ١٩٧٩ ، حيث تكلم باسم الجبهة النائب الشيوعي توفيق طوبي ، ورد على اقوال وزير الزراعة الاسرائيلي ارئيل شارون، الذي طالب بـ « شطب الموضوع » (الاتحاد ، ٣٠/ ٣/ ١٩٧٩) . أما كتلة شيلي فقد اقترحت « احالة الموضوع الى لجنة خاصة » إلا ان الكنيست رد الطلب « بأغلبية اصوات الائتلاف » (المصدر نفسه) .

قضية سليمان ابو قرن

رغم الاحتجاجات التي أرسلها عرب النقب الى رئيس الوزراء الاسرائيلي مناحيم بيغن ، والى وزير الدفاع عيزر وايزمن ، ورغم عرض قضيتهم على الصحافة الاسرائيلية والعالمية ، ومن ثم طرحها على جدول اعمال الكنيست ، واصلت السلطات الاسرائيلية عملية الاستيلاء على أراضيهم بالقوة . ولم تقتصر اجراءات المصادرة على المنطقة المعدة لاقامة المطار العسكري والمدني الكبير في منطقة تل المالحة وحسب ، بل تعدته الى أراضي عشيرة الاسد ، في منطقة اللقية ، رغم وجود « امر منع مؤقت » صادر عن محكمة العدل العليا بعدم وضع اليد عليها الا بعد بحث الموضوع في المحكمة المركزية في بئر السبع .

ففي صباح ٤/ ٤/ ١٩٧٩ ، كان سليمان ابو قرن وأفراد عائلته من عشيرة الأسد في مركز بوليس بئر السبع حيث جرى استدعاؤهم للتحقيق معهم بشأن توزيع منشور مزعوم وزعه المخربون ، وعن رسم الصليب المعقوف على جدران البيت المجاور لهم « (الاتحاد ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩ ومعاريف ، ودافار وعل همشمار ، ٥/ ٤/ ١٩٧٩ وذلك في محاولة لارهابهم ، وبالتالي تسهيل عملية الاستيلاء على أراضيهم ، بناء على « خطة مدبرة بين ادارة اراضي اسرائيل والبوليس » (الاتحاد ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩) . وفيما كان التحقيق دائراً مع أبو قرن ، كانت جرافات دائرة الاشغال العامة « تقوم بقلب ارضه في خربة اللقية بحجة شق طريق جديدة » ، بعد أن « احتل رجال [مديرية عقارات اسرائيل] قطعة أرض مساحتها ١٨٠ دونماً تابعة لعائلة أبو قرن بمعداتهم الثقيلة ، خارقين بذلك أمراً صادراً عن محكمة العدل العليا » (الاتحاد ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩ وعل همشمار ، ٩/ ٤/ ١٩٧٩) . وحين عاد سليمان ابو قرن وابناء عائلته من مركز الشرطة في بئر السبع « وجدوا جرافات دائرة الاشغال العامة تقوم بقلب الأرض » ، فسارع مع ابناء عشيرته « لمنع الحفريات وقلب المزروعات وتقتيل الدجاج وهدم الاسيجة » ، واذ ذاك هرعت قوات الشرطة « واعتدت على اهالي القرية وطلاب مدرسة الأسد المجاورة للمكان » (المصدر نفسه) . وقد لجأت الشرطة الى « اطلاق الرصاص لتفريق الناس واعتقلت حوالي ١٩ شخصاً من بينهم معلمي المدرسة الثانوية » (المصدر نفسه) ، ودافار ومعاريف ، ٥/ ٤/ ١٩٧٩) .

وقد ادعى المتحدث باسم شرطة النقب ، نائب المفوض ابراهام ملكا، اثر الحادث ، أن الشرطة كانت قد استدعيت الى المكان حوالي الساعة التاسعة والنصف صباحاً بعد أن اشتكى رؤساء ادارة الاشغال العامة (ماعاتس) بأنهم « رجموا بالحجارة على يد البدو » (معاريف ودافار وعل همشمار ، ٥/ ٤/ ١٩٧٩) . وأدعى ملكا ايضاً ان « دورية شرطة واحدة فقط » ، كانت قد وصلت بادئ الأمر من مركز شرطة عراد ، ومؤلفة من « ثلاثة رجال شرطة بقيادة الآمر عوباديا شيمش » إلا أن هذه الدورية « استدعت نجدة من بئر السبع » ، بعد ان « هوجمت بوابل من الحجارة » (المصدر نفسه) . وأضاف المتحدث باسم شرطة النقب ان معلمي مدرسة الأسد التي تبعد حوالي مئتي متر عن مكان الحادث كانوا قد « حرضوا طلابهم ، فخرج مئات منهم مع معلميهم ضدنا وانضموا الى عشرات الرجال وهاجمونا بوابل من الحجارة والعصي » (المصدر نفسه) . وتابع الناطق مدعياً ان « احدى الجرافات قد أعطبت بالاضافة الى سيارتي شرطة » كما « أصيب الرقيب هرتسل غيفع في رأسه والآمر غميا الياف وثلاثة آخرين من رجال الشرطة بجروح » (المصدر نفسه ، والاتحاد ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩) .

إلا أن سليمان أبو قرن روى في المذكرة التي رفعها الى محكمة العدل العليا في القدس بواسطة محاميه ، جدعون فينر قصة أخرى ، مفادها انه كان ، قد استدعي هو وابناء عائلته الخمسة الى مركز شرطة عراد في ٤/ ٤/ ١٩٧٩ ــ يوم الحادث ــ في الساعة السابعة والنصف صباحًا (المصدر نفسه) ، حيث حقق هناك معهم أحد رجال الشرطة ، بشأن منشور منظمة فتح الذي وزع في المكان ، . وعندما اجابوه بأنهم ، لم يروا في حياتهم مناشير كهذه طلب إليهم المحقق ان ، يمثلوا مرة اخرى في مركز الشرطة صباح يوم الجمعة ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩ ، . ولكن عند عودتهم الى البيت : ، شاهدنا الجرافات تهدم اسوار بيتنا وتقلب جزءا من ارضنا المفلوحة ، وعندها فقط أدركنا أن ذلك لم يكن سوى مناورة لخداعنا ، . وأضاف سليمان أبو قرن في مذكرته : ، وعندما حاولت الاقتراب من ضابط الشرطة كي استوضح الأمر ، انهال رجال الشرطة علي بالضرب على رأسي ، وزجوا بي داخل سيارتهم التي اقلتني مع سائر ابناء عائلتي تحت الضرب المبرح الى مركز شرطة بئر السبع ، (المصدر نفسه) . وجاء في هذه المذكرة أيضا أن ، الشرطة استخدمت السلاح الحي واطلقت النار في الهواء دونما مبرر ... ولقد ضربونا كلنا ضربا مبرحاً واعتقلوا المعلمين والتلاميذ الذين كانوا في المدرسة المجاورة لبيتي ، (المصدر نفسه) .

وكان المحامي جدعون فينر ، ممثل عائلة سليمان ابو قرن ، قد ، زاره في سجن شرطة بئر السبع ، برفقة الطبيب ، الذي فحصه واصدر تقريرا طبيا عن ، آثار ضرب وخدوش ونزيف على ظهر المفحوص ، (المصدر نفسه). وحين طالب المحامي بالكشف الطبي على المعتقلين الآخرين ، رفضت الشرطة ذلك بحجة أن الوقت متأخر ، (المصدر نفسه) . كما تقدم المحامي جدعون فينر باستدعاء الى محكمة العدل العليا ، ضد وزير الداخلية ووزير المالية واللجنة القطرية لتخطيط المدن في النقب ولجنة المحافظة على الأراضي الزراعية ومديرية عقارات اسرائيل ، طالبا منهم أمرهم أن ، يوضحوا لماذا صادروا اراض زراعية ولماذا ارسلت الاخطارات بمصادرة الأراضي بعد ثلاث سنوات من مصادرة المنطقة ، (المصدر نفسه) ، إذ كانت السلطات قد أعلنت عن مصادرته ٣١٨٠ دونما في منطقة اللقية بما في ذلك أراض تابعة لسليمان أبو قرن مساحتها ١٨٠ دونما ، عام ١٩٧٥ ، وأعلنت عن هذه المصادرة في الجريدة الرسمية ، في ٢٠/ ٤/ ١٩٧٥ ، والتي لا يقرأها البدو ، (المصدر نفسه) . وقد استجابت المحكمة العليا للطلب واصدرت ، أمرا تمهيديا ضد ممثلي الحكومة ، ثم عادت والغته في ٢٨/ ٢/ ١٩٧٩ ، بعد ان تعهدت النيابة العامة بأن ، المدعي عليهم لن يستولوا على الأراضي الا بعد استصدار امر من المحكمة المركزية في بئر السبع ، بموجب المادة ٨ لقانون الأراضي (استملاك للمقاصد العامة ، (المصدر نفسه) . إلا أن وزارة الاشغال العامة ، وضعت يدها على الأرض دون امر لهذا ، (المصدر نفسه) .

قرار محكمة العدل العليا

اثر خرق السلطات الاسرائيلية لتعهدها ، عادت محكمة العدل العليا ونظرت ثانية في طلب عائلة ابو قرن ، في اليوم التالي للاستيلاء على الأراضي ، واصدرت ، امر منع اولي ضد وزارة الاشغال العامة ، (الاتحاد وهآرتس ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩ ، بعد ان اتهمت السلطات بانتهاك حرمة المحكمة . وجاء في هذا القرار ، شديد اللهجة ان ، المحكمة منعت الدولة من ممارسة حق التصرف بمنطقة اللقية الواقعة قرب مستوطنة لاهب ، وأمرت السلطات ، باخراج كل المعدات التي ادخلتها إلى المنطقة المتنازع عليها ، خلال ٢٤ ساعة ، ، ومنعت من دخولها ، إلا بناء على أمر صادر عن المحكمة المركزية ، ولكي يعبر القضاة عن استيائهم من ، تصرف الدولة في هذه القضية غرموها بدفع مصاريف المحكمة البالغة عشرة آلاف ليرة اسرائيلية للبدوي الذي اقتحمت ارضه ، . كما طالبت المحكمة بـ ، ايقاف عملية اجلاء البدو عن اراضيهم ، (المصدر نفسه) واصدرت ، بالاضافة الى ، امر المنع ، ، امرين احتراز بين آخرين تأمر فيهما مديرية عقارات اسرائيل ووزراء المال والاسكان والداخلية بتوضيح اسباب مصادرة ارض زراعية لاقامة بلدة لتوطين البدو ، خلال ٢١ يوما ولماذا لا تعط الفرصة للبدو لعرض تحفظاتهم على مشروع البلدة أمام الجهات المعنية بالأمر ، (المصدر نفسه) . وكان رئيس محكمة العدل العليا قد وجه في قرار المحكمة ، انتقادا شديدا لدولة اسرائيل ، بعد ان اعلن بانها ، ارتكبت مخالفة تنطوي على تحقير للمحكمة بوضع يدها ، على أراض للبدو دون أمر قانوني ، وخلافا لوعد سابق منها ، ، مضيفا ان المحكمة ، لن تتورع عن ارسال المسؤول عن هذا العمل الى السجن ، (المصدر نفسه) .

وعلى الرغم من قرار المحكمة هذا ، هرعت قوات كبيرة من البوليس مرة اخرى الى المنطقة ، عندما ، توجه الى

المكان وفد طلابي من جامعة بئر السبع لمواساة اهل القرية وغرس الاشجار احتجاجاً على اعمال التخريب الوحشية ضد قرية اللقية » (الاتحاد ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩) . وقامت هذه القوات المؤلفة من « عشرات رجال الشرطة وحرس الحدود ، الذين وصلوا في ١٦ سيارة شرطة ، باعتداءات فظة على كل من كان موجوداً على الأرض ، مطلقة النار بغزارة » (المصدر نفسه ودافار ٦/ ٤/ ١٩٧٩) . وقامت هذه القوات أيضا باعتقال عدد آخر من البدو ، بينهم خمسة من طلاب جامعة بئر السبع وهم : شحدة بن بري ، سكرتير لجنة الطلاب العرب في الجامعة ، ونواف مطر ومحمد أبو ربا وعفيف صفية وميسرة السيد والاستاذ الجامعي صالح نجيدات واثنين من الطلاب الثانويين » (المصدر نفسه) . وتعرض اولئك جميعاً « للضرب المبرح في مركز الشرطة وخصوصا الاستاذ الجامعي صالح نجيدات » (المصدر نفسه) . وكان هؤلاء الطلاب قد « استلقوا امام الجرافات لمنعها من الاستمرار في العمل » (دافار ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩) . وبذلك وصل « عدد الذين اعتقلوا في ٤ ــ ٥/ ٤/ ١٩٧٩ إلى ٢٦ بدوياً » (المصدر نفسه) ، مما دعا الطلاب العرب في جامعة بئر السبع إلى « تنظيم مظاهرة تأييد للطلاب المعتقلين » . إلا أن قوات الشرطة وحرس الحدود « اقتحمت الحرم الجامعي بناء على طلب من عميدها واعتدت على المتظاهرين بالضرب المبرح واعتقلت ٦٠ طالباً منهم » (المصدر نفسه الاتحاد ، ٦/ ٤/ ١٩٧٩)

وهذه الحادثة ليست إلا مثالا على الاجراءات الهمجية المختلفة التي تتخذها السلطات الاسرائيلية للسيطرة على ما تبقى من الأراضي في ايدي البدو ــ الضحية الأولى لمعاهدة السلم المصرية ــ الاسرائيلية المنفردة .

توفيق فياض

إسـرائيليات

المرحلة الاولى من تطبيق معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية

بدأ في اواخر شهر ايار الماضي تنفيذ المرحلة الاولى من تطبيق معاهدة السلام المصرية الاسرائيلية . اذ تم جلاء القوات الاسرائيلية عن مدينة العريش ، وتبادل الزيارات بين السادات وبيغن في يوم واحد في مدينتي العريش وبئر السبع . في الوقت الذي كانت تجري فيه مفاوضات بين الطرفين حول الحكم الذاتي . وقد تميزت هذه الفترة بأمرين اساسيين تمسك اسرائيل بموقفها المعلن الواضح وفهمها الخاص تجاه مسألة الحكم الذاتي . ودخول العلاقات بين مصر واسرائيل في طور التطبيع .

في السابع والعشرين من ايار جرت الاحتفالات في مدينة العريش بمناسبة انسحاب القوات الاسرائيلية منها وفق اتفاقية كامب ديفيد . وسط اجراءات امنية مشددة من جانب النظام المصري . وقد نشط الطرفان المصري والاسرائيلي لاضفاء جو احتفالي على الحدث . للارتقاء بالعلاقات فيما بينهما الى حالة افضل بهدف تطبيعها . ولم يكن هنالك ما يعكر هذا النشاط سوى موقف سكان العريش الذين « احرجوا » النظام المصري بنفس المقدار الذي اثاروا فيه « دهشة » الاسرائيليين . فقد كشف سكان المدينة . في السادس والعشرين من الشهر اثناء حفل « توديع » القوات المصرية للقوات الاسرائيلية بمناسبة انسحاب الاخيرة . وسط عزف النشيدين المصري والاسرائيلي . عن حقيقة مشاعرهم المغايرة والمناقضة مع الخط السياسي للنظام المصري . حين قاموا بتوديع قوات الاحتلال بطريقة مغايرة . اي بـ « الحجارة والشتائم واعمال اخرى (مماثلة) . مما دفع الجيش المصري بالذات الى استعراض عضلاته » ضد المتظاهرين . وسط الهتافات الوطنية التي اثارت « علامات تعجب » لدى وسائل الاعلام الاسرائيلية . مثل « العريش مصرية والقدس فلسطينية » و« الله اكبر » . وكرد على ذلك اندفعت جماعات من المستوطنين للرد بهتافات عنيفة مثل « الخزي والعار » . وقد حدثت اشتباكات بين المتظاهرين والقوات الاسرائيلية في الملعب البلدي ، على مرأى من القوات المصرية التي وجدت نفسها في وضع لا تحسد عليه ، وقامت بدور تفريق المتظاهرين العرب . ووصف مراسل يديعوت احرونوت (٢٧/٥/٧٩) وداع سكان العريش للقوات الاسرائيلية المنسحبة بقوله ان عملية الانسحاب كانت « مصاحبة بالشتائم وفي بعض الاحيان بوابل من البصق والحجارة الموجهة ضد جنود الجيش الاسرائيلي المنسحبين » . ويبدو ان هذه الصورة اثرت على نفسية مراسل صحيفة دافار دان تسدكوني الذي تخلى تحت سورة الغضب عن القيام بمهامه الصحفية ، واعتلى ظهر سيارة جيب عسكرية واخذ يصيح باللغة العربية « عاش الجيش الاسرائيلي » فما كان من الجمهور المتظاهر الا ان « قذفه بالحجارة . وبفضل سائق سيارة الجيب الذي بقي مسيطرا على اعصابه ، وكذلك بفضل الجنود المصريين ، تمكن تسدكوني من الهرب نحو الحاجز » (المصدر نفسه) .

كما عبر سكان العريش عن حقيقة مشاعرهم في اليوم التالي . اثناء احتفال السادات باستعادة المدينة واستقباله لرئيس حكومة اسرائيل مناحيم بيغن ، وذلك برفع شعار وسط التظاهرات يقول « اليوم العريش وغدا فلسطين » . مما ولد

« حرجا » لدى السادات و« دهشة » عند بيغن . بيد ان ذلك لم يكن اكثر من تعكير صفو الجو الاحتفالي ، الـذي حضره عدد من المسؤولـيـن المصريـيـن والاسرائيليين والذين توجهوا في اليوم نفسه الى بئر السبع للاحتفال بالحدث هناك .

وسبق احتفال بئر السبع ، اجتماع قصير في العريش بين السادات وبيغن ، اعلن الاخير على اثره امام بعثتي مشوهـي الحـرب من الاسرائيليـين والمصريين عن النتائج المتمخضة عن الاجتمـاع بقوله « قبل ١٥ دقيقة فقط ، توصلنا الى اتفاق مع رئيس مصر حول عدد من النقاط . اننا نعلن هنا في العريش ان الحدود بين الدولتين مفتوحة ، وبوسع مواطني كلا الدولتين تبـادل الزيـارات » (على همشمار ، ٢٨/٥/٧٩) كمـا اعلن بيغـن عن استجابته لدعوة السادات لزيارة الاسكندرية قبل الاسبوع الاول من تموز .

وفي كلمته التي القاها بعد ذلك ، في جامعة بئر السبع ، شكر مناحيم بيغن الرئيس كارتر لدوره في تحقيق السلام بين اسرائيل ومصر ، ودعـا الملك حسين للانضمام الى المفاوضـات حول الحـكم الذاتي ، وهاجم ادعاء من اسماهم بـ « اعداء السلام » بان اسرائيل ومصر وقعتا على اتفاق منفرد بقوله « هذا ليس صحيحا ، ذلك انه بمثابة خطوة اولى نحو اتفاق شامل ، وهذا هدفنا » . واشاد بيغن بالحكم الذاتي ، ليصب بعد ذلك جام غضبه على منظمة التحرير الفلسطينية « اننا سنحتفظ لانفسنا بالامن ، حيث في ظروف الدمار وغياب الـروح الانسانية والعطش للـدم، التي تعمل بها بلا كابح منظمة القتل المسماة منظمة التحرير الفلسطينية ، يعتبر الامن حاجة ملحة لامفر منها . وقد اعترف بذلك كل ذوي النوايا الحسنة . ان العرب واليهود سيواصلون ، الى العيش جنبا الى جنب في سلام وامان في ارض اسرائيل انطلاقـا من الاحتـرام الانسانـي والنهـوض المشتـرك » (دافـار ، ١٨/٥/٧٩) .

ومن الجدير بالذكر ان الرئيس المصري الذي حرص على عدم ذكر كلمة « الفلسطينيـين » في حديثه ، لم ير في كلمة بيغن ما يحرجه ، في حين رأى في كلمة بتسحاق نافون رئيس اسرائيل التي القاها بالعربية ما يسيء الى « مشاعره الوطنية » ، اثر حديث نافون عن الثمن « الباهظ » الذي قدمته اسرائيل للسلام ، ثم قوله للسادات : « انك قادم الينا من العريش عاصمة سيناء ، التي اعدناها لكم بموجب معاهدة السلام . وبمقتضى هذه المعاهدة ستسترجـع مصر سيناء باكملهـا بعـد ثلاث سنوات » . ويبدو ان السادات اعتقد ان نافون ، وهو يركز على الثمن الباهظ للسلام ، ذكر كلمة « اعطينا » بدل « اعدنا » فخرج عن نص خطابه المعد ، ليرد على نافون ، مركزا على ان هدف مصر الاساسي يتمثل في احلال السلام وليس فقط استعادة سيناء (يديعوت احرونوت ، ٢٨/٥/٧٩) .

وكان السادات قد حظي باستقبال حار في مدينة بئر السبع ، شبيه بالاستقبال الذي اعد له في القدس عند زيارته للكنيست . ومع ذلك ، فقد عكر صفو الاحتفال ، عدد من الطلبة الفلسطينيين الذين يتلقون دراساتهم في جامعة بئر السبع ، حيث استقبلوا السادات وبيغن بهتافات ، وشعارات مكتوبة تقول « لا سلام دون دولة فلسطينية » و« م.ت.ف. هي الممثل الشرعي الوحيد للشعب الفلسطيني » .

وقد انعكس اللقاء المصري الاسرائيلي في العريش وبئر السبع ، في افتتاحيات الصحف الاسرائيلية ، حيث رأت هآرتس (٢٨/٥/٧٩) ان « الاهمية الاساسية لاحداث امس في العريش وبئر السبع لا تكمن في الخطابات التي القيت ، بل في حقيقـة كون ... السادات وجه دعوة لرئيس حكومة اسرائيل ليكون ضيفه في العريش ، ثم موافقته للمجيء الى بئر السبع ليحل ضيفا على بلديتها وجامعتهـا . ان السادات يواجه حملة شديدة من جانب اكثرية الدول العربية لتجرؤه على وضع حد للحرب بين مصر ودولة اليهود » . وانتهت الصحيفة بالثناء على « رباطة جأش » السادات . اما دافار (٢٨/٥/٧٩) فقد رأت في اللقاء ما يشير الى ان « العلاقات الثنائية بين اسرائيل ومصر تتطور حسب ما هو مخطط لها ، دون قفزات ولكن بدون عراقيل ايضا » . وعلى الرغم من العزلة المفروضة على مصر في العالم العربي فانها لا تحيد عن طريقها . ان المشاكل التي يمكن التكهن بها تتعلق بالاساس في مباحثات الحكم الذاتي ، والكل مدرك لها ... » .

كانت مباحثات الحكم الذاتي في بئر السبع قد

دارت ، قبل يومين من وصول السادات الى المدينة ، بين الوفدين المصري والاسرائيلي . وظهرت « المشاكل » قبل البدء في المفاوضات . فقد كان من المفترض حضور رئيس الحكومة المصرية حفل افتتاح المباحثات ، بيد انه تغيب ، حسب تقرير بورغ (معاريف ، ٢٩/٥/٧٩) عن الحضور لغياب نظيره رئيس الحكومة الاسرائيلية الذي كان يقوم بزيارة لبريطانيا . كما ويرتبط تغيبه بمسألة رئاسة الاجتماعات . ففي الوقت الذي طالب فيه الجانب المصري بان يرأس وزير الخارجية الاميركية جلسات الاجتماع ، او على الاقل الجلسة الاولى ، اصر الطرف الاسرائيلي ، الذي رأى في هذا الاقتراح ما « يمس مكانة » اسرائيل ، على ان يكون الرئيس اسرائيليا لكون الاجتماعات تجري داخل اسرائيل . واقترح ان يرئس مناحيم بيغن جلسة الافتتاح . وقد وافق الطرف المصري على ذلك ، الا ان بيغن لم يتمكن من الوصول في الموعد المحدد لافتتاح الجلسة ، الامر الذي حمل رئيس الوزراء المصري على التغيب عن الحفل ، احساسا منه بان من غير اللائق حضور اجتماع يرئسه وزير داخلية اسرائيل وليس رئيس وزرائها . الى جانب ذلك ذكرت مصادر اسرائيلية « رفيعة المستوى » (يديعوت احرونوت ، ٢٨/٥/٧٩) ان غضب خليل لا يعود فقط الى موضوع رئاسة الاجتماع ، بل ايضا لسبب عدم حضور نائب رئيس حكومة اسرائيل يغئال يادين على رأس مستقبليه عند هبوطه في مطار « حتسريم » في بئر السبع !

بيد ان المشاكل الحقيقية تمثلت في البون الشاسع بين الموقف الاسرائيلي والمصري تجاه موضوع الحكم الذاتي . واتضح ذلك في كلمات الافتتاح المتبادلة بين رئيسي الوفدين . فقد اكد يوسف بورغ في كلمته ان « ما ينبغي علي توضيحه ، ويجب ان يكون مفهوما منذ البداية هو ان الحكم الذاتي لن يكون بوسعه ابدا تشكيل سيادة . واذا كان هدفنا السلام ورخاء السكان – وهذا هدف مشترك لنا – فعلينا ان نرفض سلفا ، وحسب واقع تحديد المشكلة ، اية فكرة لدولة فلسطينية مستقلة . ان اسرائيل لن توافق ابدا ، كما وترفض تماما ، فكرة ، او اعلان تأسيس دولة فلسطينية » . وبعد ان اعاد بورغ الى الاذهان وجود ٢١ دولة عربية في المنطقة و وجود دولة يهودية واحدة فقط مرت بتجارب المعاناة ، ناشد الوفد المصري العمل معا للتغلب على كافة العراقيل والتحديات « هيا بنا نقوم بذلك بجرأة ، وبحذر يتلاءم مع المسؤولية التاريخية الملقاة على عاتقنا معا . انني اتوجه الى السكان العرب في يهودا والسامرة وقطاع غزة لاستغلال الفرصة والانضمام الى هذه البداية الجديدة ، والاسهام في رسم خريطة المستقبل بحيث يضمن السلام والرخاء لهذه المنطقة التي يتوجب علينا العيش فيها الى ابد الآبدين . اننا نضرع للرب بان يمنحنا الحكمة في جهدنا هذا » (دافار ، ٢٧/٥/٧٩) .

وفي رده ، شدد رئيس الوفد المصري كمال حسن علي على ضرورة انسحاب اسرائيل من جميع الاراضي العربية المحتلة بما في ذلك القدس العربية ، وتطبيق الحكم الذاتي وفق قرارات كامب ديفيد ، وعدم اتخاذ قرار بشأن الفلسطينيين ، اعتقادا منه ان بوسع الفلسطينيين انفسهم القيام بذلك لان حق تقرير المصير حق منحه الرب لهم » (المصدر نفسه) .

وشغل البون الشاسع في الموقفين الاسرائيلي والمصري اهتمام عدد من المعلقين الاسرائيليين فوصف يشعياهو بن بورات (يديعوت احرونوت ، ٢٧/٥/٧٩) التباين بقوله انه « ليس ثغرة بل هوة قائمة بين الموقفين الاسرائيلي والمصري » ، معربا عن اعتقاده ان كل طرف سيجد نفسه « مضطرا » لتليين مواقفه ، بشكل او بآخر . والا فلن يكون هنالك ثمة جدوى من مواصلة المفاوضات . ومع ذلك فقد كان واضحا قبل الشروع بالمفاوضات انها « ستكون معقدة وطويلة ، مليئة بالازمات وربما لا امل منها » .

اما زميله اريئيل غيناي (المصدر السابق) فقد اجاب على سؤال طرحه حول صورة الحل الذي يمكن للطرفين التوصل اليه بقوله « في هذه المرحلة يمكن القول ان المفاوضات ستكون صعبة بمقدار غير عادي ، سواء بسبب صعوبات المشكلة ذاتها او بسبب عزلة مصر في العالم العربي والاسلامي . ويمكن التكهن كذلك ان الاتفاق ، في حال التوصل اليه ، سيكون مختلفا جدا عما يتصوره اليوم المصريون والاسرائيليون ، وحتى الاميركيون » .

وفي اجواء الاحتفالات في العريش وبئر السبع ، دارت ايضا في ابو رديس الجولة الثانية من المفاوضات بين المصريين والاسرائيليين حول موضوع حقول النفط ، وانتهت في ٢٨/٥/٧٩ دون التوصل الى نتائج ملموسة (انظر معاريف ،

٢٩/٥/٧٩) . فقد رفض المصريون هذه المرة ايضا المساهمة في اعمال صيانة حقل النفط والحفاظ على مستوى انتاجه ، في الوقت الذي اتفق فيه الطرفان على ضرورة الاستمرار في التمويل ولكن دون التوصل الى اتفاق حول طرقه ووسائله .

بادرات حسن النية

حرص الطرفان خلال اجواء الاحتفالات في العريش وبئر السبع على تقديم بادرات تنم عن حسن النوايا . وكانت اسرائيل هي المبادرة في هذا المجال . ففي الثامن والعشرين من ايار اقدمت على اطلاق سراح ١٦ معتقلا . ١٠ منهم من الضفة الغربية وقطاع غزة و٦ من ابناء سيناء . بيد ان هذه المبادرة لم تكن بحجم احلام السادات الذي ما برح منذ زيارته للكنيست يتطلع ، زعما ، بـ « توسل » النساء العربيات اليه ، للافراج عن الالاف من ابنائهن وازواجهن في المعتقلات الاسرائيلية . وقد علق مردخاي اورن (على همشار ، ٢٩/٥/٧٩) على بادرة حسن النية هذه ، فأعاد الى الاذهان ان اطلاق عدد من السجناء ليس البادرة « الوحيدة » ، اعتقادا منه ان اعادة العريش « في مرحلة متقدمة » تعتبر بادرة حسن نية . « يجب ان لا نتغاضى عن بنود معاهدة السلام التي لم تلزم اعادة العريش في هذه المرحلة المتقدمة . لقد جاءت اعادتها الآن لابداء رغبة اسرائيل في التدليل عن نواياها لتحقيق وانجاز تعهداتها بمقتضى معاهدة السلام بخصوص الانسحاب من سيناء » ودعا أورن الى ضرورة منح السادات « مزيدا » من بادرات حسن النية لدعمه في وقوفه امام العالم العربي ، مع الحرص على عدم اتخاذ أية مبادرة تمس القضية الفلسطينية « فبالنسبة لهذا الموضوع بالذات ، لا تعتزم اسرائيل مساعدة الرئيس السادات ... ليثبت للعالم العربي ، بشكل واضح ، عدم تخليه عن الشعب الفلسطيني » .

وجاء الرد المصري على البادرة الاسرائيلية باكرم منها . فقد سمحت السلطات المصرية لثلاث سفن انزال حربية اسرائيلية باجتياز قناة السويس من البحر الاحمر الى البحر المتوسط . وحرص الرئيس السادات ان يكون في منزله في الاسماعيلية لاستقبال القطع البحرية التي قامت بتحيته وهي مزينة باعلام مصر واسرائيل . ورد عليها من شرفة منزله ملوحا بيديه بالتحية . ونقلت يديعوت احرونوت (٣٠/٥/٧٩) عن مصادر مصرية قولها ان مرور القطع الحربية الاسرائيلية يؤكد العلاقات الجديدة بين مصر واسرائيل ، واشارت المصادر الاسرائيلية (على همشار ، ٣٠/٥/٧٩) الى ان الضابط المصري الذي انيطت به مهمة توجيه السفن الاسرائيلية كان قد كلف في حرب تشرين بمهاجمة السفن نفسها واغراقها .

ولم تحتل هذه البادرة مكانا بارزا في وسائل الاعلام الاسرائيلية فقط ، بل شغلت ايضا اهتمام المسؤولين الاسرائيليين . فقد حرصت القيادة الاسرائيلية على الاحتفال بوصول السفن الى ميناء اشكلون . وقال قائد سلاح البحرية الاسرائيلية ، مخاطبا جنوده ، بعد ان اشار الى خروج اليهود من مصر في العهود الغابرة : « اثناء حروب اسرائيل اجتاز اخوة لكم في السلاح ، مئات المرات في البر والبحر والجو قناة السويس ، عرضا . ومن خلال بذل الاف المقاتلين ارواحهم واجسادهم حصلنا على حق حرية الملاحة في القناة بهدوء وامان ، وهذه المرة ، طولا » (على همشار ، ٣١/٥/٧٩) . وعبر قائد احد القطع البحرية الاسرائيلية عن ابتهاجه بالحدث بقوله « لقد قطعنا ٤٠٠ ميل عن طريق القناة ، مقابل جولة حول افريقيا ، تستغرق ٧٠ يوماً على امتداد ١٢ الف ميل . ان هذه لحظة تاريخية » (معاريف ، ٣١/٥/٧٩) .

ولم يكتف رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن بالبادرة المصرية انفة الذكر ، بل تمنى على السادات التنازل عن « المزرعة » التابعة لمستوطنة نؤوت سيناي وابقائها تحت السيطرة الاسرائيلية ، الا ان رغبته اصطدمت برفض السادات .

ومن الجدير بالذكر ان الطرفين اتخذا بادرة حسن نية « مشتركة » تجاه المصبغة الخاصة بمستوطني نؤوت سيناي والواقعة في المنطقة الحرام للحدود الجديدة . وقد حاول المصريون في بداية الامر منع عمالهم من التوجه اليها ، الا انهم عادوا وسمحوا للبعض منهم بالعمل فيها ، كما اخذ الجنود المصريون يترددون عليها للاستحمام وغسل ملابسهم (معاريف ، ٣١/٥/٧٩) . ويشكل سماح مصر لعدد من عمالها بالعمل في المصبغة الاسرائيلية ، بداية العمل المصري الرسمي « الرخيص » في المرافق الاقتصادية الاسرائيلية .

تطبيع العلاقات

سعياً منها للشروع في عملية تطبيع العلاقات ،

اتفق الطرفان المصري والاسرائيلي علاوة عن الاعلان عن فتح الحدود ، على قيام الزعماء الاسرائيليين بسلسلة من الزيارات المتلاحقة لمصر . وفي الرابع من حزيران توجه وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان الى القاهرة حاملا معه وثيقة حول تطبيع العلاقات مع مصر ، واجتمع هناك بعدد من المسؤولين المصريين ، من بينهم خليل وبطرس والسادات . وتركز الحديث عن موضوع اساسي واحد هو تطبيع العلاقات . وقد تمخضت الزيارة عن ترتيبات فتح الحدود ، والسماح في هذه الفترة للمواطنين من كلا الجانبين بتبادل الزيارات عن طريق الجو والبحر ، على ان تفتح الحدود البرية في مرحلة لاحقة . وتم الاتفاق ايضا على التنقل جوا بين مطارات الطرفين بواسطة شركات الطيران الاجنبية ، الى حين تنظيم الرحلات الجوية من خلال شركتي الطيران المصرية والاسرائيلية . كذلك تم الاتفاق على فتح خط هاتف مباشر بين وزارتي الخارجية في كل من مصر واسرائيل .

ويبدو ان دايان كان مغتبطاً من نتائج رحلته ، التي انتهت في السادس من حزيران ، اذ ادلى بتصريح عن هبوطه في مطار اللد قال فيه « اعود ويستحوذ علي شعور بانني حصلت هناك على اكثر مما توقعته . لم اتوقع ان يقوم السادات باستقبالي ، ولم اتوقع ضيافة ودية الى هذا الحد . وفيما يتعلق بالجانب الخاص من الزيارة فانني راض عنه . وكذلك الانجازات التي حققناها في المسائل التي بحثناها »(ر.إ.إ : ٧٩/٦/٦) .

وفي العاشر من حزيران قام يغئال يادين ، نائب رئيس حكومة اسرائيل ، على رأس وفد كبير يضم صحفيين وفريقاً من الاكاديميين بزيارة مصر بناء على دعوة من السادات . وقد اخذت هذه الزيارة التي تدخل ضمن عملية تطبيع العلاقات شكل دراسة معالم مصر الاثرية ، باعتبار ان يادين عالم آثار .

الى جانب ذلك ، جاءت رحلة وفد اسرائيل لمباحثات الحكم الذاتي في الاسكندرية . وعلى الرغم من ان موضوع الحكم الذاتي يشكل بحد ذاته نقطة الخلاف الاساسية الجوهرية الوحيدة بين مصر واسرائيل ، فان واقع اجراء المفاوضات في هذا الظرف جاء ليعزز من عملية تطبيع العلاقات ، مع « تطبيع » الطرفين على التعايش مع نقطة الخلاف الوحيدة المتبقية .

وفي الحادي عشر من حزيران بدأت مفاوضات الحكم الذاتي بين الطرفين في الاسكندرية ، ومثل الوفد الاسرائيلي الى جانب رئيسه يوسف بورغ ، كل من موشي دايان وزير الخارجية وعيزر فايتسمان وزير الدفاع وشموئيل تمير وزير العدل واريئيل شارون وزير الزراعة . وقد قدر للمشاكل ان تظهر قبل الشروع بالمفاوضات ، كما حدث في بئر السبع قبل مدة ، حين ظهرت مشكلة تبدو وكأنها اجرائية مع انها تحمل معان سياسية . فقد رفض رئيس الوفد الاسرائيلي يوسف بورغ ، بشكل قاطع ، المكان المقترح لاجراء المفاوضات ، بحجة ان الفندق المقترح – وهو اضخم فندق في الاسكندرية – يحمل اسم فلسطين . وكان له ما اراد ، حيث استقر الرأي على اتخاذ فندق « سان ستيفانو » في المدينة مقرا للمفاوضات . وقدخيمت على المفاوضات اجواء النشاط الاستيطاني الاسرائيلي في الضفة الغربية ، والحملة الصحفية المصرية على رئيس الحكومة الاسرائيلية . وفرضت هذه الاجواء ظلالا ثقيلة على المتفاوضين ، لدرجة الح معها الوفد الاسرائيلي بامكانية انسحابه من المؤتمر في حال استمرار الحملات الصحفية المصرية على السياسة الاسرائيلية .

ولم تسفر مفاوضات الاسكندرية التي انتهت في الثاني عشر من حزيران عن شيء يذكر . فقد بقي الموقف الاسرائيلي كما هو : شرعية اقامة المستوطنات في « مناطق الحكم الذاتي » ، وسريان الحكم الذاتي على السكان وليس على الارض ، واستحالة تطور الحكم الذاتي الى دولة فلسطينية ، والتمسك بالقدس « الموحدة » عاصمة ابدية لاسرائيل . كما وبقي الموقف المصري ايضا على ما هو . والاتفاق الوحيد الذي تمخضت عنه مفاوضات الاسكندرية كان استكمال المفاوضات حول الحكم الذاتي في هرتسليا، شمال تل ابيب ، في الخامس والعشرين من حزيران .

ومن ناحية اخرى ، عالج المعلق دانئيل بلوخ (دافار ، ٧٩/٥/٣١) موضوع تطبيع العلاقات ، وانعكاس الحكم الذاتي عليه ، بقوله « ان ما يعكر صفو مسار التطبيع في العلاقات الاسرائيلية المصرية هي المفاوضات حول الحكم الذاتي . ومن الجائز القول ان السادات ، خلافا لنصيحة مستشاريه من وزارة الخارجية ، معني بتسريع وتيرة التطبيع ، كوسيلة ضغط على اسرائيل اثناء المفاوضات حول

الحكم الذاتي بحيث تقف الحكومة امام الخيار الصعب : التنازل في موضوع الحكم الذاتي او الوقوف في موضوع الاتهام باعادة عجلة التطبيع الى الوراء ، الى وضع التجميد » . وبعد ان اشار بلوغ الى تفاؤل الاوساط السياسية الاسرائيلية تجاه احتمالات المفاوضات حول الحكم الذاتي ذكر ان « هنالك ثمة تقويم قائم يقول ان لدى مصر واسرائيل . في حقيقة الامر . مصلحة مشتركة في منع قيام دولة فلسطينية تقودها م.ت.ف في يهودا والسامرة . وتلتقي عند هذه المصلحة ، بشكل اساسي ، كل من السعودية والاردن . ويدور النضال السياسي حسب هذا التقويم في مجالين : المجال العلني ، ويتمثل في المفاوضات حول الحكم الذاتي بين اسرائيل ومصر ، والمجال الخفي ، ويتمثل في شبكة المصالح الحقيقية لمعظم الجهات الشرق اوسطية » (المصدر نفسه) .

وثيقة تطبيع العلاقات

في غضون ذلك كشف النقاب عن وثيقة لتطبيع العلاقات مع مصر ، اعدتها لجنة المدراء العامين للوزارات الاسرائيلية المعنية ، برئاسة مدير مكتب رئيس الحكومة الياهو بن اليسار — الذي سبق له ان اعد عند نهاية العام الماضي ، بواسطة لجنة مماثلة ، وثيقة اخرى بخصوص سياسة اسرائيل تجاه الحكم الذاتي ، طالبت بالسيطرة على مليون دونم من اراضي الضفة الغربية وعلى المياه الجوفية هناك . وكان قد تم تشكيل اللجنة الجديدة عند مطلع نيسان الماضي لاعداد تقرير عن مسألة تطبيع العلاقات مع مصر لتهتدي به الحكومة الاسرائيلية في سياستها لحين تحقيق السلام الكامل .

تضمنت الوثيقة (نشر نصها الكامل في معاريف ، ٧٩/٥/٢) خمسة فصول اساسية : الاول حول القضايا الناجمة عن انتقال العريش الى السيادة المصرية ، والثاني حول فتح الحدود بين الطرفين ، والثالث حول الخطوط العامة للتطبيع ، والرابع يعالج القضايا المتعلقة بانسحاب الجيش الاسرائيلي الى خط العريش — راس محمد ، والاخير يقدم اقتراحات بخصوص التعاون الاسرائيلي المصري على المديين القصير والبعيد .

كشف التقرير في الفصل الاول عن وجود ٢٥٠٠ عامل من سكان سيناء يعملون في اسرائيل ، واوصى باستمرار عمل اولئك الذين اصبحوا خاضعين للسلطة المصرية في اسرائيل . اما في حال رفض المصريين ذلك ، فينبغي عدم التعهد للمصريين مستقبلا بايجاد عمل لهؤلاء العمال داخل اسرائيل . كما اوجب التقرير بالاستجابة لطلب المصريين تزويد العريش بالكهرباء بواسطة شركة الكهرباء الاسرائيلية لمدة اربعة اشهر ، ودعا الى استمرار تزود الجيش الاسرائيلي بالمياه من ابار العريش . وفي حال حدوث عطل في اجهزة الآبار يقوم المصريون باستدعاء الفنيين من شركة مكوروت الاسرائيلية .

وتطرق التقرير ، في الفصل الثاني ، لقضايا فتح الحدود ، ونقاط المرور ، ومنح التأشيرات ، والترتيبات الجمركية ، واستبدال العملة ، ومرور وسائط النقل والتعاون بين جهازي السلطة ، والاتصالات اللاسلكية ، والمواصلات الجوية .

اما الفصل الثالث فقد تطرق الى مبادىء تطبيع العلاقات بين الطرفين ، وخص موضوع السياحة بالمعالجة ، طالباً من اسرائيل الاخذ بعين الحسبان حرج السلطات المصرية (في المرحلة الاولى فقط) من مجيء سياح مصريين الى اسرائيل . ولذا لم توص اللجنة اسرائيل بانتهاج مبدأ المعاملة بالمثل في هذا المجال ، بل اوصت بتنظيم مشترك للسياحة الاجنبية في كلا البلدين . وفيما يتعلق بموضوع العمل داخل اسرائيل ، اوصت اللجنة بعدم فتح الحدود امام العمال المصريين ، اخذة بعين الاعتبار « فائض القوى البشرية » المصرية . وعالج التقرير الاستيراد والتصدير موضحاً انه نتيجة للضغوطات الاقتصادية وغيرها ، فانه لا يتوقع ، في المستقبل القريب ، قيام شبكة ضخمة من العلاقات الاقتصادية . اوصت اللجنة بفرض تعرفة جمركية على البضائع المستوردة من مصر ، وتشجيع الشركات الاسرائيلية في مجال المساهمة في المشاريع الاقتصادية المصرية . اما في الميدان الثقافي فقد اوصت بالتركيز في البداية على الفنون والمسارح ، ودعت الى تبني الجالية اليهودية في مصر .

وفي الفصل الرابع تطرق التقرير الى القضايا الناجمة عن الانسحاب الاسرائيلي في المرحلة الاولى ، فاوصى باستمرار تشغيل خط المياه بين الطور وشرم الشيخ بواسطة الاسرائيليين . وفي الفصل الخامس الخاص بالتعاون بين الطرفين اوصى التقرير باحداث اتصالات مباشرة بين الاجهزة الحكومية للنهوض بالتعاون في جميع المجالات ، ومن بينها مجالات

الاقتصاد ، والتجارة الخارجية ، وترتيبات الدفع ، والسياحة . وقدر التقرير حجم صادرات اسرائيل الى مصر بـ ١٠٠ مليون دولار ، واستيرادها منها بـ ٢٠ ـ ٣٠ مليون دولار . وابدى تخوفه من « استيراد رخيص من مصر ، واغراق السوق الاسرائيلية بمنتوجات رخيصة وبقوة عمل رخيصة » . ولذا اوصى بمراقبة دقيقة في هذا المجال .

وركز التقرير ، ثانية ، على موضوع السياحة ، وقدر عدد الاسرائيليين الذين سيزورون مصر سنوياً بـ ٣٠٠ الف . وابدى تخوفه من النمط المسلكي لـ « الاسرائيلي القبيح » في مصر . لذا اوصى بالفصل بين الزيارات الى مصر والزيارات الى سيناء . اما على المدى البعيد ، فدعا الى اقامة شبكة سياحية ضخمة بين الطرفين .

وفيما يتعلق بالتطور الاقتصادي المستقبلي ، دعا التقرير الى اقامة مشاريع اقتصادية مشتركة تعتمد على الدعم الخارجي ، من بينها اقامة شبكة مواصلات اقليمية وشبكة اتصالات اقليمية ، ومشاريع ثروية مشتركة ، على غرار « خطة مارشال » ، لتطوير مصر . وكذلك دعا الى اقامة منطقة تجارية حرة في سيناء بتعاون كل من « اسرائيل ومصر والولايات المتحدة والسعودية » .

ولم يغب عن بال معدي التقرير موضوع التعاون في مجال دراسة الديانات . فدعا الى تبادل الاساتذة لتدريسها !

المؤتمر الرابع عشر لحركة حيروت : التمسك بالمواقف السابقة

في الفترة الواقعة بين الثالث من ايار والثامن منه عقد في « مبنى الامة » في القدس المؤتمر الرابع عشر لحركة حيروت ، التي يتزعمها رئيس الحكومة الاسرائيلية مناحيم بيغن ، بحضور حوالي ٩٠٠ عضو يمثلون « مركز حيروت » وعدد من الضيوف ، من بينهم السفير الاميركي ، ومندوبين عن الكتل المتحالفة مع الحركة في الليكود ، ورئيس اسرائيل يتسحاق نافون ، ومندوبين عن الحركة الصهيونية . وقد لوحظ في حفل الافتتاح تغيب المندوبين عن التجمع العمالي المعارض وتغيب النائبة غيؤلاه كوهين .

انعقد المؤتمر تحت ظلال تفاقم الازمة الاقتصادية وبوادر الانشقاق في الليكود الحاكم . فقد بلغت الازمة الاقتصادية درجة عالية من التفاهم خلال فترة العامين من حكم الليكود . وحل خلالها العجز في ميزان المدفوعات الى ٣,٥ مليار دولار ، كما ارتفع معدل التضخم المالي بنسبة ٦٠٪ (ر. إ.إ ، ٣/٦/٧٩) بيد ان الاخطر من ذلك بوادر الانشقاق في الليكود التي انعكست في انشقاق كتلة « لعام » على نفسها ، وانسحاب عدد من زعمائها من الليكود . مما اثار تخوف حركة حيروت من احتمال استقطاب تلك المجموعة لعدد من اعضاء الحركة المناوئين للتسوية مع مصر وعلى رأسهم غيؤلاه كوهين وشموئيل كاتس .

ومع افتتاح المؤتمر ، القى رئيس الحركة مناحيم بيغن كلمة تطرق فيها الى الوضع السياسي ومعاهدة السلام مع مصر ، استهلها بامتداح « جرأة رئيس مصر الصامد في وجه مقاطعيه وشاتميه . ونحن على استعداد لمساعدته بالمقدار الذي نستطيع » . وفيما يتعلق بالسياسة الاستيطانية في المناطق المحتلة ، شدد بيغن على ضرورة مواصلة الاستيطان اليهودي فيها ، موجهاً نقداً شديداً لاولئك الذين يدعون شرعية الاستيطان ، وملمحاً الى تصريحات المصريين والاميركيين ، بقوله الحازم « انني اقرر ببساطة امام الجميع : منذ ان استنت الانسانية في حضارتها اصطلاح « قانون » ، لم يكن هنالك عمل قانوني اكثر من استيطان اليهود في جميع مناطق ارض اسرائيل » . وشدد بيغن ايضاً على بقاء مدينة القدس « موحدة » وعاصمة اسرائيل « الابدية » ، مع منح اتباع الديانات حرية الوصول الى الاماكن المقدسة . وشن رئيس حكومة اسرائيل هجوماً ضد الراي القائل بان الحكم الذاتي يشكل خطوة اولى نحو قيام دولة فلسطينية بقوله : « لن تقام ، تحت اي ظرف ، دولة فلسطينية في يهودا والسامرة وقطاع غزة ... تعرض كيان دولة اليهود للخطر ، وتشكل خطراً ايضاً على جميع الامم الحرة » . ولم ينس بيغن امتداح موقف كارتر من فكرة الدولة الفلسطينية وموقفه من م.ت.ف ، مؤكداً على ان العلاقات الاميركية الاسرائيلية تحكمها « روح الصداقة والفهم ... ولا اعتقد انها كانت في يوم من الايام افضل مما هي عليه الآن » .

وفي مجال حديثه عن الاردن وسوريا ، تحدث بيغن عنها بنفس الاسلوب الذي يتحدث فيه عن

م.ت.ف . فقد ذكـر بهذا الخصوص « مع الاردن يوجد لدينا علاقات سلام ، دون معاهدة سلام ، ونود ان يكون السلام واقعا ... اما العلاقة الاكثر عداء فتصدر عن سوريا . انني على علم بعدد من المباحثات التي اجراها وزير الخارجية السوري عبد الحليم خدام مع رؤساء عدد من الدول . ولو رويت ما جاء على لسانه بحق الرئيس انور السادات لاقشعرت له ابدان ابناء الانسانيـة المتحضرة . عداء جنوني ومجنون بهذا الحد » (معاريف ، دافـار ، عل همشمار، ٤/٦/٧٩) .

وقد تميزت جلسات المؤتمر باحتدام النقاش ، ولاسيما حول موضوع التسوية . حيث قاد « منبر المخلصين لمبادىء حركة حيروت » بزعامة غيؤلاه كوهين وشمونيل كاتس حملة عنيفة ضد التسوية مع مصر . ادت الى صدامات واشتباكات بالايدي بين الاكثرية التي تدعم بيغن والاقلية التي تتزعمها كوهين . وسط تهديدات زعيمة الاقلية بالانسحاب من حركة حيروت . وبالفعل اعلنت انسحابها من الحركة قبل يوم من اختتام جلسات المؤتمر ، بعد ان فشلت في ادخال تغيير على الخط السياسي لبيغن . فقد اعاد المؤتمر انتخاب بيغن رئيسا للحركة باكثرية ساحقة ، ٢٤٩ صوتا مقابل ٩ اصـوات نالهـا شمونيل كاتس مرشح فئة الاقلية .

وفي حفل الاختتام ، عاد بيغن والقى خطابا اكد فيه ثانية عن تمسك اسرائيل « الى الابد » بالسيطرة على الضفة الغربية وقطاع غزة ، وحق الاستيطان اليهودي فيهما ، كما اكد على ان الحكم الذاتي لا يؤدي في اي حال من الاحوال الى قيـام دولـة فلسطينية ، ولو قرر ، مثلا ، مجلس الحكم الذاتي اقامة دولة فلسطينية « فـان الجيش الاسرائيلي سيعتقل الاعضاء الاحد عشر في المجلس ، ويعيد الحكم العسكري الى المناطق خلال ٢٤ ساعة » . كما اكد وقوف اسرائيل الى جانب من اسماهم بـ « المسيحيين » في لبنان (ر.إ.إ ، ٦/٦/٧٩) .

ومن الجدير بالذكر ان اشاعة ترددت في جنبات المؤتمر اثناء جلسة الختام عن انتحار غيئولاه كوهين (معريف ، ٨/٥/٧٩) ، مما أثار هيجانا بين الاعضاء ، حدا بأحدهم الى الصراخ . إلا ان الاشاعة تبددت . وفي هذه الاثناء توجه بيغن الى كوهين بطلب وصفه بـ « الانساني » ، قائلا : « لا تبصقي في البئر الذي شربت منه . وقد شربت كثيرا » .

عبد الحفيظ محارب

قضـــايا دوليـــة

يلاحظ المراقب من الوهلة الأولى أن الشهـر المنقضي (حزيران يونيـو ١٩٧٩) كان حافـلا بالأحداث والتطورات الدولية ربما بصورة تفوق أي من أشهر العام الحالي منذ بدايته .

فقد تعددت فيه مؤتمرات القمة الدولية . وتفجرت فيه أحداث كثيرة في مزيد من بلدان العالم الخارجي ، ونشطت فيه الفعاليات الدولية تحـاول ملاحقـة التطورات .. أو حتى مجرد اتخاذ موقف منها .

فعلى صعيد المؤتمرات الدولية شهد شهر حزيران مؤتمر الامم المتحدة للتجارة والتنمية (الأنكتار) في « مانيلا » عاصمة الفيليبين الذي أنهى أعماله في ٤/٦ . وشهد المؤتمر الوزاري للتحضير لمؤتمر قمة الدول غير المنحازة في كولمبو الذي بدأ اعماله في ٤/٦ وانتهى في ١٠/٦ . كما شهد قمة « سالت ـ ٢ » الثنائية في فيينا التي بدأت في ١٥/٦ وانتهت في ١٨/٦ . وشهد قمة المجموعة الاقتصادية الاوروبية (السوق الأوروبية المشركة) في ستراسبورغ من ٢١ إلى ٢٢/٦ . كذلك المؤتمر الوزاري لمنظمة الدول

المصدرة للبترول (اوبيك) الذي بدأ في ٦/٢٦ وانتهى في ٦/٢٩ في جنيف .

وعلى صعيد الأحداث فان حزيران الفائت تخللته تطورات بالغة الأهمية بالنسبة لأزمة الطاقة في الولايات المتحدة واوروبا الغربية ، وتطورات أخرى لا تقل اهمية ـ نتيجة لهذه الأزمة ـ على علاقات الولايات المتحدة وأوروبا الغربية . وتخللته اول انتخابات مباشرة للبرلمان الموحد لدول المجموعة

الاقتصادية الأوروبية . وعلى الطرف الآخر من الأحداث جاءت تطورات الكفاح المسلح لثوار جبهة التحرير الساندينية في نيكاراغوا الذين سجلوا انتصارات حاسمة على نظام حكم الدكتاتور سوموزا خلال الشهر المنقضي .

ولا يقل عن كل هذا اهمية تلويح الولايات المتحدة بتكوين قوة تدخل عسكري اذا تهددت المصالح الأميركية في العالم الثالث . وقد ارتبط هذا التلويح ارتباطا وثيقا بأزمة الطاقة ، وبالتالي بمنابع النفط في الخليج العربي .

وعلى صعيد آخر بدت خلال حزيران بوادر جديدة على احتمال تحسن في العلاقات بين الاتحاد السوفياتي والصين شغلت المراقبين الغربيين كثيرا ، بعد اتفاق موسكو وبكين على استئناف المفاوضات بينهما بهدف تحسين العلاقات .

رغم تعدد هذه الأحداث والتطورات فاننا نستطيع أن نتبين من خلال تقاطع الخطوط بينها محورين رئيسيين : أولهما استمرار الصراع على الساحة الدولية بين المعسكرين الممثلين بالاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، على الرغم من ـ وربما كنتيجة لـ ـ التوازن الاستراتيجي النووي بينهما مع استمرار تناقض منطلقات ومصالح الطرفين .

أما المحور الثاني فهو تفاقم الخلافات على صعيد المعسكر الغربي ، وازدياد استقطاب طرفي هذا الخلاف بصورة تجعل الولايات المتحدة تقف في ناحية

وأوروبا الغربية واليابان تقف في ناحية أخرى . الأمر الذي يؤكد حتمية نهاية عوامل التنافس ـ فالتناقض ـ بين هذه الدول كقوى اقتصادية ذات مصالح متباينة . ويؤكد ـ في الوقت نفسه ـ استمرار تراجع الولايات المتحدة التدريجي عن موقع الزعامة للعالم الغربي ، للأسباب الاقتصادية ، بعد أن بدأ هذا التراجع قبل ذلك ـ في اوائل سنوات

السبعينات ـ لأسباب استراتيجية (عسكرية) .

سالت ـ ٢ هل من مجال للمساومة ؟

منذ أن أعلن الطرفان ـ الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي ـ عن موعد عقد القمة الثنائية بين الرئيس الأميركي جيمي كارتر والرئيس السوفياتي ليونيد بريجنيف في فيينا للتوقيع على معاهدة « سالت ـ ٢ » (المعاهدة الثانية للحد من الأسلحة الأستراتيجية) ـ بدأت التكهنات تدور حول ما سيجري من مساومات واتفاقات بين الدولتين العظميين في هذه القمة على حساب القضايا العالمية القائمة . وقد دارت هذه التكهنات بصورة لا تختلف كثيرا عن تلك التي طرحت ابان التفاوض بين موسكو وواشنطن على المعاهدة الأولى للحد من الأسلحة الاستراتيجية (سالت ـ ١) في العام ١٩٧٢ .

وبينما كانت التكهنات التي صاحبت « سالت ـ ١ » تدور حول امكان مقايضة سوفياتية ـ اميركية على فيتنام من ناحية والشرق الأوسط من ناحية اخرى ... حيث كانت حرب فيتنام في ذروتها ، وأزمة الشرق الأوسط في طور التفجر ... فان التكهنات التي رافقت « سالت ـ ٢ » دارت حول امكان قيام مثل هذه المقايضة بين الشرق الأوسط من ناحية وأفريقيا من ناحية اخرى . وقد حاول اصحاب نظرية المقايضة هذه الاستفادة من الواقع القائم في كلتا هاتين المنطقتين . ففي الشرق الأوسط ادت أحداث السنوات منذ حرب تشرين (أكتوبر) ١٩٧٣ إلى اختلال نظام التحالفات الأقليمية والخارجية لمصلحة الولايات المتحدة أكثر من غيرها ... بينما ادت أحداث السنوات نفسها بالنسبة لأفريقيا ـ وخاصة منذ انتصار « الجبهة الشعبية للتحرير » في أنغولا . وتبني الثورة الاثيوبية للاشتراكية العالمية نهجا لسياساتها الداخلية والخارجية ـ إلى تقلص نفوذ الامبريالية الأميركية إلى حد أعجزها عن العثور على فرصة ملائمة للتدخل

على نحو ما فعلت في الشرق الأوسط . الامر الذي ترك انطباعا وفرصة للتفسير ، بأن الولايات المتحدة « تركت أفريقيا للنفوذ السوفياتي مقابل سكوت الاتحاد السوفياتي عن أحداث الشرق الأوسط » .

نتيجة لهذا كانت الولايات المتحدة نفسها تغذي هذا الاتجاه عبر تفسير الأحداث بشكل يلائم

اهدافها . بل أن الاعلام الغربي كله أسهم طوال الفترة الماضية في تغذيته . ووجد الاتحاد السوفياتي نفسه في مواجهة حملة تصوره حتى في البلدان التي يؤيد قضاياها الوطنية والتحررية موضوعا تحت شبهة المقايضة على هذه القضايا ووضع « الوفاق » مع الولايات المتحدة فوق الاعتبارات الأخرى وفي موضع الأولوية القصوى .

لهذا كان من السهل على المراقب أن يلاحظ أمرين رئيسيين فيما صاحب القمة الثنائية بين كارتر وبرجنيف في فيينا (١٥ ـ ٦/١٨) :

☐ ان الولايات المتحدة تمارس مستويين من الاعلام فيما يتعلق بمعاهدة « سالت ـ ٢ » . أولهما داخلي خاص بالرأي العام الأميركي والكونغرس ـ ويذهب الى انه لا تأثير لهذه المعاهدة اطلاقا على « التوازن » الاستراتيجي بين الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي . بل على « تفوق » الأولى على الثانية . وبالتالي فانه لا سبيل الى اعتبار « سالت ـ ٢ » بمثابة لوي للذراع الأميركي في هذه المنطقة أو تلك من العالم . أما المستوى الثاني من الاعلام الاميركي فيما يتعلق بمعاهدة « سالت ـ ٢ » فهو موجه الى الخارج . وخاصة إلى بلدان العالم الثالث . ويذهب الى أن الاتحاد السوفياتي معني بتوقيع « سالت ـ ٢ » أكثر من الولايات المتحدة ، وانه لهذا يبدي استعدادا لاطلاق يد الولايات المتحدة في عدد من القضايا الدولية . وبالتالي أن « الدولتين الأعظم » تمارسان معا عملية اقتسام نفوذ في مناطق العالم المختلفة .

☐ نتيجة وانعكاسا لهذا فان الولايات المتحدة كانت معنية ـ ولا تزال ـ باقناع الرأي العام الاميركي والكونغرس بتأييد المعاهدة . بينما اتجه اهتمام الاتحاد السوفياتي إلى اقناع الرأي العام في العالم الثالث بانه لا يساوم على قضايا التحرر بأي حال ، وان « سالت ـ ٢ » هي في مصلحة شعوب العالم كله وليست في مصلحة الطرفين الموقعين عليها وحدهما .

هكذا فانه عندما عقد لقاء القمة بين كارتر وبرجنيف في فيينا ـ وكان الأول بينهما ـ كان أول ما حرص عليه كل من الطرفين طرح وجهة نظره على العالم . دعا الرئيس الأميركي ـ في كلمة القاها امام برجنيف (في ٦/١٦) ـ الى ان تمارس « الدول العظمى ضبط النفس في العالم الثالث » . بينما رد الرئيس السوفياتي بأن أكد « أن الاتحاد السوفياتي يتضامن مع نضال الشعوب التحرري . واضاف مستنكرا « ... فلماذا تحميل الاتحاد السوفياتي مسؤولية مسيرة التاريخ الموضوعية ؟ » .

واذا كانت كلمتا كارتر وبرجنيف قد مستا الأمور مسا عاما ، فان الناطقين الرسميين باسم الجانبين أثناء أيام انعقاد القمة الثنائية مست عددا من الأمور بصورة محددة ، وكان أبرز ما مسته مسألة الشرق الاوسط والموقف من « معاهدة السلام » المصرية ـ الاسرائيلية . فقد صرح ليونيد زيمياتين المتحدث الرسمي السوفياتي ـ مدير وكالة « تاس » الرسمية للأنباء (٦/١٧) بأن برجنيف أبلغ كارتر بأن « موقف الاتحاد السوفياتي في الشرق الأوسط يختلف عن موقف الولايات المتحدة . وموقفنا باق كما هو . ان الاتحاد السوفياتي مستمر في اعتبار أن الهدف يجب أن يكون تسوية شاملة في الشرق الأوسط تشارك فيها كل الأطراف المعنية » . وتابع الناطق السوفياتي قائلا « ان تقييمنا لكامب ديفيد معروف ، واريد أن أقول ان الاتحاد السوفياتي لن يؤيد مقترحات لاستعمال الأمم المتحدة في تدعيم الاتفاق المنفرد بين مصر واسرائيل » . وكان هذا تأكيدا رسميا سوفياتيا بأن الاتحاد السوفياتي لن يؤيد تجديد فترة انتداب القوات الدولية في سيناء في ٢٤ تموز (يوليو) .

بعد ذلك جاء البيان المشترك الذي أصدره الجانبان اثر توقيع معاهدة « سالت ـ ٢ » (في ٦/١٨) . وقد تضمن هذا البيان فقرة حول « القضايا الدولية » اكدت انه جرى خلال القمة الثنائية « تبادل شامل للآراء حول القضايا الدولية الرئيسية ... وقد أولى ليونيد برجنيف وجيمي كارتر اهتماما خاصا لبؤر التوتر التي تعقد الوضع الدولي وتعرقل التحويلات الايجابية في المجالات الاخرى » . وفيما يتعلق بالشرق الاوسط لم يتجاوز ما قاله البيان المشترك ، ضمن هذه الفقرة ، العبارة التالية : « أكد كلا الجانبين اهتمامه بسلام عادل وشامل ووطيد في الشرق الأوسط ، وعرض كل منهما موقفه بصدد طرق وسبل تسوية مشكلة الشرق الأوسط » .

وتوضح العبارة اكثر من أي شيء آخر استمرار تباين وجهات نظر الجانبين فيما يتعلق بهذه

المسألة ، وهو ما انعكس ايضا في العبارة الخاصة بافريقيا اذ قالت بالمثل أن الجانبين قد « عرض كل منهما وجهات نظره بصدد الوضع في جنوب القارة الأفريقية » .

أما بعد انتهاء القمة الثنائية فقد استمر تأكيد الاتحاد السوفياتي على أنه لم يرتبط مع الولايات المتحدة بأي التزام بتغيير مواقفه من القضايا الدولية . وكتبت وكالة « نوفوستي » تعليقا (في ٦/٢٠) قالت فيه : « ليس سرا أن الأوساط الرجعية في الولايات المتحدة قد حاولت أن تستخدم في أثناء التحضير للقاء فيينا مناورة « ربط » جميع القضايا في خيط واحد لكي تعرقل تنفيذ هذا اللقاء الذي ينحصر موضوعه الرئيسي في الحد من الأسلحة الاستراتيجية . وفي الوقت نفسه جرت محاولات لتشويه صورة الاتحاد السوفياتي واتهامه بأنه من الممكن أن « يتواطأ » مع الولايات المتحدة الأميركية على حساب مصالح البلدان والشعوب الأخرى . ومن المميز أن هذه الغمزات الدعائية قد ترددت في القاهرة بصفة خاصة . وليس ذلك مصادفة . فاذ شنت القاهرة حملة بشأن امكانية « تواطؤ الاتحاد السوفياتي مع الولايات المتحدة الأميركية » حاولت صرف انظار الرأي العام عن تواطئها الفعلي مع الامبريالية والصهيونية، التذ حصلت من ورائه على حفنة من رمال سيناء مقابل خيانة مصالح الشعب الفلسطيني » .

في الولايات المتحدة كان الشاغل الرئيسي للادارة الأميركية ـ وللاعلام الأميركي ـ هو الموقف الذي سينتهي اليه مجلس الشيوخ بازاء « سالت ـ ٢ » . فقد بدأ الرئيس الأميركي معركة التصديق على « سالت ـ ٢ » في اليوم التالي مباشرة لتوقيعها حيث وجه بيانا الى الكونغرس (٦/١٩ فور عودته الى واشنطن كان في محصلته النهائية بمثابة تحذير من العواقب التي يمكن أن تنتج عن عدم التصديق على هذه المعاهدة . فقال(١) ان على الولايات المتحدة والاتحاد السوفياتي أن يعيشا في سلام « وإلا فاننا قد لا نعيش أبدا » . (٢) ان الولايات المتحدة دون المعاهدة ستنفق مزيدا من ألوف الملايين من الدولارات كل سنة في سباق الأسلحة النووية . (٣) ان عدم وجود المعاهدة سيؤدي الى ازدياد حدة التوتر بين الشرق والغرب ويؤدي بالتالي الى مجابهة محتملة بين موسكو وواشنطن . (٤) ان رفض المعاهدة سيلحق الضرر بتضامن وتحالف الولايات المتحدة والدول الأوروبية ، وستتزعزع بشدة زعامة اميركا في هذا التحالف نفسه .

وبينما كان رد الفعل في أوروبا ـ الغربية والشرقية ـ مؤيدا لمعاهدة « سالت ـ ٢ » ، فان الصين انفردت باتخاذ موقف نقدي حاد من المعاهدة .

ابرز ردود الفعل الأوروبية كان رد الفعل الفرنسي الذي أتى على لسان وزير خارجية فرنسا جان فرانسوا بونسيه الذي قال ـ في حديث مع اذاعة « فرانس انتير » (٦/٢١) أن فرنسا توافق على مبدأ مفاوضات « سالت » التي تشكل مرحلة مهمة في عملية الانفراج الدولي .

اما بكين فقد عبرت عن رأيها في مقال لصحيفة « الشعب » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي الصيني (٦/٢١) وصف المعاهدة بأنها « لن تضع حدا للخصومة بين الاتحاد السوفياتي والولايات المتحدة ، ولن تساهم بأي شيء من اجل السلام في العالم » . وحملت الاتحاد السوفياتي مسؤولية التوتر الدولي قائلة « ان الاتحاد السوفياتي يستغل منذ العام ١٩٧٥ الأزمة الاقتصادية في الغرب لتعزيز قوته العسكرية وتوسيع نفوذه » .

على أي الأحوال لقد انتقلت معركة « سالت ـ ٢ » الى مجلس الشيوخ الأميركي ، حيث تبدأ لجنة العلاقات الخارجية بالمجلس مناقشاتها للمعاهدة يوم ٩ تموز (يوليو) . وحتى كتابة هذه السطور كان تقدير المراقبين في واشنطن ـ كما نقلته مجلة « يو. اس. نيوز اند ووريلدريبورت » الأميركية (٧/٢) ـ لفرص التصديق على المعاهدة تذهب الى أن ٥٠ من اعضاء مجلس الشيوخ يؤيدونها أو يميلون الى تأييدها . وأن ٣٠ يعارضون المعاهدة أو يميلون إلى معارضتها . بينما يوجد ٢٠ شيخا لم يقرروا بعد مواقفهم . أما خارج مجلس الشيوخ فان استطلاعات الرأي العام تفيد أن تأييد المعاهدة يصل الى نسبة تربو على ٧٥٪ من الاميركيين ، وأن رؤساء اركان حرب القوات المسلحة الأميركية هم ايضا في صف المعاهدة .

وقد نشأت على الفور مشكلة رغبة عدد من أعضاء مجلس الشيوخ الأميركي في ادخال تعديلات على

المعاهدة ، الأمر الذي قوبل بتحذير صريح من موسكو ، حيث اكدت صحيفة « برافدا » الناطقة بلسان الحزب الشيوعي السوفياتي (٦/٢٢) وان محاولة ادخال اية تعديلات على المعاهدة او استبدال بعض التفصيلات فيها ، أو جعلها اكثر تمييزا لطرف على الآخر ـ يمكن أن تؤدي إلى عواقب وخيمة وحتى عواقب خطيرة بالنسبة للعلاقات السوفياتية ـ الاميركية .

بل ان اندريه غروميكو وزير الخارجية السوفياتي وجه تحذيرا حاد اللهجة اثناء مؤتمر صحفي في موسكو (٦/٢٥) من أن رفض مجلس الشيوخ لمعاهدة « سالت ـ ٢ » أو محاولة تعديلها سيعني « نهاية المفاوضات » . وقد وجه حديثه باللغة الانكليزية ـ وهو أمر نادرا ما يحدث ـ الى مراسل اميركي قائلا : « أقول لك بصراحة أنه سيكون من المستحيل استئناف المفاوضات (اذا رفض مجلس الشيوخ المعاهدة) وسيعني هذا نهاية المفاوضات ، سيعني النهاية أيا كانت التعديلات التي سيتم ادخالها » .

قوة للتدخل العسكري الأميركي

وفيما تحاول الادارة الأميركية التأكيد للكونغرس وللرأي العام الاميركي ولحلفاء الولايات المتحدة الغربيين انه لا تأثير لمعاهدة « سالت ـ ٢ » على سياستها الخارجية ، وفيما يستعد الرئيس الاميركي كارتر لمعركة التصديق على هذه المعاهدة ، وفي الوقت نفسه لمعركة انتخابات الرئاسة تؤكد الدلائل أنه يبدي اهتماما هائلا برسم سياسة خارجية متشددة ،ويحاول ان يقلب الانطباع الأولي عنه بأنه رئيس ضعيف على الصعيد الخارجي . وفي هذا الاطار يمكن أن نضع اهتمام الادارة الأميركية الفائق بابراز مشروعها الخاص بتكوين قوة للتدخل العسكري في مناطق العالم الثالث ، مع تركيز خاص على الشرق الاوسط والخليج العربي .

وقد سلطت الأضواء بكثافة خلال الشهر الفائت (حزيران ـ يونيو) على هذه الخطة بشكل خاص . ففي ٦/٥ . نشرت صحيفة « واشنطن بوست » أن اجتماعا سريا سيعقد في البيت الأبيض في اليوم التالي برئاسة وزير الخارجية الأميركي سايروس فانس وبحضور كبار المسؤولين الأميركيين « لاجراء تقييم حول السياسة الاميركية في الخليج وشبه الجزيرة العربية » . وذكرت الصحيفة ان « المقترحات التي من المقرر بحثها في اجتماعين يعقدهما واضعوا السياسة الاميركية في خلال هذا الشهر لا يزال يكتنفها الغموض ، كما أن هذه المقترحات لم تأخذ شكلها النهائي بعد ـ إلا أنه من المعروف انها تشمل اعداد قاعدة جوية أميركية يمكن للطائرات الأميركية الاقلاع منها الى منطقة الخليج في وقت قصير جدا » .

واضافت « واشنطن بوست » أنه « كانت هناك بدائل اخرى مطروحة بينها اقامة قوة عسكرية خاصة لمنطقة الشرق الأوسط والاحتفاظ بقوة بحرية دائمة داخل وحول البحار العربية لتوجيه رد سريع عند اللزوم .على ان تبقى هذه القوة بعيدة بدرجة كافية » .

وكشفت الصحيفة أن هارولد براون وزير الدفاع الأميركي قد طلب من الرئيس كارتر قبيل سفر الأول الى السعودية في الشتاء الماضي (في اعقاب توقيع المعاهدة المصرية ـ الاسرائيلية) أن يسمح له بأن يبلغ السعوديين بأن الولايات المتحدة تدرك أن لها مصالح حيوية في المنطقة غير مفاوضات السلام ، وان الحكومة الأميركية ستقوم بعمل كبير يتضمن اتخاذ خطوات عسكرية لحماية هذه المصالح » .

ثم في ٦/٢٥ اعلن الجنرال برنارد روجرز رئيس هيئة الاركان الاميركية ان الجيش الاميركي يخطط لانشاء قوة « تدخل سريع » قوامها ١١٠ الاف جندي للتدخل في الخليج العربي والمناطق الاخرى الساخنة في العالم . واوضح ان هذه القوة ستكون اميركية ولن تكون لها علاقة بحلف شمال الاطلسي ، ولن تجهز لتقاتل في حروب الحلفاء .

كما اعلن الجنرال روجرز أن القوة ستضم ٨٢ طائرة نقل عسكرية وبعض الوحدات الفعالة التي تؤمن النقل السريع . وقال ان قوة التدخل الاميركية « ستكون استجابة لطموح الرئيس الاميركي جيمي كارتر بتجهيز قوى متخصصة في مناطق التوتر في العالم الثالث » .

واوضح انها لن تكون قوة للذهاب الى اي معسكر اي انها « لن تكون قوى متخصصة فقط في منطقة الخليج » .

وقد ادلى الجنرال روجرز بهذه المعلومات في تقرير صحفي وداعي بمناسبة نقله الى منصب قائد القوات الاميركية في أوروبا الغربية ، قائد قوات حلف الاطلسي ، خلفا للجنرال الكسندر هيغ .

وقد وصفت الصحف الأميركية رد فعل دول الخليج العربي ازاء انباء هذه القوة الاميركية للتدخل بأنه رد فعل عنيف . وأشارت صحيفة « واشنطن بوست » إلى قول صحيفة « الرأي العام » الكويتية ان قائمة تكوين هذه القوة للتدخل في منطقة الخليج يرقى الى مرتبة التهديد بالحرب .

بعد ذلك جاء رد الفعل الرسمي للسعودية على هذه التطورات في تصريحات ادلى بها الملك خالد لصحيفة « السياسة » الكويتية (٦/٣٠) حيث قال أن أي تدخل يفرض على المنطقة لن يحقق الغاية المنشودة منه ، وأن اهل المنطقة يجب أن يكونوا مسؤولين بالدرجة الأولى على حمايتها ، وعلى القوى المحبة للسلام أن تشجعهم على ذلك . واضافت ان عهد استخدام القوة لحماية المصالح الذاتية قد ولى ، ويجب أن لا يعود حفاظا على سيادة السلام والأمن العالمي .

رد الفعل السوفياتي كان أسرع على الظهور من رد الفعل العربي . فقد كتبت صحيفة « برافدا » — تعليقا على المعلومات التي نشرتها صحيفة واشنطن بوست » والتي ذكرناها آنفا — فقالت (٦/٥) ان المقصود (من جانب الولايات المتحدة) هو انشاء قوات كبيرة والاعداد لعمليات عسكرية في هذه المنطقة الاستراتيجية والواقعة بالقرب من الحدود السوفياتية » .

وأضافت « برافدا » : « لو أن هذه المخططات نوقشت من قبل الصحافة وحدها لما استرعت انتباها خاصا ، ولكن المسألة تختلف عندما تشارك في اعدادها شخصيات رسمية . فهنا نجابه اعمالا فعلية تؤدي الى تعقيد الوضع الدولي . واذا ما انتشرت مثل هذه الممارسات ، وصارت الدول الأخرى شأن الولايات المتحدة تزيد من قواتها العسكرية بعيدا عن حدودها ، وبخاصة في المناطق القابلة للانفجار كان يتضح ان هذه السياسة لن تؤدي الى دفع العالم نحو مجابهة جديدة » .

في اليوم نفسه قالت وكالة « تاس » السوفياتية « ليس سرا ان الدوائر الامبريالية الأميركية تسعى للحفاظ على مواقعها في الشرق الأوسط بأي ثمن — وخاصة في الخليج العربي حيث يوجد اهم مخزون نفطي للعالم الرأسمالي » . واضافت « ان أحد اهداف معاهدة الصلح هو ربط مصر واسرائيل بالمصالح الاستراتيجية العسكرية للولايات المتحدة في المنطقة » .

ويدل رد الفعل السوفياتي على أن موسكو تعتبر تكوين قوة التدخل عملا موجها مباشرة اليها بقدر ما هو موجه ضد المنطقة العربية ، كما تعتبر انه جزء من مخطط « عملية السلام » الأميركية في الشرق الاوسط التي أسفرت عن « معاهدة السلام » المصرية — الاسرائيلية .

إلا ان هذه الخطة مرتبطة — في المنظور الأميركي — بأزمة الطاقة اكثر من ارتباطها باعتبارات أمنية أو استراتيجية بالمفهوم العسكري البحت .

ازمة الطاقة .. وازمة الشرق الاوسط

لقد تميز الشهر الفائت (حزيران) بتحول أزمة الطاقة الى موضوع أول فوق كل الموضوعات الأخرى — محلية ودولية — بين هموم الغرب . بدأ الأمر في الولايات المتحدة ، وامتد سريا الى أوروبا الغربية واليابان . وعلى نطاق لم يسبق له مثيل منذ « أزمة الطاقة — ١ » التي شهدها الغرب في أعقاب حرب تشرين (اكتوبر) ١٩٧٣ أصبح من المناظر المألوفة في اجهزة الاعلام الغربي كلها مانشيتات ازمة الطاقة وصور طوابير السيارات على محطات البنزين .. أو صور الشاحنات المتوقفة .. الخ . وامتلأت الصحف والمجلات والاذاعات الصوتية والمرئية في دول العالم الغربي كله بالتحقيقات عن أبعاد أزمة الطاقة ونتائجها وأخطارها .. والتفسيرات المختلفة عن أسبابها : العرب — شركات النفط — الاستهلاك غير الرشيد — التضخم ... الخ .

وعلى الرغم من أن قمة طوكيو للدول الراسمالية الصناعية الكبيرة (٢٨ — ٦/٢٩) كان قد حدد موعده قبل وقت طويل من بروز أزمة الطاقة على هذا النحو المتفجر ، إلا ان الأزمة حولته الى مؤتمر لبحث أزمة الطاقة أساسا . وقد اشتركت في المؤتمر الولايات المتحدة والمانيا الغربية وفرنسا وبريطانيا

وكندا وايطاليا واليابان . وكان المقصود من هذه القمة أن تبحث الأوضاع الاقتصادية ، للعالم الرأسمالي ككل . ولكن ازمة الطاقة استغرقت كل اعماله . على أن اشتراك الدول السبع في الاهتمام بمشكلة الطاقة لم يحجب الخلافات الكبيرة بينها حول كيفية مواجهتها . وقد حمل الرئيس كارتر الى قمة طوكيو خطة ترمي إلى تحديد واردات النفط في العامين الحالي والقادم ، بينما ابدى زعماء دول اوروبا الغربية رغبة في أن تشمل عملية تحديد الواردات النفطية السنوات من ١٩٨٠ الى ١٩٨٥ ، وهو ما كانت الدول الأوروبية قد اتفقت عليه في مؤتمر قمة السوق الاوروبية المشتركة الذي سبق قمة طوكيو بأيام . في الوقت نفسه عارض اليابانيون تحديد واردات النفط على اساس أن اليابان تستورد معظم حاجاتها من الطاقة ولأن الحكومة اليابانية تتوقع أن تزيد نسبة النمو الاقتصادي فيها عن النسب في الدول الأخرى المشتركة في قمة طوكيو .

وقد انتهت قمة طوكيو الى قرارات اعتبرت بمثابة انتصار لوجهة النظر الأوروبية حيث وافق المشتركون على مبدأ الحد من الواردات النفطية خلال السنوات الخمس القادمة ، مع قبول مبدأ آخر هو وضع مقاييس مختلفة لكل دولة على حدة ، والعمل على تطوير مصادر بديلة للطاقة .

على أن النتيجة الأبرز التي بدت من قمة طوكيو هي عمق الهزة التي تواجها زعامة الولايات المتحدة للعالم الغربي ، ومدى اهتمام أوروبا الغربية بانتهاج سياسة استقلالية ، بل ومتكتلة ، في مواجهة ــ الولايات المتحدة. فنجد الرئيس الفرنسي فاليري جيسكار ديستان يصرح (٦/٣٠) لدى عودته الى باريس بانه مرتاح لأن « أوروبا سلكت مسلكا اوروبيا » في قمة طوكيو . وقال « عادة ما يتخذ الأوروبيون مواقف متناقضة للغاية .. ولكنهم في هذه المرة انتهجوا موقفا مشتركا جعل أوروبا ممثلة في المناقشات وجعلها تعكس موقفا متلاحما من أول المؤتمر الى اخره » . واوضح ديستان أن قمة طوكيو انتهت الى ضرورة رسم مستقبل العلاقات بين الدول الصناعية والدول المنتجة للنفط عن طريق سياسة يتم التشاور بشأنها بين هاتين المجموعتين .

ومن المؤكد أن ظل اجتماعات وزراء منظمة الدول المصدرة للبترول (أوبيك) الذي سبق قمة طوكيو بيوم واحد كان جاثما على نشاطات زعماء الدول الصناعية الغربية في عاصمة اليابان . ففي اليوم الذي بدأت فيه اجتماعات قمة طوكيو (٦/٢٨) انتهت اجتماعات وزراء النفط في « الأوبيك » في جنيف الى قرارات بشأن زيادة اسعار اعتبرت ــ بدورها ــ اكبر زيادة منذ تلك التي فرضت في أعقاب حرب ١٩٧٣ في الشرق الأوسط . فقد اتفقت دول « الأوبيك » على رفع السعر الاساسي لبرميل النفط الى ١٨ دولارا والسماح للدول الأعضاء باضافة علاوة مقدارها دولاران للبرميل الواحد ، وتحديد سعر اقصى للبرميل هو ٢٣,٥٠ دولارا بعد اضافة العلاوات العادية . ويبدأ العمل بهذا القرار اعتبارا من اول تموز (يوليو) .

في الوقت نفسه اكد البيان الختامي للأوبيك « أن المؤتمر أعرب عن قلقه من المشكلات التي تواجهها الدول النامية على ضوء استمرار التقدم قبول الدول الصناعية تحمل مسؤولياتها تجاه مشاكل العالم الثالث . وقد اثبتت دول « أوبيك » في الماضي تضامنها القوي مع دول العالم الثالث ، وساهمت بعدة نواح في التخفيف من الشكلات التي تواجهها الدول النامية الأخرى . وتتصرف دول « أوبيك » مرة أخرى وفقا لتضامنها الذي لا يتغير مع دول العالم الثالث الأخرى عن طريق رفع حجم المساعدات المقدمة للدول النامية . وتمت الموافقة على التوصية لحكومات الدول الأعضاء في « أوبيك » لاقرار رفع حجم مصادر الصندوق الخاص المالية باضافة مبلغ ٨٠٠ مليون دولا الى هذه المصادر وقد نظر مؤتمر « أوبيك » بنفس المنظار الى اقتراح آخر باقامة صندوق مشترك بين الدول الصناعية والدول الأعضاء في « أوبيك » للتعويض على الدول النامية عن التضخم المستورد من ناحية ، وعن أية زيادة في اسعار النفط الخام من ناحية أخرى » .

ومن الواضح ان قرار مؤتمر « أوبيك » فيما يتعلق برفع الأسعار كان بمثابة حل وسط بين موقف السعودية وموقف باقي الدول الأعضاء حيث كانت السعودية تصر على عدم زيادة سعر برميل النفط بأي حال عن ١٨ دولارا . ولكنه على أي حال ــ حل وسط يميل نحو رأي الدول الأخرى بعيدا بعض الشيء عن راي السعودية ، خاصة وأن معظم دول « أوبيك » سارعت الى الاعلان فور انتهاء المؤتمر عن تحديد سعر نفطها الحد الاقصى الذي اقره المؤتمر بينما ابدى وزير الطاقة السعودي احمد زكي اليماني عدم ارتياح الى القرارات التي انتهت اليها « أوبيك » .

وعلقت صحيفة « واشنطن بوست » (٦/٣٠) على زيادة أسعار النفط بقولها انها تعني أن الركود الاقتصادي تبدأ فعلا في الولايات المتحدة ، وأن الوقت قد حان للتفكير في استراتيجية لمواجهة هذا الركود .واضافت « ان احتمال حدوث متاعب للاقتصاد الأميركي في المستقبل قد تزايد بدرجة كبيرة نتيجة زيادة أسعار النفط » . ووصفت حدوث ارتفاع مفاجيء في أسعار النفط المستورد بأن له نفس آثار زيادة الضرائب .

وفي ستراسبورغ في ٦/٢٢ كان المجلس الأوروبي للمجموعة الاقتصادية الأوروبية الذي انعقد على مستوى الرؤساء قد قرر في ختام أعماله تجميد واردات الدول التسع النفطية ــ خلال الفترة ١٩٨٠ و١٩٨٥ بحيث تبقى عند مستوى مماثلا أو اقل مما كانت عليه في العام ١٩٧٨ . وألمح بيان القمة الأوروبية الى مسؤولية الولايات المتحدة حيث أعلن انه « من الواضح ان مجهودا على هذا النحو لا يمكن ان يستمر الا اذا بذلت الدول الصناعية الأخرى المستهلكة مجهودا مماثلا في الوقت نفسه .

والواقع أن السوق الأوروبية المشتركة (المجموعة الاقتصادية الأوروبية ابدت خلال الشهر الفائت حرصا خاصا على اظهار نزوعها الى الاستقلال عن الولايات المتحدة ، خاصة فيما يتعلق بأزمة الطاقة والعلاقة مع « الأوبيك » . وفيما يتعلق بأزمة الشرق الأوسط . ويبدو دائما أن أوروبا الغربية تنظر الى المسألتين باعتبارهما وجهين لعملة واحدة .

وقد ساد الحديث خلال حزيران (يونيو) عن مبادرة أوروبية جديدة بشأن الشرق الأوسط ، وعززها اصدار وزراء خارجية دول السوق المشتركة بيانا في باريس اثر اجتماع لهم دام يوما واحد (٦/١٨) اعلنوا فيه (١) أن الدول التسع تأسف لاي عمل قد يشكل عقبة في وجه السلام ، وهي تعتبر بشكل خاص ان مواقف وتصريحات معينة للحكومة الاسرائيلية هي ذات طبيعة تؤخر السعي الى تسوية شاملة . (٢) ان هناك عاملين رئيسيين معرقلين للسلام في الشرق الأوسط هما : اولا ــ اسرائيل السيادة النهائية على الاراضي المحتلة الذي يتعارض مع قرار مجلس الامن رقم ٢٤٢ الذي ارسى مبدأ عدم الاعتراف بالاستيلاء على اراضي الغير بالقوة ! وسياسة اقامة المستوطنات التي تتبعها الحكومة الاسرائيلية في الأراضي المحتلة والتي هي غير شرعية وفقا للقانون الدولي . (٣) ان المجموعة الأوروبية ترى ضرورة انهاء اسرائيل لاحتلال الأراضي ، وضرورة احترام السيادة ووحدة الأراضي واستقلال كل دولة في المنطقة وحقها في العيش في سلام داخل حدود امنة ومعترف بها . (٤) انه من أجل احلال سلام عادل ودائم يتعين الأخذ بعين الاعتبار الحقوق المشروعة للفلسطينيين وبينها حقهم في اقامة وطن .

وقد اعتبر المراقبون في الغرب بيان السوق الأوروبية المشتركة أشد ما صدر عن بلدان السوق التسعة ضد اسرائيل . ولهذا فقد اعلنت اسرائيل (٦/٢٠) رفضها بشدة بيان الدول الأوروبية في بيان رسمي سلمه وزير الخارجية الاسرائيلي موشي دايان سفراء الدول التسع . وقال البيان الاسرائيلي ان موقف السوق المشتركة « مسيء لعملية السلام الجارية حاليا في الشرق الأوسط ، ولن يؤدي الى إلا الى تشبيط اطراف المفاوضات الخاصة بالحكم الذاتي ومستقبل يهودا والسامرة (الضفة الغربية لنهر الأردن) وقطاع غزة » .

واضاف البيان الاسرائيلي : « لقد كنا نأمل ان تقدم السوق الأوروبية مساندتها بدون تحفظ الى هذا الانجاز التاريخي المتمثل في معاهدة السلام . ولكن بعد قراركم لا يسعنا إلا الطلب منكم أن تضعوا في حسبانكم ان أي محاولة للاساءة إلى قضية المفاوضات قد تدعم العناصر التي تهدف الى احباطها والمسؤولية الكبيرة التي ستقع على عاتق المسؤولين عن مثل هذه المحاولات » .

وقال البيان الاسرائيلي أيضا أن السوق المشتركة ترتكب خطأ لا يغتفر بحق قضية السلام في الشرق الاوسط » . وان « المستوطنات تتفق تماما مع القانون الدولي » .

وحتى قبل صدور بيان وزارة خارجية دول السوق المشتركة كانت الانباء قد تحدثت من واشنطن عن حدوث تصدع في العلاقات بين الولايات المتحدة وفرنسا بسبب اختلاف وجهتي نظر البلدين بشأن ازمتي النفط والشرق الأوسط . وقد ترددت هذه الأنباء اثناء وجود وزير الخارجية الفرنسي بونسيه في واشنطن الذي صرح في مؤتمر صحافي في العاصمة الأميركية (٦/٥) اثر يوم من المحادثات مع المسؤولين الأميركيين بقوله « لقد تحدثنا بصراحة ووضوح . ولكن استرعى نظري مدى الاختلاق بين

الاهتمامـات الأميركيـة واهتماماتنـــا نحـــن الفرنسيين » .

وكان المتحدث باسم البيت الأبيض الأميركي جودي باول قد أعلن في اليوم نفسه (٦/٥) ان الرئيس الأميركي كارتر أبلغ بونسيه « بشعـور الولايات المتحدة بخيبة الأمل » ازاء عدم مساندة فرنسا لمعاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيليـة . واضـاف : « لقد تقرر بوضوح ان الولايات المتحدة تشعر الى حد ما بخيبة الأمل لكون الفرنسيين قد ارتأوا انه ليس من الخير ان يساندوا عملية السلام التي بدأت في الوقت الحاضر بين اسرائيل ومصر . وان انطلاقا كهذا للمساندة من دولة صديقة يمكن ان يؤدي الى تعزيز المعسكر « المتطـرق » وارغـام المعتدلين على التخلي عن وجهات نظرهم » .

مؤتمر عدم الانحياز والموقف من « المعاهدة »

سيطرت تطورات الشرق الأوسط ايضا على مؤتمر مكتب التنسيق الخاص بحركة عدم الانحياز الذي عقد في كولومبو عاصمة سري لانكا (٤ ـ ٦/١٠) نتيجة لما أعلنه عدد من الدول العربية الأعضاء في الحركة عن عزمها على طلب وقف عضوية مصر في حركة عدم الانحيازوبالتالي اقصائها عن مؤتمر القمة للدول غير المنحازة المقرر عقده في ايلول (سبتمبر) القادم في هافانا .

وعلى الرغم من أن مؤتمر مكتب التنسيق ـ الذي يعد بمثابة المؤتمر التحضيري لقمة عدم الانحياز ـ قد ارجأ اتخاذ قرار بشأن عضوية مصر تاركا القرار لرؤساء الدول ، إلا أن البيان الختامي للمكتب (٦/١٠) رفض اتفاقات « كامب ديفيد » ومعاهدة الصلح المصرية ـ الاسرائيلية ، كما تضمن تنديدا شديدا بسياسة الولايات المتحدة في الشرق الأوسط .

فقد نص البيان الختامي على أن مكتب التنسيق يرى أن اتفاقات كامب ديفيد ومعاهدة الصلـح المصريـة ـ الاسرائيليـة المعقــودة في ٢٦ آذار (مارس) الماضي تتناقض مع قرارات وتوصيات حركة عدم الانحياز والأمم المتحدة ، ويدعو بلدان عدم الانحياز الى عدم الاعتراف بهذه الاتفاقات .

وذكر البيان أنه « عرض على المكتب خلال دراسة مسائل الشرق الأوسط وفلسطين اقتراح يهدف الى وقف عضوية مصر بحركة عدم الانحياز مؤقتا ،

واعرب اعضاء المكتب بعد مشاوراتهم عن اعتقادهم بأنهم ليسوا مختصين بمعالجة هذه المسألة ، وعلى هذا سيتخذ مؤتمر هافانا قرارا في هذا الشأن » .

وانتقد البيان بشدة سياسة الولايات المتحدة لقيامها بدور مهم في زيادة خطورة الوضع في الشرق الأوسط . وادان السياسات الأميركية التي تسعى الى فرض حلول على المنطقة وتستهدف تجاهـل الحقوق المشروعة للشعب الفلسطينـي والتحريـر الكامل للأراضي الفلسطينية والعربية المحتلة .

وأشار البيان إلى محاولات الولايات المتحـدة لتصفية القضية الفلسطينية ، وقال أن أية حلول جزئية أو انفرادية لن تؤدي إلى أية تسوية عادلة وان المكتب يشجب هذه المحاولات والسياسات ويدعو الى مقاومتها .

وشدد المكتب كذلك على حق منظمة التحريـر الفلسطينية في رفض جميع اشكال التسويـات والمشاريع والحلول الهادفة الى تصفية القضيـة الفلسطينية وانكار الحقـوق المشروعـة للشعـب الفلسطيني . وفي الوقت نفسه أدان بيان المكتب اسرائيل لتعزيز سياستها الخاصة بضم الأراضي الفلسطينية المحتلة بمـا فيهـا القـدس واقامـة مستوطنات صهيونية شبه عسكرية فيها .

سمير كرم

قضايا عسكرية

« التسليح الاميركي لمصر »

وصلت الى القاهرة في ٢٠/٥/٧٩ بعثة عسكرية اميركية ، برئاسة المدير المساعد في البنتاغون ، اريك فون ماربود ، ، تضم عددا كبيرا من خبراء وزارة الدفاع الاميركية . وبحثت مع وزير الدفاع المصري الفريق أول . كمال حسن علي . والفريق . أحمد بدوي ، ، رئيس الاركان ، وعـدد من كبـار العسكريين المصريين ، في تفاصيل صفقة الاسلحة الاميركية المزمع عقدها مع مصر ، ضمن نطـاق القرض البالغ قدره ١٥٠٠ مليون دولار ، الذي اقره مجلس النواب الاميركي (في ٢١/٥/٧٩) كجزء من مبلغ ٤٨٠٠ مليون دولار المقرر كمساعدات وقروض اميركية لكل من اسرائيل ومصر ، لدعم معاهدة ، السلام ، المعقودة بينهما (ستحصـل اسرائيل من هذا المبلغ الاجمالي ٨٠٠ مليون دولار مساعدة لبناء قواعد جوية تحل محل تلك التـي ستخليها في سيناء ، بالاضافة الى ٢٢٠٠ مليون دولار كقرض عسكري . أما مصر فستحصل على ٣٠٠ مليون دولار كمساعدة اقتصادية ، فضلا عن الـ ١٥٠٠ مليون دولار كقـرض عسـكري) . والمفروض تنفيذ القرض العسكري لمصر على مدى ثلاث سنوات . وتعتبر هذه المحادثات اول خطوة عملية اميركية (عدا الخطوة المالية التي اقرها الكونغرس بطبيعة الحال) تتخـذ عقـب زيـارة ، براون ، ، وزير الدفاع الاميركي ، لمصر في ١٥ ــ ١٨ شباط (فبراير) ١٩٧٩ ، التي قدمت مصر اليه خلالها لائحة اسلحة ضخمة ، تشمل ٣٠٠ طائرة مقاتلة من طراز ، ف ــ ١٦ ، ، و٦٠٠ دبابة و٥٠٠ مدفع واكثر من ٤٠ الف عربة عسكرية . ووقتها صرح ، موريس درابر ، نائب مساعد وزير الخارجية الاميركية ، بأن الولايات المتحدة الاميركية لا توجد لديها خطط لبيع مصر اسلحة قبل عقدها معاهدة الصلح بينها وبين اسرائيل . كما قال ، فرانـك تشيرتشر ، ، رئيس لجنة العلاقات الخارجية في مجلس الشيوخ الاميركي وقتئذ (في ٣/٤) أن ، أخر شيء يجب علينا التفكير في عمله هو جعل مصر مركزا عسكريا ضخما في الشرق الاوسط ، .

وحتى الآن (١٦/٦/٧٩) لم تعـرف بعـد تفاصيل عما وافقت عليه فعلا الولايات المتحدة الاميركية ، من نوعيات وكميات الاسلحة التـي طلبتها مصر ، كبديل عن الكميات الضخمة التي لديها من الاسلحة السوفييتية ، عدا الاثنتي عشرة طائرة ، ف ــ ٤ فانتوم ، ، التي اعلنت مصادر اميركية في ٢١/٥/٧٩ ان الولايات المتحدة مستعدة لتزويد مصر بها قبل تشرين الثاني (نوفمبـر) المقبل . وأن ١٦ طيارا مصريا من المتوقع وصولهم في اوائل حزيـران (يونيـو) ، للتدريـب على هذه الطائرات في مركز لسلاح الطيران الاميركي ، في سان انطونيو بولاية تكساس . وعلى هذا الاساس قال ، السادات ، ، في خطاب القاه يوم ١٢/٥/٧٩ بجامعة طنطا ، أن طائرات ، فانتوم ، اميركيـة الصنع ، يقودها طيارون مصريون ، ستظهر في سماء القاهرة للمرة الاولى في ذكرى حرب اكتوبر القادمة . وعلى هذا الاساس ايضا ، قال في خطابه

المذكور ، أن قرار الولايات المتحدة بتزويد مصر باسلحة يبلغ ثمنها مليار ونصف مليـار دولار ، سيجعل التكنولوجيا العسكرية المصرية تقفز ٢٠ خطوة الى الامام !

وتقول مصادر في وزارة الخارجية الاميركية ، في ٣١/٥/٧٩ ، أن « السادات » يصر على الحصول على سرب يضم بين ١٦ و١٨ طائرة « فانتوم » . في حال الغاء التمويل السعودي (٥٢٥ مليون دولار) لصفقة الـ ٥٠ طائرة مقاتلة من طراز « ف ـ إي تايغر ٢ » ، التي تضمنتها صفقة الطائرات الثلاثية الشهيرة (٧٥ طائرة ف ـ ١٦ و١٥ طائرة « ف ـ ١٥ » لاسرائيـل ، و٦٠ طائـرة « ف ـ ١٥ » السعودية ، و٥٠ طائرة « ف ـ ٥ إي » لمصر) في العام الماضي ، والتي ترفض السعودية ، حاليا ، دفع ثمنها ، تمشيا مع قرارات مؤتمر « بغداد » . وفي ٩/٦/٧٩ وصل نائب الرئيس المصري « حسني مبارك » الى واشنطن ، حيث عقد اجتماعـا مع الرئيس الاميركي « كارتر » ابلغه فيه رسالة من « السادات » . وكان موضوع التسليح الاميركي لمصر احد الموضوعات الرئيسية التي بحثـت في الاجتمـاع المذكور ، بالاضافـة الى موضـوع المستوطنات الاسرائيلية الجديدة .

واعلن بيان صادر من « البيت الابيض » ، اثر عقد الاجتماع المشار اليه في ١١/٦ ، جاء فيه أن « الرئيس الاميركي يؤكد من جديد تصميمه على مساعـدة مصر لمواجهـة احتياجاتها الدفاعية المشروعة » . وقد استمرت زيارة نائب الـرئيس المصري للولايات المتحدة حتى ١٢/٦/٧٩ ، ثم توجه بعد ذلك الى كل من لندن وباريس ليبحث مع المسؤولين فيها في نتائج محادثاته الاميركية . وفي مشكلات تمويل الصناعة الحربية المزمع اقامتها في مصر بعد توقف السعودية ودول الخليج في الاستمرار بالمشروع (الهيئـة العربيـة للتصنيـع الحربـي) . وفي ١٧/٦/٧٩ وصل الى القاهرة الجنرال « وليم بيري » مساعد وزير الدفاع الاميركي ، في زيارة تستغرق ٤ ايام ، تستهدف اجراء محادثات مع وزير الدفاع المصري ، والمسؤولين عن الانتاج الحربي في مصر ، لبحث « امكانات التعاون في مجال الصناعة الحربية واساليب رفـع القـدرات والطاقـات العسكريـة المصرية ، ونقل التكنولوجيا الحديثة وتطبيقها في المصانع الحربية في مصر »[١] .

وعموما ، فأن المعلومات والتقديرات المتسربة عن مجمل المفاوضات المصرية ـ الاميركية حول التسليح الاميركي لمصر ، تفيد بأن هذه المفاوضات ، خاصة تلك التي أجراها « حسني مبارك » في « واشنطن » (ومن باب اولى المفاوضات التي جرت على مستوى اقل في مصر بين العسكريين الاميركيين والمصريين) لم تحقق نتائج ملموسة وحسية ، ذلك لأنه من الصعب جدا على الادارة الاميركية اقناع « اللوبي الاسرائيلي » في الولايات المتحدة « بقبول حصول مصر على اسلحة كالاسلحة التي حصلت عليها اسرائيل »[٢] . والمقصود بذلك اسلحة تضم طائرات « ف ـ ١٦ » ، ودبابات حديثة ، وطائرات بدون طيار ، ومعدات الكترونية متطـورة « الـخ » ما تضمنته قائمة الاسلحة المصرية ، التي قدمت في شباط (فبراير) الماضي لبراون ، والتي حملهـا « مبارك » مجددا الى « كارتر » في زيارته الاخيرة المشار اليها .

وهكذا يتضح لنا ، أن الشيء العملي الذي اسفرت عنه الجهود المصرية في الحصـول على اسلحـة اميركية ، تتخطى طائرات النقل وعربات الجيب والشاحنات ، ينحصر حتى الآن في الوعد بالحصول على ١٢ طائرة « ف ـ ٤ فانتوم » ، واحتمال قبول الولايات المتحدة تمويل صفقة الـ ٥٠ طائرة « ف ـ ٥ إي » ، من ضمن قرض الـ ١٥٠٠ مليون دولار المذكور ، والمسألة الاخيرة ما زالت غامضة حتى الآن . وعموما ، فأن قبول الولايات المتحدة المسبق ببيع الـ ٥٠ طائرة المشار اليها يعني ، بغض النظر عن مشكلة التمويل التي لم تحل عمليا بعد ، أن مصر ستحصل خلال هذا العام ، أو العام القادم ، على الطائـرات المذكورة ، وعلى الـ ١٢ طائـرة « فانتوم » . وقد سبق لنا أن اوضحنـا قدرات الطائرة « ف ـ ٥ إي » (راجع شهريات العدد ٧٧ من « شؤون فلسطينية ») من حيث انها طائرة قديمة تعد من طائرات الصف الثالث الاميركية ، وانها اقل قدرة قتالية من طائرات الجيل الثاني « الميـغ ـ ٢١ » المصريـة ، ولـذلك اعتبرهـا « الجمسي » معادلة للميغ ـ ١٧ . وقـال عنهـا السادات مرارا انها « طائرة من الدرجة العاشرة » !

اما طائرة « الفانتوم » ، التـي وعـدت مصر بالحصول على ١٢ منها ، قبل نهاية العام الحالي ، فهي من طائرات الصف الثاني الاميركية ، قياسا

بطائرات الصف الاول من انواع الـ « ف ـ ١٤ » و« ف ـ ١٥ » و« ف ـ ١٦ » العاملة في الخدمة الاميركية حاليا . وقد دخلت ٢٥ طائرة « ف ـ ١٥ » في خدمة الطيران الاسرائيلي فعليا ، وسوف تدخل طائرات « ف ـ ١٦ » الخدمة خلال العام الحالي ، أو اوائل العام القادم ، على الاكثر . ودخول ١٢ طائرة « ف ـ ٤ فانتوم » الخدمة العملية في السلاح الجوي المصري ، في الربع الاخير من عام ٧٩ ، لا يعني شيئا بالنسبة للطيران الاسرائيلي الذي بدأ بدخل طائرات « الفانتوم » في خدمته خلال الربع الاخير من عام ٦٩ ، ابان « حرب الاستنزاف » ، والذي يمتلك منها حاليا نحو ٢٥٠ طائرة ، سوف يستبدلهـا تدريجيـا خلال النصـــف الاول من الثمانينات ، على الارجح ، بطائرات احـدث من انواع « ف ـ ١٥ » و« ف ـ ١٦ » .

وفي الوقت ذاته فان حصول السلاح الجوي المصري على طائرات « الفانتوم » لا يعني قفزة في النوعية ، أو في التكنولوجيا العسكرية المصرية ، نظرا لأن طائرات « الميغ ـ ٢٣ » تعتبر موازية على الاقل للفانتوم تقنيا وتكتيكيا ، إن لم تكن تفوقها فعليا .

ولما كانت النسبة العددية بين ما سيكون لدى الطيران المصري من طائرات « الفانتوم » ، وما لدى الطيران الاسرائيلي منها حاليا ، هي الى ٢٠ لصالح الطيران الاسرائيلي ، فان مغزى الصفقة الاميركية المذكورة لمصر هو خطوة الى الوراء بنحو ٢٠ مرة في مجال الكم ، فضلا عن انه يشكل تجميدا ، أو رجوعا الى الخلف ، في مجال النوعية . وهكذا يتأكد لنا ، وفقا للمعطيات الملموسة سالفة الذكر ، أن هدف السياسة الاميركية ـ الاسرائيلية بالنسبـة لمسألة تسليح ، أو اعادة تسليح مصر ، انما هو خفض مستوى تسلحها بدرجة كبيرة وخطيرة ، سواء من حيث الكمية أو النوعية ، بحيث ينعدم تماما أي توازن في القوى العسكرية بينها وبين اسرائيل في المستقبل المنظور .

« صفقة الطائرات الصينية لمصر »

اعلنت مصر ، على لسان رئيسها في خطاب القاه يوم ٧٩/٦/٥ ، عن صفقة اسلحة عقدت مؤخرا مع الصين الشعبية . وفي اليوم ذاته صرحت مصادر ديبلوماسية غربية في القاهرة أن الصفقة المذكورة تشمل ٦٠ طائرة « ميغ ـ ١٩ » ، وهو ما اكدته صحيفة « الاهرام » ، في عددهـا الصـادر يوم ٧٩/٦/٦ ، مضيفة أن الطائرات الصينية الصنع من طراز « ميغ ـ ١٩ » ستشترك في العـرض العسكري الذي سيقام في ٦ تشرين الاول (اكتوبر) المقبل ، بمناسبة ذكرى حرب ١٩٧٣ . واوضحت الصحيفة المذكورة ، نقلا عن مصادر غربية ، أن مصر ستتلقى ٦٠ طائرة على الاقل كهديـة من الصين ، الى جانب صفقة اسلحة تشمل مدافع ومعدات حربية اخرى .

وقد صرح اللواء محمود شاكر ، قائد السلاح الجوي المصري ، يوم ٧٩/٦/٦ بأن سلاحه يملك طائرات مقاتلة مصنوعة في الصين سلمت حديثا الى مصر ، ولم يوضح نوعية هذه الطائرات بدقة . والمعروف أن الصين انتجت طائرات مقاتلة سوفييتية الطراز ، مع ادخال بعض التعديلات المحدودة عليها احيانا ، من انواع « الميغ ـ ١٧ » و« الميغ ـ ١٩ » و« الميغ ـ ٢١ » . ولكن الطائرة الاكثر انتاجا في الصين هي « الميغ ـ ١٩ » ، إذ انتج منها اكثر من ٤ آلاف طائرة منذ العام ١٩٥٩ حتى الآن . على حين انتج من « الميغ ـ ١٧ » نحو الف طائرة حتى منتصف العام ١٩٦٠ ، حيث توقف انتاجها . أما النسخة الصينية من « الميغ ـ ٢١ » فقد انتجت منها كميات محدودة للغاية ، واوقف انتاجها في العام ١٩٧٥ . ولذلك فنحن نرجح أن تكون صفقة الطائرات الصينية لمصر مؤلفة اساسا من طائرات « ميغ ـ ١٩ » ، المعروفة باسم « شين يانغ ف ـ ٦ » . وهي طائرة مقاتلة مزودة بمحركين نفاثين تبلغ قوة دفعهما معا ٦٥٠٠ كلغ ، وتصـل سرعتهـا القصوى الى نحو ١٤٥٢ كلم/ساعة ، على ارتفاع عشرة آلاف متر ، ويبلغ مداها القتالي حوالي ٦٨٥ كلم . وهي مسلحة بثلاثة مدافع عيار ٣٠ مم لكل منها ٧٠ طلقة ، ويمكنها أن تحمل صاروخين جو ـ جو قصيري المدى ، كما يمكنها أن تحمل قنبلتين زنة الواحدة منها ٢٥٠ كلغ ، بالاضافة الى خزاني وقود اضافي ، وذلك في حالة قيامها بمهمة قصف ارضي .

وقـد سبـق لمصر أن حصلـت من الاتحـاد السوفييتي ، منذ العام ١٩٥٩ ، على نحو ٨٠ طائرة « ميغ ـ ١٩ » ، لمواجهة طائرات « سوبر ميستير ٢ ب » الفرنسية الصنع ، التي حصلت عليها اسرائيل وقتئذ . وقد خرجت « الميغ ـ ١٩ » عمليا من خدمة

السلاح الجوي المصري عقب حرب ٦٧ ، التي دمرت خلالها نحو ٣٠ طائرة (وفقا للتقديرات الاسرائيلية) . وقد اثبتت « الميغ ـ ١٩ » ، الصينية الصنع ، والتي حصلت منها باكستان على نحو ٩٠ طائرة ، قدرة جيدة في القتال الجوي المتلاحم « قتال المهارشة » ، خلال الحرب الهندية ـ الباكستانية عام ١٩٧١ . ولكن « الميغ ـ ٢١ م ف » الهندية تفوقت عليها ، نظرا لتمتعها بسرعة اكبر ، وقدرة قتالية افضل واحدث ، رغم تقارب قدرة الطائرتين في معدل نسبة قوة الدفع الى الوزن (وهو احد عوامل قدرة الطائرة المقاتلة على المناورة ، بالاضافة الى قدرة التسلق وقدرة التسارع ، ومدى قصر شعاع الالتفاف الانثني للطائرة على مختلف الارتفاعات) ، وفي المدى القتالي . فالميغ ـ ٢١ المذكورة تصل سرعتها القصوى الى ٢٢٣ كلم ، وتتسلح بمدفعين احدث من عيار ٢٣ مم ، فضلا عن ٤ صواريخ جو ـ جو قصيرة المدى . وتستطيع أن تحمل ١٥٠٠ كلغ من القنابل ، بالاضافة الى خزان وقود اضافي ، وذلك في حالة قيامها بمهمة قصف ارضي . وهناك طراز معدل من « الميغ ـ ١٩ » الصينية ، يعرف بأسم « شين يانغ ف ـ ٩ » ، انتجت منه كميات محدودة ، ادخلت عليه تطويرات تتعلق بقوة المحركات التي اصبحت قوة دفعها ٧٥٠٠ كلغ ، ومن ثم زادت السرعة القصوى للطائرة الى نحو ١٦٠٠ كلم/ساعة على ارتفاع عال . ويبلغ مداها القتالي في حالة القيام بمهام الاعتراض الجوي نحو ٧٠٠ كلم . أما في حالة قيامها بمهمة قصف جوي ، وحملها نصف طن من القنابل وخزاني وقود اضافي ، وتحليقها على ارتفاع عال ـ منخفض ـ عال ، فأن مداها القتالي يبلغ نحو ٧٩٠ كلم . واقصى حمولة لها من القنابل تصل الى ١,٥ طن . كما أن معداتها الكترونية بعض الشيء ، بحيث يكون رادارها قادرا على الكشف والعقب ، على مسافة ٢٠ كلم و ١٢ على التوالي . على خلاف النوع الاصلي من « الميغ ـ ١٩ » المجهزة برادار كشف عن الهدف فقط ، ومن ثم اصبح النوع المعدل « ف ـ ٩ » له قدرة القيام بقتال جوي ليلي ، أو في اجواء عدم الرؤيا النهارية الواضحة . ورغم تقارب هذه الطائرة مع « الميغ ـ ٢١ م ف » في قدرات المدى والحمولة القتالية ، غير انها اضعف منها في السرعة والقدرة على المناورة . أما قدراتها بالنسبة للجيل الثالث من الميغ ـ ٢١ المسمى « بيس » فهي اقل بكثير ، وذلك في الوقت الذي تتفوق فيه الاخيرة على طائرات « الكفير » الاسرائيلية ، وتتقارب الى حد لا بأس به مع قدرات الـ « ف ـ ١٦ » .

وفي النتيجة الاخيرة لا تشكل طائرات « الميغ ـ ١٩ » الصينية ، بنوعيها الاصلي والمعدل ، أي تطوير نوعي لقدرات السلاح الجوي المصري ، بل تعد خطوات ثلاث الى الوراء من الناحية التقنية (باعتبار أن « الميغ ـ ٢١ م ف » تعد خطوة و« الميغ ـ ٢١ بيس » خطوة ثانية و« الميغ ـ ٢٣ » و« الميغ ـ ٢٧ » خطوة ثالثة) في مجال علاقات القوى الجوية مع اسرائيل . ولكنها لا شك تعد اداة صالحة للمعارك ضد القوى الاخرى ، التي قد يضطر الطيران المصري الى القتال ضدها في افريقيا مثلا ، تمشيا مع متطلبات عدم التدخل الاميركي المباشر ضد حركات التحرر الوطني . مثلها في ذلك مثل طائرات « ف ـ ٥ إي تايغر ٢ » الاميركية ، التي لا تصلح على أي نحو للتعدي للطائرات الاسرائيلية من انواع « الفانتوم » أو « الكفير » أو « ف ـ ١٥ » (أو « ف ـ ١٦ » في المستقبل القريب) . ولكنها تصلح للقتال ضد العصابات ، أو الدول الضعيفة التي لا تملك طائرات قتال حديثة متطورة .

« الولايات المتحدة تحصل على طائرتي ميغ ـ ٢٣ »

وفقا لما نشرته « ارمد نورتزجورنال انترناشيونال » الاميركية ، في ٧٩/٦/٧ ، حصل السلاح الجوي الاميركي مؤخرا على طائرتين مصريتين من طراز « ميغ ـ ٢٣ » سوفييتية الصنع . وبدأ الطيارون الاميركيون في التدرب عليها ، كجزء من تدريباتهم العملية على خوض المعارك الجوية ضد الطائرات السوفييتية . واذا صحت هذه الانباء ، فانها تشكل خرقا واضحا لمتطلبات الامن القومي العربي ، فضلا عن متطلبات الديبلوماسية ، واصول التعامل بين الدول المصدرة للسلاح وتلك المستوردة له . ذلك لأن الاسلحة الجوية العربية لكل من سورية والعراق وليبيا والجزائر تضم اعدادا متزايدة من طائرات « الميغ ـ ٢٣ » ، وطرازها المعدل الخاص بعمليات الهجوم الارضي المسمى « ميغ ـ ٢٧ » . وتسرب اسرار طائرات « الميغ ـ ٢٣ » و« الميغ ـ ٢٧ » الى الولايات

المتحدة الاميركية يعني تسربها الى اسرائيل بعد ذلك .

لانه بغض النظر عن العلاقات الخاصة القائمة بين الدولتين ، فأن هناك علاقات تبادل خاصة بالمعلومات العسكرية التي تحصل عليها اي منهما بالنسبة للاسلحة السوفييتية ، التي تستخدمها الدول العربية . وقد تمثلت هذه العلاقات في قيام اسرائيل بتسليم الولايات المتحدة الاميركية نماذجا من الاسلحة السوفييتية التي وقعت بعضها كغنائم في ايديها خلال حرب ١٩٧٣ ، مثل دبابات « ت – ٦٢ » وعربات قتال المشاة المدرعة « ب م ب –١ » .

وصواريخ « سام – ٦ » الخ ، واجرت القوات الاميركية تدريبات عملية عليها ، اوردت عنها المجلات العسكرية الدولية اخبارا ومعلومات وصورا عدة . ومن ثم كان المنطقي تماما أن يحصل الطيارون الاسرائيليون على تدريبات ، أو معلومات مفصلة عن الطائرة المقاتلة الاكثر تطورا لدى الاسلحة الجوية العربية المذكورة ، وتتوفر لديهم بذلك فرصة افضل من الطيارين العرب الذين لم يحصلوا على مثل هذه المعلومات الكاملة عن طائرات « ف – ١٥ » ، أو « ف – ١٦ » ، أو حتى « الكفير » . والجدير بالذكر أن لكل طائرة ، مهما عرف عنها من معلومات او تقديرات منشورة أو عبر وسائل التجسس المختلفة . جانبا خاصا اكثر دقة واهمية وحساسية بالنسبة لمزاياها التقنية وقدراتها التكتيكية ، لا يعرف إلا عند الحصول على نموذج سليم لها . وذلك مثلما حدث بالنسبة لطائرات الجيل الاول من « الميغ – ٢١ ب ف » ، التي حصلت اسرائيل على واحدة منها عام ١٩٦٦ بواسطة طيار عراقي هرب بطائرته اليها . وقد تدرب العديد من الطيارين الاسرائيليين على الطائرة المذكورة ، وتعرفوا على مزاياها وجوانبها الضعيفة الخفية قبيل نشوب حرب ١٩٦٧ . وكان لذلك اثره على الاشتباكات الجوية المحدودة التي جرت اثناء هذه الحرب ، أو تلك التي جرت في خلال العام ١٩٨٠ خلال حرب الاستنزاف ، قبل أن تصل طائرات الجيل الثاني من « الميغ – ٢١ م ف » . ولذلك فأن عبئا جديدا يلقى اليوم على كاهل طياري « الميغ – ٢٣ » العرب ، يتمثل في ضرورة استيعابهم الجيد لقدراتها وتطوير تكتيكاتهم القتالية ضد طائرات العدو الاسرائيلي ، الذي سيصبح قريبا على علم دقيق بمقدرات طائراتهم المذكورة .

« السفن الحربية الاسرائيلية تعبر قناة السويس »

في يوم ٧٩/٥/٢٩ عبرت قناة السويس ، تنفيذا لشروط معاهدة « السلام » المصرية – الاسرائيلية ، ٣ سفن حربية اسرائيلية قادمة من « شرم الشيخ » في مدخل خليج العقبة ، وهي سفن انزال دبابات تحمل اسماء « اشدود » و« عسقلان » و« اشزيف » ، كانت تعمل في منطقة خليج العقبة ، وخليج السويس ، والبحر الاحمر ، استنادا الى قاعدتها الرئيسية في « ايلات » . وكانت كل سفينة منها تحمل ٢٤ شاحنة عسكرية ، بالاضافة الى طاقمها البحري المؤلف من ٣٥ ضابطا وبحارا .

ولا شك في أن هذه الخطوة ، التي سبقتها خطوة عبور سفينة شحن اسرائيلية غير حربية اسمها « اشدود » يوم ٧٩/٤/٣٠ ، تحمل في طياتها أحد المكتسبات الاستراتيجية الهامة التي حققتها اسرائيل في معاهدة « السلام » مع مصر ، والتي سيكون لها تأثيرها في ميزان القوى البحري ، مستقبلا ، بين اسرائيل وبقية الدول العربية الرافضة عقد معاهدات مماثلة مع اسرائيل .

ذلك لان حرية مرور السفن الحربية الاسرائيلية عبر قناة السويس ، ستتيح للبحرية الاسرائيلية امكانات حركة ومناورة اوسع بقوتها البحرية عبر البحرين الابيض المتوسط والاحمر ، على خلاف الوضع السابق ، حين كانت البحرية المذكورة تضطر الى تخصيص قوتين منفصلتين في كل من البحرين الابيض والاحمر ، مع كل ما يرتبه ذلك من مشكلات لوجستيكية وتكتيكية ، خاصة من حيث عدم توفر قدرة تعزيز أي منهما اثناء العمليات الحربية ، نظرا لاضطرار القطع البحرية الى قطع طريق بحري طويل ، يمر حول القارة الافريقية باكملها عبر « رأس الرجاء الصالح » ومضيقي « باب المندب » و« جبل طارق » للانتقال بين قواعدها ومسارح عملياتها في كل من البحرين الابيض والاحمر ، عدا زوارق « دبور » الخفيفة التي يمكن نقلها فوق شاحنات برية بين مرافيء البحرين المذكورين .

الامر الذي سيترتب عليه زيادة قدرة البحرية الاسرائيلية على تهديد الدول العربية المطلة على البحر الاحمر ، وتلك المطلة على خليج « عدن » وبحر العرب ، الامر الذي يجب أن يدخل في الحسابات

الاستراتيجية للدول المذكورة ، بعيدا عن حساباتها القديمة المستندة على قوة مصر البحرية ، واغلاق قناة السويس في وجه البحرية الاسرائيلية .

« الهجمات والتحليق الجوي الاسرائيلي فوق لبنان » .

مع استمرار الحرب الفلسطينية ـ الاسرائيلية داخل الارض المحتلة في فلسطين ، وفوق ارض جنوب لبنان ، والتي كان من ابرز معالمها من الجانب الفلسطيني استمرار الضربات الفلسطينية قرب تل ابيب ، وفي القدس ، والخليل ، وطبرية ، ومحاولة القصف من البحر قرب رأس الناقورة ، استمر الطيران الاسرائيلي في غاراته الجوية ضد مختلف قرى ومواقع الجنوب اللبناني ، طوال النصف الثاني من ايار (مايو) والنصف الاول من حزيران (يونيو) ١٩٧٩ . وكان أبرز هذه الغارات تلك الغارة التي شنتها ٨ طائرات اسرائيلية على بلدتي « الدامور » و« حارة الناعمة » القريبتين من « بيروت » جنوبا ، يوم ٢٣/٥/٧٩ ، والتي ذهب ضحيتها عشرات القتلى والجرحى ، والحقت اضرار مختلفة خلالها بالمنازل والمعامل . وقد وصلت الطائرات ، ضمن تشكيليين يتألف كل منهما من ٤ طائرات ، وذلك على ارتفاع نحو ٢٠ الف قدم ، فوق الهدف ، ثم انقض التشكيل المهاجم (وبقي التشكيل الآخر في تأمين الحماية الجوية) الى ارتفاع يتراوح بين ٥ و٦ آلاف قدم حيث القى قنابله واطلق صواريخه ومدافعه ، على الاهداف المنتقاة وفقا للصور الجوية السابقة ، والتحليق السابق للانقضاض على ارتفاع عال ، وذلك لتتجنب الدفاعات الارضية المضادة للطائرات ، المؤلفة اساسا من رشاشات ثقيلة عيار ١٢,٧ مم ومدافع خفيفة من عيار ١٤,٥ مم و٢٠ مم و٢٣ مم و٣٧ مم وجميعها من الانواع غير الموجهة بالرادار ، ولا يزيد اقصى مدى فعال لها عن ٦ أو ٧ آلاف قدم . وكذلك لتجنب صواريخ « سام ـ ٧ » قصيرة المدى التي تستخدم احيانا ضد الطائرات الاسرائيلية .

وبالاضافة الى قصف « الدامور » والعديد من قرى ومواقع الجنوب فقد قام الطيران الاسرائيلي ، طوال الشهر الماضي تقريبا، بطلعات جوية شبه يومية فوق بيروت ومناطق عدة في لبنان ، على ارتفاعات متوسطة وعالية ، لتجنب فاعلية الدفاعات الارضية وازعاجها ، وتوتير الجو النفسي للمواطنين وقوات الردع في الوقت ذاته ، تمشيا مع سياسة الحرب المستمرة ضد الثورة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية ، التي تشكل الحرب النفسية احد اسلحتها الرئيسية .

« المعركة الجوية بين الطيران السوري والاسرائيلي »

جرت في سماء الجنوب اللبناني يوم ٢٧/٦/٧٩ اول معركة جوية بين الطيران السوري والاسرائيلي منذ العام ١٩٧٤ ، حين وقعت آخر معركة جوية بين الطرفين في ٢٩ نيسان (ابريل) من العام المذكور قبل شهر من توقيع اتفاق الفصل بين القوات على الجبهة السورية ، الذي اعقبه وقف اطلاق النار بين القوات السورية والاسرائيلية على جبهة الجولان حتى الآن .

وقد وقعت المعركة الجوية الاخيرة في حوالي الساعة ١١,٣٠ من اليوم المذكور ، حين تصدى تشكيل مؤلف من سربين من المقاتلات السورية « الميغ ـ ٢١ المعدلة » (من طراز « م ف » على الارجح) ، كل منهما يضم ٤ طائرات ، لتشكيلات تضم ٨ طائرات اسرائيلية من طراز « ف ـ ٤ فانتوم » كانت تغير على منطقة « الدامور » وعند اقتراب المقاتلات السورية الثماني من الطائرات المغيرة تصدت لها ، من ارتفاعات منخفضة ، نحو ٨ طائرات مقاتلة اسرائيلية من طراز « ف ـ ١٥ » ، تعاونها نحو ٦ مقاتلات اخرى من طراز « كفير » ، شكلت جميعا قوة تأمين الحماية الجوية للتشكيلات المغيرة ، التي انسحبت من ساحة المعركة الجوية عند بدئها .

وقد جرت المعركة المذكورة اساسا بأسلوب القتال الجوي التلاحمي « dog Fight » ، واستخدمت فيه الصواريخ جو ـ جو بصورة رئيسية بالاضافة لنيران المدافع الآلية المسلحة بها الطائرات . وفي الوقت ذاته لم تتوقف نيران الدفاعات الارضية التابعة للمقاومة الفلسطينية والقوى الوطنية اللبنانية ، والتي ضمت رشاشات ثقيلة ومدافع آلية وصواريخ ارض ـ جو من طراز « سام ـ ٧ » .

وقد اسفرت المعركة الجوية ، التي جرى خلالها اشتباكان استغرق كل منهما ٢ ـ ٣ دقائق ، عن اسقاط ٣ طائرات سورية بنيران الطائرات

الاسرائيلية . كما اصيبت طائرة سورية رابعة بصاروخ ارضي ، وتمكن قائدها من الهبوط بها في مطار « ابلح - برياق في سهل البقاع اللبناني . وذلك مقابل طائرة اسرائيلية من طراز « ف ــ ١٥ » . اكد احد الطيارين السوريين انه اسقطها في البحر (وهو احد الطيارين الذين اسقطت طائراتهم . ومن ثم لا تتوفر الصور الجوية المثبتة لقوله والتي تلتقطها الكاميرا المثبتة عادة في مقدمة كل طائرة مقاتلة) . وذلك وفقا للبلاغ السوري . اما البلاغ الاسرائيلي فقد حدد خسائر الطرف السوري بسقوط ٥ طائرات سورية ونفى سقوط اي طائرة اسرائيلية .

ونحن نرجح صحة البلاغ السوري ، الذي اثبتته عدة شواهد منها حطام الطائرات والعثور على الطيارين احياء ، ومن ثم وان نتيجة المعركة على المستوى التكتيكي تعتبر لا بأس بها في اول مواجهة بين الطائرات السورية « ميغ ــ ٢١ م ف » والاسرائيلية « ف ــ ١٥ ايغل » . حتى لو كانت النتيجة ٢ الى صفر . ذلك لأن الطائرة « ف ــ ١٥ » تعد احدث المقاتلات الاميركية العاملة حاليا ، وهي معتبرة الطائرة المقاتلة الرئيسية للثمانينات والمصممة اصلا لمواجهة « الميغ ــ ٢٥ » السوفييتية . ولذلك استخدمتها القيادة الجوية الاسرائيلية ، وبطريقة مفاجئة للقيادة الجوية السورية (عن طريق ادخالها المعركة من ارتفاعات منخفضة) . في اول معركة جوية منذ العام ٧٤ كي تحرز بها نصرا تكتيكيا كبيرا يثبت تفوق الطيران الاسرائيلي ، ويكون له تأثيره المعنوي على الطيران السوري والجماهير العربية ، من حيث التشكيك في قدرة التصدي العسكري العربي للقوة العسكرية الاسرائيلية المتطورة . والطائرة « ف ــ ١٥ » هي مقاتلة تفوق جوي ذات مقعد واحد ، وذات مهام متعددة في جميع الاحوال الجوية . تشمل مهام

المطاردة والاعتراض والقتال الجوي المتلاحم والقصف التكتيكي . وقد حلق نموذجها الاول في ١٩٧٢/٧/٢٧ . وبدأت تدخل الخدمة العملية في السلاح الجوي الاميركي في تشرين الثاني (نوفمبر) ١٩٧٤ . وقد حصلت اسرائيل منها حتى الآن على ٢٥ طائرة ، منها طائرتين ذات مقعدين لاغراض التدريب ، بثمن اجمالي يشمل قطع الغيار والتدريب يبلغ ٦٠٠ مليون دولار . ومن المتوقع ان تحصل على ١٥ طائرة اخرى منها ، ضمن صفقة الطائرات الثلاثية الشهيرة التي شملت مصر والسعودية (الاولى ٥٠ طائرة « ف ــ ٥ » والثانية ٦٠ طائرة ف ــ ١٥ ») ، والتي ستحصل فيها اسرائيل على ٧٥ طائرة اخرى من طراز « ف ــ ١٦ » . (راجع شهريات العدد ٧٧ من شؤون فلسطينية) . وقد بدأ الطيران الاسرائيلي في تسلم الدفعة الاولى من طائرات « ف ــ ١٥ » في اواخر العام ١٩٧٦ . ومن المنتظر ان يستكمل صفقة الـ ١٥ طائرة اخرى من الطراز نفسه في العام ١٩٨٢ .

وتبلغ قوة دفع كل من محركي الطائرة « ف ــ ١٥ » ١٠,٨٠٠ كلغ ــ ضغط مع الحارق الخلفي عند تشغيله . ويبلغ وزنها العادي في مهمات المطاردة (اي مع تسليمها بثماني صواريخ جو ــ جو وعدم حملها لخزانات وقود اضافي) نحو ١٨,٨٢٥ كلغ (وهي الحالة التي كانت عليها غالبا خلال المعركة الاخيرة نظرا لعدم حاجتها لزيادة مدى عملها المعتاد وهو ٤٥٠ كلم) . اي ان معدل قوة الدفع الى الوزن يبلغ ١,١٥ كلغ دفع الى كل كلغ وزن . الامر الذي يوفر للطائرة قوة تسارع وقدرة اكبر على المناورة . وهناك عوامل اخرى تساعدها على المناورة بصورة جيدة . اذ يبلغ معدل التفافها الاقصى ١٢,٥ درجة في الثانية ، وشعاع التفافها الادنى ٤٥٠ مترا . وقدرة تحملها الجانبية ٩ اضعاف جانبية الارض . وتبلغ سرعتها القصوى على ارتفاع عال ٢٦٥٠ كلم/ساعة . واقصى سرعة قتالية لها على ارتفاع عال ٢١٢٥ كلم/ ساعة . وهي مسلحة بمدفع آلي عيار ٢٠ مم « سداسي الفوهات » له ٩٥٠ طلقة . بالاضافة الى ٤ صواريخ جو ــ جو بعيدة المدى (٢٥ ــ ٣٠ كلم) من طراز « سبارو » و٤ صواريخ قصيرة المدى (٥ ــ ٧ كلم) من طراز « سوبر سايدوندر » . وذلك في حالات المطاردة والقتال الجوي ، اما في حالة القصف التكتيكي فيمكنها ان تحمل ما مجموعه ٥٤٥٠ كلغ من القنابل والصواريخ . ويختلف مداها القتالي وفقا لنوعية مهمتها وحجم حمولتها من القنابل وخزانات الوقود الاضافي . ولكن مداها النموذجي (١٨١٥ كلغ + ٤ صواريخ + خزان وقود اضافي مع تحليق عال ــ منخفض ــ عال) يبلغ ١١٢٥ كلم . وهي مزودة بمعدات الكترونية متطورة وجهاز رادار بعيد المدى .

اما « الميغ ــ ٢١ م ف » ، فهي ايضا مقاتلة متعددة المهام . ومزودة بمحرك واحد قوته ٦٦٠٠ كلغ ، ووزنها العادي ٨٢٠٠ كلغ . ونسبة قوة الدفع

الى الوزن في حالة المطاردة ٠,٨٠ كلغ دفع لكل كلغ وزن . وتبلغ سرعتها القصوى على ارتفاع عال ٢٢٢٥ كلم/ساعة ، وسرعتها القتالية ١٧٠٠ كلم على ارتفاع عال . وهي مسلحة بمدفع الي السبطانة من عيار ٢٣ مم ، بالاضافة الى ٤ صواريخ جو ــ جو قصيرة المدى . وهي ذات قدرات جيدة على المناورة ، ولكنها ليست على مستوى الـ « ف ــ ١٥ » ، الاحدث تقنيا ، في هذا المجال . كما ان رادارها يبلغ مداه في التعقب والمطاردة نحو ٢٥ كلم فقط ، اي نحو نصف مدى رادار الـ « ف ــ ١٥ » في الحالة المماثلة ، وضمن منظور هذه المقارنة التقنية الموجزة بين الطائرتين ، تتضح لنا ابعاد النتائج التكتيكية للمعركة الجوية ، التي عبرت في بعدها الاستراتيجي عن قرار سوري بالتصدي للعدوان الاسرائيلي المستمر على لبنان . وهو قرار متخذ ، بالنسبة لمناطق وسط وشمال لبنان على الاقل ، منذ ان بدأ التحليق السوري فوق المناطق المذكورة في ٢٥/ ٤/ ٧٩ ، حين حلقت ٣ طائرات من طراز « سوخوي ــ ١٧ » ، فوق « بيروت » واعقبتها بعد ذلك في ايام مختلفة ومتكررة طائرات سورية اخرى من طراز « ميغ ــ ٢١ » و« ميغ ــ ٢٣ » (راجع شهريات العدد ٩١ من شؤون فلسطينية) .

محمود عزمي

---

(١) صحيفة النهار ، عدد ١٨/٦/٧٩ ، ص ١٢ .
(٢) صحيفة النهار العربي والدولي ، العدد ١١١ ، ١٨/٦/٧٩ ، ص ٩ .

Palestine Affairs

No. 92/ 93 July/ August, 1979

Published monthly in Arabic by the Palestine Research Center
P. O. Box 1691, Beirut, Lebanon (Tel. 351260, Cables : MARABHATH).

Editor : Mahmoud Darwish

Annual Subscription

Air Mail : Lebanon and Syria - L. L. 60 ($ 24) ; other Arab countries - L. L. 75 ($ 30) ; Europe - L. L. 100 ($ 40) ; elsewhere - L. L.125 ($ 50) .

Surface Mail : L. L. 65 ($ 26) .

سعر هذا العدد المزدوج : ١٠ ل.ل. في لبنان
١٢ ل.س. في سوريا
١٣٠٠ فلس في الكويت والعراق
٢٠درهما في دولة الامارات
١٢ ل.ل. في سائر الاقطار العربية
١٥٠٠ درهم في ج.ع.ل.
١٥ درهما في المغرب